ليس فيها ماء ، ولا دم ، ولم يعد إلا أن تفيض العين على الخد ، وذلك إظهار لشدة الحزن في القلب ، وهذا المجاهد لا لوم عليه ولا ذنب ؛ لأنه فعل ما فى وسعه وما فى طاقته وعبر عن ذلك بحرقة مواجيده على أنه لم يكن من أهل الجهاد .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾

هناك قال سبحانه : ﴿ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ﴾ الذين كانت لهم أعذارهم فى التخلف عن الجهاد ، ولكن كانوا محسنين فى تخلفهم هذا فقال تعالى : ﴿ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ . إذن : فعلى من يكون السبيل ؟

وهنا تأتى إجابة الحق سبحانه : ﴿ **إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ** ﴾ .

أى : أن طريق الإثم واللوم والتعنيف والتوبيخ إنما يتجه إلى هؤلاء الأغنياء الذين استأذنوا فى أن يقعدوا عن القتال ، ونعلم أن الغنى إذا أطلق ينصرف إلى غنى المال ، ولكن الغنى إذا جاء بالمعنى الخاص ، يكون معناه ما يدل عليه النص . فالذى لا يجد ما ينفقه أعْفىَ . إذن : فمن يجد ما ينفقه فهو غنىّ بطعامه . والضعيف قد أعْفىَ ، إذن: فالقوىّ غنىّ بقوته . والمريض أعْفىَ ، إذن : فالصحيح غنىّ بصحته . ومن لا يجد ما ينقله إلى مكان الجهاد فقد أعْفىَ ، إذن : فمن يملك راحلة فهو غنىّ براحلته .

وعلى ذلك لا تأخذ كلمة « الغنى » على المال فقط ، بل انظر إلى من تنطبق عليه شروط الجهاد ؟ إذن : فاللوم والتوبيخ والتعنيف والإثم على الأغنياء بهذه الأشياء ، وطلبوا أن يقعدوا عن الجهاد.

ولسائل أن يقول : ولماذا يستأذنون وهم أغنياء ؟

نقول : لأنهم منافقون ، وقد وضعهم نفاقهم في موضع الهوان ، حتى قال الحق سبحانه وتعالى عنهم : ﴿ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ ﴾ ومن يَرْضَ أن يكون وضعه مع الخوالف ، فهو يتصف بدناءة النفس وانحطاط الهمة ؛ فهم رضوا أن يُعاملوا معاملة النساء ، والخوالف - كما نعلم - جاءت على مراحل ، فهم قالوا:

﴿ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ الْقَاعِدِينَ (٨٦) ﴾ [التوبة]

وقلنا من قبل : إن القعود مقابل للقيام ، والقيام من صفات الرجولة ؛ لأن الرجل قَيِّم على أهله . والقعود للنساء ، والخوالف ليست جمع خالف ، وإنما هى جمع « خالفة » ، ولا يجمع بها إلا النساء ، وكذلك كلمة « القواعد » يقول سبحانه:

﴿ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ ... (٦٠) ﴾ [النور]

أى: أنهم ارتضوا لأنفسهم دناءة وخسة ؛ فتنازلوا عن مهام الرجال ، وارتضوا أن يكونوا مع النساء هرباً من القتال ، والشاعر يقول:

وَمَا أَدْرِى ولسْتُ إخَالُ أدْرى أقَومٌ آلُ حِصْنٍ أمْ نِسَاءُ

أى : « القوم » فى مقابل « النساء » .

ثم يعلمنا الحق سبحانه وتعالى بعقابهم ، فيقول : ﴿ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

وفى الآية السابقة يقول سبحانه : ﴿ **وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَفْقَهُونَ** ... (٨٧) ﴾ [التوبة]

ما الفرق بين النصين ؟

إذا رأيت فعلاً تكليفياً مبنياً للمجهول ، كقوله تعالى: ﴿ **كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ** ... (٢١٦) ﴾ [البقرة]

وقوله سبحانه : ﴿ **كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ** ... (١٨٣) ﴾ [البقرة]

قد يقول قائل : كان المفروض أن يقال : « كتب الله عليكم القتال» و « كتب الله عليكم الصيام » ، لأنه صار أمراً لازماً مفروضاً ، فكان الأولى أن يقول : كتب الله ، أى أن الذى يفرض هو الله. رغم أن الحق سبحانه هو الذى يكلف ، إلا أن كل التكليفات تأتى بصيغة المبنى للمجهول كقوله تعالى : ﴿ **كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَىٰ بِالأُنثَىٰ** ... (١٧٨) ﴾ [البقرة]

وقوله سبحانه : ﴿ **كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ** ... (١٨٠) ﴾ [البقرة]

والسبب فى ذلك أن الله سبحانه وتعالى لم يكلف كافراً بأى تكليفات إيمانية ؛ فسبحانه لم يكلف بأى حكم من أحكام الإيمان إلا من آمن به وأسلم له ؛ لذلك فعندما يخاطب سبحانه بالتكليف يقول: ﴿ **يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ** ... (١٧٨) ﴾ [البقرة]

ومن هذا نعلم أنه سبحانه لم يكتب فرضاً أو مهمة على من لم يؤمن ، والإنسان يدخل فى الإيمان باختياره ، فإذا دخل فى الإيمان كتب الله عليه . إذن : فالإيمان هو مدخل الفريضة . وما دُمْتَ قد آمنتَ فقد أصبحتَ طرفاً فيما فرضه الحق سبحانه وتعالى عليك ؛ لأنك لو لم تؤمن

فليست عليك فرائض ، إذن : فأنت الذى ألزمتَ نفسك بحكم الله ؛ لأنك آمنت به إلهاً خالقاً معبوداً . وبإيمانك أنت ؛ فرض الله عليك ، فأنت طرف فى كل فريضة عليك . ورغم أنه سبحانه وتعالى هو الذى فرض ، فقد أحبَّ فيك أنك دخلْتَ فى نطاق التكليف بإيمانك ؛ فبنى الفعل للمجهول .

وإذا جئنا إلى قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ نجد أن الحق يلفتنا هنا إلى أن المنافقين هم الذين جلبوا لأنفسهم هذا الطبع على القلوب ؛ لأنهم وضعوا فى قلوبهم الكفر ، ثم أخذوا يتحدثون بألسنتهم عن الإيمان ، ويحاولون خداع المؤمنين ، ويخادعون الله ؛ فأراد الله سبحانه وتعالى أن يوضح لهم : مادمتم قد اخترتم النفاق والكفر فى قلوبكم ؛ فسنطبع على هذه القلوب ، ونختم عليها حتى لا يخرج الكفر منها ولا يدخل إليها الإيمان .

فسبحانه وتعالى - إذن - هو الذى طبع على قلوبهم ، ولكن بعد أن ملأوا قلوبهم بالكفر ونافقوا ، وهم الذين تسببوا بهذا الطبع لأنفسهم ، بعد أن بدأوا بالكفر ، فطبع الحق سبحانه وتعالى على قلوبهم بما فيها من مرض ، ولو لم يبدأوا بالكفر لما طبع الله على قلوبهم ؛ ولهذا جاء الفعل مبنيّاً للمجهول ، فهم مشتركون فيه .

أما الآية التى نحن بصددها فيقول تعالى :

﴿ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ وساعة ينسب الطَّبْع إلى الله يكون أقوى طبع على القلوب ، ويأتى الطبع من الله سبحانه وتعالى كحكم نهائى من أن الله قضى عليهم به ، فلا يخرج من قلوبهم ولو كان قدراً ضئيلاً من النفاق ، ولا تغادر قلوبهم ذرة من كفر ، ولا يتسرب إلى قلوبهم ذرة من إيمان ؛ لأنهم لا يعلمون قدر الإيمان الحق ، والإنسان قد لا يفهم شيئاً ، أى : لا يفقهه . ولكن قد يفهمه غيره ويعلمه هو عنه .

لذلك فنفْى الفقه أو الفهم لا ينفى العلم ، ولكن حين ينفى العلم فهو ينفى الفهم عن الذات ، وينفى الفهم عن الغير ، ولذلك حين يقال : ﴿ لاَ يَفْقَهُونَ ﴾ أى : لا يفهمون بذواتهم ، ولكن قد يتعلمون العلم من غيرهم. أما إذا قلنا : ﴿ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ فالمقصود أنهم لا يفهمون ولا يتعلمون. إذن : نفى العلم ينسب إلى طبع الله على قلوبهم ، أما نفى الفقه فينسب نسبة عامة للفعل المبنى للمجهول .

فعندما نفى الحق سبحانه وتعالى الفقه عنهم بالفعل المبنى للمجهول أوضح أنهم بنفاقهم لا يفقهون ، ولكنه سبحانه وتعالى لم يَنْفِ احتمال أن يعلموا من غيرهم فى المستقبل . ولكن عندما قال الحق : ﴿ فَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ قد نفى عنهم - أيضاً - العلم بذواتهم ، وكذلك نفى قدرتهم على العلم من غيرهم ، وهذه أقوى أثراً ، وبذلك يكون الطبع على قلوبهم أقوى ؛ لأنهم رفضوا العلم من ذواتهم ورفضوه من غيرهم.

ولذلك نجد ﴿ لاَ يَفْقَهُونَ ﴾ فى موضع ، ونجد ﴿ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ فى موضع آخر ، وكلٌّ تناسب موقعها الذى قيلت فيه .

ثم يقول سبحانه :

﴿ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾

ومعنى «يعتذر» أى: يبدى عذراً عن شىء يُخرجه من اللوم أو التوبيخ، ويقال : « اعتذر فلان » أى : فعل شيئاً مظنة أنه ذم ، فيريد أن يعتذر عنه .

والحق هنا يقول : ﴿ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ﴾ وفى آية سابقة يقول مخاطباً النبى ﷺ :

﴿ فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ ... (٨٣) ﴾ [التوبة]

وهكذا نلاحظ أنه سبحانه حين نسب الرجوع إلى الصحابة والمجاهدين قال : ﴿ رَجَعْتُمْ ﴾ ، وعندما نسبه إلى رسول الله ﷺ قال : ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ ﴾ مما يدلنا على أن زمام محمد ﷺ بيد ربه وحده ، ولكن زمام أتباعه يكون باختيارهم .

وهنا يقول الحق : ﴿ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ﴾ ويأتى بعدها ذلك الرد الواضح على محاولة المنافقين فى الاعتذار : ﴿ قُل لاَّ تَعْتَذِرُوا ﴾ ، وفى هذا رد حاسم ، فأنت حين يعتذر إليك إنسان فقد تستمع لعذره ولكنك لا تقبله ، ومجرد استماعك للعذر معناه أن هناك احتمالاً فى أن يكون هذا العذر مقبولاً أو مرفوضاً . ولكن حين ترفض مجرد سماع العذر ، فمعنى ذلك ألاَّ وجه للمعذرة .

والحق سبحانه وتعالى يقول لنبيه ﷺ : ﴿ قُل لاَّ تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ ﴾ فكأنما ساعة أقبل المنافقون على رسول الله ﷺ والمؤمنين؛ وتهيأوا للاعتذار؛ وقبل أن ينطقوا بالعذر ؛ أوضح لهم الرسول عليه الصلاة والسلام: لا تعتذروا ، ورفض مجرد إبدائهم للعذر . ثم فاجأهم بالحكم فى قوله تعالى : ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ ﴾ ومادة «آمن» تدور حول عدة معان ، نقول: «آمن » أى : اعتقد وصدق مثل قولنا : « آمن بالله » ، ويقال : « آمن بالشىء » أى : صدَّقه ، و « آمن بكذا » أى : صدَّق ما قيل . والحق هو القائل:

﴿ فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ ... (٨٣) ﴾ [يونس]

وقال إخوة يوسف لأبيهم:

﴿ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ [يوسف]

أى : لن تصدقنا . وآمن إذا تعدَّتْ بالباء فمعناها الاعتقاد ، وإن تعدَّتْ باللام فمعناها التصديق ، وإن تعدت بغير الباء وغير اللام فمعناها إعطاء الأمان ، مثل قوله تعالى:

﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴿٣﴾ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾ ﴾ [قريش]

وتجىء أيضاً « آمن » و « أمن » بمعنى الائتمان ، مثل قول الحق سبحانه وتعالى على لسان يعقوب :

﴿ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ... ﴿٦٤﴾ ﴾ [يوسف]

إذن : فـ « آمن» إن تعدت بالباء فيكون معناها الاعتقاد الإيمانى ، وإنْ تعدَّتْ باللام فمعناها التصديق ، وإنْ تعدَّتْ بنفسها إلى الفعل فهى إعطاء الأمان والسلام والاطمئنان ، وإن تعدت بالمفعول أيضاً ؛ فمعناها القدرة على أداء الأمانات ، مصداقاً لقوله الحق:

﴿ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا... ﴿٧٥﴾ ﴾ [آل عمران]

وفى الآية التى نحن بصددها يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ قُل لاَّ تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ ﴾ أى: لن نصدقكم . فقد جاء المنافقون ليعتذروا بأعذار كاذبة ، ولكن رسول الله ﷺ يرفض مجرد سماع الاعتذار ، وأعلن لهم :لن نصدقكم . ولو امتلك المنافقون ذرة من ذكاء لفهموا أن رب محمد عليه الصلاة والسلام قد أخبره بكل شىء ؛ حتى بما فى قلوبهم

قبل أن ينطقوه ، ولو امتلكوا ذرة من فطنة لرجعوا عن نفاقهم ، ولدخلوا فى الإيمان ، ولكنهم لم يستوعبوا الدرس ، فجاء الحق سبحانه وتعالى بالأمر واضحاً فى قوله سبحانه : ﴿ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ﴾ فكأن المسألة ليست فراسة استنتاج ، ولكنها وحى من الله.

ثم يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ﴾ .

ما هو العمل الذى سيراه الله سبحانه وتعالى ورسوله ، بعد أن رفض رسول الله عذرهم ، وأخبرهم بأن الله قد أخبره بما يُخْفونه من كذب فى صدورهم ؟ فسبحانه العالم بالسرائر كلها ، لقد شاء سبحانه ألا يغلق أمامهم باب المرجع إليه ، وكان يجب من بعد ذلك أن يرتدعوا وأن يتيقنوا أن رب محمد ﷺ لا تخفى عليه حتى نواياهم . ومادُمْتم قد علمتم صدق محمد ﷺ فى كل ما أبلغكم به ، أصبح عليكم - إذن - أن ترجعوا وتخرجوا من دائرة النفاق لتدخلوا حظيرة الإيمان ؛ وتراكم الدنيا من بعد ذلك وقد اختلفت أعمالكم من النفاق إلى الإيمان ، أما إنْ أصررتم على ما أنتم فيه ؛ فمعنى ذلك أنكم لم تستفيدوا من العملية الإعجازية التى أنبأ الله فيها رسوله بكذبكم.

إذن : فقد فتح الله باب التوبة أمامكم رحمة منه سبحانه ، فانتهزوا هذه الفرصة ؛ لأنه سبحانه سيرى أعمالكم فى المستقبل ، وعلى أساس هذه الرؤية يرتب لكم الجزاء على ما يكون منكم.

ولذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم [1] بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾ [التوبة]

وما دام سبحانه عالم الغيب ، فمن باب أوْلى أنه عليم بعالم الشهادة .

---

(١) الأنباء : الأخبار الهامة. قال الحق: ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ﴿٦٧﴾﴾[الأنعام] -وأنبأه بالشيء ونبأه به: أخبره ، وذكر له قصته .

والغيب - كما نعرف - هو ما غاب عنك ، فلم تعرف عنه شيئاً . ولكن إنْ غاب عنك ولم يَغبْ عن غيرك فهو غَيْبٌ نسبى ؛ لأن هناك حجباً منعت عنك العلم ، والمثال : إن سُرق منك شيء فأنت لا تعرف السارق ؛ ولكن السارق نفسه يعرف ، ومن شاركه يعرف . والذى أخفى السارق عنده المسروقات يعرف . والذى ابتاع المسروقات يعرف.

إذن : فهو غيب عنك وليس غيباً على غيرك . أما الغيب المطلق فهو ما غاب عنك وعن غيرك ، وهناك من يلجأ إلى الدجالين ممن يدّعون قراءة الأفكار ، ويسمونهم المنوِّمين المغناطيسيين ، ويطلب المنوّم من أى واحد أن يُخرج ما فى جيبه من نقود وأن يقوم بعدّها ، ثم يخبره بعددها ، وإن أردت أن تكشف ألاعيبه ؛ ضع يدك فى جيبك وأخرج كمية من النقود لا تعرف أنت مقدارها، واسأله عن هذا المقدار فلن يعرف ، لماذا ؟ لأنك نقلت المسألة من غيب قد يعرفه غيرك إلى غيب مطلق.

إذن : فالغيب [١] المطلق هو ما غاب عنك عن غيرك ، وهو أيضاً ما لا تكون له مقدمات توصلك إليه ، فأنت إذا أعطيت ابنك تمريناً هندسيّاً ليحله ؛ فالحل غيب عنه ساعة يقرأ المسألة ، ثم يستخدم المقدمات والنظريات حتى يصل إلى الحل ، فكأن هناك أشياء لها مقدمات توصل إلى النتائج ، وهذه ليست غيباً ؛ لذلك لا يقال لمن اكتشف الكهرباء والذى اكتشف تفتيت الذرة أنهما علما الغيب . فقد كانت هناك مقدمات فى الكون أوصلتهما إلى كشف بعض القوانين الموجودة بالفعل ، لكنّنا لم نكُنْ نعرفها.

---

(١) الغيب: مصدر ويسمى به ما غاب واستتر . قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ۝ ﴾[البقرة].
والغيب : هو ما غاب عن العيون كالجنة والنار والملائكة والجن ، وجمعه : غيوب قال تعالى : ﴿ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ۝ ﴾ [المائدة] وهذا هو الغيب المطلق .
أما الغيب النسبى: فهو الذى يغيب عنك ولم يغب عن غيرك ، وقد تعرفه عند الإذن بميلاده .

وفى بعض التدريبات ، نجد من يضع المسألة المطلوب حلّها ، ويضع النتيجة الأخيرة بجانبها ؛ لأنه لا يهدف إلى معرفة النتيجة ، ولكنه يهدف لتعليم التلميذ كيف يصل إلى أسلوب الحل الصحيح .

ولذلك إذا أردت أن تحلّ شيئاً فى الهندسة مثلاً ، فلا بد لك من معطيات توصلك إلى الحل ؛ كأن يُطلب منك - مثلاً - إثبات أن الخطين متوازيان ، وفى هذه الحالة يجب أن تكون كل زاويتين متناظرتين متساويتين ، وكل زاويتين متبادلتين متساويتين . إذن : فأنت قد أخذت مقدمات أو معطيات أوصلتك إلى النتيجة ، وكذلك فى تساوى ضلعى المثلث أو أضلاعه ؛ يكون إثباته بتساوى الزوايا . فهل فى هذه الحالة يقال : إنك اهتديت إلى الغيب ؟ أم أنك استخدمت مقدمات أوصلتك إلى نتائج ؟

وأنت حين تبرهن على صحة النظرية المباشرة ، تقول : إن هذا يساوى هذا حسب النظرية رقم تسعة مثلاً ، وإن هذا مقابل لهذا حسب النظرية الجديدة ، وإذا وصلت فى براهينك إلى نظرية رقم واحد فهى النظرية التى لا مقدمات لها ، ولا بد أن تكون بديهية .

وهكذا نجد أن كل علم فى هذا الكون بُنى على نظريات أو مقدمات بديهية ، ثم تطورت بعد ذلك إلى اكتشاف ما أودعه الله فى كونه من أسرار[1] . أما الحق سبحانه وتعالى فهو يقول عن نفسه : ﴿ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ أى أنه سبحانه عالم بالغيْب المطلق ، الذى لا توجد له مقدمات توصلنا إليه ؛ ولذلك لا نستطيع أن نعرف الغيب المطلق ؛ لأنه ليس معروفاً

---

(١) هذه الاكتشافات التى عرفت من المقدمات والنظريات والتجارب لا يطلق عليها أنها غيب - وإن كانت غائبة قبل التعامل مع المقدمات أو التجارب ، فهذا لجهلنا بالتعامل مع العلم ، وأن ميلاد ظهورها لم يَحِنْ بعد ، فهذا بتقدير العزيز العليم .

عند البعض ، ومجهولاً عند غيرهم ، وليس له مقدمات توصلنا إليه ؛ لأنه الغيب الذى ينفرد به الحق عزّ وجلّ .

ونجد الحق سبحانه يقول :

﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ... (٢٧) ﴾ [الجن]

فسبحانه عالم الغيب المطلق ، وهو يختلف عن الغيب المستور عن البعض ، ويقول الحق عن مواعيد الكشف عن أسرار الغيب المستور :

﴿ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ ... (٢٥٥) ﴾ [البقرة]

وحين يشاء الله أن يكشف عن بعض أسرار الغيب فهو يحدد الوقت الذى يشاؤه لذلك ، وكل شىء فى الكون له ميعاد ميلاد ؛ مثل : الكهرباء ، والذرة، والوصول إلى القمر ، وغزو الفضاء ، وهذه كلها أشياء لها مواعيد ميلاد . ويبحث العلماء عنها باستخدام المقدمات . ولكنهم لا يصلون إلى سر ميلاد أى اكتشاف إلا بإذن الله حين يلفتهم إلى هذا السرّ ؛ إما بالبحث العلمى ، وإما أن يتم معرفته صدفة.

وهكذا نجد أن البشر يُحَاطون عِلْماً بهذه الأسرار بعد مقدمات وبإذن من الله.

وما دام الحق سبحانه هو عالم الغيب ؛ فيكون سبحانه عالماً بالشهادة [1] من باب أولى ، وقد يظن ظان أنه إن جلس فى مكان معزول مستور

---

(١) الشهادة : خبر قاطع ، والشاهد اسم فاعل وجمعه شُهَّد (كراكع وركَّع) وجمع الجمع : شهود أو شهود : جمع شاهد ، مثل : قاعد وقعود . والشهادة بمعنى ما يشاهد بالمدركات والوجدانيات للوصول إلى الاختيار ، ذلك عند الإنسان ، أما بالنسبة لله سبحانه فهو عالم الغيب والشهادة فهو (عَلاَّم الغيوب) لأنه خالقها فهو أعلم بغيبها وظاهرها .

ويفعل ما يريد ، فلن يشهده الله ؛ لأنه قد يفعل ما يريد دون أن يراه أحد ، لكن ذلك غير حقيقى ؛ لأن الحق سبحانه عالم الغيب والشهادة ، فلا يوجد مستور عنه فى هذا الكون ، فلا الغيب يغيب عن علمه ، ولا العالم المشهود يغيب عن علمه .

وما دام قد جاء الحق هنا بقوله : ﴿ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ فلا بد أن يأتى بعدها ﴿يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أى : يخبركم مقدماً بجزاء ما ستفعلونه من خير أو شر حتى لا يقول أحد : إنه لم يكن يعرف ، أو أنه لو علم أن فعله يؤدى إلى الشر لما فعل ؛ وحتى يكون كل إنسان شهيداً على نفسه ؛ لأن الله أبلغه بالجزاء ، فيكون الجزاء عدلاً لا ظلماً .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (١٤) ﴾ [الإسراء]

فأنت الذى تحكم على نفسك .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٥) ﴾

وكلمة ﴿ سَيَحْلِفُونَ ﴾ فيها سرّ إعجازى من الله ؛ لأن حرف « السين » هنا تدلنا على أنهم لم يحلفوا بعد ، أى أن الآية نزلت وقُرئت وسمعها المؤمنون والمنافقون قبل أن يحلف المنافقون ، وآيات القرآن تُتْلى وتُقرأ فى الصلاة ، ولا تتغير ولا تتبدل إلى يوم القيامة .

ولو كان للمنافقين قدرة على التدبر لما جاءوا وحلفوا . ولقالوا : إن رسول الله ﷺ قال فى قرآن يوحى إليه : إننا سنأتى ونحلف ، ونحن لن نأتى ولن نحلف ؛ ولكن لأن الله هو القائل وهو الخالق وهو الفاعل ، فقد شاء أن تغيب الفطنة عن أذهانهم ، مثلما قال سبحانه من قبل:

﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ... (١٤٢) ﴾ [البقرة]

وهم قد قالوا ذلك بعد نزول الآية(١) .

والحق سبحانه وتعالى يقول هنا : ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ ﴾ والانقلاب معناه التحول من حال إلى حال . ومعنى الانقلاب فى هذه الآية مقصود به العودة إلى المدينة مقر السلام والأمن بعد الحرب ، فكأن الاعتدال فى القتال والانقلاب فى العودة إلى المدينة . ولكن لماذا سيحلف المنافقون بالله للمؤمنين ؟ يقول الحق سبحانه : ﴿ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ ﴾ أى : لتعرضوا عن توبيخهم ولومهم وتعنيفهم ؛ لأنهم لم يجاهدوا معكم.

فقال الحق : ﴿ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ ﴾ أى أعطوهم مطلوبهم من الإعراض ولكنه لون آخر من الإعراض ، فلا تلوموهم ولا توبخوهم ولا تؤثموهم ، بل أعرضوا عنهم إعراض احتقار وإهانة، لا إعراض صفح ومغفرة(٢) ؛ جزاءً لهم على ما فعلوا ؛ لأن التأنيب والتوبيخ هما من ألوان الجزاء على المخالفة ، ولكنه قد يحمل الأمل فى المخالف ليعود إلى الصواب. فأنت إن لم يذهب ابنك إلى المدرسة مثلاً تُوبِّخه وتُعنِّفه ، وأنت تفعل ذلك لأنك تأمل فى أن ينصلح حاله ، ولكن إذا استمر على مثل هذا الحال فأنت تهمله ، والإهمال دليل على أنك فقدت الأمل فى إصلاحه.

---

(١) لأن الله سبحانه وتعالى يعلم الماضى والحاضر والمستقبل وما فيها ومن فيها .

(٢) إعراض الصفح والمغفرة قد ورد فى القرآن الكريم فى قوله سبحانه فى سورة يوسف من قول العزيز ليوسف : ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِى لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴾ [يوسف: ٢٩] أى : اصفح يا يوسف عما حدث واتهمتك به المرأة ولا تذكره لأحد .

كذلك كان الأمر بالنسبة للمنافقين . لو أن التوبيخ والإهانة كانت ستجعلهم يفيقون ويعودون إلى حظيرة الإيمان ، فهذا دليل على أن هناك أملاً فى الإصلاح ، وهم لن ينصلح حالهم ، وهم فى ذلك يختلفون عن المؤمنين ، فالمؤمن إن ارتكب إثماً فهو يستحق العتاب والتوبيخ من إخوته فى الإيمان ، وفى هذا إيلام له . والمؤمن عرضة أن تصيبه غفلة فيرتكب إثماً ، فإذا حدث بعد هذا الإثم إيلام له من نفسه ، أو بواسطة إخوانه المؤمنين، فهو يفيق ويشعر بالذنب ، وشعوره بالذنب وصول به إلى التوبة .

أما هؤلاء المنافقون فلا ينفع معهم التوبيخ أو الإيلام النفسى ؛ لأنهم لن يعودوا أبداً إلى حظيرة الإيمان ، ولذلك جاء الأمر : فأعرضوا عنهم ؛ لأنهم لا يستحقون - حتى - اللوم ، فالتوبيخ جزاء على ذنب قد يُقلع عنه من ارتكبه . ولكن هؤلاء لا أمل فيهم ، والعلة يأتى بها القرآن : ﴿ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ والرجس يطلق على معان متعددة ، وقوله: ﴿ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ﴾ أى: هم الخباثة بذاتها ، ويقول العلماء: أى أن فيهم خبثاً وقذارة . وأقول : إن الرجس هو القذارة نفسها ، فلا نقول: إنهم قذرون ؛ لأننا إن قلنا ذلك فالمعنى يفيد أنهم طُهُرٌ أصابهم قذر، وهم ليسوا كذلك ، إنهم «قذر» فى حد ذواتهم ،ولا يطهرهم شىء؛ لأن الذى يخرج من القذارة يكون مثلها ؛ فهم خباثة لا يطهرها لَوْم أو توبيخ . وأطلق الرجس هنا مثلما قال الحق:

﴿ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ [(1)] ... (٢٨) ﴾ [التوبة]

ولم يقل : « نجسون » بل هم أنفسهم نجس.

---

(١) نَجِسَ ينجَسُ نَجَساً . فهو نَجِسٌ لحقه دنس أو قذر ، وهو فى المحسوس حقيقة وفى المعنوى مجاز ، ويوصف بالمصدر للمبالغة فيستوى فيه المفرد وغيره ، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ (٢٨) ﴾ [التوبة] والنجاسة هنا معنوية فهو الكفر والضلال.

والرجس يطلق أيضاً على الشيء القذر حسيّاً ؛ مثل الميتة ، والحق سبحانه يقول : ﴿ قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ... (١٤٥) ﴾ [الأنعام]

إذن : فالميتة قذارة حسّية ، كذلك الخمر التى يقول فيها الحق :

﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ...(٩٠) ﴾ [المائدة]

فالخمر نفسها رجس ،أى : قذارة حسّية ،وعطف عليها الحق- سبحانه - الميسر والأنصاب ، والأزلام [1] ؛ وأخذوا حكم الخمر ، وهكذا نفهم أن الخمر رجس حسّى ، بينما الأنصاب والأزلام والميسر رجس معنوى.

وهناك أيضاً الرجز ، ويطلق على وسوسة الشيطان ، فالحق يقول:

﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ ...(١١) ﴾ [الأنفال]

إذن : فالرجس له متعلقات؛ معناه هنا الكفر، والكافر هو قذارة فى حَدِّ ذاته لا أنه إنسان أصابته قذارة.

ويقول الحق: ﴿ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ والمأوى : هو المكان الذى يؤويك من شر يلحقك ، ويقال: « آوى إلى كذا » أى : هرب من شر يُراد به ، فإذا كان المأوى الذى يفزعون إليه هو جهنم ، فمعنى ذلك أنهم بحثوا عن منفذ فلم يجدوا منفذاً إلا أن يدخلوا جهنم ، وهى بطبيعة الحال بئس المصير.

---

(١) الأزلام : سهام لا ريش لها ، مكتوب على بعضها : افعل ، والبعض الآخر : لا تفعل . فإذا أراد رجل سفراً أو نكاحاً أتى سادن الكعبة فقال : أخرج لى زلماً ، فإن خرج بـ « افعل » فعل ، وإن كانت « لا تفعل » لم يفعل .

وهل ذلك افتئات [١] عليهم أم جزاء ؟ يقول الحق : ﴿ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ ونعرف أن الحسنة يقال عنها : « كسب » ، والسيئة يقال عنها « اكتسب » [٢] ، والحق هو القائل :

﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ... (٢٨٦) ﴾ [البقرة]

وذلك لأن عمل الحرام المخالف لمنهج الله لابد أن يشوبه الافتعال ، أما عمل الحلال فهو أمر فطرى لا يكلف النفس مشقة ، ولا تتنازع فيه مَلَكَات ، لكن بعض الناس الذين يعملون السيئات يألفونها إلْفَاً بحيث تصبح سهلة ؛ فلا تكلفهم شيئاً ، ويعتبر الواحد منهم السيئة كسباً ، كأن تأتى لإنسان ، فيحدثك بمغامراته فى الخارج ، ويروى عن رحلاته فى باريس ولندن ، وما فعل فيهما من منكرات . هو يظن أنه يحكى عن مكاسب ، ولا يعلم أنه يحكى عن مصائب وقع فيها باختياره.

مثل هذا الإنسان يفعل السيئة ، وهو معتاد عليها ؛فتصير كَسْباً . وهو عكس إنسان آخر وقعت عليه المعصية ؛ فيظل يبكى ويبكى ويبكى ، ويندم ، وقد يضرب نفسه كلما تذكر المعصية ، ويندم عليها [٣] . فالأول فرح بخطاياه ومعاصيه واعتبرها كسباً ، وصارت له دُرْبَة وله رياضة وله إلْفٌ بتلك المعاصى.

وهنا يقول الحق سبحانه:

---

(١) الافتئات : الاختلاق والقول بالباطل .

(٢) تعتبر السيئة كسباً عند هؤلاء لأنها أصبحت عادة عندهم .

(٣)عن عبد الله بن مسعود قال : « إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه ، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذبابة مرت على أنفه فقال به هكذا » . أى : نحاه بيده أو دفعه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٣٠٨) وأحمد فى مسنده (١/ ٣٨٣) والترمذى (٢٤٩٧) . قال ابن حجر فى الفتح (١١/ ١٠٥) : « هذا شأن المسلم أنه دائم الخوف والمراقبة ، يستصغر عمله الصالح ويخشى من صغير عمله السيِّء » .

﴿ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾ ﴾

والرضا هو اطمئنان القلب إلى أمر فيه نفعٌ ؛ فحين أقول : أنا راضٍ بالشيء الفلانى ، فمعنى هذا أن كمية النفع التى آخذها منه تكفينى . ومرحلة الإرضاء تختلف من إنسان إلى آخر ، فقد ترضى أنت بنفع ما ، وعند غيرك ما هو أحسن منه لكنه غير راضٍ ، ويتميز المؤمن بأن كل ما يجرى عليه من غير كسب منه ، لا بد أن يرضىً به ؛ لأن مجريه رحيم . وقد تكون الرحمة لأمر لا يعلمه المؤمن الآن ؛ فقد يُضَن عليه بمال ؛ لأنه سبحانه لو زَوَّده بالمال فقد يبعثره على أولاده ، ويصبح المال وسيلة انحرافهم [1] ، فالحق سبحانه يعطيه المال بقدر ما يطعم أولاده إلى أن يمر أبناؤه من فترة المراهقة ، ثم ينعم ربنا عليه بالمال بعد أن وصل الأبناء إلى النضج ، وضنّ الحق على العبد أحياناً هو عين العطاء ، ولذلك يقال : «إذا لم يكُنْ ما تريد، فَلْتُرِدْ ما يكون ».

ولماذا يحلف المنافقون [2] ؟ وتأتى الإجابة من الحق: ﴿ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ ﴾ وماذا يحقق رضا المؤمنين لهؤلاء المنافقين ؟ ثم هل للمؤمن رضاء من خلف رضاء رسول الله ؟ وهل لرسول الله رضا من خلف رضاء ربه ؟

إن ما يُفرح هو رضا مَنْ يملك النفع ، فأنتم حين ترضون عنهم بعد أن يحلفوا لكم ، وتقتنعوا ببشريتكم ؛ فترضوا عنهم ، فليس لكم رضا ينفعهم ، ولا لرسول الله رضا من وراء رضا ربه ، فالرضا الحق هنا هو

---

(١) قال الشيخ : المنع من الله عين العطاء ، وقد يكون العطاء نقمة .

(٢) ذكر القرطبى فى تفسيره (٤/٣١٥٦) : « حلف عبد الله بن أبى ألا يتخلف عن رسول الله ﷺ بعد ذلك ، وطلب أن يرضى عنه ».

رضا الله ، فإياكم أن يخدعوكم بمعسول الكلام ، وزيف الأساليب ؛ كي ترضوا عنهم.

ثم يقول الحق: ﴿ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ ﴾ .

أي: إن تحقق هذا الرضا منكم عنهم ، فهو رضاً بعيد عن رضا الله ورسوله ، وليس من باطن رضا رسول الله ، ولا من باطن رضا الله ؛ لذلك يُنهى الحق الآية بقوله : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ وإن لم يَرْضَ الله فرضاكم لن ينفعهم ، وطلبهم الرضا منكم غباء منهم ، فإن رضاكم عنهم لن يقدم ، ولن يؤخر ؛ إلا إن كان من باطن رضا الله ، ورضا رسوله.

وهنا ملحظ: هم فاسقون أم كافرون ؟ نقول: إن الحق سبحانه أوضح لنا :

﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ... (١٤٥) ﴾ [النساء]

أي أن مكان المنافق فى النار أسفل من مكان الكافر. وكيف يكون المنافق فاسقاً مع أن المؤمن قد يكون فاسقاً؟ فالمؤمن قد يفسق بأن يرتكب كبيرة من الكبائر ، وسبحانه يقول:

﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللَّهِ ... (٣٨) ﴾ [المائدة]

فالمؤمن قد يسرق، وقد يزنى أيضاً. فسبحانه يقول:

﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي ... (٢) ﴾ [النور]

وما دام سبحانه قد جرّم الفعل ، ووضع له عقوبة ؛ فمن الممكن أن يرتكبه المؤمن ، ولكن علينا أن نُفرِّق بين الفاسق والعاصى ، فمن يرتكب

الكبائر فهو فاسق ، ومن يرتكب الصغائر فهو عاص . فكيف يصف الله المنافقين بالفسق [1] ؟ ولنذكر ما نقوله دائماً من أن الكفر ، إنما هو كفر بمحمد وبالإسلام ، والفسق إذا جاء مع الكفر فهو ليس فسق ارتكاب المعصية والإنسان على دين الإسلام ، لكنه الخروج عن الطاعة حتى فى الأديان التى يتبعها أى قوم ، فالأديان كلها تضم قدراً من القيم ، وأتباعها محاسبون على القيم التى فى أديانهم ، لكنهم أيضاً يفسقون عنها .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ ٱلۡأَعۡرَابُ أَشَدُّ كُفۡرٗا وَنِفَاقٗا وَأَجۡدَرُ أَلَّا يَعۡلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٩٧﴾ ﴾

وقد تكلم الحق من قبل فى المنافقين من غير الأعراب ، وهم العرب الذين نزل لهم وللناس كافة منهج الله ، وهنا يتكلم سبحانه عن الأعراب ، فما الفرق بين العرب والأعراب ؟

العرب هم سكان القرى المتوطنون فى أماكن ، يذهبون منها أو فيها إلى مصالحهم ؛ ويأوون إليها ؛ وهذه مظهرها البيوت الثابتة ، والتأهيل المستقر ، لكن الأعراب هم سكان البوادى ، وليس لهم استقرار فى مكان ، إنما يتتبعون مواضع الكلأ ؛ وليس لهم توطُّن ، ولا أنس لهم بمقام ولا بمكان .

ومعنى ذلك أن كلاّ منهم ليس له سياسة عامة تحكمه فى تلك البادية ، وكل واحد منهم- كما يقال - صوته من دماغه ، أو من دماغ رئيس القبيلة ، وما داموا بهذا الشكل ، وليس عندهم توطن ؛ يوحى بالمعاشرة

---

(١) الفسق إذا تعلق بالعقيدة فهو كفر ، فكل ما يفعله فهو فسوق أى خروج عن أمر الله ومراده ، وفسق المؤمن هبوط نفس مؤقت له التوبة، يقول الحق : ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ﴿١٧﴾ ﴾ [النساء] .

التى تقتضى لين الجانب وحسن التعامل ؛ لذلك يقال عن كل واحد منهم «مستوحش » أى: ليس له ألفة بمكان أو جيران أو قانون عام.

أما الذى يحيا فى القرية ويتوطنها فله جيران ، وله قانون يحكمه ، وله إلف بالمكان ، وإلف بالمكين ، ويتعاون مع غيره ، ويتطبع بسكان القرية ويألفهم ويألفونه ومع الإلف والائتلاف يكون اللين فى التعامل ، عكس من يحيا فى البادية ، فهو يمتلىء بالقسوة ، والفظاظة ، والشراسة ؛ لأن بيئته نضحت عليه [1] والوحدة عزلته .

فإذا سمعت « أعراب » فاعلم أنهم سكان البادية المشهورون بالغلظة ؛ لأنه لا يوجد لهم تجمع يوحى لهم بلطف سلوك ، وأدب تعامل ، وكلمة «الأعراب » مفردها « أعرابىّ» . وهناك أشياء الفرق بين مفردها وجمعها التاء ، مثل « عنب » و « عنبة » هى المفرد ، وقد يفرق بين الجمع والمفرد « ياء» مثل « روم » والمفرد « رومى » .

ف « أعراب » - إذن - هى جمع « أعرابى » وليست جمع عرب . وهؤلاء مقسومون قسمين : قسم له إلف بالحضر ؛ لأن كل أهل حضر قد يكون لهم بادية يلجأون إليها ، أى أن الأعرابى حين يذهب إلى البادية فهو ينزل ضيفاً عليهم ، ويسمون « المعارف » ، وكل واحد فى البادية قد يكون له واحد فى الحضر ، إذا اضطر للذهاب للمدينة أو للقرية فهو ينزل عنده . وهناك قسم آخر لا بادية لهم ولا حاضرة.

وبعد أن تكلم الحق عن العرب ونفاقهم، يتكلم هنا عن الأعراب فيقول:

---

(١)ومن أمثلة غلظتهم أن أبا هريرة قال : قبّل رسول الله ﷺ الحسن بن على وعنده الأقرع بن حابس التميمى جالساً ، فقال الأقرع : إن لى عشرة من الولد ما قبلت منهم أحداً . فنظر إليه رسول الله ﷺ ثم قال : « من لا يرحم لا يرحم » . أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٩٩٧) ومسلم فى صحيحه أيضاً (٢٣١٨) .

﴿ الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

ولماذا هم أشد كفراً ونفاقاً ؟ لأنهم بعيدون عن مواطن العلم والدعوة[(١)] ، وعندهم غِلْظة ، وعندهم جفاء ، وقوله سبحانه:

﴿وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾ يعنى: أحق ألاّ يعلموا حدود ما أنزل الله[(٢)] ؛ لأن عرفان حدود ما أنزل الله من الأوامر والنواهى ، والحلال والحرام ، يأتى من التواصل مع العلم ، وهذا لا يتأتَّى بالتنقل من مكان إلى آخر ، بل لا بد من الاستقرار . والعلم - كما نعرف - ألا تغيب عن العالم قضية من قضايا الكون ؛ وكل واحد منا يعلم علماً على قدر تجربته ومراسه فى الحياة ، وعلى قدر جلوسه إلى العلماء ، لكن الله وحده يعلم علم الجميع .

والعلم عند البشر قد يوظّف ، وقد لا يوظّف ، وكثير من الناس عندهم العلم لكنهم لا يُوظِّفونه ، ومن لا يُوظِّف علمه يصير علمه حُجة عليه . أما من يُوظِّف علمه ، ويضع الأمر فى محله ، والنهى فى محله ، والحلال فى محله ، والحرام فى محله ، والمشتبه يضع له حكماً مناسباً ، فهو يوصف بالحكيم ؛ لأنه وضع كل شىء فى محله .

---

(١) قد يقول قائل : كيف هذا ونحن نستشهد بأشعارهم ولغاتهم ، وعلماء اللغة من الأصمعى وغيره كانوا يجوبون قبائل الأعراب لتعرف لغاتهم . يقول أبو يحيى الأنصارى فى فتح الرحمن ص (١٧٢) : « وصفهم بالجهل إنما هو فى أحكام القرآن ، لا فى ألفاظه ، ونحن لا نحتج بلغتهم فى بيان الأحكام ، بل فى بيان معانى الألفاظ ؛ لأن القرآن والسنة جاءا بلغتهم » .

(٢) ومن طريف ما يروى فى هذا عن إبراهيم النخعى قال : جلس أعرابى إلى زيد بن صوحان وهو يحدّث أصحابه ، وكانت يده قد أصيبت يوم «نهاوند» فقال الأعرابى : والله إن حديثك ليعجبنى، وإن يدك لتريبنى . فقال زيد : ما يريبك من يدى إنها الشمال ؛ فقال الأعرابى : والله ما أدرى اليمين يقطعون أو الشمال . فقال زيد بن صوحان : صدق الله ورسوله ﴿ الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ ﴾ [التوبة: ٩٧]

فإذا شرع الله أمراً ، فسبحانه قد شرع عن « علم » وعن « حكمة » ، وما دام قد شرع يجب ألا نخالفه ؛ لأن كل تشريع ينزله الله على رسوله إنما هو لتنظيم حركة الحياة ؛ لأنه سبحانه هو الذى خلق الحياة وخلق كل المخلوقات ، وإياك أن تدس أنت أنفك فتشرِّع ما يغضب الحق ؛ لأن فساد الكون كله قد جاء من الذين أرادوا أن يُقَنِّنوا للخلق ، رغم أنهم لم يخلقوهم . ونقول لهم : دعوا التقنين للخلق لمن خلق الخلق ، فهو الصانع العالم بحدود ما صنع ووضع قوانين صيانة ما خلق ، وهو سبحانه الذى يمكنه أن يصلحها إن أصابها عطب أو فساد .

ومن هؤلاء الأعراب - الذين هم أشد كفراً ونفاقاً ، وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله - قوم آخرون يقول عنهم الحق :

﴿ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ ﴾

وعلى سبيل المثال : إذا ذهب إليهم داعية من الدعاة ، وقال لهم فكرة عن الإسلام . فالواحد من هؤلاء الأعراب يدَّعى فى ظاهر الأمر أنه يتبع الإسلام ، وإن عُلِمَ أن فى الإسلام زكاة فهو يعطى عامل الزكاة النصاب المقرر عليه ، ويعتبر ما دفعه « مغرما » أى غرامة ؛ لأنه أعطى النصاب وهو كاره . ومادُمْتَ كارهاً فأنت لا تؤمن بحكمته ، وتظن أن ما دفعته مأخوذ منك . وتقول : « أخذوا عرقى» و« أخذوا ناتج حركتى » وأعطوه لمن لم يعرق ولم يتحرك فى الحياة ، متناسياً أن هذا الأخذ هو تأمين لحياتك ؛ لأنك حين تعجز ستجد من يعطيك ، والإسلام يأخذ منك وأنت قادر ، ويعطيك إذا عجزت ، وفى هذا تأمين لحياتك .

وأنت تعلم أن الأشياء أعراض فى الكون ؛ القوة عرض ، والمرض عرض ، والصحة عرض ، والعجز عرض ، وأنت عُرْضة إن كنت قادراً أن تصير عاجزاً ، وإن كنت صحيح الجسد فأنت عرضة لأن تمرض ، فإذا ما طمأنك المشرع على أن أخاك العاجز حين عجز أخذنا منك له حين قدرت ؛ وبذلك تواجه أنت الحياة برصيد قوى من الإيمان والشجاعة ، ويبين الحق لك أنك لا تعيش وحدك ، ولكنك تعيش فى مجتمع متكافل ، إن أصابك شىء من عجز ، فقدرة الباقى هى المرجع لك.

وكان الواحد من هؤلاء الأعراب يؤدى نصاب الزكاة وهو كاره ويعتبرها مَغْرماً ، ومنهم من كان يتمنى أن تصيب المسلمين كارثة ؛حتى لا يأخذوا منه الزكاة ، وهكذا كان الواحد منهم يتربص بالمسلمين الدوائر ، مصداقاً لقول الحق : ﴿ وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ ﴾ . أى يتمنى وينتظر أن يصيب المسلمين كارثة ؛ فلا يأخذوا منه الزكاة التى اعتبرها مغرماً .

ولماذا قال الحق : ﴿ الدَّوَائِرَ ﴾ ؟ نعلم أن الخطْبَ الشديد حين يصيب الإنسان أو القوم إن كان فظيعاً وقويّاً يقال : « دارت عليهم الدوائر » . أى أن المصيبة أحاطت بهم ؛ فلا منفذ لهم يخرجون منه ، وكان بعض من الأعراب يتربصون بالمسلمين الدوائر ؛ لأنهم كارهون لدفع الزكاة ويظنون أنها غرامة ، ولا يستوعبون أن الزكاة تُكْتب فى الميزان ، وأنها تطهير ونماء للمال ، وأنها حمل لعجز العاجز ، إن عجز الواحد منهم ؛ فسوف يجد من يحمله.

والذى يتربص بكم الدوائر ، ولا يفطن إلى حكمة الأخذ منه ، هو الذى تأتى عليه دائرة السوء مصداقاً لقوله الحق : ﴿ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ ؛ لأن أيّاً منهم لم يفطن وينتبه لقيمة الوجود فى

المجتمع الإيمانى الذى يعطى له الزكاة إن عجز ، فإن تربصت الدائرة بمن يأخذ منك ، ولم تفطن إلى أن من يأخذ منك يصح أن يأخذ من الغير لك ؛ فسوف تأتى الدائرة عليك .

وقوله الحق : ﴿ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ﴾ تبدو كأنها دعوة ، ومن الذى يدعو ؟ إنه الله . وهناك فرق بين أن يدعو غير قادر ، وبين أن يدعو قادراً . إن كان ربنا هو من يقول : ﴿ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ﴾ ، فدائرة السوء قادمة لهم لا محالة .

وينهى الحق الآية : ﴿ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ ، فسبحانه يسمع كلماتهم حين يأتى عامل الزكاة ليأخذ نصاب الزكاة ، وكيف كانوا يستقبلونه بما يكره ، وقد يكرهون فى طى نفوسهم ولا يتكلمون ، فإن تكلموا فالله سميع ، وإن لم يتكلموا ، وكتموا الكراهية فى قلوبهم ، فالله عليم ، إذن : هم محاصرون بعلم الله وسمعه .

وبعد ذلك جاء الحق سبحانه للصنف الثانى ، وهم من لهم قليل من الإلف ، فإن كان من البادية فله أهل من الحضر ، أو كان من الحضر فله أهل من البادية ، فيقول سبحانه :

﴿ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ ۚ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٩٩)

ومن هؤلاء من يؤمن بالله ، ويؤمن باليوم الآخر ، وما ينفقه من زكاة أو صدقة فهو يتخذه قربى إلى الله الذى آمن به ، وكنزاً له فى اليوم

الآخـر ، و" قـربى " : أى : شىء يقـربه إلى الله ؛ يدخـره له فى اليـوم الآخر ، وقـوله الحـق : ﴿ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ ﴾ أى : يجـعل مـا ينفق قـربة إلى الله وكذلك طلباً لدعاء الرسول ؛ لأن الصلاة فى الأصل هى الدعاء ، فسـاعة يصـل إلى رسـول الله ﷺ نفقـة للمسلمين الضعـاف ممن يعتبرها قربة ، فهو ﷺ يدعو له .

وقد قال ﷺ : « اللهم اغفر لآل أبى أوفى ، وبارك لهم » .

وقد دعـا بذلك حين جاء له ما تزكى وتصدق به بنو أبى أوفى ، ودعوة الرسول مجابة إلا ما قال الله إنه سبحانه لا يجيبه [1] لحكمة .

ولقائل أن يقول : ألا يعلم من يقدم الزكاة والصدقة قربى ، أنه سبحانه غير مستـفيد من هـذا العمـل ؟ ألا يعلم أنهـا قربى له شـخصيـّاً ؟ نعم إنه يعلم ، ويعلم أن الله يثيبه على أمر ينتفع به الفقـراء ، وفى هذه إشـارة إلى أن كل تكليف من الله إنما يعـود نفعـه إلى المكلَّف لا إلى المكلِّف . ومـا دام العائد إلى المكلَّف ؛ فالله يدعوك لصالح ذاتك وإلى خير لك .

ومن اعتـبرها قـربى إلى الله يأت لهم القـول الحق : ﴿ أَلاَ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ ﴾ وقد قـالَ ذلك للأعراب الذيـن أنفقوا قـربى لله ، وطمعاً فى دعـوات الرسـول ﷺ ، فـأوضح لهم سبـحانه أنها قربى لهم ؛ لأنهم المنتـفعـون بها ، وأنه سيـدخلهم فى رحمته . ورحمـة الله هى نعيم مقيم ، وهى دائمة وباقية ببقاء الله الذى لا يُحَدّ ، أما الجنة فباقية وخالدة . بإبقاء الله لها . إذن : فدخولك فى رحمة الله أعلى من دخولك جنته .

فـحين يقال : " دخـل فى الرحمـة " فـمعنى ذلك أن الرحمـة ستظله إلى مـا لا نهاية .

(١) وذلك من نحو قوله تعالى : ﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴾ [التوبة : ٨٠] .

وحينما يسمع أى أعرابى قول الحق : ﴿ وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلاَ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ ﴾ ؛ فعندما سمع الأعرابى هذه الآية جلس يحدث نفسه بالعطاءات الإلهية . فيكبح جماح خطرات السوء فى نفسه، أو بالزلات أو بالهفوات التى قد ينطق بها ، وقد يقول الأعرابى لنفسه : إنى أخاف ألا يغفر الله الخطرات أو السيئات والهفوات ، فتأتى الآية مطمئنة له ما دام قد فعل السيئة بغفلة أو بسهو ، وعليه أن يعلم أن الله غفور رحيم ، ولا داعى أن يعكر على نفسه بالظن بأنه لن يدخل فى رحمة الله (١) .

لذلك جاء سبحانه بالقول : ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ لعل واحداً ممن يسمع هذا ؛ يظن أن الجزاء والقربى والدخول فى رحمة الله خاصٌ بمن لم يذنب ذنباً أبداً ، فيوضح له القول : اطمئن . إن كانت قد حصلت منك هفوة أو غفلة ، فاعلم أن الله غفور رحيم ، فلا يعكر عليك ذنبك إيمانك بأنك سوف تدخل فى رحمة الله .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ ﴾

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال النبى ﷺ : يقول الله تعالى : أنا عند ظن عبدى بى ، وأنا معه إذا ذكرنى ، فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، وإن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منهم ، وإن تقرب إلى شبراً تقربت إليه ذراعاً ، وإن تقرب إلىَّ ذراعاً تقربت إليه باعاً ، وإن أتانى يمشى أتيته هرولة » . أخرجه البخارى فى صحيحه (٧٤٠٥) ومسلم (٢٦٧٥) .

و " السابق " هو الذى حصل منه الفعل - بصدد ما هو فيه - قبل غيره ، وكلنا والحمد لله مؤمنون ، ومن آمنوا أولاً ، ومن آمنوا بعد ذلك كلهم مؤمنون ، لكنْ هناك أناس سبقوا إلى الإيمان ، فهل كان سبقهم سبق زمان أم سبق اتباع ؟ إن سبق الزمان يتحدد فى الذين عاصروا رسول الله ﷺ ، فإن ظن ظان أن المقصود بالسابقين هم الذين سبقونا سبق زمان ، فقد يقول منا قائل : وما ذنبنا نحن وقد جئنا بعد زمانهم ؟

ولذلك نقول : إنما السبق يعتبر من معاصر ، أى : كان معهم أناس غيرهم وهم سبقوهم ؛ ولذلك جاء القول : ﴿ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ ﴾ ونعلم أن الذين هاجروا مع الرسول لم يكن كل مسلمى مكة ، وجاء قوله : ﴿ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ ﴾ وأيضاً لم يكن كل الأنصار من أهل المدينة هم من السابقين .

وينحصر المعنى فى الذين سبقوا إلى الإيمان فى مكة ، وسبقوا إلى النصرة فى المدينة ، هؤلاء هم ﴿ السَّابِقُونَ ﴾ .

وفى سورة الواقعة يقول الحق : ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (١٠) أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (١١) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (١٢)﴾ [الواقعة]

ثم يأتى من بعدهم فى المرتبة :﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ(٢٧)﴾ [الواقعة]

ثم يحدد الحق هؤلاء فيقول : ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ (١٣) وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخِرِينَ (١٤)﴾ [الواقعة]

ولذلك حينما يأتى من يقول : لن يستطيع واحد من أمة محمد ﷺ تأخر عن عصر محمد ﷺ أن يصل إلى منزلة الصحابة ؛ لأن الله قال :

﴿وَالسَّابِقُونَ﴾ ، نقول له : لا ، بل افطن إلى بقية قوله سبحانه :﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ . وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخِرِينَ ﴾ ، وهذا دليل على أن بعضاً من الذين جاءوا بعد زمان رسول الله ﷺ سينالون المرتبة الرفيعة ، وهكذا لم يمنع الحق أن يكون من أمة محمد ﷺ إلى أن تقوم الساعة مَنْ يصل إلى منزلة الصحابة.

وقد طمأن النبى ﷺ الناس الذين لم يدركوا عهده حين قال:

« وددت أنِّى لقيت إخوانى ». فقال أصحاب النبى ﷺ : أو ليس نحن إخوانك ؟. قال : « أنتم أصحابى ، ولكن إخوانى الذين آمنوا بى ولم يرونى »[1].

وهذا قول صادق من المصطفى ﷺ ؛ لأن منا من تنحصر أمنيته فى أن يحُجَّ ويزور القبر الشريف. ويضيف النبى ﷺ فى وصف أحبابه:

« عمل الواحد منهم كخمسين ». قالوا: منهم يا رسول الله أم مناَّ ؟ قال: بل منكم ؛ لأنكم تجدون على الخير أعواناً ، وهم لا يجدون على الخير أعواناً » .

وهذا ما يحدث فى زماننا بالفعل.

ولكن من هم السَّابِقُونَ المقصودون فى الآية التى نحن بصددها ؟

﴿ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ ﴾ ونعلم أن السابقين من المهاجرين هم أهل بدر ، الذين دخلوا أول معركة فى الإسلام ، مع أنهم خرجوا من المدينة ، لا ليشهدوا حرباً ، ولكن ليتعرضوا عيراً تحمل بضائع ، ويرجعوا بالغنائم . ومع ذلك دخلوا الحرب ، لا مع القوافل التى ضمَّتْ العير

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٣/ ١٥٥) عن أنس بن مالك . وأورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (١٠/٦٦) : « فى إسناد أحمد جسر وهو ضعيف » .

والحراس والرعاة [١] ، ولكن دخلوا الحرب مع النفير ، وهم من جاءوا ونفروا من مكة ، وهم صناديد قريش [٢] . وهكذا كانت منزلة أهل بدر ، أنهم من سبقوا إلى الجهاد فى أول معركة للإسلام.

ولذلك حين وشى حاطب بن أبى بلتعة بغزوة رسول الله ﷺ إلى مكة ، فجاء به ﷺ وقال له : ما الذى حملك على هذا ؟ وكان ﷺ يريد أن يفتح مكة دون أن يعلم أحد ؛ حتى لا يقاتل المسلمون القادمون بعضاً من المؤمنين الموجودين فى مكة ولم يعرفهم أحد ؛ لذلك أراد ﷺ المفاجأة فى الفتح ؛ حتى تهبط الشراسة الكفرية ، لكن حاطب بن أبى بلتعة كتب خطاباً إلى بعض أهل قريش ، فأخبر الله نبيه ﷺ ، فقال النبى ﷺ لعلىٍّ رضى الله عنه ومن معه : اذهب إلى مكان اسمه « روضة خاخ » فى الطريق بين مكة والمدينة ، فستجد ظعينة (مسافرة) معها كتاب إلى أهل مكة ، خبأته فى عقيصتها [٣] .

فلما ذهب على - رضى الله عنه - ومن معه يبحثون عن المرأة فى الموضع الذى ذكره لهم رسول الله ﷺ ، وجدوا المرأة ولكنها أنكرت أن معها كتاباً ، فهددوها ؛ فأخرجته من عقيصتها ؛ فوجده من حاطب بن أبى بلتعة إلى ناس من مشركى قريش . وعاد به إلى النبى ﷺ ، فأحضر النبى ﷺ حاطباً ، وقال له : ما حملك على هذا يا حاطب ؟ قال له: يا رسول

---

(١) وذلك أن أبا سفيان قد أخذ طريق الساحل بالعير، فقد قال له أحد عيونه : رأيت راكبين قد أناخا إلى هذا التل ، ثم استقيا فى شن لهما ، ثم انطلقا . فأتى أبو سفيان مناخهما ، فأخذ من أبعار بعيريهما ، ففته ، فإذا فيه النوى فقال : هذه والله علائف يثرب . فرجع إلى أصحابه سريعاً ، فضرب وجه عيره عن الطريق ، فساحل بها ، وترك بدراً بيسار ، وانطلق حتى أسرع . انظر : سيرة النبى لابن هشام (٢/ ٦١٨) .

(٢) الصناديد هم العظماء الأشداء ، وهم هنا : أبو جهل و أمية بن خلف وغيرهما من كبار كفار قريش .

(٣) العقيصة : هى نوع قريب من تضفير المرأة لشعرها . قال الليث : العقص أن تأخذ المرأة كل خصلة من شعرها فتلويها ثم تعقدها حتى يبقى فيها التواء ثم ترسلها .

الله : أنا لصيق [١] بقريش ولى فيها أهل ومال ، وليس لى بها عزوة ؛ فأردت أن أتخذ يداً [٢] عند قريش يعرفونها لى ؛ فيحافظوا على أهلى وعلى مالى ، وعرفت أن ذلك لا يضرك شيئاً وأن الله ناصرك . وما فعلته ينفعنى ولا يضرك ، قال : صدقت. صدقت. وأراد عمر - رضى الله عنه - أن ينزل عليه بسيفه ، فقال النبى ﷺ : « إنه قد شهد بدراً ، وما يدريك لعل الله اطّلَع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » [٣] .

لأن أهل بدر دخلوا المعركة بدون عُدَّة ، وبدون استعداد ، ومع ذلك هانت نفوسهم عليهم ، فكأن الله قال: أنتم عملتم ما عليكم ، وقد غفرت لكم كل ما تفعلونه من السيئات.

إذن: فالسابقون من المهاجرين هم أهل بدر وأهل الحديبية ، وهم أهل بيعة الرضوان الذين رُدُّوا مع رسول الله ﷺ عن العمرة ، ثم عقد النبى ﷺ مع القرشيين المعاهدة.

والسابقون من الأنصار هم من جاءوا للنبى فى مكة ، وأعطوا له العزوة وأعطوا له الأمان والعهد ، وكانوا اثنى عشر فى بيعة العقبة الأولى ، وخمسة وسبعين فى العقبة الثانية [٤] . هؤلاء هم السابقون ، وأضاف الحق إليهم ﴿ **وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ** ﴾ أى: من يأتى من بعدهم.

---

(١) اللصيق : هو الرجل يقيم فى الحى وليس له بهم صلة نسب أو قرابة . وهذا كان حال حاطب . وقد جاء به الحديث .

(٢) يداً : أى فضلاً عليهم يعرفونه لى عند غزو المسلمين لمكة .

(٣) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٠٠٧ ، ٤٨٩٠) ومسلم فى صحيحه (٢٤٩٤) . عن على بن أبى طالب رضى الله عنه .

(٤) انظر عدد من بايع رسول الله ﷺ من الأنصار فى البيعتين الأولى والثانية فى سيرة النبى ﷺ (٤٣١/٢ ، ٤٥٤) . أما عند بدء عرض الإسلام عليهم فقد كانوا ستة من الخزرج ، ولكنها لم تكن بيعة .

وسيدنا عمر له وقفة في هذه الآية ، فقد كان رضى الله عنه يقرأها هكذا : « والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار » أى : يعطف كلمة الأنصار على « السابقون » وكانت قد نزلت : ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ﴾ ويكمل سيدنا عمر بعد « والأنصار » « الذين اتبعوهم بإحسان » أى : أنه جَعَل « الذين اتبعوهم » صفة للأنصار.

وجاء زيد بن ثابت ليقول لسيدنا عمر : « قرأناها على غير هذا الوجه يا ابن الخطاب » . قال : فماذا ؟ قال : ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم﴾ .

فقال عمر : ابعث إلى أبيّ بن كعب ، وكان ابن كعب حجة فى القرآن[1] فقال أبيّ: هكذا سمعتها - كما قال زيد - من رسول الله ﷺ وأنت تبيع القَرَظ [2] فى البقيع . أى أن أبيّ بن كعب كان ملازماً للنبى ﷺ بينما عمر يبيع القرظ ، فضحك عمر وقال: لو قلت شَهِدت أنت وغِبْنا نحن ، وقرأها عمر من بعد ذلك كما نزلت[3] .

﴿ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ ﴾ خصوصاً أن سيدنا أبيّاً البصير بالقرآن جاء بأكثر من دليل من غير هذه الآية فقد قال الحق:

﴿ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ ... ۝٣ ﴾ [الجمعة]

---

(١) كان أبيّ بن كعب الأنصارى من أصحاب العقبة الثانية وشهد بدراً والمشاهد ، قال له النبى ﷺ : «ليهنك العلم أبا المنذر » أخرجه مسلم فى صحيحه (٨١٠) وأحمد بنحوه (٥/ ١٤٢) . وقال له : « إن الله أمرنى أن أقرأ عليك » . قال : آلله سمانى لك ؟ قال : الله سماك لى . قال : فجعل أبى يبكى » متفق عليه أخرجه البخارى (٤٩٦٠) ومسلم (٧٩٩) وكان عمر يسميه سيد المسلمين ويقول: اقرأ يا أبى . انظر : الإصابة فى تمييز الصحابة (١/ ١٦) ترجمة :٣٢ .

(٢) القرظ : ورق شجر كانت تدبغ به الجلود فى أرض العرب .

(٣)انظر تفسير ابن كثير (٢/ ٣٨٣) والقرطبى (٤/ ٣١٦٤) .

وقوله الحق فى سورة الحشر:

﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ ... (١٠) ﴾ [الحشر]

وهى معطوفة أيضاً [١].

وهنا فى الآية التى نحن بصددها يقول الحق:

﴿ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٠٠) ﴾ [التوبة]

وفى هذا القول ما يطمئن أمة محمد ﷺ ، فلم يَأت لنا فقط بخبر الفئة السيئة من المنافقين من العرب ، والمنافقين من الأعراب ، ولكنه أوضح لنا أن هناك أناساً أوصلوا لنا جمال هذا الإيمان.

ويقول الحق بعد ذلك:

﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ (١٠١) ﴾

أوضح سبحانه: وطِّنوا أنفسكم على أن من حولكم من الأعراب ومن أهل المدينة منافقون ، وهذا التوطين يعطى مناعة اليقظة ؛ حتى لا يندس واحد من المنافقين على أصحاب الغفلة الطيبين من المؤمنين ، فينبههم

---

(١) وقد استشهد أبىّ بن كعب أيضاً بآية: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنكُم ... ﴾ [الأنفال: ٧٥]

الحق : انتبهوا فأنتم تعيشون فى مجتمع محاط بالمنافقين. والتطعيم ضد الداءات التى تصيب الأمم وسيلة من وسائل محاربة العدو ، ونحن نفعل ذلك ماديّاً حين نسمع عن قرب انتشار وباء ؛ فنأخذ المصل الواقى منه ، رغم أنه داء إلا أنه يعطينا مناعة ضد المرض.

وهكذا يربى الحق المناعة بحيث لا يمكن أن يُهاجَم المؤمنون عن غفلة ، فيقول: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ﴾ و «مرد» يمرد أى : تدرب وتمرن ، ويبقى الأمر عنده حرفة ، وكأن الواحد منهم يجيد النفاق إجادة تامة. وكل ذلك ليوجد مناعة فى الأمة الإسلامية ؛ حتى يكون المؤمن على بصيرة فى مواجهة أى شىء ، فإذا رأى أى سلوك فيه نفاق اكتشفه على الفور . واليقظة تدفع عنك الضر ، ولا تمنع عنك الخير.

وافرض أن واحداً قال لك: إن هذا الطريق مَخُوف لا تمشِ فيه وحدك بالليل . ثم جاء آخر وقال : إنه طريق آمن ومشينا فيه ولم يحدث شىء ، فلو أنك احتطتَ وأخذت معك سلاحاً أو رفيقاً فقد استعددت للشر لتتوقاه، فَهَبْ أنه لم يحدث شىء، فما الذى خسرته ؟ إنك لن تخسر شيئاً.

وهذه قضية منطقية فلسفية يُردّ بها على الذين يشككون فى دين الله ، مثل المنجِّمين ، ومَن يدَّعون الفلسفة ، ويزعمون أنه لا يوجد حساب ولا حشر ولا يوم آخر ، فيقول الشاعر:

زَعَم المنجِّم والطَّبيبُ كلاهما ... لا تُحْشَرُ الأجسَاد قلْتُ إليكُمَا

إنْ صَحَّ قولكُمَا فَلسْتُ بخَاسرٍ ... أوْ صَحَّ قَوْلِى فَالخسَار عليكُما

أى: إن كان كلامكم صحيحاً من أنه لا يوجد بعث - والعياذ بالله - فلن أخسر شيئاً ؛ لأنى أعمل الأعمال الطيبة . وإن كان هناك بعث - وهو

حق - فسوف ألقى الجزاء فى الجنة ؛ وبذلك لم أخسر ، بل كسبت . لكن افرضوا أنكم عملتم الشر كله وجاء البعث فأنتم الخاسرون . والقضية الفلسفية المنطقية هنا هى: إن لم أكسب فلن أخسر ، وأنتم إن لم تخسروا فلن تكسبوا.

والحق فى هذه الآية يقول:

﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ. . ﴾

وكلمة ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم ﴾ تفيد أنكم محاصرون ، لا ممن حولكم فقط ، بل أيضاً ببعض من الموجودين بينكم فى المدينة ، وهم من تدربوا على النفاق حتى صارت لهم ألفة به.

وهذه الآيات - كما نعلم - قد نزلت تحكى حال المنافقين. والنفاق تتعارض فيه ملكات النفس الإنسانية بأن توجد ملكة كفر فى القلب ، بينما توجد ملكة إيمان فى اللسان ، فلا يتفق اللسان مع القلب ، فالذين آمنوا يوافق ما ينطقون به ما فى قلوبهم ، والذين كفروا وافقت قلوبهم ألسنتهم.

أما الصنف الثالث: وهم الذين نطقوا بالإيمان بألسنتهم، ولم تؤمن قلوبهم ، فهؤلاء هم المنافقون.

وهو لفظ مأخوذ من « نافقاء اليربوع » ، وهو حيوان صحراوى يشبه الفأر ، ويخدع من يريد صيده ، فيجعل لبيته أو جحره عدة فجوات ، فإذا طارده حيوان أو إنسان يدخل من فجوة ، فيتوهم الصائد أنه سيخرج منها ، ويبقى منتظراً خروجه ، بينما يخرج اليربوع من فجوة أخرى ، فكأنه خادع الصائد ، فالصائد يظن أن للجحر باباً واحداً ، ولكن الحقيقة أن للجحر أكثر من مدخل ومخرج . والنفاق بهذه الصورة فيه ظاهرتان : ظاهرة مَرَضيّة فى المنافق ، وظاهرة صحية فى المنافَق ؛ ولذلك لم ينشأ النفاق فى مكة ، وإنما نشأ فى المدينة.

ومن العجيب أن ينشأ النفاق فى المدينة التى آوت الإسلام وانتشر منها ، وانساح إلى الدنيا كلها ، ولم يظهر فى مكة التى أرادت أن تطمس الإسلام ، وحارب سادتُها وصناديدُها الدعوةَ.

إذن : فلا بد أن نأخذ من النفاق ظاهرتين : الظاهرة الأولى وهى الظاهرة المرضّية ، حيث قال الحق :

﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ... ⑩ ﴾ [البقرة]

أما الظاهرة الثانية فهى الظاهرة الصحية ، فقد أصبح الإسلام قويّاً بالمدينة غيره عند بدء الدعوة فى مكة . إنما يُنافَق القوى [1] ؛ لأن المنافق يريد أن ينتفع بقوة القوى ، كما أن المنافق يعرف أنه لن يستطيع مواجهة القوى ، أو أن يقف منه موقف العداء الظاهر .

إذن : فالنفاق حين يظهر ، إنما يظهر فى مجالات القوة ، لا فى مجالات الضعف ، فالرجل الضعيف لا ينافقه أحد ، والرجل القوى ينافقه الناس .
إذن : فالنفاق ظاهرة مرضية بالنسبة للمنافق ، وظاهرة صحية فى المنافَق.

وأراد الحق سبحانه أن يكشف للمؤمنين أمر المنافقين الذين يتلصصون عليهم ، أى : يتخذون مسلك اللصوص ؛ فى أنهم لا يُواجهون إلا فى الظلام ، ويحاولون أن يدخلوا من مداخل لا يراهم منها أحد ، ويتلمَّسون تلك المداخل التى لا تظهر ، ويُخْفون غير ما يظهرون.

أما مواجهة الكافر فهى مسألة واضحة ، صريحة ؛ فهو يعلن ما يبطن ، ويواجهك بالعداء . وأنت تواجهه بجميع قوتك وكل تفكيرك ؛ لأنه واضح الحركة . أما المنافق الذى يُظهر الإيمان وفى قلبه الكفر ، فهو

---

(١) لأنها تبين طبيعة نفسه ، فهذه النفس تنافق الأقوياء لضمان النفع ، ولا نفاق لفقير أو ضعيف لأنهما ليسا مصدرين لمنافع فلا ينافقهما أحد .

يتلصص عليك ، وعليك أن تحتـاط لمداخله ؛ لأنه ينتظر اللحظة التى يطعنك فيها من الخلف.

وينبهنا الحق إلى ضرورة الاحتياط ، وأن يمتلك المؤمنون الفطنة والفراسة وصدق النظر إلى الأشياء ، وعدم الانخداع بمظاهر تلك الأشياء ، فكشف لنا سبحانه كل أوجه النفاق ؛ كشف منافقى المدينة حيث يوجد منافقون وغير منافقين ، ومنافقى الأعراب الذين يوجد بينهم منافقون وغير منافقين ، وعَلّم الحق سبحانه المؤمنين كيف يتعرفون على المنافقين بالمظاهر التى تكشف ما يدور فى صدورهم.

وسبحانه القائل عن المنافقين: ﴿ **وَلَوْ نَشَاءُ لأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ** ... (٣٠) ﴾ [محمد]

ولكنْ هناك لون من النفاق ، نفاق فنى دقيق ، يغيب على فطنة المتفطن ، وعلى كياسته . ولذلك يوضح لنا سبحانه : أنا لا أكلُكم إلى فطنتكم لتعلموا المنافقين ، وإنما أنا أعلمه وأنتم لا تعلمونه ؛ لأنهم قد برعوا فى النفاق ﴿ **لاَ تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ** ﴾ ورغم فطنة رسول الله ﷺ وكياسته فقد أوضح له الحق أنه سيغيب عنه أمرهم ؛ لأنهم احتاطوا بفنّية النفاق فيهم حتى لا يظهر.

لقد عبّر القرآن التعبير الدقيق ، فقال : ﴿ **مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ** ﴾ والمادة نفسها فى كلمة ﴿ **مَرَدُوا** ﴾ هى من مرد ، يمرد ، مروداً ، ومارداً ، ومريداً ، هذه المادة تصف الشيء الناعم الأملس الذى لا تظهر فيه نتوءات ، ومنه الشاب الأمرد ، يعنى الذى لم ينبت له شعر يخترق بشرته ، إذن : المادة كلها تدل على الثبات على شيء ، وعدم وجود شيء فيه يخدش هذا الثبات.

ويوضح سبحانه : تنبَّهوا ، فممَّن حولكم من الأعراب منافقون ، وقوله الحق : ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم ﴾ يشعرَ بأنهم محاطون بالنفاق ، ولماذا يحاطون بالنفاق ؟ لأن الدعوات الإيمانية لا تظهر إلا إذا طمّ الفساد فى بيئة .

ونعلم أن الحق قد جعل فى النفس أشياء تطرد الباطل ، وإن ألحّ الباطل عليها فترة ، تتنبه النفس إليه وتطرده [1] . وهؤلاء هم الذين يتوبون ، يقترفون الذنب ثم ترجع إليهم نفوسهم الإيمانية فتردعهم . إذن : فالردع إما أن يكون ذاتيّاً فى النفس ، وإما أن يكون من المجتمع للنفس التى لا يأتيها الردع من الذات ، فهى نفس أمَّارة بالسوء ، وهى لا تأمر بالسوء مرة وتنتهى ، بل هى أمّارة به ، أى : اتخذت الأمر بالسوء حرفة ؛ لأن صيغة « فعّال» تدلنا على المزاولة والمداومة .

وإذا كانت المناعة فى النفس فهذا أمر يسير ويأتى من النفس اللوامة ، وقد يكون المجتمع الذى حول الإنسان هو الذى يردع النفس إن ضعفت فى شىء . وبهذا تكون المناعة فى المجتمع ، أما إذا طمّ الفساد أيضاً فى المجتمع ؛ فلا النفس تملك رادعاً ذاتيّاً ، ولا المجتمع فيه رادع ؛ هنا لا بد أن تتدخل السماء ، وتأتى دعوة الحق بآياتها ، وبيناتها ، ومعجزة الرسول .

هنا يقف أصحاب الفساد - وتكون نفوسهم أمّارة بالسوء - موقفاً ينافقون به القوة الطارئة الجديدة ، بينما تظل نفوسهم أمّارة بالسوء ، فتظهر ظاهرة النفاق .

وقوله الحق : ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ ﴾ أى أنكم مطوقون فى ذاتكم ومن حولكم ، فالنفاق فى ذات المكان الذى تقيمون فيه ، وفيما حولكم أيضاً .

---

(١) يقول تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ (٢٠١) ﴾ [الأعراف: ٢٠١] أى : استقاموا وصحوا مما كانوا فيه . قاله ابن كثير فى تفسيره (٢/ ٢٧٩) .

وأخشى ما يخشاه الإنسان ، أن يوجد الأمر الضار حوله و فيه ؛ لأنه إن كان الأمر الضار فى المكان الذى يعيش فيه ، فمن حوله يستطيعون إنقاذه أو يستطيع هو أن يهجر المكان ، لكن إن كان محاصراً بالضرر ممن حوله ومن المكان الذى يحيا فيه ، فإلى أين يذهب ؟

ويريد سبحانه أن ينبه المؤمنين إلى أن ظاهرة النفاق متفشية ؛ منها ما تستطيعون - أيها المؤمنون - معرفته بمعرفة حركات المنافقين وسكناتهم ولحن قولهم وتصرفاتهم (١) ، ومنها أمر دقيق خفى لا تعلمونه ، ولكنه سبحانه يعلمه ؛ ولأنكم غير مسلمين لأنفسكم ، ولكم رب يعلمكم ما لا تعلمون فاطمئنوا ؛ فسوف يفضحهم لكم . ونتيجة هذا العلم أنكم سترون فيهم العقوبات ؛ فيأتى فيهم القول الحق : ﴿ **سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ** (٢) **ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ** ﴾ .

هم إذن سيعذبون مرتين فى الدنيا ، ثم يردون لعذاب الآخرة ، وأول عذاب لمن يستر نفاقه أن يفضح نفاقه ؛ ولذلك خطب رسول الله ﷺ فقال: "قم يا فلان فأنت منافق ، قم يا فلان فأنت منافق ، قم يا فلان فأنت منافق" (٣)

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : « إن للمنافقين علامات يعرفون بها : تحيتهم لعنة ، وطعامهم نهبة ، وغنيمتهم غلول ، ولا يقربون المساجد إلا هجراً ، ولا يأتون الصلاة إلا دبراً ، مستكبرين لا يألفون ولا يؤلفون ، خشب بالليل ، صخب بالنهار » . أخرجه أحمد فى مسنده (٢/ ٢٩٣) والبزار (٨٥ - كشف الأستار) قال الهيثمى فى المجمع (١/ ١٠٢) : « فيه عبد الملك بن قدامة الجمحى ، وثقه يحيى بن معين وغيره وضعفه الدارقطنى وغيره » .

(٢) إحداهما فى الدنيا والأخرى فى القبر بعرض ما يعذب به فى الآخرة .

(٣) عن أبى مسعود الأنصارى قال : خطبنا رسول الله ﷺ خطبة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « إن فيكم منافقين ، فمن سميت فليقم . ثم قال : قم يا فلان ، قم يا فلان ، قم يا فلان . حتى سمى ستة وثلاثين رجلاً . . » . أخرجه أحمد فى مسنده (٥/ ٢٧٣) والبيهقى فى دلائل النبوة (٦/ ٢٨٦) قال الهيثمى فى المجمع (١/ ١١٢) : « فيه عياض بن عياض عن أبيه ولم أر من ترجمهما » .

أو تأتى له مصائب الدنيا . ولقائل أن يقول : وهل المصائب عذاب للمنافق ، إن المصائب قد تصيب المؤمن أيضاً ؟

ونرد : إن المصائب تأتى للمؤمن لإفادته ، ولكنها تأتى للمنافق لإبادته . فالمؤمن حين يصاب ؛ إما أن يكفر الله به عنه ذنباً ، وإما أن يرفعه درجة به [1] لكن المصائب حين تصيب المنافق فهى مغرم فقط ؛ لأن المنافق لا يرجو الآخرة ؛ ولذلك يقال :

إن المصاب ليس من أصيب فيما يحب ، ولكن المصاب هو من حرم الثواب .

فإن استقبل المؤمن المصيبة بالرضا ، وعلم أن الذى أجراها عليه حكيم ، ولا يجرى عليه إلا ما يعلم الخير وإن لم يعلمه ؛ فهو ينال الثواب على الصبر والأجر على الرضا ، وهكذا يخرج من دائرة الألم العنيف . أما غير المؤمن فهو يتمرد على القدر ، وبعدم إيمانه يُحْرَم من الثواب .

أو أن العذاب مرتين ، غير الفضيحة بنفاقهم ، فيتمثل فى محاولتهم أن يظهروا بمظهر الإيمان والإسلام ، فيخرج الواحد منهم الزكاة من ماله ، والمال محبب للنفس ؛ لذلك فهو يخرج الزكاة مرغماً ، ويشعر أنه قد خسر المال لأنه لا يؤمن بإله ؛ لذلك فمصيبته كبيرة . وقد يرسل المنافق ابنه للحرب وهو يعلم أنه ليس له فى ذلك ثواب ، وهذا لون آخر من العذاب .

وهذا العذاب متحقق بقول الحق : ﴿ **وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى الدُّنْيَا ...** (٨٥) ﴾ [التوبة]

(١) عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : « ما يصيب المؤمن من شوكة فما فوقها ، إلا رفعه الله بها درجة ، أو حط عنه بها خطيئة » . أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٥٧٢) و أحمد فى مسنده (٦/ ٤٢) والترمذى فى سننه (٩٦٥) وقال : حديث حسن صحيح .

أو أن يكون العذاب فى الدنيا هو ما يرونه حين تغرغر النفس ، لحظة أن تبلغ الروح الحلقوم ، ويرى المُغَرْغِر الملائكة مصداقاً لقوله الحق :

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (٥٠) ﴾ [الأنفال]

وكل هذه ألوان من العذاب فى الدنيا .

والإنسان - كما نعلم - فى استقبال الزمن له ثلاث حالات : زمن هو حياته الدنيا ، وزمن هو زمن موته ، وزمن هو زمن آخرته . فحين يصاب المؤمن فى الزمن الأول - زمن حياته - يُعزِّيه فى مصابه الزمنُ الأخير ، وهو زمن آخرته .

أما حين يصاب الكافر أو المنافق فى زمن حياته ، فلا شىء يعزيه أبداً ؛ لأنه لا يؤمن بالله ولا هو يطمع فى شىء من خيره سبحانه .

ويأتيه الزمن الثانى ، وهو زمن الموت ، وفيه عذاب القبر .

والعذاب إنما يكون بأحد اثنين : إما عرض ما يعذب به ، أو دخول فيما يعذب به ، وهذا يكون فى الآخرة . أما عرض العذاب فهو فى القبر [١] كأنه يقول لك : انظر ما ينتظرك [٢] . وما دام الإنسان يرى الشر الذى

---

(١) وذلك من نحو قوله سبحانه : ﴿ وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ (٤٥) النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ (٤٦) ﴾ [غافر] قال ابن كثير فى تفسيره (٤/ ٨١) : «دلت الآية على عرض الأرواح على النار غدواً وعشياً فى البرزخ ، وليس فيها دلالة على اتصال تألمها بأجسادها فى القبور ، إذ قد يكون ذلك مختصاً بالروح ، فأما حصول ذلك للجسد فى البرزخ وتألمه بسببه فلم يدل عليه إلا السنة فى الأحاديث المرضية » .

(٢) عن ابن عمر قال: قال ﷺ : « إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشى ، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة ، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار فيقال : هذا مقعدك حتى يبعثك الله عز وجل إليه يوم القيامة » . أخرجه البخارى فى صحيحه (١٣٧٩) ومسلم فى صحيحه (٢٨٦٦) . واللفظ لمسلم .

ينتظره ، أليس هذا عذاباً ؟

إنه عذاب مؤكد .

﴿ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾ ولو قال الحق : " نعذبهم مرتين" فقط بدون السين ، لصار لها معنى آخر مختلف تماماً . يتلخص فى أن من يصيبه عذاب ، فقد انتهى حسابه . لكن قوله : ﴿ سَنُعَذِّبُهُم ﴾ يؤكد لنا كلما قرأناه أن العذاب متصل .

ويُنهى الحق الآية الكريمة بقوله :

﴿ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾ وكلمة ﴿ يُرَدُّونَ ﴾ مثلها مثل ﴿ يُرْجعون ﴾ أو ﴿ يَرجعون ﴾ و نحن نقول مرة : " يُرْجعون" وأخرى "يَرْجعون" ، فكأن النفس البشرية تألف جزاءها فى قولنا : "يَرْجعون" ، أما قولنا : " يُرْجعون" ففى الكلمة قوة عليا تدفعهم ألا يتقاعسوا .

وهكذا نجد المعذَّب إما مدفوع بقوة عُليا ، وإما أن توجد فيه قوة ذاتية تجعله يذهب إلى العذاب . والإنسان قد يتصرف تصرفاً ما ، ثم يرد إلى أفكاره فلا يعجبه هذا التصرف ، ويستقبل نفسه بالتوبيخ وبالتعنيف ؛ لأن هناك إلحاحاً من النفس على العقوبة ، وهو إلحاح يأتى من ذات النفس .

والنفس الأمارة بالسوء قد تقضى حياتك معها فى أمر بالسوء ، ثم حين يأتى العقاب فأنت تقول لها : " اشربى أيتها النفس نتيجة ما فعلت " .

إذن فالمعذَّب يُدفع مرة للعذاب ، وأخرى يندفع بذاته .

﴿ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾ ومثلما قلنا من قبل : فإن هناك ألواناً متعددة من العذاب ، فهناك العذاب العظيم ، والأليم ، والمهين ، والمقيم. والعذاب العظيم يأتى إما بأسباب وإما بمسبِّب ، وعذاب الدنيا كله

بأسباب، فقد يكون العذاب بالعصا ، أو بالكرباج ، أو بالإهانة ، والأسباب تختلف قوة و ضعفاً ، أما عذاب الآخرة فهو بمسبِّب ، و المعذِّب فى الآخرة واحد وقوته لا نهاية لها ، وإن قسْتَ عذاب الآخرة بالعذاب فى الدنيا فمن المؤكد أن عذاب الآخرة عذاب عَظيم (١) .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٠٢ ﴾

وقوله الحق : ﴿ وآخَرُونَ ﴾ معطوفة على قوله : ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ ﴾ ، فهل يظلون جميعاً على النفاق ، أم أن منهم من يثوب إلى رشده ؛ ليجد أن موقفه مخز حتى أمام نفسه ؟ لأن أول ما ينحط المنافق إنما ينحط أمام نفسه ؛ لأنه نافق ولم يقدر على المواجهة ، واعتبر نفسه دون من يواجهه ؛ فيحتقر نفسه ، ولا بد أن منهم من يأنف من هذا الموقف ، ويرغب فى حسم المسألة : إما أن يؤمن وإما أن يكفر ، ثم يرجح الإيمان ، ويتخلص من النفاق ؛ بأن يعترف بذنوبه .

وبذلك يصبح ممن يقول الحق عنهم : ﴿ وآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ ﴾ أى : ممن لم يُصرّوا على النفاق (٢) ، واعترفوا بذنوبهم ، والاعتراف لون من الإقرار . والإقرار بالذنب أنواع ، فهناك من يقر بالذنب إفاقة ، وآخر

---

(١) عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « ناركم جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم . قيل : يا رسول الله إن كانت لكافية ، قال : فضلت عليهن بتسعة وستين جزءاً كلهن مثل حرها » . أخرجه البخارى (٣٢٦٥) ومسلم (٢٨٤٣) .

(٢) اعترافهم وتوبتهم عن التخلف عن رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك .

يقر الذنب فى صفاقة ، مثلما تقول لواحد : هل ضربت فلاناً ؟ فيقول : نعم ضربته ، أى أنه اعترف بذنبه ، وقد يضيف : وسأضرب من يدافع عنه أيضاً ، وهذا اعتراف فيه صفاقة .

أما من يعترف اعتراف إفاقة ، فهو يقر بأنه ارتكب الذنب ويطلب الصفح عنه ، وهذا هو الاعتراف المقبول عند الله . وهم قد ﴿اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ﴾ اعتراف إفاقة ، بدليل أن الله قال فيهم : ﴿خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا ﴾ وعملهم الصالح هنا هو إقرارهم بالذنب ومعرفتهم أن فضيحة الدنيا أهون من فضيحة الآخرة ، أما عملهم السيىء فهو التخلف عن الجهاد والإنفاق .

واعترافهم هذا هو اعتراف الإفاقة ، واختلف العلماء : هل هذا الاعتراف يعتبر توبة أم لا ؟

نقول: إن الحق سبحانه وتعالى حينما قال: ﴿ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا ﴾ ثم قوله :﴿ عَسَى [١] اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أى : رجاء أن يتوب عليهم ، وهذه مقدمات توبة وليست توبة ، فإن صاحبها الندم على ما مضى ، والإصرار على عدم العودة فى المستقبل فينُظر هل هذا كان منه مخافة أن يُفضح أم موافقة لمنهج الله [٢] ؟

إن كان الأمر موافقة لمنهج الله فتكون التوبة مرجوّة لهم .

وكلمة ﴿خَلَطُوا﴾ تؤدى معنى جمع شيئين كانا متفرقين ، وجمع الشيئين أو الأشياء التى كانت متفرقة له صورتان ؛ الصورة الأولى : أن يجمعهم

(١) عسى فعل جامد دال على الترجى ، وإذا أسند الفعل إلى الله تعالى فمعناه أنه وعد بنفاذ الأمر المرجو أنه نافذ حتماً ، وعسى من أفعال الرجاء وتستعمل على أوجه أكثرها وجهان : الأول : أن يذكر بعدها اسم ظاهر ، والوجه الثانى: أن يذكر بعدها المصدر المؤول .
(٢) فإن كان موافقاً لمنهج الله كان القبول من الله .

على هيئة الافتراق ، كأن تأتى بالأشياء التى لا تمتزج ببعضها مثل : الحمص واللب والفول ، وتخلط بعضها ببعض فى وعاء واحد ، لكن يظل كل منها على هيئة الانفصال ، فأنت لم تدخل حبة اللب فى حبة الحمص ، ولم يتكون منهما شىء واحد ؛ لأنه لو حدث هذا لصار مزيجاً لا خلطاً ، مثلما تخلط الشاى باللبن ؛ لأنك بعد أن تجمعهما يصيران شيئاً واحداً ، بحيث لا تستطيع أن تفصل هذا عن ذاك .

إذن : فهم حين خلطوا العمل الصالح والعمل السَّيِّئ ، لم يجعلوا من العمل الصالح والعمل السَّيِّئ مزيجاً واحداً. لكن العمل الصالح ظل صالحاً ، والعمل الفاسد ظل فاسداً.

وقوله سبحانه : ﴿ عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ كلمة ﴿ عَسَى ﴾ معناها الرجاء [1] وهو ترجيح حصول الخير . وهو لون من توقع حصول شىء محبوب. والرجاء يخالف التمنى ؛ لأن التمنى هو أن تحب شيئاً وتتمنى أن يكون موجوداً ، لكنه لا يأتى أبداً، مثل قول الشاعر :

ألا لَيْتَ الشَّبابَ يَعُودُ يَوْماً   فَأخبِرُه بِماَ فعلَ المشِيبُ

إنه قد تمنى أن يعود شبابه ، وهذا دليل على أن فترة الشباب محبوبة ، لكن ذلك لا يحدث. إذن : فإظهار الشىء المحبوب له لونان : لون يتأتى، ولون لا يتأتى ، فالذى يتأتى اسمه (رجاء) ، والذى لا يتأتى نسميه (التمنى) ، مثل قول الشاعر:

لَيْتَ الكَوَاكِب تَدْنُو لِى فَأنظِمَهَا   عُقُودَ مَدْحٍ فما أرضَى لَكُمْ كَلمَا

---

(١)قال القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣١٦٩) : « هذه الآية وإن كانت نزلت فى أعراب فهى عامة إلى يوم القيامة فيمن له أعمال صالحة وسيئة » . وقال ابن كثير (٢/ ٣٨٥) : « هذه الآية وإن كانت نزلت فى أناس معينين إلا أنها عامة فى كل المذنبين الخطائين المخلطين المتلوثين » - والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

فالشاعر يتمنى حدوث ذلك ، ولكنه لن يحدث . أما الرجاء فهو أمل يمكن أن يحدث ، والرجاء له منازل ومراحل بالنسبة للنفس الإنسانية . فأنت عندما ترجو لواحد شيئاً فتقول: «عسى فلان أن يمنحك كذا » ، فأنت هنا مُتَرَجٍّ ، وهناك مترجّىً له، هو من تخاطبه ، ومترجّىً منه ، وهو من يعطى ، فهذه ثلاثة عناصر.

لكن ألك ولاية على من يمنح ؟ لا ، لكن إن قلت: عسى أن أمنحك أنا كذا ، فأنت ترجو لواحد غيرك أن تمنحه أنت ، وهذا أرجى أن يتحقق. وحين تقول : « عسى أن أمنحك » فقد تقولها فى لحظة إرضاء للذى تتحدث معه . ثم قد يبلغك عنه شيء يغير من نفسك ، أو جئت ؛ لتعطيه ، فلم تجد ما تعطيه له ، هنا لم يتحقق الرجاء.

لكن عندما تقول : « عسى الله أن يمنحك » ، فأنت ترجو له من الله ، وهو القادر على كل شيء ولا تؤثِّر فيه أغيار ، أما إذا قال الله عن نفسه: « عسى الله أن يفعل » ، فهذا أقوى وسائل الرجاء.

إذن: فنحن أمام أربع وسائل للرجاء . أن تقول : « عسى فلان أن يمنحك » أو أن تقول : « عسى أن أمنحك أنا » ، أو تقول: « عسى الله أن يمنحك » وقد يجيبنى الله ، أو لا يجيب دعائى ، لكن حين يقول الحق: « عسى أن أفعل» فهذا هو اللون الرابع من ألوان الرجاء ، وقالوا : الرجاء من الله إيجاب.

﴿ عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ ، فهذا رجاء أن يتوب الله عليهم ، أما توبة [1] العبد فمسألة تقتضى الندم على ما فات ، والرجوع إلى منهج الله ،

---

(١) تاب : رجع عن المعاصى ، وتاب إلى الله رجع إليه بالطاعة بعد المعصية ، وتاب الله عليه وفقه للتوبة وقبلها منه – قال تعالى: ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ﴿٣٩﴾﴾ [المائدة]

والعزم على ألا يغضب الله فى المستقبل . أما توبة الله فهى تضم أنواع التوبة، فتشريع الله للتوبة رحمة بمن ارتكب الذنب ، ورحمة بالناس الذين وقع عليهم السلوك الذى استوجب التوبة. فإن تُبْتَ ؛ فقبول التوبة رحمة ثانية ، فلو لم يشرع الله التوبة لا ستشرى كل من ارتكب ذنباً واصطلى المجتمع بشروره. لكن حين يشرع الله التوبة ؛ فهناك أمل أن يرجع العبد إلى الله ، ويتخلص المجتمع من إمكانية عودته للذنب ، وانتهى هو من أن يوقع مصائب بغيره.

فإذا قَبلَ الله التوبة ، يقال : « تاب الله على فلان »، فلله إذن أكثر من توبة، ولذَلك حين تقرأ قوله الحق :

﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ... ﴿١١٨﴾ ﴾ [التوبة]

أى : شرع لهم التوبة ؛ ليتوبوا ، فإذا تابوا فسبحانه قابل التوب . إذن : فالتوبة ثلاث مراحل : تشريع للتوبة ، ثم توبة واقعة ، فقبول للتوبة . والتوبة رجوع عن شىء ، وهى بالنسبة للعبد رجوع عن ذنب ، وبالنسبة لله إن كان الذنب يستحق أن يعاقب الله به ، فإذا تبت أنت ، فالحق يعفو ويرجع عن العقوبة [(١)] .

ويُنهى الحق الآية : ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ ؛ لأن المغفرة بالنسبة للعبد صعبة ، فإن سرق واحد منك شيئاً فهو يضرك ، ويلحّ عليك حب الانتقام منه ؛ لأن الضرر أتعبك ، لكن أيُتْعبُ أحد ربه بالمعصية ؟ لا ؛ لأنك إن

(١) قال الإمام أبو حامد الغزالى فى شرح اسم الله (التواب) : « هو الذى يرجع إلى تيسير التوبة لعباده مرة بعد أخرى ، بما يظهر لهم من آياته ، ويسوق إليهم من تنبيهاته ، ويطلعهم عليه من تخويفاته وتحذيراته ، حتى إذا اطلعوا بتعريفه على غوائل الذنوب استشعروا الخوف بتخويفه ، فرجعوا إلى التوبة ، فرجع إليهم فضل الله تعالى بالقبول » . المقصد الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى (ص ١٢٣) ط . مكتبة القرآن .

كنت قد أضررت بأحد فإنما أضررت بنفسك ، ولم تضر الله سبحانه ؛ لأنه سبحانه لا يلحقه ضررٌ بذنبك [١] ، وإنما الذنب لحقك أنت .

فحين يقول سبحانه : ﴿ غَفُورٌ ﴾ فهو غفور لك ، و﴿ رَّحِيمٌ ﴾ بك .
والمصائب أو الكوارث نوعان ؛ نوع للإنسان فيه غريم ، ونوع يصيب الإنسان ولا غريم له . فإن مرض إنسان فليس له غريم فى المرض ، أما إذا سرق إنسان فاللص هو غريمه ، ومصيبة الإنسان التى فيها غريم تدفع النفس إلى الانفعال برد العقوبة إليه ، أما حين تكون المصيبة من غير غريم فهى تحتسب عند الله ، ويقال : إن المصيبة التى ليس فيها غريم هى التى تحتاج لشدة إيمان ، والحق يقول :

﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ (٤٣) ﴾ [الشورى]

هنا يؤكدها ؛ لأن غريمه يلح عليه ، فساعة يراه يتذكر ما فعله غريمه به ، فتكون هناك إهاجة على الشر.

أما قوله سبحانه :

﴿ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ (١٧) ﴾ [لقمان]

فلم يؤكدها ، فالمصيبة هنا من سيكون غريمه فيها ؟ والذين اعترفوا بذنوبهم هم قوم تخلفوا بغير عذر ، ثم جاءوا وقالوا : ليس لنا عذر ، ولم يختلقوا أعذاراً ؛ لأننا نعلم أن هناك أناساً لم يعتذروا ، وأناساً آخرين

---

(١) عن أبى ذر عن النبى ﷺ فى الحديث القدسى : « يا عبادى . إنكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى . ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى . يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم . كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئاً . يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكى شيئاً » . أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٥٧٧) وأحمد فى مسنده (٥/ ١٥٤ ، ١٧٧) والترمذى فى سننه (٢٤٩٥) وكذا ابن ماجه (٤٢٥٧) .

اعتذروا بأعذار صادقة ، وآخرين اعتذروا باعتذارات كاذبة ، وهم قد ﴿ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ ﴾ أى : أعلنوا أن اعتذاراتهم عن الغزوة لم تكن حقيقية وأنه لم يكن عندهم ما يبرر تخلفهم عن الغزو ؛ فهؤلاء تاب الله عليهم فى نفوسهم أولاً ، ورسول الله لا يزال فى الغزوة فى تبوك التى تخلفوا عنها .

ثم عاد الرسول من الغزوة ، ودخل المسجد كعادته حين يرجع إلى المدينة ، وأول عمل كان يعمله بعد العودة هو أن يدخل المسجد ، ويصلى فيه ركعتين[(١)] . فوجد أناساً قد ربطوا أنفسهم بسوارى المسجد وهى الأعمدة فسأل عن هؤلاء ، فقالوا : هؤلاء قوم تخلفوا و كانت أعذارهم كاذبة لكنهم اعترفوا بذنوبهم ، وقد عاهدوا الله ألا يحلوا أنفسهم حتى تكون أنت الذى تحلهم وترضى عنهم فقال ﷺ : «وأنا أقسم بالله لا أطلقهم ولا أعذرهم حتى أؤمر بإطلاقهم ؛ رغبوا عنى وتخلفوا عن الغزو مع المسلمين »[(٢)] . فلما أنزل الله هذه الآية حلهم رسول الله ومنهم : أبو لبابة .

ولذلك من يذهب ليزور المدينة إن شاء الله ، سيجد أسطوانة اسمها " أسطوانة أبى لبابة " وهو أول من ربط نفسه على السارى ، وقلده الآخرون . وهذا يدلك على أن المؤمن حين تختمر فى نفسه قضايا الإيمان فهو لا ينتظر أن يعاقب من الله ، بل يبادر هو إلى أن يعاقب نفسه .

ومثال ذلك : المرأة التى زنت ، والرجل الذى زنا ، واعترفا لرسول الله ليرجمهما[(٣)] ، ومعنى ذلك أنهما لم ينتظرا حتى يعذبهما الله ، بل ذهب

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٧٦٩) ضمن حديث طويل عن كعب بن مالك فى توبته من تخلفه عن غزوة تبوك مع رسول الله ﷺ . وأخرجه مختصراً أحمد فى مسنده (٣/ ٤٥٥) وأبو داود فى سننه (٢٧٧٣) .

(٢) انظر سبب نزول الآية فى تفسير القرطبى (٤/ ٣١٦٨) وأسباب النزول للواحدى (ص ١٤٨) .

(٣) الرجل هو ماعز بن مالك الأسلمى ، أخرج قصته البخارى فى صحيحه (٦٨١٥) ومسلم (١٦٩١) وفى بعض طرق مسلم أن ماعزاً قال : يا رسول الله إنى قد ظلمت نفسى وزنيت وإنى أريد أن تطهرنى . أما المرأة فهى الغامدية . أخرج قصتها مسلم (١٦٩٥) .

كل منهما بنفسه . ولذلك حين جاء سيدنا عمر ، وكاد أن يركل جثة أحدهما قال الرسول : « دعها يا عمر فقد تابت توبة لو وزعت على أهل الأرض لوسعتهم »[١] .

وكون أبى لبابة يربط نفسه بالسارية ، فهذا يدل على أن المؤمن إذا اختمرت فى نفسه قضية الإيمان ، فإنه لا يترك نفسه إلى أن يلقاه الله بعذابه ، بل يقول : لا ، أنا أعذب نفسى كى أنجو من عذاب الله ، فهو قد تيقن أن هناك عذاباً فى الآخرة أقسى من هذا العذاب . فلما اعترفوا بذنوبهم وراجعوا أنفسهم متسائلين : ما الذى شغلنا عن الغزو ، وجعلنا نعتذر بالكذب ؟ وجدوا أنهم فى أثناء غزوة تبوك وقد كانت فى الحر ، وفيه كانت تطيب جلسات العرب تحت الظلال وأن يأكلوا من التمر . فقالوا : والله ، إن المال هو الذى شغلنا عن الغزو وجعلنا نرتكب هذا الذنب ، و لابد أن نتصدق به ؛ لذلك قلنا : إن هذه لم تكن الصدقة الواجبة ، بل هى صدقة الكفارة .

وهؤلاء قالوا للرسول ﷺ : خذ هذا المال الذى شغلنا عن الجهاد ، فلم يقبل حتى ينزل قول من الله ، فأنزل الحق قوله :

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾

هذه هى الصدقة غير الواجبة ؛ لأنها لو كانت الصدقة الواجبة لما احتاجت إلى أمر جديد ، بل هى صدقة الكفارة .

---

(١) وذلك أن رسول الله ﷺ أمر بالمرأة فرجمت . ثم صلى عليها . فقال له عمر : تصلى عليها يا نبى الله وقد زنت ؟. فقال : « لقد تابت توبة لو قسمت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم ، وهل وجدت توبة أفضل من أن جادت بنفسها لله تعالى » أخرجه مسلم فى صحيحه (١٦٩٦) وأحمد فى مسنده (٤/ ٤٤٠) .

وقوله الحق : ﴿ مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴾ يعنى أموال من اعترفوا بذنوبهم ، وقد نسب الأموال وملكيتها لهم ، رغم أن المال كله لله ، مصداقاً لقوله :

﴿ وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِى آتَاكُمْ ... (٣٣) ﴾ [النور]

ولكن الحق ينقله إلى خلقه تفضلاً منه ، وأوضح سبحانه إذا قلت لكم : أخرجوا شيئاً من المال الذى وهبتكم إياه فلن أرجع فيما وهبته لكم ، ولذلك إذا احتاج مؤمن شيئاً من مؤمن مثله ، فالحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ مَن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ ... (٢٤٥) ﴾ [البقرة]

وسبحانه واهب المال وهو يحترم هبته لصاحب المال .

وقوله : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً ﴾ لاحظ فيه العلماء أن المال حين يضاف إلى صاحبه فهو تطمين له ، حتى يتحرك فى الحياة حركة فوق ما يحتاج ، ويبقى له شىء يتموَّله ، وبذلك يحرص الإنسان على الحركة التى ينتفع بها الغير ، وإن لم يقصد . فيوضح له الحق : اطمئن إلى أن كل شىء سيزيد عن حاجتك يصبح ملكاً لك ، ولا يخرج المال عن ملكية صاحبه إلا إذا كان صاحبه غير أهل للتصرّف [١] ، مصداقاً لقوله الحق :

﴿ وَلاَ تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ ... (٥) ﴾ [النساء]

لأن السفيه [٢] لا يصح أن يتملك ؛ لأنه بالحمق قد يضيع كل شىء ،

(١) وهذا ما يعرف بالحَجْر ، قال ابن كثير فى تفسير ﴿ وَلاَ تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ (٥) ﴾ [النساء] : « ومن ههنا يؤخذ الحجر على السفهاء ، وهم أقسام ، فتارة يكون الحجر للصغر فإن الصغير مسلوب العبارة ، وتارة يكون الحجر للجنون ، وتارة لسوء التصرف لنقص العقل أو الدين ، وتارة للفلس وهو ما إذا أحاطت الديون برجل مضاق ماله عن وفائها ، فإذا سأل الغرماء الحاكم الحَجْر عليه حَجَر عليه » . (١/ ٤٥٢) .

(٢) السفيه : هو ناقص العقل سىء التصرف يقول الحق : ﴿ وَلاَ تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ (٥) ﴾ [النساء] أى : الذين يسيئون التصرف لجهلهم أو نقص عقولهم ، ويقول الحق أيضاً : ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ ... (١٣٠) ﴾ [البقرة] حملها على الجهل والطيش .

فينزل الحق الحكم : إن مال السفيه الذى يملكه ليس ماله إنما هو مالكم . ولكن إلى متى ؟ فيأتى القول الحق :

﴿ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ .. ⦗٦⦘ ﴾ [النساء]

أى : ردوا إليهم أموالهم متى عادوا إلى الرشد وصاروا أهلاً للملكية .

والحق فى هذه الآية يقول :

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ والله سبحانه وتعالى هو صاحب المال ، وهو يأتى بالمال ، بالأسباب التى جعلها للبشر فى حركة الحياة ، وأمَّنهم على عرقهم ، وأمَّنهم على ما يملكون ؛ حتى لا يزهد أحد فى الحركة ؛ فلو أخذ كل واحد من حركته على قدر نفسه ، ولم يتملك المال ؛ لضنّ الناس بالحركة . وإذا ضن الناس بالحركة ؛ فلن يستفيد غير القادرين على الحركة ، فأراد الله سبحانه وتعالى أن يجعل ما يزيد على حاجات الناس ملْكاً لهم ؛ لأن النفس تحب أن تتملك، والتملك أمر غريزى فى النفس ؛ بدليل أن الله سبحانه وتعالى هو الذى طلب أن يؤخذ من الأموال ، وأوضح أنه يضاعفها له ، ومعنى أنه يضاعفها عنده أنه يُنمى فيه غريزة التملك.

وقوله الحق : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴾ نلحظ فيه أن الأموال أضيفت لأصحابها ، ما لم يكن فيهم سفه فى التصرف أو عدم رشد ؛ بأن يكون وارث المال قاصراً لا يقدر على التصرف فيه ، فأوضح لنا سبحانه : لا تعتبروا مال السفيه ولا مال القاصر ماله ، ولكن ليرعى الوصىّ المال باعتبار أنه ماله هو ، وحذَّر سبحانه الوصىَّ : إياك أن تتعدى فى ملكية هذا المال ؛ لأن الذى جعله مالك ، إنما جعل الملكية من أجل القيامة على المال، ولأجل هو أن يبلغ القاصر رشده ، أو يرجع السفيه إلى عقله.

﴿ وَلاَ تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا ... ⑤ ﴾[النساء]

فإياك أيها الوصى ، أن تظن أن الله قد أعطى لك هذا المال ، بل جعل لك حق القيام عليه فقط ، ثم يقول سبحانه : ﴿ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ﴾ ولم يقل : « فادفعوا إليهم أموالكم » وإلا كان الأمر صعباً على الناس .

وهنا ملحظية لحظها العلماء رضى الله عنهم ، وهو أن المال إذا كان فيه حق معلوم للسائل [1] والمحروم ، فلا يصح أن ينسب الإنسان المال كله لنفسه؛ لأن له شركاء فيه هما السائل والمحرو م ، فالمال - إذن - ملكية صاحبه باستثناء حق السائل والمحروم.

وفى آية أخرى قال الحق :

﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ㉔ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ㉕ ﴾ [المعارج]

و«الحق المعلوم » هو الزكاة المفترضة من نصاب معلوم بقدر معلوم ، وأما الأمر الثانى فهو حق أيضاً ، ولكن الذى يوجبه ويحدده هو صاحب المال على نفسه ، وهو التطوع ، ولذلك لم يقل : حق معلوم كما فى سورة الذاريات :

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ⑮ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ⑯ كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ⑰ وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ⑱ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ⑲ ﴾ [الذاريات]

---

(١) الحق المعلوم هو الزكاة المفروضة ، والحق الغير معلوم هو ما ترك لاختيار النفس فى العطاء للوصول إلى مقام الإحسان بقدر كرمه مع الله .

لقد ذكر سبحانه هنا الحق ولم يقل إنه معلوم ؛ لأن صاحب المال داخل فى مقام الإحسان [1] ، وهو المقام الذى يلزم الإنسان فيه نفسه بشىء فوق ما فرض الله من جنس ما فرض الله . والله سبحانه لم يفرض على الإنسان أن يقوم الليل كله ، أو يظل الليل يستغفر ، بل إن المسلم له أن يصلى العشاء وينام ، ثم يقوم لصلاة الفجر. لكن إن وجد فى نفسه نشاطاً ، فهو يقوم الليل ؛ لأنه يريد أن يدخل فى مرتبة الإحسان.

وكذلك يؤدى المسلم الزكاة وهذا حق معلوم ، أما إن رغب المسلم فى أن يدخل فى مقام الإحسان فهو يزيد على الزكاة ، وقد جعل الله هذا حقّاً لكنه غير معلوم ؛ ليفسح لأريحيات الكرام أن يتجاوزوا الحق المعلوم ، فبدلاً من اثنين ونصف بالمائة ، قد يجعلها الداخل إلى مقام الإحسان ضعف ذلك أو أكثر.

ووقف العلماء رضى الله عنهم هنا وقالوا : إن قوله الحق : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴾ لا يعنى اعتبار الجزء المأخوذ من المال للفقير هو حق الفقير ، بل هو مال المؤدى ، ولو بيّن الله حق الفقير وعزله عن مال صاحبه ، فهذا يعنى أن المال إن هلك فليس للفقير شىء ، ولكن لأن المال مال الغنى فحق الفقير محفوظ فى ذمة صاحب المال ، وهذا أفضل للفقير ، فإن الغنى لو لم يؤد الزكاة فى ساعتها ، وبعد ذلك حدث أن هلك المال ، فالغنى ضامن لحق الفقير.

---

(١) حَسُن الشىء صار حسناً جميلاً قال تعالى: ﴿وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾ [النساء] - أى : صار رفيقاً حسناً - « وأحسنُ » أفعل تفضيل ، مؤنثه « الحسنى» قال الحق : ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴿١٨﴾﴾[الزمر] - وقال: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ﴿٩٥﴾﴾ [النساء] - أى : المنزلة التى هى أحسن المنازل ، والإحسان هو الكرم المخلص والعطاء الخالص ، والإحسان إلى الوالدين إكرامها - وهو أعلى مقامات القرب إلى الله .

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ ﴾ والصدقة تطهرهم ؛ لأن الذنب الذى فعلوه واعترفوا به تسبّب فى تقذير أنفسهم بالمعصية ، وماداموا قد قذروا أنفسهم بالمعصية [(١)] ، فهم فى حاجة أن يُطهَّرُوا بالمال الذى كان سبباً فى عدم ذهابهم إلى الغزوة.

وانظر هنا إلى ملحظ « الأداء البيانى » فى القرآن ، فالحق سبحانه يقول: ﴿ خُذْ ﴾ وهو أمر للنبى ﷺ ، ويقول: ﴿ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً ﴾ من أموال الأغنياء ، هذه الصدقة ستذهب للمحتاج ، إذن هنا أربعة عناصر: آخذٌ هو رسول الله ﷺ ، ومأخوذ منه هو صاحب المال ، ومأخوذ هو المال ، ومأخوذ له هو الفقير المحتاج.

وما دام الأمر لرسول الله ﷺ ، فهذا الأمر ينسحب بالتالى على كل من ولِىَ أمراً من أمور المسلمين . ولقائل أن يقول: ولكنها صدقة وليست زكاة. ونقول : ما دام الله هو الذى أمر بها تطهيراً فقد صارت واجباً، والآية صريحة ، وتقتضى أنه مادامت هناك ولاية شرعية ، فولى الأمر هو الذى يأخذ من الناس ويؤدى للفقراء ، أو لأوجه الصرف التى شرعها الله [(٢)] ؛ لأن الله لا يريد أن يعذب الفقير بأن يمد يده آخذاً من مُسَاوٍ له ، أما إن أخذ من الوالى وهو المسئول عن الفقراء ، فلن يكون عيباً ، كما أن

---

(١) أى: جعلوا أنفسهم محلا للّوم والتقبيح . وقد أخرج الإمام مالك فى موطئه (ص ٨٢٥) من حديث زيد بن أسلم مرسلاً أن رسول الله ﷺ قال: « أيها الناس قد آن لكم أن تنتهوا عن حدود الله، من أصاب من هذه القاذورات شيئاً فليستتر بستر الله . فإنه من يبدى لنا صفحته نُقم عليه كتاب الله » .

(٢) ومصارف الزكاة قد بينها سبحانه فى قوله :﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِى سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦٠)﴾ [التوبة] ، وقد سبقت خواطر فضيلة الشيخ وإلهاماته عند تفسير الآية. ولولى الأمر الذى يطبق شرع الله أن يأخذ من أموال المسلمين لإقامة صرح العدالة فى المجتمع مصداقاً لمفهوم الآيات .

الحق سبحانه يريد أن يحمى أهل الفقير من أن يعلموا أن البيت الفلانى يعطى لهم زكاة ، فيعانى أولاد الآخذ من المذلة أمام أولاد المعطى ، ويعيش أبناء المعطى فى تعال لا لزوم له. إذن: فحين يكون الوالى هو الذى يعطى فلن يكون هناك مُسْتعلٍ أو مُستعلًى عليه.

أما إن لم تكن هناك ولاية إسلامية، ولا يعلم الإنسان إلى أين ستذهب الأموال، فهنا يصبح على كل إنسان أن يراعى محيط دينه وهو يخرج الزكاة وحينئذ يكون عندنا مُعْطٍ هو صاحب المال، ومال مُعْطًى ، ومعطًى له هو الفقير.

وعلى من يعود قوله الحق : ﴿ تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم ﴾ ؟ السطحيون فى الفهم يقولون: إنها تطهر من نأخذ منه المال، وتزكّى المال الذى نأخذ منه. لكن من يملك عمقاً فى الفهم يقول: مادامت هناك فى هذه الآية عناصر، فضرورى أن يعود التطهير (١) والتزكية عليها ، وإنها تطهر وتزكى المأخوذ منه صاحب المال ، وكذلك تطهر وتزكى المال المأخوذ ، وأيضاً تطهر وتزكى المأخوذ له وهو الفقير ، لأن التطهير معناه إزالة قَذَر ، والتزكية نماء.

القذارة أمر عارض على الشيء الذى نغسله ونطهره ، وتنمية له بشيء عائد عليه فيزداد ، وهكذا تُطهر الصدقة وتزكى عناصر الفعل كلها. والتطهير لمن يعطى، له معنى معه ، والزكاة لها معنى معه ؛ لأنك إن أخذت منه المال ، فقد يكون قد غفل وأدخل فى ماله شيئاً فيه شبهة، فالصدقة والزكاة تطهران هذا المال.

---

(١) طهُرَ يَطهُر من باب كَرُم ونصر - طُهراً وطهَارة زال عنه الدنس والقذر حسياً ومعنوياً ، وطهرت النفس سلمت من الآفات الخلقية وتنزهت عن النفاق وعن الحقد وعن كل الرذائل قال تعالى : ﴿ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا ﴿٦﴾ ﴾ [المائدة] . هذا فى الحسيات وقوله تعالى : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴿١٠٣﴾ ﴾[التوبة] تنزه قلوبهم وأنفسهم من الآفات الخلقية ، وهذا فى المعنويات .

أما كيف تنمِّى صاحب المال ؟ أنت إن أخذت منه وهو قادر، معنى ذلك أنك تطمئنه أنه إذا احتاج فستعطيه ، وبهذا يعرف أنه لا يعيش فى المجتمع بمفرده ، ولا يخاف أن يضيع منه المال ، واطمأن لحظة أن أخذت منه المال وهو قادر كى تعطى المحتاج ، فكأنك تطمئنه وتقول له: أنت لو احتجت فلن تضيع ، وبذلك تُنمِّى تواجده وثقته ، وطهرته أيضاً من أن يكون فى ماله شبهة ، هذا من ناحية صاحب المال.

أما من ناحية المال نفسه ، فالصدقة تطهر المال ؛ لأن المال قد يزيد فيه شىء فيه شبهة فالزكاة تطهره.

وقد يخيل إليك أنك حين تأخذ من المال فهو ينقص ، عكس الربا الذى يزيد المال ، فالربا مثلاً يحقق زيادة للمائة جنيه فتصبح مائة وعشرة مثلاً، أما المزكِّى فالمائة جنيه تصير سبعة وتسعين ونصفاً ، والسطحى يرى أن الزكاة أنقصت المال وأن الربا يزيده ، ولكن هذا بمقاييس البشر ، لا بمقاييس من يملك الأشياء ؛ فالزكاة التى تعتبرونها نقصاً تنمِّى ، والربا الذى تعتبرونه ينمّى إنما يُنقص ، والحق يقول:

﴿ يَمْحَقُ اللَّهُ [1] الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ ... (٢٧٦) ﴾ [البقرة]

إذن : فهناك مقاييس عند البشر ، ومقاييس أخرى عند الحق ، فما رأيته منقصاً لك ، هو عند الله زيادة ، وما رأيته مزيداً لك ، هو فى الواقع نقصٌ ، كيف ؟ لأن الناس لا ينظرون إلا إلى رزق الوارد الإيجابى ، ويظنون أن هذا هو الرزق ، ولا يتذكرون أن هناك رزقاً اسمه « رزق السلب» ، فرزق الإيجاب قد يزيد دخلك مثلاً من مائة إلى مائة وعشرة .

---

(١) محقه من باب فتح : أنقصه ، أو أبطله ، أو أهلكه قال تعالى : ﴿ وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ (١٤١) ﴾ [آل عمران] أى يهلكهم وقال: ﴿ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا (٢٧٦) ﴾ [البقرة] أى ينقصه أو يهلكه ، نقيض ما يفعل بالصدقات .

ورزق السلب يتمثل فى أنك تصرف سبعين فقط ، بدلاً من أن تصرف مائةً ، فيبقى لك ثلاثون ، بالإضافة إلى أنه يمنع عنك مصارف الشر ، هذا من ناحية المال.

والحق يقول:

﴿ وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [الروم]

وكيف تكون الصدقة تطهيرا للآخذ وهو لم يذنب ذنباً يحتاج إلى تطهير ، بل هو مُعطىً له لأنه محتاج ؟ ونقول: إن الآخذ حين يأخذ من مال غيره ، وهو عاجز عن الكسب فهو يتطهر من الحقد على ذى النعمة ؛ لأنه وصله بعض من المال الذى عند ذى النعمة ، فلا يحقد عليه ولا يحسده ، فهو إن رأى عنده خيراً ، دعا له بالزيادة ؛ لأن بعضاً من الخير يعود عليه.

والفلاحون فى ريف مصر يهدون بعضهم بعضاً من لبن ماشيتهم ، أو بعضا من الخير الخارج من لبنها ، وساعة أن تمر إحداها على أهل القرية يدعون الله بحمايتها ، وهكذا تتطهر نفس الفقير من الحقد والحسد.

هذا عن التطهير ، فماذا عن التزكية والنماء ؟ إن الفقير ساعة يرى نفسه فقيراً ، ويرى أن المجتمع الإيمانى يقوم برعايته ولا يتركه وحيداً ، ويتسابق أهل الخير لنجدته ، فنفسه تنمو بالاطمئنان ؛ لأنه فى مجتمع إيمانى. إذن: فقوله الحق : ﴿ تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم ﴾ راجع لكل العناصر فى الآية.

ثم يقول سبحانه: ﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ﴾ أى: ادع لهم بالخير؛ ولذلك كان النبى ﷺ كلما أتاه قوم بأى صدقة قال: « اللهم صَلِّ عليهم » فأتاه

أبو أوفى بصدقته ، فقال : « اللهم صَلِّ على آل أبى أوفى »[1] ، هذه هى التزكية القولية التى يحب كل مسلم أن يسمعها فيعطِى ، ويجدّ ويجتهد من ليس عنده ؛ ليسمعها من رسول الله ﷺ .

وقوله الحق : ﴿ إِنَّ صَلاَتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ﴾ أى : اطمئنان لهم ، وما دام الرسول ﷺ قد دعا له ، فهو قد اطمأن إلى أن صدقته وصلت إلى مرتبة القبول حيث جازاها رسول الله بالدعاء . وإذا ما سمعها الآخذ للصدقة يقول بينه وبين نفسه : ولماذا لا أجِدّ فى حياتى وأجتهد ؛ حتى أظفر بتلك الدعوة من رسول الله ﷺ ؟

ويُنهى الحق الآية بقوله : ﴿ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ أى أنه سبحانه ﴿سَمِيعٌ﴾ لكل ما تعتبره قولاً . و﴿ عَلِيمٌ ﴾ بكل ما تعتبره فعلاً .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ ﴾

و﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا ﴾ مكونة من ثلاث كلمات هى : همزة استفهام ، « لم » حرف نفى ، و«يعلم» وهو فعل . فهل يريد الله هنا أن ينفى عنهم العلم أم يقرر لهم العلم ؟ لقد جاء سبحانه بهمزة يسمونها « همزة الاستفهام الإنكارى » والإنكار نفى ، فإذا دخل نفى على نفى فهو إثبات ، أى «فليعلموا » .

---

(١) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (١٤٩٧) ومسلم (١٠٧٨) من حديث عبد الله بن أبى أوفى .

ولماذا لم يأت بالمسألة كأمر ؟ نقول: إن الحق حين يعرضها معرض الاستفهام فهو واثق من أن المجيب لا يجيب إلا بهذا ، وبدلاً من أن يكون الأمر إخباراً من الله ، يكون إقراراً من السامع .

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ ﴾ لماذا جاء الحق بكلمة ﴿هُوَ﴾ ، وكان يستطيع سبحانه أن يقول : "ألم يعلموا أن الله يقبل التوبة" ولن يختل الأسلوب ؟

أقول : لقد شاء الحق أن يأتى بضمير الفصل ، مثلما نقول : فلان يستطيع أن يفعل لك كذا . وهذا القول لا يمنع أن غيره يستطيع إنجاز نفس العمل، لكن حين تقول : فلان هو الذى يستطيع أن ينجز لك كذا . فهذا يعنى أنه لا يوجد غيره . وهذا هو ضمير الفصل الذى يعنى الاختصاص والقصر ويمنع المشاركة.

لذلك قال الحق: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ ...(١٠٤)﴾ [التوبة]

وهل كانت هناك مظنة أن أحداً غير الله يقبل التوبة ؟ لا ، بل الكل يعلم أننا نتوب إلى الله ، ولا نتوب إلى رسول الله. ونحن إذا استعرضنا أساليب القرآن، وجدنا أن ضمير الفصل أو ضمير الاختصاص هو الذى يمنع المشاركة فيما بعدها لغيرها؛ وهو واضح فى قصة سيدنا إبراهيم حين قال :

﴿إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ(٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٧٤) قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧)﴾ [الشعراء]

ولم يقل سيدنا إبراهيم : "إنهم أعداء" ، بل جمعهم كلهم فى عصبة واحدة وقال : ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي ﴾.

و﴿إِنَّهُمْ ﴾ - كما نعلم - جماعة ، ثم يقول بعدها ﴿ عَدُوٌّ ﴾ وهو مفرد ، فجمعهم سيدنا إبراهيم وكأنهم شىءٌ واحد . وكان بعضٌ من قوم إبراهيم يعبدون إلهاً منفرداً، وجماعة أخرى يعبدون الأصنام ويقولون : إنهم شركاء للإله . إذن : كانت ألوان العبادة فى قوم إبراهيم عليه السلام تتمثل فى نوعين اثنين.

ولما كان هناك من يعبدون الله ومعه شركاء، فقول إبراهيم قد يُفسر على أن الله داخل فى العداوة ؛ لذلك استثنى سيدنا إبراهيمُ وقال : ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ ، أى : أن الله سبحانه ليس عَدُوّا لإبراهيم عليه السلام، وإنما العداوة مقصورة على الأصنام . أما إن كان قومه يعبدون آلهة دون الله ، أى : لايعبدون الله ، لم يكن إبراهيم ليستثنى .

والاستثناء هنا دليل على أن بعضاً من قومه هم الذين قالوا :

﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ... ﴿٣﴾ ﴾ [الزمر]

وهكذا تبرأ سيدنا إبراهيم عليه السلام من الشركاء فقال : ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ وهذا كلام دقيق محسوب . وأضاف:

﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ ﴾[1] [الشعراء]

ولم يقل: " الذى خلقنى يهدينى" ، بل ترك "خلقنى" بدون "هو" وخَصَّ الله سبحانه وحده بالهداية حين قال : ﴿ فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ ؛ لأن "هو"

(١) إن الأفعال التى لا تصدر إلا عن الله سبحانه وتعالى ، وليس للمخلوق فيها دخل لم يأت بضمير التخصيص ، مثل قوله تعالى :﴿الَّذِي خَلَقَنِي ﴿٧٨﴾ ﴾ [الشعراء] أما إذا كان الفعل يدعى البعض أنه فاعله فإن الأسلوب القرآنى يرد عليه بضمير الاختصاص ؛ لأن الهداية من الله ، وليس للعبد دخل فيها إلا بالقبول والالتزام .

لا تأتى إلا عند مظنة أنك ترى شريكاً له ، أما مسألة الخلق فلا أحدٌ يدّعى أنه خلق أحداً . فالخلق لا يُدَّعى ، ولذلك لم يقل " الذى هو خلقنى " .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿ ولَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ... ﴿٨٧﴾ ﴾ [الزخرف]

فليس هناك خالق إلا هو سبحانه . إذن : فالأمر الذى لا يقول به أحد غير الله لا يأتى فيه الضمير . لكن الأمر الذى يأتى فيه واحد مع الله ، فهو يخصَّص بـ"هو" تأكيداً على تخصيصه لله وحده ﴿ الَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ فليس لأحد أن يُدخل أنفه فى هذه المسألة ؛ لأن أحداً لم يدّع أنه خلق أحداً ، فمجىء الاختصاص - إذن - كان فى مجال الهداية بمنهج الحق ، لا بقوانين من الخلق . فمن الممكن أن يقول بشر : أنا أضع القوانين التى تسعد البشر ، وتنفع المجتمع ، وتقضى على آفاته ، ونقول : لا ، إن الذى خلقنا هو وحده سبحانه الذى يهدينا بقوانينه .

إذن : فما لا يُدَّعى فلا تأتى فيه (هو) ، أما ما يمكن أن يُدَّعَى فتأتى فيه (هو). وقوله سبحانه :

﴿ وَالَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ ﴾ [الشعراء]

وجاء هنا أيضاً بضمير الفصل ؛ لأن الإنسان قد يرى والده وهو يأتى له بالطعام والشراب فيظن أن الأب شريك لله ؛ لذلك جاء بـ ﴿هُوَ﴾ ، فأنت إن نسبت كل رزق يأتى به أبوك، لانتهيت إلى مالم يأت به الأب ؛ لأن كل شىء فيه سببٌ للبشر ينتهى إلى ماليس للبشر فيه أسباب ، فكل شىء من الله ؛ لذلك قال سيدنا إبراهيم :

﴿ وَالَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ ﴾[الشعراء]

وخصص الشفاء أيضاً ؛ حتى لا يظن ظان أن الطبيب هو الذى يشفى ، وينسى أن الله وحده هو الشافى ، أما الطبيب فهو معالج فقط ؛ ولذلك تجد أننا قد نأخذ إنساناً لطبيب ، فيموت بين يدى الطبيب؛ ولذلك يقول الشاعر عن الموت :

إنْ نَـام عنْكَ فَأىُّ طِبٍّ نَافِعٌ ... أوْ لم يَنَمْ فالطِّبُّ مِن أذنَابهِ

فقد يعطى الطبيب دواءً للمريض ، فيموت بسببه هذا المريض. وجاء سيدنا إبراهيم بالقصر فى الشفاء لله ؛ حتى لايظن أحد أن الشفاء فى يد أخرى غير يد الله سبحانه. ثم يقول سيدنا إبراهيم :

﴿ وَالَّذِى يُمِيتُنِى ... (٨١) ﴾ [الشعراء]

ولم يقل : "هو" يميتنى ؛ لأن الموت مسألة تخص الحق وحده ، وقد يقول قائل : كان يجب أن يقول : "هو يميتنى" ، ونقول : انتبه إلى أن الموت غير القتل ، فالموت يتم بدون نقض للبنية ، والقتل لا يحدث إلا بنقض البنية ، ويضيف الحق على لسان سيدنا إبراهيم :

﴿ وَالَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) ﴾ [الشعراء]

وأيضاً لم يقل : "هو يحيينى " ؛ لأن هذا أمر خارج عن أى توهم للشركة فيه ، فقد جاء بـ "هو " فى الأمور التى قد يُظن فيها الشركة ، وهو كلام بالميزان :

﴿ وَالَّذِى أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيئَتِى يَوْمَ الدِّينِ (٨٢) ﴾ [الشعراء]

لم يأت أيضاً بـ "هو" ؛ لأن المغفرة لا يملكها إلا الله [1] .

---

(١) وفى هذا يقول سبحانه : ﴿ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ .. ﴾ [آل عمران: ١٣٥] .

إذن: فكل أمر معلوم أنه لا يشارك فيه جاء بدون «هو» ، وكل ما يمكن أن يُدَّعى أن فيه شركة يجيء بـ «هو»[(١)] .

وهنا يقول الحق: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ وظاهر الأمر أن يقال: ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة «من» عباده ، ولكنه ترك «من» وجاء بـ «عن». والبعض يقولون: إن الحروف تنوب عن بعضها ، فتأتى «من» بدلاً من «عن». ونقول: لا ، إنه كلام الحق سبحانه وتعالى ولا حرف فيه يغنى عن حرف آخر؛ لأن معنى التوبة ، أن ذنباً قد حدث ، واستوجب المذنب العقوبة ، فإذا قَبل الله التوبة، فقد تجاوز الله عن العقوبة؛ ولذلك جاء القول من الحق محدداً : ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ﴾ أى: متجاوزاً بقبول التوبة عن العقوبة.

وهكذا جاءت «عن» بمعناها ؛ لأنه سبحانه هو الذى قَبِل التوبة ، وهو الذى تجاوز عن العقوبة.

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ ﴾ صحيح أن الله هو الذى قال للرسول : ﴿ خُذْ ﴾ ولكن الرسول هو مناول ليد الله فقط ، و«يأخذ» هنا معناها « يتقبل » واقرأ قول الحق:

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ ...(١٦)﴾
[الذاريات]

أى: متلقين ما آتاهم الله . ومثال هذا ما يُروى عن السيدة فاطمة حينما دخل عليها سيدنا رسول الله ﷺ فوجدها تجلو درهماً ، والدرهم عملة من فضة . والفضة من المعادن التى لا تصدأ ، والفضة على أصلها تكون لينة

(١) وهذا يتلاقى مع ما ذكره القرطبى فى تفسيره (٤/٣١٧٦) : « قوله تعالى: «هو» تأكيد لانفراد الله سبحانه وتعالى بهذه الأمور . وتحقيق ذلك أنه لو قال : إن الله يقبل التوبة ؛ لاحتمل أن يكون قبول رسوله قبولاً منه ، فثبتت الآية أن ذلك مما لا يصل إليه نبى ولا ملك » .

لذلك يخلطونها بمعدن آخر يكسبها شيئاً من الصلابة. والمعدن الذى يعطى الصلابة هو الذى يتأكسد ؛ فتصدأ الفضة ؛ لذلك أخذت سيدتنا فاطمة تجلو الدرهم. فلما دخل عليها سيدنا رسول الله ﷺ سألها: ما هذا ؟ قالت: إنه درهم . واستفسر منها لماذا تجلو الدرهم ؟ فقالت: كأنى رأيت أن أتصدق به ، وأعلم أن الصدقة قبل أن تقع فى يد الفقير تقع فى يد الله فأنا أحب أن تكون لامعة .

فعلت سيدتنا فاطمة ذلك ؛ لأنها تعلم أن الله وحده هو الذى يأخذ الصدقة.

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ . كل هذه الآية نفى لمظنة أن يتشككوا إذا فعلوا ذلك مع رسول الله ﷺ ، وأخذ رسول الله الصدقات ، فإن توبتهم قد قُبلَتْ ، ولكن الذى يقبل التوبة هو الله ، والذى يأخُذ الصدقات هو الله ؛ لأنه هو التواب الرحيم ؛ لذلك جاء قول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾

إذن : هم أعلنوا التوبة بعد أن اعترفوا بذنوبهم ، وخلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، وربطوا أنفسهم فى سوارى المسجد ، وقالوا: لا نحل أنفسنا حتى يحلّنا رسول الله ﷺ ، وقالوا: خذ من أموالنا صدقة لتطهرنا ؛ كل هذا جعل هناك حداً فاصلاً بين ماضٍ ندموا عليه ، ومستقبل يستأنفونه

قد ولد الآن . وبدأت صفحة جديدة ، فهل أنتم ستسيرون على مقتضى هذه التوبة أم لا ؟

ولا تظنوا أن أموركم ستكون فى الخفية بل ستكون فى العلن أيضاً، أما أموركم الخفية فسيعلمها الله ؛ لذلك قال: ﴿فَسَيَرَى اللَّهُ﴾. أما الأمور التى تحتاج لفطنة [(١)] النبوة فالرسول ﷺ بفطرته سيراها بنوره فى سلوككم . أما الأمور الظاهرة الأخرى فسيراها ﴿الْمُؤْمِنُونَ﴾.

نحن هنا أمام ثلاثة أعمال : عمل يراه المؤمنون جميعاً ، فالتزموا بهذا المنهج حتى يشهد لكم المؤمنون بما يرون من أعمالكم ، وإياكم أن تخادعوا المؤمنين ؛ لأن رسول الله بفطنته ونورانيته وصفائه وشفافيته سيعرف الخديعة ، أما إن كانت المسألة قد تتعمَّى على المؤمنين وعلى الرسول ، فالله هو الذى يعلم.

﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا ﴾ أى: اعملوا عملاً جديداً يناسب اعترافكم بذنوبكم ، ويناسب إعلانكم التوبة ، ويناسب أنكم ربطتم أنفسكم فى المسجد ، ويناسب أنكم تصدقتم بالأموال ، عمل تستأنفون به حياتكم بصفحة جديدة ، واعلموا أننا سنرقب عملكم ، الله يرقبه فيما لا يعلمه البشر ، وهو النيَّات ، ورسول الله يعلمه فيما يطابق نورانيته وإشراقه ، والمؤمنون يعلمونه فى عاديات الأمور [(٢)] .

---

(١) لأن للرسول صفات تليق به وهى : العصمة والأمانة والبلاغ والفطانة .

(٢) عن أبى سعيد الخدرى عن رسول الله ﷺ قال: « لو أن أحدكم يعمل فى صخرة صماء ليس لها باب ولا كوة لخرج عمله للناس كائناً ما كان » . أخرجه أحمد فى مسنده (٣/ ٢٨) والحاكم فى مستدركه (٤/ ٢١٤) وصححه وأقره الذهبى . وكذا أخرجه ابن حبان (١٩٤٢ - موارد الظمآن) .
وفى الحديث أن رسول الله ﷺ قال : « اتقوا فراسة المؤمن فإنه يرى بنور الله » . روى عن خمسة من الصحابة - فيما وقفت عليه - وكلها لا تسلم من مقال . ومنها حديث أبى سعيد الخدرى عند الترمذى فى سننه (٣١٢٧) وقال : غريب . فيه مصعب بن سلام . وللحديث طرق وروايات أخرى .

وهذه الرؤية من الله ومن الرسول ومن المؤمنين لا تكون لها قيمة إلا إذا ترتب عليها الجزاء ثواباً أو عقاباً ، فهى ليست مجرد رؤية ، بل إن الرائى يملك أن يثيب أو أن يعاقب. وأنكم راجعون إليه لا محالة. وإذا كنتم فى الدنيا تعيشون فى الأسباب التى يعيش فيها الكافر والمؤمن ، ويعيش فيها الطائع والعاصى ، فهناك عالم الغيب الذى يملكه الله وحده:

﴿ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦) ﴾ [غافر]

إذن: سيعامل التائب معاملة جديدة ، ومادام قد تاب ، فلعله بسبب الغفلة التى طرأت عليه فأذنب ؛ غفل عن اليوم الآخر ، فيحتاج إلى تجديد التذكير بالإيمان.

لذلك قال: ﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾.

قوله سبحانه : (فَسَيَرَى) ذكر الفعل مرة واحدة ، فالرؤية واحدة ملتحمة بعضها ببعض لتروا هل أنتم على المنهج أم لا ؟

﴿ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ أما عالم الغيب فانفرد به الله سبحانه ، وأما عالم الشهادة فالرسول سوف يعلم عنكم أشياء ، وكذلك المؤمنون يعلمون أشياء ، وربنا عالم بالكل . وسبحانه لا يجازى على مجرد العلم ، بل بنية كل إنسان بما فعل ، وسبحانه يقول:

﴿ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (١٤) ﴾ [الإسراء]

ولذلك يُنهى الحق هذه الآية بقوله:

﴿ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ وهؤلاء الذين اعترفوا بذنوبهم ، وربطوا أنفسهم فى السوارى ، وتصدقوا بالأموال ، وأعطى الله فيهم حكمه بأن

جعل رسول الله هو من يحل وثاقهم من السوارى ، وقبل منهم الصدقات؛ ليسوا وحدهم ، فهناك أناس آخرون فعلوا نفس الأمر ، لكنهم لم يربطوا أنفسهم فى سوارى المسجد ، ولا اعترفوا بذنوبهم ؛ لذلك يجىء قوله الحق:

﴿ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ﴾

والمقصودون بهذه الآية هم الثلاثة الذين سيخصهم القرآن بآيات خاصة يقول فيها:

﴿ وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾ [التوبة]

وهؤلاء الثلاثة هم : كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع [1]. وهم قد تخلفوا أيضاً عن غزوة تبوك ، ولم يكن لهم عذر فى التخلف أبداً ، فكل واحد يملك راحلته ، وعندهم مالهم ، وعندهم كل

---

(١) كعب بن مالك الأنصارى شاعر مشهور شهد بيعة العقبة الثانية وتخلف عن غزوة بدر وشهد ما بعدها ثم تخلف فى تبوك. توفى عام ٥٠ هـ فى زمن معاوية. (الإصابة فى تمييز الصحابة ٣٠٩/٥).

أما هلال بن أمية الأنصارى فقد شهد بدراً وما بعدها ، مات فى خلافة معاوية ، وهو الذى ظهر صدقه فى قذفه لامرأته بالزنا (الإصابة ٢٨٩/٦) . أما مرارة بن الربيع الأنصارى ، فهو صحابى مشهور شهد بدراً أيضاً (الإصابة ٧٦/٦) .

شىء . وقد قصّ واحد منهم حكايته [١] ، وبيّن لنا أنه لم يكن له عذر : «وما كنت فى يوم من الأيام أقدر على المال والراحلة منى فى تلك الغزوة ، كنت أقول : أتجهز غداً ، ويأتى الغد ولا أتجهز ، حتى انفصل الركب ، فقلت ألحق بهم ، ولم ألحق بهم » .

هؤلاء هم الثلاثة الذين جاء فيهم القول: ﴿ وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لأَمْرِ اللَّهِ﴾

و﴿ مُرْجَوْنَ ﴾ أو «مرجَئون» والإرجاء هو التأخير . أى: أن الحكم فيهم لم يظهر بعد ؛ لأن الله يريد أن يبين للناس أمراً ، وخاصَّةً أن رسول الله ﷺ لم ينشىء فى الدولة الإسلامية سجناً يُعزَل فيه المجرم ؛ وهذا لحكمة ، فكونك تأخذ المجرم وتعزله عن المجتمع وتحبسه فى مكان فهذا جائز . لكن النكال فى أن تدعه طليقاً ، وتسجن المجتمع عنه.

وهكذا تتجلى عظمة الإيمان ؛ لذلك أصدر ﷺ أمراً بأن يقاطعهم الناس ، فلا يكلمهم أحد ، ولا يسأل عنهم أحد ، حتى أقرباؤهم ولا يختلط بهم أحد فى السوق أو فى المسجد.

وكان أحدهم يتعمد أن يصلى قريباً من النبى ﷺ ويختلس النظرات ليرى هل ينظر النبى له أم لا ؟ ثم يذهب لبيت ابن عمه ليتسلق السور ، ويقول له : أتعلم أننى أحب الله ورسوله ؟ فيرد عليه : الله ورسوله أعلم. وهكذا عزل رسول الله ﷺ المجتمع عنهم ، ولم يعزلهم عن المجتمع. وكذلك

---

(١) هو كعب بن مالك ، قال: « لم أكن قط أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنه فى تلك الغزوة ، والله ما جمعت قبلها راحلتين قط حتى جمعتهما فى تلك الغزوة . . وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال ، فأنا إليها أصغى (أى: أميل) فتجهز رسول الله ﷺ والمسلمون معه ، وطفقت أغدو لكى أتجهز معهم فأرجع ولم أقض شيئاً وأقول فى نفسى: أنا قادر على ذلك إذا أردت، فلم يزل ذلك يتمادى بى حتى استمر بالناس الجد . . . فلم يزل ذلك يتمادى بى حتى أسرعوا وتفارط الغزو . . . » حديث طويل أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٧٦٩) .

عزلهم عن زوجاتهم ، وهو الأمر الذى يصعب التحكم فيه. وحذر ﷺ زوجاتهم أن يقربوهم إلى أن يأتى الله بأمره.

﴿ وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾

هذا بالنسبة لنا - إما أن يعذبهم وإما أن يتوب عليهم. لكن الحق سبحانه وحده هو الذى يعلم مصير كل واحد منهم.

فالتشكيك إذن هو بالنسبة لنا ؛ لأنهم مُرْجَوْن لأمر الله ولم يبت فيهم بحكم لا إلى النار ولا إلى الجنة ، ولم يَبت فيهم بالعفو . أما أمرهم فهو معلوم له سبحانه إما أن يعذب وإما أن يتوب ؛ لأن كل حكم من الله له ميعاد يولد فيه ، ولكل ميلاد حكمة ، وهناك قوم عجّل الله بالحكم فيهم، وقوم أخّر الله الحكم فيهم ؛ ليصفى الموقف تصفية تربية ، لهم فى ذاتهم ، ولمن يشهدونهم.

وقد استمرت هذه المسألة أكثر من خمسين يوماً ؛ ليتأدبوا الأدب الذى يؤدبهم به المجتمع الإيمانى ، فلم يشأ الله أن يبين الحكم حتى يستوفى هذا التأديب.

وإذا أُدِّب هؤلاء ، فإن تأديبهم سيكون على مَرأى ومسمع من جميع الناس ، فيأخذون الأسوة من هذا التأديب.

ولو أن الله عجّل بالحكم ، لمرّت المسألة بغير تأديب للمعتذرين كذباً وغيرهم ، فقال: ﴿ وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لأَمْرِ اللَّهِ ﴾ ومادام سبحانه قد حكم هنا بأنهم مؤخَّرون لأمر الله ، فليس لنا أن نتعجل قصتهم ، إلى أن يأتى قول الله فيهم:

﴿ وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا ... (١١٨) ﴾ [التوبة]

وأراد الله أن يقص لنا قصة أخرى من أحوالهم ، فقال :

﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ ۖ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ ﴾

يقص لنا القرآن هنا حالاً من أحوال المنافقين (١) ، وأحوالهم مع الإيمان متعددة . وقد ذكر الحق سبحانه عنهم أشياء صدَّرها بقوله : ﴿ومنهم﴾ ، ﴿ومنهُمْ﴾ و ﴿ويحلفون﴾ ، ﴿ويَحْلِفُون﴾ ؛ ولذلك يسميها العلماء «مناهم التوبة» ، مثل قوله:

﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ ...﴿٧٥﴾ ﴾ [التوبة]

وقول الحق:

﴿ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ ... ﴿٦١﴾ ﴾ [التوبة]

وقوله الحق:

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي ... ﴿٤٩﴾ ﴾ [التوبة]

---

(١) وهم اثنا عشر من المنافقين اتخذوا مسجداً ضراراً ؛ مضارة لأهل مسجد «قباء» وكفراً ؛ لأنهم بنوه بأمر أبي عامر الراهب ، ليكون معقلاً له يقوم فيه من يأتي من عنده ، وكان قد ذهب ليأتي بجنود من قيصر لقتال النبي ﷺ وتفريقاً بين المؤمنين الذين يصلون في قباء ، وإرصاداً وترقُّبًا لمن حارب الله ورسوله ﴿ مِن قَبْلُ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [التوبة] أي : قبل بنائه ، ﴿ وَلَيَحْلِفُنَّ ﴾ كذباً ما أردنا بالبناء ﴿ إِلَّا الْحُسْنَىٰ ﴾ من الرفق بالمسكين من المطر وحرارة الشمس ، والتوسعة على المسلمين ، ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الجلالين] بتصرف .

وقال الحق عنهم أيضاً : ﴿ويحلفون﴾ ، ﴿ويحلفون﴾ ، ﴿ويحلفون﴾ ويقولون عنها : «محالف[1] التوبة» ، ويقص الحق هنا حالاً آخر من أحوال المنافقين ، وقد قص له نظيراً فيما سبق ، وهؤلاء المنافقون - كما قلنا - متعارضون فى ملكاتهم ، ملكة لسانية تؤمن ، وملكة قلبية تكفر. والمزاوجة بين الملكات المتناقضة أمر عسير على النفس وشاق ، ويتطلب مجهوداً عاطفيّاً ، ومجهوداً عقليّاً ، ومجهوداً حركيّاً ، فَهُم إذا خَلَوْا إلى شياطينهم قالوا كلاماً ، وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا كلاماً ، ويقص الحق ذلك حين يعلنون الإيمان بألسنتهم فى قوله :

﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا ... ⟨١٤⟩ ﴾ [البقرة]

أما إذا خَلَوْا إلى أنفسهم فالحق يصف حالهم :

﴿ وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ ... ⟨١٤⟩ ﴾ [البقرة]

---

(١) ذكرت مادة يحلفون فى سورة التوبة فى سبعة مواضع هى :
- ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ [التوبة: ٤٢]
- ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ [التوبة: ٥٦]
- ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ [التوبة: ٦٢]
- ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ﴾ [التوبة: ٧٤]
- ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ [التوبة: ٩٥]
- ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ..﴾ [التوبة: ٩٦]
- ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ..﴾ [التوبة: ١٠٧]

وكذلك وردت فى مواضع أخرى من القرآن :

ففى سورة النساء :
- ﴿ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾ [النساء: ٦٢]

وفى سورة المجادلة :
- ﴿مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [المجادلة: ١٤]
- ﴿فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ [المجادلة: ١٨]

وهكذا تُكْبَت ملكات لسانهم فى أن يقولوا وقت أن يكونوا مع المؤمنين، أما حين يكونون مع إخوانهم فهم يُنفِّسون عن ملكاتهم فيقولون قولاً مختلفاً ، وهذه مسألة متناقضة ؛ ولذلك قال القرآن فيما سبق:

﴿ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَئًا أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلاً لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [التوبة]

أى: لو أنهم يجدون مكاناً أميناً ، لا يراهم فيه المؤمنون ، لنفّسوا عن أنفسهم ، وسبّوا النبى ، وسبّوا المؤمنين ، وقالوا ما يريدون ، إلا أنهم لا يجدون هذا المكان ، إنهم يتمنون لو وجدوا ملجأ يلجأون إليه ،أو مغارة يدخلون فيها ؛ لكى يُنفِّسوا عن أنفسهم ؛ إذن : ﴿ لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾ [1] ، لكنهم لا يجدون.

ويقص الحق سبحانه وتعالى هنا قصة أخرى من أحوالهم فيقول عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا ...﴿١٠٧﴾ ﴾ [التوبة]

نحن نعلم أن كلمة «مسجد» فى عمومها هى مكان السجود ، وفى الخصوص هى مكان يحجز للسجود وللصلاة فقط ، فإن أردت المعنى العام، فكل الأرض مسجد [2] ، وتستطيع أن تصلى فى أى مكان فيصير

---

(١) جمح الفرس : انطلق يعدو لا يثنيه شيءٌ ، أو غلب راكبه فجرى كما يريد ، قال تعالى : ﴿لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾ [التوبة: ٥٧] أى: فروا خوفاً وفزعاً إلى أى ملجإ لا يردهم شىء كالخيل الجامحة.

(٢) عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال : « أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلى : كان كل نبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى كل أحمر وأسود ، وأحلت لى الغنائم . ولم تحل لأحد قبلى ، وجعلت لى الأرض طيبة طهوراً ومسجداً ، فأيما رجل أدركته الصلاة صلى حيث كان ، ونصرت بالرعب بين يدى مسيرة شهر ، وأعطيت الشفاعة » . متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٣٥) ومسلم (٥٢١) .

مسجداً ، لا بالمكان ولكن بالمكين [١] ، وبعد ذلك تزاول فيه أعمال الحياة ، وقد تصلى فى الفصل الدراسى أو المكتب أو المصنع أو الحقل أو فى أى مكان تزاول فيه أسباب الحياة.

وبذلك يصبح المكان الذى تصلى فيه مسجداً بالمكين ، ولكن هناك مسجد آخر مخصص دائماً للصلاة حين يؤخذ حيز من المكان ، ويقال: «حجز ليكون مسجداً » ، فلا تباشر فيه أى عملية من عمليات الحياة إلا الصلاة وهو مسجد - بالمكان - ، ونحن نعلم أن أول مسجد أسِّس هو مسجد قباء والذين بنوه هم بنو عمرو بن عوف ، ثم أراد المنافقون أن يُنفِّسوا عن أنفسهم فى صورة طاعة ، فبنوا مسجداً ضراراً ، وقد بناه بنوغُنْم بن عوف وأرادوا بهذا المسجد أن ينافسوا مسجد قباء.

ونعلم كيف يكون الضرار بين المتنافسين على شىء ، كما يحدث الآن تماماً ، وتسمع من يقول : ولماذا أقام الحى الفلانى مسجداً ، ولم نُقم نحن مسجداً ؟

وعلى ذلك فكل مسجد فيه هذه الصفة ؛ صفة التنافس للحصول على سمعة أو تحيز لجهة على جهة ، أو رياء ، فهذا يعتبر مسجداً ضراراً ؛ لأن كل هذه المسائل فرقت جماعة المسلمين.

وقد يقول قائل : ولكن هذا الأمر ظاهرة صحية ، ونقول : لا ، إن لنا أن نعرف أنها ظاهرة مرضية فى الإيمان ؛ لأنك حين ترى المسجد وليس

---

(١) مكُنَ من باب كَرُمَ - مكانة فهو مكين : ثبت واستقر فهو ثابت ومستقر قال تعالى :﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ [يوسف: ٥٤] أى : عظيم ثابت المنزلة ومَكَّن له فى الشىء ثبته قال تعالى : ﴿أَوَ لَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا ﴾[القصص: ٥٧] أى : حرماً ثابتاً ، وأمكنه من عدوه نصره عليه ، قال تعالى : ﴿فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ﴾ [الأنفال: ٧١] .

فيه صفان مكتملان ، ثم يوجد بعده بعدة أمتار مسجد ، وهناك مسجد ثالث بعد عدة أمتار ، ثم مسجد رابع ، فهذه كلها مساجد ضرار[(١)] .

إذن : فـ«المسجد» بمعناه الخاص هو المكان الذى يحيز حتى يصير مسجداً ، لا يزاول فيه شيء غير المسجدية ، ولذلك نجد النبى ﷺ حين رأى واحداً ينشد ضالته فى المسجد ، قال له : « لا رد الله عليك ضالتك »[(٢)] . لأن المسجد حين تدخله فأنت تعلن نية الاعتكاف لتكون فى حضرة ربك ، وعندك من الوقت خارج المسجد ما يكفيك لتتكلم فى مسائل الدنيا .

إذن : فهؤلاء القوم أرادوا أن يُنفِّسوا عن نفاقهم بمظهر من مظاهر الطاعة ، فقالوا : نقيم مسجداً ، وبذلك نفرق جماعة المسلمين ، فجماعة يصلون هنا ، وجماعة يصلون هناك ، وإن قعدنا نحن نصلى فيه فنكون أحراراً ، ونتكلم مثلما نريد ، أما حين نذهب للصلاة فى المسجد الآخر ، فنحن نجلس هناك مكبوتين ، وغير قادرين على الكلام ، ونحن نريد أن ننفس عن أنفسنا .

فهم بَنَوْا المسجد ، ثم طلبوا من رسول الله ﷺ أن يصلى معهم فى المسجد الجديد أثناء خروجه لغزوة تبوك فاعتذر رسول الله ﷺ وأوضح

---

(١) هذا يتلاقى مع ما قاله القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣١٨٠) : « قال علماؤنا : لا يجوز أن يبنى مسجد إلى جنب مسجد ، ويجب هدمه والمنع من بنائه لئلا ينصرف أهل المسجد الأول فيبقى شاغراً ، إلا أن تكون المحلة كبيرة فلا يكفى أهلها مسجد واحد فيبنى حينئذ . وكذلك قالوا : لا ينبغى أن يبنى فى المصر الواحد جامعان وثلاثة ، ويجب منع الثانى ، ومن صلى فيه الجمعة لم تجزه » . واللغة تقول : ضاره يضاره مضارة وضراراً مفاعلة بين اثنين ﴿لا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ﴾[البقرة : ٢٣٣] وإحداث مسجد كهذا ضار لجمع المسلمين ومدعاة للتفرق .

(٢) عن أبى هريرة قال قال ﷺ : « إذا رأيتم من يبيع أو يبتاع فى المسجد فقولوا : لا أربح الله تجارتك ، وإذا رأيتم من ينشد ضالة فقولوا : لا ردها الله عليك » . أخرجه النسائى فى عمل اليوم والليلة (ص ٧٣) والدارمى (١/ ٣٢٦) والترمذى (١٣٢١) وقال : حسن غريب .

لهم: إننا فى حال لا يسمح بذلك ، وإن شاء الله عند عودتنا من الغزوة نصلى فيه . وبعد أن عاد من الغزوة حاولوا أن يستوفوه وعده ، ويطلبوا منه الوفاء بوعده ، فإذا بجبريل ينزل عليه بالآيات التى توضح حكاية هذا المسجد ، وكيف أنه مسجد ضرار ؛ لأن الله علم نيتهم فى ذلك.

ومعنى «الضرار» من المضارة ، وأنهم أرادوا أن يأخذوا راحتهم فى كل الزمن ، وأن يبتعدوا عن التواجد مع المؤمنين فى المسجد الذى يصلى فيه رسول الله ، ويريدون أن يخلو بعضهم ببعض ، وأن يتكلموا كما يريدون فى مضارة المسلمين ، ويفرقوا بين جماعة المسلمين . ثم يقول سبحانه: ﴿ وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

إذن: فكل ما يفتت جماعة المسلمين هو أمر ضار بمصلحة الإسلام ؛ لأن الإسلام يريد أن يعلم الناس أنهم قوة مجتمعة ، ويكون أمر هذه القوة واضحاً ؛ ولهذا أباح الحق أن تصلى الصلوات فى أى مكان ، وحتَّم أن نصلى جميعاً يوم الجمعة فى مكان واحد ؛ ليفرح المسلمون حين يرون أنفسهم مقبلين على الدين ، ويلتقى كل واحد منهم بالآخر ؛ ولذلك كان مسجد الضرار هذا تفريقاً بين المسلمين.

ثم يقول سبحانه:

﴿ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ﴾ والإرصاد [1] هو الترقب ، ولذلك يقال : لقد استمر القوم فى المكان الفلانى لرصد فلان ، أى: أنهم أناس يترقبون مجيئه بمكان ليفتكوا به ، وهذا هو ترقب الكراهية لا ترقب

---

(١) أرصد : أعد وجهز ، قال تعالى: ﴿وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ﴾ [التوبة: ١٠٧] أى : أعدوه لأعداء الإسلام الذين كانوا ولايزالون يحاربونه ، فمسجد الضرار كان مأوى لمن يريد أن يكيد للإسلام .

الحب. والذين أقاموا هذا المسجد أرصدوه مترقبين ومنتظرين إنساناً له سابقة فى عداء رسول الله ﷺ [١]، وهو الذى طلب منهم إقامة هذا المسجد وهو «أبو عامر الراهب» وقد سماه رسول الله «الفاسق».

وأبو عامر هذا رجل تنصَّر فى الجاهلية ، ولم تكن الجاهلية بيئة ديانات ، فمن كان مثلاً يسافر إلى مكان ويسمع بدين فهو يأتى به ليدعو لهذا الدين ويترأس من يتبعونه ، وأبو عامر من هؤلاء الذين تنصَّروا وصاروا فى المدينة ، فلما جاء رسول الله ليبطل كل هذه الأشياء فى المدينة وزالت رياسته ، عادَى رسول الله ﷺ ، حتى قال له فى أحد: ما رأيت قوماً يقاتلونك إلا قاتلتكْ معهم. وحين تمكن الإسلام فى المدينة فر إلى مكة ، ولما فتحت مكة فرّ إلى الطائف ، فلما آمن أهل الطائف ، لم يجد له وطناً فذهب إلى الروم «بالشام». ثم كتب للمنافقين أن أعدّوا مسجداً ؛ لأنى سآتى لكم بقوة من ملك الروم ؛ لأهاجم محمداً وأحاربه وأخرجه من المدينة [٢].

إذن: فهم قد بَنَوْا ذلك المسجد ضراراً ، وكفراً ، وتفريقاً ، وإرصاداً ، أى: ترقباً وانتظاراً لذلك الراهب الذى سيذهب إلى الشام ويأتى بجنود لمحاربة الله ورسوله. ورغم أنهم قد فعلوا ذلك ، فقد امتلكوا جراءة الطلب من رسول الله أن يصلى معهم فيه بهدف ترسيم هذا المكان مسجداً ليصلى

(١) من هذا ما ذكره ابن هشام فى السيرة النبوية فى غزوة أحد (٣/ ٨٠) : « وقع رسول الله ﷺ فى حفرة من الحفر التى عمل أبو عامر ليقع فيها المسلمون ، وهم لا يعلمون ، فأخذ على بن أبى طالب بيد رسول الله ، ورفعه طلحة بن عبيد الله حتى استوى قائماً » . انظر أيضاً تفسير ابن كثير (٢/ ٣٨٧) .

(٢) قصة نفاق هذا الرجل وعدائه لرسول الله ﷺ مذكورة فى أسباب النزول للواحدى (ص١٤٩) ، وتفسير القرطبى (٤/ ٣١٨٣)وابن كثير (٢/ ٣٨٧ ، ٣٨٨) وسيرة ابن هشام (٣/ ٨٠) . وهو والد صحابى جليل هو حنظلة غسيل الملائكة ، استشهد يوم أحد وهو جنب فغسلته الملائكة .

فيه الناس ما دام رسول الله ﷺ قد صلى فيه ، وظنوا أن هذه المكيدة سوف تفلح ، ولكن الله الذى يحرس نبيه ، ويحرس دينه من المنافقين ، كشف له حقيقة هذا المسجد.

وقد يتغافل رسول الله ﷺ عن المنافقين بعض الشيء لحكمة ؛ فهم قد أخذوا بالإسلام لوناً من الصحبة ، ولم يفضحهم أولا حتى لا يقال : إن محمداً يحارب أصحابه[1] ؛ لذلك فرسول الله ﷺ كان يعلم ما لم يكن يعلمه غيره ؛ لذلك أراد أن يحمى الإسلام من لسان من لم يعلم . ولكن بعد أن انكشف الأمر أرسل رسول الله ﷺ «مالك بن الدُّخْشم» و«عامر بن السكن» ، و«وحشىّ» قاتل حمزة ، و«معن بن عدى» ليهدموا هذا المسجد ، وأن يجعلوا فى موضعه مكان «القمامة». وبذلك فُضِحَ المنافقون ، فَأسرُّوها فى نفوسهم.

وأنت إذا رأيت من عدوك فعلاً تكرهه ، فعليك أولاً أن تفسد عليه الفعل، هذه أول مرحلة ، فإذا تكرر الفعل منه ، ولم يرتدع ، لابد أن تضعه فى مكانه اللائق به . والمنافقون أرادوا بهذا المسجد الضرر والإضرار بالإسلام ، وكان يجب أن يكفوا عن مثل هذا العمل ما دام الحق قد كشفهم. لكنهم لم يكفوا ، وظلوا سادرين فى العداوة للإسلام ؛ لذلك كان لابد كما تخلصت أولاً من الفعل أن تتخلص من الفاعل ؛ لذلك أصبحوا خائفين من أن يتجه الردع إلى الفاعل ، والحق سبحانه يقول:

---

(١) وقد كان رسول الله ﷺ حريصاً على ألا يقول الناس : إن محمداً يقتل أصحابه ، وقد ورد هذا فى حديث جابر بن عبد الله أن عبد الله بن أبى قال : أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . فبلغ النبى ﷺ فقام عمر فقال : يا رسول الله دعنى أضرب عنق هذا المنافق ، فقال النبى ﷺ : « دعه ، لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه » أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٩٠٥) ومسلم فى صحيحه (٢٥٨٤) .

﴿ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِءُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ (٦٤) ﴾ [التوبة]

ونعلم أن المريب يكاد أن يقول : خذونى . إنه بسلوكه إنما يدل على نفسه ، ويأتى القرآن فى سورة ثانية فيقول:

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ... (٤) ﴾ [المنافقون]

وهم يتصرفون هكذا لأن الريبة تملأ أعماقهم [1] ، وكلما رأى واحد منهم مؤمناً يسير إلى ناحيته يظن أنه جاء ليؤدبه ضرباً أو قتلاً.

والحق سبحانه يقول هنا:

﴿ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ ﴾ ، وكلمة ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ فيها إيحاء بأن لهم سوابق فى محاربة رسول الله بغرض أن يؤذوه ﷺ ، ولكن الحق سبحانه يحميه دائماً ، ولم يعد هناك مكر أو حرب يمكن أن ينالوا بها منه ﷺ.

وفى هذا الأمر أمثلة كثيرة، فالقرآن حينما يقص على رسول الله ﷺ أحوال اليهود ويوضح له : ﴿ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ...(٦١) ﴾ [البقرة]

أليس هذا القول يدفع فى خاطره احتمال أن يقتلوه؟ بلى فهم ما دامت عندهم الجرأة على قتل الأنبياء فما الذى يمنعهم من قتله؟ لكن الحق يطمئنه ويكبتهم ويقطع عندهم الأمل، ويأتى قوله الحق:

---

(١) وفى هذا يقول رب العزة عنهم: ﴿ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ ... ﴾ [التوبة: ١١٠] يقول ابن كثير فى تفسيرها : « أى شكاً ونفاقاً بسبب إقدامهم على هذا الصنيع الشنيع أورثهم نفاقاً فى قلوبهم » .

﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ .. (٩١)﴾ [البقرة]

وقوله : ﴿مِن قَبْلُ﴾ هنا يعنى أن ذلك لن يحدث الآن ، فقد اختلف الموقف. وهكذا طمأن الله رسوله ﷺ ، وبذلك كُبتت هذه الفكرة إن فكروا فيها(١).

وأيضاً حين يأتى القرآن بشىء فى نيتهم أن يفعلوه ، ولم يفعلوه بعد ، ويفضحهم القرآن بإعلان ما فى نيتهم ، ومن غبائهم فهم يفعلون الأمر المفضوح ، ولو كان عندهم قليل من ذكاء لامتنعوا عن فعل ما فضحهم به القرآن.

ويتمثل ذلك فى أحد المواقف التى يحلفون فيها ، ولو كان فيهم رجل رشيد يملك التفكير المتوازن لقال لهم: إنكم سوف تحلفون ﴿إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَىٰ﴾ فلا تحلفوا حتى يشك المسلمون فى القرآن ، ومن غبائهم أيضا أنهم حلفوا فى أمر لهم فيه اختيار أن يفعلوه أو لا يفعلوه ، مثلما قال الحق سبحانه:

﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِى كَانُوا عَلَيْهَا... (١٤٢)﴾ [البقرة]

إنهم لم يكونوا قد قالوا بعد ، وأنزل الحق ذلك فى قرآن يتلى كل صلاة ، ويعرفه كل مسلم ، فكيف يقولون نفس القول بعد أن نزل به القرآن ؟ لقد فعل اليهود ذلك ؛ وهم بهذا الفعل قد اختاروا أن يكونوا سفهاء ، ولم يخرج منهم عاقل واحد يحثهم على ألا يقولوا.

(١) عن عائشة رضى الله عنها قالت : « كان النبى ﷺ يحرس حتى نزلت هذه الآية :﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ... (٦٧)﴾ [المائدة] فأخرج رسول الله ﷺ رأسه من القبة ، فقال لهم : يـأيها الناس انصرفوا فقد عصمنى الله » . أخرجه الترمذى فى سننه (٣٠٤٦) واستغربه ، وأخرجه أيضاً أبونعيم فى الحلية (٦/ ٢٠٦) والحاكم فى مستدركه (٢/ ٣١٣) وصححه .

وهنا يقول الحق: ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَىٰ﴾ والحق هنا قد أكد الأمر حين جاء بلام القطع. وهم قد أقسموا وقالوا: ما أردنا باتخاذ هذا المسجد إلا مصلحة المسلمين ولنيسر على المعذورين والمرضى، والعاجزين عن السير إلى المسجد الآخر، وإن كانت ليلة مطيرة أو ليلة شاتية، فيستطيع الناس أن يجدوا مسجداً ثانياً ليصلوا فيه [1]، ولكن حكم الله ينزل ﴿ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾.

ويقول الحق بعد ذلك:

﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾

فهل قوله الحق: ﴿ لاَ تَقُمْ [2] فِيهِ أَبَدًا ﴾ معناه أن يظل المسجد قائما ولا تقام فيه صلاة؟ هل ﴿ لاَ تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ﴾ صيغتها النهى، أى لا تُصَلِّ فيه، أم أنها إخبار من الحق بأنك لن تقيم فيه صلاة أبداً؛ لأنه لن يكون له وجود؟

---

(١) قال ابن إسحاق في السيرة: «كان أصحاب مسجد الضرار قد كانوا أتوه وهو يتجهز إلى تبوك، فقالوا: يا رسول الله ﷺ، إنَّا قد بنينا مسجداً لذى العلة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية، وإنا نحب أن تأتينا، فتصلى لنا فيه، فقال: إنى على جناح سفر، وحال شغل، ولو قد قدمنا إن شاء الله لأتيناكم، فصلينا لكم فيه» [سيرة النبى لابن هشام ٤/ ٥٣٠].

(٢) قام يقوم: نهض معتدلاً دون عرج، ويستعار للاعتدال في السلوك والأخلاق، وقام بالمكان مكث فيه على أى حال مثل أقام، ومن ذلك قوله تعالى ﴿ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا ﴾ [البقرة: ٢٠] أى: توقفوا عن السير ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ ﴿١٢﴾ ﴾ [الروم] أى: تقع وتتحقق، وقوله ﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ ﴿١٩﴾ ﴾ [الجن] أى: نهض واجتهد فى الدعوة إلى الله، وهنا النهى منصب على أن الصلاة لا تقام فيه؛ لأنه لن يكون له وجود.

إن قوله الحق سبحانه يعنى أن هذا المسجد يجب ألا يكون له وجود ، ثم تجد الله سبحانه يقول : ﴿ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ﴾ إذن: فالمسألة ليست فى بناء المسجد ، ولكنها فيمن يدخل المسجد ويعمره ، فهنا مسجد ، وهناك مسجد ، أما المسجد الأول [1] فقد أسس على التقوى ، وفيه أناس يحبون أن يتطهروا ، أما مسجد الضرار فقد أقامه منافقون يحبون أن يتقذروا ؛ لأنهم المقابل لمن يحبون أن يتطهروا.

ومعنى الحب هو ميل الطبع إلى شىء تنبسط له النفس وتخفُّ لعمله.

وحينما نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ : «يا معشر الأنصار ، إن الله قد أثنى عليكم فى الطهور ، فما طهوركم هذا ؟ قالوا: يا رسول الله نتوضأ للصلاة ونغتسل من الجنابة ،فقال رسول الله ﷺ: فهل مع ذلك من غيره؟»

وهنا قال أهل قباء: «لا ، غير أن أحدنا إذا خرج من الغائط أحب أن يستنجى بالماء» [2] ، وكان الواحد منهم يمسك الحجر ويمسح به محل قضاء الحاجة ؛ فيخفف من استخدام المياه ؛ لأن المياه كانت قليلة عندهم ، ثم يستخدم الماء بعد الأحجار [3] ليكمل ويتم نظافته ، وأضافوا : «ولا نبيت على جنابة ، ولا نُصرّ على ذنب ، فإن غلبنا الذنب تعجّلنا التوبة».

﴿ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴾ والحب هنا متبادل ، فلا شىء أقسى على النفس من أن يكون الحب من طرف واحد ، وهذا هو الشقاء بعينه. والشاعر يقول:

---

(١) هو مسجد قُباء، وهو أول مسجد بنى فى الإسلام، بنى قبل مسجد النبى ﷺ.

(٢) أخرجه ابن ماجه فى سننه (٣٥٥) والدارقطنى فى سننه (١/ ٦٢) والحاكم فى مستدركه (١/ ١٥٥) (٢/ ٣٣٤) وصححه. قال الزيلعى : سنده حسن لكن فيه عتبة بن أبى حكيم ليس بقوى.

(٣) هى ثلاثة أحجار يستنجى بها من الغائط ، فعن عائشة أن النبى ﷺ قال : « إذا ذهب أحدكم إلى الغائط فليستطب بثلاثة أحجار فإنها تجزىء عنه » أخرجه أحمد (٦/ ١٠٨ ، ١٣٣) وأبو داود فى سننه (٤٠) والنسائى (١/ ٤١ ، ٤٢) والدارقطنى فى سننه (١/ ٥٤) . فأهل قباء كانوا يضيفون الماء بعد هذه الأحجار الثلاثة حجراً بعد الآخر، وذلك لشدة حرصهم على الطهارة.

أنتَ الحبيبُ ولكنِّى أعوذُ بكَ ... مِنْ أنْ أكُونَ حَبيباً غَيْرَ مَحْبُوبِ

وشقاء المحبين أن يكون الحب من جانب واحد ، أما حين يكون الحب متبادلاً من الجانبين فهو قمة الإسعاد ، وكذلك حين تكون العداوة من جانبين فهى تأخذ قمة الإيعاد والإبعاد ، فحين تكون العداوة من جانب واحد ، تنتهى بسرعة ، لكن عندما تكون من الجانبين فإنها لا تنتهى بل تزداد اشتعالاً .

إذن : فحين يكون الحب متبادلاً تجد المحب كلما رأى حبّاً من حبيبه رد عليه بحب ، فينمو الحب ويزداد ، ولا يكون الأمر كذلك إلا إذا كان حب القلوب فيما لا يتغير وهو «الحب فى الله » ، فإذا رأيت حبّاً بين اثنين يتناقص بمرور الزمن ؛ فاعلم أنه حب لغير الله ، وإن رأيت الحب ينمو كل يوم ، فاعلم أنه حب فى الله.

والحق سبحانه يقول فى قصة فرعون وموسى :

﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ... ⑧ ﴾ [القصص]

هم لم يلتقطوه ليكون عدواً لهم ؛ فهذا الاحتمال لو كان قد جاء فى بال آل فرعون لقتلوه ، ولكنهم التقطوه ليكون قرة عين لهم ، فانظر كيف يدخل الله على تغفيل الكافرين به [1] ، فآل فرعون هم من يربون موسى ؛ ولذلك قال له فرعون : ﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ⑱ ﴾ [الشعراء]

ولكن موسى عليه السلام لا يجامل فى الحق ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى هو من ربّاه ، أما تربية فرعون فلم يكن لها اعتبار فى ميزان الحق ، وقد

(١) وفى هذا يقول سبحانه : ﴿ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴾ [القصص : ٩]

تكون العداوة هينة لو كانت من جانب موسى وحده ، ولكن شاء سبحانه ألا تكون العداوة من جانب موسى فقط ، بل من جانب فرعون أيضاً ، فيقول سبحانه:

﴿ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ ... ﴿٣٩﴾ ﴾ [طه]

ويقول سبحانه في مجال الحب المتبادل:

﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ... ﴿٥٤﴾ ﴾ [المائدة]

فحين يحبون الله يرد سبحانه على تحية الحب بحب زائد [1] ، وهم يردون على تحية الحب منه سبحانه بحب زائد، وهكذا تتوالى زيادات وزيادات ؛ حتى نصل إلى قمة الحب ، ولكن الحب عند الله لا نهاية له ، وأنت حين تقرأ القرآن تجد قوله سبحانه وتعالى:

﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ .. ﴿٥٩﴾ ﴾ [النمل]

ويقول سبحانه أيضاً: ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ ... ﴿٤٤﴾ ﴾ [الأحزاب]

لم يأت سبحانه هنا بـ «الـ » التعريفية ؛ لأنها لو جاءت لانحصر السلام في لون واحد. فأنت حين تقول: لَقيت الرجل ، فأنت تحدد الرجل . لكنك إنْ قلت : لقيت رجلاً. فقد يكَون الرجل هذا أو ذاك أو غيرهما. فإن جاء الاسم نكرة صار شائعاً ، أما إن كان بالتعريف فيكون محدداً.

والحق حين تكلم عن يحيى عليه السلام قال:

﴿ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾ ﴾ [مريم]

---

(١) عن أبي هريرة قال قال النبي ﷺ: «يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم، وإن تقرب إليّ شبراً تقربت إليه ذراعاً، وإن تقرب إليّ ذراعاً، تقربت إليه باعاً، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة» أخرجه البخاري في صحيحه (٧٤٠٥) ومسلم (٢٦٧٥).

لأنه يريد أن يكثر السلام. وحين تكلم عيسى عليه السلام عن نفسه قال:

﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (٣٣)﴾ [مريم]

وحين يلقاك إنسان فهو يقول لك: «سلام عليكم» ، وأنت ترد: «وعليكم السلام» ، لماذا ؟ لأن «سلام عليكم» معناها أن السلام منى يكون عليك وعلى غيرك ، أما ردُّك «وعليكم السلام» فيعنى أنك خَصَصْته بهذا السلام.

وهنا الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها زادت فى التحية حيث يقول الحق سبحانه:

﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴾ وهذا لأن الذى يحب أن يكون طاهراً دائماً ، قد أنس بفيوضات الله عليه [(١)] ، وما دامت ذراته كلها طاهرة من النجاسات المعنوية ومن النجاسات الحسية يصبح جهاز استقبال الفيوضات من الله عنده صالحاً دائماً للاستقبال، والحق سبحانه وتعالى يرسل إمداداته فى كل لحظة، ولا تنتهى إمداداته على الخلق أبداً، وسبحانه يصف نفسه بأنه القيوم فاطمئنوا أنتم، فإن كنتم تريدون أن تناموا فناموا؛ فربكم لا تأخذه سنة ولا نوم.

إذن: فقد جاء الإيمان ليريحنا لا ليتعبنا، كما أنه سبحانه يصف نفسه [(٢)]:

﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ... (٦٤)﴾ [المائدة]

---

(١) لأنهم تخلوا عن النجاسات حساً ومعنى ، وتحلوا بالطهر والعبادة ، فتجلى الله عليهم بفيضه ونوره.

(٢) وذلك أن اليهود وصفوا الله سبحانه بأنه بخيل لا ينفق فقالوا : ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا ...﴾ [المائدة : ٦٤] . وقد أخرج الشيخان البخارى ومسلم فى صحيحيهما عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ : «إن يمين الله ملأى لا يغيضها نفقة سحّاء الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماوات والأرض فإنه لم ينقص ما فى يمينه، وعرشه على الماء، وبيده الأخرى الفيض، يرفع ويخفض». أخرجه البخارى (٧٤١٩) ومسلم (٩٩٣)

أى : يطمئن الخلق أنهم بمجرد إيمانهم ستأتيهم إمدادات الله وفيوضاته المعنوية والمادية. فصحِّح جهاز استقبالك ؛ بألا توجد فيه نجاسة حسيّة أو نجاسة معنوية ؛ ولذلك إذا رأيت إنساناً عنده فيوضات من الحق فاعلم أن ذرات جسمه مبنية من حلال [(١)] ، ولا توجد به قذارة معنوية ، ولا قذارة حسّية ، ويتضح ذلك كله على ملامح وجهه ، وكلماته ، وحسن استقباله. وإن كان أسمر اللون فتجده يأسرك ويخطف قلبك بنورانيته . وقد تجد إنساناً أبيض اللون ، لكن ليس فى وجهه نور ؛ لأن فيوضات ربنا غير متجلية عليه.

وكيف تأتى الفيوضات؟ إنها تأتى بتنقية النفس ؛ لأن الإنسان إن افتقر إلى الفيوضات الربانية ، فعليه أن يبحث فى جهازه الاستقبالى . وأضرب هنا مثلاً بالإرسال الإذاعى ، فمحطات الإذاعة ترسل ، ومن يملك جهاز استقبال سليم فهو يلتقط البث الإذاعى ، أما إن كان جهاز الاستقبال فاسداً فهذا لا يعنى أن محطات الإذاعة لا تبث برامجها.

ولذلك قال الحق :

﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ... ﴿٦٤﴾ ﴾ [المائدة]

فاحرص دائماً على أن تتناول من يد ربك المدد الذى لا ينتهى ، والحديث الشريف يقول :

« إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسىء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسىء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها » [(٢)].

---

(١) عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال : «والذى نفس محمد بيده، إن مثل المؤمن كمثل النحلة أكلت طيباً ووضعت طيباً » أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٢/ ١٩٩).

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٧٥٩) وأحمد فى مسنده (٤/ ٣٩٥، ٤٠٤) من حديث أبى موسى الأشعرى.

والليل قد ينتهى عند إنسان ، ويبدأ عند إنسان آخر ، وهكذا النهار ، فالليل مستمر دائماً والنهار مستمر دائماً ، فيداه سبحانه مبسوطتان دائماً ولا تنقبضان أبداً.

ثم يقول سبحانه:

﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ[1] فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾

وقوله : ﴿أَفَمَنْ﴾ استفهام[2] ، وكأنه يقول: وكيف تساوون بين مسجد أسِّسَ على التقوى من أول يوم ، ومسجد اتُّخِذ للضرار وللكفر ولتفريق جماعة المسلمين وإرصاداً لمن حارب الله ؟

إنهما لا يستويان أبداً ، وساعة يطرح الحق هذه العملية بالاستفهام فسبحانه واثق من أن عبده سيجيب بما يريد الله .

وقوله الحق : ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ[3] بُنْيَانَهُ﴾ نجد كلمة « بنيان» وهى مصدر؛ «بنى» «بنياناً» ، لكن أطلق على الشيء المبنى ، فنقول : إن هذا البنيان جميل ، أو نقول مثلاً: إن طراز هذا البنيان فرعونى.

إذن: هناك فرق بين عملية البناء وبين الشيء الذى ينشأ من هذه

---

(١) على شفا جُرف : على حرف بئر لم تُبْنَ بالحجارة. هَارٍ : هائر متصدع أو متهدم. فانهار به : سقط البنيان بالبانى.

(٢) جاء الاستفهام هنا بالهمزة، وهى ترد لطلب التصور والتصديق، بخلاف هل، فإنها للتصديق خاصة، وسائر أدوات الاستفهام للتصور خاصة. (الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى ٢/ ١٤١)، والاستفهام هنا استفهام معناه التقرير، أى تقرير أن من أسس بنيانه على تقوى من الله خير ممن أسس بنيانه على شفا جرف هار.

(٣) أسس بنيانه : أقامه على أساس قوى وعلى قواعد راسخة.

العملية ، وكلمة البنيان اسم جنس جمعى[١] ؛ لأنه يصح أن يكون جمعاً ومفرده «بنيانة» مثلما نقول: «رمان» ، ومفرده «رمانة»، و«عنب» ومفرده «عنبة»، وأيضاً «روم» مفرده «رومى» فياء النسب هنا دخلت على الجمع فجعلته مفرداً . إذن: يُفرق بين الواحد والجمع، إما بالياء وإما بالتاء.

وقد حكم سبحانه بألا يصلوا فى مسجد الضرار ، وعليهم أن يصلوا فى المسجد الآخر ، وهو مسجد قباء ، ثم يرد سبحانه الأمر إلى المؤمنين، ليعرفوا أن ما حكم به سبحانه هو ما تقبله العقول ، وأن حكمهم يوافق حكم ربهم.

ثم يقول سبحانه:

﴿ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ﴾ وهنا ثلاث كلمات: شفا ، وجُرف ، وهَار. والشفا مأخوذ من الشَّفَة، و«الشفا» حرف الشىء وطرفه . وسكانُ سواحِل البحار يعرفون أن البحار لها نحر من تحت الأرض ، وتجد الماء يحفر لنفسه مساحة تحت الأرض ويترك شفة من الأرض ، ولو سار عليها الإنسان لوقع ؛ لأنها الطرف الذى ليس له قاعدة وأسفله مَنْحور.

و«شفا جُرُف » أى طرف سينهار ؛ لأنه «هار» أى غير متماسك، فتكون الصورة أن الماء ينحر فى الساحل ، فيصنع شَفة لها سطح وليس لها قاعدة تحتها ، وهذه اسمها «شفا جُرُف».

وقد قال القرآن فى موضع آخر:

---

(١) اسم الجنس الجمعى: هو ما له مفرد يشاركه فى لفظه ومعناه معاً، ولكن يمتاز المفرد بزيادة تاء التأنيث فى آخره أو ياء النسب. قال الفيروز آبادى فى «بصائر ذوى التمييز» (ص ٢٧٧) : «البنيان، واحد لا جمع له. وقال بعضهم: جمع واحدته «بنيانة» على حد «نخلة ونخل» وهذا النحو من الجمع يصح تذكيره وتأنيثه».

﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ...(١٠٣) ﴾

[آل عمران]

إنها الحفرة فى النار ، فكيف يكون شكلها ؟ لابد أنه مرعب.

ونحن نعلم أنهم كانوا حين يحفرون الآبار ليأخذوا منها الماء ، كانوا يضعون فى جدار البئر أحجاراً تمنع ردمه ؛ لأن البئر إن لم يكن له جدار من حجارة قد ينهار بفعل سقوط الرمال من على فوهته ، وهكذا تمنع الأحجار أى جزء متآكل من سطح البئر من الوقوع فيه ، والجزء المتآكل هو جرف هَارٍ ، وهكذا كان مسجد الضرار، ينهار بمن فيه فى نار جهنم.

ويذيل الحق الآية : ﴿ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ وهم كانوا ظالمين بالنفاق ؛ لذلك لم يَهْدهم الله إلى عمل الخير ؛ لأن الله لا يهدى الظالم. وسبحانه يقول فى أكثر مَن موضع بالقرآن:

﴿ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (١٠٨) ﴾ [المائدة]

ويقول سبحانه:

﴿ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِى الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٢٦٤) ﴾ [البقرة]

ويقول عز وجل:

﴿ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٢٥٨) ﴾ [البقرة]

والهداية - كما علمنا من قبل - قسمان: هداية الدلالة ، وهى لجميع الخلق ويدل بها الله الناس على طريق الخير، ولهم أن يسلكوه أو لا يسلكوه،

فهم أحرار ، فلله هداية شملت الجميع ، وهى هداية الدلالة ، أما الهداية المنفية هنا فهى هداية المعونة .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِى بَنَوْا رِيبَةً[١] فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾ ﴾

البنيان الذى بنوا هو مسجد الضرار ، وأرادوا به ضراراً وكفراً وتفريقاً وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله ، وكان رسول الله ﷺ قد وعدهم أن يصلى فيه ، وكشف له الحق أنهم أرادوا بصلاة رسول الله فيه ذريعة[٢] وأن يرسموا الصلاة فيه .

ولما عاد ﷺ من غزوة تبوك أنزل الله عليه : ﴿لا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ وأرسل ﷺ بعضاً من صحابته[٣] ليهدموا هذا المسجد ، ولم يكتف بالهدم ، بل أمر أن يُجْعَل مكان المسجد قمامة إشعاراً منه ﷺ بأن المسجد بنيته الأولى كانت نجاسته نجاسة معنوية ، وحين توضع فيه النجاسة الحسّية ، تكون طهارة بالنسبة للنجاسة المعنوية ، فكأنه طهر المكان من النجاسة المعنوية بالنجاسة الحسيّة .

ورسول الله يعلمنا هنا أن الأمر ليس أمر نجاسات حسيّة ، وإنما النجاسات المعنوية أفظع من النجاسات الحسيّة ، فالإنسان قد يتحرز من

(١) ريبة : شكاً ونفاقاً فى قلوبهم .

(٢) ذريعة : أى وسيلة وتوصلاً لهدف معين .

(٣) منهم : مالك بن الدخشم ومعن بن عدى . أما مالك فقد شهد بدراً . و أما معن بن عدى بن الجد حليف الأنصار فقد شهد غزوة أحد . (انظر الإصابة فى تمييز الصحابة) .

النجاسات الحسيّة ، لكن النجاسات التى تخامر [(١)] القلوب والعقائد والعواطف فهى التى تسبب للإنسان الشقاء.

وهنا يقول الحق: ﴿ لاَ يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِى بَنَوْاْ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ ﴾ فبعد أن هدم رسول الله ﷺ هذا البنيان وصار موقعه موضع القذارة، بقى أمر هذا البنيان موضع شك منهم وصاروا يتوجسون أن ينزل بهم رسول الله ﷺ العقاب ، وظلوا فى شك من أن يصيبهم رسول الله ﷺ بسوء، ولن يذهب هذا الشك من قلوبهم إلا أن تقطع تلك القلوب بالموت.

إن الشك والريبة محلها القلب ، والقلب هو العضو الثانى فى استبقاء الحياة، أما العضو الأول فى استبقاء الحياة فهو المخ ، فما دامت خلايا المخ سليمة ، فمن الممكن أن تعود الحياة إلى الإنسان ولكن برتابة ، أما القلب فحين يتوقف فالأطباء يحاولون أن يعيدوا له الحركة ، إما بشق الصدر أو تدليك القلب ليعود إليه النبض ، وقد يفلحون ما دامت خلايا المخ سليمة ، فالمخ فى الإنسان هو سيد الجسم كله ، ولذلك تجدون أن الحق قد صان المخ بأقوى الصيانات بعظام الجمجمة.

وكذلك النخاعات التى تتحكم فى إدارة الجسد ، نجده سبحانه قد كفل لها من العظام أعلى درجات الصيانة. ونرى فى الحفريات أن الجماجم هى أبقى شىء ، مما يدل على أنه للحفاظ على المخ قد جعل الله له أقوى العظام ، وما دام المخ سيد الجسم سليماً فمن الممكن أن تستمر الحياة ، ولذلك نجد أن الجسم كله يخدم المدبر للجسم ، ويحافظ على صيانته.

والإنسان إن تعرض للجوع يأكل من شحمه ، وحين يفوته ميعاد تناوله للطعام ، يعرض عليه الطعام يقول: ليس لى رغبة فى الأكل ، وهذا ليس إلاّ تعبيراً علمياً لما حدث فى الجسم ، فأنت أكلت بالفعل ، فما دام قد مر

(١) خامر القلوب: خالطها وامتزج بها.

ميعاد طعامك ولم تأكل فإن جسمك يأخذ ما يحتاجه من الدهون المخزونة به ، وإذا ما انتهى الدهن يأخذ الإنسان من لحمه ، وإذا ما انتهى اللحم يأخذ الإنسان غذاءه من عظامه ، وكل ذلك من أجل أن يبقى السيد وهو «المخ» مصاناً .

ولذلك تجد القرآن حينما عرض مسألة سيدنا زكريا ، قال على لسانه :

﴿ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي ... ﴿٤﴾ ﴾ [مريم]

أى : أن آخر مخزن للقوت قد قارب على الانتهاء ، أما النبات فهو عكس الإنسان ، فسيد النبات أسفل شىء فيه وهو الجذر ، ويحاول النبات المحافظة على جذره ، فإن امتنع الغذاء عن النبات بامتناع المياه عنه ، بدأت أوراق النبات فى الذبول ؛ لأنها تعطى حيويتها ومائيتها للجذر ، ثم تجد الساق تجف لأنها تعطى حياة للجذر ليستمر إلى أن يأتى قليل من المياه أو قليل من الغذاء ، فيعود الجذر قوياً .

والقلب هو محل العقائد والاعتقادات ، وهى الأشياء التى تنشأ من المحسّات ، وتتكون فى الفؤاد[1] لتصير عقائد لا تطفو للمناقشة من جديد ، أما العقل فهو يناقش كل المسائل ، وما إن ينتهى من الاقتناع بفكرة حتى تستقر فى القلب .

وهنا يوضح لنا الله أن هذا البنيان سيظل أثره فى قلوبهم ، ولن ينتهى منهم أبداً إلا بشىء واحد هو : ﴿ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ﴾ والقلوب لا تتقطع إلا بالموت، وكأن الشك من هذا البنيان سيظل يلاحقهم إلى أن يموتوا.

(١) القلب هو مضخة الدم فى شرايين الجسم وعروقه هذا تعريف المادة ، والفؤاد هو عقل القلب وهو محل العقائد الناشئة عن الإدراك ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ﴿٤٦﴾ ﴾ [الحج] وقوله : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾ ﴾ [محمد] ويطلق القلب على الفؤاد ، كما يطلق الفؤاد على القلب . فهما متلازمان . كالقلب يصل إلى الاعتقاد بالإدراك ثم يصير الإدراك انفعالاً ، وبعد الانفعال يكون الاختيار بمناقشة المسائل، ثم يكون الاختيار فى البدائل وينتهى بالإقناع .

أو : ﴿ إِلاَّ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ﴾ أى : أن تتقطع توبة وأسفاً وحزناً .

وهذا تهديد لهم بأن مسيئاتهم ليست من الخارج ، وإنما مسيئاتهم من ذوات نفوسهم . ووجود الريبة فى نفوسهم ، يعنى أنها لن تجعلهم يستشرون فى الإفساد لخوفهم المستمر من العقاب .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ وعلمه سبحانه شامل فلا تخفى عليه خافية ، وحكمته سبحانه أنه يضع كل شىء فى مكانه .

ثم يقول سبحانه :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ﴾

بعد أن تكلم الحق عن الذين تخلفوا عن الغزو ، وعن الذين اعتذروا بأعذار كاذبة ، وعن الذين أرجأ الله فيهم الحكم ، أراد أن يبين سبحانه أن تخلفهم ليس له أى أهمية ؛ لأن الله سبحانه وتعالى عوَّض الإيمان وعوّض الإسلام بخير منهم ، فإياكم أن تظنوا أنهم بامتناعهم عن الغزو سوف يتُعبون الإسلام ، لا ؛ لأن الحق سبحانه ينصر دينه دائماً .

فيقول الله سبحانه :

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ[1] مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم ﴾

يقول العلماء: كيف يشترى الله من المؤمنين أنفسهم وأموالهم، وهو الذى خلق الأنفس وهو الذى وهب المال ؟ وقالوا : ولكن هبة الله لهم لا يرجع فيها ، بدليل أن المال مال الله ، وحين أعطاه لإنسان نتيجة عمله أوضح له: إنه مالك بحيث إذا احتاجه أخ لك فى الدين ، فأنا أقترضه منك، ولم يقل: «أسترده». فسبحانه القائل:

﴿مَن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٤٥)﴾ [البقرة]

لقد احترم الحق الهبة للإنسان ، واحترم عرقه وسعيه ، وكأنه سبحانه حينما وهب البشر الحياة ، ووهبهم الأنفس أعلن أنها ملكهم حقّاً ، ولكنه أعطاها لهم ، وحين يريد أخذها منكم فلا يقول : إنه يستردها بل هو يشتريها منكم بثمن ؛ ولذلك يقول النبى عليه الصلاة والسلام: «إن سلعة الله غالية ، إن سلعة الله غالية ، إن سلعة الله هى الجنة».

أى: اجعلوا ثمنها غالياً.

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم﴾ . وكلمة ﴿اشْتَرَى﴾ تدل على أن هناك صفقة ، عملية شراء وبيع . وإذا كان هذا ملكاً لله ، فالله هو المشترى ، والله هو البائع ، فلابد أن لهذا الأمر رمزية ، وهذه الرمزية يلحظها الإنسان فى الولى على اليتيم أو السفيه ، فقد يصح أن يكون عندى

---

(١) الشراء والاشتراء : التملك بالمبادلة والعوض. وشَرى يَشْرى : بمعنى باع وبمعنى اشترى ، والمشترى يعطى شيئاً ويأخذ بدله شيئاً ، فهو بائع وهو مُشْتر، وجاء شرى بمعنى باع فى قوله تعالى: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ ..(٢٠)﴾ [يوسف] أى : باعوه وجاء اشترىَ بمعنى أخذ السلعة ودفع الثمن فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ...(١١١)﴾ [التوبة].

شىء وأنا ولى على يتيم، فأشترى هذا الشىء بصفتى ، ثم أبيعه بصفتى الأخرى ، فالشخص الواحد يكون هو الشارى وهو البائع [١] ، فكأن الله يضرب لنا بهذا المثل: «إنكم بدون منهج الله سفهاء، فدعوا الله يبيع ودعوا الله يشترى».

وما الثمن؟ يأتى التحديد من الحق: ﴿ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ﴾ هذا هو الثمن الذى لا يفنى ، ولا يبلى ، ونعيمك فيها على قدر إمكانيات الله التى لا نهاية لها ، أما نعيمك فى حياتك فهو على قدر إمكانياتك أنت فى أسباب الله ، وهكذا يكون الثمن غالياً.

وحينما جاء الأنصار فى بيعة العقبة لرسول الله ﷺ قال له عبد الله بن رواحة: اشترط لربك ولنفسك ما شئت.

قال: «أشترط لربى أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وأشترط لنفسى أن تمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم».

قالوا: فما لنا إذا فعلنا ذلك ؟

ماذا قال رسول الله ؟ أقال لهم ستفتحون قصور بُصْرى والشام وتصيرون ملوكاً ، وينفتح لكم المشرق والمغرب ؟

لم يقل ﷺ شيئاً من هذا ، بل قال: «الجنة» ؛ لأن كل شىء فى الدنيا تافه بالنسبة لهذا الثمن ، قالوا: «ربح البيع لا نقيل ولا نستقيل» [٢] وبمجرد

(١) هذا يجوز عند الإمام مالك بشرط ألاّ يحابى نفسه فى الشراء من مال اليتيم أو البيع إلى نفسه. انظر فقه السنة للشيخ سيد سابق (٣/ ٣٣٤).

(٢) حينئذ نزلت هذه الآية. وقد أورد سبب نزول هذه الآية السيوطى فى أسباب النزول (ص ١٠١) طبعة دار الشعب ، وعزاه لابن جرير الطبرى من مرسل محمد بن كعب القرظى ، وكذا أورده ابن كثير فى تفسيره (٢/ ٣٩١)، والقرطبى فى تفسيره (٤/ ٣١٩٣) .

عقد الصفقة العهدية بين رسول الله ﷺ وبين الأنصار [(١)] ، كان من الممكن أن يموت واحد أو اثنان أو ثلاثة قبل أن يبلغ الإسلام حظه وذروته ، وقد يقال: فلان مات ولم يأخذ شيئاً من ماديات الحياة . لكنه ﷺ حين قال: «الجنة» ، فمن مات يدخلها.

﴿ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ﴾ هذا هو الثمن ، وهو وعد بشيء يأتي من بعد ، ولكنه وعد ممن يملك إنفاذه ؛ لأن الذي يقدح في وعود الناس للناس ، أنك قد تعدُ بشيء ولكن تظل حياتك ولا تفي به ، أو أن تقل إمكاناتك عن التنفيذ.

إذن: الوعد الحق هو ممن يملك ويقدر ، وحيّ لا يموت ، لذلك يقول في هذه الآية:

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ﴾

ويقول في آخرها :

﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا ﴾ و«وَعْد» مصدر، فأين الفعل؟ إننا نفهمها: أي وعدهم الله بالجنة وعداً منه سبحانه وهو الذي يملك وهو وعد حق. والقرآن حين يأتي بقضية كونية ، فالمؤمن يستقبلها بأنها سوف تحدث حتماً، فإذا ما جاء زمنها وحدثت صارت حقاً ثابتاً ، مثلما يقول سبحانه:

﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣)﴾ [الصافات]

هذه قضية قرآنية، حدثت من قبل و ثبتت في الكون.

وماذا بعد أن اشترى الله من المؤمنين أموالهم وأنفسهم ؟ هنا يحدد الحق المهمة أمامهم:

---

(١) كانوا ثلاثة وسبعين رجلاً وامرأتين من الأوس والخزرج منهم : سعد بن الربيع ، وعبد الله بن رواحة ، وأبو مسعود الأنصاري ، والبراء بن معرور ، وسعد بن عبادة ، والمرأتان هما : نسيبة بنت كعب ، وأسماء بنت عمرو.

﴿ يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ﴾ و«قَاتَل» من «فَاعَلَ» ، و«قَتَلَ» غير «قَاتَلَ» . فالقتل عمل من جهة واحدة ، لكن «قَاتَلَ» تقتضى مفاعلة ، مثلها مثل «شَارَكَ زيدٌ عَمْراً» . وكل مادة «فاعَلَ» و«تفاعَلَ» توضح لنا الشركة فى الأمر ، فكل واحد منهم فاعل ، وكل واحد منهم مفعول. ولذلك تجد فى أساليب العرب ما يدلك على أن ملحظ الفاعلية فى واحد هو الغالب ، وملحظ المفعولية فى الآخر هو الغالب ، ولكن على التحقيق فإن كل واحد منهم فاعل من جهة ، ومفعول من الجهة الأخرى.

فمثلاً: الرجل الذى سار فى الصحراء التى فيها حيَّات وثعابين ، ولم يُهِج الرجل أثناء سيره الحيّات ولا الثعابين ، بل تجنبها ، والثعبان ما دُمْت لاَ تهيجه فهو لا يفرز سمّاً ؛ لأن سم الثعبان لا يفرز إلا دفاعاً.

وساعة يرى الثعبان أنك ستواجهه يستعمل سُمَّه، فإذا كان الرجل سائراً وله قدرة المحافظة على عدم إهاجة الثعابين ولا الحيات ، فهو قد «سالمها»، والشاعر يقول:

قد سَالَمَ الحيَّاتُ منه القَـــدَما والأفْعُوان[1] والشُّجَاعَ الشَّجْعَما[2]

والأفعوان هو الثعبان الفظيع ، ونلحظ أن «الأفعوان» منصوب ، وأن «الحياتُ» مرفوعة ، إذن : فالقدم مفعول ، والحيات فاعل وجاء بالقدم منصوبة ، وكذلك الشجعم لما فى الحيات من المفعولية ؛ لأن الحيّات إذا سالمت القدمَ فقد سالمها القدمُ ، فكأنه قال : سالم القدمُ الحيّاتِ ، ثم جعل الأفعوان بدلاً منها.

---

(١) الأفعوان : ذكر الأفاعى . والمؤنث « أفعى » وهى الحية .
(٢) الشجاع الشجعم : الثعبان الضخم .

وهنا يقول الحق:

﴿ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ ﴾ فمن يقاتل ، إما أن يَقْتل وإما أن يُقْتَل ، وفى قراءة الحسن يقدم الثانية على الأولى ،[1] ويقول: «فيُقْتَلُون ويَقْتُلُونَ»؛ فالمسألة صفقة بمقتضى قوله: ﴿ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ﴾ لذلك يُقدم قتلهم ، وهو الأقرب لمعنى الصفقة. وأيضاً فإن المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً ،[2] وإذا ما جاء المؤمنون فى جانب ؛ والكفار فى جانب آخر فالمؤمنون بنيان ، والحق هو القائل:

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ④﴾
[الصف]

فإذا ما سبق قوم من المؤمنين بأن يُقْتَلوا ، فكأن الكل قُتل . إذن : فحين قتل بعض المؤمنين ، يمكننا أن نقرأ قول الحق على قراءة الحسن ونقول: « فَيَقْتُلُونَ ويُقتَلُونَ ».

أو: أنهم حينما دخلوا إلى القتال وضعوا فى أنفسهم أن يقتلوا ، ولم يغلبوا جانب السلامة.

وكلنا نعرف قصة الصحابى الذى قال لرسول الله ﷺ: أليس بينى وبين الجنة إلا أن ألقى هؤلاء فيقتلونى ؟ قال له: «نعم» فأخرج الصحابى تمرة كانت فى فمه، ودخل إلى القتال وكأنه يستعجل الجنة[3].

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣١٩٤): « قرأ النخعى والأعمش وحمزة والكسائى وخلف بتقديم المفعول على الفاعل. وقرأ الباقون بتقديم الفاعل على المفعول».

(٢) عن أبى موسى الأشعرى قال قال رسول الله ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً» أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٤٤٦)، ومسلم فى صحيحه (٢٥٨٥) واللفظ لمسلم.

(٣) وذلك أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ يوم أحد فقال له: أرأيت إن قُتلْت فأين أنا؟ قال: فى الجنة. فألقى تمرات فى يده، ثم قاتل حتى قُتل. أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٠٤٦) ومسلم (١٨٩٩) فى صحيحه من حديث جابر بن عبد الله.

﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ﴾، وهذا تأكيد بأن لهم الجنة، وهو وعد من الحق فى التوراة والإنجيل والقرآن لمن يدخلون المعارك دفاعاً عن الإيمان.

وكل دين فى وقته له مؤمنون به، ويدخلون المعارك دفاعاً عنه. إذن: فالقتال فى سبيل نصرة الدين والدفاع عنه ليس مسألة مقصورة على المسلمين، لكنها لم تكن عامة عند الرسل، فقد كان الحق سبحانه وتعالى هو الذى يتدخل لعقاب أهل الكفر، وكان الرسول يبلِّغ، فإذا لم يستجبْ له قومه؛ عاقبهم الله سبحانه، والقرآن يقول:

﴿ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ... (٤٠) ﴾[1] [العنكبوت]

ولم تأت مسألة القتال فى سبيل الله إلا عندما طلب اليهود من بعد سيدنا موسى عليه السلام[2] أن يقاتلوا فى سبيل الله:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ... (٢٤٦) ﴾ [البقرة]

إذن: فهذا وعد من الله فى التوراة للذين آمنوا بموسى عليه السلام، وطالبوا بالقتال فى سبيل الله، وكذلك فى الإنجيل للذين آمنوا بعيسى عليه

(١) هذه أربعة أنواع من العذاب: «**الحاصب**» وهى ريح شديدة البرد عاتية شديدة الهبوب جداً تحمل حصباء الأرض فتلقيها على الناس وتقتلعهم من الأرض وقد عذب الله بها قوم «عاد». و«**الصيحة**» التى أخذت قوم «ثمود» فقضت عليهم. و«**الخسف**» الذى عاقب الله به قارون. و«**الغرق**» الذى قضى الله به على فرعون وجنوده وعلى الكافرين من قوم نوح عليه السلام.

(٢) كان هذا بعد سيدنا موسى بما يقرب على الألف عام، والنبى هنا الذى طلب منه قوم بنى إسرائيل أن يبعث لهم ملكاً يقاتلون معه فى سبيل الله هو: شمعون أو شمويل، قاله السدى ومجاهد ووهب بن منبه. وهو ما رجحه ابن كثير فى تفسيره (١/ ٣٠٠)

السلام ، وأخيراً فى القرآن للذين آمنوا بمحمد ﷺ [١] .

أو: أن هذا الوعد خاص بأمة محمد ﷺ ؛ لأنها الأمة المأمونة للدفاع عن كلمة الله بالمجهود البشرى. وبهذا يكون الوعد فى التوراة والإنجيل والقرآن هو وعد لأمة محمد ﷺ ،فكأن التوراة قد بُشِّر فيها بهذا للمسلمين المؤمنين بمحمد ﷺ ، وكذلك الإنجيل قد بُشِّر فيه بهذا الوعد للأمة المسلمة. والدليل على ذلك هو قول الحق سبحانه فى آخر سورة الفتح:

﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ..(٢٩)﴾ [الفتح]

إذن: فالدين لا يطبع المتدين لا على الشدة ولا على الرحمة ، إنما يطبعه انطباعاً يصلح لموقف الشدة فيكون شديداً ، ولموقف الرحمة فيكون رحيماً. ولو أنه مطبوع على الشدة لكان شديداً طوال الوقت ، ولو طُبع على الرحمة فقط لكان رحيماً كل الوقت، ولكن شاء الحق أن يطبع المؤمنين ليكونوا أشداء على الكفار رحماء بينهم ؛ ولذلك فالدين لا يطبع الناس على ذلة ولا على عزة ، إنما يجعلهم أذلة على المؤمنين ، وأعزة على الكفار.

وبذلك يُطوِّع المؤمن نفسه ، فهو شديد ورحيم ، عزيز وذليل ، فهو طوع للمنهج ، فحين يتطلب منه منهج الله أن يكون شديداً يشتد ، وحين

(١) قال القرطبى (٤/ ٣١٩٤) فى تفسير الآية: «هذا إخبار من الله تعالى أن هذا كان فى هذه الكتب، وأن الجهاد ومقاومة الأعداء أصله من عهد موسى عليه السلام» وقد قال عز وجل على لسان سيدنا موسى: ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلاَ تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ [المائدة: ٢١] إلى أن قال: ﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلاَ إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤] .

يتطلب منهج الله منه أن يكون رحيماً يرحم ، وحين يتطلب الله من أن يكون ذليلاً بالنسبة لإخوانه المؤمنين يذل ، وحين يتطلب الله منه أن يكون عزيزاً على الكافرين يعز .

﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ . . (٢٩) ﴾ [الفتح]

وتتتابع صفات المؤمنين فى قوله سبحانه :

﴿ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا . . (٢٩) ﴾ [الفتح]

وهم فى ركوعهم وسجودهم إنما يعبرون عن قيم الولاء لله .

ثم يصفهم سبحانه :

﴿ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ . . . (٢٩) ﴾ [الفتح]

وهم لا يريدون إلا رضاء الله وفضله ، والنور يشع من وجوههم؛[1] لأنهم أهل للقيم ، ويضيف سبحانه :

﴿ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ . . . (٢٩) ﴾ [الفتح]

أى : أن التوراة جاءت فيها البشارة بأن محمداً سيجىء بأمة فيها الخصال الإيمانية والقيمية التى لا توجد فى اليهود ، هؤلاء الذين تغلب عليهم المادية ولا ترتقى أرواحهم بالقيم الدينية، فأنت إن نظرت إلى التوراة المحرفة

(١) عن ابن عباس رضى الله عنهما، أن نبى الله ﷺ قال: «إن الهدى الصالح والسمت الصالح والاقتصاد جزء من خمسة وعشرين جزءاً من النبوة». أخرجه أحمد فى مسنده (١/ ٢٩٦) وأبو داود فى سننه (٤٧٦٦). وقال بعض الصالحين: إن للحسنة نوراً فى القلب، وضياء فى الوجه، وسعة فى الرزق، ومحبة فى قلوب الناس. انظر ابن كثير (٤/ ٢٠٤).

فلن تجد فيها أى شىء عن اليوم الآخر ، بل كلها أمور مادية.

أما فى الإنجيل فقد جاءت المسيحية بالرهبنة ، والماديات فيها ضعيفة؛ ولذلك جاء القرآن منهجاً متكاملاً تنتظم به الحياة ، قيماً حارسة ، ومادة محروسة ؛ فالعالم يفسد حين تأتى المادة فتطغى وتنحسر القيم ، أو حين توجد قيم ليس لها قوة مادية[١] تدافع عنها ، فيأبى القوى الظالم إلا أن يطغى بقوته المادية على القيم الروحية فيكون الخلل فى البناء الاجتماعى.

إذن: فنحن فى حاجة دائمة إلى قيم تحرسها مادة ، ومادة تحرسها قيم. وأخبر الله قوم موسى : أنتم لا تملكون القيم المعنوية ، وتعتزون بالقيم المادية، لذلك ستأتى أمة محمد وهى تملك قيم الروح والمادة ، فهم رُكَّع ، سُجَّد ، يبتغون فضلاً من الله ورضواناً، وسيماهم فى وجوههم من أثر السجود.

وأبلغ سبحانه قوم عيسى عليه السلام أنه سيأتى فى أمة محمد بمنهج يعطيهم ما فقدتموه من المادة؛ بسبب أنكم انعزلتم عن الحياة وابتدعتم رهبنة ما كتبها الله عليكم ، بينما نحن نريد حركة فى الحياة.[٢]

﴿ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ[٣] يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ...(٢٩) ﴾ [الفتح]

---

(١) جمع الإسلام بين عقل المادة بالتخطيط وعقل الروح بالتهذيب، ومن هنا يكون الانسجام بين طاقة الروح وطاقة المادة ، وطاقة العقل ، فرسالة الإسلام هى عقل القيم ، يقول الحق ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ .. (١٣) ﴾ [الشورى]

(٢) يقول سبحانه: ﴿ وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (٢٧) ﴾ [الحديد].

(٣) شطأه: طرفه. يقال: أشطأ الزرع إذا نبت ونما. آزره: أزر الزرع وتأزّر: قوّى بعضه بعضاً. استغلظ فاستوى على سوقه: صار غليظاً وقويت واستحكمت نبتته.

ومن حق المسلمين أن يقولوا: أيها الكافرون ليست لكم مادة تطغون بها علينا؛ لأن الإسلام يريد من حركة حياتنا على ضوء منهجه فى الأرض أن تتوازن المادة مع القيم؛ لأن القيم هى التى تحرس الحضارة، والمادة إنما تحرس القيم، وحين يمتلك المسلمون القوة المادية فسيرتدع أى إنسان عن أن يطمع فى فتنة المسلمين فى دينهم؛ ولذلك قال الحق سبحانه:

﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ... (٦٠)﴾ [الأنفال]

فالكفار إذا رأوك قد أعددْتَ لهم يتهيبون.

وفى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها، يقول الحق:

﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ﴾

وما دام الحق قد أعطى الوعد، فلن يوجد من هو أوفى منه؛ لذلك يقول: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾ وبذلك يطمئننا سبحانه على أن وعده محقق؛ لأن العهد ارتباط بين مُعَاهَد ومُعَاهِد، والذى يخرج عن هذا الارتباط أمران:

الأول: ألا يكون صادقاً حين أعطى عهداً، بل كان فى نيته ألا يوفى، ولكنه أقام العهد خديعة حتى يستنيم له المعَاهَد.

والأمر الثانى: أن يكون قد أعطى وعداً بما لا يستطيع تنفيذه، فهو كاذب.

والله لا يليق به لا الكذب ولا الخديعة؛ فسبحانه مُنَزَّه عن كل ذلك، ولا أحد أوْفَى بالعهد من الله.

فقد يُطعن فى العهد والوفاء به عدم القدرة، لكن قدرة الحق مستوفية.

إذن: فالعهد الحقيقى إنما يؤخذ من الله ، وقد جاء الحق بهذه القضية بشكل استفهامى ﴿ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ﴾ ؟ فالإجابة: لا أحد ؛ لأن الذى يقدح فى مسألة العهد الخُلف والكذب وغير ذلك.

والله سبحانه مُنزَّه عن الكذب والخديعة ؛ لأن الخديعة لا تأتى إلا من ماكر ، وإذا سمع أى إنسان ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾ ثم أدار فكره فى الكون ليبحث عن جواب ، فلا يجد إلا أن يقول : «الله» ، ولا أحد أوفى من الله بالعهد. وما دام الوعد بالجنة ، فالجنة لا يملكها إلا هو سبحانه ووعده حق ، وكلها تأكيدات بأن المسألة واقعة وحادثة.

ولهذا يقول سبحانه : ﴿ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِى بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١١) ﴾ [التوبة]

فالنتيجة لهذه المسألة كلها من شراء الله من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، ثم وعده الحق المبيَّن فى التوراة والإنجيل والقرآن ، وكلها شهادات مسجلة هى الاستبشار بما باعه المؤمن لله. فالإنسان - ولله المثل الأعلى - لا يسجل إلا ما يكون فى صالح قضيته، ولا يسجل للخصم ، فعندما يكون عندك صَكٌّ[1] على فلان ، فأنت الذى تحتفظ به وتحرص عليه؛ لأنه يؤيد حقك.

والحق سبحانه يقول:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩) ﴾ [الحجر]

والقرآن هو الحجة الكاملة الشاملة فى كل أمور الدنيا والآخرة، ومن فَرْط صدق القرآن أن البشر قد يصلون إلى قضية كونية ما ، ومن بعد ذلك تُخالَف ، وحين تعود إلى القرآن تجد أن كلام القرآن هو الذى صدق ، وقد حفظ الحق سبحانه القرآن لأن قضايا الكون الذى خلقه الله لا يمكن أن

(١) الصَّك: الكتاب، فارسى معرب. يقيد فيه الديون والأعطيات.

تخرج عن قضايا القرآن ؛ لأن منزل القرآن وخالق الكون واحد ، فلا شيء يصادمه .

﴿فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ﴾

قوله الحق : ﴿فَاسْتَبْشِرُوا﴾ مأخوذ من «البشرة» ، وهى الجلد عامة ، وإن كان الظاهر منه هو الوجه .

وحين يقول الحق سبحانه : ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم﴾ فقد يفهم أحد أن النفس سوف تضيع ، وأن الأموال سوف تنفق ، وهذا قد يُقبضُ النفس فهذا فيه الموت ، وخسارة للمال ، وكان من الطبيعى أن يشحب وجه الإنسان ويفزع ويخاف . ولكن ساعة يقول الحق سبحانه : ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ﴾ تجد بشرة المؤمن تطفح بالسرور . والبشر ، ويحدث له تهلل وإشراق ، مع أنه هنا سيأخذ نفسه ، ولكن المؤمن يعرف أنه سبحانه سيأخذ نفسه ليعطيه الحياة الخالدة .

إذن : قضايا الإيمان كلها هكذا لا يجب أن تصيبنا بالخوف ، بل علينا أن نستقبلها بالاستبشار ، ولذلك يقول الحق : ﴿فَاسْتَبْشِرُوا﴾ أى : فليظهر أثر ذلك على بشرتكم إشراقاً وسروراً وانبساطاً [١] .

﴿فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ﴾ وهل يستبشر الإنسان بالبيع ؟ نعم ؛ لأن الإنسان لا يبيع إلا ما يستغنى عنه عادة ، ويشترى ما يحتاج إليه ، فهنا الاستبشار بالبيع وليس بالشراء ، فالمؤمن هنا يبيع فانياً بباق .

﴿فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذى بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ وأنت إذا ما نظرت إلى الذين يخالفون العهد الذى أخذ عليهم ، تجد الواحد منهم

(١) وعلى المؤمن أن يكون له نصيب من هذا فى تعامله مع الناس ، فعن أبى موسى قال : كان رسول الله ﷺ إذا بعث أحداً من أصحابه فى بعض أمره قال : «بشروا ولا تنفروا ، ويسروا ولا تعسروا» . أخرجه أحمد فى مسنده (٤/ ٣٩٩) ومسلم (١٧٣٢) فى صحيحيهما .

يحتاج للمخالفة لأن وفاءه يتعبه. لكن الحق سبحانه ليس فى حاجة لأحد وهو غنى عن الجميع ، ولا يوجد أدنى مبرر لخُلْف الوعد أبداً.

وتأتى ﴿وَذَلِكَ﴾ إشارة إلى الصفقة التى انعقدت بينكم وبين ربكم.

﴿وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ والفوز هو بلوغ الغاية المأمولة فى عرف العقل الواعى ، كما تقول لابنك : «ذاكر لتفوز بالنجاح» وتقول للتاجر : «اجتهد فى عملك بإخلاص لتفوز بالربح».

إذن: فهناك «فوز»، وهناك «فوز عظيم» والفوز فى الدنيا أن يتمتع الإنسان بالصحة والمال وراحة البال. وهناك فوز أعظم من هذا؛ أن تضمن أن النعمة التى تفوز بها لا تفارقك ولا أنت تفارقها، فيكون هذا هو الفوز الذى لا فوز أعظم منه[1].

ويقول الحق بعد ذلك:

﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾[2]

(١) وهذه طبيعة الإنسان التى تطمح نفسه دائماً إلى الخلود وخلود ما أنعم عليه به ، وقد لمح إبليس فيه هذا فقال : ﴿ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [طه] . فإبليس يمنيه بالخلد وبالنعيم الذى لا يزول ولا يفنى.

(٢) التائبون : من الشرك ولم ينافقوا فى الإسلام. العابدون : الذين ذلوا خشية لله وتواضعاً . الحامدون : الذين حمدوا الله على كل حال فى السراء والضراء . السائحون : الصائمون . الراكعون الساجدون : المصلون . الحافظون لحدود الله : المنتهون إلى أمره (راجع تفسير الطبرى).

وبعد أن عرض الحق هذه الصفقة، فمن هم المقبلون عليها [(١)] ؟ إنهم التائبون ، والتوبة : هى الرجوع عن أى باطل إلى حق.

وعمَّ يتوب هؤلاء التائبون ؟

نحن نعلم أن هناك إيماناً اسمه إيمان الفطرة. نجد ذلك فى قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣) ﴾ [الأعراف]

إذن : فالإيمان أمر فطرى ، والكفر هو الذى يطرأ عليه ، وقلنا من قبل : إن الكفر هو الدليل الأول على الإيمان ؛ لأن الكفر هو الستر [(٢)] ،

(١) لمس فضيلة الشيخ هنا معنى هاماً فى تفسير هذه الآية، فلن يقبل على الدخول فى هذه البيعة إلا من توافرت فيه هذه الصفات، ولكن ليس على سبيل الشرط، فقد ثبت فى السنة أن هناك من استشهد ولم يركع لله ركعة ، وكذلك جاء فى السنة أن الشهيد تغفر له ذنوبه مع أول قطرة دم (أخرجه أحمد فى مسنده (٤/ ١٣١) وحسَّن إسناده المنذرى فى الترغيب (٢/ ١٩٤) وقد اختلف المفسرون فى هذه الآية : هل هى متصلة بالآية قبلها أم منفصلة ؟ فاتصالها بها معناه أنه لن يدخل فى هذه البيعة إلا القليل النادر، أما انفصالها فمعناه أن هذه أوصاف للكمَلة من المؤمنين الأقرب لبيع أنفسهم وأموالهم فى مقابل الجنة. انظر تفسير القرطبى (٤/ ٣١٩٧) .

(٢) الكفر على أربعة أنحاء : كفر إنكار بأن لا يُعرف الله أصلاً ولا يُعترف به، وكفر جحود، وكفر معاندة، وكفر نفاق، من لقى ربه بشىء من ذلك لم يغفر له . . . فأما كفر الإنكار فهو كفر بالقلب واللسان. وأما كفر الجحود فهو أن يعترف الكافر بقلبه ولا يقرّ بلسانه ككفر إبليس وأمية بن أبى الصلت ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ (٨٩) ﴾ [البقرة] . وأما كفر المعاندة فهو أن يعرف الله بقلبه ويقرّ بلسانه ويأبى أن يدين به حسداً وبغياً ككفر أبى جهل. وأما كفر النفاق فهو إقرار باللسان وكفر بالقلب. نقله ابن منظور فى اللسان (مادة: كفر).

فمن يكفر بالله - والعياذ بالله - إنما يستر وجوده ، فكأن وجوده هو الأصل ، ثم يطرأ الكفر فيستره ، ثم يأتى من ينبه فى الإنسان مشاعر اليقين والإيمان فيرجع الإنسان إلى الإيمان بالله بعد أن يزيل الغشاوة التى طرأت على الفطرة.

و﴿التَّائِبُونَ﴾: منهم التائبون عن الكفر الطارىء على إيمان الفطرة ، وأخذوا منهج الله الذى آمنوا به، ومن هنا نشأت العبادة التى تقتضى وجود عابد ومعبود ، والعبادة تعنى الانصياع من العابد لأوامر ونواهى المعبود.

﴿ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ﴾ والعبادة كلها طاعة تتمثل فى تطبيق ما جاء به المنهج من «افعل» و«لا تفعل»، وقد يتدخل المنهج فى حريتك قليلاً ، وأنت بقوة الإيمان تعتبر أن هذا التدخل فى هذه الحرية نعمة يجب أن تحمد الله عليها ؛ لأنه لو تركك على هواك ، كما يترك ولى أمر التلميذ ابنه على هواه فهو يفشل ، ولكن الأب الذى يحث ابنه على المذاكرة وينهاه عن اللعب والعبث ، فلا بد أن ينجح.

إذن: الأوامر والنواهى هنا نعمة ، كان يجب أن نحمد ربنا عليها ، وكل ما يجريه الله على العبد المؤمن يجب أن يأخذه العبد على أساس أنه نعمة.

إذن: فالذين تابوا عن الكفر الطارىء على إيمان الفطرة هم تائبون يأخذون منهج الإيمان من المعبود ، ويصبحون بذلك عابدين لله ، أى: منفذين الأوامر ، ومبتعدين عن النواهى ، وهم يعلمون أن الأوامر تقيد حركة النفس وكذلك النواهى، ولكنهم يصدقون قوله ﷺ: «حُفَّتِ الجنةُ

بالمكاره ، وحُفَّت النارُ بالشَّهوات »[١]

حين تعرف أن العبادة أوصلتك إلى أمر ثقيل على نفسك ، فاعرف أن هذا لمصلحتك وعليك أن تحمد الله عليه ؛ وبذلك يدخل المؤمن فى زمرة **الْحَامِدِينَ**.

وأنت حين تؤمن بالله ، يصبح الله فى بالك ، فلا يشغلك كونه عنه سبحانه ، وإياك أن تشغل بالنعمة عن المنعم ، واجعل الله دائماً فى بالك ، والحق سبحانه يقول:

﴿ **كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ** ⟨٦⟩ **أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ** ⟨٧⟩ ﴾ [العلق]

لذلك يفكر المؤمن فى الله دائماً ويشكر المنعم على النعمة وآثارها من راحة فى بيت وأولاد وعمل.

و﴿ **الْحَامِدُونَ** ﴾ أيضاً لابد أن يستقبلوا كل قدر لله عليهم بالرضا ؛ لأن الذى يُجرى عليهم القدر - ما دام لم يأمرهم بما لم يقع فى اختيارهم - فهو حكيم ولا يُجْرى سبحانه عليهم إلا ما كان فى صالحهم. وبعد أن ترضى النفس بما أجرى عليها تعرف الحكمة ؛ ولذلك يقول سبحانه : ﴿ **اتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ** ... ⟨٢٨٢⟩ ﴾ [البقرة]

ويتابع الحق صفات المقبلين على الصفقة الإيمانية فيقول: ﴿ **السَّائِحُونَ** ﴾

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٣/ ١٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٨٤) ومسلم فى صحيحه (٢٨٢٢) والترمذى فى سننه (٢٥٥٩) والدارمى فى سننه (٢/ ٣٣٩) عن أنس بن مالك. قال النووى فى شرحه لمسلم (١٧/ ١٧١) «فأما المكاره فيدخل فيها الاجتهاد فى العبادات، والمواظبة عليها، والصبر على مشاقها وكظم الغيظ والعفو والحلم والصدقة والإحسان إلى المسىء، والصبر عن الشهوات ونحو ذلك. وأما الشهوات التى حُفَّت بها النار ، فالظاهر أنها الشهوات المحرمة كالخمر والزنا والنظر إلى الأجنبية والغيبة واستعمال الملاهى ونحو ذلك، وأما الشهوات المباحة فلا تدخل فى هذه لكن يكره الإكثار منها مخافة أن يجر إلى المحرمة أو يقسّى القلب أو يشغل عن الطاعات أو يحوج إلى الاعتناء بتحصيل الدنيا للصرف فيها ونحو ذلك».

ومعنى «سائح» هو من ترك المكان الذى له موطن ، فيه بيته وأهله وأولاد وأنس بالناس ، ثم يسيح إلى مكان ليس له فيه شيء ما ، قد يتعرض فيه للمخاطر ، والمؤمن إنما يفعل ذلك ؛ لأنه لا شيء يشغله فى الكون عن المكوِّن ، ويقول الحق سبحانه :

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا ...(١١)﴾ [الأنعام]

إذن : فالسياحة هى السير المستوعب ، والسير فى الأرض منه سير اعتبار لينظر فى ملكوت السموات والأرض ، وليستنبط من آيات الله ما يدل على تأكيد إيمانه بربه ، ومنه سير استثمار بأن يضرب فى الأرض[1] ليبتغى من فضل الله .

إذن : فالسياحة إما سياحة اعتبار ، وإما سياحة استثمار ، أما سياحة الاستثمار فهى خاصة بالذين يضربون فى الأرض ، وهم الرجال .

أما سياحة الاعتبار ؛ فهى أمر مشترك بين الرجل والمرأة ، بدليل أن الله قال ذلك فى وصف النساء :

﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ...(٥)﴾ [التحريم]

إذن : ﴿سَائِحَاتٍ﴾ هنا مقصود بها سياحة الاعتبار ، أو السياحة التى تكون فى صحبة الزوج الذى يضرب فى الأرض .

وقيل أيضاً : إن السياحة أطلقت على «الصيام» ؛ لأن السياحة تخرجك عما ألفْتَ من إقامة فى وطن ومال وأهل ، والصيام يخرجك عما ألفْتَ من

(١) الضرب فى الأرض : السفر لطلب الرزق والتجارة . يقول سبحانه : ﴿وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ (٢٠)﴾ [المزمل]

طعام وشراب وشهوة [1] .

إذن: القَدْرُ المشترك بين الرجال والنساء هو فى سياحة الاعتبار وسياحة الصوم.

ثم يقول الحق سبحانه:

﴿الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ﴾ أى: المقيمون للصلاة، وقد جاء بمظهرين فقط من مظاهر الصلاة، مع أن الصلاة قيام وقعود وركوع وسجود؛ لأن الركوع والسجود هما الأمران المختصان بالصلاة، وأما القيام فقد يكون فى غير الصلاة، وكذلك القعود. إذن: فالخاصيَّتان هما ركوع وسجود؛ والحق يقول:

﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي [2] لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٣)﴾ [آل عمران]

أى: صلّى مع المصلِّين، وهكذا نجد أن الركوع والسجود هما الأمران اللذان يختصان بالحركة فى الصلاة.

ثم يقول سبحانه: ﴿ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر هو حيثية تخص الأمة المحمدية لتكون خير أمة أخرجت للناس، فالحق سبحانه يقول:

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ... (١١٠)﴾ [آل عمران]

فإذا أمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر، فلا بد أن تكون بمنأى عن هذا

---

(١) قيل للصائم: «سائح»؛ لأن الذى يسيح متعبداً يسيح ولا زاد معه إنما يطعم إذا وجد الزاد، والصائم لا يطعم أيضاً فلشبهه به سمى سائحاً. نقله ابن منظور فى اللسان.

(٢) القنوت: أداء الطاعة فى خضوع وخشوع مع الإقرار بالعبودية لله.

المنكر فليس معقولاً أن تنهى عن شيء أنت مزاول له [١]. إذن: فالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، صلاح أو هدى مُتَعدٍّ من النفس إلى الغير، بعد أن تكون النفس قد استوفَتْ حظها منه.

ويقتضى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أن تعرف المعروف الذى تأمر به، وأن تعرف المنكر الذى تنهى عنه؛ لذلك لا بد أن تكون من أهل الاختصاص فى معرفة أحكام الله، ومعرفة حدود الله حلاً وحُرْمة، أما أن يأتى أى إنسان ليُدخل نفسه فى الأمر ويقول: أنا آمرَ بمعروف وأنا أنهى عن منكر، هنا نقول له: لا تجعل الدين، ولا تجعل التقوى فى مرتبة أقل من المهن التى لا بد أن يزاولها أهل فكر ومتخصصون فيها.

ثم يقول سبحانه: ﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾ و«الحدود» جمع «حد» وتأتى الحدود فى القرآن على معنيين: المعنى الأول هو المحافظة على الأوامر، وتلك يردفها الحق بقوله:

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا ... (٢٢٩)﴾ [البقرة]

وكل أمر يقول فيه ذلك هو حد الله فلا تتعدَّ هذا الحد، أما المعنى الثانى: فهو البعد عن المنهيات فلا يقول لك: لا تتعداها، بل يقول سبحانه:

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا ... (١٨٧)﴾ [البقرة]

ويُنهى الحق سبحانه الآية بقوله: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أى: بَشِّرْ هؤلاء

---

(١) عن أسامة بن زيد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يُجاء برجل فيطرح فى النار فيطحن فيها كطحن الحمار برحاه، فيطيف به أهل النار فيقولون: أى فلان ألست كنت تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟ فيقول: كنت آمر بالمعروف ولا أفعله، وأنهى عن المنكر وأفعله». أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٢٦٧) ومسلم بلفظ مقارب (٢٩٨٩)

ويقول الشاعر:

لاَ تَنْهَ عَن خُلُقٍ وتأتى مثلَهُ ... عَارٌ عليكَ إذا فعلْتَ عَظِيمُ

الذين يسلكون هذا السلوك مطابقاً لما اعتقدوه من اليقين والإيمان ، لا هؤلاء المنافقين الذين قد يصلون أو يصومون ظاهراً. وكلمة ﴿وَبَشِّرِ﴾ و«استبشر» و«البشرى» و«البشير» كلها مادة تدل على الخبر السار الذى يجعل فى النفس انبساطاً وسروراً ؛ بحيث إذا رأيت وجه الإنسان وجدته وجهاً متهللاً تفيض بشرته بالسرور.

وبعد ذلك يتكلم الحق عن أمر شغل بال المؤمنين الذين كان لهم آباء على الكفر ؛ ومن حقوق هذه الأبوة على الأبناء أن يستغفروا لهم لعل الله يغفر ، وأراد الحق سبحانه وتعالى أن يبين لنا أن رعاية حدود الله وحقوقه أوْلَى من قرابة الدم ، وأوْلى من عاطفة الحنوّ والرحمة ؛ فالحق سبحانه وتعالى أوْلى بأن يكون الإنسان باراّ به من أن يكون باراّ بالأب الكافر ، وقد جعل الحق سبحانه النسبَ فى الإسلام نفسه.

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾

قبل أن يحظر الحق سبحانه على المؤمنين الاستغفار لآبائهم المنافقين ، بدأ برسول الله ﷺ ، فقال : ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ﴾ ، وإذا كان النبى ينهى ، فالمؤمنون من باب أوْلى ليس لهم الحق فى ذلك ؛ لأن الله لو أراد أن يكرم أحداً من الآباء لأجل أحد ، لأكرم آباء النبى إن كانوا غير مؤمنين.

وكلمة ﴿ مَا كَانَ ﴾ تختلف عن كلمة «ما ينبغى» فساعة تسمع «ما ينبغى لك أن تفعل ذلك» فهذا يعنى أن لك قدرة على أن تفعل ، لكن لا يصح أن

تفعل ، ولكن حين يقال : «ما كان لك أن تفعل» ، أى : أنك غير مؤهل لفعل هذا مطلقاً .

ومثال ذلك أن يقال لفقير جداً : «ما كان لك أن تشترى ڤيديو» ؛ لأنه بحكم فقره غير مؤهل لشراء مثل هذا الجهاز ، لكن حين يقال لآخر : «ما ينبغى لك أن تشترى ڤيديو» أى : عنده القدرة على الشراء ، لكن القائل له يرى سبباً غير الفقر هو الذى يجب أن يمنع الشراء . إذن : فهناك فَرْق بين نفى الإمكان ، ونفى الانبغاء .

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾

أى : ما كان [1] للنبى ولا المؤمنين أن يستغفروا للذين ماتوا على الشرك والكفر ، ولو كانوا أولى قربى . فهذا أمر لا يصح [2] .

وحتى لا يحتج أحد من المؤمنين بأن سيدنا إبراهيم عليه السلام قد استغفر لأبيه جاء الحق بالقول الكريم :

---

(١) قوله : «ما كان» يأتى فى القرآن على وجهين :
- النفى : نحو قوله تعالى : ﴿ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا ﴿٦٠﴾ ﴾ [النمل] ، وقوله : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴿١٤٥﴾ ﴾ [آل عمران] .
- النهى : نحو قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الأحزاب] ، وقوله : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ ﴿١١٣﴾ ﴾ [التوبة]

(٢) مما جاء فى سبب نزول هذه الآية أنه : لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ فوجد عنده أبا جهل وعبد الله بن أبى أمية بن المغيرة فقال رسول الله ﷺ : يا عم قل : لا إله إلا الله . كلمة أشهد لك بها عند الله فقال أبو جهل وعبد الله بن أبى أمية : يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب . فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه ويعيد له تلك المقالة حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم هو على ملة عبد المطلب وأبى أن يقول : لا إله إلا الله ، فقال رسول الله ﷺ : أما والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك . فنزلت الآية : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ ﴾ [التوبة] . أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٤) .

﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ ﴾

فقد وعد سيدنا إبراهيم عليه السلام أباه ما ذكره القرآن :

﴿ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ ﴾ [مريم]

﴿حَفِيًّا﴾ أى : أن ربَّ إبراهيم يحبه وسيكرمه فى استغفاره لأبيه [(١)] .

﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ ويأتى الحق سبحانه بالحيثية الموحية ، بأن إبراهيم له من صفات الخير ، الكثير جداً ، لدرجة أن الله خالقه يقول فيه :

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً ... ﴿١٢٠﴾ ﴾ [النحل]

أى : أن خصال الخير فى إبراهيم عليه السلام لا توجد مجتمعة فى إنسان واحد ، ولا فى اثنين ولا فى ثلاثة ، بل خصال الخير موزعة على الناس كلها ، فهذا فيه صفة الأمانة ، وثان يتحلى بالصدق ، وثالث يتميز بالشهامة ، ورابع موهوب فى العلم ، إذن : فخصال الخير دائماً ينشرها الله فى خلقه ، حتى يوجد تكافؤ الفرص بين البشر ، كالمهن ، والحرف ، والعبقريات ، والمواهب ، فلا يوجد إنسان تتكامل فيه المواهب كلها ليصبح مجمع مواهب .

---

(١) حفياً : مبالغاً فى الإكرام وإجابة حاجته على سبيل البر واللطف به . وقد جاء استغفار إبراهيم لأبيه فى القرآن مرتين : ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿٤١﴾ ﴾ [إبراهيم] ، ﴿ وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ [الشعراء] . ولكن هذا قبل أن يتبين له أن أباه عدو لله .

لكن شاء الحق أن يجمع لسيدنا إبراهيم عليه السلام خصال خير كثيرة فقال: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ أى: فيه عليه السلام من خصال الخير التى تتفرق فى الأمة. وبعد ذلك يعطينا الحيثية التى جعلت من سيدنا إبراهيم أمة، وجامعاً لصفات الخير بهذا الشكل، فإن أعطاه الله أمراً فهو ينفذه بعشق[1]، لا مجرد تكليف يريد أن ينهيه ويلقيه من على ظهره، بل هو ينفذ التكليف بعشق، واقرأ قول الله سبحانه:

﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ .. (١٢٤)﴾ [البقرة]

أى: أتى بها على التمام، فلما أتمهن أراد الله أن يكافئه، فقال:

﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ... (١٢٤)﴾ [البقرة]

فهو - إذن - مأمون على أن يكون إماماً للناس لأنه قدوة، أى أنه يشترك مع الناس فى أنه بشر، ولكنه جاء بخصال الخير الكاملة فصار أسوة للناس، حتى لا يقول أحد: إنه فعل الخير لأنه ملك، وله طبيعة غير طبيعة البشر، لا.. إنه واحد من البشر، قال فيه الحق سبحانه:

﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ... (١٢٤)﴾ [البقرة]

أى: أسوة وقدوة، والأسوة والقدوة يشترط فيها أن تكون من الجنس نفسه فلا تكون من جنس مختلف، فلا يجعل الله للبشر أسوة من الملائكة؛ حتى لا يقول أحد: وهل أنا أستطيع أن أعمل مثل عمله؟ ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى فى عرض هذه القضية:

﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا (٩٤)﴾ [الإسراء]

---

(١) العشق هنا أعلى مراتب الحب.

فحين تعجَّب بعض الناس[1] من أن ربنا قد بعث من البشر رسولاً أنزل الحق هذا القول وأضاف سبحانه:

﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولاً (٩٥)﴾ [الإسراء]

فما دُمْتم أنتم بشر فلا بد أن يرسل لكم رسولاً منكم لتحقق الأسوة، لهذا يقول الحق سبحانه:

﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ (٩)﴾ [الأنعام]

ولنَر كيف أتم سيدنا إبراهيم عليه السلام بعض التكاليف بعشق ، فلننظر إلى قول الحق سبحانه:

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ ... (١٢٧)﴾ [البقرة]

ومعنى رفع القواعد أى إيجاد البعد الثالث، وهو الارتفاع ؛ لأن البيت الحرام له طول وهذا هو البعد الأول ، وله عرض وهو البعد الثانى وبهما تتحدد المساحة . أما الارتفاع فبضربه فى البعدين الآخرين يعطينا الحجم ، وقد أقام سيدنا إبراهيم عليه السلام البعد الثالث الذى يبرز الحجم ، وقد قال بعض السطحيين : إن سيدنا إبراهيم عليه السلام هو الذى بنى الكعبة، لا لم يبن الكعبة ، بل رفع القواعد التى تبرز حجم الكعبة ؛ بدليل أنه حينما جاء هو وامرأته هاجر ومعها الرضيع إسماعيل عليه السلام قال :

---

(١) جمع الله ذكر هؤلاء المتعجبين فى قوله تعالى فى سورة إبراهيم: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لاَ يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٩) قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (١٠) ﴾ [إبراهيم] .

﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ .. (٣٧) ﴾ [إبراهيم]

وهذا دليل على أن البيت كان معروفاً من قبل إبراهيم عليه السلام ، وقد استقرت به هاجر وطفلها إسماعيل إلى أن كبر واستطاع أن يرفع مع أبيه القواعد ، ولذلك نقول : إن هناك فرقاً بين « المكان » و« المكين» فالذى فعله إبراهيم هو إقامة « المكين» أى المبنى نفسه ، أما المكان فقد كان معروفاً .

ولنفترض أنه جاء سيل على الكعبة وهدمها فإلى أى شىء سنصلى ؟ إلى أن نقيم المكين . إذن : عملية البناء هذه للمكان ، وليست للمكين .

ويقول الحق عن البيت الحرام :

﴿ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ ... (٩٧) ﴾ [آل عمران]

وآيات جمع ، وبينات جمع ، ولم يأت من الآيات البينات إلا « مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ » :

﴿ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ... (٩٧) ﴾ [آل عمران]

أى : أن « مقام إبراهيم » هو مجموع الآيات البينات ؛ لأن الله قد أمره أن يرفع القواعد ، وكان لا بد أن يبحث عن الإمكانات التى تساعده فى الرفع ؛ لأنه لو رفعها على قدر ما تطول يده لما بلغ طول الكعبة فوق مستوى ما تطوله اليدان ؛ لذلك فكر سيدنا إبراهيم وتدبر وجاء بحجر ليقف فوقه ليطيل فى ارتفاع جدران الكعبة ، وهذا من دلائل أنه ينفذ التكليف بعشق ، وعلى أتم وجه ؛ لذلك قال الحق :

﴿ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ﴾ وفى هذا آيات واضحة على أن الإنسان

إذا كلف أمراً فعليه ألا ينفذ الأمر لينهى التكليف بأية طريقة ، ولكن عليه أن يؤدى ما يكلف به بعشق ، ويحاول أن يزيد فيه ، وبذلك يؤدى «الفرض» والزائد على الفرض وهو «النافلة» .

ونحن هنا فى قضية الاستغفار ﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾

وهنا وقفة توضح لنا طبع سيدنا إبراهيم كأواه حليم ، والأواه هو الذى يكثر التوجع والتأوه على نفسه مخافة من الله ، وعلى الناس إن رأى منهم معصية ، فيحدث نفسه بما سوف يقع عليهم من عذاب ، إنه يشغل نفسه بأمر غيره ، فهذه فطرته ، وهو أواه لأن التأوه لون من السلوى يجعلها الله فى بعض عباده للتسرية عن عبادٍ له آخرين [1] .

ولذلك يقول الشاعر :

ولا بد من شكوى إلى ذى مروءةٍ يواسيك أو يسلّيك [2] أو يتوجع

أى : أنه إذا أصابت الإنسان مصيبة فهو يشكو إلى صاحب المروءة ، فإما أن يساعده فى مواجهة المشكلة ، وإما أن يواسيه ليحمل عنه المصيبة ، بأن يتأوه له ويشاركه فى تعبه لمصيبته ، وهذا التأوه علامة رقة الرأفة وشفافية الرحمة فى النفس البشرية .

فإبراهيم ﴿ أَوَّاهٌ ﴾ ، وهذا طبع فيه يسلكه مع كل الناس ، فما بالك إن كان لقريب له ؟ لا بد إذن أن يكثر من التأوه ، وخصوصاً إن كان الأمر يتعلق بأبيه ، ومع ذلك أراد الله أن يضع طبع إبراهيم عليه السلام فى التأوه

(١) ومن معانى الأوّاه أيضا : كثير الدعاء والتضرُّع إلى الله موقناً بالإجابة. انظر اللسان (مادة : أوه).
(٢) يسلّيك : يكشف عنك همَّك.

فى موضعه الصحيح ، ولكن الله أوضح له : إياك أن تستغفر لأبيك ولا شأن لك به ، فالمسألة ليست فى الطبع ، ولكن فى رب الطبع الذى أمر بذلك .

وهنا قضية هامة أحب أن تصفى بين مدارس العلم والعلماء فى العالم كله ؛ لأنها مسألة تسبب الكثير من المشاكل ، وتثار فيها أقضية كثيرة .

لقد أمر الحق سبحانه إبراهيم عليه السلام ألا يستغفر لأبيه ،بعد أن تبين له أنه عدو لله ، وما دام والد إبراهيم قد وصف بهذه الصفة وأنه عدو لله ومحمد ﷺ من نسل إبراهيم إذن : فلماذا يقول الرسول : « إننى خيار من خيار من خيار » ؟

ولو فهمنا قول الحق : إن أبا إبراهيم عدو لله ، ففى هذا نقض لحديث رسول الله ، وما دام أبو إبراهيم كان عدوا لله وتبرأ منه وقال له الحق : لا تستغفر . إذن : ففى نسبه ﷺ أحد أعداء الله ، وفى ذلك نقض لقوله ﷺ : « خيار من خيار من خيار ، ما زلت أنتقل من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات » .

ولهذا نريد أن نصفى هذه المسألة تصفية علماء ، لا تصفية غوغاء ، ولنسأل من هو الأب ؟ الأب هو من نَسَلَكَ وأنجبك ، أو نسل من نسلك . إذن : فهناك أب مباشر و أبوه يعتبر أبا لك أيضاً إلى أن تنتهى لآدم ، هذا هو معنى كلمة « الأب» كما نعرفه ، لكننا نجد أن القرآن قد تعرض لها بشكل أعمق كثيراً من فهمنا التقليدى ، وأغنى السور بالتعرض لهذه المادة « سورة يوسف » ؛ لأن مادة « الأب» جاءت ثمانى وعشرين مرة خلال هذه السورة ، فمثلاً تجد فى أوائل سورة يوسف،قول يوسف عليه السلام:

﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا ... ﴿٤﴾ ﴾

[يوسف]

وبعد ذلك جاءت السورة بأن الله سوف يجتبى يوسف ويعلمه من تأويل الأحاديث:

﴿ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ [(١)] رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ ... (٦) ﴾ [يوسف]

والأبوان المقصودان هنا هما إبراهيم وإسحاق عليهما السلام، ثم قال الحق من بعد ذلك: ﴿ إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ [(٢)] إِلَىٰ أَبِينَا .. (٨) ﴾

[يوسف]

ثم جاء قوله الحق على لسان إخوة يوسف: ﴿ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٨) ﴾ [يوسف]

وفى نفس السورة يقول الحق عن إخوة يوسف:

﴿ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ ... (٩) ﴾ [يوسف]

ثم يمهد إخوة يوسف للتخلص منه، فيبدأون بالحوار مع الأب:

﴿ يَـٰأَبَانَا مَا لَكَ لاَ تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ (١١) أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (١٢) ﴾ [يوسف]

وبعد أن ألقوه فى غيابة الجب [(٣)]، وعادوا إلى والدهم:

﴿ وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ (١٦) ﴾ [يوسف]

---

(١) يجتبيك: يختارك ويصطفيك لنبوته. وتأويل الأحاديث: هو تفسير الأحلام والرؤى.
(٢) يقصدون أخا يوسف من أمه راحيل، واسمه بنيامين.
(٣) الجُبّ: البئر. وغيابته: أى: قعره، فى منهبط منه.

وكانت هذه هى المرة الثامنة فى ذكر كلمة أب فى سورة يوسف ، ثم تأتى التاسعة :

﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا ... (١٧) ﴾[يوسف]

ثم تدور أحداث القصة إلى أن دخل سيدنا يوسف السجن ، وقابل هناك اثنين من المسجونين وأخبراه أنهما يريانه من المحسنين ، وأن عندهما رؤى يريدان منه أن يفسرها لهما فقال لهما :

﴿ لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ ... (٣٧) ﴾ [يوسف]

وينسب ذلك الفضل إلى الحق سبحانه فيقول :

﴿ ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّى إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٣٧) وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ... (٣٨) ﴾ [يوسف]

وهكذا ذكر اسم ثلاثة من آبائه : إبراهيم وإسحق ويعقوب عليهم السلام .

ثم خرج يوسف من السجن [(١)] وتولى أمر تنظيم اقتصاد مصر ، وجاء إخوته للتجارة فعرفهم ، ويحكى القرآن عن لقائه بهم دون أن يعرفوه ، وقال :

﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ...(٥٩) ﴾ [يوسف]

وقال أيضاً :

---

(١) رفض يوسف عليه السلام الخروج من السجن للقاء الملك إلا بعد أن تظهر براءته مما نسب إليه تجاه امرأة العزيز ؛ لذلك قال لرسول الملك : ﴿ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (٥٠) ﴾[يوسف] وتم له ما أراد ، فقالت النسوة : ﴿حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ﴾ وقالت امرأة العزيز : ﴿ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٥١) ﴾ [يوسف] .

﴿قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ [1] ... (٦١)﴾ [يوسف]

ثم عادوا إلى أبيهم يرجونه أن يسمح لهم باصطحاب أخيهم الأصغر معهم [2]، وسمح لهم يعقوب عليه السلام باصطحابه بعد أن آتوه موثقاً من الله أن يأتوه به إلا أن يحيط بهم أمر خارج عن إرادتهم ، ونزلوا مصر وطلبوا الميرة [3].

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ [4] فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ [5] إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ (٧٠) قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ (٧١) قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ [6] (٧٢) قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ (٧٣) قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ (٧٤) قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ ... (٧٥)﴾ [يوسف]

قالوا : ﴿إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٧٨)﴾ [يوسف]

قال يوسف :

﴿مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ ... (٧٩)﴾ [يوسف]

---

(١) المراودة : المراجعة وطلب الإذن منه برفق .

(٢) وذلك أنهم قالوا لأبيهم : ﴿يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ [يوسف : ٦٥] قال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٤٨٤) : «وذلك أن يوسف عليه السلام كان يعطى كل رجل حمل بعير» .

(٣) الميرة : هي الطعام يمتاره الإنسان أي يجلبه .

(٤) السقاية : هو إناء من فضة كانوا يكيلون الطعام به، وربما شربوا به . ويسمى أيضاً الصواع .

(٥) العير : القافلة ، والعير القوم معهم دوابهم وأحمالهم من الطعام . قال تعالى : ﴿أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾[يوسف : ٧٠] أي : أيها القوم الراحلون .

(٦) زعيم : كفيل .

ويأمرهم سيدنا يوسف عليه السلام :

﴿ ارْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ (٨١) ﴾ [يوسف]

ويعودون إلى أبيهم الذى يعاتبهم : ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا . . .(٨٣) ﴾ [يوسف]

ثم يأمرهم أن يعودوا مرة أخرى قائلاً :

﴿ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ . . . (٨٧) ﴾ [يوسف]

وعندما عرفهم يوسف بنفسه وعلم منهم أن والدهم قد صار أعمى قال لهم : ﴿ اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا (٩٣) ﴾ [يوسف]

ثم يأمرهم يوسف عليه السلام بأن يأتوا بأهلهم أجمعين. ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلا أَن تُفَنِّدُونِ [1] (٩٤) ﴾ [يوسف]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ [2] وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ . . . (١٠٠) ﴾ [يوسف]

وما يهمنا فى كل ذلك آيتان اثنتان : الأولى هى قوله سبحانه : ﴿ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦) ﴾ [يوسف]

---

(١) تفنّدون : أى تكذبونى وتتهمونى بالخرَف وضعف الرأى والعقل .
(٢) العرش : سرير الملك .

وإسحق هو أبو يعقوب ، وإبراهيم هو الأب الثالث . وحين قال يوسف :

﴿ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ [1] آبَائِي ... (٣٨) ﴾ [يوسف]

و« آبائى » جمع أب . وعندما أراد أن يذكر الأعلام من آبائه قال :

﴿ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ... (٣٨) ﴾ [يوسف]

ويعقوب هو أبو يوسف ، وإسحق أبو يعقوب ، وإبراهيم أبو إسحق ، إذن : فإبراهيم أب ، وإسحق أب ، ويعقوب أب . وهكذا نرى أن كلمة «الأب» تطلق على الجد ، وآباء الجد إلى آدم . وإذا نظرت فى سورة البقرة تجد قول الحق سبحانه :

﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِى قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ... (١٣٣) ﴾ [البقرة]

ومقابلة الجمع بالجمع تقتضى القسمة آحاداً ، وهكذا يكون إبراهيم أباً ، وإسماعيل أباً ، وإسحق أباً ، ولكن إسماعيل أخ لإسحق ، إذن فقد أطلق الأب هنا وأريد به العم ، وهكذا ترى أنه إذا ألحق بكلمة « أب» اسم معين هو المقصود بها ، فالمعنى ينصرف إما إلى الجد وإما إلى العم ، وإن جاءت من غير تحديد الاسم ، فهى تنصرف إلى الأب المباشر فقط .

والحق يقول فى شأن إبراهيم مع أبيه :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ ... (٧٤) ﴾ [الأنعام]

---

(١) المِلّة : الشريعة والدين .

لقد ذكر الحق هنا اسم الأب وحدده بـ« آزر »[١] ولو أنه أبوه حقيقة لما قال آزر ، مثلما يأتيك إنسان ليسأل : أين أبوك ؟ هنا نفهم أن السؤال ينصرف إلى الأب المباشر ، لكن إذا قال : هل أبوك محمد هنا ؟ فهذا التحديد قد ينصرف إلى العم .

إذن : قول الله : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ ﴾ يبين لنا أن آزر ليس هو الصُّلب الذى انحدر منه رسول الله ، ولكنه عمه ، وبذلك نحل الإشكال واللغز الذى حير الكثيرين .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ[٢] حَلِيمٌ (١١٤)﴾ [التوبة]

و« الحليم» هو خلق يجعل صاحبه صبوراً على الأذى صفوحاً[٣] عن الذنب .

وقد شغل صحابة رسول الله ﷺ بإخوانهم المؤمنين ، الذين ماتوا قبل أن تكتمل عندهم أحكام الإسلام ؛ لأن منهج الإسلام نزل فى « ثلاثة وعشرين عاماً» . وليس من المفروض فيمن آمن أن يأتى بكل أحكام

(١) آزر : اسم أعجمى . وقد اختُلف فى اسم أبى إبراهيم ، فالنسابون والمفسرون على أن اسم أبيه «تارح» وبعضهم قال : «تارخ» وبعضهم قال : إنهما اسمان له كما لكثير من الناس وكما كان ليعقوب عليه السلام فهو إسرائيل أيضاً . والبعض قال : إن تارح اسم وآزر لقب . وقيل : إن آزر هو اسم للصنم الذى كانوا يعبدونه . انظر فى هذا : تفسير القرطبى (٣/ ٢٥٤٤)، وابن كثير (٢/ ١٤٩) وقصص الأنبياء لابن كثير (ص ١٠٤)، ولسان العرب (مادة أزر) وقصص الأنبياء - عبد الوهاب النجار (ص ٩٣ - ٩٦)

(٢) أواه : كثير الدعاء والتأوه خوفاً من الله.

(٣) الحلم : الصبر، و«الحليم» صيغة مبالغة من الحلم، أى : كثير الحلم، و«الصبور» صيغة مبالغة من الصبر أى : كثير الصبر، و«الصَّفُوح» صيغة مبالغة من الصفح أى : كثير الصفح، والصفح : هو العفو والمغفرة.

الإسلام عند بداية إيمانه ، بل قد يكون قد آمن فقط بالشهادة ، فاعتبر مسلماً ، ومثال هذا مخيريق اليهودى [١] الذى لم يصل ركعة واحدة فى الإسلام ؛ لأن الحرب قامت بعد إسلامه مباشرة ، وقال : مالى كله لمحمد وسأذهب لأحارب معه ، وحارب فقتل ، وهكذا صار شهيداً . لأنه لم يمكث زمناً ينفذ فيه ما جاء به الإسلام قبل ذلك .

ومن باب أولى أن الذى مات قبل أن تتم أحكام الإسلام يعتبر مسلماً ، والذى مات مثلاً قبل أن تحرم الخمر تحريماً نهائيّاً ، أيقال : إنه عاصٍ أو كافر؟ لا ، إنه مسلم ، والذى مات قبل أن يعلم أن القبلة قد حولت من بيت المقدس إلى الكعبة يعتبر مسلماً [٢] وشاء الحق أن يبين للمسلمين ألا يحزنوا على هؤلاء ، فنزل الوحى :

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ ﴾ [التوبة]

وهذا يوضح ما نعرفه فى عرف التقنين البشرى أنه لا جريمة إلا بنص ، ولا عقوبة إلا بتشريع ، فنحن لا نعاقب إلا بعد تحديد الفعل الذى يعاقب عليه ، وأن يكون النص المحدد للجريمة والعقوبة سابقاً على الفعل .

إذن : لا عقوبة إلا بتجريم ، ولا تجريم إلا بنص . والذى لم يبلغه

---

(١) مخيريق النضرى الإسرائيلى من بنى النضر ، أسلم واستشهد فى «أحد» ، وكان عالماً . وقد أوصى بأمواله للنبى ﷺ فجعلها النبى ﷺ صدقة . انظر : الإصابة فى تمييز الصحابة (٦/ ٧٣) . وسيرة النبى (٣/ ٨٨) .

(٢) عن ابن عباس قال : لما وُجِّه النبى ﷺ إلى الكعبة قالوا : يا رسول الله كيف بإخواننا الذين ماتوا وهم يصلون إلى بيت المقدس ، فأنزل الله : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ﴿١٤٣﴾ ﴾ [البقرة] وأخرجه الترمذى فى سننه (٥/ ٢٠٨) وقال : حسن صحيح . والحاكم فى مستدركه (٢/ ٢٦٩) وصححه وأقره الذهبى .
قال ابن حجر العسقلانى فى الفتح (١/ ٩٨) : «الذين ماتوا بعد فرض الصلاة وقبل تحويل القبلة من المسلمين عشرة أنفس» وذكر أسماءهم ، ثم قال : «فهؤلاء العشرة متفق عليهم» .

النص ؛ لأنه مات قبل أن يوجد النص ؛ لا نأخذه بالعقاب ؛ لأنه لا رجعية في القانون السماوى ، إنما الرجعية فقط عند البشر؛ ولذلك نجد الحق يقول في كثير من الآيات : ﴿إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ ... (٢٢)﴾ [النساء]

إذن : فلا تحزنوا على من مات من إخوانكم قبل أن يستكمل الإسلام كل أحكامه . فإسلامهم هو ما بلغهم من هذه الأحكام ؛ فإن أدوها استووا بالذى يؤديها بعد أن تتم أركان الإسلام كلها ؛ لذلك جاء قوله الحق :

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ (١١٥)﴾

وهنا الهداية هى هداية الدلالة حتى يبين لهم ما يتقون ؛ ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا﴾ أى : ما كان الله ليحكم بضلالة قوم حتى يبين لهم ما يتقون . والتقوى التزام أمر الله ونهيه ، فإذا وافقوا البيان هداهم هداية معونة ، وإذا لم يوافقوا كانوا ضالين ، وقد حكم الله بضلالة عم إبراهيم وما حكم الله بضلالته إلا بعد أن بين له منهج الهداية .

وقد بين إبراهيم لعمه منهج الهداية فلم يهتد . ولذلك أمر الله سبحانه وتعالى إبراهيم ألا يستغفر له .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١١٦)﴾

ومادة الـ(م.ل.ك) يأتى منها « مالك » ، و« مَلك» ، و«ملْك» ، ومنها «مُلْك» ، ومنها « ملكوت» ، و« الملْك » هو ما تملكه أنت فى حيزك ، فإن كان هناك أحد يملكك أنت ومن معَك ويملك غيرك ، فهذا هو المَلك ، أما ما اتسع فيه مقدور الإنسان أى الذى يدخل فى سياسته وتدبيره ، فاسمه مُلك ، فشيخ القبيلة له ملك ، وعمدة القرية له ملك ، وحاكم الأمة له ملك ، ويكون فى الأمور الظاهرة . . . وأما الملكوت فهو ما لله فى كونه من أسرار خفية .

مثل قوله تعالى :

﴿ وَكَذَلِكَ نُرِى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَـوَاتِ وَالأَرْضِ ... (٧٥) ﴾ [الأنعام]

وساعة ترى « تاء المبالغة » فى مثل « رهبوت» ، و«عظموت » تدرك أنها رهبة عظيمة .

إذن : إياك أن تفهم أن الله حين يمنعك أن تستغفر لآبائك ، وأنك إن قاطعتهم فذلك يخل بوجودك فى الحياة ؛ لأنهم هم ومن يؤازرهم داخلون فى ملك الله ، وما دام الله له ملك السموات والأرض ، فلا يضيرك أحد أو شئ ولا يفوتك مع الله فائت ، وما دام الله سبحانه موجوداً فكل شئ سهل لمن يأخذ بأسبابه مع الإيمان به .

والحق سبحانه يبين لنا أنه سبحانه وحده الذى بيده الملك ؛ فقال :

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِى الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ ... (٢٦) ﴾ [آل عمران]

وفى هذا القول الكريم أربعة أشياء متقابلة :﴿ تُؤْتِى الْمُلْكَ ﴾ و ﴿ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ ﴾ ، وإيتاء الملْك فى أعراف الناس خير ، ونزعه فى أعراف الناس

شر ، وإعزاز الناس خير ، وإذلالهم شر ، ولم يقل الله بيده : « الخير والشر» . وإنما قال فى كُلّ : ﴿ بِيَدِكَ الْخَيْرُ ﴾ .

إذن : فحين يؤتى الله إنساناً مُلْكاً ؛ نقول : هذا خير وعليك أن تستغله فى الخير . وحينما ينزع الله منه الملك نقول له : لقد طغيت وخفف الله عنك جبروت الطغيان ، فنزعه الله منك فهذا خير لك . وإن أعزك الله ، فقد يعذبك حقّاً ، وإن أذلهم الله ، فالمقصود ألا يطغوا أو يتجبروا . إذن : فكلها خير .

﴿ تُؤْتِى الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ ... (٢٦) ﴾ [آل عمران]

ساعة تجد ملكاً عضوضاً [١] ، إياك أن تظن أن هذا الملك العضوض قد أخذ ملكه دون إرادة الله ، لا ، بل هو عطاء من الله . ولو أن المملوك راعى الله فى كل أموره لرقق عليه قلب مالكه . ولذلك يقول لنا فى الحديث القدسى : « أنا الله ملك الملوك ، قلوب الملوك ونواصيها بيدى ، فإن العباد أطاعونى جعلتهم عليهم رحمة ، وإن هم عصونى جعلتهم عليهم عقوبة ، فلا تشتغلوا بسب الملوك ، ولكن أطيعونى أعطفهم عليكم» .

وما دام الأمر كذلك ، فلا بد أن نعرف أن كل حادث له حكمة [٢] فى الوجود .

---

(١) الملك العضوض : هو ملك شديد فيه ظلم وقهر . وهى من صيغ المبالغة . والعضوض : جمع عِضٍّ وهو الخبيث الشرس . وسُمِّى هذا الملك عضوضاً كأنه يعض الناس .

(٢) الحكمة : الصواب والسداد والحق والعلم والعدل والحلم والنبوة والقرآن والإنجيل قال تعالى : ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ (١٢٩) ﴾ [البقرة] .

وإن رأيت واحداً قد أخذ الملك وهو ظالم[١] ، فاعلم أن الله قد جاء به ليربى به المملوكين ، وسبحانه لا يربى الأشرار بالأخيار ؛ لأن الأخيار لا يعرفون كيف يربون[٢] ؛ وقلوبهم تمتلىء بالرحمة ؛ ولذلك يعلمنا سبحانه :

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا ... (١٢٩) ﴾ [الأنعام]

والخيِّر لا يدخل المعركة بل يشاهد الصراع من بعيد ، ويجرى كل شىء بعلم الله ؛ لأنه سبحانه له ملك السموات والأرض وهو الذى يحيى ويميت ، فإياك أن تُفتَن فى غير خالقك أبداً ؛ لأن الخلق مهما بلغ من قدرته وطغيانه ، لا يستطيع أن يحمى نفسه من أغيار الله فى كونه ؛ ولذلك فليأخذ المؤمن من الله وليّاً له ونصيراً .

وبعد أن قال لنا سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ يأتى لنا بالأمر الذى يظهر فيه أثر القدرة ، ولا يشاركه فيه غيره ، فقال : ﴿ يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ . وقال بعض العلماء فى قوله : ﴿ يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ أنه سبحانه « يحيى الجماد » ، و« يميت الحيوان» ؛ لأنهم ظنوا أن الحياة هى الحس والحركة التى نراها أمامنا من حركة وكلام وذهاب وإياب ، ونسوا أن الحياة

---

(١) عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « . . . إن الله عز وجل يعطى الدنيا من يحب ومن لا يحب ، ولا يعطى الدين إلا لمن أحب » . قطعة من حديث أخرجه أحمد فى مسنده (١/ ٣٨٧) والحاكم فى مستدركه (١/ ٣٣) (٢/ ٤٤٧) (٤/ ١٦٥) ، وصححه ووافقه الذهبى ، وعزاه الهيثمى فى مجمع الزوائد (١٠/ ٢٢٨) لأحمد وقال : رجاله وثقوا ، وفى بعضهم خلاف .

(٢) التربية هنا بمعنى التأديب والزجر ، وهذا ملمح دقيق جداً ، فالله سبحانه يعلم من قلوب المؤمنين الرحمة والرأفة والرقة والعفو والصفح ، ولذلك عند تطبيق حد الزنا مثلاً قال سبحانه : ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢) ﴾ [النور] .

هى ما أودعه الله فى كل ذرة فى الكون ، مما تؤدى به مهمتها ، ففى ذرة الرمل حياة ، والجبل فيه حياة ، وكل شىء فيه حياة ، بنص القرآن حيث يقول :

﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ ... (٤٢) ﴾ [الأنفال]

إذن : فالحياة مقابلها الهلاك ، وفى آيات أخرى يقابل الحياة الموت ، فالهلاك هو الموت . فإذا قال الحق سبحانه :

﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ ... (٨٨) ﴾ [القصص]

إذن : فكل شىء قبل أن يكون هالكاً كان حيّاً ، وهكذا نعرف أن الحياة ليست هى الحس والحركة الظاهرتين ، وبعد التقدم العلمى الهائل فى المجاهر الدقيقة تكشفت لنا حركة وحس كائنات كنا لا نراها ، وإذا كان الإنسان قد توصل بالآلات التى ابتكرها إلى إدراك ألوان كثيرة من الحياة فيما كان يعتقد أنه لا حياة فيها ، إذن : فكل شىء فى الوجود له حياة تناسبه فلو جئت بمعدن مثلاً وتركته ستجده تأكسد ، أى حدث فيه تفاعل مع مواد أخرى . . فهذه حياة .

بعد ذلك يقول الحق :

﴿ لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١١٧) ﴾

قلنا : إن التوبة لها مراحل ، فهناك توبة شرعها الله ، ومجرد مشروعية التوبة من الله رحمة بالخلق ، وهى أيضا رحمة بالمذنب ؛ لأن الحق سبحانه لو لم يشرع التوبة لاستشرى الإنسان فى المعاصى بمجرد انحرافه مرة واحدة، وإذا استشرى فى المعاصى فالمجتمع كله يشقى به ، إذن : فمشروعية التوبة نفسها رحمة بمن يفعل الذنب ، وبمن يقع عليه الذنب ، وقبول التوبة رحمة أخرى بمن عمل الذنب . وأنت إذا سمعت قوله الحق سبحانه :

﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ... (١١٨) ﴾ [التوبة]

فافهم أن تشريع التوبة إنما جاء ليتوب العباد فعلاً ، وبعد أن يتوبوا ، يقبل الله التوبة.

والحق هنا يقول : ﴿ لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ ﴾ وعطف [١] على النبى ﷺ ﴿ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ ﴾ ، فأى شىء فعله رسول الله ﷺ حتى يقول الله : ﴿ لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ ﴾ ؟! ونقول : ألم يقل الحق سبحانه له :

﴿ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ... (٤٣) ﴾ [التوبة]

فحين جاء بعض المنافقين واستأذنوا النبى ﷺ فى التخلف عن الغزوة [٢] ، فأذن لهم ، مع أن الله سبحانه قال :

﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً [٣] ... (٤٧) ﴾ [التوبة]

---

(١) العطف هو إشراك شيئين أو أكثر فى حكم ما .

(٢) هى غزوة تبوك، وهى آخر غزوة غزاها رسول الله ﷺ ، وقد كانت فى شهر رجب عام تسع من الهجرة، وقد كانت فى شدة حر وجدب وعُسْر بينما المدينة بها الظلال والأشجار وقد طابت الثمار؛ ولذلك كانت امتحاناً عسيراً زلزل القلوب، وتراوحت ردود الأفعال تجاه الاستجابة للنفس على حسب الإيمان الذى يسكن القلوب .

(٣) خبالاً : المراد : أصابوكم بالفساد والضعف والاضطراب وعدم الثبات أمام الأعداء .

إذن : فرسول الله ﷺ كان بالفطرة السليمة قد اتخذ القرار الصائب ، ولكن الحق سبحانه لا يريد أن يتبعوا فطرتهم فقط ، بل أراد أن يضع تشريعاً محدداً .

وشاء الحق سبحانه أن يخبرنا بأنه قدم العفو لرسول الله ﷺ ؛ لأنه أذن لمن استأذنه من المنافقين ألا يخرجوا إلى القتال ، وهناك أشياء يأخذها الله على عبده ؛ لأن العبد قام بها ضد صالح نفسه ، ومثال هذا من حياتنا ولله المثل الأعلى : أنت إذا رأيت ولدك يذاكر عشرين ساعة في اليوم ؛ فإنك تدخل عليه حجرته لتأخذ منه الكتاب أو تطفيء مصباح الحجرة ، وتقول له : « قم لتنام» . وأنت في هذه الحالة إنما تعنف عليه لأنك تحبه ، لا ، لأنه خالف منهجاً ، بل لأنه أوغل في منهجٍ وأسلوب عملٍ يرهق به نفسه [1] .

وحين سمح النبي ﷺ لقوم أن يتخلفوا ، فهل فعل ذلك ضد مصلحة الحرب أم مع مصلحة الحرب ؟ إنهم لو اشتركوا في الحرب لكثر ثوابهم حتى ولو حرسوا الأمتعة أو قاموا بأي عمل ، إذن : فإذنه ﷺ لهم بالتخلف هو تصعيب للأمر على نفسه .

ولذلك نجد أن كل عتب على نبي الله ، إنما كان عتباً لصالحه لا عليه فسبحانه يقول له :

﴿ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ...(١) ﴾ [التحريم]

---

(١) عن أنس بن مالك قال : دخل رسول الله ﷺ المسجد وحبل ممدود بين ساريتين . فقال : ما هذا؟ قالوا : لزينب . تصلي . فإذا كسلت أو فترت أمسكت به فقال : «حلّوه . ليصل أحدكم نشاطه . فإذا كسل أو فتر قعد» . أخرجه البخاري في صحيحه (١١٥٠) ، ومسلم في صحيحه (٧٨٤) .

والنبى ﷺ لم يحل ما حرم الله بل حرم على نفسه ما أحل الله له ، وهذا ضد مصلحته ، وكأن الحق يسائله : لماذا ترهق نفسك ؟ . إذن : فهذا عتب لمصلحة النبى ﷺ ، وأيضاً حين جاء ابن أم مكتوم [1] الأعمى يسأل رسول الله فى أمر من أمور الدين ، وكان ذلك فى حضور صناديد قريش [2] ، فالتفت ﷺ إلى الصناديد وهم كافرون ، يريد أن يلين قلوبهم ، وترك ابن أم مكتوم ؛ فنزل القول الحق :

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ (١) أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ (٢) ﴾ [عبس]

وابن أم مكتوم جاء ليستفسر عن أمر إيمانى ، ولن يجادل مثلما يجادل صناديد قريش ، فلماذا يختار الرسول ﷺ الأمر الصعب الذى يحتاج إلى جهد أكبر ليفعله ؟ . إذن : العتب هنا لصالح محمد ﷺ ، وحين يقول الحق له :

﴿ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ .. (٤٣) ﴾ [التوبة]

ثم جاء هنا فى الآية بالمهاجرين والأنصار معطوفين على رسول الله ، وذلك حتى لا يتحرج واحد من المهاجرين أو الأنصار من أن الله تاب عليه ، بل التوبة تشمله وتشمل الرسول ﷺ نفسه ؛ فلا تحرُّج [3] .

---

(١) المشهور أن اسمه عبد الله ، ويقال : عمرو . أما أمه أم مكتوم فهى عاتكة بنت عبد الله . أسلم قديماً بمكة وكان من المهاجرين الأولين . استخلفه رسول الله على المدينة ١٣ مرة أثناء خروجه فى الغزوات . (الإصابة فى تمييز الصحابة ٤/ ٢٨٥) .

(٢) صناديد قريش : عظماؤهم ، وعلية القوم فيهم . وهم هنا : عقبة بن ربيعة والحكم بن هشام (أبو جهل) والعباس بن عبد المطلب ، وقد كان يرجو إسلامهم . وقد أتى ابن أم مكتوم رسول الله ﷺ فجعل يقول : أرشدنى : وعند رسول الله ﷺ رجل من عظماء المشركين . فجعل النبى يعرض عنه ويقبل على الآخر ويقول : «أترى بما أقول بأساً ؟» فيقول : لا . ففى هذا أنزلت ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ (١) أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ (٢) ﴾ [عبس] أخرجه الترمذى فى سننه (٣٣٣١) وقال : حديث غريب . وابن حبان (١٧٦٩ - موارد الظمآن) .

(٣) وقد قال بعض العلماء : إنما ذُكر النبى ﷺ فى التوبة ؛ لأنه لما كان سبب توبتهم ذُكر معهم . نقله القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٢٠٤) .

وهذه المسائل التى حدثت كان لها مبررات ، فقد قال الحق : ﴿مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾ ويزيغ : يميل ، أى : يترك ميدان المعركة كله ؛ لأنها كانت معركة فى ساعة العسرة ، ومعنى العسرة الضيق الشديد ، فالمسافة طويلة ، والجنود الذين سيواجهونهم هم جنود الروم ، والجو حارٌّ ، وليس عندهم رواحل [١] كافية ، فكل عشرة كان معهم بعير واحد ، يركبه واحد منهم ساعة ثم ينزل ليركبه الثانى ، ثم الثالث ، وهكذا ، ولم يجدوا من الطعام إلا التمر الذى توالد فيه الدود.

وقد بلغ من العسرة أن الواحد منهم كان يمسك التمرة فيمصها بفيه يستحلبها قليلاً ، ثم يخرجها من فيه ليعطيها إلى غيره ليستحلبها قليلاً ، وهكذا إلى أن تصير على النواة ، وكان الشعير قد أصابه السوس ، وبلغ منه السوس أن تعفن ، وقال من شهد المعركة : «حتى إن الواحد منا كان إذا أخذ حفنة من شعير ليأكلها يمسك أنفه حتى لا يتأذى من رائحة الشعير ». كل هذه الصِّعاب جعلت من بعض الصحابة من يرغب فى العودة . ولا يستكمل الطريق إلى الغزوة.

إذن : فالتوبة كانت عن اقتراب زيغ قلوب فريق منهم . وجاء الحق بتقدير ظرف العسرة ، ولذلك تنبأ بالخواطر التى كانت فى نواياهم ومنهم أيضاً من همّ ألا يذهب، ثم حدثته نفسه بأن يذهب مثل أبى خيثمة [٢] الذى بقى من بعد أن رحل رسول الله ﷺ إلى الغزوة ومرت عشرة أيام ، ودخل الرجل بستانه فوجد العريشين [٣] ، وعند كل عريش زوجةٌ له حسناء ، وقد

---

(١) رواحل : جمع راحلة ، وهى كل بعير قادر على مشقات السفر ، سواء كان ذكراً أو أنثى.

(٢) هو عبد الله بن خيثمة الأنصارى السالمى ، شهد أحداً ، وبقى إلى خلافة يزيد بن معاوية . انظر الإصابة (٧/ ٥٣) وانظر (٤/ ٦٣).

(٣) العريش : شىء يشبه الخيمة تكون داخل البستان مظللة بسعف النخيل.

طَهَتْ كل منهما طعاماً ، وهكذا رأى أبو خيثمة الظلال الباردة ، والثمر المدلَّى ، فمسّته نفحة من صفاء النفس ؛ فقال : "رسول الله فى الفيح - أى الحرارة الشديدة جداً - والريح ، والقُرّ والبرد ، وأنا هنا فى ظل بارد ، وطعام مطهوّ ، وامرأتين حسناوين ، وعريش وثير [1] ، والله ما ذلك بالنَّصَفَة لك يارسول الله ، وأخذ زمام راحلته وركبها فكلّمته المرأتان ، فلم يلتفت لواحدة منهما وذهب ليلحق برسول الله ﷺ. فقال صحابة رسول الله : يارسول الله إنَّا نرى شبح رجل مُقْبل . فنظر رسول الله ﷺ وقال : «كن أبا خيثمة » [2] ، ووجده أبا خيثمة ، هذا معنى قوله الحق :

﴿ لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ [3] مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١١٧) ﴾ [التوبة]

وفى واقعة الصحابة الذين راودتهم أنفسهم أن يرجعوا وتاب الله أيضا على آخرين اعترفوا بذنوبهم ، فتاب الحق عليهم حين قال :

---

(١) وثير : ناعم . يقصد الوسائد والفُرش التى فرشت داخل العريش .
النَّصَفَة : الإنصاف والعدل . زمام الراحلة : الحبل الذى يُقاد به البعير .

(٢) قصة أبى خيثمة وردت تامة فى السيرة النبوية لابن هشام عن ابن إسحاق (٤/ ٥٢٠) وذكر ابن هشام أبياتًا لأبى خيثمة فى هذا :

لَمَّا رأيتُ الناسَ فى الدِّين نَافَقُوا ... أتيتُ التى كانتْ أعفَّ وأكْرَمَا
وبَايعْتُ باليُمْنى يَدى لِمُحَمَّدٍ ... فَلَمْ أكْتَسبْ إثْمًا ولم أغشَ محرمَا
تركْتُ خَضيبًا فى العريشِ وَصِرمةً ... صَفَايا كرامًا بُسْرُهَا قد تَحمَّمَا
وكنتُ إذا شَكَّ المنافقُ أسْمَحَتْ ... إلى الدين نَفْسى شَطرَهُ حيثُ يَمَّمَا

خضيباً : المرأة قد خضبت يديها بالحناء . صرمة : مجموعة من النخل .
صفايا : قد تحملت بالتمر . بسرها : التمر قبل أن يطيب .
تحمما : أى : أخذ فى الإرطاب ؛ فاسود .
وقد ورد قوله ﷺ : « كن أباخيثمة» فى حديث توبة كعب بن مالك عند مسلم فى صحيحه (٢٧٦٩) .

(٣) العسرة : من النفقة والظهر والزاد والماء .

﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٠٢)﴾ [التوبة]

وأرجأ الحق أمر آخرين نزل فيهم قوله :

﴿وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لأَمْرِ اللَّهِ ...(١٠٦)﴾ [التوبة]

وما دام الله قد قال: ﴿مُرْجَوْنَ لأَمْرِ اللَّهِ﴾ أى : ما بَتّ الله سبحانه فى أمرهم بشىء ؛ فلا بد من الانتظار إلى أن يأتى أمر الله ، ويجب ألا نتعرض لهم حتى يأتى قول الله . وتاب أيضاً على الثلاثة [1] الذين خلفوا ، فى قوله سبحانه :

﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ (١١٨)﴾

قد يظن أحد أن (خُلِّفُوا) هنا تدل على أن أحداً قال لهم : اقعدوا عن الخروج مع رسول الله ﷺ ، ولكن لم يقل لهم أحد هذا . إنما (خُلِّفُوا) معناها : لم يظهر أمر الشارع فيهم كما ظهر فى غيرهم ، بل قال الحق فيهم من قبل : ﴿وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لأَمْرِ اللَّهِ﴾ ، وما دام قد تأخر فيهم الحكم فلا بد من الانتظار.

---

(١) الثلاثة هم : كعب بن مالك ، وهلال بن أمية ، ومرارة بن ربيعة .

﴿ وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٨) ﴾ [التوبة]

ونعلم أن الإنسان إذا شغله همّ يُحدّث نفسه بأن يترك المكان الذى يجلس فيه ، ويسبب له الضيق، لعل الضيق ينفك[١] . ولكن هؤلاء الثلاثة قابلوا الضيق فى كل مكان ذهبوا إليه حتى ضاقت عليهم الأرض بسعتها، فلم يجد واحد منهم مكاناً يذهب إليه ، وهذا معناه أن الكرب الذى يحيطهم قد عَمَّ ، والإنسان قد تضيق عليه الأرض بما رحبت ولكن نفسه تسعه .

والحق يقول عنهم : ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ﴾ أى: ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، وضاقت عليهم أنفسهم أيضاً ، فقد تخلف الثلاثة عن الغزوة ، لا لعذر إلا مجرد الكسل والتوانى ، وأمر رسول الله ﷺ المسلمين بمقاطعتهم، فكان كعب بن مالك[٢] يخرج إلى السوق فلا يكلمه أحد، ويذهب إلى أقربائه فلا يكلمه أحد ، ويتسوَّر[٣] عليهم الحيطان لعلهم ينظرون إليه ، فلا ينظرون إليه .

---

(١) ينفك : يتخلص منه الإنسان . ومنه « فك الرقبة » أى: تخليصها من العبودية والرق . قال ابن الأعرابى: فك فلان أى خلص وأريح من الشىء . [لسان العرب – مادة : فكك] .

(٢) كان كعب بن مالك يجالد الناس ويخرج للناس يتلمس منهم أن يكلموه ، أما صاحباه مرارة بن الربيع وهلال بن أمية فقد لزما بيتيهما ، أما هو فيقول : « كنت آتى رسول الله ﷺ فأسلم عليه ، وهو فى مجلسه بعد الصلاة ، فأقول فى نفسى : هل حرك شفتيه برد السلام أم لا ؟ ثم أصلى قريباً منه وأسارقه النظر ، فإذا أقبلت على صلاتى نظر إلىَّ ، وإذا التفت نحوه أعرض عنى » .

(٣) تسوّر : تسلّق الحائط حتى علاه . ومنه قوله تعالى :﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ (٢١) ﴾ [ص] .

وبعد ذلك يتصاعد الأمر فى عزل هؤلاء ، حتى تعدى إلى نسائهم ، فأمرهم رسول الله ﷺ بألا يقربوا نساءهم[1] هكذا بلغ العزل[2] مبلغاً شديداً ودقيقاً ، فقد كان التحكم أولاً فى المجتمع ، ثم فى الأقارب ، ثم فى خصوصيات السكن وهى المرأة ، حتى إن امرأة هلال بن أمية ذهبت إليه وقالت: يا رسول الله إن هلال بن أمية ، رجل مريض ضعيف ، وأنا أستأذنك فى أن أصنع له ما يقيمه ، قال لها: «ولكن لا يقربنك». قالت: والله يا رسول الله ما به حركة إلى شىء ، ووالله ما زال يبكى منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا. وذهب بعض المسلمين إلى كعب بن مالك ليبلغوه أن رسول الله صرح لامرأة هلال أن تخدمه ، وقالوا له: اذهب إلى رسول الله واستأذنه أن تخدمك امرأتك.

قال: إن هلالاً رجل شيخ، فماذا أقول لرسول الله وأنا رجل شاب ؟ والله لا أذهب له أبداً.

وظل الثلاثة فى حصار نفسى ومجتمعى لمدة خمسين يوماً إلى أن جاء الله بالتوبة ، وفى هذا تمحيص[3] لهم ، فكعب بن مالك - على سبيل المثال - يقص عن حاله قبل الغزوة قائلاً : «لم أكن قط أقوى ولا أيسر منِّى حين تخلفت عنه فى تلك الغزوة ، والله ما جمعت قبلها راحلتين قط حتى جمعتهما فى تلك الغزوة» . أى : أنه لم يكن له عذر يمنعه .

بعد ذلك يجىء البشير بأن الله قد تاب عليه ، فيأتى واحد من جبل سَلْع

---

(١) وفى هذا يقول كعب : « حتى إذا مضت أربعون من الخمسين واستلبث الوحى إذا رسول رسول الله ﷺ يأتينى ، فقال : إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك . فقلت : أطلقها أم ماذا أفعل ؟ قال : لا ، بل اعتزلها فلا تقربنها » .

(٢) وهو ما يسمى بالعزل العام اجتماعياً وأسرياً ونفسياً .

(٣) تمحيص : ابتلاء واختبار وتخليص من الذنوب . وقد بلغ البلاء مداه بكعب أن ملك غسان بعث له كتاباً يقول له فيه : « قد بلغنا أن صاحبك - يقصد محمداً - قد جفاك ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة فالحق بنا نواسك » . فألقى به كعب بعد قراءته فى النار .

فيقول: يا كعب أبشر بخير يوم مرّ عليك . فقد أنزل الله فيك قرآناً وأنه تاب عليك.

قال كعب: فلم أجد عندى ما أهديه له لأنه بشَّرنى إلا ثوبىّ فخلعتهما وأعطيتهما له ، ثم استعرت ثوبين ذهبت بهما إلى مسجد رسول الله ﷺ.

وقال: يا رسول الله ، إن من تمام توبتى أن أنخلع من مالى - الذى سبَّب لى هذا العقاب - صدقة إلى الله وإلى رسوله ﷺ [١].

إذن: فتأخر الحكم كان المراد منه تمحيص هؤلاء، وإعطاء الأسوة لغيرهم . فحين يرون أن الأرض قد ضاقت عليهم بما رحبت، وكذلك ضاقت عليهم أنفسهم يتيقنون من قول الحق:

﴿وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ [٢] مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ...(١١٨)﴾ [التوبة]

أى : أن أحداً لا يجير إلا الله ، وسبحانه يجير من نفسه. كيف ؟ أنت تعلم أنك ساعة لا يجيرك إلا من يتعقبك، فاعلم أنه لا سلطان لأحد أبداً؛ ولذلك نقول: أنت تلجأ إلى الله لا من خلقه ، ولكنك تلجأ [٣] إلى الله ليحميك من الله ، فسبحانه له صفات جلال وصفات جمال ، وتتمثل صفات الجلال فى أنه : قهار ، وجبار ، ومنتقم ، وشديد البطش ، إلى آخر تلك الصفات. وفى الحق سبحانه صفات جمال مثل غفور ، ورحيم ، وغيرها ، فإذا ما أذنب الإنسان ذنباً ، فالمجال فى هذه الحالة أن يُعاقب من صفات الجلال ، ولا ينفع العبد وقاية من صفات الجلال إلا صفات الجمال.

---

(١) فقال له رسول الله ﷺ: « أمسك بعض مالك فهو خير لك » . فقال كعب: فإنى أمسك سهمى الذى بخيبر . والحديث بطوله أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٤١٨) ومسلم(٢٧٦٩) .

(٢) ملجأ : المعقل والملاذ والمجير .

(٣) اللجوء يكون إلى صفات الجمال للحماية من صفات الجلال ، وهنا يكون اللجوء إلى الله ليحميك من الله.

وكلنا يعلم أن رسول الله ﷺ قد دعا الله بقوله: «أعوذ بك منك »[(١)]

أى: أعوذ بصفات الجمال فيك من صفات جلالك، فلن يحمينى من صفات جلالك إلا صفات جمالك.

ولذلك حينما جاء فى الحديث الشريف عن آخر ليلة من رمضان قوله ﷺ:

« فإذا ما كانت آخر ليلة من رمضان تجلَّى الجبَّار بالمغفرة » .

يظن بعض الناس أن هذه المسألة غير منطقية ، فكيف يتجلّى الجبّار بالمغفرة ؟ ألم يكن من المناسب أن يقال : «يتجلّى الغفّار» ؟ ونقول : لا ؛ فإن المغفرة تقتضى ذنباً ، ويصبح المقام لصفة الجبار ، وهكذا تأخذ صفة الرحمة من صفة الجبار سُلْطتها ، وكأننا نقول: يا جبار أنت الحق وحدك ، لكننا نتشفع بصفات جمالك عند صفات جلالك. هذا هو معنى : «يتجلى الجبار بالمغفرة».

وقد سمع الأصمعى [(٢)] - وهو يطوف - مسلماً عند باب الملتزم، يقول: اللهم إنى أستحى أن أطلب منك المغفرة ؛ لأنى عصيتك ، ولكنى تطلَّعْتُ فلم أجد إلهاً سواك.

فقال له: يا هذا، إن الله يغفر لك لحُسْن مسألتك [(٣)].

---

(١) قطعة من حديث أخرجه مسلم (٤٨٦) وأحمد فى مسنده (٦/ ٥٨ ، ١٢٠) من حديث عائشة رضى الله عنها قالت : فقدت رسول الله ﷺ ليلة من الفراش ، فالتمسته ، فوقعت يدى على بطن قدميه وهو فى المسجد . وهما منصوبتان وهو يقول : « اللهم أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك ، لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك » .

(٢) الأصمعى : هو عبد الملك بن قريب أبو سعيد الأصمعى ، أحد أئمة العلم باللغة والشعر والبلدان ، مولده ووفاته فى البصرة عن ٩٥ عاماً ، وتوفى عام ٢١٦ هـ . الأعلام للزركلى (٤/ ١٦٢) .

(٣) ومما يروى أيضاً عن الأصمعى فى نفس هذا المعنى أنه سمع أعرابياً يدعو الله وهو يقول : هربت إليك بنفسى ، يا ملجأ الهاربين بأثقال الذنوب ، أحملها على ظهرى ، لا أجد شافعاً إليك إلا معرفتى بأنك أكرم من قصد إليه المضطرون ، وأمَّل فيما لديه الراغبون . انظر : الأمالى لأبى على القالى (١/ ٣٢) .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾ والتوبة أولاً - كما عرفنا - هى تشريعها ، ثم تأتى التوبة بالقبول ، وقوله : ﴿لِيَتُوبُوا﴾ أى : أنها تصبح توبة رجوع وعودة إلى ما كانوا عليه قبل المعصية .

ويُنهى الحق الآية بقوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ فلا تواب ولا رحيم سواه سبحانه وتعالى .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾

وساعة ينادى الحق عزّ وجلّ عباده المؤمنين ، فهو سبحانه إما أن يناديهم بحكم يتعلق بالإيمان ، وإما أن يناديهم بالإيمان ويطلب منهم الإيمان مثل قوله الحق :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا [1] بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ... ﴿١٣٦﴾ ﴾ [النساء]

والحق سبحانه يُبيّن للذين آمنوا به قبل أن يخاطبهم ، أنه من الممكن أن يؤمن الإنسان ثم يتذبذب فى إيمانه ، فيطلب منه الحق «دوام الإيمان» . فإذا طلب الله من عباده ما كان موجوداً فيهم ساعة الخطاب ، فالمطلوب دوامه ، وإن طلب منهم حكماً يتعلق بالإيمان، فهو يوجّههم إلى الاستماع وتطبيق ما يطلب منهم ، ومثال هذا قول الحق سبحانه :

﴿ اتَّقُوا اللَّهَ ... ﴿١١٩﴾ ﴾ [التوبة]

---

(١) وهنا يقول العارف بالله : إن الإيمان إما أن يطلب على جهة الهداية ، وإما على جهة الدلالة ، وإما على جهة المعية ؛ فإيمان الهداية بالإدراك ، وإيمان الدلالة بالانفعال مع المدركات ، وإيمان المعية بالاختيار ، فالنداء إذا تكرر مطلوبه فهو مقامات إيمانية ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [الأنفال] .

وكلمة ﴿اتَّقُوا﴾ تعنى: اجعلوا بينكم وبين الله وقاية ، ويتساءل البعض: هل يطلب أحد من الإنسان أن يجعل بينه وبين ربه وقاية ؟ إن العبد المؤمن يطلب أن يكون فى معيَّة الله . وهنا تأتى ضرورة فهم صفات الجمال وصفات الجلال . إن قوله سبحانه : ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾ يعنى: اجعلوا بينكم وبين صفات الجلال وقاية ، مثلما قال سبحانه : ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ ﴿٢٤﴾﴾ [البقرة]

لأن النار من جنود صفات الجلال ، فاجعلوا بينكم وبين الله وقاية من صفات الجلال.

وهنا يقول الحق: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ ، وفسر بعض العلماء قوله : ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ بمعنى كونوا من الصادقين ، أى : أن «مع» هنا بمعنى «من» والمقصود أن يعطى هذا القول معنى إجماليّاً عامّاً. لكنى أقول: هناك فرق بين ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ و«كونوا من الصادقين» ، فقوله الحق : ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ أى: التحموا بهم فتكونوا فى معيّتهم ، وبعد أن تلتحموا بهم يأتى الذين من بعدكم ويجدونكم مع الصادقين.

ويقتضى الأمر هنا أن نتذكر ما سبق أن قلناه عن النسبة الكلامية والنسبة الذهنية ، فأىُّ قضية تمر على ذهنك قبل أن تقولها هى نسبة ذهنية ، مثل قولك : «محمد زارنى» ، وأنت قبل أن تقول هذه العبارة جاء إلى ذهنك أن تنطقها ،وهذه «نسبة ذهنية». ومن يسمعك لا يدرى بها،ولكونك المتكلم فأنت وحدك الذى تدرى بها،فإذا ما نطقتها وسمعها منك المخاطب؛علم أن نسبة ذهنية جاءت فى ذهنك فترجمتها قولاً بالنسبة الكلامية. فحين قلت: «محمد زارنى بالأمس»؛ جاءت فى ذهنك قبل أن تقولها،فلما سمعها السامع عرف أن هناك نسبتين؛نسبة سمعها عن نسبة عندك.

وحين يمحّص السامع هذا القول ؛ يعلم أن هناك واحداً فى الواقع اسمه محمد وعلم منك أنه قد زارك، وخبرته معك دائماً أنك صادق ، إذن:

فالصدق [١] هو أن تتطابق النسبة الكلامية مع الواقع. أما إذا قلت : إن محمداً قد سافر إلى أمريكا ، وهو لم يسافر ، فهذا يعنى أن النسبة الكلامية لم تتطابق مع النسبة الواقعية وهذا هو الكذب. إذن: فهناك «نسبة ذهنية» و«نسبة كلامية» و«نسبة واقعية». فإن تطابقت النسبة الكلامية مع النسبة الواقعية، فذلك هو الصدق، وإن لم تتطابق يكون الكذب.

وكل نسبة تقولها تحتمل أن تكون صادقة أو كاذبة، والفيصل فى هذا الأمر هو الواقع ، هل يتطابق ما تقول مع الواقع أم لا ؟ . أما إن قلت لك: «زُرْ فلاناً» فهذه نسبة إنشاء ؛ لأن الواقع يأتى بعدها ، لا قبلها.

وهنا يقول الحق سبحانه: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ والصدق هو الخَلَّة [٢] التى تجمع كل الإيمان ، ولنر التطبيق لذلك فى قصة الرجل البدوى الذى ذهب إلى رسول الله ﷺ وقال: يا رسول الله ، إن فىَّ خلالاً ثلاثة لاأقدر على التخلِّى عنها أبداً ، أما الأولى فهى النساء، وأما الثانية فهى الخمر ، وأما الثالثة فهى الكذب ، وقد جئتك يا رسول الله ، لتختار لى خصلة [٣] من الثلاثة وتقوِّينى عليها، وأعاهد ربنا عليها. فاختار رسول الله ﷺ للأعرابى أن يتوب عن الكذب ، وأن يتحلّى بالصدق ، فقال له : كن صادقاً وما عليك. وحين أحب الأعرابى أن يشرب كأس خمر ؛ تساءل : وماذا إن سألنى النبى ﷺ أشربت الخمر ؟ وامتنع عن الخمر حتى لا يكذب على الرسول . وحين جاء ليختلس النظر إلى امرأة ، قال لنفسه : « وماذا إن سألنى ﷺ وكيف أُخزى نفسى بصفة لا تليق بمسلم ؛ فامتنع عن النظر إلى المحارم ، وهكذا سيطر الصدق على الرجل فهذّب سلوكه . وحين سئل رسول الله ﷺ : أيكون المؤمن جباناً ؟ فقال : نعم.

---

(١) أن تتطابق النسبة الكلامية مع الواقع فهو الصدق ، وإذا خالفت النسبة الكلامية الواقع كان الكذب ، وهذا ما ذهب إليه علماء البلاغة والمنطق .

(٢) الخلَّة : الصفة والخلُق ، جمعها خلال .

(٣) الخَصْلة : الخَلَّة والصفة . جمعها خِصال وخَصَلات .

فقيل له : أيكون المؤمن بخيلاً ؟ فقال: نعم. فقيل له: أيكون المؤمن كذاباً ؟ فقال: لا [1] . لأن مدخل الإيمان هو التصديق بالقضية العقدية الجازمة ، وهكذا تجد أن الصدق هو «رأس الأمر كله».

وقوله الحق : ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ أى: لا تقولوا كلاماً لا يصادفه الواقع ، وكذلك إياكم أن تقولوا كلاماً تناقضه أفعالكم ، لهذا يقول الحق سبحانه:

﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُونَ (٣)﴾ [الصف]

وفى سورة البقرة يقول الحق سبحانه:

﴿لَيْسَ الْبِرَّ [2] أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ ... (١٧٧)﴾ [البقرة]

ولننتبه إلى الملاحظ الدقيقة فى هذه الآية، فقد قال الحق هنا: ﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ... (١٧٧)﴾ [البقرة]

ثم ذكر إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، فلماذا إذن ذكر ﴿وَآتَى الْمَالَ﴾ ؟ أقول : لقد ذكر الحق هنا المال الذى ينفقه المؤمن دون أن يكون مفروضاً عليه إخراجه مثل الزكاة ، فالزكاة واجبة ، أما إيتاء المال تصدقاً، فهذا فوق الواجب [3] .

ثم يقول سبحانه:

---

(١) أخرجه الإمام مالك فى موطئه (ص ٩٩٠) من حديث صفوان بن سليم مرسلاً .
(٢) البر : هو الخير والإحسان ، وهو الإيمان الصادق وفعل الخيرات .
(٣) الزكاة فرض ، وإيتاء المال تصدقاً : فضل ، والخير لمن جمع بينهما .

﴿ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ [1] وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (١٧٧) ﴾ [البقرة]

هذه هى صفات من صدقوا، وهم هنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها قد صدقوا واتقوا.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (١١٩) ﴾ [التوبة]

وقد جاء الحق بصفة «الصدق» هنا؛ لأن المجال هو الحديث عمن تخلّف عن الغزوات، وكذب فى الأعذار التى افتعلها؛ لذلك يأتى التوجيه السماوى أن ادخلوا من باب الصدق [2].

يقول الحق بعد ذلك:

﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ [3] وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١٢٠) ﴾

---

(١) البأساء: أى: فى حال الفقر. الضراء: فى حال المرض والسقم. حين البأس: فى حال القتال ولقاء الأعداء.

(٢) عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله ﷺ: «عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدى إلى البر، وإن البر يهدى إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صدِّيقاً، وإياكم والكذب فإن الكذب يهدى إلى الفجور، وإن الفجور يهدى إلى النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً». أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٦٠٧) والبخارى فى صحيحه (٦٠٩٤).

(٣) الظمأ: العطش. والنصب: التعب. والمخمصة: المجاعة. يطأون: يدوسون.

والحديث هنا فيه رجوع إلى الذين تخلفوا عن الغزوة ، وعرفنا من قبل أنك ساعة تقول : « ما كان لك أن تفعل كذا » أى : أنك تنفى القدرة على الفعل ، أما إن قلت :«ما ينبغى» أى: عندك قدرة على الفعل ، ولا يجب أن تفعله.

وهنا يقول الحق: ﴿مَا كَانَ لأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ ﴾ وبعضهم قد تخلف عن رسول الله ﷺ فى الغزو.

ثم يقول سبحانه: ﴿ وَلا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ﴾ وهنا حديث عن نوعين من الأنفس: أنفس من قالوا بالتخلف، ونفس رسول الله ﷺ ، وأنت إذا قلت : «رغبت»، معناها :أنك ملتَ ميلاً قلبياً، فإن قلت : «رغبت فى» كان الميل القلبى إلى ممارسة الفعل وفيها التغلغل، أما إن قلت: «رغبت عن» وفيها التجاوز، هذا يعنى أن الميل القلبى يهدف إلى الابتعاد عن الفعل. إذن: فحرف الجر هو الذى يحدِّد لون الميل القلبى.

وقوله الحق :﴿ وَلا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ﴾ أى:أنهم زهدوا فى أمر صدر عن رسول الله ﷺ وفضَّلوا أمر نفوسهم على أمر رسول الله ﷺ ، فيبين الحق لهم أنهم ما كان لهم أن يفعلوا ذلك؛ لأنكم ما دمتم آمنتم بالله، فإيمانكم لا يكمل حتى يكون رسول الله ﷺ أحب إليكم من نفوسكم [1] .

ولذلك نجد سيدنا عمر رضى الله عنه لما سمع أن النبى ﷺ قال : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه» [2] ، فقال: يا رسول الله ، أنا أحبك عن أهلى وعن مالى إنما عن نفسى ، فلا.

---

(١) عن أنس بن مالك عن النبى ﷺ : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار » أخرجه البخارى فى صحيحه (١٦) ومسلم (٤٣).

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٦٣٢) وأحمد فى مسنده (٤/ ٢٣٣) وفى إسناد أحمد ابنُ لهيعة ولكن تابعه حيوة عن زهرة بن معبد . وباقى الحديث هنا مروى بالمعنى .

وهكذا كان صدق عمر رضى الله عنه ، فكرر رسول الله ﷺ القول : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه» . فعلم عمر أن رسول الله ﷺ حازم فى هذه القضية الإيمانية ، وعلم أن الحب المطلوب ليس حب العاطفة، إنما هو حب العقل، وهناك فرق بين حب العاطفة وحب العقل؛ فحب العاطفة لا تكليف فيه ، لكن حب العقل يأتى بالتكليف.

وعلى سبيل المثال: فأنت تحب ابنك بعاطفتك، حتى وإن لم يكن ذكياً، لكنك تحب بعقلك ابن عدوك إن كان ذكياً وأميناً وناجحاً. وضربنا المثل من قبل وقلنا: إن الإنسان قد يحب الدواء المرّ ؛ لأن فيه الشفاء ، والإنسان لا يحب هذا الدواء بعواطفه ، ولا يتلذذ به وهو يشربه ، بل يحبه بعقله ؛ لأن هذا الدواء قد يكون السبب فى العافية ، وإن لم يجده فى الصيدليات يغضب ويشكو ، ويسرّ بمن يأتى له به من البلاد الأخرى.

إذن: فالذين تخلفوا عن رسول الله ﷺ من أهل المدينة أو ممن حولهم ما كان لهم أن يتخلفوا ؛ لأن هذا يناقض إيمانهم فى أن يكون رسول الله ﷺ أحب إليهم من أنفسهم ، وكان من الواجب أن يرغبوا فى رسول الله ﷺ عن أنفسهم ، أما أن يكون الأمر بالعكس ، فلا . لأن اتباع رسول الله ﷺ إنما يأتى لهم بالخير [1].

أما اتباع حبهم لأنفسهم فهو حب ضيق البصيرة ، سيأتى لهم بالشرور ،

---

(١) وفى هذا يقول رب العزة : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ .. ﴿٢٤﴾ ﴾ [الأنفال] . أى : يُحيى دينكم وقلوبكم . وقد روى البخارى فى صحيحه (٤٦٤٧) عن أبى سعيد بن المعلّى قال : كنت أصلى فى المسجد فدعانى رسول الله ﷺ فلم أجبه ، ثم أتيته فقلت : يا رسول الله ، إنى كنت أصلى . فقال ﷺ : « ألم يقل الله عز وجل : (اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ) ثم قال ﷺ: لأعلمنك أعظم سورة فى القرآن قبل أن أخرج ، فذهب رسول الله ﷺ ليخرج ، فذكرت له فقال ﷺ: هى الحمد لله رب العالمين ، السبع المثانى».

وإن جاء لهم بخير فخيره موقوت ، وبحسب إمكاناتهم ، ولكن حبهم لرسول الله ﷺ عن أنفسهم يأتى لهم بالخير الثابت الدائم الذى يتناسب مع قدرة الله سبحانه.

ثم يقول سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ﴾ و﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى حيثيات الترغيب التى يأخذون بها الجزاء الطيب من الحق سبحانه بأنهم﴿ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ ﴾ ، ونعلم أن الظمأ قد أصابهم فى جيش العسرة لدرجة أن المقاتل كان يذبح البعير ، ويصفى الماء الذى فى معدته ليِبُلَّ ريقه، وريق زملائه.

﴿وَلَا نَصَبٌ﴾ والنَّصَب :هو التعب ، وكانت الغزوة فى جو حار مرهق.

﴿وَلَا مَخْمَصَةٌ ﴾ أى: المجاعة، وقد كانوا يأكلون التمر الذى أصابه الدود، والشعير الذى انتشر فيه السوس. وإن كانوا قد عانوا من كل ذلك فهو فى سبيل الله القادر على أن يمُنَّ عليهم بكل خير جزاء لما يقدمونه فى سبيل نصرته.

﴿وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ ﴾ نعلم أن الكفار كان لهم رقعة من الأرض يتمركزون فيها ، فحين يغير عليهم المؤمنون ويزحزحونهم عن هذا المكان ، وينزلون إلى الوديان والبساتين التى يملكها الكفار ، فهذا أمر يغيظ أهل الكفر ، إذن: فهم حين يطأون موطئاً، فهذا يغيظ الكفار.

﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا﴾ أى: يأخذون من عدوٍّ منالاً ، والمعنى :أن يقهروا العدو فيتراجع ويشعر بالخسران ، حينئذ يأخذون الجزاء الخيِّر من الله ، وكل ما حدث أن الظمأ والنصب والمخمصة ووطء موطىء يغيظ الكفار والنيل من عدوهم نيلاً. كل واحدة من هذه الأحداث لها جزاء يخدده الحق : ﴿ إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ﴾.

إذن: فالذين رغبوا عن رسول الله بأنفسهم ولم يخرجوا للغزوة قد

خسروا كثيراً؛ خسروا ما كتبه الحق سبحانه من عمل صالح جزاءً لكل حادث قابله مَنْ خرجوا مع الرسول ﷺ [١].

ويُنهى الحق سبحانه الآية: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ فهؤلاء الذين أحسنوا لا يضيع الله أجرهم أبداً.

ثم يأتى بأحداث أخرى غير الظمأ والنصب والمخمصة ووطء الموطىء الذى يغيظ الكفار، والنَّيْل من عدو الله نيلاً، فيقول سبحانه:

﴿ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢١) ﴾

كل شىء - إذن - محسوب، فحتى هؤلاء الذين أنفقوا، فالله سبحانه يعلم ماذا أنفقوا وسيجازيهم عليه، وهؤلاء الذين ساروا الطريق الطويل وقطعوا الوديان ليلحقوا برسول الله ﷺ فى غزواته، فالله سبحانه يكتب لهم الخير. وبعد ذلك تدفق المسلمون على تنفيذ أوامر رسول الله ﷺ، حتى كادت المدينة تفرغ من المسلمين؛ ليلحقوا بالسرايا التى يبعثها رسول الله ﷺ لنشر الدعوة.

وجاء قول الحق:

---

(١) هذه الآية تقتضى وجوب النفير على آحاد المسلمين، وقد قال بعض العلماء: إنها منسوخة بالآية الآتية بعد ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً .. (١٢٢) ﴾[التوبة]. وقال قتادة: كان هذا خاصاً بالنبى ﷺ، إذا غزا بنفسه فليس لأحد أن يتخلف عنه إلا بعذر، فأما غيره من الأئمة والولاة فلمن شاء أن يتخلف خلفه من المسلمين إذا لم يكن بالناس حاجة إليه ولا ضرورة. وقال آخرون: إنها محكمة. قال القرطبى: قول قتادة حسن، بدليل غزوة تبوك. انظر: تفسير القرطبى (٤/ ٣٢١٧).

﴿ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾

هذه الآية جاءت عقب آيات المتخلفين عن الغزو مع رسول الله ، وجاءت بعد أن بيّن الله سبحانه مزايا المجاهدين وما يثيبهم الله به جزاء هذا الجهاد فى قوله سبحانه:

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لاَ يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١٢٠) وَلا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً وَلا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢١) ﴾ [التوبة]

كانت تلك هى الحيثيات التى ترغّب الناس فى الجهاد ترغيباً يخرجهم عمّا ألفوا من العيش فى أوطانهم وبين أهليهم وأموالهم ؛ لأن الثمن الذى يتلقونه مقابل ذلك الجهاد ثمن كبير ، ثم جاءت هذه الآية.

وحينما استقبل العلماء هذه الآية قالوا : إنها تتمة لآيات الجهاد ، وما دام الله قد رغّب فى الجهاد هذا الترغيب ، فإن الناس أقسموا بعده ألا يتركوا غزوة من الغزوات ولا سرية من السرايا إلا ذهبوا إليها ، فنشأ عن ذلك أن المدينة كادت تخلو على رسول الله ﷺ وحده ، ورسول الله ﷺ يستقبل وحى الله.

واستقبال وحى الله يقتضى وجود سامعين ليبلغوه ، فلما انصرف الناس إلى مسألة الجهاد أراد الله أن يعدل هذه الموجة من الرغبة فى الجهاد ، فبيَّن أن الإسلام مُنزَّل من الله على رسوله ليبلغه للناس ؛ لأن دين الله يحتاج إلى أمرين : أمر يحمله إلى الناس ، وأمر يثبت صدقه فى الناس ، وحين يرى الناس إنساناً يضحى بنفسه ويدخل معركة ، وآخر يضحى بماله، حينئذ يعلم الناس أن من يفعل ذلك لا بد أنه متيقن تمام التيقن من العقيدة التى يبذل فى سبيلها الغالى والرخيص.

لكن يبقى أمر آخر، هو ضرورة وجود من يحملون العلم بالإسلام، فإذا كان المناضلون المضحّون بالنفس، والمنفقون المضحّون بالمال هم دليل صدق الإيمان ، فهذا لا يعنى الاستغناء عن هؤلاء الذين عليهم أن يسمعوا من رسول الله ﷺ ما يوحى به الله.

إذن: فهناك منهج من الله ، وهناك استقبال لهذا المنهج من رسول الله ﷺ أولا ، ومن السامعين لرسول الله ثانياً؛ ليسيحوا به فى البلاد ، سياحة إعلام بدين الله لنشر الإسلام ، وهكذا كانت الإقامة مع رسول الله هى استقبال لذلك الإعلام ، وإلا فماذا يُعْلِمون ؟

إذن: فلا بد أن يحافظ المسلمون على أمرين: أمر بقاء الاستقبال من السماء ، وأمر الإعلام [1] بما استقبلوه إلى البلاد . فإن كنتم قد انصرفتم إلى الجهاد فى سبيل الله فقد حقّقتم أمراً واحداً ، ولكنكم لم تحققوا الأمر الآخر وهو أن تظلوا ؛ لتستقبلوا من رسول الله . فأراد الله سبحانه أن يقسم الأمرين بين مجاهدين يجاهدون للإعلام ، وباقين مع رسول الله ليستقبلوا إرسال السماء لهذه الأرض ، فقال: ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً ﴾ .

---

(١) لأن الجهاد فى سبيل الله لملاقاة العدو فرض بدوافعه وبمقتضى حال الدعوة ، أما الجهاد الإعلامى فهو مطلوب حتى قيام الساعة ، فهو جهاد موصول ما دام هناك باطل يناهض حقاً .

وساعة تسمع «كَانَ» منفيةً فاعلم أنها جحود لهذه المسألة ، أى : ما كان يصح أن ينفر المسلمون كافة ، أى : جميعاً ، بدون أن يبقى منهم أحد .

و﴿كَافَّةً﴾ مأخوذة من كف الشىء ، وأنت تسمع خائط الثياب يقول : «أريد أن أكفّف الثوب» معنى هذا أن الخائط حين يقص القماش ، فهناك بعض من الخيوط تخرج منه ؛ فيكففها حتى لا يتفكك نسيج الثوب، إذن : فمعنى كلمة ﴿كَافَّةً﴾ : جميعاً .

ولنا أن نتساءل : لماذا لا ينفر المسلمون إلى الجهاد جميعاً ، أليس الجهاد إعلاماً بمنهج الله؟

نقول : نعم هو إعلام وسياحة بمنهج الله فى الأرض ، ولكن الذى يسيح للإعلام بمنهج الله لا بد أن تكون عنده حصيلة يُعْلم بها ، وهذه الحصيلة كانت تأتى فى زمن رسول الله ﷺ من منهج السماء حين ينزل على رسول الله ﷺ .

إذن : فلا بد من أناس يسمعون وحى السماء ثم يعلمون به ويرسلونه لأهل الأرض[1] جميعاً ، ولو انصرف كل هؤلاء المؤمنين إلى الجهاد لما تحقق أمر حمل الدعوة للإسلام ؛ لذلك قال الحق : ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً﴾ وفى هذا نفى أمر فيه انبغاء أى : لهم قدرة عليه ، ويستطيعون تنفيذ ما يطلبه رسول الله ﷺ منهم .

ونحن نعلم أن رسول الله ﷺ نشأ فى أمة عربية لها فصاحة وبلاغة ، أمة بيان وأداء قوىّ يسحر ، وكان فى هذه الأمة أناس كثيرون يتمتعون بموهبة الشعر والقول ، لكن رسول الله ﷺ لم يشتهر بهذا ، وحاول بعضهم أن

(١) إن الإعلام الدينى هو جهاد له صفة الاستمرارية ؛ لأنه وسيلة إقناع دائمة لتدعيم قيم السماء لتنظيم فوضى الأرض، ولا يكون الجهاد بالسيف إلا بعد الإقناع والتمادى فى الباطل لطمس معالم الحق . ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ (١٨)﴾ [الأنبياء] .

يقلل من فصاحة رسول الله ﷺ ، فقالوا: إنها فصاحة دون من خطب ، ودون من قال ، ودون من شعر ، فجاء الرد عليهم من الحق:

﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ ... (٦٩)﴾ [يس]

أى: أنه ﷺ كان يستطيع أن يتفوق فى ذلك ، لكن الحق سبحانه لم يُعلِّمه الشعر ؛ لأنه لا ينبغى له أن يتعلَّمه ، لماذا ؟ لأن العرب يعلمون أن أعذب الشعر أكذبه ، وما دام أعذبه أكذبه ، فالحق سبحانه لا يريد أن يعلم الناس أن محمداً ﷺ مُرْتَاض[1] على صناعة البيان وأساليب الأدب ، وبعد ذلك يُفاجىء الدنيا بالبيان الأعلى فى القرآن ، ويعلن ﷺ أن هذا البيان ليس من عنده.

وقد عاش الرسول ﷺ بينهم مدة طويلة، ولم يسمعوا منه شعراً، فكل ما جاء به بلاغاً عن الله لا يُنسب لمحمد ، ولكنه منسوب إلى رب محمد.

وقوله الحق : ﴿وَمَا يَنبَغِي لَهُ﴾ أى: لا يصح أن يكون هذا الأمر، رغم استعداد محمد ﷺ لذلك، وكان من الممكن أن يُعلِّمه ربه الشعر وفنون القول؛ ولذلك حينما قال أناس: إن القرآن من عند محمد، جاء القول الحق مُبلِّغاً محمداً:

﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ .. (١٦)﴾ [يونس]

وقد عاش بينهم رسول الله ﷺ أربعين عاماً ولم يقل قصيدة أو مقالة.

ومن الذى يستطيع أن يؤخر عبقريته إلى الأربعين؟ نحن نعلم أن ميعاد بَدْء العبقرية إنما يظهر من قبل العشرين ، أى: فى العقد الثانى من العمر، ولا أحد يؤخر ظهور عبقريته.

---

(١) مرتاض : أى معتاد على قول الشعر ، قد ذللت له القوافى والبحور والأوزان واللغة لينظم ما شاء ، وهذا لا ينبغى لرسول الله ﷺ ، وإلا كان موضع طعن فى القرآن.

إذن: فرسول الله ﷺ حينما نزل عليه القرآن بالترغيب فى الجهاد كادت المدينة تخلو من المسلمين؛ فجاء قوله الحق:

﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِينفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِى الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (١٢٢) ﴾ [التوبة]

وفى هذا القول الكريم محافظة على أمرين ؛ أمر استقبال وحى الله ، وأمر الإعلام به ، وبذلك يتنوع الجهاد ، طائفة تستقبل ، وطائفة تُعلِّم وترسل ؛ لأنهم لو تركوا الرسول ﷺ جميعاً ، فكيف يصل الوحى من الرسول ﷺ إلى المؤمنين ؟ ولو أنهم جلسوا جميعاً فى المدينة فمن الذى يسيح فى الأرض معلِّماً الناس ؟ أما إذا بقى الرسول ﷺ والمؤمنون معه، فى فترة لا قتال فيها ، فهذا أمر مختلف ؛ لأنها ستكون فترة استقبال فقط.

وكذلك إن خرج رسول الله ﷺ إلى القتال فعلى المؤمنين القادرين على القتال أن يصحبوه ؛ لأن الرسول القادر على استقبال الوحى من الله موجود معهم ، وكذلك الإعلام بالرسالة موجود.

إذن: فالمشكلة كانت فى حالة عدم وجود رسول الله ﷺ مع الخارجين للجهاد، فإذا ما خرج المقاتلون للجهاد ، وظل رسول الله ﷺ فى المدينة ، فعليهم أن ينقسموا قسمين: قسماً يبقى مع رسول الله ليتعلم منهج الله ، وقسماً يخرج إلى القتال.

حين كان الرسول يخرج إلى القتال فالمهمة تسمى غزوة ، وإذا لم يخرج رسول الله ﷺ ، وأرسل جماعة للقتال سُمِّيت العملية بـ «السَّرِية»[1] .

---

(١) كان عدد الغزوات التى خرج فيها رسول الله ﷺ بنفسه غازياً سبعاً وعشرين ، وقد قاتل بنفسه فى تسع منها ، هى : بدر ، وأحد ، والمريسيع ، والخندق ، وقريظة ، وخيبر ، وفتح مكة ، وحنين ، والطائف . وبلغ عدد بعوثه أو سراياه سبعاً وأربعين ، وقيل : بل نحواً من ستين .

ولم يخرج عن التسمية بالسرية إلا عملية واحدة سُمِّيت غزوة ولم يخرج فيها رسول الله ، وكان المفروض أن تُسمى سرية ولكنها سميت غزوة [١] .

وقد خرجت المهمة القتالية عن اصطلاح السرية إلى اصطلاح الغزوة ، رغم أن رسول الله لم يحضرها ؛ لأن المعركة حدث فيها أشياء كالتى تحدث فى الغزوات ، فقد كانت معركة حاسمة وقُتل فيها عدد من المسلمين ، وحمل الراية مقاتل واستشهد فحملها غيره وقتل ، فحملها ثالث ، وكانت المعركة حامية الوطيس فقالوا : لا يمكن أن نسمى تلك المعركة بـ «السَّرية» بل هى غزوة ؛ لأن فيها عنفاً شديداً.

لم يلحظوا شيئاً واحداً وهو أن التسمية بالغزوة انطبقت تمام الانطباق على مؤتة ؛ لأن رسول الله ﷺ كان فى المدينة والمسلمون خارجون للغزو وأرسل إلى القوات: إن مات فلان فى القتال فيليه فلان ، وإن مات فلان ففلان يخلفه [٢] ، أى : أنه ﷺ قد سلسل أمور الغزوة قبل أن تبدأ.

وهى الحملة القتالية الوحيدة التى خرجت بهذه التعليمات، من بين مثيلاتها من الحملات المحددة التى لم يخرج فيها رسول الله ﷺ مع المقاتلين، وكأنه ﷺ كان يعلم مُقدّماً بمن سيموت من هؤلاء الخارجين إلى القتال.

ثم وصلت الحملة إلى موقعها ودار القتال ، وكان الرسول ﷺ فى المدينة والتفت الصحابة فسمعوا رسول الله ﷺ يتكلم ؛ قال: أخذ الراية فلان

(١) هى غزوة مؤتة ، ومؤتة هى قرية من أرض البلقاء من الشام من أعمال دمشق ، وكانت تسمى أيضاً جيش الأمراء .

(٢) أخرج البخارى فى صحيحه (٤٢٦١) عن عبد الله بن عمر قال : « أمّر رسول الله ﷺ فى غزوة مؤتة زيد ابن حارثة . فقال رسول الله ﷺ : إن قتل زيد فجعفر ، وإن قتل جعفر فعبد الله بن رواحة . قال عبد الله : كنت فيهم فى تلك الغزوة ، فالتمسنا جعفر بن أبى طالب ، فوجدناه فى القتلى ، ووجدنا ما فى جسده بضعاً وتسعين من طعنة ورمية » .

فقُتل ، ثم أخذها بعده فلان فقُتل . ثم قال: وأخذها بعده فلان ، وكان ﷺ يقصّ المعركة [(١)] وهو فى المدينة فقالوا: لم يقل ذلك إلا لأنه شهد.

وحينما عاد المقاتلون عرف الصحابة منهم أن الأمر قد دار كما رواه رسول الله ﷺ وهو جالس فى المدينة ، وقد حدث مطابقاً غاية التطابق ، فقالوا: شهدها رسول الله ؛ وما دام قد شهدها رسول الله ﷺ فهى غزوة.

ونعود إلى الآية التى يقول فيها الحق:

﴿فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ ... (١٢٢)﴾[التوبة]

وساعة تسمع كلمة «لولا» فلك أن تعرف أن فى اللغة ألفاظاً قريبة من بعضها ، فـ «لو» و«لولا» و«لوما» و«هلاَّ»، هى - إذن - ألفاظ واردة فى اللغة ، وإذا سمعت كلمة «لو» فهذا يعنى أن هناك حكماً بامتناع شيئين. شىء امتنع لامتناع شىء ، مثل قولك: «لو كان عندك زيد لجئتك» وهنا يمتنع مجيئك لامتناع مجىء زيد ، فكلمة «لو» حرف امتناع لامتناع، وتقول: لو جئتنى فى بيتى لأكرمتك. إذن: فأنا لم أكرمك لأنك لم تأت.

وتقول: « لولا زيد عندك لجئتك» أى: أنه قد امتنع مجيئى لك لوجود زيد. إذن: فـ «لولا» حرف امتناع لوجود. ونلحظ أن «لولا» هنا جاء بعدها اسم هو «زيد» ، فماذا إن جاء بعدها فعل، مثل قولك: «لولا فعلت كذا» ؟ هنا يكون فى القول حضٌّ على الفعل ، مثل قوله الحق:

﴿لَّوْلاَ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا (١٢)﴾ [النور]

---

(١) عن أنس بن مالك قال : خطب رسول الله ﷺ فقال : أخذ الراية زيد فأصيب ، ثم أخذها جعفر فأصيب ، ثم أخذها عبد الله بن رواحة فأصيب وإن عينيه لتذرفان ، ثم أخذها خالد من غير إمرة ، ففتح الله عليه ، وما يسرنى أنهم عندنا - أو قال : ما يسرهم أنهم عندنا . أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٢٦٢) وأحمد فى مسنده (٣/ ١١٣) .

ومثل قوله: ﴿لَّوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ ... ⑬﴾ [النور]

ومثلها أيضاً «لوما» مثل قوله الحق:

﴿لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ⑦﴾ [الحجر]

وأيضا قولك: «هَلاَّ». فهى أيضاً تحضيض مثل قولنا: «هلا ذاكرت دروسك» ؟ وأنت بذلك تستفهم بـ (هل) ، وجئت بالمد لتصبح (هلاَّ) ؛ لتحثه على المذاكرة . أو قولك: «هلا أكرمت فلاناً ؟» وفى هذا حَثٌّ على أن تكرم فلاناً[1] .

والأسلوب هنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يجمع المؤمنين ويقول لهم : ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً﴾ ثم يأتى الحث على أن ينقسموا إلى قسمين فى قوله : ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ﴾ ، والقسمان يذهب أحدهما للإعلام وللجهاد. والقسم الثانى يظل مع رسول الله ﷺ وهو يستقبل منهج السماء.

وقوله الحق : ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ﴾ فيه كلمة ﴿نَفَرَ﴾ وهى من النفور . لكنها استعملت دائماً فى مسألة الخروج للحرب ، مثل قوله الحق:

﴿مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ[2] إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ㊳ إِلَّا تَنفِرُوا ... ㊴﴾ [التوبة]

ولماذا يجىء الحق بالنفرة فى الجهاد ؟ نقول: لأن الذى يعوق الإنسان عن

---

(١) الأدوات الثلاثة (لولا - لوما ، هلاَّ) لا يليها إلا المضارع ظاهراً أو مقدراً . فإن دخلت على ماض خلصت زمنه للمستقبل ، بشرط أن تفيد التحضيض. ومنها الآية التى معنا ، ومثلها قوله تعالى: ﴿رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ ... ⑩﴾ [المنافقون] وانظر : النحو الوافى لعباس حسن.

(٢) اثاقلتم : تثاقلتم وأخلدتم إلى الأرض ، فتباطأتم عن تلبية النفير خوفاً على أنفسكم وأموالكم . انظر : لسان العرب.

الجهاد حبه لدَعَته[1] ، ولراحته ، ولسعادته بمكانه ، وبأهله ، وبماله ، فإذا ما خرج للقتال شَق ذلك على نفسه ، ولذلك يقول الحق:

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ... (٢١٦) ﴾ [البقرة]

وفى ذكر أمر الكُرْه إنصاف لهم ، فصحيح أن القتال أمر صعب ويكرهه الإنسان ، لكن الحق قد كتبه ، والمسلم إذا استحضر الجزاء عليه فهو يحتقر ما يتركه ؛ لأنه قليل بالنسبة لعطاء الله ؛ لذلك ينفر المؤمن الحق من الذى يملكه ، ويذهب للثواب الأعلى ، وهذا هو معنى التحديد فى أنهم سمّوا الجهاد نفرة ، فحين يقارن المؤمن بين حصيلة ما يأخذه من الجهاد وما يمسكه عن الجهاد لتساءل : ما الذى يجعلنى أتمسك بالأقل ما دام هناك عطاء أكثر ؟

فلما جاءت ﴿فَلَوْلاَ نَفَرَ﴾ فهموا أن هذه الآية من تتمة الكلام عن الجهاد، ولتبقى طائفة من المؤمنين؛ لتسمع من رسول الله الوحى، وقد يتساءل المسلم حين يقرأ الآية ويجد قوله الحق : ﴿فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ ﴾ ، هنا يقول المسلم لنفسه : وهل تنفر الطائفة التى تتفقه فى الدين ، إنها الفرقة الباقية والمستقرة مع رسول الله فى المدينة ؟

ونجيب: إن قوله الحق : ﴿فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ ﴾ نجد فيه كلمة ﴿فِرْقَةٍ ﴾ وهى الجماعة ، والجماعة إنما تنقسم إلى طوائف. مثلما نسمى فى الجيوش «الفرقة الأولى» و«الفرقة الثانية» و«الفرقة الثالثة» ، ثم نقسم الفرقة الواحدة إلى : «جماعة الاستطلاع» و«جماعة التموين» و«الشئون المعنوية» ، ونجد كلمة ﴿طَائِفَةٌ ﴾ وهى تعنى «بعض الكثرة»[2] .

---

(١) الدَّعَة : ترف العيش والراحة .

(٢) الطائفة: الرجل الواحد إلى الألف . والدليل على أن الواحد يقال له طائفة لأنه أصل الجمع قوله تعالى : ﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ... (٩) ﴾ ثم قال : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ... (١٠) ﴾ [الحجرات] .

وما دام الحق قد قال: ﴿فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ فهذا يعنى أنه سبحانه قسمهم إلى طائفتين ، إحداهما تنفر ، والأخرى تبقى لتتفقه فى الدين. إذن : فكأن أسلوب القرآن أسلوب أدائى كل ينفر لمهمته.

﴿فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ يبين أن طائفة منهم تكون قتالية والأخرى إعلامية مهمتها ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ﴾ فمن يجلس مع رسول الله ﷺ ليستمع إليه ، فهو يجهز للمقاتل حيثيات ما يجاهد على مقتضاه ، وحين يرجع المقاتلون يُبلِّغهم من جلس مع الرسول ما نزل عليه ﷺ من وحى ، ويتناوب المسلمون الجلوس مع الرسول فى المدينة ، والقتال ، وكل طائفة تؤدى مهمتها.

وهناك من العلماء من رأى رأياً آخر ، وأخذ المسألة كلها مكتملة على بعضها ، وقال : إن من بقى مع رسول الله له لون آخر من المجاهدة ، ولأنه يأخذ من الرسول ﷺ علماً جديداً ، يتبادله مع المقاتلين فى ساحة القتال بعد أن يعودوا ، فالمقاتلون فى ساحة الجهاد يعودون بما يؤكد نصرة الله للقلة على الكثرة ، وإمداد الله سبحانه للمؤمنين بالملائكة ، وتهدم العدو ، والمعجزات التى رأوها من رسول الله ﷺ كنبوع الماء من بين أصابعه فى حال قلة المياه عند العطش [1].

ثم إنهم يسمعون من المجاهدين الجالسين لتلقى العلم أخبار الوحى والفقه، وهكذا يتكافأ المؤمنون فى المهام ، وكأنهم البنيان المرصوص يشدّ بعضه بعضاً.

وما تقدم هو فهم للآية إذا كانت خاصة بالجهاد ، فماذا إذا كان للآية موضوع آخر غير الجهاد ؟ نقول: إن الجهاد إعلام بمنهج الله فى الأرض،

---

(١) قيل لجابر بن عبد الله : كم كنتم يوم الشجرة ؟ قال : كنا ألفاً وخمسمائة ، وذكر عطشاً أصابهم ، قال : أتى رسول الله ﷺ بماء فى تور ، فوضع يده فيه . فجعل الماء يخرج من بين أصابعه كأنه العيون ، قال : فشربنا ووسعنا وكفانا ، قال : قلت : كم كنتم ؟ قال : لو كنا مائة ألف كفانا . كنا ألفاً وخمسمائة . أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٤/ ١١٥).

والإعلام بمنهج الله فى الأرض يقتضى المنهج المعلوم من السماء الذى يوضح مصير المجاهدين، ومصير المتخلفين. وهو هنا سبحانه يوضح أمر استقبال ما نجاهد من أجله.

﴿فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ﴾ أى: يذهب بعض المسلمين إلى البلاد التى حول المدينة ؛ ليقولوا للناس حقيقة الإسلام ، وأيضاً أن يأتى آخرون من البلاد الأخرى لِيَعْلَمُوا أمر الدين ، ويعلموه لأهاليهم.

ويكون قول الحق : ﴿فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ مقصود به هؤلاء الذين يأتون من الأماكن البعيدة عن المدينة ؛ ليجلسوا إلى رسول الله ﷺ ليسمعوا ، ويتفقهوا فى الدين ؛ ليرجعوا إلى مجتمعاتهم ، ويعلموهم أمور الإيمان.

إذن: فالآية إما أن تكون من تتمة آيات الجهاد ، وإما أن تكون أمراً مستقلاً للذين يبعد بهم المكان عن منبع المنهج ، وهو رسول الله ﷺ ، فهو ﷺ يعلِّم من يأتون إليه من أى مجتمع ؛ ليرجعوا بعد ذلك لقومهم ، ويبلغوهم مطلوبات المنهج ، وهذه مسألة بعيدة عن القتال.

إذن: تكون النفرة للتفقه فى الدين على أى معنى ، ليس هناك فرق بين الطائفة الباقية التى تتفقه ؛ لتعلِّم الطائفة التى تجاهد ، أو الطائفة التى تجاهد تتفقه بالمعجزات و بالأحداث التى حدثت أثناء قتالهم وتعلمها للطائفة التى لم تخرج للقتال.

أو أن المعنى هو الأمر الثانى الذى لا قتال فيه ، بل يتناول أمر استقبال الرسول ﷺ لطائفة من كل بلد ليسمعوا منه ﷺ ، وقد سماها الحق «نفرة» ؛ لأنها جهاد فى البحث فى المنهج وتعلمه ، وهى نفرة النفرة ؛ لأن النفرة للجهاد بالقتال تتطلب فهماً لحيثيات الدفاع عن هذا المنهج المنزَّل من الله.

وقوله الحق : ﴿ فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ ﴾ علمنا منه أن الفرقة هى الجماعة ، والجماعة إما أن تنقسم إلى أفراد وإما إلى طوائف ، والفرقة أقلها ثلاثة ؛ لأنها جمع . وحينما يذهب اثنان من هذه الفرقة للتعلم من رسول الله ﷺ ، ويعودان للبلاغ عنه ﷺ نكون أمام خبر من شاهدين اثنين بأن النبى قال كذا وأبلغ بكذا ، وكذلك قد يصح أن يكون المبلِّغ عن الرسول شاهداً واحداً ، واختلف العلماء المسلمون فيما بينهم ، هل يأخذون الخبر عن واحد فقط مبلِّغ عن رسول الله ﷺ أم لا بد من الأخذ بالخبر من شاهدين اثنين؟

وقد جاءت الآية صريحة فى أنه ﴿فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ والفرقة أقلها ثلاثة ، والطائفة إما أن تكون اثنين وإما أن تكون شخصاً واحداً يرجع إلى قومه ؛ ليفقههم فى الدين ، ويؤدى البلاغ عن رسول الله ﷺ .

وتحفَّظ البعض على ذلك بأن قالوا: إن الذى نفر ليس فرداً من الفرقة، بل طائفة من الفرقة ، ومفردات الفرقة طوائف لا واحد، وكلمة طائفة مقصود بها الجماعة.

والنفرة لها علة محددة يذكرها الحق: ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا فِى الدِّينِ﴾ فالتفقُّه إذن هو سبب النفرة ، مثلما نبعث بعثة فى أى بلد متقدم ؛ لنأخذ بعلوم الحضارة ، فإن خرج واحد عن حدود البعثة ؛ ليلعب، ويلهو، فهو لم يحقق النفرة. لا بد إذن من أن يستوعب كل واحد فى البعثة أنه قد جاء للتفقه[1] .

والفقه فى اللغة : هو الفهم ، ويقال عن أى أمر تفهمه : فقهتُ الأمر

(١) لطلب العلم والتفقه آداب ، منها : أن يكون لوجه الله ، لا لطلب سمعة أو غيره ، فعن كعب بن مالك قال قال ﷺ : « من طلب العلم ليجارى به العلماء ، أو ليمارى به السفهاء ، ويعرف به وجوه الناس إليه أدخله الله النار » أخرجه الترمذى فى سننه (٢٦٥٤) ، والحاكم فى المستدرك (١/ ٨٦) شاهداً ، وابن أبى الدنيا فى الصمت (حديث١٤١) والعقيلى فى « الضعفاء الكبير » (١/ ١٠٤) . فيه إسحق بن يحيى تكلموا فيه من قبل حفظه .

الفلانى . فإن فهمت فى الهندسة فهذا فقه ، وإن فهمت فى العلوم فهذا فقه ، ولكن المعنى الذى غلب هو الفقه لأحكام الله ؛ لأن هذا الأمر هو أهم أمور الحياة ، فالفقيه فى الدين هو من يبيّن للناس حدود المنهج بـ «افعل» و«لا تفعل» .

إذن : الفقه مطلقاً هو الفهم ، لكنه أصبح مصطلحًا يعنى فهم أحكام الله ؛ لأنه هو الذى يحدد الصواب والخطأ . ولا يقال : «الفقيه» إلا لمن فَقُه . وهناك فرق بين فَقه وفَقُه . فَقُهَ فى دين الله ، أى : أصبح الفقه عنده ملكة ، وساعة تسأله فى أى موضوع لا يتردد ، بل يجيب ؛ لأن الفقه صار ملكة عنده ، والملكة : الصفة التى ترسخ فى النفس من مزاولة أى عمل ؛ فيسهل أداء هذا العمل . وكذلك الفقه . وهكذا نعرف أن معنى فَقِهَ : «فهم شيئاً» . أما فَقُهَ فمعناها : صار الفقه عنده مَلَكَة .

وقوله الحق : ﴿ لِّيَتَفَقَّهُوا﴾ أى : ليعلموا أحكام الله ، ويصير هذا العلم : من بعد ذلك مَلَكَة عندهم .

ولكنْ ماذا إن نفروا لشىء آخر مثلما ينفر واحد من البدو ليسأل جماعته : إلى أين تذهبون ؟ فيجيبون : نذهب إلى رسول الله لنسمع منه ، فيذهب معهم . لكنه لا يسمع بل يذهب هنا أو هناك ، ولا يجلس لتفقُّه العلم ، على الرغم من أن علّة نفوره مع غيره هى التفقّه فى الدين ؛ وليعلم حقائق هذا الدين ؛ لينذر به قومه حين يعود إليهم ، فالفقيه لايطلب جاهاً ، أو رئاسة ، أو وظيفة ، بل هو يبين للناس متطلبات الحركة على هذا المنهج الحق ، ولينذرهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ أى : يتجنَّبون مايضرُّهم .

وحين ندقق فى هذا الأمر نجده عدة مراحل : ﴿فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ هذه هى المرحلة الأولى ، ثم ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا فِى الدِّينِ﴾ هذه هى المرحلة

الثانية وهى التفقه ، أما الثالثة فهى ﴿وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ﴾ ، ومن تفقه لغير هذا ؛ ليشار إليه بالبنان مثلا [(١)] ؛ نقول له : أنت من الذين قال الله فيهم :

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً ۝١٠٣ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ۝١٠٤﴾ [الكهف]

إذن : فالتفقه يكون للدعوة تبشيراً وإنذاراً ؛ حتى يتجنب القوم ما يضرهم .

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ۝١٢٣﴾

ينقلنا الحق هنا إلى الحديث عن الجهاد مرة أخرى . ولنا أن نتساءل : لماذا - إذن - جاء الحديث عن النفرة والفقه كفاصل بين حديث متصل عن الجهاد ؟ أجيب : شاء سبحانه هنا أن يعلمنا أن كل من ينفر ؛ لتعلُّم الفقه ، وليعلِّم غيره ؛ هذا المسلم فى حاجة إلى مرحلة التعلُّم ، ومعرفة الأسباب التى يقاتل من أجلها المسلمون وحيثيات الجهاد فى سبيل الله .

وقد قسَّم الحق سبحانه الناس فى آيات الجهاد إلى قسمين : فرقة تنفر ، وطائفة منها تبقى مع رسول الله ﷺ . فإذا استوى الأمر ، فرقة تجاهد ، وفرقة تَتَعلَم وتعلِّم [(٢)] ، وتتبادل الفرقتان الخبرة الإيمانية والقتالية ، تصبح

(١) البنان : الأصابع . مفردها بنانة . ومنه قوله تعالى : ﴿بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ ۝٤﴾ [القيامة]
قال الفارسى : أى : نجعلها كخف البعير فلا ينتفع بها فى صناعة . نقله ابن منظور فى اللسان .

(٢) ففرقة التعليم والتعلم هى ما يعبر عنه حديثاً بالتوجيه المعنوى ، والتوجيه المعنوى أساس الانطلاق الإيمانى نحو ما يريده الله سبحانه لدعوته .

الملكات الإيمانية متساندة غير متعاندة ، ومن بعد ذلك يتجهون إلى الكفار.

﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم ﴾ وهذا يعنى أن هناك قوماً قريبين منهم ما زالوا كافرين، وهناك قوم أبعد منهم، والحق قد قال:

﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ... (٣٦) ﴾ [التوبة]

إذن: فهناك أولويات فى القتال ، وقتال الكفار القريبين منك فيه تأمين لمعسكر الإيمان ؛ لذلك جاء الأمر بقتال الأقرب ؛ لأنه قتال لن يتطلب رواحل ولا مؤونة للسفر البعيد ، كما أن العدو القريب منك أنت أعلم بحاله أكثر من علمك بحال الكفار البعيدين عنك ؛ لذلك فأنت تعلم مواطن قوتهم وضعفهم ، وكيفية تحصيناتهم . فإذا تيسر أمر قتال العدو الأقرب كان ذلك طريقاً لمجابهة العدو الأبعد ، بدلاً من أن تواجه العدو البعيد ؛ فيتفق مع العدو القريب ، ويصنع الاثنان حولك «كماشة» بلغة الحرب ، فلا بد أن تحمى ظهرك أولاً ، من شر العدو الأقرب.

إذن: فلا تعارض بين محاربة العدو البعيد والعدو القريب. ولا تَعارض بين قوله الحق : ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ﴾ وقوله سبحانه : ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾ ؛ لأن معنى ﴿كَافَّةً﴾ أى: جميعاً ، ولكن الجماعة لها أولوية. فخذ القريب منك ؛ لتضمه إليك ، ومتى ضممته إليك نقصت أرضا من عدوك ، وأصبح زائداً فيك ، فإذا كان الخصم معه سيف ومعك سيف ، وبعد ذلك دخلت المعركة فأوقعت سيفه من يده ؛ فأخذته ؛ فبذلك يصبح معك سيفان وهو لا سيف معه.

ولذلك يوضح الحق سبحانه وتعالى للكفار : اعتبروا أيها الكفار ، فأنتم لا ترون الأرض كل يوم وهى تنقص من تحت أقدامكم [1] ، وما ينقص من

---

(١) قال عز وجل : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا .. (٤١) ﴾ [الرعد] . قال ابن عباس فى تفسيرها ، أولم يروا أنا نفتح لمحمد ﷺ الأرض بعد الأرض . وهو الأولى فى تفسير هذه الآية ، وهو ظهور الإسلام على الشرك قرية بعد قرية . ذكره ابن كثير فى تفسيره (٢/ ٥٢٠).

أرض الكفار يزيد فى أرض الإيمان . وما دام الحق قد جاء بكلمة «قتال» فهذه الكلمة تحتاج إلى عزيمة ، وجرأة تُجَرِّىء على القتال ، وصبر عليه ، فقد تجد فى مواجهتك من هو أقوى منك أو من هو أشجع منك ، فإن رأى شجاعة منك تفوق شجاعته ، وأحسَّ منك قوة ومثابرة تفوق قوته ومثابرته ، فهذا ينزع من قلبه الأمل فى الانتصار عليك ؛ ولذلك يقول الحق:

﴿وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ والغلظة صفة ، ويقال: غِلْظَة ، وغُلْظَة ، وغَلْظَة [1] ، والمعروف أنها الشدة ، فحين تضرب عدوكَ اضربه بقوة ، وبجرأة، وبشجاعة.

وحين يحاول عدوك أن يضربك استقبلْ الضربة بتحمُّل ، وهكذا نجد أن الغلظة مطلوبة فى حالتين اثنتين ؛ فى حالة الإرسال منك ، وفى حالة الاستقبال منه ، فلا يكفى أن تضرب عدوك ضربة قوية ، وحين يردُّ لك الضربة تخور وتضعف . إن الحق يطلب منك غلظة تحملُ على عدوّك ، وغلظة تتحمَّل من عدوّك.

ولذلك نجد آية آل عمران يقول فيها الحق:

﴿اصْبِرُوا... (٢٠٠)﴾ [آل عمران]

ولكنْ هَبْ أن عدوَّك يصبر أيضاً ، فيأتى الأمر من الحق:

﴿وَصَابِرُوا... (٢٠٠)﴾ [آل عمران]

أى: حاول أن تغلبه فى الصبر . وحذَّر الحقُّ من إلقاء السلاح بعد انتهاء

(١) قال الفراء: لغة أهل الحجاز وبنى أسد « غلظة » بكسر الغين . ولغة بنى تميم « غُلظة» بضم الغين. وقال الزجاج : فيها ثلاث لغات : غِلْظة ،وغُلْظة ، وغَلْظة. انظر : لسان العرب مادة (غ ل ظ)

المعركة ؛ لأن العدو قد يستنيم [1] المؤمن ؛ لذلك جاء الأمر من الحق :

﴿ وَرَابِطُوا ... (٢٠٠) ﴾ [آل عمران]

أى : استقر أيها المؤمن فى الأرض ؛ ليعلم العدو أنك تنتظره إن حاول الكرّة من جديد أو حدَّثته نفسه بالقتال مرة أخرى . إذن : فالغلظة تطلب منك أن تهاجم ، وتطلب منك أن تتحمّل ، والتحمُّل يقتضى صبراً ، والتحامل يقتضى شجاعة ، فإذا ما كان فى خصمك صبر وشجاعة ؛ فعليك أن تصابره أى : تصبر أكثر منه ، وهى مأخوذه فى الأصل من «نافس فلان فلانا . . أى سابقه وحاول أن يسبقه» ، والمنافسة من النفس ، والحق يقول :

﴿ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ (٢٦) ﴾ [المطففين]

أى : تنافسوا فى الخير ، ونحن نعلم أن تركيبة النفس الإنسانية تحتاج إلى شىء مرة أو مرتين فى اليوم ، وتحتاج إلى شىء آخر خمس أو ستَّ مرات فى اليوم . وتحتاج إلى شىء ثالث دائماً . فأنت فى الأكل تأكل ثلاث وجبات ، وفى الشراب تحتاج إلى لترين أو أربعة من الماء أو أكثر . أما التنفس فأنت لا تصبر على الانقطاع عنه ، وهو أهم الضروريات لحياة الإنسان .

وقلنا قديماً : إن من رحمة الله سبحانه وتعالى أنه قد يملك إنسان طعامَ إنسان ، وقد يستطيع الإنسان الصبر عن الطعام لأسابيع ، ولا يصبر الإنسان عن انقطاع الماء إلا أياماً تتراوح من ثلاثة إلى عشرة ، حسب كمية المياه التى فى جسمه ؛ لذلك لم يُملِّك الحق سبحانه الماء مثلما ملَّك

---

(١) يستنيم المؤمن : أى ينتهز منه نومة أو غفلة عن سلاحه . ويقول عز وجل : ﴿ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً ... (١٠٢) ﴾ [النساء] فالغفلة عن السلاح والمتاع أثناء القتال هى حلم للكافرين يتحينون به أى فرصة لحدوثها ليميلوا على المؤمنين ميلة واحدة ، فيأخذونهم مرة واحدة .

الطعام ، وأما الهواء فأنت لا تصبر على افتقاده للحظات ؛ ولذلك لم يملِّك الله الهواء لأحد أبداً ، وكأنه سبحانه علم أن عباده غير مأمونين على بعضهم البعض ، ولذلك سُمِّى استنشاق الهواء وزفيره بالتنفس ، وهو من النفس ، وهو سبب وجود النفْس وهى مزيج من المادة والروح ، والأساس هو نَفَس الهواء الذى يضمن استمرار النفس فى الحياة.

وإذا ما نافست العدو فأنت تصطاد الشىء النفيس ، وهو إعلاء منهج الله. وحين تصابر أهل الباطل ، فكل واحد من أهل الباطل قد يصابر لجاجة [1] لمدة قصيرة ثم يتراجع ؛ لأن الباطل زهوق ، وهنا يقول سبحانه: ﴿وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ أى: غلظة تحمل بها على العدو ، وغلظة تتحمَّل من العدو، وأن تصبر، وتصابر، وترابط .

وكيف يطلب الله منا أن تكون لنا غلظة عليهم مع أنه قال لرسوله ﷺ: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ .. (١٥٩)﴾ [آل عمران]

فإن هذا ينفى الغلظة ، وأقول: لنُفرق بين أمرين ، أمر الغلظة فى أن تكون الحجة قوية ، وأمر الغلظة التى يتطلبها القتال ، أما المعايشة والمآكلة والملاطفة ، فهذه تحتاج إلى لين ورِقَّة.

وقوله الحق :﴿ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً ﴾ يفيد أن الغلظة ليست صفة دائمة، بل تعنى أنك إن تَطَلَّبَ الأمرُ فيجب أن تتوافر فيك ، وكذلك قلنا: إن الله

(١) أصل الرباط من مرابط الخيل التى تربط بها فى مواجهة الأعداء فى الثغور والحدود مع العدو ، ففيه معنى التربص به والحذر من غدره . ومما ورد فى فضل الرباط فى سبيل الله : « رباط يوم فى سبيل الله خير من الدنيا وما عليها ، وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها ، والروحة يروحها العبد فى سبيل الله أو الغدوة خير من الدنيا وما عليها » أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٨٩٢) وأحمد فى مسنده (٥/ ٣٣٩) والترمذى فى سننه (١٦٦٤) عن سهل بن سعد الساعدى ويستعمل الربط فى المعانى كقوله تعالى: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ (١٤)﴾ [الكهف] أى ثبتنا قلوبهم وعزائمهم على الإيمان . وهم فتية أهل الكهف.

لم يطبع المؤمن على الغلظة ، ولم يطبعه على الشدة ، ولم يطبعه على العزة ، بل قال :

﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ... (٢٩)﴾ [الفتح]

وقال :

﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ ... (٥٤)﴾ [المائدة]

ويُنهى الحق الآية :

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ . إياك أن تفهم أنك تواجه أعداءك من الكفار بعددك وعُدَّتك ، ولكن العدد والعدة أمران مطلوبان ؛ لتدخل المعركة ، وعندك شيء من الاطمئنان. ومثال هذا من يسلك مفاوز[١] أو صحارى مقفرة[٢] أو طريقا موحشاً ، ويحتمل أن يصادف قُطَّاع طريق، نجده يستعد بحمل سلاح ؛ فهو يعطيه شيئاً من الاطمئنان فقط ، وهكذا الحال مع العدد والعدة.

أما النصر فهو من المدد الربَّانى من الحق سبحانه وتعالى. وما دام الله مع المتقين ، ولله معيّة مع المتقين فلا بد أن يمدهم بمدده ؛ لذلك جاء الحق هنا بقوله : ﴿ أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ لننتبه إلى أن الداخل فى الحق هو من سيسلك سلوكاً غليظاً مع الأعداء ، وقد يسلك بالغلظة طمعاً فى المغنم ، فيدخل على الكافر بالقسوة ، وقد يكون قلب هذا الكافر مستعداً للإيمان ، فيقول: أسلمت واستسلمت ، لكن من دخل عليه تعجبه مطية[٣] هذا الكافر ، ويعتبرها مغنماً .

---

(١) المفاوز : جمع مفازة ، وهى الصحراء المهلكة ، وسميت هكذا ؛ لأن من دخلها وخرج منها وقطعها فاز . قال ابن شميل : المفازة التى لا ماء فيها.

(٢) مقفرة : خالية من الكلأ والناس .

(٣) المطية : البعير أو الناقة يمتطى ظهرها أى : تركب . والجمع مطايا .

لذلك يأتى التحذير فى قول الحق سبحانه : ﴿ أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ فإن سلَّم لك و استسلم ؛ فاستأسره ، وإياك أن تؤذيه أو تأخذ معداته على أنها مغنم ، فأنت لم تذهب للقتال من أجل الغنائم ، أو لتكسب مكانة فى مجتمعك كمقاتل ، بل أنت تقاتل حين يكون القتال مطلوباً ، وتسلك بالخلق الإيمانى اللائق فى إطار أنك من المتقين لله ، وتحارب لتكون كلمة الله هى العليا [1] وهنا تكون معيه الله لك ﴿أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ .

إذن : فالغلظة لا تعنى أنها طبع أصبح فيك ، ولكن عدوك يجد فيك غلظة إن احتاج الأمر إلى غلظة . فإن لم يحتج الأمر إلى غلظة ؛ فلا بد أن يوجد فى طبعك اللين والموادعة .

ولذلك يقولون : الرجل كل الرجل هو من كانت له فى الحرب شجاعة ، وفى السلم وداعة ، وخيركم من كان فى الجيش كمياً وفى البيت صبياً ، فلا يصطحب غلظته مع العدو إلى البيت والزوجة والأبناء ؛ لأن ذلك وضع للطاقة فى غير مجالها .

هكذا نفهم قوله الحق :

﴿يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [التوبة]

أى : كونوا فى حربكم غلاظاً بما يناسب الموقف ؛ لأن الحرب تتطلب القسوة والشدة ، ولكن إياك أن تستعمل هذه الأمور لصالحك ، ولكن

---

(١) عن أبى موسى الأشعرى أن رجلاً أعرابياً أتى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله ، الرجل يقاتل للمغنم ، والرجل يقاتل ليذكر ، والرجل يقاتل ليرى مكانه ، فمن فى سبيل الله ؟ فقال رسول الله ﷺ : « من قاتل لتكون كلمة الله أعلى فهو فى سبيل الله » وفى رواية « هى العليا فهو فى سبيل الله ». أخرجه البخارى فى صحيحه (١٢٣) ، ومسلم (١٩٠٤) .

استعملها لله ؛ لتضمن أن تكون فى معية الله [١]

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾

قوله الحق :﴿ و إِذَا مَا أُنزِلَتْ ﴾ يعنى : إذا نزلت ، ونعلم أن هناك «نَزَل» و«أَنْزلَ» و«نَزَّل» فـ « أَنزَل» للتعدية ، فالقرآن نزل من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا . ثم نزّله الحق نجوماً [٢] . فالتنزيل معناه : موالاة النزول لأبعاض القرآن ، فالقرآن قد أنزل كله ، ثم بعد ذلك نزله الحق ، ونزل به جبريل - عليه السلام - على سيدنا محمد ﷺ .

وقد جمعت الآية تنزيل الحق للقرآن من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا ، ثم نزول جبريل - عليه السلام - بالقرآن على رسول الله ﷺ ، والحق سبحانه يقول :

﴿ وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ ... ﴿١٠٥﴾ ﴾ [الإسراء]

وفى آية أخرى يقول سبحانه :

﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ ﴾ [الشعراء]

---

(١) عن معاذ بن جبل عن رسول الله ﷺ أنه قال : « الغزو غزوان ، فأما من ابتغى وجه الله ، وأطاع الإمام ، وأنفق الكريمة ، وياسر الشريك ، واجتنب الفساد ، فإن نومه ونبهه أجر كله ، وأما من غزا فخراً ورياء وسمعة ، وعصى الإمام وأفسد فى الارض ، فإنه لم يرجع بالكفاف » أخرجه أحمد فى مسنده (٥/ ٢٣٤) وأبو داود فى سننه (٢٥١٢) والنسائى فى سننه (٦/ ٤٩) .

(٢) على حسب الحوادث .

وهنا يقول الحق : ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ والسورة هى الطائفة من القرآن المسورة بسور خاص ؛ أوله مثلاً : ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ وآخره تأتى بعده سورة أخرى تبدأ بقوله الحق : ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ومأخوذة من السور الذى يحدد المكان[1] . وهل المقصود بقوله الحق هنا نزول سورة كاملة من القرآن أم نزول بعض من القرآن ؟ إن المقصود هو نزول بعض من القرآن .

وتتابع الآية : ﴿فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا﴾ والمقصود بهذا المنافقون الذين رجعوا عن الإيمان . ونحن نعلم أن القرآن حق وأنه من عند الله ، وله أسر وفاعلية إشراقية فى صفاء النفس ، وقد سمعه الكفار من قبل ، وشهدوا له[2] ، أما المؤمنون فحين سمعوه فقد أسرهم .

وهذا الأمر بسبب الاستعداد لتلقيه ؛ لأن المسألة فى كل الأحداث ليست من الفاعل وحده ، ولكن من الفاعل والقابل للفعل - ولله المثل الأعلى - أنت تأتى بمطرقة مثلاً ، وتطرق قطعة حديد فترق وتزيد مساحتها ، أما إن طرقت بالمطرقة قطعة صلب أقوى من المطرقة ؛ فلن تؤثر فيها .

إذن : فالطرق شىء وقابلية الطرق شىء آخر ، وهكذا لا بد للفاعل من قابل ، والمطلوب من القابل للشىء أن يستقبله بغير خصومة له نابعة من قلبه . فإذا أراد أحد أن يسمع القرآن فعليه أن يخرج ما فى قلبه مما هو ضد

---

(١) فالسورة فى التعريف الاصطلاحى هى قرآن يشتمل على آى ذوات فاتحة وخاتمة ، وأقلها ثلاث آيات ، وكل سورة معجزة وآية من آيات الله تعالى ، ومنها سور طوال ومنها قصار ، ومع هذا فسورة مثل سورة الكوثر وهى ثلاث آيات لها نفس إعجاز سورة البقرة . انظر تفصيل هذا فى البرهان فى علوم القرآن للزركشى (١/ ٢٦٣ - ٢٦٥) .

(٢) من هؤلاء الوليد بن المغيرة الذى حاول معه الكفار أن يصف القرآن بأنه كهانة أو تخليط مجنون ، أو أنه شعر ، أو أنه قول ساحر . فقال : والله إن لقوله لحلاوة ، وإن أصله لعذق ، وإن فرعه لجناة ، وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عرف أنه باطل . سيرة النبى لابن هشام (١/ ٢٧٠) .

القرآن ، ويضع القرآن وضده خارج قلبه وليسمع هذا وهذا وما ينفذ إلى قلبه بعد هذا فليصدقه . لكن أن يستقبل القرآن بما فى قلبه من كراهية القرآن ؛ فلن يتأثر به ، مثلما قابل بعض المنافقين القرآن وقالوا: لم نتأثر به .

وسبب هذا أن هناك ما يسمى بالحيز ، وعدم التداخل فى الحيز ، فالقلب حيز لا يسع الشيء ونقيضه ، فلا تملأ قلبك ببغضك للدين ، ثم تقول : لقد سمعت القرآن ولم يؤثر فىَّ . هنا نقول لك : أخرج من قلبك ما يكون ضد القرآن ، واجعل القرآن أيضاً خارج قلبك ، ثم انظر فى الاثنين لترى ما الذى يستريح له قلبك ، لكن أن تكون مشحوناً ضد القرآن ثم تقول : إن القرآن لم يؤثر فيك ، فهذا يعنى أنك لم تنتبه إلى الفرق بين الفاعل والقابل ، ولم تنتبه إلى ما يسمى بالحيز ، ومدى قدرته على الاستيعاب .

فالزجاجة ذات الفوهة الضيقة لا تستقبل بداخلها الماء إن أغرقتها فيه ؛ لأن ضيق الفوهة لا يساعد الهواء الذى بداخلها على الخروج ، ولا يساعد الماء على الدخول ؛ لأن الماء لن يدخل إلا إذا خرج الهواء ؛ لذلك لا بد أن تكون فوهة الزجاجة واسعة تسمح بخروج الهواء ودخول الماء ، وعند ذلك سترى فقاقيع الهواء وهى تعلو الفوهة . وإذا كان الأمر كذلك فى الحسيات، فما بالك فى الأمور المعنوية وهى مثل الأمور الحسية .

إذن : فأخْرج ما يناقض الحق من قَلْبك ، واجعل الباطل والحق خارجاً ، ثم استَقبل الاثنين. لا يمكن لك فى مثل هذه الحالة إلا أن تستقبل[1] الحق . ويصف سبحانه المصرين على الكفر :

﴿ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ... ﴿٩٣﴾ ﴾ [التوبة]

(١) مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾ ﴾ [محمد] . فالقلب مغلق بغير الله ، وبغير كلامه فلم يتدبروا .

أى : أن ما هو خارج هذه القلوب لا يدخل إليها ، وما فى داخلها لايخرج منها .

إذن : ما دام الحق قد ختم على قلوبهم ؛ فلن تنفتح هذه القلوب للإيمان ، وستظل محتفظة بالكفر . فإذا كان من هؤلاء الكافرين أو المنافقين من يسمع القرآن ، ولا يأسره بيانه ؛ فذلك بسبب عجزهم عن النظر إلى ما فيه من معان وقيم [١] ؛ لأن الإنسان حينما يسمع القرآن ، وتكون نفسه صافية ليس فيها ما يشوش على ما فى القرآن من جاذبية وبيان يؤثر فيه وتطمئن إليه نفسه .

ولذلك حين قرأ عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - القرآن ، وكان من قبل ذلك شديداً على الإسلام ، ثم ذهب إلى أخته ؛ ليتحقق من أمر إسلامها ، وحين سال منها الدم رقت عاطفته لها ، ثم قرأ القرآن فاستقر فى قلبه [٢] .

إذن : لا بد أن تخرج ما فى ذهنك أولاً ؛ لتستقبل القرآن . فإذا ما أنزلت سورة يستقبلها المؤمن بصفاء [٣] . أما الكافرون والمنافقون ، فمنهم

---

(١) ومما يرويه ابن إسحاق من هذا فى السيرة النبوية أن بعض كفار قريش خرجوا ليلة ليستمعوا خفية إلى القرآن من رسول الله ﷺ وهو يصلى فى بيته ، وباتوا يستمعون له ، وكل منهم لا يعلم بالآخرين ، حتى إذا طلع الفجر انصرفوا فجمعهم الطريق فتلاوموا ثم تعاهدوا على عدم تكرار ذلك ، إلا أنهم عادوا للاستماع للقرآن عدة مرات . وسأل أحدهم (الأخنس بن شريق) أبا سفيان : أخبرنى يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد ؟ فقال : يا أبا ثعلبة والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها ، وسمعت أشياء ما عرفت معناها . ووجَّه الأخنس نفس السؤال لأبى جهل فرد عليه : ماذا سمعت ، تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف ، أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تحاذينا على الركب ، وكنا كفرسى رهان ، قالوا : منا نبى يأتيه الوحى من السماء ، فمتى ندرك مثل هذه ، والله لا نؤمن به أبداً . [انظر سيرة ابن هشام ١/ ٣١٥ - ٣١٦] .

(٢) قصة إسلام عمر بن الخطاب أوردها ابن هشام فى السيرة النبوية (١/ ٣٤٣ ، ٣٤٦) نقلاً عن ابن إسحاق .

(٣) وفى هذا يقول سبحانه : ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ ... (٢٣) ﴾ [الزمر] .

من يقول : ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا﴾ وتعطينا الآية معنى أننا أمام فريقين : واحد يقرأ ، والثانى يسمع . ونفهم من سياق الآية أن الذى يتساءل مثل هذا السؤال إنما يوجهه لفريقين : أحدهما من ضعاف الإيمان ، أو حديثى الإسلام ، أو المنافقين ، وهؤلاء هم الذين لم يُخْرِجوا الكفر أو بعضه من قلوبهم ، وقابلية بعضهم لاستقبال الإيمان لم تتأكد بعد ، ومنهم من قال فيهم الحق :

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا ...(١٦)﴾ [محمد]

ويقول :

﴿وَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ[1] وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ..(٤٤)﴾ [فصلت]

إذن : الفاعل شىء ، والقابل شىء آخر . هم سمعوا القرآن بدليل أن الحق يقول : ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ وسياق الآية يوحى لنا أن هناك همساً من بعضهم : ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا﴾ وهذا الهمس يأتى بلهجة المستهزىء ، وقائل الهمس يعنى أن سماعه للقرآن لم يزد شيئاً عنده ، ولم ينقص، وهو يهمس لمنافق مثله ،أو لضعيف الإيمان ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا﴾ فيرد الله على القضية النفسية ، ويعلمنا أنه سبحانه قد قسم الناس قسمين : قسم كافر أو منافق ، وهذا القسم يزيده القرآن كفراً[2] ، أما القسم المؤمن ؛ فاستقباله للقرآن يزيد من إيمانه[3] .

---

(١) وَقْر : ثقل فى السمع ، وقيل : هو الصمم .
(٢) وذلك فى قوله تعالى الآتى بعد : ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ (١٢٥)﴾ [التوبة] .
(٣) مصداقاً لقوله تعالى : ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢)﴾ [الأنفال] .

إذن : الفاعل شيء والقابل مختلف . ووقف العلماء أمام هذه الآية موقفاً فيه اختلاف بينهم ﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا﴾ فقال بعضهم : إن الإيمان ينقص و يزيد ، وقال بعضهم : إن الإيمان لا ينقص ولا يزيد ، وقامت معركة بين علماء الكلام ، ولا تتسرب معركة بين عقلاء إلا إذا كانت جهة الفهم فى الأمر الذى يختلفون فيه منفكة ، فمنهم من يذهب فكره إلى ناحية ، ومنهم من يتجه فكره إلى ناحية أخرى [1] .

فالذين قالوا : إن الإيمان لا يزيد ولا ينقص ، فلحظة أن يتألق الإيمان فى القلب ؛ يستقر فيه ، وهو الإيمان بالله، و أن لا إله إلا الله ولا معبود سواه ، وأن محمداً رسوله المبلغ عنه ؛ هذا الإيمان لا يزيد ولا ينقص . والمثال : هو قول الإمام على كرم الله وجهه : لو انكشف عنى الحجاب ما ازددت يقيناً .

أما العلماء الذين قالوا بأن الإيمان يزيد أو ينقص ، فقد قصدوا بذلك تطبيق مستلزمات الإيمان من الآيات ، فكل آية تحتاج ممن يصدقها أن يكون مؤمناً بالله أولاً ، ثم ينفذ متطلبات الآية .

وكل المسلمين مؤمنون بالله ، ولكن فى جزئيات التطبيق نجد من يطبق عشرين جزئية وآخر يطبق ثلاثين ، أما أصل الإيمان الذى استقبل به الإنسان التكليف وهو التوحيد ، فلا يزيد أو ينقص . وهؤلاء المنافقون عندما قالوا : ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا﴾ هل تداولوا ذلك سراً أم قالوه علناً ؟ لا بد أنهم قالوا ذلك سراً وفضحهم الحق سبحانه ، وكان يكفى أن يعلموا أن الله

---

(١) الذين قالوا بأن الإيمان لا يزيد ولا ينقص نظروا إلى مسمى الإيمان اللغوى أى التصديق والإقرار ، وهذا لا يحتمل نقصاناً . أما الآخرون فقد نظروا إلى أن الإيمان : تصديق بالقلب ، وقول باللسان ، وعمل بالجوارح . فالعمل بالجوارح يزيد وينمى معانى الإيمان فى قلب العبد إن كانت فى طاعة ، أما إن كانت فى معصية فهى تنقصه بمعنى أنها تخدش ثباته فى القلب . انظر فى تفصيل هذا كتب علم الكلام والعقائد .

يخبر رسوله ﷺ بكل ما يكتمونه ، ولكنهم احترفوا اللجاجة [(١)] ؛ لذلك قالوا : ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا﴾ .

ويرد الحق سبحانه :

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ و" يستبشر" أى : يملأ السرور بشرته ، فترى البريق ، والفرحة ، والانبساط . وكلها من علامات الاستبشار ، ومن يستبشر بآية من آيات الحق فهو الذى يفهم من الآية شيئاً جديداً ؛ يدخل على نفسه السرور ؛ ولذلك فهو يرتاح لنزول تكليفات إيمانية جديدة ، ليعظم ويزداد ثوابه ، وهو غير ذلك الذى يكره أن ينزل حكم جديد من الله .

هذا هو معنى "يستبشر" .

أما الآخرون فيقول الحق سبحانه عنهم :

﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٥﴾ ﴾

والرجس [(٢)] : هو الشىء المستقذر ، وتكون القذارة حسية ، ومرة تكون معنوية . فالميتة مثلاً قذارتها حسية ؛ لأنها ماتت ودمها فيها ، والدم - كما نعلم - له مجريان ؛ مجرى للدم قبل أن يكرر ، ومجرى آخر للدم بعد أن يكرر ، والدم قبل أن يكرر يمر على الرئة والكلى فتنقيه الرئة والكلى من

---

(١) اللجاجة : الجدال والمراء بغير حق . لسان العرب مادة (ل ج ج)

(٢) الرجس : القذر والنَّتَن حسياً ومعنوياً ، ويطلق على ما يستقبح فى الشرع ، والرجس والرجز معناهما واحد ، ويطلق الرجس والرجز على العذاب قال تعالى : ﴿ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ﴿٧١﴾ ﴾ [الأعراف] وقوله : ﴿ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [التوبة] يعنى : قذارة معنوية ونفسية وقوله : ﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ ﴿١٣٤﴾ ﴾ [الأعراف] أى : العذاب .

الأشياء الضارة التى تصل إليه نتيجة تفاعلات أعضاء الجسم المختلفة . وبعد أن تتم تنقيته عن طريق الرئتين والكلى يصير دماً صالحاً .

فإذا مات الحيوان بقى فيه دمه الصالح ودمه الفاسد ؛ لذلك نحن نذبح الحيوان قبل أن نأكله ، ونضحى بدمه الصالح مع الفاسد ؛ حتى لا يصيبنا الدم الفاسد بالأمراض ؛ ولذلك تعتبر الميتة رجساً . والخمر أيضاً نجاسة حسية ورجس . وهناك رجس معنوى ، ولذلك قال الحق :

﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ [1] رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ ... (٩٠) ﴾ [المائدة]

إذن : فهناك رجس حسى ، ورجس معنوى ، ويطلق الرجس على الكفر أيضاً ، ومرة يطلق الرجس على همسات الشيطان ووسوسته .

وفى ذلك يقول الحق :

﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ .. (١١) ﴾ [الأنفال]

وهنا يقول الحق : ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ ولأنهم يكفرون بالله وبآياته ؛ فهذا يزيدهم رجساً على رجسهم ويصبح كفرهم مركَّباً ، وهكذا نجد البشارة للمؤمنين ، أما الكافرون فلهم النذارة ؛ لأن كفرهم يزيد ، ويموتون على ذلك الكفر .

ويقول سبحانه بعد ذلك :

---

(١) الأنصاب : كل ما عُبِدَ من دون الله من الأصنام والأوثان التى كان الكفار ينصبونها حول الكعبة لعبادتها والذبح عندها . أما الأزلام : فهى سهام لا ريش لها ، مكتوب على بعضها "افعل" والبعض الآخر "لا تفعل" فإذا أراد رجلٌ السفر أو النكاح أتى سادن الكعبة فقال : أخْرِجْ لى زلماً ، فإن خرج بـ "افعل" فعل ، وإن كانت "لا تفعل" لم يفعل . انظر : لسان العرب مادة (ن صَ ب) .

﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾

وقوله الحق : ﴿ أَوَلاَ يروْنَ﴾ أى : ألا يستشهد المنافقون تاريخهم مع الإسلام ، ويعلمون أنهم يفتنون فى كل عام مرة بالمصائب ومرة بالفضيحة ، فنجد رسول الله حين يراهم يخرج بعضهم من بين الصفوف ويقول لهم : « اخرج يا فلان فإنك منافق »[1] . ثم بعد شهور يتكرر الموقف ، وهنا يذكرهم الحق سبحانه بأن رسول الله ﷺ يصفيهم كل عام مرة أو مرتين .

الأصل فى الفتنة أنها امتحان واختبار ، وهى ليست مذمومة فى ذاتها ، لكنها تذم بالنتيجة التى تأتى منها ، فالامتحان - أى امتحان - غير مذموم ، لكن المذموم هو أن يرسب الإنسان فى الامتحان . إذن : الابتلاء أو الفتنة[2] فى ذاتها ليست مذمومة ، إنما المذموم أن تأتى النتيجة على غير ما تشتهى ، وهم يفتنون حين يرون انتصار المسلمين رغم نفاقهم وكيدهم للمسلمين ،وكان يجب أن يعلموا أنهم لن يستطيعوا عرقلة سير الإسلام ؛ لأنه منتصر بالله . وكان يجب أن يعتبروا ويتوبوا لينالوا خير الإسلام ،

---

(١) عن أبى مسعود الأنصارى قال : خطبنا رسول الله ﷺ خطبة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : " إن فيكم منافقين ، فمن سميت فليقم . ثم قال : قم يا فلان ، قم يا فلان ، قم يا فلان . حتى سمى ستة وثلاثين رجلاً . . . " . أخرجه أحمد فى مسنده (٥/ ٢٧٣) والبيهقى فى دلائل النبوة (٦/ ٢٨٦) . قال الهيثمى فى المجمع (١/ ١١٢) : " فيه عياض بن عياض عن أبيه ولم أر من ترجمهما " .

(٢) لكلمة الفتنة معان كثيرة فى اللغة ، تدور كلها حول الاختبار والإيقاع فى امتحان بعد امتحان ليميز الطيب من الخبيث ، وأصلها مأخوذ من فتنة الفضة والذهب أى : إذا أذبتهما بالنار لتعرف الردئ من الجيد ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ﴿٣٥﴾﴾ [الأنبياء] .

فخيره ممدود رغم أنوفهم ، والخسارة لن تكون على الإسلام ، وإنما الخسارة على من يكفر به .

ونحن نعلم أن الإسلام بدأ بين الضعفاء إلى أن سار الأقوياء إليه ، وتلك سنة الله فى الكون ، بل إننا نجد أن النبى ﷺ فى بدء الرسالة كان مطلوباً منه أن يؤمن بأنه رسول . وكما تقول أنت : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله ، كان على النبى ﷺ أيضاً أن يقول : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله . وسبحانه جل شأنه ، الخالق الأكرم ، آمن بنفسه أولاً ، بدليل قوله سبحانه :

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ... (١٨) ﴾ [آل عمران]

فأول شاهد بالألوهية الحقة هو الله ، وقد شهد لنفسه ، ومعنى ذكر شهادته لنفسه لنا أن نؤمن بأنه سبحانه يزاول قيوميته وطلاقة قدرته بكلمة "كن" وهو عالم أن مخلوقاته تستجيب قطعاً ، وكان لا بد أن يعلمنا أنه آمن أولاً بأنه الأول ، وأنه الإله الحق ، بحيث إذا أمر أى كائن أمراً تسخيرياً فلا بد أن يحدث هذا الأمر ، وسبحانه لا يتهيب أن يأمر ؛ لذلك قال لنا : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ﴾ شهادة الذات للذات ، وشهدت الملائكة شهادة المشهد وشهد أولو العلم شهادة الاستدلال ، وحين يشهد محمد ﷺ أنه رسول الله فهو يؤمن بأنه رسول ، ولو لم يؤمن برسالته لتهيب أن يبلغنا بالرسالة ، وبعد أن آمن ﷺ أنه رسول من الله جاءه التكليف من الحق :

﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ (٢١٤) ﴾ [الشعراء]

وظل رسول الله ﷺ يدعو إلى الإسلام ، ويبلغ آيات الحق إلى أن جاءت آيات الدفاع عن دين الله ، وقال الحق :

إذن : فى البداية كان لا بد أن يؤمن أنه رسول ، وأن يبلغ الدعوة إلى قريش وسائر الجزيرة ، وتعبر دعوته بعد ذلك من الجزيرة إلى الشام ، وتتعدى الرسالة الشام بالإعلام وإن لم تتعد بالفعل ؛ حتى يأتى أتباعه من الصحابة وينساحوا بالإسلام فى كل بقاع الأرض ، ولذلك كانت الرمزية فى إرسال الكتب : كتاب لفلان وكتاب لفلان وكتاب لفلان [1] ؛ ليفهم العالم أن دعوة النبى ﷺ بالإيمان والإسلام دعوة متعدية ؛ لأنها خالفت دعوات الرسل عليهم السلام ، فقد كان كل رسول إنما يعلم أن حدود دعوته هى أمته [2].

أما محمد ﷺ فقد كانت لرسالته مراحل : آمن بذاته أولاً ، ثم دعا الأقربين ، ثم من بعد ذلك قريش ، ثم أبلغ العرب ، ثم الشام ، وتعدت الدعوة بالكتب إلى جميع الملوك فى العالم ، وصارت أمة محمد ﷺ مؤتمنة على حمل الدعوة ونشرها فى أى مكان ومعها حجتها وهى القرآن.

وشاء الله أن يختم رسول الله الرسالات ، وأرسله بالإسلام الذى يغلب الحضارات ، رغم أنه ﷺ من أمة أمية لا تعرف شيئاً [3] ؛ حتى لا يقال عن

---

(١) بعث رسول الله ﷺ كتباً إلى ملوك الأرض من حول أرض الحجاز كقيصر الروم وكسرى فارس ومقوقس مصر وغيرهم ، يدعوهم إلى الإسلام مع جماعة من أصحابه ، ووجه كلاً منهم إلى وجهة ، وقال لهم : "إن الله بعثنى رحمة وكافة ، فأدوا عنى يرحمكم الله" أورده ابن هشام فى السيرة النبوية (٤/٦٠٧) عن ابن إسحاق.

(٢) وهذا مما خُص به رسول الله ﷺ ، فعن جابر بن عبد الله الأنصارى قال قال رسول الله ﷺ : "أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلى . كان كل نبى يبعث إلى قومه خاصة ، وبعثت إلى كل أحمر وأسود وأحلّت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى ، وجعلت لى الأرض طيبة طهوراً ومسجداً فأيما رجل أدركته الصلاة صلّى حيث كان ، ونُصرت بالرعب بين يدى مسيرة شهر وأُعطيت الشفاعة" . متفق عليه ، أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٣٥) ومسلم (٥٢١).

(٣) قال رب العزة فى هذا : ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢)﴾ [الجمعة].

الإسلام أنه مجرد وثبة حضارية ، وجاء لهم منهج غلب الحضارات المعاصرة له : فارس والروم فى وقت واحد .

إذن : فالمسألة كانت مسألة قبيلة ، يحكمهم واحد منهم هكذا ، دون تمرس بالنظم الاجتماعية ، ولم يعرفوا شيئاً قبل الإسلام ، بل هم أمة متبدية [(١)] لا شأن لها بالنظم السياسية أو الاقتصادية ، وطن الواحد منهم جمله وخيمته وبضعة أدوات تعينه على الحياة ، وتستقر كل جماعة فى أى مكان يظهر به العشب ويوجد به الماء ، وبعد أن تأكل الأغنام والأنعام العشب ، ينتقل العربى مع جماعته إلى مكان آخر ، بعد أن ينظر الواحد منهم إلى السماء ؛ ليعرف مسار الغمام وأين ستمطر السحب ، ثم ينساح هؤلاء بالدعوة بعد ذلك ، فلو كان لهم انتماء إلى وطن أو بيت أو مكان لصار الرحيل صعباً عليهم ، لكنهم كانوا متمرسين بالسياحة فى الأرض .

والآية التى نحن بصددها تكشف ضعف إيمان البعض ، ونفاق البعض ، فيقول الحق : ﴿ أَوَلاَ يرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لاَ يَتُوبُونَ وَلاَ هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ أى : كان لا بد أن يتوبوا أو يتعظوا ويعلموا أن وقوفهم ضد الإسلام لم ولن يحجب الإسلام وأنهم سينسحقون ويضيعون ، فلماذا لا يتذكر كل منهم نفسه ، ويرى مصلحته فى الإيمان .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾

(١) تبدَّى الرجل : أقام بالبادية . وقيل للبادية بادية لظهورها وبروزها . انظر : اللسان (ب د و).

ومن قبل جاء قول الحق :

﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا ...(١٢٤)﴾ [التوبة]

أى : أن هؤلاء المنافقين يشعرون بالضيق والحصار ، ويخافون أن يتكلموا ؛ لأنهم موجودون مع المسلمين ، ولكنهم لا يعدمون وسيلة للتعبير عن كفرهم ، فيغمز الواحد منهم بعينه ، أو يشير إشارة بيده ، فإذا ما كانوا قد تساءلوا من قبل بـ﴿ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا ﴾ فقد كان هذا السؤال يتعلق بالتكاليف ، أما فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها فليس فيها تكاليف جديدة .

لقد كانوا يريدون أن يقولوا شيئاً ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يتكلموا بأفواههم ، فتكلموا بأعينهم ونظراتهم ، فكأن النظر نفسه كان فيه هذه الكلمة : ﴿ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ﴾، وهذا قد تراه من واحد يسمع خطبة الخطيب ، ولكنه يرى بها أشياء لا تعجبه ، فتجده يعبر بانفعالات وجهه عن عدم رضاه .

إذن : فهناك نظر ، وهناك كلام ، وهم قد تساءلوا : هل يراكم من أحد ؟ ومثلها مثل قولك : ما عندى من مال ؟ أى أنك لا تملك بداية ما يقال عنه مال، والقول الكريم أبلغ بالقطع من أن تقول: هل يراكم أحد.

إن قوله الحق :﴿ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ﴾ دليل على أنهم فى خوف من أن يضبطهم أحد ، ومن بعد ذلك تجدهم يتسللون خارج دائرة الاستماع للقرآن أو للرسول ؛ لأنهم لا يطيقون الاستمرار فى الاستماع ؛ لأن منطق الحق يلجم الباطل ، والواحد منهم غير قادر على أن يؤمن بالحق وغير قادر على إعلان الكفر ؛ فينسحبون ، وينصرف كل واحد منهم ؛لذلك نجد أن بعضهم قد قال من قبل :

﴿لاَ تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرآنِ وَالْغَوْا فِيهِ [١] .. ﴿٢٦﴾﴾ [فصلت]

وقد قالوا ذلك لأن الكافر أو المنافق قد تأتيه لحظة غفلة عن الباطل ، فيتسلل الإيمان إلى قلبه ، كما أن المؤمن قد تأتيه لحظة غفلة عن الحق ، لكنه يستغفر الله عنها .

وإذا ما أتت للمنافق أو الكافر لحظة غفلة عن كفره أو نفاقه ؛ فتأتيه هجمة الإيمان فيخافها ، فيقول لمن هم مثله : من الأفضل أن نقول لمن معنا لا تسمعوا هذا القرآن . لماذا ؟ حتى لا يصادف فترة غفلة عن النفاق ، فإذا صادف فترة غفلة عن النفاق فمن الممكن أن يدخل الإيمان القلب . ولذلك قالوا : ﴿لاَ تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرآنِ﴾ ، ولم يقتصر الأمر على ذلك ، بل طلبوا من الأتباع أن يلغوا فيه ، أى : أن يشوشوا عليه :

﴿وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [فصلت]

إذن : لا غلبة لهم مطلقاً إلا بعدم الاستماع إلى القرآن ، أو أن يشوشوا عند سماع القرآن ؛ حتى لا ينفذ القرآن إلى القلوب [٢] .

وهنا يقول الحق سبحانه عن هؤلاء المنافقين :

﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ كانوا يقولون ذلك ؛ لأنهم كمنافقين سبق لهم إعلان الإسلام ، وكانوا يدعون أنهم متقدمون فى تطبيق أحكام الإيمان ، وكانوا يصرون على الوقوف أثناء الصلاة فى الصف الأول ؛ حتى يدفعوا عن أنفسهم تهمة النفاق ، وكما

(١) الغوا فيه : الغطوا فيه ، أى : تكلّموا بصوت عال ، بكلام مبهم مختلط وجلبة وضجة ، حتى لا يفهم منه أحد شيئاً ، وتبقى قلوب أتباعهم فى غطاء عن قبول هدى الله .

(٢) وقد كان هذا دأب المشركين والكفار مع كل وحى يأتى من السماء ، مثل قوم نوح الذين قال عنهم : ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾﴾ [نوح] .

يقول المثل : يكاد المريب أن يقول خذونى . وينظر بعضهم إلى بعض متسائلين : ﴿ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا﴾ لأنهم لا يطيقون الجلوس إلى الرسول ﷺ أو إلى المؤمنين . وينهى الحق الآية :

﴿ صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ﴾ وذلك نتيجة لانصرافهم نفسيّاً إلى النفاق ؛ فيساعدهم سبحانه على ذلك ، فما داموا لا يعرفون قيمة الإيمان ؛ فليذهبوا بعيداً عنه ، فالحق لم يصرفهم إلا باختيارهم ، حتى لا يقول أحد : إن الله هو مصرف القلوب ، فما ذنبهم ؟ لا ، لقد انصرفوا هم بما خلقه الله فيهم من اختيار ، فصرف الله قلوبهم ، لماذا ؟ لأنهم﴿ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ﴾ أى : لا يفهمون [(١)] .

والفهم أول مرحلة من مراحل الذات الإنسانية ، وهناك فرق بين الفهم والعلم . فالفهم يعنى أنك تملك القدرة على تَفَهُّم ذاتية الأشياء بملكة فيك ، لكن العلم يعنى أنك قد لا تفهم أنت بذاتك ، وإنما يفهم غيرك ويعلمك . فأنت قد تعلم جزئية لا من عندك وإنما من معلم لك . ولكن قد يقول قائل : ما داموا لا يفقهون فما ذنبهم ؟ ونقول : الذى لا يفهم عليه أن يتقبل التعليم ، لكن هؤلاء لم يفهموا ولم يتعلَّموا ، وأصروا على عدم قبول العلم .

وبعد ذلك يأتى ختام سورة التوبة .

والسورة بدأت بالقطيعة :

﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ①﴾ [التوبة]

---

(١) وهذا مثل قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ⑤﴾ [الصف] عن قوم موسى .

ووردت لنا أحوال الكفار والمنافقين وتكاليف الجهاد الشاقة ، وأراد الحق أن يختم السورة بما يبرر هذه المشقات المتقدمة ، فبيَّن لنا : إياكم أن تنفضُّوا عن الرسول أو تغضبوه ؛ لأنه وإن جاء لكم ببلاغ فيه أمور شاقة عليكم فخذوا هذه الأمور الشاقة على أنها من حبيب لكم ، لا من عدو لكم .

إنك مثلاً إن رأيت عدوّا ضرب ابنك وجرحه ، يكون وقع هذا الأمر شديداً عليك ؛ لأنه عدو . لكنك إذا أخذت ابنك للطبيب وقرر الطبيب إجراء جراحة للابن ، فأنت تقبل ذلك ؛ لتزيل عن ابنك خطراً . إذن : فهناك فارق بين جرح عدوك لابنك وجرح الطبيب له رغم أن الإيلام قد يكون واحداً .

إذن : لا ترفض الأمور الشاقة عليك لمجرد ورود المشاق عليك ، ولكن اعرف أولاً من الذى أجرى المشاق عليك ، فإن كان ربك ، فربك بك رحيم . وإن كان الرسول فخذ أوامر الرسول وطبقها ؛ لأنها من حبيب يريد لك الخير .

وهنا يقول الحق :

﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾

ونلحظ هنا أن الحق قد نسب المجىء هنا للرسول ﷺ ، ولم يقل : جئتكم برسول . وكلنا يعلم أن الرسول ﷺ لم يأت من عند نفسه ، ولم يدع هذا الأمر الجليل لنفسه ، ولكن الشحنة الإيمانية تفيد أنه خلق بما

يؤهله للرسالة [١] ، وبمجرد أن نزل عليه الوحى امتلك اندفاعاً ذاتيّاً لأداء الرسالة ، ولم يحتج لمن يدفعه لأداء الرسالة ؛ لذلك أراد الحق سبحانه أن يثبت للرسول ﷺ المجىء ذاتيّاً ، ولكن هذا المجىء الذاتى ليس من عند محمد ﷺ فى البداية ، بل هو رسول من عند الله ، فأتى الحق سبحانه هنا بكلمة "جاء" .

وكلمة ﴿ رَسُولٌ ﴾ تدل على أنه ليس من عنده ، وكلمة "جاء" تدل على أن الشحنة الإيمانية جعلت لذاته عملاً ، فهو ﷺ يعشق الجهاد من أجل الرسالة ، ويعشق الكفاح من أجل تحقيق هذه الرسالة .

إذن : لا تنظروا إلى ما جاءكم به الرسول ﷺ نظرتكم إلى الأمور الشاقة التى تتعبكم ، ولكن انظروا ممن جاءت ، إن كانت من الأصل الأصيل فى إرسال الرسل ، فالرب رحيم ، خلقكم من عدم وأمدكم من عدم ، ويوالى نعمه عليكم حتى وأنتم فى معصيته . فأنت تعصاه ويحب الله سبحانه من يستر عليك [٢] ، فلا تشكك ولا تتشكك . وعليك أن تأخذ التكاليف على أنها من حبيب فلا تقل : إنها مشقة . فأنت - ولله المثل الأعلى - تطلب من ابنك أن يستذكر دروسه ، وتراجعها معه قهراً عنه فى بعض الأحيان ، وأنت قد تمسك بيدى ابنك ليعطيه الطبيب حقنة من الدواء الذى جعله الله سبباً للشفاء .

---

(١) لأن فطرته هى الخلق العظيم وتأدب بأدب ربه وعاش منفعلاً بالإيمان سمواً ، وبالفعل تفكيراً فى الله ، وبالنفس سكينة إليه وبالجسد حركة له ، وبالقلب توحيداً وحباً ، فكان المجىء ذاتياً بمعية الله . يقول الحق : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ [القلم] .

(٢) وهذا حق من حقوق المسلم على أخيه المسلم ، وهو أمر يحبه الله من عبده . عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ولا يسلمه ، ومن كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته ، ومن فرج عن مسلم كربة فرّج الله عنه كربة من كربات القيامة ، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة » متفق عليه . أخرجه البخارى (٢٤٤٢) ومسلم (٢٥٨٠) . ويجب أن نفهم هنا أن الستر المقصود هنا ليس السكوت عن فجور من هو مقيم على معصية ، بل هو ستر معصية وقعت من إنسان وانقضت .

إذن : فلا تأخذ الأحوال بوارداتها عليك ، ولكن خذها بوارداتها ممن قدرها وقضاها ؛ وهو الحق سبحانه وتعالى .

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ أى : أن الحق سبحانه لم يأت بإنسان غريب عنكم ، بل جاء بواحد منكم قادر على التفاهم معكم . ولقوله الحق : ﴿ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ معان متعددة ، فمرة يكون معناها بـ "من جنسكم" ، مثلما قال الحق عن حواء :

﴿ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ... ﴿١﴾ ﴾ [النساء]

أى : خلق حواء من نفس جنس آدم البشرى ، فلا يقولن أحد : كيف بعث الله لنا بشراً رسولاً ؟ لأن الحق أراد الرسول من البشر رحمة بالناس ؛ ولذلك يؤكد ﷺ على بشريته أكثر من مرة وفى مواقع كثيرة [(١)] . والقرآن يقول :

﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ ﴾ [الإسراء]

إذن : فبشرية رسول الله ﷺ لا تؤخذ على الله ، ولكن تؤخذ لله ؛ لأنه أرسل واحداً من نفس الجنس ؛ ليكون قادراً على أن يتفاهم مع البشر ، وتكون الأسوة به سهلة . ولذلك قال سبحانه :

---

(١) يقول عز وجل : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ... ﴿٦﴾ ﴾ [فصلت] . وقد أكد الرسول ﷺ على هذا المعنى كثيراً جداً ، منها :

- فعن أم سلمة عن رسول الله ﷺ « أنه سمع خصومة بباب حجرته ، فخرج إليهم فقال : إنما أنا بشر ، وإنه يأتينى الخصم ، فلعل بعضكم أن يكون أبلغ من بعض ، فأحسب أنه صدق فأقضى له بذلك ، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هى قطعة من النار ، فليأخذها أو ليتركها » أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٤٥٨) ومسلم (١٧١٣) .

- وعن جابر بن عبد الله قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إنما أنا بشر ، وإنى اشترطت على ربى عز وجل ، أى عبد من المسلمين سببته أو شتمته ، أن يكون ذلك له زكاة وأجراً » أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٦٠٢) وأحمد فى مسنده (٣ / ٣٩١ ، ٤٠٠) .

﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولاً ﴿٩٥﴾﴾ [الإسراء]

وقوله الحق : ﴿ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أى : من جنس العرب ، ولم يأت به من الروم أو من فارس ، لكن اختار لكم من هو أعلم بطبائعكم . أو أن معنى ﴿ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أى : من نفس القبيلة التى تنتمون إليها معشر قريش .

أو أن ﴿ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ تعنى : أنكم تعلمون تاريخه ، وتعرفون أنه أهل لتحمل أمانة السماء للأرض ، كما تحمل أماناتكم من الأرض للأرض ؛ ولأن هذا هو سلوكه ، فهو قادر على أن يتحمل أمانة السماء للأرض . ولقد سميتموه الصادق الأمين ، والوفى ، وكلها مقدمات كانت توحى بضرورة الإيمان به كرسول من عند الله . وإن كانت سلسلة أعماله معكم تثير فخركم ، فمجيئه كرسول إنما يرفع من ذكركم ، ويعلى من شأنكم . فأنتم أهل قريش ومكة ولكم السيادة فى البيت الحرام ، وقد جاء محمد ﷺ ؛ ليزيد من رقعة السيادة لكم ، فإذا كنتم قبل بعثته ﷺ سادة البيت ، فأنتم بعد بعثته سوف تصيرون سادة العالم .

ويقول الحق سبحانه :

﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الزخرف]

فهو نبى للعالم أجمع ومن العرب ومن قريش ، وكان يجب أن يفرحوا برسالته وأن يؤيدوها ، لكن الله لم يشأ ذلك ؛ لأن قريشاً قبيلة قد ألفت السيادة على العرب ، وهذا جعل العرب يعملون لها حساباً ، وخافت منها كل قبائل العرب فى أنحاء الجزيرة العربية ، وكانت لها مهابة هائلة ؛ لأن كل العرب مضطرون للحج إلى الكعبة ، وأثناء الحج تكون القبائل كلها فى

أرض قريش ؛ لذلك كانت كل القبائل ترعى قوافل قريش ، ولا تتعرض أى قبيلة لقريش أبداً ، فقوافلها تروح وتغدو ، جنوباً وشمالاً ، ولا تقدر قبيلة أن تقف فى مواجهة قريش ، أو أن تتعرض لها .

وكل هذه المكانة وتلك المهابة أخذتها قريش من خدمتها لبيت الله الحرام ؛ ولذلك شاء الحق ألا يمكن أبرهة من هدم البيت لتظل السيادة لقريش ، فلو انهدم البيت الحرام وانصرف الحج إلى اليمن كما كان يريد أبرهة ، فمن أين تأتى السيادة لقريش ؟ لذلك قال الحق عن أبرهة وقومه :

﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ (٥) ﴾[1] [الفيل]

وأتبعها بقوله :

﴿ لإِيلافِ قُرَيْشٍ (١) إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢) ﴾ [قريش]

وما دام الحق سبحانه قد شاء هذا فيأتى أمره فى الآية التالية :

﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِى أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ (٤) ﴾ [قريش]

وشاء الحق سبحانه أن يبعث بمحمد ﷺ رسولاً يدعو أولاً الصناديد ، والقبيلة ذات المهابة والمكانة ، وأن تكون الصيحة الإيمانية فى آذان سادة الجزيرة الذين تهابهم كل القبائل ، حتى لا يقال : إن محمداً قد استضعف قلة من الناس وأعلن دعوته بينهم ، لا ، بل جاءت دعوته فى آذان الصناديد ، والسادة ، وسفه أحلامهم ، وحين رفضوا دعوته هاجر ، ثم جاءه الإذن بقتالهم ، ولم تأت نصرة الإسلام من السادة ، بل آمن به الضعاف أولاً ، ثم هاجر إلى المدينة ؛ لتأتى منها النصرة .

(١) كعصف مأكول : له معنيان : أحدهما : أنه جعل أصحاب الفيل كورق أخذ ما فيه من الحَبِّ وبقى هو لا حَبّ فيه . والآخر : أنه أراد أنه جعلهم كورق النبات الذى أكلته البهائم ثم راثته . وكلاهما فى لسان العرب (مادة : ع ص ف) .

فلو أن النصرة جاءت من السادة لقالوا : جاءت نصرة الإسلام من قوم ألفوا السيادة ، ولما ظهر واحد منهم يقول : إنه رسول ؛ أرادوا أن يسودوا به ، لا الجزيرة العربية ، بل الدنيا كلها ، فتكون العصبية لمحمد هى التى خلقت الإيمان بمحمد ، والله يريد أن تكون النصرة من الضعيف ؛ حتى يفهم الجميع أن الإيمان بمحمد ﷺ هو السبب فى العصبية لمحمد .

هكذا نفهم معنى : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ ﴾ أى : مرسل من الله و﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ بكل ما تعنيه مراحل النفس ، وهو مبلغ عن الله ، فلم يأت بشىء من عنده ، بل كل البلاغ الذى جاء به من ربه ، والرب بإقراركم هو الذى خلق لكم ما تنتفعون به من السموات والأرض . وسبحانه يقول :

﴿ولَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ..(٨٧)﴾ [الزخرف]

ويقول :

﴿ولَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. (٢٥)﴾ [لقمان]

إذن : فالمخلوق هو الخليفة الإنسان ، وما خلقه الله فى الكون ، إنما خلقه لخدمتكم كلكم ، وأنتم تقرون ذلك ، فإذا كان الرب قد سبق لكم بهذه النعم ، وجاء الرسول الذى جاء لكم من عنده بما يسعدكم ، وقد استقبلتم خيره قبل أن يأتى لكم بالتكاليف ، واستقبلتم نعمته قبل أن تكونوا مخاطبين له ، إذن : فالله الذى أرسل رسوله بالتكاليف والمنهج لكم ، لا بد أن يكون قد كلف من هو مؤتمن عليكم ، وهو ﷺ لم يأت من جنس الملائكة ، بل هو بشر مثلكم ، فإذا قال لكم : افعلوا كذا وكذا وأنا أسوة لكم فى الفعل ، فلا تتعجبوا ، لكن غباء الكافرين بالله جعلهم يريدون أن يكون الرسول ملكاً ، فقال الحق :

﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلاَّ أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولاً (٩٤) قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولاً (٩٥)﴾ [الإسراء]

أى : إن كنتم تريدون مَلَكاً ، فالملك له صورة لا ترونها ، ولا بد أن نجعله ملكاً فى صورة بشر ؛ ليخاطبكم ، إذن : فهل المشكلة مشكلة هيئة وشكل ؟ ثم إن الملائكة بحكم الخلق :

﴿لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦)﴾ [التحريم]

فإذا قال لكم الرسول الملك : أنا أسوة لكم فى العمل الصالح ، أكانت تصح الأسوة ؟ من المؤكد أن بعضنا سيقول : لا ، لن تنفع الأسوة ؛ لأنك مَلَك مطبوع على الخير ، وليس لك شهوة بطن ، ولا شهوة فرج ، إذن : فأسوتنا بك لا تصلح .

إذن : فمن رحمته سبحانه بكم أن جعل لكم رسولاً من أنفسكم ، ومن قبيلتكم ، ومن العرب ، لا من فارس أوالروم ، وهو يخاطبكم بلغتكم ؛ لأنكم أنتم أول آذان تستقبل الدعوة ؛ فلا بد أن يأتى الرسول بلسانكم ، وجاءكم محمد ﷺ بالأنس والألفة ؛ لأنه من قريش التى لها بطون فى كل الجزيرة ولها قرابات ، وأنس وألفة بكل العرب ، وأنس ثالث أنه من البشر ، وجاء به الحق سبحانه فرداً من الأفراد ، محكوم له بالصدق والأمانة قبل أن يبلغكم رسالته من الله .

إذن : فإذا جاءكم الرسول بتكليف قد يشق عليكم ، فاستصحبوا كل هذه الأشياء ؛ لتردوا على أنفسكم : هو بشر وليس مَلَكاً . هو من العرب

وليس من العجم . هو من قبيلتكم التى نشأ بينكم فيها . هو من تعرفون سلوكه قبل أن يبلغ عن الله ، فما كذب على البشر فى حق البشر . أفيكذب على البشر بحق الله ؟

وقرأ عبد الله بن قسيط المكى هذه الآية : ﴿ مِّنْ أَنفَسِكُمْ ﴾ أى : أنه ﷺ بالمقياس البشرى هو من أقدركم وأحسنكم [١] . ولذلك حينما جاء الرسول ﷺ بالدعوة عن الله ، هل انتظرت سيدتنا خديجة رضى الله عنها أن يأتى لها بمعجزة ؟ هل انتظر أبو بكر أن يأتى له بمعجزة ؟ لا ، لم ينتظر أحدهما لأن كلاًّ منهما أخذ المعجزة من ناحية تاريخه الماضى .

وحينما قال لخديجة : " يأتينى ويأتينى ويأتينى " وكانت ناضجة التكوين والفكر والعقل ، وعلمنا مما قالت لماذا اختار الله له أن يتزوجها وعمره خمسة وعشرون عاماً ، وعمرها أربعون سنة ،مع أن المألوف أن يحب الإنسان الزواج ممن هى دونه فى العمر .

لكن المسألة لم تكن زواجاً بالمعنى المعروف ، لكنه زواج لمهمة أسمى مما نعرف ، ففى فترة هذا الزواج ستكون الفترة الانتقالية بين البشرية العادية إلى البشرية التى تتلقى من السماء ، وهذه فترة تحتاج إلى قلب أم ، ووعاء أم تحتضنه وتُربِّت عليه .

فلو كانت فتاة صغيرة وقال لها مثلما قال ﷺ لخديجة لشكت فى قواه العقلية ، لكن خديجة العاقلة استعرضت القضية استعراضاً عقليّاً بحتاً . فحين قال لها : أنا أخاف أن يكون الذى يأتينى رئى [٢] من الجن . قالت

---

(١) لذلك اختصه الله بصفات حسية ومعنوية تحيله من أنفس خلق الله على الله، يقول الحق : ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّبِىُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُّنِيراً ﴿٤٦﴾ ﴾ [الأحزاب] .

(٢) رئى من الجن : تابع قد ألفه الإنسان من كثرة رؤيته له . وقد تكون من الرأى أى أنه صاحب رأيه . وانظر اللسان (مادة : رأى) .

له : " إنك لتصل الرحم ، وتكسب المعدوم وتعين على نوائب الحق ، والله لا يخزيك الله أبداً "[(١)] .

إذن : فقد أخذت من مقدمات حياته قبل البعثة ما يدل على صدقه بعد البعثة .

وكذلك أبو بكر رضى الله عنه ، حينما قالوا له : إن صاحبك يدعى أنه رسول . قال : أهو قالها ؟ قالوا : نعم . قال : إنه رسول من الله لأنه لم يكذب طوال عمره[(٢)] .

وبعد ذلك يقول الحق : ﴿ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ﴾ . وكلمة ﴿عَزِيزٌ﴾ أى : لا يُنال ولا يقدر عليه أحد ، والشيء العزيز أى نادر الوجود . وقد تقول لإنسان : " قد تكون وزيراً " ؛ فيصمت رجاء ، لكن إن قلت له : "ستصبح رئيس وزراء" فيقول : هذه مسألة مستعصية وكبيرة علىَّ بعض الشيء .

إذن : فالعزة تأتى لامتناع شيء إما لقدرته ، أو عزيز بمعنى نادر ، أو يستحيل . والعزيز - هو الأمر الذى يعز على الناس أن يتداولوه ، فيقال : "عز علىّ أن أصل إلى قمة الجبل " . ﴿ عَزِيزٌ عَلَيْهِ ﴾ أى : شاق عليه أن يعنتكم بحكم ؛ فقلبه رحيم بكم ، وهو لا يأتى لكم بالأحكام

---

(١) ذلك أن رسول الله ﷺ بعد ما جاءه جبريل فى غار حراء ، رجع إلى السيدة خديجة ترجف بوادره فقال : « زملونى زملونى » فزملوه حتى ذهب عنه الروع . ثم قال لخديجة : «أى خديجة مالى» وأخبرها الخبر . فقال : لقد خشيت على نفسى . فقالت له : كلا . أبشر ، فوالله لا يخزيك الله أبداً . والله إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق » أخرجه البخارى فى صحيحه (٣) ومسلم (١٦٠) عن عائشة . بوادره : اللحمة التى بين الكتف والعنق دلالة على شدة الفزع . زملونى : غطونى . تحمل الكَلَّ : أى : تنفق على الضعيف واليتيم وغير القادر على الإنفاق . تقرى الضيف : أى : أنك كريم جواد تطعم الضيف . نوائب الحق : حوادث الخير والشر .

(٢) عن أبى الدرداء أن النبى ﷺ قال عن أبى بكر : « هل أنتم تاركو لى صاحبى ؟ » (مرتين) إنى قلت : « يأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً فقلتم : كذبت ، وقال أبو بكر : صدقت » . أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٦٦١ ، ٤٦٤٠) وابن أبى عاصم فى السنة (٢/ ٥٧٦) .

لكى تشق عليكم ، بل تنزل الأحكام من الله لمصلحتكم ، فهو نفسه يعز عليه أن يشق عليكم .

ولذلك قال النبى ﷺ « مثلى كمثل رجل استوقد ناراً ، فلما أضاءت ما حولها جعل الفراش وهذه الدواب التى فى النار يقعن فيها . وجعل يحجزهن ويغلبنه فيتقحمن فيها . قال : فذلكم مثلى ومثلكم . أنا آخذ بحجزكم عن النار . هلم عن النار . هلم عن النار . فتغلبونى تقحمون فيها [1] » .

فإذا كان الرسول صفته أنه من أنفُسكم أو من أنفَسكم أو يحبكم حبّاً يعز عليه أن تكونوا فى مشقة . إذن : فخذوا توجيهاته بحسن الظن وبحسن الرأى فيها ، وذلك هو القانون التربوى الذى يجب أن يسود الدنيا كلها . فقد يقسو والد على ولده بأوامر ونواه : " افعل كذا " و" لا تفعل كذا " لا تذهب إلى المكان الفلانى ، ولا تجلس إلى فلان ، ولا تسهر خارج المنزل بعد الساعة كذا .

كل هذه أوامر قد تشق على الولد فنقول له : مشقة التكليف ممن صدرت ؟ لقد صدرت من أبيك الذى تعرف حبه لك ، والذى يشقى ليوفر لك بناء المستقبل ، ويتعب ؛ لترتاح أنت ، فكيف تسمح لنفسك أن تصادق صعاليك يخرجونك عن طاعة أبيك إلى اللهو وإلى الشر . وانظر إلى والدك الذى تحمل المشقة حتى لا تتحمل أنت المشقة ، ويشق عليه أن تتعب فهو أولى بأن تسمع كلامه .

ورسول الله ﷺ عزيز عليه مشقتكم ، والمشقات أنواع : مشقات فى الدنيا تتمثل فى التكاليف التى يتطلبها الإيمان ، ولكنها تمنع مشقات أخلد

---

(١) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٤٨٣) ومسلم (٢٢٨٤) بروايات متعددة ، عن أبى هريرة . ومعنى (آخذ بحُجُزكُم) أى : آخذ بمعاقد أزركم وسراويلكم . الحجزة : هى معقد الإزار ، ومن السراويل : موضع التكة .

فى الآخرة ؛ لذلك فالرسول ﷺ يحزن أن ينالكم فى الآخرة تعب ، وتعب الدنيا موقوت وينتهى ، لكن تعب الآخرة هو الذى يرهق حقّاً ويتعب [١] .

ولذلك يقول الحق فى تصوير هذه المسألة بقوله :

﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ [٢] نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (٦) ﴾ [الكهف]

لماذا ؟ لأنك تعرف يا محمد أنهم إن لم ينتهوا فسوف يجدون العنت كله فى الآخرة .

أو أن مشقة الآخرة هى التى يجب أن نتلافاها ، وأن نتحمل المشقات الزائلة العرضية التى تورد ثماراً .

فنحن قد نجد الرجل يقول لابنه مثلاً : اخرج إلى الحقل ، واحمل السباخ فوق الحمار واحرث وارْوِ ؛ كل هذه مشقات ستجد لذتها يوم الحصاد ، وتعطيك الأرض من خير الله كذا إردب قمحاً أو غير ذلك. ولو ترك الأب ابنه لكسله فهذه هى المشكلة الأكبر ، وحث الأب لابنه على العمل هو دفع لمغبة [٣] الضياع .

وقد يأخذ الأب ابنه للطبيب ، ويجد الطبيب مشغولاً ، ويرجوه الأب أن يجرى للابن جراحة تنجيه وتنقذه من خطر رغم أن الأب يعلم أن الطبيب سيستخدم مع ابنه أدوات جراحية كالمشارط وغيرها ، ولكن ليعلم الابن أن

---

(١) ومن دقيق ما نقله ابن حجر العسقلانى فى الفتح (٦/ ٤٦٤) عن أبى حامد الغزالى فى الفرق بين تهافت الفراش على النار وتهافت العصاة على الوقوع فى النار أنه قال : (التمثيل وقع على صورة الإكباب على الشهوات من الإنسان بإكباب الفراش على التهافت فى النار ، ولكن جهل الآدمى أشد من جهل الفراش لأنها باغترارها بظواهر الضوء إذا احترقت انتهى عذابها فى الحال ، والآدمى يبقى فى النار مدة طويلة أو أبداً) .

(٢) باخع نفسك : أى مكثر فى لومها وقهرها .

(٣) المغبة من كل شىء عاقبته وآخره .

هذا المشرط سيمسُّ أباك قبل أن يمسَّك ، وعلى ذلك إذا أُمرت بتكليف شاق فانظر مَنْ أمرك ؟ أهو ممن تعز عليه وممن تحبه وممن يريد لك الخير ؟ إن كان الأمر كذلك ؛ فعليك أن تقبل ولا تسىء الظن ، ولا تُرهق مَنْ يحبك .

واعلم أن والدك حين يصرفك عن أصدقاء السوء - مثلاً - فهو يرد عنك مصارف الشر ؛ لأنك إن اجتهدت فى عملك ؛ فسوف تحصد النتيجة الطيبة ، أما إن اتجهت إلى مصارف الشر فسوف تُشَرَّد وتجوع ، وسوف تدق باب بيت أبيك . وعندئذ ستسمع مثلاً عاميّاً يلخص الحكمة التى تقول «من يأكل لقمتى فليسمع كلمتى» .

وهنا يقول الحق : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ ومعنى الحرص : أن يحوطكم بالرعاية ؛ حتى لا تقعوا فى المشقة الأكبر . ولذلك قلنا : إن الرسول ﷺ قد صوَّر هذه المسألة بقوله ﷺ : «مثلى ومثلكم كمثل رجل أوقد ناراً فجعل الجنادب والفراش يقعن فيها وهو يذبهن عنها وأنا آخذ بحجزكم عن النار - أى أمسككم من خلفكم حتى لا تذهبوا إلى النار - وأنتم تفلتون من يدى »[(١)] .

والحق يُسَرِّى عن رسوله ﷺ فيقول :

﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ ... ⦗٦⦘﴾ [الكهف]

ويقول الحق أيضاً لرسوله :

﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ⦗٣⦘﴾ [الشعراء]

---

(١) هذه رواية عند مسلم من حديث جابر (٢٢٨٥) ، وقد سبق تخريجه من حديث أبى هريرة عند البخارى ومسلم .

فالرسول ﷺ يدعو الناس إلى إتقان العمل فى الدنيا ؛ ليصلوا إلى الجنة فى الآخرة ؛ لأن كل مؤمن عزيز عليه ﷺ ويخشى أن يُرهَق إنسان واحد فى الآخرة ، ولذلك قال الحق :

﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ③ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ④ ﴾ [الشعراء]

أى : إياك أن تحزن أنك حريص على أن يؤمنوا ؛ لأن الحق سبحانه يقدر أن ينزل عليهم آية تجعل رقابهم خاضعة ، ولكن الرب لا يريد رقاباً تخضع ؛ وإنما يريد قلوباً تخشع .

﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾

والرأفة والرحمة قد تلتقيان فى المعنى العام ، ولكن هناك أموراً تسلب مضرّة ، وأموراً تجلب منافع . وسلب المضرّات - دائماً - مُقدّم على جلب المنافع ، فحين نواجه عملاً يضر وعملاً ينفع ؛ نُقدم على العمل لدرء[1] ما يضر ، ثم ننجز العمل النافع .

وساعة يطرأ عليك أمر يضر ، وأمر ينفع ، وأنت فى حال متساوية ولا بد أن تدرأ عن نفسك الأمر الضار الذى يخرجك عن الاستواء ، ثم تقبل على الأمر الذى يزيد من الارتقاء .

وحتى نقرب هذه المسألة إلى الذهن ، سأضرب هذا المثل الحسّى : هَبْ أن واحداً معه حجر يريد أن يضربك به ، وآخر يريد أن يقذفك بتفاحة ، فهل تنشغل بالتقاط التفاحة أو تنشغل برد الحجر ؟ إنك تنشغل أولاً بدرء الضرر ، ثم تقبل على جلب المنفعة .

---

(١) الدرء : الدفع والإبعاد .

ومثال آخر : هب أنك ترى إنساناً يغرق أمامك فى البحر ، فهل توبخه ؛ لأنه نزل البحر دون أن يتعلم العوم ؟ أم تنقذه أولاً وتدفع الأذى عنه ، ثم توبّخه وتعاقبه بعد ذلك جزاء إهماله ؟

إنك تنقذه أولاً ، وبذلك تكون قد قدمت الإحسان بدفع المضرة أولاً ، وحتى إن عاقبته فهو يقبل منك العقاب أو النهر [1] ؛ لأن صنيعك أنقذه من الموت.

والحق يقول : ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴿١٨٥﴾﴾

[آل عمران]

إذن : فمراحل الفوز أن يُزْحزح الإنسان أولاً عن النار ، ففى هذا سلب للمضرَّة ، وجلب للمنفعة ، وإن ظل الإنسان فى موقعه لا هو فى الجنة ولا هو فى النار ؛ فهذا هين أيضاً. وإن أدخل الجنة فهذا هو الخير كله.

وإذا كانت هذه هى بعض من خصال الرسول ﷺ : ﴿رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ ، و﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ ، و﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ ، و﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ [2]﴾ ، فهذه خصال إن استوعبها الإنسان فهو يندفع إلى اتباع هذا الرسول.

وقوله الحق : ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ نرى فيه الوصف بـ «الرءوف» والرأفة هى سلب ما يضر من الابتلاء والمشقة ، و«رحيم» هو الذى يجلب ما ينفع من النعيم والارتقاء.

وحسبكم من هاتين الصفتين أن الله سبحانه وتعالى وصف رسوله بهذين

---

(١) النهر : الزجر والإغضاب.

(٢) والآية الكريمة تعطى الوداد مع الله ومع رسوله ومع النفس والود عين القرب .

الوصفين [(١)] ﴿ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ وقد ثبت أنه سبحانه قد وصف نفسه بقوله سبحانه :

﴿ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ ﴾ [النحل]

إذن: فالرسول ﷺ لا يسلك بما عنده ، بل يسلك برأفة مستمدة من رأفة العلى الأعلى ، وكذلك رحمته ﷺ مستمدة من رحمة العلى الأعلى. وكأن الحق سبحانه يبيّن لنا أنه أعطى محمداً ﷺ بعضاً من الصفات التى عنده ، فكما يبلغكم المشقات فى التكاليف ، فهو يبلغكم السلامة من المشقات فى الرأفة ، وترقية المنعمات بالرحمة ؛ ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ .. ﴿٨٢﴾ ﴾ [الإسراء]

ونعلم أن الشفاء إنما يكون من المرض ، أى: أن القرآن يسلب المضرة أولاً ، ثم يأتى لنا بالمنفعة بعد ذلك وهى الرحمة.

وقوله الحق : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ هذا القول خلاصته: إن استقبلتم مشقات التكليف من رسول الله ﷺ ؛ فاعلموا ممن جاءت هذه المشقات ، واعلموا أن مجيئه بها إنما هو ليرفع عنكم مشقات أكبر وأخلد ؛ لأن مشقات التكليف تنتهى بانتهاء زمن التكليف وهو الدنيا ، ثم يذهب المؤمن إلى الجنة ليحيا بلا تكليف ، وما يخطر على باله من أشياء ، يجده فوراً ؛ بدءاً من الطعام والشراب وجميع ما خلقه الله لأهل الجنة من نعيم [(٢)] .

---

(١) وقد أورد القرطبى فى هذا قول الحسن بن الفضل : لم يجمع الله لأحد من الأنبياء اسمين من أسمائه إلا للنبى محمد ﷺ فإنه قال : ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾[التوبة] ، وقال : ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾﴾[الحج] . انظر [تفسير القرطبى ٤/ ٣٢٢٨] .

(٢) عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله ﷺ : « إنك لتنظر إلى الطير فى الجنة فتشتهيه فيخر بين يديك مشويا » أخرجه البزار (٣٥٣٢ - كشف الأستار) فيه حميد بن عطاء الأعرج قاله الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٤١٤) .

وإن نظرنا إلى متع الدنيا نجد أن من اجتهدوا فى حياتهم ، يستأجرون من يقوم لهم بالأعمال التى كانوا يقومون بها لأنفسهم؛ فالثرى الذى كان يطهو طعامه قبل الثراء ، يستأجر طاهياً ؛ ليعد له طعامه ، والفلاح الذى كان يبنى بيته لنفسه ، ثم رزقه الله بالرزق الوفير فاستأجر من يبنى له ، وكل الأعمال التى تسعد الإنسان وكان يقوم بها بنفسه ولنفسه، صار يستأجر من يقوم له بها، فما بالنا بالآخرة حيث تعيش فى رضا الله وبأسرار كلمة ﴿كُن﴾.

وهكذا نجد الحق سبحانه وتعالى قد جاء فى هذه السورة بمشقات التكليف، والثواب عليها وطمأن المؤمنين بأن الرسول ﷺ يتميز بكل المواصفات الموحية: من أنه بشر ، وأنه حريص عليهم ، وأنه لا يكلفهم إلا بالمشقات التى تنجيهم من المشقات الأبدية ، وأنه رءوف بهم ورحيم.

فإن استمعوا إلى هذه الحيثيات وآمنوا ، فأهلاً بهم فى معسكر الإيمان، وإن تولوا ولم يسمعوا لهذه الحيثيات ولم يدخل القرآن قلوبهم ، فإياك أن تظن - يا رسول الله - أنك منصور بهم؛ لأنك منصور بالله ، فإن تولوا عنك [1] وأعرضوا عن الإيمان بالله ، وأعرضوا عن الاستماع لك ، فاعلم أن ركنك الشديد [2] هو الله ، لذلك يختم الحق السورة بقوله:

---

(١) تولوا : أعرضوا ورفضوا الهدى . والتولى : من أسماء الأضداد أى : أنها تحمل المعنى وضده . قال تعالى :﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ .. ﴿٣٨﴾ ﴾ [محمد] أى : إن تعرضوا عن الإسلام . ويقول سبحانه: ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ .. ﴿٥١﴾ ﴾[المائدة] أى : من يتبعهم وينصرهم .

(٢) الركن الشديد : القوى الذى لا يغلب من التجأ وركن إليه . ومنه قوله عز وجل عن لوط عليه السلام ﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ ﴾ [هود] وعنه قال رسول الله ﷺ : « رحمة الله على لوط لقد كان يأوى إلى ركن شديد ، فما بعث الله بعده من نبى إلا فى ثروة من قومه » أخرجه أحمد فى مسنده (٢/ ٣٣٢) والترمذى فى سننه (٣١١٦) من حديث أبى هريرة .

﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾ ﴾

ولم يقل الحق لرسوله : «إن تولوا وأعرضوا فاعتقد أن حسبك الله »[1] لا ، بل أعلنها للناس كافة ؛ حتى يسمعوها ، ولعل فى إعلانك لها ما يلفتهم إلى الحقيقة ؛ لأنك إن قلتها ؛ فلن تقولها إلا وعندك رصيد إيمانى بها ، وإن فعل أحدهم شيئاً ضدك ؛ فسوف يعاقبه الله.

وحين تعلن: ﴿حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ بعد أن كذبوك ، فالأحداث التى سوف تأتى بعد إعلانك ﴿حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ ستؤكد أن حسبك فى مكانه الصحيح ، ولله المثل الأعلى - أنت تقول : «حسبى نصرة فلان»؛ لأنك تثق فى قدرة فلان هذا، ولكن القوة فى الحياة أغيار ، وحين تقول : ﴿حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ فلا إله غيره سبحانه ، ولا إله آخر يعارضه فى هذا أو فى غيره.

وقل: ﴿حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ برصيد ﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ ، و ﴿لاَ إِلَهَ﴾ نفى ، و ﴿إِلاَّ هُوَ﴾ إثبات ، إذن : ففى هذا القول ﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ نفى منطقى مع سلب ، وإثبات منطقى مع الإيجاب ، وهنا نفى أىِّ ألوهية لغير الله ، والاستثناء من ذلك هو الله ، ورحم الله شيخنا عبد الرحمن عزام حين ترجم عن محمد إقبال[2] شاعر باكستان الكبير ، فقال:

إنَّما التوحيدُ إيجابٌ وسلبٌ   فيهما للنفسِ عزمٌ ومضاءُ

إيجاب فى ﴿إِلاَّ هُوَ﴾، وسلب فى ﴿لاَ إِلَهَ﴾، فيهما للنفس عزم ومضاء، أى: هما للنفس قطبا الكهرباء، فاسلب الألوهية من غير الله وأثبتها لله.

(١) الحسب : اسم بمعنى كاف . وحسبى الله ، أى : يكفينى الله .

(٢) محمد إقبال شاعر ومفكر إسلامى جاهد بقلمه ونفسه فى سبيل الإسلام وتحرير بلاده ، وله آثار أدبية وشعرية تميل إلى الإسلام وتدرس فى المؤسسات العلمية ، وهو باكستانى المنشأ إسلامى الوطن ، عالمى الفكر - ترجم له فى مصر الدكتور عبد الرحمن عزام والصاوى شعلان .

والناس - كما نعلم - ثلاثة أقسام: قسم ينكر وجود إله للكون مطلقاً، وهم الملاحدة ، وقسم ثان يقول : إن هناك الله الذى يوحده المسلمون ؛ لكن له شركاء ينفعوننا عند الله. وقسم ثالث يقول بوحدانية الله.

وساعة نقول ﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ نكون قد أثبتنا الألوهية لله ، وأثبتنا أن لا شريك له ، وأثبتنا ألا إله غيره ، وسبحانه يقول:

﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ وهذا أمر طبيعى، ويمكن أن نعرفه بالحساب؛ ولذلك جاء بـ ﴿حَسْبِيَ﴾ من الحساب. واحسبها فلن تجد إلا الله. وما دام حسبك الله ولا إله إلا هو ، فسبحانه يبسط عليك حمايته ونصرته لك، فمن العقل أن تضع نفسك بين يدى رسولك، الذى أبلغك البلاغ الكامل عن الله، وأن تتوكل عليه سبحانه.

وما دام سبحانه هو حسبك ولا إله إلا هو، والواجب يفرض عليك أن تظل فى مَعيَّته سبحانه، ومعيّة الله مرحلتان: الأولى بأخذ الأسباب التى أمدّ بها خلقه، ومعية إيمانك المطلق بأن الأسباب إن عجزت معك، فأنت تلجأ إلى مسبِّب الأسباب الموجود وهو رب الوجود .

وترى - مثلاً - الناس وهى تحتاج إلى المياه ؛ لأنها ضرورة للحياة ؛ فيذهبون إلى البئر فلا يجدون الماء رغم وجود البئر ؛ لأن المياه التى تأتى من جوف الأرض لم تعد تتسرب إليه ، ولماذا ؟ لأن المخزون من ماء المطر الذى كان يأتى من أعالى الجبال ويتسرب تحت الأرض قد نفد ، ولهذا نحتاج إلى مدد من أمطار السماء ؛ لتجرى إلى المسارب تحت الأرض وتعود المياه إلى البئر.

وإذا جفَّتْ الآبار المحيطة بنا، هل نيأس؟ لا ؛ لأن ربنا بيَّن لنا : ارفعوا [1] أيديكم لربكم. إذن: فنحن إذا استنفدنا الأسباب نطلب من

(١) ارفعوا أيديكم بالدعاء والتضرع بشرط الاستجابة له والإيمان به تجدون الإجابة مع الرشاد.

المسبب، ولذلك أتحدى أن يستنفد واحد أسباب الله الممدودة إليه، ويلجأ إلى الله فيرده.

إن يد الله ممدودة لنا بالأسباب ولا يصح أن يهمل إنسان ولا يأخذ بالأسباب ، ويقول: أنا متوكل على الله ، إن على الإنسان أن يأخذ أولاً بالأسباب وأن يستنفدها، وبعد ذلك يقول: ليس لى ملجأ إلا أنت سبحانك ، واقرأ إن شئت قول الله سبحانه:

﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ .. (٦٢)﴾ [النمل]

والمضطر: هو من استنفد أسبابه، وليس له إلا الله. لكن أن يقول إنسان: أنا أدعو الله ليل نهار وأسبِّحُه سبحانه وأقرأ سورة يس مثلاً ، ولا يستجيب الله لدعائى[1] . ونقول لمثل هذا القائل: أنت لا تدعو عن اضطرار ولم تأخذ بالأسباب ، خذ بالأسباب التى خلقها الله ، أولاً ، ثم ادْعُ بعد ذلك . ولا تدْعُ إلا إذا استنفدت الأسباب ؛ فيجيبك المسبِّب ؛ وبذلك لا تفتن بالأسباب ، فحين تمتنع الأسباب ؛ تلجأ إلى الله . ولو كانت الأسباب تعطى كلها لفُتِنَ الإنسان بالأسباب، والحق سبحانه يقول:

﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ (٧)﴾ [العلق]

لذلك نجد الحق يبيّن دائماً أن كل الأسباب بيده ، فنرى من يحرث ويبذر ويروى ويرعى ، ثم يقترب الزرع من النضج ، وبعد ذلك تأتى موجة حارة تميته ، أو ينزل سيل يجرفه . إذن : خذ بالأسباب واجعل المسبب دائماً فى بالك ، وهنا يصح توكلك على الله.

---

(١) من آداب الدعاء ألا يستبطىء الداعى استجابة الله لدعائه ، فتجده يمل ويدع الدعاء ، بينما كان عليه أن يدرك أن الله يريد الأصلح لعبده ، فقد يدعو عبد بما يظن أنه خير له ، ولكن علم علام الغيوب أنه شر له ، وفى هذا يقول رسول الله ﷺ : « لا يزال يستجاب للعبد مالم يدع بإثم أو قطيعة رحم ما لم يستعجل . قيل : يا رسول الله ما الاستعجال ؟ ، قال يقول : قد دعوت وقد دعوت ، فلم أر يستجب لى فيستحسر عند ذلك ويدع الدعاء ». أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٧٣٥) الرواية الثالثة للحديث .

وكثير من الناس يخطىء فى فهم كلمة «التوكُّل» ، وأقول : إن التوكل يعنى أن تأخذ ، أولاً ، أسباب الله التى خلقها سبحانه فى كونه ، فإن عَزّت الأسباب ولم تصل إلى نتيجة ؛ فاتجه إلى الله ، مصداقاً لقوله : ﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾ .

ونحن ندعو أحياناً عن غير اضطرار ونهمل الأسباب ، والمثال تجده فى حياتنا حين يقول الابن لأمه : «ادعى لى حتى أنجح» وتجيب الأم الأمية قائلة كلمة بسيطة هى : «ساعد الدعاء بقليل من المذاكرة» ، وهى بذلك تدل ابنها على ضرورة الأخذ بالأسباب .

إذن : فمعنى التوكل ، أن تستنفد الأسباب التى مَدَّتها يد الله إليك . فإذا استنفدتها ؛ إياك أن تيأس ؛ لأن لك ربّاً ، وهو سبحانه ركن شديد ترجع إليه .

ومثال آخر : إذا كنت سائراً فى الشارع ومعك جنيه واحد مثلاً ثم وقع منك أو سُرق ، ولا تملك فى البيت أو فى البنك مليماً واحداً ، هنا تغضب وتحزن ، أما إن كان فى البيت عشرة جنيهات ؛ فنسبة الغضب والحزن ستكون قليلة ، وإذا كان فى البيت عشرة جنيهات وفى البنك مائة جنيه ؛ فلن تحزن أو تغضب لضياع الجنيه الواحد .

وهكذا تثق بالمثل عوضاً عن المثل ، أفلا تثق بواهب هذا المثل عن عوض المثل ؟

إذن : فالتوكل هو أن تعمل الجوارح وتتوكل القلوب[1] . والكسالى هم من يريدون أن يكون التوكل للجوارح وليس القلوب .

---

(١) يقول عز وجل : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ۝ ﴾ [الطلاق] .

وكان من الممكن أن يغيّر الحق الأسلوب فى الآية فيقول: توكلت عليه . بدلاً من ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ ولكن إن وفقت الفهم عن قوله الحق، ستجد أن الإنسان إن قال: «أنا اعتمدت عليك» فقد تعطف قائلا : «وعلى فلان وعلى فلان». لكن قولك: عليك توكلت لا يمكن أن تعطف من بعدها ، وفيها تنزيه لله ولا أحد غيره يتوكل عليه الخلق، مثلما تقول فى الفاتحة : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ أى: لا نعبد غيرك ، فتكون قد قصرت العبادة عليه سبحانه.

وتوكلك على الله له رصيد ؛ لأنه ربك ورب الكون الذى استقبلك ، ولا تصل قدرتك إليه ، فأنت فى الأرض تحرثها ، وتبذرها ، وترويها ، ثم تأخذ من عطاء الله لك ؛ فهو ربك ، ورب الكون الذى استقبلك، وأصبح هذا الكون مسخراً لك،وأنت لم تكن قادراً على تسخير الكون.

صحيح أنك قد تُسخِّر الدابة وتربطها وتمتطيها وتحمل عليها السماد مثلاً وكل ذلك مسخر لك وفى قدرتك ، وهذا من فضل الله عليك. ويزيد فضله سبحانه ، وترى مخلوقات مُسخَّرة لك ، وليست فى قدرتك ؛ فالشمس مُسخّرة لك ؛ تشرق كل يوم بالدفء وبالحرارة ، وكذلك القمر ، والغمام ، وكل هذه مخلوقات ليس فى قدرتك السيطرة عليها ، بل سخرها الله لخدمتك.

وربك ورب الكون الذى استقبلك سخر لك ما ليس فى يدك ، وهو سبحانه رب الملكوت الذى يدير كل ذلك وأنت لا تراه ، وهو الذى يدير كل هذه الأشياء . فلا تنظر إلى ظواهر العطاء فقط ، بل انظر إلى مسبِّبات العطاء فى ظواهر العطاء ، ولا تلتفت إلى ظاهرة إلا لتعرف ما وراء هذه الظاهرة . وما وراء أى ظاهرة كثير.

ويقول الحق سبحانه: ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ نعم،هو رب الكون الذى استقبلك وسخر لك ما فى يدك وما ليس فى يدك،وما وراء المرئيات من

عالم الملكوت ؛ ليدير بكمال قدرته كل شيء، وكل ما في الكون ملك لله.

وله سبحانه العرش العظيم ، فما هو العرش ؟ نعرف لأول وهلة أن العرش هو السقف [1] ، فحين تبني دوراً واحداً تصنع له السقف ؛ ليحميك من وهج الشمس والمطر ، وإن كانت الأرض رخوة فالمباني تهبط ، وبنينا السقوف حتى تحمي الجدران من عوامل التعرية.

وقول الله سبحانه : ﴿ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ معناها: استواء الأمر استواءً يدخل فيه كل مقدور ؛ ولذلك عبر سبحانه عن الملك مثلاً في ملكة سبأ على لسان الهدهد فقال :

﴿ إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) ﴾ [النمل]

العرش، إذن، رمز السيطرة، وفي حياتنا - ولله المثل الأعلى - نجد أن الذي يأخذ الملك من واحد قبله يبدأ في تطهير الجيوب المحيطة به ويبحث عن الأنصار ؛ ليعيد ترتيب الملك بما يراه مناسباً له ؛ حتى تستقر له الأمور، ثم يجلس بعد ذلك على العرش.

إذن: فالجلوس على العرش معناه استتباب الأمر استتباباً نهائياً للمالك الأعلى.

وسبحانه يقول:

﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ...(٧) ﴾ [غافر]

وساعة تسمع كلمة «العرش» خذها على أنها رمز لاستتباب الأمر لله ، وأن كل شيء دخل في حيِّز قدرته ، وفي حيِّز ﴿كن﴾، كما يستقر الأمر

(١) العرش: المُلْك ، واستوى الملك على عرشه : أي : ملك . ومن معانيه أيضاً سرير الملك مثل قوله تعالى : ﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) ﴾[النمل] ومنه أيضاً سقف البيت وقد يطلق على البيت نفسه ، وكلها معان تدل على استقرار الأمر وثباته . انظر اللسان (مادة : عرش).

للملك المحَسّ ، فلا يجلس على العرش ، ولا يهدأ ، إلا إذا استقرت الأمور . هذا ما نراه فى الأمور الدنيوية ، فما بالنا باستقرار كل الكون من الأزل لله سبحانه وتعالى ؟

يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ .. ﴿٥٤﴾ ﴾ [الأعراف]

أى : أن الأمور قد استتبت له . وهكذا نجد أن كلمة «الْعَرْش» وردت فى عروش الدنيا ، وفى عرش الله سبحانه ، فعروش الدنيا [1] ترمز إلى استتباب الأمر لمن يجلس عليها ، والعرش بالنسبة لله رمز لاستتباب أمر الكون كله له سبحانه لا ينغص عليه شىء ولا يخرج من ملكه شىء . والكون كله ، بكل ما فيه مستتب لكلمة «كن» ومخلوق بها وخاضع لسلطان الحق سبحانه وتعالى .

وهنا يقول الحق : ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ ولا يوصف العرش بأنه عظيم إلا وفى أذهان الناس عروش الملوك التى نراها فى حياتنا ، مثلما قال الهدهد عن ملكة سبأ :

﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ [2] ﴿٢٣﴾ ﴾ [النمل]

أى : بمقاييس البشر .

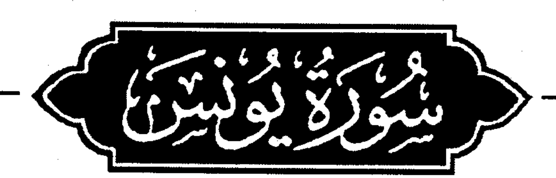
أما قوله تعالى هنا ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾ ﴾ [التوبة]

فهو بمقاييس رب البشر ، إنه عرش الخالق العظيم سبحانه وهو فوق التصور البشرى ؛ لذلك نفهمه فى إطار ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ .. ﴿١١﴾ ﴾ [الشورى]

---

(١) إن عروش الدنيا تشير إلى استتباب الأمر لمن يملك عليها ، أما عرش الله فيشير إلى استتباب أمر الكون لله سبحانه .

(٢) عروش ملوك البشر محدودة المكان والزمان ، أما عرش الله سبحانه فلا حدود له فهو مالك الملكوت .


سورة يونس



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وتبدأ سورة يونس [١] بقوله : ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ و﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ من آيات القرآن ، ولكن المختلف فيه : أهى آية من كل سورة ؟ أم نزلت بين السور للفصل والابتداء ؟

وسور القرآن مائة وأربع عشرة سورة، وقد وردت ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ فى أوائل مائة وثلاث عشرة سورة ، ومرة واحدة فى صلب سورة النمل :

﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ (٣٠)﴾ [النمل]

إذن: فـ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ فى سورة النمل بعض آية من القرآن ، وآية من السورة ، ومن قال من العلماء: إنها آية من كل سورة ؛ يجهر بها فى الصلاة ، ويسميها الآية رقم واحد ، والآية التى تأتى بعدها برقم اثنين . ومن قال: إنها نزلت للفصل بين السور ، نقول له: إن نزلت ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ للفصل بين السور ؛ فما كانت لتأتى فى سورة الفاتحة ؛ لأن الفاتحة أول سور القرآن . ولكن صاحب هذا الرأى ، يرى أنها جاءت ابتداء للقرآن تبركاً.

ونحن نرى أنها آية من سورة الفاتحة ، وقد حسبوها كذلك فى طباعة المصاحف ، حيث ترقم ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ كآية أولى ثم ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ هى الآية الثانية ، ولكن فى بقية السور لا ترقم ﴿بِسْمِ اللَّهِ

---

(١) سورة (يونس) مكية عدد آياتها (١٠٩) آيات .

وبعض آياتها مدنية على اختلاف بين العلماء ، فذكر ابن عباس أن منها ثلاث آيات مدنية هى آيات: ٩٤، ٩٥، ٩٦ ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ ..(٩٤)﴾ إلى قوله تعالى: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ (٩٦)﴾ . وقال الكلبى: إنها مكية إلا قوله : ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِ ... (٤٠)﴾ [يونس] . ولكن ذهب الحسن وعكرمة وغيرهما إلى أن السورة كلها مكية .

الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ كآية أولى ، بل ترقم الآية التى بعدها فى السور القرآنية برقم واحد.

وقد اتفق جمهور العلماء على أنها هى آية من القرآن ، ولكنها ليست آية من كل سورة ، إلا فى الفاتحة . وفى بداية خواطرنا حول القرآن الكريم قلنا: إن الإنسان يبدأ كل عمل باسم الله ؛ لأنه حين يقبل على الأعمال ، فهذه الأعمال لا تستجيب لقدرته هو ، ولكن تستجيب له بتسخير القادر له ، فأنت تحرث الأرض ، وتضع البذور ، وتروى الأرض ؛ وينبت لك الحق الزرع . صحيح أنك حرثت لكنك لم تزرع ؛ لأنك لا تعرف كيف وضع الحق سبحانه فى البذرة كلَّ النبات الذى سوف يخرج منها ؛ ولذلك يقول الحق:

﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ(٦٤) ﴾ [الواقعة]

وهناك أفعال للإنسان تستجيب له ، لا بقدرته عليها ، ولكن لأن الله شاء ذلك ، فليس لإنسان قدرة على الهواء ، ولا على العناصر التى فى الأرض . وأنت إن فكرت تفكيراً بسيطاً فى النبتة البسيطة الخارجة من البذرة أو من حبة الفول التى تضعها فى رطوبة الأرض سوف تلتفت لتجدها قد نبتت وخرج منها الزبان [1] البسيط ؛ ليكوِّن الجذور، فكيف لهذا الزبان البسيط الضعيف من قدرة تخرق الأرض ؟ وإن كانت الحبة فى جبل ، فهذا الزبان يدخل فى أى فتحة فى الجبل ؛ لينشق الجبل ، هذا هو الزبان البسيط التافه فى رؤية الإنسان.

وأنت أيضاً قد لا تعرف القدرة الموجودة فى المياه ، وهى قدرة هائلة

---

(١) الزبان : أصله فى اللغة زبانى العقرب أى طرفا قرنيه ، شبه به طرف النبتة الصغيرة الخارج من البذرة وانظر اللسان (ز ب ن).

لدرجة أنهم فى الأزمان السابقة حين كانوا يريدون تفتيت الجبل الصخرى ، قبل اختراع «الديناميت» ، كانوا ينقرون ثقباً فى الجبل الصخرى ، ثم يضعون فيه وتداً من الخشب ، ويدقون فى هذا الثقب خشباً جافاً ثم يقطرون عليه مياهاً ، ولحظة أن يتشرب الخشب بالمياه ينفجر الجبل.

وأنت حين تضع الحبة فى الأرض ، فالحبة تخرج نبتاً بسيطاً ؛ لتتكون منها الجذور التى تمتص الغذاء من الأرض ، أما قبل ذلك فكانت الحبة تضم الغذاء الذاتى اللازم لتنشئة الجذر ، ثم يشبك الجذر فى الأرض . وتَرِقّ فلقتا الحبة إلى أن تصيرا ورقتين خضراوين ، ولم يعرف الإنسان أسرَار تلك المسألة إلا حديثاً ، فهى من الكونيات المسخرة للإنسان قبل أن يبحثها علميّاً.

وأنت حينما تذهب لتزرع فإنك لا تزرع بقوتك ، بل بقوة من سخّر الأرض لك ، وحين تأتى لتزرع وتقول : باسم الله أزرعك ، فهذا إقرار منك بأن الحق سبحانه هو الذى سخر لك الأرض لتزرعها ، وحين تريد حمل شىء ثقيل وتقول : باسم الله أرفعك ، فأنت تستثمر قوة من الذى خلقك ؛ لأنك قد تأتى لرفع الشىء الثقيل فلا تصل الأوامر من المخ وقد تتعطل اليد.

إذن : فإن أقبلت على كل عمل ، فافهم أنك لا تُقبل عليه بقدرة منك على العمل ، ولكن بتفضُّل المسخِّر للمنفعل لك . فَادخل على كل عمل وقل : باسم الله أحرث ، وباسم الله أزرع ، وباسم الله أذاكر ، وباسم الله أصنع ؛ لأنه هو سبحانه الذى سخَّر لك كل شىء.

ولذلك قال رسول الله ﷺ : «كل عمل لا يبدأ باسم الله فهو أبتر»[1].

---

(١) الأبتر : الأقطع ، وهى صيغة أفعل تؤدى معنى المبالغة ، والبتر : القطع . ومنه قوله تعالى : ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ۝٣﴾ [الكوثر] أى المقطوع الذكر . والمقصود أن العمل إذا لم يبدأ فيه ببسم الله أو بالحمد فهو مقطوع الخير وغير تام .

لأنك إذا اعتمدت على قوتك ؛ فلن ينفعل لك شىء ، فكل شىء ينفعل ؛ لأن الله جعله منفعلاً لك ، إذن: فابدأ كل شىء باسم الله . وفى أعرافنا السياسية يقول القاضى لحظة الحكم : «باسم الدستور حكمت بما يلى» أى : أنه يقر أنه لم يحكم بذاته ، بل باسم الدستور.

إذن: حين تُقبل على العمل باسم الله ، فكأنك تذكِّر المنفعل لك بأنه لا ينفعل لك أنت ، وإنما ينفعل لمن خلقك وخلقه.

وساعة تقبل على أى عمل وتتذكر واهبَ الطاقة لك ، وواهب الشىء المنفعل لك ، وواهب الحركة ، وواهب كل شىء ، تكون قد برِئت من حَولِكَ ومن قوتك .

وهنا يقول الحق : ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ وهنا الرحمة بالخلق ؛ ليرفع عن العاصى الحرج فى أنه يقبل على نعم الله باسم الله الذى عصاه ، ويُذكِّرك الحق بأنه ﴿ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ .

وتبدأ الآية الأولى فى سورة يونس :

﴿ الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝١ ﴾

و﴿الٓر﴾ ثلاثة حروف ، وقد سبقتها سورة البقرة بـ ﴿الٓمٓ﴾ و ﴿الٓمٓ﴾ فى أول سورة آل عمران ، وفى أول سورة الأعراف ﴿الٓمٓصٓ﴾ وهنا ﴿الٓر﴾ فى أول سورة يونس . ونلاحظ أن ﴿الٓمٓ﴾ و ﴿الٓمٓصٓ﴾و ﴿الٓر﴾ كلها أسماء حروف .

وكل شىء له اسم وله مسمى ، أنا اسمى الشعراوى صحيح ، والمسمَّى هو صورتى . فإذا أُطلق الاسم جاءت صورة المسمَّى فى الذهن .

فساعة نقول : « السماء » يأتى إلى الذهن « ما علاك » . وساعة تقول : « المسجد » يأتى إلى الذهن المكان المحيِّز للصلاة .

إذن : فهناك فرق بين الاسم والمسمّى . وكل إنسان أمىّ ، أو متعلم ، له قدرة على الكلام ، لكن لا ينطق بأسماء الحروف إلا من تعلَّم . وفى الإنجليزية نطلب ممن يتعلمها أن يتهجّى أسماء الحروف .

إذن : فالكُلّ - كل متكلم - يعرف النطق بمسمَّيات الحروف ولكن الذى يعرف المسميات ويعرف الأسماء هو من جلس إلى معلِّم . وعرف أنك حين تقول : « أكلت » ، فهذه الكلمة مكونة من (همزة ، وكاف ، ولام ، وتاء) .

فإن كانت بعض سور القرآن قد بَدأت بـ ﴿الٓمٓ﴾وهذه أسماء حروف ، لا مسمَّيات حروف ، ومحمد ﷺ أمّىّ لم يتعلم ، فمن الذى علَّمه أسماء الحروف ؟

هى ، إذن ، رمزية على أنه - بإقرار الجميع - أمى ولم يجلس إلى معلم ، ولم يقل له أحد شيئاً ، ثم نطق بعد ذلك بأسماء الحروف " ألف لام ميم " ولو نظرت إلى المنطوق بالأسماء تجدها أربعة عشر حرفاً تكررت [1] ، وهى نصف حروف الهجاء .

ومن العجيب أن توصيف حروف الهجاء جاء بعد أن نزل القرآن . وقسمناها نحن إلى حروف مجهورة وحروف مهموسة وحروف رقيقة وحروف رخوة . وقد حدث هذا التقسيم بعد أن نزل القرآن . وبالاستقراء تجد الأربعة عشر حرفاً التى تأتى فى فواتح السور تمثل كل أنواع الحروف .

---

(١) جمع بعض العلماء هذه الحروف المقطعة التى فى أوائل السور وحذف المكرر منها ، فكان مجموعها أربعة عشر حرفاً ، وكونوا منها جملة جاءت هكذا : نص قاطع حكيم له سر .
وقد اختلف العلماء فى معنى هذه الحروف على أقوال :
١- أنها مما استأثر الله بعلمه .
٢- أنها دلالة على أسماء السور .
٣- أنها دلالة على أسماء الله تعالى وصفاته ، فالألف مفتاح الله ، واللام مفتاح اسمه (اللطيف) ، والميم مفتاح اسمه (المجيد) .

من: رقيق ، ومفخم ، ومجهور ، ومهموس ، ومستعلٍ [(١)] ، وبدأ الله بها على أشكال مختلفة ، فمرة يبدأ بحرف واحد :

﴿صٓ وَالْقُرْآنِ ذِى الذِّكْرِ (١)﴾ [ص]

ويقول سبحانه :

﴿قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (١)﴾ [ق]

ويقول سبحانه :

﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (١)﴾ [القلم]

إذن : فثلاث سور ابتدأت بحرف واحد .

وهناك سور ابتدأت بحرفين اثنين مثل : ﴿طه﴾ . ﴿يسٓ﴾ . ﴿طسٓ﴾ ، ﴿حـمٓ﴾ .

وهناك سور بدئت بثلاثة حروف : ﴿الٓمٓ﴾ مثلما بدئت سورة البقرة ، وسورة آل عمران ، وسورة العنكبوت ، وسورة الروم ، وسورة السجدة .

وهناك سور قد بدئت بـ ﴿الٓر﴾ .

وثلاث سور تتفق فى الألف واللام . وتختلف فى " الميم والراء" . و﴿الٓر﴾ فى أول سورة يونس و ﴿الٓر﴾ فى أول سورة يوسف . و﴿الٓر﴾ فى أول سورة إبراهيم ، و﴿الٓر﴾ فى أول سورة الحجر .

---

(١) هذه الحروف لها صفات بحسب طريقة النطق بها ، فمنها صفات لها أضداد مثل : (الجهر ، الهمس) - (الشدة ، الرخو) - (الاستعلاء ، الاستفال) - (الانفتاح ، الإطباق) - (الإصمات ، الإذلاق) . وكمثال لهذا أن الهمس هو ضعف الصوت عند النطق بالحرف فيكون فيه خفاء ، وهى : الفاء ، الحاء ، الثاء ، الهاء ، الشين ، الخاء ، الصاد ، السين ، الكاف التاء ويجمعها قولهم : « فحثه شخص سكت » وما عدا هذه الحروف فهى « حروف جهرية » أى : فيها قوة فى النطق بها . انظر تفاصيل هذا فى كتاب « هداية القارى إلى تجويد كلام البارى » للشيخ عبد الفتاح السيد المرصفى (ص ٧٩ - ٩٣) غفر الله له ورحمه .

وهنـاك سـورة قد بدئت بأربعة حروف مثل : ﴿الٓمٓصٓ﴾ فى أول سورة الأعراف ، وكذلك سورة الرعد بدأت بـ ﴿الٓمٓر﴾ .

وهناك سور قد بدئت بخمسة حروف مثل سورة مريم ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ . وكذلك سورة الشورى بدأت بـ ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢﴾ .

ومرة يطلق الحرف أو الحرفان فى أول السورة ولا تعتبر آية وحدها ؛ بل جزءاً من آية ، وهناك سورتان تبدآن بأحرف وتعتبر آية مثل ﴿طه﴾ ، و﴿يسٓ﴾ . أما فى سورة النمل فهى تبدأ بـ ﴿طسٓ﴾ ولا تعتبر آية وحدها .

إذن : فمرة تنطق الحروف وحدها كآية مكتملة ، ومرة تكون الحروف بعضاً من آية ، ومرة تأتى خمسة حروف مثل ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ ، وكل هذا يدلك على أن القرآن توقيفى[1] . ولم تأت آياته على نسق واحد ؛ لننتبه إلى أن الحق سبحانه أنزل هذه الحروف هكذا ، وكذلك نجد كلمة " اسم" فى القرآن فى ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ وتكتب من غير ألف[2] ، وهى ألف وصل ، أى : تنطقها حين تقرأها لكن الحرف يسقط عند الكتابة ، ولكنها لا تسقط عندما نكتب الآية الأولى من سورة العلق :

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذى خَلَقَ ۝١﴾ [العلق]

(١) توقيفى أى : أن الله قد أوقف محمداً ﷺ على كل شىء فى القرآن من فواتح السور والفواصل بين الآيات وترتيب السور فى المصحف ، ولم يترك هذا لاجتهاد الرسول ﷺ ولا لاجتهاد الصحابة ، بل كان بلاغاً من الله إليه على لسان جبريل .

(٢) وردت كلمة (باسم) فى القرآن ٤ مرات فى قوله تعالى : ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذي خَلَقَ ۝١﴾[العلق] ، و﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ فى ثلاثة مواضع [الواقعة : ٧٤ ، ٩٦] ، و[الحاقة : ٥٢] .
ووردت كلمة (بسم) بدون الألف ثلاث مرات فى القرآن [الفاتحة] ، وقوله : ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا .. ۝٤١﴾ [هود] ، و﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝٣٠﴾ [النمل] بالإضافة إلى جميع مواضع البسملة فى بدايات سور القرآن إذا اعتبرنا البسملة آية فى أولها .

ومثال آخر لو استعرضت فى القرآن الكريم كلمة « تبارك » ، ستجد فيها ألفاً بعد الباء ، وتأتى مرة من غير ألف [1] ، وكلمة " البنات" نجدها مرة بألف ومرة من غير ألف [2] ، كل ذلك ؛ لنفهم أن المسألة ليس لها رتابة كتابة ؛ لأنها لو كانت رتابة كتابة ؛ لجاءت على نظام واحد .

وقد شاء الحق هذا الأمر ؛ لتكون كتابة القرآن معجزة ، كما كانت ألفاظه وتراكيبه معجزة . وقد قال البعض : إن العرب المعاصرين لرسول الله ﷺ لم يكونوا أهل إتقان للكتابة ، ونقول : لو كانوا على غير دراية بالكتابة لما كتبوا « بسم» من غير ألف فى موقعها ، لقد علموا أن القرآن يجب أن يكتب كما نزل به جبريل عليه السلام على رسول الله ﷺ كتابة توقيفية ، أى : كما أمر الحق سبحانه [3] .

وعجيبة أخرى أن كل آيات القرآن مبنية على الوصل ، فأنت لا تقرأ ختام السورة بالسكون ، بل تلتفت لتجد الكلمة التى فى ختام أى سورة مشكلة بغير السكون .

---

(١) كلمة « تبارك » وردت فى القرآن ٩ مرات ، منها موضعان فقط بدون ألف فى قوله تعالى : ﴿ تَبَـٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾ ﴾ [الرحمن] ، وقوله : ﴿ تَبَـٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ ... ﴿١﴾ ﴾ [الملك] أما المواضع السبعة الأخرى فهى : ﴿ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾[الأعراف] ، ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [المؤمنون] ، [الفرقان ﴿١﴾ ، ﴿١٠﴾ ، ﴿٦١﴾] ، [غافر﴿٦٤﴾] ، [الزخرف﴿٨٥﴾] .

(٢)وردت كلمة البنات فى القرآن ١٢ مرة ، منها ثلاثة مواضع بدون الألف وهى : ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَـٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ .. ﴿١٠٠﴾ ﴾ [الأنعام] وقوله : ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَـٰتِ سُبْحَـٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [النحل] ، وقوله : ﴿ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَـٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [الطور] .

(٣) هذا علم هام من علوم القرآن ، وهو علم مرسوم الخط ، تحدث فيه العلماء وبينوا دقائقه ، وهم على عدم ترك ما استقر عليه الأولون الأقدمون فى قواعد الرسم القرآنى ، وأن لهذا الرسم حكماً خفية تكلم فيها علماء . انظر : البرهان فى علوم القرآن للزركشى (١/ ٣٧٦ - ٤٣١) والإتقان فى علوم القرآن للسيوطى (٤/ ١٤٥ - ١٦٦) .

والمثال هو : ﴿ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ وجاء الحرف الأخير بالكسر لا بالسكون ؛ لتقرأ موصولة بما بعدها ، فتقرأ كالآتى : ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ .

وهذه الحركة دلت على أن جميع آيات القرآن موصولة ببعضها ، وإياك أن تجعل القرآن ﴿ عِضِينَ﴾ [1] فلا تأخذ بعضاً من آياته مفصولاً عن غيرها ، بل القرآن كلهُ موصول ، فليس فى القرآن من وقف واجب [2] ، بل الآيات كلها مبنية على الوصل ، وإن كانت الكلمة الأخيرة تنتهى بالفتحة فأنت تقرأها منصوبة ومن بعدها ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ فنحن لا نُسكِّن الحرف الأخير فى أى سورة ؛ لأنها موصولة بما بعدها .

وحتى فى الحكم التجويدى إن وجد إقلاب ننطقه إقلاباً ، وإن وجد إظهار [3] ننطقه إظهاراً ؛ لأن آيات القرآن مبنية على الوصل .

ولقائل أن يقول : إذا كان القرآن قد بنى على الوصل ، فكان المفروض أن آيات القرآن التى بدئت بحروف المعجم تنبنى على طريقة المعجم . فلا نقول (ألف لام ميم) بل نقول " ألم " .

---

(١) عضين : أى : أجزاء متفرقة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ [الحجر] . ذكر المفسرون فى الآية أقوالاً أخرى منها ، أن أهل الكتاب جزءوه أجزاء فآمنوا ببعض وكفروا ببعض .

(٢) أى : أنك تجد نهايات الآيات متحركة وليست ساكنة ، وكذلك نهايات السور ، وإلا فهناك وقف لازم فى داخل بعض الآيات مثل قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الأنعام] .

(٣) الإظهار والإقلاب : حكمان من أحكام تجويد القرآن عند النطق بالنون الساكنة أو التنوين .

– أما الإظهار : فهو إذا وقع بعد النون الساكنة أو التنوين حرف من الحروف الحلقية أى : التى مخرجها من الحلق وهى : الهمزة ، الهاء ، العين ، الحاء ، الغين ، الخاء . عندها يجب الإظهار ، أى : إظهار النون الساكنة والتنوين عند ملاقاتهما بحرف من هذه الأحرف .

– أما الإقلاب : فهو أن تأتى باء بعد النون الساكنة أو التنوين ، فتقلب النون والتنوين ميماً مع إظهار الغُنَّة ، ومثال هذا : ﴿ أَنبِئُونِي ...﴿٣١﴾ ﴾ [البقرة] ، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤﴾ ﴾ [التغابن] .

ونقول لمثل هذا القائل : لا ، إن حروف القرآن التى بدئت بها السور يجب أن ننطقها كما هى ، فننطق « ألف» ثم نقف ، ونقرأ " لام" ثم نقف ، ونقرأ "ميم" ثم نقف ؛ لأن هذه الحروف جاءت هكذا ، وعلّمها جبريل عليه السلام لرسول الله ﷺ هكذا ، حتى لا نقول رتابة كلام ، بل إن لذلك حكمة عند الله سواء فهمتها أنت الآن أم لم تفهمها .

وقد نزل القرآن على أمة عربية وظل أناس على كفرهم ، وكانوا يعاندون رسول الله ، ويترصدون لأى هفوة ؛ ليدخلوا منها للتشكيك فى القرآن ، ولكن أسمعتم رغم وجود الكافرين الصناديد أن واحداً قال : ما معنى ﴿ الٓمٓ ﴾ ؟

لم يقل أحد من الكافرين ذلك ، رغم حرصهم على أن يأتوا بمطاعن فى القرآن ، بل اعترفوا بمطلق بلاغة القرآن الكريم ، مما يدل على أنهم فهموا شيئاً من ﴿ الٓمٓ ﴾ بملكتهم العربية ، ولو لم يفهموا منها شيئاً ؛ لطعنوا فى القرآن . لكنهم لم يفعلوا .

وأيضاً صحابة رسول الله ﷺ وهم أهل حرص على الفهم ، هل سمعت أن أحداً سأل رسول الله عن معنى ﴿ الٓمٓ ﴾ ؟ لم يحدث ، مما يدل على أنهم انفعلوا لقائلها بسرِّ الله فيها ، لا بفهم عقولهم لها ؛ لأن الوارد من عند الله لا يوجد له معارض من النفس ، وإن لم يقبله العقل فهو لا يرفضه[1] مع استراحة النفس له .

---

(١) عن على بن أبى طالب قال : « لو كان الدين بالرأى لكان أسفل الخف أولى بالمسح من أعلاه ، وقد رأيت رسول الله ﷺ يمسح على ظاهر خفيه » أخرجه أبو داود فى سننه (١٦٣) والدارقطنى فى سننه (١/ ١٩٩) .

وضربنا من قبل مثلاً ، فقلنا : إن آل فرعون حين استحيوا [١] نساء بنى إسرائيل وذبحوا الذكور ، فماذا فعلت أم موسى ؟ لقد أوحى [٢] لها الله ما جاء خبره فى القرآن :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ.. ⑦ ﴾ [القصص]

هات أىَّ أُمٍّ و قُلْ لها : حين تخافين على وليدك فارميه فى البحر ، طبعاً لنَ تنفذ أى أم هذا الاقتراح .

كان من الممكن أن تحاول أم موسى إخفاء موسى بأى وسيلة .

أما أن تلقيه فى البحر مظنّة أن تنجيه من الذبح ، فهذا أمر غير متخيَّل ، ولكن هذا أمر وارد من الرحمن بالإلهام والوحى ، فلا يأتى الشيطان ؛ ليعارضه أبداً ؛ ولذلك طمأنها الحق سبحانه ؛ لأن الآيات وردت :

﴿ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ... ⑦ ﴾ [القصص]

---

(١) استحياء النساء : أى : الإبقاء عليهن أحياء ، ومنه قوله تعالى :﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ④ ﴾[القصص] . وكان هذا على سبيل الإهانة لبنى إسرائيل والاحتقار والخوف من أن يوجد منهم الغلام الذى كان قد تخوف أن يظهر بينهم ويكون سبباً لهلاكه وذهاب دولته .

(٢) مادة الوحى وردت فى القرآن فى ٧٥ آية من كتاب الله – راجع المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم : صـ ٧٤٦ ، ٧٤٧ .

والوحى فى اللغة : الإشارة والكتابة والمكتوب والرسالة والإلهام والكلام الخفى ، وكل ما ألقيته إلى غيرك والصوت يكون فى الناس ، وأوحى إليه : بعثه وألهمه ، ومنه الإعلام فى خفاء ، والبعث والأمر والإيحاء والإشارة والتصويت شيئاً بعد شىء ويرد الوحى لغير إعلام الله لأنبيائه مثل قوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ .. ⑥⑧ ﴾ [النحل] والوحى هنا بمعنى : الإلهام ، أما الذى بمعنى الإعلام فهو الوحى الخاص بالأنبياء والرسل .

وكأن هناك تمهيداً يعلِّمها الاستعداد للأمر قبل أن يقع ، وحين جاء الأمر :

﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ (٣٨) أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ [1] فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ ... (٣٩)﴾ [طه]

والكلام هنا كلام عَجَلَة ؛ لأن هذا وقت التنفيذ ، وطمأنها سبحانه بأن أصدر أوامره للبحر أن يقذفه إلى الشاطئ :

﴿فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ [2] ... (٣٩)﴾ [طه]

وأصدر الحق أوامره إلى العدوِّ أن يأخذه ؛ ليربيه :

﴿فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ ... (٣٩)﴾ [طه]

إذن : وارد الرحمن لا يأتي له رد أبداً .

وكذلك يستقبل المؤمن ﴿الٓمٓ﴾ بسر الله فيها ، لا بفهم عقله .

وأنا أنصح من يريد أن يقرأ القرآن تعبداً ألا يشغل نفسه بالمعنى ، على خلاف من يقول : " اقرأ لتستنبط " ؛ لأن من يريد أن يستنبط هو الذى يقف عند اللفظ ، ويطلب معناه . فإذا قرأت القرآن للتعبد ؛ فلتقرأه بسر الله فيه ؛ حتى لا تحدد القرآن بمعلوماتك ؛ فتأخذه أخذاً ناقصاً بنقصك البشرى ؛ لذلك فى قراءة التعبد نأخذ اللفظ بسر الله فى اللفظ ؛ فليس كل قارىء للقرآن متخصصاً فى اللغة ؛ ليعرف أصل كل كلمة ، والكثير منا أمى ، يريد التعبد بالقرآن ، إذن - فليأخذ القرآن بسر الله فيه .

---

(١) التابوت : الصندوق .

(٢) اليم : يطلق على ما كان ماؤه ملحًا ، أو النهر الكبير العذب الماء ، والمراد به هنا نهر النيل بمصر . وساحل اليم : شاطئه .

والمثال من حياتنا - ولله المثل الأعلى - نجد الجيش يضع كلمة اسمها: " كلمة السر " ، وهذه الكلمة قد لا يكون لها معنى ، ولكن لا أحد يتحرك أو يخرج أو ينضم إلى المعسكر إلا إذا قالها . ولتكن الكلمة "عدس" على سبيل المثال ، ومن يعرفها يعرف أنها منجية من الموت ، وساعة يعود مقاتل إلى كتيبته وينطق بكلمة "عدس" ، هنا يعرف حارس بوابة المعسكر أنه منهم ، أما من لا يعرفها فقد يُقتل . ومن يقولها ، إنما ينطقها بسر من لقنه إياها .

وقد فهم العربى القديم عن الحروف التوقيفية فى أوائل بعض السور أشياء ، وللغته فيها نظائر ؛ لأنه مثلاً حين يقرأ الشعر ، ويلتفت إلى شاعر [١] يقول :

* ألا هُبِّى بِصحْنكِ فَاصْبحِينا *

ويقول :

ألا لايَجْهَلنْ أحدٌ علينا ... فَنجْهَل فوْقَ جَهْل الجَاهلينَا [٢]

ما معنى ألا هنا ، ولماذا جاءت ؟ فالمعنى واضح بدونها ، لكن العربى القديم قد نطق هذا البيت ، وعرف أن الكلام وسيلة إفهام وفهم بين المتكلم والسامع . والمتكلم هو مالك الزمام فى أن يتكلم ، أو لا يتكلم ، والسامع مفاجأ بالكلام ، فإذا ما ألقيت الكلام إلى السامع ؛ قد يكون ذهنه مشغولاً ، وإلى أن ينتبه لكلماتك ، قد تفوته جزئية من جزئيات الكلام ؛ فتنبهه أنت إلى ما قلت ؛ فيتنبه ؛ ليستوعب كل ما قلت [٣] .

---

(١) هو : عمرو بن كلثوم أبو الأسود ، شاعر جاهلى ، من الطبقة الأولى ، ولد فى شمال جزيرة العرب ، ساد قومه تغلب وهو فتى ، وعمّر طويلاً ، توفى نحو عام ٤٠ قبل الهجرة . من أشهر شعره معلقته (الأعلام للزركلى ٥/ ٨٤) .

(٢) هذه الأبيات من معلقة عمرو بن كلثوم ، وعدد أبياتها (١٠٣) ، وهى من بحر الوافر .

(٣) فـ « ألا » هنا حرف استفتاح يفيد التنبيه ، ويدل على تحقق ما بعده . ولها أربعة معان أخرى هى : التمنى والاستفهام عن النفى والحث والتحضيض والتوبيخ والإنكار .

إذن : فما المانع أن يكون الحق سبحانه وتعالى يريد أن يهيىء الأذهان بـ ﴿الٓمٓ﴾ ؛ حتى نسمع ، ثم تأتى الآيات الحاملة للمنهج من بعد ذلك ؟

وما المانع فى أن نفهم أن النبى الأمى لا يعرف كيف ينطق بأسماء الحروف ، فهو إن نطق فإنما يصدر ذلك بعد تعليم الله له ؟

ولماذا لا نفهم منها أيضاً أن وسائل الفهم لا تنتهى إلى أن تقوم الساعة ؟ وإلا لو انتهت عند البشر ؛ لكان كلام الله قد حددت صفته بفهم البشر ، وسبحانه قد شاء أن نغترف من معانى كلماته الكثير على مدى الأزمان ، والقرآن كلام الله، وكلام الله صفته، وصفته لا تتناهى فى الكمال، فإن عرفت كل مدلولاتها ، تكون قد حددت الكمال بعلم ، لكن القرآن لا نهاية له[1] .

ولماذا لا نفهم أن القرآن الذى بيَّن الحق سبحانه وتعالى أنه معجزة محمد ﷺ هو من جنس ما نبغ فيه قومه؛ فتحداهم من جنس ما برعوا فيه. ويقول لهم: هاتوا مثيلاً له ،ولن تستطيعوا[2] ، ولو أنه جاء بالقرآن على غير لغتهم فى الكلام لقالوا :لا نستطيع ؛ لأن حروف هذه اللغة جديدة علينا.

وقد شاء الحق أن يكون القرآن من نفس الحروف التى يتحدثون بها ، وبالكلمات التى يعرفونها فى لغتهم ، وشاء سبحانه أن يجعل حروف وكلمات وآيات وأساليب القرآن غير قابلة للتقليد ؛ لأن المتكلم مختلف ، وبهذا جاءت عظمة القرآن لا من ناحية المادة الخام التى تبنى منها

---

(١) يقول تعالى : ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا (١٠٩)﴾ [الكهف] ، ويقول : ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ .. (٢٧)﴾ [لقمان] .

(٢) وفى هذا يقول تعالى : ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٣)﴾ [البقرة] ، ويقول سبحانه : ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٣)﴾ [هود] .

الكلمات وهى الحروف ؛ بل بالمعانى والنسق [(١)] الذى جاءت به الحروف ، فالمادة الخام - وهى الحروف - واحدة . وصار القرآن معجزة ؛ لأن المتكلم هو الله .

وضربنا من قبل المثل لنقرب ذلك إلى الأذهان : هب أننا نريد أن نقيس مهارة من ينسجون الأقمشة ، ونضع أمام كل منهم مجموعة من غزل الصوف وغزل القطن ، وغزل الحرير ، وهذه مواد خام يختلف كل منها عن الآخر ، ونقول لهم : كل واحد منكم عليه أن ينسج قطعة من كل صنف لنعرف الأفضل فى النسج .

وسنسمع من يقول : إن نتيجة نسج الصوف نسيج خشن ، وناسج القطن سينسج قطعة تأخذ صفات القطن ، وناسج الحرير سينسج لنا نسيجاً ناعماً ، أما إن أعطينا كلاً منهم نوعاً واحداً من الغزل ؛ صوفاً أو قطناً أو حريراً ، هنا سنعرف من الأقدر على النسج .

إذن : لو أن القرآن جاء بغير حروف العرب ، وبغير كلمات العرب ؛ لقالوا : لو كانت عندنا هذه الحروف وهذه الكلمات ؛ لأتينا بأحسن منها [(٢)] .

---

(١) النسق من كل شىء : ما كان على طريقة نظام واحد .

(٢) قد يقول قائل : ولكن الواقع أن القرآن الكريم به ألفاظ أعجمية كثيرة مثل : أباريق ، أبّ ، أرائك ، إستبرق ، أكواب ، أسفار . الجبت . وغيرها كثير ذكرها الزركشى فى البرهان (١/ ٢٨٧ - ٢٩٠) والسيوطى فى الإتقان (٢/ ١٠٥ - ١٢٠) وذكر فيه (١١٨) كلمة أعجمية بين : حبشية ونبطية وسريانية ورومية وفارسية وعبرانية وقبطية وعبرية . نقول : اختلف العلماء فى هذه الكلمات ، فمنع الشافعى وابن جرير والقاضى أبو بكر القول بأن فى القرآن كلمات أعجمية مستدلين بقوله تعالى : ﴿ قُرآناً عربياً ... ﴿٢﴾ ﴾ [يوسف] .

وقال آخرون بوقوع الكلام الأعجمى فيه وأن هذا لا يعنى أنه ليس قرآنا عربياً ، فهذه الكلمات اليسيرة لا تخرجه عن كونه عربياً .

قال أبو عبيد القاسم بن سلام : « الصواب عندى مذهب فيه تصديق القولين جميعاً ، وذلك أن هذه الأحرف أصولها أعجمية كما قال الفقهاء ، ولكنها وقعت للعرب ، فعربتها (أى : الكلمات) بألسنتها وحولتها عن ألفاظ العجم إلى ألفاظها ، فصارت عربية ، ثم نزل القرآن وقد اختلطت هذه الحروف بكلام العرب ، فمن قال : إنها عربية فهو صادق ، ومن قال : أعجمية فصادق » .

لذلك شاء الحق أن يأتى القرآن من جنس الحروف والكلمات . ولذلك تحوم العقول حول مقدمات آيات السور ؛ لتعرف شيئاً من الإيناسات بعد أن تواصلت الثقافات ، ولم تعد اللغة العربية متوافرة مثلما كان الحال أيام نزول القرآن ، ومن كانوا يملكون هذه الملكة الصافية أيام الرسول ﷺ سمعوا الحروف التى فى أوائل بعض السور وقبلوها، والحق سبحانه يقول:

﴿الَر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ①﴾ [يونس]

و﴿تِلْكَ﴾: إشارة ، ولا بد أن نفرق بين الإشارة والخطاب ؛ لأن البعض يخلط بينهما ، فالإشارة هى التى تشير إلى شىء مثل قولنا: هذا وذا ، أو تلك ، وهذا : إشارة لمذكر ، والمثال هو قولنا : هذا القلم جميل ، أما قولنا : تلك الدواة جميلة ، فهذه إشارة لمؤنثة . أما «الكاف» : فهى حرف للخطاب ، فالتاء : إشارة للآيات وهى مؤنثة ، و«الكاف» فى ﴿تِلْكَ﴾ : للمخاطب ، وهو محمد ﷺ. فالله يقول لرسوله: تلك الآيات يا محمد.

وعلى ضوء الفوارق بين الإشارة والخطاب تختلف أساليب القرآن ، مثل قوله الحق:

﴿فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ [1] مِن رَّبِّكَ ... ㉜﴾ [القصص]

و«ذَانِكَ»: إشارة لشيئين اثنين : للعصا .

و ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ ...⑫﴾ [النمل]

ويقول الحق أيضاً:

﴿ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي ...㊲﴾ [يوسف]

---

(١) البرهان : الحجة الفاصلة البينة ، والدليل القوى الواضح .

وهذا ما قاله سيدنا يوسف عليه السلام للسجينين اللذين كانا معه. وتُظهر لنا العبارة أنه كان يخاطب اثنين ، ولكنه يشير إلى التأويل بـ «ذا»[1] .

وحين دعت امرأة العزيز النسوة ؛ ليشاهدن جمال سيدنا يوسف ، وأعطت كل واحدة منهن سكيناً ، وقالت: اخرج عليهن ، ولأنه مفرد مذكر ، وهن جماعة إناث ، فالعبارة تأتى بخطاب لجماعة الإناث ، وإشارة إلى المفرد المذكر فقالت:

﴿فَذَلِكُنَّ الَّذِى لُـمتُنَّنِى فِيهِ ...(٣٢)﴾ [يوسف]

و «ذا» إشارة إلى سيدنا يوسف ، و«كن» خطاب للنسوة. والقرآن حين يخاطب جماعة يقول:

﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ ... (٢٣)﴾ [فصلت]

إذن: فهناك فرق بين الإشارة والآيات ، فالـ «ت» إشارة للآيات ، والآيات مؤنثة ، والمخاطب الأول بالتكليف هو رسول الله ﷺ .

والآيات - كما عرفنا من قبل - جمع آية ، والآية[2] هى الأمر

---

(١) من العبارات النحوية الذائعة الصيت عن باب الإشارة ما يقال: (اسم الإشارة لمن تشير إليه ، والكاف لمن تخاطبه) وتتضمن هذه العبارة الأمرين الآتيين :
الأول : أن أسماء الإشارة يراعى فى لفظها ما تشير إليه - مفرداً أو مثنى أو جمعاً مذكراً أو مؤنثاً .
الثانى : أن حرف الخطاب (الكاف وما تفرع عنها) يراعى فى لفظها المخاطب - مفرداً أو مثنى أو جمعاً ، مذكراً أو مؤنثاً .
فالكاف حرف لمجرد الخطاب لا موضع له من الإعراب ، فهى إذن حرف للخطاب لا للمخاطب ، وهكذا يصفها المعربون (النحو المصفى ص ١٥٦ - ١٦٤) .

(٢) الآية العلامة الواضحة والمعجزة ؛ لأنها علامة على صدق الرسول ، والآية العبرة الدالة على العظمة ، والآية من القرآن سميت آية ؛ لأنها معجزة أو جزء من المعجزة قال تعالى : ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا .. (١٠٦)﴾ [البقرة] وقال تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً .. (٥٠)﴾ [المؤمنون] أى : معجزة دالة على قدرة الله وعظمته ، وقوله : ﴿لَوْلا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ .. (١١٨)﴾ [البقرة] أى: معجزة خارقة للعادة ، وهناك آيات كونية يرجع إليها فى كتاب الله ، وتجمع الآية على آى وآيات ، وكلها تدور حول العظمة والقدرة لتوحيد الخالق وعظمته .

العجيب ، وكل منا يسمع من يقول : إنها آية فى الحسن أو آية فى الجمال ، أو آية فى الفن ، أو آية فى الروعة .

فالآية إذن هى الشىء العجيب ، أو الشىء الذى بلغ من الحسن ومن الجمال درجة هائلة . وتطلق الآيات إطلاقات متعددة : فهى إما أن تكون المعجزات التى أمدَّ اللهِ بها رسله ؛ ليثبت صدقهم .

﴿ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ [1] (١٣٢) ﴾ [الأعراف]

وإما أن تطلق الآيات على الأشياء العجيبة فى الكون مثل قوله الحق :

﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ [2] مِنْهُ النَّهَارَ ... (٣٧) ﴾ [يس]

وقوله سبحانه :

﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ ... (١٢) ﴾ [الإسراء]

وقوله الحق :

﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً ... (٥٠) ﴾ [المؤمنون]

إذن : فالآية إما أن تكون شيئاً فى الكون ، وإما أن تطلق على المعجزة التى جاء بها الرسل ؛ لتثبت صدقهم فى البلاغ عن الله ، وقد يكون المقصود بها آيات القرآن .

إذن : فالآيات تطلق على ثلاثة أمور : الآيات الكونية للنظر والاعتبار ، وآيات إعجازية لصدق الرسول ﷺ فى البلاغ عن الله ، وآيات قرآنية تحمل الأحكام والتحدى للمشركين أن يأتوا بمثلها .

---

(١) قالها آل فرعون لموسى ، فعاقبهم الله فأرسل عليهم الطوفان والجراد والقُمَّل والضفادع والدم .

(٢) انسلخ النهار من الليل : خرج منه خروجاً لا يبقى معه شىء من ضوئه ؛ لأن النهار مكوَّر على الليل ، فإذا زال ضوؤه بقى الليل غاسقاً قد غشى الناس . ويسلخ الله النهار من الليل أى : يخرجه منه .

وهنا فى قوله الحق : ﴿الٓر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾ المراد بها : الآيات القرآنية [1] ، وما دام الله هو خالق الآيات الكونية الحسية ، وخالق المعجزات ؛ وهو منزِّل القرآن ؛ فلا تعارض بين الآيات ؛ لأن مصدرها واحد .

وقوله : ﴿الٓر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ①﴾ [يونس]

وكلمة ﴿الْحَكِيمِ﴾ معناها : الذى يضع الشىء فى موضعه الدقيق بحكمة ، فلا ينظر إلى ظاهر معطيات الشىء الآن ويغفل ما قد يأتى به من مضرّة .

ولله المثل الأعلى أقول : إنك قد تصل إلى الشىء ، وتظن أنه يخلصك من متاعب أخرى ، لكنه قد يؤدى إلى شىء أضر ، وهذا هو السبب فى اختلاف ألوان ووظائف العقاقير المختلفة ، ولذلك نجد الطبيب الحاذق يكتب عدداً من الأدوية ؛ ليستخلص المريض منها ما يشفيه ، ويحاول بقدر الإمكان أن يُجنبه الآثار الجانبية لتلك الأدوية .

إذن : فهذه حكمة ؛ لأن الطبيب لا يكتب الدواء الواحد الذى قد يأتى منه أثر ضار ، بل يكتب معه دواء آخر يخفّف من ضرره ، وهذه حكمة منه لأنه يعمل احتياطات لما قد ينشأ من ضرر أو أثر جانبى .

وفى أوائل الخمسينات ، حاول العلماء أن يقللوا من أثر تهديد الحشرات للزروع ، واخترعوا مادة اسمها «د. د. ت» لمقاومة الحشرات ، وافتخروا بهذا كل الفخر حتى علا كل صوت ، وهذا لأن البشرية وصلت إلى مادة تقضى على الحشرات ، ولكنهم اكتشفوا أن هذه المادة تضر الكائنات الحية

---

(١) المتعارف عليه عند النحويين أن اللام فى تلك للبعد ، وعلى هذا ذهب بعض المفسرين إلى أن المشار إليه هنا هو الكتب السابقة على القرآن . وذهب آخرون إلى أن اللام هنا ليست للبعد ، وأن تلك بمعنى هذه ، وعلى هذا تكون (تلك) إشارة إلى آيات القرآن ؛ لأنه لم يجر ذكر للكتب المتقدمة ، ولأن الحكيم وصف للقرآن ، دليل هذا : ﴿الٓر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ... ①﴾ [هود] .

الأخرى ، والآن تُوقع العقوبة على من يستخدم تلك المادة ؛ لأن ذلك عمل قد تم بغير حكمة. قد نأخذ منه ظاهر النفع ، لكن له جوانب متعددة من الضرر ، فقد سمّم الحيوانات وسمّم الزروع.

إذن: فالحكمة [1] تعنى : أن تضع الشيء فى موضعه ؛ ليعطيك فائدة لا تحدث ضرراً فيما بعد.

وقد أنزل الله المنهج فى الكتاب ليقود حياتنا إلى كل صلاح. فإن طبقناه ؛ فلسوف يأتى منه كل نفع ، ولن يأتى لنا أى ضرر ، وضربنا المثل فى المعطيات التى أعطاها الحق لنا فى الكون ، فسبحانه خلق لنا الحيوانات ؛ لنأخذ من لبنها ، ونأخذ من أصوافها ، ونأخذ من جلودها ، ونأكل من لحومها. وهو القائل:

﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ... (٧) ﴾

[النحل]

أى: أنها ستعطينا درجة من الراحة ، وإذا كان الإنسان قد اخترع أدوات أخرى تحمل عنا هذه المشقات ، وتبلغنا غاياتنا بدون تعب ؛ فهذه اختراعات تحقق مصلحة البشرية - وقد كانت البشرية تحمل أمتعتها فوق الحمار أو البغل - وقد صنع الإنسان هذه الاختراعات ؛ فصارت عندنا السيارات الكبيرة التى تحمل أطناناً من المواد والمتاع ، ولكن لم نلتفت إلى ما تحدثه من عوادم تسبب فساد الهواء ، وتلوثه على عكس فضلات الحمار أو البغل ، التى تفيد فى خصوبة الأرض.

---

(١) الحكمة : الصواب والسداد والحق والعلم والعدل والحلم والنبوة والقرآن والإنجيل . قال تعالى : ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ .. (١٢٩) ﴾ [البقرة] والحكيم : ذو الحكمة والرشاد الذى يتقن كل أمر يتولاه من حكم يحكم حكماً فهو حكيم ، والحكيم من أسماء الله الحسنى قال تعالى : ﴿ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ..(٢٠٩) ﴾ [البقرة] .

إذن: فصناعة السيارات إن لم تتخلص من عيوب عوادمها بأسلوب ما ، فهى اختراع بلا حكمة ، ويجب البحث عن وسائل لإزالة أضرار احتراق الوقود ، وبذلك نستفيد من سرعة السيارات ، وقدرتها على حمل البضائع ، ونتخلص مما تسببه من ضرر. وهكذا نعرف أن الحكمة هى: وضع الشىء فى موضعه المفيد فائدة دائمة لا يأتى من بعدها ضرر.

ولقائل أن يقول: وما معنى قول الحق : ﴿الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ هل الكتاب بمفرده له حكمة ؟ أم أن الحكيم هو من أنزل الكتاب؟ ونقول: إن معنى ﴿الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ أنه الكتاب الذى يمتلىء بالحكمة الصادرة من الله، أو الكتاب الذى أنزله الرب الحكيم. وكلمة «حكيم» على وزن «فعيل»، ومثلها مثل «كريم» و«رحيم» وتأتى مرة بصيغة فاعل ، ومرة بصيغة فعيل[1] ، وموضعها هو الذى يبين لنا ذلك.

ومعنى كلمة «الْحَكِيمِ» يتضح لنا من سياقها: فإن نسبت الأمر إلى الحكم فهو كتاب صادر من الحق سبحانه ، وإن أردت الوصف بمعنى فاعل فهو من حاكم ؛ والحاكم هو الذى يحكم فى قضايا ؛ ليبين وجه الحق فيها ، والقرآن يحكم فى كل قضايا الإيمان. وقمة العقيدة التى يحكم فيها القرآن هى لا إله إلا الله . ومن يفعل عكس ذلك هو الظالم ، وسبحانه القائل:

﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان]

والقرآن يحسم هذه القضايا ، وهو حاكم فاصل فيها[2] .

---

(١) صيغة فاعل تصاغ للدلالة على اسم الفاعل من الفعل الماضى الثلاثى المتصرف ، وقياساً على هذا فإن فعل (كرم) مثلاً تصاغ منه صيغة اسم الفاعل (كارم) وكذلك (بخل) يصاغ (باخل) وهذا يدل على معنى طارىء غير ثابت ، أما إن كان المعنى ليس طارئاً حادثاً وإنما هو دائم ، فيجب التصرف بتغيير صيغة « فاعل» الدالة على الحدوث إلى أخرى دالة على الثبوت كأن نقول : كريم ، بخيل . ومن هذا أيضاً حكيم . فهى صفة لها ثبوت ودوام فى حق الله ، ولذلك غيرت الصيغة من « فاعل» إلى « فعيل» . انظر: (النحو الوافى ٣/ ٢٤٢) .

(٢) القرآن حكيم ؛ لأنه صادر من أحكم الحاكمين .

فإن قلت : «محكم» تكون قد نسبته لله ، وإن قلت : «حاكم» فهو الفاعل وهو يحكم فى قمة العقيدة «لا إله إلا الله » ، وهى شهادة ذات لذات ، وشهادة مشهد من الملائكة ، وشهادة أدلة من الخلق :

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ ...(١٨)﴾[آل عمران]

وساعة يفصل القرآن فى هذه القضية ، فهو يحكم فيها حكماً عدلاً يبين وجه الحق فى قمة العقائد . وهو حاكم فى الأفعال ؛ فيبين الحلال من الحرام ويضع حداً فاصلاً فى الأحكام بين الحلال والحرام . وحاكم فى الأخلاق .

إذن : «حاكم» تعنى ما يبين وجه الحق فيما تتعارض فيه الآراء والأفكار والمعسكرات المتضاربة .

و« حكيم » : إما أن تكون بمعنى «فاعل» وإما أن تكون بمعنى (مفعول) ووقعت الحكمة من قائله عليه ، فصار «محكماً» ، وإن كانت كلمة الحكيم بمعنى فاعل تكون بمعنى «حاكم» وكلمة حاكم تدل على أن هناك فريقين : فريق يقول قضية ، وفريق آخر يناقضه ، فيأتى الحاكم ؛ ليفصل بين الأمرين ، وليعدل وينصف .

وقد جاء القرآن هكذا : حاكماً فى أمر القمة التى اختلف الخلق فيها ؛ فمنهم من أنكر وجود إله وهم الملاحدة . ومنهم من قال : إن الإله هو غير الله ، ومنهم من قال :الإله شريك لغيره ، فجاء القرآن ؛ ليفصل فى هذه المسألة ، وحكم فيها حكماً واضحاً ، وبيّن : يا من تقولون : لا إله ؛ أنتم كذابون ، ويا من تقولون : إن الإله غير الله ؛ أنتم كذابون ، ويا من تقولون : إن الإله له شركاء مع الله ؛أنتم كذابون ، بل هو إله

واحـد ، وهذا أول حـكم فى قضية القمة .

ومـا دام الحكم فى قـضيـة القمـة قد صح ؛ إذن : فالاسـتقـبال للـمنهج سيكون واحداً ، فلا آلهة متعـددة يضارب هذا ذاك ، أو يناقضه ، بل هو إله واحـد ، يصـدر عنه حكـم واحـد يحـقق الوحـدة فى التكاليف للناس جميعاً ، ويُخرج جميع الناس من أهوائهم إلى مراده هو سبحانه ، ويكون القرآن حاكماً أيضاً فى الأفعـال ، فقـد يختلف الناس فى تقـييمهم لفعل واحد . فهـذا يقول : فعل حسن ، وآخـر يقـول : فعل قبيح ، ويحسم القرآن الأمـر ويحدد الفـعل الحسن ؛ فيـأمر به ؛ ويحـدد الفعل القـبيح ؛ فينهى عنه ، ويبين القرآن لنا الحلال من الحرام[1] .

إذن : فالقـرآن حكم فى العقائد وفى الأفعـال وفى ذوات الأشيـاء حلاّ وحُرْمة ، وهو يحـكم أيضـاً فى قـضيـة هامـة تلى قـضيـة الحكم فى قـمـة العقيدة ، وهى صدق البلاغ عن الله ، فهذا الرسول الذى يحمل البلاغ عن الله لا بد أن يكون صـادقاً ، وقـد جاء القـرآن بالحكـم فى هذه القـضية بمعنى أنه قد جاء معجزاً ، فإن لم تكونوا قد صدقتم بأن هذا رسول ؛ فأتوا بمثل ما جاء به هذا الرسـول . فإن عجزتم ؛ فالرسول بنفسه يخبركم أن القرآن ليس من عنده ، بل من عند خالقه وخالقكم .

وسواء أكـانت «حكيم» بمعنى «فـاعل» أم بمعنى «مفعـول» فقـد دلتنا على أنها تعنى وضع الأشياء فى نصابها وضعاً يحقق النفع منها دائماً ، ولا ينتج عنها ضارة أبداً .

ثم يقول الحق بعد ذلك :

---

(١) وفى هـذا يقـول رب العـزة سـبحانه : ﴿ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ .. (٢١٣) ﴾ [البقرة] فالحكيم هنا بمعنى حاكم ، أى : أنه حاكم بالحلال والحرام ، وحاكم بين الناس بالحق .

﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ ۝٢ ﴾

ما هو العجيب [١] - إذن - فى أن الله أوحى إلى رجل منكم أن يبلغكم إنذار الله وبشارته؟ ما الذى تعجبتم منه؟ وما موضع العجب فيه ؟ وجاء تحديد العجب فيه ما ذكرته الحيثية فى آخر السورة السابقة من أنه:

﴿ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ... ۝١٢٨ ﴾ [التوبة]

أى: من البشر، ومن العرب ، ومن قبائلكم ، ومن أنفسكم ممن تعرفون كل خُلُقه، فما العجيب فى أن يرسله الله رسولاً إليكم ؟ إنكم قد ائتمنتموه على أموركم من قبل أن ينزل عليه الوحى من الله ، فكأنكم احترمتم طبعه الكريم، وأنكم فى كثير من الأشياء قبلتم منه ما يصل إليه من أحكام.

ودليل هذا أنكم حين اختلفتم فى بناء الكعبة ، وقالت كل قبيلة : نحن أولى بأن نضع بأيدينا أقدس شىء فى الكعبة ، وهو الحجر ، حين ذلك اختلفت القبائل ؛ فما كان إلا أن حكَّموا أول داخل ؛ فشاء الله أن يكون

(١) الشيء العجيب : غير المألوف للناس ، والآدمى إنما يتعجب من الشىء إذا عظم موقعه عنده ، وخفى عليه سببه . وقد تعجب المشركون من قضايا لم تستطع عقولهم استيعابها ، فاحتاج الأمر من القرآن أن ينفى العجب عن هذه القضايا ، وأن يدلل على عكس ما فى أذهان هؤلاء المشركين، أما القضايا فمنها:
١- قضية توحيد الله سبحانه ، فقالوا : ﴿ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۝٥ ﴾ [ص]
٢- قضية إرسال رجل منهم أى: من البشر ، فقالوا : ﴿ وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ... ۝٤ ﴾[ص]
٣- قضية البعث ، فقالوا : ﴿ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ .. ۝٥ ﴾ [الرعد].

أول داخل هو محمد بن عبد الله ، فكيف يحل محمد بن عبد الله هذه المشكلة [١] ، ولم يكن قد نزل عليه وحى بعد ؟ إنها الفطرة التى جعلته أهلاً لاستقبال وحى الله فيما بعد ، فماذا صنع ؛ لينهى هذا الخلاف ؟

جاء برداء ، ووضع الحجر على الرداء ، ثم قال لكل قبيلة : أمسكوا بطرف من الرداء ، واحملوا الحجر إلى مكانه . وتلك هى الفطرة السليمة. ورأينا أيضاً سيدنا أبا بكر عندما قالوا له وهو راجع من الرحلة التى كان يقوم بها : لقد ادعى صاحبك النبوة ،قال : «إن كان قد قالها فقد صدق».

من أى أحداث جاء حكم أبى بكر ؟ أهو سمع من رسول الله كلاماً معجزاً ؟ أسمع منه قرآناً ؟ لا ، بل صدّقه بمجرد أن أعلن أنه رسول. فقد جربه فى كل شىء ووجده صادقاً ، وجربه فى كل شىء ووجد أنه أمين ، فما كان محمد لِيصْدُقَ فيما بين البشر ، ليكذب على الله .

وكذلك خديجة بنت خويلد حينما قال لها رسول الله ﷺ : يأتينى كذا وأخاف أن يكون كذا ، فبينت له أن المقدمات التى فى حياته لا توحى بأن الله يخذله ويفضحه ويسلط عليه الجن : « إنك لتصل الرحم ، وتحمل

---

(١) كان محمد ﷺ يبلغ من العمر حينذاك ٣٥ سنة ، أى : قبل بعثته بـ ٥ سنوات ، وكانت القبائل من قريش قد اختلفت فيمن يضع الحجر الأسود فى مكانه ، وأعدوا للقتال ، وتعاقد بنو عبد الدار وبنو عدى على الموت ، ووضعوا أيديهم فى جفنة مملوءة دماً . وبقى الأمر على هذا أربع ليال أو خمساً . ويروى ابن إسحاق فى السيرة (١/ ١٩٧) ارتضاء قريش حكومة محمد فى هذا الأمر أن « أبا أمية بن المغيرة قال : يا معشر قريش ، اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد يقضى بينكم فيه ففعلوا . فكان أول داخل عليهم رسول الله ﷺ ، فلما رأوه قالوا : هذا الأمين ، رضينا ، هذا محمد ، فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر ، قال ﷺ : هلم إلىَّ ثوباً ، فأتى به ، فأخذ الركن (أى : الحجر الأسود) فوضعه فيه بيده . ثم قال : لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ، ثم ارفعوه جميعاً ، ففعلوا ، حتى إذا بلغوا به موضعه وضعه هو بيده ، ثم بنى عليه » .

الكَلَّ وتنصف المظلوم ، ولن يخزيك الله أبداً»[١] وبذلك كانت السيدة خديجة أول فقيه مستنبط[٢] فى الإسلام .

وقوله سبحانه : ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾ يعنى : التعجب من أن يصدر منهم العجب ، والقرآن يتعجب كيف يصدر منهم هذا العجب ؟ وما دام يتعجب كيف يصدر منهم هذا العجب ؟ فمن المنطقى ألا يكونوا قد تعجبوا ؛ لأنك حين تتعجب من شىء فإما أن تتعجب منه ؛ لأنه بلغ من الحسن مبلغاً فوق مستوى ما تعرف من البشر ، مثلما ترى صنعة جميلة وتقول : ما أحسن هذه الصنعة ، وتتساءل : ما الذى جعل هذه الصنعة جميلة إلى هذا الحد غير المتصور ؟

وأنت تقول ذلك ؛ لأن الصنعة قد بلغت من الجمال مبلغاً لا تصدق به أن أحداً من الموجودين فى إمكانه أن يصنعها . والمثال على ذلك : نجد من يقول : ما أحسن السماء ؛ وهو يتعجب من الشىء الذى يفوق تصوره . وقد يتعجب من شىء قبيح ، ما كان يجب أن يرد على الخاطر ، ولذلك يقول القرآن :

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ ... (٢٨)﴾ [البقرة]

---

(١) حديث بدء الوحى عن عائشة رضى الله عنها أخرجه البخارى فى صحيحه (٣ ، ٦ ومواضع أخرى) ومسلم فى صحيحه (١٦٠) .
– كانت السيدة خديجة بهذه المقولة قد لخصت رسالة الرسول فى كلمات : تعيش مشاكل الناس ناصراً للمظلوم مساعداً للمحروم فتحمل الكل .
وصلة الرحم ارتقاء بالأرحام والأقرباء وهو دفء الإنسانية ، يعيش فيه المجتمع بوجدان الجماعة وحنان الإخاء وإنصاف المظلوم هو اعتدال الموازين العدل ، والقول هو الإسلام ، وبهذا صدق قول الشيخ فإنها أول قضية تستنبط رسالة الإسلام من حالة الرسول قبل تمام الوحى .

(٢) الاستنباط فى الفقه : هو استخراج الفقيه للأحكام الشرعية من بطون الأدلة باجتهاده وفهمه . ومنه قوله تعالى : ﴿لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ ... (٨٣)﴾ [النساء] . والاستنباط فى اللغة : استخراج الماء من قعر البئر إذا حفرت .

أى : قولوا لنا : كيف قبلتم لأنفسكم الكفر ؟

لأن الكفر مسألة عجيبة تتنافى مع الفطرة .

وهنا يقول الحق :

﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ ... ﴿٢﴾ ﴾ [يونس]

وهنا نتساءل : كيف تتعجبون وقد جئناكم برسول من أنفسكم ، ﴿ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [التوبة]

أليس هذا هو المطلوب فى الرائد ، فكيف تعجبون ؟ [1].

إن عجبكم يدل على أن بصيرتكم غير قادرة على الحكم على الأشياء ، وما كان يصح أن يُستقبل الرسول بالعجب ، ونحن نتعجب من عجبكم هذا .

وحين تتعجب من العجب ؛ فأنت تبطل التعجب .

﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا ... ﴿٢﴾ ﴾ [يونس]

أى : أن إيحاءنا لرجل منكم كان عجيباً عندكم ، وما كان يصح أن يكون أمراً عجيباً ؛ لأنه أمر منطقى وطبيعى .

ثم ما هو الوحى؟ لقد سبق أن أوضحنا أن الوحى هو الإعلام بخفاء . وهناك إعلام واضح مثل قولك لابنك : يا بنى اسمع كذا، وافعل كذا . هذا إعلام واضح . وهناك إعلام بخفاء ، كأن يدخل عندك ضيف ؛ ثم يسهو خادمك - مثلاً - عن تحيته ، فتشير للخادم إشارة ؛ تعنى بها أن

---

(١) روى ابن عباس فى سبب نزول هذه الآية أنه : لما بعث الله تعالى محمداً ﷺ رسولاً أنكرت الكفار ، وقالوا : الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً مثل محمد ، فأنزل الله تعالى هذه الآية . ومما قاله المشركون : ما وجد الله من يرسله إلا يتيم أبى طالب ؟ انظر : أسباب النزول للواحدى (ص ١٥٢) وتفسير القرطبى (٤/ ٣٢٣٢) وابن كثير فى تفسيره (٢/ ٤٠٦) .

يُسرع بتقديم التحية للضيف ؛ من مرطبات ، أو حلوى ، وهكذا تكون قد أعلمت خادمك بخفاء.

والحق سبحانه وتعالى يوحى إلى الجماد ، فسبحانه يقول : ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا ① وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا ② وَقَالَ الإِنسَانُ مَا لَهَا ③ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ④ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ⑤﴾ [الزلزلة]

أى: أنه سبحانه وتعالى قد أعلمها إعلاماً خفيّاً ؛ وهى قد فهمت بطريقة لا نعرفها.

وسبحانه يوحى للحيوانات، فهو القائل :

﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ [1] ... ⑥⑧﴾ [النحل]

وأنت لا يمكنك أن تقول: أنا سمعت الله وهو يوحى للنحل ؛ لأن الوحى إعلام بخفاء ، وهو سبحانه أعلم بالطريقة التى تم بها هذا الوحى ، والنحل قد فهم عنه سبحانه ، ولا شأن لك بذلك ، فلا تسأل عن كيفية هذا الوحى. ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ⑥⑧﴾ [النحل]

أى: أنها فهمت عن الله بما أودع فيها من الغرائز.

وسبحانه يوحى للملائكة وهو القائل :

﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ ... ①②﴾ [الأنفال]

ويوحى الحق سبحانه إلى غير الرسل ؛ كما أوحى إلى أم موسى

---

(١) قال الزجَّاج: جائز أن يكون سمى نحلاً ؛ لأن الله عز وجل نحل الناس العسل الذى يخرج من بطونها.

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ ... (٧) ﴾ [القصص]

وأوحى سبحانه إلى الرسل جميعاً.

إذن: فسبحانه يوحي للجماد، ويوحي للحيوان، ويوحي للملائكة ويوحي للصالحين من غير الأنبياء، ويوحي للأنبياء وللرسل.

والوحي - كإعلام بخفاء - يقتضي مُعْلماً، وهو الحق سبحانه وتعالى، ومُعْلَماً؛ وهو إما: الأرض، وإما النحلَ، وإما الملائكة، وإما إلى بعض الصالحين من غير الأنبياء، وإما إلى الرسل والأنبياء.

وقد يأتي الوحي من غير الله، فسبحانه يقول: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ [1] الْقَوْلِ غُرُورًا [2] ... (١١٢) ﴾ [الأنعام]

إذن: فالشياطين يُعلمون بعضهم البعض إعلاماً خفياً.

ويقول الحق: ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ... (١٦٣) ﴾ [النساء]

والموحى إليه هو محمد رسول الله ﷺ، وهو وحي خاص بالرسول، فلا تقل: أنا لم أسمع ماذا أوحي إلى محمد، ولا أعرف كيف نزل

---

(١) زخرف: الزخرف: الزينة، والمراد هنا: التمويه والتزوير، وزخرف القول غروراً: أي: حسن القول بتزيين الكذب.

(٢) الغُرور: ما غرك من إنسان وشيطان وغيرهما، والغَرور: الشيطان ﴿ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ (٣٣) ﴾ [لقمان]. والغرور: الأباطيل، ويجوز أن يكون الغُرور جمع غارّ، مثل شاهد وشهود. والغرور: الدنيا ومتاعها، والغرور: الإغراء بالوعد الكاذب والتمنية. ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (٦) ﴾ [الانفطار] و ﴿ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ... (٣٣) ﴾ [لقمان]. والغرور: الخداع وتزيين الشر والمعاصي. وغرر بنفسه وماله تغريراً وتغرة: عرضهما للهلكة من غير أن يعرف. والغَرر: الخطر، وقد نهى رسول الله ﷺ عن بيع الغَرر، وهو مثل بيع السمك في الماء والطير في الهواء. والتغرير: حمل النفس على الغَرر.

الوحى [١] ، فقد جاء جبريل إلى رسول الله ﷺ ، وبلغه أن يعلن ما أوحى إليه ، ولو كنت أنت قادراً على سماع الوحى من جبريل ، فما ضرورة إرسال الرسول إذن ؟

إن الطاقة والقدرة العالية المرسلة إلى الموحى إليه تحتاج إلى قوة تحمل ، وضربنا المثل من قبل بأن الإنسان حين ينقل طاقة من مصدر عال قوى إلى مصدر ضعيف فهو لا يُسرب الطاقة من القوىّ إلى الضعيف دفعةً واحدة ، وإلا لما تحمَّل الضعيف تلك الطاقة القادمة إليه من القوى ، ولذلك نحن نأتى بمحوِّل يتحمل طاقة القوى ، ثم ينقل للضعيف ما يناسب قدرته ، ومثال ذلك هو شراؤنا لمحول كهربى حين ننقل الكهرباء من مصدر طاقة عالى الجهد إلى مصدر آخر ضعيف قليل الجهد ؛ مثل المصباح الصغير الذى تضيئه فى المنزل ليلاً لينير بالقدر المناسب كيلا نرتطم بالأشياء ، وهو ما نسميه بالعامية «ونّاسة». إذن : فمهمة المحول أن يستقبل من مصدر الطاقة القوى ؛ ليضىء لمصدر الطاقة الضعيف.

فإذا كان الله سبحانه وتعالى هو الذى يوحى للرسول ، والرسول من البشر لا يمكنه التلقى المباشر عن الله ؛ لذلك لا بد من واسطة تبلغ فى الارتقاء بما يسمح لها بالتلقى عن الله ، وتستطيع أن تلتقى بالبشر؛ وهذه خاصية المـَلَك.

ورغم هذا أصاب الجهد والتعب سيدنا رسول الله ﷺ فى أول تلقيه للوحى ، وكان ﷺ يعرق حتى يتفصد [٢] العرق من جبينه ، وإذا انصرف

---

(١) عن عائشة رضى الله عنها أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله كيف يأتيك الوحى ؟ فقال رسول الله ﷺ : « أحياناً يأتينى مثل صلصلة الجرس وهو أشده علىّ فيفصم عنى وقد وعيت عنه ما قال ، وأحياناً يتمثل لى الملك رجلاً فيكلمنى فأعى ما يقول » أخرجه البخارى فى صحيحه (٢) ومسلم (٢٣٣٣) .

(٢) تفصد العرق : أى : سال العرق من جبينه . وقد قالت عائشة رضى الله عنها : ولقد رأيته ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢) ومسلم (٢٣٣٣) من حديث عائشة واللفظ للبخارى .

عنه الوحى قال: « زمّلونى . . زملونى» [١] ويرتعد.

وكان الصحابة يقولون: كان إذا نزل الوحى على رسول الله ، وهو قاعد ؛ وقد تكون ركبته على فخذ أحد الصحابة ، فيجد الصحابى ثقلاً على رجله من شدة وطأة ركبة الرسول ﷺ ، وإذا نزل الوحى ، والرسول يركب مطية فهى تئط منه [٢].

إذن : كان الوحى يُتعب رسول الله ﷺ ، وبعد أن يُسرَّى عنه التعب [٣] ؛ تبقى له حلاوة ما أوحى إليه ؛ فيتشوّق ثانية للوحى.

وقد شاء الحق أن يشوّق النبى ﷺ ، للوحى ففتر [٤] الوحى لمدة من الزمن. وحين اشتاق النبى للوحى ؛ كان ذلك يعنى أنه قد شحن نفسه بطاقة متقبلة لاستقبال هذا الوحى ؛ بما فيه من تعب.

ولله المثل الأعلى دائماً ، قسْ أنت الجهد المبذول فى رحلة إلى من تحب ، أثناء المطر ، والأرض موحلة [٥] ومليئة بالشوك ، ورغم ذلك أنت تقطع الرحلة دون أن تلتفت لما فيها من إرهاق وتعب.

وشاء سبحانه أن يُرغِّب رسوله شوقاً إلى الوحى ، رغم ما فيه من جهد؛ لأنه التقاء مَلَك ببشر ، وهذا اللقاء يكون على صورتين : إما أن

---

(١) المراد بالتزميل هنا : طلب الحماية وإذهاب الخوف والروع والرعدة التى ألمت بجسمه مما رآه ؛ عن طريق لف جسمه بالثياب وتغطيته . وزمل الشىء : أخفاه ، وزمله فى ثوبه : أى : لفه . والتزمل : التلفف بالثوب ، وقد تزمل بثيابه أى : تدثر . وفى حديث قتلى أحد : « زملوهم فى ثيابهم » أى : لفوهم فيها. أخرجه أحمد فى مسنده (٥/ ٤٣١) من حديث عبد الله بن ثعلبة .

(٢) تئط الناقة : تئن من ثقل الركبان . عن أسماء بنت يزيد قالت : إنى لآخذة بزمام العضباء ناقة رسول الله ﷺ إذ نزلت عليه المائدة كلها وكادت من ثقلها تدق عنق الناقة . أخرجه أحمد فى مسنده (٦/ ٤٥٥) .

(٣) يسرى عنه التعب : أى: يذهب عنه .

(٤) فتر الوحى : انقطع . والفترة : ما بين كل نبيين ، وفى الصحاح : ما بين كل رسولين من رسل الله – عز وجل – من الزمان الذى انقطعت فيه الرسالة . ومنه قوله تعالى : ﴿ يَـٰأَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ ... (١٩) ﴾ [المائدة] .

(٥) أرض موحلة : أى: أصابها الوَحل ، وهو الطين الرقيق الذى ينتج من أثر مطر أو ماء يصيب الأرض .

ينقلب الملَك إلى مرتبة بشرية ؛ وهذه الصورة ليس فيها إجهاد على رسول الله ﷺ ؛ لأن عملية التحويل جاءت في الأعلى بينما يظل رسول الله ﷺ كما هو ، مثلاً دخل جبريل على رسول الله ، وكان معه بعض من الصحابة ، وسأل النبي ﷺ : ما الإيمان ؟ وما الإسلام ؟ وما الإحسان ؟ ثم اختفى السائل ، فسأل الصحابة رسول الله عن هذا السائل ؛ فقال : «هذا جبريل جاءكم يُعلِّمكم أمور دينكم» [1] .

هذه هي الصورة الأولى في الوحي ، والتحول فيها كان من جهة الإرسال فلا مشقة فيها على النبي ﷺ .

أما الصورة الثانية ، فقد كان فيها مشقة على رسول الله ﷺ ؛ لأن الملك يظل على طبيعته ، والتحول إنما يحدث لمحمد ﷺ ، وكان التحول يقتضي عملية كيماوية تصيبه بالجهد ؛ فيقول بعد أن يُسرى عنه : «زمّلوني» .

وشاء الحق أن يتلطف برسوله ، ففتر الوحي فترة من الزمن . وقال الكافرون من العرب : إن رب محمد قد قلاه [2] وهذا غباء منهم ؛ لأنهم

(١) عن عمر بن الخطاب قال : بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم ، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لا يرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد ، حتى جلس إلى النبي ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ، ووضع كفيه على فخذيه ، وقال : يا محمد أخبرني عن الإسلام ، فقال ﷺ : « الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً . قال : صدقت . قال : فعجبنا له يسأله ويصدقه قال : فأخبرني عن الإيمان ؟ قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره . قال : صدقت . قال : فأخبرني عن الإحسان . قال : أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك . . . . » الحديث أخرجه البخاري في صحيحه (٥٠) ومسلم في صحيحه (٨) . والشاهد من الحديث أن جبريل أتى رسول الله ﷺ في صورة بشرية ، فلم تكن شاقة عليه ﷺ .

(٢) عن جندب البجلي قال : أبطأ جبريل على رسول الله ﷺ فقال المشركون : قد وُدِّع محمد . فأنزل الله عز وجل : ﴿ وَالضُّحَىٰ ① وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ② مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ③ ﴾ [الضحى] أخرجه مسلم في صحيحه (١٧٩٧) والترمذي في سننه (٣٣٤٥) وقال : حديث حسن صحيح . وقد أورد ابن كثير في تفسيره (٤/ ٥٢٢) من الطريق الذي أخرج مسلم من الترمذي حديثه إلى جندب ، بلفظ : « فقال المشركون : ودع محمداً ربه » .

اعترفوا أن لمحمد ربّـا . وما داموا قد اعترفوا ، فعدم إيمانهم صلف [١] وغباء ، وأرادوا بذلك أن ينسبوا النقص لمحمد ﷺ ، فقالوا: إن الله قد قلى [٢] محمداً.

وقد شاء الحق أن ينقطع الوحى عن محمد ﷺ هذه المدة ؛ ليكشفهم أمام أنفسهم وأمام غيرهم ، لتنكشف نواياهم ، وتثبت قلّة بصيرتهم ، وافتقادهم للمنطق السليم ، فهم حين اعترفوا أن لمحمد ربًا ، كان عليهم أن يحتكموا إلى عقولهم ؛ ليعرفوا أنهم قد أقروا بالألوهية ، لكنهم أرادوا بهذا الاعتراف أن ينسبوا النقص لرسول الله ﷺ .

ولو قاضيناهم إلى عقولهم ، وإلى الكون الذى عاشوا فيه ، وإلى الظواهر المادية المحسوسة لهم ، لعرفوا أن الأحداث لا بد لها من زمان ومكان ؛ لأن كل حديث يتطلب زماناً ومكاناً ، وإذا لم يوجد حدث ؛ لا يوجد زمان أو مكان.

ولذلك أقول دائماً لمن يسأل : أين كان الله ؟ أقول له: أنت جئت بالأينية من الزمان ، والمكانية من المكان ، وهذا لا يتأتى إلا بوجود حدث. وما دام الله غير حدث ، فلا زمان يحدده ، ولا مكان يُحيّزه؛ لأن الزمان كان به ، والمكان كان به. والأحداث هى عند البشر ، فهم من يستقرون فى المكان ، ويتوالى عليهم الزمان.

والزمان الذى يحدث فيه أى حدث اسمه «ظرف زمان» [٣] ، والمكان

---

(١) الصَّلَف : مجاوزة الحد فى الادّعاء والتكبّر.

(٢) قليته : كرهته غاية الكراهة ؛ فتركته. والقِلَى: البُغْض.

(٣) الظرف : هو الزمن أو المكان الذى وقع فيه الحدث ، ويسميه النحاة «المفعول فيه» أى : أن الحدث أو الفعل قد وقع (أو يقع - أو سيقع) فى زمن ما ، ومكان ما.

الذى يحدث فيه الحدث اسمه «ظرف مكان»؛ وظرف المكان ظرف قارّ [١] ثابت ، بينما ظرف الزمان غير قارٍّ ، بل هو حال ، وبعد قليل يصبح الحال زمناً ماضياً ؛ ويأتى المستقبل ليكون حاضراً ، ثم يصبح ماضياً.

وهكذا نعلم أن زمناً يحدث فيه التناوب بين المستقبل والحال والماضى، والليل والنهار هما أوضح صور ظرف الزمان وفيهما اختلاف ، فالليل يأتى والنهار خلفه [٢] ؛ لأن النهار جعله الله ضياء ؛ للحركة والكدح والعمل ، وجعل سبحانه الليل ظلاماً ؛ للسكون والراحة ، فإن لم ترتحْ بالليل ؛ لا تقوى على العمل فى الصباح ، وهكذا يكون الليل مكملاً للنهار لا مناقضاً له [٣] .

وكذلك شاء الحق أن يكون الوحى بهذا الشكل ، فحين جاء الوحى لأول مرة أجهد رسول الله ﷺ ، ثم فتر الوحى ليستريح ﷺ ؛ وتتجدد قدرته على استقبال الوحى من بعد ذلك.

وحين قال الكافرون: إن ربَّ محمد قد قلاه ، ردّ عليهم الحق سبحانه

---

(١) قار : مستقر ثابت. ومنه أيضاً القرار بمعنى الاستقرار ، كقوله تعالى: ﴿ اللَّهُ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً .. (٦٤) ﴾ [غافر] .

(٢) قال عز وجل: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ .. (١٦٤) ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ .. (١٦٤) ﴾ [البقرة] قال ابن كثير فى تفسيره (١/ ٢٠١) : « أى : هذا يجىء ثم يذهب ويخلفه الآخر ويعقبه لا يتأخر عنه لحظة» ويقول سبحانه أيضاً: ﴿ وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا (٦٢) ﴾ [الفرقان] أى: جعلهما يتعاقبان توقيتاً لعبادة عباده له عز وجل ، فمن فاته عمل فى الليل استدركه فى النهار ، ومن فاته عمل فى النهار استدركه فى الليل . وقال مجاهد وقتادة: خلفة ، أى: مختلفين ، أى: هذا بسواده ، وهذا بضيائه .

(٣) يقول تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ .. (١٢) ﴾ [الإسراء] وهاتان آيتان على توحيد الله وأن لهذا الكون إلهاً واحداً ، ولذلك يقول رب العزة: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلا تُبْصِرُونَ (٧٢) ﴾ [القصص] .

وتعالى: ﴿وَالضُّحَىٰ [1] ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ [2] ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾﴾ والضحى ضحوة النهار وهى - كما قلنا - للعمل والحركة ، فإذا جاء الليل فهو يبدو وكأنه ضد النهار ، لكنه غير ذلك ، بل هو مكمل له ويساعده.

إذن: ففتور الوحى لمدة من الزمن كان لمساعدة رسول الله ﷺ لتجديد الحيوية. وقد أقسم الحق سبحانه بالضحى والليل ، وهو قسم بالظاهرة الكونية المشاهدة والتى يعترف بها كل إنسان ، مؤمنهم ، وكافرهم!

أقسم الحق بالضحى أنه ما قلى رسوله [3] ، بل شاء بفتور الوحى أن يعطيه طاقة تزيد من حركته ، وتزيد من جهده ليشتاق ﷺ لأمر الوحى. وبذلك أعانه الحق على مهمته ، وفى هذا أبلغ ردٍّ على من قالوا: إن رب محمد قد قلاه ، وإثبات أن الحق قد شاء لفترة فتور الوحى أن تكون كالليل سكوناً ، ليهدأ ﷺ بعد الضحى المجهد الذى استقبل به الوحى.

---

(١) أقسم الله بالضحى والليل إذا سجى ؛ لأن عظمة الأمل تتجلى فيهما ، وذلك لاستقبال العطاءات الإلهية قائلاً : ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾﴾ [الضحى] وهذه حماية ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾﴾ [الضحى] تمام العناية ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿٥﴾﴾ [الضحى] قمة الرعاية ثم أقام له الدليل على العطاء قائلاً : ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾﴾ [الضحى] ما دمت أعطيت هذه العطاءات الثلاث فأطلب منك ثلاثاً : ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾ [الضحى] وبهذا يكون انشراح الصدر.

(٢) سجى: سكن وأظلم وامتد. والليل إذا سجى: إذا سكن بالناس أو إذا لَبِسَ الناس. وسُجُوُّ الليل: تغطيته للنهار. وسجا يسجو سجواً، وسجَّى يسجِّى وأسْجَى يُسْجِى: غطَّى شيئاً ما. والتسجية: التغطية.

(٣) تأمل هذا المعنى الذى أشار إليه فضيلة الشيخ فى القسم بالضحى محل الحركة والكد والتعب ثم بالليل محل السكون لتجديد الطاقة، ومطابقة هذا لنزول الوحى وجَهْد النبى فى استقباله ثم انقطاعه لتجديد طاقة الرسول ﷺ . وقد أضاف ابن القيم ملمحاً مكملاً لهذا المعنى فى كتابه : «التبيان فى أقسام القرآن» فقال: «تأمل مطابقة هذا القسم وهو نور الوحى الذى وافاه بعد احتباسه عنه، حتى قال أعداؤه: ودّع محمداً ربه، فأقسم بضوء النهار بعد ظلمة الليل على ضوء الوحى ونوره بعد ظلمة احتباسه واحتجابه». نقله السيوطى فى «الإتقان فى علوم القرآن» (٤ / ٥١).

وبعد أن تتجدد حيويته ﷺ يأتى الوحى من جديد ؛ لذلك قال الحق :

﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿٥﴾﴾ [الضحى]

وبعد هذه السورة يقول الحق سبحانه فى سورة الشرح : ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ [(١)] ﴿٢﴾ الَّذِى أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾﴾ .

وهكذا بيَّن لنا الحق أن مسألة فتور الوحى وعودته هى عملية متكاملة ، لكن الأغبياء فقط هم من يظنون أنها متناقضة ويقولون : (ظلمة - وضوء) ، و(ليلٌ ، ونهارٌ) والحق أنها متكاملة .

ومثل هذا الأمر تجده أيضاً فيمن يحاولون خَلْق عداوة بين الرجل والمرأة ، ولم يتفهَّموا أن الذكر متمّم للأنثى ، وأن الأنثى متمّمة للذكر .

وهنا يقول الحق : ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا ... ﴿٢﴾﴾ [يونس]

والإنذار - كما نعلم - هو الإخبار بشىء يمكن أن تتلافاه . أما البشارة [(٢)] فهى الإخبار بخير يحثُّك من يبشرك على أن تقتنيه . وأنت تنذر من يهمل فى دراسته بأنه قد يرسب ، وأنت حين تنذره إنما تطالبه بأن يجتهد ، وفى المقابل فأنت تبشر المجتهد بالنجاح وبالمستقبل الطيب .

إذن : فالإنذار يعنى أن تحث الإنسان على ألا يقبل أو يُقْدِمَ على

---

(١) الوزر : الحمل الثقيل . أنقض ظهرك : أثقلك حمله .

(٢) البشارة المطلقة لا تكون إلا بالخير ، أما البشارة المقيدة فتكون بالشر كقوله تعالى : ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾﴾ [آل عمران] ويكون على سبيل الاستهزاء بهم والسخرية .

ما يضره . والتبشير يعنى أن تحث الإنسان على أن يجتهد ؛ لينال ما يحبه. والأمور فى الأحداث كلها تدور بين سَلْب وإيجاب .

ولسائل أن يقول: ولماذا جاء سبحانه بالإنذار قبل البشارة ؟

فنقول: إن كلمة «الإنذار» كلمة عامة لكل الناس ، حتى يتجنبوا ما يقودهم إلى النار ، لكن البشارة تكون لمن آمن فقط . أو أن الإنذار والبشارة للمؤمنين ، ولكن شاء الحق أن يجعل المؤمنين فى صف البشارة دائماً ، وأن يكون الإنذار لوناً من ضرورة التخلية من العيوب ، قبل التحلية بالكمال .

فأنت تدفع عن نفسك الأمر الذى يأتى بالضُرّ أولاً ، ثم تتجه إلى ما يجلب النفع من بعد ذلك ؛ لأن دَرْء [(١)] المفسدة مُقدّم على جلب المصلحة [(٢)] .

ونجد الحق سبحانه يحدد الإنذار بأنه للناس ، والناس: هم الجنس المنحدر من آدم إلى أن تقوم الساعة . وقد وقف بعض المستشرقين عند كلمة «الناس» ، وأرادوا أن يدخلونا من خلالها إلى متاهات التشكيك فى القرآن ، وقالوا: إن القرآن فيه تكرار لا لزوم له .

وأهم سورة أخذها هؤلاء المستشرقون هى سورة «الناس» حيث يقول الحق: ﴿ **قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝١ مَلِكِ النَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ النَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ**

---

(١) الدَّرْء : الدفع . يقول تعالى : ﴿ وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ۝٢٢ ﴾ [الرعد] . قال ابن كثير فى تفسيره (٢/ ٥١٠) « أى : يدفعون القبيح بالحسن ، فإذا آذاهم أحد قابلوه بالجميل صبراً واحتمالاً وصفحاً وعفواً» .

(٢) المقصود بالمصلحة هو المحافظة على مقاصد الشارع الأساسية ، والتى دل الاستقراء على أنها خمس ضروريات لا بد منها ، وهى : حفظ الدين والعقل والنفس والنسل والمال . فكل تشريع أو حكم يحفظ أحد هذه الأمور فهو مصلحة ، وكل ما يضر بها فهو مفسدة .

الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ [(١)] ﴿٤﴾ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ الْجِنَّةِ [(٢)] وَالنَّاسِ ﴿٦﴾﴾ [الناس]

وهذا الجمع من المستشرقين فهموا أن المعنى لكلمة «الناس» فى كل آية من آيات هذه السورة هو معنى واحد. ولأنهم لم يتمتعوا بملكة اللغة ؛ لم يلتفتوا إلى أن معنى كلمة «الناس» فى كل موقع هو معنى مختلف وضرورى ؛ لأن الحق سبحانه أراد بكل كلمة فى القرآن أن تكون جاذبة لمعناها ، وأن يكون كل معنى جاذباً للكلمة المناسبة له.

والمثال أيضا فى كلمة «الناس» ؛ هو قول الحق سبحانه : ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ... ﴿٥٤﴾﴾ [النساء]

فهل كل الناس تتلقى الحسد ؟ لو كان الأمر كذلك فمن الحاسد؟ إذن: فقوله الحق: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ ... ﴿٥٤﴾﴾ [النساء]

إنما يعنى أن هناك أناساً حاسدين [(٣)] ، وآخرين محسودين. ولا تكون كلمة «الناس» عامة شاملة لكل الأفراد إلا فى حالة الحكم العام.

---

(١) خنس يخنس خنوساً وخناساً: انقبض وتأخَّر. والوسواس الخناس المتحيِّن للفرص فساعة ضعف النفس ينقض ، وساعة عزيمة النفس ينفض ، وهو الذى يوسوس فى صدور الناس من الإنس والجن ، وهو إبليس يوسوس فى صدور الناس ، فإذا ذكر الله خنس ، وعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الشيطان واضع خَطْمه (مقدَّم أنفه وفمه) على قلب ابن آدم ، فإن ذكر الله خنس ، وإن نسى التقم قلبه. فذلك الوسواس الخناس». أخرجه أبو يعلى فى مسنده (٧/ ٢٧٨) وأبو نعيم فى الحلية (٦/ ٢٦٨). ضعف إسناده ابن حجر فى الفتح (٨/ ٧٤٢) وقال : «فيه عدى بن أبى عمارة ، وهو ضعيف» وقيل إن له رأسا كرأس الحية ، يجثم على القلب ، فإذا ذكر العبد الله تعالى تنحى الشيطان وخنس ، أى : ابتعد كمن صدم أو أصابه شىء أبعده . والوسوسة : هى الإيحاء بالشر.

(٢) الجِنَّةُ: هم الجن ، سموا بهذا لاستتارهم عن أعين الناس ، ومنه: جنَّ عليه الليل ، أى: ستره ، ومنه الجَنين ؛ سمى بهذا لاستتاره فى بطن أمه.

(٣) حسد من باب نصر وضرب - حَسَداً : كره نعمة الله على غيره وتمنى زوالها ، وقد يسعى ليزيلها . قال تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾﴾ [الفلق] . أى : إذا حاول أن يزيل نعمة الله بمختلف الوسائل ونظرات الحاسد منبعها الحقد « القاموس القويم للقرآن الكريم » ص ١٥٣ .

والمثال هو قوله الحق : ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ .. (٩٦)﴾ [آل عمران]

وهذا القول الحق يحل لنا إشكالاً عاماً ، فالبيت الحرام موضوع لكل الناس ، من لَدُن [1] آدم ، وآدم هو أبو الناس.

ولا بد - إذن - أن يكون البيت موضوعاً قبل أن يكون آدم ، وأن الذى وضعه هو من غير الناس ، فالذى وضعه هو بأمر من الحق سبحانه ، فلا يقولن أحد: إن إبراهيم - عليه السلام - هو الذى وضع البيت الحرام ؛ لأن مهمة إبراهيم - عليه السلام - كانت هى رفع القواعد من البيت ؛ لأننا لو قلنا: إن ابراهيم - عليه السلام - هو الذى بنى البيت؛ فكيف ينسجم هذا مع قوله الحق:

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ [2] مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ ... (١٢٧)﴾ [البقرة]

وهو قول نفهم منه أن إسماعيل كان شريكاً لوالده فى الرفع والبناء ، ولا بد أن يكون قد امتلك درجة من القوة تجعله قادراً على مساعدة الأب فى العمل.

وهذا القول أيضاً نفهم منه أن عملية رفع القواعد من البيت لم تتم وقت أن كان إسماعيل رضيعاً [3] ؛ لأن الحق سبحانه قال على لسان إبراهيم عليه السلام : ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ... (٣٧)﴾ [إبراهيم]

وهذا يعنى أن البيت كان موجوداً قبل ذلك.

---

(١) لَدُن : ظرف زمان ، والمراد : من زمن آدم عليه السلام .

(٢) القواعد: جمع قاعدة وهى السارية وأساس البناء.

(٣) كان عُمْر إسماعيل عليه السلام وقت رفع القواعد مع أبيه إبراهيم ١٣ سنة ، أما كونه كان رضيعاً فهو من الإسرائيليات المتلقاة عن أهل الكتاب.

وقولنا هذا يرد على بعض العلماء الذين قالوا: إن إبراهيم - عليه السلام - هو أول من بنى الكعبة فنقول لهم: وماذا عن الخلق البشرى من قبل إبراهيم إلى لَدُنْ آدم ؛ أليسوا ناساً ؛ فلماذا لم يكن لهؤلاء الناس من قبل إبراهيم بيتٌ محرّمٌ ؟

وهكذا شاء الحق سبحانه أن يكون البيت الحرام لكل الناس من لدن آدم ، وأنه موضوع من قِبَلِ الله .

وكلمة الناس - إذن - عامة حين يتعلق الأمر بحكم عام ، وتكون خاصة فى مواقع أخرى ، مثل قوله :

﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ... ﴿٥٤﴾﴾ [النساء]

وأما سورة «الناس» التى قال بعض المستشرقين : إن فيها تكراراً . فالأمر ليس كذلك ، بل هيأ لهم ذلك عجزهم عن امتلاك ملكة فهم اللغة.

وحين نتناول كلمة «الناس» بالاستقراء [1] الدقيق فى هذه السورة ، نجد الحق سبحانه يقول: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾﴾ [الناس]

وهذا إعلان للربوبية لكل الخلق ، فهو الرب الذى أوجد وأعطى الصفات لكل مخلوق.

ولا تحسب أنك تستطيع أن تشرد منه؛ فهو سبحانه يقول:

﴿مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾﴾ [الناس]

أى: أنه يملك كل الخلق ، وجعل لهم الاختيار فى أشياء؛ ومنع عنهم

---

(١) الاستقراء: القراءة مع التفكير الدقيق فى النص؛ للوصول إلى المعنى المراد منه . وفى الاصطلاح: تتبع الجزئيات للوصول إلى نتيجة كلية. (المعجم الوسيط).

الاختيار فى أشياء ، ولم يقل سبحانه : «مليك النَّاس» ؛ لأن هذا القول يعنى أنهم مجبورون على الإيمان ، ولا يسعهم غير هذا ، ولكن الله جعلهم مختارين فى الأمور التى هى مَنَاط للتكليف [(١)] ، وغير مختارين فى أمور هى ليست محلاً لهذا [(٢)] .

وأقول لأى واحد ممن تمرّدوا على الإيمان؛ فكفروا بالله ؛ أقول: أنت متمرّد على الله ، وتكفر به ، وتنكر الألوهية ، فلماذا لا تكون منطقيّاً مع نفسك ، وتتمرّد على كل الأحداث التى تصيبك ، فإن أصابك مرض ؛ قل له: لا ، لن أمرض.

فلا أحد يستطيع أن يدفع عن نفسه قدراً شاءه الله ؛ لأن الأحداث [(٣)] ستنال من كل إنسان ما قدره الله له.

إذن: فكل إنسان هو مملوك لله. وهكذا نجد الفرق بين أن يقول سبحانه:
﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ①﴾ [الناس]

وأن يقول : ﴿مَلِكِ النَّاسِ ②﴾ [الناس]

و«الناس» فى الآية الأولى هم المربوبون ، والناس فى الآية الثانية هم «المملوكون لله» فلا أحد يخرج عن قدرة الله فى الأمور القهرية.

وتأتى «الناس» فى الآية الثالثة: ﴿إِلَـٰهِ النَّاسِ ③﴾ [الناس]

---

(١) مناط للتكليف : أى محل وموضع للتكليف. مثل الإيمان أو عدمه ثم مقتضيات هذا الإيمان ولوازمه وشروطه. وهى أشياء جعل الله الإنسان مختاراً فيها، فله أن يؤمن أو يكفر. فإذا آمن فعليه أن يلتزم بمتطلبات هذا الإيمان، وهو وإن كان ملزماً بهذا إلا أن له الاختيار فى أن يفعل أو لا يفعل، وبموجب هذا يكون الثواب والعقاب فى الدنيا والآخرة.

(٢) أما الأمور التى يكون الإنسان فيها مجبراً غير مختار فهى التى تتعلق بوجوده فى هذه الحياة من زمن ميلاده ومكانه والظروف المحيطة به ورزقه وهيئته وخروجه من هذه الدنيا.

(٣) الأحداث: حوادث الدهر وحدثانه أى: نُوَبُه وما يحدث منه، واحدها حَدَثٌ؛ والحدث من أحداث الدهر: شبه النازلة والرزء والمصيبة.

لتؤكد أن الحق هو الإله المعبود بحق ، وهو الذى يقيك مما ستأتى به الآية الرابعة : ﴿مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾﴾ [الناس]

والآية الخامسة : ﴿الَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾﴾ [الناس]

والوسـواس الخناس: هو الذى يزين لك أفعـال الشـر فى أذنك، وهو خَنّاس ؛ لأنه يخنس سـاعـة يسمع قـولك : «أعـوذ بالله من الشـيطان الرجيم [1]» وهو يوسوس فى صدور الناس المَوَسْوَسِ إليهم.

وهكذا نجـد أن كلمـة «النـاس» قـد جـاءت؛ لتـعـبـر عن المربوبين ، والمملوكـين ، والمألوهين ، والموسـوس [2] إليـهم ، وأن من يوسـوِس قـد يكون من الجن ، وقد يكون من الناس.

إذن: فليس هناك تكرار بل جـاءت الكلمـة الواحـدة بمعنى يناسب كل موضع جاءت فيه.

والمثال من حياتنا - ولله المثل الأعلى - قد أكون معلّماً متميزاً واختارتنى الكلية التى أقوم بالتدريس فيها لأكون رائداً للطلاب ، ورئيساً لجمعيتهم الصحفية ، ومشرفاً عليهم فى الرحلات ، ومراجعاً لتصحيح أوراق إجاباتهم ، وهكذا تكون كلمة «الطلاب» لها معنى مختلف فى كل موقع.

---

(١) الشيطان: فَيعال من شَطَنَ إذا بَعُد، وهو كل عاتٍ متمرد من الجن والإنس والدواب . والشاطن: الخبيث.

والرجم: الرمى بالحجارة. رجمه يرجمه رجماً، فهو مرجوم ورجيم، والرجم: اللعن ؛ ومنه «الشيطان الرجيم»، أى: المرجوم بالكواكب، صُرِفَ إلى فعيل من مفعول. والرجيم: الملعون، المرجوم باللعنة، المُبْعَد، المطرود. والرَّجم: ما رُجِمَ به، والجمع رُجوم . والرُّجْم والرُّجوم: النجوم التى تُرمى بها الشياطين : ﴿ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ .. ﴿٥﴾﴾ [الملك].

(٢) الوسوسة والوسواس فى اللغة: الصوت الخفى الذى يشبه الهمس. وهو أيضاً صوت الحَلْى (وهو حُلى المرأة).

والحق يقول فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها : ﴿أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ[1] عِندَ رَبِّهِمْ ... ② ﴾ [يونس]

والحديث موجه لمحمد ﷺ وهو الرسول الخاتم.

إذن: فالمراد بإنذار الناس هنا؛ هم جميع الناس.

وما المقصود بقوله : ﴿ بِأَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ...② ﴾ [يونس]

إن القدم[2] كما نعرفه : هو آلة السعى إلى الحركة ، كما أن اليد آلة الإعطاء؛ فتقول: فلان له يد عندى ، أو تقول: أنا لا أنسى أياديك علىّ حين يقدم لك صديق هدية ما ، وهو قد سار على قدميه؛ ليحضر لك الهدية ، ولكنه يناولك لها بيديه.

إذن: فكل جارحة[3] لها ظاهر فى الحركة ؛ وفى الأعمال. فالقدم تسعى إلى الأشياء ، واليد تتحرك فى العطاء ، والأذن فى السمع ، والعين فى الرؤية. وهكذا يكون معنى ﴿قَدَمَ صِدْقٍ﴾هو سابقة فضل ؛ لأنهم حين استمعوا إلى منهج الله ، وأدَّوْا مطلوبات هذا المنهج كما يحب الله ؛ فعليك

(١) قدم صدق: كل ما قدمت من خير. قال ابن قتيبة: أى : أن لهم عملاً صالحاً قدموه. وقدم الصدق: المنزلة الرفيعة والسابقة. ويقول ذو الرمة:

وأَنْتَ امْرُؤٌ منْ أَهْلِ بَيْتِ ذُؤَابة ... لَهُمْ قَدَمٌ مَعْروفةٌ ومَفَاخرُ

(٢) القدم : ما يطأ الأرض من الرجل وجمعه أقدام قال تعالى: ﴿ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ .. ⑪ ﴾ [الأنفال] وهنا بث روح الشجاعة فى نفوس المؤمنين . وقد يأتى اللفظ عن طريق الكناية فى قوله تعالى : ﴿فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالأَقْدَامِ .. ㊶ ﴾ [الرحمن] كناية عن شدة العذاب ، والقدم يستعمل مجازاً مرسلاً للمآثر والمكارم التى يقدمها أهل الخير كقوله تعالى : ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ .. ② ﴾ [يونس] .

(٣) جارحة جمعها: جوارح، والمراد بها: أعضاء الجسم. وهى مأخوذة من الجرح بمعنى الكسب . جَرَح الشىء واجترحه: كسبه. كقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِى يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ .. ⑥⓪ ﴾ [الأنعام] ويقول سبحانه: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ... ㉑ ﴾ [الجاثية]. جرحتم: كسبتم. واجترحتم: اكتسبتم.

يا محمد أن تبشرهم بالجنة. ، ذلك أن لهم سابق قدم ، سعى إلى الخير ، وهو قدم صدق.

لكن هل هناك ما يمكن أن نسميه «قدم كذب» ؟

نعم ، وهو ما يخلعه الأفاقون على تواريخ الناس ، فيصفونهم بما لم يكن فيهم ، وهكذا نفرق بين قدم الصدق وقدم الكذب.

قدم الصدق - إذن - هو سابقة فى الفضل أهّلتهم لأن يكونوا موضع البشارة ، فهم قد صدقوا المنهج ، وأعطوا من واعد حق. والصدق - كما نعلم - هو الخصلة التى لا يمكن لمؤمن أن يتنحى عنها ؛ لأنه لو تنّحى عنها ، فهذا يعنى التنحّى عن الإيمان. وحينما سئل رسول الله ﷺ: أيكون المؤمن جباناً ؟ فقال : نعم ، فقيل له: أيكون المؤمن بخيلاً ؟ فقال: نعم ، فقيل له: أيكون المؤمن كذاباً ؟

فقال : لا [1].

إذن: فالصدق هو جماع الخير. وعلى الصدق تدور الحركة النافعة فى الكون.

وحين يصدق التاجر فى ثمن الأشياء ؛ ويصدق العامل فى إخلاصه للعمل ؛ ويصدق الصحفى فى نقل الخبر ، ويصدق كل فرد فى المجتمع ، هنا يتكامل المجتمع وينسجم ؛ لأن الفساد فى الكون إنما ينشأ من الكذب ، والكذب هو الذى يخل بحركة الحياة.

لذلك أتى الله بكلمة الصدق فى القرآن فى أكثر من موضع ، فهو القائل : ﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا [2] بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ ...(٩٣) ﴾ [يونس]

---

(١) أخرجه الإمام مالك فى موطئه (ص ٩٩٠) من حديث صفوان بن سليم مرسلاً.

(٢) بوّأ: أنزلَ وأسكن. والمُبَوَّأ: المكان الذى أنزلهم الله تعالى فيه.

فحين قالوا : ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ ... ﴿٦١﴾﴾ [البقرة]

أنزلهم الله بمكان يحقق لهم ما طلبوا من طعام ،[1] فلم يخدعهم سبحانه ، ويأتي الحق مرة ثانية بكلمة الصدق فيقول :

﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ[2] صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الشعراء]

أي : اجعل لي ذكراً حسناً فيمن يأتون من بعدى ، فلا يقال فى تاريخى كلام كذب ، وألا يخلع علىَّ الناس ما ليس فىَّ.

وقد قال الحق سبحانه وتعالى حينما تكلم عن الإنسان : ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ[3] ثَلاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي[4] أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾﴾ [الأحقاف]

---

(١) هؤلاء هم بنو إسرائيل بعد ما خرجوا من مصر وأنقذهم الله من فرعون وجنوده، وأنزل عليهم المن والسلوى طعاماً لهم، فقالوا : ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾﴾ [البقرة].

(٢) اللسان معروف وهو فى تجويف الفم يحرك الطعام ويكيف الصوت وينوعه . قال تعالى :﴿لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴿١٦﴾﴾ [القيامة] .
واللسان: أحد حواس الذوق والنطق . قال تعالى : ﴿وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾﴾ [البلد] واللسان : اللغة . قال تعالى :﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ .. ﴿٢٢﴾﴾ [الروم] ولسان صدق : السمعة الطيبة والذكر الحسن .

(٣) الفصال: الفطام. والمعنى: أن مدى حمل المرأة إلى منتهى الوقت الذى يُفصَل فيه الولد عن رضاعها ثلاثون شهراً؛ وفصلت المرأة ولدها، أى: فطمته. وفَصَل المولود عن الرضاع يفصله فصلاً وفصالاً وافتصله: فطمه.

(٤) أوزعنى: أى : ألهمنى ووفقنى إلى أن أشكر نعمتك. .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (١٦) ﴾ [الأحقاف]

ولماذا يصف الحق الوعد هنا بأنه وعد صدق ؟ لأن هناك من يعد الوعد الكاذب ، حين يعد أحدهم بما لا يملك ، أو أن تعد بما لا تقدر عليه ، أو أن تعد بما لا تمهلك الحياة لإنفاذه.

ولذلك قال الحق لنا : ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا (٢٣) إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ... (٢٤) ﴾ [الكهف]

إذن : لا بد لك أن تسبق أى وعد بمشيئة الله ؛ لأنك حين تَعد ؛ قد لا تملك إنفاذ ما وعدت به ، فقد تعد إنساناً بأن تلقاه فى الغد فى مكان ما لتتحدثا فى أمرٍ ما.

ونقول : أضمنت أن تستمر حياتك إلى الغد ؟ هذا هو أول عنصر قد يُفقد ؛ ثم أضمنت أن تستمر حياته ؟ هذا هو العنصر الثانى الذى قد يُفقد ، ثم أضمنت ألا يتغير السبب الذى من أجله تلقاه ؟ ثم أضمنت إن اجتمعت كل هذه العناصر ألا تُغير أنت رأيك فى هذه المسألة ؟

إذن : لا تجازف بأن تعد بشيء ليس عندك عنصر من عناصر الوفاء له ، وأسند كل عمل إلى من يملك كل العناصر ، وقل :

﴿ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ... (٢٤) ﴾ [الكهف]

إذن : فوعد الصدق معناه أن يكون الوعد ممن هو قادر على أن يحققه قطعاً ، ولا تخرج [1] الأشياء مهما كانت عن قدرته ، ولم يترك الأشياء ؛

(١) مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ .. (٥٨) ﴾ [الفرقان] ، وقوله : ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ .. (١٥٩) ﴾ [آل عمران].

لأنه باق . ولن يتغير رأيه ؛ لأنه ليس حدثاً يتغير . بل بيده كل شيء وهو على كلِّ شيء قدير . وسبحانه وتعالى يقول : ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾﴾ [القمر]

هكذا وعد الحق عباده المتقين [1] بأنهم سوف يقعدون فى حضرته مقعد صدق وهو المليك المقتدر. وسبحانه يقول: ﴿أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ ... ﴿٨٠﴾﴾ [الإسراء]

أى: أدخلنى فى هذه البلدة مدخل صدق للغاية التى لا أستحى من أن أقولها ، لا أن أدخل بغرض أمام الناس وأنا أخفى غرضاً آخر ، وكذلك أخرجنى منها مخرج صدق.

إذن: فكلمة الصدق دائرة ﴿قَدَمَ صِدْقٍ﴾ و﴿مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ و﴿مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ و﴿مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ و﴿مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ وكل هذا يُحببنا فى الصدق ؛ لأن كل أمور الحياة ؛ وفضائلها ؛ وخيراتها ، وما ينتظر الناس من سعادة ؛ كل ذلك قائم على كلمة الصدق [2] .

وهنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الحق سبحانه: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ ... ﴿٢﴾﴾ [يونس]

أى: أن لهم سابقة فَضْل عند ربهم يجازيهم بها ؛ لأنهم عملوا بمقتضى

---

(١) من هؤلاء المتقين الذين وردت السنة بأنهم فى مقاعد صدق عند الله عز وجل، المقسطون، فعن عبد الله ابن عمرو عن النبى ﷺ أنه قال: «إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن عز وجل، وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون فى حكمهم وأهليهم وحاولوا» أخرجه مسلم فى صحيحه (١٨٢٧) والنسائى فى سننه (٨/ ٢٢١).

(٢) عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ : « عليكم بالصدق ، فإن الصدق يهدى إلى البر ، وإن البر يهدى إلى الجنة ، وما زال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً . . » الحديث متفق عليه أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٠٩٤) ومسلم (٢٦٠٧) .

منهجه ، أما موقف الكافرين فهو مختلف ؛ لذلك يقول فيه الحق سبحانه :

﴿قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ ۝٢﴾ [يونس]

ولماذا جاء سبحانه بخبر الكافرين هنا رغم أن الموقف هو إنذار وبشارة ؟

ونقول : إن الرسول ﷺ حين أبلغ المنهج عن الله ، استقبله أهل الإيمان بالتصديق ، أما الكافرون فقد اختلف موقفهم ، فَاتَّهمَ بعضهم رسول الله ﷺ بأنه ساحر [1] .

وجاء قول الحق على هذه الصورة المبينة بالآية ؛ لأن القرآن يحذف أشياء أحياناً [2] ، لأن لباقة السامع ستنتهى إليها ، فلا يريد أن يكرر القول . وانظر إلى قصة بلقيس ، حيث نجد الهدهد يقول لسيدنا سليمان :

﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ ... ۝٢٢﴾ [النمل]

هذا هو الهدهد وهو المخلوق الأقل من سليمان عليه السلام يقول له : لقد عرفت ما لم تعرفه أنت ، وكأن هذا القول قد جاء ؛ ليعلمنا حسن الأدب مع من هو دوننا ، فهو يهب لمن دوننا ما يُعَلِّمُه لنا ، ألم يُعلِّمنا الغراب كيف نوارى سوأة الميت ؟

---

(١) اختلف الكافرون فيما بينهم فى الوصف الذى يريدون إطلاقه على محمد ﷺ لتشويه صورته أمام وفود الحجيج القادمة فى الموسم فأرادوا أن يجمعوا على رأى فيه ، أورد ابن هشام فى السيرة النبوية (١/ ٢٧٠) : «اجتمع نفر من قريش إلى الوليد بن المغيرة ، وكان ذا سن فيهم ، وقد حضر الموسم فقال لهم : يا معشر قريش ، إنه قد حضر هذا الموسم ، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه ، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا ، فأجمعوا فيه رأياً واحداً ، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضاً ، ويرد قولكم بعضه بعضاً ، قالوا : فأنت يا أبا عبد شمس ، فقل وأقم لنا رأياً نقول به ، وانتهى الأمر على القول بأنه ساحر رغم التناقض فيما بينهم .

(٢) الحذف هو نوع من أنواع الإيجاز ، ويكون حسناً لقوة الدلالة عليه ، أو يقصد به تعديد أشياء ، فيكون فى تعدادها طول وسآمة ، فيحذف ويكتفى بدلالة الحال ، وتترك النفس تجول فى الأشياء المكتفى بالحال عن ذكرها .

﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ ...㉛ ﴾ [المائدة]

ويقول قابيل : ﴿ يَاوَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ[1] أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ㉛ ﴾ [المائدة]

وهكذا يتعلم الإنسان ممن هو دونه ، وممن سخره الله له . وانظر كيف أبرز لنا الله أن الأدنى إن رأى خبراً ، لا بد أن يبلغه للأعلى ، فتتحقق سيولة المعلومات ، التي يتخذ الأعلى على ضوئها القرار المناسب ؛ فالهدهد يقول لسيدنا سليمان : ﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ[2] بِنَبَإٍ يَقِينٍ ㉒ ﴾ [النمل]

ويتخذ سليمان قراراً ينفذه الهدهد : ﴿ اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ㉘ ﴾ [النمل]

وتتابع الحكاية من بعد ذلك فيقول الحق : ﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ㉙ ﴾ [النمل]

فكأن الهدهد أخذ الكتاب وألقاه إلى بلقيس فلما قرأته ؛ جمعت قومها ؛ لتخبرهم . وهكذا حذف القرآن بعضاً من التفاصيل التى إن رُويت تكون تكراراً ، ولكن جاءت المسألة بهذه الصورة ؛ ليدلنا الحق على أن أوامر التلقى كانت سريعة بحيث لا يوجد فاصل بين الأمر وتنفيذ الأمر ، فالتحم الأمران معاً .

---

(١) السوأة فى اللغة : العورة . والسوأة : الفَرْج . قال تعالى : ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا ... ⑳ ﴾ [الأعراف] وقال : ﴿ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا ...㉒ ﴾ [الأعراف] وقال : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ ... ㉖ ﴾ [الأعراف] . والمراد بالسوأة هنا : جسم الميت (قابيل) .

(٢) سبأ : اسم بلدة باليمن كانت تملكها بلقيس ، وهى مدينة تعرف بمأرب قريبة من صنعاء .
وسبأ : اسم رجل يجمع عامة قبائل اليمن ، وهو « سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان » .

إذن : فقوله الحق : ﴿ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ ۝٢ ﴾ [يونس]

جاء منسجماً مع ما يُفهم من النص ، فهم لم يقولوا ذلك الاتهام إلا بعد أن بلغهم ﷺ أن الله قال له : بَشِّر وأنذر ، فلما بشَّر وأنذر ، جاء قولهم بأن الرسول ساحر ، وهكذا نفهم كيف تكوَّن موقفهم هذا من سياق الآية ؛ لأنهم لم يقولوا ذلك إلا بعد بلاغ الإنذار ، أو بلاغ البشارة .

وهكذا نجد أن القرآن قد لا يذكر الأشياء التى إذا سمع السامع الأسلوب أخذها من نفسه دون أن يتطلبها كلام منطوق ، ومثل هذا الأمر جاء فى لقطة أخرى فى قصة سبأ ، فبعد أن ائتمر الهدهد بأمر سليمان وذهب بالكتاب فألقاه إلى ملكة سبأ ، وقرأته ، وجمعت القوم ؛ لتأخذ رأيهم فيما تفعله مع سليمان ، فكان من أمرها معهم ما ذكره القرآن (١) ثم علم سيدنا سليمان بأمر مقدمها مع قومها (٢) ، فنجد سيدنا سليمان عليه السلام يسأل من حوله :

﴿ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ۝٣٨ ﴾ [النمل]

---

(١) قال سبحانه : ﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ۝٢٩ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝٣٠ أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ۝٣١ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ۝٣٢ قَالُوا نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ۝٣٣ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ۝٣٤ ﴾ [النمل] .

(٢) وذلك أن بلقيس قالت لقومها : ﴿ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ۝٣٥ ﴾ [النمل] ثم جاءها رد سليمان على هديتها حيث قال : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ۝٣٦ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لاَّ قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ۝٣٧ ﴾ [النمل] حينئذ قالت بلقيس : قد والله عرفت ما هذا بملك ومالنا به من طاقة ، وما نصنع بمكابرته شيئاً ، وبعثت إليه : إنى قادمة عليك بملوك قومى لأنظر ما أمرك ؛ وما تدعونا إليه من دينك . ثم أمرت بسرير ملكها الذى كانت تجلس عليه ، وكان من ذهب مفصص بالياقوت والزبرجد واللؤلؤ فجعل فى سبعة أبيات بعضها فى بعض ثم أقفلت عليه الأبواب . ذكره ابن كثير فى تفسيره (٣/ ٣٦٣) .

إذن : فهو قد علم أنهم مُقبلون عليه بالإسلام ، فأراد أن ينقل العرش من مملكتها إلى مملكته ؛ قبل أن يجيئوا ، وماداموا قادمين فى الطريق ، فعلى من يذهب ليفك العرش وينقله ، لا بد أن تكون له طاقة تفوق قدرة الإنسان العادى ؛ ولذلك لم يتكلم الإنس العادى ، لكن الذى تكلم جنى غير عادى ، ذكى ، فمن الجن من يتميز بالذكاء ، ومنهم غير ذلك .

وجاء قول الحق سبحانه : ﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ [1] مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (٣٩) ﴾ [النمل]

ومقام سليمان مع قومه قد يستمر ساعة أو ساعتين أو ثلاث ساعات [2] . وسيدنا سليمان يريد التعجيل بنقل عرش بلقيس ، لذلك تجده يستمع إلى من عنده علم من الكتاب : ﴿ قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ [3] أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ .. (٤٠) ﴾ [النمل]

ألم يكن مثل هذا القول يحتاج إلى إذن من سيدنا سليمان ، وأن يقول سليمان اذهب فيذهب ويحل العرش ويعود به ؟ نعم ، الأمر يحتاج كل ذلك ، ولكن القرآن جاء بالقصة فى تصوير متتابع للسرعة ، وجاء القرآن بخبر العرش ، وقد جاء إلى حيث يجلس سليمان عليه السلام :

﴿ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ .. (٤٠) ﴾ [النمل]

---

(١) العفريت : الشديد القوى . وقد يكون من الإنس أو من الجن . وقيل : إن اسمه كوزن وإنه كان كأنه جبل من ضخامة جسمه وقوته .

(٢) قال السدى وغيره : كان سليمان يجلس للناس للقضاء والحكومات من أول النهار إلى أن تزول الشمس .

(٣) هو آصف بن برخياء كاتب سليمان ، وكان صدِّيقاً يعلم الاسم الأعظم . قيل : إنه قال : ياذا الجلال والإكرام . وقيل : إنه قال : يا إلهنا وإله كل شىء إلهاً واحداً لا إله إلا أنت ائتنى بعرشها . قاله مجاهد فيما نقله ابن كثير عنه فى تفسيره (٣/ ٣٦٤) .

وهكذا حذف التفاصيل التى يسهل معرفتها ، والتى وقعت بين قول مَنْ عنده علم من الكتاب ، وبين تنفيذ نقل عرش بلقيس.

وكذلك حذف القرآن قدراً من الأحداث فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها ، فعندما بلّغهم رسول الله الإنذار ، هنا قال الكافرون: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ [1] مُّبِينٌ ﴿٢﴾ ﴾ [يونس]

وقد قال الكافرون هذا الاتهام أكثر من مرة ، فمرة يقولون عن القرآن : إنه سحر ، ومرة يقولون عن محمد : إنه ساحر [2]. ولنسأل : ما معنى كلمة ساحر ؟ إن الساحر هو الذى يصنع أشياء ، ويوهمك أنها حقيقة ؛ وهى ليست بحقيقة.

ولذلك يجب أن نفرق بين السحر وبين معجزة موسى ، حتى لا يقال : إن معجزة موسى عليه السلام وهى العصا كانت من جنس ما برع فيه سحرة فرعون ، صحيح أنها من جنس ما برع فيه قوم فرعون ، ولكنها ليست سحراً ؛ لأن الحق شاء أن يُغير من حقيقة العصا فجعلها أفعى ، أما سحر قوم فرعون [3] فهو لا يغير حقيقة الأشياء ، بل يوهم مَنْ يراها بأنها تغيرت.

---

(١) وردت الآية بقراءتين ، فقد قرأها ابن محيصن والكوفيون عاصم وحمزة والكسائى « لساحر » وصفاً لرسول الله ﷺ . وقرأها الباقون (لسحر) وصفاً للقرآن . نقله القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٢٣٣) . والقراءتان مؤداهما واحد .

(٢) اتهم الكفار القرآن بأنه سحر فى بضع آيات من القرآن :
- ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ ﴾ [سبأ] .
- ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الزخرف] .
- ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ ﴾ [الأحقاف] .
* وفى آيات أخرى اتهموا محمداً ﷺ بأنه ساحر :
- ﴿ وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ ﴾ [ص] .

(٣) سحر قوم فرعون هو من نوع سحر التخييل والأخذ بالعيون والشعبذة ، ومبناه على أن البصر قد يخطىء ويشتغل بالشىء المعين دون غيره ، ولذلك قال تعالى : ﴿ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ ﴾ [طه] .

والسحر يقتضى ساحراً ، ويقتضى مسحوراً ، ويقتضى عملية السحر ذاتها . أما عن الساحر فهو الذات التى تقوم بعملية السحر .

ويقول الحق عن السحرة : ﴿ سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ ... ﴿١١٦﴾ ﴾ [الأعراف]

أى : سحروا الأعين التى ترى الأمر المسحور على غير حقيقته ، رغم بقاء الشيء المسحور على حقيقته .

إذن : فهم قد أوهموا المسحورين بغير واقع ، لكن المعجزة - معجزة موسى - ليست كذلك ؛ لأنها لا تُغير من الرائى ، بل تغير من [1] حقيقة المرئى فعلاً . وقد دلّنا القرآن على حقيقة هذه المسألة بالتجربة العملية حين اختار الله موسى وقال له : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ [2] بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ [3] أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ ﴾ [طه]

وحين أمر الحق سبحانه موسى بإلقاء العصا ، رآها موسى عليه السلام حيّةً تسعى :

﴿ قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ ﴾ [طه]

فعندما رأى موسى عصاه ، قد تحوّلتْ إلى حية تسعى على الأرض ، فرَّ هارباً خائفاً ، ولكن الله أراد أن يثبّت قلبه ويؤمنه إعداداً له للموقف الذى سيقفه فيما بعد أمام سحرة فرعون فقال له رب العزة : ﴿ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ ﴾ [طه]

---

(١) السحر : هو التأثير الشديد ، فإن كان من المخلوق فهو تخيل وحيل ، وإن كان من الخالق فهو إعجاز وتغيير ماهية الشيء بقدرته ، والسحر يطلق على الشيء الجميل المؤثر مصداقاً لحديث رسول الله ﷺ « إن من البيان لسحراً ، وإن من الشعر لحكمة » وقد يكون السحر بحاسة من الحواس فيقال : عينه ساحرة وكلامه ساحر ، وقد يكون بالتناسق العام فى المخلوقات التى أبدعها الله .

(٢) ﴿ وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي ﴿١٨﴾ ﴾ [طه] أى : أهز بها الشجرة ليتساقط ورقها لترعاه غنمى . نقله ابن كثير فى تفسيره (٣/ ١٤٥) .

(٣) مآرب أخرى : مصالح ومنافع وحاجات أخرى غير ذلك .

إذن : فلم يكن هناك سحر فى عينى موسى ، ولكن كان هناك تغيُّر فعلىّ فى حقيقة العصا . فلما خاف طمأنه الحق سبحانه وأمره بأن يلتقط العصا ؛ لأنها ستعود - بإذن الله - إلى سيرتها الأولى . والدليل على أن التغير قد حدث فى حقيقة العصا ، أن السحرة الذين جمعهم فرعون من كل مكان ، ووقفوا فى منافسة مع سيدنا موسى ، وقالوا له : ﴿ **إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ** (٦٥) ﴾ [طه]

وقبل موسى عليه السلام التحدى ، وتجد القرآن يصور المسألة فيقول : ﴿ **قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ** (٦٦) ﴾ [طه]

وقوله : ﴿ **يُخَيَّلُ إِلَيْهِ** ﴾ يعنى : أن الحبال والعصى لم تتغير حقيقتها ولم تسعَ . وما إن رمى موسى عصاه حتى تحولت إلى حية فعْليّة تلقف ما صنعوا ، وهذا ما جعل السحرة يسجدون ويعلنون الإيمان ؛ لأنهم رأوا حقيقة واضحة ، وهى أن العصا قد تحولت بالفعل إلى حية .

إذن : فالساحر [1] يرى الشىء على حقيقته ، والمسحور هو الذى تتغير رؤيته إلى الشىء ، فيُخيَّل إليه أنه شىء آخر ؛ ولذلك لم يقل أحد : إن موسى تعلّم السحر ، وإن من علّمه غلبهم ، لا ، بل عرفوا أنها مسألة أكبر من طاقة البشر ؛ لأن حقيقة العصا نفسها قد تغيرت ، فقالوا :

﴿ **آمَنَّا بِرَبِّ هَـٰرُونَ وَمُوسَىٰ** (٧٠) ﴾ [طه]

ولم يقولوا : آمنا بموسى .

---

(١) الساحر اسم فاعل ، قال تعالى : ﴿ **وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ** .. (٦٩) ﴾ [طه] والمسحور والمسُحَّرَ مَنْ به صرع أو جنون يظن الناس أنه من عمل الساحر ، والسحار صيغة مبالغة مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ **يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ** (٣٧) ﴾ [الشعراء] والسحر : الجزء الأخير من الليل حتى مطلع الفجر وجمعه أسحار قال تعالى : ﴿ **وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ** .. (١٧) ﴾ [آل عمران] .

إذن : فالتخييل إنما يحدث فى عينى المسحور. أقول ذلك حتى نفهم غباء كفار قريش حين اتهموا رسول الله ﷺ بأنه ساحر ، يسحر الناس ، فيخرج الولد على أبيه ، وأهله . ويجعل العبيد يتمردون على سادتهم . ولو كان رسول الله ساحراً ، فلماذا لم يُسحَر من قالوا هذا الاتهام . وبقاء من يقول بمثل هذا الاتهام دليل على أن مسألة الإيمان بالمنهج وبالرسول لا علاقة لها بالسحر .

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ ﴾

ومن بعد ذلك يرد الحق على حكاية العجب من أن الله أوحى لرسوله ، وكذلك مسألة اتهام الرسول بالسحر ، فيلفتهم إلى قضية فوق هذه القضية ، وأنهم كان عليهم أن يروا العجب فى غير مسألة الوحى إلى الرسول ﷺ .

أى : كان عليكم أن تروا هذه المسألة العجيبة ، وهى خلق السموات والأرض وتتأملوا صنعها [1] ، وكيف حدثت ؟

وإذا كان الله هو الذى خلق السموات والأرض ، وجعلك أيها الإنسان تطرأ على عالم ، وعلى كون معّد لك إعداداً دقيقاً ، فكان يجب أن تلتفت إلى هذه المسألة قبل أى شىء آخر .

---

(١) القرآن الكريم مثبوت بالآيات التى تدعو إلى التفكر والتأمل فى خلق السموات والأرض وما بينهما ، فيقول عز وجل : ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ ﴾ [الغاشية] .

وضربنا من قبل المثل ، وقلنا : هَبْ أن إنساناً ركب طائرة ، ثم نفد وقودها وسقطت فى الصحراء ، وكُتبت له النجاة وتلفَّت حوله فلم يجد ماء أو طعاماً أو أى دليل من أدلة الحياة ، ثم غلبه النوم ، فلما استيقظ من نومه ، وجد مائدة عليها من أطايب الطعام ، وأطايب الشراب ، أما كان يسأل نفسه قبل أن يأكل ويشرب : من الذى صنع وأحضر كل هذا الطعام ، وكل هذا الشراب ؟

وهذا الكون قد أعدَّ لك أيها الإنسان ، أما كان يصح أن تفكر فيمن أعدَّ لك هذا الكون ، وخلق لك كل ما ليس فى متناول قدرتك ، وسخّر كل ذلك لك ؟ وقد أبلغك الحق : أنا خلقت السماء ، وخلقت الأرض ، والشمس ، والنجوم ، وحين وصلك هذا البلاغ ، فإما أن يكون صدقاً ، فلتنفذ ما أمر به الخالق. وإن لم يكن هذا الكلام صدقاً ، فمن الذى خلق إذن ؟ إن كان هناك إله غيره قد خلق الكون ، وسمع مثل هذا البلاغ ، ولم يتحرك لبيان صدق المسألة ، لما كان هذا الآخر يستحق أن يكون إلها[1] .

وما دام لم يظهر معارض له سبحانه ، فهو الخالق ؛ لأن الدعوى إذا ما صدرت من واحد ، ولم يظهر لها معارض ، فصاحبها هو من أصدرها إلى أن يوجد له معارض.

وقد ضربنا مثلاً ، فقلنا : هَبْ أن جماعة من أصدقائك جاءوا

---

(١) وقد أكد رب العزة سبحانه على هذا المعنى فى كثير من الآيات قائلاً سبحانه وتعالى فى سورة النمل : ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [النمل] . وقال تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا .. ﴿٢٢﴾ ﴾ [الأنبياء] .

لزيارتك ، ثم خرجوا من عندك ، ووجدت أنت حافظة نقود ، ولم تعرف لمن هى ، ثم بعثت بخادمك ؛ ليسأل من كانوا فى زيارتك ، وقال كل واحد منهم : إن حافظة نقوده لم تضعْ منه ، إلا واحداً قال : نعم ، هى حافظة نقودى . وهكذا تثبت ملكية هذا القائل لحافظة النقود ، إلى أن يثبت العكس.

والحال هنا هكذا ، فحين أبلغنا الحق أنه خلق السماء والأرض والشمس والقمر والنجوم وجعل فى الأرض رزق البشر ، ولم يعارضه أحد ، إذن : يجب أن نصدق أنه الخالق.

وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد خلق لكم كل هذا الكون مُسخَّراً (١) أفلا تتركون له حرية أن يختار رسولاً منكم إليكم ؟ فما وجه الاعتراض إذن ؟

يكشف الحق منطقهم حين قالوا :

﴿ لَوْلاَ نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) ﴾ [الزخرف]

إذن : هم قد اعترفوا أن القرآن لا غبار عليه ، لكنهم ساخطون ويعيشون فى ضيق ؛ لأن هذا القرآن قد جاء على يد يتيم أبى طالب (٢) .

ويكشفهم الحق أيضاً فيأتى بما جاء على ألسنتهم : ﴿ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ .. (٣٢) ﴾ [الأنفال]

---

(١) مسخراً : أى : مذللاً ومقهوراً لخدمة الآدميين ، ومنه قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ (٣٢) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣) ﴾ [إبراهيم] .

(٢) مما قاله المشركون فى هذا : ما وجد الله من يرسله إلا يتيم أبى طالب ، فنزلت : ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ ... (٢) ﴾ [يونس] . نقله القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٢٣٢) .

ولم يقولوا : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا .

فالعداوة هى لرسول الله ، وهى عداوة حاقدة غير منطقية ؛ لأن كل واحد منكم كان إذا ملك شيئاً نفيساً عزيزاً عليه ، فهو لا يجد أميناً عليه إلا محمداً .

إذن : فلماذا لا تغشون أنفسكم فى مسألة استئمان محمد على الأشياء النفيسة ، ولو كنتم غير مؤمنين بصدقه . فلماذا استأمنتموه على نفائسكم ؟ أليس هو محمد بن عبد الله الذى هاجر وترك علىَّ بن أبى طالب ؛ ليرد الأمانات لأصحابها ؟

إذن : فلا محمد دون مستوى الرسالة والأمانة ، ولا القرآن دون المستوى ، بشهادتكم أنتم ؛ بشهادتى القول والفعل .

وهنا يقول الحق : ﴿ **إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ** ... ③ ﴾ [يونس]

وفى موقع آخر بالقرآن يقول سبحانه : ﴿ **لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ** ⑤⑦ ﴾ [غافر]

وما دام هذا الخلق العجيب قد صدر منه ، فالتصرفات التى دون ذلك لا بد أن تكون مقبولة منه سبحانه وتعالى ، وأن تكون لحكمة ما . وتعالوا نتحاكم إلى أنفسكم ، أنتم تقولون : ﴿ **لَوْلاَ نُزِّلَ هَذَا الْقُرآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ**[1] **عَظِيمٍ** ③① ﴾ [الزخرف]

إذن : لا شك عندكم فى أن القرآن لا طَعْنَ فيه ، بل تطعنون فى مسألة

(١) يقصد بالقريتين هنا : مكة والطائف . واختلفت الأقوال فى تحديد هذين الرجلين ، فقيل : إنهما الوليد ابن المغيرة ، وعروة بن مسعود الثقفى . وقيل : إنهما عمير بن عمرو بن مسعود ، وعتبة بن ربيعة . وقيل : ابن عبد ياليل . والمقصود أنه رجل كبير من أى البلدتين كان . انظر ابن كثير (٤/ ١٢٧) .

أنه جاء على يد محمد ﷺ ، وتمنيتم لو أن القرآن قد جاء على يد واحد آخر تقبلونه. وأنتم فى هذه المسألة غير منطقيين ؛ لأنكم تريدون أن تتدخلوا فى قسمة الله ورحمته فى أن يُنزِل الوحى على من تشاءون ، لا من يشاء هو سبحانه.

وأنتم بذلك تريدون أن تتحكموا فى الرحمة العليا من الله فى أن يختار رسولاً ؛ ليبلغكم عنه. وتتناسون أنكم فى هذه الدنيا لا تقسمون الأرزاق ؛ لذلك يقول الحق : ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ..(٣٢)﴾ [الزخرف]

فإذا كنتم تريدون أن تقسموا رحمة الله ، فاعلموا هذا القول من الله : ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ..(٣٢)﴾ [الزخرف]

وهذا الأمر السهل ؛ تقسيم المعيشة فى الحياة الدنيا تصرف فيه الحق سبحانه[1] ، فكيف لكم - إذن - أن تطمعوا فى تقسيم الأمر العلوى وهو رحمة الله العليا فى أن يرسل رسولاً.

والحق سبحانه يقول فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها : ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ﴾ .

وساعة تسمع كلمة «رب» ينصرف الذهن إلى الخلق وإلى التربية ، ولذلك نحن نستعمل هذه الكلمة ونقول : «فلان رب هذه الأسرة» أى : أنه المتولى تربيتها ، وكلمة «الرب» بمعناها المطلق تنصرف إلى الله[2] ، فهو

---

(١) عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : «إن الله قسم بينكم أخلاقكم، كما قسم بينكم أرزاقكم، وإن الله عز وجل يعطى الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطى الدين إلا لمن أحب» أخرجه أحمد فى مسنده (١/ ٣٨٧) والحاكم فى مستدركه (١/ ٣٣) (٢/ ٤٤٧) (٤/ ١٦٥) وصححه ووافقه الذهبى، وعزاه الهيثمى فى مجمع الزوائد (١٠/ ٢٢٨) لأحمد وقال: رجاله وثقوا وفى بعضهم خلاف.

(٢) الرب فى اللغة يطلق على: المالك، والسيد، والمدبر، والمربى، والقيم، والمنعم والصاحب . ولا يطلق غير مضاف إلا على الله عز وجل، وإذا أطلق على غيره أضيف، فيقال: رب كذا، مثل رب الإبل، رب الغُنَيْمة، انظر لسان العرب.

الخالق الذى خلق من عَدَم وأمدَّ من عُدْمٍ [1] ، وهو بهذا الوصف ربٌّ لكل خلقه : المؤمن والكافر ، والطائع والعاصى .

وما دام الله سبحانه ربّاً لكل الخلق ، فهو الرازق لكل خلقه ، فهو الذى استدعى خلقه إلى هذه الدنيا ، وهو الذى يعطى كل مخلوق الرزق الذى كتبه الله له ، وهو سبحانه يأمر نواميس [2] الكون وأسبابه أن تعطى له أو لا تعطى ، فإن زرع الأرض وأحسن زراعتها ؛ أعطى سبحانه الأمر للأرض أن تعطى هذا المخلوق الرزق .

وكل مخلوق يأخذ بالأسباب ، يوفر له الحق النجاح فى الأسباب .

وأقول دائماً لمن يرون تقدم الكفار فى أمور الدنيا ، ويتساءلون : لماذا يتقدم الكفار فى أمور الدنيا ونتأخر نحن ؟ أقول لهم : لقد أخذوا من عطاء الربوبية فى الأسباب ، وأنتم لم تأخذوا من عطاء الربوبية . وعليكم أيها المسلمون أن تأخذوا بالأسباب ، وهى عطاء الربوبية ؛ حتى لا يسبقكم الكافرون إليها ، ولا تجلسوا فى موقع المتفرج ، بل المفروض فيكم أن تسبقوا الكفار إلى عطاء الربوبية .

أما عطاء الألوهية ، وهو أن يُقرَّ الإنسان بأن الله هو المعبود بحق ، وهو المطاع فى «افعل» و«لا تفعل» ، فهَذا العطاء لا يناله إلا مَنْ آمن به .

اذن : فالله رب الجميع ، ولكنه إله مَنْ آمن به . إذن : هناك فارق بين

---

(١) العَدَمُ، والعُدْمُ، والعُدُمُ : فقدان الشيء وانعدامه . وهذه المادة لم تردْ فى القرآن، بل جاء بمعناه مثل قوله تعالى : ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ① ﴾ [الإنسان] .

(٢) نواميس الكون : الأسرار التى أودعها الله فى الكون، من قوانين تنظم حركة أجزائه ومكوناته . والناموس أيضًا : صاحب سر الملك أو الرجل الذى يطلعه على سره وباطن أمره ويخصه بما يستره عن غيره . ومنه الناموس : جبريل ؛ لأن الله تعالى خصه بالوحى والغيب اللذين لا يطلّع عليهما غيره .

عطاء الإله ، وهو المنهج المتمثل فى «افعل» و«لا تفعل» ، وعطاء الربوبية المتمثل فى الأمور المادية وهى شركة بين كل الناس : المؤمن والكافر ، والطائع والعاصى . وحين يُحسن الكافرُ الأخذ بالأسباب ؛ فهو يأخذ نتائجها .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ (٢٠)﴾ [الشورى]

إذن : فواجب على المؤمنين أن يستقبلوا عطاء الربوبية بحسن الأخذ بالأسباب ؛ ليأخذوا النتيجة ، ولا يتقدم أهل الكفر عليهم ؛ لأن الكافر حين يسبقك فى الأخذ بالأسباب ، ربما استغل هذه المسألة فى أن يفرض عليك ما يخالف دينك .

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ ... (٣)﴾ [يونس]

أى : أن الذى ربَّى ، هو الذى كلَّف ، ويجب أن تستمعوا إلى منهجه .

ثم يقول سبحانه : ﴿ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ... (٣)﴾ [يونس]

وكلمة ﴿سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ هذه وردت فى كل آيات القرآن التى تحدثت عن زمن مدة الخلق للأرض والسموات ، لكن هناك آية جاءت بتفصيل ويظهر من أسلوبها أن الخلق قد استغرق ثمانية أيام ، وهى فى سورة فصلت :

﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ [1] وَتَجْعَلُونَ لَهُ

(١) «يوما خلق الأرض من جملة الأربعة بعدهما ، والمعنى فى تتمة أربعة أيام ، وهى مع يومىْ خلق السموات ستة أيام . . يوم الأحد والاثنين لخلق الأرض ، ويوم الثلاثاء والأربعاء للجعل المذكور فى الآية وما بعده ، ويوم الخميس والجمعة لخلق السموات» قاله أبو يحيى زكريا الأنصارى فى كتابه «فتح الرحمن بكشف ما يلتبس فى القرآن» ص ٣٧٣ . وانظر ابن كثير (٤/ ٩٣) .

أَندَادًا [١] **ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ** [٢] **مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا** [٣] **فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾﴾** [فصلت]

وهذه ستة أيام.

ثم يقول سبحانه : ﴿**ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ** [٤] **سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾** [فصلت]

وهكذا يكون المجموع ثمانية أيام، وهذا هو الفهم السطحي ؛ لأن آيات الإجمال جاءت كلها بخبر الخلق فى ستة أيام. وتعلم أن كل مُجمل يفسره مُفصَّله إلا العدد ؛ فإن مفصَّله محمول على مجمله، فالأرض خلقها الله فى يومين، وجعل فيها رواسى، وبارك فيها، وكل مخلوق ثان هو تَتمَّة للأول، فاليومان الأولان إنما يدخلان فى الأربعة الأيام، وأخذت بقية الخلق اليومين الأخيرين، فصار المجموع ستة أيام.

إذن : فالزمن تتمة الزمن. ولذلك تجد أن اليوم على كوكب الزهرة أطول من عامها ؛ لأن عامها بتوقيت الأرض هو مائتان وخمسة وعشرون يوماً، أما طول اليوم فيها فهو بتوقيت الأرض مائتان وأربعة وأربعون يومًا.

إذن : فاليوم على كوكب الزهرة أطول من العام فيها. والسر فى ذلك أن كوكب الزهرة يخضع لدورة تختلف فى سرعتها عن سرعة الدورة التى

---

(١) الأنداد: جمع ندّ، وهو الشبيه والنظير والمثيل. والأنداد: الأصنام المعبودة من دون الله.

(٢) الرواسي: الجبال الثابتة الراسخة. وقد تحدث رب العزة عن حكمة خلق هذه الجبال فقال سبحانه : ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ ﴿٣١﴾﴾ [الأنبياء] أي: لئلا تتحرك بهم وتضطرب، فلا يصلح لهم عيش عليها.

(٣) الأقوات: جمع قوت وهو ما يقوم به بدن الإنسان من الطعام والمقصود به الرزق مطلقاً.

(٤) قضى الشيء قضاء: صنعه وقدّره. فقضاهن هنا بمعنى: خلقهن وعملهن وصنعهن وقطعهن وأحكم خلقهن.

تخضع لها الأرض ، فدورة كوكب الزهرة حول نفسه بطيئة، ودورته حول الشمس سريعة.

إذن : فكل كائن له نظام.

وما هو اليوم إذن ؟ اليوم فى اعتبارنا هو دورة الأرض حول نفسها دورة يتحقق فيها الليل والنهار. ولكننا نجد القرآن الكريم يطلق كلمة اليوم ويفصلها عن الليل ، فيقول سبحانه : ﴿ **سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّاما** ... (١٨) ﴾ [سبأ]

وهنا جعل الحق اليوم للضوء والكدح ، والليل للظُّلمة والراحة. والحساب الفلكى يسمى الليل والنهار يوماً.

ويبين القرآن لنا أن هناك يوماً للدنيا ، ويوما للآخرة ، ويوم الدنيا هو ما نحسبه نحن من شروق إلى شروق آخر ، وكذلك هناك يوم عند الله هو بحساب الدنيا يقدر بألف سنة مما يحسبه البشر : ﴿ **وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ** (٤٧) ﴾ [الحج]

ويقول الحق فى موضع آخر : ﴿ **تَعْرُجُ**[1] **الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ**[2] **إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ** (٤) ﴾ [المعارج]

إذن : فالأزمنة متعددة ، ومنوعة ، وتختلف من قياس إلى آخر ، ومن

---

(١) تعرج، أى : تصعد. عرج يعُرج عروجاً. وفيه ﴿ مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ (٣) ﴾ [المعارج]؛ المعارج : المصاعد والدّرج. قال قتادة : ذى المعارج أى : ذى الفواضل والنعم. وقيل : معارج الملائكة هى مصاعدها التى تصعد وتعرج فيها. وقال الفراء : ذى المعارج من نعت الله ؛ لأن الملائكة تعرج إلى الله، فوصف نفسه بذلك. والقراء كلهم على التاء فى قوله : ﴿ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ .. (٤) ﴾ [المعارج] إلا ما ذكر عن عبد الله ، وكذلك قرأ الكسائى.

(٢) للمفسرين فى لفظ الروح فى الآية هنا عدة أقوال هى :
١- جبريل ، ويكون من باب عطف الخاص على العام (أى : الملائكة المذكورين قبله).
٢- اسم جنس لأرواح بنى آدم ، فإنها إذا قبضت يصعد بها إلى السماء.
٣- خلق من خلق الله يشبهون الناس وليسوا أناساً.

كوكب إلى آخر. وما أظهره الله لنا فى القرآن من الأزمنة إنما يدل على اختلافها ، لا على التعارض والتناقض [(١)].

ثم يقول الحق سبحانه فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها : ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ ووقف العلماء عند كلمة «اسْتَوَى » [(٢)] طويلاً ، واستعرضوا القرآن كله ؛ ليحصروها فى كتاب الله ؛ فوجدوها قد جاءت فى اثنتى عشرة سورة : البقرة والأعراف ويونس والرعد وطه والفرقان والقصص والسجدة وفصلت والفتح والنجم والحديد.

وأول سورة جاء فيها ذكر استواء الله على العرش هى «الأعراف» يقول الحق : ﴿الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِى [(٣)] الَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا [(٤)] وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ

---

(١) فاليوم الذى كألف سنة ، أى : كل يوم من الأيام التى خلق الله فيها السموات والأرض. قاله ابن عباس ومجاهد وعكرمة ، ونص عليه الإمام أحمد بن حنبل فى كتاب «الرد على الجهمية ».
- أما اليوم الذى كخمسين ألف سنة ففيه أربعة أقوال :
١- المراد به مسافة ما بين العرش العظيم إلى أسفل السافلين ، وهو قرار الأرض السابعة.
٢- مدة بقاء الدنيا منذ خلق الله هذا العالم إلى قيام الساعة.
٣- المراد به يوم القيامة. جعله الله على الكافرين مقدار خمسين ألف سنة.

(٢) سئل الإمام مالك بن أنس : استوى كيف استوى ؟ فقال : الكيف غير معقول ، والاستواء غير مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة. وقوله عز وجل : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ ... ⑭ ﴾ [القصص] قال أبو منصور : كلام العرب أن المجتمع من الرجال والمستوى الذى تم شبابه وذلك إذا تمت له ثمان وعشرون سنة ، ويحتمل أن يكون بلوغ الأربعين غاية الاستواء وكمال العقل. [اللسان : مادة (سوا)].

(٣) غشَّيتُ الشىء تغشيةً إذا غطّيته ، وغَشيَه الأمر وتغشاه وأغشيته إياه. يقول تعالى : ﴿يُغْشِى الَّيْلَ النَّهَارَ ... ⑭ ﴾ [الأعراف]. وقال اللحيانىَ : وقرىء (يُغَشِّى). وقرىء فى الأنفال : ﴿يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ... ⑪ ﴾ [الأنفال] و(يغشِّيكم) ، و(يغشاكم). وغشاء كل شىء : ما تغشاه كغشاء القلب والسَّرج والرَّحْل والسيف ونحوها. وغَشيه يغشاه غشيانا إذا جاءه ، وغشّاه تغشية إذا غطاه. وغَشىَ الشىء إذا لابسه ، قال تعالى : ﴿وَالَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ① ﴾[الليل]. وقال: ﴿وَالَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ④ ﴾ [الشمس]. [اللسان : مادة (غشا)].

(٤) حثيثاً أى : مسرعاً حريصاً. ورجل حثيث ومحثوث : حادٌّ سريع فى أمره كأن نفسه تحثُّه. والحثُّ : الإعجال فى اتصال ، وقيل : هو الاستعجال. وحثّه واحتثَّه ، أى : حَضَّه وشجَّعه على فعل شىء. [اللسان : مادة (حَثّ)].

مُسَخَّرَاتٍ [1] بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٥٤) ﴾[الأعراف]

ومادام الله سبحانه هو الذى خلق فلا تعترض أن يكون الأمر له ، وأن يبعث سبحانه من شاء ؛ ليكون رسولاً ؛ لذلك فلا عجب أن أرسل لكم رجلاً منكم ؛ لأنه لو كان هناك غيره سبحانه هو الذى خلق ، ثم جاء ليفتئت [2] فيأمر فيما خلق ، لكان للخلق شأن آخر ، لكن الله هو الذى خلق ، وهو سبحانه الذى أرسل الرسول ﷺ .

والآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يقول فيها الحق : ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّـمَـوَاتِ وَالأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ ، أى : استتب له الأمر.

ثم تأتى آية سورة الرعد : ﴿اللَّهُ الَّذِى رَفَعَ السَّـمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (٢) ﴾ [الرعد]

أما الصفات التى توجد فى البشر ، ووصف الله نفسه بها ، هذه الصفات لا تؤخذ على مقتضى ما هى فى البشر ، فكل إنسان هو ممكن الوجود. ولكن الحق سبحانه وتعالى هو واجب الوجود ؛ لذلك تؤخذ تلك الصفات فى إطار ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ ... (١١) ﴾ [الشورى]

ومثال هذا : أن الحق سبحانه وتعالى له علم بأنك تقرأ الآن فى التفسير ، وفى أى مكان تقرأه ، والذين من حولكَ يعلمون ذلك ، ولكنْ أعلْمُ الله يساوى علمَك وعلمَ مَنْ حولك ؟ لا ، فعلمه سبحانه وتعالى هو

---

(١) النجوم مسخَّرات : جاريات ٌ مجاريَهُنَّ. وتسخير الشمس والقمر والنجوم للناس هو الانتفاع بها فى بلوغ منابتهم ، والاقتداء بها فى مسالكهم ، والتسخير : التذليل. [اللسان : مادة (سخر)].

(٢) يفتئت : يختلق ويكذب.

عِلْم أزلىّ [1] ، عِلْم قبل أن توجد أنت أو يوجد غيرك ؛ لذلك فأنت إذا عَلمت شيئاً ، وَعَلمَ الله شيئاً ، فعلْم الله يناسبه ، وعلْم البشر يناسبك . وأىُّ صفة من صفات الله مطلقة ، وَأىُّ صفة من صفاتك نسبية ؛ لأن الحق سبحانه هو واجب الوجود الأزلى ، وأنت فى هذه الحياة مجرد حدثٍ محدود العمر بين قوى الميلاد والموت .

فالله غنى ، وقد تكون أنت غنيّاً ، لكن غناك لا يمكن أن يتساوى مع غنى الله . وأنت موجود والله موجود ، ولكن وجود ك لا يمكن أن يُقَاس بوجود الله . فذاتُ الله ليست كذواتنا ، وكذلك صفات الله ليست كصفاتنا ، وفعْله ليس كفعْلنا ، واستواؤه سبحانه ليس كاستوائنا ، بل فى إطار ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ لأن الذى يُفْسد الفهم أن يقال : «استوى» بمعنى : قعد . أو فلنأخذ الاستواء كتمثيل لَلسيطرة ، وسبحانه مسيطر على كل شىء ، والاستواء : يعنى التمكن. وسبحانه القائل : ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ ... ⟨١٤⟩﴾ [2] [القصص]

إذن : فاستوى : تعنى بلوغ تكوين الكمال فى الذات. والإنسان منا وهو صغير – قبل البلوغ – إنما تنقصه بعض من درجات النضج فى الجهاز العصبى ، وكذلك فى الجهاز التناسلى ، فإذا ما بلغ اكتمل النضج ، ويقال: (اَسْتَوَى) أى : صار قادراً على إنجاب مثله ، وتمت له رجولته . ويقال عن الثمرة : إنها استوت ﴿فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ﴾ [الفتح]

أى : نضجت نُضْجاً يبلغها أن تعطى من ثمرتها مثل ذاتها ، وبذلك تضمن بقاء نوعها .

---

(١) الأزَلُ : هو القِدَم. ومنه قولهم : هذا شىء أزلىّ ، أى : قديم. وقيل : إن أصل هذه الكلمة قولهم للقديم : لَمْ يَزَلْ ، ثم نُسبَ إلى هذا فلم يستقم إلا بالاختصار ؛ فقالوا : يَزَلىّ ، ثم أبْدلَت الياء ألفاً ؛ لأنها أخفُ فقالوا : أزلىّ.

(٢) المقصود هنا هو موسى عليه السلام ، أى : لما اكتمل تكوينه ، وقيل: إن هذا يكون عند سن الأربعين.

وحين بلغ الطوفان تمامه استوت مركب سيدنا نوح ومعه المؤمنون من قومه ، وقال الحق : ﴿ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ [١] ... (٤٤) ﴾ [هود]

أى : استقرت على الجبل واستتب الأمر.

إذن : فكل استـواء لله يجب أن يؤخـذ على أنه استـواء يليق بذاته ، وصفاته ، التى قد يوجد فى البشر مثلها ، لكنها صفات مطلقة فى إطار : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ... (١١) ﴾ [الشورى]

وفعْل الله لا يمكن أن يتساوى مع فعل البشر ؛ ولذلك قلنا فى حديث الإسرَاء [٢] : إن الكفار المعاصرين للإسراء حينما كذَّبوا النبى ﷺ فى أنه قد أسرى به ، قالوا : أتدَّعى أنك أتيتَ بيت المقدس فى ليلة ، ونحن نضرب إليها أكباد الإبل شهراً ؟ [٣] وهذا القول المستنكر يؤكد أنهم قد فهموا أن الإسراء قد حدث حقيقة.

ورغم ذلك تجد بعض المعاصرين - الذين يدعون المعاصرة والفهم - يتساءلون : ولماذا لا تقولون : إن الإسراء قد تَمَّ بالروح ؟ ونقول لهم : إن كفار قريش أنفسهم الذين عاصروا رسول الله ﷺ لم يقولوا ذلك ، وفهموا أن الإسراء قد تمَّ بالجسد ؛ لذلك قالوا : «أنضرب إليها أكباد الإبل شهراً ،

---

(١) الجودى : موضع ، وقيل : جبل ، قال الزجاج : هو جبل بآمد ، وقيل : جبل بالجزيرة استوت عليه سفينة نوح عليه السلام.

(٢) أسْرَيت وسَرَيت إذا سرْت ليلاً. يقول تعالى : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً ... (١) ﴾ [الإسراء] وأسرى بعبده : سَيَّر عَبده. وأسراه ، وأسرى به بمعنى واحد. ويقول تعالى : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ (٤) ﴾ [الفجر] معنى يَسْر : يمضى. أو يُسْرَى فيه. وقد حدث الإسراء برسول الله ﷺ قبل الهجرة بسنة ، وقيل بستة عشر شهراً.

(٣) ذكر ابن إسحاق أن رسول الله ﷺ لما أصبح غدا على قريش ، فأخبرهم الخبر فقال أكثر الناس : هذا والله الإمْرُ البين ، والله إن العير لتطرد شهراً من مكة إلى الشام مدبرة وشهراً مقبلة ، أفيذهب ذلك محمد فى ليلة واحدة ويرجع إلى مكة ؟ (سيرة النبى لابن هشام ٢/ ٤). والإمْرُ : هو الشىء العظيم العجيب المنكر.

وتدّعى أنك أتيتها فى ليلة ؟» بل ، ولم يقولوا له : إنه رأى بيت المقدس فى رؤيا أو حُلْم [1] ؛ لأنه لا أحد يُكذِّب رؤيا أو حُلْماً ، وهكذا كان تكذيبهم دليلاً على التصديق للإسراء إلى أن تقوم الساعة.

ونقول لمن يدَّعى أن الإسراء إنما تَمَّ بالروح : افهم جيّداً أن رسول الله ﷺ قال : «أسرى بى».

إذن : فعْل الإسراء منسوب لله ، فلا تأخذ الإسراء بالقانون البشرى ، ولكن بالقانون الإلهى.

والزمن فى مسألة الإسراء منسوب لله ، لا لمحمد ﷺ . والقرآن يقول :
﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً ۝١ ﴾ [الإسراء]

وما دام الحق قد قال : (سُبْحَانَ) أى : أن الله مُنَزَّهٌ عَمَّا فى بال البشر من المسافات والقوة وغيرها.

ولقد ضربنا مثلاً لهذا - ولله المثل الأعلى - برجل يصعد بابنه الرضيع قمة جبل « إفرست » ، فلا يقال : وهل يصعد الرضيع قمة الجبل ؟ فالصعود منسوب هنا للرجل ، ولقدرة الرجل وقوته ، لا إلى الطفل.

وهكذا - ولله المثل الأعلى - فالزمن والقدرة على الإسراء منسوبان لله سبحانه ، لا إلى محمد ﷺ .

ونحن فى مجالنا البشرى تختلف قدراتنا فى قطع المسافات وأزمانها ، فمن يركب عربة يجرُّها حصان فقد يصل من القاهرة إلى الإسكندرية فى

---

(١) عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال : «لما كذبتنى قريش حين أسرى بى إلى بيت المقدس قمت فى الحجْر ، فجلا الله لى بيت المقدس ، فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه». أخرجه أحمد فى مسنده (٣/ ٣٧٧) ، والبخارى فى صحيحه (٤٧١٠) ومسلم (١٧٠). فوصف لهم رسول الله ﷺ بيت المقدس باباً باباً ونافذة نافذة وأعمدته والطريق إليه. وهذا لا يعقل أن يكون حُلماً أو رؤيا مهما كانت رؤيا صادقة أن تكون دالة على كل هذه التفاصيل.

أيام ، ومَنْ يركب سيارة فقد يصلها فى ساعتين . ومَنْ يركب طائرة فقد يصلها فى نصف ساعة .

إذن : فكلما زادت القوة تجد الزمن يقل ، فما بالنا بقوة القوىّ ؛ أيكون معها زمن؟ طبعاً لا .

وقال الحق سبحانه لسيدنا نوح : ﴿ **فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ** [1] .. ﴿٢٨﴾ ﴾ [المؤمنون]

أى : بعد أن ركب معك يا نوح مَنْ آمن من قومك ، واطمأننت على نجاتهم ، ستسير السفينة بإذن ربها .

إذن : فقول الحق عن ذاته : ﴿ **اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ** ... ﴿٣﴾ ﴾ [يونس]

يعنى : أن الأمور قد استتبت وتمت . وهكذا نفهم أن كل شىء يتعلق بالحق سبحانه وتعالى نأخذه فى إطار : ﴿ **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ** ﴿١١﴾ ﴾ [الشورى]

وأن كل صفة من صفاته يأتى تمثيلها ليقرب المعنى فقط ولا يعطى حقيقة المعنى ؛ لأنه سبحانه ليس كمثله شىء . وهكذا فسبحانه له استواء يليق بذاته ، لا كاستواء البشر .

والشاعر أبو تمام [2] حين جاء ليمدح الخليفة المعتصم ، نظر إلى الصفات التى اشتهر بها بعض القوم ، «فحاتم» على سبيل المثال كان قمة الكرم .

---

(١) الفُلْك : السفينة ، تُذكّر وتؤنّث ، وتقع على الواحد والاثنين والجمع . قال تعالى : ﴿ **فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ** ﴿١١٩﴾ ﴾ [الشعراء] ، وقال : ﴿ **وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ** ... ﴿١٢﴾ ﴾ [فاطر] ، وقال : ﴿ **وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ** .. ﴿١٦٤﴾ ﴾ [البقرة] وقال : ﴿ **حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم** .. ﴿٢٢﴾ ﴾ [يونس] .

(٢) هو حبيب بن أوس الطائى ، ولد بقرية من قرى الشام (١٨٠ هـ) ، نشأ نشأة متواضعة ، حيث كان يعمل صبياً لحائك توفى (٢٣١ هـ) عن ٥١ عاماً .

و«عنترة»[١] هو قمة الشجاعة ، «والأحنف بن قيس»[٢] قمة الحكمة ، فقال الشاعر أبو تمام عن الخليفة :

إقْدَامُ[٣] عَمْرٍو فى سَمَاحة حاتمٍ   فى حِلْمِ أحْنَفَ فى ذكاء إيَاسِ

وهكذا صار الخليفة مَجْمع فضائل ؛ لأنه أخذ إقدام عمرو ، وكرم حاتم ، وحلم الأحنف ، وذكاء إياس. ولكن حاسد الشاعر قال : إن الأمير فوق كل من وَصَفْتَ ، فهؤلاء جميعاً بالنسبة للخليفة صغار. وقال أحد الشعراء :

وشبهه المدَّاح فى البأس[٤] والنَّدى[٥]   بَمنْ لو رآهُ كان أصغَر خادمِ
ففى جَيْشِه خَمسُونَ ألْفاً كَعنْترٍ   وَفى خزَائنه ألفُ ألفِ حاتمِ

وحين سمع الشاعر الأول ذلك ، وكانت قصيدته الأولى «سينية» ، أى : أن آخر حرف فى كل أبياتها هو حرف السين ، فجاء بأبيات أخرى من نفس بحر القصيدة الأولى ، وقال :

لا تُنْكروا ضَرْبى له مَنْ دُونهُ   مَثلاً شَروداً[٦] فى النَّدَى والباس[٧]
فالله قَدْ ضَرَبَ الأقَلَّ لنوره   مثلاً من المشْكَاة[٨] والنِّبراس[٩]

---

(١) هو : عنترة بن شداد ، أشهر فرسان العرب فى الجاهلية ، من أهل نجد ، أمه حبشية اسمها زبيبة . توفى نحو ٢٢ قبل الهجرة .

(٢) هو : الأحنف بن قيس ، سيد تميم ، يضرب به المثل فى الحلم ، ولد فى البصرة (٣ ق هـ) وأدرك زمن النبى ولم يره ، توفى بالكوفة (٧٢ هـ) عن ٧٥ عاماً .

(٣) الإقدام : هو المضىّ إلى الأعداء بجراءة وشجاعة .

(٤) البأس : الشدة فى الحرب . ورجل شديد البأس : شجاع .

(٥) الندى : السخاء والكرم والجود .

(٦) مثلاً شروداً : خارجاً عن المألوف والعادة .

(٧) الباس : هو البأس . خففت همزتها لضرورة الشعر .

(٨) المشكاة : كوة فى جدار البيت ليست بنافذة وتعرف فى قرانا بـ«الطاقة» ، مع نطق القاف همزة .

(٩) النبراس : المصباح والسراج : والشاعر هنا يقصد قوله تعالى : ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ... (٣٥)﴾ [النور] .

إذن : فهناك فَرْق بين تمثيل الشيء ، وبين حقيقة الشيء ، فحين قال الحق : ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ...(٣٥)﴾ [النور]

فهذا مثل توضيحي للبشر . وشاء الحق ذلك ليعطينا مجرد صورة ؛ لأنه يتكلم عن أشياء لا وجود لها عندك . ولذلك نجد الرسول ﷺ يقول عن الجنة : « فيها ما لا عَينٌ رأت ، ولا أُذُنٌ سمعتْ ، ولا خَطَر[1] على قلبِ بَشَر »[2] .

وأنت حين ترى ؛ فللرؤية حدود . وحين تسمع فأنت تسمع مرائي غيرك ، وما لا يخطر على البال هو القمة ، فقد ارتقى الرسول في وصفه للجنة من حدود ما تراه العين إلى آفاق ما تسمعه الأذن ، ثم ارتقى من حدود السمع إلى ما لا يخطر على البال ؛ لأنه ﷺ علم أن اللغة هي ألفاظ تعبر عن معان ، والمعاني توجد أولاً ثم نأتي لها بالألفاظ ؛ ولذلك فالأمثال لمجرد التوضيح باللغة .

وهكذا نكون قد استوفينا فهم قوله الحق : ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ بما يليق بذات الله ، فلا نأخذ الاستواء على المعنى الذي يدل على مكان محيّز ؛ لأنه سبحانه مُنَزَّه عن أن يكون متحيزاً في مكان ؛ فذاته سبحانه ليست كالذوات ، وفعله ليس كالأفعال ، وصفاته ليست كالصفات .

---

(١) خطر : الخاطر : ما يخطر في القلب من تدبير أو أمر ، والخاطر : الهاجس . ويقال : خطر ببالي وعلى بالي كذا إذا وقع ذلك في بالك ووهمك . والجمع : خواطر .

(٢) عن سهل بن سعد الساعدي قال : شهدت من رسول الله ﷺ مجلساً وصف فيه الجنة حتى انتهى ، ثم قال ﷺ في آخر حديثه : «فيها ما لا عين رأت ، ولا أذُن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر» ، ثم قرأ هذه الآية : ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (١٦) فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٧)﴾ [السجدة] أخرجه مسلم في صحيحه (٢٨٢٥) وأحمد (٥/ ٣٣٤) من طريق ابن وهب عن أبي صخر به إلى سهل بن سعد ، وأخرجه الحاكم في مستدركه (٢/ ٤١٣) من طريق عبد الله بن سويد عن أبي صخر به . وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وأقره الذهبي .

ثم يقول بعد ذلك : ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ﴾ أى : أنه يرتب الوجود ترتيباً يجعل كل شيء موضوعاً فى مكانه بحكمة. والحق سبحانه وتعالى له صفة علم ، وصفة إرادة ، وصفة قدرة ، وصفة العلم هى التى تضع كل شيء فى مكانه بحكمة. وصفة الإرادة هى التى تخصص الممكن ببعض ما يجوز عليه. وصفة القدرة تبرز المراد لله.

إذن : فهناك علم ، وهناك إرادة ، وهناك قدرة تبرز المراد على وفق العلم. ومن المنطقى أن يدبر الله كل أمر ؛ لأنه سبحانه هو الذى خلق السموات وخلق الأرض. واستوت له الأمور بحيث لم يعد هناك خلق جديد إلا ما يبرزه بـ «كن». وهو سبحانه بعد أن خلق السموات والأرض وخلق الإنسان وسخَّر له السموات والأرض ؛ لذلك لا بد أن يدبر سبحانه للإنسان أمور مادياته ، وأمور قيمه.

أما أمور الماديات فقد ظهرت فى خلق السموات والأرض والشمس والقمر والنجوم والماء والهواء. وما فى الأرض من عناصر تنبت للإنسان ما يحتاج إليه فى قوام حياته ، وهو سبحانه الذى خلق كل ذلك قبل أن يخلق الإنسان ، ثم جاء بالإنسان ليكون الخليفة والسيد.

إذن : فالإنسان هو الذى طرأ على هذه الأمور المادية ، وكان لا بد أن يُنزلَ الحق سبحانه قيماً يحيا بها الإنسان كخليفة فى هذه الأمور المادية.

وهكذا خلق الله القيم المعنوية ، فلا تقولوا : لماذا أرسل رسولاً لا يُحسب فى نظر بعض الناس من عظماء أقوامهم ، ولا تقولوا لماذا أرسل محمداً بالتحديد؛ لأن هذا الإرسال هو من ضمن تدبير الأمور ، و﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ .. (١٢٤)﴾[1] [الأنعام]

---

(١) قوله سبحانه : ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ (١٢٤)﴾ [الأنعام] جاء رداً على من قال الله سبحانه فيهم : ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ .. (١٢٤)﴾ [الأنعام].

إذن : فقوله : ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ﴾ جاء ليؤكد نَفْى التعجب من أن يكون الوحى لمحمد ﷺ : ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا .. ۝٢ ﴾ [يونس]

وعلتها أن الله هو ربكم وهو الذى خلق ، ولا يجادل أحدٌ الله فيما خلق ، وفيمن خلق. وإذا كان هو سبحانه الذى خلق الإنسان والكون ، فلا بد أن ينظم حركة الوجود بين الإنسان والكون ؛ لذلك اختار الرسول المناسب ؛ ليحمل منهج القيم للإنسان فى «افعل كذا» و«لا تفعل كذا». ثم ترك الحق للإنسان أموراً لا يقول له فيها : افعلها أو لا تفعلها ، فهى من المباحات.

وإذا استقرأت الأفعال والأحداث ، ستجد أن الذى قال الله فيه «افعل» قليل ، والذى قال الله فيه « لا تفعل» قليل. وبذلك تجد المباحات أكثر من «افعل» وأكثر من «لا تفعل» [1].

وما دام سبحانه هو الذى شاء ذلك ، وترك لك أيها الإنسانُ الكثير من الأمور المباحة ، فاترك القيم لله ؛ لأن الكون المادى المخلوق لله فى غاية الدقة وفى غاية النظام ، ولم تمتنع الشمس أن تشرق أو تعطى ضوءها وحرارتها للناس ، وما امتنع القمر أن يعطى نوره ، وما امتنع السحاب أن يسقط مطراً مدراراً ، وما امتنعت الأرض أن تتفاعل مع أى غَرْس تغرسه فتعطيك الغذاء ، وكل شىء داخل فى نطاق القدرة فى النواميس العليا ؛ مُحكم ؛ ولا خلل فيه [2].

---

(١) ولهذا نجد أن المحرمات منصوص عليها فى القرآن من نحو قوله تعالى : ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلاَ تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ... ۝١٥١ ﴾ [الأنعام] ولذلك تعارف الفقهاء على قاعدة فقهية هى : الأصل فى الأشياء الإباحة.

(٢) عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : «إن الله عز وجل يعطى الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطى الدين إلا لمن أحب». أخرجه أحمد فى مسنده (١/ ٣٨٧) والحاكم فى مستدركه (١/ ٣٣) (٢/ ٤٤٧) (٤/ ١٦٥) وصححه ووافقه الذهبى. وعزاه الهيثمى فى مجمع الزوائد (١٠/ ٢٢٨) لأحمد وقال : «رجاله وثقوا وفى بعضهم خلاف».

وإذا نظرتم إلى غير ذلك وجدتم الخلل قد حدث ؛ لأن الشىء الذى لا تدخل فيه قدرة الإنسان وإرادته هو على أتم ما يكون من النظام ، ولا يفسد إلا الشىء الذى للإنسان فيه عمل واختيار ، ولا يعنى ذلك أن كل أعمال الإنسان تعانى من الخلل ، لكن الأعمال التى تعانى من الخلل هى الأعمال التى يُقبل عليها الإنسان دون منهج الله . ولو اخترنا البدائل على ضوء منهج الله ، لاستقامت القيم كلها، كما استقامت لنا نواميس الكون العليا [1] .

فإذا رأيتم فساداً فلوموا أنفسكم ؛ لأن الأمر الذى لا تتناولونه بأيديكم ولا دخل لكم فيه ، يعمل غاية فى الدقة ، فإن أردتم أن تعمل أموركم الاختيارية بغاية الدقة ؛ فخذوا منهج الله فى الأفعال ، ولا تفسدوها أنتم بأن تختاروا البدائل على غير مرادات الله.

ولذلك أقول دائماً : إنك إذا ما رأيت عورةً فى الوجود ، يتعب منها المجتمع ، فاعلم أن حداً من حدود الله قد عُطِّل . وإن وجدت أمة متخلفة ، فاعلم أنها عطلت حدود الله ، وإن وجدت أمة تعانى من أمراض اجتماعية جسيمة ، فاعلم أنها لا تطبق منهج الله.

ويخطىء مَنْ يقصر فَهْمَ عبادة الله على أنها الانقطاع فى المسجد ، أو الصوم ، أو إخراج الزكاة فى ميعادها ، أو الذهاب إلى الحج ، فكل هذه هى رءوس الإسلام تشحن العبد ليعمل وَفْق منهج الله ، فالصلاة هى إعلان الولاء لله خمس مرات فى اليوم ، ومدة الصيام شهر كل عام ،

(١) قال سبحانه وتعالى : ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِى عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [الروم] والفساد هنا قد يكون النقص فى الزروع والثمار على البر وأخذ السفن غصباً فى البحر فيما كان يعرف بأعمال القرصنة ، وقد يكون خللاً يحدث فى البيئة .

والزكاة إنما هى من فائض المال ، والحج هو تَرْكٌ للمال والأهل والولد .

كل ذلك من أجل شحن الطاقة ، فإذا ما شحنت الطاقة ، فوجِّه الطاقة إلى عمل آخر . ولنأخذ الصلاة مثلاً : فأنت تحتاج إلى طاقة تُقيمك وتُقعدك وتستبقى حياتك ؛ وقوة حركتك تحتاج كل ذلك لتصلى!

إذن : فأنت تحتاج إلى طعام ، ولن تُطْعم ما لم يكُنْ لك عمل يتيح لك شراء الطعام ، وحتى يبيع لك التاجر الخضر واللحم ، والفاكهة والخبز ، هو يحتاج إلى مَنْ ينتج ذلك ، ومَنْ ينتج الأطعمة يحتاج إلى مَنْ يدرس طبيعة الأرض والبذور ومعرفة الأوقات ، وكل هذه الأمور تحتاج إلى أجهزة منظمة لإنتاج الطعام . فمن يزرع يحتاج إلى محاريث تحرث ، وهذا يستلزم وجود الحديد وآخرين ليصهروه ويستخرجوا منه ما يصلح لصناعة المحاريث .

إذن : فقيامك إلى الصلاة يحتاج إلى كل هذه الأعمال . وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب . وهكذا تجد أن كل الأعمال التى تُسهِّل لك العبادة هى أعمال واجبة . والمثال : أنك حين تصلى تحتاج إلى سَتْر عورتك ؛ لذلك تشترى القماش ليُفصِّل لك الخائط ما ترتديه من ملابس ، وكل هذه الأعمال التى تنتج القماش وتصنع الثياب هى أعمال واجبة ، بدءاً من زراعة القطن أو الكتان أو التيل وغيرها إلى المغازل ومصانع النسيج ، وغير ذلك . وهكذا تجد أن كل الأعمال التى يتم الواجب بها هى أعمال واجبة ، فَسَتْر العورة أمر شرعى ، وهكذا يتسع مفهوم العبادة ليكون معناها : كل حركة تؤدى إلى إبقاء الصالح على صلاحه وزيادة الصالح إلى ما هو أصلح .

والمثال الذى أضربه دائماً : هو حاجة الإنسان إلى الماء للشرب ،

والغُسْل من الجنابة[1] وطهو الطعام وغير ذلك ، وكان الإنسان قديماً يشرب من الآبار ، ثم تطور التفكير إلى إقامة شبكات لتوزيع المياه بعد تنقيتها ، كل هذه أعمال تُزيد الأمر الصالح صلاحاً ؛ لأنك أخذت الماء من المطر الذى ملأ النهر ، وأعليْتَ الماء فى خزانات لتنقيته ، ثم اكتشفت قوانين الاستطراق[2] ومضخات المياه ؛ ليصل الماء الطاهر إلى كل من يحتاجه. وهكذا تزيد الصالح صلاحاً بالتفكير واستخدام العلم بما يفيد الإنسان ، إذن : فهذا عمل عبادى ما دامت النية فيه لله .

وانظر إلى يوم السوق فى أى قرية ، تجد من يدخله ومعه الماشية والأنعام[3] التى يرغب فى بيعها ، وتجد مَنْ يدخل بالفواكه والأطعمة ، ومَنْ يدخل ومعه الثياب أو أدوات المنزل ، وتجد من يدخل ليس معه شىء ، وبعد انتهاء السوق تجد كل إنسان قد خرج بما يحتاج ، لا بما دخل لبيعه . وهكذا ألقى الله الخواطر فى قلب وتفكير إنسان ما ليبيع ما لا يحتاجه ، وآخر ليشترى ما يحتاجه من إنتاج غيره.

وأنت إذا نظرت إلى قرية ما ، ستجد واحداً من أعيانها يرغب فى بيع أرضه وقصره ، ويرغب فى الرحيل إلى بلدة أخرى ، وهكذا ترى الميزان الاقتصادى الإلهى ، الذى يوزع العباد فى الأماكن التى تليق بكل واحد

---

(١) الجنابة : إنزال الرجل ماءَه من جماع أو نوم ، وسُمِّى الرجل جُنُباً لأنه يجتنب الصلاة والطواف حال جنابته . ويجب عليه الاغتسال غُسْل الجنابة وله كيفية ذكرتها سنة رسول الله ﷺ، فعن عائشة رضى الله عنها قالت : «كان رسول الله ﷺ إذا اغتسل من الجنابة يبدأ فيغسل يديه ، ثم يُفرغ بيمينه على شماله ، فيغسل فرجه ، ثم يتوضأ وضوءه للصلاة ، ثم يأخذ الماء ، فيدخل أصابعه فى أصول الشعر ، حتى إذا رأى أن قد استبرأ حَفَن على رأسه ثلاث حفنات ، ثم أفاض على سائر جسده ، ثم غسل رِجْليه». أخرجه مسلم فى صحيحه (٣١٦) والبخارى فى صحيحه (٢٤٨) بنحوه.

(٢) الاستطراق : عدّة أنابيب مختلفة الأحجام والأشكال ، متصل بعضها ببعض بأنبوبة أفقية ، فإذا وضع سائل فى إحدى هذه الأنابيب ارتفع سطح السائل إلى مستوى أفقى واحد . [المعجم الوسيط - مجمع اللغة العربية].

(٣) الأنعام هى : الإبل والبقر والغنم. ومثلها الماشية ، ومعنى المشاء : النماء. فالماشية أى : التى تنمو وتكثر. ولفظ الأنعام جاء به القرآن ٤٢ مرة ، بل نزلت سورة باسمها وهى سورة الأنعام.

منهم ، فإذا ما زاد واحد عن الحاجة فى مكان ، فهو يرحل إلى مكان آخر يحتاجه. وهذا هو التدبير الإلهى على أحسن ما يكون.

وقد تجد - مثلاً - الطفل يكتب بيده اليسرى ، على عكس أقرانه ، وقد تضربه على ذلك ، فيعجز عن الكتابة باليمنى وباليسرى ، وحين يقول لك الطبيب : لقد شاء الله أن يجعل ابنك موهوباً فى الخط الجميل ، وهو يكتب بيده اليسرى ، فأنت تتعجب ، وتكتشف بالفعل أن خط الطفل باليد اليسرى جميل.

وأقول دائماً لمن يشكون أن بعضاً من أولادهم يكتبون باليد اليسرى أو يأكلون باليد اليسرى ، أقول لهم : إن هذه مسألة تتعلق بالجهاز العصبى للإنسان ، فهناك من خلقه الله ليَعْملَ باليد اليمنى ، وهناك من خلقه الله ليعمل باليد اليسرى [1] ، وهناك من خلقه الله ليعمل بيديه الاثنتين ، مثل سيدنا عمر - رضى الله عنه - وكان «أضبطَ» [2] أى : يعمل بيديه الاثنتين .

وعلينا أن نحترم أقدار الله فيما خلق ومَنْ خلق. فسبحانه يخلق ما يريد ، لا وَفْق قوالب ، بل يخلق ما يشاء ، ومع كل خَلْق مراد معين. وكما أحسن الحق تدبير ما ليس لكم دَخْلٌ فيه ، فاعلموا أنه قد أنزل المنهج

---

(١) المقصود به هنا من خُلق هكذا لا يستطيع أن يستخدم يمينه ، أما الذى يستطيع استخدام يده اليمنى ولكنه يأكل أو يشرب أو يرتدى بشماله ويفضلها على اليمنى فقد خالف استحباب استخدام اليد اليمنى الذى وردت به سنة رسول الله ﷺ ، فعن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال : «إذا أكل أحدكم فليأكل بيمينه ، وإذا شرب فليشرب بيمينه ، فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله» أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٠٢٠) وأحمد فى مسنده (٢/ ٣٣٢٨).

وعن سلمة بن الأكوع أن رجلاً أكل عند رسول الله ﷺ بشماله فقال : «كل بيمينك». قال: لا أستطيع. قال : لا استطعت. ما منعه إلا الكبر. قال : فما رفعها إلى فيه. أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٠٢١) فهذا الرجل استنكف أن يطيع رسول الله ﷺ فى مثل هذا الأمر لا أن عنده عذراً خلقياً أو شرعياً يمنعه ، ولذلك دعا عليه رسول الله ﷺ ، فشُلّت يده.

(٢) الأضبط : هو الذى يعمل بيديه جميعاً ، يعمل بيساره كما يعمل بيمينه. ذكره ابن منظور فى لسان العرب (مادة : ضبط) .

ليُحسِّن مما لكم فيه دَخْلٌ ، ويجعل أموركم منتظمة ، وكل ذلك يدخل ضِمْن تدبير الأمر.

وأنت إذا نظرت إلى معنى كلمة «أمر» تجد أنها كل شيء ينشأ ، ولماذا عدل سبحانه عن قول : «شيء» إلى قول : «أمر» ؟ ؛ لأن كل شيء لا يوجد في الوجود إلا بـ «كن» وهي أمر. وسبحانه القائل : ﴿**إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ** (٨٢)﴾ [يس]

وسبحانه يدبر الأمر في السنن المادية التي لا تتناولها يد الإنسان ، فإن أراد الإنسان أن يضبط أمور حياته ، فليأخذ بالمنهج الذي أنزله الله بـ «افعل» و«لا تفعل» ، وأما المباحات فهي كثيرة ، والإنسان حرٌّ فيها.

وإذا ما سأل سائل : ولماذا أتَّبِع المنهج؟ أقول : إن الحق شاء أن يخلق الإنسان على هيئتين : هيئة إرغامية [1] قهرية ، وهيئة اختيارية ، فأنت أيها الإنسان مقهور في أشياء ، ومُختار في أشياء أخرى ؛ أنت مقهور في التنفس ، وتتنفس آلياً دون تدخُّل منك ، تتنفس مستيقظاً أو نائماً ، ولو كان التنفس باختيارك ، لاحتجْتَ إلى مَنْ يدير حركة تنفسك وأنت نائم ؟

إذن : فمن رحمته سبحانه أن جعلك مقهوراً في مثل هذه المسألة وكذلك نبضات قلبك ، أنت مقهور فيها ، وكذلك أنت مقهور في الحركة الدودية للأمعاء ، وللحركة الانبساطية والانقباضية في المعدة ، وإفراز العصارات الهضمية ، كل ذلك أنت مقهور فيه ، وأنت مُختار في أشياء أخرى ، كأن تشتري من البائع الفلاني ، أو بائعٍ غيره ، وأنت مُخَيَّر في أن تختار أصناف الطعام التي تهواها.

---

(١) أرْغَمه : حَمَلَه على ما لا يقدر أن يمتنع عنه. والرُّغْم : القسر والإجبار.

والمباحات فى الوجود كثيرة ، وما أكثر ميادين الحرية فى الحياة ، وما حدده لك الحق سبحانه وتعالى بـ«افعل» و«لا تفعل» ، لا يخرج عن أمور محصورة تصونك وتصون مجتمعك ، وكذلك الكون الذى تحيا فيه. وإنْ مارسْتَ أيها الإنسان حريتك فى الأمور المباحة على أى لون شئت ، فذلك لا يفسد الكون.

وقد شاء الحق سبحانه - أيضًا - أن تكون مقهوراً فى بعض الأمور حتى لا يفسد الكون ، فإن أكلت ما شئت من المأكولات غير المحرمة ؛ فأنت حُرٌّ ، وإن سلك كل إنسان كما يهوى فى الأمور المباحة ؛ فلا مانع لذلك. وكل البشر يختلفون.

وأراد سبحانه أن يحمى الإنسان والكون ؛ لأنه علم أزلاً أن أهواء البشر تتضارب ، وهو القائل : ﴿ **وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ** [1] **لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ** ... (٧١) ﴾ [المؤمنون]

ولهذا نرى أن تدبير الله فيما لا دخل لنا فيه ، تدبير مُحكَم ، وما يسير بدون تَدَخُّل من البشر إنما يتبع نظاماً مستقيماً ، وشاء الحق أن يجعل نواميس الكون تعمل بدقة يندهش لها المؤمنون بالله والكافرون به [2] ، فسبحانه يحكم فى مُلْكه بدقة متناهية ؛ حتى إن بعض العلماء ممن لا يؤمنون بمنهج الله قد حددوا مواعيد الكسوف الكلى أو الجزئى

---

(١) هَوَى النفس : إرادتها ، والجمع : أهواء. والهوى : محبة الإنسان الشيء وغلبته على قلبه ، قال تعالى : ﴿ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ (٤٠) ﴾ [النازعات] أى : نهاها عن شهواتها ، وما تدعو إليه من المعاصى. ومتى تُكُلِّم بالهَوَى مطلقاً لم يكن إلا مذموماً حتى يُنعت بما يُخرِج معناه ، كقولهم : هَوًى حَسَنٌ ، وهَوًى موافقٌ للصواب.

(٢) نواميس الكون : أسراره. والناموس فى اللغة : صاحب سر الملك أو الرجل الذى يطلعه على سره وباطن أمره ويخصه بما يستره عن غيره.

للشمس أو القمر [١] بدقة متناهية وذلك باستقرائهم لمعطيات الكون.

وما دُمْتم أنتم تتميزون على الكافرين بالإيمان بالله ، فخذوا منهج الله فى حياتكم ؛ لتستقيم أموركم بمثل استقامة الكون.

ولذلك قال سبحانه : ﴿ **يُدَبِّرُ الأَمْرَ** ... ﴿٣﴾ ﴾ [يونس]

ويضيف : ﴿**مَا مِن شَفِيعٍ** [٢] **إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ**﴾ وجاء الحق بمسألة الشفاعة بعد مسألة تدبير الأمر ؛ لأن هؤلاء الكافرين الذين تعجبوا من إرسال الله لرسوله ﷺ ، كانوا يعبدون ما لا يضرهم ولا ينفعهم ، ويقولون : إن تلك الأصنام تشفع لهم عند الله ، مصداقاً لقوله الحق :﴿**وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاَءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ** ..﴿١٨﴾ ﴾ [يونس]

ولذلك يُفصِّل الحق سبحانه مسألة الشفاعة. فالإنسان لا يحتاج إلى شفاعة عند مَنْ يملك الأمر إلا إذا ارتكب جُرْماً أو حدث منه تقصير فى أمر ما . والآية أوضحت أنهم يعبدون ما لا يضرهم إن لم يعبدوه ، وما لا ينفعهم إن عبدوه ، وأقروا أن مثل هذه الأصنام إنما تشفع لهم ، والشفاعة من الشفع ، والشفع ضد الوتر. والوتر هو ما لا يقبل القسمة على اثنين ، فيكون الوتر رقماً فرديّاً [٣] .

---

(١) الكسوف : احتجاب نور الشمس ، أو نقصانه ؛ بوقوع القمر بينها وبين الأرض. وهو للشمس كالخسوف للقمر.

(٢) شفيع : صيغة مبالغة من (شافع) وهو الذى يشفع أى : يطلب العفو لشخص آخر ، والشافع : الطالب لغيره. والجمع : شفعاء. قال تعالى : ﴿**مَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا** ... ﴿٨٥﴾ ﴾ [النساء].

(٣) الشفع : خلاف الوَتْر ، وهو الزوج. تقول : كان وَتْراً فشفعته شفعاً. وشَفَعَ الوَتْرَ من العدد شفعاً أى : صَيَّره زوجاً. والشفيع من الأعداد : ما كان زوجاً . تقول : كان وَتْراً فشفعته بآخر. قال تعالى : ﴿**وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ** ﴿٣﴾ ﴾ [الفجر]. قال الأسود بن يزيد : الشفع هو يوم الأضحى والوتر يوم عرفة. وقال عطاء : الوتر هو الله ، والشفع خَلْقُه. وقال ابن عباس : الوتر آدم شُفِعَ بزوجته. وقيل فى الشفع والوتر : إن الأعداد كلها شفع ووتر.

والعبد من هؤلاء له موقف من الإله الذى يعبده ، وهو غير قادر على مواجهته ؛ لأنه مقصر ، فبدلاً من أن يقابله فرداً يأتى بآخر معه ؛ ليشفع له ، وهكذا يكون معنى الشفع هو تعضيد[1] الفرد بواحد آخر ؛ فينتقل من كونه وتراً إلى كونه شفعاً.

وكان الكفار على عهد رسول الله ﷺ يقولون عن تلك الأصنام : إنهم شفعاء لهم عند الله ، فيقول الحق سبحانه فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها : ﴿**مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ** ... ③﴾ [يونس]

لأن الشفاعة تقتضى شافعاً ومشفوعاً عنده ، ومشفوعاً له ، ومشفوعاً فيه ، هذه هى الأربعة العناصر فى الشفاعة. والذى يستشفع هو المقصِّر ، وهؤلاء الكفار قالوا عن الأصنام : إنها شفعاء لهم عند الله ، وهذا إقرار منهم بالتقصير ، وأقروا بأن المشفوع عنده هو الله ، وأما المشفوع فيه ؛ فهو تخفيف العذاب أو إنهاء العذاب.

إذن : فالمشفوع فيه أمر مشترك ، والمشفوع عنده أمر مشترك ، أما الأمر فى الشافع ، والأمر فى المشفوع له ، فهما مختلفان. وأنت - على سبيل المثال ، لا تأتى بإنسان يسير فى الطريق وترسله ليشفع لك (مثلاً) عند المحافظ أو عند الوزير ؛ إن كانت لك حاجة عند أى منهما ، بل تأتى بإنسان تعلم رضا المحافظ عنه أو رضا الوزير عنه ، وله منزلة ومكانة ، وهذه المنزلة والمكانة تسمحان له بالإذن فى أن يكلِّم المحافظ أو الوزير فى أمور الناس.

وإذا كان هذا هو الحال فى الشفاعة من البشر لدى البشر ، فما بالنا

(١) الاعتضاد : التقوّى والاستعانة ، واعتضدت بفلان : استعنت به ، والمعاضدة : المعاونة. وهى مأخوذة من العضد : وهو الساعد ، أى : ما بين المرفق إلى الكتف. والعضد : القوة ؛ لأن الإنسان إنما يقوى بعضده فسميت القوة به. قال تعالى : ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ ... ㉟﴾ [القصص].

بالشفاعة للإنسان لدى الله ؟ لذلك بيَّن الحق هنا أن الشفيع لا بد أن يكون بإذن منه سبحانه ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِه ... ③﴾ [يونس]

وفى سورة البقرة يقول سبحانه : ﴿ مَن ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴿٢٥٥﴾﴾ [البقرة]

وفى آية أخرى يقول سبحانه :

﴿يَوْمَئِذٍ لاَّ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِىَ لَهُ قَوْلاً ﴿١٠٩﴾﴾ [طه]

إذن : فالشفيع لا بد له من إذن ورضًا من الله .

أما المشفوع له فقد قال الحق :

﴿وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَىٰ .. ﴿٢٨﴾﴾ [الأنبياء]

هكذا بيَّن لنا الحق عناصر الشفاعة : الشافع ، والمشفوع له ، والمشفوع عنده وهو الله سبحانه ، والمشفوع فيه هو الذنوب وهى معروفة.

ولقائل أن يتساءل : ما دام الحق سبحانه قد رضى عن عبد ، فلماذا يحتاج العبد إلى الشفاعة ؟

وأقول : لننتبه إلى أن الإنسان يتعرض لأعمال كثيرة، وله نقاط ضعف فى حياته؛ قد تكون كثيرة، وقد تكون قليلة، فإذا جاء فى نقطة الضعف وأذنب ذنباً، فعليه أن يزيد من فعل النقاط القوية التى تُكتب له بها الحسنات؛ لأن المعيار هو :﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ[1] يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ...﴿١١٤﴾﴾ [هود]

(١) ذهب بعض علماء التفسير إلى أن الحسنات هنا بمعناها المطلق أى : فعل الخير مطلقاً. وذهب بعضهم إلى أن الحسنات هنا المقصود بها الصلوات الخمس ، واستدلوا بحديث أبى هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : «أرأيتم لو أن بباب أحدكم نهراً غمراً يغتسل فيه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه شىء ، قال : فذلك مثل الصلوات الخمس ، يمحو الله بهن الخطايا» متفق عليه أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٢٨) ومسلم (٢٨٣).

فالعبد حين يزيد من الحسنات فالحق سبحانه قد يمحو السيئات ، وليعلم كل إنسان أنه إن اختلس من الله حكماً فهو لن يستطيع أن يهرب من العقاب ، وعليه أن يزيد من الحسنات ، ويرجو المغفرة من الله ؛ وقبول التكفير بالحسنات عن السيئات ، ولن يُفلت أحد من ملكوت[1] الله .

وهَبْ أن إنساناً فيه نقطة ضعف ، وأذنب ذنباً ، وعنده نقطة قوة يطيع فيها الله بسهولة ويُسْر ، هذا الإنسان له أن يعلم أن الله يحبه لأجل نقطة قوته هذه ، وقد يرحمه الله سبحانه فيما أذنب من الذنوب ، ويجعل المأذون له فى الشفاعة يشفع له عنده سبحانه .

فلماذا أراد الحق ذلك ؟

شاء الحق ذلك حتى لا يُحرَمُ العالم من الحسنات التى يجيدها ذلك الإنسان . ويحكى لنا الحديث النبوى الشريف عن الرجل الذى لقى كلباً يلهث من العطش ، ولم يجد الرجل إناء يملأه ماء من البئر ليسقى الكلب ، فنزل البئر وملأ خفه[2] ، وعاد إلى الكلب ليسقيه . وبطبيعة الحال لم يكن هذا الرجل لينافق الكلب ، بل منتهى الرحمة بهذا الحيوان ، كذات خلقها الله ؛ لذلك غفر الحق سبحانه لهذا الرجل[3] .

وهكذا نفهم أن الحق يغفر ويمحو السيئات . وقد جعل الحق سبحانه الشفاعة لرسول الله تكريماً له ﷺ ، وكذلك فى المأذون له فى الشفاعة ،

---

(١) ملكوت الله : سلطانه وعظمته . والملكوت : ملك الله خاصةً ، قال تعالى : ﴿ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ (٨٨) [المؤمنون] . قال أبو إسحاق : ملكوت كل شىء معناه : القدرة على كل شىء .

(٢) الخف : النعل يلبسه الإنسان فى قدمه .

(٣) عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : بينما رجل يمشى بطريق اشتد عليه العطش ، فوجد بئراً فنزل فيها فشرب ، ثم خرج فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش ، فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذى كان بلغ بى ، فنزل البئر فملأ خفه ثم أمسكه بفيه فسقى الكلب ، فشكر الله له فغفر له . قالوا : « يا رسول الله وإن لنا فى البهائم أجراً ؟ فقال : فى كل ذات كبد رطبة أجر » أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٠٠٩) ومسلم فى صحيحه (٢٢٤٤) .

حتى يعلم المسلم أن الرسول قد يشفع له ، وأن المؤمن قد يشفع لأخيه ، وأن الأب قد يشفع لابنه [(١)] ، وحين يعلم المسلم ذلك ، فهو يحسن إلى كل هؤلاء ؛ لعله يحصل على الشفاعة منهم ، ويحسن اتباع سنة الرسول ﷺ ، ويحسن معاملة المؤمنين ، ويحسن الابن معاملة والديه ، وهكذا يعيش المجتمع فى كرامة الشفاعة بعمل الخيّر وإخلاص النية .

وإذا رأيت إنساناً محسناً فى دينه ، فلا بد لك أن تحترمه ؛ لأن إحسانه فى دينه قد ينفعك أنت ؛ ولذلك نجد الحق سبحانه وتعالى فى سورة الفاتحة يقول : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ﴾ [(٢)] [الفاتحة]

وكان الحق سبحانه قادراً أن ينزلها « إياك أعبد وإياك أستعين » ولكنه شاء أن تنزل على صورتها تلك ؛ حتى يأذن سبحانه بقبول الصفقة من كل قائليها ، فيتقبل من عباده أعمالهم بما يغفر لبعضهم الأشياء المعيبة .

ولذلك أقول : إن رأيت إنساناً مستغرقاً فى العبادة فلا تسخر منه ولا تهزأ به ؛ لأن حرصه على الطاعة وانشغاله بالعبادة قد تنفعك أنت .

وساعة تتلقى أمراً من رسول الله ﷺ وتجده شاقاً ، فعليك أن تتذكر أنه المرجع الذى قد يشفع لك فى الأمور التى لم تقدر عليها .

---

(١) هذه الشفاعة مقيدة بألا تكون فى حد من حدود الله ، وهذا ما دلت عليه السنة الصحيحة ، فعن عائشة رضى الله عنها أن قريشاً أهمهم شأن المرأة التى سرقت فى عهد النبى ﷺ فى غزوة الفتح ، فقالوا : من يكلم فيها رسول الله ﷺ ؟ فقالوا : ومن يجترىء عليه إلا أسامة بن زيد حبّ رسول الله ﷺ فأتى بها رسول الله ﷺ فكلمه فيها أسامة بن زيد ، فتلون وجه رسول الله ﷺ فقال : « أتشفع فى حد من حدود الله ؟ » فقال له أسامة : استغفر لى يا رسول الله » الحديث . أخرجه مسلم فى صحيحه (١٦٨٨) والبخارى فى صحيحه (٦٧٨٨) .

(٢) مراد الشيخ أن العبادة أولاً ثم يأتى العون ؛ لذلك نجد سيدنا إبراهيم عليه السلام عندما أودع هاجر وإسماعيل إلى البيت الحرام قال : ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ۝٣٧ ﴾ [إبراهيم] فالعبادة سبقت ، والعبادة وسيلة العطاءات والشفاعات وبالعبادة يأتى العون .

ولا بد أن يرضى الحق عن المشفوع له ؛ لأنه قد أجاد فعل حسنات . وإن كانت له سيئات ، وقد رأى رجل سيدنا عمر فى رؤيا ، فسأل الرائى سيدنا عمر بن الخطاب : ماذا فعل الله بك يا ابن الخطاب ؟ فقال سيدنا عمر : غفر الله لى . فسأل الرائى : بماذا ؟ أجاب سيدنا عمر : لأنى رأيت غلاماً يعبث بعصفور فاشتريته حتى لا أفجعه فى عصفور يملكه ، وأخذت العصفور وأطلقته .

واعترض أحد السامعين للرؤيا متسائلاً : ألم يفعل ابن الخطاب أعمالاً تؤهله لمغفرة الله إلا مسألة العصفور هذه ؟ فقال له قائل : أحسن الفهم يا رجل ؛ فمسألة إطلاق العصفور إنما تخص غفر الخطايا ، وأما أعمال عمر بن الخطاب الجليلة فهى لرفع الدرجات .

وفى القرآن آيتان جاءتا بنص متقارب ، فالحق يقول :

﴿ **وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ** [1] ... ﴿٤٨﴾ ﴾ [البقرة]

والآية الثانية تقول : ﴿ **وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ** ...﴿١٢٣﴾ ﴾ [البقرة]

ومن حاولوا المقارنة بين الآيتين بغرض الطعن فى القرآن ، هم من الغرباء عن اللغة ولا يملكون ملكة [2] البيان التى يمكن أن يستقبلوا الأساليب بها ، ولو امتلكوا هذه الملكة لعلموا أن الصدر فى الآيتين محتمل

(١) عدل : فداء أو بدل .
(٢) الملكة : صفة راسخة فى النفس أو استعداد عقلى خاص لتناول أعمال معينة بحذق ومهارة ، مثل : الملكة اللغوية .

لوجهين ، فهناك نفس جازية هى التى تتشفع ونفس مجزىٌّ عنها هى التى يُتشفع لها .

والضمير الذى يأتى فى قوله الحق : ﴿وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا﴾ و ﴿وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا﴾ و ﴿وَلاَ تَنفَعُهَا﴾ ، هذا الضمير يصح أن يرجع إلى النفس الشافعة ، ويصح أن يرجع إلى النفس المشفوع لها . والإنسان منا إذا ما كان عليه شىء لإنسان آخر ، وغير قادر على أن يستبرىء ذمته منه ، فهو يلجأ إلى صديق لهذا الآخر ، له مكانة عنده ليستشفع له . وفور أن يذهب صاحب المكانة إلى هذا الآخر فهو يقول له : هل تقبل شفاعتى لفلان ؟ فإن قال صاحب الأمر : لن أقبل الشفاعة ، فالمستشفع عنده يقول له : إذن: سأدفع العدل، أى: ما يساوى قيمة ما كنت سأتشفع له فيه. وهكذا نجد أنفسنا أمام نفسين : شافعة ، ومشفوع لها . والضمير يعود على أى من النفسين.

وهكذا نجد أن صدر كل آية من الآيتين اللتين يقال عنهما : إنهما متشابهتان ، صدر كل منهما منسجم مع عجزها .

وينهى الحق سبحانه الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها بعد أن أوجزت الآية فكرة عن خلق الله تعالى للكون ، وأنه يشفع لمن شاء ويختار من يقدم له الشفاعة ، فيقول : ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ ③﴾ [يونس]

فسبحانه خلق الكون ، واستتبَّت بيده مقاليد الأمور ، وخلق الإنسان ليعمر هذا الكون ، ونعلم أنه سبحانه قد شهد لنفسه أنه لا إله إلا هو ، وحين يشهد الحق لنفسه ، فسبحانه على ثقة تامة بأن أوامره فى كونه نافذة .

وقوله سبحانه : ﴿ذَلِكُمُ﴾ أى : إشارة إلى ما تقدم من خلق السموات والأرض ، والاستواء على العرش ، وتدبير الأمر كله ،

ولا أحد يشفع عنده إلا بإذنه ، هذا هو الله ربكم ، وما دام هو ربكم فاعبدوه ؛ لأنه هو الذى خلق من عدم ، وأمد من عُدْم ، وله كل صفات الكمال المطلق .

وهذه العبادة لا تعود عليه سبحانه بأى فائدة ، فسبحانه منزَّه عن فائدة تعود عليه ؛ لأنكم إن عبدتموه فلن تزيدوا فى ملكه شيئاً ، وإن لم تعبدوه فلن تنقصوا من ملكه شيئاً [(١)] . والعبادة يعود نفعها عليكم ؛ لأنكم ستأخذون بها منهجاً يخرج كل الخلق عن أهوائهم ، ويصير هوى الموجِّه واحداً ، فلا تصطدم إرادة بإرادة ، بل تتساند الإرادات ؛ فيتكامل العالم .

إذن : فالعبادة توحِّد أهواء الخلق إلى مراد واحد ، لا يأنف [(٢)] الإنسان منا أن يخضع له ؛ لأن هذا ليس خضوعاً من بشر لبشر ، بل خضوعاً من مخلوق لخالق ، وبذلك تستقيم أموركم الاختيارية ، كما استقامت أموركم غير الاختيارية .

وهكذا لا تنحصر العبادة فى أركان الإسلام الخمسة فقط ، بل تكون هذه الأركان الخمسة هى الدعائم التى تقوم عليها عمارة الإسلام ، وكل الإسلام هو كل أمر لله وكل نهى له سبحانه ؛ ولذلك حين نتابع تسلسل الأمور ، سنجد أن أركان الإسلام الواجبة تعتمد على حركة الحياة كلها ، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

---

(١) عن أبى ذر عن النبى ﷺ فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال : « . . . يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ، ما زاد ذلك فى ملكى شيئاً . يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ، ما نقص ذلك من ملكى شيئاً . . » أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٥٧٧) وأحمد فى مسنده (٥/ ١٥٤ ، ١٧٧) .

(٢) يأنف : يكره .

ويقـول الحـق فى آخـر الآيـة : ﴿ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ﴾والذهـن أو المـخ - كما نسميه - فيـه ملكات متعددة مثل : ملكة التخيُّل ، وملكة الحفْظ والاختزان ، وكثير من الملكات الأخرى منها مَلَكَةُ التذكُّر . ومعنى التذكُّر أن شيئاً سبق لك إلْفٌ [١] به ، فطرأ عليك ما أنساك ، وحين تنسى أمراً يخصُّ أحد أقرانك ، فهو يقول لك : تذكر يا أخى الأمر الفلانى ، وهـو لا يأتى لك بأمر مجهول لم تعرفه أولاً ، بل يأتى لك بأمر كان معلوماً لك ، ولكنك نسيته.

والإنسـان حين ينظر إلى الكون نظرة غير متحيزة لا بد أن يؤمن بأن لهـذا الكون إلهاً ، وهذا الأمـر لا نأخـذه من الفلاسفـة ، بل من رجل الشارع ، وراعى الشاة ؛ فقد جاء فى الأثر أن راعياً كان يسير فى الصحراء فـرأى بَعْراً [٢] فى الطـريق ، فـقـال : إذا كـان البعـر يدل على البعـيـر ، والسيـر يدل على المسـيـر ، أفـلا يدل كل هـذا الكون على وجـود اللطيف الخبير ؟!

والمثال من حياتنا اليومية : أن غسّالة الملابس الكهربية - وهى لا تدل على شىء ضرورى فى الحيـاة ، بدليل أن السابقين علينا كـانوا يغسلون ملابسهم بدونها ، فهى تمثل ترفاً ، لا ضرورة - نجد الناس يعرفون من الذى ابتكرها ، ومن أوصلها بالكهرباء ومَنْ صنع لها توقيتات دورات الغسيل ، ومثلها مثل المصباح الكهربى الذى يفسد بعد عدد معّين من الساعات ، ونجد التلاميذ يدرسون تاريخ من صنعه ، فهل يمكن أن ننسى من خلق الشمس التى تضىء الكون ؟

(١) ألفتُ الشىء وآلفتُه : لزمته ، أو أنست به ، أو اعتدته ، فهو مألوف . قال تعالى : ﴿ لإيلافِ قُرَيْشٍ ۝١ ﴾ [قريش] .

(٢) البَعْرة : واحدة البعر ، وهو رجيع الخُفّ ، والظِّلف من البعير .

بل ونجد فى زماننا العالم الكافر وهو يمدُّنا بأدلة الإيمان ، فكل اختراع نجد مَنْ يسجله ؛ حتى لاَ يسرقه غيره ، فما بالنا بالشمس التى تضىء وتُدْفىء ، والقمر الذى يحدد الشهور ، والنجوم التى تدل الناس على الاتجاهات [1] ولا شىء فى كون الله يحتاج إلى قطع غيار ، ألا نعترف بمن خلق كل ذلك ، ها هو ذا سبحانه يدلنا على مَنْ خلق ويبلغنا ما يسجل له ملكية ما خلق ، فأنزل القرآن على الرسول ﷺ ليدلنا على أنه سبحانه الذى خلق ، وأبقى الله الكافرين ليتحدى مَنْ يناقض قضية الخلق . وسجل الحق سبحانه ما خلقه لنفسه، ولم يقدر أحد من الكافرين على إنكار ذلك .

ولن نأخذ الأدلة على وجود الله من الفلاسفة الذين يرتبون النتائج على المقدمات ، ومطابقة قياس الشكل على الموضوع ، بل سوف نأخذ الدليل من كلمة « الكفر» نفسها ، هذه الكلمة (كفر) تعنى : (ستر) ، فهل يُسْتَرُ إلا موجودٌ ؟

إذن : فالكفر بالله دليل على وجود الله ، وما دام الكفر سَتْراً ، فالكفر أمر طارىء ، نتيجة للغفلة ، والغفلة إنما تأتى لأن مقتضيات الإيمان تقيد النفس فى حركتها ؛ لذلك قد يغفل الإنسان متناسياً أن قيود المنهج لا تطبق عليه وحده ، بل تطبق على كل الناس .

فحين يُحرِّم الله السرقة ، فهو لم يحرمها على إنسان واحد ، بل حرمها على كل إنسان ، فقيَّد الآخرين ومنعهم من أن يسرقوا منك .

---

(١) ملأ الله سبحانه الكون بدلائل ربوبيته ووحدانيته وأنه الخالق سبحانه وهو البديع الذى أبدع الأشياء على غير مثال سابق ، وجعلها سبحانه ظاهرة للأعين :
منها الشمس التى قال عنها سبحانه : ﴿ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ⑬ ﴾ [النبأ] وقال عنها وعن القمر : ﴿هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ ⑤ ﴾ [يونس] وعن النجوم قال سبحانه : ﴿ وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِى ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ⑨⑦ ﴾ [الأنعام] .

وحين يأمرك بغضٍّ بصرك [١] عن محارم جارك ، فهو يحمى محارمك أن ينظر إليها غيرك .

إذن : فالإيمان جاء بالنفعية لكل إنسان . وما دام الأمر كذلك ، نجد الحق سبحانه يقول [٢] : ﴿ اذْكُرُوا .. (٣) ﴾ . [فاطر]

وحين يجلس الإنسان بمفرده ولا تُحركه شهواته فهو يهتدى إلى الإيمان بأن هذا الكون لم يَأتِ صدفة .

واسم الخالق للكون لا يمكن أن يعرفه الإنسان بعقله ؛ لأن التصورات تختلف من إنسان لآخر . وتجد أن الفلاسفة حين أقروا بأن هذا الكون لا بُدَّ له من خالق لم يتعرفوا على الاسم ، بل أخطأ بعضهم التصور وظنوا أن من خلق الكون ترك النواميس لتعمل ، وتناسوا أن الخالق لا يباشر سلطانه فى الكون مرة واحدة . لذلك جاء الرسل بالمعجزات التى تخرق النواميس ؛ ليدلنا سبحانه على أنه هو الذى خلق ، وله قيومية على ما خلق ، فليست المسألة مسألة نواميس تعمل بذاتها ، بل شاء سبحانه أن يدلنا على عدم الآلية فى الكون .

ونحن نعلم أن الآلية التى يصممها البشر فى بعض المعدات تتسبب فى إحداث جمود ، فالعقل الإلكترونى ليست له قيومية على المعلومات المختزنة فيه ، فلا يستطيع أن يخفى منها شيئاً إذا طلبت منه .

أما عقل الإنسان فله سيطرة على معلوماته ويستطيع أن يخفى ما شاء منها ، ولذلك قال الحق سبحانه :

---

(١) يقول عز وجل : ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣٠) وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ .. (٣١) ﴾ [النور] .

(٢) ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٣) ﴾[فاطر] ، فالنعمة موجودة أوجدها الخالق سبحانه فى الكون ، وطرأ الإنسان على الكون ، ولكنه تغافل فاحتاج إلى التذكرة من خالقه .

﴿ وَلَا تَلْبِسُوا [1] الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [البقرة]

فما دام قيل للإنسان : لا تكتم الحق . إذن : فله قدرة على الإخفاء .

والوردة الطبيعية - على سبيل المثال - حيويتها فى ذبولها على عكس الوردة الصناعية التى تظل على جمودها ليس فيها حياة .

والحق حين يقول : ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ .. ﴿٨٠﴾ ﴾ [المؤمنون]

أو ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ .. ﴿٤﴾ ﴾ [السجدة]

فهو يحرّض الإنسان على أن يتذكر ، ويتفكر ، ويعتبر . ولو كان القرآن يريد أن يخدع الإنسان ، لما أثار انتباهه إلى ضرورة التذكر والتفكر والتدبر والاعتبار .

وأضرب هذا المثل - ولله المثل الأعلى : هب أنك ذهبت إلى محل للصوف لتشترى قماشاً متميزاً ، فتجد البائع يفرد أمامك القماش ، ويشده بيديه ليبين لك متانته ، ثم يأخذ منه خيطاً ويحرقه ليبين لك أنه صوف خالص نقى ، إن هذا البائع يحاول أن يشرح لك خبايا صناعة الصوف ؛ لأنه واثق من جودة ما يبيع .

هذا ما يحدث فيما بين البشر ، فما بالنا حين يعرض خالق الكون على مخلوقاته أسرار الكون ويدعوهم عبر منهجه إلى التذكُّر والتعقُّل والتفكُّر والتدبُّر والاعتبار .

والحق سبحانه يطلب منا ذلك ثقة منه فى أن الإنسان منا ، إن فعل ذلك ؛ فسيصل إلى مراد الحق من الخلق .

---

(١) التبس عليه الأمر : اختلط واشتبه . التلبيس : كالتدليس والتخليط . إلباس الحق بالباطل : خلطه به ومنه قوله تعالى : ﴿ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا .. ﴿٦٥﴾ ﴾ [الأنعام] .

وإياكم أن تظنوا أن الله خَلَق لكم ، ثم خَلَق لكم ، ثم أنزل لكم المنهج ليسعد حياتكم فى الدنيا والآخرة ، ثم اعتزلكم . لا ، بل هو قيُّوم حياتكم ولا تأخذه سنةٌ ولا نوم ، ولا يفلت منه شيء ، ولا أحد بقادر على أن يختلس منه شيئا .

وفى الحديث القدسى : « يا عبادى إن كنتم تعتقدون أنى لا أراكم فالخلل فى إيمانكم . وإن كنتم تعتقدون أنى أراكم فَلِم جعلتمونى أهون الناظرين إليكم » .

وأنت فى الحياة اليومية تعرف أن أحداً لا يقترب من إنسان قوى منتبه .

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ[1] وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ④ ﴾

وحين يقول سبحانه : ﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ﴾ فهذا إعلام لكل الخلق أن كل الأمور معلومة له سبحانه ، فقد أنزل التكليف الذى قد يُطاع ؛ وقد يُعصى . فمن أطاع يفرح بقوله سبحانه : ﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ﴾ ، ومن عصى يحزن ؛ لأنه سيلقى عقاب العصاة حين يرجع إلى الله[2] .

---

(١) حميم : ماء شديد الحرارة والسخونة .

(٢) وقد دلَّ القرآن على أن المؤمنين رغم طاعتهم لله إلا أنك تجدهم مشفقين من يوم القيامة وما فيه من أهوال وهذا لعظم إيمانهم بأن الله سريع الحساب وأنه سبحانه شديد العقاب ؛ ولأنهم يعملون الطاعات ويخافون ألا تقبل ، ويقعون فى المعاصى ويخشون ألاَّ يُغفر لهم . يقول سبحانه : ﴿ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الأنبياء] .

ونجد القرآن يقول مرة : «يُرْجَعُون» ومرة يقول : « يَرْجعون»[1] ، فمن عمل صالحاً ؛ فهو يفرح بالرجوع إلى الله ، ومن عصى وكفر ؛ فهو يحزن ويخاف ويتردد ويحاول ألا يرجع ، لكنه يُرجَع رغم أنفه ، والحق سبحانه يقول: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ[2] إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾﴾ . [الطور]

وقوله سبحانه هنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها : ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ... ﴿٤﴾﴾ . [يونس]

وسُمِّى هذا المرجع فى نفس الآية : ﴿وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا .. ﴿٤﴾﴾ [يونس]

ولقائل أن يقول: ولكن الوعد يطلق على الأمر الذى سيأتى بخير ، فإن كان المرجع للطائع فهذا هو الخير ، ولكن العاصى لن يرى فى الرجوع خيراً ، فلماذا لم يقل الله : إن المرجع للعاصى وعيد ؟

وأقول : إن الحق سبحانه إنما ينبه الإنسان لما ينتظره فى المستقبل ، ويعظه ، وترك له الاختيار ، وهذا تقديم للخير ، وهكذا تصبح المسألة كلها وعْداً . والصيغة التى يتقدم فيها المجرور رغم أن من حقه التأخير ، فهى تعنى تفرُّد المرجع ، فكلنا نرجع إليه سبحانه ، مثل قوله سبحانه :

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ .. ﴿٥﴾﴾ . [الفاتحة]

إذن: فالطائع يفرح بجزاء الله له ، وعلى العاصى أن يراجع نفسه قبل أن

---

(١) ورد قوله تعالى ﴿ يُرْجَعُونَ﴾ فى ستة مواضع من القرآن الكريم: فى آل عمران (٨٣) والأنعام (٣٦) ومريم (٤٠) والنور (٦٤) والقصص (٣٩) وغافر (٧٧) .

* أما قوله سبحانه : ﴿يَرْجِعُونَ﴾ فقد وردت ستة عشر مرة :[البقرة : ١٨] ، [آل عمران : ٧٢] ، [الأعراف : ١٦٨ ، ١٧٤] ، [يوسف : ٦٢] ،[الأنبياء : ٥٨ ، ٩٥]، [النمل : ٢٨]، [الروم : ٤١] ، [السجدة : ٢١]، [يس : ٣١، ٥٠ ، ٦٧]، [الزخرف : ٢٨ ، ٤٨] ، [الأحقاف : ٢٧] .

(٢) يدعّون: يُدفعون دفعاً عنيفاً. والدَّعّ: الطرد والدفع. قال تعالى: ﴿فَذَٰلِكَ الَّذِى يَدُعُّ الْيَتِيمَ ﴿٢﴾﴾ [الماعون] .

يرجع إلى الله . وأضرب هذا المثل - ولله المثل الأعلى - أنت تنبه التلاميذ إلى أن يذاكروا طوال العام ، فالذى يذاكر فعلاً ، يفرح بالامتحان ؛ لأنه سوف ينجح فيه ، والذى لا يذاكر قد يراجع نفسه ويقبل على المذاكرة خوفاً من الرسوب ، والتذكير لون من ألوان الإنذار ؛ ليتهيب الموقف ويرتدع ، وهكذا يصير التذكير وعداً لا وعيداً.

ويضيف الحق سبحانه لوصف وعده بأنه حق ، فيقول: ﴿وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا﴾ ولقائل أن يقول : أليس كل وعد من الله حقّاً ؟ ونقول : نعم . كل وعد من الله هو حق ، وشاء الحق سبحانه هنا أن يَصفَ وعده بأنه حق ليذكرنا بأن الحق هو الشيء الثابت ؛ فإن خُيِّل إليك فىَ بعض الأوقات أن الباطل هو السائد والسيد ، فلتعلم أن الباطل لا ثبات له ولا سيادة.

وسبحانه يقول:

﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا [1] رَّابِيًا [2] وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً [3] وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾﴾ . [الرعد]

فحين ينزل المطر نجد كل واد يأخذ من الماء على قَدْر حاجته ، وساعة ينزل المطر ويتجمع ، نجد القشَّ يطفو ومعه الحشائش والأشياء التى لا فائدة منها ؛ لأن الماء فى لحظة النزول إنما يُنظف المكان الذى ينزل عليه ؛ لذلك تطفو الأشياء الخفيفة وغير المفيدة.

---

(١) الزَّبَد : هو ما يعلو ماء البحر إذا هاج موجُه. وبحرٌ مُزْبِدٌ، أى : مائج يقذف بالزَّبَد . وزبَد الماء: طفاوتُه وقَذَاهُ. والجمع : أزباد.
(٢) رابياً: مرتفعاً؛ لأنه يكون أعلى سطح الماء.
(٣) جفاء السيل : هو ما يقذفه من الزَّبَد والوَسَخ ونحوهما.

كذلك الباطل إنما يطفو على السطح لكنه لا يفيد ولا يزعزع الحق الذى يستقر وينفع الأرض والناس ، وطفو الباطل إنما هو تنبيه لجنود الحق ، والباطل مَثَلُه مَثَلُ الألم الذى ينبه للمرض ، وأخطر الأمراض هو الذى لا ألم فيه ، فيستفحل إلى الدرجة التى يصبح علاجه صعباً ومستحيلاً .

إذن : فالألم كالباطل ينبه جنود الحق ؛ ولذلك أنت تلحظ أنه إذا ما أهيج الإسلام من أى عدو ، تجد الحماسة وقد دبَّتْ فى الناس جميعاً ، حركة وتعاوناً ، ونسياناً للأحقاد ؛ للدفاع عن الإسلام .

وفى الأمراض التى تنتقل ببعض الفيروسات ، نجد الأطباء وهم يُطَعِّمون الناس من نفس ميكروبات أو فيروسات المرض بجرعات ضعيفة لتستثير مقاومة الجسم ، إذن : فالباطل جندى من جنود الحق ، كما أن الألم جندى من جنود العافية .

وإذا كان الحق هو القائل : ﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ [1] جَمِيعًا﴾ فلا بد أنه الوعد الحق ؛ لأنه سبحانه يملك ما يعد به ، وسبحانه منزه عن الكذب وعن الخديعة ؛ لأنه القائل : ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً (١٢٢)﴾ [النساء]

ولأنه أقوى مما خلق ؛ ومِمَّنْ خلق . ولا تخونه إمكاناته ؛ لأنه يملك الكون كله .

وكلمة «الرجوع» فى قوله تعالى : ﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ تفيد أن تكون

---

(١) مادة : رجع من باب ضرب - يرجع رجوعاً ، ورجع عاد إلى مكان منه قد بدأ ، فهو هنا لازم ، ورجعه غيره أعاده ورده متعد بنفسه ، ورجع بصره رده مرة بعد مرة فمن اللازم قوله تعالى : ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ .. (١٥٠)﴾ [الأعراف] . أى : عاد ، ومن المتعدى : ﴿فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ .. (٨٣)﴾ [التوبة] . أى : أعادك وردك ، ومن المعنوى قوله : ﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ .. (٤)﴾ [الملك] - القاموس القويم صـ ٢٥٦ ، ٢٥٧

على شـىء ثم تفارق هـذا الشىء وبعد ذلك ترجع له ، فـهى وجود أولاً، ثم خـروج عن الوجـود ، ثم عـودة إلى الوجـود الأول . فـإذا كنت فى مـكان ، ثـم ذهبـت إلى مـكان آخـر ، وترجـع إلى المكان الأول ، فـهـذا هـو الرجوع.

والقول هنا يفيد أننا سنموت جميعاً ، مصداقاً لقوله الحق: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٢٧)﴾ [الرحمن]

وقد قـال الكافـرون ما ذكـره القرآن : ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ (٣)﴾. [ق]

كـأنهم قـد استبعـدوا فكرة البعث ، وقـالوا أيضـاً : ﴿أَئِذَا ضَلَلْنَا[1] فِي الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ .. (١٠)﴾ . [السجدة]

أى: أنهم تساءلوا: هل بعد الموت والدفن وتحلُّل الجثمان[2] إلى عناصر تمتزج بعناصر الأرض ، أبعد كل ذلك بعث ونشور[3] ؟

وجـاء هنـا قـوله سـبحـانه : ﴿إِلَيْـهِ مَرْجِعُكُمْ جَـمِيعًا﴾ ليـفـيـد أن الخـروج إلى الوجـود بالميـلاد إلى الحـيـاة ، ثـم بعـد ذلك خـروج على

---

(١) ضللنا فى الأرض أى : ذهب أثرنا فى الأرض وخفينا بسبب تحلل أجسامنا .

(٢) الجثمان : الجسد. قال تعالى: ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٦٧)﴾[هود] أى: أجساداً ملقاة فى الأرض.

(٣) النشور: بَعْث الموتى يوم القيامة. قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ (٢٢)﴾[عبس] أى: أحياه وبعثه. وقال : ﴿وَإِلَيْهِ النُّشُورُ (١٥)﴾ [الملك] ومنه يوم النشور: يوم القيامة.

وقضية البعث والنشور إحدى أربع قضايا رئيسية كان الكافرون ينكرونها، ويحكى عنهم القرآن قولهم: ﴿وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٤٩)﴾ [الإسراء] ويقول سبحانه : ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩)﴾ [يس] .

الحيـاة إلى مقـابلها وهـو المـوت ، ومن بعد ذلك البعث.

وقد وقـف الـكافرون عند هذه النقطة واستبعدوها ، فأراد الله أن يبيّن لنا هذه المسألة ؛ لأنها تتمة التمسك بالمنهج ، وكأنه يقول لنا : إياكم أن تظنوا أنكم أخذتم الحياة ، وأفلتم بها وتمتعتم ، ثم ينتهي الأمر [1] ؟ لا ، إن هنـاك بعثاً وحساباً . لذلك قال : ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا..(٤)﴾ [يونس]

فإن قال قائل : كيف يكون ذلك ؟ يأتي القول الحق : ﴿إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ فالذي قدر على أن يخلق من عدم ؛ أيعجز أن يعيد من موجود ؟ إنه الحق القائل :

﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا (٩)﴾ . [مريم]

فإذا شاء أن يعيدكم فلا تتساءلوا كيف ؟ لأن ذراتكم موجودة ، والحق سبحانه يقول :

﴿أَفَعَيِينَا [2] بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ [3] مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ (١٥)﴾ [ق]

هكذا يستدل الحق سبحانه بالخلق الأول على إمكان الخلق الثاني ، فإن كنتم تتعجبون من أنكم تعودون بعد أن أوجد الحق أجزاءكم وذراتكم ومواصفاتكم ؛ فانظروا إلى الخلق الأول ؛ فقد خلقكم من لا شيء ؛ أفيعجز أن يعيدكم من شيء ؟ ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ﴾ .

---

(١) وفي هذا يقول سبحانه وتعالى : ﴿أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى (٣٦)﴾ [القيامة] قال ابن زيد ومجاهد : أيظن ابن آدم أنه يخلى مهملاً فلا يُؤمر ولا يُنهى . وقيل : أيحسب الإنسان أن يُترك في قبره كذلك أبداً لا يبعث . ذكره القرطبي في تفسيره (١٠/ ٧١٥٢) .

(٢) عَيَّ الإنسان بأمر : عجز عنه .

(٣) اللبس : اختلاط الأمر ، والشك .

وجاء الفلاسفة وأقاموا ضجة [١] ، فجاء الحق سبحانه وتعالى من الكون بالأدلة ، وقال :

﴿ وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً ... ⑤ ﴾ [الحج]

أى : أرضاً ميتة وليس فيها أى حياة .

﴿ فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ [٢] وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ⑤ ﴾ [الحج]

إذن : فلا عجب أن تصدر حياة عن موت ، وأنتم ترون ذلك كل ساعة . والحياة التى تراها أمامك ليست إلا دورة ؛ لأن الله حين خلق الكون ، خلق عناصره ، ولا زيادة على هذه العناصر .

وخذ مادة واحدة وهى المياه ، فمنذ أن خلق الحق سبحانه المياه لم تزد ولم تنقص ، ويشرب منها الإنسان والحيوان ، ولو أخذ كل واحد فى حياته أىّ قدر من المياه ، تظل المياه كما هى ؛ لأن هذا الإنسان يفرز ما شربه على هيئة عرق وإفرازات مختلفة ، وكل ذلك يخرج منه ، ويبقى ما يمثل وزنه .

إذن : فما أخذته من المياه إنما يخرج منك مختلطاً بأشياء نتيجة التفاعل الذى يعطيك طاقة الحياة ، وبعد ذلك يتبخر الماء ، وعملية التبخير هى

---

(١) قامت ضجة الفلاسفة على شبهات وافتراضات نشأت فى عقولهم عن استحالة البعث بعد الموت وأعطوا أمثلة ظنّوها تؤيد فكرهم السقيم منها : من أكلته أسماك وحيوانات البحر أو أكله أسد أو وحوش مفترسة ، وهى شبهات تقوم على أساس ما ذكره فضيلة الشيخ صفحة ٥٧١٤ عن مذهب الفلاسفة فى أن الله قد خلق الكون ثم ترك عناصره تتفاعل بقوانينها الذاتية ، أى : أن الله ليست له قيومية على كونه . وقد رد القرآن على هذه الشبهات بوضوح بقول الله سبحانه عن خلق الله هذا الكون وقيوميته عليه وعلمه الذى يسع كل جزئيات الكون فلا تغيب عنه مثقال ذرة وهو سبحانه القادر الذى لا يخرج عن قدرته شىء . وما دام الله قد خلق الكون من عدم ، فإن إعادته بعد فنائه أهون عليه سبحانه ، ويقول عز وجل : ﴿ وَهُوَ الَّذِى يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ㉗ ﴾ [الروم] . ويقول تعالى : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ㉘ ﴾ [البقرة] .

(٢) رَبَتْ : عَظُمَت وانتفخت وزادت .

تقطير [١] للماء ، فأنت إذا أردت تقطير المياه تسخنها إلى درجة الغليان فتتحول بعد ذلك إلى بخار ، ثم تكثفها [٢] لتعود مياهاً من جديد.

إذن: فالماء له دورة ، نروى منه الزرع ؛ فيأخذ المائية ويصير أخضر اللون ، ويخرج منه الماء الزائد عن حاجته فى عملية النتح [٣] ، ثم يجف ، بعد أن تخرج منه المياه بالتبخر، وكل ذلك دون أن يشعر أحد بحكاية التبخير هذه.

وأنت حين تُحضِّر كوباً من الماء المقطر فى الصيدلية ، تتكلف كثيراً ، وتحتاج موقداً وإناءً وأنابيب ، ثم إلى مياه أخرى باردة لتكثف البخار ، ولكن هذه مسألة تحدث فى الكون ملايين المرات ، ولا يدرى بها أحد.

وبعد أن تتبخر المياه تصير سحاباً ، ثم ينهمر المطر وهو مياه مقطّرة. ولذلك تجد أن مساحة رقعة الماء ثلاثة أرباع الأرض لتخدم الربع الباقى (اليابسة) ؛ لأن الله يريد اتساع سطح الأرض ، وهذا الاتساع هو الذى يساعد على التقطير والتبخير والتكثيف.

مثلما تجيء أنت بكوب ماء ، وتضعه فى حجرة ، ثم تغيب شهراً عن الحجرة ، فعند عودتك إليها قد تجد الكوب نقص ما مقداره نصف سنتيمتر تقريباً ، لكنك إن أخذت كوب الماء نفسه وألقيت ما فيه من ماء ليسيح على أرض الغرفة ، فستجد أن الأرض جفت خلال ساعات قليلة ، وهكذا نجد أن اتساع الرقعة إنما يساعد على سرعة البخر.

---

(١) التقطير : تنقية الماء وتصفيته مما قد يعلق به من مواد غريبة ضارة.
والتقطير : تحويل السائل إلى بخار بالحرارة ثم تبريده ليعود سائلاً كما كان وذلك بجهاز التقطير (المعجم الوسيط).
والبخار : كل ما يصعد كالدخان من السوائل الحارة (المعجم الوسيط) وتبخير الماء : تسخينه حتى يتحول إلى حالته الغازية ويتصاعد على هيئة بخار.

(٢) التكثيف : هو تعريض بخار الماء إلى سطح بارد ليتكثف عليه ويبرد فيعود إلى حالته السائلة [بواسطة جهاز التقطير].

(٣) نتح : رشح ، يقال: نتح العرق من الجلد، ونتح الإناء بما فيه ونتحه الحرّ، ونتح الماء من النبات نتحاً أى : خرج منه الماء الزائد عن حاجته . [المعجم الوسيط «بتصرف»].

إذن: الكمية التى خلقها الله من المياه كما هى ، لم تَزدْ ولم تنقص ، تدور الدورة التى شاءها الحق ، وهكذا نرى أن الشىء يعود إلى أصله مرة أخرى ، ويمكن أن نرى ذلك فى كل أوجه الحياة ، والحق سبحانه يقول:

﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ① فَالْحَامِلاتِ وِقْرًا ② فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ③ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا [1] ④ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ⑤ ﴾. [الذاريات]

يقسم الحق سبحانه هنا بالرياح التى تحمل السحاب ، وتمطر كل سحابة على الموقع المحدَّد لها بأمر من الله ، ويلفتنا الحق سبحانه هنا إلى دورة الماء ، الذى هو قوام الحياة ، بأن الوعد منه سبحانه يتحقق حتماً.

تأمّل الوردة ، تجد لها نعومة ونضارة ؛ لأن فيها شيئاً كثيراً من المائية ، ولها لون جميل ورائحة ذكية تفوح ، فإذا قطفتها تتساقط أوراقها وتجف ؛ لأن ما فيها من المائية يتبخر ؛ فما أخذته الوردة من الماء عاد إلى مخزنه مرة أخرى ، وكذلك الرائحة تظل فى أوراقها الذابلة إلى أن تنتهى ، وكذلك اللون ، ثم تخرج وردة جديدة.

إذن: حياة كل كائن فى الوجود والعالم فى حركته ناشئة عن هذه الدورة ، فإذا كانت مائية حياتكم تدور ؛ أتستبعد أن تدور أنت بمكوناتك ؟ هَبْ أن إنساناً وُجد ومات ؛ بخروج الروح من الجسد ويُوارى الجثمان ويتبخر ما فيه من ماء ، وتتحلل مواد الجثمان مع عناصر الأرض

---

(١) الذاريات: الرياح. ذَرَت الريح التراب وغيره تذروه ذرواً: أطَارتْه وأذْهَبَتْه. قال تعالى: ﴿ تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ ④٥ ﴾ [الكهف] والحاملات وقراً: السحاب. والجاريات يسراً: السفن. والمقسمات أمراً: الملائكة. وقد ثبت عن الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه أنه صعد منبر الكوفة، فقال: لا تسألونى عن آية فى كتاب الله تعالى ولا عن سنة عن رسول الله ﷺ إلا أنبأتكم بذلك، فقام إليه ابن الكواء فقال: يا أمير المؤمنين ، ما معنى قوله تعالى : ﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ① ﴾ قال على رضى الله عنه: الريح. قال: ﴿ فَالْحَامِلاتِ وِقْرًا ② ﴾ قال: السحاب. قال: ﴿ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ③ ﴾ قال: السفن، قال: ﴿ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ④ ﴾ قال رضى الله عنه: الملائكة. [ذكره ابن كثير فى تفسيره ٤/ ٢٣١] .

لتصير تراباً ، فهل يعجز الحق أن يعيد إلى الوجود أبعاض هذا الإنسان؟ طبعاً لا يمكن أن يعجز.

الحياة - إذن - احتكاك هذه الدورات لتلك العناصر ، فلم يزد شيء عليها ، ولم ينقص منها شيء.

واقرأ القرآن بتبصر تجد قوله الحق:

﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ④﴾ [ق]

وهكذا يبيِّن لنا الحق أن العناصر كلها موجودة في الكون ، قد تزيد في مخلوق عن الآخر ، لكن المجموع الكلي لكل العناصر ثابت ، وإذا كان العلم قد توصل إلى أن هناك ستة عشر عنصراً تكوِّن الكائنات [1] ، فهذه العناصر ثابتة الكمية ، وإن اكتشفوا زيادة في عددها ، فالزيادة في عدد العناصر ستكون أيضاً ثابتة الكَمِّ لكل عنصر.

وقال العلماء: إن الستة عشر عنصراً هي: الأوكسوجين، والكربون ، والهيدروجين، والنتروجين، والمغنسيوم، والبوتاسيوم، والصوديوم، وغيرها.

كل هذه العناصر تعود إلى أصلها بعد أن تموت الكائنات وتتحلل.

هكذا يصدق قول الحق:

﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ...④﴾ [ق]

وقد حاول بعض الفلاسفة أن يعترضوا اعتراضاً ثانياً وقالوا: هب أن إنساناً مات ، ثم تحللت عناصره في الأرض . ألا تذهب عناصره إلى

---

(١) كل كشف هو من أسرار غيبه سبحانه ، وله ساعة ميلاد يتجلى بها الخالق على كل من يتعامل مع الكون بحثاً وتأملاً وانتفاعاً ، وما دام القرآن خالداً فمدد الكشف سيظل وارداً ، وفي وروده انتفاع نحو المراد بقول الحق: ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ⑩⑨﴾ [الكهف].

كائنات أخرى ، مثل شجرة أنتجت ثمرة أوغير ذلك ، ثم أكلها إنسان آخر ، فدخلت فى أجزائه ، إذن : فمن مات ونشأت على أنقاضه ثمرة ، أو غير ذلك ، ودخلت المكونات فى إنسان آخر ، فكيف يبعث الله كلَّ إنسان من جديد ؟

ونقول : أنت عرفت شيئاً ، وغابت عنك أشياء . انظر مثلاً إلى السِّمنة والنحافة كظاهرة موجودة فى الناس وتراها كل يوم ، ومعنى السمنة أن كمية من مادة معينة تزيد فى الإنسان السمين أكثر من مادة الإنسان الآخر النحيف . وقد يطرأ على السمين ما يجعله نحيفاً أو العكس . فهل هذا يغيِّر من شخصيته ؟ طبعاً لا ، وهكذا نجد فارقاً بين المشخصات وبين تكوين المشخصات من العناصر .

وما دام الحق سبحانه قد أعلمنا أنه لا شيء ينقص من الأرض إلا بمقدار مكونات الكائنات الموجودة عليها ، فالعناصر التى فى الأرض تكفى كل الكائنات ، ويوزعها سبحانه بالنسب اللازمة ، وأنت إن جمعت هذه العناصر فستجدها ثابتة الكم وإن اختلفت فى كيفية تكوين الكائنات .

مثال ذلك : أنك تجد إنساناً وزنه مائة كيلو جرام ، ويمرض ؛ فيهزل وينقص وزنه إلى سبعين كيلو جراما ، ومعنى ذلك أن الثلاثين كيلو جراما الأخرى ذهبت إلى الأرض ، فلكل جسم قاعدة يقف عندها الوزن إلى سن معينة ، وتُعتبر هذه هى القاعدة التى يزيد فوقها الوزن ، أو يقل عنها حسب ظروف التغذية والصحة .

وأنت ترى الطفل يفرز أقل مما يتناول من الغذاء ؛ حتى ينمو ، ولو كان يُخرج إفرازات تساوى - فى الكمية - ما يأكل ويشرب لَمَا كبر . ومن بعد ذلك يكبر إلى أن يصل إلى وزن ثابت تقريباً ، فتخرج منه إفرازات تساوى

ما يدخل إليه ، ثم تأتى الشيخوخة فيخف الوزن ، وهذا يعنى أن ما يخرج منه أكثر مما يدخل إليه ؛ فتنشأ النحافة.

وهَبْ أن طبيباً حاذقاً [١] استطاع أن يعلم الداء الذى يسبب إصابة مريض ما بالهزال ، وأعطاه من الدواء ما جعله يسترد عافيته [٢] ومعها ما فُقد من الوزن ، وتتحسن تغذية هذا المريض أثناء فترة العلاج ، فهل تتغير شخصية هذا المريض ؟ طبعاً لا ؛ لأن ما خرج منه أثناء الهزال ذهب إلى الأرض ، ثم استرد مثله من الأغذية أثناء الشفاء.

إذن: فلا تقل : إن هناك شيئاً نقص ، فعند الله كتاب حفيظ فيه مكونات كل الكون ، ويأتى بعناصر معينة ، ويأمرها بـ «كن» فتكون إنساناً ، أو تكون كائناً آخر حسب مشيئة الله سبحانه.

وإذا كنا نتحدث الآن كيميائياً فنحن نتكلم بذلك ؛ ليثبت عقدياً [٣] وعقلياً ؛ لأننا آمنا بأن هناك منهجاً من المكلِّف ، والمنهج عُرْضة لأن يطاع أو يعصى ، ومَنْ يُطع الله فى المنهج ، فهو يحدد حريته ، والذى لم يُطع الله واستسلم للضياع فهو الخاسر ؛ لأن منطق العقل يؤكد أن من يأخذ المنهج ويلتزم به ويكبح شهواته [٤] ؛ لا يمكن أن يستوى مع من

(١) الحذق: المهارة فى العمل. تقول: حَذَق فلان فى عمله فهو حاذق ماهر.

(٢) مادة : عفا تقول مصادر اللغة عفا المنزل يعفو عَفواً وعُفُواً وعفاءً. أى : درس ، وعفته الريح يستعمل لازماً ومتعدياً. ومنه : عفا الله عنك أى : محا ذنوبك ، وعفوت عن الحق : أسقطته - وعافاه الله محا عنه الأسقام. والعافية اسم منه ، وهى مصدر جاء على فاعلة كناشئة - المصباح صـ ٤١٩ .

(٣) عقَدىّ : نسبة إلى العقيدة، والعقيدة: صيغة مبالغة من العَقْد. والعقد: العهد والإيمان. والعقيدة: الحكم الذى لا يقبل الشك فيه لدى معتقده. والعقيدة الدينية: يقصد بها الإيمان والاعتقاد فى الدين، كعقيدة وجود الله ، وبعثة الرسل. والعقيدة الإسلامية هى الاعتقاد بصحة الدين الإسلامى وصدقه.

(٤) يكبح شهواته: يتحكم فيها فلا تطغى عليه، وهذا كالرجل الممسك بلجام فرسه أو دابته حتى لا تجمح منه وتفلت من قيادها. (لسان العرب مادة ك ب ح).

عبث [1] ولا بد أن يفترض منطق العقل أن يوجد بعث يجازى بالطيبات مَنْ سار على المنهج ، ويعاقب مَنْ خرج على المنهج .

وما دام قد وجد إله ، ووجد بلاغ عن الله بواسطة الرسل ، ووجد تكليف بـ«افعل» و«لا تفعل» ، ووجدت طاعة للتكليف ، ومعصية للتكليف ، إذن : لا بد بعد هذه الحياة من بعث ، ويأخذ من أحسَنَ جزاءه ، وينال مَنْ أساء عقابه ؛ ولذلك قال الحق :

﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ ... (٤) ﴾ [يونس]

جاء هذا القول مطمئناً الملتزمين بالمنهج بأن هناك بعثاً وحساباً ؛ لأن المؤمن المطيع لا بد أن ينال حسن الثواب ، وأن ينال العاصى الشرير الذى شقيت الدنيا كلها بعصيانه العقاب، ولذلك لا بد من الإعادة ؛ ليجزى الله كل واحد بعمله بالقسط [2] . والقسط - كما أوضحنا من قبل - معناه العدل ، والمادة هى القاف والسين والطاء. ننطقها مرة «القسط» بكسر القاف. وننطقها مرة أخرى «القسط» بفتح القاف والقسط «بالكسر» هو العدل ؛ والقسط «بالفتح» هو الظلم ، ولذلك نجد قوله الحق :

---

(١) وهذا هو ميزان العدل الذى يثاب به الطائع ويجازى به العاصى، يقول سبحانه وتعالى: ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٢١) ﴾ [الجاثية] .

(٢) قسط: من أسماء الله تعالى الحسنى« المُقْسِط »: هو العادل. يقال: أقسَطَ، يُقْسِط، فهو مُقْسِط إذا عَدَلَ. والقِسْط والإقساط: العدل. يقال: أَقْسَطَ وقسَطَ إذا عدل. قال تعالى: ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ (١٥٢) ﴾ [الأنعام] وقال سبحانه: ﴿ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ (٣٥) ﴾ [الإسراء] وهو أقوم الموازين وقال عز وجل: ﴿ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٩) ﴾ [الحجرات] .
ومن معانى القسط أيضاً: الحصّة والنصيب، والميزان، والمكيال. وقسَّط الشىء: فرَّقه وقسَّمه.
أما القَسْط والقُسُوط فهو الجور والعدول عن الحق. [اللسان : مادة (قسط)].

﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا[(١)] ⦗١٥⦘﴾ [الجن]

والمقصود بالقاسطين: الجائرون على حقوق غيرهم.

ونجد قوله الحق:

﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ⦗٤٢⦘﴾ [المائدة]

والمقْسطون : هم العادلون بين الناس.

إذن: فهناك «قسْط» و«قَسْط» ، وهناك شيء اسمه «قَسَط»[(٢)] بالفتحتين وهو الانحراف في الرِّجلين. إلا أن المستعمل في كلمة «قسْط» هنا مقصود به العدل ، واسم الفاعل منها «قاسط» واستعملت في الجور. وهي مأخوذة من القَسْط لا من القسْط ، وتجد من أسماء الله «المُقْسط»[(٣)] ، ولم يصف نفسه بالقاسط بمعنى العادل ، أي: ابتدأ بالعدل أولاً ، وشاء سبحانه فوصف نفسه بالمُقْسط ؛ لأنه هو الذي يرفع الجور فيحقق العدل.

وفي الآية التي نحن بصددها يقول الحق سبحانه : ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ﴾ أي: جزاء منه بالعدل ، وأيضاً يمكن أن نقول: إنه سبحانه يجزيهم ؛ لأنهم عدلوا في العقيدة ؛ لأن القرآن الحكيم - كما نعلم - جاء حاكماً وفيصلاً بين قضايا العقائد وقضايا الاختيار في الأفعال

---

(١) الحطب: ما أعدّ من الشجر لإشعال النار. والمراد أنهم سيكونون في عذاب شديد؛ إذ جعلهم الله في جهنم بمثابة الحَطب للنار؛ زيادة في عذابهم، وتحقيراً لشأنهم.

(٢) القَسَط : عيب في الرِّجْل، والرِّجْل القَسْطاء هي التي في ساقها اعوجاج حتى تتباعد القدمان وتنضم الساقان. [اللسان : مادة (قسط)].

(٣) اسم الله «المقسط» لم يرد به القرآن اسماً من أسماء الله تصريحاً، بل على سبيل الإشارة، قال تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ⦗١٨⦘﴾ [آل عمران] ، وهو من صفات الأفعال، وعن أبي موسى الأشعري أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه» أخرجه مسلم في صحيحه (١٧٩) وأحمد (٤/ ٤٠٠ ، ٤٠١) وابن ماجه في سننه (١٩٥).

وقضايا الأخلاق ، وهؤلاء قد أخذوا المنهج بدون ظلم لله فلم يشركوا به أحداً ، والحق سبحانه هو القائل:

﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ ﴾ . [لقمان]

إذن: فهم بعدلهم وبقسطهم فى أمر العقيدة وأنهم لم يرتكبوا إثم الشرك الذى هو ظلم عظيم [١] ؛ وبذلك لم يظلموا أنفسهم أيضاً ، ولم يأخذ واحد منهم لنفسه متعة عاجلة ؛ لذلك أنقذهم الله من الشقاء الأبدى الطويل ، وهم لم يظلموا الناس. ولكل ما تقدم لا بد أن يجزيهم الله على العمل الصالح بسبب عدلهم وقسطهم.

وقد يقال: إن الجزاء بالقسط لا زيادة فيه ولا نقصان ، فإذا كان الجزاء من الله ، فالعدل على مقتضى التشريع أن تكون الحسنة بعشر أمثالها ، ويضاعف سبحانه لمن شاء [٢] ، هذا هو عدل الله بالتشريع. أو أن الجزاء يُعطى بلا زيادة ولا نقصان جزاء العدل ، ولكن ذلك لم يحدد الفضل فى هذه الآية. ولذلك حدث إشكال بين علماء الكلام فى قول الله سبحانه:

---

(١) عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: لما نزلت: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [الأنعام] قال أصحاب رسول الله ﷺ: وأينا لم يظلم نفسه؟ فقال ﷺ: «إنه ليس الذى تعنون ، ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح: ﴿ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ ﴾ [لقمان] إنما هو الشرك». أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٢) وأحمد فى مسنده (١/ ٣٧٨).

(٢) يقول سبحانه وتعالى: ﴿ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ ﴾ [الأنعام] ، وكان العدل والقسط يقتضى أن يكون جزاء الحسنة حسنة مثلها ، وجزاء السيئة سيئة مثلها ، ولكن فضل الله ورحمته أن الحسنة بعشر أمثالها ، والسيئة بمثلها ، وعلى هذا دلَّتْ أحاديث رسول الله ﷺ ، فعن ابن عباس عن رسول الله ﷺ فيما يروى عن ربه تبارك وتعالى قال: «إن ربكم عز وجل رحيم. من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة ، فإن عملها كتبت له عشراً إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ، ومن همَّ بسيئة فلم يعملها كتبت له حسنة فإن عملها كتبت له واحدة». أخرجه مسلم فى صحيحه (١٣١) وأحمد فى مسنده (١/ ٢٧٩) واللفظ لأحمد. ومن دعاء العارفين: اللهم عاملنا بفضلك لا بعدلك وبإحسانك لا بميزانك.

﴿وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ (٣٩)﴾ [النجم]

فقال بعضهم: إذا كان الإنسان لا يأخذ إلا جزاء ما سعى ، فكيف يُجزى جزاء على الحسنة بعشر أمثالها ؟ وكذلك ماذا عن صلاة الجنازة ؟ وهل ينتفع بها الميت حين ندعو له بالمغفرة (١) ؟ وإن كان الإنسان لا يأخذ إلا ما سعى فلن ينتفع بها الميت ، فلماذا كلفنا الحق سبحانه بصلاة الجنازة كفرض كفاية ، لا فرض عين (٢) ؟

ونقول: إن وجود اللام في قوله : ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ﴾ يفيد الملك ، أى: الحق ، والآية تعطى الحق ولكنها لم تمنع الفضل ، أو نقول: هل نصلى على كل ميت ؟ نحن نصلى على الميت المؤمن ، والإيمان من عمله ، وهو يُجَازى بصلاتنا عليه ، أى: جزاء عمله.

ويقول سبحانه : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ وهكذا نعرف أن العذاب الأليم قد جاء لهم بسبب الكفر ، مثلما يجىء الجزاء على الأعمال الصالحة للمقابل لهم بسبب الإيمان والعمل الصالح.

إذن: فالقسط هنا تعود على قسط الله ، وهو العدل ، وكذلك قسطهم هم ؛ لأنهم حكموا فى الربوبية بالعدل . أما الكافرون ، فالعدل معهم أن

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا صليتم على الميت فأخلصوا له الدعاء» أخرجه ابن ماجه فى سننه (١٤٩٧) وأبو داود (٣١٩٧) وفيه عنعنة ابن إسحاق ، قال شمس الحق فى شرحه لسنن أبى داود (٨/ ٣٤٤): «لكن أخرجه ابن حبان من طريق أخرى عنه مصرحاً بالسماع وصححه».

ومن الأدعية المأثورة الواردة فى هذا ما ذكره أبو هريرة قال: «كان رسول الله ﷺ إذا صلى على جنازة، يقول: «اللهم اغفر لحينا وميتنا ، وشاهدنا وغائبنا ، وصغيرنا وكبيرنا ، وذكرنا وأنثانا . اللهم من أحييته منا فأحيه على الإسلام، ومن توفيته منا فتوفه على الإيمان . اللهم لا تحرمنا أجره ولا تضلنا بعده». أخرجه ابن ماجه فى سننه (١٤٩٨) وأبو داود (٣١٩٩) وأحمد فى مسنده (٢/ ٣٦٨).

(٢) معنى فرض الكفاية أنه إذا قام به بعض المسلمين سقط عن الآخرين، وإذا لم يقم به أحد أثم الجميع . أما فرض العين : فهو الفرض الذى يتوجب على كل فرد من أفراد المسلمين عمله مثل الصلاة وغيرها من العبادات إذا انتفت الأعذار وتحققت شروطها فى حق آحاد المسلمين.

يذيقهم الله شراباً من حميم بما كانوا يكفرون ، وهذا ما يرجح أن القسط هنا هو قسطهم هم .

وكلمة ﴿حَمِيمٍ﴾ مأخوذة من مادة «الحاء» و«الميم» و«الميم» وهى مادة كل موارد معانيها فيها الحرارة والسخونة .

والحق سبحانه يقول فى آية أخرى :

﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ [١] يَشْوِى الْوُجُوهَ... ﴿٢٩﴾﴾ [الكهف]

و﴿كَالْمُهْلِ﴾ أى : أنه يغلى ، وحين تكون المادة من غير الماء ، فدرجة حرارتها أثناء الغليان تكون أعلى من درجة حرارة غليان الماء ؛ فالنحاس مثلاً حين يغلى تكون درجته أعلى من درجة غليان الماء ، وكذلك الحديد والذهب وغيرها ، وسبحانه يقول :

﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ [٢] ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الأَثِيمِ [٣] ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِى فِى الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ الْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾﴾ [الدخان]

---

(١) المهل : النحاس المذاب أو الزيت المغلى . قال تعالى : ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ﴿٨﴾﴾ [المعارج] . [اللسان : مادة (مهل)] . ومن معانى المهل أيضاً : الماء الغليظ مثل دردى الزيت . وقيل : هو كالدم والقيح .

(٢) الزقُّوم : طعام أهل النار . قال ابن سيده : لما أنزلت آية الزقوم ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الأَثِيمِ ﴿٤٤﴾﴾ [الدخان] لم يعرفه قريش ، فقال أبو جهل : إن هذا لشجر ما ينبت فى بلادنا ، فمن منكم يعرف الزقوم؟ فقال رجل قدم عليهم من إفريقية : الزقوم بلغة إفريقية : الزبد بالتمر ؛ فقال أبو جهل : يا جارية ، هاتى لنا تمراً وزبداً نزدقمه ؛ فجعلوا يأكلون منه ويقولون : أفبهذا يخوفنا محمد فى الآخرة ؟ فبيّن الله تعالى ذلك فى آية أخرى ، فقال فى صفتها : ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِى أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٦٥﴾﴾ [الصافات] . وقال الأزهرى : افتتن بذكر هذه الشجرة جماعات من مشركى مكة ، فقال أبو جهل : ما نعرف الزقوم إلا أكل التمر بالزبد ، فقال لجاريته : زقّمينا . وقال رجل آخر من المشركين : كيف يكون فى النار شجر ، والنار تأكل الشجر ؟ فأنزل الله تعالى : ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِى أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِى الْقُرْآنِ ﴿٦٠﴾﴾ [الإسراء] أى : وما جعلنا هذه الشجرة إلا فتنة للكفار . ومن معانى الزقوم : كل طعام يَقْتُل ، والزَّقْمَة : الطاعون . [اللسان : مادة (زقم)]

(٣) قال الفراء : الأثيمُ الفاجر ، وقال الزّجّاج : عُنى به هنا أبو جهل بن هشام . والأثيم صيغة مبالغة من الإثم ، أى : كثير الذنوب . [اللسان : مادة (أثم)] .

إذن : فدرجة غليان المهل أعلى من درجة غليان الماء ، والمادة كلها تفيد الحرارة.

وإن نظرنا إلى كلمة «حمّام» و«استحم» ، فهى تعنى أن الماء حين ينزل على البدن يكون له ثلاث صور: الصورة الأولى مسح ، والصورة الثانية غسل ، والصورة الثالثة استحمام. والمسح أن تبل الشيء بالماء بدون أن يقطر منه شيء ، والغسل أن تُسَيِّل الماء من الجسد المغسول ، والاستحمام أيضاً فيه سيولة للماء . والغسل للتطهير ، لكن الاستحمام للتنظيف ، فإن أحدثت [1] فأنت تقوم لتتوضأ.

﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ ... ۝٦﴾ [المائدة]

تنفيذاً لأمر الله وهو غسل التطهير ، ويقوم مقامه التراب فى حالة عدم وجود الماء وهو التيمم [2] . أما إذا كانت المسألة تنظيفاً فهى تحتاج إلى الاستحمام ؛ لأن مسام الإنسان لها إفرازات قد تكون دهنية ، وبعد ذلك تطرأ عليها أتربة تسدها ، وهذه المسام أبعاض من الإنسان وأبعاض من تراب طاهر جاء على الجسم ، وهى لا تنجسه ، فإن اغتسلت فيكفى أن تصب الماء على الجسم ، ولو بقى بعض من ذرات التراب على البدن فهذا لا يمنع الطهارة ، لكن حين يستحم الإنسان فهو يأتى بماء حار ؛ ليذيب القذارة وينقّى المسام ، وتخرج بعض الأتربة ومعها الخلايا الجلدية الميتة وكأنها خيوط رفيعة.

---

(١) الإحداث: خروج شيء من أحد السبيلين من فساء أو ضراط أو براز وبول. وكل هذا يوجب الوضوء للصلاة.

(٢) التيمم فى اللغة هو القصد. وفى اصطلاح الشرع هو القصد إلى الصعيد الطاهر وهو كل ما صعد على الأرض من التراب وغيره، لمسح الوجه واليدين عند فقدان الماء حقيقة أو حكماً ، وكيفية التيمم أن يقدم النية ثم يسمى الله تعالى، ويضرب بيديه الصعيد الطاهر، ويمسح بهما وجهه ويديه إلى الرسغين، ومن السنة عند البخاري ومسلم (٣٦٨) من حديث عمار بن ياسر أنه لمن تيمم بالتراب أن ينفض يديه وينفخهما منه، ولا يعفر به وجهه.

إذن: هناك فرق بين الغَسْل وهو للتطهير؛ وبين الاستحمام الذى هو للنظافة. ونأخذ منه الحمام، إذن: مادة الحاء والميم فيها الحرارة [(١)] وفيها السخونة.

ويقول الحق هنا: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾، وكلمة ﴿شَرَابٌ﴾ تفيد الارتواء، فلماذا جاء بها الله هنا؟ إنها تصعيد للعذاب؛ لأن الإنسان يرغب فى الشراب ليرطِّب جوفه، فإذا ألهبه ما يشرب، فهذا أكثر إيلاماً مثل قوله تعالى:

﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا [(٢)] يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِى الْوُجُوهَ بِئْسَ [(٣)] الشَّرَابُ ... (٢٩)﴾ [الكهف]

وحين تسمع هذه الآية تجد انبساط الأمل فى صدر الآية ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا﴾ وهم يستشرفون للنجاة، ثم يأتيهم غوث من لون يناسب ما اقترفوه من ذنوب ﴿يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ﴾.

إذن: فـ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ أى: بسبب كفرهم. وعرفنا أنهم كفروا بالقضايا العقدية.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

---

(١) حم الماء يحم حما من باب فرح. قال تعالى: ﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ .. (٧٠)﴾ [الأنعام] اشتدت حرارته فهو حميم أى: ساخن شديد الحرارة ومنه الاستحمام للفعل والحمام للمكان والفعل معاً ويطلق الحميم: على القريب المشفق لأنه ذو حرارة وجدة قال تعالى: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ (١٠٠) وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ (١٠١)﴾ [الشعراء].

(٢) يستغيثون: يصرخون طالبين الغوث والماء من شدة العذاب والعطش؛ فيأتيهم الغوث (العون) عذاباً جديداً، ماء شديد السخونة كالزيت المغلى يحرق وجوههم. وهو غوث مناسب لأعمالهم السيئة وذنوبهم وآثامهم فى الدنيا. [اللسان: مادة (غوث)].

(٣) بئس: كلمة تطلق على كل ما يستحق الذمَّ الشديد. [اللسان: مادة (بأس)].

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ(١) لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٥﴾

وبعد أن بيَّن الحق أنه خلق السماء والأرض وخلق الكون كله وسخره للإنسان جاء لنا بنعم من آياته التى خلقها لنا ، والتى جعلها الله سبحانه وتعالى سبباً لقوام (٢) الحياة ؛ فالشمس هى التى تُنضج لنا كل شىء فى الوجود ، وتعطى لكل كائن الإشعاع الخاص به ، كما أن الشمس تبخر المياه - كما قلنا من قبل - لينزل الماء بعد ذلك عذباً فراتاً (٣) ، يرتوى منه الإنسان وتشرب منه الأنعام ونروى به الزرع .

والشمس هى الأم لمجموعة من الكواكب التى تدور حولها ، فدورة الأرض حول الشمس تمثل السنة ، ودورة الأرض حول نفسها تمثل اليوم . فيقول الحق سبحانه هنا :

﴿هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً﴾ ولو نظرت إلى المعنى

---

(١) منازل القمر : مواضع تحركه ، أى : مداره حول الأرض . ومواقعه بين الشمس والأرض ، وتبعاً لتغير هذه المواقع تتغير صورته التى نراه عليها . قال تعالى : ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ۝٣٩﴾ [يس] ، وقال سبحانه : ﴿فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ۝٩٦﴾ [الأنعام] .

(٢) قوام كل شىء : أى : ما يقوم به ، وعماد كل شىء ونظامه . ومنه قوله تعالى : ﴿وَلا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِى جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا ۝٥﴾ [النساء] أى : تقوم بها معايشكم من التجارات وغيرها .

(٣) الفرات : الماء الشديد العذوبة . يقال : ماء فرات ، ونهر فرات . قال تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِى مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ ۝٥٣﴾ [الفرقان] ، وقال : ﴿وَمَا يَسْتَوِى الْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ ۝١٢﴾ [فاطر] ، وقال : ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِىَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا ۝٢٧﴾ [المرسلات] . [المعجم الوسيط : مادة (فرت)] .

السطحى فى الشمس والقمر لقلت : إن الشمس تعطى نوراً وكذلك القمر ، ولكن النظرة الأعمق تتطلب منك أن تفرِّق بين الاثنين ؛ فالشمس تعطى ضياء ، والقمر يعطى نوراً . والفرق بين الضياء والنور يتمثل فى أن الضياء تصحبه الحرارة والدفء ، والنور إنارة حليمة ، ولذلك يسمى نور القمر النور الحليم ؛ فلا تحتاج إلى الظل لتستظل من حرارته ، لكن الشمس تحتاج إلى مظلة لتقيك حرارتها.

إذن : فالنور هو ضوء ليس فيه حرارة ، والحرارة لا تنشأ إلا حين يكون الضوء ذاتيّاً من المضىء مثل الشمس . أما القمر فضوؤه غير ذاتى ويكتسب ضوءه من أشعة الشمس حين تنعكس عليه ، فهو مثل المرآة حين تسلط عليها بعضاً من الضوء فهى تعكسه.

إذن : القمر مضىء بغيره ، أما الشمس فهى تضىء بذاتها . لذلك قال الحق هنا : ﴿جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً﴾ .

وكلمة ﴿ضِيَاءً﴾ إما أن تعتبرها مفرداً مثل صام صياماً ، وقام قياماً ، وضاء ضياءً . وإما أن تعتبرها جمعاً ، مثلها مثل حوض - جمعه : حياض ، ومثل روض - جمعه : رياض ، وكذلك جمع ضوء هو ضياء.

إذن : كلمة ﴿ضِيَاءً﴾ تصلح أن تكون جمعاً وتصلح أن تكون مفرداً ، وحين يجىء اللفظ صالحاً للجمع وللإفراد ، لا بد أن يكون له عند البليغ ملحظ ؛ لأنه يحتمل هذه المعانى كلها ، وقبل معرفتنا أسرار ضوء الشمس وقبل تحليله ، كنا نقول : إنه ضوء ، لكن بعد أن حللنا ضوء الشمس ، وجدنا أن ألوان الطيف سبعة منها ضوء أحمر ، وضوء أخضر، وضوء أصفر ، وغيرها [١] .

---

(١) ضياء تصلح للإفراد باعتبار أن الضياء مصدر ألوان الطبيعة ، وتصلح للجمع باعتبار الألوان المنبثقة من الضياء ، وهذه إشارة لأسرار الله فى كونه .

إذن : فـ «ضياء» تعبر عن تعدد الألوان المخزونة فى ضياء الشمس ، فإن قلت : ضياء جمع ضوء ، فهذا بتحليل الضوء إلى عناصره كلها ، وإن قلت : ضياء مثل قيام ، ومثل صيام ، فهذا يصلح فى المعنى العام.

ولذلك كان القرآن ينزل بما تحتمله العقول المعاصرة لنزوله التى لا تعرف المعانى العلمية للظواهر . ولو قال القرآن هذه الحقائق ، لقال واحد : إننى أرى الشمس حمراء لحظة الغروب ، وأراها صفراء لحظة الظهيرة ، وهو لا يعلم أن الحمرة وقت الغروب هى حمرة فى الرؤية لطول الأشعة الحمراء ، وهى لا تظهر إلا حين الغروب حيث تكون الشمس فى أبعد نقطة ، فلا يصل إلينا إلا الضوء الأحمر ، أما بقية الأضواء فهى تشع فى الكون ولا تصل إلينا.

إذن : كلمة ﴿ضِيَاءً﴾ ، إما أن تعتبرها جمع ضوء ، مثل سوط وسياط ، وحوض وحياض ، وروض ورياض ، وإما أن تعتبرها مفردة . هذه صالحة للمعنى العام ، وتلك صالحة للمعنى التحليلى ؛ ولذلك يقول الحق سبحانه فى آية أخرى:

﴿تَبَارَكَ الَّذِى جَعَلَ فِى السَّمَاءِ بُرُوجًا [1] وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا [2] وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾﴾ [الفرقان]

والسراج هو ما يعطى الضوء والحرارة ، وهو وصف مناسب للشمس.

---

(١) من معانى البروج : الكواكب والنجوم والقصور ، وبروج (أبراج) الفَلَك وهى اثنا عشر برجاً تبدأ بالحَمَل . قال تعالى : ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴿١﴾﴾ [البروج] وقال : ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا ﴿١٦﴾﴾ [الحجر] ، وقال : ﴿وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴿٧٨﴾﴾ [النساء] . [اللسان : مادة (برج)].

(٢) السراج : المصباح الزاهر الذى يُسرج بالليل ، ووُصفت الشمس بالسراج ؛ لأنها سراج النهار ، أى : مصباحه ومصدر نوره . قال تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾﴾ [النبأ] ، وقال : ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾﴾ [نوح] . [اللسان : مادة (سرج)].

وهنا يقول الحق : ﴿ هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ﴾ ، وكلمة ﴿وَقَدَّرَهُ﴾ تعود فى ظاهر الأمر إلى القمر . لكن فى الواقع أن الشمس لها منازل [1] أيضاً ، وقال الحق : ﴿وَقَدَّرَهُ﴾ لأن هناك شيئاً اسمه «الجعل» [2] ، فهو سبحانه جعل الشمس ضياء ، وجعل القمر نوراً.

إذن : فالجَعْل جاء بأمرين اثنين ؛ جعل للشمس ضياء وجعل للقمر نوراً ، هذا الجعل نفسه جعله الله لنقدر به الزمن ، فهو صالح للاثنين ؛ للشمس وللقمر ؛ لنعلم عدد السنين والحساب.

وفى العبادات نحتاج إلى تحديد بداية شهر رمضان [3] ؛ لنمارس عبادة الصوم ، ونحتاج إلى تحديد أشهر الحج [4] ، وكذلك تحتاج المرأة مثلاً إلى حساب شهور العدة [5] ، وكل هذه التقديرات تخضع للهلال ، فهو علامة واضحة للكل ، فهو يبدأ صغيراً ويكبر ثم يصغر.

---

(١) قال تعالى : ﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لأَجَلٍ مُسَمًّى ۝ ﴾ [الرعد] ، وقال: ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۝ ﴾ [يس] ، وقال : ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝ ﴾ [الرحمن].

(٢) جعل : خلق أو صيَّر. قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ۝ ﴾ [الأنبياء] وقال : ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝ ﴾ [الفيل] وقال : ﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ۝ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ۝ ﴾ [النبأ]. [اللسان : مادة (جعل)].

(٣) عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : «الشهر تسع وعشرون، فإذا رأيتم الهلال فصوموا، وإذا رأيتموه فأفطروا، فإن غُمَّ عليكم فاقدروا له» أخرجه مسلم فى صحيحه (١٠٨٠).

(٤) شهور الحج هى: شوال، وذو القعدة، وعشر من ذى الحجة. قال ابن عمر رضى الله عنهما: أشهر الحج شوال وذو القعدة ، وعشر من ذى الحجة. [فقه السنة : ١/ ٤٦٢]. وقيل شهر ذى الحجة بتمامه .

(٥) العدة: مأخوذة من العدد والإحصاء، أى: ما تحصيه المرأة وتعده من الأيام والأقراء. وهى أنواع بحسب حال المرأة، فإن كانت زوجة غير مدخول بها، فلها حالتان، إذا طُلِّقت فلا عدة عليها، أما إن مات زوجها فعليها العدة أربعة أشهر وعشراً. أما إن كان مدخولاً بها، فإما أن تكون ممن يحضن ، فتكون عدتها ثلاثة قروء، وإما أن تكون ممن لا يحضن، فتكون عدتها ثلاثة أشهر. أما عدة الحامل فهى بوضع الحمل، سواء أكانت مطلقة أم متوفى عنها زوجها. انظر تفصيل هذا فى فقه السنة للشيخ سيد سابق (٢/ ٣٤١ - ٣٥٠) .

﴿ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ [1] الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ ﴾ [يس]

و«العرجون» هو ما نسميه «السباطة [2]» التى تحمل «شماريخ» البلح ، وكانوا يصنعون منها قديماً المكانس التى يكنسون بها بيوت البادية والريف ، وهكذا أعطانا الله تشبيهاً من البيئة التى عاش فيها العربى القديم.

وفى أول كل شهر كلنا نرى الهلال كعلامة مخبرة عن ميلاد الشهر ، وهكذا تعلَّم الإنسان أن يحسب الشهور بتقدير منازل القمر ، وبالنسبة للسنة ؛ فالحق سبحانه يقول:

﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ... ﴿٣٦﴾ ﴾ [التوبة]

والتقدير هنا اثنا عشر شهراً هلاليّاً . أما اليوم فيقدر بالشمس ؛ لذلك فهى تدخل فى تقدير المنازل . وهكذا نجد أن الحق سبحانه قد شاء أن يجعل «الجعل» لأمرين ؛ مجعول الشمس ، ومجعول القمر ، مصداقاً لقوله : ﴿ وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾.

والحق - كما أوضحنا - هو الشىء الثابت الذى لا يتغير . وحين نتأمل مسار الأفلاك [3] ، ومسار الشمس ، ومسار القمر ، لا نجد فيها خلافاً ، بل نجد مراصد الكفار تعلن مواعيد تواجد القمر بين الأرض والشمس ، وقد توجد الأرض بين القمر والشمس ، ويتسبب هذا فى ظاهرتى

---

(١) العرجون : العذق اليابس أو الغصن الجاف ، قال ابن عباس : العرجون هو أصل العذق وهو العنقود من الرطب إذا عتق ويبس وانحنى . والقمر فى آخر الشهر يكون صغيراً ويشبه العرجون . [اللسان : مادة (عرجن)].

(٢) المراد بالسباطة : جريد النخل اليابس .

(٣) الفلك : مدار النجوم . وفَلَكُ كل شىء : مُسْتَداره ومُعْظمه . قال تعالى : ﴿ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأنبياء] . [اللسان : مادة (فلك)] .

الكسوف للشمس ، والخسوف للقمر ، وكل هذه الأمور تجدها عندهم غاية في الدقة.

﴿وَلاَ الَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يس]

وهذا القول الحكيم قد أثبت للعرب حكماً يعتقدونه ، ونفى حكماً آخر يعتقدونه ، فالعرب كانت تعتقد أن الليل قبل النهار ، بدليل أن تحديد الليلة الأولى في رمضان هو الميعاد الذى يبدأ فيه شهر الصوم ، وما داموا قد حكموا بأن الليل هو الذى يسبق النهار ، فلا بد من حكم مقابل ؛ وهو أن النهار لا يسبق الليل.

وجاء القرآن إلى القضية المتفق عليها وتركها ، وهى أن النهار لا يسبق الليل مثلما اعتقد العرب ، ونفى القرآن أن يسبق الليل النهار . وكان المخاطب - إذن- يعتقد أن الليل يسبق النهار ، ويصحح الله المفاهيم فلا الليل يسبق النهار ولا النهار يسبق الليل.

وهكذا عرض الحق سبحانه للكونيات عرضاً رمزيّاً فى القرآن ؛لأنه لو جاء بالتوضيح العلمى لذلك لكَذَّب العرب القرآن ، فلو قال القرآن بصريح العبارة : إن الأرض كروية ، لعارض الناس ذلك وقت نزول القرآن ، وما زلنا نجد من يعارض تلك الحقيقة فى أواخر القرن العشرين ؛ لذلك لم يكشف الحق كل الحقائق الكونية ،بل أشار إليها بما يحتمل قبول العربى البسيط لها.

وما دام الليل لا يسبق النهار ، والنهار لا يسبق الليل ، فكيف جاء هذا الأمر - إذن ؟

ونقول : هل خلق اللهُ الشمسَ مواجهة لسطح الأرض أولاً ، ثم غابت الشمس فجاء الليل ؟ كان هذا الأمر يصح لو أن الأرض كانت مسطوحة ،

ولكن الحق سبحانه خلق الأرض كروية ، وذلك دليل على أن الحق سبحانه خلق الشمس والأرض على هيئة يوجد فيها الليل والنهار معاً ، ولا يكون ذلك إلا إذا كانت الأرض كروية ، فالنصف المواجه للشمس يكون الوقت فيه نهاراً ، وغير المواجه لها يكون الوقت فيه ليلاً ، ثم تدور الأرض ؛ فيأتى النهار إلى القسم الذى كان ليلاً ، ويأتى الليل للقسم الذى كان نهاراً.

إذن : فالحق سبحانه حكى فى القرآن الكريم عن الأمور الكونية - التى سوف تستكشفها العقول بعد نزول القرآن - وعالجها بحكمة ودقة ، وعلى سبيل المثال نجد قوله الحق:

﴿ وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً ... (٦٢) ﴾ [الفرقان]

ثم يأتى التعليل:

﴿ لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا (٦٢) ﴾ [الفرقان]

فالليل خلْفة النهار ، ومعنى خلفة أى : يخلف غيره . والمثال من حياتنا نجده فى دوريات الحراسة ، نجد إنساناً يحرس موقعاً ما - مدّة ست ساعات مثلاً - وبعد انتهاء فترة الحراسة يسلم المهمة لحارس ثان ، وبذلك يخلف واحدٌ الآخر ، لكن من الذى بدأ المهمة الأولى فى الحراسة قبل أن يأتى إنسان ليتسلم منه دورية الحراسة ؟

وكذلك الأمر فى الليل والنهار ، فبيّن الحق سبحانه أن الليل والنهار خلْفة ، ومعنى ذلك أن كلا منهما كان موجوداً من البدء ولأن الأرض تدور جَاء النهار فى البلاد التى تشرق فيها الشمس ، وجاء الليل فى البلاد التى تغيب عنها الشمس ، وتتابع الليل والنهار . هكذا فَصّل الحق سبحانه آياته

لنا ، وقال سبحانه : ﴿يُفصّلُ الآيات لِقوْمٍ يعْلمُون﴾ [1] .

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿إِنَّ فِي ٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَّقُونَ ۝٦﴾

وهكذا بينّ الحق اختلاف الليل عن النهار مما يؤكد أنهما وجدا معاً ، وعطف عليها ﴿وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ ؛ لأنه سبحانه خلق الكون بما فيه من مقومات حياة من مأكل ومشرب وهواء ، وغير ذلك ، ثم سخَّر الكون كله ؛ لخدمة السيد وهو الإنسان.

ولو نظرتَ إلى مقومات الحياة لوجدت فيها احتياجات أساسية تتمثل فى نفس هواء ، وشراب ماء ، وطعام ؛ هذه أهم احتياجات الإنسان من مقومات الحياة . ويصبر الإنسان على المأكل أكثر مما يصبر على المشرب ، ويصبر على المشرب أكثر مما يصبر على نَفَس الهواء ، بل ولا يملك الإنسان الصبر على نَفَس الهواء مقدار شهيق وزفير.

لذلك شاء الحق أن يملك قومٌ طعام غيرهم ؛ لأن الجسم يمكنه أن يصبر على الطعام لمدة قد تصل إلى الشهر ويعتمد فى ذلك على إذابة الدهن المتراكم بداخله ، عكس ما اخترع البشر من آلات ، فالسيارة لا يمكن أن تسير لمتر واحد دون وقود . أما الجسم فيتحمل لعل مَنْ يملك الطعام

(١) فصل عن المكان من باب ضرب : جَاوَزَهُ قال تعالى :﴿ولَمَّا فصَلَتِ العِيرُ ﴿٩٤﴾﴾ [يوسف] والفصال : الفطام ، قال تعالى : ﴿وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ ﴿١٤﴾﴾ [لقمان] والفصل : التمييز . ويوم الفصل : يوم القيامة. وفصل الخطاب : القول الصائب المميز بين الحق والباطل، قال تعالى : ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا ﴿١٧﴾﴾ [النبأ] ، وفصل الشيء جعله أقساماً متميزة قال تعالى : ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً ﴿١٢﴾﴾[الإسراء] وقال تعالى : ﴿ آيَاتٍ مُفَصَّلاتٍ ﴿١٣٣﴾﴾ [الأعراف] . أى : مبينات ومنه قوله تعالى : ﴿يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾﴾ [يونس] - القاموس القويم : ص ٨٢ ، ٨٣ .

يخفف من القيود ، أو لعل الإنسان الجائع يجد طريقه لينال ما يقتات به .

أما الماء فقد شاء الحق أن يقلل من احتكار البشر له ؛ لأن الإنسان أكثر احتياجاً للماء من الطعام .

أما الهواء فسبحانه وتعالى لم يُملِّك الهواء لأحد ؛ لأن الهواء هو العنصر الأساسى للحياة ؛ ولذلك اشتق منه لفظ النّفس ، ونَفْس، ونَفَس.

ولو نظرتَ إلى الهواء فى الوجود كله لوجدته عامل صيانة لكل الوجود من ثبات الأرض ، إلى ثبات المبانى التى عليها ، إلى ثبات الأبراج ، إلى ثبات الجبال ، كل ذلك بفعل الهواء ؛ لأن تياراته التى تحيط بجوانب كل الأشياء هى التى تثبّتها ، وإنْ تخلخل الهواء فى أى ناحية حول تلك المبانى والجبال فهى تنهدم على الفور .

إذن : الهواء هو الذى يحفظ التوازن فى الكون كله . ولذلك قلنا : إنك لو استعرضتَ ألفاظ القرآن لوجدت أن الحق سبحانه حينما يتكلم عن تصريف [1] الرياح ، فهو سبحانه يتكلم بدقَّة خالقٍ ، بدقة إله حكيمٍ ، فهو يرسل من الرياح ما فيه الرحمة ، مثل قوله الَحق :

﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ [2] ... (٢٢) ﴾ [الحجر]

---

(١) وتصريف الرياح تحويلها من جهة إلى جهة ، وتصريف الأمور إدارتها من حال إلى حال . والصرف : رد الشيء من حال إلى حال . وصرف النقود تغييرها أو إنفاقها ، وصرف السجين أخلى سبيله ، وصرف القلوب - تحويلها من الهدى إلى الضلال كقوله تعالى : ﴿ صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم (١٢٧) ﴾ [التوبة] القاموس القويم جـ١ : ص ٧٤ ، ٧٥ .

(٢) قال ابن السكيت والأزهرى : لواقح أى : حوامل ؛ لأنها - الرياح - تحمل الماء والسحاب وتقلّبه وتصرّفه، ثم تستدرّه. قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ (٥٧) ﴾ [الأعراف]. [اللسان : مادة (لقح) . . بتصرف] .

لكن إذا جاء بذكر ريح ففى ذلك العقاب ، مثل قوله :

﴿ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ [(١)] عَاتِيَةٍ ۝ ﴾ [الحاقة]

ومثل قوله :

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا [(٢)] مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا .. ۝ ﴾

[الأحقاف]

لأن الرياح تأتى من كل ناحية ، فتوازن الكائنات ، أما الريح فهى تأتى من ناحية واحدة فتدهم [(٣)] ما فى طريقها.

وهنا يقول سبحانه :

﴿ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أى : أنه جاء بالمخلوقات الأخرى مجملة بعد أن جاء بذكر الشمس والقمر كآيتين منفصلتين ، ثم ذكر السموات والأرض وما فيهما من آيات أخرى : من رعد ، وبرق ، وسحاب ، ونجوم وعناصر فى الكون ، كل ذلك مجمل فى قوله : ﴿ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ؛ لأنه لو أراد أن يفصِّل لَذكَرَ كثيراً من الآيات والنعم ، وهو القائل :

﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ... ۝ ﴾ [إبراهيم]

---

(١) ريح صرٌّ وصَرْصَرٌ : شديدة البرد والصوت . قال تعالى : ﴿ كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ ۝ ﴾ [آل عمران]. وصرَّ الطائر : صاح ، وصرّ الباب يصرّ صريراً : أصدر صوتاً عالياً ممتداً ، والصرَّة : الضجّة والصيحة والشدة من الكرب والحرب وغيرهما . [اللسان : مادة (صرر)].
وعاتية : شديدة جداً . والعاتى : الجبّار . [اللسان : مادة (عتا)].

(٢) العارض : السَّحابة إذا كانت فى ناحية من السماء، والعارض يكون أبيض اللون . [اللسان : مادة (عرض)].

(٣) تدهم : تهجم بشدة حتى تغشى مَنْ وما فى طريقها . [اللسان : مادة (دهم) بتصرف].

والقرآن ليس كتاباً لبسط المسائل كلها ، بل هو كتاب منهج ، ومن العجيب أنه جاء بـ«إن» وهى التى تفيد الشك فى قوله : ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا ﴾ ؛ لأن أحداً مهما أوتى من العلم ليس بقادر أن يُحصى نعمَ الله فى الكون ؛ ولأن الإقبال على العَدّ فرض إمكان الحصر ، ولا يوجد إمكان لذلك الحصر ؛ لذلك لم يأت بـ«إذا» ، بل جاء بـ«إنْ» وهى فى مقام الشك.

والأعجب من هذا أنك تجد أن العَدَّ يقتضى التكرار ، ولم يقل الله سبحانه : وإن تعدوا نعم الله ، بل جاء بـ«نعمة» واحدة ، وإذا استقصيتَ ما فى النعمة لوجدتَ فيها آلاف النعم التى لا تُحصَى.

ويُنهى الحق الآية بقوله : ﴿لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ ، والآيات تطلق ثلاث إطلاقات : الإطلاق الأول آيات القرآن ، والإطلاق الثانى على المعجزة الدالة على صدق الرسول [١] ، والإطلاق الثالث للآية أنها تحمل عجيبة من عجائب الكون الواضحة فى الوجود [٢] الدالة على عظمة الله سبحانه .

وهذه الآيات خلقها الله لتُلْفت إلى مُكَوِّن [٣] هذه الآيات ، واللفتة إلى مُكوِّن هذه الآيات ضرورة لينشأ الإنسان فى انسجام مع الكون الذى أنشىء

---

(١) والآية بمعنى أنها معجزة من المعجزات الدالة على صدق الرسول قد جاء بها القرآن على لسان المشركين والكافرين فقال سبحانه : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ لَوْلاَ يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ (١١٨) ﴾ [البقرة] ونحو قولهم : ﴿ وَقَالُوا لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يُنَزِّلَ آيَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ (٣٧) ﴾ [الأنعام] .

(٢) وهى الآيات الدالة على قدرة الله على الخلق وتدبير الكون وتسييره بنظام لا يختل ، وذلك نحو قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ (٢٢) وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٢٣) وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٤) ﴾ [الروم]

(٣) والالتفات إلى المكون يقتضى مراحل ثلاث : مرحلة الإدراك ، ومرحلة الانفعال ، ومرحلة الاختيار ، فإدراك الآية يجعلك تنفعل بها ، فإذا انفعلت اخترت المكون توحيداً بحب وعبادة بصفاء وانسجاماً بأخلاق ، وهنا تتم النعم بمعية الله .

من أجله ، بحيث لا يأتى له بعد ذلك ما ينغّص هذا الانسجام ، فهبْ أن إنساناً ارتاح فى حياته الدنيا ثم استقبل الآخرة بشقاء وجحيم ، فما الذى استفاده من ذلك ؟

إذن : كل المسائل التى تنتهى إلى زوال لا يمكن أن تُعتبر نعمة دائمة ؛ لأن النعمة تعنى أن تتنعم بها تنعُّماً يعطيك يقيناً أنها لا تفارقك وأنت لا تفارقها ، والدنيا فى أطول أعمارها ؛ إما أن تفوت النعمةُ فيها الإنسان ، وإما أن يفوت هو النعمةَ.

والحق - سبحانه وتعالى - يبقى الذين يريدون أن يتقوا الله ؛ ليصلوا إلى نعيم لا يفوت ولا يُفَات ، ويجب أن ينظروا فى آيات الكون ؛ لأنهم حين ينظرون فى آيات الكون بإمعان يكونون قد أفادوا فائدتين : الفائدة الأولى أن يفيدوا مما خلق الله ، والفائدة الثانية أن يعتبروا بأن هذا الكون الذى خلقه الله إنما جعله وسيلة ومَعْبراً إلى غيره ، فقد خلق فيه الخلق ليعيش بالأسباب، ولكنه يريد أن يُسْلمه بعد ذلك إلى حياة يعيش فيها بالمسبِّب وهو الله . فالذين يتقون هم الذين يلتفتون ، والذين لا يتقون لا يعتبرون بالنظر فى الكون وتمر على الإنسان منهم الأشياء فلا يعتبرون بها ، كما قال الله :

﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ[1] (١٠٥)﴾ [يوسف]

إذن : فهم لا يلتفتون إلى ما فى آيات الحق من الآيات الدالة على عظمة قدرة الله سبحانه ؛ فهم غير حريصين على أن يَقُوا أنفسهم عذاب الآخرة.

ويقول الحق بعد ذلك :

---

(١) أعْرَضَ يُعْرِضُ إعراضاً، فهو مُعْرِضٌ، والجمع : مُعْرِضون. أعرض عن الشيء : إذا ولاه ظهره وابتعد عنه. [اللسان : مادة (عرض). . بتصرف].

﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿٧﴾ ﴾

والرجاء هو طلب شيء محبوب متوقع ، والتمنى طلب شيء محبوب إلا أنه غير ممكن الحدوث ، ولكنك تعلن بتمنّيك أنه أمر تحبه ، مثل من قال:

ألا ليتَ الشبابَ يعودُ يوماً ... فأخبرَهُ بما فَعَلَ المَشيبُ

هو بهذا القول يبين أن الشباب أمر محبوب ومرغوب . لكن هل يتأتى هذا ؟ طبعاً لا . إذن : التمنى هو طلب شيء محبوب لا يمكن أن يقع ؛ ومثل قول الشاعر:

ليتَ الكواكبَ تَدْنُو لى فَأَنْظِمَها ... عُقُودَ مَدْحٍ فما أرضَى لكُم كَلِمِى

وهذا غير ممكن.

أما الرجاء فهو أن تطلب شيئاً محبوباً من الممكن أن يقع.

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿إِنَّ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ ، فلماذا لا يرجون لقاء الله ؟ لأن الذى يرجو لقاء الله هو من أعد نفسه لهذا اللقاء ؛ ليستقبل ثواب الله ، لكن الذى لم يفعل أشياء تؤهله إلى ثواب الله ، وعمل أشياء تؤهله إلى عقاب الله ؛ فكيف له أن يرجو لقاء الله ؟ إنه لا يرجو ذلك[1] .

وعلى سبيل المثال : إن الرجل الذى يستشهد ويقدم نفسه للشهادة ، ونفسه هى أعز شيء عنده ، إنما يفعل ذلك لوثوقه بأن ما يستقبله

(١) الرجاء : الأمل المتوقع قريباً ، ضد اليأس . رجاه ، من باب نصر - يرجوه رجواً ورجاء : توقعه مع إرادته إياه وسروره به ، أو مع خوفه منه ، ويستعمل الرجاء بمعنى الخوف ، قال تعالى : ﴿مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾﴾ [نوح] . وقوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا .. ﴿٧﴾﴾ [يونس] . أى : لا يخافون لقاءنا أو لا يأملون لقاءنا ، فيعملون على تهيئة نفوسهم لهذا اللقاء العظيم بالعمل الصالح ، والرجا : الناحية وجمعه أرجاء . قال تعالى : ﴿وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا ﴿١٧﴾﴾ [الحاقة] .

بالاستشهاد خير مما يتركه من الحياة.

إذن : فالذى يرجو لقاء الله هو الذى يُعدُّ نفسه لهذا اللقاء ؛ بأن يتقى الله فى أوامره ، ويتقى الله فى نواهيه ؛ ولذلك تمر على الإنسان أحداث شتّى ؛ وهى فى مقاييس اليقين بين أمرين اثنين : حسنات وسيئات ، وكل واحد يعلم أية حسنات قد فعل ، وأية سيئات قد اقترف ، ولا يغشُّ أحد نفسه ، فإذا ما كان حيّاً فقد يجعله الأمل يكذّب نفسه ، ولا يرى إلا ما فات من المغريات.

أما إذا جاءته لحظة الغرغرة [1] فى الموت ، فهو يستعرض كل صفحته . فإن كانت حسنة استبشر وجهه ، وإن كانت سيئة اكفهرَّ وجهه ، ولذلك يقال : «فلان كانت خاتمته سيئة ، وفلان كانت خاتمته متهللة» . وهذا كلام صحيح ؛ لأن الروح ساعة أن تُقبض فهى تترك الجسم على ما هو عليه ساعة فراقها ، فإن كان ضاحكاً ومستبشراً ، فقد رأى بعضاً مما ينتظره من خير.

والإنسان وقت الغرغرة لا يكذب على نفسه ، فهو ساعة يمرض بمرض فهو يأمل فى العافية ، فإذا أتى وقت انتهاء الحياة تُعْرَضُ عليه أعماله عَرْضاً سريعاً ، فإن كانت الأعمال حسنة تنفرج أساريره ؛ لأنه يستشرف ما سوف يلقاه من جزاء.

وهذا مثل التلميذ حين يكون مُجداً ومجتهداً ثم يقولون له : هناك من جاء لك بالنتيجة ؛ فيجرى عليه مطمَئناً . وإن كان غير مُجدٍّ ؛ لم يجب ، ويخاف من لقاء مَنْ يحمل النتيجة.

كذلك الذين يرجون لقاء الله ؛ عملوا استعداداً لهذا اللقاء وينتظرون

(١) الغرغرة: تردُّد الروح فى الحلق . [اللسان : مادة (غرر)] . ولحظات الغرغرة ووصول الروح إلى الحلق هى التى ينقطع عندها قبول التوبة ، فعن عبدالله بن عمر عن رسول الله ﷺ قال : «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر» أخرجه أحمد فى مسنده (٢/ ١٣٢) والترمذى فى سننه (٣٥٣٧) وقال : حديث حسن غريب ، والحاكم فى مستدركه (٤/ ٢٥٧) وصححه ووافقه الذهبى وابن حبان (٢٤٤٩ - موارد الظمآن).

الجزاء من الله ، أما من لم يعملوا فهم يخافون من لقاء الله ولا يرجونه وسبب ذلك أنهم لم يعملوا للآخرة ﴿وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا﴾ وكأنهم قد اكتفوا بها ولم يرغبوا فى الآخرة . وقد سمى الله هذه الدار اسماً كان يجب بمجرد أن نسمعه ننصرف عنها ، فقال : ﴿بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ . ولا يوجد اسم أقل من ذلك ، والمقابل للحياة الدنيا هى الحياة العليا [(١)] .

والإنسان قد يبحث فى عُمْر الدنيا ويقول : إنها تستمر عشرة ملايين من السنين ، أو مائة مليون سنة ، وقد لا يلتفت إلى أن عمره هو موقوت فى هذه الدنيا .

إذن : فالدنيا بالنسبة لك هى مقدار عمرك فيها ، لا مقدار عمرها الحقيقى إلى أن تقوم الساعة ، وماذا تستفيد منها وهى تطول لغيرك؟ إن عمر الدنيا بالنسبة للإنسان هو مقدار مُكْث الإنسان فيها ، وهو مظنون وغير متيقن ، وقد يموت وهو فى بطن أمه أو يموت وهو ابن شهر ، أو ابن سنة ، أو بعد أن يبلغ المائة . فالذى يرضى بغير المتيقن قصير النظر .

ولذلك انظر إلى القرآن وهو يقول:

﴿أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ [(٢)] الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِى

---

(١) عن المستورد بن شداد قال قال رسول الله ﷺ : «والله ما الدنيا فى الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه فى اليم فلينظر بم يرجع؟» أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٨٥٨) وأحمد فى مسنده (٤/ ٢٢٩ ، ٢٣٠) والترمذى فى سننه (٢٣٢٣) وقال : حديث حسن صحيح .

(٢) ذكر الله تعالى المتاع ، والتمتع ، والاستمتاع ، والتمتيع فى مواضع من كتابه الكريم ، ومعانيها وإن اختلفت راجعة إلى أصل واحد . والمتاع : هو كل شىء ينتفع به ويتبلغ به ويتزود ، والفناء يأتى عليه فى الدنيا . قال تعالى : ﴿ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى ﴿٧٧﴾ ﴾ [النساء] . وقال تعالى : ﴿ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴿٣﴾ ﴾ [هود] . وقال تعالى : ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ ﴿٧٩﴾ ﴾ [يوسف] . وقال تعالى : ﴿ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ﴿٦٥﴾ ﴾ [يوسف] . وقال تعالى : ﴿ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [النساء] . وقال تعالى : ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ ﴿١٩٦﴾ ﴾ [البقرة] . [اللسان : مادة (متع) . . بتصرف] .

الآخِـرَةِ إلاَّ قَليـلٌ ﴿٣٨﴾ ﴾ [التوبة]

وحتى إن قسْت عُمْر الدنيا من بدء الخلق إلى أن تقوم الساعة ، فهى إلى فناء ، ومـا دامت إلى فناء ، فـهى متـاع قليل ، ومن يطمئن إلى هذا المتاع القليل فهـو غافل ؛ لـذلك يُنهى الحق الآية : ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾ عكس ما قال فى الذين يعرفونَ قيمة العمل للآخرة .

حين يقول الحق : ﴿ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [يونس]

والغفلة [١] : هى ذهاب المعنى عن النفس ، فـما دام المعنى موجـوداً فى النفس ، فاليقظة توجد ، والغفلة تذهب . إذن : الغفلة ذهاب المعنى عن النفس ، واليقظة هى استقرار المعنى فى النفس .

ونحن نعـرف أن المعلومـات التى يستقبلهـا الذهن البـشرى إنما تلتقـطها بؤرة [٢] الشعور ، مثلما تلتقط آلة التصوير الفوتوغرافية أية صورة .

وإيـاك أن تظـن أن الإنسـان يعـرف المعلـومة من تكرارها مـرتين مـثلاً أو أكثـر ؛ لأن كل الأذهان تتفق فى أنهـا تلتقـط المعلومة من مـرة واحدة ، ويتميز إنسان عن آخر فى قدرته على أن يستقبل المعلومة بذهن مستعد لها ؛ لأن بؤرة الشعور لا تلتقط إلا معنى واحداً ، ثم يتزحزح المعنى إلى حاشية الشعور ؛ لتأتى المعلومة الثانية ، فإن استقبلت المعلومة وفى بؤرة شعـورك مـعنى آخـر ؛ لا تثبت المعلومـة ؛ لذلـك تكرر القـراءة مـرة واثنتين وثلاث مرات ، حتى تصادف المعلومة خُلُوَّ بؤرة الشعور .

ومثال هذا : الطالب حين يحـاول حفظ قصـيدة ، فلو كـان ذهنه مستعداً

---

(١) أغفلت الشىء : تركته غَفَلاً وأنت له ذاكر . قال تعالى : ﴿ وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ [الأعراف] أى : أنهم كانوا فى تركهم الإيمان بالله والنظر فيه والتدبّر له بمنزلة الغافلين ، أوَ أنهم كانوا عمّا يُراد بهم من الإثابة عليه غافلين . [اللسان : مادة (غفل)] .

(٢) بؤرة الشعور : مـراكـز الشعـور والإحـسـاس والإدراك فى المخ . وبؤرة كل شىء مـركـزه . [المعـجم الوسيط : مادة (بأر) . . بتصرف] .

لاستقبال القصيدة فهو يحفظها من مرة واحدة.

إذن : الذهن كآلة الفوتوغرافيا ؛ ولذلك فالحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ [1] فِي جَوْفِهِ ... (٤)﴾ [الأحزاب]

فإن كنت تريد أن تستقبل معلومة ما ، فكُن حريصاً على أن تُفرِّغ ذهنك من أى معلومة ؛ لتأتى المعلومة الجديدة ، فتصادف خلاء لبؤرة الشعور ؛ فتستقر فيها.

والمدرس الناجح هو الذى يلفت أذهان كل التلاميذ لما يقول ، وما دامت الأذهان قد التفتت إليه ؛ فلن تمر كلمة دون أن يستوعبها التلاميذ ، عكس المدرس غير الناجح الذى يؤدى عمله برتابة [2] وركاكة [3] تَصْرِف عنه التلاميذ . ونجد المدرس الناجح ، وهو يُلفت انتباه تلاميذه ويقطع الدرس ؛ليسأل أى واحد منهم عمّا قال؛ فيستمع إليه التلاميذ من بعد ذلك بانتباه ؛لأن كل واحد منهم يتوقع أن يُسأل عن المعلومة التى قِيلتْ من قبل.

والتلميذ المجتهد هو الذى يقرأ الدرس بعقلية قادرة على مناقشة ما فيه من أساليب ومعلومات ، وهو يستصحب حضور الذهن أثناء القراءة ، أما التلميذ الفاشل فهو يقرأ دون يقظة أو انتباه.

مثال آخر : إن الفلاح الذى ينام على حافة بئر الساقية لا يقع فى بئرها ؛ لأنه ينام وهو مستصحب لفكرة أنه إن تقلّب على جنبٍ ما فسوف يقع فى

---

(١) ويعبر عن القلب بالعقل المفكر ، ويستعمله القرآن بمعنى العقل كثيراً لقوله تعالى : ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (٢٤)﴾ [محمد] . وقال : ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا (١٧٩)﴾ [الأعراف] . أى : عقول ، والقلب يرفض الثنائية فى الفكر ، ومن هنا تتكون بؤرة الشعور فى القائل الموجود والفكر الواحد .

(٢) الرتابة: السير أو النهج على نظام واحد لا يتغير. [اللسان، مادة : رتب] .

(٣) الركاكة: الضعف فى اللفظ والأسلوب.

البئر [1]. وكذلك الإخوة حين ينام اثنان منهم على سرير واحد ، يقوم كل واحد منهما فى الصباح وهو مستصحب أن هناك آخر بجانبه ، ولكن إذا نام كل منهما فى سرير منفصل ، فهو يستيقظ ليجد رأسه فى ناحية وساقيه فى ناحية أخرى ، وتسمى هذه عملية الاستصحاب واليقظة ، ويقال : «فلان يقظ»، وكلمة «يقظ» ضد «نائم» [2]؛ لأن اليقظان يحتفظ بالوعى والانتباه.

إذن : فالغفلة هى ذهاب المعنى من النفس وانطماسه ، والذين يمرون بالآيات وهم غافلون عنها لن ينتفعوا بشىء من هذه الآيات ، ثم تأتى لهم محصلة غفلتهم فى الآخرة.

ويقول الحق سبحانه عنهم :

﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ۝٨﴾

وأنت تقول : «أويت [3] إلى كذا» ، إذا كان هذا هو المكان الذى يعصمك من شىء [4] ، وهنا يقول الحق : ﴿مَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾ فإذا كان ذلك هو المأوى ، فلا بد أن ما خارجها بالنسبة لهم أشد عذاباً . وهم يأوون إلى النار ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أى: بسبب ما كانوا يعملون من ذنوب وسيئات.

---

(١) وقد ورد نهى رسول الله ﷺ عن النوم على ظهر بيت ليس له حجار (أى : سور يمنع سقوطه من على سطح البيت)، فعن على بن شيبان قال قال ﷺ : «من بات على ظهر بيت ليس له حجار فقد برئت منه الذمة» أخرجه أبو داود فى سننه (٥٠٤١) ونحوه عند أحمد فى مسنده (٥/ ٧٩ ، ٢٧١) .

(٢) اليقظة : نقيض النوم، وقد تكون ضد الغفلة وعدم الفطنة، ويقال : رجل يقُظٌ ويقظ إذا كان متيقظاً فيه معرفة وفطنة.

(٣) أويت: عُـذْتُ. والمأوى: اسم مكان (مفعل) من أوَى يأوى، والمأوى: المنزل، والمكان. أى: أن مكانهم ومنزلهم واستقرارهم يكون فى النار؛ لقاء ما فعلوا من الذنوب والآثام وغفلتهم عن الحق وآياته البينات. [اللسان: مادة (أ و ا). . بتصرف].

(٤) ومثال هذا قول ابن نوح عليه السلام عندما عمَّ الطوفان الأرض: ﴿سَآوِى إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ الْمَاءِ ۝٤٣﴾ [هود] .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْۖ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٩ ﴾

هنا يتحدث الحق سبحانه عن المقابل ، وهم الذين آمنوا ، ويعلِّمنا أنه سبحانه : ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ .

والهداية - كما قلنا من قبل - معناها الدلالة على الخير ، بالمنهج الذى أرسله الحق سبحانه لنا ، وبه بيَّن الحق السُّبُلَ أمام المؤمن والكافر ، أما الذى يُقبل على الله بإيمان فيعطيه الحق سبحانه وتعالى هداية أخرى ؛ بأن يخفف أعباء الطاعة على نفسه ، ويزيده سبحانه هدى بالمعروف ؛ لذلك قال سبحانه :

﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ[1] ۝٤٥﴾
[البقرة]

وهكذا يتلقى المؤمن مشقات الطاعة بحب ؛ فيهوِّنها الحق سبحانه عليه ويجعله يدرك لذة هذه الطاعة ؛ لتهون عليه مشقتها ، ويمده سبحانه أيضاً بالمعونة .

يقول الحق سبحانه :

(١) قال الإمام أبو حامد الغزالى فى كتابه «إحياء علوم الدين» (١/ ١٧١) : «الخشوع ثمرة الإيمان، ونتيجة اليقين الحاصل بجلال الله عز وجل، ومن رُزق ذلك فإنه يكون خاشعاً فى الصلاة وفى غير الصلاة، بل فى خلوته، وفى بيت المال عند الحاجة، فإن موجب الخشوع معرفة اطلاع الله تعالى على العبد ومعرفة جلاله ومعرفة تقصير العبد ، فمن هذه المعارف يتولد الخشوع وليست مختصة بالصلاة» . يشير الشيخ إلى أن القرآن هداية ، والرسول بسنته دليلها ، والله المعين عليها ، والوصول للمعية هو عين القرب من الله .

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ [(١)]﴾

وما داموا قد آمنوا ؛ فسبحانه يُنزل لهم الأحكام التي تفيدهم في حياتهم وتنفعهم في آخرتهم ، أو أن الهداية لا تكون في الدنيا بل في الآخرة ، فما داموا قد آمنوا ، فهم قد أخذوا المنهج من الله سبحانه وتعالى وعملوا الأعمال الصالحة ، يهديهم الحق سبحانه إلى طريق الجنة .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم... (١٢)﴾ [الحديد]

ويقول سبحانه : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا ... (٨)﴾ [التحريم]

أي : أن نورهم يضيء أمامهم . أما المنافقون فيقولون للذين آمنوا :

﴿انظُرُونَا نَقْتَبِسْ [(٢)] مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا [(٣)] نُورًا... (١٣)﴾ [الحديد]

أي : أن هذا ليس وقتَ التماس النور ، فالوقت - لالتماس النور - كان في الدنيا ؛ باتباع المنهج والقيام بالصالح من الأعمال .

---

(١) الباء في ﴿بِإِيمَانِهِمْ﴾ تحتمل وجهين :

١- أن تكون سببية ، أي : بسبب إيمانهم في الدنيا يهديهم الله يوم القيامة على الصراط المستقيم حتى يجوزوه ويخلصوا إلى الجنة .

٢- أن تكون للاستعانة ، أي : أن يصبح إيمانهم نوراً يمشون به على الصراط . انظر تفسير القرطبي (٤/ ٣٢٣٨) وابن كثير (٢/ ٤٠٨) .

(٢) نقتبس : نأخذ . قال تعالى حكاية عن موسى عليه السلام : ﴿لَعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى (١٠)﴾ [طه] . وقال : ﴿سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٧)﴾ [النمل] . والقَبَس : النار . واقتباسها : الأخذ منها . والاقتباس من نور أهل الجنة دليل على شدة هذا النور وقوته . [اللسان : مادة (قبس) . . بتصرف] .

(٣) التمسوا : اطلبوا . والتمس الشيء وتَلَمَّسَه : طلبه . [اللسان : مادة (لمس)] .

إذن : فالحق سبحانه يهدى للمؤمنين نوراً فوق نورهم فى الآخرة.

والآية تحتمل الهداية فى الدنيا ، وتحتمل الهداية فى الآخرة.

ويصف الحق سبحانه حال المؤمنين فى الآخرة فيقول : ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِى جَنَّاتِ النَّعِيمِ ⑨﴾ [يونس]

وقلنا : إن الجنة على حوافِّ الأنهار ؛ لأن الخضرة أصلها من الماء . وكلما رأيتَ مجرى للماء لا بد أن تجد خضرة ، والجنات ليست هى البيوت ، بدليل قول الحق سبحانه:

﴿وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّاتِ عَدْنٍ[1] ... ⑦②﴾ [التوبة]

ونجد الحق سبحانه يقول مرة:

﴿تَجْرِى تَحْتَهَا الأَنْهَارُ .. ①⓪⓪﴾ [التوبة]

ويقول سبحانه فى مواضع أخرى[2] :

﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ..②⑤﴾ [البقرة]

والحق سبحانه يعطينا صوراً متعددة عن الماء الذى لا ينقطع، فهى مياه ذاتية الوجود فى الجنة لا تنقطع أبداً.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ⑩﴾

---

(١) عَدَنَ فلان بالمكان يَعْدن ويَعْدُن عَدْناً وعُدُناً : أقام. ومركز كل شىء مَعْدنه، وجنات عدن : أى : جنات إقامة دائمة بمكان الخُلْد. قال تعالى : ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ⑦⑥﴾ [طه].

(٢) ورد قوله تعالى ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ ٣٥ مرة فى القرآن ، وقد وردت مرة واحدة ﴿تَجْرِى تَحْتَهَا الأَنْهَارُ﴾ .

دعواهم : أى دعاؤهم .

وهل الآخرة دار تكليف؛ حتى يواصلوا عبادة الله ؟ لا، ولكنها عبادة الالتذاذ، وهم كُلَّما رأوا شيئاً يقولون: لقد أكلنا ذلك من قبل ، ولكنهم يعرفون حين يأكلون ثمار الجنة أن ما فى الأرض كان يشبه تلك الثمار، لكنه ليس مثلها.

﴿قَالُوا هَذَا الَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا ... (٢٥)﴾ [البقرة]

أو يقولون : ﴿سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾ اعترافاً بالنعمة ، وأنت حين ترى شيئاً يعجبك تقول : سبحانك يارب . وبعد أن تأتى لك النعمة وتقول : سبحان الله ، وتُفاجأ بأشياء لم تكن فى الحسبان - من فرط جمالها ؛ فتقول : الحمد لله[1] .

إذن: فأنت تستقبل النعمة « بسبحان الله » ، وتنتهى من النعمة «بالحمد لله ». ولذلك يقول الحق سبحانه: ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ والذى يجعل للحياة الدنيا معنى، ويجعل لها طعماً ويجعل لها استقراراً ، أن يكون الإنسان فى سلام ، ومعنى السلام : الاطمئنان والرضا ؛ فلا مُهيِّجات ، ولا مُعكِّرات ، ولا يأتى ذلك إلا بعدم اصطدام فى ملكات النفس ؛ فيتحقق سلام الإنسان مع نفسه ، وسلام الإنسان مع أهله ، وهذا هو المحيط الثانى ، وسلام الإنسان مع قومه ، وسلام الإنسان مع العالم كله ، كل ذلك اسمه سلام ، أى: لا مُنغِّص ، لا من نفسه ، ولا من أهله ، ولا من قومه ، ولا من العالم . وكلما اتسعت رقعة السلام زاد إحساس الإنسان بالاطمئنان .

---

(١) إن استقبال النعمة بـ (سبحان الله) كلمة إعجاب لجمال يقودك إلى التنزيه والتوحيد والتفريد فتنطق بالتوحيد جمالاً وجلالاً وتنزيهاً ، وعند تمام النعمة يكون النطق تلقائياً ﴿ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠)﴾ [يونس] فأول الشىء إعجاب بتنزيه وآخره حمد بيقين .

وحين يقول الحق سبحانه: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ ، فالسلام وارد فى أشياء متعددة ، والحق سبحانه يقول:

﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ [1] (٥٥) هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ [2] مُتَّكِئُونَ (٥٦) لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ (٥٧) سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ (٥٨)﴾ [يس]

وهذا هو السلام الذى له معنى ؛ فهو سلام من الله . ولم يقل سبحانه: «سلام يورثك اطمئناناً ونفساً راضية» فقط ، بل هو سلام بالقول من الله ، وانظر أى سعادة حين يخاطبك الحق سبحانه وتعالى مباشرة. وهناك فرق بين أن يشيع الله فيك السلام وبين أن يحييك كلامه بالسلام. وهذا هو السبب فى قوله:

﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ (٥٨)﴾ [يس]

وهذا سلام الله ، ثم من بعد هذه المنزلة يأتى سلام الملائكة:

﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلَامٌ عَلَيْكُم ...(٢٤)﴾ [الرعد]

إذن : فقول الحق هنا : ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ نجد فيه كلمة السلام رمز الرضا والاستقرار فى الجنة ؛ فالسلام هو أول الأحاسيس التى تحبها فى نفسك ، ولو كانت الناس كلها ضدك. لكنك ساعة تستقر ، فأنت تسائل نفسك : ماذا فعلت ليكون البعضُ ضدى ؟ وحين تجيب نفسك : «إننى لم

---

(١) فاكهون: ناعمون معجبون بما هم فيه من نعيم الجنة. قال تعالى: ﴿فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ (١٨)﴾ [الطور].

(٢) الأرائك: السُّرُر أو الفُرُش. والأريكة: السرير فى الحَجَلة من دونه ستر ، أو هى كل ما اتُّكِيء عليه من سرير أو فراش أو منَصة. قال تعالى: ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا (٣١)﴾ [الكهف]. [اللسان: مادة (أرك). . بتصرف].

أفعل إلا الخير» ؛ فأنت تحس السلام فى نفسك. وإذا ما رحَّب الآخرون بما تفعل ، فالحياة تسير ، بلا ضدّ ولا حقد ، وهذا ما قاله رسول الله ﷺ :

«يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة»[(١)] فيدخل رجل عرفه القوم فلما انصرف ؛ قام واحد من الصحابة[(٢)] ، وذهب إلى الرجل ؛ ليعلم ماذا يصنع ، وسأله : ماذا تفعل حتى يبشّرك الرسول ﷺ بالجنة ؟ فوجد سلوك الرجل مستقيماً ومتبعاً للمنهج دون زيادة ، فسأله الصحابى : لماذا - إذن - بشّرك رسول الله ﷺ بالجنة ؟

قال الرجل : والله إنى لأصلّى كما تصلّون ، وأصوم كما تصومون ، وأزكّى كما تزكون ، ولكنى أبيت وما فى قلبى غلٌّ لأحد.

هذا هو السلام النفسى ، وإذا ما وصل الإنسان إلى السلام مع النفس ؛ فلا تضيره الدنيا إن قامت ، و بعد ذلك يضمن أن يوجد سلامه مع

---

(١) وتمام هذا الحديث أن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : كنا جلوساً مع رسول الله ﷺ فقال : يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة. فطلع رجل من الأنصار تَنْطفُ لحيته تقطر من وضوئه قد تعلق نعليه فى يده الشمال. فلما كان الغد قال النبى ﷺ مثل ذلك، فطلع ذلك الرجل مثل المرة الأولى، فلما كان اليوم الثالث قال النبى ﷺ مثال مقالته أيضاً، فطلع ذلك الرجل على مثل حاله الأولى، فلما قام النبى ﷺ تبعه عبد الله بن عمرو بن العاص فقال: إنى لاحيت (خاصمت) أبى، فأقسمت ألا أدخل عليه ثلاثاً، فإن رأيت أن تؤوينى إليك حتى تمضى فعلت. قال: نعم. قال أنس: وكان عبد الله يحدث أنه بات معه تلك الليالى الثلاث فلم يره يقوم من الليل شيئاً غير أنه إذا تعار «استيقظ» وتقلب على فراشه ذكر الله عز وجل وكبّر حتى يقوم لصلاة الفجر. قال عبد الله : غير أنى لم أسمعه يقول إلا خيراً، فلما مضت الثلاث ليال وكدت أن أحتقر عمله. قلت: يا عبد الله إنى لم يكن بينى وبين أبى غضب ولا هجر ثَمَّ، ولكن سمعت رسول الله ﷺ يقول لك ثلاث مرار: يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة، فطلعت أنت الثلاث مرار، فأردت أن آوى إليك لأنظر، ما عملك فأقتدى به، فلم أرك تعمل كثير عمل، فما الذى بلغ بك ما قال رسول الله ﷺ فقال: ما هو إلا ما رأيت؟ قال: فلما وليت دعانى. فقال: ما هو إلا ما رأيت غير أنى لا أجد فى نفسى لأحد من المسلمين غشاً، ولا أحسد أحداً على خير أعطاه الله إياه. فقال عبد الله : هذه التى بلغت بك وهى التى لا نطيق. . أخرجه أحمد فى مسنده (٣/ ١٦٦) وابن المبارك فى الزهد (٦٩٤) .

(٢) هو: عبد الله بن عمرو بن العاص، صحابى من أهل مكة، كان يكتب فى الجاهلية، ويحسن اللغة السريانية، وأسلم قبل أبيه، ولد ٧ ق هـ وتوفى ٦٥ هـ . كان كثير العبادة، وقتال الأعداء وكان مشهوراً أنه يضرب بسيفين. (الأعلام للزركلى ٤/ ١١١) .

الله تعالى. ومن عنده سلام مع نفسه، ومع بيئته، ومع مجتمعه؛ فهو ينال سلاماً من الله سبحانه . ويقول لنا القرآن عن الذين يعانون من مأزق في الآخرة:

﴿ يَوْمَ يَأْتِ لاَ تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ [1] فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ (١٠٥) ﴾ [هود]

هؤلاء هم الذين شقوا في النار ، أما الذين سُعدوا ففي الجنة ، فماذا عن حال الذين لا هم شقوا ولا هم سعدوا - وهم أهل الأعراف ؛ لأن الموقف يوم القيامة ينقسم الناس فيه إلى ثلاثة أقسام ؛ فقد قال الله سبحانه :

﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ (٦) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ (٧) وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (٨) فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ [2] (٩) ﴾ [القارعة]

ولم يقل الحق سبحانه لنا أمر الذين تساوت الكفتان لهم أثناء الحساب ؛ لأنه سبحانه قال في حديث قدسي:

«إن رحمتي غلبت غضبي» [3] .

ويبين لنا الحق سبحانه رحمته فيقول:

---

(١) قوله تعالى هنا ﴿بِإِذْنِهِ﴾ مُقيِّد لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا .. (١١١) ﴾ [النحل] ، فليس لنفس أن تتكلم أو تجادل عن نفسها إلا بإذن الله ، ولا ينافي ذلك قوله تعالى : ﴿هَذَا يَوْمُ لاَ يَنطِقُونَ (٣٥) وَلاَ يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ (٣٦) ﴾ [المرسلات] ، لأن في يوم القيامة مواقف، ففي بعضها لا يؤذن لهم في الكلام، فيكفون عنه، وفي بعضها يؤذن لهم فيه ، فيتكلمون. قاله أبو يحيى الأنصاري في كتابه (فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن) ص ١٩٣ ، ١٩٤ .

(٢) ثقلت موازينه: رجحت حسناته على سيئاته.
في عيشة راضية: في الجنة. فإذا كانت العيشة راضية فالمُعايش لها مرضى عنه .
خفت موازينه: رجحت سيئاته على حسناته.
﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ : ساقط بأمّ رأسه في نار جهنم، وعبَّر عنه بأمه يعني: دماغه.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٣١٩٤) ومسلم في صحيحه (٢٧٥١) وتمامه: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «لما قضى الله الخلق كتب في كتابه، فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي غلبت غضبي» وفي بعض روايات الحديث: تغلب، سبقت .

﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (٤٤) ﴾ [الأعراف]

ويأتى أمر رجال الأعراف فيقول سبحانه :

﴿ وَعَلَى الْأَعْرَافِ [١] رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ [٢] .. (٤٦) ﴾ [الأعراف]

لقد عرفوا المؤمنين بسيماهم ، وعرفوا الكفار بسيماهم ، وجلس البعض على الأعراف ؛ ينتظرون وينظرون لأهل الجنة قائلين :

﴿ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ (٤٦) ﴾ [الأعراف]

ثم يعطينا الحق سبحانه صورة ثانية فيقول :

﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ (٥٠) ﴾ [الأعراف]

أهل الأعراف - إذن - يسعدون بعطاء الله لأهل الجنة ، ويطمعون أن يغفر الله - سبحانه وتعالى - لهم.

ونحن فى حياتنا نسمع المشرفين على المساجين أو المحكوم عليهم بالإعدام يقولون : قبل أن يحكم على المجرم بالإعدام ينخفض وزنه ، ثم

---

(١) الأعراف فى اللغة : جمع عرف ، وهو كل عال مرتفع ؛ قال الزجّاج : الأعراف أعالى السور . والأعراف : أعالى سور بين أهل الجنة وأهل النار . وقيل عن أصحاب الأعراف : هم قوم تساوت حسناتهم وسيئاتهم فلم يستحقوا الجنة بالحسنات ، ولا النار بالسيئات ، فكانوا على الحجاب الذى بين الجنة والنار . [اللسان : مادة (عرف) . . بتصرف].

(٢) السِّيماء : العلامة يعرف بها الخير والشر . ومنه قوله تعالى : ﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ (٢٩) ﴾ [الفتح] ، وقوله : ﴿ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا (٢٧٣) ﴾ [البقرة] هذا فى أهل الخير والفضل ، أما الأشرار فقال تعالى عنهم : ﴿ يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ (٤١) ﴾ [الرحمن] .

يزيد بعد الحكم ؛ لأن الأمر قد استقر . والذين يُشغلون بأن يعرفوا مكانهم فى الآخرة ، أهو فى الجنة أو فى النار ، لا ينسون أن يقولوا للمؤمنين :

﴿أَن سَلامٌ عَلَيْكُمْ .. (٤٦)﴾ [الأعراف]

وهنا يقول الحق سبحانه عن أهل الجنة : ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وقد تكون آخر دعواهم ، أى : آخر كلمة .

فالواحد منهم يقول : أنا حمدت ربنا على الشىء الفلانىْ والشىء الفلانى . وآخر حَمْد هو قمة الحمد ؛ لأنهم حمدوا الله على النعمة فى الدنيا التى تزول ، ويحمدونه فى الآخرة على النعمة التى لا تزول ، فلئنْ يوجد حَمْد على النعمة التى لا تزول فهو قمة الحمد[(١)] .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ[(٢)] ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ[(٣)] (١١)﴾

وهذه الآية تتناول قضية عقدية قد تكون شُغُل الناس الشاغل فى الدعاء

(١) الحمد على الإيجاد ، والحمد على الإمداد فى الدنيا ، والحمد على نعمة البقاء فى دار الخلود وهى قمة الحمد .

(٢) نذر : نترك . قال تعالى : ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (٢٦)﴾ [نوح] . [اللسان : مادة (وذر) . . بتصرف] .

طغيانهم : مجاوزتهم الحدّ فى الظلم والكفر والعصيان . قال تعالى : ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٥)﴾ [البقرة] .

(٣) يعمهون : العَمَهُ : التحيُّر والتردد فى الضلال ، والعَمَهُ يكون فى الرأى ، والعَمَى يكون فى البصر . قال ابن الأثير : العَمَهُ فى البصيرة كالعمى فى البصر . قال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ (٤)﴾ [النمل] .

لله تعالى، وقد لا يُجاب دعاؤهم مع كثرة الدعاء، ويُحزنهم على أنفسهم، ويقول الواحد منهم : لماذا لا يقبل الله دعائى ؟ أو يقع بعضهم فى اليأس.

ونقول لكل إنسان من هذا الفريق : لا ، أنت تدعو ، مرة تدعو بالشر ومرة تدعو بالخير ، فلو أن الله سبحانه وتعالى قد أجابك فى جميع الدعاء ، فسوف يجيب دعاءك فى الشر ودعاءك فى الخير ، ولو أن الله سبحانه وتعالى عجَّل لك دعاء الشر ، كما تحب أن يُعجِّل لك دعاء الخير ؛ لَقُضى إليك أجلك وانتهت المسألة ، وهناك من قالوا [1] :

﴿ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢) ﴾ [الأنفال]

ولو استجاب الحق لمثل هذا الدعاء ، لكان وبالاً على مَنْ دعوا ذلك الدعاء.

إذن : فمن مصلحتك حين تدعو على نفسك [2] أو تدعو بأى وبال ألا يجيبك الله تعالى ، وافهم أن لله تعالى حكمة فى الإجابة ؛ لأنه سبحانه

---

(١) هم بعض كفار قريش، قيل: إنه أبو جهل، وقيل: هو النضر بن الحارث بن كلدة. ودعاؤهم هذا دليل سفه وجهل وشدة عناد وتكذيب. وكان الأولى بهم أن يقولوا: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا له ووفقنا لاتباعه. وهؤلاء قال عنهم رب العزة: ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٣) ﴾ [العنكبوت] ، وجعل الله تأخير العذاب عنهم فضيلة من فضائل رسول الله ﷺ على قومه فقال سبحانه : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣) ﴾ [الأنفال] .

(٢) ثبت فى صحيح مسلم النهى عن الدعاء على النفس والأولاد والأموال، فعن جابر بن عبدالله رضى الله عنه قال: سرنا مع رسول الله ﷺ فى غزوة بطن بواط وهو يطلب المجدى بن عمرو الجهنى، وكان الناضح يعتقبه منا الخمسة والستة والسبعة ، فدارت عقبة رجل من الأنصار على ناضح له فأناخه فركبه ثم بعثه فتلدن عليه بعض التلدن فقال له: شأ لعنك الله . فقال رسول الله ﷺ : من هذا اللاعن بعيره؟ قال: أنا يا رسول الله . قال: «انزل عنه فلا تصحبنا بملعون، لا تدعوا على أنفسكم، ولا تدعوا على أولادكم، ولا تدعوا على أموالكم، لا توافقوا من الله ساعة يسأل فيها عطاء فيستجيب لكم» أخرجه مسلم (٣٠٠٩) .

وتعالى مُنزَّه عن أن يكون موظفاً عند الخلق ، ومَن يدعُهُ بشيء يجبه عليه ، بل لا بد من مشيئته سبحانه في تقرير لون الإجابة ؛ لأنه لو كان الأمر عكس ذلك لانتقلت الألوهية للعبد.

لقد صان الحق سبحانه عباده بوضع رقابة على الدعاء ؛ وأنت تعتقد أن دعاءك بخير ، ولكن رقابة الحق سبحانه التي تعلم كل شيء أزلاً [1] تكاد أن تقول لك : لا ، ليس خيراً. وانتظر الخير بعدم استجابة دعائك ؛ لأنه القائل سبحانه:

﴿ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ .. (٢١٦) ﴾ [البقرة]

إذن : فمعرفتك ليست نهائية في تقرير الخير والشر ؛ لذلك دَعِ الإلهَ الأعلى - وهو المأمون عليك - أن يستجيب أو لا يستجيب لما تدعوه وأنت في ظنك أنه الخير ، فالمعرفة العليا هي التي تفرق بين الخير والشر ، وفي المنع - أحياناً - عين العطاء [2] ؛ ولذلك يقول الحق:

﴿ وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً (١١) ﴾[الإسراء]

وقد تلحّ في دعاء لو استجيب لك ؛ لكان شراً. والله سبحانه يعلم ما هو الخير لك ، وهو سبحانه يجيب أحياناً بعض خلقه في أشياء كان الإنسان منهم يتمنى أن توجد ، ثم يكتشف الإنسان أنها لم تكن خيراً. وأحياناً يأتي لك بأشياء كنت تظن أنها شر لك ، فتجد فيها الخير. وهكذا يصحّح لك الحق سبحانه بحكمته تصرفاتك الاختيارية.

---

(١) الأزَل : القدم : قال أبو منصور : ومنه قولهم : هذا شيء أزليٌّ أي : قديم.

(٢) عن أبي سعَيد الخدري أن النبي ﷺ قال : « ما من مسلم يدعو الله بدعوة ليس فيها مأثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه إحدى ثلاث : إما أن يستجيب له دعوته ، أو يصرف عنه من السوء مثلها ، أو يدخر له من الأجر مثلها. قالوا : يا رسول الله .. إذن : نكثر. قال : الله أكثر. أخرجه الحاكم في مستدركه (١/ ٤٩٣) وقال : «هذا حديث صحيح الإسناد» وأقره الذهبي في التلخيص. ومن أقوال الشيخ : المنع عين العطاء وقد يكون العطاء نقمة.

وقد قال الكافرون[1] لرسول الله ﷺ :

﴿ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢) ﴾ [الأنفال]

ومن قالوا هذا القول هم : العاص بن وائل السهمى ، والوليد بن المغيرة ، والأسود بن عبد المطلب والأسود بن عبد يهود ، وكانوا قد وصلوا إلى قمة الاضطراب ؛ فهم قد اضطربوا أولاً حين اتهموه بأنه ساحر ، ولم ينتبهوا إلى غباء ما يقولون ؛ لأنه إن كان لرسول الله ﷺ قدرة السحر ؛ فلماذا لم يسحرهم هم ليؤمنوا أيضاً ؟

واضطربوا مرة ثانية ، وحاولوا أن يقولوا : إن القرآن شعر ، أو له طبيعة الشعر والكلام المسجوع ، والقرآن ليس كذلك. ولو أن جماعة غيرهم قالت مثل هذا القول لكان لهم عذرهم لأنهم ليسوا أهل لغة ، أما هؤلاء فهم قوم أهل دُرْبة على الفصاحة والبلاغة ، وكانوا يعقدون أسواق الشعر والخطابة ، ثم اضطربوا مرة ثالثة ، وحاولوا الطعن فى مكانة محمد ﷺ وهم يُقرّون بعظمة القرآن ؛ فقالوا :

﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ[2] عَظِيمٍ (٣١) ﴾ [الزخرف]

---

(١) عن أنس بن مالك قال : قال أبو جهل : ﴿ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢) ﴾ [الأنفال] فنزلت : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣) ﴾ [الأنفال] أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٦٤٨) وكذا مسلم (٢٧٩٦) . وقال ابن حجر العسقلانى فى «فتح البارى بشرح صحيح البخارى» (٨/ ٣٠٩) : «قوله « قال أبو جهل» ظاهر فى أنه القائل ذلك، وإن كان هذا القول نسب إلى جماعة فلعله بدأ به ورضى الباقون فنسب إليهم، ولكن نسبته إلى أبى جهل أولى ».

(٢) القريتان المقصودتان هنا : مكة والطائف . وقد اختلف العلماء فى تحديد اسم الرجل العظيم المقصود . فمن مكة : الوليد بن المغيرة أو عتبة بن ربيعة . ومن الطائف : عروة بن مسعود أو عمير بن عبد ياليل . قال ابن كثير فى تفسيره (٤/ ١٢٧) : «الظاهر أن مرادهم رجل كبير من أى البلدتين كان».

والحق سبحانه وتعالى حينما يتعرض لحادثة وقعت فى زمن النبى ﷺ مع الكافرين ؛ لا يقتصر فى الحدث على ما وقع، ولكنه يعالج قضية عامة كونية إلى أن تقوم الساعة، ويجعل الحدث الحاصل فى زمنه سبباً فقط ؛ ليعطى عموم الحكم فى كل زمان وفى كل مكان. وإلا اقتصر الأمر على معالجة حدث وقع لشخص الحدث وشخص الحكم فى القوم الموجودين مع رسول الله ﷺ. وقد جاء القرآن للناس كافة، وجاء للزمان عامة، فلا بد أن تكون القضية المعروضة - أىّ قضية - أمام رسول الله ﷺ من قوم عاصروه لها سبب خاص ، ولكن العبرة بعموم الموضوع لا بخصوص السبب.

ويعالج الله سبحانه وتعالى فى هذه المسألة الشخصية من هؤلاء الذين قالوا ذلك قضيةً كونيةً ستظل إلى أن تقوم الساعة.

فقد دَعَوْا على أنفسهم:

﴿ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الأنفال]

كما قال قوم عاد لهود:

﴿ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [الأعراف]

إذن : هم قد دعوا بشرٍّ على أنفسهم.

ويعالج الله قضية الدعاء بالخير أو الدعاء بالشرّ ؛ لأن الإنسان قد يضيق ذَرْعاً [1] بأمور تحيط بذاته أو بالمحيط به ؛ فإذا ضاق ذرعاً بأمور تحيط به فى

---

(١) الذَّرْعُ : الطاقة والقُدرة. وضِقْتُ بالأمر ذرعاً مثل ضقت به ذراعاً ؛ فأصل الذرع إنما هو بسط اليد، فكأنك تريد: مددت يدى إليه فلم أنَلْهُ. وضاق بالشىء ذَرْعاً وذراعاً أى : ضَعُفت طاقته، ولم يجد مَخْلصاً، ولم يُطقْه، ولم يَقْو عليه. قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا ﴿٧٧﴾ ﴾ [هود]. وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الحاقة]. [اللسان : مادة (ذرع) . . بتصرف].

ذاته من ألم كمرض - مثلاً ، أو عاهة لا يقوى على الصبر عليها ، أو لا يقوى على تحمّلها ؛ فيقول :«يارب ، أرحنى يارب» ، وهو هنا يدعو على نفسه بالموت . فلو أن الله سبحانه وتعالى استجاب دعاءه لَقُضيت المسألة .

ولكن الله هو الحكيم العزيز ، لا يأتمر بأمر أحد من خلقه ، ولا يعجل بعَجَلة العباد ، وكما يؤجل لك استجابته لدعوة الخير منك ، فهو يؤجل أيضاً إجابتك لدعوة الشرّ منك على نفسك ؛ وفى ذلك رحمة منه سبحانه .

وإذا كنت تقول : أنا أدعو بالخير ، والله سبحانه وتعالى لا يعطينى ، فخذ مقابلها : أنك تدعو بالشرّ على نفسك ، ولا يجيبك الله . ثم ألا يضيق الأب أحياناً ذَرْعا بمن حوله ، فيقول : فليأخذنى الله ؛ لأستريح من وجوهكم ؟ هَبْ أن الله سبحانه أجابه إلى هذه الدعوة ، فماذا يكون الموقف ؟ وقد تجد من يقول : يارب أصبنى بالعمى فلا أراهم ، أو تدعو المرأة على نفسها أو على أولادها .

وأنتم تحبون أن يجيب الله تعالى دعاءكم ، فلو كان يجيبكم على دعاء الشرّ لانتهت حياتكم إلى الفزع ، مثل هذه الأم التى تدعو بالمتناقضات فتقول لولدها - مثلاً : «ربنا يسقينى نارك» فتطلب السُّقيا بالنار ، رغم أن السُّقيا للرِّى ، والنار للحرارة .

إذن : قد يضيق الإنسان ذرعاً بنفسه ، أو يضيق ذرعاً بمن حوله ؛ فيدعو على نفسه بالشرّ ، وحين يدعو الإنسان فيجب عليه أن ينزّه الحق سبحانه وتعالى عن أن ينفذ ما يدعو العبد به دون أن يمر الدعاء على حكمته سبحانه وتعالى .

﴿ ولَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم [١] بِالْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ﴾ ، فكما قبلتم أن يؤجل الله تعالى لكم دعاء الشر على أنفسكم ؛ فاقبلوا منه تأجيل دعائكم بالخير ؛ لأن الخير فيما تطلبون غير الخير فيما يعلم الله ؛ فهو العليم الخبير . وقد تطلب خيراً تعلمه ولكن الله يعلم فيه شراً ؛ فمن مصلحتك ألا يجيبك . وكما تحترم عدم إجابته لك فى الشر على نفسك ، أو على من تحب ، فاحترم عدم إجابته لك فيما تظنه خيراً لك ، أو لمن تحب ؛ لأن الله لا يعجل بعجلة عباده ؛ لأنه سبحانه هو الذى خلقهم ، وهو أعلم بهم ، فهو القائل :

﴿ خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ [٢] ... (٣٧) ﴾ [الأنبياء]

وهو سبحانه القائل :

﴿ سَأُورِيكُمْ آيَاتِى فَلا تَسْتَعْجِلُونِ (٣٧) ﴾ [الأنبياء]

والحق سبحانه لو استجاب لهؤلاء الذين دعوا :

---

(١) عَجل يعجل - عَجَلاً وعَجَلةً : أسرع . قال تعالى : ﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ (٨٤) ﴾ [طه] وعجل الأمر طلبه قبل أوانه بدافع الشهوة . وعجل الأمر : سبقه ، قال تعالى : ﴿ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ (١٥٠) ﴾ [الأعراف] وأعجله : حمله على العجل . أى : استحثه أو سبقه . قال تعالى : ﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ (٨٣) ﴾ [طه] وعجل الأمر : قدمه سريعاً ، قال تعالى : ﴿ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ (١٨) ﴾ [الإسراء] واستعجل الأمر طلبه عاجلاً قال تعالى : ﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ .. (١١) ﴾ [يونس] . . القاموس القويم جـ٢ صـ٩٢٨

(٢) العَجَل والعَجَلَة : السرعة . قال الفرَّاء : خُلق الإنسان من عَجَل وعلى عَجَل ، كأنك قلت ركِّبَ على العَجَلَة ، بِنْيَتُهُ العجلة ، وخلقته العجلة ، وعلى العجلة ونحو ذلك . قال أبو إسحق : خوطب العرب بما تعقل ، والعرب تقول للذى يكثر الشىء : خُلقت منه . وقيل : إن آدم عليه السلام ، لما بلغ منه الروح الرُّكبتين هَمَّ بالنهوض قبل أن تبلغ القدمين فقال الله عز وجل : ﴿ خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ (٣٧) ﴾ [الأنبياء] فأورثنا آدم عليه السلام العجلة . وقال تعالى : ﴿ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً (١١) ﴾ [الإسراء] وقال تعالى : ﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ (١) ﴾ [النحل] .

﴿ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً ..(٣٢) ﴾
[الأنفال]

لكانت نهايتهم بجنس ما دعوا به ، وقُضى عليهم ، ثم انتهوا بعد ذلك إلى عذاب الجحيم.

ولكن الحق سبحانه شاء لهم البقاء ؛ ليؤمن من يختار الإيمان ، أما من اختار الكفر ؛ فعليه أن يتحمّل تبعة [1] الطغيان التى تتمثل فى أن الواحد منهم لا يختار الكفر فقط ، بل يتجاوز الحد ، ويطلب ممن آمن أن يرتد عن إيمانه ، وفى ذلك مجاوزة للحد ؛ ولذلك فهم يعمهون فى هذا الطغيان ، أى : تتكاثر عليهم الظروف ، ويثبت - لهم ولمن بعدهم - عجز الكفر عن مواجهة قدرة الحق.

وفى الحياة أمثلة - ولله المثل الأعلى - فهناك من يملك عدوه ، فيضربه ؛ لكنه لا يقتله ، ثم يتكرر من هذا الخصم الإساءة ، فيضربه من جديد ، ثم تتكرر الإساءة فيضربه ، وهو لا يقتله أبداً ليداوم على إذلاله ، والقوىّ لا يقتل خصمه ، بل يؤلمه ؛ فلا يرفع الخصم رأسه.

والحق سبحانه يقول:

﴿ فَنَذَرُ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِى طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾

أى : أن الحق سبحانه يترك أهل الباطل ؛ لتتجمع عليهم سيئاتهم ، ويذوقون ويل [2] خصومة الإسلام فلا يرفعون رءوسهم ؛ لأن أهل الإسلام يردّون لهم الإساءة مضاعفة ، ولسوف ييأس أهل الباطل من أنهم

---

(١) تَبِعَة الأمر : عاقبته ، وما يترتب عليه من أثر . [المعجم الوسيط : مادة (تبع)].

(٢) ويل : كلمة عذاب تعنى حلول الشر . والويل : واد فى جهنم ، وقيل : هو باب من أبوابها . قال تعالى : ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ (١) ﴾ [المطففين] وقال : ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (١٥) ﴾ [المرسلات] .

سينتصرون على الحق بأى شكل وبأى لون. وهم مهما تحايلوا فى أساليب النكاية [١] فى الإسلام ، تجد الحق سبحانه وتعالى ينصر المسلمين.

والمثل أمامنا من سيرته حين أمره الحق سبحانه بأن يهاجر ، وكان الكفار يحاصرون بيته بشباب من القبائل ، فخرج ﷺ ولم يشعروا ، وقال ﷺ : «شاهت [٢] الوجوه» .

وشاء سبحانه ذلك ؛ ليعلموا أنهم لن يستطيعوا الانتصار على محمد ﷺ ، لا بالمواجهة ، ولا بتبييت المكر.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ



يصور الحق سبحانه حال البشر ؛ الذين لم يرتبطوا دائماً بالإله ، وبمنهج الإله ؛ هؤلاء الذين يتجهون إلى الله فى لحظات الأزمات ، ثم ينسون الإيمان وتكاليفه من بعد ذلك. وحياتنا مليئة بهذا الصنف من البشر.

وفى قريتنا - على سبيل المثال - كان الذى يشرف على رعاية صحة

---

(١) نكَى العَدُوَّ نكاية : أوقع به وهزمه وغلبه. والمراد بالنكاية هنا: أساليب أعداء الله فى محاربة الإسلام والتآمر عليه وعلى المسلمين، وهى أساليب مآلها الفشل بإذن الله . قال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ⑧ ﴾ [الصف] . [اللسان، والمعجم الوسيط : مادة (نكى) . . بتصرف].

(٢) شاهت الوجوه تَشُوهُ شَوْهاً : قَبُحَتْ . وفى حديث النبى ﷺ : أنه رمى المشركين يوم حنين بكفٍّ من حصى وقال: شاهت الوجوه. وفيه: قال لابن صيّاد: شاه الوجه. ويُقال للخطبة التى لا يُصلَّى فيها على النبى ﷺ: شوهاء أى: قبيحة. [اللسان : مادة (شوه)].

الناس حلاّق الصحة ، إلى أن تخرَّج أحد أبناء القرية فى كلية الطب ، فأخذ حلاق الصحة يشيع عنه ما لا يليق. وفى أحد الأيام لاحظ الفلاحون خروج حلاق الصحة مبكراً وهو يحمل لفَافة كبيرة ، فأرادوا أن يعرفوا ما بها ، واكتشفوا أن ابن حلاق الصحة مَريض وهو يريد أن يذهب به إلى الطبيب ، هو - إذن - لا يخدع نفسه ، رغم محاولته خداع أهل القرية بالشائعات الكاذبة عن الطبيب.

وكذلك الإنسان مع منهج الله ، قد يخدع الآخرين فى لحظة اليسر ، لكنه لا ينسى الله لحظة العسر. وساعة يأتيه الضر ، وحين تعزُّ الأسباب عليه فهو لا يجد إلا كلمة «يارب». وأنت تجدها من أعتى الفُجَّار [1] ، ومن أقسى العُتاة ، تجد الواحد من هؤلاء وهو يدعو الله ساعة الضرّ.

وهذا ما يقوله الحق سبحانه هنا : ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ﴾.

والمثل من حياة هؤلاء الكافرين الذين دعوا على أنفسهم ، ولو كانوا يرغبون فى إنهاء الحياة ، فلماذا يدعون الله وهم قد كفروا به ؟ إنه كذب مفضوح ، والإنسان حين يضيق بنفسه قد يدعو على نفسه بالضُّر ؛ مثلما قال المتنبى [2] :

كَفَى بِكَ داءً أن تَرَى الموتَ شَافياً وحَسْب المنايا [3] أن يكُنَّ أَمَانِيَا

أى : يكفى أن يصل الإنسان إلى الدرجة التى يتمنى فيها الموت.

---

(١) الفجّار : جمع فاجر وهو المكثر من المعاصى والسيئات. والفجور أصله الميل عن الحق. قال ابن شميل : الفجور : الركوب إلى ما لا يحلّ. قال تعالى : ﴿بَلْ يُرِيدُ الإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ۝٥﴾ [القيامة]. وقال : ﴿وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ۝١٤﴾ [الانفطار]. [اللسان : مادة (فجر).. بتصرف].

(٢) المتنبى شاعر من شعراء الدولة العباسية له باعه فى الشعر

(٣) المنايا : جمع مَنيَّة وهى الموت. والمَنَى : القَدَر ، ومَنَى الله لك شيئاً أى : قدَّره لك. ومَنَى الله عليك خيراً يَمْنِى مَنْياً ، وبه سُمِّيت المَنيَّة وهى الموت ؛ لأنها مقدَّرة بوقت مخصوص. [اللسان : مادة (منى)].

ونلحظ أن الحق سبحانه قد جاء بموقف الإنسان من الضر فى أكثر من موضع ، فنجد آية تفرد الإنسان بمعنى ؛ وآية ثانية تفرده بمعنى آخر ، وآية ثالثة تصور وضع الإنسان بشكل آخر.

يقول سبحانه :

﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا [1] إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ [2] نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ ... (٨) ﴾ [الزمر]

ويقول الحق فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا ﴾

ويقول سبحانه فى موضع آخر :

﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ [3] (٥٣) ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٥٤) ﴾ [النحل]

إذن : فالحق سبحانه يأتى بها مفردةً مرّة ، ومرة يأتى بها جمعاً. ومرة يأتى بها مفردة على ألوان شتّى ، ومرة يأتى بها جمعاً بألوان شتّى ، ومرة يذكرها فى البر ، ومرة يذكرها فى البحر :

﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ ... (٦٧) ﴾ [الإسراء]

إذن : فالآيات تستوعب حالات الإنسان المختلفة ؛ إذا ما أصابه ضرّ ،

---

(١) منيباً : راجعاً إلى الله بالتوبة . أناب إلى الله إنابة فهو منيب : أقبل إليه تائباً ورجع إلى الطاعة. قال تعالى : ﴿ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ (٥٤) ﴾ [الزمر] ، وقال : ﴿ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلاَّ مَن يُنِيبُ (١٣) ﴾ [غافر] .

(٢) خَوَّلَهُ الله نعمة : ملّكه إياها . وهى مأخوذة من التخويل وهو التمليك. والمراد: إذا كشف الله عنه الضر، ووهبه النعم نسى فضل الله عليه ووقع فى المعاصى. [لسان العرب - بتصرف] .

(٣) تجأرون : ترفعون أصواتكم بالتضرع والدعاء إلى الله . [اللسان مادة : ج أ ر] .

ولم يجد مَفْزعاً له لا من ذاته ولا من البيئة المحيطة به ، فلا يجد من يلجأ إليه إلا ربه. ومن الأسف أن هذا الإنسان يكون كافراً بالله.

والآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها تعطينا صوراً متعددة ؛ فالحق سبحانه يقول : ﴿ دَعَانَا لِجَنْبِهِ ﴾ أى : وهو مضطجع ، ﴿ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا ﴾ . وهكذا تتناول الآية الإنسان فى تصرفاته فى الكون . والآية متمشية مع أطوار تكوين الإنسان ؛ فالطفل الصغير لا يستطيع أن يتقلّب ، بل يقلّبه أهله ؛ لينام على جنبه، وحين يكبر قليلاً فهو يتقلب بمفرده ثم تأتى حركة القوة الثانية ؛ فيقعد الطفل ، ثم يقف دون أن يمشى ، ثم يمشى من بعد ذلك.

والآية هنا تعطينا التصوير الدقيق لثلاث حالات : ﴿دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا﴾، ولم تَأت حركة المشى؛ لأن المتحرك للمشى لا يقعده الضر، لكن من يمر بالمراحل الأخرى قائماً أو قاعداً أو راقداً على الجنب، فقد يناله الضر.

وتلك هى مراحل النقض لمظاهر الحياة ، فالإنسان يعيش الطفولة ، ثم فُتوَّة الشباب ، ثم يأتيه الضعف والشيب ، فلا يستطيع أن يمشى بقوة الشاب ، وإن كان يستطيع الوقوف ، ثم تدخل عليه الشيخوخة ؛ فيقعد ، ولا يستطيع أن يقف ، ثم تتقدم به الشيخوخة ؛ فلا يمشى ، ولا يقف ، ولا يقعد ، ويظل راقداً على جنبه ، وقد يقلّبه أهله [(١)].

إذن : نقض كل شىء إنما يأتى على عكس بنائه ؛ فكما بنيت مراحل الإنسان هكذا جنباً ، فقعوداً فقياماً ، فسعياً وحركة ، فهى تنتهى بالعكس ؛ لأن النقض دائماً على عكس البناء.

---

(١) وهو القائل سبحانه : ﴿ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ (٥٤) ﴾ [الروم] .

ومن هذا خرجنا بالاستدلال على صدق الله فى إخباره لخلقه بكيفية الخلق ؛ لأننا لم نشاهد عملية الخلق ، مصداقاً لقوله سبحانه:

﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَـٰوَاتِ والأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ (١) عَضُداً (٢) ﴿٥١﴾ ﴾ [الكهف]

ولأن الحق لم يُشْهِدْ أحداً على كيفية خَلْق السماء والأرض وخلق الإنسان ، فنحن لا نأخذ معلومات عن كيفية الخلق بعيداً عن القرآن ؛ لذلك لا نصدق الافتراضات القائلة بأن الأرض كانت قطعة من الشمس وانفصلت عنها ثم انخفضت درجة حرارتها ؛ فكل هذه افتراضات لم تثبت صحتها ، والحق سبحانه قد قال:

﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَـٰوَاتِ والأَرْضِ وَلاَ خَلْقَ أَنفُسِهِمْ... ﴿٥١﴾ ﴾ [الكهف]

وهذا القول يدل على أن العقل البشرى لا يمكن أن يصل إلى معرفة كيفية خلق السموات والأرض ، وخلق الإنسان ، وهو معزول عن منهج السماء. فإن حُدِّثْتُمْ كيف خُلقتم بصورة تختلف عما جاء فى القرآن فقولوا : كذبتم ، وإن حُدِّثتم كيف خُلقت السموات والأرض بغير ما جاء فى كتاب الله ؛ فقولوا : كذبتم ؛ لأن الله هو الذى خلق السموات والأرض والإنسان وحده ، ولا أحد معه ، وما شهد أحد من هؤلاء مشهداً ليخبركم به. ويقول الحق سبحانه:

---

(١) ضَلَّ يَضِلّ فهو ضالٌّ ، وأضلَّ يُضلّ فهو مُضلّ ، والمُضلّ يكون ضالاً ولا يكتفى بضلال نفسه بل يُضلُّ غيره أيضاً . وأضلَّه : جعله ضالاً ، والضَّلال : ضد الهدى والرشاد . قال تعالى : ﴿ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَـٰؤُلاَءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الفرقان] . وقال : ﴿ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِىُّ ﴿٨٥﴾ ﴾ [طه] وقال : ﴿ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [آل عمران] .

(٢) والعَضُد من الإنسان وغيره : الساعد وهو ما بين المرفق إلى الكَتِف . والمراد بالعَضُد هنا : العون والمساعدة . قال تعالى : ﴿ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَاناً .. ﴿٣٥﴾ ﴾ [القصص] .

﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾﴾ [الكهف]

والمضلون : هم الذين يقولون لكم افتراضات غير صحيحة عن تطور القرد حتى صار إنساناً ، وأن الأرض كانت قطعة من الشمس وانفصلت عنها ؛ كل هذه افتراضات قالها من سمّاهم الحقُّ سبحانه : ﴿الْمُضِلِّينَ﴾ .
ولو لم يقل الله تعالى هذه الآية ، ثم جاء قوم ليقولوا : الإنسان كان فى الأصل قرداً ، لقلنا : إن القرآن لم يتعرض لذلك ، وكان من الممكن أن نصدقهم، لكن الله سبحانه شاء لنا أن تكون لدينا المناعة ضد هذا الإضلال .

وعملية الخلق غيب عنا ، أخبرنا عنها من خلقنا سبحانه ، فلم يكن معه شاهدٌ رأى هذا المشهد ؛ ليقول لنا . والخلق الذى به الحياة ينقضه الموتُ ، ولكن الموت مشهد نشهده ، وأى نقض لشيء - كما عرفنا - إنما يأتى على عكس بنائه ، فإن بنينا عمارة من عشرين طابقاً ، وأردنا أن نهدمها لسبب أو لآخر ؛ فنحن نهدم الطابق العشرين أولاً ، ثم نوالى الهدم بعد ذلك ، فما بُنى أولاً يهدم أخيراً ؛ لأن نَقْض كل شيء يأتى على عكس بنائه .

وبما أن الموت نَقْضٌ للحياة ؛ فالروح إذا ما خرجت من الجسم ، وتُرك الجثمان بلا دفن ، فالجثمان يتصلَّب ، ثم يصير جيفَةً [(١)] ، ثم يتبخر منه الماء ، ويتحلل الجسد إلى العناصر الأولى فى التراب ، هذه مراحل الموت .

وقد أخبرنا الحق عن كيفية الخلق ، فبيَّن أنه سبحانه خلق الإنسان من التراب والماء فصار طيناً ، ثم استوى الطين ، فصوَّره الحق صورة الإنسان ونفخ فيه الروح [(٢)] ، وآخر مراحله فى الإيجاد هى الروح ؛ لذلك فخروج الروح هو أول مرحلة فى الموت .

---

(١) الجيفة : هى جثة الميت إذا أنتنت وكان لها رائحة . والجمع جيف وأجياف . (اللسان . مادة جيف) .

(٢) وفى هذا يقول سبحانه : ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾﴾ [السجدة] .

والله سبحانه وتعالى فى هذه الآية جاء بوضع الإنسان على الجنب وقائماً وقاعداً ، ولم يأت بالمشى ؛ لأن الماشى عنده قدرة فلا ضرّ فى ذاته ، وإن أصابه ضرّ فمن غيره ، والضرّ مقابل النفع ، والنافع هو مَنْ يُبقى الشيء على صلاحه الممتع المريح ، فى الذات أو فى الخارج .

فساعة تكون ذاتك مستقيمة وملكاتها وأعضاؤها كلها سليمة ، فليس عندك ضر ، لكن إذا حدث خلل فى أى عضو من الأعضاء ؛ فالمتاعب تبدأ ، ولذلك يقال عن السلامة العامة : هى ألا تشعر بأن لك أعضاء ؛ لأنك حين تشعر أن لك عَيْناً - مثلاً - فاعرف أنها تؤلمك ، وإذا شعرت بأذنك فاعرف أنها تؤلمك . وأنت تطحن الطعام بضروسك وتأكل ولا تدرى بها . ويوم أن تدرى بها فهذا يعنى أن ألماً قد بدأ .

وهكذا لا يشعر الإنسان بفقد السلامة إلا إذا عرف وانتبه إلى أن له عضواً من أعضائه ، فيقول : «آه يا عينى» ، و«آه يا أذنى» .

ونقول : إن وجع العين مؤلم ألماً مخصوصاً ، وكذلك نقول : على أى عضو من الأعضاء ، أما من لا يشكو بأعضائه فهو لا يشعر بها ؛ لأنها تؤدى أعمالها على الوجه المناسب . والسلامة فيمن حولك تتمثل فى أن يحققوا لك المتعة والصفاء بدون كدر . وبذلك تظهر منفعتهم لك .[1]

وكل إنسان له كبرياء ذاتى ، يبيّنها قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ (٧) ﴾ [العلق]

ولا يذل الإنسان إلا حين يعانى من آفة[2] ما ، ولا يأتى طغيانه إلا عند استكمال النعمة فى الخارج والنعمة فى الداخل ، وإن بدأت النعمة فى

(١) عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده» أخرجه مسلم فى صحيحه (٤١) وأخرجه البخارى فى صحيحه (١٠) من حديث عبد الله ابن عمرو بن العاص .

(٢) آفة : عاهة ، أو مرض ، أو فساد ، أو نقص ، أو عيب . يقال : آفة الظَّرف الصَّلَف ، وآفة العلم النسيان .

الانقباض عن الإنسان ؛ فكبرياؤه تتطاير . ومن كان يستعرض قوته على الناس ، قد يرجو القيام من الرقود ؛ ليخطو بضع خطوات فلا يستطيع .

والإنسان لا يستغنى إلا بما هو ذاتى فيه ؛ لا بما هو موهوب له ؛ لذلك فعليه ألا يغتر ؛ لأن الواهب الأعلى قد يقبض هبتَه ، فقد يأخذ منك العافية ، وكثيراً ما رأينا أصحّاء قد مرضوا ، ورأينا أغنياء قد افتقروا ، وأصحاب جاه [(١)] قد خرجوا من جاههم .

إذن : فلا داعى للغرور ؛ لأن الله قد وهبك كل شيء ، وليس لك شيء ذاتىٌّ فيك أبداً ؛ لذلك يجب أن ينعدم الغرور ، فما دام كل ما فيك موهوبًا من الواهب الأعلى سبحانه ، فالواهب قد يسلب ما وهب ، وما إن تُسلب من الإنسان نعمة فهو ينتبه . فلا داعى - إذن - لأن يغتر أحد ؛ حتى لا يسلم نفسه رخيصة للضياع .

والمثال : قد تكون عاديْتَ طبيباً ، وهو الوحيد فى المكان الذى تقطنه ، وقد يحاول البعض الإصلاح بينك وبين هذا الطبيب ، فتتأبَّى أنت ، ثم يأتى لك مرض ؛ فتلجأ إليه ؛ لأن الله قد وهبه القدر السليم من التشخيص بالعلم ، فلا يجب - إذن - أن تغتر أو تتعالى على أحد .

لكن الإنسان هو الإنسان ؛ لذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ .. (١٢) ﴾ [يونس]

والكافر ما إن يمسّه الضرّ ؛ حتى يقع فى بئر الهوان . أما المؤمن فهو مع ربه دائماً ، وإذا مسّه الضرّ فهو يدعو الله تعالى دائماً ولا ينساه ؛ لذلك يتلطف به سبحانه ، عكس الكافر الذى يدعو الله ساعة الضرّ فقط . وأين

(١) الجاه : المنزلة والقدر . قال تعالى : ﴿ وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا (٦٩) ﴾ [الأحزاب] .

كان ذلك الكافر ساعة أن دعاه الله سبحانه بالرسل إلى الإيمان ؟

ونسيان الإنسان أمر وارد فى تكوينه الفطرى الأول [1] ؛ لأن الإنسان حين يعيش فى محيط ما . فهو يحب النفع من خارجه ، وإذا امتنع عنه هذا النفع الخارجى ، فهو يأخذ النفع من ذاته ؛ من تحرُّك أبعاضه وخدمتها لبعضها البعض . ثم لا يجد له مفزعاً إلا أن يؤمن بمن خلقه أولاً . وانظر إلى التعبير القرآنى :

﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ .. (٦٧) ﴾ [الإسراء]

إذن : فمن يَعْبُد غيرَ الله - سبحانه وتعالى - يضل عنه معبوده ، ولا يعرف كيف ينقذ من يعبده ؛ لذلك يعود المشرك إلى الله ، ولا يجد سواه سبحانه ، فهو الذى ينقذ الإنسان لحظة الخطر ؛ لأنه الرب الخالق هو أرحم بصنعته ، وهذه الرحمة تنقذ الإنسان حتى لو كان كافراً ، وهذا كلام منطقى ؛ لأننا شهدنا بوحدانية الله تعالى فى عالم الذر [2] ؛ حينما

---

(١) ومن هذا قول الله عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (١١٥) ﴾ [طه] ، فجنس الإنسان فى تكوينه النسيان ، ولذلك تجاوز الشرع عن النسيان والخطأ وما استكره عليه الإنسان ، فعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : «إن الله عز وجل تجاوز لأمتى عن الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه» أخرجه الحاكم فى مستدركه (٢/ ١٩٨) . قال الحاكم : صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، وأقره الذهبى . وحسنه ابن رجب الحنبلى فى جامع العلوم والحكم (ص ٤٤٢) طبعة مؤسسة الرسالة ١٩٩١م .

أما النسيان بمعنى التناسى والتغافل عن أوامر الله والالتزام بمنهج الله سبحانه فلا يتجاوز الله عنه بل يؤاخذ الإنسان به ، يقول عز وجل : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ (٤٤) ﴾ [الأنعام] .

(٢) عالم الذر : هو يوم نثر الله ذرية آدم من ظهره ونشرها . قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣) ﴾ [الأعراف]

أخذ الله سبحانه علينا العهد الأول ،[1] وقال لنا:

﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ .. (١٧٢)﴾ [الأعراف]

قلنا:

﴿بَلَىٰ ...(١٧٢)﴾ [الأعراف]

وهذا إيمان الفطرة قبل أن توجد الغفلة أو التقليد ؛ لذلك حين تتفرق الآلهة الباطلة من حول الكافر فهو يرجع إلى نفسه ويدعو الله ، بل ويوسِّط من يسأله أن يدعو له الله سبحانه.

وقد يدعو الإنسان من يواسيه لحظة المرض فلا يجد ولداً من أبنائه ، أو قريبا من أقربائه ، ولكنه فور أن يدعو الله تعالى ؛ تلمسه رحمته سبحانه ، وقد تجد إنساناً حين يستجيب الحق سبحانه لدعائه قد تركبه حماقة الغرور من جديد ، ويقول ما جاء به الحق على لسان قارون:

﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي[2] ... (٧٨)﴾ [القصص]

ويقول: كنت محتاطاً وقد رتبت أموري . ثم يأخذه الحق سبحانه وتعالى أخْذَ عزيز مقتدر.

فإذا مسكم الضر ؛ فلن تجدوا من البيئات الخارجة عنكم ، ولا من ذوات نفوسكم ، ما يغنيكم عن خالقكم ، وفي لحظة الخطر لا تستطيعون

---

(١) العهد الأول هو إشهاد ذرية بني آدم وأخذ الميثاق عليهم بأن الله ربُّ الخلائق كلها ، وهنا كان الإيمان بالوحدانية فطرة يسكن بها القلب ، ويطمئن معها العقل وتستريح النفس ، أما العهد الثاني فهو التكليف على يد الرسل في افعل ولا تفعل ، وهو امتداد للعهد الأول ، ويجمع ذلك كله قوله : ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ .. (٣٥)﴾ [البقرة] ومن هنا كان الأمر والنهي وعليهما مدار الحساب.

(٢) أي: أن قارون أنكر فضل الله عليه ، فيما أنعم عليه به من الأموال والكنوز التي قال الله عنها: ﴿وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦)﴾ [القصص] .

الكذب على أنفسكم ؛ فلا تسألون حينئذ أحداً إلا الله سبحانه ، وتتذكرون فى تلك اللحظة عهد الذَّر الأول ، وتعودون إليه سبحانه.

وهنا يقول الحق سبحانه: ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا﴾

وقوله الحق: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا[1] عَنْهُ ضُرَّهُ﴾ يصوّر الضرّ وكأنه يغطى الإنسان ويلفّه ، فلا منقذ له أبداً ؛ لأن الكشف هو رفع لغطاء يغطى كل الإنسان . وهكذا يعطينا الله تعالى صورة لاستيعاب الضرّ للجسم كله ؛ حتى وإن كان بأداة من أدوات الإدراك مثل قوله سبحانه:

﴿ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢) ﴾ [النحل]

فكأن الجوع والخوف قد لفّ القرية كلها ، فلم تعُد البطون وحدها هى الجائعة ، بل كل ما فى الأجسام جائع وخائف.

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ﴾

وكلمة ﴿مَرَّ﴾ تفيد أن هنا وقفة ، فحين يقال: إن فلاناً مرّ علىّ ؛ مقابلها: وقف عندى.

ونفهم من قوله الحق : إن هذا الذى مسهّ الضرّ كان له وقفة عند الله سبحانه ؛ حين لفّه الضرّ ولم يجد معيناً له غير الله تعالى، أما قبل ذلك فقد كان يأخذ الخير من الله ولا يتذكر الإيمان به سبحانه ، وبعد أن يذهب عنه

---

(١) كشف الشيء يكشفه كشفاً: أظهره أو رفع عنه ما يستره فى المحسوسات والمعانى . قال تعالى : ﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ .. (٥٤)﴾ [النحل] كأن الضر غطاء ثقيل فوق الرؤوس كشفه الله وأزاله ، ومن الحسى قوله تعالى : ﴿وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا .. (٤٤)﴾ [النمل] - أما قوله تعالى :﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ .. (٤٢)﴾ [القلم] فهو كناية عن شدة الخوف والرغبة فى الفرار ، وقوله: ﴿فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ .. (٥٦)﴾ [الإسراء] أى : إزالته وهو كشف معنوى . . القاموس القويم : ص ١٦٢ ، ١٦٣ .

الضرّ وينسى الإيمان ؛ ﴿ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ ﴾ وكأنه قد نسى تذلّله إلى الله ، فهو يمر من مرحلة الذلة والخضوع والدعاء إلى الله إلى مرحلة الاستكبار ، فلم يقف عند من أنقذه من ضره ، وهذه هى الصفاقة[(١)] .

ويُنهى الحق سبحانه وتعالى الآية بقوله : ﴿ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ وهنا تأتى قضية ثانية ؛ فالحادثة حادثة خاصة وينقلها الحق سبحانه إلى عمومية تأتى فى الكون كله ؛ فالمسرفون قديماً حصل لهم هذا ، والذى زَيَّن لهم المرور إما أن يكون الشيطان ، وإما أن يكون الحمل من الحق على صفات موجودة فيه ، فالحق سبحانه هو القائل :

﴿ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا[(٢)] ... ⑩ ﴾ [البقرة]

وقوله تعالى هنا :

﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ .. ⑫ ﴾ [يونس]

وهذا ما حدث للمسرفين سابقاً ، وما سوف يحدث من المسرفين لاحقاً . والإنسان له عمل مكوَّن من القول والفعل ، والعمل هو كل حادثة متفرعة عن جوارح الإنسان ، وإن كان القول مقابله الفعل ؛ فالاثنان عمل .

وبعد أن يعرض الحق سبحانه هذه القضية فى عمومها ، وفى

---

(١) أصل مادة (صفق) التصفيق باليد ، والضرب الذى يُسْمع له صوت ، ومنه صَفْقُ الباب أى : فتح الباب ثم إغلاقه مع حدوث صوت . ومنه الصفقة للعهد والبيع والشراء ، ومن حديث رسول الله ﷺ : «إن من أكبر الكبائر أن تقاتل أهل صفقتك» . وهو أن يعطى الرجل عهدَه وميثاقه ثم يقاتله ؛ لأن المتعاهدين يضع أحدهما يده فى يد الآخر كما يفعل المتبايعان . (انظر : اللسان - مادة صفق) فالمادة من الممكن أن نخرج منها بمقصود فضيلة الشيخ من هذه الكلمة .

(٢) المراد بالمرض هنا : النفاق . وهو خلق ذميم يصيب صاحبه بأشد الأضرار ، ويضر المجتمع كله . ووصف النفاق بالمرض إذ إن المرض هو السقم وهو ضد الصحة . وتمريض الأمور : توهينها . وريح مريضة : ضعيفة الهبوب . وكل ما ضَعُفَ فقد مرض . والرأى المريض ، أى : فيه انحراف عن الصواب . قال تعالى : ﴿ فَتَرَى الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ .. ⑤② ﴾ [المائدة] [اللسان : مادة (مرض) .. بتصرف] .

خصوصها، وفى انسحابها على الكون كله ، يبيّن لنا ضرورة الانتباه للكافرين برسالة محمد ﷺ ، ويحذر الكافرين : أأسلمنا رسولاً إلى خصومه أم نصرنا كل رسول جاء على خصومه ؟ إن السوابق تدل على أن كُـلاً أخذناه بذنبه ، فاحذروا أن تكونوا كذلك .

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ[1] ﴿١٣﴾ ﴾

فإياكم أن تسوّل[2] لكم أنفسكم أن تظلوا على عداوتكم لمحمد ﷺ ؛ لأنكم لن تنالوا منه شيئاً ، وسيتم الله نوره ، فلستم بدعاً عن سابق الخلق.

و﴿ الْقُرُونَ ﴾[3] : جمع قرن ، والقرن من المقارنة ، وكل جماعة اقترنوا

---

(١) المراد بالمجرمين : الكافرون لأنهم كذبوا بآيات الله وظلموا واستكبروا. وجَرَمَ الإنسان: إذا عظم جُرْمه، أى: أذنب. قال تعالى: ﴿ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ .. ﴿٨٦﴾ ﴾ [مريم] [اللسان : مادة (جرم)] .

(٢) تسوّل لهم أنفسهم شيئاً : تُزيِّن لهم الخطأ . والتسويل: تحسين الباطل وتزيينه وتحبيبه إلى الإنسان ليفعله أو يقوله. قال تعالى: ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ .. ﴿١٨﴾ ﴾ [يوسف] ، وقال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ﴾ [محمد] . [اللسان: مادة (سول)] .

(٣) القَرْن: الأمة تأتى بعد الأمة . والقرن: أهل كل زمان، مأخوذ من الاقتران، فكأنه المقدار الذى يقترن فيه أهل ذلك الزمان فى أعمارهم وأحوالهم. يقال: القرن من الزمان مائة سنة ، وقيل غير ذلك، والجمع: القرون. قال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٦﴾ ﴾ [الأنعام] . وقال ﷺ : «خيركم قرنى (يعنى : أصحابى) ثم الذين يلونهم» ، يعنى: الذين أخذوا عن التابعين.

فى شىء نسميهم «قرنا» . وقد يكون القرن فى الزمنية ، ولذلك حسبوا القرن مائة سنة ، والبشر الذين يجتمعون فى مائة سنة يسمونهم قرناً .

أو القرن جماعة يقترنون فى شىء يجمعهم ، مهما طال بهم الأمد [1] .

وقوله الحق: ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا ﴾ فهل لو أمهلهم الله - تعالى - كانوا سيؤمنون ؟ لا ، فلله علمٌ أزلىٌّ ، يعلم الأشياء على وفق ما تكون عليه اضطراراً أو اختياراً .

والمثل من حياتنا وأعرافنا - ولله المثل الأعلى - نجد الإنسان حين يريد بناء بيت ، فالأمر يختلف حسب مقدرته ؛ الفقير مثلاً يطلب بناء حجرتين ؛ فيخطط رجل البناء لبناء حجرتين ، وإذا كان الإنسان متوسط الحال ؛ فهو يتجه إلى مهندس يصمِّم له بناء على قدر سعته ، وإن كان الإنسان ثرياً ؛ فهو يستدعى المهندس الذى يبنى له بيتاً حسب إمكانات ورغبات هذا الثرى ، ويصمم المهندس نموذجاً للبناء قبل أن يبدأ فيه ، وتظهر فيه كل التفاصيل ، حتى ألوان النوافذ والأبواب والحجرات .

والعالم قبل أن يخلقه الله سبحانه وتعالى كانت هيئته مقدرة أزلاً عنده سبحانه ، وهذا هو مطلق القدرة من الحق تعالى ، ويأتى واقع الكون على وفق ما قدره الخالق سبحانه أزلاً ؛ حتى ولو كان هناك اختيار للمخلوق الكافر ، فالله سبحانه يعلمه .

وقد صحَّ أن القلم جفَّ حتى فى الأمور الاختيارية ، وسبحانه يعلم ما تجرى به الأمور القهرية وما يقضيه على خلقه بدون اختيار منهم ، أما فى

---

(١) الأمد: الغاية. والأمد: منتهى الأجل. قال تعالى: ﴿ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ .. ﴿١٦﴾ ﴾ [الحديد] . [اللسان: مادة (أمد)].

الأمور الاختيارية فقد أعطى لخلقه الاختيار . وقد علم ما سوف يفعلونه غيباً [١] ، فصمم المسألة على وفق ما علم.

وإياك أن تظن أنه أراد بذلك أن يُلزمك ، لا ، فقد علم أنك ستختار . وهكذا علم الحق سبحانه من سيظلم نفسه - أزلاً - وسبق فى علمه أن أهل القرون السابقة الذين أهلكهم لا يؤمنون.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾ والظلم معناه نقل الحق من صاحبه إلى غيره . والحقوق الموهوبة من الخالق للبشر قد يظلمون فيها بعضهم البعض ، لكن أعلى درجات الظلم حين يظلم أحدٌ حقَّ الإله الأعلى فى أن يكون إلهاً واحداً ، وأن ينقل ذلك لغيره . تلك هى قمة الظلم ؛ لذلك قال سبحانه:

﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان]

وهم قد ظلموا فى قضية العقيدة الأولى ، أو ظلموا فى الحقوق بينهم وبين أنفسهم مصداقاً لقوله تعالى:

﴿وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [يونس]

والواحد منهم ظالم ومظلوم فى آن واحد ؛ لأن الإنسان ملكاته متعددة ، ومن هذه الملكات ملكة الإيمان الفطرى ، وملكة النفع العاجل الذاتى . فإذا تغلبت ملكة النفع العاجل ؛ تخرج النفس اللوَّامة [٢] ؛ لتعيد الأمر إلى صوابه ، أما إن كانت نفس تأمر بالسوء فهى تطلب تحقيق

---

(١) الغيب : ما غاب عن العيون وإن كان محصّلاً فى القلوب . والغيب : ما غاب عنك ولا يغيب عن علاّم الغيوب . قال تعالى : ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ .. ﴿٣﴾﴾ [البقرة] . وقال : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ .. ﴿١٨﴾﴾ [الحجرات] . [لسان العرب : مادة (غيب) . . بتصرف] .

(٢) اللوَّامة : صيغة مبالغة من اللائمة . أى : كثيرة اللوم . والنفس اللوامة : هى التى تكثر من لوم صاحبها على أخطائه . قال تعالى : ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿١﴾ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾﴾ [القيامة] .

الشهوات فقط ؛ لأنها نفس أمَّارة [(١)] بالسوء . أما إن اطمأنت النفس إلى حكم الله تعالى ورضيت به ونفذت ما قاله الله سبحانه، فهى نفس مطمئنة [(٢)] . ومن يظلم نفسه فهو الذى يتبع شهوات [(٣)] نفسه ، وهو قد أعطاها متعة عاجلة ؛ ليستقبل بعد ذلك شقاءً آجلاً [(٤)] ؛ فيكون قد ظلم نفسه.

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ﴾

والحق سبحانه لم يتركهم ، بل أرسل الرسل مُؤيَّدين بالمعجزات ؛ ليبصّروهم . لكن الله تعالى يعلم أنهم لا يؤمنون ؛ لذلك قال: ﴿وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ أى: أنه سبحانه لو تركهم أحياء فلن يؤمنوا ، فهو الذى خلقهم وقد علم أزلاً أنهم لن يختاروا الإيمان.

والحق سبحانه هو العالم الأعلى الذى يعلم الأشياء على وفق ما تكون عليه ، لا على وفق ما يقهر خلقه عليه ، فلو كان علمه - سبحانه - على وفق ما يَقْهر الخلق عليه لكانت المسألة منتهية.

والمثال - ولله المثل الأعلى - أنت فى البيت وتريد أن تقوم وزوجتك برحلة ، فإن كان الأولاد صغاراً ؛ فأنت تغلق عليهم الباب بعد أن تقول لهم: إن طعامكم فى الثلاجة ؛ لحماً وسمكاً وجبناً وزيتوناً . وبعد أن

(١) أمَّارة : صيغة مبالغة من الآمرة. أى: كثيرة الأمر. والنفس الأمارة هى النفس المسيطرة والمتسلِّطة على صاحبها، وقد ورد فى القرآن ذكرها فى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ .. ﴿٥٣﴾ ﴾ [يوسف] .

(٢) النفس المطمئنة هى التى اطمأنت بالإيمان ورضيت بربها وأطاعته؛ فهى ثابتة وساكنة بالجزاء الحسن من الله سبحانه. قال تعالى: ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ ﴾ [الفجر] [اللسان : مادة (طمن) . . بتصرف] . ذكر العارفون : إن النفوس سبعة : النفس الأمارة ، واللوامة ، والملهمة ، والمطمئنة ، والراضية ، والمرضية ، والكاملة .

(٣) اشتهى الشيء شهوةً : أحبَّه ورغب فيه. والجمع : شهوات. قال تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ .. ﴿١٤﴾ ﴾ [آل عمران] .

(٤) الآجل: نقيض العاجل. والآجلة: الآخرة، والعاجلة: الدنيا. وقال تعالى: ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ .. ﴿٥٣﴾ ﴾ [العنكبوت] . والأجل المسمى: يوم القيامة. [اللسان : مادة (أجل) . . بتصرف] .

تخرج أنت وزوجتك تقول لها: إن أبناءنا لن يأكلوا إلا جبناً وزيتوناً ؛ لأنهم سوف يستسهلون هذا الطعام . ولو لم يكن فى الثلاجة إلا الجبن ، لما قلت ذلك ؛ لأن هذا هو لون الطعام القهرى.

لكن ما دام فى الأمر اختيار ؛ فأنت تستشف من سابق سلوك الأبناء . وعندما ترجع تجد أبناءك قد تصرفوا وفق ما حكمت به ، رغم أنك تركت لهم الاختيار . ومثال هذا فى القرآن قوله الحق:

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٣) ﴾ . [المسد]

وفى هذا حكم من الله تعالى بأن أبا لهب [(١)] سيموت كافراً ، وهذا حكم مُعْلَن ويُردَّد فى الصلاة ، ونحفظه ، وأبو لهب هو عم رسول الله ﷺ ، وكان كافراً مثل غيره من الكفار . وقد آمن من الكفار الكثير . ألم يسلم عمر ؟ ألم يسلم عكرمة بن أبى جهل ؟ ألم يسلم عمرو بن العاص ؟ ألم يسلم خالد بن الوليد ؟ فما المانع أن يسلم أبو لهب هو الآخر ؟ لا ، لم يسلم وعلم رسول الله ﷺ من ربه أن ذلك لن يكون منه . وما كان من الممكن أن يمكر أبو لهب ويعلن إسلامه تكذيباً للقرآن ؛ لأن الحق علم أزلاً سلوك أبى لهب.

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ .

---

(١) أبو لهب هو أحد أعمام رسول الله ﷺ ، واسمه عبد العزى بن عبد المطلب ، وكنيته أبو عتبة ، وإنما سمى أبا لهب لاحمرار وجهه وإشراقه كأنه اللهب.

وسبب نزول السورة التى ذكر فيها ، أن النبى ﷺ خرج إلى البطحاء فصعد الجبل فنادى «يا صباحاه» فاجتمعت إليه قريش فقال : « أرأيتم إن حدثتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم أكنتم تصدقونى ؟ قالوا : نعم . قال : فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد . فقال أبو لهب : ألهذا جمعتنا ؟ فأنزل الله : ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ إلى آخرها . أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٠٨) عن ابن عباس.

وقوله: ﴿كَذَلِكَ﴾ أى: مثل هذا الجزاء الذى كان للأمم السابقة التى أهلكت فى القرون الماضية تجزى ممن يحدِّد كل شيء؛ لأن القضايا فى الكون واحدة. فالقضية الإيمانية موجودة من أول ما أرسلت الرسل إلى أن تنتهى الدنيا.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾

و﴿خَلائِفَ﴾: جمع خليفة [1]، وهو من يَخْلُف غيره. والحق سبحانه وتعالى حينما وصف الإنسان أصدر أول بيان عن الإنسان قال للملائكة:

﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى الأَرْضِ خَلِيفَةً .. ﴿٣٠﴾﴾ [البقرة]

والله سبحانه وتعالى قادر، وسميع، وعليم، وله كل صفات الكمال المطلق، وأنت قد تكون لك قدرة وقد تُعَدِّى أثر قدرتك إلى غيرك، ولكنك لن تستطيع أن تُعدِّى قدرتك إلى سواك، فإن كنت قويّاً؛ فلن تستطيع أن تَهَبَ ضعيفاً قدراً من قوتك. بل كل الذى تستطيعه هو أن تهبه أثر قدرتك، فإن كان غير قادر على أن يحمل شيئاً؛ فأنت قد تحمله عنه، وإن كان غير قادر على المشى؛ فأنت تأخذ بيده، لكنك لا تستطيع أن تهبه جزءاً من قوتك الذاتية، فيظل هو عاجزاً، وتظل أنت قادراً - كما أنت.

هذا هو حال الخلق: تجد غنياً وآخر فقيراً، ويُعطى الغنى للفقير من غناه، ويُعطى العالمُ للجاهل بعضَ العلم، لكنه لا يهبه مَلَكَة العلم؛ ليعلم.

---

(١) وقد تجمع خليفة على خلفاء، قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ .. ﴿٦٩﴾﴾ [الأعراف].

أما الحق الأعلى سبحانه فهو وحده القادر على أن يهب من قدرته المطلقة للخلق قدرة موهوبة محدودة ، وقد أعطاهم سبحانه أثر القدرة العالية فى الأفلاك التى صنعها ولا دخل للإنسان فيها ؛ من شمس ، وقمر ، ونجوم ، ورياح ، ومطر .

وأعطى الحق سبحانه للإنسان طاقة من قدرته فى الأمور التى حوله ؛ فأصبح قادراً على أن يفعل بعض الأفعال التى تتناسب مع هذه الطاقة الموهوبة . وبذلك عدَّى له الحق سبحانه من قدرته ؛ ليقدر على الفعل ، ومن غناه ؛ ليعطى الفقير ، ومن علمه ؛ ليعطى الجاهل ، ومن حلمه ؛ ليحْلِم على الذى يؤذيه.

إذن: فالخلق لا يعدّون [1] صفاتهم إلى غيرهم ولكنهم يعدون آثار صفاتهم إلى غيرهم ، وتظل الصفة هنا قوة ، والصفة هناك ضعفاً . أما الواحد الأحد فهو الذى يستطيع أن يهب من قدرته للعاجز قدرة ؛ فيفعل . فهل كل الكون هكذا ؟

إن الكون قسمان: قسم وهبه الله سبحانه وتعالى للإنسان بدون مجال له فيه . وقد أقامه الحق بقدرته ، وهذا القسم من الكون مستقيم فى أمره استقامة لا يتأتّى لها أى خَلَل ، مثل: نظام الأفلاك والسماء ودوران الشمس والقمر والريح وغيرها ، ولا تعانى من أى عطب [2] أو خلل ، ولا يتأتى لهذا القسم فساد إلا بتدخُّل الإنسان.

---

(١) أعديته فعدا ، وعدوته أعدوه : تجاوزته إلى غيره ، واستعديت الأمير على الظالم طلبت منه النصرة، فأعدانى عليه : أعاننى ونصرنى فالاستعداد طلب التقوية والنصرة - المصباح المنير صـ ٣٩٧ ، ٣٩٨ .

(٢) العَطَب: الهلاك، يكون فى الناس وفى غيرهم. وفى الحديث الشريف: ذكرُ عَطَب الهَدْى، وهو هلاكه، وقد يُعبَّر به عن آفة تعتريه، تمنعه من السير، فيُنْحَر. والمراد بالعطب هنا: الفساد أو العيب أو الخطأ. [اللسان: مادة (عطب) . . بتصرف]. يقول سبحانه وتعالى : ﴿ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ .. ٣ ﴾ [الملك] .

وقسم آخر فى الكون تركه الحق سبحانه للإنسان ؛ حتى يقيمه بالقوة الموهوبة له من الله .

وأنت لا تجد فساداً فى كون الله تعالى إلا وجدت فيه للإنسان يداً ، أما الأمور التى ليس للإنسان فيها يد فهى مستقيمة، ولذلك يقول الحق سبحانه:

﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ[1] ⑤﴾ [الرحمن]

والمراصد تحدِّد موقع الأرض بين الشمس والقمر ، وموقع القمر بين الأرض والشمس بدقة تتناسب مع قوله الحق: ﴿بِحُسْبَانٍ﴾ ؛ لأن الإنسان ليس له دخل فى هذه الأمور.

وفيما لنا فيه اختيار علينا أن نتدخل بمنهج الله تعالى ؛ لتستقيم حركتنا مثل استقامة الحركة فى الأكوان العليا التى لا دخل لنا فيها.

إذن: فالذى يُفْسد الأكوان هو تدخُّل الإنسان - فيما يحيط به ، وفيما ينفعل له وينفعل به - على غير منهج الله؛ ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى:

﴿الرَّحْمَٰنُ ① عَلَّمَ الْقُرْآنَ ② خَلَقَ الإِنسَانَ ③ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ[2] ④ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ⑤﴾ [الرحمن]

---

(١) الحسبان: الحساب. والشمس والقمر بحسبان أى: بحساب ومنازل حددّها الله سبحانه فلا يعدوانها. وقال الزجاج: «بحسبان» يدل على عدد الشهور والسنين وجميع الأوقات. وقال أبو العباس: حسبان مصدر حَسَبَ يحسبُه حساباً وحسباناً. وقال الأخفش وأبو الهيثم: الحسبان جمع حساب. قال تعالى: ﴿فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا .. ﴿٩٦﴾﴾ [الأنعام]. [اللسان: مادة (حسب) . . بتصرف].

(٢) البيان: ما بُيِّنَ به الشيء من الدلالة وغيرها. وبان الشيء بياناً: اتّضح، فهو بَيِّنٌ. وكذلك أبان الشيء إبانة فهو مبين. والبيان: الفصاحة والإفصاح مع ذكاء، والبيان: إظهار المقصود بأبلغ لفظ. قال تعالى: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾﴾ [آل عمران]. وقال: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿١٩﴾﴾ [القيامة] [اللسان: مادة (بين) . . بتصرف].

أي: هذه الأكوان مخلوقة بحساب ، وتستطيعون أن تُقَدِّروا أوقاتكم وحساباتكم على أساسها . ويقول سبحانه:

﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۞ وَالنَّجْمُ[1] وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۞ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۞ أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۞ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ۞ ﴾ [الرحمن]

وحتى تستقيم لكم الأمور الدنيا فى حركتكم فى الكون - كما استقامت لكم الأمور العليا ؛ وازنوا كل الأمور بالعدل ؛ فلا يختل لكم ميزان ؛ لأن الذى يُفسد الكون أنكم تتدخلون فيما أعطى لكم من مواهب الله قدرة وعلماً وحَركة على غير منهج الله . فادخلوا على أمور حياتكم بمنهج الله فى «افعل» و«لا تفعل»[2] ؛ ليستقيم لكم الكون الأدنى كما استقام لكم الكون الأعلى.

وهنا يقول الحق سبحانه: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلاَئِفَ فِي الأَرْضِ﴾ وقد خلف الإنسانُ اللهَ تعالى فى الأرض ، فى أنه - مثلاً - يحرث الأرض ويسقيها ؛ فيخرج له الزرع ، وحين يأخذ الإنسان أسباب الله فهو ينال نتيجة الأخذ بالأسباب . ولكن آفة الإنسان بغروره ، حين تستجيب له الأشياء ، فهو يظن أنه قادر بذاته ، لا بأسباب الله .

والحق سبحانه وتعالى يُعطى بعطاء ربوبيته للمؤمن ، وللكافر ؛ لأنه سبحانه هو الذى استدعى الإنسان إلى الوجود ، لكنه جلّ وعلا ميَّز المؤمن ، لا بعطاء الأسباب فقط ، ولكن بالمنهج ، والتكليف المتمثل فى

---

(١) نَجَمَ الشىء : طلع وظهر . ويقال لكل ما طلع وبدا : نَجْمٌ . ولذلك اختلف المفسرون فى تفسير النجم فى الآية ، فقال ابن عباس : النجم ما انبسط على وجه الأرض (يعنى : من النبات) . وقال مجاهد : النجم الذى فى السماء . انظر لسان العرب - مادة (نجم) وتفسير ابن كثير (٤/ ٢٧٠) .

(٢) افعل ولا تفعل عليهما مدار التكاليف الشرعية من : الفرض ، والواجب ، والمندوب ، والمستحب والحرام ، والمكروه ، والمباح .

«افعل كذا» و«لا تفعل كذا» ، فإن أخذ العطاءين من الله يبقَ له حسن الجزاء فى الدنيا والآخرة ، وإن أخذ العطاء الثانى فى «افعل» و«لا تفعل» ، فهو يأخذ الآخرة ، أما دنياه فتظل متخلّفة.

ومن يُردْ أن يأخذ حُسْن الدنيا والآخرة ، فليأخذ عطاء ربوبية الله تعالى بالأخذ بالأَسباب ، وعطاء الألوهية باتّباع المنهج.

إلا أن آفة الخليفة فى الأرض أنه يرى بعض الأمور مستجيبة له ؛ فيطغى [(١)] ، ويظن أنه أصيل فى الكون . ونقول له: ما دمت تظن أنك أصيل فى الكون فحافظ على روحك ، وعلى قوتك ، وعلى غناك . وأنت لن تستطيع ذلك . فأنت إنْ تمردت على أوامر الله بالكفر - مثلاً ، فلماذا لا تتمرد على المرض أو الموت ؟

إذن: أنت مقهور للأعلى غصباً عنك ، ويجب أن تأخذ من الأمور التى تنزل عليك بالأقدار ؛ لتلجمك ، وتقهرك ، إلى أن تأخذ الأمور التى لك فيها اختيار بمنهج الله سبحانه.

ولو ظن الخليفة فى الأرض أنه أصيل فى الكون ، فعليه أن يتعلّم مما يراه فى الكون ، فأنت قد توكّل محامياً فى العقود والتصرفات ؛ فيتصرف فى الأمور كلها دون الرجوع إليك ولا يعرض عليك بياناً بما فعل ، فتقوم أنت بإلغاء التوكيل . فيلتفت مثل هذا المحامى إلى أن كل تصرف له دون التوكيل قد صار غير مقبول . فماذا عن توكيل الله للإنسان بالخلافة ؟ يقول الحق سبحانه:

---

(١) يقول عز وجل : ﴿ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝٦ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ۝٧ ﴾ [العلق] ومثال هذا : صاحب الجنتين اللتين قال عنهما رب العزة : ﴿ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَرًا ۝٣٣ ﴾ [الكهف] ولكنه طغى بنعمة الله فقال : ﴿ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا ۝٣٥ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ۝٣٦ ﴾ [الكهف] .

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ﴾ فإذا كنتم قد خلَفْتُم من هلكوا ، فمن اللازم أن تأخذوا العظة والعبرة فى أن الله تعالى غالب على أمره [١] ، ولا ترهقوا الرسل ، بل تأخذوا المنهج ، أو على الأقل ، لا تعارضوهم إن لم تؤمنوا بالمنهج الذى جاءوا به من الله . واتركوهم يعلنون كلمة الله ، وليعيدوا صياغة حركة المؤمنين برسالاتهم فى هذا الكون على وفق ما يريده الله سبحانه ، وأنتم أحرار فى أن تؤمنوا أو لا تؤمنوا.

﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ .. (٢٩)﴾ [الكهف]

والدليل على ذلك أن الإسلام حينما فتح كثيراً من البلاد ترك لهم حرية اعتناق الإسلام أو البقاء على أديانهم ، مع أنه قد دخل بلادهم بالدعوة أو الغلبة ، ولكنه لم يقهر أحداً على الدين ، وأخذ المسلمون منهم الجزية [٢] مقابل حماية المسلمين لهم.

ولو كان الإسلام قد انتشر بالسيف لما أبقى أحداً على دينه ، ولكن الإسلام لم يُكْره أحداً ، وحمى حرية الاختيار بالسيف . ولأن الذين لم يؤمنوا بالإسلام عاشوا فى مجتمع تتكفّل الدولة الإسلامية فيه بكل متطلبات حياتهم ، والمسلم يدفع زكاة لبيت المال ، فعلى من لم يؤمن - وينتفع بالخدمات التى يقدمها المجتمع المسلم - أن يدفع الجزية مقابل تلك الخدمات.

---

(١) لقد حثَّ الله سبحانه الناس على النظر فى عاقبة السابقين وما حدث لهم فى أزمانهم، وذلك فى آيات كثيرة من القرآن، منها: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١٣٧)﴾ [آل عمران] . و﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ .. (١٠٩)﴾ [يوسف] . والله سبحانه قد حسم مسألة الصراع بين الحق والباطل فى قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢١)﴾ [يوسف] .

(٢) الجزية : هى مبلغ من المال يوضع على من دخل فى ذمة المسلمين وعهدهم من أهل الكتاب، فرضها الإسلام عليهم فى مقابل فرض الزكاة على المسلمين، ونظير قيامهم بالدفاع عن الذميين وحمايتهم فى البلاد الإسلامية التى يقيمون فيها، وهى تجب على من كان: ذكراً، مكلفاً، حراً. ولا تجب على مساكين وفقراء أهل الكتاب. انظر: فقه السنة للشيخ سيد سابق (٣/ ١١٢ - ١١٧) .

وإذا اعتقد الإنسان أنه خليفة ، وظل متذكراً لذلك ، فهو يتذكر أن سطوة من استخلفه قادرة على أن تمنع عنه هذه الخلافة .

إذن : فخذوا الأمر بالتسليم ، وساعدوا النبى ﷺ على دعوته ، وآمنوا به أولاً ، وإن لم تؤمنوا به فاتركوه ؛ ليعلن دعوته ، ولا تعاندوه ، ولا تصرفوا الناس عنه ؛ لأن الحق هو القائل: ﴿ **ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلاَئِفَ فِي الأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ** ﴿١٤﴾ ﴾ [يونس]

وساعة تأتى لأمر يعلله الله بكلمة ﴿ **لِيَعْلَمَ** .. ﴿٩٤﴾ ﴾ [المائدة]

أو ﴿ **لِنَنظُرَ** ... ﴿١٤﴾ ﴾ [يونس]

فاعلم أن الله عالم وعليم ، علم كل الأمور قبل أن توجد ، وعلم الأشياء التى للناس فيها اختيار ، وهو القائل:

﴿ **لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ**[1] **لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ** .. ﴿٢٥﴾ ﴾ [الحديد]

وقد علم الحق سبحانه أزلاً كل شىء ، وإذا قال الله : ﴿ **وَلِيَعْلَمَ** ﴾ فليس معنى ذلك أن هناك علماً جديداً لم يكن يعلمه سوف ينشأ له ، لكنه يعلم علم مشهد وإقرار منك ؛ حتى لا يقول قائل: لماذا يحاسبنا الله على ما عَلِمَ أزلاً ؟ بل يأتى الله سبحانه بالاختبار الذى يحدِّد للعبد المعايير التى تتيح للمؤمن أن يدخل الجنة ، وللعاصى أن يُحاسَب ويُجازَى .

---

(١) الميزان: العدل ، والميزان : المقدار. والميزان: الآلة التى توزن بها الأشياء، وجمعه: موازين. قال تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ .. ﴿١٧﴾ ﴾ [الشورى] . وقال: ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ .. ﴿٤٧﴾ ﴾ [الأنبياء] . [اللسان : مادة (وزن) .. بتصرف] .

راجع أصله وخرج أحاديثه فضيلة الشيخ / محمد السنراوى المستشار بالأزهر . والأستاذ / عادل أبو المعاطى .

وبذلك يعلم الإنسان أن الحق سبحانه شاء ذلك ؛ ليعرف كل عبد عِلم الواقع ، لا عِلْم الحصول.

إذن: فذكر كلمة ﴿ولِيعْلَمَ﴾ وكلمة ﴿لِننظُرَ﴾ فى القرآن معناها علم واقع ، وعلم مشهد ، وعلم حُجّة على العبد ؛ فلا يستطيع أن ينكر ما حدث ، وقوله الحق:

﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ .. (٢٥)﴾ [الحديد]

هذه الآية تبين لنا أدوات انتظام الحكم الإلهى: رسل جاءوا بالبرهان والبينة ، وأنزل الحديد للقهر ، قال الحق سبحانه :

﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ .. (٢٥)﴾ [الحديد]

وقرن ذلك بالرسل ، فقال: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ﴾ والنصرة لا تكون إلا بقوة ، والقوة تأتى بالحديد[1] الذى يظل حديداً إلى أن تقوم الساعة ، وهو المعدن ذو البأس ، والذى لن يخترعوا ما هو أقوى منه ، وعِلْم الله سبحانه هنا علْم وقوع منكم ، لا تستطيعون إنكاره ؛ لأنه سبحانه لو أخبر خبراً دون واقعٍ منكم ؛ فقد تكذبون ؛ لذلك قال سبحانه: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾ وفى هذا لون من الاحتياط الجميل.

وقوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ﴾ كأن الله يطلب منكم أن تنصروه ، لكن إياكم أن تفهموا المعنى أنه سبحانه ضعيف ، معاذ الله ، بل هو قوى وعزيز . فهو القائل:

﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ .. (١٤)﴾ [التوبة]

---

(١) الحديد : الفلز المعروف تصنع منه الآلات المختلفة النافعة للناس . يقول الحق سبحانه : ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ .. (٢٥)﴾ [الحديد] أى : فيه صلابة وقوة ، وهو وسيلة من وسائل النصر والعمران ، وقد يكون وسيلة للدمار ؛ إذا وضع فى يد من لا ضمير له ولا إيمان عنده .

بل يريد سبحانه أن يكون أعداء الإيمان أذلاء أمامكم ؛ لأنه سبحانه يقدر عليهم.

إذن: فقول الحق سبحانه: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ﴾ إنما يعنى: أن يكون علم الله بمن ينصر منهجه أمراً غيبياً ؛ حتى لا يقول أحدٌ إن انتصار المنهج جاء صدفة ، بل يريد الحق سبحانه أن يجعل نُصْرة منهجه بالمؤمنين ، حتى ولو قَلَّت عدَّتُهم ، وقلّ عددهم.

إذن: قوله سبحانه وتعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلائِفَ فِى الأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ .. (١٤)﴾ [يونس]

أى: نظر واقع ، لا نظر علم.

ويقول سبحانه بعد ذلك:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا(١) بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ(٢) نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾﴾

نحن نعرف أن الآيات ثلاثة أنواع: آيات كونية ، وهى العجائب التى فى الكون ويسميها الله سبحانه آيات ، فالآية هى عجيبة من العجائب ، سواء

(١) الآية: العبرة ، والآية: المعجزة أو الشيء العجيب. والجمع: آيات، وآى. قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ ..(٥٣)﴾[فصلت] ، والآيات هنا: الأدلة الواضحة على وحدانية الله وكمال قدرته وقيوميته. [لسان العرب: مادة (أيا) .. بتصرف].

(٢) التِّلقاء: مصدر لَقِىَ. يقال: يسرنى تلقاؤك أى: لقاؤك. ويستعمل ظرف مكان بمعنى جهة اللقاء والمقابلة.

فى الذكاء أو الجمال أو الخُلُق ، وقد سَمَّى الحق سبحانه الظواهر الكونية آيات ؛ فقال تعالى :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ .. (٣٧) ﴾ [فصلت]

وقال سبحانه :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا .. (٢١) ﴾ [الروم]

وهذه من الآيات الكونية .

وهناك آيات هى الدليل على صدق الرسل - عليهم السلام - فى البلاغ عن الله ، وهى المعجزات ؛ لأنها خالفت ناموس الكون المألوف للناس. فكل شىء له طبيعة ، فإذا خرج عن طبيعته ؛ فهذا يستدعى الانتباه .

مثلما يحكى القرآن عن سيدنا إبراهيم - عليه السلام - أن أعداءه أخذوه ورموه فى النار فنجّاه الحق سبحانه من النار ؛ فخرج منها سالماً ، ولم يكن المقصود من ذلك أن ينجو إبراهيم من النار ، فلو كان المقصود أن ينجو إبراهيم عليه السلام من النار ؛ لحدثت أمور أخرى ، كألا يمكّنهم الحق - عزَّ وجلّ - من أن يمسكوه ، لكنهم أمسكوا به وأشعلوا النار ورموه فيها ، ولو شاء الله تعالى أن يطفئها لفعل ذلك بقليل من المطر ، لكن ذلك لم يحدث ؛ فقد تركهم الله فى غيّهم [1] ، ولأنه واهب النار للإحراق قال سبحانه وتعالى لها :

﴿ يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) ﴾ [الأنبياء]

---

(١) الغَىّ: الضلال . غَوَى غَيّاً وغَوَايَةً : أمعن فى الضلال ، قال تعالى : ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ (٢) ﴾ [النجم] وتَغَاوى القوم : تجمعوا وتعاونوا على الشر . واستغواه بالأمانىّ الكاذبة : طلب غَيَّه وأضلَّه . وقال تعالى : ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ .. (٢٥٦) ﴾ [البقرة] . [المعجم الوسيط : مادة (غوى) . . بتصرف] .

وهكذا تتجلّى أمامهم خيبتهم.

إذن: الآيات تُطلَق على الآيات الكونية، وتطلق على الآيات المعجزات، وتطلق أيضاً على آيات القرآن ما دامت الآيات القرآنية من الله والمعجزات من الله، وخلق الكون من الله، فهل هناك آية تصادم آية ؟ لا ؛ لأن الذى خلق الكون وأرسل الرسل بالمعجزات وأنزل القرآن هو إله واحد، ولو كان الأمر غير ذلك لحدث التصادم بين الآيات، والحق سبحانه هو القائل:

﴿.. وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا (٨٢)﴾ [النساء]

وقوله تعالى:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ ..(١٥)﴾ [يونس]

أى: آيات واضحة. ثم يقول الحق سبحانه: ﴿قَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾

وعرفنا أن الرجاء طلب أمر محبوب ومن الممكن أن يكون واقعاً، مثلما يرجو إنسان أن يدخل ابنه كلية الطب أو كلية الهندسة. ومقابل الرجاء شىء آخر محبوب، لكن الإنسان يعلم استحالته، وهو التمنِّى، فالمحبوبات - إذن - قسمان: أمور مُتمنَّاة وهى فى الأمور المستحيلة، لكن الإنسان يعلن أنه يحبها، والقسم الثانى أمور نحبها، ومن الممكن أن تقع، وتسمى رجاء.

﴿الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ هم مَن لا يؤمنون، لا بإله، ولا ببعث ؛ فقد قالوا:

﴿مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ[1] (٢٤)﴾ [الجاثية]

---

(١) الدَّهر: الزمان الطويل، ومدّة الحياة الدنيا. قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا (١)﴾ [الإنسان]. وقال ﷺ: «لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر» ومعناه: أن ما أصابك من الدهر، فالله فاعله وليس الدهر، فإذا شتمت الدهر، فكأنك أردت به الله تعالى سبحانه عما يقولون أو يصفون. [لسان العرب: مادة (دهر) - بتصرف].

وقالوا:

• ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ .. (٨٢)﴾ [المؤمنون]

وإذا كان الإنسان لا يؤمن بالبعث ؛ فهو لا يؤمن بلقاء الله سبحانه؛ لأن الذى يؤمن بالبعث يؤمن بلقاء الله ، ويُعدّ نفسه لهذا اللقاء بالعبادة والعمل الصالح ، ولكن الكافرين الذين لا يؤمنون بالبعث سيُفاجَأون بالإله الذى أنكروه ، وسوف تكون المفاجأة صعبة عليهم ؛ ولذلك قال الحق سبحانه:

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ [(١)] بِقِيعَةٍ [(٢)] يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا .. (٣٩)﴾ [النور]

السراب: هو أن يمشى الإنسان فى خلاء الصحراء ، ويخيل إليه أن هناك ماءً أمامه ، وكلّما مشى ظن أن الماء أمامه ، وما إن يصل إلى المكان يجد أن الماء قد تباعد. وهذه العملية لها علاقة بقضية انعكاس الضوء ، فالضوء ينعكس ؛ ليصور الماء وهو ليس بماء:

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ .. (٣٩)﴾ [النور]

إنه يُفاجَأ بوجود الله سبحانه الذى لم يكن فى باله ، فهو واحد من الذين لا يرجون لقاء الله ، وهو ممن جاء فيهم القول:

---

(١) السَّراب: ما يُرى فى نصف النهار من اشتداد الحرّ كالماء فى الصحراء يلتصق بالأرض. وهو من خداع البصر. وقد سُمِّى السراب سراباً لأنه يسرب سروباً ، أى: يجرى جرياً ، أى: يتحرك حركة تخدع الرائى من بعيد ؛ فيظنه ماء وهو ليس بماء ، بل خداع ضوئى وبصرى ناتج عن الحالة النفسية للشخص عند شدة عطشه ووجوده فى صحراء قاحلة ؛ فأى حركة من بعيد يظنها ماء ؛ ويجرى إليها ؛ ليفاجأ بعدم وجود شىء.

(٢) القيعة: أرض واسعة مستوية لا تنبت الشجر. قال الفرّاء: القيعة جمع القاع ، والقاع: ما انبسط من الأرض. قال تعالى: ﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (١٠٦)﴾ [طه]. [اللسان: مادة (قوع) .. بتصرف].

﴿ وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِى الأَرْضِ [١] أَئِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ (١٠) ﴾ [السجدة]

رغم أن الكون الذى نراه يُحتِّم قضية البعث ؛ لأننا نرى أن لكل شىء دورة ، فالوردة الجميلة الممتلئة بالنضارة تذبل بعد أن تفقد مائيَّتها ، ويضيع منها اللون ، ثم تصير تراباً. وأنت حين تشم الوردة فهذا يعنى أن ما فيها من عطر إنما يتبخر مع المياه التى تخرج منها بخاراً ، ثم تذبل وتتحلل بعد ذلك.

إذن: فللوردة دورة حياة. وأنت إن نظرت إلى أى عنصر من عناصر الحياة مثل المياه سوف تجد أن الكمية الموجودة من الماء ساعة خلق الله السموات والأرض هى بعينها ؛ لم تَزِدْ ولم تنقص. وقد شرحنا ذلك من قبل. وكل شىء تنتفع به له دورة ، والدورة تُسلم لدورة أخرى ، وأنت مستفيد بين هذه الدورات ؛ هدماً وبناءً.

والذين لا يرجون لقاء الله ، ولا يؤمنون بالبعث ، ولا بثواب أو عقاب ، لا يلتفتون إلى الكون الذى يعيشون فيه [٢] ؛ لأن النظر فى الكون وتأمُّل أحواله يُوجِب عليهم أن يؤمنوا بأنها دورة من الممكن أن تعود.

وسبحانه القائل :

---

(١) ضللنا فى الأرض: قال أبو منصور: الأصل فى كلام العرب أن يقال: أضللت الشىء إذا غيَّبته ، وأضللت الميت : دفنته. فالضلال من معانيه: الفساد والعصيان ونقيض الهداية والرشاد. ومن معانيه: التغييب والدفن. فكأنهم يقولون: «إذا دُفنَّا وغُيِّبْنا تحت الأرض.. فهل نحيا من جديد ؟» فيردّ عليهم الحق سبحانه بقوله: ﴿ وَهُوَ الَّذِى يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ .. (٢٧) ﴾ [الروم]. [لسان العرب: مادة (ضلل) - بتصرف].

(٢) وقد حكى الله تعالى عنهم هذا فقال: ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥) ﴾ [يوسف] ويقول سبحانه: ﴿ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ (٣٢) ﴾ [الأنبياء].

﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ[1] نُعِيدُهُ .. (١٠٤)﴾ [الأنبياء]

وهؤلاء الذين لا يرجون لقاء الله يأتى القرآن بما جاء على ألسنتهم: ﴿ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ ..(١٥)﴾ [يونس]

هم هنا يطلبون طلبين: ﴿ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا﴾ ، ﴿أَوْ بَدِّلْهُ﴾ .

أى: يطلبون غير القرآن. ولنلحظ أن المتكلم هو الله سبحانه ؛ لذلك فلا تفهم أن القولين متساويان.

﴿ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ﴾ هما طلبان: الطلب الأول: أنهم يطلبون قرآناً غير الذى نزل. والطلب الثانى: أنهم يريدون تبديل آية مكان آية ، وهم قد طلبوا حذف الآيات التى تهزأ بالأصنام ، وكذلك الآيات التى تتوعدهم بسوء المصير[2] .

ويأتى جواب من الله سبحانه على شق واحد مما طلبوه وهو المطلب الثانى ، ويقول سبحانه: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي﴾ ولم يرد الحق سبحانه على قولهم: ﴿ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا﴾ .

وكان مقياس الجواب أن يقول: « ما يكون لى أن آتى بقرآن غير هذا أو أبدله» ؛ لكنه اكتفى بالرد على المطلب الثانى ﴿أَوْ بَدِّلْهُ﴾ ؛ لأن الإتيان بقرآن يتطلب تغييراً للكل. ولكن التبديل هو الأمر السهل. وقد نفى

---

(١) عن ابن عباس قال: قام فينا رسول الله ﷺ خطيباً بموعظة فقال: يأيها الناس إنكم تحشرون إلى الله حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً : ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ (١٠٤)﴾ [الأنبياء] الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٥٢٤) بنحوه ، ومسلم (٢٨٦٠) واللفظ لمسلم.

(٢) وهذا يتفق مع ما قاله القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٢٤٥) لهذه الآية. قال: فى قولهم ذلك ثلاثة أوجه:
أحدها: أنهم سألوه أن يحوّل الوعد وعيداً والوعيد وعداً ، والحلال حراماً والحرام حلالاً. قاله ابن جرير الطبرى.
الثانى: سألوه أن يسقط ما فى القرآن من عيب آلهتهم وتسفيه أحلامهم. قاله ابن عيسى.
الثالث: أنهم سألوه إسقاط ما فيه من ذكر البعث والنشور. قاله الزجاج.

الأسهل ؛ ليسلِّموا أن طلب الأصعب منفى بطبيعته.

وأمر الحق سبحانه لرسوله ﷺ: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي﴾

أى: أن أمر التبديل وارد ، لكنه ليس من عند رسول الله ﷺ [1]. بل بأمر من الله سبحانه وتعالى ، إنما أمر الإتيان بقرآن غير هذا ليس وارداً.

إذن: فالتبديل وارد شرط ألا يكون من الرسول ﷺ ، ولذلك قال الحق سبحانه:

﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ [2] وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ .. (١٠١)﴾ [النحل]

وهو ما تذكره هذه الآية : ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي﴾ و﴿تِلْقَاءِ﴾ من «لقاء» ؛ فتقول: «لقيت فلاناً» ، ويأتى المصدر من جنس الفعل أو حروفه ، ويسمون «التلقاء» هنا: الجهة.

والحق سبحانه يقول فى آية أخرى:

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ [3] .. (٢٢)﴾ [القصص]

---

(١) يقول سبحانه وتعالى عن محمد ﷺ : ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (٤٧)﴾ [الحاقة] ، فهذا تأكيد أن محمداً ﷺ لا يستطيع أن يزيد أو ينقص فيما يوحى إليه من عند الله ، وإلا لبطش الله به ولقطع نياط قلبه وأماته.

(٢) وهذا هو نسخ التبديل ؛ للتيسير على الناس أو لحكم يعلمها الله سبحانه ، والتيسير ورفع الحرج هو من مقاصد الشريعة ، يقول سبحانه : ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ .. (٧٨)﴾ [الحج] ويقول تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا .. (١٠٦)﴾ [البقرة] والنسخ فى القرآن أنواع:

١- ما نسخ تلاوته وحكمه معاً ، قالت عائشة: كان فيما أنزل «عشر رضعات معلومات فنسخن بخمس معلومات».

٢- ما نسخ حكمه دون تلاوته ، وهو قليل جداً فى القرآن ، وأكثر فيه بعض الناس بغير مقتضًى.

٣- وقسم نسخ شرائع من قبلنا وما كان عليه الأمر فى الجاهلية. انظر: الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى (٣/ ٥٩ - ٧٧).

(٣) مَدْيَن: اسم قرية شعيب - عليه السلام.

و﴿تِلْقَاءَ مَدْيَنَ﴾ أى: جهة مدين. و«التلقاء» قد تأتى بمعنى اللقاء ؛ لأنك حين تقول : «لقيته» أى : أنا وفلان التقينا فى مكان واحد ، وحين نتوجّه إلى مكان معيّن فنحن نُوجَد فيه. ويظن بعض الناس أن كل لفظ يأتى لمعنيين يحمل تناقضاً ، ونقول: لا ، ليس هناك تناقض ، بل انفكاك جهة ، مثلما قال الحق سبحانه:

﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ [1] الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ .. (١٤٤) ﴾ [البقرة]

والشطر معناه: الجهة ؛ ومعناه أيضاً: النصف ، فيقال: «أخذ فلان شطر ماله» ، أى: نصفه ، و«اتجهت شطر كذا» ، أى: إلى جهة كذا.

وهذه معان غير متناقضة ؛ فالإنسان منا ساعة يقف فى أى مكان ؛ يصبح هذا المكان مركزاً لمرائيه ، وما حوله كله محيطاً ينتهى بالأفق.

ويختلف محيط كل إنسان حسب قوة بصره ، ومحيط الرؤية ينتهى حين يُخيَّل لك أن السماء انطبقت على الأرض ، هذا هو الأفق الذى يخصُّك ، فإن كان بصرُك قويّاً فأفقك يتَّسع ، وإن كان البصر ضعيفاً يضيق الأفق.

ويقال: «فلان ضيِّق الأفق» أى: أن رؤيته محدودة ، وكل إنسان منا إذا وقف فى مكان يصير مركزاً لما يحيطه من مَرَاء ؛ ولذلك يوجد أكثر من مركز ، فالمقابل لك نصف الكون المرئى ، وخلفك نصف الكون المرئى الآخر ، فإذا قيل : إن «الشطر» هو «النصف» ، فالشطر أيضاً هو «الجهة».

---

(١) شَطْر الشيء: ناحيته ، وشَطْر كل شيء: نحْوه وقصْده ، وقصدتُ شَطْرَهُ أى: ناحيته. «وشَطْرَ المسجد الحرام» : نحوه وتلقاءه. قال تعالى: ﴿ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ .. (١٤٤) ﴾ [البقرة] . وشَطْر الشيء: نصْفُه ، والجمع: أَشْطُر ، وشُطُور. وشَطَرتُه: جعلته نصفين. وشاطره ماله: ناصَفَه. وفى الحديث: أَن سعداً استأذن النبى ﷺ أن يتصدّق بماله كله ، قال: «لا» قال: فالشَّطْر ، قال: «لا» ، قال: الثلث ، فقال. «الثلث ، والثلث كثير». وفى الحديث: «الطُّهور شَطْر الإيمان» أخرجه مسلم فى صحيحه عن أبى مالك الأشعرى (٢٢٣) ؛ لأن الإيمان يظهر بحاشية الباطن ، والطّهور يظهر بحاشية الظاهر. [لسان العرب : مادة « شَطَرَ » - بتصرف] .

وهنا يقول الحق سبحانه: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ .

أي: أنه ﷺ لا يأتي بالقرآن من عند نفسه ﷺ ، بل يُوحَى إليه.

ويُنهي الحق سبحانه الآية بقوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ .. (١٥)﴾ [يونس]

أي: أنه ﷺ لو جاء بشيء من عنده، ففي هذا معصية لله تعالى، ونعلم أن رسول الله ﷺ لم يُعرف عنه أنه كان شاعراً، ولا كان كاتباً، ولا كان خطيباً. وبعد أن نزل الوحي عليه من الله جاء القرآن في منتهى البلاغة.

وقد نزل الوحي ورسول الله ﷺ في الأربعين من عمره ولا توجد عبقرية يتأجَّل ظهورها إلى هذه المرحلة من العمر، ولا يمكن أن يكون النبي ﷺ قد أجَّل عبقريته إلى هذه السِّن؛ لأنه لم يكن يضمن أن يمتد به العمر.

ويأتي لنا الحق سبحانه بالدليل القاطع على أن رسول الله ﷺ لا يتَّبِع إلا ما يُوحَى إليه فيقول:

﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥)﴾ [يونس]

ويأتي الأمر بالرَّدِّ من الحق سبحانه على الكافرين:

﴿قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦)﴾

وهنا يبلِّغ محمدٌ ﷺ هؤلاء الذين طلبوا تغيير القرآن أو تبديله: لقد عشت طوال عمرى معكم ، ولم تكن لى قوة بلاغة أو قوة شعر ، أو قوة أدب. فمن له موهبة لا يكتمها إلى أن يبلغ الأربعين ، ورأيتم أنه ﷺ لم يجلس إلى معلِّم ، بل عندما اتهمتموه وقلتم:

﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ..(١٠٣)﴾ [النحل]

وفضحكم الحق سبحانه بأن أنزل فى القرآن قوله تعالى:

﴿لِّسَانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ(١) إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ(٢) وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ(١٠٣)﴾ [النحل]

ولم يخرج النبى ﷺ من شبه الجزيرة العربية ، ولم يقرأ مؤلَّفات أحد. فمن أين جاء القرآن إذن ؟

لقد جاء من الله سبحانه ، وعليكم أن تعقلوا ذلك، ولا داعى للاتهام بأن القرآن من عند محمد ؛ لأنكم لم تجرِّبوه خطيباً أو شاعراً ، بل كل ما جاء به رسول الله ﷺ ، بعد أن نزلت عليه الرسالة ، هو بلاغ من عندالله .

وبطبيعة الحال لا يمكن أن يُنسَب الكمال إلى إنسان فينفيه ، فالعادة أن

---

(١) لَحَدَ فى الدين وأَلْحَدَ والْتحد : مال عنه ، وحَادَ ، وابتعد. والإلحاد: الجدال والمراء ، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِى آيَاتِنَا لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا ..(٤٠)﴾ [فصلت] وقال تعالى: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِى أَسْمَائِهِ ..(١٨٠)﴾ [الأعراف]. والإلحاد: الظلم والجور. قال تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ..(٢٥)﴾ [الحج]. والإلحاد فى اللغة: الميل عن القصد. وقوله: ﴿لِّسَانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ..(١٠٣)﴾ [النحل] وأصل الإلحاد: الميل والعُدُول عن الشيء. والملتحَد: الملجأ ؛ لأن اللاجىء يميل إليه. [لسان العرب: مادة (لحد) - بتصرف].

(٢) عجم: العُجْم والعَجَم: خلاف العُرْب والعَرَب. ورجل عَجَمىّ وأعجمىّ: غير عربىّ. قال أبو إسحاق: الأعجم: الذى لا يُفصح ولا يُبيِّن كلامه وإن كان عربيّاً. والعجمى هو الذى من جنس العجم أفصح أو لم يُفصح. قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الأَعْجَمِينَ (١٩٨) فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ (١٩٩)﴾ [الشعراء] .

يسرق شاعر – مثلاً – قصيدة من شاعر آخر ،أو أن ينتحل[(١)] كاتب مقالة من آخر . لكن رسول الله ﷺ يبلِّغكم أن كمال القرآن ليس من عنده، بل هو مجرد مبلِّغ له ، وكان يجب أن يتعقَّلوا تلك القضية بمقدِّماتها ونتائجها ؛ فلا يلقوا لأفكارهم العنان[(٢)] ؛ ليكذبوا ويعاندوا ، فالأمر بسيط جداً[(٣)] .

يقول الحق سبحانه لرسوله ﷺ :

﴿ قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [يونس]

إذن : فالمقدمة التي يريد الحق سبحانه وتعالى أن يقنع بها الكافرين أن رسول الله ﷺ قد أرسله الله رسولاً من أنفسهم[(٤)] ، فإن قلت :

﴿ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ .. ﴿١٦٤﴾ ﴾ [آل عمران]

أي : أنه ﷺ من جنس الناس ، لا من جنس الملائكة ، أو ﴿مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أي : من أمة العرب ، لا من أمة العَجَم ، أو ﴿مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أي : من قبيلتهم التي يكذِّب أصحابُها رسولَ الله ﷺ .

إذن : فحياته ﷺ معروفة معلومة لكم ، لم يَغِبْ عنكم فترة ؛ لتقولوا

---

(١) ينتحل الشيء : ينسبه إلى نفسه . نحله القول : نسبه إليه . ونُحِل الشاعر قصيدة إذا نسبت إليه وهي من قيل غيره . [لسان العرب : مادة نحل] .

(٢) العنان : عنان اللِّجام : السَّيْر الذي تُمسك به الدابة ، والجمع : أعنَّة . والعنان : الحبْل . والمراد هنا : تشبيه الأفكار بالبعير الذي له عقال أو عنان ؛ إذا أرخيته له سار وانطلق كما يشاء ويهوى على غير هدى . والعنان للدَّواب كالعقل للإنسان فإذا فسد العقل ضلّ صاحبه ، وإذا لم يعقل الإنسان أفكاره يضلّ . [لسان العرب : مادة (عنن) – بتصرف] .

(٣) فرسول الله ﷺ كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، يقول الحق سبحانه : ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [العنكبوت] .

(٤) وفي هذا يقول الحق سبحانه : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [التوبة] .

بُعثَ بعثةً ؛ ليتعلَّم علماً من مكان آخر ، ولم يجلس إلى معلِّم عندكم ولَا إلى معلِّم خارجكم ، ولم يَتْلُ كتاباً ، فإذا كان الأمر كذلك ، فيجب أن تأخذوا من هذا مقدِّمة وتقولوا : فمن أين جاءت له هذه الحكمة فجأة ؟

أنتم تعلمون أن المواهب والعبقريات لا تنشأ فى الأربعينات ، ولكن مخايل العبقرية إنما تنشأ فى نهاية العقد الثانى وأوائل العقد الثالث ، فمن الذى أخّر العبقرية عند رسول الله ﷺ ليقول هذا القول البليغ الذى أعجزكم ، وأنتم أمّة البلاغة وأمة الفصاحة المرتاضون [1] عليها من قديم ، وعجزتم أمام ما جاء به محمد ﷺ ؟

كان يجب أن تقولوا : لم نعرف عنه أنه يعلم شيئاً من هذا ، فإذا حَلّ لكم اللغز وأوضح لكم : أن القرآن ليس من عندى ؛ كان يجب أن تصدقوه ؛ لأنه ﷺ يعزوه إلى خالقه وربه سبحانه . والدليل على أنكم مضطربون فى الحكم أنكم ساعة يقول لكم : القرآن بلاغ عن الله ، تكذِّبونه ، وتقولون : لا ، بل هو من عندك ، فإذا فَترَ عنه الوحى مرّةً قلتم : قلاه [2] ربُّه .

لماذا اقتنعتم بأن له ربّاً يَصِلُه بالوحى ويهجره بلا وحى ؟

أنتم - إذن - أنكرتم حالة الوصل بالوحى ، واعترفتم بالإله الخالق عندما غاب عنه الوحى ، وكان يجب أن تنتبهوا وتعودوا إلى عقولكم ؛ لتحكموا على هذه الأشياء ، وقد ذكر الحق سبحانه ذلك الأمر فى كثير من آياته ، يقول سبحانه :

---

(١) المرتاضون : الذين لهم دُرْبة ، قد ذللت ألسنتهم على الفصاحة والبلاغة .

(٢) قلاه ربه : أبغضه وتركه . ولذلك قال له ربه : ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾﴾ [الضحى] .

﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ [(١)] أَيُّهُمْ يَكْفُلُ [(٢)] مَرْيَمَ ﴿٤٤﴾﴾ [آل عمران]

ويقول سبحانه:

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ [(٣)] إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الأَمْرَ .. ﴿٤٤﴾﴾ [القصص]

ويقول سبحانه:

﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا [(٤)] فِي أَهْلِ مَدْيَنَ .. ﴿٤٥﴾﴾ [القصص]

ويقول سبحانه:

﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [العنكبوت]

فمن أين جاءت تلك البلاغة؟ كان يجب أن تأخذوا هذه المقدِّمات؛ لتحكموا بأنه صادق فى البلاغ عن الله؛ لذلك يُنهى الحق سبحانه الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها بقوله: ﴿أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾.

وحين ينبهك الحق سبحانه وتعالى إلى أن تستعمل عقلك، فهذا دليل على الثقة فى أنك إذا استعملت عقلك؛ وصلت إلى القضية المرادة. والله

---

(١) أقلامهم: سهامهم، وقيل: أقلامهم التى كانوا يكتبون بها التوراة. قال الزجاج: الأقلام هنا: القداح. وهى قداح جعلوا عليها علامات يعرفون بها من يكفل مريم، على جهة القُرعة، وإنما قيل للسهم: القلم؛ لأنه يُقْلَم، أى: يُبْرَى. وكلّ ما قطعت منه شيئاً بعد شىء فقد قلَمْتَه، من ذلك القلم الذى يكتب به، وإنما سُمِّى قلماً؛ لأنه قُلم مرة بعد مرة، ومن هذا قيل: قلَمْتُ أظفارى. قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنۢ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ .. ﴿٢٧﴾﴾ [لقمان]. [لسان العرب: مادة (قلم) - بتصرف].

(٢) يكفل: يعول، والكافل: العائل. قال تعالى: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا .. ﴿٣٧﴾﴾ [آل عمران].

(٣) الغربىّ: الجبل الغربىّ الذى كلّم الله سبحانه نبيّه موسى عليه السلام عنده من الشجرة التى هى شرقية على شاطىء الوادى المقدس (طُوَى). [تفسير ابن كثير: ٣/ ٣٩١ - بتصرف].

(٤) ثاوياً: مقيماً والثواء: الإقامة، ثويت بالمكان: أقمت فيه. قال تعالى: ﴿وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ .. ﴿١٥١﴾﴾ [آل عمران]. [لسان العرب: مادة (ثوا) - بتصرف].

سبحانه وتعالى مُنزَّه عن خديعة عباده ، فمن يخدع الإنسان هو من يحاول أن يصيب عقله بالغفلة ، لكن الذى ينبّه العقل هو من يعلم أن دليل الحقيقة المناسبة لما يقول ، يمكن الوصول إليه بالعقل.

وقول الحق سبحانه فى آخر الآية : ﴿أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ يدلنا على أن القضية التى كذَّبوا فيها رسول الله ﷺ نشأت من عدم استعمال عقولهم ، فلو أنهم استعملوا عقولهم فى استخدام المقدمات المُحسَّة التى يؤمنون بها ويسلمون ؛ لانتهوا إلى القضية الإيمانية التى يقولها رسول الله ﷺ .

ولو أنهم فكّروا وقالوا : محمد نشأ بيننا ولم نعرف له قراءة ، ولا تلاوة كتاب ولا جلوساً إلى معلِّم ، ولم يَغبْ عنا فترة ليتعلَّم ، وظل مدة طويلة إلى سنِّ الأربعين ولم يرتض على قول ولا على بلاغة ولا على بيان ؛ فمن أين جَاءته هذه الدفعة القوية ؟

كان يجب أن يسألوه هو عنها : من أين جاءتك هذه ؟ وما دام قد قال لهم : إنها جاءته من عندالله ، فكان يجب أن يصدِّقوه.

ومهمة العقل دائما مأخوذة من اشتقاقه ، «فالعقل»[1] مأخوذ من «عقال» البعير. وعقال البعير هو الحبل الذى تربط به ساقى الجمل ؛ حتى لا ينهض ويقوم ؛ لنوفِّر له حركته فيما نحب أن يتحرك فيه ، فبدلاً من أن يسير هكذا بدون غرض ، وبدون قصد ، فنحن نربط ساقيه ؛ ليرتاح ولا يتحرك، إلى أن نحتاجه فى حركة.

إذن : فالعقل إنما جاء ؛ ليحكم المَلَكَات ؛ لأن كل مَلَكَة لها نزوع إلى شىء ، فالعين لها مَلَكَة أن ترى كل شىء ، فيقول لها العقل : لا داعى أن

---

(١) العقل : النُّهى ، ضد الحمق ، وعقل يعقل فهو عاقل. قال ابن الأنبارى : الرجل العاقل هو الجامع لأمره ورأيه ، مأخوذ من عقلت البعير إذا جمعت قوائمه ، وقيل : العاقل هو الذى يحبس نفسه ويردّها عن هواها . والعقل : التثبُّت فى الأمور .

تشاهدى ذلك ؛ لأنه منظر سيؤذيك ، والأذن تحب أن تسمع كل قول ، فيقول لها العقل : لا تسمعى إلى ذلك ؛ حتى لا يضرك [١] .

إذن : فالعقل هو الضابط على بقية الجوارح . وكذلك كلمة «الحكْمة» ، مأخوذة من «الحَكَمة» [٢] وهى فى «اللِّجام» الذى يوضع فى فم الفرس ؛ حتى لا يجمح ، وتظل حركته محسوبة ؛ فلا يتحرك إلا إلى الاتجاه الذى تريده .

إذن : شاء الحق سبحانه أن يميِّز الإنسان بالعقل والحكمة ؛ ليقيم الموازين لملكات النفس ؛ فخذوا المقدمات المُحَسَّة التى تؤمنون بها وتشهدونها وتسلمونها لرسول الله ﷺ لتستنبطوا أنه جاء بكلامه من عند الله تعالى .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ [٣] عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

وهنا يوضح القرآن على لسان الرسول ﷺ : أأكذب على الله ؟ إذا كنت لم أكذب عليكم أنتم فى أمورى معكم وفى الأمور التى جرَّبتموها ، أفأكذب على الله ؟! إن الذى يكذب فى أول حياته من المعقول أن يكذب

---

(١) وقد قال سبحانه : ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [الإسراء] .

(٢) حكَمة اللجام : ما أحاط بحنَكَى الفرس ، سميت بذلك لأنها تمنعه من الجرى الشديد . وقيل : الحكمة حديدة فى اللجام تكون على أنف الفرس وحنكه تمنعه عن مخالفة راكبه . [لسان العرب : مادة (حكم)] .

وعن ابن عباس عن رسول الله ﷺ قال : «ما من آدمى إلا فى رأسه حكمة بيد ملك ، فإذا تواضع قيل للملك : ارفع حكمته ، وإذا تكبر قيل للملك : ضع حكمته» أخرجه الطبرانى فى معجمه الكبير (١٢٩٣٩) وأورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (٨/ ٨٢) وقال : إسناده حسن .

(٣) افترى : اختلق . الفرية : الكذب . و« افترى » تفيد المبالغة فى الكذب .

فى الكِبَر ، وإذا كنت لم أكذب عليكم أنتم ، فهل أكذب على الله ؟

وإذا لم أكن قد كذبت وأنا غير ناضج التفكير ، فى طفولتى قبل أن أصل إلى الرجولة ، فأنا الآن لا أستطيع الكذب . فإذا كنتم أنتم تتهموننى بذلك ، فأنا لا أظلم نفسى وأتهمها بالكذب ، فتصبحون أنتم المكذبين ؛ لأنكم كذبتمونى فى أن القرآن مبلغ عن الله ، ولو أننى قلت : إنه من عند نفسى لكان من المنطق أن تُكذِّبوا ذلك ؛ لأنه شرف يُدَّعى . ولكن أرفعه إلى غيرى ؛ إلى من هو أعلى منى ومنكم .

وقوله الحق : ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ أى : لا أحد أظلم ممن افترى على الله سبحانه كذباً ؛ لأن الكاذب إنما يكذب ليدلِّس على من أمامه ، فهل يكذب أحد على من يعلم الأمور على حقيقتها ؟ لا أحد بقادر على ذلك . ومن يكذب على البشر المساوين له يظلمهم ، لكن الأظلم منه هو من يكذب على الله سبحانه .

والافتراء كذب متعمد ، فمن الجائز أن يقول الإنسان قضية يعتقدها ، لكنها ليست واقعاً ، لكنه اعتقد أنها واقعة بإخبار من يثق به ، ثم تبين بعد ذلك أنها غير واقعة ، وهذا كذب صحيح ، لكنه غير متعمد ، أما الافتراء فهو كذب متعمد .

ولذلك حينما قسم علماء اللغة الكلام الخبرى ؛ قسموه إلى : خبر وإنشاء ، والخبر يقال لقائله : صدقت أو كذبت ، فإن كان الكلام يناسب الواقع فهو صدق ، وإن كان الكلام لا يناسب الواقع فهو كذب .

وقوله الحق : ﴿ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ يبين لهم رسول الله ﷺ : إن قلتم إننى ادعيت أن الكلام من عند الله ، وهو ليس من عند الله . فهذا يعنى أن الكلام كذب وهو من عندى أنا ، فما موقف من يكَذب بآيات الله ؟

إن الكذب من عندكم أنتم ، فإن كنتم تكذبوننى وتدَّعون أنى أقول إن هذا من الله ، وهو ليس من الله ، وتتمادون وتُكذِّبون بالآيات وتقولون هى من عندك ، وهى ليست من عندى ، بل من عند الله ؛ فالإثم عليكم .

والكذب إما أن يأتى من ناحية القائل ، وإما من ناحية المستمع ، وأراد الرسول ﷺ عدالة التوزيع فى أكثر من موقع ، مثلما يأتى القول الحق مبيِّناً أدب النبوة :

﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ[1] .. (٢٤)﴾ [سبأ]

وليس هناك أدب فى العرض أكثر من هذا ، فيبين أن قضيته ﷺ وقضيتهم لا تلتقيان أبداً ، واحدة منهما صادقة والأخرى كاذبة ، ولكن من الذى يحدد القضية الصادقة من الكاذبة ؟ إنه الحق سبحانه .

وتجده سبحانه يقول على لسان رسوله ﷺ : ﴿أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ وفى ذلك طلب لأن يعرضوا الأمر على عقولهم ؛ ليعرفوا أى القضيتين هى الهدى ، وأيهما هى الضلال[2] .

وفى ذلك ارتقاء للمجادلة بالتى هى أحسن من رسول الله ﷺ .

ويقول الحق سبحانه :

---

(١) هذا من باب اللف والنشر ، وهو لون من ألوان البديع فى القرآن ، وتعريفه : « أن يُذكر شيئان أو أشياء ، إما تفصيلاً بالنص على كل واحد أو إجمالاً ، بأن يؤتى بلفظ يشتمل على متعدد ، ثم يذكر أشياء على عدد ذلك ، كل واحد يرجع إلى واحد من المتقدم ، ويفوِّض إلى عقل السامع رد كل واحد إلى ما يليق به » (الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى ٣/ ٢٧٩ ، ٢٨٠) وهو هنا تفصيلى ، وذلك مثل قوله تعالى : ﴿جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ .. (٧٣)﴾ [القصص] ، فالسكون راجع إلى الليل ، والابتغاء راجع إلى النهار .

(٢) وقد استخدم صحابة رسول الله ﷺ هذا المنهج مع المشركين ، فكانوا يقولون لهم : « والله ما نحن وإياكم على أمر واحد إن أحد الفريقين لمهتد » ذكره ابن كثير فى تفسيره (٣/ ٥٣٨) من قول قتادة . وهو دعوة لإعمال الفكر والعقل من جانب المشركين .

﴿قُل لاَّ تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ...(٢٥)﴾ [سبأ]

أى : كل واحد سيُسأل عن عمله ، فجريمتك لن أسأل أنا عنها ، وجريمتى لا تُسأل أنت عنها . ونسب الإجرام لجهته ولم يقل : " قل لا تُسألون عما أجرمنا ولا نُسأل عما تجرمون " وشاء ذلك ليرتقى فى الجدل ، فاختار الأسلوب الذى يُهذِّب ، لا ليهيِّج الخصم ؛ فيعاند ، وهذا من الحكمة ؛ حتى لا يقول للخصم ما يسبب توتره وعناده فيستمر الجدل بلا طائل .

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ فإذا كان الظلم من جهتى ؛ فسوف يحاسبنى الله عليه ، وإن كان من جهتكم ؛ فاعلموا قول الحق سبحانه : ﴿إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾ ولم يحدد من المجرم ، وترك الحكم للسامع .

كما تقول لإنسان له معك خلاف : سأعرض عليك القضية واحكم أنت ، وساعة تفوضه فى الحكم ؛ فلن يصل إلا إلى ما تريد . ولو لم يكن الأمر كذلك لما عرضت الأمر عليه .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ [1] ﴿١٨﴾﴾

---

(١) قال الجوهرى : الشرك الكفر . وأشرك يشرك إشراكاً فهو مشرك وهم مشركون . وفى الحديث : « الشرك أخفى فى أمتى من دبيب النمل » ، قال ابن الأثير : يريد به الرياء فى العمل فكأنه أشرك فى عمله غير الله . وفى الحديث : « من حلف بغير الله فقد أشرك » . [اللسان : مادة (شرك) بتصرف] .

وكلمة ﴿ وَيَعْبُدُونَ ﴾ تقتضى وجود عابد ؛ ووجود معبود ؛ ووجود معنى للعبادة . والعابد أدنى حالاً من المعبود ، ومظهر العبادة والعبودية كله طاعة للأمر والانصراف عن المنهى عنه .

هذا هو أصل العبادة ، ووسيلة القرب من الله .

وحتى تكون العبادة فى محلها الصحيح لا بد أن يقر العابد أن المعبود أعلى مرتبة فى الحكم على الأشياء ، أما إن كان الأمر بين متساويين فيسمونه التماساً .

إذن : فهناك آمر ومأمور ، فإن تساويا ؛ فالمأمور يحتاج إلى إقناع ، وأما إن كان فى المسألة حكم سابق بأن الآمر أعلى من المأمور ؛ كالأستاذ بالنسبة للتلميذ ، أو الطبيب بالنسبة للمريض ، ففى هذا الوضع يطيع المأمور الآمر لأنه يفهم الموضوع الذى يأمر فيه .

وكذلك المؤمن ؛ لأن معنى الإيمان أنه آمن بوجود إله قادر له كل صفات الكمال المطلق ؛ فإذا اعتقدت هذا ؛ فالإنسان ينفذ ما يأمر به الله ؛ ليأخذ الرضاء والحب والثواب . وإن لم ينفذ ؛ فسوف ينال غضب المعبود وعقابه .

إذن : فأنت إن فعلت أمره واجتنبت نهيه ؛ نلت الثواب منه ، وإن خالفت ؛ تأخذ عقاباً ؛ لذلك لا بد أن يكون أعلى منك قدرة ، ويكون قادراً على إنفاذ الثواب والعقاب ، والقادر هو الله جل علاه .

أما الأصنام التى كانوا يعبدونها ، فبأى شىء أمرتهم ؟ إنها لم تأمر بشىء ؛ لذلك لا يصلح أن تكون لها عبادة ؛ لأن معنى العبادة يتطلب أمراً ونهياً ، ولم تأمر الأصنام بشىء ولم تنه عن شىء ، بل كان المشركون هم الذين يقترحون الأوامر والنواهى ، وهو أمر لا يليق ؛ لأن المعبود هو الذى عليه أن يحدد أوجه الأوامر والنواهى .

إذن : فمن الحمق[1] أن يعبد أحدٌ الأصنام ؛ لأنها لا تضر من خالفها ، ولا تنفع من عبدها ، فليس لها أمر ولا نهى .

ومن أوقفوا أنفسهم هذا الموقف نسوا أن فى قدرة كل منهم أن ينفع الصنم وأن يضره ، فالواحد منهم يستطيع أن يصنع الصنم ، وأن يصلحه إذا انكسر ، أو يستطيع أن يكسره بأن يلقيه على الأرض . وفى هذه الحالة يكون العابد أقدر من المعبود على الضر وعلى النفع ، وهذا عين التخلف العقلى .

إذن : فمثل هذه العبادة لون من الحمق ، ولو عُرِضَتْ هذه المسألة على العقل ؛ فسوف يرفضها العقل السليم .

وعندما تجادلهم ، وتثبت لهم أن تلك الأصنام لا تضر ولا تنفع ، تجد من يكابر قائلاً : ﴿هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ وهم بهذا القول يعترفون أن الله هو الذى ينفع ويضر ، ولكن أما كان يجب أن يتخذوا شفيعاً لهم عند الله ، وأن يكون الشفيع متمتعاً بمكانة ومحبة عند من يشفع عنده[2] ؟

ثم ماذا يقولون فى أن من تُقدم له شفاعة هو الذى ينهى عن اتخاذ الأصنام آلهة وينهى عن عبادتها ؟

وهل هناك شفاعة دون إذن من المشفوع عنده ؟ من أجل ذلك جاء الأمر من الحق سبحانه لرسوله ﷺ :

---

(١) الحمق : وضع الشيء فى غير موضعه ، والحمق : ضد العقل أو قلة العقل وضعفه . والحميقاء : الخمر ؛ لأنها تعقب شاربها الحمق . والأحمق مأخوذ من انحماق السوق إذا كسدت ، فكأنه فسد عقله حتى كسد . قال ابن الأعرابى : الحمق أصله الكساد . ويقال : الأحمق الكاسد العقل . والحمق أيضاً : الغرور . وانحمق الرجل : ضعف عن الأمر . [اللسان : مادة (حمق)] .

(٢) يقول سبحانه : ﴿يَوْمَئِذٍ لاَّ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً ﴿١٠٩﴾﴾ [طه] ، إن ادعاء المشركين أن الأصنام تشفع لهم عند الله – ادعاء باطل ومع بطلانه اعتراف منهم بأن الشفاعة لا تكون إلا من الله سبحانه وشفاعة الله لا تكون إلا لحبيب ومحبوب يعمله فرضاً وفضلاً .

﴿قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي السَّمَـوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ .. ﴿١٨﴾﴾
[يونس]

إذن : فمن أين جئتم بهذه القضية ؛ قضية شفاعة الأصنام لكم عند الله ؟ إنها قضية لا وجود لها، وسبحانه لم يبلغكم أن هناك أصناماً تشفع ، وليس هذا وارداً ، فقولكم هذا فيه كذب متعمد وافتراء .

فهو سبحانه الذى خلق السموات وخلق الأرض ، ويعلم كل ما فى الكون ، وقضية شفاعة الأصنام عنده ليست فى علمه ، ولا وجود لها ، بل هى قضية مفتراة ، مُدَّعاة .

وقوله الحق هنا : ﴿أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ﴾ مثلها مثل قوله الحق :

﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ .. ﴿١٦﴾﴾ [الحجرات]

ويعنى هذا القول بالرد على من قالوا ويقولون : إن المطلوب هو تشريعات تناسب العصر ، وكلما فسد العصر طالبوا بتشريعات جديدة ، وما داموا هم الذين يشرِّعون ، فكأنهم يرغبون فى تعليم خالقهم كيف يكون الدين ، وفى هذا اجتراء وجهل بقدرة وحكمة مَنْ خلق الكون ، فأحكمه بنظام .

وقوله الحق : ﴿قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي السَّمَـوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ فيه تنزيه له سبحانه ، فهو الخالق لكل شىء ، خالق الملك والملكوت ويعلم كل شىء ، وقضية شفاعة الأصنام إنما هى قضية مفتراة لا وجود لها ؛ لذلك فهى ليست فى علم الله ، والحق سبحانه مُنزَّه أن توجد فى ملكه قضية لها مدلول يقينى ولا يعلمها ، ومُنزَّه جل وعلا عن أن يُشرك به ؛ لأن الشريك إنما يكون ليساعد من يشركه ، ونحن

نرى على سبيل المثال صاحب مال يديره فى تجارة ما ،ولكن ماله لا ينهض بكل مسئوليات التجارة ، فيبحث عن شريك له .

وسبحانه وتعالى قوى وقادر ، ولا يحتاج إلى أحد فى ملكية الكون وإدارته ، ثم ماذا يفعل هؤلاء الشركاء المدَّعون كذباً على الله ؟

إن الحق سبحانه يقول :

﴿ قل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لأَبْتَغَوْا [1] إِلَى ذِى الْعَرْشِ سَبِيلاً (٤٢) ﴾ [الإسراء]

وهذا القول الحكيم ينبه المشركين إلى أنه بافتراض جدلى أن لهؤلاء الشركاء قوة وقدرة على التصرف ، فهم لن يفعلوا أى شىء إلا بابتغاء ذى العرش ، أى : بأمره سبحانه وتعالى . وهم حين ظنوا خطأ أن لكل فلك من الأفلاك سيطرة على مجال فى الوجود ، وأن النجوم لها سيطرة على الوجود ، وأن كل برج من الأبراج له سيطرة على الوجود ، فلا بد فى النهاية من الاستئذان من مالك الملك والملكوت .

ومن خيبة من ظنوا مثل هذه الظنون ، ومعهم الفلاسفة الذين أقروا بأن هناك أشياء فى الكون لا يمكن أن يخلقها إنسان ، أو أن يدَّعى لنفسه صناعتها ؛ لأن الجنس البشرى قد طرأ على هذه المخلوقات ، فقد طرأ الإنسان على الشمس والقمر والنجوم والأرض ،ولا بد إذن أن تكون هناك قوة أعلى من الإنسان هى التى خلقت هذه الكائنات. كل هذه الكائنات تحتاج إلى مُوجد ، ولم نجد معامل لصناعة الشمس أو القمر أو الأرض أو وجدنا من ادعَى صناعتها أو خلقها .

ولكن الفلاسفة الذين قبلوا وجود خالق للكون لم يصلوا إلى اسمه

---

(١) ابتغوا : طلبوا . قال تعالى : ﴿ لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الأُمُورَ .. (٤٨) ﴾ [التوبة] [اللسان : مادة (بغى)] .

ولا إلى منهجه ، وقوة الحق سبحانه مطلقة ، ولا يحتاج إلى شريك له . وإذا أردنا أن نتأمل ولو جزءاً بسيطاً من أثر قوة الله التى وهبها للإنسان ، فلنتأمل صناعة المصباح الكهربى .

وكل منا يعلم أنه لا توجد بذرة نضعها فى الأرض ، فتنبت أشجاراً من المصابيح ، بل استدعت صناعة مصباح الكهرباء جهد العلماء الذين درسوا علم الطاقة ، واستنبطوا من المعادلات إمكان تصور صناعة المصباح الكهربى، وعملوا على تفريغ الهواء من الزجاجة التى يوضع فيها السلك الذى يضىء داخل المصباح ، وهكذا وجدنا أن صناعة مصباح كهربى واحد تحتاج إلى جهد علماء وعمل مصانع ، كل ذلك من أجل إنارة غرفة واحدة لفترة من الزمن . فما بالنا بالشمس التى تضىء الكون كله ، وإذا كان أتفه الأشياء يتطلب كمية هائلة من العلم والبحث والإمكانات الفنية والتطبيقية ، وتطوير للصناعات ، فما بالنا بالشمس التى تضىء نصف الكرة الأرضية كل نصف يوم ، ولا أحد يقدر على إطفائها ، ولا تحتاج إلى صيانة من البشر ، وإذا أردت أن تنسبها فلن تجد إلا الله سبحانه .

وأنت بما تبتكره و تصنعه لا يمكن أن يصرفك عن الله ، والذكى حقاً هو من يجعل ابتكاراته وصناعاته دليلاً على صدق الله فيما أخبر .

وإذا كان الحق سبحانه قد خلق الشمس[1] - ضمن ما خلق-وإذا أشرقت أطفأ الكل مصابيحهم ؛ لأنها هى المصباح الذى يهدى الجميع ، وإذا كان ذلك هو فعل مخلوق واحد لله ، فما بالنا بكل نعمة من سائر مخلوقاته . ونور الشمس إنما يمثل الهداية الحسية التى تحمينا من أن نصطدم بالأشياء فلا تحطمنا ولا نحطمها، فكذلك يضىء لنا الحق سبحانه المعانى والحقائق .

---

(١) يقول الحق سبحانه : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. ﴿٢٥﴾ ﴾ [لقمان] ويقول سبحانه : ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ .. ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأنبياء] ، ويقول سبحانه : ﴿ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ..﴿٤٥﴾ ﴾ [الفرقان] .

وإياك أن تقول : إن الفيلسوف الفلانى جاء بنظرية كذا ؛ فخذوا بها ، بل دع عقلك يعمل ويقيس ما جاء بهذه النظرية على ضوء ما نزل فى كتاب الحق سبحانه ، وإن دخلت النظرية مجال التطبيق ، وثبت أن لها تصديقاً من الكتاب ، فقل : إن الحق سبحانه قد هدى فلاناً إلى اكتشاف سر جديد من أسرار القرآن ؛ لأن الحق يريد منا أن نتعقل الأشياء وأن ندرسها دراسة دقيقة ، بحيث نأخذ طموحات العقل ؛ لتقربنا إلى الله ، لا لتبعدنا عنه ، والعياذ بالله .

وإذا قال الحق سبحانه : ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ فذلك لأن الشركة تقتضى طلب المعونة ، وطلب المعونة يكون إما من المساوى وإما من الأعلى ، ولا يوجد مساوٍ لله تعالى ، ولا أعلى من الله سبحانه وتعالى .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾﴾

وقد جاءت آية فى سورة البقرة متشابهة مع هذه الآية وإن اختلف الأسلوب ، فقد قال الحق سبحانه فى سورة البقرة : ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ[1] .. ﴿٢١٣﴾﴾ والذين يقرأون القرآن بسطحية وعدم تعمق قد

(١) الذين ذهبوا إلى أن الناس كانوا أمة واحدة على الكفر ، فاختلفوا فى عبادة مظاهر القوى ، ثم أدركوا أن القوى الكونية زائلة ؛ فاهتدوا بالعقل إلى الله تعالى . هؤلاء نسوا الميثاق الأول فى قوله تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾ [الأعراف] ، ولكن الناس كانوا أمة واحدة على فطرة الإيمان ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ .. ﴿٣٠﴾﴾ [الروم] ، فاختلفوا بعبادة غير الله ؛ فبعث الله الرسل ، وإلا كان إرسال الرسل عبثاً إذا كان الناس أمة واحدة على الكفر واهتدوا بعقولهم إلى الله سبحانه ، وهذا فهم قاصر .

لا يلتفتون إلى الآيات المشابهة لها فى المعنى العام ، وهذه الآيات توازن بين المعانى فلا تضارب بين آية وأخرى .

ولذلك نجد بين المفكرين العصريين من يقول : إن الناس كانوا كلهم كفاراً ، ثم ارتقى العقل محاولاً اكتشاف أكثر الكائنات قوة ؛ ليعبدوه ، فوجدوا أن الجبل هو الكائن العالى الصلب ؛ فعبدوه . وأناس آخرون قالوا : إن الشمس أقوى الكائنات فعبدوها ، وآخرون عبدوا القمر ، وعبد قوم غيرهم النجوم ، واتخذ بعض آخر آلهة من الشجر ، وكل جماعة نظرت إلى جهة مختلفة تتلمس فيها القوة .

وهم يأخذون من هذا أن الإنسان قد اهتدى إلى ضرورة الدين بعقله ، ثم ظل هذا العقل فى ارتقاء إلى أن وصل إلى التوحيد .

ونرد على أصحاب هذا القول : أنتم بذلك تريدون أن تعزلوا الخلق عن خالقهم ، وكأن الله الذى خلق الخلق وأمدهم بقوام حياتهم المادية قد ضَنَّ عليهم بقوام حياتهم المعنوية ، وليس هذا من المقبول أو المعقول ، فكيف يضمن لهم الحياة المادية ،ولا يضمن لهذه المادية قيمًا تحرسها من الشراسة وتحميها من الفساد والإفساد ؟

وقوله الحق :

﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٢١٣) ﴾ [البقرة]

لذلك فَهِمَ البعض أن الناس كانوا أمة واحدة فى الكفر ، وحين جاء

النبيون ، اختلف الناس ؛ لأن منهم من آمن ومنهم من ظل على الكفر ، ولكن لو أحسن الذين قالوا مثل هذا القول الاستنباط وحسن الفهم عن الله لوجدوا أن مقصود الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها الآن إنما هو : ما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا ؛ فبعث الله النبيين ؛ ليخرجوهم عن الخلاف ويعيدوهم إلى الاتفاق على عهد الإيمان الأول الذى شهدوا فيه بربوبية الحق سبحانه وتعالى [(١)] ؛ لأن الأصل فى المسألة هو الإيمان لا الكفر [(٢)] .

ومن أخذ آية سورة البقرة كدليل على كفر الناس أولاً ، نقول له : اقرأ الآية بأكملها ؛ لتجد قوله الحق : ﴿ **كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ** .. (٢١٣) ﴾ [البقرة]

وهكذا نرى أن الاختلاف الذى حدث بين الناس جاء فى آية البقرة فى المؤخرة ، بينما جاء الاختلاف فى هذه الآية فى المقدمة ، وهذا دليل على أن الناس كانوا أمة واحدة على الإيمان [(٣)] ، فليس هناك أناس أولَى من

---

(١) وذلك قوله تعالى : ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ** (١٧٢) ﴾ [الأعراف] .

(٢) وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : كان بين نوح وآدم عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين . أورده ابن كثير فى تفسيره (١/ ٢٥٠) .

(٣) إن تصدير الاختلاف فى آية سورة يونس وتأخيره فى سورة البقرة ، فأول القضية أن الأمة واحدة على دين الله ومنهجه ، والخلاف عارض ؛ لهذا كان الرسل ، أما موقف سيدنا إبراهيم عليه السلام فى آية الأنعام فى قوله تعالى : ﴿ **فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ** (٧٦) **فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ** (٧٧) **فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ** (٧٨) **إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ** (٧٩) ﴾ [الأنعام] فسيدنا إبراهيم كان فى مرحلة إيمان الهداية ، ثم بالتأمل يصل إلى إيمان الدلالة حتى يصل إلى إيمان اليقين .

أناس عند الخالق سبحانه وتعالى ، ولم يكن عدل الله ليترك أناساً متخبطين فى أمورهم على الكفر ، ويرسل الرسل لأناس آخرين بالهداية ؛ فالناس بالنسبة لله سواء . وما دام الحق سبحانه قد أوجد الخلق من البشر فلا بد أن يُنزل لهم منهجاً ؛ ولذلك حين نقرأ قول الحق سبحانه : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ [1] مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [آل عمران]

نجد فيه الرد على من يقول إن إبراهيم عليه السلام هو أول من بنى الكعبة ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى لم يترك الخلق من آدم إلى إبراهيم دون بيت يحجون [2] إليه ، ولكن الحق سبحانه وضع البيت ؛ ليحج إليه الناس من أول آدم إلى أن تقوم الساعة ، والذى وضع البيت ليس من الناس ، بل شاء وضع البيت خالق الناس ، وما فعله سيدنا إبراهيم - عليه السلام - هو رفع القواعد من البيت الحرام .

أى : أنه أقام ارتفاع البيت بعد أن عرف مكان البيت طولاً وعرضاً ، مصداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا [3] لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ .. ﴿٢٦﴾ ﴾ [الحج]

---

(١) بكة : موضع البيت الحرام . ومكة : الحرم كله وتدخل فيه البيوت . وبعض علماء التفسير مثل مجاهد ذهب إلى أن كليهما واحد ، وأن الميم مبدلة من الباء . ثم قيل : بكة مشتقة من البك وهو الازدحام أى : ازدحامهم في موضع طوافهم . والبك أيضاً : دق العنق ، وسميت بذلك لأنها كانت تدق رقاب الجبابرة إذا ألحدوا فيها بظلم . بتصرف من تفسير القرطبى (٢/ ١٤٨٦) .

(٢) يحجون إليه : يقصدونه بشد الرحال إليه للعبادة والتعظيم . قال الجرجانى فى كتابه : « التعريفات » (ص ٧٢) : « الحج : القصد إلى الشىء المعظم ، وفى الشرع قصد لبيت الله تعالى بصفة مخصوصة فى وقت مخصوص بشرائط مخصوصة فى أماكن مخصصة » .

(٣) بوأنا له : أنزلناه بمكان البيت الحرام وهديناه إليه . والتبوّء : أن يعلم الرجل الرجل على مكان لينزل به . وبوأنا له : هيأنا له المكان ومكناه منه . قال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ .. ﴿٥٦﴾ ﴾ [يوسف] . [اللسان : مادة (بوأ) - بتصرف] .

وهكذا يَصْدُق قول الحق سبحانه بأن البيت قد وُجد للناس قبل آدم ، وهو للناس إلى أن تقوم الساعة ، وهكذا نعلم أن الحق سبحانه خلق الخلق وأنزل لهم المنهج ، وأن الأصل فى الناس هو الإيمان ، لكن الكفر هو الذى طرأ على البشر من بابين : باب الغفلة ، وباب تقليد الآباء .

والدليل على ذلك أن الحق سبحانه وتعالى حينما تكلَّم عن ميثاق الذر ، قال :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ [1] وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣) ﴾ [الأعراف]

إذن : فالتعصِّى عن الحكم الإيمانى مدخله بابان : الأول باب الغفلة ، أى : أن تكون قد علمتَ شيئاً ، ولم تجعله دائماً فى بؤرة [2] شعورك ؛ لأن عقلك يستقبل المعلومات ، ويستوعبها من مرة واحدة ، إن لم تكن مُشتَّتَ الفكر فى أكثر من أمر ، فإن كنت صافى الفكر ومنتبهاً إلى المعلومة التى تَصِلُكَ ؛ فإن عقلك يستوعبها من مرة واحدة ، ومن المهم أن يكون الذهن خالَياً لحظة أن تستقبل المعلومة الجديدة .

ولذلك نجد فارقاً بين إنسان وإنسان آخر فى حفظ المعلومات ، فواحد يستقبل المعلومة وذهنه خالٍ من أى معلومة غيرها ، فتثبت فى بؤرة

---

(١) ذريّة الرجل : ولده ، والجمع : الذريات والذرارى . قال تعالى : ﴿ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ .. (٣٤) ﴾ [آل عمران] والذرية مأخوذة من ذَرَأَ الله الخلق ، أى : خلقهم . فالذرية : اسم يجمع نسل الإنسان من ذكر وأنثى ، وأصلها الهمز ولكنهم حذفوه فلم يستعملوها إلا غير مهموزة ؛ وقيل : الذرية أصلها من الذَّرِّ بمعنى : التفريق ؛ لأن الله تعالى ذَرَّهم فى الأرض ، أى : فرَّقهم . [اللسان : مادة (ذرر)] .

(٢) بأر الشىء : خبأه وادَّخره . ومنه قيل للحفرة : البؤرة . ومنها بؤرة الشعور أى : حفرة ومركز الشعور الذى يحتفظ فيها الإنسان بمعلوماته ومشاعره تجاه الأحداث التى تواجهه . انظر لسان العرب (مادة : بأر) .

الشعور ، بينما يضطر الآخر إلى تكرار قراءة المعلومة إلى أن يخلو ذهنه من غيرها ؛ فتستقر المعلومة فى بؤرة الشعور ، وحين تأتى معلومة أخرى ، فالمعلومة الأولى تنتقل إلى حاشية الشعور إلى حين أن يستدعيها مرة أخرى .

وإذا أراد طالب - على سبيل المثال- أن يستوعب ما يقرأ من معلومات جديدة ، فعليه أن ينفض عن ذهنه كل المشاغل الأخرى [(١)] ؛ ليركِّز فيما يدرس ؛ لأنه إن جلس إلى المذاكرة وباله مشغول بما سوف يأكل فى الغداء ، أو بما حدث بينه وبين أصدقائه ، أو بما سوف يرتدى من ملابس عند الخروج من البيت ، أو بغير ذلك من المشاغل ، هنا سوف يُضطر الطالب أن يعيد قراءة الدرس أكثر من مرة ؛ حتى يصادف الدرسُ جزئية خالية من بؤرة الشعور ؛ فتستقر فيها [(٢)] .

وقد نجد طالباً فى صباح يوم الامتحان وهو يسمع من زملائه أن الامتحان قد يأتى فى الجزء الفلانى من المقرر ؛ فيفتح الكتاب المقرر على هذا الجزء ويقرأه مرة واحدة ؛ فيستقر فى بؤرة الشعور ، ويدخل الامتحان ، ليجد السؤال فى الجزء الذى قرأه مرة واحدة قبل دخوله إلى اللجنة ؛ فيجيب عن السؤال بدقة .

---

(١) ولذلك أرشد العلماء طلاب العلم أن يقللوا علائق الاشتغال بالدنيا ، فإن العلائق - كما يقول الإمام أبو حامد الغزالى - فى إحيائه(كتاب العلم) « شاغلة وصارفة و﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ .. ④ ﴾ [الأحزاب] ، ومهما توزعت الفكرة قصرت عن دَرْك الحقائق ؛ ولذلك قيل : «العلم لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك» والفكرة المتوزعة على أمور متفرقة كجدول تفرق ماؤه فنشَّفت الأرض بعضه واختطف الهواء بعضه ، فلا يبقى منه ما يجتمع ويبلغ المزارع » . قال الزبيدى فى اتحاف السادة المتقين (١/ ٥٠٤) : «لذا كرهوا للمتعلم الاشتغال فى درسين فى علمين مستقلين لئلا تتوزع الفكرة ، والانتقال من فن إلى فن آخر قبل استكمال الأول» .

(٢) وأمر تخلية الذهن والفكر من الشواغل والخواطر شىء حَثَّ عليه حديث رسول الله ﷺ بالنسبة للصلاة ، فعن عائشة رضى الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «لا صلاة بحضرة طعام ، ولا وهو يدافعه الأخبثان» أخرجه مسلم فى صحيحه (٥٦٠) والأخبثان هما البول والبراز . فكذلك درس العلم يجب على المتعلم أن يعطيه كل ذهنه وتركيزه فلا يشغله عنه شىء .

ولذلك فالتلميذ الذكى هو من يقوم بما يسمّيه علم النفس «عملية الاستصحاب» ، أى : أن يقرأ الدرس ثم يغلق الكتاب ؛ ليسأل نفسه : «ما الجديد من المعلومات فى تلك الصفحة ؟» ويحاول أن يتذكر ذلك ، ويحاول أن يتعرف حتى على الألفاظ الجديدة التى فى تلك الصفحة ، وما هى الأفكار الجديدة التى صحَّحَتْ له معلومات أو أفكاراً خاطئة كانت موجودة لديه .

وهكذا يستصحب الطالب معلوماته بتركيز وانتباه .

وكذلك الأستاذ المتميز هو من يشرح الدرس ثم يتوقف ؛ ليسأل التلاميذ ؛ ليثير انتباههم ؛ حتى لا ينشغل أحدهم بما هو خارج الدرس ، والأستاذ المتميز هو الذى يلقى درسه بما يستميل التلاميذ ، كما تستميلهم القصة المروية ، وحتى لا تظل المعلومات الدراسية مجرد معلومات جافة .

وبهذا يستمر الذهن بلا غفلة ، والغفلة تأتى إلى القضايا الدينية ؛ لأن فى الإنسان شهوات تصادم الأوامر والنواهى ؛ فيتناسى الإنسان بعض الأوامر وبعض النواهى إلى أن يأتى الران [1] الذى قال عنه الحق سبحانه :

﴿ كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤) ﴾ [المطففين]

ويبين النبى ﷺ ذلك بالحديث الشريف : « نزلت الأمانة فى جذر [2] قلوب الرجال ، ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن وعلموا من السُّنَّة» . ثم يحدثنا ﷺ عن رفع الأمانة فيقول : «ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة

(١) الرين : الطَّبع والدَّنس . وهو كالصدأ يغشى القلب . قال الحسن : هو الذنب على الذنب حتى يسوادَّ القلب . بتصرف من لسان العرب (مادة : رين) والرين : الصدأ يعلو السيف فيذهب ببريقه ويستعار للغشاوة تغطى على القلب بسبب الذنوب ، وران الصدأ عليه : غلب عليه وغطَّاه كله . قال تعالى : ﴿ كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤) ﴾ [المطففين] .

(٢) جَذْر كل شىء : أصله . ومنه هذا الحديث : جَذْر قلوب الرجال ، أى : فى أصلها . (اللسان مادة : جذر) .

من قلـبه ؛ فيـظل أثرها مثل أثر الوكْت »[1][2] أى : مثـل لسعة النار وهكذا تتـوالى ؛ حتى يـأتى الرَّانُ على القـلب .

إذن : فالغفلة تتلصص على النفس الإنسانية ، وكلما غفل الإنسان فى نقطة ، ثم يغفل عن أخرى وهكذا . ولكن من لا يغفل فهو من يتذكر الحكم ، ويطبقه ، ويذوق حلاوته[3] . ومثال هذا : المسلم الذى يشرح الله تعالى قلبه للصلاة ، فإن لم يُصَلِّ يظل مُرْهقاً وفى ضيق .

ولذلك جاء فى الحديث أن رسول الله ﷺ قال : «تُعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً ، فأىّ قلب أشْربها نكت فيه نكتة سوداء ، وأى قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء حتى تصير على قلبين : على أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض ، والآخر أسود مرباداً كالكوز مُجَخِّياً لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه»[4] .

إذن : فالغفلة هى أول باب يدخل منه الشيطان ؛ فيبعد الإنسان عن

---

(١) الوكتة : الأثر فى الشىء ، كالنقطة من غير لونه ، والجمع : وكت . وفى الحديث : «لا يحلف أحد ولو على مثل جناح بعوضة ، إلا كانت وكتة فى قلبه» . ومنه فى حديث حذيفة : « . . ويظل أثرها كأثر الوكت» . [اللسان : مادة (وكت)] .

(٢) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٤٩٧) ومسلم (٢٤٣) من حديث حذيفة بن اليمان وهو حديث طويل ، هاتان قطعتان منه .

(٣) هذه الحلاوة تحدث عنها رسول الله ﷺ فقال : «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة طعم الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود فى الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف فى النار» متفق عليه . أخرجه البخارى (١٦) ومسلم (٤٣) عن أنس بن مالك .

(٤) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٤٤) وأحمد فى مسنده (٥/ ٣٨٦ ، ٤٠٥) من حديث حذيفة بن اليمان .
مثل الصفا : الصخرة الملساء العريضة .
مرباداً : أسود مشوباً بغبرة .
كالكوز : كلمة عربية صحيحة لا فارسية وهو كوب بعُروة .
مجخياً : مائلاً ، أى : عن الاستقامة والاعتدال ، فشبه القلب الذى لا يعى خيراً بالكوز المائل الذى لا يثبت فيه شىء لأن الكوز إذا مال انصب ما فيه . [انظر لسان العرب مادة : جخى] .

أحكام الله . وإذا ما غفل الأب ، فالأبناء يُقلِّدون الآباء ، فتأتيهم غفلة ذاتية. وهكذا يكون الغافل أسوة لمن بعده.

ولذلك قال الحق سبحانه عن الأبناء الذين يتبعون غفلة الآباء: ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا (١) عَلَيْهِ آبَاءَنَا .. (١٧٠)﴾ [البقرة]

وإِلْف تقليد الآباء قضية كاذبة ؛ لأننا إن سلسلنا مسألة الإيمان إلى آدم عليه السلام ، وهو الأب الأول لكل البشر ؛ لوجدنا أن آدم عليه السلام قد طبَّق كل مطلوب لله (٢) ، فإن قلت: ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ فهذا القول يحتم عليك ألا تنحرف عن الإيمان الفطرى ، وإلا كنت من الكاذبين غير المدققين فيما دخل على الإيمان الفطرى من غفلة أو غفلات ، تبعها تقليد دون تمحيص.

والحق سبحانه قد شاء أن تكون كل كلمة فى القرآن لها معنى دقيق مقصود ، فالحق سبحانه يقول على ألسنة الكافرين فى القرآن :﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ (٢٣)﴾ [الزخرف]

ولم يقل: «مهتدون» بل قال : «مقتدون» ، والمقتدى من هؤلاء هو من اتخذ أباه قدوة ، لكن المهتدى هو مَنْ ظن أن أباه على حق.

إذن: فالمقتدى هو من لا يهتم بصدق إيمان أبيه ، بل يقلده فقط ، وتقليد الآباء نوعان: تقليد على أنه اقتداء مطلق لا صلة له بالهدى أو الضلال ، وتقليد على أنه هدى صحيح لشرع الله تعالى.

---

(١) ألفينا: وجدنا . يقال: ألفيت الشيء إذا وجدته وصادفته ولقيته. انظر اللسان مادة (لفى).

(٢) إن آدم عليه السلام طبَّق المطلوب ، أما أكله من الشجرة التى نُهى عنها ، فكان نسياناً ، والنسيان وارد وعارض ؛ لذلك علمه الله كلمات فتاب عليه وهدى ، بدليل قوله تعالى : ﴿فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ..(١١٥)﴾ [طه] وهذا لا ينافى أنه طبق كل المطلوب.

وقد حدث خلاف حول آدم عليه السلام أهو رسول أم نبى فقط [(١)] ؟ فهناك مَنْ قال: إن أول الرسل هو نوح عليه السلام ونقول : وهل من المعقول أن يترك الله الخلق السابقين على نوح عليه السلام دون رسول ؟

إن الحق سبحانه هو القائل: ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا [(٢)] فِيهَا نَذِيرٌ (٢٤) ﴾ [فاطر]

والذى أشكل على هؤلاء المفسرين الذين قالوا: إن أول رسول هو نوح عليه السلام أنهم قد فكروا تفكيرا سطحياً ، وفهموا أن الرسول يطرأ على المرسل إليهم ، وما دام لم يكن هناك بشر قبل آدم فكيف يكون آدم مبعوثاً برسالة ، ولمن تكون تلك الرسالة؟

ولم يفطن هؤلاء المفسرون إلى أن آدم عليه السلام كان رسولاً وأسوة إلى أبنائه ، فالحق سبحانه قد قال له: ﴿ .. فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨) ﴾ [البقرة]

وسبحانه قد قال لآدم عليه السلام: ﴿ .. فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ (١٢٣) ﴾ [طه]

وما دام الحق سبحانه قد ذكر الهدى ، فهذا ذكر للمنهج ، وهو الذى طبقه سلوكاً يقلده فيه الأبناء. وغفل هؤلاء المفسرون أيضاً عن استقراء قوله الحق: ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا [(٣)] .. (٢٧) ﴾ [المائدة]

---

(١) هناك فرق بين النبى والرسول ، فالنبى هو من نُبِّئَ وأوحىَ إليه دون أن ينزل عليه كتاب أو يؤمر بتبليغ قومه رسالة معينة ، لذلك كان كل رسول نبياً ، وليس كل نَبى رسولاً.

(٢) خلا: مضى. أى: مضى وأرسل. ويقال : القرون الخالية: الماضية ومنها قوله عز وجل: ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ .. (١٣٤) ﴾ [البقرة] ، وقوله عز وجل: ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (٢٤) ﴾ [الحاقة].

(٣) القربان: ما قُرِّب إلى الله - عز وجل - وتقرَّبت به ، تقول: قرَّبتُ لله قرباناً. وتقرّب إلى الله بشىء ، أى : طلب به القُرْبة عنده تعالى. قال الليث: القربان ما قربت إلى الله ، تبتغى بذلك قربة ووسيلة .[اللسان : مادة (قرب) - بتصرف].

وابْـنَا آدم عليه السلام قد قدَّمـا القربان إلى الله تعالى. إذن: فهما قد عرفا أن هناك إلهاً.

وحين قال قابيل لأخيه: ﴿لأَقْتُلَنَّكَ (٢٧)﴾ [المائدة]

بعد ما تقبل الله قربان أخيه ولم يتقبل منه. قال هابيل: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧)﴾ [المائدة]

ثم في قول هابيل: ﴿لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٢٨)﴾ [المائدة]

إذن: لو لم يكن آدم عليه السلام رسولاً فمن بلَّغ أبناءه بأن الله يثيب ويعاقب؟

والحق سبحانه يقول في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها: ﴿وَلَوْلا كَلِمَةٌ (١) سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ وفي هذا إشارة إلى أن الله سبحانه - قبل رسالة محمد عليه الصلاة والسلام - كان يعاقب مَن يكذِّب البلاغ عنه وما جاء به السابقون من الرسل، يقول سبحانه:

﴿فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا (٢) وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ (٣) وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ (٤) وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠)﴾ [العنكبوت]

---

(١) وعد الله سبحانه أنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه، وأنه قد أجل الخلق إلى أجل معدود لقضى بينهم فيما اختلفوا فيه فأسعد المؤمنين وأعنت الكافرين [ابن كثير ٢/ ٤١١].

(٢) الحاصب: ريح صرصر باردة شديدة البرد عاتية شديدة الهبوب جداً تحمل عليهم حصباء الأرض، فتلقيها عليهم وتقتلعهم من الأرض. [ابن كثير ٣/ ٤١٣].

(٣) عُذِّب بها قوم ثمود، جاءتهم صيحة أصمَّت آذانهم وأخمدت منهم الأصوات والحركات. [ابن كثير ٣/ ٤١٣].

(٤) الخسف: إذهاب الأشياء في الأرض. وخُسف بالرجل: إذا أخذته الأرض وغاب فيها، وقد عُذِّب بهذا قارون. [ابن كثير ٣/ ٤١٣].

إلا أمة محمد ﷺ فقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنفال]

أى: أنه سبحانه قد أجَّلَ الجزاء والعقوبة عن أمة محمد ﷺ إلى الآخرة. وهذه الكلمة التى سبقت، أنه سبحانه لا يؤاخذ أمة محمد ﷺ بذنوبهم فى الدنيا، ولكنه يؤخِّر ذلك إلى يوم الجزاء. ويقضى سبحانه فى ذلك اليوم بين من اتبعوا الرسول ﷺ ومن عاندوه، وبطبيعة الحال يكون الحق سبحانه فى جانب من أرسله، لا من عاند رسوله ﷺ.

ويقول سبحانه بعد ذلك:

﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ[(١)] عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾﴾

والآية كما عرفنا هى الشىء العجيب، وإما أن تكون آية كونية، أو آية إعجاز، أو آية قرآن تشتمل على الأحكام.

ولماذا لم يصدقوا آيات القرآن، وهى معجزة بالنسبة إليهم؟

نقول: إن استقبال القرآن فَرْع تصديق للرسول ﷺ، وقد حدث اللبس عندهم؛ لأنهم ظنوا أن الآية هى الآيات المحسّة الكونية المشهودة، وما علموا أن الآيات التى سبق بها الرسل إنما جاءت لتناسب أزمان

---

(١) تستعمل (لولا) أداة عرض وتحضيض، مثل (هلا) وتختص بالدخول على المضارع كقوله تعالى: ﴿لَوْلا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ .. ﴿٤٦﴾﴾ [النمل] وتدخل على ماض فى تأويل المضارع كقوله تعالى: ﴿لَوْلا أَخَّرْتَنِى إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ .. ﴿١٠﴾﴾ [المنافقون] أى: لولا تؤخرنى، وتستعمل (لولا) للتوبيخ والتنديم فتختص بالماضى كقوله تعالى: ﴿لَوْلا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ ..﴿١٣﴾﴾ [النور]، ولها استعمالات أخرى يرجع إليها فى كتب اللغة [القاموس القويم: ٢/ ٢٠٧، ٢٠٨].

رسالاتهم ، ولتناسب مواقعهم من المرسل إليهم.

فقد كان الرسل السابقون لرسول الله ﷺ - وعلى جميع الرسل السلام - قد بُعث كل منهم لأمة محدودة زماناً ومكاناً ؛ ولذلك كانت الآيات التى اصطحبوها آيات حسية ، وكل آية كانت من جنس ما نبغ فيه القوم المبعوث إليهم.

أما رسالة محمد عليه الصلاة والسلام فهى لعامة الزمان وعامة المكان [1]. فلو جعل الله سبحانه له آية حسية لآمن بها مَنْ شاهدها ، ولَصارَتْ خبراً لمن لم يشاهدها.

ونحن على سبيل المثال كمسلمين لم نصدِّق أن موسى - عليه السلام - قد ضرب البحر فانشق له البحر ؛ إلا لأن القرآن قال ذلك ؛ لأن كل أمر حسى يقع مرة واحدة فمن شاهده آمن به ، ومن لم يره إن حُدِّث به له أن يكذِّب ، وله أن يصدِّق ، ولكنّا صدقنا ؛ لأن القائل هو الحق سبحانه وقد أبلغنا ذلك فى القرآن. وثقتنا فيمن قال هى التى جعلتنا نصدق معجزات الرسل السابقين على رسول الله ﷺ .

وقد يتساءل البعض عن السر فى عدم إرسال معجزات حسية مع رسول الله ﷺ ، فنقول: لقد شاء الله سبحانه أن يرسل الرسول ﷺ بمعجزة باقية إلى أن تقوم الساعة وهى معجزة القرآن. وتتحدث كتب السيرة أن الماء نبع من بين أصابعه ﷺ ، فمن صدَّق صدَّق ، وإن قرأت ولم تصدِّق ذلك ، فاعلم أنك لست المقصود بها ، فقد كان المقصود بها هم المعاصرون

---

(١) وهذا مما خص به الله رسوله ﷺ وأمته ، ويدل عليه حديث رسول الله ﷺ : أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلى : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً ، فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل ، وأحلت لى المغانم ولم تحل لأحد قبلى ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبى يُبعث إلى قومه خاصة وبُعثت إلى الناس عامة» من حديث جابر بن عبد الله. أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٣٥) ومسلم (٥٢١).

لها ، وقد جاءت لتربيب الإيمان فى القوم المعاصرين ؛ لأنهم كانوا فى حاجة إلى شَدِّ أزْرِهم الإيمانى ، وحدَّثتنا كتب السيرة أيضًا عن حفنة الطعام التى أكل منها عدد كبير من الرجال ، ومن صدَّق الرواية ؛ فليصدِّقها ، ومَن لم يصدِّقها ، فهذه الآية لم تأت له ، لكنها جاءت للمعاصرين له ﷺ .

وهذا لا يمنع أن يكون للرسول ﷺ معجزات حسية كباقى إخوانه من الرسل علينا أن نؤمن بها بالثقة فيمن أخبر بها .

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ وإن دخلت «لولا»[1] على جملة اسمية ، فالمقصود بها عدم شىء لوجود شىء ، كقول إنسان لآخر : لولا زيد عندك لأتيتك ، وبذلك ينعدم ذهابه إلى فلان لوجود زيد عنده . وهكذا تكون «لولا» حرف امتناع لوجود ، وكذلك كلمة «لوما» إن وجدتها تدخل على جملة اسمية فاعرف أنها امتناع شىء ، لوجود شىء وإن دخلت «لولا» على جملة فعلية فاعلم أنها حثٌّ وتحضيض .

وهم هنا قد قالوا : ﴿لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ﴾ وكأنهم لا يعترفون بالقرآن ، وطلبوا آية حسية ؛ لذلك نجد الحق سبحانه يقول فى موقع آخر بالقرآن الكريم : ﴿لَوْلا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ ﴿٤٨﴾﴾ [القصص]

وهذا تأكيد أنهم طلبوا الآية الحسية ؛ لأنهم علموا بالآيات الحسية للرسل السابقين على رسول الله ﷺ ، ولكن قولهم هذا كان تشبثاً بالكفر

(١) «لولا» حرف شرط لا يعمل ، ويدل على امتناع الجواب لوجود الشرط وجملة الشرط اسمية (مبتدأ وخبر) ويحذف الخبر وجوباً إذا كان كوناً عاماً وإذا وليها مضمر يكون ضمير رفع منفصلاً مثل : ﴿لَوْلا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ .. ﴿٣١﴾﴾ [سبأ] وجملة الجواب فعلية وتقترن باللام إذا كانت مثبتة فى الغالب وتتجرد منها إذا كانت منفية . قال تعالى : ﴿وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا .. ﴿٢١﴾﴾ [النور] وقد يحذف الجواب إذا دل عليه دليل كقوله تعالى : ﴿وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾﴾ [النور] القاموس القويم جـ ٢ / ٢٠٧

رغم أنهم شهدوا رسول الله ﷺ فى كل أحواله ، وقد حدثت الآيات الحسية ورآها مَنْ آمن به ، وزاد تمسكهم بالإيمان.

والذين طلبوا أن يأتى لهم محمد ﷺ بمعجزة حسية ، كمعجزة موسى عليه السلام ، نسوا أن موسى عليه السلام قد بُعث إلى قوم محدودين هم بنو إسرائيل.

أما محمد ﷺ فقد بُعث إلى الناس كافة ؛ لذلك كان لا بد أن تكون معجزته متجدّدة العطاءات ، وتحمل المنهج المناسب لكل زمان ومكان. أما المعجزة الحسية فهى تنقضى بانقضاء زمانها ومكانها.

أو هم طلبوا الآيات التى اقترحوها مثل قولهم: ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا [1] ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا [2] أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا [3] ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ [4] أَوْ تَرْقَىٰ [5] فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ .. ﴿٩٣﴾﴾ [الإسراء]

إذن: فهم قد طلبوا آيات اقترحوها بأنفسهم ، والآيات لا تكون باقتراح المرسل إليهم ، بل بتفضُّل المُرْسل.

---

(١) الينبوع: العين الجارية والجدول الكثير الماء ، والجمع ينابيع. (اللسان: مادة نبع).

(٢) كسَفاً: جمع كِسْفة وهى القطعة ، والمراد: العذاب. قال تعالى: ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ .. ﴿٩﴾﴾ [سبأ]. [اللسان: مادة (كسف)].

(٣) القبيل: الجماعة من أى شىء.

(٤) زخرف: نقش وزينة وتمويه بالذهب. والزخرف: الذهب فى غيره. قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا ..﴿٢٤﴾﴾ [يونس]. [اللسان: مادة (زخرف)]

(٥) ترقى: تَصْعَد ، والرقىّ: الصعود. وفى الحديث: «كنت رقّاءً على الجبال» أى: صعّاداً عليها ، وفعّال للمبالغة. قال تعالى: ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ ۜ رَاقٍ ﴿٢٧﴾﴾ [القيامة].

ولقائل أن يقول: ولماذا لم يُرسِل الحق سبحانه لهم آية حسية معجزة كما قالوا؟

فنقول: إن الحق سبحانه قد قال: ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ .. (٥٩) ﴾ [الإسراء]

وعلى ذلك يكون قولهم بطلب الآيات مدحوضاً[1]؛ لأن الحق سبحانه قد أرسل الآيات من قبل وكذَّب بها الأولون، أو هم طلبوا آيات اقترحوها، ويقول الحق سبحانه ما جاء على ألسنتهم: ﴿لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ وفى هذا إقرار منهم بأن لمحمد ﷺ ربّاً، وهو ﷺ يُبلِّغ عنه، فكيف - إذن - يُنكرون أنه رسول؟!

ونعلم أنهم قالوا من قبل: «إن رب محمد قد قلاه[2]» حين فتر[3] الوحى عنه ﷺ، ولكن الحق سبحانه ردّ عليهم:

﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣) ﴾ [الضحى]

إذن: هم قد ناقضوا أنفسهم، ففى الوصل منعوا وأنكروا أن يكون له ربٌّ، وفى الهجر سلّموا بأن له ربّاً، وهذا تناقض فى الشىء الواحد، وهو لون من التناقض يؤدى إلى اضطراب الحكم، واضطراب الحكم يدل على يقظة الهوى[4].

---

(١) الدحض: الدفع والبطلان. ومنه قوله تعالى: ﴿ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ ..(١٦) ﴾ [الشورى] أى: باطلة.

(٢) قلاه: أبغضه وتركه وتخلى عنه، عن جندب البجلى قال: أبطأ جبريل على رسول الله ﷺ فقال المشركون: قد وُدِّع محمد. فأنزل الله عز وجل: ﴿ وَالضُّحَىٰ (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣) ﴾ [الضحى] أخرجه مسلم فى صحيحه (١٧٩٧) والترمذى فى سننه (٣٣٤٥) وقال: حديث حسن صحيح. وقد أورد ابن كثير فى تفسيره (٤ / ٥٢٢) من الطريق الذى أخرجه مسلم والترمذى إلى جندب بلفظ: «فقال المشركون: ودع محمداً ربُّه».

(٣) فتر الوحى: انقطع.

(٤) أى: أنه يُحكِّمُ هواه فى كل تصرفاته ومنازع تفكيره، أى: يتخذ هواه إلهاً له، يأتمر بأمره، وينتهى بنهيه؛ لهذا يحدث التناقض. ويقول سبحانه: ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٢٣) ﴾ [الجاثية].

ثم يقول الحق سبحانه رداً على طلبهم للآية الحسية : ﴿فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ وهكذا يُعلِّم الحق سبحانه وتعالى رسوله ﷺ جواباً احتياطياً ، فمن الممكن أن يُنزل الحق سبحانه الآية الحسية ، ومن الممكن ألا ينزلها ، فرسول الله ﷺ لا يحكم على ربه ؛ لأن الغيب أمر يخصه سبحانه ، إن شاء جعل ما فى الغيب مشهداً ، وإن شاء جعل الغيب غيباً مطلقاً ، وليس عليكم إلا الانتظار ، ويعلن رسول الله ﷺ أنه معهم من المنتظرين ﴿فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ ⟨٢٠⟩﴾ [يونس]

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا[1] يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ⟨٢١⟩﴾

والرسول ﷺ حين ضاق ذرعاً بالكافرين من صناديد قريش دعا عليهم أن يهديهم الحق بسنين الجدب كالسنين التى أصابت مصر واستطاع سيدنا يوسف عليه السلام أن يدبر أمرها ، فسلط الحق سبحانه على قريش الجدب والقحط[2] ، ثم جاء لهم بالرحمة من بعد ذلك . وكان من المفروض أن يرجعوا إلى الله ، وأن يؤمنوا برسالة رسوله ﷺ ، بعد أن علموا أن ما

---

(١) المقصود بالرسل هنا : الحفظة من الملائكة . قال تعالى : ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ⟨٩⟩ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ⟨١٠⟩ كِرَامًا كَاتِبِينَ ⟨١١⟩ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ⟨١٢⟩﴾ [الانفطار] .

(٢) الجدب : نقيض الخصْب . أى : الجفاف وانقطاع المطر . وفى حديث الاستسقاء : «هلكت المواشى وأجدبت البلاد» ، أى : قحطتْ وغَلَت الأسعار . [اللسان : مادة (جدب)] .

القحط : احتباس المطر ، والقحط : الجدب ؛ لأنه من أثره . وفى حديث الاستسقاء : «قحط المطر واحمرّ الشجر» هو من ذلك . وقد يشتق القحط لكل ما قلّ خيره ، والأصل للمطر . والقحط فى كل شىء قلة خيره . [اللسان : مادة (قحط)] .

مسَّهم من القحط ومن الجدب كان بسبب دعوة الرسول ﷺ: «اللهم اجعلها عليهم سنين كَسِنِيِّ يوسف»[١].

وانتهت السنوات السبع وجاءت لهم الرحمة ممثلة فى المطر، ولم يلتفتوا إلى ضرورة شكر الله والإيمان برسوله ﷺ، ولكنهم ظلوا يبحثون عن أسباب المطر، فمنهم من قال: لقد جاء مطرنا نتيجة لنوْء[٢] كذا، ولأن الرياح هبَّت على مناطق كذا، وفعلوا ذلك دون التفات لانتهاء دعوة رسول الله ﷺ، مثلهم مَثَل مَنْ جلس يبحث فى أسباب النصر فى الحرب، وجعلوا أسبابها مادية فى العُدَّة والعتاد[٣]. ولا أحد ينكر أهمية الاستعداد للقتال وجدواه، ولكن يبقى توفيق الله سبحانه وتعالى فوق كل اعتبار؛ لأن المؤمنين بالله الذين استعدوا للقتال ودخلوا المعارك وجدوا المعجزات تتجلى بنصر الله؛ لأن الحق سبحانه ينصر مَنْ ينصره.

أما الذين يحصرون أسباب النصر فى الاستعداد القتالى فقط، فالمقاتلون الذين خاضوا الحرب بعد التدريب الجاد، يعلمون أن التدريب وحده لا يصنع روح المقاتل، بل تصقل[٤] روحه رغبته فى القتال ونَيْل الشهادة ودخول الجنة.

---

(١) عن أبى هريرة أن النبى ﷺ كان إذا رفع رأسه من الركعة الآخرة يقول: «اللهم اشدد وطأتك على مضر، اللهم اجعلها سنين كسنى يوسف..» الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه (١٠٠٦) وأحمد فى مسنده (٢/ ٤٧٠، ٥٠٢، ٥٢١).

(٢) ناء ينوء نوأ من باب قال يقول أى: نهض. ومنه النوء للمطر وجمعه أنواء. المصباح (٢/ ١٥١).

(٣) العتاد: العُدَّة، والجمع: أعتدة وعُتُد. قال الليث: العتاد: الشىء الذى تعدّه لأمر ما وتهيّئه له. وفى حديث صفته ﷺ: «لكل حال عنده عتاد» أى: ما يصلح لكل ما يقع من الأمور. والمراد هنا بالعتاد: الأسلحة وآلات الحرب. قال تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلاسِلاً وَأَغْلالاً وَسَعِيراً ④﴾ [الإنسان]. [اللسان: مادة (عتد)].

(٤) الصقل: الجلاء والشَّحْذ، والمراد: الحمية الدينية والتعبئة النفسية والمعنوية للمقاتلين. [اللسان: مادة (صقل) - بتصرف].

إذن: فلمدد السماء مدخل ، وَمن رأى من المقاتلين آية مخالفة لنواميس الكون ، فليعلم علم اليقين أن يد الله كانت فوق أيدى المؤمنين المقاتلين. ومن يدعى أن أى نصر هو نتيجة للحضارة ، يجد الرد عليه من المقاتلين أنفسهم بأن الحضارة بلا إيمان هى مجرد تقدم مادة هش[1] لا يصنع نصراً[2] ، والنصر لا يكون بالمادة وحدها ، وقد أمرنا الله بحسن الاستعداد المادى ، ولكن النصر يكون بالإيمان فوق المادة.

ولذلك نجد مَنْ خاضوا حربنا المنتصرة فى العاشر من رمضان ١٣٩٣ هـ يعلمون أن مدد الله كان معهم بعد أن أحسنوا الاستعداد ، ولا أحد من المقاتلين يصدق أن الاستعداد المادى وحده يمكن أن يكفى للنصر ، إنه ضرورة ، ولكن بالإيمان وحسن استخدام السلاح يكون النصر ؛ ولذلك لا يصدق المقاتلون من ينسب النصر للمادة وحدها ، وينسحب عدم التصديق على كل ما يقوله من ينكر دور الإيمان فى الانتصار.

وهكذا نجد أن مَنْ يجرد النصر من قيمة الإيمان إنما يخدم الإيمان ؛ لأن إنكار الإيمان يقلل من قيمة الرأى المادى. وهكذا ينصر الله دينه حتى يثبته فى قلوب جنده ، ويقلل من قيمة ومكانة مَنْ ينكرون قيمة الإيمان.

ومثال هذا فى تاريخ الإسلام أن اليهود الذين كانوا يستفتحون على أهل المدينة من الأوس والخزرج بأن رسولاً سوف يظهر ، وأنهم - أى: اليهود - سيتبعونه[3] ، وسوف يقتلون العرب من الأوس والخزرج قَتْل عاد وإرم.

---

(١) الهشّ والهشيش من كل شيء: ما فيه رخاوة ولين ، والمراد: الضعف.

(٢) يقول تعالى: ﴿ .. وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١٢٦) ﴾ [آل عمران].

(٣) وقد حكى الله سبحانه هذا لنا فى قرآنه ، فقال عن اليهود: ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٨٩) ﴾ [البقرة]. وعن أشياخ من الأنصار قالوا: كنا قد علوناهم قهراً دهراً فى الجاهلية ونحن أهل شرك وهم أهل كتاب وهم يقولون: إن نبياً سيبعث الآن نتبعه قد أظل زمانه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم ، فلما بعث الله رسوله من قريش واتبعناه كفروا به. ذكره ابن كثير فى تفسيره (١/ ١٢٤) نقلاً عن ابن إسحاق.

ولما جاء وقت ظهور محمد بن عبد الله ﷺ بمكة ، أسرعت الأوس والخزرج إلى الإيمان به ، وقالوا: إنه النبى الذى تهددنا به يهود ، فَلْنسبق إليه حتى لا يسبقونا.

هكذا كانت كلمة اليهود هى دافع الأوس والخزرج إلى الإيمان.

إذن: فالله ينصر دينه بالفاجر [1] ، رغم ظن الفاجر أنه يكيد للدين.

وكذلك حين جاءت لهم الرحمة بعد القحط أرجفوا [2] وظلوا يحللون سبب سقوط المطر بأسباب علمية محدودة بالمادة ، لا بالإيمان الذى فوق المادة.

ولذلك يقول الحق سبحانه هنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها:

﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ [3] فِى آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ (٢١)﴾ [يونس]

---

(١) وقد ورد بهذا حديث رسول الله ﷺ ، فعن أبى هريرة قال: شهدنا مع رسول الله ﷺ حُنيناً. فقال لرجل ممن يُدْعَى بالإسلام «هذا من أهل النار» فلما حضرنا القتال قاتل الرجل قتالاً شديداً فأصابته جراحة. فقيل: يا رسول الله، الرجل الذى قلت له آنفاً «إنه من أهل النار» فإنه قاتل اليوم قتالاً شديداً. وقد مات فقال النبى ﷺ : «إلى النار» فكاد بعض المسلمين أن يرتاب. فبينما هم على ذلك إذ قيل: إنه لم يمت ولكن به جراحاً شديداً فلما كان من الليل لم يصبر على الجراح فقتل نفسه ، فأخبر النبى ﷺ بذلك فقال: «الله أكبر أشهد أنى عبد الله ورسوله» ثم أمر بلالاً فنادى فى الناس «إنه لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة ، وإن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر». حديث صحيح ، متفق عليه ، أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٠٦٢) ومسلم (١١١).

(٢) أرجفوا: اضطربوا اضطراباً شديداً. (اللسان مادة: رجف).

(٣) المكر: احتيال فى خفية. قال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (٥٠)﴾ [النمل]. قال أهل العلم بالتأويل: المكر من الله تعالى جزاء سُمِّى باسم مكر المجازى كما قال تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا .. (٤٠)﴾ [الشورى] فالثانية ليست بسيئة فى الحقيقة ، ولكنها سميت سيئة لازدواج الكلام ، وكذلك قوله تعالى: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ .. (١٩٤)﴾ [البقرة] فالأول ظلم والثانى ليس بظلم ، ولكنه سُمِّى باسم الذنب ليُعلَم أنه عقاب عليه وجزاء به. قال ابن الأثير: مكر الله إيقاع بلائه بأعدائه دون أوليائه. [اللسان: مادة (مكر)].

والمكر: هو الكلام الملتوى الذى لا يريد أن يعترف برحمة الله ، والادعاء بأن نوء كذا هو السبب فى سقوط المطر ، وبرج كذا هو السبب فى سقوط المطر.

وقوله الحق: ﴿مَّكْرٌ فِى آيَاتِنَا﴾ والمكر هو الكيد الخفى ، والمقصود به هنا محاولة الالتفاف ؛ لتجريد العجائب من صنع الله لها ، وحتى العلم وقوانينه فهو هبة من الله ، والحق هو القادر على أن يوقف الأسباب وأن يفعل ما يريد وأن يخرق القوانين ، فهو سبحانه رب القوانين ، فلا تنسبوا أى خبر إلا له سبحانه ؛ حتى لا نضل ضلال الفلاسفة الذين قالوا بأن الله موجود ، وهو الذى خلق الكون وخلق النواميس ؛لتحكم الكون بقوانين.

ونقول: لو خلق الحق سبحانه القوانين والنواميس وتركها تتحكم لما شَذَّ شىء عن تلك القوانين ، فالمعجزات مع الرسل - على سبيل المثال - كانت خروجاً عن القوانين . وأبقى الله فى يده التحكُّم فى القوانين ، صحيح أنه سبحانه قد أطلقها ، ولكنه ظل قيُّومًا عليها، فيعطل القانون متى شاء ويبرزه متى شاء ويُوجِّه كيفما شاء .

والمكر كما نعلم مأخوذ من التفاف أغصان الشجرة كالضفيرة ، فلا تتعرف على منبت ورقة الشجر ومن أى غصن خرجت ، فقد اختلطت منابت الأوراق ؛ حتى صارت خفية عليك ، وأخذ من ذلك الكيد الخفىّ ، وأنت قد تكيد لمساويك ، لكنك لن تقدر على أن تكيد لمن هو أعلى منك ، فإن كنتم تمكرون فإن الله أسرع مكراً ، والحق سبحانه يقول: ﴿قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ ، وهذه اسمها «مشاكلة التعبير»[1] .

---

(١) المشاكلة: مصطلح بلاغى جاء فى القرآن كثيراً ، وهو يعنى: ذكر الشىء بلفظ غيره ، لوقوعه فى صحبته تحقيقاً أو تقديراً. وذلك مثل قوله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ ..(٥٤)﴾ [آل عمران] فإن إطلاق المكر فى جانب البارىء تعالى إنما هو لمشاكلة ما معه . (الإتقان فى علوم القرآن: ٣/ ٢٨١).

أى : عليك أن تأخذ ذلك فى مقابله فى ذات الفاعل والفعل ، ولكن لاتأخذ من هذا القول اسماً لله ، فإياك أن تقول : إن الله - سبحانه وتعالى- ماكر ؛ لأن المكر كيد خفىٌّ تفعله أنت مع مساويك ، ولكنك لن تستطيع ذلك مع من هو مُطَّلع على كيدك ، ولا تطّلع أنت على ما يشاء لك .

وانظر إلى أى جماعة تكيد لأى أمر ، وستجد من بينهم من يبلغ عنهم السلطات ، وأجهزة الأمن ، فإذا كان كيد البشر للبشر مفضوحاً بمن يشى منهم بالآخرين ، بل هناك من البشر غير الكائدين من يستطيع بنظرته أن يستنبط ويستكشف من يكيدون له .

وهناك من الأجهزة المعاصرة ما تستطيع تسجيل مكالمات الناس والتنصُّت [1] عليهم ؛ وكل ذلك مكر من البشر للبشر ، فما بالنا إن كاد الله لأحد ، وليس هناك أحد مع الله - سبحانه وتعالى - ليبلغنا بكيده ، ولا أحد يستطيع أن يتجسَّس عليه ؟!

مكر الله سبحانه - إذن - أقوى من أى مكر بشرى ؛ لأن مكر البشر قد يُهدَم من بعض الماكرين أو من التجسس عليهم ، لكن إذا كاد الله لهم ، أيعلمون من كيده شيئاً ؟ طبعاً لا يعلمون .

وكلمة ﴿أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ تلفتك إلى أن هناك اثنين يتنافسان فى سباق ، وحين تقول : فلان أسرع من فلان ، فمعنى ذلك : أن كلاً منهما يحاول الوصول إلى نفس الغاية ، لكن هناك واحداً أسرع من الآخر فى الوصول إلى الغاية .

ومكركم البشرى هو أمر حادث ، لكن الله - سبحانه - أزلى الوجود ،

---

(١) التَّنَصُّت : المراد به : التجسس . وأنْصَتَ الرجل إنصاتاً : استمع باهتمام . قال تعالى : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا .. ﴿٢٠٤﴾ ﴾ [الأعراف] . [اللسان : مادة (نصت) - بتصرف] .

يعلم كل شيء قبل أن يقع ، ويرتِّب كل أمر قبل أن يحدث ؛ لذلك فهو الأسرع فى الرد على مكركم ، إن مكرتم .

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا [(١)] لَهُم مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا﴾ و«إذا» الأولى ظرف ، أما إذا الثانية فهى « إذا الفجائية » مثلما تقول : خرجت فإذا الأسد بالباب .

وهم حين أنزل الحق لهم الأمطار رحمة منه ، فهم لا يهدأون ويستمتعون ويذوقون رحمة الله تعالى بهم من الماء الذى جاءهم من بعد الجدب ، بل دبروا المكر فجأة ، فيأتى قول الحق سبحانه: ﴿قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ .

وهكذا ترى أن ما يبطل كيد الماكرين من البشر ، يكون بإحدى تلك الوسائل : إما أن يكون بوشاية من أحد الماكرين ، وإما أن يكون بقوة التخابر من الغير ، وإما أن يكون من رسل العلىّ القدير وهم الملائكة الذين يكتبون كل ما يفعله البشر ، فسبحانه القائل: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (١٠) كِرَامًا كَاتِبِينَ (١١) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ (١٢) ﴾ . [الانفطار]

واقرأ أيضاً قول الحق سبحانه : ﴿ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (١٤) ﴾ . [الإسراء]

---

(١) « إذا » تأتى لمعنيين : شرطية ، وفجائية . وإذا الشرطية : اسم شرط للزمن المستقبل فتختص بالدخول على الجملة الفعلية ، وتعرب ، وتدخل أحياناً على الأسماء المرفوعة ، فيكون ما بعدها فاعلاً لفعل محذوف يفسره الفعل الذى بعده مثل قوله تعالى :﴿ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ (١١) ﴾ [التكوير] ، وقد تكون « إذا» للمفاجأة وتختص بالجمل الإسمية كقوله تعالى : ﴿ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ (٢٠) ﴾ [طه] ، وقد اجتمعت الشرطية والفجائية فى قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ (٢٥) ﴾ [الروم] . وكما فى الآية :﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا .. (٢١) ﴾ [يونس] .

وجاء الحق سبحانه بكل ما سبق ؛ لأنه سبحانه قد شاء أن يعطى لقريش فرصة التراجع فى عنادها للرسول ﷺ ، هذا العناد الذى قالوا فيه : إنهم يتبعون ما وجدوا عليه آباءهم ، وهذا قول مغلوط ؛ لأن الآباء فى الأصل كانوا مؤمنين ، ولكن جاءهم الضلال كأمر طارىء ، والأصنام التى عبدوها طارئة عليهم من الروم ، جاء بها إنسان ممن ساحوا فى بلاد الروم هو «عمرو بن لحىّ»[1] ، فإن رجعتُم إلى الإيمان بعد عنادكم ؛ فهذا هو الطريق المستقيم الذى كان عليه آباؤكم بالفطرة والميثاق الأول .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾

وهذه الآية الكريمة جاءت مرحلة من مراحل إخبار الله سبحانه وتعالى عن المعاندين لدعوة الإسلام ، التى بدأها الحق سبحانه بأنه قد رحمهم فأجّل لهم استجابة دعائهم على أنفسهم بالشر ، ولو أنه أجابهم إلى ما دَعَوْا به على أنفسهم من الشر فى قولهم : ﴿ **إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ** ..(٣٢) ﴾ [الأنفال]

---

(١) ذكر ابن هشام فى السيرة النبوية (١ / ٧٧) أن عمرو بن لحىّ خرج من مكة إلى الشام فى بعض أموره ، فلما قدم مآب من أرض البلقاء ، وبها يومئذ العماليق ، رآهم يعبدون الأصنام ، فقال لهم : ما هذه الأصنام التى أراكم تعبدون؟ قالوا له : هذه أصنام نعبدها ، فنستمطرها فتمطرنا ، ونستنصرها فتنصرنا ، فقال لهم : أفلا تعطوننى منها صنماً ، فأسير به إلى أرض العرب ، فيعبدوه؟ فأعطوه صنماً يقال له هُبَل ، فقدم به مكة ، فنصبه وأمر الناس بعبادته وتعظيمه .

لقضى أمرهم . فمن رحمة الله تعالى أنه لم يُجِبْهم إلى دعائهم.

وإذا كان الله سبحانه قد أجَّل استجابة دعائهم على أنفسهم بالشر رحمة بهم ، فيجب أن يعرفوا أن تأجيل استجابتهم بدعاء الخير رحمة بهم أيضاً ؛ لأنهم قد يدعون بالشر وهم يظنون أنهم يدعون بالخير ، وبعد ذلك دلّل على كذبهم فى دعائهم على أنفسهم بالشر بأنهم إذا مسّهم ضرٌّ دعوا الله تعالى مضطجعين[1] وقاعدين وقائمين.

فلو كانوا يحبون الشر لأنفسهم ؛ لظلوا على ما هم فيه من البلاء إلى أن يقضى الله تعالى فيهم أمراً.

ثم عرض سبحانه قضية أخرى ، وهى أنه سبحانه إذا مسهم بضر ؛ ليعتبروا ، جاء الله سبحانه برحمته ؛ لينقذهم من هذا الضر . فياليتهم شكروا نعمة الله تعالى فى الرحمة من بعد الضر ، ولكنهم مرُّوا كأن لم يدعوا الله سبحانه إلى ضر مسَّهم.

وهنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها ، يصور لنا الحق سبحانه وضعاً آخر ، هو وضع السير فى البر والبحر ، فيقول: ﴿هُوَ الَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ .. (٢٢)﴾. [يونس]

وكلمة ﴿يُسَيِّرُكُمْ﴾ تدل على أن الذى يسيِّر هو الله ، ولكن فى القرآن آيات تثبت أن السير يُنسب إلى البشر حين يقول: ﴿قُلْ سِيرُوا فِى الأَرْضِ .. (٦٩)﴾. [النمل]

---

(١) الاضطجاع : الاستلقاء ووضع الجنب إلى الأرض. قال ابن المظفر : كانت هذه الطاء تاء فى الأصل ، ولكنه قبح عندهم أن يقولوا (اضتجع) فأبدلوا التاءَ طاءً . قال تعالى : ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا .. (١٦)﴾ [السجدة]. [اللسان : مادة (ضجع)].

وحين يقول الحق سبحانه : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ .. (٢٩) ﴾ . [القصص]

وهو سبحانه يقول : ﴿ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ .. (١٨) ﴾ . [سبأ]

فكأن هذه الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها قد نسبت التسيير إلى الله سبحانه ، وبعض الآيات الأخرى نسبت التسيير إلى النفس الإنسانية ، ونقول لمن توهموا أن فى ذلك تعارضاً :

لو أنكم فطنتم إلى تعريف الفاعل عند النحاة [1] وكيف يرفعونه ؛ لعرفتم أن تحقق أى فعل إنما يعود إلى مشيئة الله سبحانه ، فحين نقول : «نجح فلان» فهل هو الذى نجح ، أم أن الذى سمح له بالنجاح غيره ؟ إن الممتحن والمصحِّح هما من سمحا له بالنجاح ؛ تقديراً لإجاباته التى تدل على بذل المجهود فى الاستذكار .

وكذلك نقول : «مات فلان» ، فهل فلان فعل الموت بنفسه ؟ خصوصاً ونحن نعرب «مات» كفعل ماض ، ونعرب كلمة (فلان) «فاعل» أو نقول : إن الموت قد وقع عليه و اتَّصفً به ؛ لأن تعريف الفاعل : هو الذى يفعل الفعل ، أو يتّصف به .

وإذا أردنا أن ننسب الأشياء إلى مباشرتها السببية ؛ قلنا : «سار الإنسان» .

وإذا أردنا أن نؤرِّخ لسير الإنسان بالأسباب ، وترحَّلنا به إلى الماضى ؛ لوجدنا أن الذى سيَّره هو الله تعالى .

وكل أسباب الوجود إنْ نظرتَ إليها مباشرة ؛ وجدتها منسوبة إلى من هو فاعل لها ؛ لكنك إذا تتبَّعتها أسباباً ؛ وجدتّها تنتسب إلى الله سبحانه .

---

(١) لأن تعريف الفاعل عند النحاة هو : كل اسم مرفوع سبقه فعل متعد أو لازم ، وهذا الاسم هو الذى فعل الفعل أو قام به أو اتصف به ، مثل : قرأ محمد الكتاب ، ونجح محمد ، وأثمرت الشجرة .

فمثلاً : إذا سُئلت : مَنْ صنع الكرسى ؟ تجيب : النجار . وإنْ سألت النجار : من أين أتيت بالخشب ؟ سيجيبك : مِن التاجر . وسيقول لك التاجر أنه استورده من بلاد الغابات ، وهكذا.

إذن : إذا أردت أن تسلسل كل حركة فى الوجود ؛ لا بد أن تنتهى إلى الله تعالى[1] .

وحين قال الحق سبحانه : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الأَجَلَ[2] وَسَارَ بِأَهْلِهِ .. (٢٩) ﴾ [القصص]

نفهم من ذلك أن موسى - عليه السلام - قد سُيِّر بأهله ؛ لأن التسيير فى كل مقوماته من الله تعالى.

والمثال الآخر : نحن نقرأ فى القرآن قوله الحق : ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ (٤٣) ﴾ [النجم]

فهو سبحانه الذى خلق الضحك ، وخلق البكاء.

فنجد من يقول : كيف يقول الله سبحانه إنه خلق الضحك والبكاء وهو الذى يقول فى القرآن : ﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا .. (٨٢) ﴾ [التوبة]

ونقول : أنت إن نظرت إلى القائم بالضحك ، فهو الإنسان الذى ضحك ، وإن نظرت إلى من خلق غريزة الضحك فى الإنسان ؛ تجده الله سبحانه.

---

(١) يقول عز وجل : ﴿ يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ .. (٢) ﴾ [الرعد] ويقول سبحانه : ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ .. (١٢٣) ﴾ [هود] .

(٢) وذلك أن شعيباً قال لموسى : ﴿ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ .. (٢٧) ﴾ [القصص] . فقال له موسى : ﴿ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٢٨) ﴾ [القصص] ، وقد ثبت فى الحديث أن موسى عليه السلام قضى الأجل الأتم والأكمل وهو عشر سنين (ابن كثير : ٣/ ٣٨٤ - ٣٨٧).

وغريزة الضحك موجودة باتفاق شامل لكل أجناس الوجود ، وكذلك البكاء فلا يوجد ضحك عربى ، وضحك انجليزى ، ولا يوجد بكاء فرنسى ، أو بكاء روسى.

إذن : فالله سبحانه وتعالى هو الذى خلق الضحك والبكاء.

وقد صدق قوله الحق: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾﴾ [النجم]

لكن الضاحك والباكى يقوم به الوصف. وكذلك قوله الحق: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ .. ﴿١٧﴾﴾. [الأنفال]

فقد شاء الحق سبحانه أن يمكن رسوله ﷺ بالبشرية أن يرمى الحصى ، ولكن إيصال الحصى لكل فرد فى الجيش المقابل له، فتلك إرادة الله[1].

إذن: فقول الحق سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ . لا يتعارض مع أنهم هم الذين يسيرون ، وأنت إذا علّلت السير فى الأرض أو فى البحر ؛ ستجد أن السير هو انتقال السائر من مكان إلى مكان ، وهو يحدِّد غاية السير بعقله ، والأرض أو البحر الذى يسير فى أى منهما بأقدامه أو بالسيارة أو بالمركب ، هذا العقل خلقه الله تعالى ، والأرض كذلك ، والبحر أيضاً ، كلها مخلوقات خلقها الله سبحانه وتعالى. وأنت حين تحرِّك ساقيك ؛ لتسير ، لا تعرف كيف بدأت السير ولا كَمْ عضلة تحركت فى جسدك ، فالذى أخضع كل طاقات جسمك لمراد عقلك هو الله تعالى .

إذن: فكل أمر مرجعه إلى الله سبحانه.

---

(١) عن ابن عباس رضى الله عنهما : رفع رسول الله ﷺ يديه يعنى يوم بدر فقال: «يارب إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد فى الأرض أبداً» فقال له جبريل: خذ قبضة من التراب فارم بها فى وجوههم ، فأخذ قبضة من التراب فرمى بها فى وجوههم فما من المشركين أحد إلا أصاب عينيه ومنخريه وفمه تراب من تلك القبضة فولوا مدبرين. أخرجه أبو نعيم (ص ٤٠٤) والبيهقى (٣/ ٧٩) كلاهما فى دلائل النبوة ، وذكره ابن كثير فى تفسيره (٢/ ٢٩٤).

وهنا ملحظ فى السير فى البر والبحر ، فكلاهما مختلف ، فالإنسان ساعة يسير فى الأرض على اليابسة ، قد تنقطع به السبل ، ويمكنه أن يستصرخ [١] أحداً من المارة ، أو ينتظر إلى أن يمر عليه بعض المارة ؛ ليعاونه.

أما المرور فى البحر ؛ فلا توجد به سابلة أو سالكة [٢] كثيرة ؛ حتى يمكن للإنسان أن يستصرخهم.

إذن : فالمرور فى البحر أدق من المرور فى البر ؛ ولذلك نجد أن الحق سبحانه وتعالى فى هذه الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يقول عن السير فى البحر : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٢٢) ﴾ [يونس]

وهكذا لا نجد أن فى الآية نفسها حديثاً عن السير فى البر ؛ لأن الحق سبحانه ما دام قد تكلم عن إزالة الخطر للمضطر فى البحر ، فهذا يتضمن إزالته عمن يسير فى البر من باب أولى . وإذا ما جاء الدليل الأقوى ، فهو لا بد أن ينضوى [٣] فيه الدليل الأقل .

ومثال هذا قول الحق سبحانه :

﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا .. (١٥) ﴾ . [الأحقاف]

وجاءت كل الحيثيات بعد ذلك للأم ، ولم يأت بأى حيثية للأب ،

---

(١) يستصرخ : يصرخ طالباً النجدة . والصرخة : الصيحة الشديدة عند الفزع أو المصيبة . قال تعالى : ﴿ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ .. (١٨) ﴾ [القصص] . وقال : ﴿ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ (٤٣) ﴾ [يس] . والصريخ : المغيث . [اللسان : مادة (صرخ) . بتصرف] .

(٢) سبيل سابلة : طريق مسلوكة . والسابلة : أبناء السبيل المختلفون على الطرقات فى حوائجهم ، والجمع : السوابل . والسلوك : مصدر سلك طريقاً ومن يسلكون طريقاً فهم سالكة . قال تعالى : ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا .. (٥٣) ﴾ [طه] . [اللسان : مادة (سبل) ، (سلك)] .

(٣) ضَوَى إليه : انضم ولجأ . وينضوى فى الشىء : يدخل فيه ويندرج تحته . [اللسان : مادة (ضوا) . بتصرف] .

فيقول : ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ [1] ثَلاثُونَ شَهْرًا (١٥) ﴾ [الأحقاف]

وشاء الحق سبحانه ذلك ؛ لأن حيثية الأم مبنية على الضعف ، فيريد أن يرقق قلب ابنها عليها ، فالأب رجل ، قد يقدر على الكدح فى الدنيا ، كما أن فضل الأب على الولد يدركه الولد ، لكن فضل أمه عليه وهو فى بطنها ؛ لا يعيه ، وفى طفولته الأولى لا يعى أيضاً هذا الفضل . ولكنه يعى من بعد ذلك أن والده يحضر له كل مستلزمات حياته ، من مأكل وملبس ، ويبقى دور الأم فى نظر الطفل ماضياً خافتاً .

إذن : فحيثية الأم هى المطلوبة ؛ لأن تعبها فى الحمل والإرضاع لم يكن مُدْرَكاً من الطفل .

وكذلك هنا فى هذه الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها ، ترك الحق سبحانه حيثية البر وأبان بالتفصيل حيثية البحر :

﴿هُوَ الَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِى الْفُلْكِ [2] (٢٢) ﴾ [يونس]

---

(١) الفصال : الفطام . والمعنى : أن مدى حمل المرأة إلى منتهى الوقت الذى يُفصل فيه الولد عن رضاعها ثلاثون شهراً ، وفصلت المرأة ولدها أى : فطمته . وقال تعالى : ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِى عَامَيْنِ .. (١٤) ﴾ [لقمان]. وقال تعالى : ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ .. (٢٣٣) ﴾ [البقرة] . [اللسان : مادة (فصل) - بتصرف]. وقد استنبط العلماء من هذا أن أقل مدة للحمل هى ستة أشهر ، وقد حدث أن امرأة رفع أمرها إلى على بن أبى طالب وأنها حملت ستة أشهر واتهمها زوجها بالزنا ، وبرَّأها على استدلالاً بالجمع بين هذه الآيات . وهو مذهب الجمهور [فقه السنة : ٣/ ٣٦٧].

(٢) الفلك : السفينة للمذكر والمؤنث والواحد والجمع ، قال تعالى : ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١١٩) ﴾ [الشعراء] جعله مفرداً ومذكراً ، أى : المركب ؛ وقال : ﴿ وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ .. (١٤) ﴾ [النحل] جعل الفلك جمعاً ووصفه بقوله : (مَوَاخِرَ) أى : السفن . القاموس القويم (٢/ ٨٩) .

وكلمة (الفلك) تأتى مرة مفردة ، وتأتى مرة جمعاً ، والوزن واحد فى الحالتين ومثال هذا أنه حين أراد الله سبحانه أن ينجى نوحاً عليه السلام ، وأن يغرق الكافرين به ، قال لسيدنا نوح : ﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا .. (٣٧) ﴾ . [هود]

إذن : هى تطلق على المفرد ، وعلى الجمع ، ولها نظائر فى اللغة فى كلتا الحالتين ، فهى فى الإفراد تكون مثل : قُفْل ، وقُرْط . وعند الجمع تكون مثل : أسْد .

والحق سبحانه وتعالى يصف الريح هنا بأنها طيبة ، والقرآن الكريم من طبيعة أسلوبه حين يتكلم عن الريح بلفظ الإفراد يكون المقصود بها هو العذاب ، مثل قوله الحق : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا .. (٢٥) ﴾ . [الأحقاف]

وإن تكلم عنها بلفظ الجمع فهى للرحمة ، وسبحانه القائل :

﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ[(١)] .. (٢٢) ﴾ . [الحجر]

ويقول سبحانه أيضًا :

﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ .. (٥٧) ﴾ . [الأعراف]

---

(١) لواقح : حوامل ؛ لأنها تحمل الماء والسحاب وتقلّبه وتصرّفه ، ثم تستدره ، فهى تلقح السحاب بالماء فيدر ماء وينزل المطر وتلقح الشجر فتعطى نتاجها . [لسان العرب : مادة : (لقح)] وابن كثير (٥٤٩/٢).

والرياح هنا جاءت فى صيغة الجمع ، وعلّة وجود ريح للشر [١] ، ورياح للخير ، يمكنك أن تستشفها من النظر إلى الوجود كله ؛ هذا النظر يوضح لك أن الهواء له مراحل ، فهواء الرُّخَاء هو الذى يمر خفيفاً ، مثل النسيم العليل ، وأحياناً يتوقف الهواء فلا تمر نسمة واحدة ، ولكننا نتنفس الهواء الساكن الساخن أثناء حرارة الجو ، ثم يشتد الهواء أحياناً ؛ فيصير رياحاً قوية بعض الشىء ، ثم يتحول إلى أعاصير.

والهواء - كما نعلم - هو المقوِّم الأساسى لكل كائن حى ، ولكل كائن ثابت غير حى ، فإذا كان الهواء هو المقوم الأساسى للنفس الإنسانية ، فالعمارات الضخمة - مثل ناطحات السحاب - لا تثبت بمكانها إلا نتيجة توازن تيارات الهواء حولها ، وإن حدث تفريغ للهواء تجاه جانب من جوانبها ؛ فالعمارة تنهار.

إذن: فالذى يحقق التوازن فى الكون كله هو الهواء.

ولذلك نجد القرآن الكريم قد فصّل أمر الرياح وأوضح مهمتها ، وهنا يقول الحق سبحانه: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ وكأنه سبحانه يتكلم هنا عن السفن الشراعية التى تسير بالهواء المتجمِّع فى أشرعتها. وإذا كان التقدم فى صناعة السفن قد تعدَّى الشراع ، وانتقل إلى البخار ، ثم الكهرباء ، فإن كلمة الحق سبحانه: ﴿رِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ تستوعب كل مراحل الارتقاء ، خصوصاً وأن كلمة «الريح» قد وردت فى القرآن الكريم بمعنى القوة أيا كانت: من هواء ، أو محرك يسير بأية طاقة. وسبحانه

(١) ومن الريح ما يسخره الله ويجعله ريح خير ، مثل قوله تعالى عن سليمان عليه السلام: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾﴾[ص] والريح الرخاء هى: الريح اللينة السريعة التى لا تزعزع شيئاً من مكانه. انظر [اللسان مادة (رخو)].

القائل: ﴿وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ[1] .. (٤٦)﴾ . [الأنفال]

وهكذا نفهم أن معنى الريح ينصرف إلى القوة. وأيضاً كلمة «الريح» تنسجم مع كل تيسيرات البحر.

وقوله الحق: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا﴾ هذا القول الكريم يضم ثلاثة وقائع: الوجود فى الفُلْك، وجرى الفُلْك بريح طيبة، ثم فرحهم بذلك؛ هذه ثلاثة أشياء جاءت فى فعل الشرط، ثم يأتى جواب الشرط وفيه ثلاثة أشياء أيضاً:

أولها: ﴿جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ وثانيها: ﴿وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ وثالثها: ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ .

أما الريح العاصف: فهى المدمرة، ويقال: فلان يعصف بكذا، وفى القرآن: ﴿كَعَصْفٍ[2] مَّأْكُولٍ ..(٥)﴾ . [الفيل]

إذن: ﴿رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ هى الريح المدمِّرة المغرِقة. وقوله الحق: ﴿وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ .

فالموج يأتى من أسفل، والريح تأتى من أعلى، وترفع الريح الموج فيدخل الموج إلى المركب، ونعلم أنهم يقيسون ارتفاع الموج كل يوم حسب

---

(١) أى: قوتكم، فالريح هنا معناها القوة وذهاب الريح أى: ذهاب القوة والهيبة، فالقوة هى التوازن فى الحياة، ، إن استعملت بأخلاق عادت على الإنسانية بالخير والسلام، أما إذا تجردت من الأخلاق أصبحت طغياناً وفساداً فى الأرض وفيما حكاه التاريخ ونشاهده فى دنيا الواقع لأكبر دليل. وقد تطلق على الرائحة، مثل قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ .. (٩٤)﴾ [يوسف]، وهذا يخدم معنى القوة أيضاً، فإن من ذهبت رائحته من الوجود، فهذا دليل على ذهاب قوته.

(٢) العصف المأكول: التبن. والعصف له معنيان:
- أنه جعل أصحاب الفيل كورق أخذ ما فيه من الحَبّ وبقى هو لا حَبّ فيه.
- أو أراد أنه جعلهم كعصف قد أكلته البهائم. [اللسان (مادة: عصف)].

قوة الريح ، فحين تكون الريح خفيفة ؛ يظهر سطح مياه البحر مجعّداً [(١)] ، وحين تكون الريح ساكنة ؛ فأنت لا تجد صفحة المياه مجعدة ، بل مبسوطة ، وقد جاءتهم الريح عاصفاً فيزداد عنف الموج ، ويتحقق نتيجة لذلك الظن بأنهم قد أحيط بهم.

ومعنى الإحاطة هو عدم وجود منفذ للفرار ؛ ولذلك نجد الحق سبحانه يتكلم عن الكافرين بقوله : ﴿ **وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ** ..(١٩) ﴾ . [البقرة]

أي : ليس هناك منفذ يفلتون منه.

ولحظة ظنهم أنه قد أحيط بهم ؛ لا يسلمون أنفسهم لهذه الحالة ؛ بدعوى الاعتزاز بأنفسهم غريزياً ، بل يتجهون إلى الله بالدعاء ، هذا الإله الذى أنكروه ، لكنهم لحظة الخطر لا يكذب أحد على نفسه أو يخدعها [(٢)] .

ولذلك نجد سيدنا جعفر الصادق يجيب على سائل سأله : أهناك دليل على وجود الصانع الأعلى ؟ فيقول سيدنا جعفر : ما عملك ؟ فيجيب السائل : تاجر أبحر فى البحر. فسأله سيدنا جعفر : أوَ لم يحدث لك فيه حال ؟ قال الرجل : بل حدث . فسأل سيدنا جعفر : ما هو ؟ قال : حملت بضائعى فى سفينة ، فهبت الريح وعلا الموج وغرقت السفينة وتعلقت بلوح من الخشب. قال سيدنا جعفر : ألم يخطر على بالك أن تفزع إلى شىء ؟ قال الرجل : نعم. قال سيدنا جعفر : هذا الصانع الأعلى.

وكذلك لجأ هؤلاء الذين كفروا بالله إلى الله تعالى حين عصفت بهم الريح ، وعلا عليهم الموج ، وظنوا أنهم قد أحيط بهم ويقول الحق سبحانه

---

(١) المراد بتجعُّد سطح الماء : التموجات التى تبدو على سطح المياه إذا هبّ عليها الهواء.

(٢) لأن فطرة الميثاق الأول تستجيب للإنسان عند الحاجة وعند إيضاح الحقيقة يقول الحق : ﴿ **وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ** .. (٢٥) ﴾ [لقمان] ، فهذا القول نابع من الفطرة التى غابت عنهم فى زحمة العناد ، ويظهر ذلك جلياً عند حدوث الأخطار.

وتعالى عنهم - وهم فى مثل هذه الحالة : ﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ وهذا يعنى أنهم لم يدعوه فقط ، بل دَعَوْه بإخلاص وأقروا بوحدانيته ، وألاّ شريك له أبداً ؛ لأنهم يعلمون أن مثل هذا الشريك لن ينفعهم أبداً.

ثم يجىء الحق سبحانه بصيغة دعائهم : ﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ فهل وَفَّوْا بالعهد؟ لا ؛ لأن الحق سبحانه يقول بعد ذلك :

﴿فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾

وبعد أن أنجاهم الحق سبحانه مباشرة تأتى «إذا» الفجائية لتوضح لنا أنهم لم ينتظروا إلى أن يستردوا أنفاسهم ، أو تمر فترة زمنية بينهم وبين الدعاء ، وتحقق نتيجة الضراعة ، لا ، بل بغوا [(١)] - على الفور - فى الأرض ﴿فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾.

والبغى : هو تجاوز الحدّ فى الظلم وهو إفساد ؛ لأن الإنسان إذا ما أخرج أى شىء عن صلاحه ، يقال : «بغى عليه» ، فإن حفرت طريقاً مُمهّداً ؛ فهذا إفساد ، وإنْ ألقيت بنفاية [(٢)] فى بئر يشرب منه الناس ؛ فهذا إفساد وبغى ، وأى شىء قائم على الصلاح فتخرجه عن مهمته وتطرأ عليه بما يفسده ؛ فهذا بغى.

---

(١) البَغْى : الظلم والفساد والكِبْر والاستطالة على الناس والإيذاء والجور وأصل البغى : مجاوزة الحدّ. قال تعالى : ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ .. ﴿٢٧﴾﴾ [الشورى] . وقال : ﴿فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي .. ﴿٩﴾﴾ [الحجرات]. [اللسان : مادة (بغى) - بتصرف].

(٢) نفاية الشىء : بقيته وأردؤه. والنفاية : ما نفيته من الشىء لردائته. والمراد بالنفاية هنا : الفضلات وكل ما من شأنه تلويث الشىء وإفساده. [اللسان : مادة (نفى). بتصرف].

والبغى : أعلى مراتب الظلم ؛ لأن الحق سبحانه هو القائل : ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ .. (٧٦) ﴾ . [القصص]

ويعطينا رسول الله ﷺ صورة البغى الممثَّلة فى الاعتداء بالفساد على الأمر الصالح ، فيقول ﷺ : «أسرع الخير ثواباً : البِرّ وصلة الرحم ، وأسرع الشر عقوبة : البغى وقطيعة الرحم»(١) .

والحق سبحانه لا يؤخر عقاب البغى وقطيعة الرحم إلى الآخرة ، بل يعاقب عليهما فى الدنيا ؛ حتى يتوازن المجتمع ؛ لأنك إن رأيت ظالماً يحيا فى رضاً ورخاء ثم يموت بخير ، فكل مَنْ يراه ويعلم ظلمه ولم يجد له عقاباً فى الدنيا ، سوف يستشرى فى الظلم .

ولذلك تجد أن عقاب الله تعالى لمثل هذا الظالم فى الدنيا وأن يُرِى الناس نهايته السيئة ، وحين يرى الناس ذلك يتعظون ؛ فلا يظلمون ، وهذا ما يحقق التوازن فى المجتمع .

وإلا فلو ترك الله سبحانه الأمر لجزاء الآخرة ؛ لشقى المجتمع بمن لا يؤمنون بالآخرة ويحترفون البغى ؛ ولذلك يرى الناس عذابهم فى الدنيا ، ثم يكون لهم موقعهم من النار فى الآخرة .

ويقول ﷺ محذراً : «لا تَبْغِ ، ولا تكُنْ باغياً »(٢) .

فالباغى إنما يصنع خللاً فى توازن المجتمع . والذى يبغى إنما يأخذ حق الغير ، ليستمتع بناتج من غير كدِّه وعمله ، ويتحوّل إلى إنسان يحترف

(١) أخرجه ابن ماجه فى سننه (٤٢١٢) وابن عدى فى الكامل (٤/ ٧٠) ط. دار الفكر ، والذهبى فى ميزان الاعتدال (ت ٣٨٣١) من حديث عائشة ، كلاهما فى ترجمة صالح بن موسى الطلحى ، وهو كوفى ضعيف. وقال ابن عدى : لا يتعمد الكذب. وسياق نص الحديث يؤخذ به .

(٢) أخرجه الحاكم فى مستدركه على الصحيحين (٢/ ٣٣٨) عن أبى بكرة ، وقال : صحيح الإسناد ، ولم يخرجاه. وأقره الذهبى .

فرض الإتاوات [١] على الناس ، ويكسل عن أى عمل غير ذلك . وأنت ترى ذلك فى أبسط المواقع والأحياء ، حين يحترف بعض ممن يغترون بقوتهم الجسدية ، وقد تحولوا إلى (فتوات) [٢] يستأجرهم البعض لإيذاء الآخرين ، والواحد من هؤلاء إنما احترف الأكل من غير بذل جهد فى عمل شريف .

والبغى - إذن - هو عمل مَنْ يفسد على الناس حركة الحياة ؛ لأن من يقع عليهم ظلم البغى ، إنما يزهدون فى الكَدِّ والعمل الشريف الطاهر . وإذا ما زهد الناس فى الكَدِّ والعمل الشريف ؛ تعطلت حركة الحياة ، وتعطلت مصالح البشر ، بل إن مصالح الظالم نفسها تتعطل ؛ ولذلك قال الحق سبحانه : ﴿إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ..(٢٣)﴾ . [يونس]

ولقائل أن يسأل : وهل هناك بَغْى بحق ؟

أقول : نعم ؛ لأن البغى اعتداء على الصالح بإفساد . وأنت ساعة ترى إنساناً يفسد الشىء الصالح ، فتسأله : لماذا تفعل ذلك ؛ وقد يجيبك بأن غرضه هو الإصلاح ، ويُعدِّد لك أسباباً لهذا البغى ، فهذا بغى بحق ، أما إن كان بغياً بدون سبب شرعى فهذا هو البغى ، بل قمته .

ومثال البغى بحق ، أقول : ألم يَسْتول النبى ﷺ على أرض «بنى قريظة» ، وأحرق زرعهم وقطع الأشجار فى أراضيهم ، وهدم دورهم؟ أليس فى ذلك اعتداء على الصالح ؟

---

(١) إتاوات : جمع إتاوة وهى قدر من المال يُدْفع غصباً وإجباراً - بدون وجه حق - إلى ذوى السطوة والتسلُّط . وهى تشبه المكوس .

(٢) هذا لفظ يستعمله الناس لكل إنسان منحرف ليتخذ من قوته تهديداً للأمن والسطو على ممتلكات الناس وتخويف الناس . وفى لغة العرب : الْفَتَىّ : هو الشاب القوى والفتى : العبد ، وجمعه على القلة فتية . وفى الكثرة فتيان ، والأمة : فتاة ، وَجمعها فتيات . والفتوة عرفت عند العرب بأهل النجدة والعون والاحتساب ، ولكن هذه الكلمة أطلقت على كل منحرف ومحترف الإفساد .

لقد فعل رسول الله ﷺ ذلك ؛ لأنه ردّ على عدوان أقسى من ذلك.

وهكذا نرى أن هناك بغياً بحق ، وبغياً بغير حق. ولذلك يسمي الله جزاء السيئة سيئة مثلها [1] ، ويقول سبحانه: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ ﴿١٩٤﴾﴾ [البقرة]

ويسميه الحق سبحانه «اعتداء» رغم أنه ليس اعتداء، بل ردّ الاعتداء.

ويطلقها الحق سبحانه وتعالى قضية تظل إلى الأبد بعد ما تقدم ، فيقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴿٢٣﴾﴾ [يونس]

وهنا يبين الله سبحانه وتعالى وكأنه يخاطب الباغي: يا مَنْ تريد أن تأخذ حق غيرك ، اعلم أن قصارى [2] ما يعطيك أخذ هذا الحق هو بعض من متاع الدنيا ، ثم تجازى من بعد ذلك بنار أبدية [3].

وأنت إنْ قارنت زمن المتعة المغتصبة الناتجة عن البغي بزمن العقاب عليها ؛ لوجدت أن المتعة رخيصة هينة بالنسبة إلى العقاب الذى سوف تناله عليها ولا تأخذ عمرك فى الدنيا قياساً على عمر الدنيا نفسها ؛ لأن الحق سبحانه قد يشاء أن يجعل عمر الدنيا عشرين مليوناً من السنوات ، لكن عمرك فيها محدود.

---

(١) وذلك فى نحو قوله تعالى ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ..﴿٤٠﴾﴾ [الشورى] . وهذا من قبيل المشاكلة ، وهو مصطلح بلاغى مؤداه ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه فى صحبته ، فالجزاء هنا حق لا يوصف بأنه سيئة ، ولكنه سمى هكذا لمشاكلته لما معه. انظر (الإتقان فى علوم القرآن ٣ / ٢٨١).

(٢) قصارى الشيء: آخره وغايته وهى من معنى القصر ، أى: الحبس ؛ لأنك إذا بلغت الغاية حَبَسَتْك. [اللسان: مادة (قصر) - بتصرف].

(٣) ومن أمثلة الغصب والبغى بغير الحق ما رواه ابن مسعود قال: قلت يا رسول الله ، أىّ الظلم أعظم؟ قال: ذراع من الأرض ينتقصها المرء المسلم من حق أخيه ، فليس حصاة من الأرض يأخذها أحد إلا طوّقها يوم القيامة إلى قعر الأرض ، ولا يعلم قعرها إلا الذى خلقها. أخرجه أحمد فى مسنده (١/ ٣٩٦) والطبرانى فى معجمه الكبير (١٠ / ٢٦٦) . قال الهيثمى فى المجمع (٤/ ١٧٤) : «إسناد أحمد حسن».

فاربأوا[1] على أنفسكم وافهموا أن متاع الدنيا قليل ، إن كان هذا المتاع نتيجة ظلمكم لأنفسكم ؛ لأن نتيجة هذا الظلم إنما تقع عليكم ؛ لأن مقتضى ما يعطيكم هذا الظلم من المتعة والنعمة هو أمر محدود بحياتكم فى الدنيا ، وحياتكم فيها محدودة ، ولا يظن الواحد أن عمره هو عمر البشرية فى الدنيا ، ولكن ليقسْ كل واحد منكم عمره فى الدنيا وهو محدود.

ولذلك يقول الحق سبحانه فى آية أخرى: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ .. (٧٧)﴾ [النساء]

وهنا يؤكد الحق سبحانه : ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم (٢٣)﴾ [يونس]

وقد يتمثل جزاء البغى فى أن يشاء الحق سبحانه ألا يموت الظالم إلا بعد أن يرى مظلومه فى خير مما أخذ منه ؛ ولذلك أقول دائمًا: لو علم الظالم ما ادخره الله للمظلوم من الخير ؛ لضنَّ عليه بالظلم.

وعلى فرض أن الظالم يتمتع بظلمه وهو من متاع الدنيا القليل ، نجد الحق سبحانه يقول: ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ ..(٢٣)﴾ [يونس]

وحين نرجع إلى الله تعالى فلا ظلم أبداً ؛ لأن أحدكم لن يظلم أو يُظلم فكل منكم سوف يَلْقى ما ينبئه به الله سبحانه إنْ ثواباً أو عقاباً ؛ مصداقاً لقوله الحق: ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم[2] بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٣)﴾ . [يونس]

وقد جاء الخبر عن نبأ الجزاء من قبل أن يقع ؛ ليعلم الجميع أن لكل فعلٍ

---

(١) اربأوا على أنفسكم: حافظوا عليها وأبعدوها عن كل ما من شأنه أن يجلب لها العذاب فى الآخرة. وفى الحديث: «مثلى ومثلكم كرجل ذهب يربأ أهله» أى: يحفظهم من عدوِّهم. [اللسان مادة (ربأ)].

(٢) الأنباء: الأخبار الهامة. قال الحق: ﴿تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا .. (١٠١)﴾ [الأعراف] وقال: ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ .. (٦٧)﴾ [الأنعام]. أى: لكل خبر عام وقت أو مكان يقع فيه فى المستقبل أو فى الماضى. ونبأه مثل أنبأه. والتضعيف يفيد المبالغة والتكرار. قال الحق: ﴿وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ .. (١٤)﴾ [المائدة] - القاموس القويم جـ ٢ صـ ٢٥٠ ، ٢٥١

مقابلاً من ثواب أو عقاب ، كما أن فى ذكر النبأ مقدَّماً تقريعاً لمن يظلمون أنفسهم بالبغى .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ السَّمَآءِ فَاخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا (١) وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

والماء الذى ينزل من السماء ، هو الماء الصالح للرى وللسقى ؛ لأن المياه الموجودة فى الوجود ، هى مخازن للحياة ، وغالباً ما تكون مالحة ، كمياه البحار والمحيطات، وشاء الحق سبحانه ذلك ؛ لحمايتها من العفن والفساد، ثم تتم عملية تقطير المياه بأشعة الشمس التى تحوّل الماء إلى بخار، ويتجمع البخار كسحاب، ثم يسقط ماء عَذْباً مقطراً صالحاً للشرب والرّى .

---

(١) الزخرفة : الزينة . قال ابن سيده : الزخرف : الذهب ، هذا الأصل ، ثم سُمّى كل مموّه مزوّر به . وبيت مزخرف . وزخرف البيت : زيَّنه وأكمله . وفي الحديث : أن النبى ﷺ لم يدخل الكعبة حتى أمر بالزخرف فَنُحِّىَ . وقوله تعالى : ﴿إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا .. ﴿٢٤﴾ ﴾ [يونس] المراد بالزخرف هنا : زينة الحياة الدنيا ومتاعها الزائل الذى يخدع بريقه أعين الغافلين عن الآخرة وما فيها من نعيم مقيم . [اللسان : مادة (زخرف) - بتصرف] . وقال القرطبى : زخرفها ، أى : حُسنها وزينتها . والزخرف : كمال حسن الشىء ومنه قيل للذهب زخرف (تفسير القرطبى : ٤/ ٣٢٥٤) . وقال ابن كثير : زخرفها ، أى : زينتها الفانية . وازيّنت ، أى : حَسُنت بما خرج فى رُباها من زهور نضرة مختلفة الأشكال والألوان (تفسير ابن كثير : ٢ / ٤١٣) .

والحق سبحانه يقول هنا: ﴿كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ ﴿٢٤﴾﴾ [يونس]

والاختلاط: اجتماع شيئين أو أشياء على هيئة الانفصال بحيث يمكن أن تعزل هذا عن ذاك، فإن خلطت بعضاً من حبات الفول مع بعض من حبّات الترمس؛ فأنت تستطيع أن تفصل أيا منهما عن الأخرى، ولكن هناك لوناً آخر من جمع الأشياء على هيئة المزج، مثلما تعصر ليمونة على ماء محلّى بالسكر، وهذا ينتج عنه ذوبان كل جزىء من الليمون والسكر فى جزيئات الماء.

وهنا يقول الحق سبحانه: ﴿كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ﴾ وقد يُفهم من ذلك أن الماء والنبات قد اختلطا معاً، لكن النبات - كما نعلم - ككائن حى مخلوق من الماء مصداقاً لقول الحق سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ .. ﴿٣٠﴾﴾ [الأنبياء]

وهنا لا بد أن نلتفت إلى الفارق بين «باء» الخلط، و«باء» السببية [١] فالباء هنا فى هذه الآية هى باء السببية، وبذلك يكون المعنى: فاختلط بسببه نبات الأرض. وأنت ترى بعد سقوط المطر على الأرض أن المياه تغطى الأرض، ثم تجد بعد ذلك بأيام أو أسابيع، أن سطح الأرض مغطى بالزروع، وكلها مختلطة متشابكة، وكلما تشابكت الزروع مع بعضها فهذا دليل على أن الرى موجود والخصوبة فى هذه الأرض عالية، وهذا نتيجة تفاعل الماء مع التربة.

(١) الباء: حرف يجر الاسم الظاهر والمضمر، ويقع أصلياً أو زائداً، ويؤدى عدّة معان، أشهرها خمسة عشر، هى: الإلصاق، والاستعانة، والسببية، والتعدية، والظرفية، والعوض، والمصاحبة، والتبعيض، والمجاوزة، والاستعلاء، والتوكيد، وأن تكون بمعنى كلمة (بدل)، وأن تكون بمعنى كلمة (إلى). انظر تفصيل ذلك فى النحو الوافى (٢/ ٤٩٠ - ٤٩٧).

أما إن كانت الأرض غير خصبة ، فأنت تجد نَبْتة فى منطقة من الأرض ، وأخرى متباعدة عنها ، وهذا ما يطلق عليه أهل الريف المصرى أثناء زراعة الذرة - على سبيل المثال : «الذرة تفلس» أى : أن كل عود من أعواد الذرة يتباعد عن الآخر نتيجة عدم خصوبة الأرض .

إذن : فخصوبة الأرض لها أساس هام فى الإنبات والماء موجود لإذابة عناصر الغذاء للنبات ، فتنتشر بها جذور النبات .

وإن سمحتْ لك الظروف بزيارة المراكز العلمية للزراعة فى «طوكيو» أو «كاليفورنيا» ؛ فلسوف ترى أنهم يزرعون النباتات على خيوط رفيعة ؛ تُسقى بالماء الذى يحتوى على عناصر الغذاء اللازمة للإنبات ؛ لأنهم وجدوا أن أى نبات يأخذ من الأرض المواد اللازمة لإنباته بما لا يتجاوز خمسة فى المائة من وزنه ، ويأخذ من الهواء خمسة وتسعين فى المائة من وزنه .

إذن : فالمطر النازل من السماء خلال الهواء هو الذى يذيب عناصر الأرض ؛ ليمتصها النبات .

والحق سبحانه وتعالى هنا أراد أن يضرب لنا المثل ، والمثل : هو قول شُبِّه مَضْربُه بمَوْلده ،أى : شىء نريد أن نمثله بشىء ، ولا بد أن يكون الشىء الممثَل بهَ معلَوَماً ، والشىء المأخوذ كمثل هو الذى نريد أن نوضح صورته ؛ ولذلك لا يصح أن نمثل مجهولاً بمجهَول ، وإنما نمثل مجهولاً بمعلوم .

وتجد من يقول لك : ألا تعرف فلاناً ؟ فتقول : لا أعرفه ، فيرد عليك صاحبك : إنه مثل فلان فى الشكل . وهكذا عرَّفْتَ المجهول بمعلوم .

وبعض من الذين يحاولون الاعتراض على القرآن ، دخلوا من هذه الناحية ، وقالوا : إذا كان الشىء مجهولاً ونريد أن نعرِّف به ، ألا نعرِّفه

بمعلوم ؟ فما بال الله - سبحانه وتعالى - يقول فى شجرة الزقوم [١] : ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا [٢] كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٦٥﴾﴾ [الصافات]

ما بال الله سبحانه يبين شجرة الزقوم ، وهى شجرة فى النار لا نعرفها ، فيعرِّفها للمؤمنين به بأن طلعها يشبه رءوس الشياطين ، وبذلك يكون سبحانه قد مثَّل مجهولاً بمجهول. والذين قالوا ذلك فاتهم أن الذى يتكلم هو الله تعالى. وقد أراد الحق سبحانه أن يُمثِّل لنا شجرة الزقوم بشىء بشع معلوم لنا ، والبشع المعلوم هو الشيطان.

وشاء الحق سبحانه ألا يحدد البشاعة ؛ حتى لا ينقضى التشبيه ؛ لأن الشىء قد يكون بشعاً فى نظرك ، وغير بشع فى نظر غيرك. ويريد الله سبحانه أن يبشع طلع شجرة الزقوم ؛ فاختار الشىء المتفق على بشاعته ، وهو رءوس الشياطين ، وليتصور كل إنسان صورة الشيطان ، بما ينفر منه ويقبِّحه ، وهكذا تتجلَّى عظمة الحق سبحانه فى أن جعل شكل الشيطان مبهماً [٣].

وأما المثل الذى نحن بصدده هنا وهو تشبيه الحياة الدنيا بأنها كالماء الذى أنزله الحق سبحانه من السماء فاختلط به نبات الأرض ، والحياة الدنيا نحن ندرك بعضها ، وكلٌّ منا يدرك فترة منها ، ولم يدرك أولها ، وقد لايدرك آخرها ، فجاء الحق سبحانه بمثل يراه كل واحد منا ، وهو الزرع

---

(١) شجرة الزقوم هى الشجرة الملعونة فى القرآن، قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ .. ﴿٦٠﴾﴾ [الإسراء] وأخبر الله تعالى فى كتابه الكريم أنها تخرج فى أصل الجحيم. وثمرها هو الزقوم وهو طعام أهل النار. [اللسان : مادة (زقم) - بتصرف].

(٢) الطلع: غلاف يشبه الكوز ، ينفتح عن حَبّ منضود ، فيه مادة إخصاب النخلة [المعجم الوسيط : مادة (طلع)].

(٣) مبهماً : خافياً. واستبهم الأمر إذا استغلق. والمبهم سمى كذلك لأنه أبهم عن البيان فلم يُجعل عليه دليل. ومنه قيل لما لا ينطق «بَهيمة» [اللسان : مادة (بهم)].

الذى يرتوى بالمطر ، فأراد الحق سبحانه أن يجمع لنا صورة الدنيا فى مثل معروف لنا جميعاً ، وندركه جميعاً ؛ فندرك ما سبق ، وما يلحق ، فكلٌ شىء يأخذ حظه فى الازدهار ، والجمال ، ثم ينتهى ، كذلك الدنيا .

يقول الحق سبحانه :

﴿كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ (٢٤)﴾ [يونس]

والزخرف : هو الشىء الجميل المستميل للنفس وتُسرُّ به حينما تراه ، وتتزين الدنيا بالألوان المتنوعة فى تنسيق بديع ، ثم يصبح كل ذلك حصيداً [1] وهذا ما نراه فى حياتنا ، وهكذا جمع الله سبحانه وتعالى مثل الحياة الدنيا من أولها إلى آخرها بالصورة المرئية لكل إنسان ، حتى لا يخدع إنسان بزخرف الدنيا ولا بزينتها .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ (٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا [2] (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً (٢٩) وَحَدَائِقَ غُلْبًا [3] (٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا [4] (٣١) مَتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ (٣٢) فَإِذَا

(١) حصيداً : محصودة مقطوعة لا شىء فيها ، قال أبو عبيدة : الحصيد : المستأصل . [تفسير القرطبى ٤ / ٣٢٥٤] .

(٢) قال الحسن البصرى : القضب : العلف الذى تأكله الدواب [تفسير ابن كثير : ٤/ ٤٧٢ - بتصرف] .

(٣) حدائق غُلْباً ، أى : بساتين . وقيل : هى نخل غلاظ كرام . وقيل : هى الشجر الذى يُستظل به . [تفسير ابن كثير : ٤/ ٤٧٢] .

(٤) قال ابن عباس : الأب ما أنبتت الأرض مما يأكله الدواب ولا يأكله الناس . وقيل : هو الحشيش للبهائم وقيل : الأب الكلأ . [تفسير ابن كثير : ٤ / ٤٧٢ ، ٤٧٣] .

جَاءَتِ الصَّاخَّةُ [١] (٣٣) يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧)﴾. [عبس]

إذن: فالدنيا بكل جمالها الذى تراه إنما تذوى [٢] ، وما تراه من بديع ألوانها إنما يذبل ، ومهما ازدانت الدنيا فهى إلى زوال ، فإياك أن تبغى ؛ لأن البغى فيه متاع الدنيا ، والدنيا كلها إلى زوال ؛ كزوال الروض التى ينزل عليها المطر ؛ فتنبت الأرض الأزهار ، ثم يذوى كل ذلك.

وقد قال الحق سبحانه:

﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (١٧) وَلَا يَسْتَثْنُونَ (١٨) فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (١٩) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ [٣] (٢٠)﴾. [القلم]

إذن: فالدنيا بهذا الشكل وعلى هذا الحال.

---

(١) الصاخة: قال ابن عباس: هى اسم من أسماء يوم القيامة عظّمه الله وحذّر منه. وقال البغوى: الصاخة يعنى: صيحة يوم القيامة ، سُمِّيت بذلك ؛ لأنها تصخ الأسماع ، أى: تبالغ فى إسماعها حتى تكاد تصمها. [تفسير ابن كثير: ٤ / ٤٧٣].

(٢) تذوى: تذبل. ذوى النبات: أصابه الحر والعطش فَـذَبُلَ وضعف. وذوى عود النبات: يبس. [اللسان: مادة (ذوى)].

(٣) هذا مثل ضربه الله تعالى لكفار قريش فيما أهدى إليهم من الرحمة العظيمة وأعطاهم من النعمة الجميلة ، وهو بعثة محمد ﷺ إليهم ، فقابلوه بالتكذيب والرد والمحاربة ، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ﴾ أى: اختبرناهم ﴿كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ وهى البستان المشتمل على أنواع الثمار والفواكه ﴿إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ أى: حلفوا فيما بينهم ليَجُذُّنَّ ثمرها (يجمعونه) ليلاً لئلا يعلم بهم فقير ولا سائل ؛ ليتوفر ثمرها عليهم ، ولا يتصدقوا منه بشىء. ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾ أى: فيما حلفوا به ، ولهذا حَنَّثهم الله فى أيمانهم ، فقال تعالى: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ أى: أصابتها آفة سماوية ﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾ قال ابن عباس: أى: كالليل الأسود. وقال الثورى والسدى: أى: هشيماً يبساً. [تفسير ابن كثير: ٤ / ٤٠٦].

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ (٢٤) ﴾ [يونس]

والأرض تتزين بأمر ربها ، والحق سبحانه ينسب الإدراكات إلى ما لا نعرف أن له عقلاً أو إرادة. ألم يقل الحق سبحانه فى قصة العبد الصالح : ﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ [(١)] .. (٧٧) ﴾ [الكهف].

فهل يملك الجدار إرادة أن ينقضَّ ؟ ولو حققنا الأمر جيداً ؛ لوجدنا أن الحق سبحانه جعل لكل كائن فى الوجود حياة تناسبه ، وله إرادة تناسبه ، وله انفعال يناسبه. وقد ضرب الحق سبحانه لنا فى ذلك صوراً شتّى، فنجد أن الشىء الذى يعزُّ على عقولنا أن تفهمه يبرز لنا ببيان من الله تعالى.

ومثال هذا: معرفة الهدهد فى قصة سليمان عليه السلام بالتوحيد ، وكيف أخبر هذا الهدهد سيدنا سليمان عليه السلام بحكاية مملكة سبأ حيث يسجد الناس هناك للشمس من دون الله ، فكأن الهدهد قد علم مَنْ يستحق السجود له إذ قال : ﴿ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِى يُخْرِجُ الْخَبْءَ [(٢)] فِى السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ .. (٢٥) ﴾ [النمل].

ومن كان يظن أن الهدهد ، وهو طائر ، يكون على هذه البصيرة بالعقائد على أصفى ما تكون؟ لأن الحق سبحانه أراد أن يبيّن لنا أن هذا

---

(١) يريد أن ينقض : الانقضاض السقوط بسرعة وإضافة إرادة الانقضاض إلى الجدار مجاز عن قرب سقوطه ، وذلك على التشبيه بحال منْ يريد الفعل ، وفى كتاب الله قوله : ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ .. (١٥٤) ﴾ [الأعراف] وقوله : ﴿ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ .. (٢١) ﴾ [محمد] [تفسير سورة الكهف للشيخ محمد محمد المدنى - بتصرف] .

(٢) الخبء: ما خُبىء . والخبء الذى فى السمٰوات هو المطر ، والخبء الذى فى الأرض هو النبات. وقيل: الخبءكل ما غاب، فيكون المعنى: يعلم الغيب فى السمٰوات والأرض. [اللسان: مادة (خبأ)].

الطائر لا هوى له يفسد عقيدته ، وأن أهواءنا هى التى تفسد العقائد ، ومَنْ أعطاه الله سبحانه البدائل هو الذى يفسد الاختيار ما دام لا يحرس الاختيار بالإيمان ، وأن يختار فى ضوء منهج الله تعالى .

ونحن نرى أن ما دون الإنسان من طائر أو حيوان لا يفسد شيئاً ؛ لأن غريزته تقوده ، فلا نجد حيواناً يأكل فوق طاقته ، لكننا نجد إنساناً يصيب نفسه بالتخمة [(١)] ، ولا نجد حماراً يقفز فوق قناة من الماء لا يقدر عليها ، بل نراه وهو يتراجع عنها ، ولكننا نجد إنساناً يشمر عن ساعديه [(٢)] ؛ ليقفز فوق قناة مياه ؛ فيقع فيها [(٣)] .

إذن : فنحن بأهوائنا التى تسيطر على غرائزنا نوقع أنفسنا فيما يضرنا ، ما لم نحرس أنفسنا بمنهج الله سبحانه وتعالى . ونجد فى مثال الهدهد صفاءً عقدياً فى التوحيد كأصفى ما يكون المتصوِّفة ، ويأتى بما يهمه ﴿ **أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾ لأن الخبء هو رزق الهدهد ، فهو لا يأكل من الشىء الظاهر على سطح الأرض ، بل يضرب بمنقاره الأرض ؛ ليأتى لنفسه بما يطعمه .

ويعطينا الحق سبحانه مثلاً آخر بالنملة التى قالت : ﴿ **يَـٰأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١٨)** ﴾ . [النمل]

---

(١) التخمة : الذى يصيب الإنسان من الطعام إذا استوخمه أى : استثقله . وقد تطلق «التخمة» على كثرة الطعام والمبالغة فى الأكل والشرب حتى يثقل على الجسم هضم الطعام ؛ فيصاب الإنسان بالوخم والثقل وعدم القدرة على الحركة . [اللسان : مادة وخم] .

(٢) الساعد : ملتقى الزندين من عند المرفق إلى الرسغ . والساعد : ساعد الذراع ، وهو ما بين الزندين والمرفق ، سُمِّى ساعداً لمساعدته الكفّ . وجمع الساعد : سواعد . [اللسان : مادة (سعد)] .

(٣) وهذا مصداق قوله تعالى : ﴿ **إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً (٧٢)** ﴾ [الأحزاب] .

وهذه دقة عدالة من هذه النملة ، فإنها لم تقل: إن سليمان وجنوده سيحطمون أخواتها من النمل ظلمًا لهم ، بل قالت : ﴿وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ لأنكم لا تظهرون تحت أرجلهم.

إذن: كل كائن فى الوجود له حياة تناسبه ، ولكن الآفة أننا نريد أن نتصور الحياة فى كل كائن ، كتصورها فى الكائن الأعلى وهو الإنسان.

ولا بد لنا أن نعلم أن النبات له حياة تناسبه ، والحيوان له حياة تناسبه ، والجماد له حياة تناسبه ، وكل شىء فى الحياة له لون من الحياة المناسبة له.

وقد أوضحنا من قبل أن الحق سبحانه قد قال: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ .. (٤٢)﴾. [الأنفال]

والهلاك مقابل للحياة ، والحياة مقابلة للموت ، والهلاك يساوى الموت. والحق سبحانه يصور الحالة يوم القيامة فيقول: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ ..(٨٨)﴾. [القصص]

إذن: فالجماد هالك ، ولكنه يتمتع بلون من الحياة لا نعرفه ، وكذلك كل كائن له حياة تناسبه ، والآفة أن الإنسان يريد أن يعرِّف الحياة التى فى الجماد كالحياة فى الإنسان.

وانظر إلى دقة الأداء القرآنى فى قوله الحق : ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا(٢٤)﴾ [يونس]

وقد جاء هذا القول من قبل أن يتقدم العلم ويثبت أن الأرض تشبه الكرة ، وأنها تدور ، وأن كل ليل يقابله نهار ، وكذلك جاء قول الحق

سبحانه: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى .. ﴿٩٨﴾﴾. [الأعراف]

إذن: فأمر الله سبحانه يتحقق حين يشاء، وهو أمر واحد عند من يكونون فى ضحى أو فى ليل.

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا[1] كَأَن لَّمْ تَغْنَ[2] بِالأَمْسِ ﴿٢٤﴾﴾. [يونس]

أى: كأنها لم يكن لها وجود.

ويُنهى الحق سبحانه الآية بقوله: ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [يونس]

فإذا كانت الدنيا كلها مثل عملية الزرع فى الأرض الذى ينمو ويزدهر ويزدان، ثم ينتهى، ألا يجب أن ننتبه إلى أن كل زخرف إلى زوال؛ وعلينا ألا نفتتن بزينة الدنيا ومتاعها فى شىء، وأن نحرص على ألا نبغى فى الأرض؛ لأن البغى متاع الحياة الدنيا، وهى إلى زوال[3].

ونجد القرآن يأتى بذكر التفصيل للآيات، ويتبع ذلك بأن هذا التفصيل لقوم «يتفكرون»، أو «يتذكرون»، أو «يعقلون»، أو «يتدبرون».

وكل هذه عمليات تتناول المعلوم الواحد فى مراحل متعددة، فالتعقُّل:

---

(١) الحصيد والحصد: الزرع المحصود بعد ما يحصد، والمراد بالحصيد هنا: تشبيه وتصوير إهلاك الله للأرض فى نهاية الدنيا بما يحدث عند حصد النبات من اقتلاعه وتقطيعه. [اللسان: مادة (حصد) - بتصرف].

(٢) ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ﴾ أى: لم تكن عامرة، والمغانى فى اللغة: المنازل التى يعمرها الناس. وقال قتادة: كأن لم تنعم. وقرأ قتادة (يغن) بالياء، يذهب به إلى الزخرف، يعنى: فكما يهلك الزرع هكذا، كذلك الدنيا. [تفسير القرطبى: ٤/ ٣٢٥٤].

(٣) يقول الله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن].

هو أن تأتى بالمقدمات ؛ لتستنبط ولترى إلى أى نتائج تصل . والتذكُّر يعنى : ألا تنسى وألا تغفل عن الأمر الهام . والتفكُّر : هو أن تُعْمل الفكر . والفارق بين الفكر والعقل هو أن العقل أداة التفكُّر . والتدبُّر [1] : هو ألا تنظر إلى ظواهر الأشياء ، بل إلى المعطيات الخفية فى أى أمر .

والحق سبحانه يقول : ﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ .. (٨٢) ﴾ . [النساء]

أى : اجعل بصيرتك تمحِّص البدايات والنهايات ؛ لتعرف أن المرجع والمصير إلى الله تعالى . والعاقل هو مَنْ يعدّ نفسه للقاء الله سبحانه ، وقد يرهق نفسه فى الدنيا الفانية ؛ ليستريح فى الآخرة .

وإذا نظرنا إلى الدنيا والآخرة من خلال معادلة تجارية ، سنجد أن الآخرة لا بد وأن ترجح كفتها ؛ لأن عمر الإنسان فى الدنيا مظنون ، ولا يعرف فرد هل يحيا فى الدنيا عاماً أو عشرة أو سبعين أو مائة عام .

ومهما طالت الدنيا مع كل الخَلْق فهى منتهية ، والنعيم فيها على قدر إمكاناتك البشرية وعلى قدر تصورك للنعيم ، أما الآخرة فهى بلا نهاية ، وأمر الإنسان فيها متيقَّن ، والنعيم فيها على قدر عطاءات الله تعالى ومراده سبحانه للنعيم . فإن قارنت هذا بذاك وقارنت الدنيا بالآخرة لرجحتْ كفّة الآخرة .

لذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ [2] لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤) ﴾ . [العنكبوت]

---

(١) التدبر فى الأمر . التفكر فيه وأن تنظر إلى ما تؤول إليه عاقبته ، وفلان ما يدرى قبال الأمر من دباره ، أى : أوّله من آخره . ويقال : إن فلاناً لو استقبل من أمره ما استدبره لهُدىَ لوجهة أمره ، أى : لو علم فى بدء أمره ما علمه فى آخره لاسترشد لأمره . قال تعالى : ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ (٢٩) ﴾ [ص] . [اللسان : مادة (دبر) - بتصرف] .

(٢) ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ .. (٦٤) ﴾ [العنكبوت] أى : هى الحياة الدائمة التى لا زوال لها ولا انقضاء ، بل هى مستمرة أبد الآباد . [تفسير ابن كثير : ٣/ ٤٢١] .

وفى قوله سبحانه: ﴿لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾ . مبالغة فى كونها حياة لا فناء فيها. فاتبع منهج الله سبحانه ؛ ليأخذك هذا المنهج إلى دار السلام والسلامة من الآفات. واضمن لنفسك الخروج من دار الفناء والأغيار ، وَضَعْ يدك فى يد من يدعوك إلى دار السلام.

ولذلك يقول الحق سبحانه:

﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ(1) وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾

ودار السلام: هى الآخرة التى تختلف عن دار الدنيا المليئة بالمتاعب ، هذه الدنيا التى تزهو وتتزخرف ، وتنتهى إلى حطيم ؛ لذلك يدعو الله تعالى إلى دار أخرى ، هى دار السلام ؛ لأن من المنغِّصات على أهل الدنيا ، أن الواحد منهم قد يأخذ حظه جاهاً ، ومالاً ، وصحة ، وعافية ، ولكن فى ظل أرق من أمرين: الأول هو الخوف من أن يفوته هذا النعيم وهو حى ، والثانى أن يفوت هو النعيم.

أما الآخرة فالإنسان يحيا فيها فى نعيم مقيم ؛ ولذلك يقول الله سبحانه: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ﴾.

وهذه الآخرة لن يشاغب فيها أحدٌ الآخر ، ولن تجد من يأكل عرق غيره

---

(1) دار السلام هى الجنة ؛ لأنها دار الأمان والسلامة من كل سوء يقول الحق : ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ .. ﴿٥٤﴾﴾ [الأنعام] وسلم تأتى لمعان منها : ألقى السلام وانقاد وأذعن ، وسلمه الله : أنجاه . وسلمه الأمانة أوصلها لصاحبها ، وأداها فهى مُسلَّمة ، يقول الحق : ﴿مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا .. ﴿٧١﴾﴾ [البقرة] وأسلم قلبه : أخلص . وأسلم : دخل فى دين الإسلام ، يقول الحق : ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾﴾ [البقرة] القاموس القويم جـ ٢ صـ ٣٢٥

مثلما يحدث فى الدنيا [١] ، وإذا كنا نعيش فى الدنيا بأسباب الله ، فنحن فى الآخرة نعيش بالله سبحانه وتعالى، فكل ما يخطر على بالك تجده .

فإذا كانت الأسباب تتنوع فى الدنيا وتختلف قدرات الناس فيها مع أخذهم بالأسباب ، فإنهم فى الآخرة يعيشون مع عطاء الله سبحانه دون جهد أو أسباب ؛ لأن دار السلام هى دار الله تعالى ، فالله تعالى هو السلام.

ولله المثلى الأعلى ، فأنت إذا دعاك ولى أمرك إلى داره ، فهو يُعدّ لدعوتك على قدره هو ، وبما يناسب مقامه ، فما بالك حين يدعوك خالقك سبحانه وقد اتبعت منهجه. إنه سبحانه هو القائل :

﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ [٢] ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ [٣] ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾ . [يس]

وهذا السلام ليس من البشر ؛ لأن من البشر من يعطيك السلام وهو يُكِنُّ لك غير السلام ، أو قد يعطيك السلام وهو يريد بك السلام ، ولكنه

---

(١) وفى هذا يقول رب العزة عن أهل الجنة : ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴿٢٦﴾﴾ [الواقعة] . فهم لا يسمعون فيها كلاماً عبثاً أو فيه تبح ، بل قولهم لبعضهم سلاماً سلاماً ، أى : تسليمهم على بعضهم ، فهى دار السلام .

(٢) ﴿فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ﴾ : مرفّهون ناعمون بنعيم الجنة . قال تعالى : ﴿فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ .. ﴿١٨﴾﴾ [الطور] . [اللسان : مادة (فكه) - بتصرف].

(٣) ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ﴾ قال المفسرون : الأرائك : السُّرُر فى الحجال ، وقيل : هى الفُرُش . وقيل : الأريكة : سرير منجَّد مزين فى قُبَّة أو بيت . وقيل : الأريكة : هو كل ما اتكىء عليه من سرير أو فراش أو منصة . قال تعالى : ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ .. ﴿٣١﴾﴾ [الكهف]. [اللسان : مادة (أرك) - بتصرف].

من الأغيار [١] ؛ فيتغير فلا يقدر أن يعطيك هذا السلام ، لكن إذا ما جاء السلام من الله تعالى ، فهو سلام من رب لا يعجزه شيء ، ولا يُعوزه شيء ، ولا تلحقه أغيار ؛ لذلك يقول سبحانه : ﴿ وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلامٌ عَلَيْكُم.. (٢٤) ﴾ . [الرعد]

والملائكة حين يقولون ذلك إنما أخذوا سلامهم من باطن سلام الله تعالى ، وحتى أصحاب الأعراف [٢] الذين لم يدخلوا الجنة ، ويرون أهل الجنة وأهل النار ، هؤلاء يلقون السلام على أهل الجنة . وهكذا يحيا أهل الجنة فى سلام شامل ومحيط ومطمئن ؛ لأن الداعى هو الله سبحانه ، ولا أحد يجبره على أن ينقض سلامه .

ودعوة الله سبحانه هى منهجه الذى أرسل به الرسل ؛ ليحكم به حركة الحياة حركة إيمانية ، يتعايش فيها الناس تعايشاً على وَفْق منهج الله تعالى ، بما يجعل هذه الدنيا مثل الجنة ، ولكن الذى يرهق الناس فى الدنيا أن بعض الناس يعطلون جزئية أو جزئيات من منهج [٣] الله سبحانه .

وأنت إذا رأيت مجتمعاً فيه لون من الشقاء فى أى جهة ؛ فاعلمْ أن جزءاً من منهج الله تعالى قد عُطِّل .

---

(١) فالسلام عند أهل الأغيار يتغير حسب المصالح ، أما سلام الله فلا يلحقه التغيير ولا التبديل ، لأن وعده الحق ، وقوله الصدق ، وهو السلام ، ومنه السلام .

(٢) أصحاب الأعراف هم قوم تساوت حسناتهم وسيئاتهم ، فيقفون بين الجنة والنار يوم القيامة ، ينظرون إلى أهل هذه وأهل تلك ، ينتظرون عفو الله عنهم ، وفيهم قال سبحانه : ﴿ وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ (٤٦) وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤٧) ﴾ [الأعراف] .

(٣) منهج الله تعالى : طريقه وشريعته ، قال تعالى : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا (٤٨) ﴾ [المائدة] . فقد وضع منهجاً للروح سمواً ، وللقلب حباً ، وللنفس سكينة وللعقل فكراً وتأملاً وللجسم حركة . ومنهج هذه الطاقات يوجد مجتمع الربوبية بعقيدة توحده ، وعباده تحبه وتخشاه ومعاملات بأخلاق فإذا اختلت طاقة من هذه الطاقات بسبب نسيانه أو غفلة تعطل المسير فى المنهج نحو الله جل علاه .

ولو أن الناس قد ساروا على منهج الله سبحانه وتعالى ؛ لما كان بالوجود عورة واحدة ؛ فالذى يُظهر عورات الوجود هو غفلة بعض الناس عن منهج الله سبحانه.

وأنت إنْ رأيت فقراء لا يجدون ما يأكلونه ؛ فاعلمْ أن هناك مَنْ عطَّل منهج الله تعالى ، إما من الفقراء أنفسهم ، الذين استمرأ [1] بعضهم الكسل ، وإما أن الأغنياء قد ضنوا برعاية حق الله تعالى فى هؤلاء الفقراء ؛ وبذلك يتعطل منهج الله سبحانه.

أما إذا سيطر منهج الله تعالى على الحياة ؛ لصارت الحياة مثل الجنة.

ويقول الحق سبحانه: ﴿وَيَهْدِى مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ ونعلم أن الهداية نوعان: هداية الدلالة بالمنهج ، فمن أخذ المنهج سهَّل الله تعالى له طريق الصراط المستقيم ؛ وبذلك انتقل العبد من مرحلة الهداية بالدلالة إلى الهداية بالمعونة ، وحين تقوم القيامة يهديهم الله سبحانه بالنور إلى الجنة: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ ..(٩)﴾. [يونس]

إذن: فمن أخذ هداية الله بالدلالة وهى المنهج ، واتبع هذا المنهج ؛ فالحق سبحانه يجعل له نوراً يسعى بين يديه: ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ .. (٨)﴾. [التحريم]

والحق سبحانه يقول: ﴿وَيَهْدِى مَن يَشَاءُ (٢٥)﴾ [يونس]

لأن كل شىء فى هذا الكون لا يخرج عن مشيئته سبحانه ، فالقوانين لا تحكمه ، بل هو الذى يحكم كل شىء.

وإذا كان الله قد بيّن من شاء هدايته ، فهو أيضاً قد بيّن لنا من شاء إضلاله بقوله سبحانه: ﴿وَاللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٣٧)﴾. [التوبة]

---

(١) استمرأ: استحسن الشىء واعتاده. [اللسان: مادة (مرأ) - بتصرف].

وقوله سبحانه: ﴿وَاللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٢٤)﴾. [التوبة]

إذن: فقد بيّن الحق سبحانه لنا من الذين يهديهم إلى الجنة ومن الذين لا يهديهم، فلا يقولن أحد: وما ذنب الكافرين والفاسقين[1]؟ لأن الحق سبحانه قد بين منهجه، فمن أخذ به؛ جعل له نوراً يسعى بين يديه، ويدخله الجنة.

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه:

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٦)﴾

وكلمة ﴿الْحُسْنَىٰ﴾ مثلها مثل قولنا: «امرأة فُضْلى» ونقول أيضاً: امرأة كبرى، وهى أفعل تفضيل، أى: مبالغة فى الفضل[2].

والمقصود بقوله سبحانه: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ﴾ أى: بالغوا فى أداء الحسنات، والحسنة كما نعلم بعشرة أمثالها، وهنا يقول الحق سبحانه: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ فما هذه الزيادة ؟

نقول: هى عطاء زائد فى الحسنات، فهناك «كادر» للجزاء بالحسنات، يبدأ بعشرة أمثال الحسنة ويصل إلى سبعمائة ضعف، أما السيئة

---

(١) يقول الحق سبحانه: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ (١٢٦)﴾ [طه].

(٢) أفعل التفضيل: اسم مشتق على وزن (أفعل) يدل غالباً على أن شيئين اشتركا فى معنى، وزاد أحدهما فيه على الآخر. مثل (أحسن - أفضل - أكبر) فى مثل قولنا: نعيم الآخرة أحسن وأفضل وأكبر من متاع الدنيا. وعند التأنيث تصاغ الكلمة على وزن (فُعْلَى) مثل: (حُسْنَى - فُضْلَى - كُبْرَى). انظر تفصيل ذلك فى (النحو الوافى: ٣/ ٣٩٤ - ٤١٥).

فبواحدة [١]. وهذا «الكادر» لا يحدد فضل الله تعالى، بل الحق سبحانه يزيد من فضله مَنْ يشاء.

ولذلك يجب ألا نفرق بين عدل الله سبحانه في أن الشيء يساوى الشيء، وفضل الله تعالى في أن يجزى على الشيء الحسن بأضعاف أضعاف ما نتصور.

والحق سبحانه يقول: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا.. (٥٨)﴾ [يونس]

وقال قوم من العارفين بالله: إن الزيادة المقصودة هي في العشرة الأمثال والسبعمائة ضعف، والفضل هو ما فوق ذلك.

وهكذا تتعدد مراتب الجزاء: فهناك العشرة الأمثال، والسبعمائة ضعف، والحسنى، والزيادة عن الحسنى، وقد قال رسول الله ﷺ في ذلك: «إذا دخل أهل الجنة الجنة قال: يقول الله تبارك وتعالى: تريدون شيئاً أزيدكم. فيقولون: ألم تُبيِّض وجوهنا؟ ألم تُدخلنا الجنة وتُنجِّنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل» [٢].

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿وَلا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلا ذِلَّةٌ﴾ أي: لا يغطى وجوههم غبار، وهو سبحانه القائل: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣)﴾ [القيامة].

---

(١) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: قال الله عز وجل: «إذا هَمَّ عبدى بحسنة ولم يعملها كتبتها له حسنة، فإن عملها كتبتها عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف، وإذا هم بسيئة ولم يعملها لم أكتبها عليه، فإن عملها كتبتها سيئة واحدة» أخرجه مسلم في صحيحه (١٢٨) والبخاري في صحيحه (٦٤٩١) بلفظ آخر عن ابن عباس.

(٢) أخرجه مسلم (١٨١) وأحمد في مسنده (٤/ ٣٣٢) والترمذي في سننه (٢٥٥٢) من حديث صهيب الرومي.

وهو سبحانه القائل : ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۝ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ [1] ۝ ﴾ . [عبس]

وترهقها : أى : تغطيها ، وقترة تعنى : الغبار ، وهى مأخوذة من القُتار وهو الهواء الذى يمتلىء بدخان الدُّهْن المحترق من اللحم المشوى ، وقد تكون رائحته أخَّاذة ويسيل لها اللعاب ، ولكن مَنْ يوضع على وجهه هذا القتار يصنع له طبقة سوداء .

ويقول الحق سبحانه : ﴿ وَلا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلا ذِلَّةٌ ۝ ﴾ [يونس]

لأنهم اتقوا الله سبحانه وأحبوا منهجه .

ويقول الحق سبحانه : ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ .. ۝ ﴾ [آل عمران]

فليس المقصود هو لون الوجه فى الدنيا ؛ لأنك قد تجد إنساناً أسود اللون لكنه بالإيمان قد أشرق وجهه ، وأحاطت ملامحه هالة من البهاء . وهناك من هو أبيض الوجه ولكنه من فرط معصية الله صار وجهه بلا نور .

ويقول الحق سبحانه : ﴿ أُوْلَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝ ﴾ [يونس]

أى : أنهم ملازمون للجنة ملازمة الصاحب لصاحبه ، أو «أصحاب الجنة» أى : مَنْ يملكونها .

يقول الحق سبحانه بعد ذلك :

---

(١) القَتَرُ : جمع القَتَرة ، وهى الغَبَرة . وفى التهذيب : القترة غبرة يعلوها سواد كالدخان ، والقُتَار : ريح القِدْر ، وقد يكون من الشِّواء والعظم المحترق ، وريح اللحم المشوىّ . وفى حديث جابر ، رضى الله عنه : لا تؤذِ جارك بقُتار قِدْرك . [اللسان : مادة (قتر)] .

﴿ وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثۡلِهَا وَتَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۖ كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًاۚ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾

وما دام الحق سبحانه قد جاء بمن دعاهم إلى دار السلام وأعطاهم الجنة جزاء للعمل الحسن ، فذكر مقابل الشيء يجعله ألصق بالذّهن ، والحق سبحانه هو القائل : ﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً .. ﴿٨٢﴾ ﴾ . [التوبة]

وأيضاً من أمثلة المقابلة [1] فى القرآن قوله الحق : ﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ ﴾ [الانفطار]

إذن : فمجىء المقابل للشىء إنما يرسِّخه فى الذهن ؛ ولأن الحق سبحانه قد تكلم عن الدعوة إلى دار السلام ، ومن دخل هذه الدعوة ؛ فله الجنة خالداً فيها ، لا يرهق وجهه قتر ولا ذلة ، كان لا بد أن يأتى بالمقابل ، وأن يبشِّع رفض الدعوة لدار السلام ، ويحسِّن الأمر عند من يقبلون الدعوة .

ولا بد - إذن - أن يفرح المؤمن ؛ لأنه لن يكون من أهل النار ، ولا بد أيضاً أن يخرج بعض من الذين ضلّوا عن الغفلة ؛ ليهربوا من مصير النار ، ويتحولوا إلى الإيمان .

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ .. ﴿٢٧﴾ ﴾ [يونس]

---

(١) المقابلة نوع من أنواع المطابقة أو الطباق ، ويقصد بها الجمع بين متضادين فى الجملة ، فالمقابلة هى أن يُذكر لفظان فأكثر ، ثم أضدادهما على الترتيب . ومن أمثلتها أيضاً قوله تعالى : ﴿ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [الأعراف] . انظر : الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى (٣/ ٢٨٤ - ٢٨٧).

ونحن نعلم أن الكسب إنما يكون فى الأمر الفطرى ويناسب الطاعات ؛ لأن الطاعة أمر مناسب وملائم للفطرة ، فلا أحد يستحى أن يصلِّى ، أو يتصدق ، أو يصوم ، أو يحج ، لكن من الناس من يستحى أن يُعرف عنه أنه كاذب ، أو مُرَابٍ ، أو شارب خمر .

والإنسان حين يرتكب السيئة يمر بتفاعلات متضاربة ؛ فالذى يسرق من دولاب والده وهو نائم ، تجده يتسلل على أطراف أصابعه ويكون حذراً من أن يرتطم بشىء يفضح أمره ، كذلك الذى ينظر إلى محارم غيره .

كل هذا يدل على أن ارتكاب الشىء المخالف فيه افتعال ، أى : يحتاج إلى اكتساب ، ولكن الكارثة أن يستمر الإنسان فى ارتكاب المعاصى حتى تصير دُرْبة ، ويسهل اعتياده عليها ؛ فيمارس المعصية باحتراف ؛ فتتحول من اكتساب إلى كسب .

أو أن يصل الفاسق من هؤلاء إلى مرتبة من الاستقرار على الانحلال ؛ فيروى ما يفعله من معاصٍ وآثام بفخر ، كأن يقول : « لقد سهرنا بالأمس سهرة تخلب العقل ، وفعلنا كذا وكذا » ، ويروى ذلك ، وكأنه قد كسب تلك السهرة بما فيها من معاصٍ وآثام .

ومن رحمة الله سبحانه بالخلق أنه يجازى مرتكب السيئة بسيئة مثلها ، فيقول سبحانه : ﴿ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا ﴾ ، وتتجلى أيضاً رحمة الحق سبحانه وتعالى حين يعطى من لا يرتكب السيئة مرتبة ؛ فيصير ضمن من قال عنهم الحق سبحانه : ﴿لَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾ لكن الذين لم يهتدوا منهم من يقول الحق سبحانه عنهم : ﴿مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ أى : لن يجيرهم أحد عند الله تعالى ، ولن يقول أحد لله سبحانه : لا تعذِّبْهم .

أو أن (لا عاصم لهم) بمعنى : أن الله تعالى لن يأمر بعد ذلك بألا يُعذَّبوا .

ولا يقتصر أمرهم على ذلك فقط ، بل يقول الحق سبحانه : ﴿**كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا**﴾ أى : كأن قطعاً من الليل المظلم قد غطت وجوههم ، ويكون مأواهم النار ﴿**أُوْلَـٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾ .

هذا هو حال الذين كذَّبوا بآيات الله تعالى وكذبوا الرسل ، وتأبَّوا عن دعوة الله سبحانه وتعالى إلى دار السلام واتبعوا أهواءهم واتخذوا شركاء من دون الله تعالى .

وشاء الحق سبحانه أن يُجلِّى لنا ذلك كله فى الدنيا ؛ حتى يكون الكون كله على بصيرة بما يحدث له فى الآخرة ؛ لأنه نتيجة حتمية لما حدث من هؤلاء فى الدنيا .

يقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾﴾

والحشر : هو أخذ الناس من أمكنة متعددة إلى مكان واحد ، وستقذف هذه الأمكنة المتعددة مَنْ فيها مِنَ الكَفَرة ؛ ليصيروا فى المكان الذى شاءه الله سبحانه لهم .

وكلما اقترب الناس من هذا المكان ؛ ازدحموا ، وذلك شأن الدائرة

بمحيطها ، والمحيطات الداخلة فيها إلى أن تلتقى فى المركز ، فأنت إذا نظرت إلى محيط واسع فى دائرة ، وأخذت بعد ذلك الأفراد من هذا المحيط الواسع ؛ لتلتقى بهم فى المركز ؛ فلا شك أنك كلما اقتربت من المركز ؛ فالدوائر تضيق ، ويحدث الحشر .

فكأننا سنكون مزدحمين ازدحاماً شديداً ، ولهذا الازدحام متاعب ، ولكن الناس سيكونون فى شغل عنه بما هم فيه من أهوال يوم القيامة [1] .

وقوله الحق : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ﴾ تفيد الجمع المؤكد لحالات الذين لم يستجيبوا لمنهج الله تعالى ، ولا لدعوة الله سبحانه لهم لدار السلام ، وكذبوا رسلهم ، واتخذوا من دون الله تعالى أنداداً ، فيجمع الله سبحانه المُتَّخذَ أنداداً [2] ، والمُتَّخَذَ نداً ، ويواجههم ؛ لتكون الفضيحة تامة وعامَة ، بين عابد عبد باطلاً ، ومعبودٍ لم يطلب من عابده أن يعبده ، أو معبود طلب من عابده أن يعبده .

لذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ .. (٢٨) ﴾ [يونس]

وهكذا يتلاقى من عَبَدَ الملائكة مع الملائكة ، ويتلاقى من عَبَدَ رسولاً وجعله إلهاً ، ومن عبد صنماً ، أو عبد شمساً ، أو عبد قمراً ، أو جنّاً

---

(١) عن عائشة رضى الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غُرْلاً » قلت : يا رسول الله ، النساء والرجال جميعاً ينظر بعضهم إلى بعض . قال ﷺ : « يا عائشة الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض » . أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٨٥٩) والبخارى (٦٥٢٧) فهول يوم القيامة هول شديد ، حتى إن الناس يتمنون أن ينتهى يوم الحساب حتى ولو كان مصيرهم إلى النار .

(٢) الند : المثل والنظير ، والجمع أنداد . قال تعالى : ﴿ وجعلوا لله أنداداً .. (٣٠) ﴾ [إبراهيم] أى : أضداداً وأشباهاً . وقال تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ (١٦٥) ﴾ [البقرة] [اللسان : مادة (ندد)] .

أو شيطاناً من شياطين الإنس أو شياطين الجن .

إذن : فالمعبودون متعددون ، وكل معبود من هؤلاء له حكم فى ذلك الحشر ، وستكون المواجهة علنية مكشوفة .

فإذا نظرنا إلى العابد الذى اتخذ إلهاً باطلاً سواء أكان من الملائكة أو رسولاً أرسل إليهم ؛ ليأخذهم إلى عبادة إله واحد - هو الله سبحانه وتعالى - ففتنوا فى الرسول وعبدوه ، أو عبدوا أشياء لا علم لها بمن يعبدها : كالأصنام ، والشمس ، والقمر ، والأشجار .

أما المعبود الذى له علْم ، وله دعوة إلى أن يعبده غيره ، فهو يتركز فى شياطين الإنس ، وشياطين الجن ، وإبليس .

أما الملائكة فإن الله - سبحانه وتعالى - يواجههم بمن عبدهم ، فيسألهم : أأنتم وعدتم هؤلاء ؛ ليتخذوكم آلهة ، فيقولون : سبحانك أنت ولِّينا ، ويتبرأون من هؤلاء الناس ، مصداقاً لقول الحق سبحانه : ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا .. (١٦٦) ﴾ [البقرة]

والملائكة لا علم لهم بمن اتخذهم آلهة ، وإذا انتقلنا إلى البشر وعلى قمَّتهم الرسل عليهم السلام ، فيأتى سيدنا عيسى ابن مريم عليه السلام ، ويقول الحق سبحانه له : ﴿ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِى وَأُمِّيَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ .. (١١٦) ﴾ [المائدة]

فيقول سيدنا عيسى عليه السلام ما جاء على لسانه فى القرآن الكريم : ﴿ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِى أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ .. (١١٦) ﴾ [المائدة]

فكأن هؤلاء قد عبدوا من لا علم له بهذا التأليه ، ولم يَدْعُ إليه .

والأصنام كذلك ليس لها علم بمن ادَّعى ألوهيتها ، ولكن الذى له علم بتلك الدعوة هو إبليس ، ذلك أنه حينما عز عليه أنه عاص لله ، أغوى آدم ، ثم تاب آدم عليه السلام وقَبِل الله سبحانه وتعالى توبته ، أما إبليس فلم يتب عليه الحق سبحانه ؛ لأنه رد حكم المولى - عز وجل - بالسجود لآدم ، واستكبر ، وظن نفسه أعلى مكانة (١) .أما آدم عليه السلام فلم يرد الحكم على الله تعالى .

يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ (١١) قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ (١٢) ﴾ [الأعراف]

ومن ذلك نأخذ مبدأ إيمانياً موجزه أن الذين لا يقدرون على أنفسهم فى إخضاعها لمنهج الله تعالى ، فمن الخير لهم أن يقولوا : إن منهج الله سبحانه هو الصدق ، وحكمه سبحانه هو الحق ، ولكننا لم نستطع أن نُخضِعَ أنفسنا للحكم ؛ وبذلك يخرجون من دائرة رد الأمر على الآمر ، وبإمكانهم أن يتوبوا بنية عدم العودة إلى المعصية .

إذن : فالمخاصمة والمحاجّة (٢) موجهة من إبليس لذرية آدم ، فقد أقسم

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : «إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد ؛ اعتزل الشيطان يبكى يقول : يا ويله ، أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة ، وأمرت بالسجود فأبيت فلى النار» أخرجه مسلم فى صحيحه (٨١) .

(٢) المحاجَّة : المغالبة والجدال. والحُجَّة : الدليل والبرهان. وحَجَّه وحَاجَّه : غلبه على حُجَّته. قال تعالى : ﴿ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ .. (٢٠) ﴾ [آل عمران] قال الأزهرى : إنما سميت الحُجّة حُجَّة ؛ لأنها تُحَجّ ، أى : تُقْصَد لأن القصد لها وإليها ؛ وكذلك مَحَجَّة الطريق هى المقصد والمسلك [اللسان : مادة(حجج)] .

إبليس بعزة الله سبحانه أن يُغوى كل أبناء آدم إلا الذين استخلصهم الله لعبادته سبحانه وتعالى ؛ فقد علمَ إبليس أنه غير قادر على إغوائهم [١] .

وهكذا تكون عزة الله سبحانه هى التى تمكِّن إبليس - وذريته من الشياطين - من غواية أو عدم غواية خلق الله سبحانه وتعالى.

والشياطين هم الجن العُصَاة ؛ لأننا نعلم أن الجن جنس يقابل جنس البشر ، ومن الجن من هو صالح طائع ، ومنهم من هو عاص ، ويُسمّى شيطاناً ، ويخدم إبليس فى إغواء البشر ، فيتسلَّط على الإنسانَ فيما يعلم أنها نقطة ضعف فيه .

فمن يحب المال يدخل الشيطان إليه من ناحية المال ، ومن يحب الجمال يدخل له الشيطان من ناحية الجمال ، ومن يحب الجاه يجد الشيطان وهو يزيِّن له الوصول إلى الجاه بأية وسيلة تتنافى مع الأخلاق الكريمة ومنهج الله عز وجل.

وكل إنسان له نقطة ضعف فى حياته يعرفها الشيطان ويتسلل منها إليه ، وقد يُجنِّد إبليس وذريته أناساً من البشر يعملون بهدف إغواء الإنسان لإفساده.

فهناك - إذن - ثلاثة يطلبون أن ينصرف الناس عن منهج الله تعالى ودعوة الحق ؛ وهؤلاء الثلاثة هم : إبليس ، والعاصون من الجن (أى : الشياطين) ، ثم البشر الذين يشاركون إبليس فى الإغواء ، وهم شياطين الإنس الذين يعملون أعمالاً تناهض منهج الرسل.

---

(١) قال سبحانه عن إبليس : ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) ﴾ [ص] ، وهؤلاء المخلَصون هم عباد الرحمن الذين ذكر الله أوصافهم فى سورة الفرقان آيات (٦٣ - ٧٤) ، وعن أبى سعيد الخدرى فى حديث أن إبليس قال : «يا رب وعزتك وجلالك لا أزال أغويهم ما دامت أرواحهم فى أجسادهم. فقال الله تعالى : وعزتى وجلالى ولا أزال أغفر لهم ما استغفرونى» أخرجه أحمد فى مسنده (٣/ ٢٩) والحاكم فى مستدركه (٤/ ٢٦١) وصححه وأقره الذهبى.

وهل يكون الحوار - يوم القيامة - بين الملائكة ومَنْ عَبَدُوهم منَ البشر؟ وهل يكون الحوار بين الأصنام والذين عبدوها دون علمها ؟ وهل يكون الحوار بين عيسى عليه السلام ومن اتخذوه إلهاً دون علمه ؟

ها نحن نجد عارفاً بالله يقول على لسان الأصنام :

«عَبَدُونا ونحن أعْبَدُ لله   منَ القائمينَ بالأسْحَار [1]»

لأن الحق سبحانه هو القائل : ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ .. (٤٤)﴾ [الإسراء]

ويكمل العارف بالله :

«اتَّخَذُوا صَمْتَنَا علينا دليلاً   فَغَدَوْنا لَهُم وَقُودَ النار»

والحق سبحانه هو القائل : ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ .. (٢٤)﴾ [البقرة]

ويتابع العارف بالله :

«قَدْ تَجَنَّوا جهلاً كما تَجَنَّوا   على ابنِ مَرْيم والحَوَارِي [2]»

فما موقف الله سبحانه من هؤلاء وأولئك ؟ فنقول :

إن للمُغَالِي جَزَاءهُ ، والمُغَالَى   فيه تُنْجِيه رحمةُ الغَفَّار».

وهكذا وَضُحَ موقف كل من يعبد غير الله سبحانه أو يشرك به ، هؤلاء

---

(١) الأسحار : جمع السَّحَر وهو آخر الليل قبيل الصبح . لسان العرب (مادة سحر) . والقائمون بالأسحار هم المتعبدون المتهجدون بالليل .

(٢) أي : الحواريون وهم أصحاب عيسى عليه السلام وأنصاره ، الذين خلصوا من كل عيب ، كالدقيق الأبيض الذي ينقى من اللباب . (اللسان : مادة حور) .

الذين يشملهم قول الحق سبحانه: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ..(٢٨)﴾[(١)] [يونس]

وهكذا يُحشَر مَنْ عبدوا الأصنام أو الكواكب أو أشركوا بالله ، وكذلك شياطين الجن والإنس ، الجميع سيحشرون فى الموقف يوم الحشر ، وليتذكر الجميع فى الدنيا أن فى الحشر ستُكشَفُ الأمور ويُفضح فيه كل إنسان أشرك مع الله غيره ، سبحانه ، وستحدث المواجهة مع مَنْ أشركه بالعبادة مع الله سبحانه دون علْم من الملائكة أو الرسل أو الكواكب أو الحجارة بأمر هؤلاء ، ويأتيهم جميعاً أمر الحق سبحانه : ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ ..(٢٨)﴾ [يونس]

وحين تسمع الأمر : «مكانك» فهو يعنى : «الزمْ مكانك» وهى لا تُقال للتحية ، بل تحمل التهديد والوعيد ، وانتظار نتيجة موقف لن يكون فى صالح من تُقال له ، ونعرف أن الملائكة ، والرسل ، والكواكب ، والحجارة ليس لها علم بأمر هؤلاء الذين عبدوهم .

إذن : فالذين ينطبق عليهم هذا الأمر هم هؤلاء المشركون الذين ظنوا أن بإمكانهم الإفلاتَ من الحساب ، لكنهم يسمعون الأمر ﴿مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ﴾ ، فهل يعنى ذلك أنهم سوف يأتون مع الملائكة ومَنْ عُبد من الرسل والكواكب والحجارة فى موكب واحد ؟ لا ؛ لأن هؤلاء العبيد اتفقوا على موقف باطل ،ويشاء الحق سبحانه أن يفصل بين الحق والباطل .

لذلك يقول الحق سبحانه : ﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ (٢٨)﴾[(٢)] [يونس]

---

(١) نحشرهم : نجمعهم للحساب . ومنه يوم المَحْشَر . والحَشْر : جمع الناس يوم القيامة . قال تعالى : ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ..(٢٠٣)﴾ [البقرة] .

(٢) زيَّلنا بينهم : فرَّقْنا بينهم . والتَّزايل : التباين . قال تعالى : ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٢٥)﴾ [الفتح] [اللسان : مادة (ز ى ل)] .

أى : جعل من المشركين فريقاً ، وجعل من الذين عُبدُوا دون علمهم فريقاً آخر ، وأعلن فريقُ مَنْ عُبِدوا دون علمهم : ﴿مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ .. (٢٨)﴾ [يونس]

أى : ما كنتم تعبدوننا بعلمنا .

وانظروا إلى الموقف المُخْزى لمن عبدوا غير الله سبحانه ، أو أشركوا به ، إن الواحد منهم قد عبد معبوداً دون أن يدرى به المعبود ، مع أن الأصل فى العبادة هو التزام العابد بأمر المعبود ، وهذه المسألة تَصْدُق على الملائكة وسيدنا عيسى عليه السلام ، وتصدق أيضًا على الكواكب والأحجار ؛ لأن الحق سبحانه الذى يُنطق أبعاض الإنسان يوم القيامة ؛ لتشهد على صاحبها ، قادر على أن يُنْطق الأحجار .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٩) حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٠) وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِى أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ .. (٢١)﴾ [فصلت]

ونجد الصنم يوم القيامة وهو يلعن مَنْ عبده ، تماماً مثلما يتبرأ الجلد من صاحبه إنْ عصى الله تعالى ، فالحق سبحانه يقول : ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤)﴾ [النور]

ولكن لا تترك عقلك يتخيل كيفية تكلُّم الصنم ، فأنت آمنت أن جوارح الإنسان من يد ورجل وجلد ستنطق يوم القيامة ، فهل تعقَّلت كيف تنطق اليد ، وكيف ينطق الجلد ، وكيف تنطق الرِّجْل فى الآخرة ، أنت تؤمن بخبر الآخرة فلا تنظر إلى معطيات أمور الآخرة بقوانين الدنيا ؛ لأن كل

شـىء يتـبدَّل فى الآخـرة ، ألـم تـخـبرك الســنة أنك سـتأكل فى الجنـة ، ولا تُخْرِج فضلات [١] ؟

وهذا أمر غير منطقيّ - بقوانين الدنيا - ولكننا نؤمن به ، وإذا كان الحق سبحانه وتعالى يخبرنا بأشياء سوف تحدث فى الجنة ، لو قسْناها بعقولنا على ما نعرف فى الدنيا لوقفت أمامها عاجزة ، لكن القلب المؤمن يعقل أمور القيامة والآخرة على أساس أنها غيب ، والمقاييس تختلف فيها ؛ لأن الإنسان مظروف [٢] بين السماء والأرض. وللدنيا أرض وسماء ، وللآخرة أيضاً أرض وسماء ؟

والحق سبحانه يقول : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَـٰوَاتُ . . (٤٨) ﴾ [إبراهيم]

إذن : فكل شىء يتبـدّل يوم القيـامـة ، فـإذا حُـدِّثْتَ أن الأصنام تنطق مسـتنكرة أن تُعـبَد من دون الله تعـالى ، وأن الملائكة تلعن من عـبدوها من دون الله سبحانه ، فلا تتعجب.

ثم يقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَـٰفِلِينَ (٢٩) ﴾

إذن : فـالكائنات التى عُـبدتْ من دون الله تعـالى تعلن رفضـهـا لمسـألة عبـادتهـا ، فإذا كان الطير - ممثلاً فى الهدهد - قد أعلن من قبل اندهاشه

---

(١) عن جابر بن عبد الله قال : سمعت النبى ﷺ يقول : «إن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون ولا يتفلون ولا يبولون ولا يتغوطون ولايتمخطون. قالوا : فما بال الطعام ؟ قال : جشاء أو رشح كرشح المسك ، يُلْهَمُون التسبيح والتحميد». أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٨٣٥) ، وأحمد فى مسنده (٣/ ٣٦٤).

(٢) أى : أن الإنسان محل لظروف الزمان والمكان ، بين أرض الدنيا وسمائها وأرض الآخرة وسمائها ، تختلف بينهما قوانين الحياة فى كل منهما.

من أن بعضاً من البشر قد عبد غير الله تعالى [١].

واستدل الهدهد - على قدرة الحق سبحانه - بما يخصُّه هو من الرزق ، حيث يعلم أن الحق سبحانه قد عَلِمَ الخبء فى السموات والأرض ، إذا كان الهدهد قد عرف ذلك فالاستنكار أمر منطقى من غيره من المخلوقات ، سواء أكانت من الملائكة ، أو من عيسى عليه السلام ، أو من الأصنام والأشجار والكواكب .

ولذلك نجد الحق سبحانه يضرب المثال بسؤاله للملائكة : ﴿ أَهَـٰؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ .. (٤٠) ﴾ [سبأ]

فيجيب الملائكةُ بقولهم : ﴿ سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ .. (٤١) ﴾ [سبأ]

والحق سبحانه وتعالى يعرض هذه المواقف فى سُوَر القرآن الكريم عرضاً منثوراً [٢] مكرراً بما لا يدع للغفلة أن تصيب الإنسان ، فمثلاً يقول الحق سبحانه :

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم [٣] مِّنَ الإِنسِ ..(١٢٨) ﴾ [الأنعام]

ويقول على ألسنة من اتخذوا الشياطين أولياء :

﴿ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُم مِّنَ الإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِى أَجَّلْتَ لَنَا .. (١٢٨) ﴾ [الأنعام]

---

(١) وذلك فى قصة الهدهد مع سليمان : ﴿ إِنِّى وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ (٢٤) ﴾ [النمل].

(٢) المنثور : الشىء يُلْقى متفرقاً هنا وهناك كالحَبِّ وغيره . [اللسان : مادة نثر].

(٣) أى : أضللتم منهم كثيراً وأكثرتم من إغوائهم وإضلالهم.

وقولهم هذا يتضمن الحديث عن ذواتهم والحديث عن الجن.

ولسائل أن يسأل: وكيف يأخذ الجن كثيراً من الإنس؟

ونقول: إن الحق سبحانه قد خلق الجن على هيئة تختلف عن هيئة الإنس، فجعل للجن خواصّاً تختلف عن خواصِّ الإنس، ومن هذه الخواص ما قال عنه الحق سبحانه: ﴿ **إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ** [1] **مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ** .. (٢٧) ﴾ [الأعراف]

وأعطى الحق سبحانه للجن قوة أكثر مما أعطى للإنس، وأعطاهم القدرة على النفاذ من السواتر الحديدية والجدران وغيرها، وهذا أمر منطقى مع أصل تكوين الجن، فالجن مخلوق من النار، والإنسان مخلوق من الطين. وهناك اختلاف بين طبيعة كل من النار والطين، فما يخرج من الطين قارٌّ [2]، أى: لا يشع، وما يخرج من النار له إشعاع وحرارة.

بمعنى: أنك لو كنت تجلس فى حجرة، وخلف ظهرك فى الحجرة الأخرى نار موقدة؛ فالساتر - أيا كان - سوف يحمل لك بعضاً من حرارة النار، إلا لو كان عازلاً للحرارة.

أما لو كانت هناك تفاحة - وهى مخلوقة من الطين - موجودة فى الحجرة الأخرى، فلن ينفذ طعمها أو رائحتها إليك.

إذن: فالنار لها قانونها، والطين له قانونه. وقانون المادة المخلوقة من الطين لا ينتقل إلا إذا نَقَلْتَ الجِرْم [3] إلى المكان الذى توجد فيه.

---

(١) القَبِيل: الجماعة من الناس يكونون من الثلاثة فصاعداً من قوم شتّى، كالعرب، والروم، والزنج، وقد يكونون من نحو واحد، وربما كان القبيل من أب واحد كالقبيلة. وكل جيل من الجن والناس قبيل. قال تعالى: ﴿ أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً (٩٢) ﴾ [الإسراء]. [اللسان: مادة (قبل)].

(٢) قار: أى: مستقر فى مكانه لا ينتقل منه شىء إلا إذا نقلته أنت. يقال: فلان قارٌّ، أى: ساكن ثابت. (اللسان: مادة قرر).

(٣) الجِرْم: الجسم. والجمع (الأجرام).

ونلمح هذه المسألة التقنينية فى قصة سيدنا سليمان عليه السلام حين علم أن ملكة سبأ تسير فى الطريق إليه لتعلن إسلامها ، وأراد سيدنا سليمان عليه السلام أن يأتى لها بعرشها من مكانه قبل أن تصل .

فقال لمن هو فى مجلسه : ﴿ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ .. (٣٨) ﴾ [النمل]

وهذا يدل على أنه كان فى مجلسه أجناس مختلفة ، ولكل جنس منهم قدرات مختلفة عن قدرات الجنس الآخر ، ونقل العرش من اليمن إلى مكان سيدنا سليمان عليه السلام يحتاج إلى زمن وإلى قوة ، فلو أنهم كانوا متساوين فى قدراتهم ما قال : ﴿ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى .. (٣٨) ﴾ [النمل]

فكان أول من تقدم لتنفيذ ما أراده سليمان عفريت من الجن - لا جِنّاً عاديّاً ، فمن الجن من هو خائب قليل الذكاء ، ومنهم من هو ذكى ، فهم وإن كانوا من جنس واحد فهم متفاوتون أيضًا ، وكان عفريت الجن هو أول من تكلم ، وقال : ﴿ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ .. (٣٩) ﴾ [النمل]

ولكن مقام سليمان قد يستمر ساعة أو بضع ساعات [1] ، والمتكلم هو عفريت من الجن الذى يعلم أن له صفات أقوى من صفات الإنس . أما الإنس العادى - ممن كان حاضراً مجلس سليمان- فلم يتكلم ؛ لأن المطلوب ليس فى قدرته ، أما الذى تكلم من الإنس فهو مَنْ عنده علْم من الكتاب، فقال : ﴿ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ [2] .. (٤٠) ﴾ [النمل]

ولم يأخذ الأمر شيئاً من الزمن ؛ لذلك عبَّر القرآن التعبير السريع بعد ذلك ، فقال : ﴿ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَـٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى .. (٤٠) ﴾ [النمل]

---

(١) كان سليمان عليه السلام يجلس للقضاء بين الناس فى مظالمهم من أول النهار إلى أن تزول الشمس .

(٢) الطرف : طرف العين ، وهو أيضاً إطباق الجفن على الجفن . (اللسان : مادة طرف) .

إذن : فللجن قوة على أشياء لا يقوى عليها الإنس [١] ، ولم يأخذ الجنى خواصَّه فى الخفة والقدرة ومهارة اختزال الزمن بذات تكوينه ، ولكن بإرادة المكوِّن سبحانه ؛ ولذلك شاء الحق أن يُذكِّر الجن أنهم قد أخذوا تلك الخصوصيات بمشيئته سبحانه ، والحق هو القادر على أن يجعل الإنس وهو الأدنى قدرة ، قادراً على تسخير الجن ؛ ولذلك يحاول الإنس أن يأخذ من تسخير الجن قوة له فيقوى على نظيره من الإنس.

ولكن الحق سبحانه أصدر الحكم على مَنْ يحاول ذلك بأن تسخير الجن يزيد رَهَقاً [٢].

واقرأوا قول الحق سبحانه :

﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَـٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ .. (١٠٢) ﴾

[البقرة]

إذن : فتعليم الجن السحر للإنس دليل على تفوق قدرات الجن وتميزها عن قدرات الإنس.

---

(١) يقول الإمام : إن للجن قوة بحسب تكوينه النارى تفوق قوة الإنسان ، ثم يفيض علينا أن الإنسان بمنهج الله له قوة مددية من الله إذا عايش المنهج ، وفهم أسرار الكتاب ، يتجلَّى ذلك فى أن الشيطان قال لسليمان : ﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (٣٩) قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَـٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ (٤٠) ﴾ [النمل] إذن : الواصل بالله أقوى من الكل ، هذا من حيث العطاء الإلهى ، أما من حيث التكوين فالإنسان من طين ، والطين ليس كالنار.

(٢) وذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا (٦) ﴾ [الجن] أى : ذلة وضعفاً. قال السدى : كان الرجل يخرج بأهله فيأتى الأرض فينزلها فيقول : أعوذ بسيد هذا الوادى من الجن أن أضر أنا فيه أو مالى أو ولدى أو ماشيتى. ذكره ابن كثير فى تفسيره (٤/ ٤٢٨).

ولكن الملكين هاروت وماروت [1] حينما علَّمَا الإنسان السحر حذَّراه أولاً من أن يأخذ من ذلك فرصة زائدة تطغيه على بنى جنسه ويظلم بها ، إنما الأمر كله اختبار ، فإن تعلَّمته فذلك لتقىَ نفسك من الشر لا لتوقعه بغيرك ، ثم إنك - أيها الإنسان - من الأغيار قد تضمن نفسك وقت التحمُّل ، ولكن ماذا عن وقت الأداء ؟

مثلما يأتى لك إنسان ليُودعَ عندك ألفاً من الجنيهات كأمانة ، ولكن أتظل على الأمانة ، أم أنك قد تنكر المال أصلاً حين يطالبك به صاحبه ، أو قد تمر بك أزمة مالية فتتصرف بهذا المال ؟

ولذلك تجد الذكى هو مَنْ يقول لمودع هذا المال : «احفظْ عليك مالك ، لأنى من الأغيار» .

وتلك هى القضية الإيمانية الأصيلة فى الكون كله ؛ لأن الحق سبحانه هو القائل :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ [2] عَلَى السَّمَـوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً (٧٢) ﴾ [الأحزاب]

والأمانة هى ما يكون فى ذمة المؤتمن ، ولا حجة للمؤتمن عنده إلا ذمته ، ولا شهود عليه ، ولا يوجد إيصال بتلك الأمانة ، بل هى وديعة لا توثيق فيها ؛ إلا ذمة المؤتمن ، قد يقرُّ بها ، وقد يُنكرها .

---

(١) هاروت وماروت ملكان من السماء ، أنزلا إلى الأرض ، وقيل إنهما لم تعجبهما أحكام بنى آدم فى العباد ، فأهبطا ليحكما بين الناس ، وكانا يعلمان الناس السحر ، فأخذ عليهما أن لا يعلمان أحداً حتى يقولا : إنما نحن فتنة فلا تكفر .

(٢) اختلف العلماء فى تفسير الأمانة فى الآية ، ولكن أجمع قول فيها أنها الطاعة بالاختيار ، قال ابن عباس : هى الطاعة عرضها عليهم قبل أن يعرضها على آدم فلم يطقنها ، فقال لآدم : إنى قد عرضت الأمانة على السموات والأرض والجبال فلم يطقنها فهل أنت آخذ بما فيها؟ قال : يا رب وما فيها؟ قال : إن أحسنت جزيت ، وإن أسأت عوقبت . فأخذها آدم فتحمَّلها . انظر ابن كثير فى تفسيره (٣/ ٥٢٢) .

وعلى ذلك فحقُّ المؤتمن عند المؤتَمَن خاضعٌ لخيار المؤتَمَن ؛ ولذلك وجدنا السماء والأرض والجبال قالت : يا رب لا نريد أن نُدخلَ أنفسنا فى هذه التجربة ، افعل بنا ما شئت واجعلْنَا مقهورين ولا اختيَار لنا ، ولا نريد تحمُّل الأمانة.

أما الإنسان فقد ميَّزه الله بالعقل ، وقدرة الاختيار بين البدائل ؛ لذلك قَبلَ الإنسان حَمْل الأمانة ، وحين جاء وقت الأداء لم يجد نفسه أميناً على الأَشياء مثلما ظَنَّ فى نفسه وقت التحمُّل.

وكذلك الذين يتعلمون السحر ، يقول الواحد منهم لنفسه : سوف أتعلمه لأدفع الضُّرَّ عن نفسى ، ونقول له : أنت لا تضمن نفسك ؛ لأنك من الأغيار ، فقد يغضبك أو يثير أعصابك إنسان ؛ فتستخدم السحر فتصيب نفسك بالرَّهق.

إذن : فحين قال الله سبحانه : ﴿ **يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الإِنسِ** .. (١٢٨) ﴾ [الأنعام]

أى : أخذتم من الإنس كثيراً بأن أعطيتموهم سلاحاً يحقق لهم فرصة وقوة على غيرهم من البشر.

وقد ذكر الحق - سبحانه وتعالى - لنا أن بعض البشر الذين استجابوا للجن قالوا : ﴿ **اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ** .. (١٢٨) ﴾ [الأنعام]

واستمتاع الإنس بالجن مصدره أن الإنس يأخذ قوة فوق غيره من البشر ، واستمتاع الجن بالإنس مصدره أنه سوف يُعين هذا الإنسان على معصيته ؛ تطبيقاً لِقَسَمِ إبليس اللعين : ﴿ **فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ**[1] **أَجْمَعِينَ** .. (٨٢) ﴾ [ص]

---

(١) الإغواء : الإضلال. قال تعالى : ﴿ فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ (٣٢) ﴾ [الصافات]. [اللسان : مادة (غوى)].

ولكن هذا الاستمتاع فى النهاية لا يعطى أمراً زائداً عن المقدور لكل جنس ؛ ولذلك تجد أن كل مَنْ يعمل بالسحر وتسخير الجن إنما يعانى ؛ مصداقاً لقول الحق سبحانه : ﴿ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ..(٦) ﴾ [الجن]

وأنت تجد رزق الذى يقوم بالسحر أو تسخير الجن يأتى من يد مَنْ لا يعلم السحر ، ولو كان فى تعلُّم ذلك ميزة فوق البشر ؛ لجعل رزقه من مصدر آخر غير من لا يعلمون السحر أو تسخير الجن.

وأنت حين ترى الواحد من هؤلاء ، تجد على ملامحه غَبَرَةً ، وفى ذريته آفة أو عيباً ، فمنهم مَنْ هو أعور أو أكتع [1] أو أعرج ؛ لأنه أراد أن يأخذ فرصة فى الحياة أكثر من غيره من البشر ؛ بواسطة الجن ، وهذه الفرصة تزيده رهقاً ؛ ولذلك فليلزم كل إنسان أدبه وقدره الذى شاءه الله - سبحانه وتعالى - له ؛ فلا يفكر فى أخذ فرصة تزيد من رهقه.

ونحن نرى فى البشر مَنْ يستخدم صاحب القوة الجسدية أو قدرة تصويب السلاح ؛ ليُرهب غيره ، وقد ينجح فى ذلك مرة أو أكثر ، ثم ينقلب هذا (الفتوَّة) أو ذلك القاتل المأجور على مَنْ استأجره.

إذن : فلا بد أن يحترم كل إنسان قَدَرَ الله - سبحانه وتعالى - فى نفسه ، وألاّ يأخذ فرصة من جنس آخر ؛ يظن أنها تزيده فى دنياه شيئاً ، لكنها فى الواقع ستزيده تعباً وتزيده رهقاً.

ولذلك نجد الحق - سبحانه وتعالى - يقول عنهم : ﴿ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِى أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ [2] ..(١٢٨) ﴾ [الأنعام]

---

(١) الأكتع : مَنْ رجعت أصابعه إلى كَفِّه ، وظهرت مفاصل أصول أصابعه. و«أكتع» يجىء فى التوكيد إتباعاً ، فيقال : جاء الجيش أجمعَ أكتعَ. [المعجم الوسيط : مادة (كتع)].

(٢) المثوى : مكان الإقامة والاستقرار. والجمع : المثاوى. قال تعالى : ﴿ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ (١٥١) ﴾ [آل عمران] [اللسان : مادة (ثوى)].

وهكذا نرى أن مصير الاستمتاع بقوة الجن هو النار للإنس الذى استخدم الجن ، وللجن الذى أغوى الإنس.

ثم يعرض لنا الحق - سبحانه وتعالى - قضية أخرى فى هذه المسألة ؛ فيقول سبحانه : ﴿ **الأَخِلاَّءُ**[1] **يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ** (٦٧) ﴾ [الزخرف]

والأخلاء : هم الجماعة التى يجمع أفرادها صحبة ومودَّة ، ويتخلّل كل منهم حياة الآخر. وأنت تجد الناس صنفين :

أناساً اتخذوا الخُلَّة[2] فى الله تعالى ، فيذهبون إلى المساجد ، ويستذكرون العلم ، ولا يأكلون إلا من حلال ، ويقرأون القرآن ، وإن همَّ واحد منهم بمعصية وجد من صديقه ما يردّه عن المعصية ، ويحجّون إلى بيت الله الحرام ، ويعتمرون ، وتدور حياتهم فى إطار حديث المصطفى ﷺ : «رجلان تحابّا فى الله اجتمعا عليه وتفرَّقا عليه »[3] وهذا لون من الخُلَّة.

واللون الآخر يضم أناساً يساعد بعضهم البعض على المعصية ، ويشربون الخمر ، ويلعبون الميسر ، ويفعلون كل المعاصى ، فإذا جاء يوم القيامة يقابلون حكم الله تعالى : ﴿ **لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ ..** (٢٥٤) ﴾ [البقرة]

فلا خُلَّة إلا خُلَّة اللقاء فى الله تعالى ، فإذا التقى الأخلاء فى الله تعالى فرحوا ببعضهم ؛ لأن كلاً منهم حمى أخاه من معصية ، أما من كانوا

---

(١) الأخلاَّء : جمع (خليل) وهو الصديق. قال تعالى : ﴿ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً ..(١٢٥) ﴾ [النساء].
وقال تعالى - حكاية عن الكافرين يوم القيامة : ﴿ يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلاً (٢٨) ﴾ [الفرقان].
[اللسان : مادة (خ ل ل)].

(٢) الخُلَّة : الصداقة والمحبة. والخِلُّ : الوُدُّ والصديق. [اللسان : مادة (خ ل ل)].

(٣) عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : «سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله : الإمام العادل ، وشاب نشأ فى عبادة الله ، ورجل قلبه مُعلَّق فى المساجد ، ورجلان تحابّا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال : إنى أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم يمينه ما تنفق شماله ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه» أخرجه مسلم فى صحيحه (١٠٣١) والبخارى فى صحيحه (٦٦٠).

يجتمعون فى الدنيا على المعصية ، فكل منهم يلعن الآخر ، ويصدق حكم الله سبحانه وتعالى : ﴿ الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ (٦٧) ﴾ [الزخرف]

ولذلك نجد الحوار بين الذين استضعفوا والذين استكبروا ، ونجد الحق سبحانه وتعالى يأتى لنا بهذا الحوار فى القرآن : ﴿ فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ .. (٢١) ﴾ [إبراهيم]

فيرد الآخرون : ﴿ لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا [١] أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ [٢] .. (٢١) ﴾ [إبراهيم]

وبعد ذلك يأتى اعتراف الشيطان الذى يقول عنه الحق سبحانه :

﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ [٣] إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ [٤] .. (٢٢) ﴾ [إبراهيم]

---

(١) الجَزَع : نقيض الصبر . قال تعالى عن الإنسان : ﴿ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) ﴾ [المعارج] . [اللسان : مادة (جزع)].

(٢) محيص : مَهْرَب . قال تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا (١٢١) ﴾ [النساء] . [اللسان : مادة (حيص)].

(٣) السلطان : سلطان القهر فى قهرهم على اتباعه . ويطلق السلطان أيضاً على الحجة والبرهان . يقول تعالى عن سليمان وهو يهدد الهدهد : ﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٢١) ﴾ [النمل].

(٤) مصرخكم : مغيثكم . والصريخ : المغيث . وقال تعالى : ﴿ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ .. (١٨) ﴾ [القصص] . وقال تعالى : ﴿ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ (٤٣) ﴾ [يس] . [اللسان : مادة (صرخ)].

وهذا الحوار هو الذى يكشف لنا ما سوف يحدث يوم القيامة ، ونجد الحق سبحانه يقول :

﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ .. (١٦) ﴾ [الحشر]

هذه كلها لقطات من مشاهد يوم القيامة ، جاءت فى خواطرنا ونحن نتناول قول الحق سبحانه : ﴿فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ (٢٩) ﴾ [يونس]

هكذا يعلن كل مَنْ عُبد من الملائكة أو الرسل أو الأصنام ، وبذلك تتم فضيحة الذين عبدوهم من دون الله سبحانه ويأخذون طريقهم إلى النار.

ولذلك نجد الحق سبحانه يقول : ﴿ احْشُرُوا [١] الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) ﴾ [الصافات]

ولننتبه هنا إلى أن الأزواج متقدمون فى الإغواء والتوجيه إلى الشر ، قبل الأعداء ؛ لأن الزوج أو الزوجة قد يكون هو الشيطان الملازم الذى يُهيِّيء الانحراف إلى ما يريد [٢].

ونجد الحق سبحانه يقول بعد ذلك : ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ (٢٤) ﴾ [الصافات]

ومثلها مثل قوله سبحانه : ﴿مَكَانَكُمْ﴾ نفهم من ذلك أنهم كانوا معاً فى الدنيا وهى دار الاختيار ، وهم الآن فى دار جبرية الاقتدار ؛ لذلك يقول الحق سبحانه :

---

(١) احشروا : اجمعوا. و الحشر : جمع الخلائق يوم القيامة للحساب. [اللسان : مادة (حشر)].

(٢) يقول سبحانه وتعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ .. (١٤) ﴾ [التغابن].

﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ (٢٤) مَا لَكُمْ لا تَنَاصَرُونَ (٢٥) بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (٢٦) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٧) قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ (٢٨) ﴾ [الصافات]

أي: كنتم تستعملون قوتكم ؛ لتجعلونا نتبعكم ، فلا يظنن ظانٌّ أنها قوة البطش فقط ، أو قوة التذليل ، بل المقصود بذلك أيّ قوة ، حتى وإن كانت قوة الإغواء.

إذن: فالمواقف مفضوحة ، وهذا لون ومقدمة من ألوان العذاب ؛ ليبين الله - سبحانه وتعالى - صدقه فى قوله: ﴿ الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ [1] (٦٧) ﴾ [الزخرف]

وشاء الحق سبحانه ذلك ؛ ليبين لنا كيف يختار الإنسان خليله فى الدنيا ، فلا يختار الخليل الذى يزيّن الخطأ والمعصية ، بل يختار الذى يعينه على الطاعة.

ويذكر الحق سبحانه موقفاً من مواقف يوم القيامة فيقول سبحانه:

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلاَّنَا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ [2] نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الأَسْفَلِينَ (٢٩) ﴾ [فصلت]

هكذا يكون حال الذين ضلُّوا يوم القيامة ، يتبرأون ممن أوقفهم هذا الموقف بل يطلبون من أضلهم لإيقاع العذاب بهم بأنفسهم ؛ لذلك يقول الحق

---

(١) عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ : «لو أن رجلين تحابا فى الله ، أحدهما بالمشرق ، والآخر بالمغرب لجمع الله تعالى بينهما يوم القيامة يقول : هذا الذى أحببته فىَّ» ذكره ابن كثير فى تفسيره (٤/ ١٣٤) وعزاه للحافظ ابن عساكر.

(٢) عن على بن أبى طالب أن ﴿ اللَّذَيْنِ أَضَلاَّنَا .. (٢٩) ﴾ [فصلت] فى الآية المقصود بهما : إبليس أول من عصى الله جحوداً لأمره ، وابن آدم الذى قتل أخاه فكان أول من سن ارتكاب الكبائر والمعاصى فى الأرض. ذكره ابن كثير فى تفسيره (٤/ ٩٨).

سبحانه في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها: ﴿فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا [1] عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ (٢٩)﴾ [يونس]

هكذا يتبرأ الملائكة والرسول الذي عُبِدَ، وحتى الأصنام، من الذين عَبَدُوهم في الدنيا.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿هُنَالِكَ تَبْلُوا [2] كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٣٠)﴾

وقول الحق سبحانه: ﴿هُنَالِكَ﴾ يعني: في هذا الوقت، أو في هذا المكان. والزمان والمكان هما ظَرْفَا الحدث؛ لأن كل فعل يلزم له زمان ومكان، فإن كان الزمان هو الغالب، فيأتي ظرف الزمان، وإذا كان المكان هو الغالب فيأتي ظرف المكان.

وجاءت ﴿هُنَالِكَ﴾ أيضاً في قصة سيدنا زكريا عليه السلام، إذ يقول الحق سبحانه: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ .. (٣٨)﴾ [آل عمران]

أي: في ذلك الوقت الذي قالت فيه مريم - رضي الله عنها - قولةً أدَّت بها قضية اعتقادية إيمانية لكفيلها، وهو سيدنا زكريا عليه السلام وهو الذي يأتي لها بالطعام، وشاء لها الحق - سبحانه وتعالى - أن تعلّمه هي. يقول

---

(١) إنْ كُنَّا: أي: ما كنا. فإنْ هنا للنفي، وتدخل على الجملة الاسمية نحو قوله تعالى: ﴿إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ...(٢٠)﴾ [الملك] وتدخل على الجملة الفعلية نحو قوله تعالى: ﴿إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ .. (١٠٧)﴾ [التوبة].

(٢) ﴿تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ ..(٣٠)﴾ [يونس]: تذوق جزاء ما عملت وقدَّمت. وقيل: تختبر. وقيل: تتبع، أي: تتبع كل نفس ما قدّمت في الدنيا. وقرأ حمزة والكسائي «تتلو» أي: تقرأ كل نفس كتابها الذي كُتب عليها. [تفسير القرطبي ٤/ ٣٢٦١] وابن كثير [٢/ ٤١٦].

سبحانه: ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا .. (٣٧) ﴾ [آل عمران]

والرزق ما به انتفع ، وكان زكريا - عليه السلام - يكفلها بكل شيء تحتاجه ، لكنه فوجيء بوجود رزق لم يأت هو به ؛ بدليل أنه قال: ﴿ أَنَّىٰ [1] لَكِ هَٰذَا .. (٣٧) ﴾ [آل عمران]

وهذه ملحظية ويقظة الكفيل حين يجد مكفوله يتمتع بما لم يأت به. وهذه هي قضية «من أين لك هذا ؟» ، وهي قضية الكفيل العام للمجتمع حين يرى واحداً يتمتع بما لا تؤهله له حركته في الحياة ، وبذلك يُكتشف مختلس الانتفاع بما يخص الغير دون أن يَعرف كافله ، ولو أن كافله أصرَّ على معرفة من أين تأتي مصادر دخله ؛ لَحَمى المجتمع من الفساد.

وانظر إلى جواب مريم عليها السلام على قول زكريا عليه السلام الذي ذكره رب العزة سبحانه: ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا .. (٣٧)﴾ [آل عمران]

قالت مريم: ﴿هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ..(٣٧)﴾ [آل عمران]

ثم تعلِّل الجواب: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ [2] ..(٣٧)﴾

[آل عمران]

قالت ذلك ؛ لأنه وجد عندها أشياء لا توجد في مثل هذا الوقت من

---

(١) أنَّى لك هذا؟ : كيف ومن أين لك هذا ؟

(٢) لله في عطائه رزق بحساب ، ورزق بغير حساب ، فرزق الحساب بقدر ما تقدمه من خير وعمل صالح ، يُقاس العطاء بمقياس العدل الإلهي . أما الرزق الذي بغير حساب فهو رزق الذين وهبوا كلياتهم إلى الكل المطلق ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢)﴾ [الأنعام] . إذن : فكون الرزق هنا بلا حدٍّ مصداقاً لقوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٢١٢)﴾ [البقرة] لأن الإمام العارف قال : من دخل على الله بحساب أعطاه بحساب ، ومن دخل عليه بغير حساب أعطاه بغير حساب .

السنة ، فعجَبُ سيدنا زكريا عليه السلام - إذن - كان من أمرين اثنين : شىء لم يأت هو به ، وشىء مخالف للفترة التى هو فيها ، كأنْ وجد عندها عنباً فى زمن غير أوانه ، أو وجد برتقالاً فى غير أوانه [1] ، وسؤاله كان دليل يقظة الكفيل ، وإجابتها كانت قضية إيمانية عقدية ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ..﴾ (٣٧) [آل عمران]

وما دام ﴿مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ - سبحانه وتعالى - ما طرح حسابك أنت للأشياء فى ضوء هذه القضية .

ولكن هل غفل سيدنا زكريا - عليه السلام - عن قضية الإيمان بأن الله تعالى يرزق مَنْ يشاء بغير حساب ؟

فنقول : لا ، لم يغفل عنها ، ولكنها لم تكن فى بؤرة شعوره حينئذ ؛ فجاءت بها قولة السيدة مريم لتذكر بهذه القضية ، وهنا تذكَّر زكريا نفسه ، كرجل بلغ من الكبر عتياً [2] ، وامرأته عاقر ، وما دام الله سبحانه يرزق من يشاء بغير حساب ، فليس من الضرورى أن يكون شاباً أو تكون زوجته صغيرة لينجب ، فجاء الحق معبراً عن خاطر زكريا فى قوله :

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ..﴾ (٣٨) [آل عمران]

أى : فى هذا الوقت أو ذلك المكان ، أو فى الاثنين معاً زماناً ومكاناً ، وهنا جاءته الإجابة من ربه سبحانه وتعالى : ﴿قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ..﴾ (٩) [مريم]

---

(١) ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ..﴾ (٣٧) [آل عمران] قال مجاهد وعكرمة وآخرون : يعنى : وجد عندها فاكهة الصيف فى الشتاء ، وفاكهة الشتاء فى الصيف . وهذا فيه دلالة على كرامات الأولياء [تفسير ابن كثير : ١/ ٣٦٠].

(٢) عتَا الشيخ عِتِيّـاً وعَتِيّاً وعُتِيّاً : كَبِرَ وأسنَّ . [اللسان : مادة (عتى)].

وقد جاء الحق سبحانه بهذه القضية ليمنع أىَّ ظانٍّ من أن يسىء الظن بعفة مريم عليها السلام ؛ لأنها فى موقف اللجوء فأنطقها الحق بقوله :

﴿يرْزُقُ من يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ .. (٣٧) ﴾ [آل عمران]

وما دام الرزق بغير حساب وفى غير وقته وغير مكانه وبلا سبب وبغير علم كافلها ، فعند ذلك تحقق اللجوء إلى الله بالقبول الحسن الذى دعت به امرأة عمران :

﴿ وَإِنِّى أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٣٦) فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ[1] وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ..(٣٧) ﴾ [آل عمران]

ويطبقها زكريا عليه السلام على نفسه ، ثم تتعرض هى لها ، حين يبشِّرها الحق سبحانه بغلام اسمه المسيح عيسى ابن مريم - عليهما السلام .

فهى ستلد من غير أن يمسسها ذكر ، وهى تعلم أن الأسباب جارية فى أنه لا يوجد تناسل إلا بوجود ذكر وأنثى ، وشاء الحق سبحانه أن يقدِّر لها أن تلد دون هذه العملية ، فجاء سبحانه بتلك المقدمة على لسانها ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ..(٣٧) ﴾ [آل عمران]

وحين تساءلت : ﴿ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ .. (٤٧) ﴾ [آل عمران]

جاءتها الإجابة بأن اسمه المسيح عيسى ابن مريم ، يقول سبحانه :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ..(٤٥) ﴾ [آل عمران]

فبيقظتها الإيمانية فطنت إلى أن هذا الطفل سيُنسب إلى أمه ؛ فعرفت أن

---

(١) تقبَّل الشىء وقبوله دليل على أخذ الشىء برضا ، فأنت قد تأخذ بكُرْه أو على مضض ، أما أن تتقبل فذلك يعنى الأخذ بقبول ورضا . أما القبول الحسن فهو زيادة فى الرضا .

أباه ملغى ؛ وأدركت أن هذا الولد لن يأتى نتيجة زواج ولو فيما بعد ، وبذلك كان عليها أن تعود إلى القضية الإيمانية التى ذكرتها : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧)﴾ [آل عمران]

وهنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الحق سبحانه: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ .. (٣٠)﴾ [يونس]

أى : فى ذلك الوقت تُختبر كل نفس ، وترى هل الجزاء طيب أم لا؟ فإن كانت قد عملت الشر ؛ فستجد الجزاء شرّاً .

إذن : فالإنسان وقت النتائج يختبر نفسه بما كان منه .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ[1] الْحَقِّ .. (٣٠)﴾ [يونس]

وكأنهم كانوا فى الدنيا عند مولًى آخر غير الإله الحقّ سبحانه ، والمولى غير الحق هو الشريك أو الشركاء الذين اتخذهم بعض الناس مَوالِىَ لهم ، وهنا فى اليوم الآخر يُردُّون إلى الإله الحق والمولى الحق سبحانه .

وكلمة «رُدُّوا إلى كذا» لا تدل على أنهم كانوا مع الضِّدِّ ، وجاءوا له ، بل تدل على أنهم كانوا معه أولاً ، ثم ذهبوا إلى الضِّدِّ ، ثم رُدُّوا إليه ثانياً ، مثل قول الحق سبحانه عن موسى عليه السلام :

﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ .. (١٣)﴾ [القصص]

فدلَّت على أنه كان مع أمه ، ثم فارقها ، ثم رُدَّ إليها .

وقول الحق سبحانه هنا : ﴿وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ[2] الْحَقِّ .. (٣٠)﴾ [يونس]

---

(١) المولى : النصير والولىّ الذى يلى عليك أمرك ، ولا يليك إلا من هو قريب منك ، وهو الناصر والمعين الذى تفزع إليه فى شدائدك .

(٢) قال تعالى هنا : ﴿وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ .. (٣٠)﴾ [يونس] فأثبت أن الله هو مولاهم الحق ، وقال فى آية أخرى : ﴿وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَىٰ لَهُمْ ..(١١)﴾ [محمد] . فهو سبحانه ليس مولى لهم فى النصرة والمعونة ، بل هو مولى لهم فى الرزق وإدرار النعم .

أى: أنهم كانوا مع الله أولاً ، ثم أخذهم الشركاء ، وفى هذا اليوم الآخر يرجعون لربهم سبحانه.

والإنسان يكون مع ربّه أولاً بالفطرة التكوينية المؤمنة ، ثم يتجه به أبواه إلى المجوسية أو أىّ ديانة أخرى تحمل الشرك بالله تعالى [(١)] ، وهم فى ظل تلك الديانات المشركة ، كانوا عند مولًى وسيِّد وآمر ومشرِّعٍ ، لكنه مَوْلًى غير حق ؛ لأن الحق هو الثابت الذى لا تدركه الأغيار.

﴿هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ ..(٣٠)﴾ [يونس]

أى: عرفت كل نفس ما فعلت ، ويُعرف كل إنسان بفضيحته فى جزئيات ذاته ، وكذلك الفضيحة العامة لكل إنسان أشرك بالله سبحانه.

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٣٠)﴾ [يونس]

أى: أن الآلهة التى عبدوها لا تتعرف إلى أمكنتهم ومواقعهم ، وأنهم فى خطر ؛ فتأخذ بأيديهم ؛ لأن هذه الآلهة لا علم لها بهم ، ولو أن هذه الآلهة التى كانوا يعبدونها من دون الله - سبحانه - على شىء من الحق ؛ ووجدوهم فى مأزق ؛ لكان يجب أن يدافعوا عنهم ، لكنهم لم يعرفوا أماكنهم ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ..(٣٠)﴾ [يونس]

أى: ما كانوا يكذبونه كذباً متعمداً.

وبعد أن كشف - سبحانه - المسألة وما سوف يحدث فى الآخرة ،

---

(١) عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة ، فأبواه يهوِّدانه أو ينصِّرانه أو يمجِّسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء ، هل تحسون فيها من جدعاء؟ ثم قال: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ.. (٣٠)﴾ [الروم]. متفق عليه. أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٧٧٥) ومسلم (٢٦٥٨).

وخوَّفهم وبشَّع لهم ما سوف ينتظرهم من مصير إنْ ظلوا على الكفر ؛ لعلَّهم يرتدعون [1] ، ويتذكرون ضرورة العودة إلى عبادة الإله الحق سبحانه ، يأتى الحق سبحانه وتعالى بما يعيد إليهم رُشْدَ الإيمان فى نفوسهم ، فيقول :

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ [2] فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ ﴾

أى : أن الحق سبحانه يقول لرسوله ﷺ : اسألهم هذا السؤال ، ولا يسأل هذا السؤال إلا مَنْ يثق فى أن المسئول لو أدار فى ذهنه كل الأجوبة ، فلن يجد جواباً غير ما عند السائل .

ومثال ذلك من حياتنا - والله المثل الأعلى - إن جاء لك من يقول : أبى يهملنى ، فتمسك به ، وتسأله : من جاء لك بهذه الملابس وذلك القلم ويُطعمك ويُعلِّمك ؟ سيقول لك : أبى .

وأنت لا تسأله هذا السؤال إلا وأنت واثق أنه لو أدار كل الأجوبة فلن يجد جواباً إلا الذى تتوقعه منه ، فليس عنده إجابة أخرى ؛ لأنك لو كنت تعرف أنه سوف يجيبك إجابة مختلفة لما سألته فكأنك ارتضيت حكمه هو فى المسألة .

---

(١) الارتداع : الكف عن الشيء . وترادع القوم : ردع بعضهم بعضاً ، فزجروهم وكفوهم عن المعاصى وإيذاء الناس . [وانظر : لسان العرب - مادة ردع] .

(٢) فى الآية منطق الفطرة بالتوحيد ، فالكافر إذا سئل عن خلق الكون ، وعن تدبير الأمر ، وعن عجائب الآيات لا يجد جواباً إلا أن يقول بدافع الفطرة : الخالق هو الله ، والمدبر هو الله .

والحق سبحانه وتعالى قال فى بداية هذه الآية الكريمة: ﴿قُلْ﴾ كما أنزل عليه مثيلاتها مما بُدىء بقوله سبحانه: ﴿قُلْ﴾ مثل قوله سبحانه:

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١)﴾ [الصمد]

وهذا ما اقتضاه خطاب الحق سبحانه دائماً للخَلْق، ويختلف عن خطاب الخَلْق للخَلْق، فحين تقول لابنك: «اذهب إلى عمِّك، وقُلْ له كذا». فالابن يذهب إلى العمِّ ويقول له منطوق رسالة الأب، دون أن يقول له: «قُلْ»، أما خطاب الحق سبحانه للخلق، فقد شاء سبحانه أن يبلِّغنا به رسوله ﷺ كما نزل ﴿قُلْ﴾ فالرسول ﷺ أمين فى البلاغ عن الله تعالى، لا يترك كلمة واحدة من الوحى دون أن يبلِّغها للبشر، وما دام الحق سبحانه وتعالى هو الذى أمره، فهو يبلغ ما أمرَ، حتى لا يحرم آذان خلق الله تعالى من كل لفظ صدر عن الله سبحانه.

وكذلك أمر الحق - سبحانه - هنا لرسوله ﷺ بأن يقول: ﴿مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ .. (٣١)﴾ [يونس]

ونحن نعلم أن الرزق هو ما يُنتفع به، والانتفاع الأول مُقوِّم حياة، والثانى تَرَفٌ أو كماليات حياة، والرزق الذى هو أصل الحياة هو ماء ينزل من السماء، ونبات يخرج من الأرض(١).

وهكذا قال الحق سبحانه السؤال والإجابة معروفة مقدَّماً، فلم يَقُلْ لرسوله ﷺ: «أجبْ أنت» بل ترك لهم أن يجيبوا بأنفسهم.

وكذلك جاء الحق سبحانه بسؤال آخر: ﴿أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ .. (٣١)﴾ [يونس]

---

(١) وهذا الرزق هو ما ذكره رب العزة فى قوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ (٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً (٢٩) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (٣١) مَتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ (٣٢)﴾ [عبس].

والسمع والبصر هما السيدان لملَكَات الإدراك ؛ لأن إدراك المعلومات[١] له وسائل متعددة ، إنْ أردتَ أنْ تُدرك رائحة ؛ فبأنفك ، وإنْ أردتَ أنْ تدرك نعومة ؛ فبلمسك وببشرتك ، وإنْ أردتَ أن تدرك مذاق شيء فبلسانك ، وإنْ أردت أن تتكلم فبأجهزة الكلام وعمدتها اللسان ، وإنْ أردتَ أن تسمع فبأذنك .

وكذلك تتجلَّى لك المرائى[٢] بعينيك ، ثم تأتى إدراكات متعددة من الحواس ؛ لتُكوِّن أشياء نسميها الخميرة ، توجد منها القضية العقلية الأخيرة ، فَالطفل أمام النار يجد منظرها جميلاً جذاباً ، لكن ما إن يلمسها حتى تلسعه ؛ فلا يقرب منها أبداً من بعد ذلك ؛ لأنه اختبرها بحواسه فارتكزت لديه القضية العقلية وهى أن هذه نار محرقة ، واستقر هذا لديه يقيناً .

وهكذا تكون الإدراكات الحسية إدراكات متعددة تصنع خميرة فى النفس تتكون منها الإدراكات المعنوية .

إذن : فوسائل العلم للكائن الحى هى الحواس ، وهذه الحواس تعطى العقل معطيات تنغرز فيه لتستقر من بعد ذلك فى الوجدان ؛ فتصبح عقائد .

إذن : فمراحل الإدراك هى : إدراك حسىٌّ ، وتفكُّر عقلىٌّ ، فانتهاء عَقَدىٌّ ؛ ولذلك نسمِّى الدين عقيدة .

أى : أنك عقدت الشىء فى يقينك بصورة لا تحلُّه بعدها من جديد لتحلّله ، فهذا يُسمى عقيدة .

---

(١) الإدراك يعطى الوجدان ، والوجدان يعطى الاختيار ، والاختيار يعطى الفكر والتأمل ، وعن طريق الفكر المتأمل يكون توحيد الله .

(٢) رأى يرى فهو راءٍ ، وما يقع عليه البصر فهو مرئىّ ، والجمع : مَرَائى .

ولذلك حينما أراد الله - سبحانه وتعالى - أن يقصَّ علينا مراحل الإدراك في النفس الإنسانية ؛ ليربي الإنسان معلوماته ، قال الحق سبحانه :

﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [النحل]

لذلك يقال : «كما ولدته أمه» ، أي : لم يُعْطَ القدرة على استخدام حواسِّه بعد ، ثم يجعل له الحق سبحانه الحواس ، ويجعله قادراً على استخدامها .

ولم يذكر بقية الحواس ، بل جاء بالسيدين ، وهما السمع والبصر ؛ لأن آيات الكون تحتاج إلى الرؤية ، وإبلاغ الرسل يحتاج للسماع ، وهما أهم آلتين في البلاغ ، فأنت ترى بالعين آيات الكون ومعجزات الرسل ، وتسمع البلاغ بمنهج الله سبحانه وتعالى من الرسل .

وقد لفتنا الإمام علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - إلى العجائب فقال : « اعجبوا لهذا الإنسان ، ينظر بشحمٍ ، ويتكلم بلَحْمٍ ، ويسمع بعظمٍ ، ويتنفس من خَرْمٍ»[1] .

فالصوت يطرق عظمة الأذن ، ويرنّ على طبلتها ، ونرى بشحمة[2] العين ، وننطق بلحمة اللسان .

وأضاف البعض : «ونشمّ بغضروف ، ونلمس بجلد ، ونفكر بعجين» . فالإنسان يولد وكأن مخه قطعة من العجين التي تعمل في استقبال المعلومات من الكون وتخزينها فيه ، وهي التي ستكون ركيزة لتشكيل الفؤاد من بعد ذلك .

---

(١) ذكره الشريف الرضي في كتابه «نهج البلاغة» (٤/ ٤) طبعة مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت .

(٢) شحمة العين : مُقلتها ، وقيل : حدقتها أو ما تحت الحدقة . أما شحمة الأذن فهو ما لان من أسفلها ، وهو مُعلَّق القُرط . [اللسان : مادة (شحم)] .

وجاء قول الحق سبحانه هنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها بوسيلتين من وسائل الإدراك ، وترك بقية الوسائل الثلاث الأخرى الظاهرة ، مع أن العلم الحديث حين تكلم عن وظائف الأعضاء ، احتاط للأمر وقرر أن هذه الحواس هى الحواس الخمس الظاهرة .

وهذا يعنى أن هناك حواساً أخرى غير هذه سيكشف عنها ، وهى حواس لم يكن القدماء يعرفونها ، مثل حاسة البَيْنَ بَيْنَ ، التى نفرق بها بين أنواع الأقمشة والأوراق وغيرها ، وكثافة هذا النوع من ذاك ، وهذه الحاسة توجد بين لمستين من إصبعين متقاربين (١) .

وكذلك حاسة العَضَل التى تزن ثقل الأشياء ، وتعرف حين تحمل ثقلاً ما مدى الإجهاد الذى يسببه لك، وهل يختلف عن إجهاد حَمْل ثقلٍ آخر .

وحين نظر العلماء فى معانى الألفاظ قالوا : «النظائر حين تخالف فلا بد من علّة للمخالفة» فالسمع آلة إدراك ، والبصر آلة إدراك ، فلماذا قال الحق سبحانه فى آلة الإدراك «السمع» ، وقال فى الآلة الثانية «الإبصار» ؟، ولماذا جاء السمع بالإفراد ، وجاء الإبصار بالجمع ، ولم يأتْ بالاثنين على وتيرة (٢) واحدة ؟

فنقول : إنَ المتكلم هو الله تعالى ، وكل كلمة منه لها حكمة وموضوعة بميزان ، وأنت حين تسمع ، تسمع أى صوت قادم من أى مكان ، لكنك بالعين ترى من جهة واحدة ، فإنْ أردتَ أن ترى ما على يمينك فأنت تتجه

---

(١) وهذا غير حاسة اللمس التى ندرك بها نعومة أو خشونة هذا القماش أو ذاك ، فهذا يُدرك بحاسة اللمس وعادة يكون هذا بإمرار كفٍّ اليد على القماش ، أما إدراك (تخانة) هذا القماش أو ذاك فيكون بإدراكه بهذه الحاسة .

(٢) الوتيرة : الطريقة . مأخوذة من التواتر أى : التتابع ، وجرَتِ الأشياء على وتيرة واحدة : أى : بنفس الصفة والطريقة . [اللسان : مادة (وتر)].

بعينيك إلى اليمين ، وإنْ أردت أن ترى ما خلفك ، فأنت تغيِّر من وقفتك ، فالأذن تسمع بدون عمل منك ، لكن البصر يحتاج إلى عمليات متعددة ؛ لترى ما تريد.

وأيضاً فالسمع لا اختيار لك فيه ، فأنت لا تستطيع أن تحجب أذنك عن سماع شيء ، أما الإبصار فأنتَ تتحكم فيه بالحركة أو بإغلاق العين.

وجاء الحق - سبحانه وتعالى - بالسمع أولاً ؛ لأن الأذن هى أول وسيلة إدراك تؤدى مهمتها فى الإنسان ، أما العين فلا تبدأ فى أداء مهمتها إلا من بعد ثلاثة أيام إلى عشرة أيام غالباً.

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ .. (٣١)﴾ [يونس]

والحق سبحانه يملكها ؛ لأنه خالقها وهو القادر على أن يصونها ، وهو القادر سبحانه على أن يُعَطِّلها ، وقد أعطانا الحق مثالاً لهذا فى القرآن فقال عن أصحاب الكهف : ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِى الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا (١١)﴾ [الكهف]

فَعَطَّلَ الله سبحانه أسماعهم بأن ضرب على آذانهم ، فذهبوا فى نوم استمر ثلاثة قرون من الزمن وازدادوا تسعاً.

كيف حدث هذا ؟ . . إن أقصى ما ينامه الإنسان العادى هو يوم وليلة ، ولذلك عندما بعثهم الله تساءلوا فيما بينهم : ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ..(١٩)﴾ [الكهف]

ولكن هيئتهم لم تكن تدل على هذا ، فإن شعورهم قد طالت جداً ، بل إن لونها الأسود قد تبدل وأصبحوا شيبًا وكهولاً ، ولذلك قال الحق سبحانه : ﴿لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ..(١٨)﴾ [الكهف]

ونلحظ هنا ملحظاً يجب الانتباه إليه ، ففى هذه الآية الكريمة يقول الحق سبحانه : ﴿أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ .. (٣١)﴾ [يونس]

بينما يقول فى آية أخرى فى سورة السجدة : ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ .. (٩)﴾ [السجدة]

ولا بد أن ننتبه إلى الفارق بين «الخَلْق» و«الجَعْل» ، و«المُلْك» ، فالخلق قد عرفنا أمره ، وملكية كل شىء لله - تعالى - أمر مُلْزِمٌ فى العقيدة ، ومعروف ، أما «الجَعْل» ، فهو توجيه ما خلق إلى مهمته .

فأنت تجعل الطين إبريقاً ، والقماش جلباباً ، هذا على المستوى البشرى ، أما الحق سبحانه وتعالى فقد خلق المادة أولاً ، ثم جعل من المادة سمعاً وبصراً ، وزاد من بعد ذلك ﴿أَمَّن يَمْلِكُ﴾ ، فمن خلَق هو الله تعالى ، ومن جَعَلَ هو الله تعالى ، ومن مَلَكَ هو الله تعالى .

وهو سبحانه ينبهنا إلى ذلك ، فالأشياء النافعة لابن آدم يخلقها الله سبحانه ، ويجعلها ، ثم يُملِّكها له .

أما ذات الإنسان وأبعاضه من سمع وبصر وغيرهما وإن كانت قد خُلقت فى الإنسان ، وجُعلت له للانتفاع بها ، ولكنها ستظل ملْكاً لله ، يبقيها على حالها ، أو يخطفها أو يصيبها بآفة ، أو يعطلها [1] .

إذن : فهى خُلقت لله ، وجُعلت من الله ، وتظل مملوكة لله ، ويُصيِّرها كيف يشاء ، فدقات القلب والحب والكراهية والأمور اللاإرادية التى تعمل لصالح الإنسان هى مملكة الله .

---

(١) يقول سبحانه : ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠)﴾ [البقرة] .

والحق سبحانه - على سبيل المثال - جعل لكلِّ حيوان جلداً ؛ ننتفع به وندبغه إلا جلدين اثنين : جلد الإنسان وجلد الخنزير ، وقد حُرِّم استخدام جلد الإنسان ؛ لكرامته عند خالقه ، وحُرِّم استخدام جلد الخنزير ؛ ليدُلَّ على حرمته ونجاسته .

وعلينا أن ننتبه إلى أن الحق سبحانه قد خَلَقَ وجَعَلَ ومَلَكَ ، ودليل ملكية الحق - سبحانه وتعالى - أنه حَرَّم الجنة على المُنتحر [1] ؛ لأنه لا يأخذ الحياة إلا واهبُ الحياة ، فأنت أيها الإنسان لستَ ملْكَ نفسك . ولا عذر لأحد ما دام قد وصله هذا البلاغ ، وعليه أن يستوعبه أما من لا يستوعب ؛ فيلقى مصيره .

لذلك فإنه سبحانه هو الذى رزق ، وهو - سبحانه - الذى يملك .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿**وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ** .. (٣١)﴾ [يونس]

ونحن نعلم أن لكل كائن فى الوجود حياة تناسبه ، بدليل قول الحق سبحانه : ﴿**كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ** .. (٨٨)﴾ [القصص]

وما دام كل شىء سيأتى له وقت يهلك فيه ، فمعنى ذلك أن لكل شىء حياة ، إلا أن حياتنا نحن فى ظاهر الأمر عبارة عن الحس والحركة ، والإنسان يأكل الخضروات والخبز والفاكهة ، ومن هذه المأكولات وغيرها يكوِّن الجسمُ الحيوانات المنوية فى الرجل ، والبويضات فى المرأة ، ومنهما يأتى الإنسان ، وكذلك يخرج الكتكوت من البيضة المخصَّبة ؛ لأن البيضة

---

(١) عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ : « من قتل نفسه بحديدة فحديدته فى يده يتوجأ بها فى بطنه فى نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً ، ومن شرب سماً فقتل نفسه فهو يتحساه فى نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً ، ومن تردى من جبل فقتل نفسه فهو يتردى فى نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً » . أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٧٧٨) ومسلم (١٠٩) واللفظ لمسلم .

غير المخصبة لا تُخرج كتكوتاً ؛ فهى بدون حياة ؛ ولذلك لا يتكون منها جنين ، فهناك فرق بين قابلية الحياة ، وبين الحياة نفسها.

وكذلك نواة التمرة ، إذا ما ألقيتْ دون أن توضع فى الأرض ، فلن تكون نخلة أبداً ، ولكن إذا ما زُرعتْ فى الأرض ، ووجدت لها البيئة المناسبة ؛ خرجَتْ نخلة.

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ ..(٣١) ﴾ [يونس]

والتدبير هو عملية الإدارة لأى شىء ؛ حتى يؤدى مهمته ، وبالله من يُدير قلبك ؟ ومن يدير حركة أمعائك ؟ لتستخلص من الطعام ما يفيدك ، ثم تخرج ما لا يفيدك.

إياك أن تقول: إننى أنا الذى أدير ذلك؟ ونقول: كنت طفلاً فى مرحلة الطفولة ، فهل كنت تدير حركة قلبك أو أمعائك ؟ ومَنْ الذى يدير حركة رئتيك ؟ إن الذى يديرها هو خالقها ؛ لذلك اطمئنوا على حركة أجهزتكم التى لا دخل لكم فيها ؛ لأن الذى خلقها فيكم قيُّوم لا تأخذه سنة[1] ولا نوم ، ولا يؤوده حفظ ذلك[2].

ويجيب مَنْ يسألهم الرسول ﷺ على كل تلك الأسئلة - بأمر الله تعالى- الإجابة التى حددها الله سبحانه سلفاً ﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ .. (٣١) ﴾ [يونس]

إذن: أما كان يجب أن نرهف الآذان ، ونُعْمل الأبصار ؛ لنرى قدرة الله سبحانه الذى وهب لنا كل تلك النعم من رزق ، وسمع ، وبصر ، وإحياء ، وإماتة ، وإحياء من ميت ، وتدبير الأمر كله ؟

---

(١) السنة : النعاس من غير نوم. وقيل : السنة نعاس يبدأ فى الرأس ، فإذا صار إلى القلب فهو نوم. [اللسان مادة : وسن].

(٢) لا يؤوده حفظ السموات والأرض : أى: لا يعجزه سبحانه ولا يثقل عليه. يقال : آده الأمر: بلغ منه المجهود والمشقة. [اللسان مادة : أود].

أما كان يجب أن نقول: يا مَنْ خَلَقْتَنَا ماذا تنتظر منَّا ؛ لنعمِّر الكون الذى أوجدتنا فيه ؟ فكيف - إذن - يتجه البعض بالعبادة لغير الله تعالى ؛ لشمس أو قمر ، أو ملائكة ، أو نبىّ ، أو صنم ؟ كيف ذلك والعبادة معناها إطاعة العابد للمعبود فيما يأمر به ؟ وهل هناك إله بغير منهج يأمر به عباده ، ومن عبد الشمس هل كلَّفته بشىء ؟ . . لا .

إذن: يتساوى عندها مَنْ عبدها ، ومَنْ لم يعبدها ، وفى هذا نقض لألوهية كل معبود غير الله تعالى.

ولذلك يُنهى الحق سبحانه الآية بقوله: ﴿**أَفَلا تَتَّقُونَ** ..(٣١)﴾ [يونس]

فما دام الله سبحانه هو الذى خلق كل ذلك ، وأنزل منهجاً ، فعليكم أن تجعلوا بينكم وبينه وقاية ؛ تحميكم من صفات الجلال ، وتقرّبكم من آثار صفات الجمال [1] وأن تسمعوا إلى البلاغ من الرسل عليهم السلام ، وإلى مطلوباته سبحانه.

وما دام كل إنسان سيجيب عن أسئلة هذه الآية ، ويعترف أن الخالق سبحانه والمالك هو الله تعالى ، فعلى الإنسان أن يقى نفسه النار.

والعجيب أن الجميع يجيب بأن الله سبحانه هو الذى خلَق ، فالحق سبحانه يقول: ﴿**وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ** .. (٨٧)﴾ [الزخرف]

ويقول أيضاً: ﴿**وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ** ..(٢٥)﴾ [لقمان]

وما دام الله تعالى هو الذى خلق ، ورزق ، ودبَّر الأمر ، فكيف تتركون عبادته وتتجهون لعبادة غيره ؟

---

(١) صفات الجمال هى صفات الرحمة والمغفرة والرضا ، أما صفات الجلال فهى صفات القهر والعلو وكونه سبحانه هو العزيز. فعلى العبد أن يهرب من آثار صفات الجلال ليذوق حلاوة آثار صفات الجمال ؛ ليدخل فى عباد الله المتقين.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ[1] ﴿٣٢﴾ ﴾

وقد جاء قول الحق سبحانه : ﴿فَذَٰلِكُمُ﴾ إشارة منه إلى ما ذكره قَبْلاً من الرزق ، وملكية السمع والأبصار ، وقدرة إخراج الحىّ من الميت ، وإخراج الميت من الحى ، وتدبير الأمر .

إذن : فقوله سبحانه : ﴿فَذَٰلِكُمُ﴾ إشارة إلى أشياء ونعم كثيرة ومتعددة أشار إليها بلفظ واحد ؛ لأنها كلها صادرة من إله واحد .

﴿ فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ .. ﴿٣٢﴾ ﴾ [يونس]

ولا يوجد فى الكون حقَّان[2] ، بل يوجد حق واحد ، وما عداه هو الضلال ؛ لذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ .. ﴿٣٢﴾ ﴾ [يونس]

إذن : أنتم إنْ وجَّهتم الأمر بالربوبية إلى غيره ؛ تكونون قد ضللتم الطريق ، فالضلال أن يكون لك غاية تريد أن تصل إليها ، فتتجه إلى طريق لا يوصِّل إليها . فإن صُرفتم من الإله الحق فأنتم تصلون إلى الضلال .

ولذلك يُنهى الحق سبحانه الآية بما يبين أنه لا يوجد إلا الحق أو الضلال ، فيقول سبحانه : ﴿ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ .. ﴿٣٢﴾ ﴾ [يونس]

---

(١) فأنى تُصرفون : أى : كيف تصرفون عقولكم إلى عبادة ما لا يرزق ولا يُحيى ولا يميت . [تفسير القرطبى ٤/ ٣٢٦٧] .

(٢) الحق واحد لا بمنظور الفكر البشرى ولكنه بمنهج الحق ذاته ؛ لأن حقائق الأشياء ثابتة ، والعلم بها متحقق خلافاً للسفسطائية ، وخلافاً لمن يعتقدون أن الباطل حق ، والحق باطل فليس الحق خاضعاً لتخريف العقول ، وتخريف الفكر بغية المخالفة والمغالطة .

أى : أنكم إن انصرفتم عن الحق - سبحانه وتعالى - فإلى الضلال ، والحقُّ واحد ثابت لا يتغيَّر.

ومَنْ عبد الملائكة أو الكواكب أو النجوم ؛ أو بعض رسل الله - عليهم السلام - أو صنماً من الأصنام ؛ فقد هوى إلى الضلال .

وإن كنتم تريدون أن نجادلكم عقلياً ، فَلْنقرأ معاً قول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك :

﴿ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٣) ﴾

قوله : ﴿كَذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما تقدم من رزق الله تعالى للبشر جميعاً، ومن ملْك السمع والبصر ، ومن تدبير الأمر كله ، ومن إخراج الحىّ من الميت ، وإخراج الميت من الحى ، ذلك هو الإله الحق سبحانه ، وقد ثبت ذلك بسؤاله سبحانه وتعالى هذا السؤال الذى علم مُقدَّماً ألا إجابة له إلا بالاعتراف به إلهاً حقاً : ﴿ **فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ** .. (٣٢) ﴾ .

ومثل هذه القضية تماماً قَوْلُ الحق سبحانه : ﴿ **حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ** (٣٣) ﴾ [يونس]

لأنهم أساءوا الفهم فى الوحدانية ، وفى العقيدة ، واستحقوا أن يُعذَّبوا ؛ لأنهم صرفوا الحق إلى غير صاحب الحق.

وقد كان هذا خطاباً للموجودين فى زمن النبى ﷺ ، لكن بعضهم آمن بالله تعالى ؛ ولذلك فالعذاب إنما يحُلّ على مَنْ لم يؤمن.

وهذا القول متحقق فيمَنْ سبق فى علم الله سبحانه أنهم لا يؤمنون ،

وكذلك حقَّتْ كلمة ربك على هؤلاء الذين فسقوا ولا ينتهون عن فسقهم وكفرهم ، وإصرارهم على الانحراف بالعبودية لغير الله الأعلى والرَّبِّ الحق سبحانه وتعالى .

والدليل على العلم الأزليِّ لله سبحانه ما نقرأه في سورة البقرة : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ۝ ﴾[1] [البقرة]

إذن : معلوم لله تعالى مَنْ يؤمن ومَنْ لا يؤمن ، ومَنْ يستمر ويُصرّ على كفره ؛ هو الذى يَلْقَى العذاب ، بعلم الله تعالى فيه أنه لن يؤمن .

ثم يذكر الحق بعد ذلك ما يمكن أن يُجادَلَ به الكافرون بمنطق أحوالهم ، ففى ذوات نفوس غير المؤمنين بإله توجد نزعة فطرية لفعل الخير ، وتوجيه غيرهم إليه ، وهو موجود حتى فى الأمم غير المؤمنة ، فكل قوم يُوجِّهون إلى الخير بحسب معتقداتهم ، فنجد بين الشعوب غير المؤمنة بإله حكماء وأطباء وعلماء ، وهؤلاء يوجهون الناس إلى بعض الخير الذى يرونه .

ونجد الطفل الصغير يكتسب المعتقدات والعادات والاتجاهات من والديه ، ومما يسمعه من توجيهاتهم ، فتجده يبتعد عن النار مثلاً أو الكهرباء ؛ لأنه ترسخت فى ذهنه توجيهات ونصائح غيره ؛ بل إنه يتعلم كيف يتعامل مع هذه الأشياء دون أن تصيبه بالضرر .

إذن : يوجد توجيه من الخلق إلى الخلق لجهات الخير ، ألا نجد فى الدول غير المؤمنة بإله مَنْ يرشد الناس إلى الطرق التى يمكن أن يسيروا فيها

---

(١) فى الآية إشارة إلى مجتمع النفاق ومجتمع النفاق يعيش بين مجتمعين : المجتمع الإيمانى مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝ ﴾ [البقرة] ، والمجتمع الكافر مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ۝ ﴾[النور] ، ومجتمع النفاق أخطر من مجتمع الكفر ، فالكفر معلن وأنا مستيقظ له ، أما النفاق فهو خداع .

باتجاهين ، والطرق التى عليهم أن يسيروا فيها باتجاه واحد ؟

ألا يوجد مَنْ يدل الناس على المنحنيات الخطرة على الطرق ، وكذلك يوجّههم إلى ضرورة خفض سرعة السيارات أمام مدارس الأطفال ؟

نعم ، يوجد فى البلاد غير المؤمنة مَنْ يفعل ذلك .

إذن : فالتفكير فى الخير لصالح الأمم أمر طبيعى غريزى موجود فى كل المجتمعات ، وإذا كان التوجيه للخير يحدث من الإنسان المساوى للإنسان ، ألا يكون الله سبحانه هو الأحق بالتوجيه إلى الخير ، وهو سبحانه الذى خلق الإنسان ، وخلق له ما يقيم حياته على الأرض ، ولذلك يقول الحق سبحانه:

﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ[1] ﴿٣٤﴾ ﴾

وهنا يأمر الحق سبحانه رسوله ﷺ أن يسألهم: ﴿ **هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ** .. ﴿٣٤﴾ ﴾ [يونس]

ومعنى أن الله يسأل القوم هذا السؤال أنه لا بد أن تكون الإجابة كما أرادها هو سبحانه . وإنْ قال قائل: وكيف يأمنهم على مثل هذا الجواب ، ألم يكن من الجائز أن ينسبوا هذا إلى غير الله ؟

---

(١) الإفك : الكذب والإثم. أنّى تؤفكون: كيف تكذبون ؟! [اللسان : مادة (أفك)] والإفك أخطر من الكذب ، حيث إن الإفك فى افتراء متخيل ومبالغة باهتة لها التأثير المضر على المجتمعات والأفراد ؛ ولذلك يقول الحق : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾ [النور] ، ولم يقل بالكذب مع أنه كذب ، ولكنه عبر بالإفك ؛ لأن فيه افتراء على كرامات الناس وقيم المجتمع .

نقول: إن هذا السؤال لا يُطرح إلا وطارحه يعلم أن له إجابة واحدة ، فلن يجد المسئول إجابة إلا أن يقول: إن الذى يفعل ذلك هو الله سبحانه ولا يمكن أن يقولوا: إن الصنم يفعل ذلك ؛ لأنهم يعلمون أنهم هم الذين صنعوا الأصنام ، ولا قدرة لها على مثل هذا الفعل.

فالإجابة معلومة سلفاً: إن الله سبحانه وتعالى وحده هو القادر على ذلك ، وهذا يوضح أن الباطل لجلج والحق أبلج [(١)] ، وللحق صَوْلة [(٢)] ؛ فأنت ساعة تنطق بكلمة الحق فى أمر ما ، تجدها قد فعلت فعْلها فيمن هو على الباطل ، ويأخذ وقتاً طويلاً إلى أن يجد كلاماً يرد بهَ ما قلته ، بل يحدث له انبهار واندهاش ، وتنقطع حجته [(٣)].

ولذلك لم يَقُل الحق سبحانه هنا مثلما قال من قبل: ﴿ **فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ** .. ﴿٣١﴾ ﴾ [يونس]

بل قال: ﴿ **قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ** .. ﴿٣٤﴾ ﴾ [يونس]

وجاء بها الحق سبحانه هكذا ؛ لأنهم حينما سُئلوا هذا السؤال بهرهم الحق وغلب ألسنتهم وخواطرهم ؛ فلم يستطيعوا قول أى شىء.

ومثال ذلك - ولله المثل الأعلى - نجد وكيل النيابة يضيّق الخناق على المتهم بأسئلة متعددة إلى أن يوجه له سؤالاً ينبهر المتهم من فرط دقته وليس له إلا إجابة واحدة تتأبى طباعه ألا يجيب عنه ، فيجيب المتهم معترفاً .

---

(١) اللجلجة: اختلاط الأصوات. قال أبو زيد: يقال: «الحق أبلج، والباطل لجلج»، والأبلج: المضىء المستقيم. أما اللجلج فهو المختلط المُعْوَجّ والمتردد غير المستقر. [اللسان: مادة (لجج) - بتصرف].

(٢) الصولة: الوثْبة والقوة على إزهاق الباطل.

(٣) وذلك مثلما حدث من إبراهيم عليه السلام مع النمرود، وقد قصَّه الله عز وجل فى قرآنه: ﴿ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ .. ﴿٢٥٨﴾ ﴾ [البقرة] ، فبهت ، أى: فوجىء بالحجة ومنطقها فتحيَّر فى جوابه ولم يجد رداً.

والإنسان - كما خلقه الله تعالى - صالح لأن يؤمن ، وصالح لأن يكفر ، فإرادته هنا تتدخل ، لكن أبعاضه مؤمنة عابدة مسبحة ، فاللسان الذى قد ينطق الكفر ، هو فى الحقيقة مؤمن مُسبِّحٌ ، حامد ، شاكر ، لكن إرادة الإنسان التى شاءها الله - سبحانه - متميزة بالاختيار قد تختار الكفر - والعياذ بالله - فينطق اللسان بالكفر .

وقد تأتمر اليد بأمر صاحبها ؛ فتمتد لتسرق ، أو تسعى الأقدام - مثلاً - إلى محل احتساء الخمر ، ولكن هل هذه الفاعلات راضية عن تلك الأفعال ؟

لا ، إنها غير راضية [1] ، إنما هى خاضعة لإرادة الفاعل .

وحين يسأل السؤال : من يبدأ الخلق ثم يعيده ؟ فاللسان بفطرية تكوينه المؤمنة يريد أن يتكلم ؛ لكنه لا يملك إرادة الكلام ، فيبين الحق سبحانه للنبى ﷺ أن يجيب نيابة عن الأبعاض المؤمنة ، فيقول سبحانه : ﴿ **قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ** .. (٣٤) ﴾ وهو بذلك يؤكد الصيغة ، ويكفى أن يقول محمد ﷺ هذا القول مُبلِّغاً عن ربه ، وينال هذا القول شرف العندية : ﴿ **قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ** (٣٤) ﴾ .

والإفك : هو الكذب المتعمَّد ، وهو الافتراء ، وهناك فارق بين الكذب غير المتعمد والكذب المتعمد ، فالكذب غير المتعمد هو من ينقل ما بلغه عن غيره حسبما فهم واعتقد ، وهو لون من ألوان الكذب لا يصادف الحق ، ويتراجع عنه صاحبه إن عرف الحق .

أما الافتراء فهو الكذب المتعمد ، أى : أن يعلم الإنسان الحقيقة

---

(١) بدليل أنها ستأتى يوم القيامة وتصبح هى الشاهدة على الإنسان ، يقول سبحانه : ﴿ **يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** (٢٤) ﴾ [النور] .

ويقلبها [1] ؛ ولذلك نجد العلماء قد وقفوا هنا وقفة ؛ فمنهم من قال : هناك صدق ، وهناك كذب ، لكن علماء آخرين قالوا : لا ، إن هناك واسطة بين الصدق والكذب .

ومثال ذلك : أن يدخل ابنٌ على أبيه ، بعد أن سمع هذا الابن من الناس أن هناك حريقاً فى بيت فلان ، فيقول الابن لوالده : هناك حريق فى بيت فلان ؛ فيذهب الأب ليعاين الأمر ، فإن وجد حريقاً فقول الابن صدق ، وإن لم يكن هناك حريق فالخبر كاذب ، ولكن ناقل الخبر نقله حسبما سمع .

إذن : فهناك فَرْق بين صدق الخبر وصدق المُخْبِر ، فمرة يَصْدُق الخبر ويصدُق المخبر ، ومرة يصدُق الخبر ولا يصدُق المخبِر ، ومرة يصدق المخبر ولا يصدق الخبر .

فهُنا أربعة مواقف ، والذين قالوا إن هناك واسطة بين الصدق والكذب هم مَنْ قالوا : إن الصدق يقتضى مطابقة بين الواقع والخبر . أما الكذب فهو ألا يطابق الواقع الخبر .

لذلك يجب أن نفرِّق بين صدق الخبر فى ذاته ، وصدق المخبر ؛ بأنه يقول ما يعتقد . أما صدق الخبر فهو أن يكون هو الواقع .

وقول الحق سبحانه : ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ أى : فكيف تقلبون الحقائق ؛ لأنكم تعرفون الواقع وتكذبونه كذباً متعمداً ؟

وكلنا نعلم قول الحق سبحانه : ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ [2] (٥٣)﴾ [النجم]

---

(١) المؤتفكة : البلدة التى ائتُفكت بأهلها أى : انقلبت . والائتفاك : الانقلاب . [اللسان : مادة (أفك)] . وقال ابن كثير : ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ (٥٣)﴾ [النجم] : يعنى مدائن قوم لوط قلبها الله - تعالى - عليهم ، فجعل عاليها سافلها . [تفسير ابن كثير : ٤/ ٢٥٩ - بتصرف] .

(٢) وهو الذى قصده رسول الله ﷺ فى قوله : «إياكم والكذب ، فإن الكذب يهدى إلى الفجور ، وإن الفجور يهدى إلى النار ، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً» . أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٦٠٧) والبخارى فى صحيحه (٦٠٩٤) .

والمؤتفكة : هى القرى التى كُفئت أعلاها إلى أسفلها ، كذلك الكذّاب يقلب الحقيقة .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

وهذا أمر للرسول ﷺ بأن يسألهم سؤالاً جديداً ، لا إجابة له إلا ما يفرضه الواقع ، والواقع يؤكد أن الهداية لا تكون إلا للحق ؛ لأن كل كائن مخلوق لغاية ، فلا شىء يُخلق عبثاً [1] .

ونحن بقُدرتنا المحدودة نصنع (الميكرفون) و(التليفزيون) أو الثلاجة أو السرير وغيرها ، كلٌّ منها له غاية ، وكل له قوانين صيانته الخاصة به ، والذى يحدِّد الغاية من هذا المصنوع أو ذاك هو صانعه ، ويضع لها قوانين صيانتها ؛ لتؤدّى غايتها ، فالغاية من أى شىء توجد قبل الشىء نفسه ؛ ليوجد الشىء على مقتضى الغاية منه .

وآفة العالم الآن أنهم يعلمون أن الله سبحانه خلق الإنسان ، ولكنهم يصنعون من عندهم قوانين لصيانة الإنسان وحركة الإنسان ، وهذا غباء وغفلة من الذين يفعلون ذلك ، كان عليهم أن يتركوا أمر صيانة الإنسان للقوانين التى وضعها خالق الإنسان سبحانه .

---

(١) يقول تعالى فى سورة المؤمنون : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ ﴾ [المؤمنون] وقال سبحانه فى الذاريات : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الذاريات] فللخلق غاية وحكمة وهى العبادة بمعناها المطلق أى : الطاعة .

فالحق سبحانه وتعالى قد حدد الغاية من خَلْق الإنسان وحدّد قوانين صيانته ، والشر الموجود حالياً بسبب الجهل بغاية الإنسان ، والعدول عن المنهج الذى يجب أن يسير عليه الإنسان ، فقال الحق سبحانه: ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَهْدِى إِلَى الْحَقِّ .. (٣٥) ﴾ .

أى : هل من هؤلاء الشركاء مَنْ يهدى الإنسان إلى غايته ؟ هل قالت الشمس - مثلاً - غايتها ؟ هل قالت الملائكة غايتها ؟ هل قالت الأشجار أو الأحجار أو الرسل الذين عبدتموهم شيئاً غير مراد الله تعالى ؟

إنهم آلهة لا يعرفون الغاية من العابد لهم ، ولا يعرفون الطريق الموصل إلى تلك الغاية .

ولذلك يأتى القول الفصل :﴿ قُلِ اللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ .. (٣٥) ﴾ .

فالله هداك أيها الإنسان إلى الحق فى كل حركة تتحركها بالمنهج الذى أنزله الله سبحانه مكتملاً على رسوله ﷺ من بدء « لا إله إلا الله » إلى إماطة الأذى عن الطريق [(١)] ، وهو منهج مستوعب مستوفٍ لكل حركات الإنسان .

وجاءت الإجابة من الله تعالى على لسان رسوله ﷺ ؛ لأنهم انبهروا بالسؤال وتلجلجوا ولم يوجد عند أى منهم قدرة على المعارضة ، فالغاية من خلق الإنسان وغيره يوجزها قول الحق سبحانه : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ (٥٦) ﴾ [الذرايات]

والعبادة ليست أركان الإسلام فقط ، بل هى عمارة الكون كبنيان حىّ

(١) عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ : «الإيمان بضع وسبعون ، أو بضع وستون شعبة . فأفضلها قول لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان» . أخرجه البخارى فى صحيحه (٩) ، ومسلم فى صحيحه (٣٥) .

للإسلام ، والذى حدد الغاية هو الخالق سبحانه ، وهو سبحانه الذى يحدد طريق الوصول إليها .

ونحن حين نرغب فى الوصول إلى مكان فى الصحراء مثلاً ، إنما نحدد أولاً المكان ، ونختار طريق الوصول ، فإن كان الطريق المستقيم مليئاً بالعقبات والجبال ، فإنك ستضطر للانحراف عن هذا الطريق وصولاً إلى غايتك ، فهذا الطريق المعوج هو الطريق المستقيم ؛ لأنه الطريق الذى يجنبنا العقبات .

ومثال ذلك : السيول التى تنزل على هضاب الحبشة ، فاختارت لنفسها المجرى السهل فكان نهر النيل ، فلا أحد قد حفر النيل مثلما حفرنا الرياحات أو قناة السويس ، بل نزل السيل واختار لنفسه الطريق السهل فسار فيه بين التعاريج والرمال والصخور .

ولذلك أنت تجد كل ما لا دخل للبشر به قد يتعرج لينفذ ، أما ما صنعه البشر فلا يستطيع ذلك .

وكل خلق لا بد له من غاية ؛ لذلك نجد سيدنا إبراهيم عليه وعلى نبينا السلام يقول : ﴿ **الَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ** (٧٨) ﴾ [الشعراء]

فمن خلق هو الذى يحدد الغاية ؛ لأن هذه الغاية توجد عنده أولاً ليخلق ، وتتجلى الدقة فى قول القرآن على لسان سيدنا إبراهيم عليه السلام ، فلم يقل : الذى خلقنى يهدينى ، بل قال : ﴿ **الَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ** ﴾ مما يدل على أن هذه القضية ستخالَف ، وبعد أن يخلق الإنسان سيقوم بعض الناس - حماية لمصالحهم - بوضع طريق أخرى تخالف الغاية ؛ فتوصل إلى الضلال .

أما الحق سبحانه فقد أنزل القرآن فيه الهداية الحقة ، فالذى خلق هو

الذى يقنن ، ولذلك يذكر القرآن على لسان سيدنا إبراهيم عليه السلام :
﴿ وَالَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ ﴾ [الشعراء]

وبهذا القول وصل سيدنا إبراهيم عليه السلام إلى أن الذى رزق الآباء قدرة استنباط الرزق مطعماً ومشرباً هو الله سبحانه .

وذكر القرآن على لسان سيدنا إبراهيم عليه السلام : ﴿ وَالَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ ﴾ [الشعراء]

فالإماتة والإحياء هما من الحق سبحانه ، فلا أحد يسأل عمن يملك الإماتة والإحياء ، أما عن شفاء المرض فقال: ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ[1] ﴿٨٠﴾ ﴾ [الشعراء]

فأنت قد تذهب إلى الطبيب وتظن أنه هو الذى يشفيك ؛ بل هو يعالج ، ولكن الله هو الذى يشفى .

وهكذا نعلم أن قول سيدنا إبراهيم عليه السلام : ﴿ الَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ ﴾ [الشعراء]

هو كلام منطقى ؛ لأن خالق الشىء هو الذى يهدى إلى الغاية من الشىء ؛ فالغاية أولاً ، ثم الخلق ، ثم توضيح الطريق الموصل إلى تلك الغاية ، فإذا خولف فى شىء من ذلك فلا صلاح لكون أبداً .

وتجد فى القرآن على لسان سيدنا موسى عليه السلام : ﴿ قَالَ رَبُّنَا الَّذِى أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ ﴾ [طه]

---

(١) عن أبى رمثة رضى الله عنه قال: انطلقت مع أبى نحو النبى ﷺ ، فإذا هو ذو وفرة، بها ردع حناء وعليه بردان أخضران فقال له أبى: أرنى هذا الذى بظهرك فإنى رجل طبيب. قال: « الله الطبيب، بل أنت رجل رفيق، طبيبها الذى خلقها».

فما دام الحق سبحانه قد خلق فهو يهدى إلى السبيل الموصل إلى الغاية ، ويقول القرآن أيضاً : ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ۝ الَّذى خلق فَسوَّىٰ ۝ وَالَّذى قَدَّرَ فهدَىٰ ۝ ﴾[1] [الأعلى]

وهكذا يتأكد لنا أنه ما دامت هناك غاية ، فلا بد من وجود طريق يهدينا إليه من خَلَقَنَا .

وهنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الحق سبحانه : ﴿ قُلِ اللَّهُ يَهْدى لِلْحَقِّ .. ۝ ﴾ لأنه سبحانه هو الذى خلق ؛ ولذلك فمن المنطقى أن يأتى بعد ذلك التساؤل : ﴿ أَفَمَن يَهْدى إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّى إِلاَّ أَن يُهْدَىٰ .. ۝ ﴾ ؟

وسبب وجود اللام فى قوله : ﴿يَهْدِى لِلْحَقِّ﴾ هو النظرة إلى الغاية ، وسبب وجود : ﴿إِلَى الْحَقِّ ﴾ هو لفت الانتباه إلى أن الوصول إلى الغاية يقتضى طريقاً ، فأراد الحق سبحانه فى آية واحدة أن يجمع التعبيرين معاً .

ونحن نعلم أن هذه الآية قد نزلت فى الذين اتخذوا لله شركاء ، فهم يعترفون بالله تعالى ولكنهم يشركون به غيره ، فالله سبحانه وتعالى تفرَّد بالألوهية بربوبيته للخلق ؛ لأنه خلق من عَدَم ، ورزق من عُدْم ، وخَلَق لنا وسائل العلم ودبَّر لنا الأمر ، وأخرج الحى من الميت ، وأخرجَ الميت من الحى ، وهدى للحق .

فأين - إذن - هؤلاء الشركاء الذين اتخذتموهم مع الله تعالى ؟ وهل صنع واحد منهم أو كُلُّهم مجتمعين شيئاً واحداً من تلك الأشياء[2] ؟

---

(١) ﴿ الَّذي خَلَقَ فَسَوَّىٰ .. ۝ ﴾ [الأعلى] أى : خلق الخليقة وسوَّى كل مخلوق فى أحسن الهيئات . وقوله تعالى : ﴿ وَالَّذي قَدَّرَ فَهَدَىٰ .. ۝ ﴾ [الأعلى] . قال مجاهد : هدى الإنسان للشقاوة والسعادة وهدى الأنعام لمراتعها . [تفسير ابن كثير : ٤/ ٥٠٠].

(٢) ويقول سبحانه فى سورة الروم : ﴿ اللَّهُ الَّذي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝ ﴾ [الروم] .

لذلك قال سبحانه : ﴿ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ .. (٣٥) ﴾ [يونس]

إذن : فالذى يهدى هو الذى خَلَق ، وهؤلاء الذين أشركوا اعترفوا بالله خالقاً بشهاداتهم حين قال الحق سبحانه : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. (٨٧) ﴾ [الزخرف]

إذن : فالذين أشركوا قد ارتكبوا الإثم العظيم ، وهؤلاء الشركاء إما أن يكونوا من الملائكة ، أو من الأنبياء والرسل الذين فُتن بهم بعض الناس ، وهناك من اتخذ وسائط أخرى مثل : الشمس والقَمر والنجوم ؛ وهذه أشياء عُلوية ، وبعض الناس اتخذوا وسائط سفلية كالأشجار والأحجار ، فهل أى شيء من كل ذلك يهدى إلى الحق ؟ وما منهج أى منهم إذن ؟ وكيف بلَّغوكم به ؟

إن كل هؤلاء يعلمون أن أيّاً منهم لا يستطيع أن يَهدى ، بل هو يُهْدَى من الله سبحانه وتعالى ، فمن أين قلتم إن الملائكة ستهديكم؟ أو من أين جاء الذين فُتنوا برسولهم واتخذوه إلهاً ؟ ومن أين جاء هذا الرسول بمنهجه ؟

إن كل كائن لا يَهدى إلا بعد أن يُهدى من الله أولاً ، وإن كانت الأشياء - المتخذة شركاء - لا هداية لها ، ولا منهج ، ولا عقل ، ولا تفكير ، كالشمس والقمر والنجوم فى العلويات ، والأشجار والأحجار فى السفليات ، فماذا قالت هذه الأشياء ؟ إنها لم تقل شيئاً .

وهكذا لا يستقيم أمر اتخاذهم شركاء مع الله ، حتى الملائكة ، فالله هو الذى يختار منهم المَلَكَ الذى يُبلِّغ عن الله سبحانه ، وكذلك الرسل عليهم السلام : ﴿ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّي إِلاَّ أَن يُهْدَىٰ .. (٣٥) ﴾ [يونس]

﴿ لَاّ يَهِدّى﴾ تقرأ هكذا ، وللغة فيها عملية تخفيف جَرْس لسلامة نطقها واستقامة اللغة العربية ، فنحن نعرف أن ﴿يَهِدّى﴾ يعنى : يهتدى . . أصلها يهتدى . . ويهتدى فيها هاء ساكنة وتاء ودال وياء . . وفيها تقارب لمخارج الحروف ، وهذا التقارب يجعل المعنى غائماً ، والنطق ثقيلاً ، فتقوم اللغة بعملية إبدال وإدغام ، وتخلّص من التقاء الساكنين فتصل إلى مسامعنا كما أنزلها الله تعالى لسلامة النطق وجمال المعنى ؛ لأن القرآن أدَّب اللغة بكلام السماء ؛ لتكون خالدة اللفظ والمعنى . فإذا كنتم على طريق هداية ، فالأصل فى الهداية هو الله تعالى .

ويُنهى الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله : ﴿ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ .. (٣٥) ﴾ [يونس]

أى : ماذا أصاب عقولكم لتحكموا هذا الحكم ؛ فتشركوا بالله ما لا منهج له ، أو له منهج ولكنه موصول بالله تعالى جاء ليبلغه لهم ؟

وساعة تسمع ﴿كَيْفَ﴾ فهى للاستفسار عن عملية عجيبة ما كان - فى عُرْف العاقل - أن تحدث . كأن تقول : « كيف ضربت أباك ؟ » أو « كيف سببت أمك ؟» ، وهذا كله من الأمور التى تأباها الفطرة ويأباه الطبع والدين .

وقوله سبحانه : ﴿ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ كأنه أمر عجيب ما كان يصح أن يحدث ؛ لأن الحق سبحانه وحده هو الإله ، والحق هو الشيء الثابت الذى لايتغَّير غاية وطريقاً . والله سبحانه وحده هو الذى حدد لنا الغاية والطريق الموصل إليها ، وهو سبحانه القائل : ﴿ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلامِ ..(٢٥) ﴾ [يونس]

والمنهج هو الطريق الذى يوصل إلى دار السلام من آفة الأغيار [1] ؛

(١) أى : أن أحوال الدنيا تتغير وتتبدل ولا تثبت على حال واحدة .

لأن الدنيا كلها أغيار ، فأنت قد تكون قوياً ثم تضعف أو صحيحاً فيصيبك المرض ، أو غنياً فتفتقر ، أو مبصراً فيضيع منك بصرك ، أو تكون صحيح الأذن سميعاً فتصير أصم بعد ذلك [١] .

إذن : فهى دنيا أغيار ، وهَبْ أن إنساناً أخذ من دنياه كل نصيبه عافية وأمناً وسلامةً وغنًى وكل شيء ؛ سنجده فى قلق من جهتين : الجهة الأولى أنه يخاف أن يفارقه كل هذا النعيم ، أو يخاف أن يترك هو هذا النعيم ، هذا ما نراه فى حياتنا .

إذن : فالدنيا بما فيها من أغيار لا أمان لها ؛ لنفهم أن كل عطاءات المخلوق إنما هى هبة من الخالق سبحانه وتعالى ؛ لأنها لو كانت من ذاتك لاستطعت الحفاظ عليها ، ولكنها هِبَاتٌ من الحق الأعلى سبحانه .

والأمر الموهوب قد يصبح مسلوباً .

ثم يقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

وقول الحق سبحانه : ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا .. ﴿٣٦﴾ ﴾ يفيد أن بعضهم كان يتبع يقيناً ؛ لأن مقابل الظن [٢] هو اليقين ، فالنسب التى تحدث

(١) ولأن الدنيا دنيا أغيار أوصى رسول الله ﷺ رجلاً وهو يعظه : « اغتنم خمساً قبل خمس : شبابك قبل هرمك ، وصحتك قبل سقمك ، وغناك قبل فقرك ، وفراغك قبل شغلك ، وحياتك قبل موتك » أخرجه الحاكم فى مستدركه (٤/ ٣٠٦) وصححه على شرط الشيخين عن ابن عباس ، وأقره الذهبى .

(٢) الظن كما أنه شكٌّ فإنه أيضاً يقين إلا أنه ليس بيقين عيان ، إنما هو يقين تدبُّر ، فأما يقين العيان فلا يقال فيه إلا علْم ، وهو يكون اسماً ومصدراً ، وجمع الظن : ظنون . قال تعالى : ﴿ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا .. ﴿١٠﴾ ﴾ [الأحزاب] [لسان العرب : مادة (ظنن)] .

بين الأشياء تربط بين الموضوع والمحمول ، أو المحكوم والمحكوم عليه ، وهى نسب ذكرناها من قبل ، ونذكِّر بها ، فهناك شىء أنت تجزم به ، وشىء لا تجزم به . وما تجزم به وتُدلِّل عليه هو علم يقين ، أما ما لا تستطيع التدليل عليه فليس علم يقين ، بل تقليد ، كأن يقول الطفل :
﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) ﴾ [الإخلاص]

وهذا حق ، لكن الطفل لا يستطيع أن يدلل عليه أو أن يقال شىء ومن يقوله جازم به ، وهو غير واقع ؛ فذلك هو الجهل .

والعلم هو القضية المجزوم بها ، وهى واقعة وعليها دليل ، على عكس الجهل الذى هو قضية مجزوم بها وليس عليها دليل .

والظن هو تساوى نسبتين فى الإيجاب والسلب ، بحيث لا تستطيع أن تجزم بأى منهما ؛ لأنه إن رجحت كفة كانت قضية مرجوحة ، والقضية المرجوحة هى شك أو ظن أو وهم . فالظن هو ترجيح النسب على بعضها . والشك هو تساوى الكفتين .

وقول الحق سبحانه : ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا .. (٣٦) ﴾ يبين لنا أن الذين كانوا يعارضون رسول الله ﷺ فعلوا ذلك إما عناداً - رغم علمهم بصدق ما يبلغ عنه ، وإما أنهم يعاندون عن غير علم ، مصداقاً لقول الحق سبحانه : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ .. (٣٩) ﴾ [يونس]

وكان الواحد منهم إذا تمعَّن فى البلاغ عن الله تعالى والأدلة عليه ، يعلن الإيمان ، لكن منهم من تمعن فى الأدلة وظل على عناده ، والذين اتبعوا الظن إنما اتبعوا ما لا يغنى من الحق شيئاً .

لذلك يبيِّن لهم الحق سبحانه أنه عليم بخفايا نفوسهم ، ويعلم إن كان

إنكارهم للإيمان نابعاً من العناد أو من العجز عن استيعاب قضية الإيمان ؛ لذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ..(٣٦) ﴾ [يونس]

إذن : فقد علم الله سبحانه أزلاً أن بعضهم فى خبايا نفوسهم يوقنون بقيمة الإيمان ، لكنهم يجحدونها ، مصداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَـٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٣٣) ﴾ [الأنعام]

إذن : فالحق سبحانه وتعالى عليم ، ولا يخفى عليه أنهم كذَّبوا بما لم يحيطوا بعلمه ، وبعضهم لم يفهم قيمة الإيمان ، ومن علم منهم قيمة الإيمان جحدها ، عناداً واستكباراً .

يقول الحق سبحانه : ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا .. (١٤) ﴾ [النمل]

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا كَانَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ (٣٧) ﴾

وحين تستمع للقرآن وما فيه من سر الأعداد والإخبار بالمغيبات التى لا تخضع لمنطق الزمان ، ولا لمنطق المكان ، فالفطرة السليمة توقن أن هذا القرآن لا يمكن أن يُفترى ، بل لا بد أن قائله ومُنزِّله عليم خبير ؛ لأن القرآن جاء مصدقاً لما بين يديه من الكتب السابقة .

أى : أن ما به دائماً هو أمام الناس ، أو مواجه لهم ، وهو كتاب مصدِّق للكتب السابقة من قبل تحريفها كالتوراة والإنجيل والزبور[(١)] ، وهى الكتب التى سبقت القرآن نزولاً ، لا واقعاً ، فجاء القرآن مصدِّقاً لها .

أى : هى تصدقه ، وهو يصدقها من قبل تحريفها ، وهى الكتب التى بشَّرت بمحمد ﷺ رسولاً ، مثلما جاء فى القرآن عن تصديق عيسى عليه السلام بمجيء محمد عليه الصلاة والسلام : ﴿ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِن بَعْدِى اسْمُهُ أَحْمَدُ .. (٦) ﴾ [الصف]

فلما جاء أحمد (محمد ﷺ) ونزل عليه القرآن صدَّق الإنجيل فى قوله هذا ، وما جاء فى القرآن من عقائد أصيلة هى عقائد جاءت بها كل الكتب السماوية ، فالحق سبحانه يقول :

﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا (١٦٣) ﴾ [النساء]

ويقول الحق سبحانه :

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ .. (١٣) ﴾ [الشورى]

إذن : فهناك أصول جاءت بها كل الكتب السماوية ، وهناك كذلك أخبار أخبرت عن حدوثها الكتب السماوية ، وأبلغنا رسول الله ﷺ بالقرآن وفيه تلك الأخبار ، فمن أين جاء محمد ﷺ بتلك العقائد الصحيحة ،

---

(١) الزبور : هو كتاب داود عليه السلام . وأصله : كل كتاب مزبور أى : مكتوب . قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا .. (٥٥) ﴾ [الإسراء] .

وتلك الأخبار الموجودة فى الكتب السابقة ، وهو ﷺ لم يكن من أهل الكتاب ، ولا عَلِمَ منهم شيئاً [1] ؟

إذن : فعندما يقول محمد ﷺ ما جاء ذكره فى الكتب السابقة على القرآن ، فهذه الكتب مصدقة لما جاء به محمد ﷺ ؛ لأن هذه الأخبار قد وقعت ، وهذا تأكيد لصدقه ؛ لأنه بشهادة أهل زمانه لم يجلس إلى معلِّم ، ولم يقرأ كتاباً ، وتاريخه وسيرته معروفة ؛ لأنه من أنفسكم ، ولم يُعْلَم عنه أنه قد زاول كلاماً بليغاً ، أو خطب فى قوم قبل الرسالة ، أو قال شعراً .

وبعد ذلك فوجئ هو - كما فوجئتم أنتم - بمجيء هذا البيان الرائع ، فمن أين جاء به ؟

أنتم تقولون إنه هو الذى جاء به ، لكنه ﷺ ينسب الرفعة لصاحبها ، ويعلن أنه ﷺ مُبلِّغ فقط ، فيقول ما أمره الله به أن يقوله : ﴿ **قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ** ⦗١٦⦘ ﴾ [يونس]

ويحضُّ القرآن الكريم النبيَّ ﷺ أن يسألهم : هل لاحظوا على كلماته - من قبلُ - البلاغةَ والفصاحةَ أو الشعرَ ؟!

ولننظر فى «ماكُنَّات» [2] القرآن الكريم ، وهى الآيات التى يقول فيها الحق سبحانه : ﴿ **وَمَا كُنتَ** ﴾ مثل قوله سبحانه :

---

(١) وفى هذا يقول الحق سبحانه : ﴿ **وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ** ⦗٤٨⦘ ﴾ [العنكبوت] .

(٢) « ماكُنَّات » القرآن هى الآيات التى وردت فيها لفظة : ﴿ **مَا كُنتَ** ﴾ ، وهذا فى إحدى عشرة آية هى : [آل عمران : ٤٤] ، [هود : ٤٩] ، [يوسف : ١٠٣] ، [القصص : ٤٤، ٤٥، ٤٦، ٨٦] ، [العنكبوت : ٤٨] ، [الشورى : ٥٢] .

﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ [1] أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ .. (٤٤) ﴾ [آل عمران]

وهذا أمر ثابت فى الأخبار .

وقول الحق سبحانه : ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٤٤) ﴾ [القصص]

والوحي إلى موسى - عليه السلام - والمكان الذى نزل فيه ذلك الوحى أمر ثابت فى الأخبار .

وقول الحق سبحانه : ﴿ وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ [2] تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٤٥) ﴾ [القصص]

وكثير من هذه الآيات تجعل محمداً ﷺ وكأنه يسأل المعاصرين له : كيف أخبرت بوقائع وأخبار لم أكن موجوداً فى زمانها أو مكانها ؟

لا بد - إذن - أن الله الحق - سبحانه - هو الذى أخبرنى بما وافق ما عندكم من أخبار .

وبعد ذلك جاء القرآن الكريم مصدقاً لما بين يديه : ﴿ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ .. (٩٧) ﴾ [البقرة]

أى : أنه الكتاب الذى يضم صدق كل حدث قادم ؛ لأن القرآن خرق حُجُبَ وحُجُزَ الماضى والمستقبل .

ونحن نعلم أن الأشياء الغيبية تحدث بسببين ؛ الأول : أن يتكلم عن

---

(١) الأقلام هنا : القداح ، وهى قداح جعلوا عليها علامات يعرفون بها من يكفل مريم على جهة القرعة ، وإنما قيل للقدح : القلم لأنه يُقلم أى : يُبرى . [اللسان مادة : قلم] .

(٢) ثاوياً : مقيماً ، ومدين : قرية شعيب عليه السلام .

شيء سبق الزمان الذى نزل فيه ، فهو يتكلم فى الماضى الذى لم يكن رسول الله ﷺ من أهل الاطلاع والتعلم ليعرفه ويعلمه .

وكذلك خرق القرآن الكريم حجب الحاضر الذى عاصر نزوله ، هذا الحاضر الذى قد يكون محجوباً بالمكان .

وأضرب هذا المثل - ولله المثل الأعلى - فقد يحدث حادث فى الإسكندرية فى نفس الوقت الذى تكون أنت فيه موجوداً بالقاهرة ، وأنت لا تعلم هذا الحدث ؛ لأنه محجوب عنك ببعد المكان ، وحاجز المكان يتمثل - غالباً - فى الأمور الحاضرة ، أما أمور المستقبل فهى محجوبة عنا بالزمان والمكان معاً .

وحين يخبرنا القرآن الكريم بحدث ماض لم يشهده رسول الله ﷺ ، ولم يتعلمه ، ولم يقرأ عنه ؛ إذن : فالقرآن إنّما يخرق أمامنا حجاب الزمن الماضى . وإذا أخبر القرآن بحدث حاضر فى غير مكان نزوله على سيدنا رسول الله ﷺ ، فهذا خرق لحجاب المكان مثل قول الحق سبحانه : ﴿ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ .. ⑧ ﴾ [المجادلة]

وحين سمع المنافقون والكفار هذا القول الكريم ، لم ينكروا أنهم قالوا فى أنفسهم ما جاء به القرآن ، وهكذا خرق القرآن حاجز المكان فى أنفسهم هم .

إذن : فأخبار الغيب فى القرآن إما خَرْقٌ لزمان ماضٍ أو خرق لزمان الحال ، وإما خرق لزمان ومكان الاستقبال .

ونحن نعلم أن القرآن كان ينزل والمسلمون ضعاف ، لا يستطيعون حماية أنفسهم ، ولا أحد يجير على أحد ، ويتجه النبى ﷺ إلى الطائف

ليعرض الإسلام على أهلها ، لعلَّه يلتمس لهم مجيراً من أهل الطائف ؛ ولكنه ﷺ لا يجد إلا الإيذاء والإعراض (١) ، ويوصى بعضاً من صحابته أن يهاجروا إلى الحبشة (٢) .

وفى ظل كل هذه الأزمات ، ينزل قول القرآن : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ .. ﴿٤٥﴾ ﴾ [القمر]

حتى إن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - يتساءل : أىُّ جمع هذا الذى يهزم ، ونحن غير قادرين على حماية أنفسنا ؟ ثم تأتى غزوة بدر ويشهد عمر هزيمة وفرار مقاتلى قريش ؛ فيرى رأى العين صدق ما جاء به الوحى من قبل (٣) .

وهكذا تأكد الجميع أن القرآن الكريم غير مُفترىً ، فكيف يُتَّهم رسول الله ﷺ أنه افتراه ؟

---

(١) كان هذا بعد وفاة عمه أبى طالب ، الذى كان مدافعاً عنه ، حامياً له من أذى المشركين ، ولكن أهل الطائف قعدوا له ﷺ صفين على طريقه ، وجعلوا لا يرفع رجليه ولا يضعهما إلا ضربوهما بالحجارة حتى أدموا رجليه . [دلائل النبوة للبيهقى ٢/ ٤١٥] . عند ذلك قال رسول الله ﷺ : « اللهم إنى أشكو إليك ضعف قوتى وقلة حيلتى » . منحه الله الإسراء فوق العقل البشرى ، والمعراج فوق الفوق ؛ وذلك لحمايته له ورعايته لدينه .

(٢) عن أم سلمة أنها قالت : « لما ضاقت علينا مكة ، وأوذى أصحاب رسول الله ﷺ، وفتنوا ورأوا ما يصيبهم من البلاء والفتنة فى دينهم ، وأن رسول الله ﷺ لا يستطيع دفع ذلك عنهم ، وكان رسول الله ﷺ فى منعة من قومه ومن عمه ، لا يصل إليه شىء مما يكره مما ينال أصحابه ، فقال لهم رسول الله ﷺ : « إن بأرض الحبشة ملكاً لا يظلم أحد عنده ، فالحقوا ببلاده حتى يجعل الله لكم فرجاً ومخرجاً مما أنتم فيه » حديث طويل أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٢/ ٣٠١) وأورده ابن هشام فى السيرة بنحوه (١/ ٣٢١) .

(٣) عن عكرمة قال : لما نزلت : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [القمر] قال عمر : أىّ جمع يُهزم ؟ أى : أىّ جمع يُغلب ؟ قال عمر : فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يثب فى الدرع وهو يقول : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [القمر] فعرفت تأويلها يومئذ . ذكره ابن كثير فى تفسيره (٤/ ٢٦٦) وعزاه لابن أبى حاتم .

وإذا كان هذا القرآن مفترىً ، فلماذا لا تفترون مثله ؟ وفيكم الشعراء والبلغاء والخطباء ؟! ولم يقل محمد ﷺ أنه بليغ أو خطيب أو شاعر ، ولم يطلب القرآن الكريم منهم أن يأتوا بواحد مثل محمد ﷺ ، لا صلة له بالبلاغة أو الفصاحة ، بل يطلب منهم أن يأتوا بالفصحاء كلهم ، ويدعوهم أن يقولوا مثل آية واحدة من القرآن .

وإن قالوا : إن ما جاء به هو السحر ، وإن محمداً ساحر قد سخر العبيد والضعاف ، وأدخلهم فى الإسلام ، فلماذا لم يسحركم محمد ؟

إن بقاءكم من غير سحر يدل على أن إطلاقكم كلمة السحر على ما جاء به دعوى كاذبة .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ **وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ** ..(٣٧) ﴾ [يونس]

فالقرآن قد جاء فيه تفصيل كل الأحكام الصالحة إلى قيام الساعة ، أما الكتب السابقة على القرآن فكانت تضم الأحكام المناسبة لزمانها ، ولأمكنة نزولها .

وهو كتاب ﴿ **لا رَيْبَ فِيهِ** ﴾ أى : لا شك فيه ، يكشف الكفار ، ويفضح ارتيابهم وكذبهم ، فَهُمْ قد اعترفوا بعظمة القرآن وقالوا : ﴿ **لَوْلا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ** ..(٣١) ﴾ [الزخرف]

إذن : فهم قد عرفوا أن القرآن لا عيب فيه ، ولا ريب ، حتى من الكافرين به .

ويأتى الرد على قولهم بالافتراء ، فى قول الحق سبحانه :

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾

وقد سبق هذا المجيء بالتحدى أسبابُ عجزهم عن النجاح فى التحدى ؛ لأن الآية السابقة تقرر أن الكتب السماوية السابقة تُصَدِّق نزول القرآن الكريم ، وبينها وبين القرآن تصديق متبادل.

فهم مهزومون فيه قبل أن ينزل .

ويقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ **قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ** .. ﴿٣٨﴾ ﴾ [يونس]

وقد جاء التحدى مرة بالكتاب فى قول الحق سبحانه :

﴿ **قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا** ﴿٨٨﴾ ﴾ [الإسراء]

ولم يستطيعوا ، فنزلت درجة التحدى ؛ وطالبهم أن يأتوا : ﴿ **بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ** .. ﴿١٣﴾ ﴾ [هود]

فلم يستطيعوا الإتيان بعشر سور ، فطالبهم أن يأتوا بسورة تقترب - ولو من بعيد - من أسلوب القرآن ، فلم يستطيعوا ﴿ **فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ** ..﴿٢٣﴾ ﴾ [البقرة]

فكيف - إذن - من بعد كل ذلك يدَّعون أن محمداً ﷺ قد افترى القرآن ، وهو ﷺ لم تكن له صلة بالأساليب البلاغية أو الفصاحة ؟!

لقد دعاكم أن تأتوا بكل الفصحاء والبلغاء ليفتروا ، ولو سورة من مثله ، ووضع شرطاً فقال : ﴿ **وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ** .. ﴿٣٨﴾ ﴾ [يونس]

لأن الله سبحانه وتعالى هو القادر الوحيد على أن يُنزل قرآناً ؛ لذلك دعاهم رسول الله ﷺ أن يدعوا الشركاء ؛ وذلك حتى لا يقول الكفار وبعضهم من أهل اللجاجة [1] : سندعو الله ؛ ولذلك يأتى القرآن بالاستثناء ﴿ وادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ..(٣٨) ﴾ . وهم بطبيعة الحال غير صادقين فى هذا التحدى .

والله - سبحانه وتعالى - حين يرسل رسولاً إلى قوم ؛ليعلِّمهم منهجه فى حركة الحياة ، إنما يريد سبحانه أن تؤدى حركة الحياة إلى الغاية المطلوبة من الإنسان الخليفة فى الأرض ؛ ولذلك يأتى الرسول من جنس المرسل إليهم ؛ ليكون أسوة لهم ؛ لأن الرسول إن جاء مَلَكاً لما صحَّت الأسوة ، بل لا بد أن يكون بشراً [2] .

والحق سبحانه لا يرسل أى رسول إلا ومعه بينة ودليل صدق على أنه رسول يبلِّغ عن الله تعالى .

والبينة لا بد أن تكون من جنس نبوغ [3] القوم ، فلا يأتى لهم بمعجزة فى شىء لم يعرفوه ولم يألفوه ؛ حتى لا يقولوا : لو تعلمنا هذا لجئنا بمثل ما جاء .

وقد جاء القرآن ليثبت عجزهم عما نبغوا فيه من صناعة الكلام ؛ شعراً ونثراً وخطابة .

وكان القرآن هو معجزة رسول الله ﷺ فى قوم فصحاء يعقدون للشعر

---

(١) اللجاجة : التمادى فى الجدال والمراء .

(٢) لذلك قال رب العزة : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولاً (٩٥) ﴾ [الإسراء] فالرسول يكون من جنس من أرسل إليهم ، ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ (٩) ﴾ [الأنعام] .

(٣) النبوغ : الإجادة والبراعة فى علم أو فن معين . [المعجم الوسيط] .

أسـواقاً ، ويعلـِّقـون الفـائز من هذا الشـعر على جدران الكعبـة شهـرة له وشهادة به .

إذن : فهم أصحاب دراية بصناعة الكلام ، وجاءت المعجزة مع الرسول ﷺ من جنس ما نبغوا فيه ؛ لتتحداهم . والتحدى يستدعى استجماع قوة الخصم ؛ ليرد على هذا المتحدى ، فإذا عجز مع التحدى ، يصير العجز ملزماً .

وقد تحدى الحق سبحانه العرب جميعاً بالقرآن كله : ﴿ **قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَـٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا** [(١)] (٨٨) ﴾ [الإسراء]

فلم يستطيعوا أن يأتوا بمثله ، فتدرَّج القرآن معهم فى التحدى فطلب منهم ما هو أقل من ذلك ، وهو أن يأتوا بعشر سور مثله فى قوله تعالى : ﴿ **قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ** .. (١٣) ﴾ [هود]

ثم تحداهم بالإتيان بمثل سورة من القرآن .

وعند التـأمل نجـد أن الأسـلوب الذى جـاء بطـلب سـورة كـان على لونين : فمرة يقول : ﴿ **بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ** .. (٣٨) ﴾ [يونس]

ومرة يقول : ﴿ **بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ** .. (٢٣) ﴾ [البقرة]

وكل من اللونين بليغ فى موضعه فـ ﴿ **بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ** .. (٣٨) ﴾ تبين أن المثلية هنا محققة ، أى : مثل ما جاء من سور القرآن . وقوله : ﴿ **بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ** .. (٢٣) ﴾ [البقرة]

---

(١) الظهير : المعين والمساعد . قال تعالى : ﴿ فَلا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ .. (٨٦) ﴾ [القصص] . وذهب بعض العلماء إلى أن التحدى كان مقصوداً به الإنس فقط دون الجن ، لأن الجن ليسوا من أهل اللسان العربى ، وإنما ذكرهم الله فى الآية تعظيماً لإعجاز القرآن ، لأن عجزهما معاً عن أن يأتوا بمثله دليل على أن الفريق الواحد منهم أعجز . [انظر : البرهان فى علوم القرآن - للزركشى ٢ / ١١١] .

أى : سورة من مثل محمد - ﷺ - فى أنه لم يجلس إلى معلِّم ، ولم يقرأ ، ولا عُرف عنه أنه تكلم بالبلاغة فى أى فترة من مراحل حياته قبل الرسالة[1] .

وقال الحق سبحانه : ﴿قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٦)﴾ [يونس]

إذن : ﴿بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ .. (٢٣)﴾ [البقرة]

أى : مثل محمد ﷺ الذى لم يتعلم وكان أمياً ، ولكن لماذا يأتى هذا اللون من التحدى ؟

لأنهم قالوا عن القرآن :

﴿أَسَاطِيرُ[2] الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا[3] فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (٥)﴾

[الفرقان]

بل واتهموه فى قمة غفلتهم أنه يتعلم من رجل كان بمكة ، فيلفتهم القرآن إلى أن الرجل - الذى قالوا إنه معلم للرسول ﷺ - كان أعجمياً غير عربى ، يقول الحق سبحانه : ﴿لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ[4] إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ..(١٠٣)﴾ [النحل]

---

(١) وفى تفسير هذه الآية قول ثالث ذكره القرطبى فى تفسيره (١/ ٢٧٧) فقال : « ﴿مِّن مِّثْلِهِ .. (٢٣)﴾ [البقرة] أى : من مثل التوراة والإنجيل . فالمعنى : فأتوا بسورة من كتاب مثله فإنها تصدِّق ما فيه » وكل من هذه الأقوال صواب ومحتمل .

(٢) الأساطير : جمع أسطورة . أى : مما سَطَّره الأولون وكتبوه . والأساطير أيضاً : الأباطيل ، وأحاديث باطلة لا أصل لها قد سطرها وألفها الأولون . [لسان العرب مادة : سطر] .

(٣) اكتتبها : طلب من النساخ نسخها له .

(٤) يلحدون إليه : يميلون إليه . واختلف المفسرون فى تسمية هذا الرجل الذى قال المشركون أن محمداً ﷺ تعلم منه ، وليس المهم البحث عن اسمه . بل المهم أنه أعجمى فكيف يعلم محمداً ﷺ هذا القرآن العربى .

ويزيد الحق سبحانه أن يصنفهم ، فيقول بعد ذلك :

﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٣٩) ﴾

وهذا الصنف من الناس الذين ﴿ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ .. (٣٩) ﴾ ، وهم من أخذتهم المفاجأة حين حُدِّثوا بشيء لا يعرفونه ، والناس أعداء ما جهلوا ؛ فكذبوا ما جاء به رسول الله ﷺ من القرآن قبل أن يتبينوا جمال الأداء فيه ، ونسق القيم العالية ، وإذا ما سنحت لهم فرصة يتبينون فيها جمال الأداء ، ودقة الإعجاز فهم يتجهون إلى الإيمان .

ومثال ذلك : عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - فقد كان كافراً ثم علم أن أخته وزوجها قد أسلما ؛ فذهب إليها فى منزلها وضربها ، فأسال دمها ، وسيل الدم من أخت بضربة أخيها مثير لعاطفة الحنان ، وهذا ما حدث مع عمر ؛ فهدأت موجة عناده ، فاستقبل القرآن بروح لا عناد فيها ؛ فذهب فآمن برسول الله ﷺ [1] ، وكان من قبل ذلك ممن : ﴿ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ .. (٣٩) ﴾ أى : لم يعرفوا مراميه ، وبمجرد أن سمعوا عن رسالته ﷺ فجأة ، اتهموه بالكذب والعياذ بالله .

ولذلك اقرأ قول الحق سبحانه : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا [2] .. (١٦) ﴾ [محمد]

---

(١) حديث إسلام عمر بن الخطاب ذكره ابن هشام فى السيرة النبوية (١/ ٣٤٣ - ٣٤٦) .

(٢) آنفاً : من قبل ، وقد نزلت هذه الآية فى المنافقين كانوا يستمعون كلام رسول الله ﷺ فإذا خرجوا من عنده سألوا أصحاب رسول الله ﷺ استهزاءً وإعلاماً أنهم لم يلتفتوا إلى ما قال : ﴿ مَاذَا قَالَ آنِفًا .. (١٦) ﴾ [محمد] أى : ماذا قال سالفاً وسابقاً ؟ . [اللسان : مادة (أن ف) - بتصرف] .

وهذا يدل على أنهم لم يفهموا ما نزل على رسول الله ﷺ من القرآن ، وتأتى الإجابة من الحق سبحانه وتعالى : ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ [1] وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى .. (٤٤)﴾ [فصلت]

إذن : فالقرآن هدى لمن تتفتح قلوبهم للإيمان ، أما القلوب المليئة بالبغض لقائله وللإسلام ؛ فهؤلاء لا يمكن أن يصح حكمهم .

وإن أراد أى منهم حكماً صحيحاً فليُخرجْ من قلبه ما يناقض ما يسمع ، ثم عليه أن يستقبل الأمرين ؛ ولسوف يدخل قلبه الأقوى حجة ، وهو الإسلام .

إذن : فمن امتلأ قلبه بعقيدة كاذبة ؛ لا يمكن له أن يهتدى .

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ .. (٣٩)﴾ [يونس]

والتأويل [2] هو ما يرجع الشىء إليه ، وهذا يوضح لنا أن هناك أقضية من القرآن لم يأت تفسيرها بعد ، ستفسرها الأحداث ، وقد يقول القرآن الكريم قضية غيبية ، ثم يأتى الزمن ليؤكد هذه القضية ، هنا نعرف أن تأويلها قد جاء .

وهؤلاء القوم قد كَذَّبوا من قبل أن يأتى لهم التأويل ، وكان عدم مجىء التأويل هو السبب فى تأخر بيان الحق فى المسألة لتأخر زمنه .

وعلى سبيل المثال ، ها هو ذا عمار بن ياسر صاحب رسول الله ﷺ حين قامت المعركة بين معاوية بن أبى سفيان والإمام على - رضى الله عنه - وَقَاتَلَ عمَّار فى صف علىّ ، وقُتل . هنا تنبه الصحابة إلى تأويل

---

(١) الوقر : ضعف السمع . وقيل : الصمم . [اللسان : مادة (وقر)] .

(٢) التأويل والمعنى والتفسير واحد . وأصله ما يؤول إليه الشىء ؛ ويقول تعالى : ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ .. (٥٣)﴾ [الأعراف] أى : أنهم ينتظرون تحقق العذاب ووقوعه .

حديث من رسول الله ﷺ حيث قال : « ويح عمار .. تقتله الفئة الباغية »[(١)] .

وهكذا جاء تأويل حديث رسول الله ﷺ عندما تحقق فى الواقع ، وكان هذا سبباً فى انصراف بعض الصحابة عن جيش معاوية .

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ .. (٣٩) ﴾ [يونس]

أى : أن التأويل لم يظهر لهم بعد .

ومن أدوات النفى : « لم » مثل قولنا : « لم يَجِىءْ فلان » ، ونقول أيضاً : « لما يجىء فلان » ، والنفى فى الأولى جزم غير متصل بالحاضر ، كأنه لم يأت بالأمس .

أما النفى بـ « لما » فيعنى أن المجىء مُنْتف إلى ساعة الكلام ، أى : الحاضر ، وقد يأتى من بعد ذلك ؛ لأن « لما » تفيد النفى ، وتفيد توقُّع الإثبات .

والحق سبحانه يقول : ﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا .. (١٤) ﴾ [الحجرات]

وهؤلاء القوم من الأعراب قالوا : ﴿ آمَنَّا ﴾ رغم أنهم راءوا المسلمين وقلدوهم زيفاً ونفاقاً[(٢)] ، ولم يكن الإيمان قد دخل قلوبهم بعد ، وحين سمعوا قول الحق سبحانه : ﴿ وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِى قُلُوبِكُمْ .. (١٤) ﴾ [الحجرات]

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٤٧) ومسلم فى صحيحه (٢٩١٥) بنحوه عن أبى سعيد الخدرى ، وتمامه أنه عند بناء المسجد النبوى ، قال أبو سعيد : « كنا نحمل لبنة لبنة ، وعمار لبنتين لبنتين . فرآه النبى ﷺ ، فينفض التراب عنه ويقول : ويح عمار تقتله الفئة الباغية يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار » .

(٢) ذهب البخارى إلى أن هؤلاء الأعراب كانوا منافقين ، وقد استدرك بعض العلماء هذا عليه فقالوا : إنهم كانوا مسلمين ولكنهم أول ما دخلوا فى دين الإسلام ادعوا لأنفسهم مقام الإيمان ولم يكن الإيمان قد تمكن فى قلوبهم بعد . انظر تفسير ابن كثير (٤/ ٢١٨ ، ٢١٩) .

قالوا : الحمد لله ؛ لأن معنى ذلك أن الإيمان سوف يدخل قلوبهم .

وكذلك قول الحق سبحانه : ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ (١٤٢)﴾ [آل عمران]

فحين سمعوا ذلك قالوا : إذن : وثقنا أنه سيأتى علم الله سبحانه بنا كمجاهدين وصابرين .

وهكذا نعرف أن ﴿لمَّا﴾ تعنى أن المنفى بها متوقع الحدوث . والتأويل كما نعلم هو مرجع الشيء .

وقد جاء فى القرآن الكثير من الأخبار لم تكن وقت ذكرها بالقرآن متوقعة ، أو مظنة أن توجد . وحين وُجدت ولا دخل لبشر فى وجودها ، فهذا يعنى أن قائل هذا الكلام قد أخذه عَمَّن يقدر على أن يوجد ، مثلما جاء فى خبر انتصار الروم على الفرس رغم هزيمة الروم .

قال الحق سبحانه :

﴿غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بِضْعِ[1] سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ .. (٥)﴾ [الروم]

جاء هذا الخبر وانتظر المسلمون تأويله ، وقد جاء تأويله طبقاً لما أخبر القرآن .

أو أن التأويل سيأتى فى الآخرة ، ومايؤول الأمر فى التكذيب سيعلمونه من بعد ذلك .

---

(١) البضع : ما دون العشر ، وأدنى الأرض : بين أذرعات وبصرى فى الشام ، وهى أقرب بلاد الشام إلى الجزيرة العربية . [تفسير ابن كثير : ٣/ ٤٢٢ - ٤٢٤] .

والحق سبحانه يقول : ﴿ وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥٢) هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ .. (٥٣) ﴾ [الأعراف]

هم ينتظرون ما يؤول إليه القرآن وما يؤولون إليه ، إن كان فى الدنيا فنصر أهل القرآن ، وإن كان فى الآخرة ، فهذا قول الحق سبحانه :

﴿ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ..(٥٣) ﴾ [الأعراف]

هذا هو التأويل الذى كذَّبه البعض من قبل .

إذن : فالتأويل إما أن يكون لمن بقى من الكفار فيرى ما أخبر به القرآن وقد جاء على وفق ما أخبر به نبىٌّ لا يملك أن يتحكم فى مصائر الأشياء ، وتأتى على وفق ما قال .

فكأن محمداً ﷺ كان يجازف بأن يقول كلاماً لا يتحقق ؛ فينصرف عنه الذين آمنوا به ، ولكنه ﷺ لم يقل إلا ما هو واثق ومطمئن من وقوعه ؛ لأن الخبر به جاء من لدن عليم خبير .

وإما أن التأويل - أيضاً - يأتى فى الآخرة .

وهنا قال الحق سبحانه : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ .. (٣٩) ﴾ [يونس]

والحق سبحانه هنا يلفت رسوله ﷺ إلى أن ما حدث معه قد حدث مع رسل من قبله ، فقال سبحانه فى نفس الآية : ﴿ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٣٩) ﴾ [يونس]

أى : انظر لموكب الرسل كلهم من بدء إرسال الرسل ، هل أرسل الله رسولاً ونصر الكافرين به عليه ؟ . . لا ، لقد كانت الغلبة دائماً لرسل الحق عز وجل مصداقاً لقوله سبحانه : ﴿كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ..(٢١)﴾ [المجادلة]

وعرفنا ما حدث للظالمين ، فمنهم من أغرقه الله ، ومنهم من خسف به الأرض ، ومنهم من أخذه بالصيحة[1] .

إذن : فالتأويل واضح فى كل مواكب الرسل التى سبقت رسالة محمد ﷺ ، وإذا كان كل قوم من الظالمين قد نالوا ما يناسب رسالة رسولهم ، فسينال القوم الظالمين الكافرين برسالة محمد ﷺ ما يناسب عمومية رسالته ﷺ .

وحين يقول الحق سبحانه : ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ..(٣٩)﴾ لا بد لنا أن نعرف معنى الظلم ، إنه نقل الحق لغير صاحبه ، والحقوق تختلف فى مكانتها ، فهناك حق أعلى ، وحق أوسط ، وحق أدنى .

فإذا جئت للحق الأدنى فى أن تنقل الألوهية لغير الله سبحانه وتعالى فهذا قمة الظلم ، والحق سبحانه يقول : ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ[2] ..(١٣)﴾ [لقمان]

لأن فى هذا نقل الألوهية من الله سبحانه إلى غيره ، ويا ليت غيره كان

---

(١) قال تعالى : ﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠)﴾ [العنكبوت] . والحاصب : هى ريح شديدة البرد والهبوب تحمل حصباء الأرض فتلقيها على الناس وتقتلعهم من الأرض وقد عذب الله بها قوم «عاد» . أما الصيحة فقد عوقب بها قوم ثمود ، وعوقب قارون بالخسف ، أما فرعون وجنوده فقد عوقبوا بالغرق .

(٢) العظمة للقيمة المنحرفة انحطاط ، وللقيمة السوية رفعة .

صاحب دعوة بينه وبين الله تعالى ، لا ، فليس ذلك المنقول له الألوهية بصاحب دعوة ، بل تطوَّع الظالم من نفسه بذلك ، واتخذ من دون الله شريكاً لله ، وفى هذا تطوع بالظلم بغير مُدَّعٍ .

وهَبْ أن الله تعالى قال : لا إله إلا أنا ، فإما أن القضية صحيحة ، وإما أنها غير ذلك ، فإن افترض أحد - معاذ الله - عدم صحتها ، فالإله الثانى كان يجب أن يعلن عن نفسه ، ولا يترك غيره يسمع له ويعلن عنه ، وإلا كان إلهاً أصمَّ غافلاً ، ولكن أحداً لم يعلن ألوهيته غير الله سبحانه ؛ لذلك تثبت الألوهية الواحدة للإله الحق سبحانه وتعالى .

وقد بيَّن لنا الحق سبحانه : لا إله إلا أنا ، أنا الخالق ، أنا الرازق . ولم يصدر عن أحد آخر دعوى بأنه صاحب تلك الأعمال ، إذن : فقد صَحَّت الدعوى فى أنه لا إله إلا الله .

والدرجة التالية فى الظلم هى الظلم فى الأحكام ، فإذا حكم أحد بحلِّ الربا فهذا ظلم فى قضية كبيرة ، ولكن إن حكم قاض على مدين بأن يردَّ الدَّين فقط فهذا عدل ؛ وكذلك القاضى الذى يظلم فى أحكامه إنما ينقل حقوق الناس إلى غيرهم .

إذن : فالظلم يأخذ درجات حسب الشىء الذى وقع فيه الظلم .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾

والكلام هنا فى الذين كذَّبوا ، فكيف يقسِّم الله المكذبين - وهم

بتكذيبهم لا يؤمنون - إلى قسمين : قسم يؤمن ، وقسم لا يؤمن ؟

ونحن نعلم أن الإيمان عمل قلوب ، لا عمل حواس ، فنحن لا نطَّلع على القلوب ، والحق سبحانه يعلم مَنْ مِنْ هؤلاء المكذبين يخفى إيمانه فى قلبه .

إذن : فمن هؤلاء من يقول بالتكذيب بلسانه ويخفى الإيمان فى قلبه ، ومنهم من يوافق تكذيبه بلسانه فراغُ قلبه من الإيمان ، ومن الذين قالوا : إن هذا القرآن افتراء إنما يؤمن بقلبه أن محمداً رسول من الله ، وصادق فى البلاغ عن الله ، ولكن العناد والمكابرة والحقد يدفعونه إلى أن يعلن عدم الإيمان .

وكذلك منهم قسم آخر لا يؤمن ويعلن ذلك .

إذن : فالمقسم ليس هو الإيمان الصادر عن القلب والمعبَّر عنه باللسان ، ولكن المُقسِّم هو إيمان بالقلب غير مُعبَّر عنه ، ولم يصل إلى مرتبة الإقرار باللسان .

والذى جعل إيمان بعضهم محصوراً فى القلب غير مُعبَّر عنه باللسان هو الحقد والحسد والكراهية وعدم القدرة على حكم النفس على مطلوب المنهج .

وبعض العرب حين أعلن لهم رسول الله ﷺ أن يقولوا : لا إله إلا الله ؛ فيضمن لهم السيادة على الدنيا كلها [١] . ورفضوا أن يقولوا الكلمة؛ لأنهم يعلمون أنها ليست كلمة تقال، بل فهموا مضمون ومطلوب

(١) فقد قال له عمه أبو طالب : يا ابن أخى ما تريد من قومك؟ قال : إنى أريد منهم كلمة واحدة تدين لهم بها العرب ، وتؤدى إليهم العجم الجزية . قال : كلمة واحدة ؟ قال : كلمة واحدة . قال : «يا عم يقولوا : لا إله إلا الله» أخرجه أحمد فى مسنده (١ / ٢٢٧) والترمذى فى سننه (٣٢٣٢) وقال : حديث حسن .

الكلمة، وعرفوا أن «لا إله إلا الله» تعنى: المساواة بين البشر، وهم يكرهون ألاَّ تكون لهم السيادة والسيطرة فى أقوامهم.

وهذا يدل أيضاً على أن الحق سبحانه قد شاء أن يبدأ الإسلام فى مكة، حيث الأمة التى تعلن رأيها واضحاً؛ ولذلك نجد أن النفاق لم ينشأ إلا فى «المدينة»، أما فى مكة، فهم قوم منسجمون مع أنفسهم، فهم حين أعلنوا الكفر لم يعانوا من تشتت المَلَكَات، لكن المنافقين فى المدينة وغيرها هم الذين كانوا يعانون من تشتت الملكات، ومنهم من كان يلعب على الطرفين، فيقول بلسانه ما ليس فى قلبه.

ولذلك يُعزِّى الحق رسوله الكريم ﷺ ويُسَرِّى [(١)] عنه ويبين له: إياك أن تحزن لأنهم يكذبونك؛ لأنك محبوب عندهم وموقَّر، فيقول الحق سبحانه: ﴿**قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ** .. (٣٣)﴾ [الأنعام]

أى: أنك يا محمد مُنزَّه عن الكذب؟

ويقول الحق سبحانه: ﴿**وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ** [(٢)] ..(٣٣)﴾ [الأنعام]

أى: أنه سبحانه يحملها عن رسوله ﷺ؛ لأن الحق سبحانه يعلم أن رسوله أمين عند قومه، وهم فى أثناء معركتهم معه، نجد الواحد منهم يستأمنه على أشيائه النفيسة [(٣)].

والذين آمنوا برسالته ﷺ ولم يعلنوا إيمانهم، والذين لم يؤمنوا، هؤلاء

---

(١) يُسرِّى عنه: يكشف عنه الهم والحزن. [اللسان: مادة: (سرى)]

(٢) الجحود: نقيض الإقرار، قال الجوهرى: الجحود الإنكار مع العلم. قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا .. (١٤)﴾ [النمل][اللسان: مادة (جحد)].

(٣) ذكره ابن هشام فى السيرة النبوية (٢/ ٤٨٥) نقلاً عن ابن إسحاق ثم قال: «وكان رسول الله ﷺ ليس بمكة أحد عنده شىء يخشى عليه إلا وضعه عنده، لما يُعلم من صدقه وأمانته ﷺ».

وأولئك أمرهم موكول إلى الله تعالى ؛ ليلقوا حسابهم عند الخالق سبحانه ؛ لأنه سبحانه الأعلم بمن كذَّب عناداً، ومن كذَّب إنكاراً.

والحق سبحانه هو الذى يُعذِّب ويُعاقب، وكل إنسان منهم سوف يأخذ على قَدْر منزلته من الفساد ؛ لذلك يُنهى الحق سبحانه الآية بقوله : ﴿ **وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ** ..(٤٠) ﴾ [يونس]

والمفسد كما نعلم هو الذى يأتى إلى الشىء الصالح فيصيبه بالعطب[1] ؛ لأن العالَم مخلوقٌ قبل تدخُّل الإنسان - على هيئة صالحة، وصنعة الله سبحانه وتعالى - لم يدخل فيها الفساد إلا بفعل الإنسان المختار، وصنعة الله تؤدى مهمتها كما ينبغى لها.

وأنت أيها الإنسان إن أردت أن يستقيم لك كل أمر فى الوجود، فانظر إلى الكون الأعلى الذى لا دخل لك فيه، وستجد كل ما فيه مستقيماً مصداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿ **وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) أَلاَّ تَطْغَوْا فِى الْمِيزَانِ (٨) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ**[2] (٩) ﴾ [الرحمن]

أى : أتقنوا أداء مسئولية ما فى أيديكم وأحسنوه كما أحسن الله سبحانه ما خلق لكم بعيداً عن أياديكم، والمطلوب من الإنسان - إذن - أن يترك الصالح على صلاحه، إن لم يستطع أن يزيده صلاحاً؛ حتى لا يدخل فى دائرة المفسدين.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

---

(١) العطب : الفساد والهلاك.

(٢) تطغوا : من الطغيان، بمعنى الظلم، أى : اعدلوا فى جميع أموركم وزنوا الأمور والأشياء بميزان العدل، ولا يظلم بعضكم بعضاً. والقسط : العدل. [اللسان : مادة (قسط) .. بتصرف].

﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ (٤١) ﴾

وهذه آية تضع الاطمئنان فى قلب رسول الله ﷺ فلم يَقُل الله سبحانه: «إذا كذَّبوك» بل قال: ﴿ إِن كَذَّبُوكَ .. (٤١) ﴾ وشاء الحق سبحانه أن يأتى بالتكذيب فى مقام الشك، وأتبع ذلك بقوله للنبى ﷺ: ﴿ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ .. (٤١) ﴾ أى: أبْلغْهم: أنا لا أريد أن أحْملكم على ما أعمل أنا، إنما أريد لكم الخير فى أنَ تعملوا الخير، فإن لم تعمَلوا الخير؛ فهذا لن يؤثر فى حصيلتى من عملى.

وبذلك يتضح لنا أن الرسول ﷺ لا يُجازَى على عدد المؤمنين به، بل بأداء البلاغ كما شاءه الله سبحانه[1].

وقد شاء الحق سبحانه أن ينقل محمد ﷺ الخير إلى أمته، فإن ظلوا على الشر؛ فهذا الشر لن يناله لأن خير البلاغ بالمنهج يعطيه ﷺ خيراً، لأنه يطبِّقه على نفسه، وشر الذين لا يتبعونه إنما يعود عليهم؛ لأن الذين يتأبون على الاستجابة لأى داعٍ إنما يظنون أن الداعى سوف يستفيد[2].

والبلاغ عن الله، إنما يطبقه الرسول ﷺ منهجاً وسلوكاً

---

(١) ومما يدل على هذا أن نوحاً مكث فى قومه يدعوهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، ورغم هذا قال عنه رب العزة: ﴿ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ .. (٤٠) ﴾ [هود] واختلفوا فى عدة من آمن معه بين عشرة أنفس، وثمانين نفساً من بينهم أبناؤه. انظر تفسير ابن كثير (٢/ ٤٤٥).

(٢) ولذلك كان نوح يقول لقومه: ﴿ وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ .. (٢٩) ﴾ [هود]، وهود يقول لقومه عاد: ﴿ يَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلا تَعْقِلُونَ (٥١) ﴾ [هود] وهكذا قال صالح لقومه ثمود: ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٤٥) ﴾ [الشعراء]، ولوط لقومه: ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٤) ﴾ [الشعراء]، وشعيب لقومه أهل مدين: ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٠) ﴾ [الشعراء].

ويُجازَى عليه[1].

فلا يجوز الخلط في تلك المسائل ﴿لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ .. (٤١)﴾ .

ثم يقول الحق سبحانه على لسان رسوله ﷺ : ﴿أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ..(٤١)﴾ [يونس]

وكلمة ﴿بَرِيءٌ﴾ تفيد أن هناك ذنباً، وهذا القول الحق فيه مجاراة للخصوم، وشاء الحق سبحانه أن يُعلِّم رسوله ﷺ والمؤمنين أدب الحوار والمناقشة ، فيقول : ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢٤)﴾ [سبأ]

أي : أننا - الرسول ومعه المؤمنون - وأنتم أيها الكافرون إما على هدى ، أو في ضلال . والرسول ﷺ موقن أنه على هدى وأن الكافرين على الضلال، ولكنه يجاريهم ؛ عدالة منه ﷺ ومجاراة لهم.

كذلك يعلِّمه ربه سبحانه أن يقول: ﴿قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا .. (٢٥)﴾ [سبأ]

أي : أنه يبين لهم: هَبُوا أنِّي أجرمتُ فأنتم لن تُسألوا عن إجرامي، ومن أدب الرسول ﷺ شاء له الحق سبحانه أن يقول: ﴿وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٢٥)﴾ [سبأ]

ولم يقل: «ولا نُسأل عما تُجرمون» . وكذلك شاء الحق سبحانه أن تأتي هنا في هذه الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها: ﴿أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ..(٤١)﴾ [يونس]

---

(١) فالرسول مكلف ببلاغ ما أرسل به، لا يزيد فيه ولا ينقص ، ولذلك يقول رب العزة عن نبيه ﷺ : ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (٤٧)﴾ [الحاقة].

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾

وكلمة « مَنْ » تطلق وقد يراد بها المفرد ، وقد يراد بها المفردة، وقد يراد بها المثنى، وقد يراد بها الجمع، ومرة يطابق اللفظ فيقول سبحانه: ﴿ **وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ** ..﴿٢٥﴾ ﴾ [الأنعام]

ومرة يقصد المعنى فيقول: ﴿ **وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ** ..﴿٤٢﴾ ﴾ [يونس]

لأن ﴿مَّن﴾ صالحة للموقعين.

والسماع كما نعلم هو استقبال الأذن للصوت، فإن كان صوتاً مُبْهماً كأصوات الحيوانات أو أصوات الأعواد ، **فهذه الأصوات** لا تفيد إلا ما تفيده النغمة فى الجسم من هزة أو ارتجاج .

وإما أن يكون الصوت له معنى تواضُعىٌّ ، كاللغات المختلفة التى يتخاطب بها الناس فى البلدان المختلفة، فإن تكلمتَ بالإنجليزية فى بلد يتكلم أهله بهذه اللغة فهموك وفهمت عنهم. هذا هو معنى التواضع فى اللغة، أى : أن المتكلم والسامع على درجة واحدة من الاتفاق على اللغة.

والنبى ﷺ عربى يتحدث بلسان عربى مبين لقوم من العرب، فما العائق عن السمع إذن ؟

إن العائق عن السمع نفض الأذن لما يأتى من جهة الخصم، والسماع - كما نعلم - هو استشراف المخاطب إلى ما يفهم من المتكلم ، فإن لم يوجد عند المخاطب استشراف إلى أن يسمع، فالكلام يُقال ولا يصل.

إذن: لا بد للسامع من حالة الاستشراف إلى فهم ما يقوله المتكلم. وكما يقول المثل: «أذن من طين وأخرى من عجين» . أو كما تقول المزحة أن واحداً مال على أذن صديق له وقال: «أريد أن أقول لك سرّاً» فاقترب الصديق مستشرفاً سماع السر، فقال الرجل: «أريد مائة جنيه كقرض» ؛ فقال الصديق: «كأني لم أسمع هذا السر».

إذن: فالكلام ليس مجرد صوت يصل إلى الأذن، لكن لا بد من استشراف نفسي للتلقي. وهم لا يملكون هذا الاستشراف؛ لذلك قال الحق سبحانه: ﴿ **أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ** .. (٤٢) ﴾ أي: كأن سمعهم لا يسمع.

ومثال ذلك: أننا نجد المدرس الذي يشرح الدرس للتلاميذ، وبين التلاميذ من يستشرف السمع؛ ولذلك يفهم الدرس، أما الذي لا يستشرف فكأنه لم يسمع الدرس.

وهم قد فاتوا الصُّمَّ؛ لأن الأصم قد يفهم بالحركة أو الإشارة أو لغة العين، ولكن هؤلاء لا يسمعون ولا يعقلون ﴿ **أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لا يَعْقِلُونَ** ..(٤٢) ﴾ [يونس]

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾

والرؤى أيضاً تحتاج إلى استشراف، وأن يُقْبِل المرء على ما يريد أن يراه، وأحياناً لا يكون الرائي مستشرفاً؛ لأن قلبه غير متجه للرؤية.

وسُئل واحد: إنك تقول: من رأى فلاناً الصالح [1] يَهْده الله . فردَّ عليه السامع متسائلاً: كيف تقول ذلك؟! فردَّ القائل: لقد رأى أبو جهل خيراً من هذا، ومع ذلك ظل كافراً. فردَّ السامع: إن أبا جهل لم يرَ محمداً رسول الله ﷺ ، ولكنه رأى يتيم أبى طالب [2] .

وهكذا شرح الرجل أن أبا جهل لم ينظر إلى محمد ﷺ على أنه رسول؛ لأنه لو نظر إليه بهذا الإدراك لتسللت إليه سكينة الإيمان وهَيبة الخشوع وجلال الورع.

ونحن قد نلقى رجلاً صالحاً فى بشرته أدْمة [3] أو سواد ، وصلاحه يضىء حوله ، وله أسْر [4] من التقوى، وجاذبية الورع.

ولو أن أبا جهل رأى محمداً ﷺ على أنه رسول لتغيَّر أمره.

وها هو «فضالة» [5] يحكى عن لحظة أراد فيها أن يقتل رسول الله ﷺ وهو يطوف بالبيت عام الفتح، فلما اقترب منه ؛ قال له رسول الله ﷺ : ماذا كنت تحدِّث به نفسك؟ قال: لا شىء ، كنت أذكر الله. قال: فضحك النبى ﷺ ، ثم قال: استغفرِ الله ، ثم وضع يده على صدر فضالة.

وساعة سمع فضالة هذا، ورأى محمداً ﷺ وهو يقول ذلك القول، قال: ما كان أبغض إلىَّ من وجهه، ولكنى أقبلت عليه فما كان أحَبَّ

(١) إن رؤية الصالحين فيها جذب إيمانى ؛ لأن الرائى يرى نور الإيمان يناديه ، فيلاقيه ، ويلتقى به .
أما رؤية أبى جهل فهى رؤيا انقطاع إيمانى ؛ لأن استقباله للإيمان مقطوع ، فلم ير نوراً ، ولم يحس به ، وإنما كانت رؤيته من خلال الحقد الذى جعله لا يرى فى رسول الله ﷺ إلا يتيماً لابن أبى طالب ، وذلك بخلاف موقف فضالة الذى أحس بالنور فأحبه .

(٢) ذكر القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٢٣٢) أن المشركين قالوا : ما وجد الله من يرسله إلا يتيم أبى طالب .

(٣) الأدمة فى الناس : السمرة الشديدة ، وقيل : هى من أدمة الأرض ، وهو لونها ، وبه سمى آدم أبو البشر - عليه السلام . [اللسان : مادة(أدم)] .

(٤) الأسْر : السَّمْت الذى يستولى على مشاعر المحيطين به .

(٥) هو : فضالة بن عمير بن الملوح الليثى .

إلىَّ فى الأرض كلها من وجهه[١].

هذا هو السماع ، وهذا هو البصر ، وكلاهما - السمع والبصر - أكرم المتعلقات وأشرفها ؛ لأن السمع هو وسيلة الاستماع لبلاغ الله عنه ، والإنسان قبل أن يقرأ لا بد له من أن يكون قد سمع .

والمقصود هنا بالعمى فى قول الحق سبحانه : ﴿ **أَفَأَنتَ تَهْدِى الْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا لا يُبْصِرُونَ** (٤٣) ﴾ هو عمى البصيرة .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَـٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٤) ﴾

كلمة «الله» هى اسم عَلَم على واجب الوجود المتصف بكل صفات الكمال التى عرفناها فى أسماء الله الحسنى التسعة والتسعين ، وإن كان لله تعالى كمالات لا تتناهى ؛ لأن الأسماء أو الصفات التى يحملها التسعة والتسعون اسماً لا تكفى كل كمالات الله سبحانه ، فكمالاته سبحانه لا تتناهى .

ولذلك قال النبى ﷺ :

«أسألك بكل اسم سمَّيت به نفسك ، أو علَّمته أحداً من خَلْقك ، أو استأثرت به فى علْم الغيب عندك»[٢].

---

(١) ذكره ابن هشام فى السيرة النبوية (٤/ ٤١٧) بلفظ : « والله ما رفع يده عن صدرى حتى ما من خَلْق الله شىء أحب إلىَّ منه » .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (١/ ٣٩١ ، ٤٥٢) والحاكم فى مستدركه (١/ ٥٠٩) من حديث ابن مسعود وصححه على شرط مسلم إنْ سَلِم من الإرسال .

وإن سأل سائل: ولماذا يستأثر الله سبحانه ببعض من أسمائه فى علم الغيب ؟

أقول: حتى يجعل لنا الله سبحانه فى الآخرة مزيداً من الكمالات التى لم نكن نعرفها ؛ ولذلك نجد الحق سبحانه يفتح على رسوله ﷺ «من محامده وحُسن الثناء عليه شيئاً لم يفتحه على أحد قبله»[1] .

وهذا بعض من فيض لا ينفد من آفاق اسم عَلَم على واجب الوجود ، وصفات علم واجب الوجود ، والتسعة والتسعون اسماً التى نعلمها[2] هى اللازمة لحياتنا الدنيا ، ولكننا سنجد فى الآخرة صفات كمال أخرى ، وكلمة «الله» هى الجامعة لكل هذه الأسماء ، ما عرفناها ؛ وما لم نعرفها .

والإنسان منا حين يُقبل على عمل ، فهذا العمل يتطلب تكاتُفَ صفات متعددة ، يحتاج إلى قدرة ، وعلم ، وحكمة ، ولُطْف ، ورحمة ، وغير ذلك من الصفات ، فإن قلت: باسم القوىّ ؛ فأنت تحتاج إلى القوة ، وإن قلت: باسم القادر ؛ فأنت تحتاج إلى القدرة ، وإن قلت: باسم الحليم ؛ فأنت تحتاج إلى الحلْم ، وإن قلت: باسم الحكيم ؛ فأنت تحتاج إلى الحكمة ، وإن قلت: «بسم الله» فهى تكفيك فى كل هذا وغيره أيضاً ؛

---

(١) وذلك فى يوم القيامة فى مقام شفاعة رسول الله ﷺ بعد تأخر إخوانه من الأنبياء عنها ، وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - « أن رسول الله ﷺ يأتى تحت العرش فيقع ساجداً ، ثم يفتح الله عليه من محامده وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتحه على أحد قبله . ثم يقال : يا محمد ، ارفع رأسك ، سل تعطه ، واشفع تشفع ، فيرفع الرسول ﷺ رأسه ويقول : يا رب أمتى ، أمتى » . من حديث طويل أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٧١٢) ، ومسلم فى صحيحه (١٩٤) .

(٢) عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « إن لله تسعة وتسعين اسماً ، مائة إلا واحداً ، من أحصاها دخل الجنة » أخرجه البخارى فى صحيحه (٧٣٩٢) ومسلم (٢٦٧٧) وقد ورد ذكر أسماء الله الحسنى بالتفصيل فى رواية أخرى عن أبى هريرة أخرجها الترمذى فى سننه (٣٥٠٧) وابن ماجه (٣٨٦١) وطريق الترمذى أصح .

ولذلك يكون بدء الأعمال [(١)] بـ «بسم الله» ، فإذا احتجت إلى قدرة وجدتها ، وإن احتجت إلى غنىً وجدته ، وإن احتجت إلى بَسْطٍ [(٢)] وجدته.

وكل صفات الكمال أوجزها الحق سبحانه لنا فى أن نقول: «بسم الله». وحين تبدأ عملك باسم الله ؛ فأنت تُقرُّ بأن كل حَوْل [(٣)] لك موهوب من الله ، والأشياء التى تنفعل لك ، إنما تنفعل باسم الله ، وكل شىء إنما يسخر لك باسم الله ، وهو القائل:

﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (٧١) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (٧٢)﴾ [يس]

ولو لم يذلِّل الله لنا الأنعام والأشياء لتنفعل لنا ما استطعنا أن نملكها ، بدليل أن الله تعالى قد ترك أشياء لم يذللها لنا حتى نتعلَّم أننا لا نستطيع ذلك ، لا بعلْمنا ، ولا بقُدْرتنا ، إنما الحق سبحانه هو الذى يُذلِّل.

فأنت ترى الطفل فى الريف وهو يسحب الجمل ، ويأمره بالرقود ؛ فيرقد ، ويأمره بالقيام ؛ فيقوم. أما إن رأينا ثعباناً فالكثير منا يجرى ليهرب ، ولا يواجهه إلا من له دُرْبة على قتله. والبرغوث الصغير الضئيل قد يأتى ليلدغك ليلاً ، فلا تعرف كيف تصطاده ؛ لأن الله لم يذلِّله لك.

وكذلك الثمرة على الشجرة إذا قطفتها قبل نضجها تكون غير

---

(١) أخرج الإمام أحمد فى مسنده (٢/ ٣٥٩) عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «كل كلام - أو أمر - ذى بال لا يفتح بذكر الله عز وجل فهو أبتر - أو قال: أقطع».

(٢) أى: أن يبسط فى رزقك ، فهو سبحانه الباسط. يقول سبحانه وتعالى: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ.. (٢٦)﴾ [الرعد].

(٣) الحول: القوة ، والحيلة والقدرة على تسيير أمورك فى الحياة.

مستساغة ، أما إن قطفتها بعد نضجها فأنت تستمتع بطعمها ، ثم تأخذ منها البذرة لتعيد زراعتها ، وتضمن بقاء النوع ، بل إن الثمرة تسقط من على الشجرة حين تنضج وكأنها تنادى من يأكلها .

وكذلك الإنسان حين يبلغ ، أى : يصبح قادراً على أن ينجب غيره ، فيكلّفه الله بعد ذلك بالتكاليف الإيمانية ؛ لأنه لو كلَّفه قبل ذلك [(١)] ثم طرأتْ عليه مشاكل المراهقة ؛ فقد لا يستطيع أن يتحمل التكليف .

ولذلك شاء الحق سبحانه أن يخلق من عدم ، وأن يربِّى حتى يكتمل الإنسان ، ثم حدَّد التكليف من لحظة البلوغ ، ووضع شرط اكتمال العقل والرشد ، وألا توجد آفة أو جنون .

ولا أقوى من الله سبحانه يمكن أن يُكلِّف لتفعل غير ما يريد الله ؛ لذلك شاء الحق سبحانه أن يكتمل للإنسان الرشد ساعة التكليف ، أما المجنون فلم يكلفه الله سبحانه ، وكذلك يسقط التكليف عن المُكْرَه ؛ لأن التكليف فى مضمونه هو اختيار بين البدائل ، وهذه منتهى العدالة فى التشريع .

وأنت حين تستقبل التكليف عليك ألا تنظر إلى ما تأخذه منك العبادات ، لأنها لا تأخذ من حريتك ، بل تحترم أنت حرية الآخرين ، ويحترمون هم حريتك ، فإن حرَّم عليك أن تسرق ، فهو سبحانه قد حماك بأن حرَّم على جميع الخلق أن يسرقوا منك [(٢)] .

---

(١) لما استطاع القيام بما كلف به لأنه ليس بالغاً ؛ ولذلك كان التكليف مصاحباً للبلوغ ؛ ليكون هناك توازن تربوى يروض النفس إلى مرادات الله ، ولو قام الصبى بالتكاليف فله ثواب .

(٢) عن جابر بن عبد الله قال : سمعت النبى ﷺ يقول : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » أخرجه مسلم فى صحيحه (٤١) فجعل رسول الله ﷺ السلامة من الإيذاء سواء باللسان أو اليد علامة على حسن إسلام العبد .

إذن: فالقيد قد جاء لصالحك.

وهَبْ أنك أطلقت يدك فى الناس، فماذا تصنع لو أطلقوا هم أياديهم فيما تملك ؟

وحين حرَّم عليك التكليف أن تنظر إلى محارم غيرك ، فهو قد حرم على الغير أن ينظروا إلى محارمك .

وحين أمرك أن تزكِّى ، فهو قد أخذ منك ؛ ليعطى الفقير من المال الذى استخلفك الله فيه.

فلا تنظر إلى ما أخذ منك، بل انظر إلى ما قد يعود عليك إن أصابك القدر بالفقر ، والشيَء الذى تستشعر أنه يؤخذ منك فالله سبحانه يعطيك الثواب أضعافاً كثيرة (١) .

وبعد ذلك انظر إلى حركة الحياة ، وانظرْ إلى ما حَرَّم الله تعالى عليك من أشياء ، وما حَلَّل لك غير ذلك؛ فستجد المباح لك أكثر مما منعك عنه.

إذن: فالتكليف لصالحك .

ثم بعد كل ذلك: أيعود شىء مما تصنع من تكاليف على الحق سبحانه ؟ لا .

أيعطيه صفة غير موجودة ؟

لا ؛ لأن الحق سبحانه قد خلقنا بكل صفات كماله ، وليس فى عملنا ما يزيده شيئاً.

---

(١) يقول الله - عز وجل - فى كتابه الكريم : ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ۝٤٠﴾ [النساء] . وقد قال عز وجل : ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ۝٤﴾ [المؤمنون] - ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ .. ۝١٠٣﴾ [التوبة] - ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۝٢٤ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ۝٢٥﴾ [المعارج] .

إذن : فمن المصلحة أن تطبّق التكاليف لأنها تعود عليك أنت بالخير .

وانظر - مثلاً - إلى الفلاح فى الحقل ، إنه يحرث الأرض ، وينقل السماد ، ويبذر ، ويروى ويتعب ، وبعد ذلك يستريح فى انتظار الثمار .

وأنت حين تنفِّذ تكاليف الحق [(١)] سبحانه فأنت تجد العائد ، وأنت ترى فى حياتك أن الفلاح الكسول يصاب بحسرة يوم الحصاد ، فما بالنا بحساب الآخرة .

والفلاح الذى يأخذ من مخزنه إردبّاً ؛ ليزرعه ، وهو فى هذه الحالة لا ينقص مخزنه ؛ لأنه سيعود بعد فترة بخمسة عشر إردبّاً .

وهكذا من ينفِّذ التكاليف يعود عليه كل خير ؛ ولذلك أقول : انظر فى استقبالات منهج الله تعالى فيما تعطيه ، لا فيما تأخذه .

وهكذا ترى أنه لا ظلم ؛ لأننا صنعة الله ، فهل رأيتم صانعاً يفسد صنعته ؟

إذن : فالصانع الأعلى لا يظلم صنعته ولا يفسدها أبداً ، بل يُحسِّنها ويعطيها الجمال والرونق [(٢)] ؛ لذلك يقول الحق سبحانه :

---

(١) تكاليف الحق سبحانه هى أوامره ونواهيه ، يكلف بها الله من آمن به ، ومثله قوله تعالى : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٥٣) ﴾ [الأنعام]

(٢) وفى هذا يقول رب العزة : ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ (٧) ﴾ [السجدة] ويقول فى آية أخرى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ .. (٦٤) ﴾ [غافر] .

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٤) ﴾ [يونس]

أى : أن الناس هم الذين يظلمون أنفسهم ، ومن الظلم جَحْد الحق ، وهذا هو الظلم الأعلى ، ومن الظلم أن يعطى الإنسان نفسه شهوة عاجلة ؛ ليذوق من بعد ذلك عذاباً آجلاً ، وهو بذلك يحرم نفسه من النعيم المقيم ، وهو حين يظلم نفسه يكون قد افتقد القدرة على قياس عمره فى الدنيا ، فالعمر مهما طال قصير ، وما دام الشىء له نهاية فهو قصير .

والحق سبحانه وتعالى حين يخاطب الناس ، فهو قد نصب لهم آيات باقية إلى أن تقوم الساعة ، وكلهم شركاء فيها ، وهى الآيات الكونية [١] ، وبعد ذلك خَصَّ كل رسول بآية ومعجزة ، وأنزل منهجاً بـ «افعل» و«لا تفعل» ، وبيَّن فى آيات الكتاب ما المطلوب فعله ، وما المطلوب أن نمتنع عنه [٢] ، وترك لك بقية الأمور مباحة .

والمثال الذى أضربه دائماً : هو التلميذ الذى يرسب آخر العام ، هذا التلميذ لم تظلمه المدرسة ، بدليل أن غيره قد نجح ؛ لذلك لا يصح أن يقال : إن المدرسة أسقطت فلاناً ، ولكن الصحيح أن نقول : إن فلاناً قد أسقط نفسه ، وأن زميله قد أنجح نفسه ، ودور المدرسة فى ذلك هو إعلان النتيجة .

---

(١) قد جعل الله فى الكون آيات خاطب بها الله كل الناس ليتفكروا فيها وليصلوا بها إلى أن لهذا الكون خالقاً واحداً ، وقد جمعها الله فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِى تَجْرِى فِى الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٦٤) ﴾ [البقرة]

(٢) وذلك فى نحو قوله تعالى : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) ﴾ [الأنعام] .

ومن الظلم أيضاً أن يستكثر الظالم نعمة عند المظلوم ، فيريد أن يأخذها منه ، ولا يمكن أن يكون الحق سبحانه وتعالى ظالماً يستكثر نعَم عباده ؛ لأنه مُنزَّه عن ذلك ؛ فضلاً عن أن خَلْقه ليس عندهم نعَم يريدها هو ، فهو الذى أعطاها لهم ؛ ولذلك لا يأتى منه سبحانه أى ظلم ، وإنْ جاء الظلم فهو من الإنسان لنفسه .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟[1] إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾

فهذه الدنيا التى يتلهف عليها الإنسان ، ويأخذ حظه فيها ، وقد ينسى الآخرة ، فإذا ما قامت القيامة فأنت تشعر كأنك لم تمكث فى الدنيا إلا ساعة ، والساعة هى الساعة الجامعة التى تقوم فيها القيامة ، ولكن الساعة فى الدنيا هى جزء من الوقت ، ونحن نعلم أن اليوم مقسَّم لأربع وعشرين ساعة ، وأيضاً تُطلق الساعة على تلك الآلة التى تُعلَّق على الحائط أو يضعها الإنسان على يده ، وهى تشير إلى التوقيت .

والتوقيت ثابت - بمقدار الساعة والدقيقة والثانية - منذ آدم عليه السلام وإلى من سوف يأتون بعدنا ، ولكن التوقيت يختلف من مكان إلى آخر ، فتشير الساعة فى القاهرة - مثلاً - إلى الثانية ظهراً ، وتكون فى نيويورك السابعة صباحاً ، وتشير فى بلد آخر إلى الثالثة بعد منتصف الليل ، ولا تتوحد الساعة بالنسبة لكل الخلق إلا يوم القيامة .

---

(١) لبث : مكث .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ ..(٥٥) ﴾ [الروم]

وهم - إذن - يُفاجَأون أن دنياهم الطويلة والعريضة كلها مرَّتْ وكأنها مجرد ساعة [1]، وهكذا يكتشفون قصَر ما عاشوا من وقت ، ولا يقتصر الأمر على ذلك ، بل إنهم لم ينتفعوا بها أيضاً فهى مدة من الزمن لم تكن لها قيمة .

والحق سبحانه يقول :

﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ (٣٥) ﴾ [الأحقاف]

أى : أن الدنيا تمر عليهم فى لهو ولعب ومشاغل ، ولم يأخذوا الحياة بالجد اللائق بها [2]؛ فضاعت منهم وكأنها ساعة .

ولذلك يقول الحق سبحانه هنا :

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ ..(٤٥) ﴾ [يونس]

ويوم الحشر ينقسم الناس قسمين : قسم مَنْ كانوا يتعارفون على البر ، وقسم مَنْ كانوا يتعارفون على الإثم ، فالذين تعارفوا فى الحياة الدنيا على

---

(١) الساعة : أصلها جزء من الزمن غير محدد يلاحظ فيه القلة ، قال تعالى : ﴿ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ.. (٥٥) ﴾ [الروم] أى : مدة قليلة ، وقوله : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ (٣٤) ﴾ [الأعراف] أى : لا يتأخرون لحظة ، والساعة يوم القيامة قال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ .. (٥٥) ﴾ [الروم] أى : القيامة .

(٢) ولذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا (١٩) ﴾ [الإسراء] ، فالسعى للآخرة لا بد أن يكون بالنسبة إلى عِظَم هذا اليوم الأخير .

البر يفرحون ببعضهم البعض ، وأما الذين تعارفوا فى الحياة الدنيا على الإثم فهم يتنافرون بالعداء ، والحق سبحانه هو القائل : ﴿ **الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ** (٦٧) ﴾ [الزخرف]

وكذلك قال فى الذين تعارفوا على الإثم :

﴿ **إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا** .. (١٦٦) ﴾ [البقرة]

هم سيتعارفون على بعضهم البعض ، ولكن هذه المعرفة لا تدوم ، بل تنقلب إلى نكران ، فالواحد منهم لا يريد أن يرى مَنْ كان سبباً فى أن يؤول إلى هذا المصير ، وتعارفهم سيكون تعارف تعنيف .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ **قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ** .. (٤٥) ﴾ [يونس]

وساعة تسمع كلمة «خسر» فاعرف أن الأمر يتعلق بتجارة ما ، والخسارة[1] تعنى : أن يفقد الإنسان المتاجر إما جزءاً من رأس المال ، أو رأس المال كله .

ومراحل التجارة - كما نعرف - إما كسب يزيد رأس المال المتاجَر فيه ، وإما ألاَّ يكسب التاجر ولا يخسر ؛ لكنه يشعر بأن ثمن عمله ووقته فى هذه التجارة قد ضاع ، وكل ذلك يحدث فى الصفقات .

---

(١) خسر : أى خسر الرجل فى تجارته خسراً وخساراً وخسارة وخسراناً ، غبن فيها ولم يربح وأصابه النقص . وخسر الرجل : ضل . فهو خاسر ، وهو خسير ، قال تعالى : ﴿ **قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ** .. (٣١) ﴾ [الأنعام] . وخسر نفسه : أهلكها بالضلال ، وقوله تعالى : ﴿ **خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ** .. (١١) ﴾ [الحج] .

ومن الفعل اللازم قوله تعالى : ﴿ **فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا** (١١٩) ﴾ [النساء] ، وقد يأتى متعدياً ، ومثله قوله تعالى : ﴿ **قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ** .. (١٥) ﴾ [الزمر] [القاموس القويم] .

ونجد الحق سبحانه وتعالى يصف العملية الإيمانية فى الدنيا بقوله :

﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ⑩ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ⑪ ﴾ [الصف]

ويقول سبحانه :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً (١) لَّن تَبُورَ ㉙ ﴾ [فاطر]

والتجارة تعتمد على أنك لا تُقبل على عقد صفقة إلا إذا غلب على ظنك أن هذه الصفقة سوف تأتى لك بأكثر مما دفعت فيها .

ولذلك يقول الحق سبحانه عن الصفقات الخاسرة :

﴿ أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ⑯ ﴾ [البقرة]

ويقول أيضاً :

﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا .. ⑪ ﴾ [الجمعة]

---

(١) تجر من باب نصر - تجراً وتجارة : باع واشترى طلباً للربح ، وتطلق التجارة على المال الذى يتجر فيه التاجر - وتطلق التجارة مجازاً على العمل الذى يترتب عليه خير ، كأن الثواب ربح ، وكأن الحرمان منه خسارة ، قال تعالى : ﴿ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ .. ㉒㉘② ﴾ [البقرة] ، التجارة هى المتجر فيه ، وقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ㉙ ﴾ [فاطر] هى الأعمال الصالحة ، وقوله : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ⑩ ﴾ [الصف] ، هى التجارة بالمعنى المجازى أى العمل الصالح . [القاموس القويم]

وشاء الحق سبحانه أن يجعل معنى التجارة واضحاً ومعبِّراً عن كثير من المواقف ؛ لأن التجارة تمثِّل جماع كل حركة الحياة ؛ فهذا يتحرك فى ميدان ؛ لينفع نفسه ، وينفع غيره ، وغيره يعمل فى ميدان آخر ؛ فينفع نفسه ، وينفع غيره.

وبهذا يتحقق نفع الإنسان من حركة نفسه وحركة غيره ، وهو يستفيد من حركة غيره أكثر مما يستفيد من حركته هو ، ومن مصلحة أى إنسان أن يحسِّن كل إنسان حركته ؛ فيرتاح هو ؛ لأن ما سوف يصل إليه من حركة الناس سيكون جيد الإتقان .

والتجارة تحمل أيضاً الوساطة بين المنتج والمستهلك .

ولذلك حين أراد الله سبحانه أن نستجيب لأذان الجمعة قال:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الجمعة]

ولم يقل الله سبحانه: اتركوا الزراعة أو اتركوا الصناعة ، أو اتركوا التدريس ، بل اختار من كل حركات الحياة حركة البيع ؛ لأن فيه تجارة ، والتجارة هى الجامعة لكل حركات الحياة.

والتاجر وسيط بين منتج ومستهلك وتقتضى التجارة شراءً وبيعاً ، والشراء يدفع فيه التاجر ثمناً ، أما فى البيع فهو يأخذ الثمن ، والغاية من كل شىء أن يتموَّل الإنسان .

لذلك فالبيع أفضل عند التاجر من الشراء ، فأنت قد تشترى شيئاً وأنت كاره له ، لاحتياجك إليه ، ولكنك عند بيع البضاعة تشعر بالسعادة والإشراق ، ولأن الشراء فيه أخذ ، والبيع فيه عطاء ، والعطاء يرضى النفس دائماً ؛ لأن ثمرة الصفقة تأتيك فى لحظتها.

وإن كنت مزارعاً فأنت تُعدّ الأرض ، وتحرثها ، وتبذر البذور ، وترويها ، وتُشَذِّب النبات ، وتنتظر إلى أن ينضج الزرع ، وكذلك تقضى الكثير من الوقت فى إتقان الصنعة إن كنت صانعاً ، لكن البيع فى التجارة يأتى لك بالكسب سريعاً ، فكأن ضَرْبَ المثل فى التجارة ، جاء من أصول التجارة بالبيع ولم يأت بالشراء .

إذن : لا بد أن نعتبر أن دخولك فى صفقة الإيمان تجارة ، تأخذ منها أكثر من رأسمالك ، وتربح ، أما إن تركت بعضاً من الدِّين ؛ فأنت تخسر بمقدار ما تركت ، بل وأضعاف ما تركت .

وأنت فى أية صفقة قد تعوِّض ما خسرت فيما بعد ، وإن استمرت الخسارة فإن أثرها لا يتجاوز الدنيا ، ويمكن أن تربح بعدها ، وإذا لم تربح ، فسيضيع عليك تعبك فقط ؛ ولأن الدنيا محدودة الزمن ؛ فخسارتها محتملة ، أما الخسارة فى الزمان غير الموقوت - الزمن الدائم - فهى خسارة كبيرة ؛ لأن الآخرة ليس فيها أغيار كالدنيا ، وأنت فى الآخرة إما فى جنة ذات نعيم مقيم ، وفى هذا ربح وكسب كبير ، وإما إلى نار ، وهذه هى الخسارة الحقيقية .

والخسران الحقيقى أن يكذِّب الإنسان ، لا بنعيم الله فقط ، ولكن بلقاء الله أيضاً .

يقول الحق سبحانه :

﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ . . (٤٥) ﴾ [يونس]

أى : أن الله سبحانه لم يكن فى بالهم ، وهم حين تقوم الساعة يجدون الله - سبحانه وتعالى - أمامهم .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ [١] يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً ..(٣٩) ﴾
[النور]

والسراب كما نعلم يراه السائر فى الصحراء ، وهو عبارة عن انعكاس للضوء ؛ فيظن أن أمامه ماء ، ولكن إن سار إليه الإنسان لم يجده ماء ، وهكذا شبَّه الحق سبحانه عمل الكافر بمن يسير فى صحراء شاسعة ، ويرى السراب ؛ فيظنه ماءً ، لكنه سراب ، ما إن يصل إليه حتى ينطبق عليه قول الحق سبحانه :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ ..(٣٩) ﴾ [النور]

أى : أنه يُفاجأ بوجود الله سبحانه وتعالى ، فيوفيه الله حسابه .

ولذلك فالذى يكفر بالله ويعمل ما يفيد البشر ، فإنه يأخذ حسابه ممن عمل له ، ولا يُحسب له ذلك فى الآخرة ، وتجد الناس يُكرّمونه ، ويقيمون له التماثيل أو يمنحونه الجوائز وينطبق عليه قول الرسول ﷺ :

«فعلتَ ليقال ، وقد قيل» [٢] .

---

(١) السراب : ما يُرى فى نصف النهار من اشتداد الحر كالماء فى الصحراء يلتصق بالأرض . وهو من خداع البصر . وقد سُمِّى السراب سراباً لأنه يسرب سروباً ، أى : يجرى جرياً ، أى : يتحرك حركة تخدع الرائى من بعيد ؛ فيظنه ماء وهو ليس بماء ، بل خداع ضوئى وبصرى ناتج عن الحالة النفسية للشخص عند شدة عطشه ووجوده فى صحراء قاحلة ؛ فأى حركة من بعيد يظنها ماء ؛ ويجرى إليها ؛ ليفاجأ بعدم وجود شىء . [اللسان : مادة (س ر ب) بتصرف] .
والقيعة : أرض واسعة مستوية لا تنبت الشجر . قال الفرّاء : القيعة جمع القاع ، والقاع : ما انبسط من الأرض . قال تعالى : ﴿ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (١٠٦) ﴾ [طه] . [اللسان : مادة (ق و ع) بتصرف] .

(٢) عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتى به فعرفه نعمه فعرفها . قال : فما عملت فيها ؟ قال : قاتلت فيك حتى استشهدت . قال : كذبت ولكنك قاتلت لأن يقال : جرىء فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار ، ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن فأتى به فعرفه نعمه فعرفها . قال : فما عملت فيها ؟ قال : تعلمت العلم وعلّمته وقرأت فيك القرآن . قال : كذبت ، ولكنك تعلّمت العلم ليقال : عالم ، وقرأت القرآن ليقال : هو قارىء . فقد قيل . ثم أمر به فسُحب على وجهه حتى ألقى فى النار . . » . الحديث أخرجه مسلم فى صحيحه (١٩٠٥) والنسائى فى سننه (٦/ ٢٣) طبعة دار الكتب العلمية - بيروت .

وهنا يقول الحق سبحانه عن الذين كَذّبوا بلقاء الله تعالى :

﴿ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (٤٥) ﴾ [يونس]

أى : لم يكونوا سائرين على المنهج الذى وضعه لهم خالقهم سبحانه ؛ هذا المنهج الذى يمثِّل قانون الصيانة لصنعة الله تعالى ، وقد خلق الله سبحانه الإنسان لمهمة ، والله سبحانه يصون الإنسان بالمنهج من أجل أن يؤدى هذه المهمة .

والهداية هى الطريق الذى إن سار فيه الإنسان فهو يؤدى به إلى تحقيق المهمة المطلوبة منه ؛ لأن الحق سبحانه قد جعله الخليفة فى الأرض .

ومن لا يؤمن برب المنهج سبحانه وتعالى ولا يطبق المنهج فهو إلى الخسران المبين ، أى : الخسران المحيط .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ (٤٦) ﴾

وقول الحق سبحانه : ﴿وَإِمَّا﴾ مكونة من «إن» و«ما» مدغومتين ، وهنا يبين لنا الحق سبحانه أنه يعد الذين كذبوا رسوله ﷺ بالعذاب والهوان والعقاب والفضيحة .

أى : يا محمد ، إما أن ترى ما قلناه فيهم من خذلان وهوان ، وإما أن نتوفينَّك قبل أن ترى هذا فى الدنيا ، ولكنك ستراه فى الآخرة حين تشاهدهم فى الهوان الأبدى الذى يصيبهم فى اليوم الآخر .

وفى هذا تسرية لرسول الله ﷺ .

وقول الحق سبحانه:

﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ .. (٤٦) ﴾ أي: أن نريك ما وعدناهم من الخذلان والهوان في هذه الحياة، وإن لم تره في الحياة الدنيا فلسوف ترى هوانهم في الآخرة، حيث المرجع إلى الله تعالى؛ لأنه سبحانه سيصيبهم في أنفسهم بأشياء فوق الهوان الذي يُرى في الناس؛ كحسرة في النفس، وكَبْت للأسى حين يرون نصر المؤمنين.

أما الذي يُرى فهو الأمر الظاهر، أي: الخذلان، والهزيمة، والأسى، والقتل، وأخْذ الأموال، وسَبْي النساء والأولاد، أو غير ذلك مما سوف تراه فيهم - بعد أن تفيض روحك إلى خالقها - فسوف ترى فيهم ما وعدك الله به.

وأنت لن تحتاج إلى شهادة من أحد عليهم، لأنه سبحانه: ﴿ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ (٤٦) ﴾.

وكفاك الله سبحانه شهيداً: ﴿ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا (٧٩) ﴾ [النساء]

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ[1] وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٤٧) ﴾

(١) قسَطَ يقسط - كضرب - قسطاً وقسوطاً، وقسط يقسط قسطاً كنصر: ظلم أو عدل، من الأضداد، وتفهم بالقرائن، واستعمله القرآن بمعنى ظلم في قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا (١٥) ﴾ [الجن] وأقسط: عدل وأزال الظلم، واستعمله القرآن بمعنى العدل في قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ .. (٢٩) ﴾ [الأعراف]. والقسطاس: الميزان والعدل. «القاموس القويم».

والحق سبحانه لا يظلم أحداً ، ولا يعذب قوماً إلا بعد أن يكفروا بالرسول الذى أرسله إليهم ، وهو سبحانه القائل :

﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا [1] فِيهَا نَذِيرٌ (٢٤) ﴾ [فاطر]

وهو سبحانه القائل أيضاً :

﴿ لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ (١٣١) ﴾ [الأنعام] .

فلا تجريم ولا عقوبة إلا بنص وببيان لتجريم هذا الفعل أو ذاك ، بإرسال الرسل ؛ حتى لا يحتج أحد بأنه لم يصل إليه شيء يحاسب بمقتضاه .

والحق سبحانه هنا يبيِّن أن لكل أمة رسولاً يتعهدها بأمور المنهج .

وقد خلق الحق سبحانه كل الخلق، وكانوا موحِّدين منذ ذرية آدم - عليه السلام - ثم اقتضت الأحداث أن يتباعدوا، وانتشروا فى الأرض، وصارت الالتقاءات بعيدة ، وكذلك المواصلات ، وتعددت الآفات بتعدد البيئات .

ولكن إذا تقاربت الالتقاءات ، وصارت المواصلات سهلة ، فما يحدث فى الشرق تراه فى لحظتها وأنت فى الغرب ، فهذا يعنى توحُّد الآفات أو تكاد تكون واحدة ؛ لذلك كان لا بد من الرسول الخاتم ﷺ ، أما فى الأزمنة القديمة ، فقد كانت أزمنة انعزالية ، تحيا كل جماعة بعيدة عن الأخرى ؛ ولذلك كان لا بد من رسول لكل جماعة ؛ ليعالج داءات البيئة ، أمَا وقد التقت البيئات ، فالرسول الخاتم يعالج كل الداءات [2] .

---

(١) خلا : مضى وسلف . ومنه قوله تعالى : ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِى الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (٢٤) ﴾ [الحاقة] أي : الماضية .

(٢) وذلك لأن رسالة الإسلام هى جماع القيم لكل دين سابق ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِى إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِى إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ (١٣) ﴾ [الشورى] .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (٤٧) ﴾ [يونس]

وقد حكى التاريخ لنا ذلك ، فكل رسول جاء آمن به البعض ، وكفر به البعض الآخر ، والذين آمنوا به انتصروا ، ومَنْ كفروا به هُزِمُوا.

أو أن الآية عامة ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ﴾ أي : تُنادى كل أمة يوم القيامة باسم رسولها ، يا أمة محمد ﷺ ، ويا أمة موسى ، ويا أمة عيسى . . . إلخ .

والحق سبحانه يقول :

﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلاءِ شَهِيدًا [1] (٤١) يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الأَرْضُ وَلا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا (٤٢) ﴾ [النساء]

إذن : فالحق سبحانه هنا يبيِّن أن لكل أمة رسولاً جاءها بالبلاغ عن الله ، وقد آمن به مَنْ آمن ، وكفر به مَنْ كفر ، وما دام الإيمان قد حدث - وكذلك الكفر - فلا بد من القضاء بين المؤمنين والكافرين.

---

(١) عن عبد الله بن مسعود قال : قال لي رسول الله ﷺ : «اقرأ عليَّ » فقلت : يا رسول الله أقرأ عليك وعليك أنزل . قال : «نعم ، إني أحب أن أسمعه من غيرى » فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلاءِ شَهِيدًا (٤١) ﴾[النساء] فقال ﷺ : «حسبك الآن » فإذا عيناه تذرفان . أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٠٥٠) وأحمد فى مسنده (١/ ٣٨٠) .

واللغة تقول : الشهيد صيغة مبالغة فى الشاهد ، والشهيد من أسماء الله الحسنى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا (٣٣) ﴾ [النساء] وقوله : ﴿ وَلا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلا شَهِيدٌ ..(٢٨٢) ﴾ [البقرة] أى شاهد . والشهيد من قتل فى سبيل الله ، والشهادة : خبر قاطع ، والشاهد اسم فاعل وجمعه شهد وشهود . [القاموس القويم] .

لذلك يقول الحق سبحانه:

﴿ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (٤٧) ﴾ [يونس]

وما دام فى الأمر قضاء ، فلا بد أن المؤمن يَعتبر الكافر منازعاً له ، وأن الكافر يَعتبر المؤمن منازعاً له ، ويصير الأمر قضية تتطلب الحكم ؛ لذلك يقول الحق سبحانه:

﴿ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (٤٧) ﴾ [يونس]

أى: يُقضى بينهم بالعدل ، فالمؤمنون يتقصَّى الحق سبحانه حسناتهم ويزيدها لهم ، أما الكافرون فلا توجد لهم حسنات ؛ لأنهم كفروا بالله الحق ؛ فيوردهم النار ، وهم قد أبلغهم رسول الله ﷺ أنه سيأتى يوم يُسألون فيه عن كل شىء ، فاستبعدوا ذلك وقالوا:

﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (١٦) أَوَ آبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ (١٧) ﴾ [الصافات]

لقد تعجبوا من البعث وأنكروه ، لكنهم يجدونه حتماً وصدقاً.

ويشاء الحق سبحانه أن يُدخل عليهم هذه المسألة دخولاً إيمانياً ، فيقول:

﴿ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ .. (١٥) ﴾ [ق]

فأنتم إذا متُّم وتحلَّلتم فى التراب ، أيعجز الله سبحانه أن يخلقكم من جديد ؟ لا ؛ إنه سبحانه القائل:

﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ (٤) ﴾ [ق]

أى: أنه سبحانه يأمر العناصر الخاصة بكل إنسان أن تتجمَّع كلها ، وليس هذا بعسير على الله الذى خلقهم أولاً.

وهم قد كَذَّبوا واستنكروا واستهزأوا بمجيء يوم القيامة والبعث ، وبلغ استهزاؤهم أن استعجلوا [١] هذا اليوم ، وهذا دليل جهلهم ، وكان على الواحد منهم أن يفر من هول ذلك اليوم .

ولذلك يقول الحق سبحانه بعد ذلك على ألسنتهم :

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾

هذا الإنكار والتكذيب والاستهزاء هو منطق المشركين والملحدين [٢] فى كل زمان ومكان ، وفى العصر القريب قاله الشيوعيون عندما قاموا بثورتهم الكاذبة ، وذبحوا الطبقة العليا فى المجتمع بدعوى رفع الظلم عن الفقراء .

وإذا ما كانوا قد آمنوا بضرورة الثواب والعقاب ، فمن الذى يحكم ذلك ؟ هل الظالم يحكم على ظالم ، فتكون النتيجة أن الظالم سيهلك بالظالم ، وقد حدث ، فأين الشيوعيون الآن ؟

لماذا لم يلتفتوا إلى أن لهذا الكون خالقاً يعاقب من ظلموا من قبل ، أو من يظلمون من بعد ؟

إنهم لم يلتفتوا ؛ لأنهم اتخذوا المادة إلهاً ، وقالوا : لا إله ، والحياة مادة ، فأين هم الآن ؟

وإن كنتم قد تملّكتم فى المعاصرين لكم ، وادعيتم أنكم نشرتم العدل بينهم ، فماذا عن الذين سبقوا ، والذين لحقوا ؟

---

(١) وقد قال رب العزة عنهم : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ ..﴿٤٧﴾ ﴾ [الحج] ، ويقول سبحانه فى آية أخرى : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ ..﴿٥٣﴾ ﴾ [العنكبوت] .

(٢) الملحدون : جمع ملحد ، وهو الطاعن فى الدين ، المائل عنه . قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا ..﴿٤٠﴾ ﴾ [فصلت] . [المعجم الوسيط : مادة (لحد)] .

هم - إذن - لم يلتفتوا إلى أن الله سبحانه وتعالى قد شاء ألا يموت ظالم إلا بعد أن ينتقم الله منه[١] .

وهم لم يلتفتوا إلى أن وراء هذه الدار داراً أخرى يجُازَى فيها المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته.

وكان المنطق يقتضى أن يؤمن هؤلاء بأن لهذا الكون إلهاً عادلاً ، ولابد أن يجيء اليوم الذى يجازى فيه كل إنسان بما عمل ، ولكنهم سخروا مثل سخرية الذين كفروا من قبلهم ، وجاء خبرهم فى قول الله سبحانه على ألسنتهم : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٤٨) ﴾ [يونس]

ولكن وعد الله حق ، ووعد الله قادم ، ومحمد ﷺ رسول من الله ، يبلغ ما جاء من عند الله تعالى ، فرسول الله ﷺ لا يملك لنفسه شيئاً.

ولذلك يقول القرآن بعد ذلك :

﴿ قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۚ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٤٩) ﴾

والرسول ﷺ يبرِّىء نفسه من كل حَوْل وطَوْل [٢] ، ويعلن ما أمره الحق

---

(١) يقول الحق : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ (٤٢) مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ (٤٣) ﴾ [إبراهيم] ، ويقول الرسول ﷺ : «إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته» .

(٢) الحَوْل : الحذق وجودة النظر والقدرة على دقة التصرف فى الأمور.
والطول : الفضل والغنى واليسر. قال تعالى : ﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم .. (٢٥) ﴾ [النساء]. [المعجم الوسيط].

سبحانه أن يعلنه ، فهو ﷺ لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ؛ لأن النفع أو الضر بيد خالقه سبحانه ، وهو سبحانه وتعالى خالقكم ، وكل أمر هو بمشيئته سبحانه .

وهذه الآية جاءت رداً على سؤالهم الذى أورده الحق سبحانه فى الآية السابقة : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٤٨) ﴾ [يونس]

لقد تساءلوا بسخرية عن هذا الوعد بالعذاب ، وكأنهم استبطأوا نزول العذاب تهكُّماً ، وهذا يدل على أن قول الحق سبحانه :

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (٤٧) ﴾ [يونس]

هذه الآية لم تنزل ليوم القيامة ، بل نزلت لتوضح موقف مَنْ كفروا برسول الله ﷺ والذين قالوا بعد ذلك :

﴿ مَتَىٰ هَـٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٤٨) ﴾ [يونس]

وهذا يعنى أنهم قالوا هذا القول قبل أن تقوم القيامة ، والآية التى توضح أن لكل أمة رسولاً تؤيدها آيات كثيرة ، مثل قوله سبحانه :

﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً (١٥) ﴾ [الإسراء]

وكذلك قول الحق سبحانه :

﴿ لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ (١٣١) ﴾ [الأنعام]

وكذلك قول الحق سبحانه :

﴿ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً .. (١٣٤) ﴾ [طه]

وكل ذلك يؤيد أن الرسول المرسل إلى الأمة هو الرسول الذى جاء بمنهج الله تعالى ؛ فآمن به قوم ، وكذَّب به آخرون ، وقضى الله بين المؤمنين والكافرين بأن خذل الكافرين ونصر المؤمنين.

وإن استبطأ الكافرون الخذلان فلسوف يرونه ؛ ولذلك أمر الحق سبحانه رسوله ﷺ :

﴿ قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلا نَفْعًا .. (٤٩) ﴾ [يونس]

أى : أنكم إن كنتم تسألون محمداً ﷺ عن الضر والنفع ، فهو ﷺ مبلِّغ عن الله تعالى ، ولا يملك لنفسه ضَرّاً ولا نفعاً ، فضلاً عن أن يملك لهم هم ضَرّاً أو نفعاً ، وكل هذا الأمر بيد الله تعالى ، ولكل أمة أجلٌ [1] ينزل بالذين كفروا فيها بالعذاب ، ويقع فيها القول الفصل.

وقول الحق سبحانه :

﴿ إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ..(٤٩) ﴾ [يونس]

يفيد أن مشيئة الله هى الفاصلة ، ويدل على أن النبى والناس لا يملكون لأنفسهم الضر أو النفع ؛ لأن الإنسان خُلق على هيئة القَسْر [2] فى أمور ، وعلى هيئة الاختيار فى أمور أخرى ، والاختيار هو فى الأمور التكليفية

---

(١) الأجل - مدة الشىء ، وغاية الوقت ووقت الحياة ، أو وقت الدين أو وقت العمل . والأجل نفس الوقت الذى أجل له الأمر : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الأَجَلَ ..(٢٩) ﴾ [القصص] أى : أتم المدة المحددة له ، وأجّل الشىء : حدد له أجلاً مستقبلاً : ﴿ لأَىِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ (١٢) ﴾ [المرسلات] أى : حد الموت أو الهرم وقوله : ﴿ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ ..(٢) ﴾ [الأنعام] الأول : هو مدة البقاء فى الدنيا ، والثانى : هو مدة البقاء فى القبور إلى يوم القيامة ، أو مدة الحياة الآخرة ، وقوله : ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ ..(٢٣٤) ﴾ [البقرة] . أى : نهاية مدة العدة . والآجل ضد العاجل ، والآجلة ضد العاجلة . [القاموس القويم] .

(٢) القسر : القهر والإجبار .

مصداقاً لقوله سبحانه: ﴿ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ .. (٢٩) ﴾ [الكهف]

وأنت حُــرٌّ فى أن تطيع أو أن تعــصى ، وكل ذلك داخل فى نطاق اختيارك ، وإن صنع الإنسان طاعة ، فهو يصنع لنفسه نفعاً ، وإن صنع معصية ، صنع لنفسه ضَرّاً .

إذن: فهناك فى الأمور الاختيارية ضر ونفع .

ومثال ذلك: من ينتحر بأن يشنق نفسه ، فهو يأتى لنفسه بالضر ، وقد ينقذه أقاربه ، وذلك بمشيئة الله سبحانه .

إذن: ففى الأمور الاختيارية يملك الإنسان - بمشيئة الله - الضر أو النفع لنفسه ، والله سبحانه يبين لنا أن لكل أمة أجلاً ، فلا تحددوا أنتم آجال الأمم ؛ لأن آجالهم - استئصالاً ، أو عذاباً - هى من عند الله سبحانه وتعالى .

والعباد دائماً يعجلون ، والله لا يعجل بعجلة العباد ، حتى تبلغ الأمور ما أراد سبحانه ، فالله تعالى مُنزَّه أن يكون موظفاً عند الخلق ، بل هو الخالق الأعلى سبحانه وتعالى .

وهو سبحانه القائل:

﴿ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلا تَسْتَعْجِلُونِ (٣٧) ﴾ [الأنبياء]

وهو سبحانه القائل:

﴿ وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً [1] (١١) ﴾ [الإسراء]

---

(١) عَجُولاً: صيغة مبالغة تفيد التعجّل فى الأمور . واستعجل الأمر طلبه عاجلاً سريعاً ، قال تعالى : ﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ .. (١١) ﴾ [يونس] والعاجل : السريع ضد الآجل ، والعاجلة الدنيا ، والآجلة الآخرة ، يقول الحق : ﴿ كَلاَّ بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ (٢٠) ﴾ [القيامة] . أى : الدنيا ، وعجل الأمر طلبه قبل أوانه بدافع الشهوة ، وعجل الأمر سبقه . قال الحق سبحانه : ﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ .. (١٥٠) ﴾ [الأعراف] .

إذن : فالحق سبحانه يؤخِّر مراداته رحمة بالخَلْق ، وإذا جاء الأجل فهو لا يتأخر عن ميعاده ، ولا يتقدم عن ميعاده .

لذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلا يَسْتَئْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ (٤٩) ﴾ [يونس]

وقوله سبحانه : ﴿يَسْتَقْدِمُونَ﴾ ليست من مدخلية جواب الشرط الذى جاء بعد ﴿ إِذَا [1] جَاءَ أَجَلُهُمْ ..(٤٩) ﴾ [يونس]

لأن الجواب هو : ﴿فَلا يَسْتَئْخِرُونَ﴾ .

فهم لا يستقدمون قبل أن يحين الأجل .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ (٥٠) ﴾

وهذا رَدٌّ شاف على استعجالهم للعذاب ، فإن جاءكم العذاب فَلْنَرَ ماذا سيكون موقفكم ؟

وهُمْ باستعجالهم العذاب يبرهنون على غبائهم فى السؤال عن وقوع العذاب .

وقول الحق سبحانه : ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ . أى : أخبرونى عما سوف يحدث لكم .

---

(١) إذا : تأتى لمعنيين شرطية وفجائية . إذا الشرطية : اسم شرط للزمن المستقبل ، فتختص بالدخول على الجملة الفعلية ، وتعرب إذا ظرف لما يستقبل من الزمان خافض لشرطه منصوب بجوابه ، قال تعالى : ﴿ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ ..(٥٤) ﴾ [الأنعام] ، وتدخل أحياناً على الأسماء المرفوعة ، فيكون المرفوع بعدها فاعلاً لفعل محذوف يفسره الفعل الذى بعده مثل : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ (١) ﴾ [الانشقاق] أى : إذا انشقت السماء ، وإذا تكون حرفاً للمفاجأة ، وتخفض بالجملة الإسمية ، قال تعالى : ﴿ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ (٢٠) ﴾ [طه] « القاموس القويم » .

وشاء الحق سبحانه أن يأتى أمر العذاب هنا مبهماً من جهة الزمان فقال سبحانه:

﴿إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا ..(٥٠)﴾ [يونس]

والبيات مقصود به الليل؛ لأن الليل محل البيتوتة، والنهار محل الظهور.

والزمن اليومى مقسوم لقسمين: ليل، ونهار.

وشاء الحق سبحانه إبهام اليوم والوقت، فإن جاء ليلاً، فالإنسان فى ذلك الوقت يكون غافلاً نائماً فى الغالب، وإن جاء نهاراً، فالإنسان فى النهار مشغول بحركة الحياة.

والحق سبحانه يقول فى موضع آخر:

﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا [1] بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ (٩٧)﴾ [الأعراف]

ويقول سبحانه:

﴿أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٩٨)﴾ [الأعراف]

ولو نظرت إلى الواقع لوجدت أن العذاب يأتى فى الليل وفى النهار معاً؛ لأن هناك بلاداً يكون الوقت فيها ليلاً، وفى ذات الوقت يكون الزمن نهاراً فى بلاد أخرى.

وإذا جاء العذاب بغتة، وحاولوا إعلان الإيمان، فلن ينفعهم هذا

---

(١) بأسنا: عذابنا والبأس القوة، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ .. (٢٥)﴾ [الحديد]، أى: قوة وصلابة، وقوله تعالى: ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا ..(٨٤)﴾ [النساء] شدتهم وقوتهم فيصدهم عنكم، وقوله الحق: ﴿وَحِينَ الْبَأْسِ ..(١٧٧)﴾ [البقرة]، أى: وقت الحرب الشديدة، وقول الحق: ﴿وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ.. (٨١)﴾ [النحل]، أى: شدتكم وقوتكم فى الحرب، فتحفظكم الدروع من أخطار الحرب. والبأساء: الفقر والشدة، ويقول الحق: ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ .. (١٧٧)﴾ [البقرة] فى وقت الفقر والحاجة.

الإيمان ؛ لأن الحق سبحانه يقول فيمن يتخذ هذا الموقف :

﴿ آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١) ﴾ [يونس]

فإن جاءكم العذاب الآن لما استقلتم منه ؛ لأنه لن ينفعكم إعلان الإيمان ، ولن يقبل الله منكم ، وبذلك يصيبكم عذاب فى الدنيا ، بالإضافة إلى عذاب الآخرة ، وهذا الاستعجال منكم للعذاب يضاعف لكم العذاب مرتين ، فى الدنيا ، ثم العذاب الممتد فى الآخرة .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ (٥١) ﴾

أى: إذا ما وقع العذاب فهل ستؤمنون؟

إن إعلان إيمانكم فى هذا الوقت لن يفيدكم ، وسيكون عذابكم بلا مقابل.

إذن: فاستعجالكم للعذاب لن يفيدكم على أى وضع ؛ لأن الإيمان لحظة وقوع العذاب لا يفيد .

ومثال ذلك: فرعون[1] حين جاءه الغرق ﴿ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ الَّذِى

---

(١) وذلك أن فرعون خرج فى جيش كبير يقدر بمائة ألف ولحق بموسى عند حافة البحر وقت شروق الشمس ، فأوحى الله إلى موسى أن يضرب البحر بعصاه : ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣) ﴾ [الشعراء] ، ثم يقول سبحانه : ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠) ﴾ [يونس]

وعن ابن عباس أن النبى ﷺ قال : « لما أغرق الله فرعون قال : آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل . قال جبريل : يا محمد فلو رأيتنى وأنا آخذ من حال البحر (أى : طين البحر) فأدسه فى فيه (أى : فمه) مخافة أن تدركه الرحمة » أخرجه الترمذى فى سننه و قال : حديث حسن . وانظر تفسيرى ابن كثير (٢/ ٤٣٠) والقرطبى (٤/ ٣٣٠٥) .

آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ ..(٩٠)﴾ [يونس]

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ[1] هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ (٥٢)﴾

وهذا إخبار عن العذاب القادم لمن كفروا ويلقونه فى اليوم الآخر ، فهم بكفرهم قد ظلموا أنفسهم فى الدنيا ، وسيلقون العذاب فى الآخرة ، وهو ﴿عَذَابَ الْخُلْدِ﴾ أى : عذاب لا ينتهى .

وينهى الحق سبحانه الآية بقوله : ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ .

أى : أن الحق سبحانه لم يظلمهم ، فقد بلغهم برسالة الإيمان عن طريق رسول ذى معجـزة ، ومعه منـهج مفصَّل مؤيَّد ، وأمهلهم مدة طويلة ، ولم يستفيدوا منها ؛ لأنهم لم يؤمنوا .

إذن : فسيلقون عذاب الخلد ، وقد جاء سبحانه هنا بخبر عذاب الخلد ؛ لأن عذاب الدنيا موقوت ، فيه خزى وهوان ، لكن محدوديته فى الحياة يجعله عذاباً قليلاً بالقياس إلى عذاب الآخرة المؤبد .

وجاء الحق سبحانه بأمر عذاب الخلد كأمر من كسبهم ، والكسب زيادة عن الأصل ، فمن يتاجر بعشرة جنيهات ، قد يكسب خمسة جنيهات .

وهنا سؤال : هل الذى يرتكب معصية يكسب زيادة عن الأصل؟

نعم ؛ لأن الله سبحانه حرَّم عليه أمراً ، وحلله هو لنفسه ، فهو يأخذ

---

(١) الخلد : الدوام ، والمراد أنه عذاب دائم . [اللسان : مادة (خ ل د)].

زيادة فى التحليل ، وينقص من التحريم وهو يظن أنه قد كسب [(١)] بمفهومه الوهمى الذى زين له مراد النفس الأمارة ، وهذا يعنى أنه ينظر إلى واقع اللذة فى ذاتها ، ولا ينظر إلى تبعات [(٢)] تلك اللذة ، وهو يظن أنه قد كسب ، رغم أنه خاسر فى حقيقة الأمر .

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِى [(٣)] وَرَبِّى إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ [(٤)] ۝٥٣ ﴾

وهم قد قالوا من قبل : ﴿ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ .. ۝٤٨ ﴾ [يونس]

وهم هنا قد عادوا للتساؤل . ﴿وَيَسْتَنبِئُونَكَ﴾ أى : يطلبون منك النبأ . والنبأ هو الخبر المتعلق بشىء عظيم ، وهم يطلبون الخبر منك يا رسول الله ويتساءلون : أهو حق ؟

وكلمة «حق» هنا لها معطيات كثيرة ؛ لأن ﴿هُوَ﴾ يمكن أن تعود على أصل الدين قرآناً ؛ ونبوةً ، وتشريعاً ، وهى كلمة تحمل التصديق بأن القرآن حق ، والتشريع حق ، والنبوة لمحمد ﷺ حق ، والقيامة والبعث حق ، والكلام عن العذاب فى الدنيا بخذلانهم ونصرة المؤمنين عليهم حق .

---

(١) قال الله تعالى : ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ .. ۝٢٨٦ ﴾ [البقرة] فالذى يحلل الحرام وأدخله على نفسه عليه أن يتحمل التبعات المترتبة على هذا ، فله بعمله الصالح الكسب ، وعليه بعمله السيء جزاء ما اكتسب .

(٢) تبعة الشىء : نتيجته وعاقبته وما يترتب عليه من أثر . [المعجم الوسيط : مادة (ت ب ع)] .

(٣) إى : نعم . حرف جواب .

(٤) أى : أنكم لن تُعجزوا الله عن أن يعيدكم بعد موتكم وأن يحشركم وأن يعذبكم بما كنتم تكسبون .

إذن: فقولهم: ﴿وَيَسْتَنبِئُونَكَ[1] أَحَقٌّ هُوَ .. (٥٣)﴾ لها أكثر من مرجع، كأنهم سألوا: هل القرآن الذى جئت به حق ؟

وهل النبوة التى تدَّعيها حق ؟

وهل الشرائع - التى تقول: إن الله أنزلها كمنهج يحكم حركة الإنسان - حق ؟

وهل القيامة والبعث حق؟

وهل العذاب فى الدنيا حق؟

إنها كلمة شاملة يمكن أن تؤول إلى أكثر من معنى.

ويأتى الجواب من الله تعالى:

﴿قُلْ إِى وَرَبِّى إِنَّهُ لَحَقٌّ .. (٥٣)﴾ [يونس]

وأنت حين يستفهم منك أحد قائلاً: هل زيد موجود؟ فأنت تقول: نعم موجود. ولا تقول له: والله إن زيداً موجود ؛ لأنك لن تؤكد الكلام لمن يسألك ؛ لأنه لا ينكر وجود زيد.

إذن: فأنت لن تؤكد إجابةً ما إلا إذا كان هناك فى السؤال شبهة إنكار.

إذن: فأنت تستدل من قول الحق سبحانه:

---

(١) النبأ: الخبر، أو الخبر ذو الشأن، قال تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (١) عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ (٢)﴾ [النبأ] وهذا النبأ هو البعث. وأنبأه بالشىء ونبأه به: أخبر به، وأنبأ يتعدى لمفعول به واحد، مثل قوله تعالى: ﴿أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ .. (٣٣)﴾ [البقرة]، ويتعدى لمفعولين مثل: ﴿قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هَٰذَا .. (٣)﴾ [التحريم]، وقد يتعدى بحرف الجر (عن) كقوله: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ (٥١)﴾ [الحجر] أى: حدثهم. واستنبأه: طلب أن ينبئه كقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِى وَرَبِّى إِنَّهُ لَحَقٌّ .. (٥٣)﴾ [يونس].

﴿ وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ..(٥٣)﴾ على أن سؤالهم يحمل معانى الإنكار والاستهزاء ؛ ولذلك جاء الجواب بـ «إى»[1] وهو حرف جواب يعنى : «نعم» ، وتأتى «إى» دائماً مع القسم .

ولكل حرف من حروف الجواب مقام ، فهناك «بلى» وهى تأتى فى جواب سؤال منفى ، فى مثل قوله تعالى :

﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ ..(١٧٢)﴾ [الأعراف]

وقول الحق سبحانه هنا : ﴿ إِى وَرَبِّى .. (٥٣)﴾ [يونس]

تعنى : نعم وأقسم بربى إنه لحق . وأنت لا تُقسم على شىء إلا إذا كان السائل عنده شبهة إنكار ، وتأتى بـ «إن» لمزيد من هذا التأكيد .

ومثال ذلك فى قوله سبحانه :

﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ[2] إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (١٣) إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا[3] بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ (١٤)﴾ [يس]

وماذا كان رد من بُعث اليهم الثلاثة؟

﴿ قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ (١٥)﴾ [يس]

هكذا كان إنكار المكذبين للرسل الثلاثة شديداً . فقال لهم الرسل :

---

(١) إى : حرف جواب ، مثل نعم . ويقع بعد القسم كقوله تعالى : ﴿ وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِى وَرَبِّى إِنَّهُ لَحَقٌّ ..(٥٣)﴾ [يونس] .

(٢) قيل : هى أنطاكية ، بين سوريا وتركيا وقد تكون قرية أخرى ، وكان ملكها يعبد الأصنام ، فبعث الله تعالى إليه ثلاثة من الرسل فكذَّبهم . من تفسير ابن كثير (٣/ ٥٦٨) بتصرف .

(٣) عزَّزنا : أيَّدنا وقوَّينا .

﴿ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (١٦) ﴾ [يس]

فكان قولهم هذا مناسباً لإنكار الكافرين الشديد.

إذن: فالتأكيد فى أسلوب المسئول إنما يأتى على مقدار الإنكار، فإن لم يكن هناك إنكار؛ فلا يحتاج الأمر إلى تأكيد.

أما إذا صادف الكلام إنكاراً قليلاً، فالتأكيد يأتى مرة واحدة.

وإن صادف الكلام لجاجة فى الإنكار جاء التأكيد مرتين.

أما إذا ما صادف الكلام تبجُّحاً فى الإنكار فالتأكيد يأتى ثلاث مرات.

وقد علَّم الحق سبحانه رسوله ﷺ هنا أن يرد على استنبائهم بأن يقول لهم: ﴿ إِى وَرَبِّى إِنَّهُ لَحَقٌّ.. (٥٣) ﴾ [يونس]

وهنا يقسم الرسول ﷺ بالرب؛ لأن الرب هو من كلَّفه، ثم يؤكد ﴿إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ لأن سؤالهم تضمَّن الإنكار والاستهزاء.

وما دام قد قال: ﴿ إِى وَرَبِّى إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ فهم إن لم يؤمنوا فسوف يلقون العذاب؛ لأنه ليس هناك مَنْجًى من الله تعالى، ولن تُعْجزوا الله هرباً، ولن تعجزوه شفاعة من أحد، ولن تعجزوه بيعاً، ولن تعجزوه خُلَّة تتقدم لتشفع لكم.

ثم يأتى قوله سبحانه فى نهاية الآية:

﴿ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ (٥٣) ﴾ [يونس]

وقد أراد الحق سبحانه أن يفسر لمحة من الإعجاز، ذلك أن الله سبحانه وتعالى من الممكن أن يقبل شفاعة الشافعين، ومن الممكن أن يقبل

الفداء [١] ؛ ولذلك جاء الإيضاح فى الآية التالية ، فيقول سبحانه :

﴿ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ ۗ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ [٢] لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ ۖ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾

وساعة يأتى العذاب فالإنسان يرغب فى الفرار منه ، ولو بالافتداء .

وانظر كيف يحاول الإنسان أن يتخلص من كل ما يملك افتداء لنفسه ، حتى ولو كان يملك كل ما فى السموات وما فى الأرض [٣] .

ولكن هل يتأتى لأحد - غير الله سبحانه - أن يملك السموات والأرض؟

طبعاً لا .

إذن : فالشر لا يتأتَّى . وهَبْ أنه تأتَّى ، فلن يصلح الافتداء بملك ما فى السموات وما فى الأرض ؛ لأن الإنسان الظالم فى الدنيا قد أخذ حق الغير ، وهذا الغير قد كسب بطريق مشروع ما أخذه الظالم منه ، والظالم إنما يأخذ ثمرة عمل غيره ، ولو صحَّ ذلك لتحوَّل البعض إلى مغتصبين لحقوق الغير ، ولأخذوا عرق وكدح غيرهم ، ولتعطلت حركة الحياة .

---

(١) الفداء : ما يقدم من مال ونحوه لتخليص المفدى . قال تعالى : ﴿ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [الصافات] .
[المعجم الوسيط : مادة (ف د ى)] .

(٢) ندم على ما فعل يندم ندماً وندامة ، من باب فرح : أسف وتحسر وتمنى أنه لم يفعله ، قال تعالى : ﴿ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ .. ﴿٥٤﴾ ﴾ [يونس] ونادم اسم فاعل قال الحق : ﴿ فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ .. ﴿٣١﴾ ﴾ [المائدة]

(٣) يقول سبحانه : ﴿ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ ﴾ [المعارج] .

ولذلك إن لم يردع الله - سبحانه وتعالى - الظالم فى الدنيا قبل الآخرة لاستشرى الظلم ، وإذا استشرى الظلم فى مجتمع ، فالبطالة تنتشر فيه ، ويحاول كل إنسان أن يأخذ من دم وعرق غيره ، وبهذا يختلّ ميزان العدل وتفسد حركة الحياة كلها.

وهَبْ أن الظالم أخذ مُلْك الدنيا كلها ، وأراد أن يفتدى به نفسه ساعة يأتى العذاب ، ويفاجأ بأن كسبه من حرام لا يُقْبَل فداءً ، أليس هذا هو الخسران الكبير؟ وهذه ظاهرة موجودة فى دنيا الناس.

وهَبْ أن واحداً ارتشى أو اختلس أو سرق ، ويفاجئه القانون ليمسكه من تلابيبه [(١)] فيقول: خذوا ما عندى واتركونى. ولن يقبل القائمون على القانون ذلك. وإن كان مثل هذا التنازل يحدث فى (الجمارك) فنرى من يتنازل عن البضائع المهربة مقابل الإفراج عنه ، هذا ما يحدث فى الدنيا ، لكنه لن يحدث فى الآخرة.

وفى سورة البقرة يقول الحق سبحانه:

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ [(٢)] وَلا هُمْ يُنصَرُونَ (٤٨)﴾ [البقرة]

وقال الحق سبحانه فى آية أخرى:

---

(١) التلابيب: مجامع ثياب الرجل. والتلبيب: هو جمع الثوب الذى يلبسه عند صدره ونحْره ، وجرّه. [اللسان مادة لبب].

(٢) العدل: الفدية المماثلة ، قال تعالى: ﴿وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ ..(٤٨)﴾ [البقرة] أى: لا ينجيها من العذاب دفع فدية مماثلة ولا تقبل منها. وعدل الشىء وعدّله أقامه وسواه ، قال الحق: ﴿الَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (٧)﴾ [الانفطار] وعدل المشرك بربه: جعل له مساوياً. قال تعالى: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ..(١)﴾ [الأنعام] وما كان ينفى أن يعدلوا غيره ، فليس كمثله شىء ، ومثلها قوله: ﴿أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (٦٠)﴾ [النمل] أى: يجعلون له شريكاً مساوياً. وأما قوله: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (١٨١)﴾ [الأعراف] أى: يحكمون بالعدل [القاموس القويم].

﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ (١٢٣) ﴾ [البقرة]

وقال بعض المشككين أن الآيتين متشابهتان ، ولم يلتفتوا إلى أن كل آية تختلف عن الأخرى فى التقديم للعدل ، والتأخير للشفاعة.

والبلاغة الحقَّة تتجلَّى فى الآيتين ؛ لأن القارىء لصَدْر كل آية منهما ، والفاهم للمَلَكة اللغوية العربية يعرف أن عَجُز كل آية يناسب صدرها.

ومن يقرأ قول الحق سبحانه:

﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ .. (٤٨) ﴾ [البقرة]

يرى أنه أمام نفسين : النفس [1] الأولى هى التى تقدِّم الشفاعة ، والنفس الثانية هى المشفوع لها. والشفاعة هنا لا تُقبل من النفس الأولى الشافعة ، وكذلك لا يُقبل العدل .

وفى الآية الثانية لا تُقبل الشفاعة ولا العدل من النفس المشفوع لها ، فهى تحاول أن تقدم العدل أولاً ، ثم حين لا ينفعها تأتى بالشفيع.

وهكذا جاء التقديم والتأخير فى الآيتين مناسباً للموقف فى كل منهما.

وهنا يقول الحق سبحانه:

﴿ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى الأَرْضِ لافْتَدَتْ بِهِ .. (٥٤) ﴾ [يونس]

وفى هذا القول تعذُّر مِلْك النفس الواحدة لكل ما فى الأرض ، ولو افترضنا أن هذه النفس ملكته فلن تستطيع الافتداء به ؛ وتكون النتيجة هى ما يقوله الحق سبحانه:

---

(١) فالآية الأولى تتحدث عن عدم القبول من النفس الشافعة ، والآية الثانية تتحدث عن عدم قبول العدل أولاً والشفاعة ثانياً من النفس المشفوع لها ، هذا ما يفهم من مرادات الشيخ رضى الله عنه .

﴿ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ ..(٥٤) ﴾ [يونس]

أي: أخفوا الحسرة التي تأتي إلى النفس، وليس لها ظاهر من انزعاج لفظي أو حركي.

إن كلاً منهم يكتم هَمَّه في قلبه؛ لأنه ساعة يرى العذاب ينبهر ويُصعَق ويُبهَت[1] من هول العذاب، فتجمد دماؤه، ولا يستطيع حتى أن يصرخ، وهو بذلك إنما يكبت ألمه في نفسه؛ لأن هول الموقف يجمِّد كل دم في عروقهم، ويخرس ألسنتهم، ولا يستطيع أن ينطق؛ لأنه يعجز عن التعبير الحركي من الصراخ أو الألم.

ونحن نعلم أن التعبير الحركي لون من التنفيس البدني، وحين لا يستطيعه الإنسان، فهو يتألم أكثر.

هم - إذن - يُسرُّون الندامة حين يرون العذاب المفزع المفجع، والكلام هنا عن الظالمين، وهم على الرغم من ظلمهم، فالحق سبحانه يقول:

﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ[2] وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (٥٤) ﴾ [يونس]

وهؤلاء رغم كفرهم واستحقاقهم للعذاب يلقون العدل من الله، فَهَبْ أن كافراً بالله بمنأى عن الدين ظلم كافراً آخر، أيقف الله سبحانه من هذه المسألة موقفاً محايداً؟

لا؛ لأن حق خَلْق الله سبحانه - الكافر المظلوم - يقتضي أن يقتص الله سبحانه له من أخيه الكافر الظالم؛ لأن الظالم الكافر، إنما ظلم مخلوقاً لله، حتى وإن كان هذا المظلوم كافراً.

ولذلك يقضي الله بينهم بالحق، أي: يخفِّف عن المظلوم بعضاً من

---

(١) يبهت: أي: يتملكه هول ما يحدث؛ فينقطع عن الكلام أو غيره.

(٢) القسط: المراد به هنا العدل.

العذاب بقدر ما يثقله على الظالم .

هذا هو معنى ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم﴾ لأنها تتطلب قضاء ، أى: عدم تحيز ، وتتطلب الفصل بين خصومتين.

ويترتب على هذا القضاء حكم ؛ لذلك يبين لنا الحق سبحانه أنهم - وإن كانوا كافرين به - إلا أنه إن وقع من أحدهم ظلم على الآخر ، فالحق رب الجميع وخالق الجميع ، كما أعطاهم بقانون الربوبية كل خير مثلما أعطى المؤمنين ، فهو سبحانه الذى أعطى الشمس ، والماء ، والهواء ، وكل وسائل الرزق والقُوت لكل الناس - مؤمنهم ، وكافرهم - فإذا ما حدث ظلم بين متدينين بدين واحد ، أو غير متدينين ، فلا بد أن يقضى فيه الحق سبحانه بالفصل والحكم بالعدل.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ[1] حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾﴾

و«ألا» فى اللغة يقال عنها «أداة تنبيه» وهى تنبه السامع أن المتكلم سيقول بعدها كلاماً فى غاية الأهمية ، والمتكلم - كما نعلم - يملك زمام لسانه ، بحكم وضعه كمتكلم ، لكن السامع يكون فى وضع المُفاجَأ.

وقد يتكلم متكلم بما دار فى ذهنه ليبرزه على لسانه للمخاطب ، ولكن المخاطب يفاجأ ، وإلى أن ينتبه قد تفوته كلمة أو اثنتان مما يقوله المتكلم.

---

(١) وعده شيئاً يعده وعداً وعدة : أخبره أنه سيحققه له أو سيعطيه إياه ، يتعدى لمفعولين ، وقد يحذف أحد المقولين للعلم به ، قال الحق : ﴿وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ .. ﴿٩٥﴾﴾ [النساء] كلا : مفعول به أول مقدم ، والحسنى مفعول به ثان . أى : أخبرهم الله أنه سيعطيهم أحسن الدرجات ، والوعد يأتى للخير كثيراً ، وللشر أحياناً كما فى قوله : ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ ..﴿٢٦٨﴾﴾ [البقرة] أى : ينذركم ويخوِّفكم بالشر ، والفعل متعدّ لمفعولين « كم» مفعول أول ، والفقر مفعول ثان . [القاموس القويم - بتصرف] .

والله سبحانه وتعالى يريد ألاَّ يفوت السامع لقوله أى كلمة ، فأتى بأداة تنبيه تنبه إلى الخبر القادم بعدها ، وهو قول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. (٥٥) ﴾ [يونس]

هكذا شاء الحق سبحانه أن تأتى أداة التنبيه سابقة للقضية الكلية ، وهى أنه سبحانه مالك كل شىء ، فهو الذى خلق الكون ، وخلق الإنسان الخليفة ، وسخَّر الكون للإنسان الخليفة ، وأمر الأسباب أن تخضع لمسببات عمل العامل ؛ فكل من يجتهد ويأتى بالأسباب ؛ فهى تعطيه ، سواء أكان مؤمناً أو كافراً.

وإذا خدمت الأسبابُ الإنسانَ ، وكان هذا الإنسان غافلاً عن ربه أو عن الإيمان به ، ويظن أن الأسباب قد دانت له بقوته ، ويفتن بتلك الأسباب ، ويقول مثلما قال قارون:

﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ (١) عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِى ..(٧٨) ﴾ [القصص]

فالذى نسى مسبِّب الأسباب ، وارتبط بالأسباب مباشرة ، فهو ينال العذاب ، إن لم يكن فى الدنيا ففى الآخرة ؛ فكأن الحق سبحانه ينبههم: تَنبَّهوا أيها الجاهلون ، وافهموا هذه القضية الكبرى: ﴿ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ.. (٥٥) ﴾ [يونس]

فإياك أيها الإنسان أن تغترَّ بالأسباب ، أو أنك بأسبابك أخذت غير ما يريده الله لك ، فهو سبحانه الذى أعطاك وقدَّر لك ، وكل الأسباب

---

(١) وقد قال سبحانه : ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦) ﴾ [القصص]. وقارون هو ابن عم موسى عليه السلام ، أعطاه الله من الأموال المودعة فى الخزائن حتى أن مفاتيحها لا تستطيع الجماعة من الناس حملها لكثرتها وثقلها ، فأهلكه الله ببغيه وفرحه بماله وتعظمه على الناس ، وقوله : ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِى .. (٧٨) ﴾ [القصص] فكان جزاؤه : ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ (٨١) ﴾ [القصص] .

تتفاعل لك بعطاء وتقدير من الله عز وجل.

وفى أغيار الكون الدليل على ذلك ، ففكرك الذى تخطِّط به قد تصيبه آفة الجنون ، والجوارح مثل اليد أو القدم أو اللسان أو العين أو الأذن قد تُصاب أيٌّ منها بمرض ؛ فلا تعرف كيف تتصرف.

وكل ما تأتى فيه الأغيار ؛ فهو ليس من ذاتك ، وكل ما تملكه موهوب لك من مسبِّب الأسباب.

فإياك أن تنظر إلى الأسباب ، وتنسى المسبِّب ؛ لأن لله ملك الأشياء التى تحوزها والأدوات التى تحوز بها ؛ بدليل أنه سبحانه حين يشاء يسلبها منك ، فتنبه أيها الغافل ، وإياك أن تظن أن الأسباب هى الفاعلة ، بدليل أن الله سبحانه وتعالى يخلق الأسباب ؛ ثم يشاء ألا تأتى بنتائجها ، كمن يضع بذور القطن - مثلاً - ويحرث الأرض ، ويرويها فى مواعيدها ، ثم تأتى دودة القطن لتأكل المحصول.

إذن : فمردُّ كل مملوك إلى الله تعالى.

واعلمْ أن هناك مِلْكاً ، وأن هناك مُلْكاً ، والمِلْك[1] هو ما تملكه ؛

---

(١) الملك : فى الأعيان والمحسوسات حقيقة ، وفى المعانى مجاز ، فمن الملك الحقيقى قال تعالى : ﴿إِنِّى وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ .. (٢٣)﴾ [النمل] ، ومن المجاز قوله : ﴿أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ .. (٣١)﴾ [يونس].

ومالك اسم فاعل ، وجمعه مالكون ، قال الحق : ﴿فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ .. (٧١)﴾ [يس] ومملوك اسم مفعول كقوله تعالى : ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْدًا مَّمْلُوكًا .. (٧٥)﴾ [النحل] والملك مصدر ، قال تعالى : ﴿قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا .. (٨٧)﴾ [طه] أى : بإرادتنا واختيارنا . والملك مصدر بمعنى السلطان ، قال تعالى : ﴿عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ .. (١٠٢)﴾ [البقرة] أى : على عهد ملك سليمان . والملك : الحاكم ، قال تعالى : ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِى بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى .. (٥٤)﴾ [يوسف] هو فرعون ، وقرىء ملك يوم الدين ، ومالك يوم الدين . والملك والمالك والمليك من أسماء الله الحسنى ، والملكوت : الملك العظيم ، وهو لله خاصة ، قال الحق : ﴿بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ .. (٨٣)﴾ [يس] والملك واحد الملائكة « القاموس القويم - بتصرف ».

جلباباً ؛ أو بيتاً ، أو حماراً ، إلى غير ذلك ، أما المُلْك فهو أن تملك من له مِلْك ، وتسيطر عليه ، فالقمة - إذن - فى المُلْك .

وانظر إلى قول الحق سبحانه :

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِى الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ ..(٢٦)﴾ [آل عمران]

إذن : فالمُلك فى الدنيا كله لله سبحانه .

وكلمة «ألا» جاءت فى أول الآية - التى نحن بصدد خواطرنا عنها - لتنبِّه الغافل عن الحق ؛ لأن الأسباب استجابت له وأعطته النتائج ، فاغترَّ بها ، فيجعل الله سبحانه الأسباب تختلف فى بعض الأشياء ؛ ليظل الإنسان مربوطاً بالمسبِّب .

ويقول الحق سبحانه فى نفس الآية :

﴿أَلا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ..(٥٥)﴾ [يونس]

والوعد إن كان فى خير فهو بشارة بخير يقع ، وإن كان بِشَرٍّ فهو إنذار بشرّ يقع ؛ ويغلب عليه كلمة «الوعيد» .

إذن : ففى غالب الأمر تأتى كلمة «وعد» للاثنين : الخير والشر ، أما كلمة «وعيد» فلا تأتى إلا فى الشر .

والوعد : هو إخبارٌ بشىء سيحدث من الذى يملك أن يُحْدِث الشىء .

وإنفاذ الوعد له عناصر : أولها الفاعل ، وثانيها المفعول ، وثالثها الزمان ، ورابعها المكان ، ثم السبب .

والحدث يحتاج إلى قدرة ، فإن قلت : «آتيك غداً فى المكان الفلانى لأكلمك فى موضوع كذا» فماذا تملك أنت من عناصر هذا الحدث ؛ إنك

لا تضمن حياتك إلى الغد ، ولا يملك سامعك حياته ، وكذلك المكان الذى تحدد فيه اللقاء قد يصيبه ما يدمِّره ، والموضوع الذى تريد أن تتحدث فيه ، قد يأتى لك خاطر ألا تتحدث فيه من قبل أن يتم اللقاء.

وهَبْ أن كل العناصر اجتمعت ، فماذا تملك أنت أو غيرك من عناصر الوعد ؟ لا شىء أبداً .

ولذلك يعلِّم الله سبحانه خَلْقه الأدب فى إعطاء الوعود ، التى لا يملكونها ، فيقول سبحانه:

﴿ وَلا تَقُولَنَّ [1] لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (٢٣) إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ ..(٢٤) ﴾

[الكهف]

وحين تقدِّم المشيئة فإن حدث لك ما يمنع إنفاذ الوعد فلن تكون كذاباً.

وهكذا يعلّمنا ربنا صيانة أخبارنا عن الكذب ، وجعلنا نتكلم فى نطاق قُدراتنا ، وقُدراتنا لا يوجد فيها عنصر من عناصر الحدث ، لكن إذا قال الله سبحانه ، ووعد ، فلا رادّ لما وعد به سبحانه ؛ لأنه منزَّه عن أن يُخْلف الميعاد ؛ لأن عناصر كل الأحداث تخضع لمشيئته سبحانه ، ولا تتأبَّى عليه [2] ، ووعده حق وثابت .

أما أنت فتتحكم فيك الأغيار التى يُجريها الحق سبحانه عليك .

---

(١) ذكر محمد بن إسحاق أن كفار قريش بعثوا وفداً منهم إلى أحبار اليهود يسألونه عن صفة الرسول ﷺ قائلين لهم : إنهم أهل الكتاب الأول ، وعندهم ما ليس عندنا من علم الأنبياء ، فأوصى اليهود كفار قريش بسؤال محمد ﷺ عن ثلاثة أمور ، منها : «سلوه عن فتية فى الدهر الأول ما كان من أمرهم فإنهم قد كان لهم حديث عجيب » فسألوه فقال رسول الله ﷺ : «أخبركم غداً عما سألتم عنه » ولم يستثن - أى : لم يقل : إن شاء الله ، فمكث رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة لا يوحى إليه فى ذلك شىء فنزلت هذه الآية . ذكره ابن كثير فى تفسيره (٣/ ٧١) .

(٢) التأبى : هو الامتناع وعدم الانصياع . والإباء : أشد الامتناع . [اللسان : مادة أبى].

وهَبْ أنك أردت أن تبنى بيتاً ، وقلت للمهندس المواصفات الخاصة التى تريدها فى هذا البيت ، لكن المهندس لم يستطع أن يشترى من الأسواق بعضاً من المواد التى حددتها أنت ، فأنت - إذن - قد أردت ما لا يملك المهندس تصرُّفاً فيه .

لكن الأمر يختلف بالنسبة للخالق الأعلى سبحانه ؛ فهو الذى يملك كل شىء ، وهو حين يَعد يصير وَعْدُه محتَّم النفاذ ، ولكن الكافرين ينكرون ذلك ؛ ولذلك قال الله سبحانه :

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٥٥)﴾ [يونس]

أى : أنهم لا يعلمون هذه الحقيقة ، فقد سبق أن قالوا :

﴿مَتَىٰ هَـٰذَا الْوَعْدُ .. (٤٨)﴾ [يونس]

أو أن ﴿أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ تعنى : أن الإنسان يجب ألاَّ يضع نفسه فى موعد دون أن يقدِّم المشيئة ؛ لأنه لا يملك من عناصر أى وعد إلا ما يشاؤه الله تعالى .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٥٦)﴾

ونحن نعلم أن حركة الحياة ، والمِلْك والمُلْك ، هى فروع من الأحياء ، وهو سبحانه حَىٌّ ؛ لأنه مالك الأصل ، وهو القادر على أن يميت ، وكل ما يصدر عن الحياة يسلبه[1] الله سبحانه بالموت ، فهو

(١) سلبه الشىء ويسلبه من باب نصر سلباً : فزَّعه منه قهراً أو اختلسه ، يقول الحق : ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ .. (٧٣)﴾ [الحج] أى : ينزع منهم شيئاً ، وهو فعل يتعدى لمفعولين «القاموس القويم» .

مالك الأشياء ، والأسباب التى تُنتج الأشياء ، ولا يفوته شىء من وعد ولا وعيد ، ونحن نحيا بمشيئته سبحانه ، ونموت بمشيئته سبحانه ، فلن نفلت منه .

لذلك قال سبحانه : ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فمن لا يعتبر بأمر الأحياء ؛ عليه أن يرتدع بخوف الرجعة .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾

والخطاب هنا للناس جميعاً ؛ لأن الحق سبحانه حين يخاطب المؤمنين بقوله تعالى :

﴿يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ..﴿١٠٤﴾﴾ [البقرة]

فهذا خطاب لمن آمن بالمنهج .

والحق سبحانه وتعالى يخاطب الناس كافّةً بأصول العقائد ، مثل قول الحق سبحانه :

﴿يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ ..﴿١﴾﴾ [النساء]

أما المؤمنون فسبحانه يكلّفهم بخطابه إليهم ، من مثل قول الحق سبحانه :

﴿يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ ..﴿١٨٣﴾﴾ [البقرة]

ومثل قول الحق :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ [١] فِي الْقَتْلَى .. (١٧٨) ﴾ [البقرة]

أى : أن خطابه سبحانه للمؤمنين يكون دائماً فى الأحكام التى يخاطب بها المؤمنين ، أما فى أصول العقائد والإيمان الأعلى بالواجد الموجِد ، فهذا يكون خطاباً للناس كافة .

والحق سبحانه يقول هنا :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ .. (٥٧) ﴾ [يونس]

والآية هنا تصوِّر الموعظة وكأنها قد تجسَّدت وصار لها مجيء ، رغم أن الموعظة هى كلمات ، وأراد الله تعالى بذلك أن يعطى للموعظة صورة الحركة التى تؤثِّر وتحضُّ على الإيمان .

والموعظة [٢] هى الوصية بالخير والبعد عن الشر بلَفْظ مؤثِّر ، ويقال : فلان واعظ متميز ، أى : أن كلامه مستميل وأسلوبه مؤثر وجميل ، والموعوظ دائماً أضعف من الواعظ ، وتكون نفس الموعوظ ثقيلة ، فلا تتقبل الموعظة بيسر إلا ممن يجيد التأثير بجمال الكلمة وصدق الأداء [٣] ؛

(١) القصاص : هو توقيع العقاب على من قتل أو جرح غيره بمثل ما قتل أو جرح ، وهى شريعة جاءت التوراة بها وأقرّتها شريعة الإسلام ، قال تعالى : ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ .. (٤٥) ﴾ [المائدة] .

(٢) وَعَظَه يعظه وعظاً وعظة : نصحه بالطاعة والعمل الصالح ، وأرشده إلى الخير . قال تعالى مصوراً عناد الكافرين : ﴿ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ (١٣٦) ﴾ [الشعراء] فهم لعنادهم يتساوى عندهم الأمران . والموعظة ما يوعظ به من قول أو فعل كقوله تعالى : ﴿ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٦٦) ﴾ [البقرة] وقال : ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ .. (١٢٥) ﴾ [النحل] ، والموعظة لها مقدمات بلاغية من منطلق إيمانى . مادة وعظ بتصرف . من «القاموس القويم» .

(٣) وقد كان رسول الله ﷺ الأسوة الحسنة والمثل الأعلى فى الموعظة الحكيمة ، فعن العرباض بن سارية قال : قام فينا رسول الله ﷺ ، ذات يوم ، فوعظنا موعظة بليغة ، وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون . . » الحديث أخرجه ابن ماجه فى سننه (٤٢) والترمذى (٢٦٧٦) وأحمد فى مسنده (١٢٦/٤ ، ١٢٧) .

لأن الموعوظ قد يقول فى نفسه: لقد رأيتنى فى محل دونك وتريد أن ترفعنى ، وأنت أعلى منى. فإذا قدَّر الواعظ هذا الظرف فى الموعوظ فهو يستميل نفسه.

ولنتذكر الحكمة التى تقول: «النصح ثقيل ، فلا تجعلوه جَدَلاً ، ولا ترسلوه جَبَلاً ، واستعيروا له خفَّة البيان» ؛ وذلك لتستميل أذن السامع إليك فتأتى له بالأسلوب الجميلَ المقنع الممتع الذى يعجبه ، وتلمس فى نفسه صميم ما ترغب أن يصل إليه.

والموعظة تختلف عن الوصية ؛ لأن الوصية عادة لا تتأتى إلا فى خلاصة حكمة الأشياء ، وهَبْ أن إنساناً مريضاً وله أولاد ، وحضرته الوفاة ، فيقوم بكتابة وَصِيَّته ، ويوصيهم بعيون [1] المسائل.

والحق سبحانه يقول هنا:

﴿ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ ..(٥٧) ﴾ [يونس]

والموعظة إما أن تسمعها أو ترفضها ، ولأنها موعظة قادمة ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ فلا بد من الالتفات والانتباه ، وملاحظة أن الحق سبحانه قد اختص الموعظة بأنها من الرب ، لا من الإله ؛ لأن الإله يريدك عابداً ، لكن الرب هو المربِّى والكفيل ، وإن كفرت به.

وهذه الموعظة قادمة من الرب ، أى: أنها من كمالات التربية ، ونحن نعلم أن متعلقات الربوبية تتوزع ما بين قسمين: القسم الأول هو مقوِّمات الحياة التى يعطيها الحق سبحانه من قُوت ورزق - وهذه المقومات للمؤمن ، وللكافر - والقسم الآخر هو مقومات القيم التى ترسم منهج حركة الحياة ، وهذه للمؤمن فقط.

---

(١) عيون المسائل : أى : أصولها ، والمهم منها ، وعين كل شيء : خياره . [اللسان : مادة (عين)] .

إذن: فالموعظة هى نوع من التربية جاءت من ربكم المأمون عليكم ؛ لأنه هو الذى خَلَق من عَدَم وأمَدّ من عُدْم ، ولم يختص بنعمة الربوبية المؤمنين فقط ، بل شملت نعمته كل الخلق.

إذن: فالموعظة تجىء ممن يُعطى ولا ينتظر منك شيئاً ، فهو سبحانه مُنَزَّه عن الغرض ؛ لأنه لن ينال شَيئاً منك [1] فأنت لا تقدر على شىء مع قدرته سبحانه.

والموعظة القادمة بالمنهج تخصُّ العقلاء الراشدين ؛ لأن حركة العاقل الراشد تمر على عقله أولاً ، ويختار بين البدائل ، أما حركة المجنون فهى غير مرتَّبة ولا منسَّقة ، ولا تمر على عقله ؛ لأن عقله مختل الإدراك وفاقد للقدرة على الاختيار بين البدائل.

ولكن لماذا يُفسد العاقل الاختيار بين البدائل [2] ؟

إن الذى يفسد حركة اختيار العاقل هو الهوى ، والهوى إنما ينشأ مما فى النفس والقلب ؛ ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ .. (٥٧) ﴾ [يونس]

---

(١) وقد أعطانا القرآن مثالاً لهذا عن الهدى الذى يذبحه الحجيج ، فيقول سبحانه : ﴿ لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ (٣٧) ﴾ . [الحج].

(٢) بدل الشىء غيَّره ، وبدل الكلام : غيره وحرفه ، قال تعالى : ﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٥٩) ﴾ [البقرة] أى : غيروه بكلام آخر ، ويقول الحق : ﴿ إِلاَّ مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١١) ﴾ [النمل] أى : عمل الخير والحسن بعد عمل السوء ، وأبدله الشىء من الشىء ، وأبدل الشىء بالشىء جعله بدلاً منه ، وتبدل الشىء بالشىء ومن الشىء جعله بدلاً منه ، كقوله تعالى : ﴿ لا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلاَّ مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا (٥٢) ﴾ [الأحزاب] .

أى: أنه سبحانه قد أنزل عليكم ما يشفى صدوركم من غلّ يؤثر فى أحكامكم ، وحقد ، وحسد ، ومكر ، ويُنقّى باطن الإنسانَ ؛ لأن أى حركة من حركات الإنسان لها نبع وجدانى ، ولا بد أن يُشفى النبع الوجدانى ؛ ليصحَّ ؛ حتى تخرج الحركات من الجوارح وهى نابعة من وجدان طاهر مُصفّى وسليم ؛ وبذلك تكون الحركات الصادرة من الإنسان سليمة[(١)] .

ولذلك قال الحق سبحانه:

﴿ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٧ ﴾ [يونس]

وجاءت كلمة «الشفاء» أولاً ؛لتبيِّن أن الهداية الحقَّة إلى الطريق المستقيم تقتضى أن تُخْرِج ما فى قلبه من أهواء ، ثم تدلَّه إلى المنهج المستقيم.

وإن سأل سائل عن الفارق بين الشفاء والرحمة ؟ نجيب: إن الشفاء هو إخراج لما يُمْرض الصدور ، أما الرحمة فهى اتْباع الهداية بما لا يأتى بالمرض مرة أخرى ، واقرأ إن شئت قول الحق سبحانه:

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ .. ۝٨٢ ﴾ [الإسراء]

وهكذا يتبيَّن لنا أثر الموعظة: شفاء ، وهدى ، ورحمة ، إنها تعالج ليس ظواهر المرض فقط ، ولكن تعالج جذور المرض.

إذن: فشفاء الصدور يجب أن يتم أولاً ؛ لذلك نجد الطبيب الماهر هو من لا ينظر إلى ظواهر المرض فقط ليعالجها ، ولكنه يبحث عما خلف تلك الظواهر ، على عكس الطبيب غير المدرَّب العَجُول الذى يعالج الظواهر دون علاج جذور المرض.

---

(١) عن النعمان بن بشير قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب » أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٢) ومسلم فى صحيحه (١٥٩٩).

ومثال ذلك: طبيب الأمراض الجلدية غير الماهر حين يرى بثوراً ؛ فهو يعالجها بما يطمسها ويزيلها مؤقّتاً ، لكنها تعود بعد قليل ، أما الطبيب المدرَّب الفاهم فهو يعالج الأسباب التى تُنتج البثور ، ويزيلها بالعلاج الفعَّال ؛ فيقضى على أسباب ظهورها.

وفى القرآن الكريم نجد قصة ابتلاء سيدنا أيوب عليه السلام ، فقد قال له الحق سبحانه:

﴿ارْكُضْ[1] بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ (٤٢)﴾ [ص]

أى : اضربْ برجلك ذلك المكان يخرجْ لك منه ماء بارد ، تغتسل منه ؛ فيزيل الأعراض الظاهرة ، وتشرب منه ليعالج أصل الداء.

إذن: فالموعظة وكأنها تجسَّدت ، فجاءت من ربكم - المأمون عليكم - شفاءً حتى تعالج المواجيد[2] التى تصدر عنها الأفعال ، وتصبح مواجيد سليمة مستقيمة ، لا تحلُّل فيها ، وهدى إلى الطريق الموصِّل إلى الغاية الحقَّة ، ورحمة إن اتبعها الإنسان لا يُصَابُ بأىِّ داءٍ ، وهذه الموعظة تؤدى إلى العمل المقبول عند الله سبحانه .

ولكن إنْ صحَّتْ لك الأربعة النابعة من الموعظة : الشفاء ، والهدى ،

(١) ابتلى الله سبحانه عبده ونبيه أيوب - عليه السلام - بالمرض فى جسده وفقد ماله وأولاده . واستمر هذا البلاء مدة ثمانى عشرة سنة عاشها صابراً على قضاء الله ، ولم يبق معه إلا زوجته التى اضطرت للعمل فى خدمة الناس حتى توفر لنفسها ولزوجها الطعام ، ولما دعا أيوب ربه : ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٨٣)﴾ [الأنبياء] استجاب الله له وأزال عنه الضر إذ قال له : ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ (٤٢)﴾ [ص] لقد أمره الله أن يقوم ويركض الأرض برجله ففعل ، فأنبع الله فى الأرض عيناً وأمره أن يغتسل منها ، فأذهب جميع ما كان فى بدنه من الأذى ، ثم أمره أن يضرب الأرض فى مكان آخر ففعل فأنبع الله له عيناً أخرى وأمره أن يشرب منها ؛ فأذهبت جميع ما كان فى باطنه من السوء ، وتكاملت له العافية ظاهراً وباطناً . [ذكرها ابن كثير فى تفسيره ٤/ ٣٩ ، ٤٠] وقال عنه سبحانه : ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ..(٤٤)﴾ [ص] .

(٢) المواجيد: المقصود بها أعمال القلب التى إن استقامت استقامت الجوارح.

والرحمة ، والعمل الصالح ، فإيّاك أن تفرح بذلك ؛ ففوق كل ذلك فضل الله عليك ؛ ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾

وأنت وكل المؤمنين مهما عملوا فى تطبيق منهج الله ، فكلُّنا بعباداتنا لن نؤدى حَقَّ النعم الموجودة عندنا قبل أن نُكَلَّف ، وعلينا أن نتدبَّر قول رسول الله ﷺ : « لن يدخل أحدكم الجنة بعمله » . قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : « ولا أنا إلا أنْ يتغمَّدنى[١] الله برحمته[٢] » .

إذن : فإن افتخر إنسان بطاعته لله ، فهذه الطاعة تعود على العبد فى دنياه ، وهو لن يؤدى بطاعته حق كل النعم التى أسبغها الله عليه .

ومثال ذلك : إن العبد لا يُكلَّف إلا عند البلوغ ، أى : فى سنّ الخامسة عشرة تقريباً ، فإن نظر إلى النعم التى أسبغها الله تعالى عليه حتى وصل إلى هذه السِّنِّ ، فهو لن يحصيها[٣] ، فما بالنا بالنعم التى تغمرنا فى كل العمر ، وحين يجازينا الحق فى الآخرة ، فهو لا يجازينا بالعدل ، بل يعاملنا بالفضل .

إذن : إياك أن تقول : أنا تصدَّقتُ بكذا ، أو صلّيت كذا ؛ حتى لا تورثك استجابتك لمنهج الله غروراً بعملك التعبُّدىِّ ، وتذكَّر القول

---

(١) تغمَّده الله برحمته : أدخله فيها وغمره بها . قال أبو عبيد : قوله «يتغمدنى» : يُلبسنى ويتغشَّانى ويسترنى . [لسان العرب : مادة (غ م د)] .

(٢) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٤٦٣) ومسلم فى صحيحه (٢٨١٦) عن أبى هريرة .

(٣) وقد قال الحق سبحانه : ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا .. ﴿١٨﴾ ﴾ [النحل] وقد أفرد سبحانه النعمة هنا ؛ لأن كل نعمة من نعم الله عليك وإن اعتبرتها واحدة فى نظرك فهى مشتملة على نعم لا تحصى ولا تُعَدُّ ، فما بالك بالنعم مجتمعة .

المأثور : « رُبَّ معصية أورثتْ ذُلاً وانكساراً ، خيرٌ من طاعة أورثتْ عِزاً واستكباراً » .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

إن تمتع الإنسان فى الحياة بالمُلْك والمِلْك ، فكل ذلك يحتاج إلى استبقاء الحياة بالرزق الذى يهبُنَا الحق سبحانه إيّاه ، وكذلك استبقاء النوع بالتزاوج بين الذكر والأنثى .

ولكن الرزق الذى يستبقى الحياة لا بُدَّ أن يكون حلالاً ؛ لذلك حدَّد لنا الحق سبحانه وتعالى المحرَّمات فلا تقربها ، وأنت عليك بالالتزام بما حدَّده الله ، فلا تدخل أنت على ما حلّل الله لتحرِّمَه [1] ؛ لأن الحق سبحانه حدَّد لك من الطعام ما يستبقى حياتك ويعطيك وقوداً لحركة الحياة ، فعاملْ نفسك كما تعامل الآلة التى تصنعها ، فأنت تعطى كل آلة الوقود المناسب لها لتؤدى مهمتها ، كذلك جعل الله سبحانه لك المواصفات التى تنفعك وتستفيد منها وتؤدى حركات الحياة بالطاقة التى يمدّك بها ما حَلّله الله لك .

وكذلك حرَّم الله عليك ما يَضُرُّك .

وإياك أن تقول : ما دامت هذه الأشياء تضرّنى فلماذا خلقها الله ؛ لأن عليك أن تعرف أن هناك فارقاً بين رزق مباشر ، ورزق غير مباشر ، وكل

---

(١) يقول رب العزة سبحانه : ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ .. ﴿١١٥﴾ ﴾ [النحل].

ما فى الكون هو رزق ، ولكنه ينقسم إلى رزق مباشر تستفيد منه فوراً ، وهناك رزق غير مباشر .

ومثال ذلك : النار ، فأنت لا تأكل النار ، لكنها تُنضِج لك الطعام .

إذن : فهناك شئ مخلوق لمهمة تساعد فى إنتاج ما يفيدك .

والحق سبحانه قد حلّل لك - على سبيل المثال - لحم الضأن والماعز ، والإبل والبقر وغيرها ، وحرَّم عليك لحم الخنزير [1] ، فلا تسألْ : لماذا خلق الله الخنزيرَ ؛ لأنه خَلَقه لمهمة أخرى ، فهو يلملم قاذورات الوجود ويأكلها ، فهذا رزق غير مباشرٌ ، فاتركه للمهمة التى أراده الله لها .

وبعض الناس قد حرَّم على نفسه أشياء حلَّلها الله تعالى [2] ، وهم بذلك يُضيّقون على أنفسهم ، ويظن البعض أنه حين يحلّل ما حرَّم الله أنه يوسِّع على نفسه ، فيأمر الحق سبحانه رسوله ﷺ أن يقول :

﴿ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ .. (٥٩) ﴾ [يونس]

أى : أخبرونى ما أنزل الله لكم من رزق ، وهو كل ما تنتفعون به ، إما مباشرةً ، وإمَا بالوسائط ، فكيف تتدخلون بالتحليل والتحريم ، رغم أن الذى أنزل الرزق قد بيَّن لكم الحلال و الحرام ؟!

وكلمة ﴿ أَنزَلَ ﴾ تفيد أن الرزق كله قادم من أعلى [3] ، وكل ما ترونه

---

(١) يقول الحق سبحانه : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٨٧) وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ (٨٨) ﴾ [المائدة] .

(٢) يقول الحق سبحانه عن يعقوب عليه السلام : ﴿ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٩٣) ﴾ [آل عمران] .

(٣) يقول الحق سبحانه : ﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (٢٢) ﴾ [الذاريات] فنزول المطر من السماء هو رزق ينزله الله سبحانه ، فتحيا به الأرض الميتة فتنبت الزرع فيأكل منه كل كائن حى على الأرض من إنسان أو حيوان ، ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ .. (٢٤) ﴾ [يونس] .

حولكم هو رزق ، تنتفعون به مباشرة ، أو بشكل غير مباشر ، فالمال الذى تُشترى به أغلب الأرزاق لا يأكله الإنسان ، بل يشترى به ما يأكله .

وكلمة ﴿ أنزلَ ﴾ تعنى : أوْجَدَ ، وخلق منْ أعلى ، وما دام كل شىء قد وُجد بمشيئة مَنْ هو أعلى من كل الوجود ، فكل شىء لصالحك مباشرة أو بوسائط .

ولا تأخذ كلمة ﴿ أَنزلَ ﴾ من جهة العلوّ الحسية ، بل خُذها من جهة العلوِّ المعنوية ، فالمطر - مثلاً - ينزل من أعلى حسيّاً ، ويختلط بالأرض فيأخذ النبات غذاءه منها ، والرزق بالمطر ومن الأرض مُقدَّر ممّن خلَق ، وهو الأعلى سبحانه .

وقد قال الحق سبحانه :

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ[1] ..(٢٥) ﴾ [الحديد]

نعم ، فقد أنزل الحق سبحانه منهجه على الرسل عليهم السلام لتصلح حياة الناس ، وأنزل الحديد أيضاً ، هذا الذى نستخرجه من الجبال ومن الأرض .

إذن : فالمراد هنا بالإنزال ، أى : الإيجاد ممن هو أعلى منك لصالحك أيها الإنسان .

وما دام الحق سبحانه هو الذى أنزل الرزق ، وبيَّن الحلال والحرام ، فلماذا تُدخلون أنوفكم فى الحلال والحرام ، وتجعلون بعض الحلال حراماً ،

(١) البيِّنات : الآيات الواضحة . والقسط هنا : العدل . والبأس : القوة . [لسان العرب] .

وبعض الحرام أو كُلَّ الحرام حلالاً ؟ لماذا لا تتركون الجَعْل لمن خَلَق وهو سبحانه أدْرى بمصلحتكم ؟

﴿ قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ .. (٥٩) ﴾ [يونس]

أى : هل أعطاكم الله سبحانه تفويضاً فى جَعْل الحلال حراماً ، والحرام حلالاً ؟ ﴿ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ (٥٩) ﴾ أى : على الله تتعمدون الكذب .

وقد جاء الحق سبحانه بالحلال والحرام ليبيِّن لنا مدى قُبح السلوك فى تحريم ما أحلّ الله ، وتحليل ما حرَّم الله .

ويشير الحق سبحانه - فى إجمال هذه الآية - إلى آيات أخرى فَصَّلت الحرام ، وسبق أن تناولناها بخواطرنا ، مثل قوله تعالى :

﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلا سَائِبَةٍ وَلا وَصِيلَةٍ وَلا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ (١٠٣) ﴾ [المائدة]

والبَحيرة - كما ذكرنا - هى الناقة التى أنجبتْ خمس بُطون آخرها ذَكَر ، وكانوا يشقُّون أذنها ، ويعلنون أنها قامت بواجبها ويتركونها سائمة[(١)] غير مملوكة ، لا يركبها أحد ، ولا يحمل عليها أحد أىَّ حمْل ، ولا يحلبها أحد ، ولا يجزّ صوفها أحد ، ثم يذبحها خُدَّام الآلهَة التى كانوا يعبدونها ، وسَمَّوها «بَحيرة»[(٢)] ؛ لأنهم كانوا يشقون آذانها علامةً على أنها أدَّتْ مهمتها .

---

(١) السائمة : الغنم والماشية ترعى حيث شاءت . والسائم : الذاهب على وجهه حيث يشاء . [اللسان مادة سوم] .

(٢) وسبب التسمية بالبحيرة هو أن شق أذنها يكون شقاً واسعاً فأشبه البحر فى سعته . (بتصرف من أحكام القرآن للجصاص ٢/ ٦٠٨) ؛ وفى تحديد المقصود بالبحيرة - هل هى الناقة التى ولدت خمسة أبطن أم بنتها التى ولدت فى آخر بطن ؟ - اختلاف . انظر فى هذا تفسير ابن كثير (٢/ ١٠٧ ، ١٠٨) وكذا أحكام القرآن للجصاص ، ولذلك قيل فى بعض الأقوال أن السائبة هى أم البحيرة .

أما السائبة فهى غير المربوطة ؛ لأن الربط يفيد الملكية ، وكان الواحد منهم إذا شفى من مرض أو أراد شيئاً [١] وهَبَ أن يجعل ناقةً لخدَّام الأصنام ، واسمها سائبة ، وهى أيضاً لا تُركب ، ولا تُحلب ، ولا يُحمل عليها ، ولا أحد يتعرَّض لها .

والوصيلة : هى الأنثى تلدها الناقة فى بطن واحدة مع ذكر ، فيقولون : «وَصَلَتْ أخاها » ؛ فلا يذبحونه للأصنام من أجل أخته .

﴿وَلا حَامٍ﴾ والحام : هو الفَحْل الذى يحمى ظهر نفسه بإنجاب عشرة أبْطُن ، فلا يركبه أحد بعد ذلك ، ولا يُحْمَل عليه ، ويترك لخدَّام الأصنام .

هذه هى الأنعام المحلَّلة التى حرَّموها على أنفسهم ، بينما يأكلها خُدَّام الأصنام ، وفى ذكر عدم تحريم تلك الأنعام رأفة بهم .

وهناك أيضاً قول الحق سبحانه :

﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٤٣) وَمِنَ الإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٤٤)﴾

[الأنعام]

إذن : فقد حَرَّموا بعضاً مما أحلّ الله لهم ، وقالوا ما أورده القرآن :

---

(١) كان الرجل فى الجاهلية إذا قدم من سفر بعيد ، أو برىء من علّة ، أو نجَّته دابةٌ من مشقة أو حرب قال : ناقتى سائبة أى : تسيب فلا ينتفع بظهرها ، ولا تُحلأ عن ماء ، ولا تمنع من كلأ ، ولا تركب . [ذكره ابن منظور فى اللسان مادة (سيب)] .

﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ [١] مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ [٢] وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (١٣٦) ﴾ [الأنعام]

وأجمل الحق سبحانه كل ذلك في قوله الحق :

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلالاً قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ (٥٩) ﴾ [يونس]

وهكذا تدخَّلوا في تحريم بعض الحلال وحلَّلوا بعضاً من الحرام ، وفي هذا تعدٍّ ما كان يجب أن يقترفوه [٣] ؛ لأن الحق سبحانه هو خالقهم ، وهو خالق أرزاقهم ، وفي هذا كذب متعمَّد على الله سبحانه .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾

وهذه الآية توضح أن كل أمر بحساب ، فالذين يفترون على الله الكذب سيجدون حسابهم يوم القيامة عسيراً ، فالحق سبحانه منزّه عن الغفلة ، ولو ظنوا أنه لا توجد آخرة ولن يوجد حساب ؛ فهم يخطئون الظن .

---

(١) ذرأ: خلق . والحرث: هو الزرع والثمار .

(٢) بزعمهم ، أي: بقولهم الكذب . [لسان العرب] .

(٣) وقد أجمل الحق سبحانه المحرمات من المطاعم في قوله: ﴿ قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٤٥) ﴾ [الأنعام] .

ولو استحضروا ما أعدَّه الله لهم من العذاب والنكال [١] يوم القيامة لما فعلوا ذلك ، ولكنهم كالظَّان بأن الله - سبحانه وتعالى - غافل عن أفعالهم ، وكأنها أفعال لا حساب عليها ، ولا كتابة لها ، ولا رقيب يحسبها .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ (٦٠) ﴾ [يونس]

إن الله سبحانه متفضِّل على كل خَلْقه - وأنتم [٢] منهم - بأشياء كثيرة ؛ فلم تحرمون أنفسكم من هذا الفضل ؟! ولو شكرتم الله تعالى على هذا التفضل لزاد من عطائكم ، لكنكم تنسون الشكر .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ [٣] عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ



(١) النكال : إيقاع العقوبة والعذاب على وجه يجعل من يفعل هذا الفعل عبرة لغيره ، وهذا نحو قوله تعالى : ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٣٨) ﴾ [المائدة] .

(٢) المقصود بهم أهل مكة ، يقول الحق سبحانه : ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ (٦٧) ﴾ [العنكبوت] ، وقال أيضاً : ﴿ أَوَ لَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٥٧) ﴾ [القصص] .

(٣) تفيضون فيه : أي : تندفعون فيه وتنبسطون في ذكره . ما يعزب : لا يبعد ، ولا يغيب عن علمه سبحانه . [لسان العرب] .

والخطاب هنا لرسول الله ﷺ ، أي : ما تكون يا محمد في شأن .
والشأن : هو الحال العظيم المتميز الذي يطرأ على الأمر .

ونحن في حياتنا اليومية نقول : ما شأنك اليوم أو ما حالك؟ وهنا يجيب السامع بالشيء الهام الذي حدث له أو فعله ، ويتناسى التافه من الأمور .

ولذلك يصف الله تعالى نفسه فيقول :

﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (٢٩) ﴾ [الرحمن]

أي : لا تظنوا أن ربنا - سبحانه وتعالى - خلق النواميس والقوانين ، وقال لها : اعملي أنتِ ، لا فهو سبحانه كل يوم في شأن .

ولذلك حين سئل أحد العلماء[1] : ما شأن ربك الآن ؛ وقد صَحَّ أن القلم قد جَفَّ ؟ فقال : «أمور يبديها ولا يبتديها » .

أي : أنه سبحانه قد رسم كل شيء ، وجعل له زماناً ليظهر ، فهو سبحانه قيُّوم ، أي : مُبَالغ في القيام على مصالحكم ؛ ولذلك يطمئننا سبحانه - وقد جعل الليل لَنومنا وراحتنا - بأنه سبحانه قيوم لا تأخذه سِنَةٌ ولا نوم ، وهو يراعينا .

فالحديث في الآية التي نحن بصددها موجَّه لرسول الله ﷺ :

﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ .. (٦١) ﴾ [يونس]

وشأن رسول الله ﷺ الذي يهتم به ليس المأكل ولا المشرب ، إنما المهم بالنسبة له هو بلاغ الرسالة بالمنهج بـ «افعل و«لا تفعل» .

﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ .. (٦١) ﴾ [يونس]

(١) هو : الحسين بن الفضل ، وذلك أن عبد الله بن طاهر دعاه ليفسر له ثلاث آيات أشكلت عليه ، منها هذه الآية ، فقال : إنها شئون يبديها لا شئون يبتديها . ذكره القرطبي في تفسيره (٩/ ٦٥٦٧) .

و«منه» هنا بمعنى اللام ، أى : ما تتلو له [1] ، وتعنى تأبيداً لآيات القرآن .

وهناك فى موضع آخر من القرآن يقول الحق سبحانه :

﴿ مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ [2] أُغْرِقُوا ..(٢٥) ﴾ [نوح]

أى : أغرقوا لأجْل خطيئاتهم .

وهنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها نفهم ما تكون فى شأن وما تتلو لأجل هذا الشأن من قرآن ، فالنبى ﷺ فى شأن هام هو الرسالة ، ويتلو من القرآن تأبيداً لهذا الشأن وهو البلاغ بالمنهج .

ويدخل فى هذا الشأن ما فُوِّض رسول الله ﷺ فيه حسب قول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا آتَاكُمُ [3] الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا .. (٧) ﴾ [الحشر]

ومثال ذلك : تحديد كيفية الصلاة وعدد ركعات كل صلاة ، وكذلك نصَاب [4] الزكاة ، وهذه أمور لم يأت بها القرآن تفصيلاً ، ولكن جاءت بها الأحاديث النبوية .

إذن : فهناك تفويض من الحق للرسول ﷺ ليكتمل البلاغ بمنهج الله ، بنصوص القرآن ، وبتفويض الله تعالى له أن يشرِّع .

---

(١) ما تتلو له : أى : لهذا الشأن . وهذا يتوافق مع ما ذكره الفراء والزجاج أن الهاء فى «منه» تعود على الشأن ، أى : تحدث شأناً ، فيتلى من أجله القرآن ، فيعلم كيف حكمه . ذكره القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٢٨٣) .

(٢) هم قوم نوح عليه السلام .

(٣) آتاكم : أمركم .

(٤) نصاب الزكاة : هو المقدار الذى إذا بلغه مال المسلم أو ماشيته أو تجارته وجبت فيه الزكاة ، بالمقادير التى حددتها السنة .

إذن: فكل شأن رسول الله ﷺ إما بلاغ عن الله بالنص القرآنى، وإما تطبيق فعلىّ للنص القرآنى بالحديث النبوى، وبالأسوة التى تركها لنا ﷺ فى سُنَّته.

والحُجَّة على الحُكم - أى حُكم - يأتى بها القرآن، فإن كانت الأحكام غير صادرة من الله مباشرة، فيكفى فيها أنها صدرت عن رسول الله ﷺ بتفويض من الله تعالى ليشرِّع.

وبذلك نردُّ على المنافقين الذين إذا حُدِّثوا بشىء من حديث رسول الله ﷺ قالوا: «بيننا وبينكم كتاب الله»[1]، وهدفهم أن يردُّوا حديث رسول الله ﷺ - فعلاً، أو قولاً، أو إقراراً.

ثم ينقل الحق سبحانه الخطاب من المفرد إلى الجماعة فيقول جَلَّ شأنه:

﴿وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا .. (٦١)﴾ [يونس]

وفى هذا انتقال للسامعين للقرآن، المبلَّغ إليهم هذا المنهج، فكل عمل إنما يشهده الحق سبحانه.

والعمل هو مجموع الأحداث التى تصدر عن الإنسان، فكل حدث يصدر من الإنسان - ولو بنيَّة القلب - يسمَّى عملاً؛ لأن عمل القلوب هو النية. ولكن إذا صدر الحدَث من اللسان كان قولاً، وإذا صدر الحدث من بقية الجوارح كان فعلاً.

وهكذا ينقسم العمل إلى قسمين: قول، وفعل.

---

(١) عن المقدام بن معد يكرب أن رسول الله ﷺ قال: «يوشك الرجل يتكىء على أريكته يُحدَّث بحديثى فيقول: بينى وبينكم كتاب الله، فما وجدنا فيه حلالاً استحللناه، وما كان فيه حراماً حرمناه، وإن ما حرم رسول الله ﷺ كما حرم الله». أخرجه أحمد فى مسنده (٤/ ١٣٢) والترمذى (٢٦٦٤) وابن ماجه (١٢) والدارقطنى (٤/ ٢٨٦) فى سننهم، واللفظ للدارقطنى.

وقد اختُصَّ حدث اللسان باسم القول ؛ لأن أصل مستندات التكليف كلها قولية .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ أى : تسرعون إلى العمل بنشاط وحيوية وإقبال مما يدل على حسن الاستجابة للمنهج فور أن يبلِّغه الرسول ﷺ .

والإقبال على العمل التكليفى بهذا الشوق ، وتلك اللهفة ، وحسن الاستقبال ، وإخلاص الأداء ، كل هذه المعانى يؤول إليها قول الحق سبحانه : ﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ كما يفيض ماء الإناء إذا امتلأ لينزل . أى : أن تقبلوا على أعمال التكليف بسرعة وانصباب وانسكاب .

وقد قال الحق سبحانه : ﴿فَإِذَا أَفَضْتُمْ[1] مِّنْ عَرَفَاتٍ ..(١٩٨)﴾ [البقرة]

أى : شَرَعْتُم[2] فى الذهاب مسرعين ؛ لأنكم أدَّيتم نُسُكاً أخذتم منه طاقة ، وتقبلون بها على نُسُك ثانٍ .

إذن : فالحق سبحانه يشهد كل عمل منكم ، لكن ماذا عن النيَّات وما يُبيَّت فيها من خواطر؟

ها هو الحق سبحانه يخبرنا أن كل شىء مهما صغر واختفى فهو معلوم ومحسوب .

يقول الحق سبحانه :

---

(١) يسن الإفاضة من عرفة بعد غروب الشمس ، ولكن بالسكينة رفقاً بالناس ؛ لأن هذا اليوم يتزاحم فيه الناس ويدفع بعضهم بعضاً ؛ ولذلك سميت إفاضة . انظر فقه السنة (١/ ٥١٨) وقد ثبت عنه ﷺ أنه كان يضم إليه زمام ناقته «حتى إن رأسها ليصيب مورك رحله ، ويقول بيده اليمنى : أيها الناس السكينة السكينة » أخرجه مسلم فى صحيحه (١٢١٨) من حديث جابر بن عبد الله .

(٢) شرعت فى الأمر : بدأته ودخلت فيه .

﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٦١) ﴾ [يونس]

أى: أن كل أمورك، وأمور الخلق، والمخلوقات كلها معلومة لله تعالى، ومكتوبة فى كتاب مبين واضح، فلا أحد بقادر على أن يختلس حركة قلب، أو يختلس حركة ضمير، وكلمة «يعزب» تعنى: يغيب ويختفى.

والحق سبحانه يخبرنا أنه لا يضيع عنده جزاء أى عمل أو نية مهما بلغ العمل أو النية أدنى درجة من القِلَّة.

ولم يوجد عند العرب ما يضرب به المثل على الوزن القليل إلا الذَّرَّة، وهى النملة الدقيقة الصغيرة جداً، ثم أطلقت الذرة على الهَبَاء الشائع فى الجو، ويمكنك أن ترى هذا الهَبَاء إن جلست فى حجرة مظلمة مغلقة، ثم دخلها شعاع من ضوء، هنا ترى هذا الضوء وهو يمر من الثقب وكأنه سهم، وترى مكوِّنات هذا السهم من ذرات الهباء المتحركة الموجودة فى الجو، تلك الذرات التى لا تراها وأنت فى الضوء فقط أو فى الظلام فقط، ولكن التناقض بين الضوء والظلام يُبرزها.

وأنت لا تدرك الشىء ولا تحسه لأمرين: إما لتناهيه فى الصغر، وإما لتناهيه فى الكبر؛ فلا تحيط به، وحين تقدم العلم التطبيقى اخترعوا المَجَاهر التى تُكبِّر الشىء المتناهى فى الصغر آلاف، أو ملايين المرات.

وأنت لو وضعت جلدك تحت عدسة المجهر فسترى فجوات وكأنها آبار لم تكن تراها أو تحسها من قبل؛ لأنها بلغت من الدقة والصِّغر بحيث

لا تستطيع عيناك أن تدركها ، فإن رأيتها بالمجهر كَبُرَت فترى فجوات وتعاريج وعُلُواً وانخفاضاً - مهما كان الجلد الذى تراه تحت المجهر ناعماً.

وكذلك أنت لا تقدر على إدراك الشيء الضخم ، وقد تفصل بينك وبين الشيء الكبير مسافة ؛ فتراه أصغر من حجمه ، وكلما ابتعد صَغُرَ ، فأنت إذا رأيت - مثلاً - رجلاً طويلاً على مسافة كبيرة ، فأنت تراه وكأنه طفل صغير ، وكلما اقتربت منه زاد طوله فى عينيك.

إذن: لا الضخامة ولا البُعد ، ولا القِلَّة تمنع من علم الحق سبحانه لأى شيء.

وقد خاطب الحق سبحانه العرب بأصغر ما عرفوه ، وهو الذرة ، أى: النملة الصغيرة.

وأنت إذا وطأتَ نملة فى أرض رملية فهى لا تموت ، بل تدخل فى فجوات الرمل ، وتجد لنفسها طريقاً إلى سطح الأرض مرة أخرى.

قد بيَّن الحق سبحانه هذه المسألة حين تحدَّث عن سليمان - عليه السلام - فى وادى النمل ، فقال تعالى:

﴿ .. قَالَتْ نَمْلَةٌ يَـٰأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١٨) ﴾ [النمل]

لأنهم لا يرونهم ؛ لحجمهم المتناهى فى الصغر .

وهكذا يعطينا الحق سبحانه بياناً عن كل أمة فى الحياة ، وأن من بينهم جنوداً يحرسون بيقظة ، فالنملة قامت بإنذار قومها من سليمان وجنوده ،

لأنهم لن يروا النمل الصغير[(١)] .

إذن : الذَّرُّ إما أن يكون النمل الصغير ، وإما أن يكون الذرَّات الهبائية .

وأراد الله سبحانه أن يضرب لنا مثلاً بإحاطة علمه فى أنه لا يعزب عنه مثقال ذرة .

ويعزب ، أى : يغيب ، ويقال : «هذا البئر ماؤه عازب» ، أى : قادم من عمق بعيد ، ويحتاج استخراجه إلى دَلْوٍ وحبال طويلة .

ونسمِّى الرجل الذى يبعد عن أهله «عَزَب» .

وقول الحق سبحانه : ﴿وَمَا يَعْزُبُ﴾ . أى : لا يبعد ولا يغيب عنه أصغر شىء ولا أكبر شىء .

يقول سبحانه ذلك ؛ ليطمئننا أن كل خاطرة من خواطر الإنسان إنما يشهدها الله ، ويَعْلَمُها ، وهو المُجَازِى عليها .

وإن استطاع إنسان أن يُعمِّى على قضاء الأرض ، فلن يستطيع أن يُعمِّى على قضاء السماء[(٢)] .

ومسألة الذرَّة والصغر يقول عنها الحق سبحانه :

---

(١) قال تعالى : ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾﴾[النمل] وسار سليمان بموكبه العظيم هذا : ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ .. ﴿١٨﴾﴾ [النمل] أى : مَرُّوا على وادى النمل فقالت نملة لإخوانها : ﴿ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [النمل] فهى خافت على النمل أن تحطمها الخيول بحوافرها فأمرتهم بالدخول إلى مساكنهم ، ففهم ذلك سليمان : ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿١٩﴾﴾[النمل] . أى : ألهمنى أن أشكر نعمك التى أنعمت بها علىَّ من تعليمى منطق الطير والحيوان وعلى والدىّ بالإسلام لك . [ابن كثير : ٣/ ٣٥٧ - ٣٥٩] .

(٢) عن أم سلمة قالت : قال رسول الله ﷺ : «إنكم تختصمون إلىَّ ، وإنما أنا بشر ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض ، فأقضى له على نحو مما أسمع منه ، فمن قطعت له من حق أخيه شيئاً فلا يأخذه ، فإنما أقطع له به قطعة من النار» أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٦٨٠) ومسلم (١٧١٣) .

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨) ﴾ [الزلزلة]

هذا للمتساوى فى الثقل والوزن ، أما إن كان أصغر من الذرة ، فقد ذكره الحق سبحانه هنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها فقال :

﴿ وَلا أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ .. (٦١) ﴾ [يونس]

وعلى زمن نزول القرآن الكريم لم يكن أحد يعرف أن هناك ما هو أصغر من الذرة ، وكنا جميعاً حتى ما قبل الحرب العالمية الأولى لا نعلم أن هناك شيئاً أصغر من الذرة ، وكان العلماء يعتقدون أن الذرة هى الجزء الذى لا يتجزَّأ ؛ لأنها أصغر ما يقع عليه البصر ، فضرب الله مثلاً بالأقل فى زمن نزول القرآن .

ولما تقدم العلم بعد الحرب العالمية الأولى واخترعت ألمانيا آلةً لتحطيم الذرة قيل عنها : إنها آلة تحطيم الجوهر الفرد . أى : الشىء الذى لا ينقسم ، وهذه الآلة مكونة من اسطوانتين مثل اسطوانتى عَصَّارة القصب ، والمسافة بين الاسطوانتين لا تكاد تُرَى ، وحين حَطَّمت ألمانيا ما قيل عنه «الجوهر الفرد» تحول إلى ما هو أقل منه ، وتفتَّتت الذرّة .

وقد جعل الحق سبحانه المقياس فى الصغر هو الذرة .

وحين اخترعت ألمانيا تلك الآلة توجَسّ المتصلون بالدين وخافوا أن يقال : إن الحق سبحانه لم يذكر ما هو أقل من الذرة ، ولكنهم التفتوا إلى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها ، فقرأوا قول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٦١) ﴾ [يونس]

و﴿مَا يَعْزُبُ﴾ أى: لا يبعد أو يغيب ﴿عَن رَّبِّكَ﴾ أى: عن علمه ﴿مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾. أى: وزن ذرَّة.

وقديماً قلنا: إن البعض يقول: إن «من» قد تكون حرفاً زائداً فى اللغة، كقولنا: «ما جاءنى مِنْ رجل» وتعرب كلمة «من»: حرف جر زائد، و«رجل»: فاعل مرفوع بالضمة الظاهرة التى منع من ظهورها اشتغال المحلِّ وهو «اللام» بحركة حرف الجر الزائد.

ولكن فى كلام الله لا يوجد حرف زائد[1]، فـ «مِنْ» فى قوله: ﴿مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾. أى: من بداية ما يقال له «مثقال».

ويقول الحق سبحانه فى آية أخرى:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى السَّمَـٰوَاتِ وَلا فِى الأَرْضِ ..(٣)﴾ [سبأ]

وكلمة ﴿وَرَبِّى﴾ مُقْسَمٌ به، وحرف «الواو» هو حرف الجر، ولم يأت هنا بالشهادة، وجاء بالغيب، ولم يأت بعلم الغيب فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها.

وعالم الشهادة، تعنى: أنه عَالمٌ بكل ما يشهد، ويظن البشر أنها غير مُحَاط بها لعظمتها؛ أو لأن الله غيب فلا يرى إلا الغيب، لكن الحق سبحانه يرى ويعلم الغيب والشهادة.

---

(١) «حرف الجر الزائد» مصطلح نحوى يقصد به النحاة الزيادة اللفظية فى الكلام. والحق أن حروف الجر «الزائدة» تلك ليست بزائدة لأن لها وظيفة بلاغية. فكلمة «من» فى جملة «ما جاءنى من رجل» تفيد تأكيد معنى النفى. وهناك مثال آخر كثيراً ما يذكره فضيلة الشيخ فى مقولاته، بضرب هذه الأمثلة؛ لأن الحرف ما دام موظفاً فلا يكون زائداً. فيقول: «ما معى مال» و «ما معى من مال». فكلمة «من» فى الجملة الأخيرة تفيد تأكيد نفى وجود أىِّ مال مع المتكلم، وهذا التأكيد ليس موجوداً فى جملة «ما معى مال».

لقد قال الحق كلمة «مثقال ذرة» ثلاث مرات :

مرة حين قال سبحانه : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ..(٧) ﴾ [الزلزلة]

ومرة حين قال هنا :

﴿ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ ..(٦١) ﴾ [يونس]

وجاء بـ «من» هنا ليبين أنه لا يغيب عن الله تعالى من بداية ما يقال له «مثقال» .

وقال الحق سبحانه فى موضع آخر :

﴿ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَـٰوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ ..(٣) ﴾ [سبأ]

وجاء بالسموات أولاً ، وجاء فى الآية - التى نحن بصدد خواطرنا عنها - بالأرض أولاً ، وهو فى الآيتين يتكلم عن علمه للغيب [1] ، فيأتى بمثقال الذرة ويقدِّم السماء ويأتى بها مفردة ، ثم يأتى بما هو أقل من الذرة ويقدِّم الأرض .

وهذا كله من إعجاز أساليب القرآن التى أراد البعض من المستشرقين أن يعترضوا عليها ، وكانت جميع اعتراضاتهم نتيجة لعجزهم عن امتلاك مَلَكة الأداء البيانى .

وإنْ عرضنا الرد على تساؤلاتهم نجد أن الحق سبحانه قَدَّم الأرض فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها ؛ لأنه سبحانه يتكلم عن أهل الأرض :

---

(١) غاب الشيء يغيب غيباً ، استتر عن العين أو عن علم الإنسان فى المعنوى . والغيبة : اسم مرة من غابه ، أى : ذكره فى غيبته بالسوء كاغتابه ، قال الحق : ﴿ وَلا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ..(١٢) ﴾ [الحجرات] والغيبة : اسم هيئة منه . والغيب مصدر ويسمى به من غاب واستتر ، يقول الحق : ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ..(٣) ﴾ [البقرة] كالجنة والنار والملائكة والجن ، وجمعه غيوب . يقول الحق : ﴿ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ (١٠٩) ﴾ [المائدة] .

﴿ ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه .. (٦١) ﴾[يونس]

وجاء أيضاً بالسماء ، وهى السماء الدنيا التى يراها أهل الأرض.

أما الآية الأخرى فهو سبحانه يقول:

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى السَّمَـٰوَاتِ وَلا فِى الأَرْضِ ..(٣) ﴾ [سبأ]

والكلام هنا عن الساعة ، وعلمها عند الله تعالى ، ولم تنزل من السموات إلى السماء الدنيا حتى نقول للمكلَّفين فى الأرض: قوموا ها هى الساعة.

ولذلك جاء الحديث هنا عن السموات أولاً ؛ لأن علم الساعة عند ربِّى ، ولن ينزل إلا بمشيئته سبحانه .

وهكذا جاء كل أسلوب لا بإجمال المعنى ، ولكن بدقة جزئياته ، فتكلم فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها ، وآية سبأ عن العلم والذرَّة ، والسماء والأرض ، وكل آية جاءت الكلمات فيها بتقديم أو تأخير يناسب مجالها.

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿إلاَّ فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ[1] (٦١) ﴾ [يونس]

ولنا أن نلتفت إلى أن الاستثناء هنا لا يُخْرِج ما قبله ، بل كل شىء

---

(١) بان الشىء يبين بياناً ظهر واتضح ، فهو بيّن وهى بينة . أى : ظاهر وظاهرة ، ويستعمل البين والبينة بمعنى المظهر والمظهرة والموضح والموضحة .
يقول الحق سبحانه: ﴿ كَمْ آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ .. (٢١١) ﴾ [البقرة] والبينة تستعمل بمعنى الحجة والبرهان ، وقوله : ﴿ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ (١٥) ﴾ [المائدة] أى : موضح للحق اسم فاعل من أبان المتعدى ، وقوله : ﴿ وَهُوَ فِى الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ (١٨) ﴾ [الزخرف] أى : غير مظهر [حرف ب من : القاموس القويم].

مكتوب فى الكتاب المبين ، ونحن فى الدنيا نجد الإنسان إن كان له دَين عند آخر فهو يحتفظ بالوثائق المكتوبة التى تُسجِّل ما له وما عليه. ولكن ، أيحتفظ الحق سبحانه بأعمالنا ونيَّاتنا مكتوبة كحجة له ، أم حجة لنا ؟

إنه سبحانه يعلم أزلاً كل أعمالنا ، ولكنه يُسجِّل لنا بالواقع تلك الأعمال والنيات ؛ لنعلم عن أنفسنا ماذا فعلنا ؛ لتنقطع حجة من أساء إذا وقع به العقاب.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾

وجاءت هذه الآية بعد كلامه الحق عن نفسه سبحانه بأنه عالم الغيب ، ولا يخفى عليه شيء ، وشاء الله سبحانه بذلك أن يعلّمنا أنه قد يفيض على بعض خلقه فيوضات الإمداد على قَدْر رياضات المرتاضين ، فَهَبْ أن الله قد امتن عليك بنفحة ، فإياك أن تقول إنها من عندك ، بل هى من عند عالم الغيب سبحانه الذى لا يخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السماء.

وعلى ذلك فلا يقال : إن فلاناً قد عَلم غيباً لأنه ولىٌّ لله ، بل لنقل : «إن فلاناً مُعَلَّمُ غَيْب» ؛ لأن الغيب هو ماَ غاب عن الناس ، وما يغيب عنك ولا يغيب عن غيرِك فهو ليس غيباً مطلقاً.

ومثال ذلك : الرجل الذى سُرق منه شيء ، هو لا يعرف أين يوجد الشيء الذى سُرق منه ، ولكن اللص يعرف ، وكذلك من ساعد اللص وأخفاه وأخفى له المسروقات ، كل هؤلاء يعلمون ، وأيضاً الجن الذين كانوا فى نفس مكان السرقة يعلمون ، وهذا ليس غيباً مطلقاً.

وأيضاً أسرار الكون التى كانت غيباً موقوتاً ، مثل جاذبية الأرض ، والسالب والموجب فى الكهرباء ، وتلقيح الرياح للسحاب [1] لينزل الماء ، كل ذلك كان غيباً فى زمن ما ، ثم شاء الحق سبحانه فحدَّد لكل أمرٍ منها ميعادَ كشفٍ ؛ فصارت أموراً مشهورة .

وقد شاء الحق سبحانه ذلك ؛ ليعمل الإنسان ويجتهد ليكشف أسرار الكون .

ومن العجيب أن الباحث قد يعمل من أجل كشف معين ، فيصادف كشفاً آخر ؛ لأن الله تعالى قد أذن لذلك الكشف الذى كان غيباً أن يولد ، وإن لم يبحث عنه أهل الأرض .

ومن اكتشف «البنسلين» رأى العفن الأخضر حول بعض المواد الغضوية فبحث عن أسرار ذلك ، واكتشف «البنسلين» .

و«أرشميدس» الذى اكتشف قانون الطفو ، واستفادت منه صناعات السفن والغواصات ، وكل ما يسير فى البحر ، وقد تم اكتشاف قانون الطفو صدفة .

إذن : ففى الكون غيب قد يصير مَشْهَداً ، إما بمقدِّمات يتابعها خَلْقُ الله بالبحث ، وإما أن تأتى صدفة فى أثناء أى بحث عن شيء آخر .

ومثال ذلك : عصر البخار الذى بدأ من رجل رأى إناء مُغَطّى يغلى فيه الماء ، فظل غطاء الإناء يرتفع ليُخرج بعضاً من البخار ، وانتبه الرجل إلى

---

(١) يقول سبحانه : ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ (٢٢) ﴾ [الحجر] والرياح لواقح أى : أنها تحمل حبوب اللقاح التى تلقح بها النبات والشجر ، أو أنها تستدر السحب لينزل منها الماء . [بتصرف من اللسان] .

أن البخار يمكن أن يتحول إلى طاقة تجرّ العربات التى تسير على عَجَل ، وهكذا جاء عصر البخار .

إذن : فميلاد بعض من أسرار الكون كان تنبيهاً من الله تعالى لأحد عباده لكى يتأمل ؛ ليكتشف سِراً من تلك الأسرار(١) .

وأغلب أسرار الكون تم اكتشافها صدفة ، لنفهم أن عطاء الله بميلادها - دون مقدمات من الخَلْق - أكثر مما وُصِل إليه بالعطاء من مقدمات الخلق .

ولذلك تجد التعبير الأدائى فى القرآن عن لونَى الغيب ، تعبيراً دقيقاً لنفهم أن هناك غيباً عن الخلق جميعاً وليست له مقدمات ، ولا يشاء الله سبحانه له ميلاداً ، واستأثر الله بعلمه ؛ فلا يعلمه إلا هو سبحانه .

يقول الحق سبحانه :

﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ ..(٢٥٥) ﴾ [البقرة]

هذا هو الغيب الذى يكشفه الله سبحانه لهم ، إما بالمقدمات ، أو بالصدفة ، وقد نسب المشيئة له سبحانه ، والإحاطة من البشر ، وهذا هو غيب الابتكارات .

أما الغيب الآخر الذى لا يعلمه أحد إلا هو سبحانه ولا يُجَلِّيه إلا الرسول ﷺ ، فيقول الحق عنه :

---

(١) من الغيب ما يصير مشاهداً عند الإذن بميلاده بأمر الله سبحانه ، إما بمقدمات أو بغير مقدمات رحمةً للبشرية ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ .. (١) ﴾ [النحل] ، وهناك غيب لله لا يظهره لأحد إلا من ارتضى من رسول .

﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ[1] عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ..(٢٧)﴾ [الجن]

إذن : فالحق سبحانه يفيض من غيبه الذاتى على بعض خَلْقه ، والقرآن الكريم فيه الكثير من الغيب ، وأفاضه الله تعالى على رسوله ﷺ ، وتحققت الأحداث كما جاءت فى القرآن .

والحق سبحانه يهب بعضاً من خلقه بعضاً من فيوضاته ، وقد أعطى الله سبحانه رسوله ﷺ بعضاً من الهِبَات وحدَّد من يعطيه بعضاً من الغيب :

﴿إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ..(٢٧)﴾ [الجن]

وهى ليست للحصر ؛ لأن الرسول ﷺ أسوة[2] ، وقال فيه الحق سبحانه :

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا (٢١)﴾ [الأحزاب]

ومن يعمل بعمل الرسول ﷺ ويقتدى به ؛ يهبه الله تعالى هبةً يراها الناس فيعرفون أن مَنْ يتّبع الرسول ﷺ كقدوة يعطيه الله سبحانهَ الهبات النورانية ، ولكن هذه الهِبَة ليست وظيفة ، وليست (دُكّاناً) للغيب ، بل هى مِنْ عطاءات الله تعالىَ .

---

(١) ظهر الشيء يظهر ظهوراً من باب فتح بمعنى تبين ، وبرز بعد الخفاء ، قال الحق : ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ .. (٣٣)﴾ [الأعراف] وظهر على خصمه غلبه ، يقول الحق : ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ ..(٢٠)﴾ [الكهف] أى : إن ينتصروا عليكم يقتلوكم رمياً بالحجارة ، وأظهر الرجل على عدوه نصره عليه حتى تمكّن منه ، ومنه قوله تعالى : ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ..(٣٣)﴾ [التوبة] أى : لينصره على جميع الأديان (حرف الظاء - القاموس القويم) .

(٢) الأسوة : القدوة . [لسان العرب : مادة (أ س ى)] . أى : الاقتداء بفعل الغير واتخاذه مثلاً يحتذى ، سواء أكان فى الخير أو فى الشر ، وشاع استخدامها فى الخير .

وانظـر إلى دقة القـرآن حـين يقـول :

﴿ وَعِـندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إلاَّ هُوَ [(١)] ..(٥٩) ﴾ [الأنعام]

أى : أنه سبحانه لم يُعْط مفتاح الغيب لأحد ، والولىّ من أولياء الله إنما يأخذ الهبة منه سبحانه ، لكن مفتاح الغيب هو عند الله وحده .

وعندما نتأمل قـول الحـق سـبحانه :

﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) ﴾ [يونس]

نجد أن كلمة «ولىّ» من وَلِـيَهُ ، يليه ، أى : قريبٌ منه ، وهـو أول مَفْزَع يفزع إليه إن جاءه أمر يحتاجَ فيه إلى معاونة من غيره ، وإن احتاج إلى نصرة فهو ينصره ، وخيره يفيض على مَنْ والاه .

ومَنْ يقْرُب عالماً يأخذ بعضاً من العلم ، ومَنْ يقرب قويّاً يأخذ بعضاً من القوة ، ومَنْ يقرب غنيّاً ، إن احتاج ، فالغنى يعطيه ولو قَرْضاً .

إذن : فالوَلىّ هو القريب الناصر المُعين المُوالى .

وتطلق «الولى» مرةً لله سبحانه ، وقد قال القرآن :

﴿ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ [(٢)] ..(٩) ﴾ [الشورى]

---

(١) قال الزجاج : جاء فى التفسير أنه عنى قوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ .. (٣٤) ﴾ [لقمان]. قال : فمن ادعى أنه يعلم شيئاً من هذه الخمس فقد كفر بالقرآن ؛ لأنه قد خالفه . [لسان العرب : مادة (ف ت ح)].

(٢) تقول اللغة : الولى : هو القريب بالنسب أو بالمحبة أو بالطاعة ، أو الولى الصديق ، وهو ضد العدو ، والولى : المطر بعد المطر والولى من يلى أمر إنسان ، ويقوم على شئونه ، كالوكيل ، ويجمع على أولياء ، وأولياء الله هم المؤمنون المتقون ، يقول الحق : ﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) ﴾ [يونس] والولى : من تولاه الله بالرعاية ، وتولى هو منهج الله بالسلوك للهداية ، ولذلك يقول سبحانه : ﴿ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٤) ﴾ [يونس] (حرف الواو – القاموس القويم) .

لأنه سبحانه القريب من كل خَلْقه ، عكس الخَلْق الذين يقتربون من بعضهم أو يتباعدون حسب إمكاناتهم ، أما الله سبحانه وتعالى فهو الوليّ المُطلَق ، فقُربه منْ خَلْق لا يبعده عن خَلق ، ولا يشغله شيء عن شيء ، فهو الوليّ الحقُّ ، وهو سبحانه يقول:

﴿ هُنَالِكَ الْوَلايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ ..(٤٤) ﴾ [الكهف]

فمن يحتاج إلى الولاية الحقَّة فليلجأ إلى الله ، وهو سبحانه يُفيض على الأوفياء لمنهجه من الولاية.

ونجد التعبير القرآني الدقيق :

﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا ..(٢٥٧) ﴾ [البقرة]

فهو سبحانه يقرب من عباده المؤمنين ، والمؤمنون يقربون من الله تعالى في قول الحق سبحانه :

﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ .. (٦٢) ﴾ [يونس]

إذن: فالولاية المطلقة لله ، وإنْ قُيِّدت بشيء مضاف ومضاف إليه ، فهي مرة تكون من المؤمنين لله ، ومرة تكون من الله للمؤمنين.

والحق سبحانه لا تحكمه قوانين ؛ فبطَلاقة قُدرته سبحانه إذا رأى في إنسان ما خَصْلة من خير ، فيكرمه أولاً ، فيصير هذا العبد طائعاً من بعد ذلك.

وتسمع من يقول: إن فلاناً قد خُطف من المعصية أي: أنه كان عاصياً ، ثم أحب الله تعالى خَصْلة خيرٍ فيه ، فهداه.

ومثال ذلك: الرجل الذي سقى كلباً ، بل احتال ليسقيه بأن ملأ خُفَّه

بالماء من البئر ليروى ظمأ الكلب ؛ فغفر الله - سبحانه وتعالى - له سيئاته[١] .

هذا الرجل لم يكن ليروى الكلب نفاقاً للكلب ، ولكن لأن الرجل شعر بالعطف على كائن ذى كبد رطبة .

إذن : فليست المسائل عند الله تعالى آلية أو ميكانيكية ، بل طلاقة قُدرته سبحانه تقدّر كل موقف كما قدَّرتْ اختلاف الخَلْق ، ولذلك قال سبحانه :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ[٢] وَأَلْوَانِكُمْ ..(٢٢) ﴾ [الروم]

فليس عند الله تعالى قالب يضع فيه الخلق ، بل سبحانه يخلق الطويل والقصير والسمين والرفيع والأشقر والزنجى ، وهذا بعضٌ من طلاقة قدرته سبحانه ، وبرحمته سبحانه قرب من خَلْقه الذين آمنوا أولاً ، وقربه سبحانه منهم : ﴿ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ..(٢٥٧) ﴾ [البقرة]

فمن يتبع المنهج يأخذ النور ، فإذا علم الله سبحانه عمله بمنهجه فهو سبحانه يُقرّبه قُرْباً أكثر فيعطيه هبةً اصطفائية يراها الذين حوله وقد يقتدون به .

والحق سبحانه يريد من المؤمن الأدب مع خَلْق الله ، فإذا علم سيئةً عن إنسان فعليه أن يسترها ؛ لأن الحق سبحانه يحب السَّتْر ويحب من يَستر.

---

(١) وذلك أن أبا هريرة روى أن رسول الله ﷺ قال : « بينما رجل يمشى بطريق اشتد عليه العطش ، فوجد بئراً فنزل فيها فشرب ، ثم خرج فإذا كلب يلهث ، يأكل الثرى من العطش ، فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذى كان بلغ بى ، فنزل البئر ، فملأ خفه ، ثم أمسكه بفيه (بفمه) فسقى الكلب ، فشكر الله له ، فغفر له» . قالوا : يا رسول الله ، وإن لنا فى البهائم أجراً ؟ فقال : « فى كل ذات كبد رطبة أجر » . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٠٠٩) ، ومسلم فى صحيحه (٢٢٤٤) .

(٢) اختلاف الألسنة : اختلاف اللغات .

وأنت قد تكره إنساناً تعلم عنه سيئةً ما ، وقد تكره كل حسنة من حسناته ، فيريد الله ألاّ يحرمك من حسنات مَنْ له سيئة فيسترها عنك لتأخذ بعضاً من حسناته ، ويأمرك الحق ألاّ تحتقر هذا المسيء ؛ لأنه قد يتمتع بخَصْلة خير واحدة ، فيكرمه الله سبحانه من أجلها أولاً ، ثم يطيعه هذا العبد ثانياً .

والحق سبحانه يقول فى الحديث القدسى :

« يا ابن آدم أنا لك محبٌّ فبحقّى عليك كن لى مُحبّاً » .

ويقول الله سبحانه فى حديث قدسى :

« أنا عند ظن عبدى بى ، وأنا معه إذا ذكرنى ، فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، وإنْ ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منهم » .

وفى هذا القول يضع مسئولية القُرب من الله فى يد الخَلْق ، ويضيف الحق سبحانه :

«وإنْ تقرَّب إلىَّ شبراً تقرّبتُ إليه ذراعاً ، وإن تقرب إلىَّ ذراعاً تقربت إليه باعاً ، وإن أتانى يمشى أتيته هرولة»[1] .

ومن يريد أن يأتيه الله هرولة فليذهب إلى الله ماشياً .

إذن : فالإيمان بالله يسلِّم المؤمن مفتاح القرب من الله .

ومن يكن من أصحاب الخُلُق الملتزمين بالمنهج يُقرِّبْه الله منه أكثر وأكثر .

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٧٤٠٥) ومسلم (٢٦٧٥) عن أبى هريرة . والذراع من الإنسان من طرف المرفق إلى طرف الإصبع الوسطى . والذراع من المقاييس ، ومن أشهر أنواعه الذراع الهاشمية وهى ٣٢ إصبعاً أو ٦٤ سنتيمتراً . [المعجم الوسيط : ذرع] . والباع : مسافة ما بين الكفين إذا انبسطت الذراعان يميناً وشمالاً ، والمراد : المبالغة فى الاتساع [المعجم الوسيط : ب و ع] . والهرولة : الإسراع .

إذن: فمن الناس مَنْ يصل بطاعة الله إلى كرامة الله ، ويدق على باب الحق ، فينفتح له الباب ، ومن الناس مَنْ يصل بكرامة الله أولاً إلى طاعة الله ثانياً .

ولله المثل الأعلى : أنت كواحد من البشر قد يدق بابك إنسانٌ يحتاج إلى لقمة أو صدقة فتعطيه ، وهناك إنسان آخر تحب أنت أن تعطيه ، وعندما تعطيه يطيعك من منطلق الإحسان إليه، فما بالنا بعطاء الحق لعباده ؟

إذن: فمنهم مَنْ يصل بكرامة الله إلى طاعة الله ، ومنهم من يصل بطاعة الله إلى كرامة الله ، وحين يصل الإنسان إلى القرب من الله ، ويقرب الله من العبد ، هنا يكون العبد فى معية الله ، وتفيض عليه هذه المعية كثيراً .

وقد قال أبو العلاء المعرى [1] لمحبوبته :

أنت الحبيبُ ولكنى أعوذ بهِ من أن أكون حبيباً غير محبوبِ

أى : أنه يستعيذ بالله من أن يكون محباً لمن يرفض حبّه ، ولكن محبة الله تختلف عن محبة البشر ، وسبحانه لا يعامل محبيه كذلك ، فأنت حين تحبّ الله يقرّبك أكثر وأكثر ، ويسمَّى ذلك « المصافاة » ، فإذا أفاض الله سبحانه على بعض خَلْقه هبات من الكرامات فعلى العباد الذين اختصهم الحق سبحانه بذلك أن يُحَسنوا الأدب مع الله ، وألا يتبجَّح واحد منهم متفاخراً بعطاء الله سبحانه له .

فالمباهاة بالكرامات تضيعها ، ويسلبها الحق سبحانه من الذى يتبجَّح بها

---

(١) هو أحمد بن عبد الله بن سليمان ، شاعر فيلسوف ، ولد ٣٦٣ هـ ومات فى معرَّة النعمان (٤٤٩ هـ) عن ٨٧ عاماً ، عمى فى الرابعة من عمره ، قال الشعر وهو ابن إحدى عشرة سنة . ولما مات وقف على قبره ٨٤ شاعراً يرثونه . [الأعلام للزركلى (١/ ١٥٧)] .

ويتفاخر ويتباهى ، فمن تظاهر بالكرامة ليس له كرامة .

إذن : فالحق سبحانه يريد أن يكون العبد دائماً فى معيّته ، وهو سبحانه الذى بدأ وبيَّن بالآية الواضحة أنه سبحانه ولىّ المؤمنين ؛ ولذلك سيخرجهم من الظلمات إلى النور[1] . فقال :

﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ .. (٢٥٧) ﴾ [البقرة]

ونحن نعلم أنه سبحانه يأتى بالمحسَّات ليبيِّن المعنويات ؛ لأن إلْفَ الإنسان أولاً بالمحسَّات ، وهى أقرب إلى تقريب المراد ، فحين يضرب الحق سبحانه لنا المثل بالكفر والإيمان ، يصف الكفر بالظلمة ، والإيمان بالنور ، إنما يريد الحق أن يجعل لك المراد واضحاً موصولاً بمفهومك .

وإذا كنا نتجنَّب معاطب الظلمات الحسية ، أليس الأجدر بنا - أيضاً - أن نتجنب معاطب الظلمات المعنوية ، إن الظلمة الحسية تستر الأشياء فلا نرى الأشياء ، وقد نرتطم بأضعف شىءٍ فنحطِّمه أو نصطدم بأقوى شىء فيحطمنا .

إذن : فَحَجْب المرائى يسبِّب الكوارث ، أما حين يأتى النور ؛ فهو يبيِّن ملامح الأشياء فتسير على هُدىً وأنت مطمئن .

وهَبْ أنك فى مكان مظلم ويوجد شىء آخر فى مكان منير ، فأنت فى الظلمة ترى مَنْ يوجد فى النور ، وهذه مسألة لم يفطن لتفسيرها علماء

(١) يقول الحق : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (٤١) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (٤٢) هُوَ الَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا (٤٣) ﴾ [الأحزاب] فقد عبر القرآن بالظلمات ، والمراد بها الكفر ، وبالنور والمراد به الإيمان ، وهذه هى بلاغة الإعجاز فى كتاب الله .

ما قبل الإسلام ، حيث كانوا يظنون أن الرؤية إنما تحدث من انتقال شعاع من عين الرائى إلى المرئىِّ ، حتى جاء «الحسن بن الهيثم» العالم الإسلامى واكتشف قوانين الضوء ، وكشف خطأ ما سبقه من نظريات ، وحدَّد أن المرئىّ هو الذى يصدر منه شعاع إلى الرائى ، وإذا ما كان المرئى فى ظُلمة فلن يراه أحد ، ولو كان هناك شعاع يخرج من الرائى ؛ لرأى الإنسان فى الظلام .

إذن : أول ولاية من الله للمؤمنين أنه سبحانه يخرجهم من الظلمات إلى النور ، والظلمة المعنوية أقوى من الظلمة الحسية ، وكذلك النور المعنوى أقوى من النور الحسّى ، فعالَمُ القيم قد يكون أقوى من عالم الحس ؛ لأن الجبر فى عالم الحسّ يمكن أن يحدث ، أما فى عالم القيم فهو أمر شاق ؛ ولذلك قال الشاعر :

جراحاتُ السنانِ[1] لها التئامُ ... ولا يلتامُ ما جَرَحَ اللسانُ

ويقول الحق سبحانه فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿ **أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ** (٦٢) ﴾ [يونس]

و«ألا» كما أوضحنا من قبل أداة تنبيه من المتكلّم للمخاطب حتى لا تفوته كلمة واحدة مما يجىء فى الخطاب .

وقوله سبحانه : ﴿ **لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ** ..(٦٢) ﴾ . أى : لا خوف عليهم من غيرهم ﴿ **وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ** (٦٢) ﴾ أى : أن الحزن لن يأتى منهم ، والخوف يكون من توقع شىء ضار لم يقع حتى الآن ، ولكنه قد

(١) السنان : السهام والرماح . وجراحاتها : آثار الجروح نتيجة الإصابة بها . والالتئام : هو اندمال هذه الجروح . [انظر لسان العرب] .

يحدث فى المستقبل .

وفى حياتنا اليومية نجد الأب يمسك بيد ابنه فى الزحام خوفاً عليه ، وقد ترى وليّاً من أولياء الله وقد أصيب ابنه فى حادث أو مات الابن ، تجد الولىّ فى ثبات لأنه يعلم حكمة الله فى قضائه ، فلا تتطوع أنت بالخوف عليه .

إذن : فالخوف يأتى من المستقبل ، وهو أمر مرتقب ، أما الحزن فهو إحساس يحدث على شىء فات .

والحق سبحانه يقول :

﴿ لِكَيْلا تَأْسَوْا [1] عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ .. (٢٣) ﴾ [الحديد]

والحزن على ما فات عبث ؛ لأن ما فات لا يعود .

وأولياء الله تعالى لا خوف عليهم ؛ لأنهم دائماً بصدد معرفة حكمة الله ، ومَنْ لا يعرف حكمة الله تعالى فى الأشياء قد يقول : «إن فلاناً هذا مسكين» ؛ لأنك لا تعرف ماذا جرى له .

وأما الحزن فهو مشاعر قلبية يريد الله من المؤمن أن تمر على باله .

وقد قال ﷺ حين افتقد ابنه : «وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون» ولكنه حزن الورَع الذى يتجلّى فى قوله ﷺ :

«إن العين تدمع ، والقلبْ يحزن ، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا » [2] .

---

(١) الأسى : الحزن الشديد . وتمام الآية : ﴿ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ .. (٢٣) ﴾ [الحديد] بل عليه أن يكون متوازناً ، فلا يحزن على شىء فاته ، ولا يفرح بشىء جاءه قد يذهب بعد حين .

(٢) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (١٣٠٣) ومسلم (٢٣١٥) من حديث أنس بن مالك .

ويبيّن الله سبحانه لنا شروط الولاية فيقول:

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾

والإيمان هو الأمر الاعتقادى الأول الذى يُبنى عليه كل عمل ، ويقتضى تنفيذ منهج الله ، الأمر فى الأمر ، والنهى فى النهى، والإباحة فى الإباحة .

والتقوى - كما علمنا - هى اتقاء صفات الجلال فى الله تعالى ، وأيضاً اتقاء النار ، وزاد رسول الله ﷺ فى صفات من تصدر عنه التقوى ؛ لأنها مراحل ، فقال ﷺ يصف المتقين:

«هم قوم تحابُّوا بروح الله على غير أرحام بينهم ، ولا أموال يتعاطونها ، فوالله إن وجوههم لنور، وإنهم لَعلَى نور»[(١)].

وقد سُئل عمر - رضى الله عنه - عن المتقين فقال: « الواحد منهم يزيدك النظر إليه قُرباً من الله». وكأنه-رضى الله عنه - يشرح لنا قول الحق سبحانه:

﴿ سِيمَاهُمْ[(٢)] فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ..﴿٢٩﴾ ﴾ [الفتح]

وساعة ترى المتقى لله تُسَرُّ وتفرح به ، ولا تعرف مصدر هذا السرور إلا حين يقال لك: إنه ملتزم بتقوى الله ، وهذا السرور يلفتك إلى أن تقلده ؛ لأن رؤياه تذكِّرك بالخشوع[(٣)] ، والخضوع[(٤)] ، والسكينة ، ورقَّة

---

(١) أخرجه أبو داود فى سننه (٣٥٢٧) من حديث عمر بن الخطاب، وتمامه: «إن من عباد الله لأناساً ما هم بأنبياء ولا شهداء، يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله تعالى» قالوا: يا رسول الله، تخبرنا: من هم؟ قال: « هم قوم تحابوا بروح الله على غير أرحام بينهم ، ولا أموال يتعاطونها ، فوالله إن وجوههم لنور ، وإنهم لعلى نور ، لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس» وقرأ هذه الآية: ﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [يونس].

(٢) سيماهم: علامات التقوى والإيمان ، وهو ذلك النور فى وجوههم.

(٣) خَشَع (خشوعًا) إذا خضع ، وخَشَعَ فى صلاته ودعائه . وقيل : بقلبه على ذلك ، وهو مأخوذ من (خَشَعَتْ) الأرض إذا سكنت واطمأنت [المصباح المنير] .

(٤) وخضع لغريمه (يخضع) خضوعاً : ذَلَّ واستكان فهو خاضع وأخضعه الفقر : أذله . والخضوع قريب من الخشوع إلا أن الخشوع أكثر ما يستعمل فى الصوت ومنه : ﴿ وَخَشَعَت الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ .. ﴿١٠٨﴾ ﴾ [طه] والخضوع فى الأعناق ومنه قول الفرزدق : خضع الرقاب نواكس الأبصار . [المصباح المنير]

السَّمْت ، وانبساط الأسارير.

والواحد من هؤلاء ينظر إلى الكون ولا يجد فى هذا الكون أى خَلَل، بل يرى كل شيء فى موضعه تماماً، ولا يرى أى قُبح فى الوجود، وحتى حين يصادف القبح، فهو يقول: إن هذا القبح يبيِّن لنا الحُسْن، ولولا وجود الباطل ومتاعبه لما عشق الناسُ الحقّ، وهكذا يصير الباطل من جنود الحق.

إن وجود الشرّ يدفع الناس إلى الخير ؛ ولذلك يقال: كُنْ جميلاً فى دينك تَرَ الوجود جميلاً ؛ لأنك حين ترى الأشياء وتقبل قدر الله فيها ، هنا يفيض الله عليك بهبات من الفيض الأعلى، وكلما تقرَّبت إلى الله زاد اقتراب الله سبحانه منك ، ويفيض عليك من الحكمة وأسرار الخلق[1].

ومثال ذلك: العبد الصالح الذى آتاه الله من عنده رحمة وعلَّمه من لدنه علماً ، هذا العبد يعلّم موسى عليه السلام[2] ، فحين قارن بين خَرْق العبد الصالح لسفينة سليمة ، ولم يكن يعلم أن هناك حاكماً ظالماً يأخذ كل سفينة غَصْباً ؛ ولذلك ناقش موسى العبد الصالح ، وتساءل: كيف تخرق سفينة سليمة؟ وهنا بيَّن له العبد الصالح أن الملك الظالم حين يجد السفينة مخروقة فلن يأخذها ، وهى سفينة يملكها مساكين[3].

وحين قَتل العبدُ الصالح غلاماً ، كان هذا الفعل فى نظر سيدنا موسى

(١) ويقول رسول الله ﷺ : « ما تقرب إلىَّ عبدى بشيء أحبَّ إلىَّ مما افترضته عليه ، وما يزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، وإن سألنى لأعطينه ، ولئن استعاذ بى لأعيذنه » أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٥٠٢) وأحمد فى مسنده (٦/٢٥٦) عن أبى هريرة .

(٢) قال سبحانه عن موسى وفتاه فى لقائهما بالخضر عليه السلام: ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا (٦٥) قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا (٦٦) قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٦٧) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا (٦٨) قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا (٦٩) قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا (٧٠) ﴾ [الكهف].

(٣) وذلك أن موسى استنكر عليه فعله هذا فقال : ﴿ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا (٧١) ﴾ [الكهف] فكان رده عليه فيما بعد : ﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا (٧٩) ﴾ [الكهف].

جريمة ، ولم يعلم سيدنا موسى ما علمه العبد الصالح أن هذا الولد سوف يسىء إلى أهله ، وأمر الله العبد الصالح بقتله قبل البلوغ حتى لا يفتن أهله [١] ، وسوف يدخل هذا الولد الجنة ويصير من دعاميص [٢] الجنة .

ويقال : إن من يموت من قبل البلوغ ليس له مسكن محدّد فى الجنة ، بل يذهب حيث يشاء ؛ فهو كالطفل الصغير الذى يدخل قصراً ، ولا يطيق البقاء فى مكان واحد ، بل يذهب هنا وهناك ، وقد يذهب إلى حيث سيدنا محمد ﷺ أو أبو بكر الصديق ، أو عند أى صحابى جليل .

وأيضاً حين دخل سيدنا موسى - عليه السلام - مع العبد الصالح إلى قرية واستطعما أهلها فرفضوا أن يطعموهما - وطلب الطعام . هو أصدق ألوان السؤال - فأبى أهل القرية أن يطعموهما ، وهذا دليل الخسَّة واللؤم ؛ فأقام العبد الصالح الجدار الآيل للسقوط فى تلك القرية .

ولم يكن سيدنا موسى - عليه السلام - قد علم ما علمه العبدُ الصالح من أن رجلاً صالحاً قد مات وترك لأولاده كنزاً تحت هذا الجدار ، وبناه بناية موقوتة بزمن بلوغ الأبناء لسن الرشد؛ فيقع الجدار ليجد الأبناء ما ترك لهم والدهم من كنز ، ولا يجرؤ أهل القرية اللئام على السطو عليه [٣] .

---

(١) قال موسى : ﴿ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا (٧٤) ﴾[الكهف] فنبأه الخضر بتأويل ما لم يستطع فهمه أ. استيعابه فقال له : ﴿ وَأَمَّا الْغُلامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا (٨٠) فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا (٨١) ﴾ [الكهف] .

(٢) دعاميص : هم صغار الأطفال ، فسر بالدويبة التى تكون فى مستنقع الماء ، قال : والدُّعْموص : الدخَّال فى الأمور ، أى : أنهم سَيَّاحون فى الجنة دَخَّالون فى منازلها ، لا يُمنعون من موضع ، كما أن الصبيان فى الدنيا لا يُمنعون من الدخول على الحُرَم ، ولا يحتجب منهم أحد . [لسان العرب : مادة (دع م ص)] .

(٣) وهذا أمر ذكره رب العزة فى كتابه فقال عن موسى والخضر : ﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا (٧٧) ﴾ [الكهف] .
فقال له الخضر فيما بعد : ﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي .. (٨٢) ﴾ [الكهف] .

إذن : هذه هباتٌ من فيض الحق سبحانه على عباده الصالحين ، وهو سبحانه وتعالى يجعل مَثَل هؤلاء العباد كالصوارى المنصوبة التى تهدى الناس ، أو كالفنار الذى يهدى السفن فى الظلمة .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ ﴿٦٤﴾

والبُشرى [١] : من البشْر والبشارة والتبشير ، وكلها مأخوذة من البشرة ، وهى الجلد ؛ لأن أى انَفعال فى باطن النفس الإنسانية إنما ينضح على البشرة ، فإذا جئت للإنسان بأمر سارٍّ تجد أثر هذا السرور على أساريره ، وإن جئت للإنسان بخبر سيِّىء تجد الكدر وقد ظهر على بشرته ، فالبشرة هى أول منفعل بالأحداث السارة أو المؤلمة .

وحين يقال : «بشرى» فهذا يعنى كلاماً إذا سمعه السامع يظهر على بشرته إشراق وسرور ؛ لأنه كلام مبشِّر بخير .

وحين سئل رسول الله ﷺ عن البشرى ، قال : « إنها الرؤية الصالحة تُرى للمؤمن أو يراها »، وقال ﷺ : « إنها جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة» [٢] .

---

(١) بشرَ بكذا ، ويبشر ، مثل : فرح ، وزناً ومعنىً ، وهو الاستبشار ، والمصدر : البشور واسم الفاعل من المخفف : بشير ، وهو البشير فى الخير أكثر من الشر ، والبشر . والبُشْرَى : فُعْلَى من ذلك ، والبشارة إذا أطلقت اختصت بالخير . والبشْر : طلاقة الوجه . والبَشْرة : ظاهر الجلد . وبين البشرى بمعنى السرور ، والبشرة ظاهر الجلد تفاعلٌ يظهر مرئياً فى السرور وغيره . [المصباح المنير - بتصرف] .

(٢) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٩٨٣) ومسلم (٢٢٦٤) عن أنس بن مالك أنه ﷺ قال : «الرؤيا الحسنة من الرجل الصالح جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة» .

وقد أوحى للنبى ﷺ بالرؤيا ستة أشهر ، وأوحى إليه فى اليقظة ثلاثة وعشرين عاماً ، فإذا نسبت الستة أشهر إلى الثلاثة والعشرين عاماً ، تجد أن الستة أشهر تمثل جزءاً من ستة وأربعين جزءاً .

والرؤيا ليست هى الحُلْم ؛ لأن الرؤيا هى شىء لم يشغل عقلك نهاراً ، وليس للشيطان فيه دخل .

والمثل العامى يقول : «الجوعان يحلم بسوق العيش» فإن كان ما يراه الإنسان فى أثناء النوم له علاقة بأمر يشغله ، فهذا هو الحلم ، وليس الرؤيا ، وإن كان ما يراه الإنسان فى أثناء النوم شيئاً يخالف منهج الله ، فهذه قذفة من الشيطان [١] .

إذن : فهناك فارق بين الرؤيا والحلم ، وأضغاث الأحلام [٢] .

البشرى - إذن - هى الرؤيا الصالحة ، أو هى المقدمات التى تُشْعر خَلْق الله بهم فتتجه قلوب الناس إلى هؤلاء الأولياء ، وقد تجد واحداً أحبه الله تعالى فى السماء ، فيقول الله سبحانه وتعالى لجبريل عليه السلام : « إنى أحب فلاناً فأحبَّهْ . قال : فيحبه جبريل ، ثم ينادى جبريل فى السماء فيقول : إن الله يَحب فلاناً فأحِبُّوه ، فيحبه أهل السماء . قال : ثم يُوضع له القبول فى الأرض [٣] » .

---

(١) ونحو ذلك رواه جابر بن عبد الله عن رسول الله ﷺ أنه قال لأعرابىّ جاءه فقال : إنى حلمت أن رأسى قطع فأنا أتبعه ، فزجره النبى ﷺ وقال : « لا تُخبِرْ بتلعُّب الشيطان بك فى المنام» أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٢٦٨) .

(٢) أضغاث الأحلام : الرؤيا التى لا يمكن تأويلها لاختلاطها والتباسها ، والضغث : الحلم الذى لا تأويل له ولا خير فيه ، وفي التنزيل العزيز : ﴿ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ .. ﴿٤٤﴾ ﴾ [يوسف] أى : رؤياك أخلاط ليست برؤيا بينة ، ﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [يوسف] أى : ليس للرؤيا المختلطة عندنا تأويل . [لسان العرب : مادة (ض غ ث)] . وهم قالوا هذا لعجزهم عن تأويلها ، ولكن يوسف فسرها للملك ، فلا تكون أضغاث أحلام

(٣) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٢٠٩) ومسلم (٢٦٣٧) من حديث أبى هريرة . واللفظ لمسلم ، وتمامه عنده «وإذا أبغض عبداً دعا جبريل فيقول : إنى أبغض فلاناً فأبغضه . قال : فيبغضه جبريل . ثم ينادى فى أهل السماء : إن الله يبغض فلاناً فأبغضوه . قال : فيبغضونه . ثم توضع له البغضاء فى الأرض» .

وساعة تراه مكتوباً له القبول ، فالكل يُجمعون على أن فى رؤيتهم لهذا المحبوب من السماء سَمْتاً طيباً ، وهذه هى البشرى.

أو أن البشرى تأتى لحظة أن يأتى مَلَكُ الموت ، فيُلْقى عليه السلام ، ويشعر أن الموت مسألة طبيعية ، مصداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٢) ﴾ [النحل]

أو ساعة يبيضُّ الوجه حين يأخذ الإنسان من هؤلاء كتابه بيمينه ، وهذه بشرى فى الدنيا وفى الآخرة.

والحق سبحانه يقول :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.. (٣١) ﴾ [فصلت]

إذن : فهؤلاء الأولياء [١] يتلقون من فيوضات [٢] الله عليهم بواسطة الملائكة ويتميزون عن غيرهم ؛ لأن الواحد منهم قد يفرض على نفسه نوافل فوق الفروض ؛ لأن الفروض هى أقل القليل فى التكاليف.

وقد يرى واحد منهم أن القيام بالفروض لا يتناسب مع حبه لله تعالى ؛

---

(١) هؤلاء الأولياء الذين تخلّوا عن المعاصى وتحلّوا بالطاعات فتجلّى سبحانه عليهم بالفيوضات ومن هذا الفيض القبول والرؤيا الصالحة.

(٢) من عطاءات القبول باقى الآيات فى قوله تعالى : ﴿ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (٣١) نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ (٣٢) ﴾ [فصلت] وهناك عطاءات وإمدادات لا نعلمها ، الله يعلمها ، وهو علام الغيوب.

فيزيد من جنسها على ما فرض الله ، ويصلّي - بدلاً من خمسة فروض - عشرة أخرى نوافل ، أو يصوم مع رمضان شهراً أو اثنين ، أو يصوم يومى الاثنين والخميس من كل أسبوع .

وهذا دليل على أنه وجد أن الفروض قليلة بالنسبة لدرجة حبه لله تعالى ، وأن الله تعالى يستحق أكثر من ذلك ، وهذا معناه أن مثل هذا العبد قد دخل فى مقام الود [١] مع الله تعالى ، وهنا يفيض الله سبحانه وتعالى عليه بما يشاء ، وينال من رضوان الله ما جاء فى الحديث القدسى :

«من عادى لى وليّاً فقد آذنته بالحرب ، وما تقرَّب إلىَّ عبدى بشىء أحب إلىَّ مما افترضته عليه ، وما يزال عبدى يتقرب إلىَّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجْلَهُ التى يمشى عليها ، وإن سألنى لأعطينَّه ، ولئن استعاذنى لأعيذنَّه ، وما ترددت عن شىء أنا فاعله ترددى عن نفس المؤمن ، يكره الموت وأنا أكره مساءته» [٢] .

وهكذا تختلف المقاييس بين عبد يحب الله تعالى ويؤدى فوق ما عليه ، وعبد آخر يقوم بالتكاليف وحدها .

ويُنهى الحق سبحانه الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها بقوله :

﴿لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾ [يونس]

---

(١) ودَّ : أحبَّ . والاسم : المودة . وودود ، أى : مُحبٌّ ، يستوى فيه الذكر والأنثى . [المصباح المنير] .

(٢) المساءة : نقيض المسرَّة ، وأصلها : مسوأة ، علَى مفعلة ، ولهذا ترد الواو فى الجمع فيقال : هى (المساوى) لكن استعمل الجمع مخففًا ، وبَدَتْ مساويه أى : نقائصه ، والسوءة : العورة ، والجمع : سوءات ، وسمّيت سوأة لأنها بانكشافها تسوء صاحبها . [المصباح المنير] .
والحديث أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٥٠٢) وأحمد فى مسنده (٦/ ٢٥٦) عن أبى هريرة .

وما دام الحق سبحانه قد قال: ﴿لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ..﴾ فلن تجد أحداً قادراً على ذلك ، كما أن الخلق مقهورون كلهم يوم القيامة ؛ ومَنْ كان يبيح له الله تعالى أن يملك شيئاً في الدنيا لم يعد مالكاً لشيء ، بدليل أن الكل سيسمع قول الحق سبحانه:

﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾ [غافر]

وما دام الحق سبحانه قد وعد ببشرى الدنيا وبشرى الآخرة ، فلا تبديل لما حكم به الله ، فلا شيء يتأبَّى على حكم الله تعالى ، والوعد بالبُشريات في الدنيا وفي الآخرة فوز عظيم مؤكد.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾﴾

تجيء هذه الآية بعد أن بيَّن لنا الله سبحانه وتعالى اعتراضات الكفار ، وإيذاءهم لرسول الله ﷺ وتكذيبهم له وقولهم فيه ما قالوه ، وفيما قالوه ما أحزنه ﷺ ؛ لذلك طلب منه الحق سبحانه ألاَّ ينفعل لما قالوه انفعال الحزين ، فقد قالوا: ساحر ، وكاذب ، ومُفْتَر ، ومجنون ، وقد نفى عنه الحق سبحانه كل ما قالوه ، فلو كان محمد ﷺ ساحراً فلماذا لم يسحرهم هم أيضاً ، وهل للمسحور إرادة مع الساحر؟!

إذن: كَذَّبَ قولَهم في أنه ﷺ سحر عبيدَهم وأولادَهم.

وقالوا: مجنون ، ولم يكن في سلوكه ﷺ أدنى أثر من جنون ، وفنَّد أقوالهم هذه بقوله سبحانه:

﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ [(١)] ۝ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝﴾ [القلم]

فالمجنون لا يكون على خُلُق عظيم أبداً .

وحين قالوا : إنه افترى القرآن ، تحداهم أن يأتوا بسورة من مثل ما قال [(٢)] ، وعجزوا عن ذلك رغم أنهم مرتاضون [(٣)] للشعر والأدب والبيان .

وقول الحق سبحانه :

﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ .. ۝﴾ لأن أقوالهم لا حصيلة لها من الوقوف أمام الدعوة ؛ لأن ﴿.. الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا .. ۝﴾والعزة هى القوة ، والغلبة ، ويقال: هذا الشىء عزيز ، أى: لا يوجد مثله ، وهو سبحانه العزيز المُطْلَق ؛ لأنه لا إله إلا هو لا يُغلَب ولا يُقهَر .

وتلحظ حين تقرأ هذه الآية وجود حرف «الميم» فوق كلمة ﴿قَوْلُهُمْ ۘ﴾ [(٤)] وتعنى : ضرورة الوقف هنا .

---

(١) مَنّ عليه بالعتق وغيره (مَنّا) من باب قتل . وامنن عليه به : أنعم عليه به . والاسم المِنَّة ، والجمع (منن) والمُنة بالضم : القوة ، وهى من الأضداد . ومننت عليه : أى : عددت له ما فعلت له من الصنائع . وفى هذا تكدير وتغيير تنكسر منه القلوب . لهذا نهى الشارع عنه فى قوله :﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ۝٢٦٤﴾ [البقرة] . ومننت الشىء أيضاً إذا قطعته فهو ممنون . والمنّ : شىء يسقط من السماء . فيجنى . [المصباح - بتصرف] .

(٢) وذلك قوله تعالى :﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝٣٨﴾ [يونس] .

(٣) مرتاضون للشعر : أى : لهم دُرْبة على قول الشعر ونَظْمه .

(٤) وهذا هو الوقف اللازم ، ومثله قوله تعالى :﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ .. ۝٣٦﴾ [الأنعام] .

ولسائل أن يقول :

كيف يلزم الوقف هنا مع أن القرآن الكريم مبنيٌّ على الوصل ؛ وآخر حرف في كل سورة تجده مُنوَّناً ، وليس في القرآن ما يُلزِم الوقف للقارىء ؟

وأقول رَدّاً على هذا التساؤل : إن العلماء حين لاحظوا ضعف مَلَكة اللغة ؛ جاءوا بهذا الوقف ليتفهم القارىء - الذى لا علم له بالبيان العربى - كيف يقرأ هذه الآية ، فهَبْ أن واحداً لا يملك فطنة الأداء ، فينسب ﴿ .. **إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا** ..(٦٥) ﴾ إلى ﴿**وَلا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ** .. (٦٥) ﴾ . ويخطىء الفهم ، ويظن - معاذ الله - أن العزة لله هى أمر يُحزِن النبى ﷺ ؛ لذلك جاء العلماء بالوقف هنا لندقِّق القراءة ونُحْسِن الفهم .

ولذلك علينا أن نقرأ ﴿ .. **وَلا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ** .. (٦٥) ﴾ ثم نتوقف قبل أن نتابع القراءة ﴿**إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا** .. (٦٥) ﴾ ؛ وبهذا نفهم المعنى : يجب ألاَّ تحزن يا محمد ؛ لأن أقوالهم لن تغيّر فى مجرى حتمية انتصارك عليهم .

ويريد الحق سبحانه هنا أن يطمئن رسوله ﷺ فى أمر محدد ، هو أنه ﷺ مهمته هى البلاغ فقط ، وليس عليه أن يُلزمهم بالإيمان برسالته والتسليم لمنهجه .

وبيّن له الحق سبحانه : أنهم إذا ما صدُّوا بعد بلاغك ، فلا تحزن مما يقولون ؛ فأقوالهم لا يقوم عليها دليل ، ولا تنهض لها حُجَّة ، وقد جاء فيهم قول الحق سبحانه :

﴿**وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا**(١) **أَنفُسُهُمْ** ..(١٤) ﴾ [النمل]

(١) الجحود: الإنكار رغم العلم. واستيقن الأمر: علمه على سبيل اليقين. [لسان العرب: مادة (ى ق ن)].

وأقوالهم لن تقف فى سبيل دعوتك ، وسيُتمُّ الله نوره ، ولا يوجد أعز من الله سبحانه وتعالى ، ولن يجير أحد على الله أحداً ، فهو سبحانه يُجير ولا يُجار عليه .

وإذا كانت العزة هى القهر والغلبة ، وقد تكون عزة حُجّة ، وقد تكون عزة حلْف ، وقد تكون عزة حكمة ، وكل واحد من خلق الله سبحانه قد توجد له عزة مجال ما أو محيط ما ، لكن العزة لله سبحانه شاملة مطلقة فى كل محيطٍ وفى كلِّ مجال ، شاملةً لكل شىء وأى شىء .

ولماذا لم يأت الحق سبحانه بأسلوب القَصْر [1] فى هذه الآية ؟

أى : أن تأتى الصفة للموصوف وتنفيها عما عداه ؛ كأن نقول : «لزيد مالٌ ليس لغيره» . وإذا قدمنا الجار والمجرور - وهو المتعلّق - فنقول : «لفلان كذا» ، وهذا يعنى أن غير فلان ليس له كذا .

وإنْ قلنا : «فلان له كذا» فيصح أن نقول : «ولفلانٍ كذا ، ولفلانٍ كذا ، ولفلانٍ كذا» .

أما إذا قلت : «لفلان كذا» فمعناها : امتناع أن يكون لغير فلان شىء من مثل ما قلت .

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ ..إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ..(٦٥) ﴾ وجاء بالتأكيد ولم يأت لها بأسلوب القصر الذى يعطى العزة لله سبحانه وينفيها عن غيره ؛ لأنه لا يوجد لهذه الآية مناهض ، وهو كلام ابتدائى يخبر به الله سبحانه خبراً كونياً بأن العزة لله جميعاً .

---

(١) أسلوب القصر (أو الحصر) : هو تخصيص أمر بآخر بطريق مخصوص ، وهو إثبات الحكم للمذكور ونفيه عما عداه . وينقسم إلى : قصر الموصوف على الصفة ، وقصر الصفة على الموصوف ؛ وكل منهما إما حقيقى وإما مجازى . [الإتقان فى علوم القرآن ، لجلال الدين السيوطى - ٣/ ١٤٩] .

وما دام الحق سبحانه هو الذى يقول ذلك - وهو خالق الخلق - فلن تأتى قضية كونية تناقضها ، ولو وجدت - معاذ الله - قضية كونية تناقضها ، فالآية لن تكون صادقة. وهذا لم ولن يحدث أبداً مع آيات الحق سبحانه ؛ لأنه هو خالق الكون ، وهو مُنزل الآيات ؛ فلا يمكن أن يحدث تناقض أبداً بين الكون وكلام خالق الكون سبحانه وتعالى .

وقد حدث أن ادعى بعضهم [١] العزة لنفسه وقالوا:

﴿ ..لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ ..(٨) ﴾ [المنافقون]

وكان مغزى قولهم هو ادعاء العزة لأنفسهم ، وادعاء الذلة للمؤمنين.

إذن: فالعزة قد ادُّعيت ، وما دامت قد ادعيت فلماذا لم تأت بأسلوب القصر؟

نقول: لا ، لقد شاء الحق سبحانه أن يقول:

﴿ ..وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ..(٨) ﴾ [المنافقون]

فالعزة لله لا تتعداه ، ولكنه سبحانه شاء أن تكون عزة رسوله ﷺ وعزة المؤمنين من باطن عزة الله تعالى.

وقول الحق سبحانه هنا:

﴿ ..إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً.. ﴾ أى: فى كل ألوانها هى لله سبحانه وتعالى ، إن كانت عزة حكمة فهو الحكيم ، وإنْ كانت عزة القبض على الأمور فهو

(١) هو عبد الله بن أبىّ رأس النفاق فى المدينة، وكان ذلك فى غزوة بنى المصطلق فى شهر شعبان فى السنة السادسة من الهجرة ، وذلك أنه وصف محمداً وصحبه فقال: « قد نافرونا وكاثرونا فى بلادنا، والله ما أعدنا وجلابيب قريش إلا كما قال الأول: سَمِّن كلبك يأكلك، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنَّ الأعز منها الأذل. ثم أقبل على من حضره من قومه فقال لهم: هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم». أورده ابن هشام فى السيرة النبوية (٣/ ٢٩٠ ، ٢٩١).

العـزيز ، وإن كـانت عـزة الحلْم فـهـو الحليم ، وإنْ كـانت عـزة الغـضب والانتقام فهو المنتقم الجبّـار ، وكلُّ ألوان العزة لله تعالى :

﴿ . . هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦٥) ﴾ [يونس]

وما دامت العزة هى الغلبة والقهر ، فالله سبحانه يسمع من يستحق أن يُقهر منه ، وما دام الأمر فيه قول فهو يجىء بالسمع ، وإنْ كان فيه فعل ، فهو يأتى بصفة العليم ، فهو السميع لما يُقال والعليم بما يُفعل .

ونحن نعلم أن المنهىَّ عنه هنا هو : ﴿ وَلا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ . . (٦٥) ﴾ [يونس]

لذلك كان المناسب أن يقال : ﴿هُوَ السَّمِيعُ . .﴾ أولاً .

ويريد الحق سبحانه أن يدلّـل على هذه القضية دلالة كونية فى آيات الله تعالى فى الـكون ، وليس فى الوجود أو الكون مَنْ يقف أمامه سبحانه ؛ لذلك لا بد أن نلحظ أن قانون «العزة لله جميعاً » محكوم بأن لله تعالى ما فى السموات وما فى الأرض .

لذلك يقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (١) (٦٦) ﴾

فالحق سبحانه - إذن - لن يَخرج كائنٌ مَنْ كان عن ملكه .

وساعة تجد الحق سبحانه يبيِّن الشىء وضده ، فهو يأتى بالقانون والإطار

(١) يخرصون : يتبعون ظنونهم وكذبهم وإفكهم [تفسير ابن كثير (٢/ ٤٢٤)] .

﴿ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ..(٢٨٤) ﴾ [البقرة]

ومثال ذلك: حين تبع قوم فرعون موسى - عليه السلام - وقومه، قال أصحاب موسى: ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١) ﴾ [الشعراء]

قالوا ذلك؛ لأنهم رأوا البحر أمامهم، فشاء الحق سبحانه أن يبيِّن لهم أن البحر لن يعوق مشيئته سبحانه، ولم ينفلت البحر من قوة الله تعالى؛ لأن لله ما في السموات وما في الأرض، والبحر منها؛ لذلك انفلق البحر، فكان كل فِرْقٍ كالطود العظيم[1].

فلا شيء يخرج عن مُلكه سبحانه تعالى؛ ولذلك يأتي الحق سبحانه بالنقيض، فبعد أن جعل الحق سبحانه لهم مسلكاً في البحر، وكل فرْق كالطود العظيم، ويظل البحر مفلوقاً فيدخل قوم فرعون فيه.

والحق سبحانه يقول لموسى عليه السلام: ﴿ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ (٢٤) ﴾ [الدخان]

فيأمر الحق سبحانه البحر أن يعود كما كان؛ فيغرق قوم فرعون بعد أن أنجى الله - سبحانه وتعالى - موسى - عليه السلام - ومن معه، فأهلك وأنجى بالشيء الواحد؛ لأنه سبحانه له ما في السموات وما في الأرض، وليبيِّن الحق سبحانه لنا أنه لا شيء في كون الله تعالى يقوم مقام عزته سبحانه أبداً.

---

(١) يقول رب العزة سبحانه: ﴿ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣) وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخَرِينَ (٦٤) وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ (٦٥) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ (٦٦) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (٦٧) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٦٨) ﴾ [الشعراء].

والفِرْق: الفلق أو الجزء منه. والطود: الجبل الكبير. [ذكره ابن كثير في تفسيره (٣/ ٣٣٦)]، و[لسان العرب: مادة (ف ر ق)].

وهناك مثال آخر : حين يقول نوح - عليه السلام - لابنه :

﴿ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا ..(٤٢) ﴾ [هود]

فيردّ الابن قائلاً :

﴿ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ[1] ..(٤٣) ﴾ [هود]

وهذا كلام صحيح من ناحية أن الجبل يعلو مستواه عن مستوى المياه ، ولكن ابن نوح نسى أن لله تعالى جندياً آخر هو الموج ؛ فكان من المغرَقين .

صحيح أن ابن نوح فطن إلى أن السفينة سوف تستوى على «الجودى»[2] ، وأن من يركبها لن يغرق ، وكذلك من يأوى إلى الجبل العالى ، لكنه لم يفطن إلى الموج الذى حال بينه وبين الجبل ؛ فكان من المغرقين .

إذن : فكل كائن هو مؤتمر بأمر من الله تعالى ، وما دامت العزة لله جميعاً فمصداقها أن لله تعالى ما فى السموات وما فى الأرض ، وليس هناك كائن فى الوجود يتأبَّى على أن يكون جندياً من جنود الحق سبحانه ، فيكون جندياً للإهلاك ، وجندياً للنجاة فى نفس الوقت[3] .

وقول الحق سبحانه هنا : (ألا) نعلم منه أن (ألا) أداة تنبيه للسامع فلا يؤخذ على غرَّة ، ولا تفوته حكمة من حكم الكلام ، وينتبه إلى أن

---

(١) يقول رب العزة سبحانه : ﴿ قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (٤٣) ﴾ [هود] لقد اعتقد ابن نوح بجهله أن الطوفان لا يبلغ إلى رءوس الجبال، وأنه لو تعلق فى رأس جبل لنجاه ذلك من الغرق . [تفسير ابن كثير ٢/ ٤٤٦] .

(٢) الجودى : قال مجاهد : هو جبل بالجزيرة، وهو الذى رست عليه سفينة نوح - عليه السلام . [تفسير ابن كثير ٢/ ٤٤٦] . وقيل : إنه جبل أرارات فى شرق تركيا بالأناضول .

(٣) يقول تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (٤) ﴾ [الفتح] ويقول أيضاً : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ ..(٣١) ﴾ [المدثر] .

هناك خطاباً عليه أن يجمع عقله كله ليحسن استقبال ما فى هذا الخطاب .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ .. (٦٦) ﴾ [يونس]

ولقائل أن يقول : هناك كثير من الكائنات غير العاقلة ، وقوله هنا ﴿مَن﴾ مقصود به الكائنات العاقلة ؟

ولنا أن نتساءل للرَّدِّ على هذا القائل :

وهل هناك أى شيء فى الوجود لا يفهم عن الله ؟

طبعاً لا ، والله سبحانه وتعالى هو القائل عن الأرض :

﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (٤) بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا (٥) ﴾ [الزلزلة]

إذن : فكل الكائنات فى عُرف الاستقبال عن الله سبحانه سواء بـ «مَنْ» أو بـ «ما» ، وكل من فى الوجود يفهم عن الله .

ونلحظ أن الحق سبحانه يأتى مرة بالقول : ﴿ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا .. (٨٣) ﴾ [آل عمران]

ومرة يقول الحق سبحانه :

﴿ أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ .. (٦٦) ﴾ [يونس]

كما جاء فى هذه الآية التى نحن بصددها الآن .

شاء الحق سبحانه ذلك ؛ لأن هناك جنساً فى الوجود يوجد فى السماء ويوجد فى الأرض ، وهم الملائكة المُدَبِّرَات[1] أمْراً ، هؤلاء هم المقصودون بأن لله ما فى السموات والأرض .

---

(١) المدبِّرات أمراً : هى الملائكة تُدبِّر الأمر من السماء إلى الأرض بأمر ربها - عز وجل .

ولله سبحانه وتعالى أيضاً جنس فى السموات لا يوجد فى الأرض وهم الملائكة المهيمون [١] العالين ، وليس لهم وجود على الأرض ، كما أن لله تعالى جنوداً فى الأرض ليس لهم وجود فى السماء ، فإن لاحظنا الملائكة المدبرات أمراً ، نجد أن قول الحق سبحانه :

﴿ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ ..(٢٨٤) ﴾ [البقرة]

مناسب لها .

وإن لاحظنا أن لله ملائكة مهيمين فى السماء ، وجنوداً فى الأرض لا علاقة لهم بالسماء يكون مناسباً لذلك قول الحق سبحانه :

﴿ لِلَّهِ مَن فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ ..(٦٦) ﴾ [يونس]

وما دام كل شىء فى الكون مملوكاً لله تعالى فلا شىء يخرج عن مراده سبحانه ، فلا يوجد مثلاً غار يدخله كائن فراراً من الله ؛ لأنه سبحانه قادر على أن يسد الغار ، وإن شاء الله سبحانه أن يساعد من دخل الغار فهو تعالى يعمى بصر من يرقب الغار [٢] .

إذن : فلن يجير [٣] شىء على الله تعالى ، وستظل له صفة العزة

---

(١) المهيمون : الذين يهيمون فى عبادة الله وطاعته ، فمن الملائكة من لا شغل لهم إلا العبادة فتجد منهم القائمين فلا يركعون ، والركع فلا يسجدون ، والسجود فلا يرفعون . وهناك الملائكة الكروبيون ، وهم أقرب الملائكة لحملة العرش الثمانية ، قال عنهم سبحانه : ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا .. (٧) ﴾ [غافر] .

(٢) استجار به : طلب حمايته . قال تعالى : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ .. (٦) ﴾ [التوبة] وأجاره : تكفل بحمايته . قال تعالى : ﴿ ..وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ .. (٨٨) ﴾ [المؤمنون] أى : أنه يتكفَّل بحمايته من يلجأ إليه ولا يستطيع أحد أن يجير من يُريد الله عقابه . [القاموس القويم - بتصرف] .

(٣) هذا إشارة إلى ما حدث فى هجرة الرسول ﷺ ومعه أبو بكر من مكة إلى المدينة عندما دخلوا الغار وأثبت الله على بابه شجرة وأوجد حمامتين ترقدان على البيض ، وعنكبوتاً كبيراً قد سد باب الغار بخيوط علاها تراب وكأنه تراب السنين .

لا يخدشها خادش من وجود الله فى الكون.

ثم يقول الحق سبحانه:

﴿ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ.. (٦٦) ﴾ [يونس]

ومعنى اتباعهم شركاء كأن هناك شركاء، رغم أن الأصل والحقيقة ألاَّ شركاء له سبحانه.

إذن: فهم يتبعون غير شيء ؛ والدليل على ذلك موجود فى طى القضية، فهم يعبدونهم من دون الله تعالى، ومعنى العبادة أن يطاع أمر وينهى نهى، وما يعبدونه من أشياء لا أوامر لها ولا نواهى ؛ فليس هناك منهج جاءوا به.

إذن: فلا ألوهية لهم.

إذن: فالأصل ألا شركاء لله تعالى، ولو كان له شركاء لأنزلوا منهجاً ولأوجدوا أوامر، وكان لهم نواه ؛ لأن الذى يقول: «اعبدنى» إنما يحدد طريقة وأسلوب العبادة. وهاتوا واحداً من الذين تتبعونهم وتدعون لهم يكون له منهج، ولن يستطيعوا ذلك، والحق سبحانه هو القائل:

﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لاَّبْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً (٤٢) ﴾ [الإسراء]

أى: أننا لو افترضنا أن هناك آلهة ولها مظهر قوة كالشمس التى تضىء والقمر الذى ينير، والمطر الذى ينزل من السماء، والملائكة التى تدبِّر الأمر، لو صدَّقنا أن كل هؤلاء آلهة، فهم سيبحثون عن الإله الواحد الأحد ؛ ليأخذوا منه القوة التى ظننتم أنها لهم.

ولذلك يقـول الحق سـبحانه:

﴿ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَـٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (٩١) ﴾ [المؤمنون]

إذ لو كان هذا الأمر صحيحاً لكانت هناك ولايات إلهية.

ولذلك قـال الحـق سـبحانه:

﴿ أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ .. (٥٧) ﴾ [الإسراء]

و هم قالوا إنهم يعبدون الملائكة، وعليهم أن يعلموا أن الملائكة نفسها تعبد الله سبحانه وتعالى، وما دام لا يوجد شركاء لله لتتبعوهم؛ إذن: فأنتم تتبعون الظن.

لذلك جاء قول الحق سـبحانه:

﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ [1] وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ [2] (٦٦) ﴾ [يونس]

ونحن نجد الذين أولعوا بأن يُوجدوا في القرآن ظاهر تعارض ليشكّكوا فيه، قالوا: إن هذه الآية مثالَ على ذلك؛ فيقولون: في بداية الآية يقول: ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ .. (٦٦) ﴾ [يونس]

فينفي أن المشركين يتبعون شركاء لله، ثم يأتي في آخر الآية فيقول إنهم يتَّبعون الظن والخرص، ففي أولها ينفي الاتباع، وفي آخرها يثبته.

---

(١) الظن: ما يحصل في النفس عن أمارة، فهو شك راجح وفعله من أفعال الرجحان، من باب نصر. والظن مصدر، والظن: اسم لهذا الخاطر الذي يحصل في النفس. قال تعالى: ﴿ وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا (٢٨) ﴾ [النجم] وجمعه: ظنون. ويستعمل الظن بمعنى اليقين مجازاً كقوله تعالى: ﴿ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ (٢٠) ﴾ [الحاقة] بمعنى تيقّنت. [القاموس القويم - بتصرف].

(٢) الخرص: الكذب والقول بغير علم. وقال تعالى: ﴿ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ (١٠) ﴾ [الذاريات] قال الزجاج أي: الكذابون. [لسان العرب: مادة (خ ر ص) - بتصرف].

وهذا جهل ممن قال بهذا وادعى أن هناك تناقضاً فى الآية ، فالله سبحانه ينفى أن يكون ما يدعوه هؤلاء المشركون شركاء لله فى ملكه ، فللّه من فى السموات ومن فى الأرض ، ولكنه يثبت أنهم يتّبعون الظن والخرص والتخمين .

ونقول: ما هو الظن؟ وما هو الخرص؟

إن الظن حكم بالراجح كما أوضحنا من قبل فى النسب من أن هناك نسبة إنْ لم تكن موجودة فهى مشكوك فيها ، أو نسبة راجحة ، أو أن نسبة يتساوى فيها الشك مع الإثبات ، فإنْ كان الشك مساوياً للإثبات فهذا هو الشك. وإن رجحت ، فهذا هو الظن . أما المرجوح فنسميه وهماً.

الظن - إذن - حكم بالراجح. والخَرْص: هو التخمين ، والقول بلا قاعدة أو دليل.

والحق سبحانه يقول هنا:

﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ (٦٦)﴾ [يونس]

والقرآن حين يوجه خطاباً فهو يأتى بالخطاب المستوعب لكل ممكن ، وهو سبحانه حكم عليهم هنا أنهم يتّبعون الظن والخرص.

ونحن نعلم أن الكافرين قسمان: قسم يُعْلم حقيقة الشىء ، ولكنه يغيّر الحقيقة إلى إفك[1] وإلى خَرْص ، وقسم آخر لا يعرف حقيقة الشىء ، بل يستمع إلى من يعتقد أنه يعرف .

---

(١) أفكَ ، يَأْفَك ويأفك - من باب « فرح» و« ضرب» : كذب وافترى باطلاً والإفك بكسر الهمزة : الكذب : وأفاك صيغة مبالغة أى : كثير الكذب . قال تعالى : ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٧) ﴾ [الجاثية] . [القاموس القويم] بتصرف .

إذن: فهناك مُتَّبِع - بكسر الباء - وهناك مُتَّبَع - بفتح الباء - المُتَّبَع - بفتح الباء - يعلم أن ما يقوله هو كلام ملتو، يشوّه الحقيقة ويزينها، أما المتّبِع - بكسر الباء - فيظن أنه يتبع أناساً عاقلين أمناء فأخذ كلامهم بتصديق.

إذن: فالمتبع (بكسر الباء) يكون الظن من ناحيته، أما المتبع (بفتح الباء) فيكون الخَرْص والكذب والافتراء من ناحيته؛ ولذلك يقول لنا الحق سبحانه:

﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ (٧٨) ﴾ [البقرة]

هؤلاء - إذن - يصدِّقون ما يقال لهم؛ لأنهم أميُّون، والكلام الذى يقال لهم راجح، وهم لو فكروا بعقولهم لما انتهوا إلى أنه كلام راجح.

أما الآخرون فيقول فيهم الحق سبحانه:

﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً ..(٧٩) ﴾ [البقرة]

وهؤلاء هم الذين يأتى منهم الخَرْص والإفك وقول الزور والبهتان[1].

إذن: فالكفار إن كانوا من الأميين فهم من أهل الظن، وينطبق عليهم قول الحق سبحانه: ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ ..(٦٦) ﴾.

وإن كانوا من القادة والرؤساء فهؤلاء هم من ينطبق عليهم قول الحق سبحانه: ﴿ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ (٦٦) ﴾.

---

(١) البهتان: الافتراء و الكذب. قال تعالى: ﴿ وَلا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ .. (١٢) ﴾ [الممتحنة] [لسان العرب: مادة (ب هـ ت)].

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾

وشاء الحق سبحانه بعد أن بيَّن الإيمان والمؤمنين ، وما يمكن أن يدَّعيه الكافرون فى نبىٍّ الرسالة ، وبعد أن بيَّن المنهج ، ها هو سبحانه يأتى بالكلام عن آياته سبحانه فى الكون تأييداً للمطلوب بالموجود .

فالمطلوب أن نؤمن برسول يبلِّغ منهجاً عن الله ؛ ليكون هذا المنهج نافعاً لنا ، وإنْ أراد أحد دليلاً على ذلك فلينظر إلى الآيات التى وجدت للإنسان من قبل أن يُكلَّف ، أهى فى مصلحته أم فى غير مصلحته؟

ومادامت الآيات الموجودة فى الكون - والمسخَّرة للإنسان - تفيد الإنسان فى حياته ، فلماذا لا يشكر من أعطاه كل تلك النعم ، وقد أعطى الحق - سبحانه وتعالى - الإنسان من قبل التكليف الكثير من النعم ، وفور أن يصل إلى البلوغ يصير مكلَّفاً .

إذن : فالله سبحانه لم يكلِّف أحداً إلا بعد أن غمره بالنعم النافعة له باعتقاد من العبد ، وصدق من الواقع .

فإذا ما جاء لك التكليف ، فَقِسْ ما طُلب منك على ما وُجد لك ، فإذا كنت تعتقد أن الآيات الكونيةَ التى سبقَت التكليف نافعة لكَ قبل أن يطلب منك «افعل كذا» و«لا تفعل كذا» ؛ فَخُذْ منها صدقاً واقعاً يؤيد صدق ما طُلب منك تكليفاً ، فكما نفعك فى الأولى ، فالحق سبحانه

سينفعك باتباعك التكليف ، واستقبلْ حركة الحياة على ضوء هذا التكليف ؛ لتسعد[(١)] .

ونحن نعلم أن الأصل فى الإنسان أن يرتاح أولاً ليتحرك ، ثم يتعب ، ثم يرتاح ؛ ولذلك نجد التكاليف قد جاءت على نفس المنوال ، فقد أراحك الحق سبحانه إلى سن البلوغ وأخذت نعم الله تعالى وتمتعت بها إلى سن البلوغ ، ارتحت اختياراً ، وارتحت فى مراداتك ، ثم تجىء «افعل» و«لا تفعل» لتلتزم بما يُصْلِح لك كل أحوالك .

وإذا كان التكليف سيأخذ منك بعضاً من الجهد ، فهناك فاصل زمنى للراحة ، وأنت فى حياتك تجد وقتاً للراحة ، ووقتاً للحركة ، والراحة تجعلك تسعى بنشاط إلى الحركة ، والحركة تأخذ منك الجهد الذى تحب أن ترتاح بعده .

إذن : فالحركة تحتاج للراحة ، والراحة تحتاج للحركة .

وجاء الحق سبحانه إلى الفترة الزمنية المسماة «اليوم» ، فبيَّن لنا أنه كما قسَّم الوجود الإنسانى إلى مرحلتين :

الأولى : هى ما قبل البلوغ ولا تكليف فيها .

والثانية : هى ما بعد البلوغ وفيها التكليف .

فقد قسَّم الله سبحانه أيضاً «اليوم» إلى وقت للراحة ووقت للحركة ، فقال تعالى : ﴿ **هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ..** (٦٧) ﴾ [يونس]

---

(١) مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (٣١) ﴾ [فصلت] .

فكما خلق الحق سبحانه لنا اليوم وفيه وقت للراحة ، ووقت للحركة ، كذلك شرع الحق سبحانه منهج الدين ؛ لتستقيم حركة الحياة ؛ لأن الإنسان - الخليفة فى الأرض - لا بد أن يتحرك ، ولا بد أن تكون حركته على مقتضى «افعل كذا» و«لا تفعل كذا» ، وما لم يَرِدْ فيه «افعل» و«لا تفعل» فهو مباح ؛ إن شاء فعله ، وإن شاء لم يفعله[1] .

وكل فعل ، وكل نهى يتطلب حركة ، وإياك أن تتصور أن النهى لا يتطلب حركة ؛ لأنك تتحرك فى أمر ما ثم يأتيك قرار التوقف ، وقد تتوهم أن التوقف لا يحتاج إلى حركة ؛ لأنه سلبك ملكة القيام بما تعمل ، ولكنك تنسى أن هناك حركة داخلية ، وهى الدوافع التى كانت تلح عليك أن تقوم بما تشتهيه نفسك ولا يواكب منهج الله ، وأنت تكبت تلك الدوافع وتكبح جماحها[2] ؛ لأن الله سبحانه قد أمرك بذلك .

وما دامت هناك حركة فلا بد أن يأتى منها تعب ؛ لذلك جعل الله تعالى لك حقّاً فى الراحة .

وكذلك عُمْر الإنسان ، لم يكلِّف الله - تعالى - الإنسان إلا بعد البلوغ ، وترك له الفترة الأولى من عمره دون تكليف منه وحساب ، لكنه سبحانه لم يقطع عنه التكليف فى تلك المرحلة بتاتاً ، وإنما منع حسابه على ما «يفعل» أو «لا يفعل» ، وترك مسئولية التدريب على التكليف للأب مثلاً ، فالأب يقول لابنه : «لا تكذبْ» فإن كذب ؛ فالأب يعاقبه ، وهكذا يكون الأمر من الوالد ، والنهى للولد والأمر والنهى يتطلب ثواباً أو عقاباً .

---

(١) لأن كلمة (افعل) يندرج تحتها الأمر من الله ورسوله ﷺ فى الواجبات والفرائض والسنن والمندوبات والمستحبات . وكلمة (لا تفعل) يندرج تحتها النهى من الله ورسوله ﷺ وذلك فى الحرام والمكروه . أما غير ذلك فهو مباح .

(٢) تكبح جماحها : تمنعها عن المعاصى . مأخوذة من كبح الدابة أى : جذبها إليه باللجام ، وضرب فاها به ؛ كى تقف ولا تجرى . [لسان العرب : مادة (ك ب ح)] .

ويبيِّن لنا رسول الله ﷺ هذا الأمر فيقول: «مروا أولادكم بالصلاة لسبع سنين ، واضربوهم عليها لعشر سنين »[(١)] .

والذى يأمر هنا الابن بالصلاة هو الأب ، وهو أيضاً الذى يعاقب على ترك الصلاة ، وهو الذى يثيب ابنه إن أراد أن يجعل الصلاة محبوبة للابن ، وأن يجعل للابن أنساً بالعبادة .

وحين يكلِّف الأب ابنه بالصلاة ، فالابن يطيع ؛ لأن الأب هو الذى يقضى حاجات الابن ، ويحقق له مصالحه ، والابن يعلم أن والده لن يكلفه إلا بما يحقق تلك المصالح ، وهو يفعل ذلك ؛ لأنه يحبه ؛ لذلك جعل رسول الله ﷺ الأمر والنهى من النافع للابن ؛ لتوجد حيثية قبول فى النفس .

وما إن يأت البلوغ فيكون التكليف من الله والأمر من الله ، والثواب والعقاب منه سبحانه .

إذن : فالأمر والنهى قبل البلوغ يأتيان من الأب ؛ ليتعود الإنسان استقبال الأمر والنهى من ربه ورب أبيه .

وإذا كانت الحياة والسير فيها على ضوء منهج الله تعالى يقتضى حركة فى «افعل»و «لا تفعل» فلا بد أن يحتاج الإنسان إلى راحة من الحركة ؛ لذلك يبيِّن لنا الله سبحانه أنه جعل فى «اليوم» ليلاً ونهاراً ، ولكلٍّ مهمة ، فإياك أن تضع مهمة شىء مكان شىء آخر ؛حتى لا ترتبك الأمور ، ولكن الظروف قد تضطرك إلى ذلك ، فهناك من يسهر للحراسة ، وهناك من يسهر للعمل فى المخابز ، أو إعداد طعام الإفطار للناس ؛ ولذلك فهناك احتياط قدرى ، فقال الحق سبحانه فى آية ثانية :

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٢/ ١٨٧) وأبو داود فى سننه (٤٩٥) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص . واللفظ لأحمد .

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ ..(٢٣) ﴾ [الروم]

لأن الحق سبحانه قد علم أزلاً أن هناك مصالح لا يمكن إلا أن تكون ليلاً ، فالذى يعمل ليلاً يرتاح نهاراً ، ولو أن الآية جاءت عمومية ؛ لقلنا لمن ينام[1] بالنهار : لا ، ليس هذا وقت السكن والراحة .

ولكن شاء الحق سبحانه أن يضع الاحتياطىَّ القدرىَّ ؛ ليرتاح من يتصل عمله بالليل .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ .. (٦٧) ﴾ [يونس]

ونحن نعلم أن هناك فارقاً بين «الخَلْق» ، و«الجَعْل» ، و«المُلْك» ، والمثال على الخلق : أنه سبحانه خَلَق الزمن ، ثم جاء لهذا الزمن ليجعل منه ليلاً ونهاراً[2] .

إذن : فالجعل هو توجيه شىء مخلوق لمهمة .

ومثال ذلك - ولله المثل الأعلى - وهو مُنزَّه عن أى تشبيه أو مثل :

تجد صانع الفخَّار وهو يمسك بالطين ؛ ليجعل منه إبريقاً ، فهو يصنع الطين أولاً بأن يخلط الماء بالتراب ويعجنهما معاً ، ثم يجعل من الطين

---

(١) نام فلان نومًا : اضطجع أو نَعَسَ وإليه سكن واطمأن ووثق به ومن حاجته غفل عنها ولم يهتم بها وأنامه : أرقده ، ونوَّم فلان : أرقده . والتناوم التظاهر بالنوم . واستنام : نام واطمأن . والنوم من آيات الله ؛ لأنه راحة وسكن ، والراحة مع السكن تعطى قوة الحركة والثبات فى التفكير والتركيز . [المعجم الوجيز - بتصرف] .

(٢) يقول سبحانه : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُم إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلا تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُم إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلا تُبْصِرُونَ (٧٢) وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٣) ﴾ [القصص] .

إبريقـاً أو أصُصَ زرع أو زهرية ورد ، وهو بذلك إنما يحـوِّل مـخلوقـاً إلى شيء له مهمة.

والزمن كله لله سبحانه ، جعل منه قسم الليل ، وقسم النهار ، مثلما خلق الإنسان ، ووجَّه جزءاً منه ؛ ليجعله سمعاً ، وجزءاً آخر ؛ ليجعله بصراً ، وجزءاً آخر ؛ ليصير مخاً ، وجزءاً آخر ؛ ليكون رئة ، كل ذلك مأخوذ مما خلقه الحق سبحانه.

أي : أنه سبحانه جعل أشياء مما خلق أصلاً ؛ لتؤدى مهمة للمخلوق.

وفى حيـاتنا - ولله المثل الأعلى - نجـد من يغـزل من القطن خيـوطاً ، وهناك من ينسج من تلك الخيوط قمـاشاً ، وبعـد ذلك نجد من يأخـذ هذا القماش ؛ ليجعل منه جلباباً أو بنطلوناً أو قميصاً أو لحافاً.

إذن : فـالجعل هو أخذ من شيء مـخلوق لمهمة. والخلق قد يترتب عليه ملْك ، والجعل أيضاً قد يترتب عليه ملْـك ؛ فمن عمل قِدْراً من الطين هو مَالكه ، ومن جعل من الطين إبريقاً إنمَا يملكه.

وهكذا نجـد الخَلْق والجَعْل قد يترتـب عليـهـما ملكيـة ما ، لكن الملكية المنسحبة بعد الخلق والجعل تجعلك تنتفع بالأشياء وقد لا تملكها ؛ لذلك نجد قول الحق سبحانه :

﴿ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ .. ﴿٣١﴾ ﴾ [يونس]

والحق سـبحـانه خلق لنا الأنعام ، وذلَّلهـا لنا ، وملَّكهـا لنا ، وإذا قال الحق سبحانه : «ملْك» فملكيته سبحانه لا تنتهى لأحد أبداً سواء من الخلق أو الجعل ، بل يظَل مملوكـاً ؛ ولذلك قلنا : إن نقل الأعضاء هو تـحكُّـم فيما لا يملكه المخلوق ، بل يملكه الخالق سبحانه وتعالى.

يذكر الحق سبحانه الليل والنهار فيقول:

﴿ هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا .. (٦٧) ﴾ [يونس]

وكان مقتضى الكلام أن يقول:

جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار لتتحركوا .

وشاء سبحانه أن يأتى هنا بالأداء القرآنى المعجز فقال: ﴿ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾ .

فهل النهار هو الذى يُبصر أم نحن؟

هل النهار مُبصِر أم مبصَر فيه؟

وقديمًا لم يكونوا قد وصلوا إلى الحقيقة العلمية التى وصلنا إليها الآن ، فقد كانوا يعتقدون أن الضوء [1] يخرج من العين إلى المرئى فتراه ، إلى أن جاء «الحسن بن الهيثم» العالم العربى المسلم ، وأوضح بالتجربة أن الضوء إنما ينعكس من المرئى إلى العين ، بدليل أن المرئى إن كان فى النور وأنت فى الظلام ، فأنت تراه ، وإذا كان الأمر بالعكس فأنت لا تراه.

إذن: فقد سبق القرآن كل النظريات ، وبيَّن لنا أن النهار إنما يأتى بالضوء فينعكس الضوء من الكائنات والموجودات إلى العين فتراه.

إذن: فالنهار هو المبصر ؛ لأنه جاء بالضوء اللازم لانعكاس هذا الضوء من المرائى إلى العيون.

ونحن نجد القرآن حين يتعرض لليل والنهار يقول:

---

(١) الضَّوء - بفتح الضاد والضُّوء - بضمها والضياء ، والضِّوَاء : النور الذى ينتشر من الأجسام المضيئة ، وقد يُخص الضوء لما كان صادراً من شىء مضىء بنفسه كضوء الشمس ، وقد يُخصص بالنور لما كان مستمداً من ضوء ، كنور القمر . قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا .. (٥) ﴾ [يونس] . [القاموس القويم] بتصرف .

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ ..(٣٧) ﴾ [فصلت]

ويقول :

﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا [1] آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً ..(١٢) ﴾ [الإسراء]

وهى مبصرة كما أثبت الحسن بن الهيثم العالم المسلم ، وإن كانت فى ظاهر الأمر مُبْصَرٌ فيها .

ويعطى لنا الحق سبحانه تجربة حية مع موسى عليه السلام ، وذلك فى قوله سبحانه لموسى - عليه السلام :

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ (١٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ (١٨) قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ (١٩) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ (٢٠) ﴾ [طه]

وشاء الحق سبحانه ذلك ؛ ليتعرف موسى بالتجربة على ما سوف يحدث من عصاه أمام فرعون ، ثم أمام السحرة ، ثقة منه سبحانه أن موسى حين يراها تنقلب إلى حية أمام عينيه لأول وهلة سوف يفزع ؛ فيطمئنه الحق سبحانه بقوله :

﴿ ..خُذْهَا وَلا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الأُولَىٰ [2] (٢١) ﴾ [طه]

وكانت المرة الأولى لتحوُّل العصا إلى حية ، هى تجربة للاستعداد ؛ حتى لا يجزع موسى - عليهَ السلام - أو يخاف لحظة أن يمر بالتجربة العملية ، وحتى يقبل على تقديم المعجزة وهو واثق تمام الثقة أمام فرعون .

---

(١) جعل الله لليل آية وهى القمر ، وجعل للنهار آية وهى الشمس ، وجعل آية النهار مبصرة أى : منيرة تنير الكون كله ، أما القمر فقد محا آيته وهو سواد القمر الذى فيه . بتصرف من تفسير ابن كثير (٣/ ٢٧) .

(٢) أى : سنعيدها كما كانت (عصا) .

ثم قال الحق سبحانه لموسى - عليه السلام :

﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ [1] .. (١٢) ﴾ [النمل]

والجيب : هو المكان الذى تنفذ منه الرقبة فى الجلباب ويسمى (القبة) ، فلا يظن أحد أن الجيب المقصود هنا هو مكان وضع النقود ؛ لأن مكان وضع النقود قديماً كان يوجد من داخل الجلباب ، مثل جيب (الصديرى) الذى يرتديه أهل الريف ، وقد سُمِّى الجيب الذى نضع فيه النقود جيباً ؛ لأن اليد لا تذهب إلى الجيب إلا إذا دخلت فى الفتحة التى تخرج منها الرقبة .

وقد قال الحق سبحانه لموسى - عليه السلام :

﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ .. (١٢) ﴾ [النمل]

ويخبره الحق سبحانه :

﴿ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (١٢) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً .. (١٣) ﴾ [النمل]

هكذا كانت الآيات مبصرة [2] وكأنها تقول للعين : أبصرينى .

---

(١) الجيب : النحر والصدر . قال تعالى : ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ .. (٣١) ﴾ [النور] .

(٢) بَصُرَ به : رآه ببصره ، فهو بصير ، وبَصُرَ بالأمر : عَلِمه كأنه رآه ببصره . وقوله : ﴿ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ .. (١١) ﴾ [القصص] أى : رأته من أحد جوانب البيت . وأبصر : رأى . قال تعالى : ﴿ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٩) ﴾ [الصافات] أى : انظر وترقَّبْ . وأبصره : جعله يُبصر ، وجعله يعلم علم من يبصر . قال تعالى : ﴿ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٥) ﴾ [الصافات] . والبصير : من أسماء الله الحسنى ، والبصير : مَنْ له عينان يُبصر بهما ، ضد الأعمى . قال تعالى : ﴿ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ .. (٥٠) ﴾ [الأنعام] والبصيرة : نور القلب والحجة الواضحة ومن المجاز قولهم : نهار مبصر ، أى : مضىء . قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا .. (٦٧) ﴾ [يونس] ، وقوله : ﴿ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً .. (١٢) ﴾ [الإسراء] وقوله : ﴿ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً .. (٥٩) ﴾ [الإسراء] أى : معجزة واضحة . وقوله : ﴿ .. إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ (٢٠١) ﴾ [الأعراف] أى : عارفون الحق . [القاموس القويم - بتصرف] .

وهنا فى الآية - التى نحن بصدد خواطرنا عنها - يقول الحق سبحانه:

﴿ هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ..(٦٧)﴾ [يونس]

ولم يقل: لتتحركوا فيه ، بل جاء بما يضمن سلامة الحركة ، فقال سبحانه: ﴿مُبْصِرًا﴾ لأن الضوء الذى ينعكس على الأشياء هو الذى يحفظ للإنسان سلامة الحركة.

ولكن البعض من الناس فى زماننا يستخدمون نعمة الكهرباء فى الإسراف فى السهر ، وحين يأتى الليل يسهرون حتى الصباح أمام جهاز (التليفزيون) أو (الفيديو) أو فى غير ذلك من أمور الترفيه ، ثم ينامون فى النهار ، وينسون أن الليل للرقود ، والنهار للعمل. وقد ثبت أن للضوء أثراً على الأجسام ، فالضوء يؤثر فى الكائن الحى ، وقد سبق النبى ﷺ ذلك الاكتشاف بزمان طويل وقال:

«أطفئوا المصابيح إذا رقدتم»[1] ؛ وذلك حتى لا ينشغل الجسم بإشعاعات الضوء التى تتسبب فى تفاعلات كيماوية فى الجسم.

لذلك أقول دائماً: خذوا الحضارة بقواعد التحضير لها ؛ لأننا يجب أن نتيح للفلاح أن يذهب إلى حقله والعامل إلى مصنعه ؛ لأن السهر ضار ، وإذا ادَّعى الإنسان أنه هو الذى تحضَّر ، فليحترم قيمة العمل الذى يصنع الحضارة ؛ لأن الآلة التى يسهر لمراقبتها ومشاهدتها هى إنتاج أناس يلتزمون بقواعد الحضارة ، واحترام قيمة العمل فى النهار ، وقيمة الترفيه فى الوقت المخصص.

نحن نسىء استخدام أدوات الحضارة ، فالزمن الذى وفَّرته الثلاجة للزوجة ؛ حتى لا تقف فى المطبخ نصف النهار لتعد الطعام ، وصارت

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٦٢٤) وأحمد فى مسنده (٣/ ٣٨٨) عن جابر بن عبد الله ، واللفظ للبخارى.

تطهو وجبات ثلاثة أيام وتحفظها فى الثلاجة ، وتستخدم الغسالة الكهربائية فتنهى الغسيل فى ساعة من الزمن ، لكن بقية الوقت يضيع أمام (التليفزيون) ولا تلتفت إلى تربية الأبناء .

وهكذا يسىء البعض استخدام الآلات المتحضرة ، وفى هذه الإساءة نوع من التخلف ، فإذا أخذنا الحضارة بمنطقية فهذا هو التحضر .

وعلى سبيل المثال : أقول لمن يركب سيارة : إياك أن تسرع بها فى طريق متربة حتى لا يثور الغبار ويملأ صدور الناس بالحساسية .

وإياك أن تهمل صيانة سيارتك حتى لا يفسد الموتور ؛ ويخرج العادم الضار بصحة الناس والبيئة ، فلا يسافر الإنسان فى الطريق المتربة أو بسيارة غير جيدة الصيانة ؛ فيصيب صدور الناس بالمرض ، ويصيب الزروع ويفسد الهواء .

ويجب ألاَّ نأخذ الحضارة بتلصص ، إنما علينا أن نرتقى إلى مدارجها بصيانة أساليبها ؛ لأن من لا يأخذ الحضارة بقواعدها هو من يتخلف رغم تقدُّم الآلة ، فتصير الآلة أكثر تحضُّراً منه .

إذن : فإن أخذنا كل أمر بمهمته فنحن نحقق الراحة لأنفسنا ولغيرنا .

ولذلك قلنا فى تفسير قول الحق سبحانه :

﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ (١) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ (٢) ﴾ [الليل]

وإن بدا للإنسان أن هناك تعارضاً بين غشيان الليل (أى : تغطيته للمرئيات) وتجلِّى النهار (أى : كشف المرئيات) فهذا ليس تعارضاً، بل هو التكامل ؛ لأن حركة النهار تتولد من الليل ، وراحة الليل تتولد من النهار .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ ۝٣ ﴾ [الليل]

وهذا الخلق للذكر والأنثى هو للتكامل ، لا للتناقض ، هكذا جاء الحق سبحانه بنوعين :

الأول : هو الزمن ليلاً ونهاراً .

والثانى : هو الإنسان ذكراً وأنثى .

ويقول الحق سبحانه : ﴿ **إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ** [1] ۝٤ ﴾ [الليل]

أى : أن حركتكم هى الموصِّلة إلى غايتكم ، والحركات شتى (أى : مختلفة) ، سواء فى الليل أو النهار أو للذكر أو للأنثى ، فإن خلطنا الحركة وعبثنا بأنظمة الحياة ؛ فالحياة ترتبك ، ونعانى من مرارة التجربة إلى أن تتعقد الأمور ، فنبحث لها عن حلول .

وقد نادينا أن تعمل المرأة نصف الوقت لتعطى البيت بعضاً من الوقت ، أو أن تعتنى بالبيت إن كان لها ما يكفيها من دخل ، أو كان لزوجها ما يكفى لحياة الأسرة ، ولكن أحداً لم يلتفت إلىٰ ذلك إلا بعد مرارة التجارب .

وهناك مثال آخر : فى قول البعض أن الليل فى تلك البلاد المتحضِّرة لا ينتهى وأنت تجد السهر هناك حتى الصباح ، وعندما أسمع مثل هذا القول أقول : إن هذا ليس فى مصلحة سكان تلك البلاد ؛ لأن الليل يجب أن يكون سباتاً لتأتى الحركة المنتجة فى النهار .

---

(١) شت الجميع يشتُّ شتّا ، وشتاتاً : تفرق فهو شتيت ، وهم شتى وأمر شتٌّ متفرق وجمعه أشتات . قال تعالى : ﴿ **لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا** .. ۝٦١ ﴾ [النور] أى : متفرقين . وقوله : ﴿ **إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ** ۝٤ ﴾ [الليل] أى : متنوع منه الحسن ومنه السيء وقوله : ﴿ .. **أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ** ۝٥٣ ﴾ [طه] مختلفة الطعم والنوع ، وقوله : ﴿ **تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ** .. ۝١٤ ﴾ [الحشر] أى : متفرقة . [القاموس القويم - بتصرف] .

إذن: فالآفة أن تنقل مهمة نوع إلى مهمة نوع آخر ، سواء أكان في الزمان أو في الإنسان ، واقرأ جيداً قول الحق سبحانه:

﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾ ﴾ [الليل]

فكل فرد من أفراد الكون له مهمة وله سعى يختلف عن سعى الآخرين.

وهنا في الآية - التي نحن بصدد خواطرنا عنها - يُنهى الحق سبحانه الآية فيقول :

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [يونس]

ولقائل أن يقول: لم يقل «إن في ذلك لآيات لقوم يبصرون» .

ونقول: لنتنبه إلى أن الحق سبحانه حين يتكلم عن زمان فهو يبيِّن في هذا الزمان مهمته ، وهو القائل في صدر الآية ووسطها :

﴿ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا .. ﴿٦٧﴾ ﴾ [يونس]

فالعلَّة في هذه الآية هي سكون الليل ، لا حركة النهار ، والعين في الليل لا تؤدي مهمتها ، بل السمع هو الذي يؤدي مهمته .

والحق سبحانه هو القائل:

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا [1] إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ ﴾ [القصص]

أي: أن أحداً لن يستطيع الحركة في مثل هذا الليل السرمدي ولا أحد سيتبيَّن شيئاً .

---

(١) السرمد: دوام الزمان من ليل أو نهار. وليل سرمد: طويل. قال الزجَّاج: السرمد الدائم. [لسان العرب: مادة (س ر م د)].

والحق سبحانه هو القائل:

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [القصص]

إذن: فقد جاء الحق سبحانه فى آية الليل بالسمع[1] ، وجاء فى آية النهار بالأبصار ، وبعد أن تكلم الله سبحانه عن مجال الحركة بالنهار والراحة فى الليل ، يأتى الكلام عن الينبوع الذى يجب أن تَصْدُرَ عنه الحركة أو السكون ، وهو ضرورة الامتثال لأمر إله واحد حتى لا تصطدم حركتك بأمر إله آخر يقول ما يناقض حركة الإله الأول.

وكما تتحرك فى النهار ، وترتاح فى الليل لا بد أن تكون حركتك صادرة عن أمر واحد ، هذا الأمر الواحد صادر من الآمر الواحد ، وهو الله تعالى الذى تعبده بلا شريك ، ومن يقول بغير ذلك إنما يربك حركة الحياة.

والله سبحانه يقول:

﴿ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍ بِمَا خَلَقَ .. ﴿٩١﴾ ﴾ [المؤمنون]

ولذلك يقول الله سبحانه بعد ذلك:

﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۖ هُوَ الْغَنِيُّ ۖ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَـٰذَا ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾

---

(١) وهنا يلفتنا فضيلة الشيخ إلى الإعجاز القرآنى فى أسراره ، حيث وضع الحاسة فى مكان وظيفتها التى تستطيع الأداء فيه ، فجعل الإبصار للنهار لأنه مكانه ، وجعل السمع لليل حيث إن البصر لا يؤدى مهمته ، وإنما المهمة هنا تخص السمع ، وهذا كمال الأدب وجلال الأسرار فى كتاب الله بلاغة بيان ، ومعنى يرقى.

ونفس نص الآية الكريمة يكذِّبهم فيما يدَّعونه .

ومثال ذلك: أنك حين تقول: «اتخذ فلان بيتاً» أى: أن فلاناً له ذاتية سابقة على اتخاذه للبيت ، وبها اتخذ البيت ، فإذا قيل : ﴿ اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا .. (٦٨) ﴾ [يونس]

فهذا اعتراف منهم بكمال الله تعالى وذاتيته قبل أن يتخذ الولد .

وهم قد اختلفوا فى أمر هذا الولد ، فمنهم من قال: إن الملائكة هن بنات الله وكذَّبهم الحق سبحانه فى ذلك ، ومنهم من قال: عزير ابن الله وهم اليهود[1] وقد كذَّبهم الله سبحانه فى ذلك ، وطائفة من المسيحيين قالوا: إن المسيح ابن الله[2] ، وكذَّبهم الحق سبحانه فى ذلك[3] .

ثم ما الداعى أن يتخذ الله الولد؟

هل استنفد قوته حتى يساعده الولد ؟!

وهل يمكن أن يضعف سبحانه - معاذ الله - فيمتد بقوة الولد أو يعتمد عليه؟!

مثلما يقال حين يواجه شيخٌ شابّاً ، ويعتدى الشاب على الشيخ ، فيقال للشاب: احذر ؛ إن لهذا الشيخ ولداً أقوى منك ؛ فيرتدع الشاب ، أو أن يقول الشيخ للشاب: إن أبنائى يفوقونك فى القوة ، وفى هذا اعتداد بالأولاد.

ويريد الحق سبحانه أن يغفل كل هذه الدعاوى ولتكون حركة الحياة متماسكة متلازمة ، لا متعارضة ولا متناقضة ؛ لذلك ينبغى أن يكون

---

(١) يقول رب العزة سبحانه وتعالى : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ ..(٣٠) ﴾ [التوبة].

(٢) يقول الله عز وجل : ﴿ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ .. (٣٠) ﴾[التوبة].

(٣) يقول الله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٣٠) ﴾ [التوبة].

المحرِّك إلهاً واحداً تصدر منه كل الأوامر ، فلا تعارض فى تلك الأوامر ؛ لأن الأوامر إن صدرت عن متعدد فحركة الحياة تتصادم بما يبدد الطاقة ويفسد الصالح .

ولذلك لا بد أن يكون الأمر صادراً من آمر واحد يُسْلَّم له كل أمر ، وهذا الإله منزَّه عن كل ما تعرفه من الأغيار ، فله تنزيه فى ذاته ؛ فلا ذات تشبه ذاته ، ومنزَّه فى صفاته ؛ فلا صفة تشبه صفته ، ومنزَّه فى أفعاله ؛ فلا فعل يشبه فعله [1] .

وحتى نضمن هذه المسألة لا بد أن يكون الإله واحداً ، ولكن بعضاً من القوم جعلوا لله شركاء ، ومن لم يجعل له شريكاً ، توهَّم أن له ابناً وولداً .

ونقول لهم :

إن كلمتكم : ﴿ اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا .. (٦٨) ﴾ ترد عليكم ؛ لأن معنى اتخاذ الولد أن الألوهية وُجِدَتْ أولاً مستقلة ، وبهذه الألوهية اتخذ الولد .

ومن المشركين من قال : إن الملائكة بنات الله .

فردَّ عليهم الحق سبحانه :

﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَىٰ (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ [2] (٢٢) ﴾ [النجم]

والكمال كله لله سبحانه فهو كمال ذاتى ؛ ولذلك يأتى فى وسط الآية ويقول تعالى :

---

(١) وذلك مصداق لقوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١١) ﴾ [الشورى] ، فهو سبحانه لا مثل له فى ذاته ولا فى صفاته ولا فى أفعاله .

(٢) ضاز فى الحكم : أى : جار . وقسمة ضيزى وضوزى أى : جائرة ليس فيها حق ولا عدل . [لسان العرب : مادة (ض ى ز) – بتصرف] .

﴿ سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ .. (٦٨) ﴾ [يونس]

وسبحانه تعنى: التنزيه ، وهو الغنى أى: المستغنى عن مُعين كما تستعينون أنتم بأبنائكم ، وهو دائم الوجود ؛ فلا يحتاج إلى ابن مثل البشر ، وهم أحداث تبدأ وتنتهى ؛ لذلك يحبون أن يكون لهم أبناء كما يقول الشاعر:

* ابنى يا أنا بعد ما أَقْضَى *

ويقال: «من لا ولد له لا ذكْر له» ، كأن الإنسان لما علم أنه يموت لا محالة أراد أن يستمر فى الحياة فى ولده.

ولذلك حين يأتى الولد للإنسان يشعر الإنسان بالسرور والسعادة ، والجاهل هو من يحزن حين تلد له زوجته بنتاً ؛ لأن البنت لن تحمل الاسم لمن بعدها ، أما الولد والحفيد فيحملان اسم الجد ، فيشعر الجد أنه ضمن الذِّكْر فى جيلين.

إذن: فاتخاذ الولد إما استعانة وإما اعتداد ، والحق سبحانه غنىٌّ عن الاستعانة ، وغنى عن الاعتداد ؛ لأنك تعتد بمن هو أقوى منك ، وليس هناك أقوى من الله تعالى ، وهو سبحانه لا يحتاج لامتداد ؛ لأنه هو الأول وهو الآخر ، وعلى ذلك ففكرة اتخاذ الولد بالنسبة لله تعالى لا تصح على أى لون من ألوانها.

ولذلك يقول الحق سبحانه مرادفاً لتلك الفكرة: ﴿ سُبْحَانَهُ [1] ﴾ لأنها تقطع كل احتمالات ما سبقها ، ويُتْبِع ذلك بقوله: ﴿ هُوَ الْغَنِيُّ ﴾ لأنه

---

(١) سَبَح يَسْبَحُ من باب فتح: سَبْحا ، وسباحة: عام ومرَّ فى الماء . ومن المجاز سبح الجواد ، أى جرى كأنه يسبح فى الماء ، ومن المجاز سبحت النجوم ، أى: سارت فى أفلاكها . قال تعالى: ﴿ .. كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٣٣) ﴾ [الأنبياء] وعوملت معاملة العقلاء لانتظامها فى سيرها . وسبِّح اسم ربك: نزِّه اسمه عن كل نقص وصفه بكل كمال أو قل: سبحان الله ومعناها أنزه الله تنزيهاً عن النقص وأصفه بالكمال ، وهو منصوب على المصدرية ، ومصدر نائب عن فعله . [القاموس القويم - بتصرف]

غنى عن اتخاذ الولد ، وغنى عن كل شيء ، وقوله : ﴿سُبْحَانَهُ﴾ تنزيه له ، والتنزيه : ارتفاع بالمُنَزَّه عن مشاركة شيء له - في الذات أو الأفعال .

وإذا ورد شيء هو لله وصفٌ ولخَلْقه وصفٌ ، فإياك أن تأخذ هذه الصفة مثل تلك الصفة .

فإن قابلت غنياً من البشر ، فالغنى في البشر عَرَضٌ ، أما غنى الله تعالى ففى ذاته سبحانه .

وأنت حى(1) والله سبحانه حى ، ولكن أحياتك كحياته؟ لا ؛ لأن حياته سبحانه لم يسبقها عدم ، وحياتك سبقها عدم ، وحياته سبحانه لا يلحقها عدم ، وأنت يلحق حياتك العدم .

والله موجود وأنت موجود ، لكن وجوده سبحانه وجود ذاتيٌّ ، ووجودك وجود عَرَضِيٌّ .

وإذا قال الحق سبحانه :

إن له - سبحانه وتعالى - يداً ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ..(10)﴾ [الفتح]

فلا يمكن أن تكون يد الله سبحانه مثل يدك ؛ لأن ذاته سبحانه ليست كذاتك ، وصفاته سبحانه ليست كصفاتك ، وهو سبحانه القادر الأعلى ، ولا يمكن أن يكون مقدوراً لأحد .

ولذلك حين يتجلَّى الله سبحانه لخلقه ، فسوف يتجلى بالصورة التى

---

(1) حَيِىَ يَحْيا ، كرضي يرضى وحيّ بالإدغام يحيا حياة وحيواناً ضد مات فهو حى ، وهو خاص بكل ذى روح ، ويطلق مجازاً على الأرض . قال تعالى : ﴿فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ..(9)﴾ [فاطر] ويستعار أيضاً لمعنى الصلاح والإيمان ، قال تعالى : ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ ..(122)﴾ [الأنعام] والحى من أسماء الله الحسنى ، قال تعالى : ﴿اللَّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ ..(255)﴾ [البقرة] والحياة الدنيا تقابلها الحياة الآخرة ، قال تعالى : ﴿.. وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ (185)﴾ [آل عمران] والمحيا : مصدر ميمى بمعنى الحياة ، قال تعالى : ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (162)﴾ [الأنعام] أى : حياتى وموتى .

تختلف عن كل خيال العبد ، وهذه الصورة تختلف من عبد إلى آخر ، ولو كانت الصورة التى يتجلى بها الله سبحانه مقدوراً عليها لكان معنى ذلك أن هناك ذهناً بشرياً قد قدر على الإحاطة بها . وما خطر ببالك فالله سبحانه بخلاف ذلك ؛ لأن ما خطر بالبال مقدور عليه لأنه خاطر ، والله سبحانه لا ينقلب أبداً إلى مقدور عليه .

وأنت حين تأتى بمسألة فى الحساب أو الهندسة - مثلاً - وتعطيها لتلميذ ويقوم بحلها ، فمعنى ذلك أن عقله قد قدر عليها ، أما إن جئت لتلميذ فى المرحلة الإعدادية - مثلاً - بمسألة هندسية مقررة على طلبة كلية الهندسة ؛ فعقله لن يقدر عليها .

إذن : لو أن الإنسان قد أدرك شيئاً عن الله غير ما قاله الله لانقلب الإله إلى مقدور عليه ، والحق سبحانه مُنَزَّه عن ذلك ؛ لأنه القادر الأعلى الذى لا ينقلب أبداً إلى مقدور .

لذلك يعلِّمنا الحق سبحانه أن نقول تنزيهاً لله تعالى كلمة ﴿ سُبْحَانَهُ ﴾ ، وهو التنزيه الواجب عن كل شىء يخطر ببال الإنسان عن الله تعالى ، وهذه السبحانية أو هذا التنزيه هو صفة ذاتية فى الله تعالى ، قبل أن يوجد شىء ، وبعد أن خَلَق الخَلْق ، فعلى كل المخلوقات تنزيهه ، وبدأ الخلق فى التسبيح .

والتسبيح فعل مستمر لا ينقطع ولا ينقضى ؛ لذلك تجد استدلالات القرآن فى السور التنزيهية [1] تؤكد ذلك ، فيقول الحق سبحانه :

---

(١) فتجد التسبيح فى الماضى : ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝١ ﴾ [الحديد] وفى المضارع : ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ﴾ [التغابن] وفى الأمر : ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ۝١ ﴾ [الأعلى] وفى المصدر سبحانه ، وبهذا نلاحظ أن الماضى يسبحه ، والمستقبل يسبحه والحال يذكره ، والكون مع الزمن فى تسبيح مستمر : ﴿ .. وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَـٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ۝٤٤ ﴾ [الإسراء] .

﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ ..(١) ﴾ [الإسراء]

وإياك أن تظن أن محمداً ﷺ قد سرى بقرار من نفسه ، بل الذى أسرى به هو الحق سبحانه ، فلا تظن أن المسافة يمكن أن تمنع مشيئة الحق المطلقة ، ولا المكان ، ولا الزمن ؛ لأن الفعل منسوب لله تعالى ، ولا يمكن أن نقيس فعلاً منسوباً لله تعالى بقياس الزمان أو المكان ، أو حسب قانون الحركة النسبية ؛ لأن الحق سبحانه له طلاقة القدرة ، وأنت بشر مجرد حادث محدود الزمان والمكان.

وأنت إذا سرْت من هنا إلى الإسكندرية - مثلاً - على قدميك فستقطع المسافة فى أَسابيع ، وإن امتطيت دابة فقد تأخذ فى الوصول إلى الإسكندرية أياماً ، وإن ركبت سيارة فسوف تقطع المسافة فى ساعتين ، وإن ركبت صاروخاً ، فستصل خلال دقائق.

أى: أنك كلما زادت قوة أداة الوصول قَلَّ زمن الوصول ، وهذا موجز نظرية الحركة ، وإذا كان الذى أسرى هو الله سبحانه ، وهو قوة القوى ؛ لذلك لا يمكن أن يقاس بالنسبة لمشيئة قوة أخرى ، أو أن يقاس الأمر ببُعْد أو قُرْب المكان أو كيفية الزمان الذى تعرفه.

وإياك أن تفهم أن إسراء الله تعالى مثل إسرائك ؛ لأن الفعل إنما يأخذ قوته من الفاعل ، وما دام الفاعل هو الله سبحانه فلا أحد بقادر أن يَحُدَّ أفعاله بزمن.

وقد استهل الحق سبحانه سورة الإسراء بالسبحانية وآياتها الأولى تتكلم فى أدق شىء تكلم فيه رسول الله ﷺ عن ذاته بأنه قد أَسْرِىَ به ، وبذلك

أثبت بحادث الإسراء حقيقة المعراج ، وأن الناموس[1] قد خُرق له ، وحدَّثنا عما نعلم لنصدِّق حديثه عما لا نعلم ، وحتى نقيس ما لا نعلم على ما نعلم ، فيتأكد لنا صدقه ﷺ في حديثه عما لا نعلم.

كلمة «سبحانه» -إذن - هى للتنزيه ، وهى لله تعالى أزلاً قبل أن يَخلق الخَلق ، فقد شهد سبحانه لذاته أنه إله واحد ، ثم شهدت الملائكة ، ويتكرر التسبيح من كل المخلوقات التى أوجدها الله سبحانه.

وأنت تجد سور القرآن الكريم التى جاء فيها التسبيح مؤكدة أنه سبحانه مُنزَّه ، وله التسبيح من قبل أن يخلق الخلق ، ثم خلق الخلق ؛ ليسبِّحوا ، ففى سورة الحديد يقول سبحانه :

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ.. (١) ﴾ [الحديد]

ويقول سبحانه فى سورة الحشر :

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ .. (١) ﴾ [الحشر]

فهل سبَّح كل من فى السموات ومن فى الأرض مرة واحدة وانتهى الأمر؟ لا ؛ لأن الله سبحانه يقول :

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ .. (١) ﴾ [الجمعة]

ويقول سبحانه فى سورة التغابن :

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (١) ﴾ [التغابن]

---

(١) نواميس الكون : الأسرار التى أودعها الله - سبحانه وتعالى - فى الكون ، من قوانين تنظم حركة أجزائه ومكوناته.

إذن: فالسبحانية لله أزلاً ، وسبَّح ويسبِّح الخَلْق وكل الوجود بعد أن خلقه الله سبحانه ، سموات وأرض وما فيهما ومن فيهما ، وما بقى إلا أنت أيها الإنسان فسبِّحْ باسم ربك الأعلى.

وفى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الحق سبحانه:

﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ ..(٦٨) ﴾ [يونس]

وعلة التسبيح والتنزيه عن أن يكون له ولد تأتى فى قوله تعالى: ﴿ هُوَ الْغَنِيُّ ﴾ ؛ لأن اتخاذ الولد إنما يكون عن حاجة ، إما استعانة ، وإما اعتماداً ، وإما اعتداداً ، وإما امتداداً ، وكل هذه أمور باطلة بالنسبة له سبحانه ، وهو الحق الأعلى ، وهو سبحانه القائل فى آية أخرى :

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ (١١٦) ﴾ [البقرة]

والقنوت[1] معناه: الإقرار بالعبودية لله تعالى والخضوع له وإطاعته.

ويقول سبحانه فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٦٨) ﴾ [يونس]

و«إنْ» قد تأتى للنفى فى مثل قول الحق سبحانه:

﴿ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلاَّ اللاَّئِي وَلَدْنَهُمْ ..(٢) ﴾ [المجادلة]

وفى قول الحق سبحانه هنا:

---

(١) قنت يقنتُ كنصرَ - ذل وخضع لبده ، وقنت المؤمن بالله : أطاعه وأقر له بالعبودية ، وقنت فى صلاته خشع واطمأن ، وقنت دعا وأطال الدعاء ، والقنوت الطاعة والدعاء . قال تعالى : ﴿ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ .. (٣١) ﴾ [الأحزاب] وقوله : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ (١١٦) ﴾ [البقرة] أى : خاضعون معترفون بألوهيته مطيعون - [القاموس القويم - بتصرف]

﴿ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَذَا .. (٦٨) ﴾ [يونس]

أى: ليس عندكم حُجَّة تدل على أن الله تعالى اتخذ ولداً.

ولذلك يُنهى الحق سبحانه الآية بقوله:

﴿ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٦٨) ﴾ [يونس]

أى: أنكم لا تملكون إعلاماً من الله تعالى بذلك، فلا إعلام عن الله إلا من الله، وليس لأحد أن يُعْلِم عن ربه، فهو سبحانه من يُعْلِم عن نفسه.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (٦٩) ﴾

والحق سبحانه وتعالى حينما يتكلم عن الإيمان وثمرته ونهايته يأتى بالفَلاَح كنتيجة لذلك الإيمان، فهو سبحانه القائل:

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا[1] (٩) ﴾ [الشمس]

وهو سبحانه القائل:

﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) ﴾ [المؤمنون]

ويقول أيضاً:

﴿ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٥٧) ﴾ [الأعراف]

وكلها من مادة «الفلاح» وهى مأخوذة من الأمر الحسى المتصل بحياة الكائن الحى، فمقومات وجود الكائن الحى: نَفَس، وماء، وطعام،

(١) زكاها: طهرها وبرأها من أقذار البدن والنفس.

والتنفس يأتى من الهواء الذى يحيط بالأرض ، والماء ينزل من السماء أو يُستنبط مما تسرب فى باطن الأرض. والطعام يأتى من الأرض ، وكل ما أصله من الأرض يُستخرج بالفلاحة.

لذلك نقول: إن الفلاَحة هى السبب الاستبقائى للحياة ، فكما يُفْلِح الإنسان الأرض ، ويشَقها ويبذر فيها البذور ، ثم يرويها ، ثم تنضج وتخرج الثمرة ، ويقال: أفلح ، أى: أنتجت زراعته نتاجاً طيباً.

وشاء الحق سبحانه أن يسمِّى الحصيلة الإيمانية الطيبة بالفلاح.

وبيَّن لنا رسول الله ﷺ أن الدنيا مزرعة الآخرة ، فإن كنت تريد ثمرة فابذل الجهد.

وإياك والظن أن الدين حينما يأخذ منك شيئاً فى الدنيا أنه يُنْقِص ما عندك ، لا ، بل هو يُنمِّى لك ما عندك[1].

والمثل الذى أضربه دائماً - ولله المثل الأعلى - نجد الفَلاَّح حين يزرع فداناً بالقمح ، فهو يأخذ من مخزنه إردباً ؛ ليستخدمه كبذور فى الأرض ، ولو كانت امرأته حمقاء لا تعرف أصول الزراعة ستقول له: «أنت أخذت من القمح ، وكيف تترك عيالك وأنت تنقصهم من قوتهم ؟ »

هذه المرأة لا تعلم أنه أخذ إردبَّ القمح الـمُخَزَّن ؛ ليعود به بعد الحصاد عشرة أو خمسة عشر إردبّاً من القمح.

كذلك مطلوب الله سبحانه فى الدنيا قد يبدو وكأنه ينقصك أشياء ، لكنه يعطيك ثمار الآخرة ويزيدها.

---

(١) يقول الحق سبحانه : ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ .. (٩٦)﴾ [النحل] وقوله : ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ ..(٦٠)﴾ [الأنفال] وقوله : ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا .. (١٦٠)﴾ [الأنعام] وقوله : ﴿إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ .. (١٧)﴾ [التغابن]

إذن: فالفلاح مادة مأخوذة من فلح الأرض وشقها وزرعها لتأخذ الثمرة.

وكما أنك تأخذ حظك من الثمار على قدر حظك من التعب ومن العمل، فذلك أمر الآخرة وأمر الدنيا.

ومثال ذلك: الفلاح الذى يحرث الأرض، ويحمل للأرض السماد على المطية [1]، ثم يستيقظ مبكراً فى مواعيد الرى، تجد هذا الفلاح فى حالة من الانشراح والفرح فى يوم الحصاد، وأمره يختلف عمن يهمل الأرض ويقضى الوقت على المقهى، ويسهر الليل أمام التليفزيون، ويأتى يوم الحصاد ليحزن على محصوله الذى لم يحسن زراعته.

وقول الحق سبحانه:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ [2] (٦٩) ﴾ [يونس]

أى: هؤلاء الذين يقولون عن الله تعالى أو فى الله تعالى بغير علم من الله، هم الذين لا يفلحون.

وأوضحت من قبل أن كل ما يتعلق بالله تعالى لا يُعْلَم عنه إلا عن طريق الله. لكن ما الذى يحملهم على الافتراء؟

نعم، إن كل حركة فى الحياة لا بد أن يكون الدافع إليها نفعاً، وتختلف النظرة إلى النفع وما يترتب عليه، فالطالب الكسول المتسكع فى الشوارع، الرافض للتعلم، نجده راسباً غير موفق فى مستقبله، أما التلميذ الحريص على علومه، فهو من يحصل على المكانة اللائقة به فى المجتمع، والتلميذ الأول كان محدود الأفق ولم ير امتداد النفع وضخامته، بل قصر النفع على لذة عاجلة مُضحِّياً بخير آجِل.

---

(١) المطية: الدابة، وهى الناقة التى يُركَب مطاها أى: ظهرها. وجمعها: مطايا. [لسان العرب: مادة (م ط ى)].

(٢) يفترون الكذب: يكذبون، أو يقولون بغير علم. لا يفلحون: لا يفوزون ولا ينتصرون. قال تعالى: ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ (٦١) ﴾ [طه].

والذى جعل هؤلاء يفترون على الله الكذب هو انهيار الذات ، فكل ذات لها وجود ولها مكانة ، فإذا ما انهارت المكانة ، أحس الإنسان أنه بلا قيمة فى مجتمعه .

والمثل الذى ضربته من قبل بحَلاَّق الصحة فى القرية ، وكان يعالج الجميع ، ثم تَخرَّجَ أحد شباب القرية فى كلية الطب وافتتح بها عيادة ، فإن كان حلاق الصحة عاقلاً ، فهو يذهب إلى الطبيب ليعمل فى عيادته ممرضاً ، أو (تمرجياً) ، أما إن أخذته العزة بالإثم ، فهو يعاند ويكابر ، ولكنه لن يقدر على دفع عِلْم الطبيب .

وكذلك عصابة الكفر ورؤساء الضلال حينما يُفاجَأون بمَقْدم رسول من الله ، فهم يظنون أنه سوف يأخذ السيادة [1] لنفسه ، رغم أن أىَ رسول من رسل الله تعالى - عليه السلام - إنما يعطى السيادة لصاحبها ، ألا وهو الحق الأعلى سبحانه .

وحين يأخذ منهم السيادة التى كانت تضمن لهم المكانة والوجاهة والشأن والعظمة ، فهم يصابون بالانهيار العصبى ، ويحاولون مقاومة الرسول دفاعاً عن السلطة الزمنية .

ومثال ذلك : هو مَقْدمُ النبى ﷺ إلى المدينة ، وكان البعض يعمل على تنصيب عبد الله بن أبىّ ليكون مَلكاً [2] ؛ ولذلك قاوم الرجل الإسلام ،

(١) وهذا مخالف لمنطق الرسول ﷺ ومفهوم الدعوة ، حيث عرض عليه الكفار المال والملك والسلطان والجاه ، فاختار رب الكل ، وقال قولته التى سجلها الزمن وحفظتها العقول الواعية : « والله ولو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله ، أو أهلك فيه ما تركته » أورده ابن هشام فى السيرة النبوية (١/ ٢٦٦) .

(٢) أورد ابن إسحاق فى السيرة أن قوم عبد الله بن أبى كانوا «قد نظموا له الخرز ليتوجوه ثم يملّكوه عليهم ، فجاءهم الله برسوله وهم على ذلك ، فلما انصرف قومه عنه إلى الإسلام ضغن ورأى أن رسول الله ﷺ قد استلبه ملكاً ، فلما رأى قومه قد أبوا إلا الإسلام دخل فيه كارهاً مُصِراً على نفاق وضغن» سيرة ابن هشام (٢/ ٢١٦) .

وحين لم يستطع آمن نفاقاً ، وظل على عدائه للإسلام ، رغم أنه لو أحسن الإسلام واقترب من رسول الله ﷺ لنال أضعاف ما كان سيأخذه لو صار ملكاً .

وهكذا قادة الضلال وأئمة الكفر ، هم مشفقون على أنفسهم وخائفون على السلطة الزمنية ؛ لأن الرسول حينما يجىء إنما يُسوِّى بين الناس ؛ لذلك يقفون ضد الدعوة حفاظاً على السلطة الزمنية .

ولذلك يقول الحق سبحانه عن سبب افترائهم الكذب :

﴿ مَتَٰعٌ[1] فِي ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلۡعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

ويعزُّ - إذن - على قادة الكفر وأئمة الضلال أن يسلبهم الرياسة والسيادة داعٍ جديد إلى الله سبحانه وتعالى ، ويخافون أن يأخذ الداعى الجديد لله الأمرَ منهم جميعاً ، لا إلى ذاته ، ولكن إلى مراد ربه .

ولو كان الداعى إلى الله تعالى يأخذ السلطة الزمنية لذاته ؛ لقلنا : ذاتٌ أمام ذات ، ولكنه ﷺ أوضح أنه يعود - حتى فيما يخصه - إلى الله سبحانه وتعالى .

ويكشف لنا الحق سبحانه الكسب القليل الذى يدافعون عنه أنه :

---

(١) المتاع : التمتع ، وهو كل ما ينتفع به ويرغب فى اقتنائه ، كالطعام ، وأثاث البيت ، والسلعة ، والأداة ، والمال [المعجم الوسيط] والمراد أن الله سبحانه وتعالى يترك الكفار يتمتعون بمتاع الدنيا الزائل - لأن الدنيا كلها لا تساوى عند الله سبحانه جناح بعوضة - ولكنه سيعاقبهم على كفرهم بالعذاب الشديد فى الآخرة ويحرمهم من نعيم الجنة . ويقصد بالمتاع أيضاً الزوجة الصالحة مصداقاً لقول رسول الله ﷺ «الدنيا متاع ، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة » .
أخرجه مسلم فى صحيحه كتاب الرضاع - باب خير متاع الدنيا المرأة الصالحة ، حديث (٥٩) عن عبد الله بن عمرو ، وعند أبى نعيم فى حلية الأولياء (٣/ ٣١٠) زيادة « إن نظر إليها سرته ، وإن أمرها أطاعته» .

﴿ مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ..﴿٧٠﴾ ﴾ ؛ لأن كُلاً منهم يحب أن يقنع نفسه ، بحُمْق تقدير المنفعة ، وكلمة «الدنيا» لا بد أن منها حقيقة الشيء المنسوبة إليه .

والأسماء - كما نعلم - هى سمات مسميات ، فحين تقول : إن فلاناً طويل ، فأنت تعطيه سمة الطول .

وحين تقول : «دنيا» فهى من «الدُّنُوِّ» أو « الدناءة» .

وإن اعتبرت الدنو هو طريق موصل إلى القمة ، فهذا أمر مقبول ؛ لأن الدرجة الأولى فى الوصول إلى الأعلى هى الدنو ، وتلتزم بمنهج الله تعالى فتصعد عُلواً وارتفاعاً إلى الآخرة .

إذن : فمن يصف الدنيا بالدناءة على إطلاقها نقول له : لا ، بل هى دنيا بشرط أن تأخذها طريقاً إلى الأعلى ، ولكن من لا يتخذها كذلك فهو من يجعل مكانته هى الدنيئة ، أما من يتخذها طريقاً إلى العلو فهو الذى أفلح باتِّباع منهج الله تعالى .

إذن : فالدنيا ليست من الدناءة ؛ لأن الدين ليس موضوعه الآخرة ، بل موضوعه هو الدنيا ، ومنهج الدين يلزمك بـ «افعل» و «لا تفعل» فى الدنيا ، والآخرة هى دار الجزاء ، والجزاء على الشيء ليس عين موضوعه ، وأنت تستطيع أن تجعل الدنيا مفيدة لك إنْ جعلتها مزرعة للآخرة .

وإياك أن تعمل على أساس أن الدنيا [1] عمرها ملايين السنين ؛ لأنه لا يعنيك كعائش فى الدنيا إن طال عمرها أم قَصُرَ ، بل يعنيك فى الدنيا مقدار مُكْثك فيها ، وعمرك فيها مظنون ، بل وزمن الدنيا كله

(١) وقد وصف لنا رب العزة سبحانه الدنيا فقال : ﴿ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ ..﴿٧٧﴾ ﴾ [النساء] وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [يونس]

مظنون ، وهناك من يموت وعمره ستة أشهر ، وهناك من يموت وعمره مائة سنة ، وكلٌّ يتمتع بقدر ما يعيش ، ثم يرجع إلى الله سبحانه وتعالى .

وهؤلاء الذين ضَلُّوا وقالوا على الله سبحانه افتراء ، هؤلاء لن يفلتوا من الله ؛ لأن مرجعهم إليه سبحانه ككل خَلْقه ، وهؤلاء المُضلُّون لم يلتفتوا إلى عاقبة الأمر ، ولا إلى من بيده عاقبة الأمر ، ولم يرتدعوا.

ولكن من نظر إلى عاقبة الأمر وأحسن في الدنيا فمرجعه إلى حسن الثواب والجنة ، ومن لم ينظر إلى عاقبة الأمر وافترى على الله - سبحانه وتعالى - الكذب فالمآب والمآل[1] إلى العذاب مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [يونس]

ودرجة العذاب تختلف باختلاف المعذِّب ، فإن كان المعذِّب ضعيفاً ، فتعذيبه يكون ضعيفاً ، وان كان المعذِّب متوسط القوة ؛ فتعذيبه يكون متوسطاً ، أما إن كان المعذِّب هو قوة القوى فلا بد أن يكون عذابه شديداً ، وهو سبحانه الحق القائل :

﴿ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ[2] ﴿١٠٢﴾ ﴾ [هود]

وبعد أن تكلم الحق سبحانه عن مبدأ تنزيه الألوهية عن اتخاذ الولد ، فهو سبحانه الغنيُّ الذى له ما فى السموات والأرض ، وبيَّن لنا سبحانه أننا يجب أن نأخذ المنهج من مصدر واحد وهو الرسل المبلِّغون عن الله تعالى ، شاء الحق سبحانه أن يكلمنا عن موكب الرسالات ؛ لأن الكلام حين يكون كلاماً نظرياً ليس له واقع يسنده ، فقد تنسحب النظرية عليه .

أما إن كان للكلام واقع فى الكون يؤيد الكلام النظرى ، فهذا دليل على صحة الكلام النظرى ؛ ولذلك فنحن حين نحب أن نضخِّم مسألة من

---

(١) المآب والمآل : المرجع والمصير .

(٢) أليم : صيغة مبالغة من الألم ، وشديد : صيغة مبالغة من الشدة ، أى : شديد الألم .

المسائل فى داء اجتماعى ، نحاول أن نصنع منه رواية ، أى : أمراً لم يحدث حقيقة ، ولكننا نتخيل أنه حقيقة ؛ لنبيِّن الأمر النظرى فى واقع متخَّيل .

ويقص علينا الحق سبحانه فى القرآن قصصاً من الموكب الرسالى ؛ ليبيِّن للكفار : أنكم لن تستطيعوا الوقوف أمام هذه الدعوة ، وأمامكم سجل التاريخ ، وأحداث الرسل مع أممهم ؛ المؤيدين بالمؤمنين ؛ والكفار المعَاندين والمعارضين ، فإن كان قوم من السابقين قد انتصروا على رسولهم ، فللكفار الحق فى أن يكون لهم أمل فى الانتصار على رسول الله ﷺ [(١)] .

ولا بد أن يكون هذا الكلام موجهاً إلى أناس لهم علم ببعض أحداث الموكب الرسالى . ولكن قد يكون علم هذا قد بهت ؛ لأن الزمان قد طال عليه .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَـٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ [(٢)] ﴿٧١﴾ ﴾

(١) وقد جاءت آيات كثيرة فى القرآن الكريم تحث الكافرين وغيرهم على النظر فى عاقبة المكذبين والمجرمين ، نحو قوله تعالى : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ﴾ [الأنعام] . وقوله تعالى : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [النمل] .

(٢) كبر : عظم وشق عليكم . مقامى : إقامتى بينكم . تذكيرى بآيات الله : دعوتى إياكم إلى الإيمان بالله تعالى . فعزمتم على قتالى وطردى ، فبالله آمنت ، وبه وثقت ، وعليه اعتمدت وتوكلت . فأجمعوا أمركم : اعزموا على ما تعزمون عليه وادعوا شركاءكم . غمة : ملتبساً مبهماً ، أى : كونوا جميعاً يداً واحدة ضدى ، واقضوا إلىَّ : أى : امضوا إلى ما فى أنفسكم وافرغوا منه . ولا تُنظرون : لا تؤخرون ولا تمهلون . وشدة إيمان نوح - عليه السلام - بالله تعالى وثقته فى نصرته إياه هى التى دعته لأن يتحدى قومه الكافرين هذا التحدى ؛ فكان نصر الله له ، والغرق والهلاك لأعدائه بالطوفان . [مختصر تفسير الطبرى - بتصرف] .

ولقائل أن يقول : ولماذا جاء الله سبحانه هنا بخبر نوح - عليه السلام - ولم يأت بخبر آدم -عليه السلام - أو إدريس - عليه السلام - وهُمَا من الرسل السابقين على نوح عليه السلام ؟

ومن هنا جاءت الشبهة فى أن آدم لم يكن رسولاً ؛ لأن البعض قد ظن أن الرسول يجب أن يحمل رسالته إلى جماعة موجودة من البشر ، ولم يفطن هؤلاء البعض إلى أن الرسول إنما يُرْسَل لنفسه أولاً .

وإذا كان آدم - عليه السلام - أول الخلق فهو مُرسَل لنفسه ، ثم يبلِّغ من سوف يأتى بعده من أبنائه .

وقد أعطى الله سبحانه وتعالى التجربة لآدم - عليه السلام - فى الجنة ، فكان هناك أمر ، وكان هناك نهى هو ﴿ **وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ** .. (٣٥) ﴾ [البقرة]

وحَذَّره من الشيطان [١] ، ثم وقع آدم عليه السلام فى إغواء الشيطان ، وأنزله الله تعالى إلى الأرض واجتباه [٢] ، وتاب عليه ، ومعه تجربته ، فإن خالف أمر ربه فسوف يقع عليه العقاب ، وحذره من اتباع الشيطان حتى لا يخرج عن طاعة الله تعالى .

---

(١) الشيطان : كل عاد متمرد من الإنس والجن ، والشيطان من الجن مخلوق حيث خلق من النار ، وهو عدو للإنسان يغريه بالشر إلا من حفظه الله بإيمانه يقول الحق : ﴿ وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ (١٧) ﴾ [الحجر] أى : حفظ السماء من عبث الشياطين وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا .. (٦) ﴾ [فاطر] وقال : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ .. (١١٢) ﴾ [الأنعام] [القاموس القويم - بتصرف]

(٢) اجتباه : اصطفاه واختاره، ومصداقه قوله تعالى عن آدم : ﴿ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى (١٢٢) ﴾ [طه].

إذن: فقد أعطاه الحق سبحانه المنهج ، وأمره أن يباشر مهمته فى الأرض ؛ فى نفسه أولاً ، ثم يبلغه لمن بعده.

وكما علَّمه الحق سبحانه الأسماء كلها ، علَّم آدم الأسماء لأبنائه فتكلموا: وكما نقل إليهم آدم الأسماء نقل لهم المنهج ، وقد علمه الحق سبحانه الأسماء ؛ ليعمر الدنيا ، وعلَّمه المنهج ؛ ليحسن العمل فى الدنيا ؛ ليصل إلى حسن جزاء الآخرة.

واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى:

﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ (١٢١)﴾ [طه]

ويتبعها الحق سبحانه بقوله تعالى:

﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ ..(١٢٢)﴾ [طه]

ومعنى الاجتباء : هو الاصطفاء بالرسالة لنفسه أولاً ، ثم لمن بعده بعد ذلك ، والحق سبحانه هو القائل:

﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى .. (٣٨)﴾ [البقرة]

والهدى: هو المنهج المنزَّل على آدم عليه السلام ، والرسالة ليست إلا بلاغ منهج وهدى من الله سبحانه للخلق.

وإذا كان الحق سبحانه وتعالى هو القائل:

﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً (١٥)﴾ [الإسراء]

فالسابقون لنوح - عليه السلام - هم من أبلغهم آدم عليه السلام ، والدليل هو ما جاء من خبر ابنى آدم فى قول الحق سبحانه:

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا [1] ..(٢٧) ﴾ [المائدة]

وهما قد قدَّما القربان إلى الله تعالى.

إذن: فخبر الألوهية موجود عند ابنى آدم بدليل قول الحق سبحانه:

﴿ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧) ﴾ [المائدة]

إذن: فهم قد أقروا بوجود الله تعالى، وأيضا عرفوا النهى؛ لأنه فى إحدى الآيتين قال:

﴿ لَئِن بَسَطتَ [2] إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٢٨) ﴾ [المائدة]

إذن: فالذين جاءوا بعد آدم - عليه السلام - عرفوا الإله الواحد، وعلموا المنهج.

إذن: فالذين يقولون: إن آدم - عليه السلام - لم يكن رسولاً، نقول لهم: افهموا عن الله جيداً، كان يجب أن تقولوا: هذه مسألة لا نفهم فيها، وكان عليهم أن يسألوا أهل الذِّكْر ليفهموا عنهم أن آدم - عليه السلام - رسول، وأن من أولاده قابيل وهابيل، وقد تكلما فى التقوى.

أما لماذا جاء الحق سبحانه هنا بالحديث عن نوح، عليه السلام، فلنا أن نعلم أن آدم عليه السلام هو الإنسان الأول، وأنه قد نقل لأولاده المنهج

---

(١) القربان: هو ما يتقرب به العبد إلى الله أو إلى الآلهة المزعومة، وقد كان أحد أبناء آدم صاحب غنم، فقرب أكرم غنمه وأسمنها وأحسنها طيبة بها نفسه، أما الآخر فكان صاحب حرث فقرب أشر حرثه غير طيبة بها نفسه، فتقبل الله قربان صاحب الغنم الذى قدم أفضل ما عنده طيبة بها نفسه. انظر تفسير ابن كثير (٢/ ٤٢).

(٢) بسطت: مددت.

المُبلَّغ له ، ودلَّهم على ما ينفعهم ، ثم طال الزمن ونشأت الغفلة ، فجاء إدريس عليه السلام ، ثم تبعته الغفلة ، إلى أن جاء نوح عليه السلام .

وهنا يأتى لنا الحق سبحانه بخبر نوح - عليه السلام - فى قوله :

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ .. (٧١) ﴾ [يونس]

والنبأ : هو الخبر الهام الذى يلفت الذهن ، وهو الأمر الظاهر الواضح .

والحق سبحانه يقول :

﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (١) عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ (٢) الَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ (٣) ﴾ [النبأ]

إذن : فالنبأ هو الخبر الهام المُلْفت ، وقد جاء هنا خبر نوح - عليه السلام - الذى يُبلِّغ قومه أى : يخاطبَهم ، وهو قد شهد لنفسه أنه رسول يبلِّغ منهجاً .

وكلمة ﴿قَوْمِ﴾ لا تطلق فى اللغة إلا على الرجال[1] ، يوضح القرآن ذلك فى قول الحق سبحانه :

﴿ لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ..(١١) ﴾ [الحجرات]

إذن : فالقوم هم الرجال ، والمرأة إنما يُبنى أمرها على السر ، والحركة فى الدنيا للرجل ، وقد شرحنا ذلك فى حديث الحق سبحانه لآدم - عليه السلام - عن إبليس ، فقال تعالى :

---

(١) القوم : جماعة من الرجال ليس معهم نساء ، ويستعمل لفظ القوم فيشمل الأمة كلها رجالاً ونساء ، مثل قوم نوح وقوم إبراهيم . قال ابن منظور فى اللسان (مادة قوم) : «ربما دخل النساء فيه على سبيل التبع ؛ لأن قوم كل نبى رجال ونساء» .

﴿ إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ ﴿١١٧﴾ ﴾ [طه]

ولأن الخطاب لآدم فقد قال الحق سبحانه: ﴿ فَتَشْقَىٰ ﴿١١٧﴾ ﴾ [طه]

ولم يقل: فتشقيا ؛ مما يدل على أن المرأة لا شأن لها بالأعمال التى خارج البيت والتى تتطلب مشقة ، فالمرأة تقرُّ[1] فى البيت ؛ لتحتضن الأبناء ، وتُهيِّىء السكن للرجل بما فيها من حنان وعاطفة وقرار واستقرار.

أما القيام والحركة فللرجل.

والحق سبحانه يقول:

﴿ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ ﴿١١٧﴾ ﴾ [طه]

إذن: فالكدح للرجل ومتطلبه القيام لا القعود.

ثم يقول الحق سبحانه على لسان نوح - عليه السلام :

﴿ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي .. ﴿٧١﴾ ﴾ [يونس]

وهنا يُحنِّن نوح قومه بإضافات التحنن ، أى: جاء بالإضافة التى تُشْعر المخاطبين بأنه منهم وهم منه ، وأنه لا يمكن أن يغشهم فهم أهله ، مثل قول النائب الذى يخطب فى أهل دائرته الانتخابية: «أهلى وعشيرتى وناخبىّ» وكلها اسمها إضافة تحنن.

وكذلك مثل قول لقمان لابنه:

﴿ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ ﴾ [لقمان]

---

(١) القر فى البيت: الاستقرار فيه ، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأحزاب].

وقوله:

﴿ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ [١] فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَـٰوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ ﴾ [لقمان]

وقوله:

﴿ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ ..﴿١٧﴾ ﴾ [لقمان]

وهذه إضافات التحنن وفيها إيناس للسامع أن يقرب ويستجيب للحق.

﴿ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي ..﴿٧١﴾ ﴾ [يونس]

و«الكاف والياء والراء» تأتى لمعنيين:

الأول: كبر السن، وهى: كبر يكبر.

والثانى: العظمة والتعظيم، إلا أن التعظيم يأتى ليبيّن أنه أمر صعب على النفس، مثل قول الحق سبحانه:

﴿ ..كَبُرَتْ [٢] كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا ﴿٥﴾ ﴾ [الكهف]

أى: أن هذه الكلمة التى خرجت من أقوالهم أمر صعب وشاق، وهى قولهم:

---

(١) مثقال حبة من خردل: زنة حبة من خردل. والخردل: نبات عشبى ينبت فى الحقول وعلى حواشى الطرق، تستعمل بزوره فى الطب، ومنه بزور يتبل بها الطعام. الواحدة خردلة. ويضرب به المثل فى الصِّغر، فيقال: ما عندى خردلة من كذا. [المعجم الوسيط: مادة (خ ر د ل)].

(٢) ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ..﴿٥﴾ ﴾ [الكهف] أى: أن قول الكفار بأن لله - سبحانه وتعالى عما يقولون - ولداً، قول فيه خطأ كبير؛ لأن الله سبحانه منزه عن الصاحبة والأولاد، وعن الشركاء والأنداد. قال تعالى: ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَـٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ ﴾ [مريم]. وقال سبحانه: ﴿ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [يونس] من إثبات الولد له، والولد يقتضى المجانسة والمشابهة، والله تعالى لا يجانس شيئاً، ولا يشابه شيئاً.

﴿ ..قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ④ ﴾ [الكهف]

وهذه الكلمة إنما تعظم على المؤمن ، وهى مسألة صعبة لا يمكن قبولها فلا يوجد مؤمن قادر على أن يقبل ادعاء خلق من خلق الله تعالى أن له سبحانه ولداً .

ومرة تكون العظمة من جهة أخرى ، مثل قول الحق سبحانه :

﴿ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ..⑬ ﴾ [الشورى]

أى : عَظُم على المشركين ، وصَعُب على أنفسهم ، وشَقَّ عليهم ما تدعوهم إليه من أن الإله هو واحد أحد ، ولا سلطان إلا له سبحانه .

وهكذا ، إن كانت الكلمة مناقضة للإيمان فهى تكبر عند المؤمنين ، وإن كانت الكلمة تدعو الكافرين إلى الإيمان فهى تشق عليهم .

وهنا يأتى على لسان سيدنا نوح عليه السلام :

﴿ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي [1] ..⑦١ ﴾ [يونس]

ونحن نعلم أن سيدنا نوحاً - عليه السلام - مكث فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً .

(١) المقام : مصدر ميمى بمعنى القيام واسم مكان القيام الحسى ، ويطلق مجازاً على المكانة والمنزلة الأدبية ، وقوله : ﴿ وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ..١٢٥ ﴾ [البقرة] أى : مكان قيامه المسجد الحرام . وقوله : ﴿ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ⑤٨ ﴾ [الشعراء] أى : موطن فيه خيرات . وقوله : ﴿ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ١٦٤ ﴾ [الصافات] أى : منزلة معلومة . وقوله : ﴿ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ .. ٧١ ﴾ [يونس] أى : قيامى بالدعوة إلى الله وتذكيركم بآياته ، ومقام هنا مصدر ميمى .
والمقام (بالضم) مصدر ميمى من أقام الرباعى المزيد بالهمزة بمعنى الإقامة . واسم مكان واسم زمان . وقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ١٣ ﴾ [الأحزاب] أى : لا إقامة لكم فى أمن مع المجاهدين فارجعوا إلى بيوتكم . . [القاموس القويم - بتصرف] .

أى: أن حياته طالت كثيراً بين قومه ، كما أن تقريعه للكافرين جعله ثقيلاً عليهم.

أو أن: ﴿ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي .. (٧١) ﴾ [يونس]

تعنى: أنه حمَّلهم ما لا يطيقون ؛ لأن نوحاً - عليه السلام - أراد أن يُخرجهم عما ألفوا من عبادة الأصنام ، فشقَّ عليهم ذلك.

إذن: فمبدأ عبادة الإله الواحد يصعب عليهم.

أو أن الأصل فى الواعظ أو المبلِّغ أن يكون على مستوى القيام وهم قعود ، وكان سيدنا عيسى عليه السلام يتكلم مع الحواريين وهو واقف ، والوقوف إشعار بأن مجهود الهدى يقع على سيدنا عيسى - عليه السلام - بينما يقعد الحواريون ليستمعوا له فى راحة.

إذن: فقول الحق سبحانه:

﴿ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي .. (٧١) ﴾ [يونس]

أى: إن صعب عليكم ما أدعوكم اليه.

ويصح أن نأخذها من ناحية طول الوعظ والتكرار فى ألف سنة إلا خمسين عاماً ، أو أن مقامى كبر عليكم ، بمعنى: أننا انقسمنا إلى قسمين ؛ لأن المنهج الذى أدعو إليه لا يعجبكم ، وكنت أحب أن نكون قسماً واحداً.

وها هو ذا سيدنا عمر بن الخطاب - رضى الله عنه ، وأرضاه - حين أحس أن الخلافة تقتضى أن يسمِّى من يَخْلُفُهُ من بعده ، قال له بعض الناس: لماذا لا تولى علينا عبد الله بن عمر ، فقال ابن الخطاب: بحسب

آل خطاب أن يُسأل منهم عن أمة محمد ﷺ رجل واحد. ثم أضاف: أعلم أنكم مَلَلْتُم حُكْمى ؛ لأنى شديد[1] عليكم .

إذن: فقد أحس نوح - عليه السلام - أنه انقسم هو وقومه إلى قسمين: هو قد أخذ جانب الله سبحانه الذى يدعو إلى عبادته ، وهم أخذوا جانب الأصنام التى ألفوا عبادتها.

لذلك يقول الحق سبحانه على لسان نوح - عليه السلام :

﴿ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ .. (٧١) ﴾ [يونس]

أى: أننى لن أتنازل عن دعوتى ، ونلحظ أنك إن قلت: «توكَّلتُ على الله» فقد يعنى هذا أنك قد تقول: وعلى فلان ، وفلان ، وفلان ، لكنك إن قلت: ﴿ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ .. (٧١) ﴾ [يونس]

فأنت قد قصرت توكُّلك على الله فقط.

وهكذا واجه نوح - عليه السلام - قومه ، ورصيده فى ذلك هو الاعتماد والتوكل على من أرسله سبحانه ، ويحاول أن يهديهم ، لكنهم لم يستجيبوا ، وقال لهم:

﴿ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً .. (٧١) ﴾ [يونس]

ومعنى جمع الأمر: (أى: جمع شتات الآراء كلها فى رأى واحد) ، أى: اتفقوا يا قوم على رأى واحد ، وأنتم لن تضرونى. وجمع أمر الأجيال التى ظل سيدنا نوح - عليه السلام - يحاول هدايتها تحتاج إلى جهد ؛ لأن الجيل العقلى ينقسم إلى عشرين سنة.

---

(١) فسيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه لم يردها مُلْكاً وإنما أرادها للرأى والشورى ليضرب المثل للأجيال أن الأمر فى حياة الاستقرار للشورى مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ .. (٣٨) ﴾ [الشورى] ولكنه أجاب جواباً ذكياً يحمل ما يريده ، وما يراد منه .

وقد ظل سيدنا نوح - عليه السلام - يدعو القوم بعدد ما عاش فيهم ، أى : ألف سنة إلى خمسين ، فكم جيل - إذن - ظل نوح يعالجه ؟

إنها أجيال متعددة ، ومع ذلك لم يظفر إلا بقدر قليل من المؤمنين [١] بحمْل سفينة واحدة ، ومعهم الحيوانات أيضاً ، فضلاً عن أن ابنه خرج - أيضاً - مع القوم الكافرين ، وناداه نوح - عليه السلام - ليركب معه وأن يؤمن ، فرفض ، وآثر أن يظل فى جانب الكفر ، بما فيه من فناء للقوم الكافرين ، وظن أنه قادر على أن يأوى إلى جبل يعصمه من الطوفان ، ولم ينظر ابن نوح إلى جندى آخر من جنود الله سبحانه يقف عقبة فى سبيل الوصول إلى الجبل ، وهو الموج.

إذن : فقول نوح عليه السلام :

﴿ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ .. (٧١) ﴾ [يونس]

له رصيد إيمانى ضمنى ، فلا يوجد مجير على الله من خلق الله ؛ لأن الخلق كله - جماده ونباته وحيوانه - إنما ينصاع لأمر الله تعالى فى نصرة نوح - عليه السلام - ولن يتخلف شىء.

هكذا كان توكُّل نوح - عليه السلام - على الله تعالى بما فى هذا التوكل من الرصيد الإيمانى المتمثل فى :

﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. (١٢٠) ﴾ [المائدة]

و﴿ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ .. (٢٨٤) ﴾ [البقرة]

---

(١) ومصداق ذلك قوله تعالى : ﴿ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ (٤٠) ﴾ [هود] فعن ابن عباس : كانوا ثمانين نفساً منهم نساؤهم ، وعن كعب الأحبار : كانوا اثنين وسبعين نفساً ، وقيل : كانوا عشرة. وقيل غير ذلك. وأيّاً كان عددهم فهو قليل جداً بالنسبة لمدة مكث نوح فيهم.

ولن يخرج شيء عن ملكه سبحانه.

ومن العجيب أنه لم يخرج عن مراد الله فى «كن» إلا الإنسان المختار ، لم يخرج بطبيعة تكوينه ، ولكن الحق سبحانه وهبه من عنده أن يكون مختاراً ، ولو لم يهبه الله تعالى أن يكون مختاراً لما استطاع أن يقف ، ولكان كل البشر من جنود الحق.

وقد قال نوح - عليه السلام :

﴿ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ[1] .. (٧١) ﴾ [يونس]

والإنسان حين يهمه أمر من الأمور يظل متردداً بين خواطر شتى ، ويحاول أن يرى ميزات كل خاطر ، ويختار أفضلها ، وإذا ما جمع الإنسان خواطره كلها فى خاطر واحد ، فهذا يعنى استقراره على رأى واحد ، وجمع أمره عليه.

أما إذا كان الأمر متعدد الناس ، فكل واحد منهم له رأى ، فإن اجتمعوا وقرروا الاتفاق على رأى واحد ، فهذا جمعٌ للأمر.

والاتفاق على رأى واحد إنما يختلف باختلاف هويّة المجتمعين ، فإن كانوا أهل خير فهم ينزلون بالشر ، وإن كانوا أهل شر فهم يصعدون بالشر.

ومثال ذلك : أبناء يعقوب - عليه السلام - حينما حدث بينهم وبين أخيهم من الحسد لمكانة يوسف - عليه السلام - فقالوا :

---

(١) كلمة «شركاءكم» هنا منصوبة على أنها :
١- مفعول به لفعل مضمر تقديره : وادعوا شركاءكم.
٢- مفعول معه ، أى : أجمعوا أمركم مع شركائكم.
٣- معطوف على أمركم ، فتكون أجمعوا بمعنى العزم على فعل الشيء وكذلك جمع الشركاء.
وفى ضبط «شركاءكم» تفصيل انظره فى تفسير القرطبى (٤/ ٣٢٩٠).

﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ [1] لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ ..﴿٩﴾﴾[يوسف]

أى: أن الاقتراح بقتل يوسف هدفه ألا يلتفت وجه يعقوب وقلبه إلى أحد سواهم، وأتبعوا اقتراحهم بقتل يوسف باقتراح التوبة، فقالوا لبعضهم البعض:

﴿وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ [2] ﴿٩﴾﴾ [يوسف]

وهم قد ظنوا أن التوبة إن نفَّذوا القتل ستصبح مقبولة.

وهذا الشر البادى فى حديثهم لم يقبله بعضهم فى بادىء الأمر؛ لأنهم أبناء نبوّة، وما يزالون هم الأسباط [3]، لا يصعد فيهم الشر، بل ينزل، فقال واحدٌ منهم: لا تقتلوه بل ﴿اطْرَحُوهُ أَرْضًا ..﴿٩﴾﴾ [يوسف]

أى: أنه خفَّف المسألة من القتل إلى الطرح أرضاً، وهذه أول درجة فى نزول الأخيار عن الشر الأول، وأيضاً تنازلوا عن الشر الثانى، وهو طرحه أرضاً؛ حتى لا يأكله حيوان مفترس، وجاء اقتراح: ﴿وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ [4] إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ [يوسف]

ثم أجمعوا أمرهم أخيراً حتى نزل الشر مرة أخرى لاحتمال ورود النجاة.

---

(١) يخل: فعل مجزوم لأنه جواب الأمر، معناه: يخلص ويصفو. [تفسير القرطبى: (٤/ ٣٤٥٢)].

(٢) قوماً صالحين: أى: تائبين. وقيل: ﴿صَالِحِينَ﴾ أى: يصلح شأنكم عند أبيكم من غير أثرة ولا تفضيل. [تفسير القرطبى (٤/ ٣٤٥٢)].

(٣) الأسباط فى بنى إسرائيل بمنزلة القبائل فى بنى إسماعيل، فالأسباط هم بنو يعقوب اثنا عشر رجلاً. ولد كل رجل منهم أمة من الناس فسموا الأسباط. انظر تفسير ابن كثير (١/ ١٨٧).

(٤) غيابة، أى: مكان مظلم من الجب. والجب: البئر. أى: ألقوه فى موضع مظلم من الجب؛ حتى لا يلحقه نظر الناظرين. قيل: هو بئر بيت المقدس، وقيل: هو بالأردن، قاله وهب بن منبه. وسميت البئر جباً لأنها قطعت فى الأرض قطعاً. والسيارة: الجمع الذين يسيرون فى الطريق للسفر، وإنما قال القائل هذا حتى لا يحتاج إلى حمله إلى موضع بعيد؛ ويحصل المقصود، فإن من يلتقطه من السيارة يحمله إلى موضع بعيد، وكان هذا وجهاً فى التدبير حتى لا يحتاجوا إلى الحركة بأنفسهم؛ فربما لا يأذن لهم أبوهم، وربما يطلع على قصدهم. [تفسير القرطبى: ٤/ ٣٤٥٣، ٣٤٥٤].

إذن: فالأخيار حين يجتمعون على شر لا بد أن ينزل.

ومثال ذلك: رجل طيب رأى ابنه وهو يُضرَب من آخر، فيفكر للحظة فى أن يضرب غريم ابنه بطلقة من (مسدس)، ثم يستبدل هذه الفكرة بفكرة الاكتفاء بضربه ضرباً مبرحاً بالعصا، ثم يتنازل عن ذلك بأن يفكر فى صفعه صفعتين، ثم يتنازل عن فكرة الصفع ويفكر فى توبيخه، ثم يتنازل عن فكرة التوبيخ ويكتفى بالشكوى لوالده، وهكذا ينزل الشر عند أهل الخير.

أما إن كان الرجل من أهل الشر، فهو يبدأ بفكرة الشكوى لوالد من ضرب ابنه، ثم يرفضها ليصعد شره إلى فكرة أن يصفعه هو، ثم لا ترضيه فكرة الصفع، فيفكر فى أن يضربه ضرباً شديداً، ولا ترضيه هذه الفكرة، فيقول لنفسه: «سأطلق عليه الرصاص». وهكذا يتصاعد الشر من أهل الشر.

وهنا يقول الحق سبحانه على لسان سيدنا نوح عليه السلام:

﴿ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ .. (٧١) ﴾ [يونس]

أى: اجتمعوا والزموا رأياً واحداً تحرصون على تنفيذه أنتم وشركاؤكم، وهو ينصحهم رغم أنهم أعداؤه، وكان عليه أن يحرص على اختلافهم، ولكن لأنه واثق من توكله على ربه؛ فهو يعلم أنهم مهما فعلوا فلن يقدروا عليه، ولن ينتصروا على دعوته إلا بالإقدام على إهلاك أنفسهم.

أو أنه مثلما يقول العامة: «أعلى ما فى خيولكم اركبوه» أى: أنه يهددهم، ولا يفعل ذلك إلا إذا كان له رصيد من قوة التوكل على الله تعالى.

ولا يكتفى بذلك بل يضيف:

﴿ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً [1] .. (٧١) ﴾ [يونس]

والغمة: منها الغمام، ومنها الإغماء، أى: فقد الوعى وسَتْر العقل، أى: أنه قال لهم: لا تتعبوا أنفسكم بتبادل الهمسات فيما بينكم، بل افعلوا ما يحلو لكم، ولا تحاولوا ستر ما سوف تفعلون.

إن عليكم أن تجتمعوا على رأى واحد أنتم وشركاؤكم الذين تعتمدون عليهم، وتعبدونهم، أو شركاؤكم فى الكفر، ولم يأبَهْ نوح - عليه السلام - بتقوية العصبية المضادة له؛ لأنه متوكل على الله فقط.

لذلك يقول: ﴿ ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلا تُنظِرُونِ (٧١) ﴾ [يونس]

أى: أنه يُحفِّزهم على الاجتماع على أمر واحد ومعهم شركاؤهم - سواء من الأصنام التى عبدوها أو من أقرانهم فى الكفر - وأن يصمموا على المضىّ فى تنفيذ ما اتفقوا عليه.

و«قضى» أى: حكم حكماً، لكن الحكم على شىء لا يعنى الاستمرار بحيث ينفذ، فقد يُقضَى على إنسان بحكم؛ ويوقف التنفيذ.

لكن قوله: ﴿اقْضُوا إِلَيَّ﴾ يعنى: أصدروا حكمكم وسيروا إلى تنفيذ ما قضيتم به.

ثم يقول: ﴿وَلا تُنظِرُونِ﴾ أى: لا تمهلونى فى تنفيذ ما حكمتم به علىَّ.

والمتأمل للآية الكريمة يجد فيها تحدياً كبيراً، فهو أولاً يطلب أن يجتمعوا على أمر واحد، هم وشركاؤهم، ثم لا يكون على هذا الأمر

---

(١) غُمَّة وغُمّ سواء، ومعناه: التغطية، من قولهم: غم الهلال إذا استتر، أى: ليكن أمركم ظاهراً منكشفاً تتمكنون فيه مما شئتم، ليس كمن يخفى أمره فلا يقدر على ما يريد. وهذا دليل على ثقة نوح عليه السلام من ربه سبحانه، ونصره إياه على قومه الكافرين. [تفسير القرطبى: ٤/ ٣٢٩٠].

غُمَّة [١] ، ثم اقضوا إلىَّ ما اتفقتم عليه من حكم ونفِّذوه ولا تؤجلوه ، فهل هناك تحدٍّ للخصم أكثر من ذلك ؟

لقد كانوا خصوماً معاندين ، ظل نوح - عليه السلام - يترفق إليهم ويتحنن لهم ألف سنة إلا خمسين عاماً ، وصبر عليهم كل هذا الوقت ، ولا بد - إذن - من حدوث فاصل قوى ، ولهذا كان الترقِّى فى التحدى ، فدعاهم إلى جمع الأمر ومعهم الشركاء ، ثم بإصدار حكمهم عليه وعدم الإبطاء فى تنفيذه ، كان هذا هو التحدى الذى أخذ يترقى إلى أن وصل إلى قبول تنفيذ الحكم.

والنفسية العربية - على سبيل المثال - حين سامحت ، وصبرت ، وصفحت فى أمر لا علاقة له بمنهج الله ، بل بأمر يخص خلافاً على الأرض ، تجد الشاعر العربى يقول عن «بنى ذُهْل» الذين أتعبوا قوم الشاعر كثيراً ، ولكن قومه صفحوا عنهم ؛ يقول الشاعر [٢] :

صَفَحْنا عن بنى ذُهْلٍ ... وقلنا : القومُ إخوانُ
عسى الأيامُ أنْ يرجعـ ... ـنَ قوماً كالذى كانوا
فلما صَرَّحَ الشرُّ ... فأمْسَى وهو عريانُ
ولم يبقَ سوى العدوا ... ن دنَّاهم كما دانوا
مَشَيْنا مِشْيةَ الليث ... غَدَا والليثُ غضبانُ

---

(١) غم الشيء يغمه - كنصر - غماً : أخفاه وغطاه وستره وغمه الأمر : كربه وأحزنه ، قال تعالى : ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء] والغمة : التباس الأمر وعدم وضوحه ، قال تعالى : ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً .. ﴿٧١﴾﴾ [يونس] وقال : ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ .. ﴿١٦٠﴾﴾ [الأعراف]

(٢) هو شهل بن شيبان ويلقب بالفِنْد الزِّمّانى ، توفى نحو ٧٠ ق هـ ، من بنى بكر بن وائل . شاعر جاهلى سمى الفند لعظم خلقته تشبيهاً بالقطعة من الجبل وهى الفند . (الأعلام للزركلى ٣/ ١٧٩).

بضرب فيه توهينٌ ... وتخضيعٌ[1] وإقرانُ

وطعْن كفم الزقِّ[2] ... غدا والزِّقُّ ملآنْ

وفى الشرِّ نجاةٌ حيـ ... ـن لا يُنجيكَ إحسانُ

وبعضُ الحلْم عند الجهْـ ... ـلِ للذِّلَّة إذعانُ[3]

إذن: فالمناجزة بين نوح - عليه السلام - وقومه اقتضت التشديد، لعل بشريتهم تلين، ولعل جبروتهم يلين، ولعلهم يعلنون الإيمان بالله تعالى، ولكنهم لم يرتدعوا.

لذلك يقول الحق سبحانه على لسان نوح بعد ذلك:

﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ[4] فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ[5] أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ[6] ﴿٧٢﴾﴾

أى: إن توليتم عن دعوتى لعبادة الإله الحق، فأنا لا أدعوكم إلى مثيل لكم هو أنا، بل أدعوكم إلى من هو فوقى وفوقكم، فأنا لا أريد أن أستولى على السلطة الزمنية منكم، ولا أبحث عن جاهٍ، فالجاه كله لله تعالى.

---

(١) التخضيع: تقطيع اللحم.

(٢) الزق: الإناء.

(٣) أورد هذه الأبيات أبو على القالى فى الأمالى (١/ ٣٠٩، ٣١٠)، وهى من بحر الهزج.

(٤) ﴿تَوَلَّيْتُمْ﴾: أعرضتم عما جئتكم به ﴿فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾ أى: فليس ذلك لأنى سألتكم أجراً؛ فيثقل عليكم مكافأتى. [تفسير القرطبى (٤/ ٣٢٩١)].

(٥) إنْ - هنا - نافية بمعنى (ما) أى: ما أجرى إلا على الله - سبحانه وتعالى.

(٦) ﴿الْمُسْلِمِينَ﴾ أى: الموحدين لله تعالى. [تفسير القرطبى (٤/ ٣٢٩١)].

والله لا يحتاج إلى جاه منكم لأن جاهه سبحانه ذاتى فيه ، ولكن لنمنع جبروتكم وتجبُّركم ؛ لتعيشوا على ضوء المنهج الحق ؛ لتكون حياتكم صالحة ، وكل ذلك لمصلحتكم.

﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ .. (٧٢) ﴾ فهل يُمالىء[1] نوح - عليه السلام - أعداءه.

إن الإنسان يُمَالىء العدو ؛ لأنه يخاف أن يوقع به شراً ، ونوح عليه السلام لا يخافهم ؛ لأنه يعتمد على الله تعالى وحده ، بل هو يدلُّهم على مواطن القوة فيهم ، وهو يعلم أن قوتهم محدودة ، وأن شرهم مهما بلغ فهو غير نافذ ، وقد لا يكون منهم شر على الإطلاق ، فهل هناك نفعٌ سيعود على نوح - عليه السلام - ويُمنَع عنه ؟

لا ؛ لأنه يعلن أنه لا يأخذ أجراً على دعوته.

هم - إذن - لا يقدرون على ضُرِّه ، ولا يقدرون على نفعه ، وهو لا يريد منهم نفعاً ؛ لأن مركزه بإيمانه بالله الذى أرسله مركزٌ قوىٌّ.

وهو لا يسألهم أجراً ، وكلمة «أجر»[2] تعنى : ثمن المنفعة ، والأثمان تكون عادة فى المعاوضات ، إما أن تكون ثمناً للأعيان والذوات ، وإما أن تكون ثمناً للمنفعة.

ومثال ذلك: أن إنساناً يرغب فى شراء «شقة» فى بيت فيذهب إلى رجل يملك بيتاً ، ويطلب منه أن يبيع له عدداً من الأسهم بقيمة الشقة.

(١) يمالىء : يعاون ويساعد. قال أبو عبيد : يقال للقوم إذا تتابعوا برأيهم على أمر : قد تمالؤوا عليه. [لسان العرب : مادة (م ل أ)].

(٢) الأجر : الجزاء على العمل ، والجمع : أجور. والأجر : الثواب ؛ وقد أجره الله يأجُره ويأجِره أجراً وآجره. أى : أعطاه الثواب. [لسان العرب : مادة (أ ج ر)].

وهناك آخر يريد أن يستأجر شقة فيذهب إلى صاحب البيت ؛ ليدفع له قيمة إيجار شقة فى البيت ، أى: يدفع له قيمة الانتفاع بالشقة ، والأجر لا يُدفع إلا لطلب منفعة مُلحَّة.

وكان على نوح - عليه السلام - أن يطلب منهم أجراً ؛ لأنه يهديهم إلى الحق ، هذا فى أصول التقييم للأشياء ؛ لأنه يقدِّم لهم نفعاً أساسياً ، لكنه يعلن أنه لا يطلب أجراً وكأنه يقول: إن عملى كان يجب أن يكون له أجر ؛ لأن منفعته تعود عليكم ، وكان من الواجب أن آخذ أجراً عليه.

ولكن نوحاً - عليه السلام - تنازل عن الأجر منهم ؛ لأنه أراد الأجر الأعلى ، فلو أخذ منهم ؛ فلسوف يأخذ على قدر إمكاناتهم ، ولكن الأجر من الله تعالى هو على قدر إمكانات الله سبحانه وتعالى ، وفارق بين إمكانات المحدود العطاء وهو البشر ، ومن له قدرة عطاء لا نهاية لها وهو الله سبحانه وتعالى .

وهنا يقول: ﴿ **فَإِن تَوَلَّيْتُمْ** . . (٧٢) ﴾ [يونس]

فهذا التولِّى والإعراض لا يضرُّنى ولا ينفعنى ؛ لأنكم لا تملكون لى ضُرّاً ولا تملكون لى نفعاً ؛ لأنى لن آخذ منكم أجراً.

ومن العجيب أن كل مواكب الرسل - عليهم السلام - حين يخاطبون أقوامهم يخاطبونهم بهذه العبارة :

﴿ **مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ** . . (٨٦) ﴾ [ص]

إلا فى قصة سيدنا إبراهيم - عليه السلام - وقصة موسى عليه السلام ، فعن قصة سيدنا إبراهيم يأتى قول الحق سبحانه :

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ[(١)] (٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ (٧٤) ﴾ [الشعراء]

ولم يأت الحق سبحانه فيها بشيء عن عدم السؤال عن الأجر.

وأيضًا في قصة سيدنا موسى - عليه السلام - قال الحق سبحانه:

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ (١٢) وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ (١٣) وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ (١٤) قَالَ كَلاَّ فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ (١٥) فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦) أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٧) ﴾ [الشعراء]

وهنا أيضاً لا نجد قولاً لموسى - عليه السلام - في عدم السؤال عن الأجر.

أما هنا في قصة نوح - عليه السلام - فنجد قول الحق سبحانه:

﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٧٢) ﴾ [يونس]

وكذلك جاء نفس المعنى في قصة هود عليه السلام، حيث يقول الحق سبحانه:

---

(١) العكوف على الشيء هو الإقامة والاستمرار عليه، أي: أنهم مقيمون مستمرون على عبادة الأصنام [تفسير ابن كثير (٣/ ٣٣٧)].

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾ ﴾ [الشعراء]

وجاء نفس المعنى أيضاً فى قوم ثمود ، إذ قال الحق سبحانه :

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٥﴾ ﴾ [الشعراء]

وكذلك جاء نفس القول على لسان لوط عليه السلام ، فيقول الحق سبحانه :

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٤﴾ ﴾ [الشعراء]

ونفس القول جاء على لسان شعيب عليه السلام فى قول الحق سبحانه :

﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ [١] الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ﴾ [الشعراء]

إذن : فغالبية الموكب الرسالى يأتى على ألسنتهم الكلام عن الأجر :

---

(١) أصحاب الأيكة : هم أهل مدين - على الصحيح - وكان نبى الله شعيب ، عليه السلام ، من أنفسهم ، وإنما لم يقل سبحانه هنا : أخوهم شعيب ؛ لأنهم نسبوا إلى عبادة الأيكة ، وهى شجرة كانوا يعبدونها . [ذكره ابن كثير فى تفسيره (٣/ ٣٤٥)] .

﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ..(١٦٤)﴾ [الشعراء]

فكأن الرسل عليهم السلام يقولون للبشر الذين أرسلوا إليهم: لو أنكم فطنتم إلى حقيقة الأمر لكان من الواجب أن يكون لنا أجر على ما نقدمه لكم من منفعة ، لكنَّا لا نريد منكم أنتم أجراً ، إنما سنأخذ أجرنا من ربِّ العالمين ؛ لأن المنفعة التى نقدمها لكم لا يستطيع بشر أن يقوِّمها ، وإنما القادر على تقييمها هو واضع المنهج - سبحانه - ومُنزِله على رسله.

وها هو القرآن الكريم يأتى على لسان رسول الله محمد ﷺ ، ويقول:

﴿ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِى الْقُرْبَىٰ ..(٢٣)﴾ [الشورى]

أما لماذا لم تأت مسألة الأجر على لسان سيدنا إبراهيم - عليه السلام - فنحن نعلم أن إبراهيم عليه السلام أول ما دعا ؛ دعا عمه ، وكان للعم حظ تربية إبراهيم ، وله على سيدنا إبراهيم حق الأبوة.

وكذلك سيدنا موسى عليه السلام ، فقد دعا فرعون ، وفرعون هو الذى قام بتربية موسى ، وكانت زوجة فرعون تريده قرة عين لها ولزوجها ، حتى إن فرعون فيما بعد قد ذكَّره بذلك ، وقال:

﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ[1] فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (١٨)﴾ [الشعراء]

أما هنا فى دعوة سيدنا نوح - عليه السلام - فيأتى قول القرآن على لسان نوح بما يوضِّح الأمر لقوم نوح:

فإن توليتم فلا حزن لى ، ولا جزع ؛ لأنكم لن تصيبونى بضُرٍّ ، ولن تمنعوا عنى منفعة ؛ لأنكم لم تسألونى أن آتى لكم بالهدى لآخذ أجرى منكم ، ولكن الحق سبحانه هو الذى بعثنى ، وهو الذى سيعطينى أجرى ،

(١) لبثت: عشت ومكثت بيننا.

وقد أمرنى سبحانه أن أكون من المسلمين له حَقّاً وصدقاً .

وفى حياتنا نجد أن صديقاً يرسل إلى صديقه عاملاً من عنده ليصلح شيئاً ، فهو يأخذ الأجر من المرسل ، لا من المرسل إليه ، وهذا أمر منطقى وطبيعى .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ (١) وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ (٢) وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ (٧٣) ﴾

وكأن الأمر الذى وقع من الحق سبحانه نتيجة عدائهم للإيمان كان من الممكن أن يشمله ؛ لأنه لا يقال : نجَّيتُك من كذا إلا إذا كان الأمر الذى نجيتك منه ، توشك أن تقع فيه ، وكان هذا بالفعل هو الحال مع الطوفان ، فالحق سبحانه يقول :

﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ (٣) (١١) وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا .. (١٢) ﴾

[القمر]

---

(١) الفلك : السفينة .

(٢) خلفَه يخلفه من باب نصر : جاء بعده فصار مكانه - خَلَفًا وخلافةً وخلفه خلفاً : صار خَلْفَه قال تعالى : ﴿ قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي .. (١٥٠) ﴾ [الأعراف] والخلف : القرن من الناس بعد القرن ، أى الجيل بعد الجيل ، والخلف الولد الصالح أو غير الصالح . قال تعالى : ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ .. (١٦٩) ﴾ [الأعراف] والخَلَف بالفتح : البعض والبدل والولد الصالح أو الولد غير الصالح . والخليفة من يخلف غيره ، أو ينوب عنه ، قال تعالى : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً .. (٣٠) ﴾ [البقرة] ، وخليفة جمعها خلفاء وخلائف يقول تعالى : ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ .. (٦٩) ﴾ [الأعراف] وقال : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الأَرْضِ .. (١٦٥) ﴾ [الأنعام] . [القاموس القويم - بتصرف] .

(٣) ماء منهمر : مطر غزير .

ومن المتوقع أن تشرب الأرض ماء المطر ، لكن الذى حدث أن المطر انهمر من السماء والأرض أيضاً تفجَّرتْ بالماء ؛ ولذلك نجد الحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿ فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (١٢) ﴾ [القمر]

أى: أن ذلك الأمر كان مقدَّراً ؛ حتى لا يقولن أحد: إن هذه المسألة ظاهرة طبيعية.

لا إنه أمر مُقدَّر ، وقد كانت السفينة موجودة بصناعة من نوح عليه السلام ؛ لأن الحق سبحانه قد أمره بذلك فى قوله تعالى فى سورة هود:

﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا .. (٣٧) ﴾ [هود]

ويقول الحق سبحانه فى الآية التى بعدها:

﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ[1] مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (٣٨) ﴾ [هود]

ويركب نوح - عليه السلام - السفينة ، ويركب معه من آمن بالله تعالى ، وما حملوا معهم من الطير والحيوان من كُلِّ نوع اثنين ذكراً وأنثى.

وقول الحق سبحانه:

﴿ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ .. (٧٣) ﴾ [يونس]

يوحى أن الذى صعد إلى السفينة هم العقلاء من البشر ، فكيف نفهم مسألة صعود الحيوانات والطيور إلى السفينة ؟

---

(١) ملأ: جماعة.

نقول : إن الأصل فى وجود هذه الحيوانات وتلك الطيور أنها مُسخَّرة لخدمة الإنسان ، وكان لا بد أن توجد فى السفينة ؛ لأنها ككائنات مسخّرة تسبِّح الله [(١)] ، وتعبد الحق سبحانه ، فكيف يكون علمها فوق علم العقلاء الذين كفر بعضهم ، ثم أليس من الكائنات المسخَّرة ذلك الغراب الذى علَّم «قابيل» كيف يوارى سوأة أخيه [(٢)] ؟! إنه طائر ، لكنه علم ما لم يعلمه الإنسان !

والحق سبحانه هو القائل :

﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ ..(٣١) ﴾ [المائدة]

ثم يقول الحق سبحانه فى الآية التى نحن بصددها الآن :

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ (٧٣) ﴾ [يونس]

وكلمة «الفُلْك» من الألفاظ التى تطلق على المفرد، وتطلق على الجماعة.

وقول الحق سبحانه : ﴿فَنَجَّيْنَاهُ﴾ نعلم منه أن الفعل من الله تعالى ، وهو سبحانه حين يتحدث عن أى فعل له ، فالكلام عن الفعل يأتى مثل قوله سبحانه :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ [(٣)] وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩) ﴾ [الحجر]

---

(١) يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (٤٤) ﴾ [الإسراء] .

(٢) يوارى سوأة أخيه : يخفى جسد أخيه «هابيل» الذى قتله أخوه بغير حق . أى : يدفنه .

(٣) الذِّكْر : القرآن الكريم . قال تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٤٤) ﴾ [النحل] .

ولكنه حين يتحدث عن ذاته ، فهو يأتى بكلمة تؤكد الوحدانية وتكون بضمير الإفراد مثل : ﴿ إِنَّنِى أَنَا اللَّهُ .. (١٤) ﴾ [طه]

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِى الْفُلْكِ .. (٧٣) ﴾ [يونس]

كلمة «أنجى» للتعدية ، وكلمة «نَجَّى» تدل على أن هناك معالجة شديدة للإنجاء ، وعلى أن الفعل يتكرر .

وقول الحق سبحانه :

﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلائِفَ[1] .. (٧٣) ﴾ [يونس]

تعنى : أن الخليفة هو من يجىء بعد سابق ، وكلمة «الخليفة» تأتى مرة للأعلى ، مثل الحال هنا حيث جعل الصالح خليفة للصالح ، فبعد أن أنجى الله سبحانه العناصر المؤمنة فى السفينة ، أغرق الباقين .

إذن : فالصالحون على ظهر السفينة أنجبوا الصالحين من بعدهم .

ومرة تأتى كلمة «الخليفة» للأقل ، مثل قول الحق سبحانه :

﴿ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ .. (٥٩) ﴾ [مريم]

فهنا تكون كلمة الخليفة موحية بالمكانة الأقل ، وهناك معيار وضعه الحق سبحانه لتقييم الخليفة ، هو قول الحق سبحانه :

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلائِفَ فِى الأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٤) ﴾ [يونس]

(١) خلائف : جمع خليفة وهو الذى يخلف من سبقه . وتجمع أيضاً على «خلفاء» . قال تعالى : ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ .. (٦٩) ﴾ [الأعراف] .

ولأن الإنسان مخيَّر بين الإيمان والكفر ، فسوف يَلْقَى مكانته على ضوء ما يختار .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا .. (٥٥) ﴾ [النور]

إذن : فالخليفة إما أن يكون خليفة لصالحٍ ، وإما أن يكون صالحاً يَخْلُفُ فاسداً .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا .. (٧٣) ﴾ [يونس]

والآيات - كما قلنا من قبل - إما آيات الاعتبار التي تهدى إلى الإيمان بالقوة الخالقة ، وهى آيات الكون كلها ، فكل شىء فى الكون يدلُّكَ على أن هذا الكون مخلوق على هيئة ولغاية ، بدليل أن الأشياء فى هذا الكون تنتظم انتظاماً حكيماً .

وإذا أردت أن تعرف دقة هذا الخلق ، فانظر إلى ما ليدك فيه دَخْلٌ ، وما ليس ليدك فيه دخل ؛ ستجد كل ما ليس ليدك فيه دخل على درجة هائلة من الاستقامة ، والحق سبحانه يقول :

﴿ لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ[1] يَسْبَحُونَ (٤٠) ﴾ [يس]

---

(١) الفَلَك : المدار يسبح فيه الجِرْم السماوى . والجمع : أفلاك . [المعجم الوسيط : مادة (ف ل ك)] .

أما ما ليدك فيه دخل ، فاختيارنا حين يتدخل فهو قد يفسد الأشياء .

وهكذا رأينا أن الآيات الكونية تلفت إلى وجود الخالق سبحانه وهى مناط الاستدلال العقلى على وجود الإله ، أو أن الآيات هى الأمور العجيبة التى جاءت على أيدى الرسل - عليهم السلام - لتقنع الناس بأنهم صادقون فى البلاغ عن الله سبحانه وتعالى .

ثم هناك آيات القرآن الكريم التى يقول فيها الحق سبحانه :

﴿ هُوَ الَّذِى أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ .. (٧) ﴾ [آل عمران]

وهى الآيات التى تحمل المنهج .

وحين يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا .. (٧٣) ﴾ [يونس]

فهو يعلّمنا أنه أغرق من كذَّبوا بالآيات الكونية ولم يلتفتوا إلى بديع صنعه سبحانه ، وحكمة تكوين هذه الآيات ، وترتيبها ورتابتها (١) ، وهم أيضاً كذَّبوا الآيات المعجزات ، وكذلك كذَّبوا بآيات الأحكام التى جاءت بها رسلهم .

ويُنهى الحق سبحانه وتعالى هذه الآية بقوله :

﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ (٢) (٧٣) ﴾ [يونس]

والخطاب هنا لكل من يتأتّى منه النظر ، وأوّلهم سيدنا محمد ﷺ ،

---

(١) رتابتها : أى : سيرها على نظام واحد لا يتخلف ، يقول الحق سبحانه : ﴿ لا الشَّمْسُ يَنبَغِى لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٤٠) ﴾ [يس] .

(٢) عاقبة : عقاب وجزاء ونهاية . المنذرين : اسم مفعول يشير إلى من وقع عليهم الإنذار ، وهم قوم نوح الذين أنذرهم نبيهم ، فلم يؤمنوا ؛ فاستحقوا العقاب والعذاب .

وهو أول مُخاطَب بالقرآن.

وأنت حين تقول: «انظر» ؛ فأنت تُلْفت إلى أمر حسِّى ، إن وجَّهت نظرك نحوه جاء الإشعاع من المنظور إليه ، ليرسم أبعاد الشيء ؛ فتراه.

والكلام هنا عن أمور غائبة ، فهى أحداث حسية وقعت مرة واحدة ثم صارت خبراً ، فإن أخبرك بها مخبر فيكون تصديقك بها على مقدار الثقة فيه.

فمن رأى عصا موسى - عليه السلام - وهى تلقف الحبال التى ألقاها السحرة ؛ آمن بها ، مثلما آمن من شاهد النار عاجزة عن إحراق إبراهيم عليه السلام ، ومن رأى عيسى عليه السلام وهو يُشفى الأكْمَهَ والأبْرص (١) ويُحيى الموتى بإذن الله تعالى ، فقد آمن بما رأى ، أما من لم ير تلك المعجزات فإيمانه يتوقف على قدر توثيقه لمن أخبر ، فإن كان المخبر بذلك هو الله سبحانه وفى القرآن الكريم فإيماننا بتلك المعجزات هو أمر حتمى ؛ لأننا آمنا بصدق المبلِّغ عن الله تعالى.

ونحن نفهم أن الرسالات السابقة على رسالة محمد ﷺ ، كانت رسالات موقوتة زماناً ومكاناً ، لكن الإسلام جاء لينتظم الناس الموجَّه إليهم منذ أن أرسل الله رسوله محمداً ﷺ إلى أن تقوم الساعة.

لذلك جاء القرآن آيات باقيات إلى أن تقوم الساعة ، وهذا هو السبب فى أن القرآن قد جاء معجزة عقلية دائمة يستطيع كل من يدعو إلى منهج رسول الله ﷺ أن يقول: محمد رسول من عند الله تعالى ، وتلك هى معجزته.

وساعة يقول الحق سبحانه: ﴿فَانظُرْ﴾ فمثلها مثل قول الحق سبحانه

---

(١) الكمه: العَمَى الذى يولد به الإنسان. أما البَرَص فهو: مرض جلدى عبارة عن بقع بيضاء تكون فى الجسد. انظر اللسان.

وتعالى لرسوله ﷺ:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ[1] (١)﴾ [الفيل]

وحادثة الفيل قد حدثت في العام الذى ولد فيه رسول الله ﷺ ، وبطبيعة الحال فسيدنا رسول الله ﷺ لم ير حادثة الفيل ، ولكن الذين رأوها هم الذين كانوا يعيشون وقتها ، وهذا ما يلفتنا إلى فارق الأداء ، فعيونك قد ترى أمراً ، وأذنك قد تسمع خبراً ، ولكن من الجائز أن تخدعك حواسك ، أما الخبر القادم من الله تعالى ، وإن كان غائباً عنك الآن وغير مسموع لك فخذه على أنه أقوى من رؤية العين.

ولقائل أن يقول: لماذا لم يقل الحق : «ألم تعلم» وجاء بالقول:

﴿أَلَمْ تَرَ.. (١)﴾ ؟ [الفيل]

وأقول: ليدلنا الله سبحانه على أن العلم المأخوذ من الله تعالى عن أمر غيبى عليك أن تتلقاه بالقبول أكثر من تلقيك لرأى العين.

إذن: ﴿فَانظُرْ﴾ تعنى: اعلمْ الأمر وكأنه مُجسَّم أمامك ؛ لأنك مؤمن بالله تعالى وكأنك تراه ، ومُبلِّغك عن الله سبحانه هو رسول تؤمن برسالته ، وكل خبر قادم من الله تعالى ورسوله ﷺ لا يمكن أن يتسرب إليه الشك ، ولكن الشك لا يمكن أن يتسرب إلى المخبر الصادق أبداً.

ولقائل أن يقول: ولماذا لم يقل الحق: «فانظر كيف كان عاقبة الكافرين» بدلاً من قول الحق سبحانه:

﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ (٧٣)﴾ ؟ [يونس]

---

(١) أصحاب الفيل، هم جيش «أبرهة» الحبشى حين قدموا لهدم الكعبة، فمزقهم الله شر ممزق وأرسل عليهم طيوراً من السماء ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم الله كعصف مأكول. ووافق ذلك قبل مولد النبى ﷺ بخمس وخمسين ليلة ، فهو لم ير الحادث بعينيه، ولكن إخبار الله له أمر لا يحتمل إلا الصدق، فكأنه قد رآه بعينيه فعلاً.

وهنا نقول:

إن الحق سبحانه وتعالى قد بيَّن أنه لن يعذِّب قبل أن يُنْذِر [1]، فهو قد أنذر أولاً، ولم يأخذ القوم على جهلهم.

«فانظر» - كما نعلم - هى خطاب لرسول الله ﷺ، وخطاب رسول الله ﷺ يشمل أمته أيضاً، وجاء هذا الخبر تسلية لرسول الله ﷺ، فإن صادف من قومك يا محمد ما صادف قوم نوح - عليه السلام - فاعلمْ أن عاقبتهم ستكون كعاقبة قوم نوح.

وفى هذا تحذير وتخويف للمناوئين لرسول الله ﷺ.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ [2] فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ [3] عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾﴾

---

(١) يقول الحق سبحانه: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ (٢٤)﴾ [فاطر] ويقول: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً (١٥)﴾ [الإسراء] النذير والإنذار وجمعه نذر، قال تعالى: ﴿مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلا نَذِيرٍ..(١٩)﴾ [المائدة].

والنذير هنا: هو الرسول المنذر بالعذاب. والنذر اسم مصدر بمعنى الإنذار كقوله تعالى: ﴿فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا (٥) عُذْرًا أَوْ نُذْرًا (٦)﴾[المرسلات] وقوله: ﴿.. وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ (١٠١)﴾ [يونس] يحتمل أنها الإنذارات. أو المنذرون من الرسل جمع نذير، وقوله: ﴿وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ.. (٢١)﴾ [الأحقاف]، والمراد بالنذر هم الرسل المنذرون.

(٢) بالبينات: أى: بالحجج والأدلة والبراهين على صدق ما جاءوهم به. [ذكره ابن كثير فى تفسيره (٢/٤٢٦)].

(٣) الطبع: هو الختم على القلب، ولكنه لا يُمحَى ولا يُفك أبداً. أما الختم فقد يفك، وقد تكون له مدة معلومة، وقد يقبل مع التوبة الخالصة. وبكلا الأمرين ورد القرآن: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ (١٠٨)﴾ [النحل]. وقال سبحانه: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ.. (٧)﴾ [البقرة].

وكلمة «بعث» هنا تستحق التأمل ، فالبعث إنما يكون لشيء كان موجوداً ثم انتهى ، فيبعثه الله تعالى .

وكلمة ﴿بَعَثْنَا﴾ هذه تلفتنا إلى أن الحق سبحانه أول ما خلق الخلق أعطى المنهج لآدم عليه السلام ، وأبلغه آدم لأبنائه ، وكل طمس أو تغيير من البشر للمنهج [١] هو إماتة للمنهج .

وحين يرسل الحق سبحانه رسولاً ، فهو لا ينشىء منهجاً ، بل يبعث ما كان موجوداً ، ليذكِّر الفطرة السليمة .

وهذا هو الفرق بين أثر كلمة «البعث» عن كلمة «الإرسال» ، فكلمة البعث تشعرك بوجود شيء ، ثم انتهاء الشيء ، ثم بعث ذلك الشيء من جديد ، ومثله مثل البعث في يوم القيامة ، فالبشر كانوا يعيشون وسيظلون في تناسل وحياة وموت إلى يوم البعث ، ثم يموت كل الخلق ليبعثوا للحساب .

ولم يكن من المعقول أن يخلق الله سبحانه البشر ، ويجعل لهم الخلافة في الأرض ، ثم يتركهم دون منهج ؛ وما دامت الغفلة قد طرأت عليهم من بعد آدم - عليه السلام - جاء البعث للمنهج على ألسنة الرسل [٢] المبلِّغين عن الله تعالى .

---

(١) نَهَج الطريق من باب فتح ، نهجاً : سلكه . ونهج الطريق له : أوضحه ، والنهج والمنهج والمنهاج : الطريق الواضح والمذهب حسياً ومعنوياً ، قال تعالى : ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا .. ﴿٤٨﴾﴾ [المائدة] أي : مذهباً أو طريقة أو ديناً ، فهو هنا معنوي .

(٢) الرسالة : اسم لما يُرسل منقولة عن المصدر ، ورسالة الرسول ما أمر بتبليغه عن الله للناس ، ودعوته الناس إلى ما أوحي إليه . والرسول : المرسل . والرسول مصدر بمعنى الرسالة ، وإذا وصف بالمصدر فلا يؤنث ولا يثنى ولا يجمع . قال الزمخشري : الرسول يكون بمعنى المرسل ، وبمعنى الرسالة فجعله القرآن في سورة طه بمعنى المرسل ، فلم يكن بُدٌّ من تثنيته . يقول الحق : ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ ..﴿٤٧﴾﴾ [طه] أما في آية الشعراء فبمعنى الرسالة ، فجازت التسوية فيه إذا وصف به بين المفرد والمثنى ، فلهذا قال : ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الشعراء] وأرسل تأتي لمجرد البعث والإطلاق مثل : ﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ .. ﴿١٠٥﴾﴾ [الأعراف] (الزمخشري - بتصرف) .

وبعد نوح - عليه السلام - بعث الحق سبحانه رسلاً ، وهنا يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِ .. ﴿٧٤﴾ ﴾ [يونس]

أى: من بعد نوح ، فمسألة نوح - عليه السلام - هنا تعنى مقدمة الرَّكْب الرسالى ؛ لأن نوحاً عليه السلام قد قالوا عنه إنه رسول عامٌّ للناس جميعاً أيضاً ، مثله مثل محمد ﷺ ، وهو لم يُبعث رسولاً عامّاً للناس جميعاً ، بل كان صعوده إلى السفينة هو الذى جعله رسولاً لكل الناس ؛ لأن سكان الأرض أيامها كانوا قلّة .

والحق سبحانه قد أخذ الكافرين بذنبهم وأنجى المؤمنين من الطوفان ، وكان الناس قسمين: مؤمنين ، وكافرين ، وقد صعد المؤمنون إلى السفينة ، وأغرق الحق سبحانه الكافرين .

وهكذا صار نوح - عليه السلام - رسولاً عامّاً بخصوصية من بقوا وهم المرسَل إليهم بخصوصية الزمان والمكان [١] .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِ رُسُلاً إِلَىٰ قَوْمِهِمْ .. ﴿٧٤﴾ ﴾ [يونس]

فهل قَصَّ الله تعالى كل أخبار الرسل عليهم السلام؟ لا ؛ لأنه سبحانه وتعالى هو القائل :

﴿ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ .. ﴿٧٨﴾ ﴾ [غافر]

---

(١) أما رسالة محمد ﷺ فهى لعامة الزمان والمكان ، وهذا مما خصَّ به الله رسوله ﷺ وأمته ، ويدل عليه حديث رسول الله ﷺ : « أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلى : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً ، فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فَلْيُصلِّ ، وأحلت لى المغانم ولم تحل لأحد قبلى ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة » أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٣٥) ومسلم (٥٢١) من حديث جابر بن عبد الله .

وجاء الحق عز وجل بقصص أولى العزم منهم [١] ، مثلما قال سبحانه :

﴿ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ [٢] ﴿١٤٧﴾ ﴾ [الصافات]

فمن أرسله الله تعالى إلى من هم أقل من مائة ألف ، فقد لا يأتى ذكره ، ونحن نعلم أن الرسول إنما كان يأتى للأمة المنعزلة ؛ لأن العالم كان على طريقة الانعزال ، فنحن مثلاً منذ ألف عام لم نكن نعلم بوجود قارة أمريكا ، بل ولم نعلم كل القارات والبلاد إلا بعد المسح الجوى فى العصر الحديث ، وقد توجد مناطق فى العالم نعرفها كصورة ولا نعرفها كواقع .

ونحن نعلم أن ذرية آدم - عليه السلام - كانت تعيش على الأرض ، ثم انساحت [٣] فى الأرض ؛ لأن الأقوات التى كانت تكفى ذرية آدم على عهده ، لم تعد تكفى بعدما اتسعت الذرية ، فضاق الرزق فى رقعة الأرض التى كانوا عليها ، وانساح بعضهم إلى بقية الأرض .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً [٤] .. ﴿١٠٠﴾ ﴾ [النساء]

---

(١) أولو العزم من الرسل هم : محمد ﷺ ، وإبراهيم ، ونوح ، وموسى ، وعيسى عليهم السلام . قال تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ .. ﴿٣٥﴾ ﴾ [الأحقاف] .

(٢) هو يونس - عليه السلام - أنجاه الله سبحانه وتعالى من بطن الحوت ثم أرسله إلى قومه وهم أهل «نينوى» بجهة الموصل ، وكان عددهم مائة ألف أو يزيد على المائة ألف - على اختلاف بين المفسرين . [تفسير الجلالين ص ٣٩٦] و[تفسير ابن كثير (٤/ ٢٢)] ، و[صفوة التفاسير للصابونى (٣/ ٢٤)] . . بتصرف .

(٣) انساح : من السياحة وهى الذهاب فى الأرض ، أو الهجرة من مكان إلى مكان . [لسان العرب : مادة (س ى ح)] .

(٤) مراغماً كثيراً : المراغمة الهجران والتباعد . والمراد : أنه يجد أماكن كثيرة تصلح لأن يهاجر إليها ليعيش فيها . [اللسان - بتصرف] .

وسعة : أى : بعيداً عن تضييق المشركين ، وقيل : سعة ، أى : كثرة فى الرزق . [مختصر تفسير الطبرى] بتصرف .

وهكذا انتقل بعض من ذرية آدم - عليه السلام - إلى مواقع الغيث [١] ، فالهجرة تكون إلى مواقع المياه ؛ لأنها أصل الحياة.

ويلاحظ مؤرِّخو الحضارات أن بعض الحضارات نشأت على جوانب الأنهار والوديان ، أما البداوة فكانت تتفرق فى الصحارى ، مثلهم مثل العرب ، وكانوا فى الأصل يسكنون عند سد مأرب ، وبعد أن تهدم السد وأغرق الأرض ، خاف الناس من الفيضان ؛ لأن العَدُوَّيْن اللذين لم يقدر عليهما البشر هما النار والماء.

وحين رأى الناس اندفاع الماء ذهبوا إلى الصحارى ، وحفروا الآبار التى أخذوا منها الماء على قَدْر حاجتهم ؛ لأنهم عرفوا أنهم ليسوا فى قوة المواجهة مع الماء.

وهكذا صارت الانعزالات بين القبائل العربية ، ومثلها كانت فى بقية الأرض ؛ ولذلك اختلفت الداعات باختلاف الأمم ؛ ولذلك بعث الحق سبحانه إلى كل أمة نذيراً ، وهو سبحانه القائل :

﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ [٢] ..(٢٤) ﴾ [فاطر]

وقصَّ علينا الله سبحانه قصص بعضهم ، ولم يقصص قصص البعض الآخر.

يقول الحق سبحانه :

---

(١) الغيث : المطر.

(٢) إن : نافية بمعنى (ما) . أى : ما من أمة إلا أرسل الله إليهم من ينذرهم. خلا : مضى وسبق. قال تعالى : ﴿ كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ .. (٣٠) ﴾ [الرعد].

نذير : صيغة مبالغة من الإنذار ، أى : كثير الإنذار لهم بعذاب الله إذا لم يؤمنوا به. قال تعالى : ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلا نَذِيرٍ ..(١٩) ﴾ [المائدة].

﴿ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ ..(٧٨) ﴾ [غافر]

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلاً إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ ..(٧٤) ﴾ [يونس]

فهل هؤلاء هم الرسل الذين لم يذكرهم الله ؟

لا ؛ لأن الحق سبحانه أرسل بعد ذلك هوداً إلى قوم عاد ، وصالحاً إلى ثمود ، وشعيباً إلى مدين ، ولم يأت بذكر هؤلاء هنا ، بل جاء بعد نوح - عليه السلام - بخبر موسى عليه السلام ، وكأنه شاء سبحانه هنا أن يأتي لنا بخبر عيون الرسالات [١] .

وما دام الحق سبحانه قد أرسل رسلاً إلى قوم ، فكل قوم كان لهم رسول ، وكل رسول بعثه الله تعالى إلى قومه .

وكلمة «قوم» [٢] في الآية جمع مضاف ، والرسل جمع ، ومقابلة الجمع بالجمع تقتضي القسمة آحاداً ، مثلما نقول : هَيَّا اركبوا سياراتكم ، والخطاب لكم جميعاً ، ويعني : أن يركب كل واحد منكم سيارته .

وجاء كل رسول إلى قومه بالبينات ، أي : بالآيات الواضحات الدالة على صدق بلاغهم عن الله تعالى .

ثم يقول الحق سبحانه في نفس الآية :

---

(١) عيون الرسالات : أكبرها وأهمها ذكرها تفصيلاً ، وذكر غيرها إجمالاً .

(٢) القوم : جماعة الرجال ليس معهم نساء . قال تعالى : ﴿ لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ .. (١١) ﴾ [الحجرات] ، ثم قال : ﴿ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ .. (١١) ﴾ [الحجرات] فدلَّ على أن المقصود بالقوم هنا الرجال فقط ، ويستعمل لفظ القوم فيشمل الأمة كلها رجالاً ونساء ، مثل قوم نوح وقوم إبراهيم . [القاموس القويم] وانظر [لسان العرب مادة : قوم] .

﴿ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِن قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ (٧٤) ﴾ [يونس]

أى: أن الناس جميعهم لو آمنوا لانقطع الموكب الرسالى ، فموكب إيمان كل البشر لم يستمر ، بل جاءت الغفلة [١] ،وطبع الله تعالى على قلوب المعتدين. والطبع - كما نعلم - هو الختم.

ومعنى ذلك أن القلب المختوم لا يُخرج ما بداخله ، ولا يُدخل إليه ما هو خارجه ؛ فما دام البعض قد عشق الكفر فقد طبع الله سبحانه على هذه القلوب ألاّ يدخلها إيمان ، ولا يخرج منها الكفر ، والطبع هنا منسوب لله تعالى.

وبعض الذين يتلمَّسون ثغرات فى منهج الله تعالى يقولون: إن سبب كفرهم هو أن الله هو الذى طبع على قلوبهم.

ونقول: التفتوا إلى أنه سبحانه بيَّن أنه قد طبع على قلوب المعتدين ، فالاعتداء قد وقع منهم أولاً ، ومعنى الاعتداء أنهم لم ينظروا فى آيات الله تعالى ، وكفروا بما نزل إليهم من منهج ، فهم أصحاب السبب فى الطبع على القلوب بالاعتداء والإعراض.

وجاء الطبع لتصميمهم على ما عشقوه وألفوه ، والحق سبحانه وتعالى هو القائل فى الحديث القدسى:

«أنا أغنى الشركاء عن الشرك » [٢].

ولله المثل الأعلى ، فأنت تقول لمن يَسْدِر [٣] فى غَيِّه: ما دمت تعشق ذلك الأمر فاشبع به.

---

(١) الغفلة: سهو يعترى الإنسان من قلة التحفظ وعدم اليقظة ، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا .. (٢٢) ﴾ [ق] ، أى: غافلاً عن إدراك القيامة وغافلاً عن أحداث ما بعد الموت. [القاموس القويم]

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٩٨٥) وابن ماجه فى سننه (٤٢٠٢) عن أبى هريرة رضى الله عنه.

(٣) السادر فى غيه: الممعن فى ضلاله المستمر عليه لا يهتم لشىء ولا يبالى ما صنع. [اللسان مادة: سدر].

ومَثَل هؤلاء الذين طبع الله سبحانه وتعالى على قلوبهم ، مثل الذين كذَّبوا من قبل وكانوا معتدين .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ (١) بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ۝٧٥ ﴾

وكل من موسى وهارون - عليهما السلام - رسول ، وقد أخذ البعث لهما مراحل ، والأصل فيها أن الله تعالى قال لموسى - عليه السلام :

﴿ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ۝١٣ ﴾ [طه]

وقال الحق سبحانه وتعالى لموسى - عليه السلام :

﴿ اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ۝٤٣ ﴾ [طه]

ثم سأل موسى - عليه السلام - ربه سبحانه وتعالى أن يشدَّ عَضُدَه بأخيه ، فقال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ ۝٣٦ ﴾ [طه]

لأن موسى - عليه السلام - أراد أن يفقه قوله ، وقد رجى موسى ربه سبحانه وتعالى بقوله :

﴿ وَاحْلُلْ عُقْدَةً (٢) مِّن لِّسَانِي ۝٢٧ يَفْقَهُوا قَوْلِي ۝٢٨ ﴾ [طه]

---

(١) ملئه : قومه . وقيل : هم أشراف القوم ووجوههم ورؤساؤهم الذين يُرجع إلى قولهم . [اللسان ، مادة : ملأ] .

(٢) العقدة : تطلق على رتة اللسان وصعوبة النطق ، قال تعالى حاكياً عن موسى عليه السلام : ﴿ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ۝٢٧ يَفْقَهُوا قَوْلِي ۝٢٨ ﴾ [طه] .

وبعد ذلك جاء تكليف هارون بالرسالة مع موسى عليه السلام.

وقال الحق سبحانه: ﴿ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ[1] (٢٤) ﴾ [طه]

فالأصل - إذن - كانت رسالة موسى - عليه السلام - ثم ضم الله سبحانه هارون إلى موسى إجابة لسؤال موسى ، والدليل على ذلك أن الآيات كلها المبعوثة فى تلك الرسالة كانت بيد موسى ، وحين يكون موسى هو الرسول ، وينضم إليه هارون ، لا بد - إذن- أن يصبح هارون رسولاً.

ولذلك نجد القرآن معبِّراً عن هذا : ﴿ إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ .. (٤٧) ﴾ [طه]

أى : أنهما رسولان من الله .

وفى آية أخرى يقول الحق سبحانه:

﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦) ﴾ [الشعراء]

فهما الاثنان مبعوثان فى مهمة واحدة ، وليس لكل منهما رسالة منفصلة ، بل رسالتهما واحدة لم تتعدد ، وإن تعدد المرسل فكانا موسى وهارون.

ومثال ذلك - ولله المثل الأعلى - حين يوفد ملك أو رئيس وفداً إلى ملك آخر ، فيقولون: نحن رسل الملك فلان.

وفى رسالة موسى وهارون نجد الأمر البارز فى إلقاء الآيات كان لموسى. ولكن هارون له أيضاً أصالة رسالية ؛ لذلك قال الحق سبحانه:

﴿ إِنَّا رَسُولا .. (٤٧) ﴾ [طه]

---

(١) طغى : تجاوز الحد . ومنه قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ (١١) ﴾ [الفجر] أى : ظلموا وتجاوزوا الحد فى العصيان . وقال تعالى : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ (١١) ﴾[الحاقة] .

ذلك أن فرعون كان متعالياً سَمْجاً [١] رَذْل [٢] الخُلُق ، فإن تكلم هارون ليشد أزر [٣] أخيه ، فقد يقول الفرعون: وما دخلك أنت؟

ولكن حين يدخل عليه الاثنان ، ويعلنان أنهما رسولان ، فإن رد فرعون هارون ، فكأنه يرد موسى أيضاً .

أقول ذلك حتى نغلق الباب على من يريد أن يتورك [٤] القرآن متسائلاً: ما معنى أن يقول القرآن مرة «رسول» ومرة «رسولا» ؟

وفى هذا ردٌّ كافٍ على هؤلاء المتورّكين.

ويقول الحق سبحانه هنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها:

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا ..(٧٥) ﴾ [يونس]

والملأ: هم أشراف القوم ، ووجوهه وأعيانه والمقرَّبون من صاحب السيادة العليا ، ويقال لهم : «ملأ» ؛ لأنهم هم الذين يملأون العيون ، أى: لا ترى العيون غيرهم.

وفرعون - كما نعلم - لم يصبح فرعوناً إلا بالملأ ؛ لأنهم هم الذين نصَّبوه عليهم ، وكان «هامان» مثلاً يدعم فكرة الفرعون ، وكان الكهنة يؤكدون أن الفرعون إله.

---

(١) سَمُجَ الشيء: قَبُحَ. والسَّمْجُ والسَّميج: الذى لا خير فيه [لسان العرب: مادة (س م ج)- بتصرف].

(٢) الرَّذْل والرَّذيل: الدون من الناس، وقيل: هو الخسيس. وقيل: هو الردىء من كل شيء. [لسان العرب: مادةَ (ر ذ ل)].

(٣) الأَزْر : القوة والشدة ، وأَزَرَهَ وآزره : أعانه وساعده . [لسان العرب : مادة (أزر)] .

(٤) التوريك: إضافة الذنب أو النقص إلى الشيء، وحمله عليه على غير الحقيقة، وتحمل معنى إسقاط عيبه على غيره [انظر: لسان العرب - مادة : ورك] والمراد أنهم يُحمِّلون القرآن تناقضاتهم.

ولكل فرعون ملأ يصنعونه ، والمثل الشعبى فى مصر يقول: «قالوا لفرعون من فَرْعَنك ، قال : لم أجد أحداً يردّنى».

أى: أنه لم يجد أحداً يقول له: تَعقَّلْ . ولو وجد من يقول له ذلك لما تفرعن.

والآيات [1] التى بعث بها الله سبحانه إلى فرعون وملئه مع موسى وهارون من المعجزات الدالة على صدق نبوة موسى وهارون - عليهما السلام ، وفيها ما يُلْفت إلى صدق البلاغ عن الله .

أو أن الآيات هى المنهج الذى يثبت وجود الخالق الأعلى ، لكن فرعون وملأه استكبروا. والاستكبار: هو طلب الكبر ، مثلها مثل «استخرج» أى: طلب الإخراج ، ومثل «استفهم» أى: طلب الفهم. ومن يطلب الكبر إنما يفتعل ذلك ؛ لأنه يعلم أن مقوماته لا تعطيه هذا الكبر.

وينهى الحق سبحانه هذه الآية بقوله :

﴿ .. وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [يونس]

وشرُّ الإجرام هو ما يتعدى إلى النفس ، فقد يكون من المقبول أن يتعدى إجرام الإنسان إلى أعدائه ، أما أن يتعدى الإجرام إلى النفس فهذا أمر لا مندوحة [2] له ، وإجرام فرعون وملئه أودى بهم إلى جهنم خالدين مخلدين فيها ملعونين ، وفى عذاب عظيم ومهين.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

---

(١) قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ ﴾ [الإسراء] والآيات التى أرسل بها موسى عليه السلام هى : العصا ، وإخراج يده بيضاء من غير سوء ، وسنىِّ الجدب ، والبحر ، والطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم .

(٢) المندوحة : اتساع الأمر. والمراد: أن فعلهم هذا لا سبب معقول له، ولا مبرر. [لسان العرب: مادة (ن د ح) بتصرف].

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحۡرٌ[1] مُّبِينٌ ٧٦ ﴾

وقد جاءهم الحق على لسان الرسل - عليهم السلام - وعلى كل إنسان أن يفهم أنه حين يستقبل من الرسول رسالة الحق ، فليفهم أنها رسالة ليست ذاتية الفكر من الرسول ، بل قد أرسله بها الله الخالق الأعلى سبحانه وتعالى .

ولذلك فالمتأبِّى[2] على الرسول ، لا يتأبَّى على مساوٍ له ؛ لأن الرسولَ هو مُبلِّغ عن الله تعالى ، والله سبحانه هو الذى بعثهً ، ويجب على الإنسان أن يعرف قدر البلاغ القادم من الله الحق ؛ لأنه سبحانه هو الحق الأعلى ، وهو الذى خلق كل شيء بالحق : سماء مخلوقة بالحق ، وأرض مخلوقة بالحق ، وشمس تجرى بالحق ، ومطر ينزل بالحق ، وكل شيء ثابت ومتحرك بقوانين أرادها الحق سبحانه .

ولو سيطر الإنسان - دون منهج - على قوانين الكائنات لأفسدها ؛ لأن الفساد إنما يتأتى مما للإنسان دخل فيه ، ويدخل إليه بدون منهج الله .

والفساد إنما يجيء من ناحية اختيار الإنسان للبدائل التى لا يخضع فيها لمنهج الله تعالى .

ولذلك إن أردتم أن تستقيم حياتكم استقامة الكائنات العليا التى لا دخل لكم فيها ، فامتثلوا لمنهج الحق وميزانه ؛ لأنه سبحانه هو القائل :

---

(١) اللام فى كلمة «لسحر» للتوكيد . والمعنى : أن ما جئت به ما هو إلا سحر قوى ظاهر ، والسحر هو كل أمر يخفى سببه ، ويتخيَّل على غير حقيقته بالتمويه والخداع ، قال تعالى عن سحرة فرعون : ﴿ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ٦٦ ﴾ [طه] .

(٢) التأبى : الرفض والكراهية . [اللسان : مادة (أ ب ى)] .

﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۝ أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ[1] ۝﴾
[الرحمن]

أى : إن كنتم تريدون أن تعتدل أموركم ، وتنضبط انضباط الكائنات الأخرى فلتكن إرادة الاختيار المخلوقة لكم خاضعة لمنهج الله تعالى ، وتسير فى إطار هذا المنهج الربانى .

وحين نتأمل قول الحق سبحانه :

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا .. ۝﴾ [يونس]

نجد فى هذا القول توجيهاً إلى أن الحق لم يأت من ذوات الرسل ؛ فهذه الذوات لا دخل لها فى الموضوع ، وإياك أن تهاجم رسالة حق جاءتك من إنسان لا تحبه ، بل ناقش الحق فى ذاته ، ولا تدخل فى متاهة البحث عمَّن جاء بهذا الحق ، وانظر إلى من كفروا بمحمد رسول الله ﷺ، فَهُمْ من قالوا :

﴿لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ[2] .. ۝﴾ [الزخرف]

وهم بذلك قد أدخلوا النازل عليه القرآن فى الحكم ، مع أن العقل كان يقتضى أن ينظروا إلى القرآن[3] فى ذاته ، وأن يأخذوا الحكمة من أى وعاء خرجت .

وعليك أنت أن تستفيد من هذا الأمر ، وخُذ الحكمة من أى قائل لها ،

---

(١) لأن اعتدال الموازين ثبات للحق ، وإذا ثبت الحق وأخذ طريقه استقامت موازين الحياة ، وعند استقامتها لا نجد محروماً ولا مظلوماً .

(٢) القريتان هما : مكة والطائف . واختلفت الأقوال فى تحديد هذين الرجلين ، فقيل : إنهما الوليد بن المغيرة ، وعروة بن مسعود الثقفى . وقيل : إنهما عمير بن عمرو بن مسعود ، وعتبة بن ربيعة ، وقيل : ابن عبد ياليل . والمقصود أنه رجل كبير من أى البلدتين كان . انظر ابن كثير (٤/ ١٢٧) .

(٣) وقد نقلت لنا كتب السيرة أن الوليد بن المغيرة قال فى وصف القرآن : والله إن لقوله لحلاوة ، وإن أصله لعذق ، وإن فرعه لجناة ، وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا ساحر ، جاء بقول هو سحر يفرق به بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجته ، وبين المرء وعشيرته » سيرة ابن هشام (١/ ٢٧٠) فرغم قوله فى القرآن ومدحه فيه ، إلا أنه مسايرة لقومه ، وحفاظاً على مكانته بينهم جحد القرآن واتهم محمداً ﷺ بالسحر .

ولا تنظر إلى من جاءت الحكمة منه، فإن كنت تكرهه فأنت ترفض أن تأخذ الحكمة منه، وإن كنت تحبه أخذتها. لا، إن عليك أن تأخذ الحكمة ما دامت قد جاءت بالحق؛ لأنك إن لم تأخذها أضعت نفسك[(١)].

والحق هو الشيء الثابت ، وإن ظهر في بعض الأحيان أن هناك من طمس الحق ، وأن الباطل تغلّب عليه ، فهذا يعنى ظهور المفاسد ؛ فيصرخ الناس طالبين الحق.

وانتشار المفاسد هو الذى يجعل الناس تستدعى الحق ، وتتحمس له ؛ لأن الباطل حين يَعَضُّ الناس ، تجدهم يتجهون إلى الحق ليتمسكوا به.

والحق سبحانه هو القائل :

﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا[(٢)] رَّابِيًا[(٣)] وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً[(٤)] وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ[(٥)] ﴿١٧﴾﴾ [الرعد]

---

(١) عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ : « الكلمة الحكمة ضالة المؤمن ، فحيث وجدها فهو أحقُّ بها ». أخرجه الترمذى فى سننه (٢٦٨٧) وابن ماجه فى سننه (٤١٦٩). قال الترمذى : حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، وإبراهيم بن الفضل ، يُضعَّف فى الحديث من قبَل حفظه.

(٢) الزبد : هو ما يعلو ماء البحر إذا هاج موجه. وبحر مُزْبِد، أى : مائج يقذف بالزَّبد. وزبد الماء : طفاوته وقذاه. والجمع : أزباد. [لسان العرب : مادة (ز ب د)].

(٣) رابياً : مرتفعاً ؛ لأنه يكون أعلى سطح الماء. [اللسان : مادة (ر ب ى)].

(٤) جفاء السيل : هو ما يقذفه من الزبد والوسخ ونحوهما. [اللسان : مادة (ج ف ى)].

(٥) المثل : الصفة العجيبة يشبَّه بها غيرها. فالأمثال تصور المعانى بصورة الأشخاص ، لأنها أثبت فى الأذهان لاستعانة الذهن فيها بالحواس. وأمثال القرآن قسمان :
- قسم ظاهر مصرح به ، مثل قوله تعالى : **﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِى اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾﴾** [البقرة]
- قسم كامن ، مثل قوله تعالى : **﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾** [الفرقان] وهو يؤدى معنى مثل « خير الأمور أوساطها ». [انظر : الإتقان فى علوم القرآن ٤/ ٤١].

والحق سبحانه هنا يضرب المثل النازل كسيل من السماء على الجبال ، فيأخذ كل واد أسفل الجبال على قدر احتماله ، ويرتوى الناس ، وترتوى الأرض ، لكنَّ السيل فى أثناء نزوله على الجبال إنما يحمل بعضاً من الطمى ، والقش ، ويستقر الطمى فى أرض الأودية ؛ لتستفيد منه ، أما القش والقاذورات فتطفو على سطح الماء ، وتسمى تلك الأشياء الطافية زَبَداً ، وساعة تضعها فى النار ، فهى تصدر أصواتاً تسمى (الطشطشة).

ومثال ذلك : حين نوقد النار ؛ لنصهر الحديد ، نجد الخبث هو الذى يطفو ، ويبقى الحديد النقى فى القاع .

هذا الزبد الذى يوجد فوق الماء ينزاح على الجوانب ، ومثال ذلك : ما نراه على شواطىء البحر حين يقذف الموج بقاذورات على الشاطىء ، هذه القاذورات التى ألقتها البواخر ، فيلفظها البحر بالموج ، وهذا الزبد يذهب جُفاءً ، أما ما ينفع الناس فيبقى فى الأرض ؛ لذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ .. ﴿١٧﴾ ﴾ [الرعد]

إذن : فالله سبحانه يترك للباطل مجالاً ، ولكن لا يسلم له الحق ، بل يترك الباطل ؛ ليحفز غيرة الناس على الحق ، فإن لم يغاروا على الحق غار هو عليه[1] .

وهنا يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ ﴾ [يونس]

ولأنهم كانوا مشهورين بالسحر ؛ ظنوا أن الآيات التى جاءت مع موسى - عليه السلام - هى السحر المبين ، أى : السحر الظاهر الواضح .

(١) عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله ﷺ : « ليس أحد أحب إليه المدح من الله ، من أجل ذلك مدح نفسه ، وليس أحد أغير من الله ، من أجل ذلك حرم الفواحش » أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٧٦٠) ، والبخارى فى صحيحه (٤٦٣٤) .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾

وفى هذه الآية ما يوضح رد سيدنا موسى عليه السلام :

﴿ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا ..﴿٧٧﴾ ﴾ [يونس]

والذين يتوركون على القرآن يقولون : كيف يأتى القرآن ليؤكد أنهم قالوا إن هذا لسحر مبين ، ثم يأتى فى الآية التى بعدها ليقول إنهم قالوا متسائلين : أسحرٌ هذا ؟

وفهم هؤلاء الذين يتوركون على القرآن أن كلمة ﴿ أَسِحْرٌ هَذَا ﴾ من كلماتهم ، ولكن هذا هو قول موسى عليه السلام ، وكأن موسى عليه السلام قد تساءل ؛ ليعيدوا النظر فى حكمهم : هل ما جاء به سحر ؟ وهذا استفهام استنكارى ، وأريد به أن يؤكد أن هذا ليس بسحر ، ولكن جاء بصيغة التساؤل ؛ لأنه واثق أن الإجابة الأمينة ستقول : إن ما جاء به ليس سحراً .

ولو جاء كلام موسى - عليه السلام - كمجرد خَبَر لكان يحتمل الصدق ، ويحتمل الكذب ، لكنه جاء بصيغة الاستفسار ؛ لأن المكذِّب له سيجيب بلجلجة [1] .

ومثال ذلك - ولله المثل الأعلى - أنت حين تذهب لشراء قماش ، فيقول لك البائع : إنه صوف خالص ونقى ، فتمسك بعود كبريت وتشعل

(١) اللجلجة والتلجلج : التردد فى الكلام ، والاختلاط والاضطراب فيه . ولذلك قيل : « الحق أبلج ، والباطل لجلج » . أى : أن الحق واضح قوى ظاهر ، أما الباطل فهو ضعيف مضطرب لا ثبات له . [لسان العرب : مادة (ل ج ج) - بتصرف] .

النار فى خيط من القماش ، فإن احترق الصوف كما يحترق البلاستيك أو القماش الصناعى ، فأنت تقول للبائع : وهل هذا صوف نقى يا رجل ؟ وهنا لن يجيب البائع إلا بالموافقة ، أو بصمت العاجز عن حجب الحقيقة .

إذن : أنت إن طرحت الأمر باستفهام إنكارى فهذا أبلغ من أن تقوله كخبر مجرد ؛ لأن السامع لك لا بد أن يجيب .

وقول الحق سبحانه وتعالى على لسان موسى عليه السلام :

﴿ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ .. (٧٧) ﴾ [يونس]

يفيد ضرورة النظر إلى الحق مجرداً عمَّن جاء به .

ولذلك لم يقل موسى عليه السلام : أتقولون للحق لما جئناكم به : إنه سحر مبين ؟

إن القول الحكيم الوارد فى الآية الكريمة هو تأكيد على ضرورة النظر إلى الحق مجرداً عمّن جاء به .

وينهى الحق سبحانه هذه الآية بقوله :

﴿ .. أَسِحْرٌ هَذَا وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ (٧٧) ﴾ [يونس]

إذن : فسيدنا موسى - عليه السلام - قد أصدر الحكم بأن السحر لا ينفع ، ولكن الآيات التى جاء بها من الحق سبحانه قد أفلحت ، فقد ابتلعت عصاه - التى صارت حية - كل ما ألقوه من حبالهم ؛ وكل ما صنعوه من سحر [(١)] .

(١) يقول الحق سبحانه : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (١١٧) فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٨) ﴾ [الأعراف] .

وأراد الحق سبحانه لعصا موسى أن تكون آية معجزة [١] من جنس ما نبغ فيه القوم .

فالله سبحانه حين يرسل معجزةً إلى قوم ؛ يجعلها من جنس ما نبغوا فيه ؛ لتكون المعجزة تحدياً فى المجال الذى لهم به خبرة ودربة [٢] ودراية ؛ فأنت لن تتحدى رجلاً لا علم له بالهندسة ؛ ليبنى لك عمارة ، ولكنك تتحدى مهندساً أن يبنى لك هرماً ؛ لأن العلوم المعاصرة لم تتوصل إلى بعض ما اكتشفه القدماء ولم يسجلوه فى أوراقهم ، أو لم يعثر على كشف يوضح كيف فرَّغوا الهواء بين كل حجر وآخر فتماسكت الحجارة .

وقول الحق سبحانه وتعالى هنا :

﴿ .. وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [يونس]

يبين لنا أن الفلاح مأخوذ من العملية الحسية التى يقوم بها الفلاح من جهد فى حرث الأرض ووضع البذور ، ورى الأرض وانتظار الثمرة بعد بذل كل ذلك الجهد .

والفلاح أيضاً مأخوذ من فلح الحديد ، أى : شق الحديد ، ككتل أو كقطع ، ولا يصلح إلا إذا أخذ الحديد الشكل المناسب للاستعمال .

وقول الحق سبحانه :

﴿ وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ .. ﴿٧٧﴾ ﴾ [يونس]

هو لَفْتٌ لنا أن السحر نوع من التخييل ، وليس حقيقةً واقعةً .

ولذلك قال الحق سبحانه فى موضع آخر من القرآن :

---

(١) المعجزة هى : الأمر الخارق للعادة يُجريها الله على يد النبى أو الرسول تأييداً له وتصديقاً لرسالته ، كمعجزات موسى وعيسى عليهما السلام انقلاب العصا حية وانفلاق البحر وإبراء الأكمه والأبرص . وخصَّ ﷺ بمعجزة القرآن الخالدة ، وله ﷺ معجزات حسية كنبوع الماء من بين يديه ﷺ .

(٢) دربة : عادة وخبرة أو تدريب .

﴿ سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ ..(١١٦) ﴾ [الأعراف]

وقال الحق سبحانه أيضاً :

﴿ ..فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ (٦٦) ﴾ [طه]

إذن : فالسحر هو تخييل فقط [(١)] وليس تغييراً للحقيقة .

ولأن معجزة موسى - عليه السلام - تحدَّت كل القدرات [(٢)] ؛ لذلك أعلن فرعون التعبئة العامة بين كل من له علاقة بالسحر ، الذى هم متفوقون فيه ، أو حتى من لهم شبهة معرفة بالسحر [(٣)] .

ولأن السحر مجرد تخييل ، وجدنا السحرة حين اجتمعوا وألقوا حبالهم وعصيهم ، ثم ألقى موسى عصاه ، فإذا بعصاه قد تحولت إلى حية تلقف [(٤)] ما صنعوا ، وهنا ماذا فعل السحرة ؟

يقول الحق سبحانه وتعالى فى سورة طه :

﴿ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَـٰرُونَ وَمُوسَىٰ (٧٠) ﴾ [طه]

لأن الساحر يرى ما يفعله على حقيقته ، وهم خيَّلوا لأعين الناس ، لكنهم يرون حبالهم مجرد حبال أو عصيهم مجرد عصى .

---

(١) سحر قوم فرعون هو من نوع سحر التخييل والأخذ بالعيون ، ومبناه على أن البصر قد يخطىء ويشتغل بالشىء المعين دون غيره ؛ ولذلك قال تعالى : ﴿ سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ ..(١١٦) ﴾ [الأعراف] . وقال تعالى : ﴿ .. يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ (٦٦) ﴾ [طه] .

(٢) السحر : هو التأثير الشديد ، فإن كان من المخلوق فهو تخيل وحيل ، وإن كان من الخالق فهو إعجاز وتغيير ماهية الشىء بقدرته سبحانه ؛ ولذلك انتصر موسى - عليه السلام - على السحرة ؛ لأن الله سبحانه أعانه عليهم بقدرته التى لا راد لها .

(٣) وذلك أن فرعون من مكره جعل الملأ من حوله هم الذين يصعّدون المواجهة مع موسى بأن قال لهم : ﴿ .. إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (٣٤) يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (٣٥) ﴾ [الشعراء] . فكان ردّهم عليه أن قالوا له : ﴿ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٣٦) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ (٣٧) ﴾ [الشعراء] .

(٤) اللقف : سرعة الأخذ والتناول . [اللسان : مادة (ل ق ف)] .

أما عصا موسى - عليه السلام - فلم تكن تخييلاً ، بل وجدها السحرة حية حقيقية ، ولقفت بالفعل ما صنعوا ؛ ولذلك خرُّوا [(١)] ساجدين ، وأعلنوا الإيمان برب موسى وهارون .

هم - إذن - لم يعلنوا الإيمان بموسى وهارون ، بل أعلنوا الإيمان:

﴿ بِرَبِّ هَـٰرُونَ وَمُوسَىٰ ..(٧٠) ﴾ [طه]

لأنهم عرفوا بالتجربة أن ما ألقاه موسى ليس سحراً ، بل هو مِنْ فعل خالق أعلى .

وكان ثبات موسى - عليه السلام - فى تلك اللحظة نابعاً من التدريب الذى تلقَّاه من ربه ، فقد سأله الحق سبحانه:

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ (١٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ [(٢)] عَلَيْهَا وَأَهُشُّ [(٣)] بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي ..(١٨) ﴾ [طه]

وقد أجمل موسى وفصَّل فى الرد على الحق سبحانه ؛ إيناساً وإطالة للأنس بالله تعالى ، وحين رأى أنه أطال الإيناس أوجز وقال بأدب:

﴿ ..وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ [(٤)] أُخْرَىٰ (١٨) ﴾ [طه]

إذن: فقد أدركته أولاً شهوة الأنس بالله تعالى ، وأدرك ثانياً أدب التخاطب مع الله تعالى ، ودرَّبه الحق سبحانه على مسألة العصا حين أمره

(١) خر: سقط ووقع . والمراد أنهم أسرعوا بالسجود لله رب العالمين .
(٢) أتوكأ عليها : أتحمل وأعتمد وأستند عليها . [اللسان : مادة (و ك أ) - بتصرف] .
(٣) ﴿ وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي ..(١٨) ﴾[طه] أى : أهز بها الشجر لتتساقط أوراقه لترعاه غنمى . نقله ابن كثير فى تفسيره (٣/ ١٤٥) .
(٤) مآرب أخرى : أى : مصالح وحاجات ومنافع أخرى غير ذلك .

أولاً أن يلقيها ، فصارت أمامه حية تسعى ، ولو كانت من جنس السحر لما أوجس[(١)] منها خيفة ولرآها مجرد عصا .

إذن : فالفرق بين معجزة موسى وسحرة فرعون ، أن سحرة فرعون سحروا أعين الناس وخُيِّل إلى الناس من سحرهم أن عصيَّهم وحبالهم تسعى ، لكن معجزة موسى - عليه السلام - في إلقاء العصا ، عرفوا هم بالتجربة أن تلك العصا قد تغيرت حقيقتها .

والعصا -كما نعلم -أصلها فرع من شجرة ، وكان باستطاعة الحق سبحانه وتعالى أن يجعلها تتحول إلى شجرة مثمرة ، لكنها كانت ستظل نباتاً .

وشاء الحق سبحانه أن ينقلها إلى المرتبة الأعلى من النبات ؛ وهى المرحلة الحيوانية ، فصارت حية تلقف كل ما ألقاه السحرة .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا[(٢)] عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا[(٣)] ٱلۡكِبۡرِيَآءُ[(٤)] فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا نَحۡنُ لَكُمَا بِمُؤۡمِنِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾

---

(١) أوجس : أى : وقع فى نفسه وقلبه الخوف والفزع . [انظر اللسان مادة وجس] وقد وقع هذا الخوف لاثنين من الأنبياء ذكرهما القرآن : الأول إبراهيم عليه السلام عندما جاءته الملائكة فى صورة بشر ليبشروه بإسحاق ويعقوب ، وقد ذكر هذا فى القرآن مرتين : الأولى فى سورة هود : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ ﴾ [هود] . أما الثانية ففى سورة الذاريات آية ٢٨ .

أما النبى الثانى فهو موسى عليه السلام : ﴿ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ ﴾ [طه] .

(٢) لتلفتنا : لتثنينا وتبعدنا عن آلهة الآباء والأجداد .

(٣) لكما : أى : لموسى وهارون عليهما السلام .

(٤) الكبرياء : العظمة والرياسة . [ابن كثير ٢/٤٢٦] .

وهنا نجد سحرة فرعون ينسبون مجيء معجزة تحول العصا إلى حية، ينسبونها لموسى - عليه السلام - رغم أن موسى عليه السلام قد نسب مجيء المعجزة إلى الله تعالى .

وكان واجب المرسل إليه - فرعون وملئه - أن ينظر إلى ما جاء به الرسول ، لا إلى شخصية الرسول (1) .

ولو قال فرعون لموسى : « جِئْ بك» لكان معنى ذلك أن فرعون يعلن الإيمان بأن هناك إلهاً أعلى ، ولكن فرعون لم يؤمن لحظتها ؛ لذلك جاء قوله : ﴿أَجِئْتَنَا﴾ فنسب المجيء على لسان فرعون لموسى عليه السلام .

ولماذا المجيء ؟

يقول الحق سبحانه على لسان فرعون وقومه :

﴿ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا .. (٧٨) ﴾ [يونس]

والالتفات هو تحويل الوجه عن شيء مواجه له ، وما دام الإنسان بصدد شيء ؛ فكل نظره واتجاهه يكون إليه ، وكان قوم فرعون على فساد وضلال ، وليس أمامهم إلا ذلك الفساد وذلك الضلال .

وجاء موسى عليه السلام ؛ ليصرف وجوههم عن ذلك الفساد والضلال ، فقالوا :

﴿ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا .. (٧٨) ﴾ [يونس]

---

(١) فمما قاله فرعون عن موسى يطعن في شخصيته ما حكاه رب العزة في قوله تعالى : ﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٥١) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ (٥٢) ﴾ [الزخرف] وذلك أن موسى كان لسانه لا ينطلق بالكلام ، وقد عبر عن ذلك في دعائه : ﴿ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (٢٥) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (٢٦) وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي (٢٨) ﴾ [طه] .

وهكذا يكشفون حقيقة موقفهم ، فقد كانوا يقلدون آباءهم ، والتقليد يريح المقلِّد ، فلا يُعْمِل عقله أو فكره فى شىء ليقتنع به ، ويبنى عليه سلوكه [(١)] .

والمثل العامى يصور هذا الموقف بعمق شديد حين يقول : « مثل الأطرش فى الزفة » أى : أن فاقد السمع لا يسمع ما يقال من أى جمهرة ، بل يسير مع الناس حيث تسير ، ولا يعرف له اتجاهاً .

والمقلِّد إنما يعطل فكره ، ولا يختار بين البدائل ، ولا يميز الصواب ليفعله ، ولا يعرف الخطأ فيتجنَّبه .

وفرعون وملؤه كانوا على ضلال ، هو نفس ضلال الآباء ، والضلال لا يكلف الإنسان تعب التفكير ومشقة الاختيار ، بل قد يحقق شهوات عاجلة .

أما تمييز الصواب من الخطأ واتباع منهج السماء ، فهو يحجب الشهوة ، ويلزم الإنسان بعدم الانفلات عكس الضلال الذى يطيل أمد [(٢)] الشهوة .

إذن : فالمقلد بين حالتين :

الحالة الأولى: أنه لا يُعْمِل عقله ، بل يفعل مثل من سبقوه ، أو مثل من يحيا بينهم .

---

(١) وهذا التقليد نهى عنه رسول الله ﷺ فى حديثه ، فعن حذيفة بن اليمان أن رسول الله ﷺ قال : « لا تكونوا إمعة ، تقولون : إن أحسن الناس أحسنَّا ، وإن ظلموا ظلمنا ، ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا ، وإن أساءوا فلا تظلموا » أخرجه الترمذى فى سننه (٢٠٠٧) وقال : حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه .

(٢) أمد الشهوة : غايتها . والأمد : منتهى الأجل . وقد وردت هذه اللفظة ثلاث مرات فى القرآن ، فقال تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ أَدْرِى أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّى أَمَدًا ﴿٢٥﴾ ﴾ [الجن] أى : زماناً بعيداً . وقال سبحانه : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [آل عمران] أى : فى غاية البعد . وقال تعالى : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴿١٢﴾ ﴾ [الكهف] أى : مدة وزماناً .

والحالة الثانية: أنه رأى أن ما يفعله الناس لا يلزمه بتكليف ، ولكن الرسول الذى يأتى إنما يلزمه بمنهج ، فلا يكسب - على سبيل المثال - إلا من حلال ، ولا يفعل منكراً ، ولا يذم أحداً ، وهكذا يقيد المنهج حركته ، لكن إن اتبع حركة آبائه الضالين ، فالحركة تتسع ناحية الشهوات .

ولذلك أقول دائماً : إن مسألة التقليد هذه يجب أن تلفت إلى قانون التربية ، فالنشء ما دام لم يصل إلى البلوغ فأنت تلاحظ أنه بلا ذاتية ويقلد الآباء ، لكن فور أن تتكون له ذاتية يبدأ فى التمرد ، وقد يقول للآباء : أنتم لكم تقاليد قديمة لا تصلح لهذا الزمان ، لكن إن تشرَّب النشء القيم الدينية الصحيحة ؛ فسيمتثل لقانون الحق ، ويحجز نفسه عن الشهوات .

ونحن نجد أبناء الأسر التى لا تتبع منهج الله فى تربية الأبناء وهم يعانون من أبنائهم حين يتسلط عليهم أقران[1] السوء ، فيتجهون إلى ما يوسع دائرة الشهوات من إدمان وغير ذلك من المفاسد .

لكن أبناء الأسر الملتزمة يراعون منهج الله تعالى ؛ فلا يقلدون أحداً من أهل السوء ؛ لأن ضمير الواحد منهم قد عرف التمييز بين الخطأ والصواب .

ثم إن تقليد الآباء قد يجعل الأبناء مجرد نسخ مكررة من آبائهم ، أما تدريب وتربية الأبناء على إعمال العقل فى كل الأمور ، فهذه هى التنشئة التى تتطور بها المجتمعات إلى الأفضل إن اتبع الآباء منهج الله تعالى ، وتتكون ذاتية الابن على ضوء منهج الحق سبحانه ، فلا يتمرد الابن متجهاً إلى الشر ، بل قد يتمرد إلى تطوير الصالح ليزيده صلاحاً .

التقليد - إذن - يحتاج إلى بحث دقيق ؛ لأن الإنسان الذى سوف تقلده ، لن يكون مسئولاً عنك ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى هو القائل :

---

(١) أقران : جمع قرن (بكسر القاف وتسكين الراء) وهو النظير والمثيل . والمراد بأقران السوء : أصدقاء السوء ورفقاء الشر والرذائل . [لسان العرب : مادة (ق ر ن) - بتصرف] .

﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لاَّ يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا .. (٣٣) ﴾ [لقمان]

إذن: فأمر الابن يجب أن يكون نابعاً من ذاته ، وكذلك أمر الأب ، وعلى كل إنسان أن يُعْمِل عقله بين البدائل[(١)] .

ولذلك تجد القرآن الكريم يقول على ألسنة مَنْ قلَّدوا الآباء:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا[(٢)] عَلَيْهِ آبَاءَنَا .. (١٧٠) ﴾ [البقرة]

ثم يرد عليهم الحق سبحانه:

﴿ ..أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ (١٧٠) ﴾ [البقرة]

فإذا كانت المسألة مسألة تقليد ، فلماذا يتعلم الابن ؟ ولماذا لا ينام الأبناء على الأرض ولا يشترون أسرَّة ؟ ولماذا ينجذبون إلى التطور فى الأشياء والأدوات التى تسهِّل الحياة ؟

فالتقليد هو إلغاء العقل والفكر ، وفى إلغائهما إلغاء التطور والتقدم نحو الأفضل .

إذن : فالقرآن يحثنا على أن نستخدم العقل ؛ لنختار بين البدائل ، وإذا كان المنهج قد جاء من السماء ، فَلْتهْتد بما جاء لك ممن هو فوقك ، وهذا الاهتداء المختار هو السُّمو نحو الحياة الفاضلة .

---

(١) البدائل : ما يصلح لأن يختار منه الإنسان ، فهى مواضع الاختيار فى التكليف ، فله أن يختار بين الإيمان والكفر ، الطاعة والمعصية ، قال تعالى : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا (١٠) ﴾ [الشمس] .

(٢) ألفينا : وجدنا . ألفى الشىء وجده. قال تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ (٦٩) ﴾ [الصافات]، وقال : ﴿ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ ..(٢٥) ﴾ [يوسف] أى : وجداه .

يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا[1] مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ..(١٠٤) ﴾ [المائدة]

أى : أنهم أعلنوا أنهم فى غير حاجة للمنهج السماوى فَردَّ عليهم القرآن :

﴿ ..أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ (١٠٤) ﴾ [المائدة]

وهكذا نجد أن القرآن قد جاء بموقفين فى آيتين مختلفتين عن المقلّدين :

الآية الأولى : هى التى يقول فيها الحق سبحانه وتعالى :

﴿ .. بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ (١٧٠) ﴾ [البقرة]

والآية الثانية : هى قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ ..حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ (١٠٤) ﴾ [المائدة]

وهم فى هذه الآية أعلنوا الاكتفاء بما كان عليه آباؤهم.

وهناك فارق بين الآيتين ، فالعاقل غير من لا يعلم ؛ لأن العاقل قادر على الاستنباط ، ولكن من لا يعلم فهو يأخذ من استنباط غيره.

---

(١) حسبنا : يكفينا . وهناك فارق بين قولة الكافرين المقلدين لآبائهم هنا ، وبين قول المؤمنين لهذه الكلمة : ﴿ حَسْبُنَا ﴾ ، فالمؤمنون قالوا : ﴿ ..حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) ﴾ [آل عمران] ، وقالوا : ﴿ حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ ..(٥٩) ﴾ [التوبة] ، فالمؤمنون اكتفوا بما جاءهم عن الله وأوكلوا الأمر إلى الله رغم معاداة الآباء لهم ورغم أن موقفهم هذا سيضرهم فى دنياهم وقد يقطع أرزاقهم ، فهم قد نظروا إلى الآخرة ، أما الكافرون فإنهم يعيشون دنياهم بكل ما فيها من ملذات وشهوات .

إذن: فالذين اكتفوا بما عند آبائهم ، وقالوا:

﴿حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ..(١٠٤)﴾ [المائدة]

هؤلاء هم الذين غالوا فى الاعتزاز بما كان عند آبائهم ؛ لذلك جاء فى آبائهم القول بأنهم لا يعلمون .

أى : ليس لهم فكر ولا علم على الإطلاق ، بل يعيشون فى ظلمات من الجهل.

وهنا يقول الحق سبحانه على لسان فرعون وقومه:

﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الأَرْضِ .. (٧٨)﴾ [يونس]

أى: هل جئت لتصرفنا ، وتحوِّل وجوهنا أو وجهتنا أو طريقنا وتأخذنا عن وجهة آبائنا الذين نقلدهم؛ لتأخذ أنت وأخوك الكبرياء فى الأرض؟

وهكذا يتضح أنهم يعتقدون أن الكبرياء الذى لهم فى الأرض قد تحقق لهم بتقليدهم آباءهم ، وهم يحبون الحفاظ عليه ، والأمر هنا يشمل نقطتين:

الأولى: هى تَرْكُ ما وجدوا عليه الآباء.

والثانية: هى الكبرياء [1] والعظمة فى الأرض.

ومثال ذلك: حين يقول مقاتل لآخر: « ارْمِ سيفك » وهى تختلف عن قوله: «هات سيفك »، فَرَمْىُ السيف تجريد من القوة ، لكن أخذ السيف يعنى إضافة سيف آخر إلى ما يملكه المقاتل الذى أمر بذلك.

(١) الكبرياء : العظمة والملك . وهى عبارة عن كمال الذات وكمال الوجود ، ولا يوصف بها إلا الله تعالى . قال صاحب « القاموس القويم» : هى العظمة والتجبّر والسلطان والسيطرة ، وهى فى حق الله سبحانه العظمة الحق ، والسلطان القوى ، والسيطرة الكاملة » بتصرف .

وهم هنا وجدوا فى دعوة موسى عليه السلام مصيبة مركبة .

الأولى : هى ترك عقيدة الآباء .

والثانية : هى سلب الكبرياء ، أى : السلطة الزمنية والجاه والسيادة والعظمة والائتمار[(١)] ، والمصالح المقضية ، فكل واحد من بطانة[(٢)] الفرعون يأخذ حظه حسب اقترابه من الفرعون .

ولذلك أعلنوا عدم الإيمان ، وقالوا ما يُنهى به الحق سبحانه الآية الكريمة التى نحن بصددها :

﴿ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ (٧٨) ﴾ [يونس]

أى : أن قوم فرعون والملأ أقرُّوا بما حرصوا عليه من مكاسب الدنيا والكبرياء فيها ، ورفضوا الإيمان بما جاء به موسى وهارون - عليهما السلام .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ (٧٩) ﴾

وكان فرعون يعلم تقدُّم السحرة فى دولته ، ويكفى أنه شخصياً خَيَّل للناس أنه إله ، وجاء أمره أن يأتى أعوانه بالسحرة ، وفور أن قال الأمر جىء بالسحرة .

وأورد الحق سبحانه فى الآية التى بعد ذلك :

﴿ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ (٨٠) ﴾

---

(١) الائتمار : التشاور فى الأمر والتواصى به . ويسمى التشاور ائتماراً لأن المتشاورين يقبل بعضهم أمر بعض . ومنه قوله تعالى : ﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ .. (٢٠) ﴾ [القصص] . [القاموس القويم . وانظر تفسير ابن كثير ٣/ ٣٨٣] .

(٢) بطانة الرجل : خاصته . [لسان العرب : مادة (ب ط ن)] .

وكأن المسافة بين نطق فرعون بالأمر وبين تنفيذ الأمر هى أضيق مسافة وقتية ، وذلك حتى نفهم أن أمر صاحب السلطان لا يحتمل من الناس التأجيل أو التباطؤ فى التنفيذ.

والقرآن حينما يعالج أمراً من الأمور فهو يعطى صورة دقيقة للواقع ، ولا يأتى بأشياء تفسد الصورة.

يقول الحق سبحانه:

﴿ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [يونس]

وفى هذه الآية تلخيص للموقف كله ، فحين علم السحرة أن فرعون يحتاجهم فى ورطة [١] تتعلق بالحكم ، فهذه مسألة صعبة وقاسية ، وعليهم أن يسرعوا إليه.

ولم يأت الحق سبحانه هنا بالتفصيل الكامل لذلك الموقف؛ لأن القصة تأتى بنقاطها المختلفة فى مواضع أخرى من القرآن ، وكل آية توضح النقطة التى تأتى بذكرها [٢].

لذلك لم يقل الحق سبحانه هنا: إن أعوان فرعون نادوا فى المدائن [٣] ليأتى السحرة ، مثلما جاء فى مواضع أخرى من القرآن [٤].

---

(١) الورطة : الوحل تقع فيه الغنم فلا تقدر على التخلص منه . يقال : تورطت الغنم إذا وقعت فى ورطة ، ثم صار مثلاً لكل شدة وقع فيها الإنسان . وتورط فلان فى الأمر ، واستورط فيه : إذا ارتبك فيه ، فلم يسهل له المخرج منه . [لسان العرب : مادة (و ر ط)] .

(٢) وهذه ميزة القصص القرآنى فى الإشارة إلى قصصه عدا قصة يوسف عليه السلام .

(٣) المدائن : جمع مدينة ، وهى القرى الكبيرة . وقد ورد هذا الجمع فى القرآن خاصاً بقصة موسى ثلاث مرات ، أما المفرد منه فقد جاء ١٤ مرة منها ٤ مرات خاصة بمدينة الرسول ﷺ [التوبة : ١٠١ ، ١٢٠] [الأحزاب : ٦٠] [المنافقون : ٨] .

(٤) وذلك فى قوله تعالى عن سحرة فرعون : ﴿ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿١١١﴾ ﴾ [الأعراف] ، وقال تعالى : ﴿ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الشعراء] .

ولم يقل لنا إن السحرة أرادوا أن يستفيدوا من هذه المسألة ، وقالوا للفرعون [١] :

﴿ .. إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (١١٣) ﴾ [الأعراف]

ووَضْع مثل هذا الشرط يوضح لنا طبيعة العلاقات فى ذلك المجتمع ، فطلبهم للأجر ، يعنى أن عملهم مع الفرعون من قبل ذلك كان تسخيراً وبدون أجر ، ولما جاءتهم الفرصة ورأوا الفرعون فى أزمة ؛ طالبوا بالأجر .

ووعدهم فرعون بالأجر ، وكذلك وعدهم أن يكونوا مقرَّبين [٢] ؛ لأنهم لو انتصروا بالسحر على معجزة موسى ؛ ففى ذلك العمل محافظة وصيانة للمُلْك ، ولا بد أن يصبحوا من البطانة المستفيدة ، ووعدهم الفرعون بذلك شحذاً لهمتهم ليبادروا بإبطال معجزة موسى ؛ ليستقر عرش الفرعون .

وشاء الحق سبحانه الإجمال هنا فى هذه الآية - التى نحن بصدد خواطرنا عنها - وجاء ببقية اللقطات فى المواضع الأخرى من القرآن .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ (٨٠) ﴾ [يونس]

---

(١) فرعنة : الفرعنة الكبر والتجبر ، وفرعون الذى ذكر فى كتاب الله ترك صَرْفه فى قول بعضهم ؛ لأنه لا سمىَّ له وكإبليس فيمن أخذه من أبلسه . وقال ابن سيده : إن فرعون عَلَم أعجمى ، ولذلك لم يصرف . الجوهرى : فرعون لقب الوليد بن مصعب ملك مصر ، وكل عات فرعون ، والعتاة الفراعنة ، وقد تفرعن ، وهو ذو فرعنة أى دهاءً وتكبراً . وقيل : الفرعون بلغة القبط : التمساح (لسان العرب) وقيل فى القاموس القويم : فرعون لقب يسمى به كل ملك فى مصر فى الزمن القديم ، وفرعون موسى هو منفتاح ، وقيل رمسيس الثانى . والعبرة بالأحداث لا بذات فرعون ، قال تعالى : ﴿ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (٢٤) ﴾ [طه] والله أعلم .

(٢) وذلك أن السحرة عندما طلبوا الأجر بقولهم : ﴿ .. إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (١١٣) ﴾ [الأعراف] قال فرعون : ﴿ .. نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (١١٤) ﴾ [الأعراف] فزادهم القرب منه فوق الأجر ؛ لذلك جاء عقابه لهم شديداً بعدما اتبعوا موسى ؛ لأن ما وعدهم به كان عظيماً ، فجاء العقاب على قدره .

وألقى السحرة عِصِيَّهم وحبالهم .

ويقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك :

﴿ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾

ونحن نعلم أن الحق سبحانه هنا شاء الإجمال ، ولكنه بيَّن بالتفصيل ما حدث ، فى آية أخرى ، قال فيها سبحانه عن السحرة :

﴿ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾ [الأعراف]

ونحن نعلم أن المواجهة تقتضى من كل خصم أن يدخل بالرعب على خصمه ؛ ليضعف معنوياته .

وهنا أوضح لهم موسى - عليه السلام - أن ما أتوا به هو سحر ومجرد تخييل .

وقد أعلم الحق سبحانه نبيه موسى - عليه السلام - أن عصاه ستصير حية حقيقية ، بينما ستكون عصيهم وحبالهم مجرد تخييل (١) للعيون .

وقال لهم موسى - عليه السلام - حكم الله تعالى فى ذلك التخييل :

﴿ .. مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ [يونس]

---

(١) والخيال ما تشبَّه لك فى اليقظة أو فى النوم من صورة . والظل : ما يتصوره ذهنك من شىء - والخيال إحدى قوى العقل التى يتخيل بها الأشياء ، ويتصورها .
قال تعالى : ﴿ .. يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ ﴾ [طه] أى : تشبه له ، ويصور له بسبب سحرهم أنها تسعى كالحيات ، والحقيقة أنها ليست حيَّات ، ولكنه توهُّم وتخيُّل (القاموس القويم) .

وهكذا جاء القول الفصل الذى أنهى الأمر وأصدر الحكم فيما فعل فرعون ومَلَؤُه [١] والسحرة ، فكل أعمالهم كانت تفسد فى الأرض ، ولولا ذلك لما بعث الله سبحانه إليهم رسولاً مؤيَّداً بمعجزة من صنف ما برعوا فيه ، فهم كانوا قد برعوا فى السحر ، فأرسل إليهم الحق سبحانه معجزة حقيقية تلتهم ما صنعوا ، فإن كانوا قد برعوا فى التخييل ، فالله سبحانه خلق الأكوان بكلمة «كُنْ» وهو سبحانه يخلق حقائق لا تخييلات.

ولذلك يقول الحق سبحانه من بعد ذلك:

﴿ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ [٢] وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

فالمسألة التى يشاؤها سبحانه تتحقق بكلمة «كن» فيكون الشىء.

وقوله سبحانه وتعالى:

﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾ [يس]

و«كن فيكون» عبارة طويلة بعض الشىء عند وقوع المطلوب ، ولكن لا توجد عبارة أقصر منها عند البشر ؛ لأن الكاف والنون لهما زمن ، وما يشاؤه الله سبحانه لا يحتاج منه إلى زمن ، والمراد من الأمر «كن» أن الشىء يوجد قبل كلمة «كن» ؛ لأن كل موجود إنما يتحقق ويبرز بإرادة الله تعالى.

ويريد الحق سبحانه هنا أن يبيِّن لنا أن الحق إنما يأتى على ألسنة الرسل ، ومعجزاتهم دليل على رسالتهم ؛ ليضع أنوف المجرمين فى الرَّغام [٣] ،

(١) ملؤه: آل فرعون ومن يرجع إليهم.
(٢) يحق: يثبت ويظهر. بكلماته: بمواعيده [تفسير الجلالين : ص ١٨٦].
(٣) الرغام: التراب. والمراد: إذلالهم وعقابهم على عصيانهم وإجرامهم.

وليريح العالم من إضلالهم ومن مفاسدهم .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ (١) مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ (٢) أَن يَفْتِنَهُمْ (٣) ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ (٤) وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ (٥) ﴿٨٣﴾ ﴾

وإذا كان السحرة - وهم عُدَّة فرعون وعتاده لمواجهة موسى - أعلنوا الإيمان ، فعاقبهم الفرعون وقال :

﴿ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ..﴿٧١﴾ ﴾ [طه]

فهذا يدل على أن فكرة الألوهية كانت ما تزال مسيطرة على عقله ؛ ولذلك خاف الناس من إعلان الإيمان ؛ ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿ فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ ..﴿٨٣﴾ ﴾ [يونس]

وكلمة «ذرية» تفيد الصغار الذين لم تلمسهم خميرة من الفساد الذى كان منتشراً ، كما أن الصغار يتمتعون بطاقة من النقاء ، ويعيشون فى خُلُوٍّ من المشاكل ، ولم يصلوا إلى مرتبة السيادة التى يُحْرَصُ عليها ، ومع ذلك فهم قد آمنوا :

---

(١) ذرية : طائفة (جماعة) من أولاد قوم فرعون [تفسير الجلالين ص ١٨٦] . وقيل : من بنى إسرائيل [مختصر تفسير الطبرى : ص ٢٣٩] .

(٢) ملئهم : آل فرعون والمقربون منه والموافقون له .

(٣) يفتنهم : يصرفهم عن دينهم بتعذيبه لهم .

(٤) عال فى الأرض : جبار مستكبر . والمراد بالأرض هنا أرض مصر .

(٥) المسرفين : المتجاوزين الحد بادعاء الربوبية . [تفسير الجلالين : ص ١٨٦] .

﴿ عَلَىٰ خَوْفٍ[1] مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ .. (٨٣) ﴾ [يونس]

وكلمة ﴿عَلَىٰ خَوْفٍ﴾ تفيد الاستعلاء ، مثل قولنا : «على الفرس» أو «على الكرسى» ويكون المستعلى فى هذه الحالة متمكّناً من «المستعلى عليه» ؛ ومن يستعلى إنما يركب المستعلى ، ويحمل المستعلى العبء .

ولكن من استعمالات «على» أنها تأتى بمعنى «مع» .

ومثال ذلك هو قول الحق سبحانه :

﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ ..(٨) ﴾ [الإنسان]

أى : يطعمون الطعام مع حبه .

وحين يأتى الحق سبحانه بحرف مقام حرف آخر فلا بد من علة لذلك .

ومثال ذلك هو قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ فَلأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ ..(٧١) ﴾ [طه]

جاء الحق سبحانه بالحرف «فى» بدلاً من «على» ؛ ليدل على أن عملية الصلب ستكون تصليباً قوياً ، بحيث تدخل أجزاء المصلوب فى المصلوب فيه .

وكذلك قول الحق سبحانه وتعالى :

---

(١) الخوف هو الفزع لتوقع حدوث مكروه ، أو فوت أمر محبوب ، والخوف ضد الأمن ، قال تعالى : ﴿ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ (٤) ﴾ [قريش] وقال : ﴿ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٨٢) ﴾ [البقرة] أى : فزع لتوقعه ظلم الموصى وجوره خوَّفه جعله يخاف . قال تعالى : ﴿ ..وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ طُغْيَانًا كَبِيرًا (٦٠) ﴾ [الإسراء] وخوفه فلاناً أى : جعله يخافه يتعدى لمفعولين قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ .. (١٧٥) ﴾ [آل عمران] .

﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ ..(٨) ﴾ [الإنسان]

فكأنهم هم المستعلون على الحب؛ ليذهب بهم حيث يريدون .

وكذلك قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ عَلَىٰ خَوْفٍ .. (٨٣) ﴾ [يونس]

أى: أنهم فوق الخوف يسير بهم إلى دهاليز توقُّع الآلام [1] .

وهم هنا آمنوا : ﴿ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ..(٨٣) ﴾ [يونس]

والكلام هنا من الحق الأعلى سبحانه يبيِّن لنا أن الخوف ليس من فرعون؛ لأن فرعون إنما يمارس التخويف بمن حوله ، فمثلهم مثل زُوَّار الفجر فى أى دولة لا تقيم وزناً لكرامة الإنسان .

وفرعون فى وضعه ومكانته لا يباشر التعذيب بنفسه، بل يقوم به زبانيته.

والإشارة هنا تدل على الخوف من شيعة فرعون وملئهم.

وقال الحق سبحانه هنا: ﴿ يَفْتِنَهُمْ ﴾ ، ولم يقل: «يفتنوهم»؛ ليدلنا على ملحظ أن الزبانية لا يصنعون التعذيب لشهوة عندهم ، بل يمارسون التعذيب لشهوة عند الفرعون.

---

(١) من معانى الحرف (على): الاستعلاء؛ وهو أكثر معانيه استعمالاً، نحو قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ .. (٢٥٣) ﴾ [البقرة] . والظرفية؛ نحو قوله تعالى: ﴿ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا ..(١٥) ﴾ [القصص] أى: فى حين غفلة . والمصاحبة؛ نحو قوله تعالى: ﴿ .. وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ (٦) ﴾ [الرعد] أى: مع ظلمهم؛ ونحو قوله تعالى: ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (٨) ﴾ [الإنسان]. أى : مع حبهم للمال. ومن معانيها أيضاً: أن تكون بمعنى (من) نحو قوله تعالى: ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ (١) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) ﴾ [المطففين] أى: من الناس . ومن معانى (على) أيضاً: المجاوزة، والتعليل، والإضراب، وأن تكون بمعنى الباء. انظر تفصيل ذلك فى [النحو الوافى: (٢/ ٥٠٩ - ٥١٢)].

وهكذا جاء الضمير مرة جمعاً ، ومرة مفرداً؛ ليكون كل لفظ فى القرآن جاذباً لمعناه.

وحين أراد المفسرون أن يوضحوا معنى (ذرية) قالوا [(١)] : إن المقصود بها امرأة فرعون (آسية) ، وخازن فرعون ، وامرأة الخازن ، وماشطة فرعون ، ومَنْ آمن مِنْ قوم موسى - عليه السلام - وكتم إيمانه.

كل هؤلاء منعتهم خشية عذاب فرعون من إعلان الإيمان برسالة موسى؛ لأن فرعون كان جَبَّاراً فى الأرض، مدّعياً للألوهية ، وإذا ما رأى فرعون إنساناً يخدش ادعاءه للألوهية ؛ فلا بد أن يبطش به بطشة فاتكة.

لذلك كانوا على خوف من هذا البطش ، فقد سبق وأن ذبح فرعون - بواسطة زبانيته - أبناء بنى إسرائيل واستحيا نساءهم [(٢)] ، وهم خافوا من هؤلاء الزبانية الذين نفَّذوا ما أراده فرعون.

ولذلك جاء الضمير مرة تعبيراً عن الجمع فى قوله سبحانه وتعالى:

﴿ ومَلَئِهِمْ .. (٨٣) ﴾ [يونس]

وجاء الضمير مفرداً معبراً عن فرعون الآمر فى قوله سبحانه وتعالى:

﴿ أَن يَفْتِنَهُمْ ..(٨٣) ﴾ [يونس]

---

(١) هذا قول ابن عباس ، ذكره القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٢٩٦) وعلى هذا يكون الضمير فى ﴿قَوْمِهِ﴾ عائداً على فرعون. وقد ذكر القرطبى قولاً آخر - ونسبه للفرَّاء - يجعل الضمير يحتمل عوده على موسى وفرعون فى نفس الوقت، باعتبار أن الذرية أقوام آباؤهم من القبط أى : آل فرعون وأمهاتهم من بنى إسرائيل.

(٢) استحياء النساء: أى : تركهم أحياء. وقد كان بنو إسرائيل واقعين تحت الإيذاء والاستضعاف من قبل أن يأتيهم موسى، فبطش فرعون بهم كان مستمراً، ولذلك قالوا لموسى: ﴿قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِينَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ..(١٢٩)﴾ [الأعراف] ، وقد قال سبحانه عن فترة إيذاء فرعون لبنى إسرائيل قبل مجىء موسى: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِى الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِى نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٤) ﴾ [القصص].

فهم خافوا أن يفتنهم فرعون بالتعذيب الذى يقوم به أعوانه.

والحق سبحانه وتعالى هو القائل:

﴿ .. وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ (٨٣) ﴾ [يونس]

والمسرف: هو الذى يتجاوز الحدود. وهو قد تجاوز فى إسرافه وادَّعى الألوهية.

وقد قال الحق سبحانه ما جاء على لسان فرعون:

﴿ ..أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ (٢٤) ﴾ [النازعات]

وقال الحق سبحانه أيضاً:

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰأَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِى.. (٣٨) ﴾[القصص]

وعلا فرعون فى الأرض علوَّ طاغية من البشر على غيره من البشر المستضعفين.

وقال الحق سبحانه على لسان فرعون:

﴿ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ [١] وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِى مِن تَحْتِى ..(٥١) ﴾[الزخرف]

إذن: فقد كان فرعون مسرفاً أشد الإسراف.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَـٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ (٨٤) ﴾

---

(١) المصر: البلد العظيم، قال تعالى: ﴿ اهْبِطُوا مِصْرًا.. (٦١) ﴾ [البقرة] أى: بلداً عظيماً كبيراً.
ومصر بغير تنوين هى بلادنا العزيزة، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِى اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لامْرَأَتِهِ .. (٢١) ﴾ [يوسف] [القاموس القويم].

وهنا شرطان ، فى قوله تعالى :

﴿ إن كنتم آمنتم بالله ..(٨٤) ﴾ [يونس]

وجاء جواب هذا الشرط فى قوله سبحانه :

﴿ فعليه توكلوا ..(٨٤) ﴾ [يونس]

ثم جاء بشرط آخر هو : ﴿ إن كنتم مسلمين ..(٨٤) ﴾ [يونس]

وهكذا جاء الشرط الأول وجوابه ، ثم جاء شرط آخر ، وهذا الشرط الآخر هو الشرط الأول وهو الإسلام لله ؛ لأن الإيمان بالله يقتضى الإسلام وأن يكونوا مسلمين.

ومثال ذلك فى حياتنا : حين يريد ناظر إحدى المدارس أن يعاقب تلميذاً خالف أوامر المدرسة ونظمها ، ويستعطف التلميذ الناظر ، فيرد الناظر على هذا الاستعطاف بقوله : «إن جئت يوم السبت القادم قَبِلتك فى المدرسة إن كان معك ولىُّ أمرك» ؛ ومجىء ولى الأمر هنا مرتبط بالموعد الذى حدده الناظر لعودة التلميذ لصفوف الدراسة ، وهكذا نجد أن الشرط الآخر مرتبط بالشرط الأول.

وهنا يتجلَّى ذلك فى قول الحق سبحانه :

﴿ .. إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين [1] (٨٤) ﴾ [يونس]

والإيمان - كما نعلم - عملية وجدانية قلبية ، والإسلام عملية ظاهرية ، فمرة ينفذ الفرد تعاليم الإسلام [2] ، وقد ينفك مرة أخرى من

---

(١) لأنه لا إيمان موصول إلا بالإسلام ، ولا إسلام واصل إلا بالإيمان ، فبينهما تلازم حقيقى لبلوغ المراد .

(٢) الإسلام هو الانقياد لله تعالى ولما جاء به الرسول ﷺ من الشرائع والأحكام ، فهو الانقياد الظاهرى لجميع أحكام الإسلام أما الإيمان فهو اعتقاد القلب وتصديقه الجازم الذى لا يدخله شك ، قال تعالى : ﴿ قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئا ..(١٤) ﴾ [الحجرات] .

تنفيذ التعاليم رغم إيمانه بالله ، ومرة تجد واحداً ينفذ تعاليم الإسلام نفاقاً من غير رصيد من إيمان .

ولذلك نجد الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ .. (٢٥) ﴾ [البقرة]

ونجده سبحانه يبيِّن هذا الأمر بتحديد قاطع فى قوله تعالى :

﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا .. (١٤) ﴾ [الحجرات]

والإيمان عملية قلبية ؛ لذلك يأتى الأمر الإلهى :

﴿ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِى قُلُوبِكُمْ .. (١٤) ﴾ [الحجرات]

أى : أنكم تؤدون فروض الإسلام الظاهرية ، لكن الإيمان لم يدخل قلوبكم بعد .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا .. (٨٤) ﴾ [يونس]

وهكذا نرى أن التوكل مطلوب الإيمان ، وأن يُسلم الإنسان زمامه فى كل أمر إلى مَنْ آمن به؛ ولذلك لا ينفع الإيمان إلا بالإسلام ، فإن كنتم مسلمين مع إيمانكم فتوكلوا على الله تعالى .

لكن إن كنتم قد آمنتم فقط ولم تسلموا الزمام لله فى التكاليف إلى الله فى «افعل» و «لا تفعل» ، فهذا التوكل لا يصلح .

وهكذا يتأكد لنا ما قلناه من قبل من أنك إذا رأيت أسلوباً فيه شرط تقدم ، وجاء جواب بعد الشرط ، ثم جاء شرط آخر ، فاعلم أن الشرط

الأخير هو المقدَّم ؛ لأنه شرط فى الشرط الأول [(١)] ، وبالمثل هنا فإن التوكل لن ينشأ إلا بالإسلام مع الإيمان.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً [(٢)] لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ [(٣)] ﴿٨٥﴾ ﴾

أى: أنهم استجابوا لدعوة موسى - عليه السلام - بمجرد قولهم : ﴿ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ .

وإذا تقدم الجار على المجرور فمعنى ذلك قَصْر وحَصْر الأمر ، وهنا قصر وحصر التوكل على الله تعالى ، ولا توكل على سواه.

ويأتى بعد ذلك دعاؤهم :

﴿ ..رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [يونس]

والفتنة: اختبار ، وهى - كما قلنا من قبل - ليست مذمومة فى ذاتها ، بل المذموم أن تكون النتيجة فى غير صالح من يمر بالفتنة.

ويقال: فتنت الذهب ، أى: صهرت الذهب ، واستخلصته من كل

(١) يجوز أن تتوالى أداتان - أو أكثر - من أدوات الشرط ، باتصال مباشر ، أو غير مباشر . والتوالى مع الاتصال المباشر يكون الاعتبار فيه للأداة الأولى ؛ فهى وحدها التى تحتاج لشرط وجواب. أما التوالى مع الاتصال غير المباشر فتكون لكل أداة جملتها الفعلية الشرطية التى تليها مباشرة ، وتفصل بينها وبين الأداة الشرطية التى بعدها وتحتاج كل أداة بعد هذا إلى جملة جوابية تخضع لعدة أحكام ، منها أنه إذا كان التوالى بغير عطف فالجواب للأداة الأولى وحدها ما لم تقم قرينة تعين غيرها. أما باقى الأدوات التالية فجواب أى منها محذوف لدلالة جواب الأداة الأولى عليه . انظر تفصيل ذلك فى [النحو الوافى: ٤/ ٤٨٩ ، ٤٩٠].

(٢) فتنة : موضع عذاب. [كلمات القرآن : للشيخ حسنين محمد مخلوف].

(٣) لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين : أى : لا تظهرهم علينا فيظنوا أنهم على الحق ؛ فيفتتنوا بنا . [تفسير الجلالين : ص ١٨٦].

الشوائب ، ونحن نعلم أن صُنَّاع الذهب يخلطونه بعناصر أخرى ؛ ليكون متماسكاً ؛ لأن الذهب غير المخلوط بعناصر أخرى لا يتماسك.

والفتنة التى قالوا فيها :

﴿ ..رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٨٥) ﴾ [يونس]

هى فتنة الخوف من أن يرتد بعضهم عن الإيمان لو انتصر عليهم فرعون وعذَّبهم ، وكأنهم يقولون : يا رب لا تسلّط علينا فرعون بعذاب شديد.

هذا إن كانوا مفتونين ، فماذا إن كانوا هم الفاتنين؟

إنهم فى هذه الحالة لو لم يتبعوا الدين التتبع الحقيقى لما علم فرعون وآله أن هؤلاء الذين أعلنوا الإيمان هم مسلمون بحق ، وهم لو انحرفوا عن الدين لقال عنهم آل فرعون : إنهم ليسوا أهل إيمان حقيقى.

ونجد سيدنا إبراهيم - عليه السلام - وهو أبو الأنبياء وله قدره العظيم فى النبوة ، يقول :

﴿ رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا ..(٥) ﴾ [الممتحنة]

ودعوة إبراهيم عليه السلام تعلمنا ضرورة التمسك بتعاليم الدين؛ حتى لا ينظر أحد إلى المسلم أو المؤمن ويقول : هذا هو من يعلن الإيمان ويتصرف عكس تعاليم دينه.

ولذلك كان سيدنا إبراهيم - عليه السلام - يؤدى الأوامر بأكثر مما يطلب منه ، ويقول فيه الحق سبحانه :

﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ [1] ..(١٢٤) ﴾ [البقرة]

أى : أنه كان يتم كل عمل بنية وإتقان؛ لأنه أسوة [2] ، فلم يقم بعمل

(١) ابتلى : اختبر. بكلمات : بأوامر ونواه كلّفه الله بها.
(٢) أسوة : قدوة حسنة.

إيمانى بمظهر سطحى.

إذن: فإن كانوا هم المفتونين، فهم يدفعون الفتنة عن أنفسهم، وإن كانوا هم الفاتنين؛ فعليهم التمسك بتعاليم الدين؛ حتى لا يتهمهم أحد بالتقصير فى أمور دينهم، فيزداد الكافرون كفراً وضلالاً.

وجاء قول الحق سبحانه:

﴿ ..رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٨٥) ﴾ [يونس]

ليدل على انشغالهم بأمر الدين، فاتنين أو مفتونين.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ (٨٦) ﴾

وهنا توضح الآية الكريمة أنهم إن كانوا مشغولين بأمر الغير من الكافرين فهذا يعنى أنهم طمعوا فى إيمان العدو؛ لعل هذا العدو يعود إلى رشد الإيمان.

ورسول الله ﷺ يقول: « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[1].

وهم أرادوا إيمان العدو رغم أنه ظالم.

وهكذا يعلّم الحق - سبحانه وتعالى - الخلق أنه من حُمْق العداوة أن يدعو الإنسان على عدوِّه بالشر؛ لأن الذى يتعبك من عدوك هو شرُّه، ومن صالحك أن تدعو له بالخير؛ لأن هذا الخير سيتعدى إليك.

---

(١) متفق عليه. أخرجه البخارى فى صحيحه (١٣)، ومسلم فى صحيحه (٤٥) كتاب الإيمان عن أنس بن مالك بلفظ: « والذى نفسى بيده، لايؤمن عبد حتى يحب لجاره - أو قال: لأخيه - ما يحب لنفسه ».

وعلى المؤمن أن يدعو لعدوه بالهداية ، لأنه حين يهتدى ؛ فلسوف يتعدَّى النفع إليك ، وهذه من مميزات الإيمان أن نفعه يتعدَّى إلى الغَيْر.

وهم حين دعوا ألاَّ يجعلهم الله فتنةً للقوم الظالمين ، فإن ذلك يوضّح لنا أن الظلم درجاتٌ ، وأن فرعون وملأه كانوا فى قمة الظلم ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى هو القائل :

﴿ ..إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ ﴾ [لقمان]

فقمة الظلم أن تأخذ حَقَّ الغير وتعطيه لغير صاحب الحق. وفرعون وملؤه أشركوا بالله - سبحانه وتعالى - فظن فرعون أنه إله ، وصدَّقه من حوله .

فقمة الظلم هو الشرك بالله سبحانه ، ثم بعد ذلك يتنزل إلى الظلم فى الكبائر ، ثم فى الصغائر .

وقولهم فى دعائهم للحق سبحانه :

﴿ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ [يونس]

أى : اجعلنا بنجوةٍ[1] من هؤلاء .

وكان الذى يخيف الأقدمين هو سيول المياه ، حين تتدفَّق ، ولا ينجو إلا مَنْ كان فى ربوةٍ عالية - والنجوة هى المكان المرتفع - وهذا هو أصل كلمة "النجاة" .

وهنا يقول الحق سبحانه على لسانهم :

﴿ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ [يونس]

---

(١) النجوة : المرتفع من الأرض . ويقال : هو بنجوة من هذا الأمر : أى : بعيد عنه برىء سالم . [المعجم الوسيط : مادة (ن ج و)].

والرحمة هى الوقاية من أن يجىء الداء .

والحق سبحانه يقول :

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ .. (٨٢) ﴾ [الإسراء]

والشفاء إذا وُجد الدّاء ، والرحمة هى ألاّ يجىء الداء .

وأراد الحق سبحانه أن يكرم - بعد ذلك - موسى عليه السلام وقومه فقال سبحانه وتعالى :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا (١) لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (٨٧) ﴾

وأوضحنا من قبل أن موسى وهارون عليهما السلام رسولان برسالة واحدة.، وأن الوَحْى قد جاء للاثنين برسالة واحدة .

فالحق سبحانه ساعة يختار نبيّاً رسولاً ، فإنما يختاره بتكوينٍ وفطرةٍ تؤهّله لحَمْل الرسالة والنطق بمرادات الله تعالى .

وإذا كان الخَلْق قد صنعوا آلات ذاتية الحركة من مواد جامدة لا فكر لها

---

(١) تبوءا : اتخذا واجعلا . قبلة : مصلى تصلون فيه لتأمنوا من الخوف . وكان فرعون قد منعهم من الصلاة . أقيموا الصلاة : أتموها . وبشر المؤمنين : بالنصر والجنة . [تفسير الجلالين : ص ١٨٦].
وذكر ابن كثير فى تفسيره (٢/ ٤٢٨ ، ٤٢٩) : أن الله تعالى أمر موسى وأخاه هارون عليهما السلام أن يتبوّءا أى : يتخذا لقومهما بمصر بيوتاً ، واختلف المفسرون فى معنى قوله تعالى : ﴿ وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً .. (٨٧) ﴾ فعن ابن عباس : قال : أمروا أن يتخذوها مساجد . وعن إبراهيم النخعى قال : كانوا خائفين فأمروا أن يصلوا فى بيوتهم ، وكذا قال غير واحد من علماء التفسير ، وكان هذا والله أعلم لما اشتد بهم البلاء من قبل فرعون وقومه وضيقوا عليهم أمروا بكثرة الصلاة كقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ .. (١٥٣) ﴾ [البقرة]. وقال سعيد بن جبير فى تفسير هذه الآية : (قبلة) أى : يقابل بعضها بعضاً . [من تفسير ابن كثير .. بتصرف].

ولا رَوِيّة [1] ، مثل الساعة التى تُؤذِّن ، أو المذياع الذى يذيع فى توقيت محدد ، إذا كان البشر قد صنعوا ذلك فما بالنا بالله سبحانه الخالق لكل الخلق والكون ومرسل الرسل؟

إنه سبحانه وتعالى يختار رسله بحيث يسمح تكوين الرسول أن يؤدى المهمة الموكولة إليه فى أى ظرف من الظروف .

وقول الحق سبحانه هنا :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ .. ﴿٨٧﴾ ﴾ [يونس]

يبيِّن لنا أن الوحى شمل كلاً من موسى وهارون عليهما السلام ، بحيث إذا جاء موقف من المواقف يقتضى أن يتكلم فيه موسى ، فهارون أيضاً يمكن أن يتكلم فى نفس الأمر؛ لأن الشحنة الإيمانية واحدة ، والمنهج واحد .

وقد حدث ذلك بعد أن غرق فرعون وقومه ، وخلا لهم الجو ، فجاء لهم الأمر أن يستقروا فى مصر ، وأن يكون لهم فيها بيوت .

ولكن لنا أن نسأل :

هل فرعون هذا هو شخص غرق وانتهى؟

لا .. إن فرعون ليس اسماً لشخص ، بل هو تصنيف لوظيفة ، وكان لقب كل حاكم لمصر قديماً هو «فرعون» ؛ لذلك لا داعى أن نشغل أنفسنا : هل هو تحتمس الأول ؟ أو رمسيس؟ أو ما إلى ذلك؟ فهب أن فرعون المعنىَّ هنا قد غرق ، ألا يعنى ذلك مجىء فرعون جديد ؟

نحن نعلم من التاريخ أن الأسر الحاكمة توالت ، وكانوا فراعنة ، وكان منهم من يضطهد المؤمنين ، ولا بد أن يكون خليفة الفرعون أشد ضراوة وأكثر شحنةً ضد هؤلاء القوم .

---

(١) الروية : النظر والتفكير فى الأمور، وهى خلاف البديهة [المعجم الوسيط : مادة (ر و ى)].

وقول الحق سبحانه وتعالى فى الآية الكريمة التى نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا[1] لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا .. (٨٧) ﴾ [يونس]

نجد فيه كلمة « مصر »[2] وهى إذا أطلقت يُفهم منها أنها « الإقليم » .

ونحن هنا فى بلدنا جعلنا كلمة « مصر » علماً على الإقليم الممتد من البحر المتوسط إلى حدود السودان ، أى : وادى النيل .

ومرة أخرى جعلنا من « مصر » اسماً لعاصمة وادى النيل .

ونحن نقول أيضاً عن محطة القطارات فى القاهرة : « محطة مصر » .

وقول الحق سبحانه هنا :

﴿ .. أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا (٨٧) ﴾ [يونس]

نفهم منه أن التبوُّء هو اتخاذ مكان يعتبر مباءةً[3] ؛ أى : مرجعاً يبوء الإنسان إليه .

التبوُّء - إذن - هو التوطن فى مكان ما ، والإنسان إذا اتخذ مكاناً كوطن له فهو يعود إليه إن ذهب إلى أى بلد لفترة .

---

(١) تبوأ : نزل وسكن .

(٢) ورد اسم «مصر» فى القرآن الكريم أربع مرات علماً على مصر فرعون فى قوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا .. (٨٧) ﴾ [يونس] . وفى قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ .. (٢١) ﴾ [يوسف] . وفى قوله تعالى : ﴿ .. وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ (٩٩) ﴾ [يوسف] . وفى قوله تعالى : ﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ .. (٥١) ﴾ [الزخرف] . أما قوله تعالى : ﴿ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ .. (٦١) ﴾ [البقرة] فقد وقعت فيها كلمة مصر منونة ، دلالة على أنه ليس المقصود بها مصر فرعون العلم الأعجمى الذى يُمنع من الصرف والتنوين ، فهى مصر من الأمصار أى : بلد من البلاد .

(٣) المباءة : المكان الذى ينزل به الإنسان ويسكن فيه . [لسان العرب : مادة (ب و أ) - بتصرف] .

ويعتبر الخروج من الوطن مجرد رحلة تقتضى العودة ، وكذلك البيت بالنسبة للإنسان ؛ فالواحد منا يطوف طوال النهار فى الحقل أو المصنع أو المكتب ، وبعد ذلك يعود إلى البيت للبيتوتة [١] .

والبيوت التى أوصى الله سبحانه وتعالى بإقامتها لقوم موسى وهارون - عليهما السلام - كان لها شرط هو قول الحق سبحانه :

﴿ وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً ..(٨٧) ﴾ [يونس]

والقِبلة هى المتجَه الذى نصلى إليه .

ومثال ذلك : المسجد ، وهو قبلة مَنْ هو خارجه ، وساعة ينادى المؤذن للصلاة يكون المسجد هو قبلتنا التى نذهب إليها ، وحين ندخل المسجد نتجه داخله إلى القبلة ، واتجاهنا إلى القبلة هو الذى يتحكم فى وضعنا الصفِّى .

والأمر هنا من الحق سبحانه :

﴿ وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ ..(٨٧) ﴾ [يونس]

فإقامة البيوت هنا مشروطة بأن يجعلوا بها قبلة لإقامة الصلاة بعيداً عن أعين الخصوم الذين يضطهدونهم ، شأنهم شأن المسلمين الأوائل حينما كان الإسلام - فى أوليته - ضعيفاً بمكة ، وكان المسلمون حين ذاك يصلون فى قلب البيوت ، وهذا هو سر عدم الجهر بالصلاة نهاراً ، وعدم الجهر يفيد فى ألا ينتبه الخصوم إلى مكان المصلين .

وأما الجهر بالصلاة ليلاً وفجراً ، فقد كان المقصود به أن يعلمهم كيفية قراءة القرآن .

---

(١) البيتوتة : مصدر للفعل بات يبيت ، حيث إن البيت هو محل البيات والمبيت . [لسان العرب : مادة (ب ى ت) - بتصرف] .

وهنا يقول الحق سبحانه:

﴿ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً ..(٨٧) ﴾ [يونس]

وقد يكون المقصود بذلك أن تكون البيوت متقابلة.

وإلى يومنا هذا أنت إن نظرت إلى ساحات [(١)] اليهود فى أى بلد من بلاد الدنيا تجد أنهم يقطنون حيّاً واحداً، ويرفضون أن يذوبوا فى الأحياء الأخرى..

ففى كل بلد لهم حى يسكنون فيه، ويسمى باسم «حى اليهود». وكانت لهم فى مصر «حارات» كل منها تسمى باسم «حارة اليهود».

وقد شاء الحق - سبحانه وتعالى - ذلك وقال فى كتابه العزيز:

﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ .. (٦١) ﴾ [البقرة]

وهم يحتمون بتواجدهم معاً، فإن حدث أمر من الأمور يفزعهم؛ يصبح من السهل عليهم أن يلتقوا.

أو ﴿ وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً ..(٨٧) ﴾ [يونس]

أى: أن يكون تخطيط الأماكن والشوارع التى تُبنى عليها البيوت فى اتجاه القبلة.

وأى خطأ معمارى مثل الذى يوجد فى تربيعة بناء مسجد الإمام الحسين بالقاهرة، هذا الخطأ يوجب الاتجاه إلى اليمين قليلاً مما يسبب بعض

---

(١) الساحات: جمع ساحة وهى الناحية من البيوت. وهى أيضاً فضاء يكون بين بيوت الحى. وساحة الدار: باحتها. [اللسان مادة: س و ح] ومنه قوله تعالى: ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (١٧٦) فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ (١٧٧) ﴾ [الصافات] أى: بالمحلة أو الديار التى يسكنونها.

الارتباك للمصلين؛ لأن الانحراف قليلاً إلى اليمين فى أثناء الصلاة يقتضى أن يقصر كل صف خلف الصف الآخر.

وحين نصلى فى المسجد الحرام بمكة ، نجد بعضاً من المصلين يريدون مساواة الصفوف ، وأن تكون الصفوف مستقيمة ، فنجد من ينبه إلى أن الصف يعتدل بمقدار أطول أضلاع الكعبة، ثم ينحنى الصف.

وكذلك فى الأدوار العليا التى أقيمت بالمسجد الحرام نجد الصفوف منحنية متجهة إلى الكعبة.

ولذلك أقول دائماً حين أصلى بالمسجد الحرام: إن معنى قول الإمام: «سووا صفوفكم» أى: اجعلوا مناكبكم[1] فى مناكب بعضكم البعض ، أما خارج الكعبة فيكفى أن نتجه إلى الجهة التى فيها الكعبة ، ونحن خارج الكعبة لا نصلى لعين الكعبة ، ولكننا نصلى تجاه الكعبة؛ لأننا لو كنا نصلى إلى عين الكعبة لما زاد طول الصف فى أى مسجد عن اثنى عشر متراً وربع المتر ، وهو أطول أضلاع الكعبة.

وقول الحق سبحانه هنا:

﴿ وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً[2] .. (٨٧) ﴾ [يونس]

أى: خططوا فى إقامة البيوت أن تكون على القبلة ، وبعض الناس يحاولون ذلك ، لكن تخطيط الشوارع والأحياء لا يساعد على ذلك.

ثم يقول الحق سبحانه:

---

(١) المناكب: جمع منكب ، وهو مجتمع عظم العضد والكتف. [لسان العرب: مادة (ن ك ب)].

(٢) القبلة: الوجهة. قال تعالى: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ .. (١٤٤) ﴾ [البقرة] ، وهى الجهة التى نتجه إليها فى صلاتنا. ومعنى الآية هنا أن يبنوا بيوتهم ، مواجهة للقبلة. أو: اجعلوها قبلة للناس يتجهون إليها لنيل الخير.

﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ .. (٨٧) ﴾ [يونس]

وهذا الأمر نفهم منه أن الصلاة فيها استدامة الولاء [1] لله تعالى ، فنحن نشهد ألا إله إلا الله مرة واحدة فى العمر ، ونُزكِّى - إن كان عندنا مال - مرة واحدة فى السنة ، ونصوم - إن لم نكن مرضى - شهراً واحداً هو شهر رمضان ، ونحج - إن استطعنا - مرة واحدة فى العمر.

ويبقى ركن الصلاة ، وهو يتكرر كل يوم خمس مرات ، وإن شاء الإنسان فَلْيَزِد ، وكأن الحق سبحانه وتعالى هنا ينبه إلى عماد الدين وهى الصلاة.

ولكن مَن الذى اختار المكان فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها ؟ هل هو موسى وأخوه هارون ؟ أم أن الخطاب لكل القوم ؟

نلحظ هنا أن الأمر بالتبوّء هو لموسى وهارون - عليهما السلام - أما الأمر بالجعل فهو مطلوب من موسى وهارون والأتباع ؛ لذلك جاء الجعل هنا بصيغة الجمع.

ويُنهى الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله :

﴿ .. وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (٨٧) ﴾ [يونس]

وفى هذا تنبيه وإشارة إلى أن موسى هو الأصل فى الرسالة ؛ لذلك جاء له الأمر بأن يحمل البشارة للمؤمنين.

ونلحظ هنا فى هذه الآية أن الحق سبحانه جاء بالتثنية فى التبوء ، وجاء بالجمع فى جعل البيوت ، ثم جاء بالمفرد فى نهاية الآية لينبهنا إلى أن موسى - عليه السلام - هو الأصل فى الرسالة إلى بنى إسرائيل.

---

(١) الولاء : الحب والنصرة . يقول سبحانه : ﴿ وَمَا لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٣٤) ﴾ [الأنفال] .

والبشرى على الأعمال الصالحة تعنى : التبشير بالجنة .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ (١) وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ (٢) فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ (٣) ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ ﴾

والزينة : هى الأمر الزائد عن ضروريات الحياة ومقوماتها الأولى ، فاستبقاء الحياة يكون بالمأكل لأى غذاء يسدُّ الجوع ، وبالمشرب الذى يروى العطش .

أما إن كان الطعام منوَّعاً فهذا من ترف الحياة ، ومن ترف الحياة الملابس التى لا تستر العورة فقط ، بل بالزى الذى يتميز بجودة النسج والتصميم والتفصيل .

وكذلك من ترف الحياة المكان الذى ينام فيه الإنسان ، بحيث يتم تأثيثه

---

(١) اطمس على أموالهم : قال ابن عباس ومجاهد : أى : أهلكها . وقال الضحاك وآخرون : جعلها الله حجارة منقوشة .

(٢) واشدد على قلوبهم : اطبع عليها . وهذه الدعوة كانت من موسى عليه السلام غضباً لله ولدينه ، على فرعون وملئه الذين تبين له أنهم لا خير فيهم ولا يجىء منهم شىء . [ذكره ابن كثير فى تفسيره : ٢/ ٤٢٩].

(٣) رأى : نظر بعينه كأبصر . ورأى بفكره وقلبه بمعنى : علم . ورأى : اعتقد . ورأى فى نومه رؤيا : حلم . والرؤيا : الحلم فى النوم . ورأى : هنا هى البصرية . أى : حتى يروا العذاب بأعينهم ويعاينوه معاينة .

بفاخر الرياش[1] ، ولكن الضرورة فى النوم يكفى فيها مكان على الأرض ، وأى فراش يقى من برودة الأرض أو حرارتها.

إذن : فالزائد عن الضرورات هو زينة الحياة ، والزينة تأتى من الأموال، والرصيد الأصيل فى الأموال هو الذهب ، ثم تأخذ الفضة المرتبة الثانية.

ومن مقومات الاقتصاد أن الذهب يعتبر قيمة الرصيد لغنى أية دولة ، مهما اكتشفوا من أحجار أغلى من الذهب.

وهذه الأحجار الكريمة - كالماس مثلاً - إن كُسرت أو خُدشت تقل قيمتها ، لكن الذهب مهما تفتَّت فأنت تعيد صَهْرَه ، فتستخلَص ذهباً مُجمَّعاً.

وكان الفراعنة الأقدمون يحكمون مصر حتى منابع النيل ، وكانوا يسخِّرون الناس فى كل الأعمال ، حتى استخراج الذهب سواء من المناجم أو من غربلة رمال بعض الجبال لاستخلاص الذهب منها .

وأنت قد تستطيع استخلاص الذهب من أماكن معينة ، ولكن الفرق دائماً إنما يكون فى القيمة الاقتصادية لاستخراج الذهب ، فحين يكون المنجم وفير العطاء ، فيه كثير من عروق الذهب ، هنا يصبح استخراج الذهب مسألة مربحة اقتصادياً .

أما إن كانت التكلفة أعلى من القيمة الاقتصادية للذهب المستخرج ، فلا أحد يستخرج هذا الذهب.

---

(١) الرياش والريش : الخصب ، والمعاش ، والمال ، والأثاث واللباس الحسن الفاخر . قال تعالى : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (٢٦) ﴾ [الأعراف].

وأنت إن نظرت إلى زينة الفـراعنة تجـد قناع «توت عنخ آمـون» آية فى الجمـال ، وكـذلك كـانت قـصـورهـم فى قـمـة الرفـاهيـة ، ويكفى أن ترى الألوان التى صنعت منهـا دهانات الحـوائط فى تلك الأيام؛ لتـعـرف دقـة الصنعة ومدى الترف ، الذى هو أكثر بكثير من الضرورات.

وفى هذه الآية الكريمة يقول الحق سبحانه:

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ ..(٨٨) ﴾ [يونس]

وهم لـم يَضلُّوا فـقـط بل أرادوا أن يُضِلّوا غـيـرهم ؛ لذلك تحملوا وِزْر ضلالهم ، ووزَر إضلال غيرهم.

فهل أعطاهم الله سبحانه المال والزينة للضلال والإضلال ؟

لا ، فليس ذلك علة العطاء،ولكن هناك لام العاقبة ، مثلما تعطى أنت ابنك عشرة جنيهات وتقول له: افعل بها ما تريد ، وأرجو أن تتصرف فيها تصرفاً يعود عليك بالخير. وقد ينزل هـذا الابـن ليشترى شيئاً غير مفيد ولا يشترى - مثلاً - كتباً تفيده.

هنا أنت أعطيت هذا الابن قوة شرائية لكنه لم يحسن التصرف فيهـا ، وغاية الاختيار هَدَتْه إلى اللعب. وهذا ما يسمى لام العاقبة ، ولام العاقبة لا يكون المقصود بها سبب الفعل ، ولكنها تأتى لبيان عاقبة الفعل [١].

وحين أراد الحق سبحـانه وتعالى أن ينجي موسى - عليه السلام - فى طفولته من القتل أوحى إلى أم موسى - عليهما السلام - بقوله تعالى:

---

(١) أى: أن فرعون لم تكن علة التقاطه لموسى أن يكون عدواً له بل ليتخذه ولداً ، وأضافت امرأته أن يكون قرة عين لها ولفرعـون، ولكن كانت العاقبة غير ذلك ، أى: أن ما حدث كان عكس ما كان يريده فرعون.

﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ [1] وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي..(٧)﴾ [القصص]

ولا توجد أم تُقبل على تنفيذ مثل هذا الأمر ؛ لأنه موت محقق؛ لأن الابن إن خُطف أو فُقد فهذا كله موت مظنون ، أما إلقاؤه فى الماء فليس فيه موت مظَنون ، بلَ موت مؤكد ، إن لم يُنجِّه الله تعالى .

ولكن أم موسى - لإيمانها بالله - فعلت ما أوحى به الله - سبحانه وتعالى - لها ؛ لأن الوارد من الله تعالى لا يجد فى الفطرة منازعاً له.

أما نزغات الشيطان فهى تجد ألف منازع لها فى النفس ، وكذلك هواجس النفس .

ولذلك نفَّذت أم موسى ما أوحى الله تعالى به إليها ، وإن كان مخالفاً للعقل والمنطق.

وحين التقطه آل فرعون ، وقد كانوا يقتلون الأطفال [2] ، وألقى الحق سبحانه وتعالى محبة موسى فى قلوبهم ، قال :

﴿ ..وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي (٣٩)﴾ [طه]

فهم ساعة رؤيتهم لموسى - عليه السلام - وهو طفل ، أحبُّوه فلم يقتلوه ، وهكذا نفذت مشيئة الله تعالى ووعده لأمه :

﴿ .. إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧)﴾ [القصص]

أى : أن لموسى - عليه السلام - مهمة مسبقة أرادها له الحق سبحانه .

---

(١) اليم : الماء الكثير المجتمع . والمراد به : نهر النيل فى مصر .

(٢) كان فرعون وزبانيته يذبحون أبناء بنى إسرائيل ويستحيون نساءهم بعد أن سمع فرعون النبوءة التى قيلت عن أن ولداً من بنى إسرائيل سيقضي على فرعون . قال تعالى : ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٤)﴾ [القصص] وقال تعالى : ﴿ .. وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ (٦)﴾ [القصص] .

ولذلك نجد أن هناك أوامر متتابعة جاء بها القرآن الكريم فى مسألة إلقاء أم موسى لابنها ، فقال الحق سبحانه :

﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ۝٣٨ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ[1] فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ[2] .. ۝٣٩﴾ [طه]

وكلها أوامر من الحق سبحانه ، فتراه زوجة فرعون فتقول لزوجها :

﴿قُرَّتُ عَيْنٍ[3] لِّي وَلَكَ .. ۝٩﴾ [القصص]

فهل كان فرعون يعلم أن هذا الطفل الذى التقطه سيكون عدواً له ؟

لا ، لقد التقطه وأعطاه حياة الترف ؛ ليكون قُرَّة عين له ، وهذه علة الالتقاط ، ولكن العاقبة انتهت إلى أن يكون عدواً ؛ ولو كانت العلة هى العداوة لما التقطه فرعون أو لقتله لحظة الالتقاط .

ولذلك يترك الحق سبحانه وتعالى فى كونه أشياء تكسر مكر البشر ؛ فأخذه فرعون وربَّاه ، وكانت العاقبة غير ما كان يتوقع فرعون .

وقول الحق سبحانه هنا فى الآية التى نحن بصددها : ﴿لِيُضِلُّوا﴾ نفهم منه أن - سبحانه وتعالى - لم يُعْطِهم المال ليضلوا ، ولكنهم هم الذين اختاروا الضلال .

وقد أعطى الله سبحانه وتعالى الكثير من الناس مالاً وجاهاً وأرادوا به الخير ، وهكذا نرى اختيار الإنسان ، إن له أن يضل أو يهتدى .

وقد قال موسى عليه السلام تنفيساً عن نفسه :

---

(١) التابوت : الصندوق الذى وضعت فيه أم موسى ابنها قبل إلقائه فى اليم ؛ ليحفظه من الماء .

(٢) الساحل : شاطىء النهر القريب من قصر فرعون .

(٣) قرة عين : مسرة وفرح . [كلمات القرآن : للشيخ حسنين محمد مخلوف] .

﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ .. (٨٨) ﴾ [يونس]

ومعنى الطمس أى: إخفاء المعالم؛ مثل قول الحق سبحانه:

﴿ مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ [١] وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا .. (٤٧) ﴾ [النساء]

ومعنى الطمس هنا: إخفاء معالم تلك الوجوه؛ فتكون قطعة واحدة بلا جبهة أو حواجب أو عينين أو أنف أو شفاه أو ذقن.

إذن: فالطمس هو إهلاك الصورة التى بها الشيء. ودعوة موسى - عليه السلام - هنا:

﴿ اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ .. (٨٨) ﴾ [يونس]

أى: امسخها.

وقال بعض الرواة [٢] أنها مُسخت، فمن كان يملك بعضاً من سبائك الذهب وجدها حجارة، ومن كان يملك أحجاراً كريمة كالماس وجدها زجاجاً.

أو أن ﴿ اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ .. (٨٨) ﴾ [يونس]

أى: أذهبهما؛ لأن الأموال كانت وسيلة إضلال.

---

(١) وردت مادة «الطمس» بالقرآن الكريم فى خمسة مواضع، هى قول الله تعالى: ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ . (٦٦) ﴾ [يس]، وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ (٣٧) ﴾ [القمر]، وقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ (٨) ﴾ [المرسلات]، وقوله تعالى: ﴿ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا ..(٤٧) ﴾ [النساء]، وقوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ..(٨٨) ﴾ [يونس].

(٢) قاله ابن عباس ومحمد بن كعب القرظى: صارت أموالهم ودراهمهم حجارة منقوشة كهيئتها صحاحاً وأثلاثاً وأنصافاً، ولم يبق لهم معدن إلا طمس الله عليه فلم ينتفع به أحد بعد.

وقوله عليه السلام بعد ذلك :

﴿ .. وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ (٨٨) ﴾ [يونس]

أى : أحكم يا رب الأربطة على تلك القلوب ؛ فلا يخرج ما فيها من كفر ، ولا يدخل ما هو خارجها من الإيمان؛ لأن هؤلاء قد افتروا افتراءً عظيماً ، وأن تظل الأربطة على قلوبهم؛ حتى يروا العذاب الأليم.

ولماذا دعا موسى - عليه السلام - على آل فرعون هذا الدعاء ، ولم يَدْعُ مثلما دعا سيدنا محمد ﷺ : «اللهم اهْدِ قومى فإنهم لا يعلمون» ؟

والإجابة : لا بد أن الحق سبحانه وتعالى قد أطلعه على أن هؤلاء قوم لن تفلح فيهم دعوة الإيمان.

وكان خوف موسى - عليه السلام - لا من ضلال قوم فرعون ، ولكن من استمرار إضلالهم لغيرهم.

إذن : فقد دعا عليهم موسى - عليه السلام - بما جاء فى هذه الآية :

﴿ ..رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ (٨٨) ﴾ [يونس]

وفى موضع آخر من القرآن الكريم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا .. (٨٥) ﴾ [غافر]

وهكذا يتبين لنا الفارق بين إيمان الإلجاء والقصر [١] وبين إيمان الاختيار [٢].

---

(١) القصر والقسر : الإجبار على كره. ومنه : قصرت نفسى على الشىء إذا حبستها عليه وألزمتها إياه. انظر [لسان العرب مادة : قصر ، قسر].

(٢) قال تعالى : ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ .. (٢٩) ﴾ [الكهف] وقال تعالى : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (٢) إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا (٣) ﴾ [الإنسان]

فحين يأتى الرسول داعياً إلى الإيمان يصبح من حق السامع لدعوته أن يؤمن أو أن يكفر ؛ لأن الله تعالى قد خلق الإنسان وله حق الاختيار ، أما إيمان الإلجاء والقصر فهو لا ينفع الإنسان.

ومثال ذلك: فرعون ، فساعة أن جاءه العذاب أعلن الإيمان [1]. فالحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿ ..حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِى آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠) ﴾ [يونس]

وإذا كان موسى - عليه السلام - قد دعا على قوم فرعون ، فقد سبقه نوح عليه السلام فى مثل هذا الدعاء مما أورده القرآن فى قوله:

﴿ ..رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا [2] (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا (٢٧) ﴾ [نوح]

واستجاب الحق سبحانه لدعوة موسى عليه السلام:

---

(١) قال تعالى : ﴿آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١) ﴾ [يونس] . قيل : هو من قول الله تعالى . وقيل : هو من قول جبريل أو ميكائيل عليهما السلام . ففرعون الذى قال : ﴿ .. أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ (٢٤) ﴾ [النازعات] وقال : ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِى.. (٣٨) ﴾ [القصص] جاء الآن عندما عاين الموت وآية الله على صدق موسى فنطق بالإيمان ، ورب العزة سبحانه يقول : ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ (١٥٨) ﴾ [الأنعام] .

(٢) دياراً : أحداً . أى : استئصال كل نسمة كافرة من قوم نوح ، حتى طال هذا ولده من صلبه ، وقد أورد ابن كثير فى تفسيره (٤/ ٤٢٧) حديث ابن عباس ، وعزاه لابن أبى حاتم أن رسول الله ﷺ قال : «لو رحم الله من قوم نوح أحداً لرحم امرأة ، لما رأت الماء حملت ولدها ثم صعدت الجبل ، فلما بلغها الماء صعدت به منكبها ، فلما بلغ الماء منكبها وضعت ولدها على رأسها ، فلما بلغ الماء رأسها رفعت ولدها بيدها ، فلو رحم الله منهم أحداً لرحم هذه المرأة» . قال ابن كثير : هذا حديث غريب ، ورجاله ثقات .

﴿ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾

ويلاحظ أن الذى دعا هو موسى عليه السلام ، ولكن قوله سبحانه : ﴿ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا ..﴿٨٩﴾ ﴾ يدل على أن هارون - عليه السلام - قد دعا مع موسى.

وقد قلنا من قبل: إننا إن نظرنا إلى الأصالة فى الرسالة لوجدنا موسى - عليه السلام - هو الأصيل فيها ، وجاء هارون ليشد عضده[1] ، وإن نظرنا إلى طبيعة الاثنين فكل منهما رسول ، والاثنان لهما رسالة واحدة.

وما دام الحق سبحانه قد أرسل الاثنين لمهمة واحدة ، فإن انفعل واحد منهما لشىء فلا بد أن ينفعل الآخر لنفس الشىء ؛ لذلك فلا يوجد ما يمنع أن هارون ساعة سمع أخاه داعياً بمثل هذا الدعاء ، قد دعا هو أيضاً بالدعاء نفسه ، أو أنه - أى: هارون - قد دعا بهذا الدعاء سِراً.

والدعاء معناه: أنك تفزع إلى من يقدر على تحقيق ما لا تقدر عليه ، فأنت لا تدعو إلا فى أمر عَزَّتْ عليك أسبابه ؛ فتقول: إن لى ربّاً أومن به ، وهو يقدر على الأسباب لأنه خالق الأسباب ، وقادر على أن يعطى بلا أسباب ، والمؤمن الحق يستقبل الأحداث ، لا بأسبابه ، ولكن بقدرة مَنْ آمن به ، وهو المسبِّب الأعلى سبحانه.

ولذلك تجد موسى عليه السلام ومعه قومه حين وصلوا إلى شاطىء البحر ، وكان من خلفهم قوم فرعون يطاردونهم ، فقال قوم موسى:

---

(١) العضد من الإنسان وغيره : الساعد ، وهو ما بين المرفق إلى الكتف ، والمراد بالعضد هنا : العون والمساعدة . قال تعالى : ﴿ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا ..﴿٣٥﴾ ﴾ [القصص] .

﴿ ..إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١) ﴾ [الشعراء]

فَرَدَّ موسى عليه السلام:

﴿ .. كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) ﴾ [الشعراء]

أى: لا ترتِّبوا الأمر بترتيب البشر؛ لأن معى رب البشر، فجاءه الإنقاذ:

﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ[1] (٦٣) ﴾ [الشعراء]

إذن: فالدعاء إنما يكون فزعاً إلى من يقدر على أمر لا تقدر عليه.

والموضوع الذى كان يشغل موسى وهارون عليهما السلام هو بقاء آل فرعون على ضلالهم وإصرارهم على إضلال غيرهم، فلا بد أن يدعو كل منهما نفس الدعاء، ومثل هذا نجده فى غير الرسل ونسميه «التخاطر»، أى: التقاء الخواطر فى لحظة واحدة.

ومثال ذلك فى التاريخ الإسلامى، لحظة أن كان سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه مشغولاً بالتفكير فى جيش المسلمين المقاتل فى إحدى المعارك، وكان عمر فى المدينة يخطب على المنبر، فإذا به يقول فجأة: «يا سارية[2] الجبل» وهى كلمة لا موضع لها فى منطق الخطبة، ولكن كان فكره مشغولاً بالقائد الذى يحارب، وسمع القائد - وهو على البعد - الأمر؛ فانحاز إلى الجبل.

---

(١) الفرق: الجزء. والطود: الجبل الكبير. [تفسير ابن كثير: (٣/ ٣٣٦)].

(٢) هو سارية بن زنيم الدئلى. أمَّره عمر بن الخطاب على جيش وسيَّره إلى فارس سنة ٢٣ هـ، فوقع فى خاطر عمر وهو يخطب يوم الجمعة أن الجيش المذكور لاقى العدو وهم فى بطن واد قد همُّوا بالهزيمة وبالقرب منهم جبل فقال فى أثناء خطبته «يا سارية: الجبل، الجبل» ورفع صوته فألقاه الله فى سمع سارية فانحاز بالناس إلى الجبل، وقاتلوا العدو من جانب واحد، ففتح الله عليهم وانتصروا. [الإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر العسقلانى: ٢/ ٥٢، ٥٣].

ويقال فى هذه المسألة : إن الخاطر قد شغل مع الخاطر ، مثلما تطلب أحداً فى الهاتف فيرد عليك الشخص الذى تريد الكلام معه قائلاً : لقد كنت على وشك أن أتصل بك هاتفيّاً ، وهذا يعنى أن الخاطرين قد انضبطا معاً .

وإذا كان هذا ما يحدث فى حياتنا العادية ، فما بالنا بما يحدث فى الأمور الصفائية ؛ وفى أرقى درجاتها وهى النبوة ؟

أو أن الذى دعا هو موسى وما كان هارون إلا مؤمِّناً [1] ، والمؤمِّن هو أحد الداعيين ، وما دام الحق سبحانه قد قَبِل دعوة موسى عليه السلام ، فقد قَبِل أيضاً دعوة المؤمِّن معه .

ويظن بعض الناس أن إجابة الدعوة هى تحقيق المطلوب فور الدعاء ، ولكن الحقيقة أن إجابة الدعوة هى موافقة على الطلب ، أما ميعاد إنجاز الطلب ، فقد يتأجل بعض الوقت ، مثلما حدث مع دعوة موسى عليه السلام على فرعون وملئه ، فحين دعا موسى ، وأمَّن هارون ، جاءت إجابة الدعاء : ﴿ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا ..﴿٨٩﴾ ﴾ بعد أربعين عاماً ، ويحقق الله سبحانه الطمس على المال .

فالسماء ليست موظفة عند من يدعو ، وتقبل أى دعاء ، ولكن قبول الدعوة يقتضى تحديد الميعاد الذى تنفذ فيه .

وهذه أمور من مشيئة الله سبحانه ؛ فالحق سبحانه وتعالى منزَّه عن أن يكون منفِّذاً لدعاء ما ، ولكنه هو الذى بيده مقاليد كل أمر ، فإذا ما أجيبت دعوة ما ، فهو سبحانه بمشيئته يضع تنفيذ الدعوة فى الميعاد الملائم ؛ لأنها لو أجيبت على الفور فقد تضر .

---

(١) التأمين : هو قولهم آمين وراء الداعى . ومنه التأمين فى الصلاة وراء الإمام .

والحق سبحانه وتعالى هو القائل:

﴿ وَيَدْعُ الإنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإنسَانُ عَجُولاً [1] (١١) ﴾

[الإسراء]

لذلك يحدد الحق سبحانه ميعاد تطبيق الدعوة فى مجال التنفيذ والواقع.

وهو سبحانه وتعالى يقول:

﴿ ..سَأُرِيكُمْ آيَاتِى فَلا تَسْتَعْجِلُون [2] (٣٧) ﴾ [الأنبياء]

والإنسان يعرف أنه قد يكون قد دعا بأشياء، فحقق الله سبحانه الدعاء وكان شراً، وكم من شىء يدعو به الإنسان ولم يحققه الله تعالى وكان عدم تحقيقه خيراً.

إذن: فالقدرة العليا رقيبة علينا، وتعلم ما فى صالحنا؛ لأننا لسنا آلهة تأمر بتنفيذ الدعوات، بل فوقنا الحكيم الأعلى سبحانه.

ولذلك نقول فى بيان قول الحق سبحانه:

﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم [3] بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ [4] ..(١١) ﴾ [يونس]

---

(١) عجولاً: صيغة مبالغة من العجل والعجلة وهو السرعة. والمراد: أن الإنسان مجبول على حب الخير، وعلى العجلة فى طلبه لنفسه، ويلح فى الدعاء، حتى لو كان الأمر شراً وهو يظن بجهله أنه خير. قال تعالى: ﴿ خُلِقَ الإنسَانُ مِنْ عَجَلٍ .. (٣٧) ﴾ [الأنبياء]. وقال تعالى: ﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ .. (١) ﴾ [النحل].

(٢، ٣) عجل يعجل - عجلاً وعجلة. واستعجل استعجالاً. قال تعالى: ﴿ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ..(١٥٠) ﴾ [الأعراف] وقال: ﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ (٨٣) ﴾ [طه] وعجل الأمر: طلبه قبل أوانه بدافع الشهوة. وعجل الأمر: سبقه. [القاموس القويم].

(٤) الأجل: المدة من الزمن، والمراد: العمر.

لأن الإنسان قد يدعو بالشر على نفسه [١] ، ألا تسمع أمّاً تدعو على ابنها أو ابنتها رغم حبها لهما ، فلو استجاب الله لدعائها على أولادها الذين تحبهم أليس فى ذلك شر بالنسبة للأم.

والولد قد يقول لأمه مغاضباً: يا رب تحدث لى حادثة ؛ حتى تستريحى منى. فهَبْ أن الله استجاب لهذا الدعاء ، أيرضى ذلك من دعا على نفسه أو يرضى أمه ؟

طبعاً لا ؛ فإذا كان الله سبحانه قد أبطأ عليك بدعاء الشر فهذا خير لك ، فعليك أن تأخذ إبطاء الله سبحانه عليك بدعاء الخير على أنه خير لك.

ولذلك شاء الحق سبحانه أن يقول لموسى وهارون عليهما السلام:

﴿ .. قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ (٨٩) ﴾

[يونس]

أى: ابقيا على الطريق السوى ، ولا تُدْخِلا نفسيكما فيما لا علم لكما به. أليس الحق سبحانه هو القائل:

﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (٤٥) قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ

---

(١) ثبت فى صحيح مسلم النهى عن الدعاء على النفس والأولاد والأموال ، فعن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال: سرنا مع رسول الله ﷺ فى غزوة بطن بواط وهو يطلب المجدى بن عمرو الجهنى ، وكان الناضح يعتقبه منا الخمسة والستة والسبعة ، فدارت عقبة رجل من الأنصار على ناضح له فأناخه فركبه ثم بعثه فتلدن عليه بعض التلدن فقال له: شأ لعنك الله. فقال ﷺ: «من هذا اللاعن بعيره» ؟ قال: أنا يا رسول الله. قال: «انزل عنه فلا تصحبنا بملعون ، لا تدعوا على أنفسكم ، ولا تدعوا على أولادكم ، ولا تدعوا على أموالكم ، لا توافقوا من الله ساعة يسأل فيها عطاء فيستجيب لكم» أخرجه مسلم (٣٠٠٩).

فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ [١] أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٤٦) ﴾

[هود]

أى: كُنْ مؤدَّباً مع ربك حين تدعو وتنفِّس عن نفسك ، ودَعْ لحكمة الحكيم الإجابة أو عدمها ، وقد تكون الإجابة فورية أو مؤجَّلة إلى حين أوانها ، وكلاهما خير .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ [٢] (٩٠) ﴾

قال الحق سبحانه :

﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ .. (٩٠) ﴾ لأن الاجتياز لم يكن بأسباب بشرية ، بل بفعل يخرج عن أسباب البشر ، فلو أن موسى عليه السلام قد حفر نفقاً تحت الماء ، أو لو كان قد ركب سفناً هو وقومه لكان لهم مشاركة

(١) الوعظ : النصح بالطاعة والعمل الصالح الإرشاد إلى الخير . قال ابن سيده : هو تذكيرك للإنسان بما يُلَيِّن قلبه من ثواب وعقاب . [ذكره ابن منظور فى اللسان مادة : وعظ] . قال القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٣٦٦) : ﴿ إِنِّي أَعِظُكَ .. (٤٦) ﴾ [هود] . أى : إنى أنهاك عن هذا السؤال وأحذرك لئلا تكون من الجاهلين . أى: الآثمين . قال ابن العربى : وهذه زيادة من الله وموعظة يرفع بها نوحاً عن مقام الجاهلين .

(٢) أتبعهم: اتبع أثرهم ؛ ليدركهم. وكان موسى وقومه بنو إسرائيل فى خروجهم ستمائة ألف وعشرين ألفاً، وتبعهم فرعون مصبحاً فى ألفى ألف وستمائة ألف. بغياً وعدواً: أى: فى حال بغى وظلم واعتداء. وقال المفسرون: بغياً: طلباً للاستعلاء بغير حق فى القول ، «وعدواً» فى الفعل. أدركه الغرق: ناله ووصله. قال آمنت: أى: صدَّقت ، أو آمنت - والإيمان لا ينفع حينئذ ، والتوبة مقبولة قبل رؤية البأس. [ذكره القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٣٠٤ ، ٣٣٠٥) - بتصرف].

فى اجتياز البحر ، لكن المجاوزة كانت بأسباب غير ملحوظة بالنسبة للبشر ، فالحق سبحانه هو الذى أوحى لموسى :

﴿ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ .. (٦٣) ﴾ [الشعراء]

ومياه البحر كأية مياه أخرى تخضع لقانون السيولة ، والاستطراق [(١)] هو وسيلة السيولة ، وهى عكس التجمد الذى يتسم بالتحيز.

والاستطراق هو الذى قامت عليه أساليب نقل المياه من صهاريج المياه التى تكون فى الأغلب أعلى من طول أى منزل ، ويتم ضخ المياه إليها ؛ لتتوزع من بعد ذلك حسب نظرية الأوانى المستطرقة على المنازل ، أما إذا كانت هناك بناية أعلى طولاً من الصهريج ، هنا يقوم سكان المبنى بتركيب مضخة لرفع المياه إلى الأدوار العالية.

وإذا كان قانون البحر هو السيولة والاستطراق ، فكيف يتم قطع هذا الاستطراق؟

يقول الحق سبحانه :

﴿ ..فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣) ﴾ [الشعراء]

فكيف تحول الماء إلى جبال يفصل بينها سراديب وطرق يسير فيها موسى عليه السلام وقومه؟

كيف يسير موسى وقومه مطمئنين ؟

لا بد أنها معية الله سبحانه التى تحميه ، وهى تفسير لقول الحق سبحانه :

﴿ .. إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) ﴾ [الشعراء]

---

(١) الاستطراق : عدة أنابيب مختلفة الأحجام والأشكال ، متصل بعضها ببعض بأنبوبة أفقية ، فإذا وضع سائل فى إحدى هذه الأنابيب ارتفع سطح السائل إلى مستوى أفقى واحد فى جميع الأنابيب . [المعجم الوسيط - مجمع اللغة العربية].

ورغم ذلك يتبعهم فرعون وجنوده لعله يدركهم ، وأراد سيدنا موسى - عليه السلام - بمجرد نجاحه فى العبور هو وقومه أن يضرب البحر بعصاه ؛ ليعود إلى قانون السيولة ، ولو فعل ذلك لما سمح لفرعون وجنوده أن يسيروا فى الممرات التى بين المياه التى تحولت إلى جبال ، ولكن الله - سبحانه وتعالى - يريد غير ذلك ، فقد أراد الحق سبحانه أن ينجى ويهلك بالشيء الواحد ، فأوحى لموسى عليه السلام :

﴿ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا [1] إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الدخان]

أى : اترك البحر على حاله ؛ فينخدع فرعون وجنوده ، وما إن ينزل آخر جندى منهم إلى الممر بين جبال الماء ؛ سيعود البحر إلى حالة السيولة فيغرق فرعون وجنوده ، وينجو موسى وقومه .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ .. ﴿٩٠﴾ ﴾ [يونس]

فهل كان هذا الإتباع دليل إرادة الشر ؟

أكان من الممكن أن تكون نية الفرعون أن يدعو موسى وقومه إلى العودة إلى مصر ليستقروا فيها؟

لا ، لم تكن هذه هى نية الفرعون ؛ لذلك قال الحق سبحانه عن هذا الإتباع : ﴿ بَغْيًا وَعَدْوًا .. ﴿٩٠﴾ ﴾ [يونس]

أى : أنه اتباع رغبة فى الانتقام والإذلال والعدوان .

ويصور القرآن الكريم لحظة غرق فرعون بقوله :

---

(١) قال الأزهرى : رهواً ساكناً من نعت موسى ، أى : على هَيْنَتك . قال : وأجود منه أن تجعل رهواً من نعت البحر ، وذلك أنه قام فرقاه ساكنين فقال لموسى : دع البَحر قائماً ماؤه ساكناً واعبر أنت البحر . [ذكره ابن منظور فى اللسان ، مادة : رها] فقوله تعالى : ﴿ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا .. ﴿٢٤﴾ ﴾ [الدخان] أى : ساكن الأمواج ليغتروا فينزلوا فيه .

﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ ..(٩٠)﴾ [يونس]

والإدراك: قصد للمدرك أن يلحق بالشيء ، والغرق معنى ، فكيف يتحول المعنى إلى شيء يلاحق الفرعون ؟

نعم ، فكأن الغرق جندى من الجنود ، وله عقل ينفعل ؛ فيجرى إلى الأحداث :

﴿ ..حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِى آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ[1] (٩٠)﴾ [يونس]

والإيمان إذا أطلق فهو الإيمان بالقوة العليا ، بدليل أن الحق سبحانه وتعالى قد قال:

﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا.. (١٤)﴾ [الحجرات]

لأن الإيمان يتطلب انقياد القلب ، والإسلام يقتضى اتباع أركان الإسلام ، فالإيمان كما قال رسول الله ﷺ : « قل آمنت بالله ثم استقم »[2]. وفى هذا القول ذكر محدد بأن الإيمان إنما يكون لله الأعلى.

لكن لو قلت - مثلاً: «آمنت أنك رجل طيب» فهذا إيمان له متعلق ، أما إذا ذُكر الإيمان بإطلاق فهو ينصرف إلى الإيمان بالله تعالى ؛ ولذلك قال الله سبحانه للأعراب:

﴿ وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا ..(١٤)﴾ [الحجرات]

---

(١) وأنا من المسلمين ، أى: من الموحدين المستسلمين بالانقياد والطاعة. وهو قول متأخر جداً جاء بعد فوات الأوان.

(٢) عن سفيان بن عبد الله الثقفى قال: قلت يا رسول الله قل لى فى الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك. قال: «قل آمنت بالله ثم استقم». أخرجه مسلم فى صحيحه (٣٨) وأحمد فى مسنده (٤/ ٣٨٥).

وهنا يأتى القول على لسان فرعون:

﴿ ..آمنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِى آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠) ﴾ [يونس]

والخلاف هنا كان بين الفرعون كجهة كفر، وبين موسى وهارون وقومهما كجهة إيمان، وأعلن فرعون إيمانه، وقال أيضاً:

﴿ ..وأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠) ﴾ [يونس]

ولم يقبل الله ذلك منه بدليل قول الحق سبحانه:

﴿ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ[1] (٩١) ﴾

وهذا يعنى: أتقول إنك آمنت الآن وإنك من المسلمين. إن قولك هذا مردود؛ لأنه جاء فى غير وقته، فهناك فرق بين إيمان الإجْبار وإيمان الاختيار، أتقول الآن آمنت وأنت قد عصيت من قبل، وكنت تفسد فى الأرض.

وكان من الممكن أن يقبل الله سبحانه منه إيمانه وهو فى نجوة[2] بعيدة عن الشر الذى حاق[3] به.

---

(١) قيل: هو من قول الله تعالى. وقيل: هو من قول جبريل. وقيل: ميكائيل، أو غيرهما من الملائكة - عليهم السلام - وقيل: هو من قول فرعون فى نفسه، ولم يكن ثَمَّ قول باللسان، بل وقع ذلك فى قلبه فقال فى نفسه ما قال حيث لم تنفعه الندامة. ونظيره: ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ ..(٩) ﴾ [الإنسان] أثنى عليهم الرب سبحانه بما فى ضميرهم، لا لأنهم قالوا ذلك بلفظهم. والكلام هنا هو كلام القلب. [ذكره القرطبى فى تفسيره ٤/ ٣٣٠٦] - بتصرف.

(٢) النجوة: ما ارتفع من الأرض.

(٣) حاق به الشىء يحيق حيقاً: نزل به، وأحاط به. وقيل: الحيق فى اللغة هو أن يشتمل على الإنسان عاقبة مكروه فَعَلَه. قال تعالى: ﴿ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ (٤٥) ﴾ [غافر] وقال تعالى: ﴿ ..إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٢٦) ﴾ [الأحقاف].

فالحق سبحانه لا يقبل إيمان أحد بلغت روحه الحلقوم ، فهذا إيمان إجبار ، لا إيمان اختيار.

ولو كان المطلوب إيمان الإجبار لأجبر الحق سبحانه الخلق كلهم على أن يؤمنوا ، ولما استطاع أحد أن يكفر بالله تعالى ، وأمامنا الكون كله خاضع لإمرة الله - سبحانه وتعالى - ولا يتأبى فيه أحد على الله تعالى.

وقدرة الحق - عز وجل - المطلقة قادرة على إجبار البشر على الإيمان ، لكنها تثبت طلاقة القدرة ، ولا تثبت المحبوبية للمعبود.

وهذه المحبوبية للمعبود لا تثبت إلا إذا كان لك خيار فى أن تؤمن أو لا تؤمن. والله سبحانه يريد إيمان الاختيار[1].

إذن: فالمردود من فرعون ليس القول ، ولكن زمن القول.

ويقال: إنها رُدَّتْ ولم تُقبل - رغم أنه قالها ثلاث مرات - لأن قوم موسى فى ذلك الوقت كانوا قد دخلوا فى مرحلة التجسيم لذات الله وادعوا - معاذ الله - أن الله - تعالى الله عما يقولون - جلس على صخرة وأنزل رجْليه فى حوض ماء ، وكان يلعب مع الحوت .. إلى آخر الخرافاتَ التى ابتدعها بنو إسرائيل .

وحين أعلن فرعون أنه آمن بالإله الذى آمنت به بنو إسرائيل ، فهذا يعنى أنه لم يؤمن بالإله الحق سبحانه.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾

---

(١) يقول الحق سبحانه: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ [يونس].

ونحن نعرف أن الإنسان مكوَّن من بدن ، وهو الهيكل المادى المصوَّر على تلك الصورة التى نعرفها ، وهناك الروح التى فى البدن ، وبها تكون الحركة والحياة .

وساعة نقول : «بدن» ، فافهم أنها مجردة عن الروح ، مثلما نقول : جسد . وإذا أطلقت كلمة «جسد» فمعناها الهيكل المادى المجرد من الروح .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا .. (٣٤) ﴾ [ص]

وكان سيدنا سليمان - عليه السلام - يستمتع بما آتاه الله سبحانه من الملك ما لا ينبغى لأحد من بعده ، وسخَّر له الجن والرياح وعلّمه كل اللغات ، وكان صاحب الأوامر والنواهى والهيمنة ، ثم وجد نفسه قاعداً على كرسيه بلا حراك وبلا روح ، ويقدر عليه أى واحد من الرعية ، ثم أعاد الله له روحه إلى جسده ، وهو ما يقوله الحق سبحانه :

﴿ ..ثُمَّ أَنَابَ (١) (٣٤) ﴾ [ص]

أى : أنه أفاق لنفسه ، فعلم أن كل ما يملكه هو أمر مُفاضٌ عليه ، لا أمر نابع من ذاته .

وهنا فى الآية الكريمة التى نحن بصددها الآن يقول الحق سبحانه :

﴿ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً (٢) ..(٩٢) ﴾ [يونس]

---

(١) أناب : رجع إلى الله تعالى بالتوبة . [كلمات القرآن : للشيخ حسنين محمد مخلوف] .

(٢) ننجيك : نخرجك من البحر . ببدنك : بجسدك الذى لا روح فيه . لتكون لمن خلفك : بعدك . آية : عبرة ؛ فيعرفوا عبوديتك ولا يقدموا على مثل فعلك . وعن ابن عباس أن بعض بنى إسرائيل شكوا فى موته فأخرج لهم ليروه . [تفسير الجلالين : ص ١٨٧] . وقد قرأ اليزيدى وابن السميقع «ننحيّك» بالحاء ، أى : تكون على ناحية من البحر ليروك .

وبالله ، لو لم يأمر الحق البحر بأن يلفظ جثمان فرعون ، أما كان من الجائز أنَ يقولوا : إنه إله ، وإنه سيرجع مرة أخرى ؟

ولكن الحق سبحانه قد شاء أن يلفظ البحر جثمانه كما يلفظ جيفة أى حيوان غارق ؛ حتى لا يكون هناك شك فى أن هذا الفرعون قد غرق ، وحتى ينظر من بقى من قومه إلى حقيقته ، فيعرفوا أنه مجرد بشر ، ويصبح عبرة للجميع ، بعد أن كان جباراً مسرفاً طاغية يقول لهم :

﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِى.. (٣٨) ﴾ [القصص]

وبعض من باحثى التاريخ يقول : إن فرعون المقصود هو «تحتمس» ، وإنهم حلَّلوا بعضاً من جثمانه ، فوجدوا به آثار مياه مالحة .

ونحن نقول : إن فرعون ليس اسماً لشخص ، بل هو توصيف لوظيفة ، ولعل أجساد الفراعين المحنطة تقول لنا : إن علة حفظ الأبدان هى عبرة ؛ وليتعظ كل إنسان ويرى كيف انهارت الحضارات ، وكيف بقيت تلك الأبدان آية نعتبر بها .

وقد تعرض القرآن لمسألة الفرعون ، فقال الحق سبحانه :

﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِى الأَوْتَادِ [1] (١٠) ﴾ [الفجر]

ويقول سبحانه فى نفس السورة عن كل جبار مفسد :

﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ [2] (١٤) ﴾ [الفجر]

---

(١) قيل فى معنى ذى الأوتاد : لأن فرعون كان يعذب الناس بأربعة أوتاد [مختصر تفسير الطبرى : ص ٥١٣]. وذكر فى تفسير الجلالين (ص ٣٩٨) أن فرعون كان يَتدُ لكل من يغضب عليه أربعة أوتاد يشد إليها يديه ورجليه ويعذبه . وفى [كلمات القرآن للشيخ حسنَين محمد مخلوف] الأوتاد : الجنود أو المبانى القوية .

(٢) إن ربك لبالمرصاد : يرقب أعمالهم ويجازيهم عليها . [كلمات القرآن] .

ونلحظ أن كلام الحق سبحانه عن فرعون فى سورة الفجر كان كلاماً يضمُّ إلى جانب حضارة الفراعنة حضارات أخرى قديمة ، مثل حضارة عاد وحضارة ثمود .

وكذلك تكلم الحق سبحانه عن الفرعون فى أثناء لقطات قصة موسى عليه السلام ، ولكن الكلام يختلف فى قصة يوسف عليه السلام ، فلا تأتى وظيفة الفرعون ، بل يحدثنا الحق سبحانه عن وظائف أخرى ، هى وظيفة «عزيز مصر» - أى : رئيس وزرائها - ويحدثنا الله سبحانه عن ملك مصر بقوله :

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِى بِهِ .. (٥٠) ﴾ [يوسف]

ولم يُكْتَشَف الفارق بين وظيفة «الفرعون» ووظيفة «الملك» فى التاريخ المصرى إلا بعد أن جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر وفك «شامبليون» رموز اللغة الهيروغليفية من خلال نقوش حجر «رشيد» ، فعرفنا أن حكام مصر القديمة كانوا يسمون « الفراعنة» إلا فى فترة كانت فيها مصر تحت حكم «ملوك الرعاة» أو «الهكسوس» الذين أغاروا على مصر ، وحكموها حكماً ملكياً وقضوا على حكم الفراعنة ، ثم عاد الفراعنة إلى حكم مصر بعد أن خلصوها من سيطرة «الهكسوس» .

وهكذا نجد أن إشارة القرآن فى قصة يوسف - عليه السلام - كانت إلى الملك ، ولم يأت فيها بذكر فرعون ، وهذا دليل على أن القرآن قد سبق بعلمه أى اكتشاف ، وكلما جاء اكتشاف جديد أو ابتكار حقيقى ، نجده يؤيد كتاب الله .

ويُنهى الحق سبحانه الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها بقوله :

﴿ .. وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ [1] (٩٢) ﴾ [يونس]

---

(١) وإن كثيراً من الناس : أى : أهل مكة . عن آياتنا غافلون : لا يعتبرون بها . [تفسير الجلالين ص ١٨٧] .

وهذا القول يوضح أن هناك من يغفل عن الآيات ، وهناك من لا يغفل عنها ، و ينظر إلى تلك الآيات ويتأملها ويتدبرها ، ويتساءل عن جدوى كل شيء ، فيصل إلى ابتكارات واختراعات ينتفع بها الإنسان، أُذن بميلادها عند البحث عنها ؛ لتستبين عظمة الله فى خلقه .

وحين ينظر الإنسان فى تلك الابتكارات سيجدها وليدة أفكار مَنْ نظروا بإمعان ، وامتلكوا قدرة الاستنباط ، ولو لم يغفل الناس عن النظر فى آيات الكون ، والسموات والأرض ، لزادت الابتكارات والاختراعات ، والحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ[1] فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥) ﴾ [يوسف]

وحين ننظر إلى مكتشف قانون الجاذبية «نيوتن» الذى رأى ثمرة تفاح تسقط من شجرتها ، نجد أن هناك عشرات الآلاف أو الملايين من البشر شاهدوا من قبله مشهد سقوط ثمرة من على شجرة ، ولكن نيوتن وحده هو الذى تفكر وتدبر ما يحدث أمامه إلى أن اهتدى إلى اكتشاف قانون الجاذبية .

وجاء من بعد نيوتن من بنى سفن الفضاء التى تستفيد من هذا القانون وغيره .

وكذلك نجد من صَمَّم الغواصات ، والبواخر العملاقة التى تشبه المدن العائمة ، هؤلاء اعتمدوا على من اكتشف قانون «الطفو» وقاعدة «أرشميدس» الذى لاحظ أنه كلما غطس شيءٌ فى المياه ، ارتفع الماء بنفس حجم الشيء الغاطس فيه .

---

(١) كأين من آية : كم من آية - كثير من الآيات . [كلمات القرآن : للشيخ حسنين محمد مخلوف] .

كل هؤلاء اكتشفوا - ولم يخلقوا - أسراراً كانت موجودة فى الكون ، وهم تميَّزوا بالانتباه لها .

وكذلك العالم الذى اكتشف «البنسلين» قد لاحظ أن أصيصاً [1] من المواد العضوية كانت تنزل منه قطرات من الماء العفن ، ورأى الحشرات التى تقترب من هذا الماء تموت ، فأخذ عينة من هذا العفن وأخذ يُجرى عليها بعض التجارب فى معمله إلى أن اكتشف «البنسلين» .

وقول الحق سبحانه :

﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥) ﴾ [يوسف]

فكأنهم لو لم يعرضوا لاستنبطوا من آيات الكون الشيء الكثير .

وكذلك القصص التى تأتى فى القرآن ، إنما جاءت ليعتبر الناس ويتأملوا ، فحين يرسل الله رسولاً مؤيَّداً بمعجزة منه لا يقدر عليها البشر ؛ فعلى الناس أن يسلّموا ويقولوا : «آمنا» ، لا أن يظلوا فى حالة إعادة للتجارب السابقة ؛ لأن ارتقاءات البشر فى الأمور المادية قد تواصلت ؛ لأن كل جيل من العلماء يأخذ نتائج العلم التى توصل إليها مَنْ سبقوه ، فلماذا لا يحدث هذا فى الأمور العقدية ؟

ولو أن الناس بدأوا من حيث انتهى غيرهم ؛ لوجدنا الكل مؤمناً بالله تعالى ، ولأخذ كل مولود الأمر من حيث انتهى أبوه ، ولوَصَل خير آدم

---

(١) الأص (بفتح الهمزة ، وبكسرها ، وبضمها) : الأصل . والأصيص : أصل الدَّن (إناء) أى : أسفله ويقال : هو كهيئة الجر له عروتان يُحمل فيه الطين . وفى الصحاح : الأصيص ما تكسر من الآنية ، وهو نصف الجر أو الخابية تزرع فيه الرياحين . [لسان العرب : مادة (أ ص ص)] . وتطلق هذه الكلمة على أوانٍ من الفخار تصنع خصيصاً لزراعة الأزهار والنباتات .

إلى كل من وُلِدَ بعد ذلك ، لكن آفة البشر أن الإنسان يريد أن يجرب بنفسه .

ونحن نجد ذلك فى أمور ضارة مثل : الخمر ، نجدها ضارة لكل من يقرب منها ، فإذا حرَّمها الدين وجدنا من يتساءل : لماذا تُحرَّم ؟

وكذلك التدخين ؛ نجد من يجربه رغم أن التجارب السابقة أثبتت أضراره البالغة ، ولو أخذ كل إنسان تجارب السابقين عليه ؛ فهو يصل عمره بعمر الآخرين .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ (١)

وكلمة «تبوأ» تعنى إقامة مباءة أى : البيوت التى يكون فيها السكن الخاص ، وإذا أطلقت كلمة «مبوأ» فهى تعنى الإقليم أو الوطن .

والوطن أنت تتحرك فيه وكذلك غيرك ، أما البيت فهو للإنسان وأسرته كسكن خاص .

أما الثرى فقد يكون له جناح خاص فى البيت ، وقد يخصص الثرىُّ فى منزله جناحاً لنفسه ، وآخر لولده وثالثاً لابنته .

أما غالبية الناس فكل أسرة تسكن فى «شقة» قد تتكون من غرفة أو اثنتين أو ثلاثة حسب إمكانات الأسرة .

---

(١) بوأنا : أنزلنا . مبوأ صدق : منزل كرامة وهو مصر والشام . فما اختلفوا : بأن آمن بعضهم وكفر بعضهم . [تفسير الجلالين : ص ١٨٧ - بتصرف] .

إذن: فيوجد فرق بين تبوُّء البيوت وتبوء المواطن ، فتبوُّء المواطن هو الوطن.

وسبق أن قال الحق سبحانه لموسى وهارون عليهما السلام:

﴿أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا ..(٨٧)﴾ [يونس]

هذا فى التبوء الخاص ، أما فى التبوء العام فهو يحتاج إلى قدرة الحق تعالى ، وهو سبحانه يقول هنا:

﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ .. (٩٣)﴾ [يونس]

والحق سبحانه أتاح لهم ذلك فى زمن موسى - عليه السلام - وأتاح لهم السكن فى مصر والشام ، وهو سبحانه القائل:

﴿سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ [١] بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ ..(١)﴾ [الإسراء]

وما دام الحق سبحانه قد بارك حوله فلا بد أن فيه خيراً كثيراً ، ولا بد أن تكون الأرض التى حوله مُبوَّأ صدق.

وكلمة «الصدق» تعنى جماع الخير والبر ؛ ولذلك نجد الرسول ﷺ حينما سئل: أيكون المؤمن جباناً ؟ قال: «نعم» . وحين سئل: أيكون المؤمن بخيلاً ؟ قال: «نعم» . وحين سئل: أيكون المؤمن كذاباً ؟ قال: «لا» [٢].

(١) سبحان الذى أسرى بعبده: تنزيهاً وتبرئة لله سبحانه وتعالى مما يقول فيه المشركون . والإسراء والسُّرى: السير فى الليل. المسجد الأقصى: بيت المقدس. الذى باركنا حوله: لسكانه فى معايشهم وأقواتهم. [مختصر تفسير الطبرى : ص ٣١٣].

(٢) أخرجه الإمام مالك فى موطئه (ص ٩٩٠) من حديث صفوان بن سليم مرسلاً .

ولذلك فأنت تجد فى الإسلام عقوبة على الزنا ، وعقوبة تقام على السارق [١] ، أما الكذب فهو خصلة لا يقربها المسلم ؛ لأن عليه أن يكون صادقاً. وكل خصال الخير هى مُبوَّأ الصدق.

ولذلك نجد قول الحق سبحانه:

﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ [٢] ﴿٨٠﴾ ﴾ [الإسراء]

وقول الحق سبحانه:

﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ [٣] .. ﴿٢﴾ ﴾ [يونس]

وقول الحق سبحانه:

﴿ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ [٤] ﴿٨٤﴾ ﴾ [الشعراء]

أى: اجعل لى ذكرى حسنة فلا يقال فلان كان كاذباً ، وأما قدم الصدق فهى سوابق الخير التى يسعى إليها ؛ ولذلك كان الجزاء على الصدق هو ما يقول عنه الحق سبحانه:

﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ [٥] ﴿٥٥﴾ ﴾ [القمر]

---

(١) قرر الكتاب والسنة عقوبات محددة لجرائم معينة هى جرائم الحدود ، وهى: الزنا ، والقذف ، والسرقة ، والسُّكر ، والمحاربة ، والردة ، والبغى ؛ وذلك لتحقيق صيانة المجتمع من نواحى: الدين ، العقل ، المال ، العرض ، النفس. ولكل جريمة من هذه الجرائم شروط يجب توافرها ليتم تنفيذ العقوبة الخاصة بها. انظر تفصيل هذا فى كتب الفقه (أبواب الحدود).

(٢) وقل رب أدخلنى مدخل صدق ، أى: أدخلنى المدينة إدخالاً مرضياً لا أرى فيه ما أكره. وأخرجنى: من مكة مخرج صدق: إخراجاً لا ألتفت بقلبى إليها. [تفسير الجلالين: ص ٢٥١].

(٣) قدم صدق: سابقة فضل ، ومنزلة رفيعة. [كلمات القرآن: للشيخ حسنين محمد مخلوف].

(٤) لسان صدق: ثناء حسناً وذكراً جميلاً. [كلمات القرآن].

(٥) مقعد صدق: مكان مرْضى. [كلمات القرآن]. عند مليك: ذى مُلك. مقتدر: على كل ما يشاء ، لا إله إلا هو. [مختصر تفسير الطبرى: ص ٦٠٧].

وهو مقعد عند مليك لا يبخل ، ولا يجلس فى رحابه إلا من يحبه ، ولا يضن بخيره على من هم فى رحابه .

ومقعد الصدق هو جزاء لمن استجاب له ربه فأدخله مدخل صدق ، وأخرجه مخرج صدق ، وجعل له لسان صدق ، وقدم صدق.

وبعد أن بوَّأ الحق سبحانه بنى إسرائيل مُبوَّأ صدق ، فى مصر والشام ، وبعد أن قال لهم :

﴿ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ[1] .. (٦١) ﴾ [البقرة]

أى : أن الحق سبحانه حقق قوله :

﴿ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ .. (٩٣) ﴾ [يونس]

وأنجاهم من فرعون ، وكان من المفترض أن تستقيم أمورهم.

ويقول الحق سبحانه :

﴿ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ .. (٩٣) ﴾ [يونس]

والمقصود بذلك هو معرفتهم بعلامات الرسول الخاتم محمد ﷺ ، ومنهم من ترقب مجىء النبى ﷺ ليؤمن به ، ومنهم من تمادى فى الطغيان ؛ لذلك قطَّعهم الله - سبحانه - فى الأرض أمماً.

وحين ننظر إلى دقة التعبير القرآنى نجده يحدد مسألة التقطيع هذه ، فهم فى كل أمة يمثلون قطعة ، أى : أنه سبحانه لم يُذبْهم فى الشعوب. بل لهم فى كل بلد ذهبوا إليه مكانٌ خاصٌ بهم ، ولا يذوبون فى غيرهم.

والحق سبحانه يقول :

﴿ وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ[2] لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ .. (١٠٤) ﴾ [الإسراء]

---

(١) اهبطوا : انزلوا. مصراً : من الأمصار ، أى : بلداً من البلاد.
(٢) من بعده : أى من بعد إغراق فرعون.

وقد يقول أحد السطحيين: وهل هناك سكن فى غير الأرض ؟

ونقول: لنا أن نلحظ أن الحق سبحانه لم يحدد لهم فى أية بقعة من الأرض يسكنون ، فكأن الحق سبحانه قد بيَّن ما أصدره من حكم عليهم بالتقطيع فى الأرض أمماً ؛ فهو سبحانه القائل:

﴿ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأَرْضِ أُمَمًا [(١)] .. (١٦٨) ﴾ [الأعراف]

وإذا كنا نراهم فى أيامنا هذه وقد صار لهم وطن ، فاعلم أن الحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا (٤) ﴾ [الإسراء]

وقد قال فى آخر سورة الإسراء:

﴿ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا [(٢)] (١٠٤) ﴾ [الإسراء]

والمجىء بهم لفيفاً إنما يعنى أن يجمعهم فى وطن قومى لتأتى لهم الضربة القاصمة التى ذكرها الحق سبحانه فى قوله :

﴿ .. فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوؤُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا [(٣)] (٧) ﴾ [الإسراء]

---

(١) أى: فرقناهم فى الأرض فرقاً . [تفسير الجلالين: ص ١٤٦].

(٢) لفيفاً: جميعاً.

(٣) أى: إذا أفسدتم الكرَّة الآخرة وجاء أعداؤكم ليسوءوا وجوهكم ، أى: يهينوكم ويقهروكم ﴿ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ ..(٧) ﴾ أى: بيت المقدس ﴿ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ ..(٧) ﴾ أى : فى التى جاسوا فيها خلال الديار ﴿ .. وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا (٧) ﴾ أى: يدمروا ويخربوا ما ظهروا عليه تدميراً. بتصرف من تفسير ابن كثير (٣/ ٢٦) وقد ذكر ابن كثير قول قتادة: قد عاد بنو إسرائيل فسلط الله عليهم هذا الحى محمداً ﷺ وأصحابه يأخذون منهم الجزية عن يد وهم صاغرون ، وهذا لا ينفى أن يحدث عدة مرات ، ولذلك قال رب العزة: ﴿ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ..(٨) ﴾ [الإسراء].

لأننا لن نستطيع أن نحاربهم فى كل بلد من البلاد التى قطّعهم الله فيها ، لكنهم حين يجتمعون فى مكان واحد، إنما يسهل أن ينزل عليهم قضاء الله.

وحين ننظر إلى رحلتهم نجد أن «يثرب» كانت المكان الذى اتسع لهم بعد اضطهادات المجتمعات التى دخلوا إليها ، وحين اجتمعوا فى يثرب صار لهم الجاه ؛ لأنهم أهل علم ، وأهل اقتصاد ، وأهل حرب.

وهم قد اجتمعوا فى المدينة ؛ لأن المخلصين من أهل الكتاب أخبروهم أن هذه المدينة هى المهجر لنبى ورسول يأتى من العرب فى آخر الزمان ؛ فمكثوا فيها انتظاراً له ، وكانوا يقولون لكفار قريش: «لقد أظل زمان يأتى فيه نبى نتبعه ، ونقتلكم فيه قَتل عاد وإرم »(1).

وكان من المفروض أن يؤمنوا برسالته ﷺ ، لكنه ما إن أطل رسول الله ﷺ بنور رسالته حتى أنكروه خوفاً على سلطتهم الزمنية.

وهو ما تقول عنه الآية الكريمة التى نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ ..(٩٣) ﴾ [يونس]

أى: أن علمهم بمجىء الرسول ﷺ هو مصدر اختلافهم ، فمنهم من سمعوا إشارات عنه ﷺ وعرفوا علاماته ﷺ ؛ فآمنوا به ، ومنهم من لم يؤمن به.

---

(١) قال الحق سبحانه: ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٨٩) ﴾ [البقرة] وعن أشياخ من الأنصار قالوا: كنا قد علوناهم قهراً دهراً فى الجاهلية ونحن أهل شرك وهم أهل كتاب وهم يقولون: إن نبياً سيبعث الآن نتبعه ، قد أظل زمانه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم ، فلما بعث الله رسوله من قريش واتبعناه كفروا به. ذكره ابن كثير فى تفسيره (١/ ١٢٤) نقلاً عن ابن إسحاق.

وهم لم يختلفوا من قبل وكانوا متفقين ، وتوعَّدوا المشركين من قريش . وما إن أهلَّ الرسول ﷺ وعلمت به «الأوس» و«الخزرج» أنه رسول من الله تعالى قد ظهر بمكة ، فقالت الأوس والخزرج : إنه النبى الذى توعَّدتنا به يهود ، فهيا بنا لنذهب ونسبقهم إليه قبل أن يسبقونا ، فيقتلونا به .

فكأن اليهود هم الذين تسببوا فى هجرة النبى ﷺ إلى المدينة ؛ لأن الأوس والخزرج سبقوهم إليه ؛ وهذا لنعلم كيف ينصر الله تعالى دينه بأعدائه .

ولذلك نجد أنهم فى اختلافهم يأتى عبد الله بن سلام [١] إلى رسول الله ﷺ ويقول : إن اليهود قوم بُهْتٌ ، وإذا أنا آمنت بك يا رسول الله سيقولون فىَّ ما يسىء إلىَّ ؛ لذلك فقبل أن أعلن إسلامى اسألهم عنِّى .

وكان ابن سلام فى ذلك يسلك سلوكاً يتناسب مع كونه يهودياً ، ولما اجتمع معشر اليهود ، سألهم النبى ﷺ وقال : ما تقولون فى ابن سلام ؟

قالوا : حَبْرُنا وشيخنا وهو الورع فينا ، وبعد أن أثنوا عليه ثناء عظيماً ، قال ابن سلام : يا رسول الله أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله .

وهنا بدأ اليهود يكيلون له السِّباب ، فقال ابن سلام : ألم أقُلْ لك يا

---

(١) هو : عبد الله بن سلام بن الحارث الإسرائيلى ، أبو يوسف ، أسلم عند قدوم النبى ﷺ المدينة ، كان اسمه الحصين وسماه النبى ﷺ عبد الله ، شهد مع عمر فتح بيت المقدس والجابية . ولما كانت الفتنة بين على ومعاوية اتخذ سيفاً من خشب ، واعتزلها ، وأقام بالمدينة إلى أن مات عام ٤٣ هـ (الأعلام - للزركلى ٤/ ٩٠) .

رسول الله إنهم قوم بُهْت[1] ؟

إذن : فمعنى قوله سبحانه :

﴿فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ ..﴿٩٣﴾﴾ [يونس]

أى : أن أناساً منهم بقوا على الباطل ، وأناساً منهم آمنوا بالرسول الحق ﷺ .

وينهى الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله تعالى :

﴿.. إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [يونس]

أى : أن الله سبحانه وتعالى سوف يقضى بين من جاءوا فى صف الإيمان ، وبين مَنْ بَقَوْا على اليهودية المتعصبة ضد الإيمان .

ونحن نلحظ أن كلمة ﴿بَيْنَهُمْ﴾ توضح أن الضمير عام ، لهؤلاء ولأولئك .

ونقول : إن الحق سبحانه وتعالى يقضى يوم القيامة بين المؤمنين والكافرين ، ويقضى أيضاً بين الكافرين ، فمنهم من كان ظالماً لكافر ،

---

(١) عن أنس بن مالك أن عبد الله بن سلام بلغه مقدم النبى ﷺ المدينة ، فأتاه يسأله عن أشياء فقال : إنى سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبى : ما أول أشراط الساعة؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة ؛ وما بال الولد ينزع إلى أبيه أو إلى أمه؟ قال : أخبرنى به جبريل آنفاً . قال ابن سلام : ذاك عدو اليهود من الملائكة . قال : أما أول أشراط الساعة فنار تحشرهم من المشرق إلى المغرب ، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت . وأما الولد فإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد ، وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل نزعت الولد . قال : أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله . قال : يا رسول الله ، إن اليهود قوم بهت ، فاسألهم عنّى قبل أن يعلموا بإسلامى . فجاءت اليهود ، فقال النبى ﷺ : أى رجل عبد الله بن سلام فيكم؟ قالوا : خيرنا وابن خيرنا . وأفضلنا وابن أفضلنا . فقال النبى ﷺ : أرأيتم إن أسلم عبد الله بن سلام ؟ قالوا : أعاذه الله من ذلك . فأعاد عليهم ؛ فقالوا مثل ذلك . فخرج إليهم عبد الله فقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، قالوا : شرنا وابن شرنا ، وتنقّصوه ، قال : هذا ما كنت أخاف يا رسول الله . أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٩٣٨) وأحمد فى مسنده (٣/ ١٠٨ ، ٢٧١ ، ٢٧٢) .

ومنهم من كان مختلساً أو مرتشياً ، ومنهم من عمل على غير مقتضى دينه ؛ لذلك يقضى الله سبحانه بينهم .

والآية تفيد العموم فى القضاء ماضياً وحاضراً ومستقبلاً بين كل مؤمن وكافر ، وبين كل تائب وعاصٍ .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ[1] فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ[2] يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ[3] ﴿٩٤﴾ ﴾

والخطاب هنا لرسول الله ﷺ .

ونحن نعلم أن الرسول ﷺ قد قال من البداية إنه لا يشك فى رسالته ، وحين وعده أهله بالسيادة قال :

«والله لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى على أن أترك

(١) المخاطب بهذه الآية محمد ﷺ والمراد به غيره ، وكذلك الآية بعدها : ﴿ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾[يونس] ، وقد تأول بعض العلماء الشك هنا بأنه ضيق الصدر ، أى : إن ضاق صدرك بكفر هؤلاء فاصبر ، واسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك يخبروك صبر الأنبياء من قبلك على أذى قومهم وكيف عاقبة أمرهم . [تفسير القرطبى ٤/ ٣٣١٠] .

(٢) فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك : من أهل التوراة والإنجيل ، كعبد الله بن سلام . وقيل : إن رسول الله ﷺ - لما نزلت هذه الآية - قال : «ما أشك ولا أسأل» . وقد علم الله ذلك منه ، ومخرج هذا القول ، كقول الرجل لابنه : إن كنت ابنى فبرنى - من البر - أى : كن باراً بى . وهو لا يشك فى أنه ابنه . من الممترين : الشاكّين . [مختصر تفسير الطبرى : ص ٢٤١] .

(٣) امترى فى الشىء : شك فيه ولم يستيقن . وتمارى القوم به : تجادلوا . وتمارى فى الشىء : تشكك فيه . قال تعالى : ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ ﴾ [النجم] أى : تشكك ، ويتضمن معنى التكذيب . [القاموس القويم] وراجع : لسان العرب مادة [مرى] .

هـذا الأمـر حتى يُظهره الله ، أو أهلك فيه ، ما تركته »[١].

نقول : إن الحق سبحانه وتعالى يضمر خطاب الأمة فى خطاب رسوله ﷺ ؛ لأن الأتباع حين يقرأون ويسمعون الخطاب وهو موجَّه بهذا الأسلوب إلى الرسول ﷺ فهم لن يستنكفوا[٢] عن أىِّ أمر يصدر إليهم .

ومثال ذلك : لو أن قائداً يصدر أمراً لاثنين من مساعديه اللذين يقودان مجموعتين من المقاتلين ، فيقول القائد الأعلى لكل منهما : إياك أن تفعل كذا أو تصنع كذا . والقائد الأعلى بتعليماته لا يقصد المساعدين له ، ولكنه يقصد كل مرءوسيهم من الجند .

وجاء الأمر هنا لرسول الله ﷺ ؛ لتفهم أمته أن الرسول ﷺ ما كان ليتأبَّى على أمر من أوامر الله ، بل هو ﷺ ينفّذ كل ما يؤمر به بدقة[٣] ؛ وذلك من باب خطاب الأمة فى شخصية رسولها ﷺ .

وقول الحق سبحانه :

﴿ فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ ..(٩٤) ﴾ [يونس]

---

(١) أورده ابن هشام فى السيرة النبوية (١/ ٢٦٦) معزواً لابن إسحاق ، أن قريشاً قالوا لأبى طالب : يا أبا طالب ، إن لك سناً وشرفاً ومنزلة فينا ، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا ، وإنا و الله لا نصبر على هذا من شَتْم آبائنا ، وتسفيه أحلامنا ، وعَيْب آلهتنا ، حتى تكفه عنا ، أو ننازله وإياك فى ذلك ، حتى يهلك أحد الفريقين ، فبعث أبو طالب إلى رسول الله ﷺ فقال له : يا بن أخى ، إن قومك قد جاءونى ، فقالوا لى كذا وكذا ، فأبْقِ علىَّ وعلى نفسك ، ولا تحملنى من الأمر ما لا أطيق . فقال له رسول الله ﷺ هذه المقالة .

(٢) الاستنكاف : الامتناع تكبراً وأنفة . ومنه قوله تعالى : ﴿ لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا (١٧٢) ﴾ [النساء] .

(٣) ومصداق ذلك قوله سبحانه : ﴿ فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ .. (١٥) ﴾ [الشورى] .

هذا القول دليل على أن الذين عندهم علم بالكتاب من السابقين على رسول الله ﷺ ، يعرفون الحقائق الواضحة عن رسالته ﷺ .

وإن الذين يكابرون ويكفرون برسول الله ﷺ ورسالته إنما يعرفونه كما يعرفون أبناءهم .

وقد قال عبد الله بن سلام : «لقد عرفت محمداً حين رأيته كمعرفتي لابني ، ومعرفتي لمحمد أشد»(١) .

إذن : فالحق عندهم واضح مكتوبٌ في التوراة(٢) من بشارة به ﷺ ، وهذا يثبت أنك يا محمد صادق في دعوتك ، بشهادة هؤلاء .

ويُنهي الحق سبحانه الآية بقوله تعالى :

﴿ .. لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (٩٤) ﴾ [يونس]

والحق القادم من الله تعالى ثابت لا يتغير ؛ لأنه واقع ، والواقع لا يتعدد ، بل يأتي على صورة واحدة .

---

(١) ذكره ابن كثير في تفسيره (٢/ ١٩٤) أن عمر بن الخطاب سأل عبد الله بن سلام : أتعرف محمداً كما تعرف ولدك؟ قال : نعم وأكثر ، نزل الأمين من السماء على الأمين في الأرض بنعته فعرفته ، وإني لا أدري ما كان من أمه .

(٢) يقول تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٥٧) ﴾ [الأعراف]

وعن عطاء بن يسار عن عبد الله بن عمرو ، كان يقول : إن هذه الآية التي في القرآن : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٤٥) ﴾ [الأحزاب] هي في التوراة : يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً للأميين ، أنت عبدي ورسولي ، سميتك : المتوكل ، لست بفظٍّ ولا غليظ ولا سخاب بالأسواق ، ولا يدفع السيئة بالسيئة ، ولكن يعفو ويصفح ، ولن نقبضه حتى نقيم به الملة العوجاء حتى يقولوا : لا إله إلا الله ، فيفتح بها أعيناً عمياً ، وآذاناً صُمّاً ، وقلوباً غلفاً . أخرجه البخاري في كتاب التفسير (٨/ ٥٨٥ فتح) والبيهقي في الدلائل (١/ ٣٧٥) .

أما الكذب فيأتى على صور متعددة .

ولذلك فمهمة المحقِّق الدقيق أن يقلِّب أوجه الشهادات التى تقال أمامه فى النيابة أو القضاء ؛ حتى يأتى حكمه مصيباً لا مدخل فيه لتناقض ، ولا يعتمد على تخيُّل أو أكاذيب .

وقول الحق سبحانه :

﴿ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ ..(٩٤) ﴾ [يونس]

إنما يدل على أن الذين قرأوا الكتاب قد عرفوا أنك رسول الله حقّاً ، ومنهم من ترك معسكر اليهودية ، وجاء إلى معسكر الإيمان بك ؛ لأن الحق الذى جاء لا دخل للبشرية فيه ، بل جاء من ربك :

﴿ ..فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (٩٤) ﴾ [يونس]

ومجىء الخطاب بهذا الشكل ، هو كما قلت موجَّه إلى الأمَّة المؤمنة فى شخص الرسول ﷺ .

والحق سبحانه يقول :

﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ [1] ..(٦٥) ﴾ [الزمر]

هذا القول نزل على رسول الله ﷺ ، ومن غير المعقول أن يشرك النبى ﷺ ، وكل الآيات التى تحمل معانى التوجيه فى الأمور المنزَّه عنها رسول الله ﷺ خاصَّة بأمته .

وأيضاً يقول الحق سبحانه :

(١) أى : لئن أشركت بالله أحداً ؛ ليبطلن عملك . [مختصر تفسير الطبرى : ص ٥٢٧] بتصرف . وحبوط الأعمال بطلانها وفسادها رغم تحصيلها . وأصله إذا حبطت الماشية . أى : تأكل فتكثر حتى تنتفخ بطونها ولا يخرج عنها ما فيها [انظر اللسان مادة : حبط] .

﴿ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٩٥) ﴾

[يونس]

والقول الحكيم ساعة يوجِّه إلى الخير قد يأتى بمقابله من الشر ؛ لتتضح الأشياء بالمقارنة.

ونحن فى حياتنا اليومية نجد الأب يقول لابنه: اجتهد فى دروسك ، واستمع إلى مدرِّسيك جيّداً حتى تنجح ، فلا تكن مثل فلان الذى رسب ، والوالد فى هذه الحالة يأتى بالإغراء الخيِّر ، ويصاحبه بمقابله ، وهو التحذير من الشر.

وقد قال الشاعر:

فالوَجْهُ مثلُ الصُّبحِ مُبْيَضٌّ   والشَّعْرُ مثلُ الليلِ مُسْوَدُّ
ضِدَّانِ لمّا استجمعا حَسُنَا   والضِّدُّ يُظْهِر حُسنَهُ الضِّدُّ [1]

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ (٩٥) ﴾

وآيات الله سبحانه كما نعرفها متعددة ؛ إما آيات كونية وهى الأصل فى المعتقد الأول بأن خالقها هو الخالق الأعلى سبحانه ، وتُلْفت هذه الآيات إلى بديع صُنْعه سبحانه ، ودقة تكوين خلقه ، وشمول قدرتِه .

وكذلك يُقصد بالآيات ؛ المعجزات المنزلة على الرسل - عليهم السلام - لتظهر صدق كل رسول فى البلاغ عن الله تعالى .

---

(١) الأضداد : فى ظهورها تظهر ميزات ما فيها ، فنحن لا نعرف قيمة الحق إلاَّ إذا تذوَّقنا مرارة الباطل ، ولا نعرف قيمة النهار إلا إذا عشنا الليل فى إظلامه ، ولا نعرف جمال العدل إلا إذا اكتوينا بنار المظالم.

وآيات القرآن الكريم التى تحمل منهج الله .

وهم كانوا يُكذِّبون بكل الآيات .

والخطاب فى هذه الآية هو خطاب للنبى ﷺ ، وجاء معطوفاً على ما فى الآية السابقة ، حيث يقول الحق سبحانه :

﴿ فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ .. (٩٤) ﴾ [يونس]

وكل ما يرد من مثل هذا القول لا يصح أن نفهم منه أن رسول الله ﷺ من الممكن أن يشك ، أو من المحتمل أن يكون من الذين كذَّبوا بآيات الله - سبحانه وتعالى - ولكن إيراد مثل هذا الأمر ، هو إيراد لدفع خواطر البشرية ، أيّا كانت تلك الخواطر ، فإذا وجدنا الخطاب المراد به رسول الله ﷺ فى التنزيل ، فغاية المراد اعتدال موازين الفهم فى أمّته تعليماً وتوجيهاً ؛ لأن المنهج مُنزّل عليه لتبليغه لأمته فهو شهيد على الأمم[1] .

وإذا كانت الآية التى سبقت توضح : إن كنت فى شك فاسأل ، فهو سبحانه يعطيه السؤال ؛ ليستمع منه إلى الجواب ، وليُسْمعه لكل الأمة ؛ الجواب القائل : أنا لا أشك ولا أسأل ، وحسبى ما أنزل الله سبحانه علىَّ .

ألم يَردْ فى القرآن الكريم أن الحق سبحانه وتعالى يقول للملائكة يوم القيامة بِمَحضر من عبدوا الملائكة ، ويشير إلى هؤلاء الذين عبدوا الملائكة ومخاطباً ملائكته :

﴿ .. أَهَـٰؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ (٤٠) ﴾ [سبأ]

ونحن نعلم أن الملائكة :

﴿ ..لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦) ﴾ [التحريم]

---

(١) وذلك مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ..(١٤٣) ﴾ [البقرة] .

والحق سبحانه يعلم مسبقاً جواب الملائكة ، وهم يقولون :

﴿ سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ..(٤١) ﴾ [سبأ]

ولكنه سبحانه وتعالى أراد أن يُسْمِع من فى الحشر كلهم جواب الملائكة وهم يستنكرون أن يعبدهم أحد من الخَلق ، فهؤلاء الخلق إنما عبدوا الجن .

إذن : فالسؤال جاء ؛ ليبين الرد عليه ، مثلما يرد عيسى عليه السلام حين يُعبد من بعض قومه ، ويسأله سبحانه عن ذلك :

﴿ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ..(١١٦) ﴾ [المائدة]

فيأتى الجواب :

﴿ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ..(١١٦) ﴾ [المائدة]

إذن : فالمراد أن يقول الرسول ﷺ : أنا لا أشك ولا أسأل .

والشك [١] – كما نعلم – معناه : تساوى كفة النفى وكفة الإثبات ، فإن رجحت واحدة منهما فهذا ظن ، وتكون المرجوحة وَهْماً وافتراء وكذباً .

وكلمة «الشك» مأخوذة من مسألة حسية ، فنحن نرى الصيادين وهم يضعون كل سمكة بعد اصطيادها فى خيط يسمى «المشكاك» .

وكذلك نرى من يقوم بـ(لضْم) العقود ، وهو يشك الحبة فى الخيط [٢] .

من هذا نأخذ أن الشك معناه : ضَمُّ شىء إلى شىء ، ومنه الشكائك [٣] ، وهى البيوت المنتظمة بجانب بعضها البعض .

---

(١) الشك : حالة نفسية يتردد معها الذهن بين الإثبات والنفى ، ويتوقف عن الحكم . [المعجم الوسيط] .

(٢) شك الشىء واشتكه : ضم أجزاءه . [المعجم الوسيط : مادة (ش ك ك)] .

(٣) الشكائك : جمع شكيكة ، وهى مجموعة أشياء شُكَّ – أى ضُمَّ – بعضها إلى بعض . [المعجم الوسيط : مادة (ش ك ك)] .

ومنه «شاك السلاح [(١)]» أى: الذى ضَمَّ نفسه إلى الدرع.

فالشك هو ضم شىء إلى شىء، وفى النسب تضم النفى والإثبات معاً؛ لأنك غير قادر على أن ترجِّح أحدهما.

وكل خطاب فى الشك يأتى على هذا اللون.

والآية التى نحن بصددها تقول:

﴿ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٩٥) ﴾ [يونس]

ونحن نعلم أن الرسول ﷺ هو نفسه آية من الآيات، وهكذا نرى أن الخطاب مُوجَّه لأمته، فمن المستحيل أن يكون الرسول ﷺ من المكذِّبين لآيات الله - سبحانه وتعالى - لأن التكذيب بآيات الله تعالى يعنى: إخراج الصدق إلى الكذب، وإخراج الواقع إلى غير الواقع.

والذين كذبوا بالآيات إما أنهم لا يؤمنون بإله، أو يؤمنون بإله ولا يؤمنون برسول، أو يؤمنون بإله ويؤمنون برسول ولا يؤمنون بما أنزِل على الرسول ﷺ.

والذى يؤيد هذا وجود آية فى آخر السورة يقول فيها الحق سبحانه:

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ [(٢)] اللَّهِ .. (١٠٤) ﴾ [يونس]

---

(١) الشَّكة: ما يحمل أو يلبس من السلاح. [المعجم الوسيط: مادة (ش ك ك)].

(٢) دون: نقيض فوق، وتكون ظرفاً، وتأتى بمعنى أمام، وبمعنى وراء، وبمعنى غير، وبمعنى قرب أو جهة، وبمعنى قبل، وبمعنى أقل. والتمييز بين هذه المعانى يكون بالقرائن. وهى فى الآية ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٤) ﴾ [يونس] بمعنى (غير). [القاموس القويم] بتصرف.

فكأن الخطاب المقصود منه الأمة.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ[1] عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾

وهذا القول يوضح لنا أن الحق سبحانه وتعالى قد علم عِلْماً أزليّاً بأنهم لن يُوجِّهوا اختيارهم للإيمان.

فحكمه هنا لا ينفى عنهم مسئولية الاختيار، ولكنه علم الله الأزلى بما سوف يفعلون، ثم جاءوا إلى الاختيار فتحقق علم الله سبحانه وتعالى بهم من سلوكهم.

وحُكْمه سبحانه مبنيٌّ على الاختيار، وهو حكم تقديرى.

ومثال ذلك - ولله المثل الأعلى- حين يأتى وزير الزراعة، ويعلن أننا قدَّرنا محصول القطن هذا العام، بحساب مساحة الأراضى المنزرعة قطناً، وبالمتوسط المتوقع لكل فدان، وقد يصيب الحكم، وقد يخيب نتيجة العوامل والظروف الأخرى المحيطة بزراعة القطن، فمن المحتمل أن يُصاب القطن بآفة من الآفات، مثل: دودة اللوزة، أو دودة الورقة.

إذن: ففى المجال البشرى قد يصيب التقدير وقد يخطىء؛ لأن الإنسان يُقدِّر بغير علم مُطْلق، بل بعلم نسبى.

أما تقدير الحق سبحانه فهو تقدير أزلى، وحين يُقدّر الحق سبحانه فلا بد من وقوع ما قدَّره.

---

(١) حقت: وجبت عليهم كلمة ربك بالعذاب [تفسير الجلالين: ص ١٨٧].

ولذلك يجب أن نفرق بين قضاء حكم لازم قهرى ليس للإنسان فيه تصرف، وبين قدر قد قُدِّر من الله تعالى أن يفعله الإنسان باختياره ، وهذه هى عظمة علم الغيب.

ومثال ذلك: هو سلوك أبى لهب [1] ، فقد نزل فيه قرآن يُتلَى:

﴿ تَبَّتْ [2] يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢) ﴾

[المسد]

وقد نزلت السورة وأبو لهب على قيد الحياة ؛ لأن الحق سبحانه قد علم أزلاً أن خواطر أبى لهب لن تدفعه إلى الإيمان ، ولو أن أبا لهب امتلك ذرة من ذكاء لجاء لرسول الله ﷺ وقال: أنت قلت عنِّى إننى سأصْلَى [3] النار ، لكن ها أنذا أعلن أننى أشهد ألا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله .

لكن ذلك الذكاء لم يكن يملكه أبو لهب ، فقد علم الله أزلاً أن خواطره لن تدفعه إلى الإسلام ، مثلما دفعت حمزة بن عبد المطلب عم النبى ﷺ وعمر بن الخطاب ، وخالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص. وكان إسلام هؤلاء رغم وقوفهم ضد النبى ﷺ أمراً وارداً.

وقد يُقدِّر البشر التقدير ، لكن هذا التقدير إنما يتم حسب المعلومات

(١) أبو لهب هو أحد أعمام رسول الله ﷺ ، واسمه عبد العزى بن عبد المطلب ، وكنيته أبو عتبة ، وإنما سمى أبا لهب لاحمرار وجهه وإشراقه كأنه اللهب.

وسبب نزول السورة التى ذُكر فيها ، أن النبى ﷺ خرج إلى البطحاء فصعد الجبل فنادى: يا صباحاه. فاجتمعت إليه قريش فقال: أرأيتم إن حدثتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم ، أكنتم تصدقونى؟ قالوا: نعم. قال: فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد. فقال أبو لهب : تبّاً لك ، ألهذا جمعتنا؟ فأنزل الله : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) ﴾ إلى آخرها. أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٠٨) عن ابن عباس.

(٢) تبت: هلكت أو خسرت أو خابت. [كلمات القرآن: للشيخ حسنين محمد مخلوف].

(٣) وهو قوله تعالى: ﴿ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٣) ﴾[المسد] أى: سيُشوى بنار جهنم.

المتاحة لهم ، ولا يملك إنسان علماً كونيّاً أزليّاً بتقديراته ، فعلمه محدود ، وقد يأتى الأمر على غير ما يُقدِّر ؛ لأن الإنسان لا يملك ما يقدر.

ولا يقولنَّ أحدٌ : إن الله يعاقب بعد أن قدَّر مسبقاً ؛ لأن تقدير الحق سبحانه نابع من علمه الأزلى ، وهم كانوا يتمتعون بحق الاختيار. والله سبحانه هو القائل :

﴿ وإذا ما أُنزِلَتْ سُورةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا [١] إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ (١٢٥) ﴾ [التوبة]

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ [٢] (٩٧) ﴾

إذن : فمجيء الآيات وتكرارها لن يفيدهم فى الاتجاه إلى الإيمان ؛ لأن الحق سبحانه يعلم أنهم سيتوجهون باختيارهم إلى الكفر ؛ فقد قالوا - من قبل - ما أورده الحق سبحانه فى كتابه العزيز :

﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا [٣] (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ

---

(١) الرجس : القَذَر والنتن حسياً ومعنوياً ويطلق على ما يُستقبح فى الشرع . والرجس والرجز معناهما واحد ويطلق الرجس على العذاب لأنه سبب عنه . قال تعالى : ﴿ **قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ** .. (٧١) ﴾ [الأعراف] أى : عذاب بسبب الرجس الذى اقترفوه [القاموس القويم] بتصرف .

(٢) ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم : فلا ينفعهم حينئذ . [تفسير الجلالين : ص ١٨٧] .

(٣) الينبوع : العين التى لا ينضب ماؤها.

كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا [١] أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً [٢] (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ [٣] أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً [٤] (٩٣) ﴾ [الإسراء]

وكأن الحق سبحانه يأمر رسوله أن يقول موضحاً: لستُ أنا الذى يُنزل الآيات ، بل الآيات من عند الله تعالى ، ثم يأتى القرآن بالسبب الذى لم تنزل به تلك الآيات التى طلبوها ، فيقول سبحانه:

﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ ..(٥٩) ﴾ [الإسراء]

إذن: فقد نزلت آيات كثيرة لمن سبق فى المعاندة والمعارضة ، ويقابل قضية عرض الإيمان عليه بكفر يملأ قلبه.

فإن كان هناك من يبحث عن الإيمان فليدخل على بحث الإيمان بدون مُعتقد سابق ، ولينظر إلى المسألة ، وما يسمح به قلبه فليُدخله فيه ؛ وبهذا الاختيار القلبى غير المشروط بمعتقد سابق هو قمة القبول .

وقد قال الحق سبحانه فى الآيات السابقة كلاماً فى الوحدانية ، وكلاماً فى الآيات المعجزات ، وكلاماً فى صدق النبوة ، وكلاماً عن القيامة ،

---

(١) كسفاً: قطعاً. والكسف: السحاب المقطع قطعاً ، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ .. (٤٨) ﴾ [الروم].

(٢) قبيلاً: متقابلين. والمراد رؤيتهم عياناً.

(٣) الزخرف هنا: هو الذهب. والزخرف: الزينة ، وقد يقصد به التمويه والتزوير وتزيين الكذب ، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ..(١١٢) ﴾ [الأنعام].

(٤) ينبوعاً: عيناً تنبع لنا بالماء ببلدنا هذا. جنة: بستان. فتفجر الأنهار: بأرضنا هذه التى نحن بها. خلالها: يعنى: خلال النخيل والكروم. وخلالها: بينها فى أصولها. تفجيراً: سيلاً يسيل بينها. كسفاً: قطعاً. قبيلاً: مقابلة أو جميعاً ، فنعاينهم معاينة. زخرف: ذهب. ترقى: تصعد فى درج إلى السماء. [مختصر تفسير الطبرى: ص ٣٢٤ ، ٣٢٥] بتصرف.

وقصَّ لنا سبحانه بعضاً من قصص مواكب الرسل ، من نوح عليه السلام ، ثم فصَّل قليلاً فى قصة موسى وهارون عليهما السلام ، ثم سيأتى من بعد ذلك بقصة يونس عليه السلام.

ونحن نلحظ أن الحق سبحانه جاء بقصة نوح عليه السلام فى إطناب [1] ، ثم جاء بخبر عن رسل لم يَقُلْ لنا عنهم شيئاً ، ثم جاء بقصة موسى وهارون عليهما السلام ، ثم سيأتى من بعد ذلك بقصة يونس عليه السلام ، فالسورة تضم ثلاثاً من الرسالات : رسالة نوح ، ورسالة موسى وهارون ، ورسالة يونس ، وهو الرسول الذى سُمِّيت السورة باسمه.

ولسائل أن يقول : ولماذا جاء بهؤلاء الثلاثة فى هذه السورة ؟

وأقول : لقد تعبنا كثيراً ، ومعنا كثير من المفسرين حتى نتلمَّس الحكمة فى ذلك ، ولماذا لم تأت فى السورة قصة هود ، وثمود ، وشعيب ، وكان لا بد أن تكون هناك حكمة من ذلك .

هذه الحكمة فيما تجلى لنا أن الحق سبحانه وتعالى يعرض موكب الرسالة وموكب المعارضين لكل رسول ، والنتيجة التى انتهى إليها أمر الأعداء ، وكذلك النتيجة التى انتهى إليها أمر الرسول ومَنْ آمن به.

ونجد الذين ذكرهم الله سبحانه هنا قد أهلكوا إهلاكاً متحداً بنوع واحد فى الجميع ، فإهلاك قوم نوح كان بالغرق ، وكذلك الإهلاك لقوم فرعون كان بالغرق ، وكذلك كانت قصة سيدنا يونس لها علاقة بالبحر ، فقد ابتلعه الحوت وجرى فى البحر.

---

(١) الإطناب والمساواة والإيجاز من فنون البلاغة فالإطناب : شرح بإفاضة . والمساواة : مساواة اللفظ للمعنى . والإيجاز : اللفظ القليل للمعنى الكبير ولكل مقام مقاله . [شرح دلائل الإعجاز] بتصرف .

إذن: فمَنْ ذُكر هنا من الرسل كان له علاقة بالماء ، أما بقية الموكب الرسالى فلم تكن لهم علاقة بالماء.

ونحن نعرف أن الماء به الحياة ، وبه الإهلاك ؛ لأن واهب الحياة يهب الحياة بالشيء ، ويُهلك بالشيء نفسه. وكأن الحق سبحانه يبيِّن لنا الحكمة: أنا أهلكتُ بالغرق هناك ، ونجَّيْتُ من الغرق هنا.

إذن: فطلاقة القدرة الإلهية هى المستولية على هذه السورة ، كما تظهر طلاقة القدرة فى مجالات أخرى ، وبألوان أخرى[1].

وسُمِّيت هذه السورة باسم يونس ؛ لأن الحق سبحانه أرسله إلى أكثر من مائة ألف[2] ، وهم الأمة الوحيدة فى هذا المجال التى استثناها الحق سبحانه من الإهلاك، فقد أغرق قوم نوح، وأغرق قوم فرعون ؛ فكلاهما قد كذَّب الرسل، ولكن قوم يونس أول ما رأوا البأس[3] آمنوا فأنجاهم الله سبحانه.

وسُمِّيت السورة باسم من نجا ؛ لأنه عاد إلى الحق سبحانه قبل أن يعاين العذاب ، ولكنهم رأوا فقط بشائر العذاب ، فنجَّوا أنفسهم بالإيمان.

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى:

---

(١) من طلاقة القدرة توظيف الشيء فى ضدّه مثل النار ، فوظيفتها الإحراق ولكنها كانت على سيدنا إبراهيم برداً وسلاماً . والماء به الحياة وفيه الغرق ، وبه النجاة ؛ فقد نجى الله سبحانه موسى عليه السلام وأغرق به فرعون .

(٢) يقول سبحانه: ﴿ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ ﴾ [الصافات] وهم من قرية «نينوى» جهة الموصل بالعراق الحالية.

(٣) البأس: العذاب. يقول تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا .. ﴿١٤٨﴾ ﴾ [الأنعام] ، ويقول: ﴿ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [الأعراف]. والبأس: شدة الحرب ، يقول تعالى: ﴿ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ .. ﴿١٧٧﴾ ﴾ [البقرة]. والبأس: القوة. يقول تعالى عن قوم بلقيس ملكة سبأ حين شاورتهم فى أمر سليمان: ﴿ قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ .. ﴿٣٣﴾ ﴾ [النمل].

﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ (٩٨) ﴾[(1)][(2)]

وهكذا يبيِّن لنا الحق سبحانه أن هناك كثيراً من القرى لم تؤمن إلا وقت العذاب ، فلم ينفع أيّاً منهم هذا الإيمان ، ولكن قوم يونس قبل أن تأتى بشائر العذاب والبأس أعلنوا الإيمان فَقَبِل الحق سبحانه إيمانهم ؛ لأنه سبحانه لا يظلم عباده.

فمَنْ وصل إلى العذاب ، وأعلن الإيمان من قلب العذاب لا يُقبَلُ منه ، ومن أحس واستشفَّ بواكير العذاب وآمن فالحق سبحانه وتعالى يقبله.

وكلمة «لولا» إذا سمعتها فمثلها مثل «لوما» ، وإذا دخلت «لولا» على جملة اسمية فلها حكم يختلف عن حكمها لو دخلت على جملة فعلية ، فحين تدخل على جملة اسمية مثل : «لولا زيد عندك لأتيتك» تفيد أن امتناع المجىء هو بسبب وجود زيد ، لكنها إن دخلت على جملة فعلية فيقال عنها : «أداة تحضيض وحَثّ» مثل قول الحق سبحانه :

﴿ فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِى الدِّينِ .. (١٢٢) ﴾ [التوبة]

---

(١) لولا : حرف شرط لا يعمل ويدل على امتناع الجواب لوجود الشرط ، وجملة الشرط (اسمية) ويحذف الخبر وجوباً إذا كان كوناً عاماً وإذا وليها مضمر يكون ضمير رفع منفصل [القاموس القويم] .

(٢) ﴿ فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ .. (٩٨) ﴾ : يقول عز وجل : لم تكن قرية آمنت فنفعها الإيمان إذا نزل بهم بأس الله ﴿ إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ .. (٩٨) ﴾ قيل : إنهم لما أظلهم العذاب ، وظنوا أنه قد دنا منهم ، وفقدوا يونس ، قذف الله فى قلوبهم التوبة ، وفرَّقوا بين كل أنثى وولدها ، وعَجُّوا - أى : رفعوا صوتهم بالتلبية - إلى الله أربعين ليلة ؛ فلما عرف صدق توبتهم كشف عنهم العذاب. ﴿ ..وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ (٩٨) ﴾ : لم نعاجلهم بالعقوبة ، واستمتعوا بآجالهم فى الدنيا ، إلى حين مماتهم ووقت فناء أعمارهم. [مختصر تفسير الطبرى : ص ٢٤١ ، ٢٤٢].

أي: أنه كان يجب أن ينفر من كل طائفة عدد ليتدارسوا أمور الدين.

والحق سبحانه وتعالى يقول هنا:

﴿ فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ ..(٩٨) ﴾ [يونس]

أي: أنه لو أن هناك قرية آمنت قبل أن ينزل بها العذاب لأنجيناها كما أنجينا قوم يونس، أو كنا نحب أن يحدث الإيمان من قرية قبل أن يأتيها العذاب.

إذن: فقوم يونس هنا مُسْتثنون؛ لأنهم آمنوا قبل أن يأتيهم العذاب.

وهناك آية أخرى تتعلق بهذه القصة، يقول فيها الحق سبحانه:

﴿ فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ [1] (١٤٤) ﴾ [الصافات]

أي: أن الذى منع يونس عليه السلام أن يظل فى بطن الحوت إلى يوم البعث هو التسبيح.

وهنا يبيِّن الحق سبحانه الاستثناء الذى حدث لقوم يونس حين يقول:

﴿ فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ (٩٨) ﴾ [يونس]

---

(١) المسبحون: هم المصلّون لله تعالى، قبل البلاء والعقوبة التي نزلت به. وقيل: المسبحون: هم الذاكرون، بقوله كثيراً فى بطن الحوت: ﴿ .. لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) ﴾ [الأنبياء].

﴿ .. لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤) ﴾ [الصافات]: لصار بطن الحوت قبراً له إلى يوم القيامة. [مختصر تفسير الطبرى، وتفسير الجلالين].

أى: أن الإيمان نفع قرية قوم يونس قبل أن يقع بهم العذاب.

ولذلك يقول الحق سبحانه:

﴿.. لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْىِ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ (٩٨)﴾ [يونس]

ونحن نعلم أن كلمة «قرية» تعنى: مكاناً مُهيّأ، أهله متوطنون فيه، فإذا ما مَرَّ عليهم زائر فى أى وقت وجد عندهم قِرىً [(١)] أى: وجبة طعام.

ونحن نجد من يقول عن الموطن كثير السكان كلمة «بلد»، وهؤلاء من يملكون طعاماً دائماً، أما من يكونون قلة قليلة فى موطن ففى الغالب ليس عندهم من الطعام إلا القليل الذى يكفيهم ويكفى الزائر لمرة واحدة.

وتسمى مكة المكرمة «أم القرى» [(٢)]؛ لأن كل القرى تزورها.

وقرية قوم يونس اسمها «نينوى» قد حكى عنها النبى ﷺ فى قصة الذهاب للطائف، وهى قرية العبد الصالح يونس بن مَتَّى [(٣)]، وهى فى

(١) القرى: هو طعام الضِّيفان. والقرية فى اللغة: المصر أو البلد الكبير مثل: مصر، مكة، الطائف، نينوَى، وغيرها مما أشار إليه القرآن، فقد وردت كلمة «القرية» فيه بهذا المعنى (٣٧ مرة) غير المثنى منها (١) والجمع (١٩) مرة.

(٢) قال عنها الحق سبحانه: ﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ..(٩٢)﴾ [الأنعام]، ويقول: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ..(٧)﴾ [الشورى].

(٣) وذلك أن رسول الله ﷺ قابل غلاماً نصرانياً لعتبة وشيبة ابنى ربيعة يقال له عداس، فعندما هَمَّ رسول الله ﷺ بالأكل من عنب بستانهما قال: باسم الله. ثم أكل، فنظر عداس فى وجهه، ثم قال: والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد. فقال له ﷺ: ومن أهل أىّ البلاد أنت يا عداس، وما دينك؟ قال: نصرانى، وأنا رجل من أهل نينوى، فقال رسول الله ﷺ: من قرية الرجل الصالح يونس بن متى. فقال له عداس: وما يدريك ما يونس بن متى؟ فقال رسول الله ﷺ: ذاك أخى، كان نبياً وأنا نبى، فأكبّ عداس على رسول الله ﷺ يُقبِّل رأسه ويديه وقدميه. أورده ابن هشام فى السيرة النبوية (٢/ ٤٢١).

العراق ناحية الموصل ، ويونس هو من قال عنه الله سبحانه :

﴿ وَذَا النُّونِ [1] إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا .. (٨٧) ﴾ [الأنبياء]

وكلمة «مغاضب» غير كلمة «غاضب» ، فالغاضب هو الذى يغضب دون أن يُغضبه أحد ، لكن المغاضب هو من أغضبه غيره .

وكذلك كلمة «هجر» ، ومهاجر ، فالمهاجر هو من أجبره أناس على أن يهاجر ، لكن من هجر هو من ذهب طواعية بعيداً .

والمغاضبة - إذن - تكون من جهتين ، وتسمى «مفاعلة» .

والحق سبحانه يقول :

﴿ وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لاَّ إِلَٰهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) ﴾ [الأنبياء]

وسُمِّى سيدنا يونس عليه السلام بذى النون ؛ لأن اسمه اقترن بالحوت الذى ابتلعه .

وكلنا نعرف القصة ، حينما دعا قومه إلى الإيمان وكفروا به فى البداية ؛ لأن الرسول حين يجىء إنما يجىء ليقوِّم الحياة الفاسدة ؛ فيضطهده من يعيشون على الفساد ؛ لأنهم يريدون الاحتفاظ بالجبروت الذى يسمح لهم بالسرقة والاختلاس وإرواء أهواء النفس ، فلما فعلوا ذلك مع سيدنا يونس - عليه السلام - خرج مغاضباً ، أى : أنهم أغضبوه .

والمغاضبة - كما قلنا - من المفاعلة وتحتاج إلى عنصرين ، مثلما أوضحنا أن الهجرة أيضاً مفاعلة ؛ لأن الرسول ﷺ لم يهجر مكة ، بل ألجأه قومه إلى أن يهاجر ، فكان لهم مدخل فى الفعل .

---

(١) النون : الحوت . و(ذو ، ذا ، ذى) بمعنى : صاحب . أى : صاحب الحوت ، وهو يونس عليه السلام .

وأبو الطيب المتنبى [١] يقول فى هذا المعنى :

إذَا ترحَّلت عن قومٍ وقد قَدروا ألاَّ تُغادِرهم فَالرَّاحِلون هُمُ

أى : إن كنت تعيش مع قوم ، وأردت أن تفارقهم وقد قدروا أن تعيش معهم ، فالذى رحل حقيقة هم هؤلاء القوم .

ويقول الحق سبحانه وتعالى بعد خروج يونس مغاضباً :

﴿ فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ ..(٨٧) ﴾ [الأنبياء]

أى : أنه رجَّح أن الحق سبحانه لن يُضيِّق عليه الأرض الواسعة ، وسيهيىء له مكاناً آخر غير مكان المائة الألف أو يزيدون الذين بعثه الله تعالى إليهم .

وكان من المفروض أن يتحمل الأذى الصادر منهم تجاهه ، لكن هذا الظن - والظن ترجيح حكم - يدلنا على أن معارضة دعوته كانت شديدة تُحْفِظ [٢] وتملأ القلب بالألم والتعب .

وكان عليه أن يُوطِّن نفسه على مواجهة مشقات الدعوة .

والقرية التى أرسل إليها يونس عليه السلام هى قرية «نينوى» ، وهى التى جاء ذكرها فى أثناء حوار بين النبى ﷺ والغلام النصرانى «عداس» الذى قابله ﷺ فى طريق عودته من الطائف .

---

(١) هو : أحمد بن الحسين المتنبى ، شاعر حكيم ، ولد بالكوفة عام ٣٠٣ هـ ، ونشأ بالشام ، ثم تنقل فى البادية يطلب الأدب وعلم العربية وأيام الناس . توفى مقتولاً بالنعمانية ببغداد عام ٣٥٤ هـ عن ٥١ عاماً (الأعلام للزركلى ١/ ١١٥) .

(٢) تحفظ : تغضب . والحفيظة : الغضب . ويقال : إن الحفائظ تذهب الأحقاد : أى : إذا رأيت حميمك يُظلم حميت له ، وإن كان عليه فى قلبك حقد . [اللسان مادة حفظ] .

وكان النبى ﷺ قد ذهب إلى الطائف ليطلب من أهلها النصرة بعد أن آذاه قومه فى مكة فلم يجد النصير [(١)]، وجلس النبى ﷺ قريباً من حائط بستان.

فلما رآه صاحبا البستان - عتبة وشيبة ابنا ربيعة - وما لقى من السفهاء ؛ تحركت له رحمهما ، فدعوا غلاماً لهما نصرانياً ، يقال له عَدَّاس ، فقالا له: خُذْ قطْفاً من هذا العنب ، فضعه فى هذا الطبق ، ثم اذهب به إلى ذلك الرجَل ، فقل له يأكل منه ، ففعل عَدَّاس ، ثم أقبل به حتى وضعه بين يدى رسول الله ﷺ ثم قال له: كُلْ ، فلما وضع رسول الله ﷺ فيه يده ، قال: باسم الله ، ثم أكل ، فنظر عداس فى وجهه ، ثم قال: والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد ، فقال له رسول الله ﷺ : «ومنْ أهل أىِّ البلاد أنت يا عدَّاس ، وما دينك؟» . قال: نصرانى ، وأنا رجَل من أهل نينوى ؛ فقال رسول الله ﷺ : «من قرية الرجل الصالح يونس ابن مَتَّى » ؛ فقال له عداس: وما يدريك ما يونس بن متَّى ؟ فقال رسول الله ﷺ : «ذاك أخى ، كان نبياً وأنا نبى» ، فأكبَّ عداس على رسول الله ﷺ يُقبِّل رأسه ويديه وقدميه.

ولما سأل صاحبا البستان عدَّاساً عن صنيعه هذا. قال لهما: لقد أخبرنى بأمر ما يعلمه إلا نبى [(٢)].

---

(١) لما يئس رسول الله ﷺ من قومه بمكة الذين آذوه وآذوا المسلمين لجأ إلى «الطائف» يطلب نصرة «ثقيف» وكلمهم وعرض عليهم الإسلام ، فما كان منهم إلا أن رفضوا الأمر ، وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم ، يسبونه ويصيحون به ، حتى اجتمع عليه الناس ، وألجأوه إلى حائط (بستان) لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة. ورجع عنه سفهاء ثقيف ، فعمد إلى ظل شجرة عنب فجلس فيه. وهنا دعا رسول الله ﷺ ربه قائلاً : «اللهم إليك أشكو ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت ربُّ المستضعفين ، وأنت ربى ، إلى من تكلنى؟ إلى بعيد يتجهمنى؟ أم إلى عدو ملكته أمرى؟ إن لم يكن بك علىَّ غضب فلا أبالى ، ولكن عافيتك هى أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بى غضبك ، أو يحل علىَّ سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك». [السيرة النبوية لابن هشام : ٢/ ٤١٩ ، ٤٢٠]. . بتصرف.

(٢) انظر : تفصيل هذه القصة فى السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٤١٩ - ٤٢١).

ونحن نعلم أن العبد الصالح - يونس عليه السلام - قد تأثر وحزن وغضب من عدم استجابة قومه لرسالته الإيمانية ، إلى أن رأوا غَيْماً يملأ السماء وعواصف ، وألقى الله تعالى فى خواطرهم أن هذه العواصف هى بداية عذاب الله لهم [1] ؛ فَهُرعوا إلى ذوى الرأى فيهم ، فأشاروا عليهم بأن هذه هى بوادر العذاب ، وقالوا لهم : عليكم بإرضاء يونس ؛ لأن الله سبحانه وتعالى هو الذى أرسله ، فآمنوا به ليكشف عنكم الغُمَّة .

وهُرع الناس إلى الإيمان بالحى الذى لا يموت ، الحيُّ حين لا حيَّ ، والقيوم والمُحيى والمميت .

وذهب قوم يونس عليه السلام لاسترضائه ؛ وحين رضى عنهم بدأوا ينظرون فى المظالم التى ارتكبوها ، حتى إن الرجل منهم كان ينقض ويهدم جدار بيته ؛ لأن فيه حجراً قد اختلسه من جار له [2] .

وكشف الله سبحانه وتعالى عنهم العذاب ، وهنا يقول سبحانه :

﴿ .. كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا [3] وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ (٩٨) ﴾ [يونس]

ومن لوازم قصة يونس عليه السلام ، ليست المغاضبة فقط ، بل قصته مع الحوت ، فقد كان عليه السلام بعد مغاضبته لقومه قد ركب سفينة ،

---

(١) وهذا يتوافق مع ما قاله الزجاج : «إنهم لم يقع بهم العذاب ، وإنما رأوا العلامة التى تدل على العذاب ، ولو رأوا عين العذاب لما نفعهم الإيمان» واختاره القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٣١٢) .

(٢) نقله القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٣١٢) من قول ابن مسعود .

(٣) اختلف المفسرون ، هل كشف عنهم العذاب الأخروى مع الدنيوى ، أم كشف عنهم العذاب فى الدنيا فقط ؟ على قولين :

* الأول : إنما كان ذلك فى الحياة الدنيا ، على ظاهر الآية الكريمة .

* والثانى : كشف العذاب فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ؛ لقول الله تعالى : ﴿ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (١٤٧) فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ (١٤٨) ﴾ [الصافات] فأطلق عليهم الإيمان ؛ والإيمان منقذ من العذاب الأخروى ، وهذا هو الظاهر ، و الله أعلم . [ذكره ابن كثير فى تفسيره (٢/ ٤٣٣)] .

فلعبت بها الأمواج فاضطربت اضطراباً شديداً ، وأشرفت على الغرق بركابها ؛ فألقوا الأمتعة فى البحر ؛ لتخفَّ بهم السفينة ؛ فاستمر اضطرابها ، فاقترعوا على أن يلقوا إلى البحر مَن تقع عليه القرعة ، فوقعت القرعة على نبى الله يونس عليه السلام.

مثلما نركب مصعداً ، فنجد الضوء الأحمر وقد أضاء إنذاراً لنا بأن الحمولة زائدة ، وأن المصعد لن يعمل فيخرج منه واحد أو أكثر حتى يتبقى العدد المسموح به ، وعادة يكون الخارج من أحسن الموجودين خُلقاً ، لأنهم أرادوا تسهيل أعمال الآخرين.

كذلك كان الأمر مع السفينة التى ركبها يونس عليه السلام ، كادت أن تغرق ، فاقترعوا ، وصار على يونس أن ينزل إلى البحر.

والحق سبحانه يقول :

﴿ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ [1] (١٤١) ﴾ [الصافات]

ونزل يونس عليه السلام إلى البحر فالتقمه [2] الحوت وابتلعه.

ويقول الحق سبحانه وتعالى عن وجود سيدنا يونس عليه السلام فى بطن الحوت :

﴿ فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤) ﴾ [الصافات]

وهنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الحق سبحانه :

---

(١) ساهم : قارع ، أى : اشترك فى الاقتراع . المدحضين : المغلوبين إذ وقع الاقتراع عليه . [ابن كثير ٤ / ٢٠ - بتصرف].

(٢) التقمه : ابتلعه فى سرعة . قال سبحانه : ﴿ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (١٤٢) ﴾ [الصافات] ، والمليم : هو مَنْ أتى ذنباً يُلام عليه.

﴿كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ..(٩٨)﴾ [يونس]

وعذاب الخزى فى الحياة الدنيا يمكن أن تراه مُجسَّداً فيمن افترى وتكبَّر على الناس ، ثم يراه الناس فى هوان ومذلة ، هذا هو عذاب الخزى فى الدنيا ، ولا بد أن عذاب الآخرة أخْزَى وأشَدُّ.

ويُنهى الحق سبحانه الآية بقوله:

﴿ ..ومَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ (٩٨)﴾ [يونس]

أى: أنهم نَجَوْا من الهلاك بالعذاب إلى أن انتهت آجالهم بالموت الطبيعى.

ويقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك:

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ[1] حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ (٩٩)﴾

والحق سبحانه وتعالى يبيِّن لنا أنه إن قامت معركة بين نبى مرسل ومعه المؤمنون به ، وبين من كفروا به ، فلا بد أن يُنزِل الحق سبحانه العذاب بمن كفروا .

---

(١) تُكره الناس : تلزمهم وتلجئهم. أى : ليس ذلك عليك يا محمد - صلوات الله وسلامه عليه - بل الله تعالى يُضل من يشاء ويهدى من يشاء. كما قال تعالى فى ذلك : ﴿ولَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١١٩)﴾ [هود]. وقال تعالى : ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ .. (٢٧٢)﴾ [البقرة]. وقال تعالى : ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ .. (٥٦)﴾ [القصص] . إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الله سبحانه هو الفعال لما يريد ، الهادى من يشاء ، المضل لمن يشاء ؛ لعلمه وحكمته وعدله - سبحانه . [تفسير ابن كثير : ٢/ ٤٣٣] بتصرف.

وإياك أن تفهم أن الحق سبحانه يحتاج إلى عبادة الناس ؛ لأن الله عَزَّ وجل قديم أزلىٌّ بكل صفات الكمال فيه قبل أن يخلق الخلق ، وبكماله خلق الخلق ، وقوته سبحانه وتعالى فى ذاته ، وهو خالق من قبل أن يخلق الخلق ، ورازق قبل أن يخلق الرزق والمرزوق ، والخلق من آثار صفات الكمال فيه ، وهو الذى أوجد كل شىء من عدم.

ولذلك يُسمّون صفاته سبحانه وتعالى صفات الذات ؛ لأنها موجودة فيه من قبل أن يوجد متعلقها.

فحين تقول: حىٌّ ، ومُحْى ، فليس معنى ذلك أن الله تعالى موصوف بـ «مُحْيٍ» بعد أن وجد مَنْ يحييه ، لا ، إنه مُحيٍ ، وبهذه الصفة أحيا.

ولله المثل الأعلى ، وهو سبحانه مُنزَّه عن كل تشبيه: قد نرى المصوِّر أو الرسام الذى صنع لوحة جميلة ، هنا نرى أثر موهبة الرسم التى مارسها ، واللوحة ليست إلا أثراً لهذه الموهبة.

الحق سبحانه وتعالى - إذن - له كل صفات الكمال قبل أن يخلق الخلق ، وبصفات الكمال خَلَق الخَلْق.

فإياك أن تفهم أن هناك أمراً قد جَدَّ على الله تعالى ، فلا شىء يجِدُّ على الحق سبحانه ، وهو سبحانه لا ينتفع من خلقه بل هو الذى ينفعهم.

ونحن نعلم أن الإيمان مطلوب من الإنسان ، وهو الجنس الظاهر لنا ونحن منه ، ومطلوب من جنس آخر أخبرنا عنه الله - تبارك وتعالى - وهو الجن(١)

(١) وذلك فى قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات].

وأما بقية الكون فمُسبِّح[1] مؤمن بالله تعالى ، والكون عوالم لا حصر لها ، ولكلٍّ نظام لا يحيد عنه.

ولو أراد الله سبحانه وتعالى أن يُدخل الثقلين - الإنس والجن - فى نظام التسخير ما عَزَّ عليه ذلك ، لكن هذا التسخير يثبت له القدرة ولا يثبت له المحبوبية.

ولذلك ترك الحق سبحانه الإنسان مختاراً ليؤمن أو لا يؤمن ، وهذا ما يثبت له المحبوبية إن جئته مؤمناً ، وهذا يختلف عن إيمان القَسْر والقهر ، فالإيمان المطلوب من الإنسان أو الجن هو إيمان الاختيار.

وأما إيمان القسر والقهر ، فكل ما فى الكون من عوالم مؤمن بالحق سبحانه ، مُسبِّح له.

والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. (٤٤) ﴾ [الإسراء]

وهذا ليس تسبيح[2] دلالة ورمز ، بل هو تسبيح حقيقى ، بدليل قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. (٤٤) ﴾ [الإسراء]

فإن فقَّهك الله تعالى فى لغاتهم لعلمت تسبيح الكائنات ، بدليل أنه

---

(١) يقول رب العزة سبحانه : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَـٰوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ .. (٤٤) ﴾ [الإسراء]. ويقول تعالى : ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) ﴾ [الحشر].

(٢) تسبيح الدلالة والرمز نلحظه يقيناً فى حركة الجماد وحركة ونمو وتنفس النبات ، وحركة ونمو وتنفس وغريزة الحيوان ، وحركة ونمو وتنفس وتعقل الإنسان ؛ فكل حركة لها محرك ، وفى الحركة تسبيح ، وفوق ذلك نجد للأرض والسماء بكاء فى قوله تعالى : ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ (٢٩) ﴾ [الدخان] ، والبكاء يصدر عن عاطفة والعاطفة تصدر عن علم ، وهذه المراتب تسبيح بحقيقة لا يدركها عقل وقد يحسُّها قلب.

عَلَّم سليمان عليه السلام منطق الطير [١] ، وسمع النملة تقول:

﴿ . . يَـٰأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [النمل]

والهدهد قال لسليمان عليه السلام ما رآه عن بلقيس ملكة سبأ:

﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [النمل]

إذن: فكل ما في الكون مُسبِّح لله تعالى ، يسير على منهجه سبحانه ما عدا المختار من الثقلين: الإنسان والجان ؛ لأن كلاً منهما فيه عقلٌ ، وله مَيْزة الاختيار بين البدائل.

ومن عظمة الحق سبحانه وتعالى أن خلق للإنسان الاختيار حتى يذهب المؤمن إليه اختياراً ، ولو شاء الحق سبحانه وتعالى أن يجبر الإنسان على الإيمان لَفعلَ.

أقول ذلك حتى لا يقولن أحد: ولماذا كل هذه المسائل من خَلْق وإرسال رُسل ، وتكذيب أناس ، ثم إهلاك المكذِّبين ؟

ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ ﴾ [يونس]

---

(١) فربُّ العزة سبحانه يقول عن سليمان عليه السلام: ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾ ﴾ [النمل].

إذن: فالحق سبحانه خلق الإنسان وسخَّر له كل الأجناس ، ولم يجبره على الإيمان ، بل يقول سبحانه لرسوله ﷺ :

﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ [١] نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣)﴾ [الشعراء]

وكان رسول الله ﷺ مُحبّاً مخلصاً لقومه وعشيرته ، وذاق حلاوة الإيمان ، وحزن لأنهم لم يؤمنوا ، فينبهه الحق سبحانه وتعالى أن عليه مهمة البلاغ فقط ، فلا يكلّف نفسه شَططاً [٢] .

والحق سبحانه وتعالى شاء أن يجعل للإنسان حقَّ الاختيار وسخَّر له الكون ، ومن الناس من يؤمن ، ومن الناس من يكفر ، بل ومن المؤمنين من يطيع مرة ، ويعصى أخرى ، وهذه هى مشيئة الحق ليتوازن الكون ، فكل صفة خيِّرة إنْ وجد من يعارض فيها فهذا ما شاءه الله سبحانه وتعالى للإنسان ، فلا تحزن يا رسول الله ؛ فالحق سبحانه وتعالى شاء ذلك .

وإنْ غضب واحد من أن الآخرين لم يعترفوا بصفاته الطيبة نقول له: إن الحق سبحانه هو خالق الكون وهو الرازق ، قد كفروا به وألحدوا ، وجعلوا له شركاء ، فتَخلَّقوا بأخلاق الله ؟

ولذلك قال الحق سبحانه:

---

(١) باخع : أى : مهلك نفسك ، أى : مما تحرص وتحزن عليهم لعدم إيمانهم . وهذه تسلية من الله سبحانه وتعالى لرسوله ﷺ فى عدم إيمان من لم يؤمن به من الكفار . كما قال تعالى : ﴿فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ .. (٨)﴾ [فاطر]. وكقوله سبحانه : ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ .. (٦)﴾ [الكهف] . قال مجاهد وعكرمة وآخرون : باخع نفسك : أى : قاتل نفسك . وقد قال الشاعر :

ألا أيهذا الباخعُ الحزْنُ نفسَه ... لشىء نحتّه عن يديه المقَادرُ

[ذكره ابن كثير فى تفسيره (٣/ ٣٣١)] بتصرف .

(٢) الشطط : الجور ومجاوزة القَدْر فى كل شىء ، والمقصود : لا تظلم نفسك ، ولا تتجاوز الحد فى الحزن عليهم . ومنه قوله تعالى عن الخصمين اللذين طلبا حكم داود بينهما ، فقالا له : ﴿.. فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ (٢٢)﴾ [ص].

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٩٩) ﴾ [يونس]

إنه سبحانه وتعالى يريد إيمان المحبة وإيمان الاختيار .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ(١) عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (١٠٠) ﴾

هكذا يُبيِّن لنا الحق سبحانه أن أحداً لا يؤمن إلا بإذن من الله تعالى ؛ لأن معنى أن تؤمن أن يكون إيمانك إيمان فطرة نتيجة تفكُّر في سماء ذات أبراج(٢) ، وأرض ذات فجَاج(٣) ، وبحار تَزْخر(٤) ، ورياح تَصْفِر ، كل ذلك يدل على وجود الخَالق سبحانه .

لكن أتركَ الله سبحانه وتعالى الناس للفطرة ؟

---

(١) الرجس : الخبال والضلال . [ابن كثير ٢/ ٤٣٣] . قال الزجاج : الرجس في اللغة اسم لكل ما استقذر من عمل ، فبالغ الله تعالى في ذم هذه الأشياء وسمَّاها رجساً . وللرجس معانٍ أخرى ، فهو العذاب كالرِّجز ، وهو المأثم وهو الشك في مثل قوله تعالى : ﴿ ..إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا (٣٣) ﴾ [الأحزاب] .

(٢) الأبراج : جمع برج . وهي منازل الأفلاك في السماء أو هي الكواكب . وقيل : هي النجوم . [انظر لسان العرب : مادة برج] .

(٣) فجاج : جمع فج . وهو الطريق الواسع بين جبلين . ومنه قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِسَاطًا (١٩) لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجًا (٢٠) ﴾ [نوح] . وقال : ﴿ وَجَعَلْنَا فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلاً لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣١) ﴾ [الأنبياء] . وقال تعالى في صيغة المفرد : ﴿ .. وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧) ﴾ [الحج] .

(٤) بحار تزخر : أي : كثر ماؤها وارتفعت أمواجها . وزخر القوم : جاشوا لنفير أو حرب . [لسان العرب ، مادة : زخر] وهذه الجمل من خطبة خطبها قُس بن ساعدة الإيادي في الجاهلية ، كان أولها : « أيها الناس اسمعوا وعوا ، من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت» انظر : البيان والتبيين للجاحظ (١/ ٣٠٨) .

لا ، بل أرسل سبحانه لهم الرسل ليذكِّروهم بالآيات الموجودة في الكون ، وليتنبه الغافل ؛ لأنه سبحانه لا يريد أن يأخذ الناس على حين غفلة.

ولذلك يقول الحق سبحانه:

﴿ ..لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ (١٣١) ﴾ [الأنعام]

لذلك ينبههم الحق سبحانه بأن هناك أشياء كان يجب أن تُذكر ، وكأن الحق سبحانه يُبيِّن لنا : إياكم أن تفهموا أن أحداً يخرج عن مُلكى إلا بإرادتى ، فأنا بخلقى له مختاراً سمحت له أن يكفر أو يؤمن ، وسمحت له أن يطيع أو أن يعصى.

كل ذلك من أجل أن يثبت لى صفة المحبوبية.

لذلك فلا أحد يؤمن إلا بإذن الله سبحانه وتعالى ، ولا أحد يكفر إلا بإذنه سبحانه ؛ لأن مَنْ خلقه مختاراً عَلِمَ برضاء منه بما يكون من المخلوق ، فالكافر لم يكفر قهراً ، والمؤمن لم يؤمن قهراً من الله سبحانه.

وساعةَ يأتى الرسول ليعرض قضية الإيمان ، يتذكر الإنسان إيمان الفطرة ويقول : لقد جاء هذا الرسول بهذا المنهج ليعدِّل لى حياتى ، فلا بد أن أرْهفَ[1] له السمع.

وساعة يُقْبل العبد على الله تعالى ، فسبحانه يأذن له أن يدخل إلى حظيرة الإيمانَ.

إن العبد منَّا إذا ما ذهب للقاء عبد مثله له سيادة وجاه ، ويدرك العبد صاحب السيادَة والجاه - بفضل من الله - السبب الذى جاء من أجله العبد الآخر ؛ فيقول صاحب السيادة لمعاونيه : لا تُدْخلوه. وهو يقول ذلك ؛

(١) إرهاف السمع : الإنصات الشديد. والرهافة فى اللغة : الرقة واللطف. [اللسان : مادة رهف].

لأن الله سبحانه أطلعه على ما فى قلب العبد الآخر من غلٍّ ومن حقدٍ ومن نفاق .

أما إذا دقَّ بابه عبد آخر ، فتجده يأمر معاونيه أنْ يُدخلوه وأن يفسحوا له ؛ لأنه علم بما فى قلبه من محبة ورغبة فى صِدْق اللقاء والمودة .

إذا كان هذا يحدث بين العباد ، وهم كلهم أغيار ، فما بالنا بالحق سبحانه وتعالى؟

والله سبحانه هو القائل فى حديث قدسى : «من ذكرنى فى نفسه ذكرتُه فى ملأ خير منه» .

ما بالنا بالعبد إذا دخل على الإيمان بالله غير مشحون بعقيدة عدا الله .

إذن : أَقْبِلْ على الله سبحانه وعلى ذكر الله ، وأنت إنْ ذكرت الله فى نفسك ، فاللَّه يذكرك فى نفسه ، وإن ذكرته فى ملأ ذكرك فى ملأ خير منه ، فالملأ الذى ستذكره فيه ملأ خَطَّاءٌ ، والله سبحانه سيذكرك فى ملأ طاهر .

ويقول الحق سبحانه فى ذات الحديث القدسى [1] : «إنْ تقرَّب إلىَّ شبراً تقرَّبت إليه ذراعاً» .

والذراع أطول من الشِّبر .

ويقول : «وإن أتانى يمشى أتيته هرولة» .

فالمشى قد يُتعب العبد ، لذلك يُسرع إليه الحق عز وجل ، وهو سبحانه بكل ربوبيته ما إنْ يعلمْ أن عبداً قد صفا قلبه من خصومة الله تعالى فى

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٧٤٠٥) ومسلم (٢٦٧٥) ، وتمامه : «أنا عند ظن عبدى بى ، وأنا معه حيث يذكرنى ، والله ، لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم يجد ضالته بالفلاة ، من تقرب إلىَّ شبراً تقربت إليه ذراعاً ، ومَنْ تقرب إلىَّ ذراعاً تقربت إليه باعاً ، وإذا أقبل إلىَّ يمشى أقبلت إليه أهرول» .

شىء ، حتى يفتح أمامه أبواب محبته سبحانه ، فيحبِّب فيه خلقه ، ويجعل له مدخل صدق فى كل أمر ومخرج صدق من كل ضيق، وهو الحق القائل :

﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧) ﴾ [محمد]

ونلحظ أن الحق سبحانه يؤكد فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها أنه لو شاء لآمن مَنْ فى الأرض جميعاً ؛ ليبيِّن لنا أنه حتى إبليس الذى دخل فى جدالٍ مع الله ، لو شاء الحق سبحانه لآمن إبليس.

وجاء الحق سبحانه بهذا التأكيد ؛ لِيُحْكِمَ الأمرَ حول كل خَلْقه ومخلوقاته ، فلا يشذ منهم أحد.

ثم يقول الحق سبحانه فى نفس الآية :

﴿ ..أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٩٩) ﴾ [يونس]

أراد الحق سبحانه أن يُنبِّه رسوله ﷺ وكل المؤمنين أنه :

﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ..(٢٥٦) ﴾ [البقرة]

لأن مطلوبات الدين ليست هى المطلوبات الظاهرة فقط التى تقع عليها العين ، فهناك مطلوبات أخرى مستترة ، فَهَبْ أنك أكرهت قالباً أتستطيع أن تُكرِه قلباً ؟

والحق سبحانه وتعالى يريد قلوباً لا قوالب [(١)] .

وهكذا لا يصلح الإكراه فى قضية الدين ، ولكن على الإنسان ألاَّ يسحب الإكراه إلى غير موضعه أو مجاله ؛ لأنك قد تجد مسلماً

(١) عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ : «إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم» أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٥٦٤) وأحمد فى مسنده (٢/ ٢٨٥ ، ٥٣٩) وابن ماجه فى سننه (٤١٤٣) ، واللفظ لمسلم. والقلوب لها الوجدان والاختيار والحب والكره ، والقوالب مادة تسير حسب الإدراك الذى انفعل بوجدان ، ووجدان وضع أمامه البدائل ليختار ، ويُسمَّى (النزوع) .

لا يصلّى فينهره صديقه ، فيردّ : لا إكراه فى الدين. وهذا استخدام غير صحيح واستدلال خاطىء ؛ لأن الإكراه فى الدين إنما يكون ممنوعاً فى القضية العقدية الأولى.

ولكن مَنْ أعلن أنه مسلم ، وشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فهذا إعلان بالالتزام بكل أحكام الإسلام ، وهو محسوب على الإسلام ، فإنْ أخلّ بحكمٍ من أحكام الإسلام فلا بد من محاسبته.

ولا إكراه فى الدين ، فيما يخصُّ القضية العقدية الأولى ، وأنت حُرٌّ فى أن تدخل إلى الإسلام أو لا تدخل ، فإنْ دخلت الإسلام فأنت ملتزم بأحكام الإسلام ؛ لأنك آمنت به وصرْتَ محسوباً عليه ، واحفظ حدود الإسلام ولا تكسرها ؛ لأنك على سبيل المثال - لا قدر الله - إن سرقت ؛ تُقطع يدك ، وإنْ زنيت تُرجَم أو تُجلد [1] ، وإنْ شربت الخمر تُجلد ؛ لأنك قبلتَ قواعد الإسلام وشريعته.

وإنْ رأى واحدٌ مسلماً يسرق ، فلا يقولن إن الإسلام يُسرِّق ، ولكن إن رآه يُعاقَب ، فهو يعرف أن الإسلام يعاقب مَنْ يجرم.

إذن : فـ ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ..(٢٥٦)﴾ [البقرة]

تخص المنع عن الإكراه على أصل الدين ، ولكن بعد أن تؤمن فأنت ملتزم بفرعيات الدين ، وتعاقب إنْ خرجتَ على الحدود.

والرسول ﷺ يقول : «مَثَلُ القائم على حدود الله ، والواقع فيها كمثل قوم استهموا [2] على سفينة ، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها ،

---

(١) للزنا فى شريعة الإسلام عقوبتان : الرجم ، أو الجلد. أما الرجم فيعاقب به الزانى المحصن الذى قد أحصن بالزواج. أما الجلد مائة فهو لغير المتزوج أو لم يسبق له الزواج ، فيجلد مائة جلدة تطبيقاً لقول الله عز وجل : ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢)﴾ [النور].

(٢) استهموا : اقترعوا.

فكان الذين فى أسفلها إذا اسْتَقَوْا من الماء مرُّوا على مَنْ فوقهم فقالوا : لو أنَّا خرقنا فى نصيبنا خُرْقاً ولم نُؤذِ مَنْ فوقنا ، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ، ونجوا جميعاً»[1] .

إذن : فالالتزام بفروع الدين أمر واجب ممن دخل الدين دون إكراه ، وإنْ خدش حكماً من الأحكام يُعاقب .

وهناك ما هو أشدُّ من ذلك ، وهو حكم مَنْ ارتد عن الإسلام ، وهو القتل[2] .

وقد يقول قائل : إن هذا الأمر يمثل الوحشية . فنقول له : إن من التزم بالدين ، إنما قد علم بداية أنه إنْ آمن ثم ارتد ، فسوف يُقتَل ؛ ولذلك فليس له أن يدخل إلى الإسلام إلا بيقين الإيمان .

وهذا الشرط للدين ؛ لا على الدين . فلا تدخل على الدين إلا وأنت متيقِّن أن أوامر الدين فوق شهواتك ، واعلمْ أنك إنْ دخلتَ على الدين ثم تَخلَّيْتَ عنه فسوف تُقْتَل ، وفى هذا تصعيب لأمر دخول الدين ، فلا يدخله أحد إلا وهو واثق من يقينه الإيمانى ، وهذا أمر محسوب للدين لا ضد الدين .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ .. وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ (١٠٠) ﴾ [يونس]

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٤٩٣) وأحمد فى مسنده (٤/ ٢٦٨) والترمذى فى سننه (٢١٧٣) وقال : حسن صحيح .

(٢) عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : «مَنْ بدَّل دينه فاقتلوه» . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٩٢٢) وأحمد فى مسنده (١/ ٢١٧ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٣٢٣) وابن ماجه فى سننه (٢٥٣٥) .
– وقد قال رسول الله ﷺ فى حديث آخر عن ابن مسعود : «لا يحل دم امرىء مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأنِّى رسول الله بإحدى ثلاث : النفس بالنفس ، والثيب الزانى ، والمفارق لدينه التارك للجماعة» أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٨٧٨) ومسلم (١٦٧٦) .

والرجس : هو العذاب ، وهو الذنب ، ويجعله الحق سبحانه وتعالى على الذين لا يعقلون ؛ لأن قضية الدين إذا طُرِحَتْ على العقل بدون هَوىً ؛ لا بُدَّ أن ينتهى العقل إلى الإيمان.

ولذلك تجد القمم الفكرية حين يدرسون الدين ؛ فهم يتجهون إلى الإسلام ؛ لأنه هو الدين الذى يشفى الغُلَّة [1] ، أما الذين أخذوا الدين كميراث عن الآباء ، فهم يظلون على حالهم.

وبعض القمم الفكرية فى العالم التى اتجهت إلى اعتناق الإسلام ، لم تتجه إليه بسبب رؤيتهم لسلوك المسلمين ؛ لأن سلوك المنسوبين للإسلام فى زماننا قد ابتعد عن الدين .

ولذلك فقد اتجهت تلك القمم الفكرية للإسلام إلى دراسة مبادىء الإسلام ، وفرَّقوا بين مبادىء الدين ، وبين المنتمين للدين ، وهذا إنصاف فى البحث العقلى ؛ لأن الدين حين يُجرِّم عملاً ، فليس فى ذلك التجريم إذْنٌ من الدين بحدوث مثل هذا الفعل المجرم ، بدليل تقدير العقاب حسب خطورة الجريمة .

فالحق سبحانه قد قال :

﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا .. (٣٨) ﴾ [المائدة]

إنه الإذن باحتمال ارتكاب السرقة ، وكذلك الأمر بالنسبة للزنا [2] ،

(١) الغلة فى اللغة : شدة العطش ، فاستعير لما يتلهف الإنسان لمعرفته ودرسه كالظمآن يطلب الماء .

(٢) يقول رب العزة سبحانه : ﴿ وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً (٣٢) ﴾ [الإسراء]. ويقول سبحانه : ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢) الزَّانِي لا يَنكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لا يَنكِحُهَا إِلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (٣) وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٤) إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥) ﴾ [النور].

وغير ذلك من الجرائم التى جعل لها الحق سبحانه عقوبات تتناسب مع الضرر الواقع على النفس أو المجتمع من وقوعها ، فإذا رأيت مسلماً يسرق ، فتذكَّر العقاب الذى أوقعه الإسلام على السارق ، وإنْ رأيتَ مسلماً يزنى ، فَتذكَّر العقوبة التى حددها الحق سبحانه للزانى .

وهكذا الحال فى جميع الجرائم .

وكبار المفكرين العالميين الذين يتجهون إلى الإسلام إنما يدرسون مبادىء الدين مفصولة عن سلوك المسلمين المعاصرين ، الذين ابتعدوا عن مبادىء الدين الحنيف .

وها هو ذا «چينو» المفكر الفرنسى يقول : « الحمد لله الذى هدانى للإسلام قبل أن أعرف المسلمين ، فلو كنتُ قد عرفتُ المسلمين قبل الإسلام لكان هناك احتمال لزلزلة فى النفس تجعلنى أتردد فى الدخول إلى هذا الدين الرفيع المقام» .

إذن : فإعمال العقل الراقى لا بد أن يؤدى إلى الإسلام لأنه فطرة الله ، والإسلام يُنمِّيها ، ويرتقى بها ، والعقل هو مَنَاطُ التكليف .

والرجس والذنب والعذاب كله إنما يقع على الذين لا يُعْملون عقولهم ، وإعمال العقل المتعقل للقيم ينفى الرجس ؛ لأنهم سيُقبلوَن على التدين بإذن الله تعالى لهم أن يدخلوا على الإيمان به .

وإذا سألنى سائل : ما هو العقل ؟ وما هو مَنَاطُ التكليف ؟

نجد أن كلمة «عقل» مأخوذة من عقَال البعير ، وهو ما يُشَدُّ على رُكْبته حتى لا ينهض ، ويظل ساكناً ، وحَين يريد صاحبه أن يُنهضه فهو يفكُّ العقال .

وأهل الخليج يضعون على رؤوسهم غطاء للرأس (غُتْرة) ويثبتونه بنسيج مغزول على هيئة حلقتين ، ويسمون هاتين الحلقتين «العقال» ؛ لأنه يمنع غطاء الرأس من أن يحركه الهواء ، أو يُطيّره.

إذن : فالعقل أراده الله سبحانه لنا ليحجزنا عن الانطلاق والفوضى فى تحقيق شهوات النفس ؛ لأنه سبحانه قد خلق النفس البشرية ، ويعلم أنها تحب الشهوات العاجلة ، فأراد سبحانه للإنسان أن يكبح جماح تلك الشهوات بالعقل.

فحين يفكر الإنسان فى تحقيق الشهوة العاجلة ، يجد عقله وهو يهمس له : إنك ستستمتع بالشهوة العاجلة دقائق ، وأنت قد تأخذها من غيرك ؛ من محارمه أو من ماله ، فهل تسمح لغيرك أن يأخذ شهوته العاجلة منك؟

إذن : عليك أن تعلم أن العقل إنما أراده الله سبحانه لك ليعقلك عن الحركة التى فيها هَوى ، وتحقق بها شهوة ليست لك ، ومغبَّتها [1] متعبة.

ويخطىء مَنْ يظن أن العقل يفتح الباب أمام الانطلاق اللا مسئول باسم الحرية ، ونقول لمن يظن مثل هذا الظن : إن العقل هو مَنَاطُ التكليف ، وهو الذى يوضِّح لك آفاق المسئولية فى كل سلوك.

ومن عدالة الحق سبحانه أنه لم يكلِّف المجنون ؛ لأن حكم المجنون على الأشياء والأفعال هو حكم غير طبيعى ؛ لأنه يفتقد آلة الاختيار بين البدائل.

وكذلك لم يكلف الله سبحانه مَنْ لم ينضج بالبلوغ ؛ لأنه غير مُسْتوفٍ للمَلَكات ، ولم تستوِ لديه القدرة على إنجاب مثيل له.

وقد ضربنا من قبل المثل بالثمرة ، وقلنا : إنه لا يقال إن الثمرة نضجت وصار طَعْمها مقبولاً مستساغاً إلا إذا أصبحت البذرة التى فيها قادرة على

---

(١) غبّ الأمر مَغَبَّتُهُ: عاقبته وآخره. [لسان العرب: مادة (غ ب ب)].

أن تنبت منها شجرة إن زرعناها فى الأرض .

وأنت مثلاً حين تقطع البطيخة ، وتجد لُبَّها أبيض اللون فأنت لا تأكلها ، وتحرص على أن تأكل البطيخة ذات البذر الذى صار أسود اللون ؛ لأنه دليل نُضْج البطيخة ، وأنت حين تأخذ هذا اللبَّ وتزرعه ينتج لك بطيخاً .

إذن : فاكتمال الإنسان بالبلوغ يتيح لعقله أن يَزِنَ السلوك قبل الإقدام عليه ، والتكليف إنما يكون للعاقل البالغ غير المكره بقوة تقهره على أن يفعل ما لا يعقله .

أما قبل البلوغ فالتكليف ليس من الله ، بل من الأسرة ، لتدربه على الطاعة .

ورسول الله ﷺ يقول لنا : «مروا أولادكم بالصلاة لسبع سنين ، واضربوهم عليها لعشر سنين ، وفرِّقوا بينهم فى المضاجع[1]»[2] .

وهنا نجد أن الذى يأمر هو الأب وليس الله ، والذى يعاقب هو الأب ، وليس الله ، وما إن يصل الابن إلى مرحلة البلوغ يبدأ تكليفه من الله .

أما إذا جاء مَنْ يُكْرِهه على أن يرتكب معصية بقوة تفوق قوته كأن يمسك (مسدساً) ويقولَ له : إن لم تشرب الخمر أطلقتُ عليك النار ، فهنا يرفع عنه التكليف .

ورسول الله ﷺ يقول فى الحديث الشريف : «إن الله تجاوز عن أمتى : الخطأ ، والنسيان ، وما استُكرهوا عليه »[3] .

---

(١) المضاجع : أماكن النوم سواء أكانت فُرُشاً أو غيرها .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٢/ ١٨٧) ، وأبو داود فى سننه (٤٩٥) عن عبد الله بن عمرو بن العاص .

(٣) أخرجه ابن ماجه فى سننه (٢٠٤٥) والدار قطنى فى سننه (٤/ ١٧٠) والحاكم فى المستدرك (٢/ ١٩٨) وصححه على شرط الشيخين ، عن ابن عباس ، ولكن إسناد ابن ماجه منقطع .

فالعقل - إذن - هو مناط التكليف ، وعمله أن يختار بين البدائل فى كل شىء ، ففى الطعام مثلاً نجد مَنْ يهوى وضع (الشطة) فوق الطعام ؛ لأنها تفتح شهيته للطعام ، وبعد أن يأكل نجده صارخاً من الحموضة ، ويطلب المهضِّمات ، وقد لا تفلح معه ، بل وقد تُفسد له الغشاء المخاطى الموجود على جدار المعدة لحمايتها ؛ فَرُبَّ أكْلة منعتْ أكلات ؛ ولذلك نجد عقله يقول له : احذر من هذا اللون من المشهيات ؛ لأنه ضارٌّ بك .

وهكذا نجد العقل هو الذى يوضح للإنسان نتائج كل فعل ، وهو الذى يدفع إلى التأنى والإجادة فى العمل ؛ ليكون ناتج العمل مفيداً لك ولغيرك باستمرار ، ولم يأتِ العقل للإنسان ليستمرىء به الخطأ والخطايا .

وهكذا نجد أن العقل يدرك ويختار السلوك الملائم لكل موقف ، بل إن العقل يدعو الإنسان إلى الإيمان حتى فى مرحلة ما قبل التكليف ، فحين يتأمل الإنسان بعقله هذا الكون لا بُدَّ أن يقوده التأمل إلى الاعتراف بجميل صنيع الخالق سبحانه وتعالى .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ[1] ﴿١٠١﴾ ﴾

وهنا يُحدِّثنا الحق سبحانه عن عالم المُلْك الذى تراه ، ولا يتكلم عن عالم الملكوت الذى يغيب عنك ، وكأنك إن اقتنعت بعالم الملك ، وقلت :

(١) قل انظروا ماذا فى السموات والأرض : أمر للكفار بالنظر والاعتبار فى المصنوعات الدالة على الصانع والقادر على الكمال ، والآيات هنا بمعنى : الأدلة والبراهين على ألوهية الله ووحدانيته ، والآية تفيد عموم النظر فى ملكوت الله لكل مَنْ أراد أن يتذكر أو يتدبر . والنذر : الرسل ، جمع نذير ، وهو الرسول ﷺ . عن قوم يؤمنون : أى : عمَّن سبق له فى علم الله سبحانه أنه لا يؤمن . [تفسير القرطبى : ٤/ ٣٣١٤] - بتصرف .

إن لهذا العالم خالقاً إلهاً قادراً قوياً ، وتؤمن به ؛ هنا تهبُّ عليك نفحات الغيب ؛ لتصل إلى عالم الملكوت ؛ لأنك اكتشفت في داخلك أمانتك مع نفسك ، وأعلنت إيمانك بالخالق سبحانه ، ورأيت جميل صُنْعه في السماء والكواكب ، وأعجبْتَ بدقة نظام سَيْر تلك الكواكب .

وترى التوقيت الدقيق لظهور الشمس والقمر ومواعيد الخسوف الكلى أو الجزئى ، وتُبهر بدقة المنظِّم الخالق سبحانه وتعالى ، ولن تجد زحام مرور بين الكواكب يعطل القمر أو يعطل الأرض ، ولن يتوقف كوكب ما لنفاد وقوده ، بل كما قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (١) ﴿٤٠﴾ ﴾ [يس]

ونحن فى حياتنا حين نرى دقة الصنعة بكثير فيما هو أقل من السماء والشمس والقمر ، فنحن نكرِّم الصانع ، وقد أكرمت البشرية مصمِّم التلغراف ، ومصمم جهاز التليفزيون ، فما بالنا بخالق الكون كله سبحانه .

ويكفى أن نعلم أن الشمس تبعد عنا مسافة ثمانى دقائق ضوئية ، والثانية الضوئية تساوى ثلاثمائة ألف كيلو متر ، وهى شمس واحدة تراها ، غير آلاف الشموس الأخرى فى المجرَّات الأولى ، وكل مجرَّة فيها ملايين من المجموعات الشمسية ، ويكفى أن تعلم أن الحق سبحانه قد أقسم

---

(١) لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر : قال الثورى : أى : لا يدرك هذا ضوء هذا ، ولا هذا ضوء هذا . وقال عكرمة : يعنى أن لكل منهما سلطاناً ، فلا ينبغى للشمس أن تطلع بالليل . ولا الليل سابق النهار : قال مجاهد : يطلبان حثيثين يُسلخ أحدهما من الآخر ، والمعنى فى هذا أنه لا فترة بين الليل والنهار ، بل كل منهما يعقب الآخر بلا مهلة ولا تراخ ؛ لأنهما مسخران دائبان والفلك : جمع أفلاك ، وهى المدارات فى السماء التى تدور فيها النجومُ والكواكب ؛ فكأنها تسبح فى الفضاء . [تفسير ابن كثير : ٣/ ٥٧٣] بتصرف . « وهذا دليل على تقدير العزيز العليم » .

بالشمس [١]، وقال عن كوكب الشِّعْرى :

﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ [٢] (٤٩)﴾ [النجم]

لأن كوكب الشعرى أكبر من الشمس.

وحين تتأمل السموات والأرض تجد فى الأرض جبالاً شامخة ، وتمر عليها فتُدْهش من دقة التكوين ودقة التماسك ، وتجد فى داخلها نفائس ومعادن بدرجات متفاوتة ، وقد تجد أسطح الجبال مُكوَّنة من مواد خصبة بشكل هشٍّ ، فإذا ما نزل عليها المطر ، فهو يصحبها معه إلى الأرض ؛ لأنها تكون مجرد ذرات كذرات برادة الحديد ، وتتخلل الأرض التى شقَّقتها حرارة الشمس.

والمثل الواضح على ذلك هو ما كان يحمله النيل من غرْيَن [٣] فى أثناء الفيضان إلى الدلتا قبل بناء السد العالى ، وكانت مياه النيل فى أيام الفيضان تشبه مادة «الطحينة» من فرط امتزاجها بذرات الغرْين ، وفى مثل هذا الغرين يوجد الخِصْب الذى نأخذ منه الأقوات [٤].

ولو أن الجبال كلها كانت هشَّة التكوين ، لأزالها المطر مرة واحدة ، وجعلها مجرد مسافة نصف متر مضاف لسطح الأرض ، ولاختفى الخصب من الأرض بعد سنوات ، لكن شاء الحق سبحانه أن يجعل الجبال

---

(١) قال الحق سبحانه فى سورة الشمس : ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (١)﴾ [الشمس] . وقد ذكر الله عز وجل الشمس فى كتابه العزيز (٣٢) مرة ، بل إنه سبحانه جعل سورة كاملة باسم هذا النجم.

(٢) قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن زيد وغيرهم عن (الشعرى) إنه هو النجم الوقاد الذى يقال له مرزم الجوزاء ، وكانت طائفة من العرب يعبدونه فى الجاهلية . [تفسير ابن كثير : ٤/ ٢٥٩].

(٣) الغرين : ما بقى فى أسفل الحوض والغدير من الماء أو الطين ، وقيل : هو الطين الذى يحمله السيل فيبقى على وجه الأرض رطباً أو يابساً ، وكذلك (الغريل) . قال الأصمعى : الغرين أن يجىء السيل فيثبت على الأرض ، فإذا جفَّ رأيت الطين رقيقاً على وجه الأرض قد تشقق . [لسان العرب : مادة (غ ر ن)].

(٤) أقوات : جمع قوت ، وهو الرزق ، ويطلق لفظ قوت على كل ما يُقتات به من رزق الله سبحانه وتعالى.

متماسكة ، وجعل سطحها فقط هو الهش لينزل المطر فى كل عام مرة ؛ ليحمل الخصب إلى الأرض.

ومَنْ يتأمل هندسة التكوين فى الاقتيات يجد الجبال مخازن للقوت.

فالبشر يحتاجون إلى الحديد ليصنعوا منه ما يفيدهم ، سواء أكان آلات لحرث الأرض ، أو أى آلات أخرى تساعد فى تجميل الحياة ، وتجد الحديد مخزوناً فى الجبال.

وكذلك نجد المواد الأخرى مثل الفوسفات أو المنجنيز ، أو الرخام ، أو الفيروز أو الغازات .

إذن : فالمطمور [١] فى الجبال إما للاقتيات ، أو وسيلة إلى الاقتيات ، أو وسيلة للتَّرف فوق الاقتيات.

وحين ينزل المطر فوق الجبال فهو يأخذ الخصْب من الطبقة الهشَّة [٢] على سطح الجبال وتبقى المواد الأخرى كثروات للنَاس ، ففى إفريقيا مثلاً توجد مناجم للفحم والماس ، وفى بلاد أخرى تجد عود الطيب ، وهو عبارة عن جذور أشجار.

وأنت لو شققت الأرض كقطاع من محيط الأرض إلى المركز تجد الأرض الخصبة مع الصحراء ، مع المياه ، مع الجبال ، متساوية فى الخير مع القطاع المقابل للقطاع الأول.

---

(١) طمر الشيء : خبَّأه . ومطمور : اسم مفعول من طمر ، وطمر : إذا تغيَّب واستخفى ، والمراد : خيرات الله المختفية داخل الأرض تنتظر إذن الله تعالى لها بالظهور.

(٢) والشيء الهش الغير متماسك ، وهشم الشيء اليابس هشماً كسره قال تعالى : ﴿ ..كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ ﴾ [القمر] أى : كالحطب والخشب المحطم فى يد المحتظر . أى : صانع الحظيرة [القاموس القويم صـ ٣٠٣ باختصار] .

وقد تختلف نوعيات العطاء من موقع إلى آخر على الأرض ، فأنت لو حسبت مثلاً ما أعطاه المطر للنيل من خصْب الجبال من يوم أن خلق الله - عز وجل - النيل فى أرض وادى النيل فى إفْريقيا ، وحسبت ما أعطاه النفط (البترول) فى صحراء الإمارات مثلاً ، ستجد أن عطاء النيل يتساوى مع عطاء البترول ، رغم أن اكتشاف البترول قد تَمَّ حديثاً .

وكل قُوت محسوب من مخازن القوت ، وكل قوت له زمن ، فهناك زمن للفحم ، وزمنٌ للبترول ، كل ذلك بنظام هندسى أنشأه الحكيم الأعلى سبحانه .

وما دام الحق سبحانه وتعالى قد قال : ﴿يَعْقِلُونَ﴾ فى مجال النظر فى السموات وفى الأرض ، فهذه دعوة لتأمل عجائب السموات والأرض .

ومن تلك العجائب أن الجبال الشاهقة لها قمة ، ولها قاعدة ، مثلها مثل الهرم ، وتجد الوديان على العكس من الجبال ؛ لأن الوادى يكون بين جبلين ، وتجد رأس الوادى فى أسفله ، ورأس الجبل فى قمته .

وحين ينزل المطر فهو يمرُّ برأس الجبل الضيق ؛ ليصل إلى أسفل قاع الوادى الضيق ، وكلما نزل المطر فهو يأخذ من سطح الجبل ؛ ليملأ مساحة الوادى المتسعة ، وكلما ازداد الخلق ، زاد الله سبحانه رقعة الاقتيات .

ومثال ذلك تجده فى الغرْيَن القادم من منابع النيل ؛ ليأتى إلى وادى النيل والدلتا ، وكانت هذه الدلتا من قبل مجرد مستنقعات مالحة ، وشاء لها الحق سبحانه أن تتحول إلى أرض خصبة .

وحين نتأمل ذلك نرى أن كل شىء فى الكون قد أوجده الحق سبحانه بحساب .

والذى يفسد الكون هو أننا لا نقوم بتكثير ما تكاثر ، بل ننتظر إلى أن تزدحم الأرض بمن عليها ، ثم نفكر فى استصلاح أراضٍ جديدة ، وكان يجب أن نفعل ذلك من قبل .

وكلما نزل المطر على الجبال فهى تتخلخل وتظهر ما فيها من معادن ، يكتشفها الإنسان ويُعْمِل عقله فى استخدامها.

والمؤمن حين يرى ذلك يزداد إيماناً ، وكلما طبَّق المؤمن حُكْماً تكليفياً مأموراً به ، يجد نور الإيمان وهو يشرق فى قلبه.

ولْيُجرِّب أى مسلم هذه التجربة [1] ، فليجرب أن يعيش أسبوعاً فى ضوء منهج الله سبحانه وتعالى ، ثم يَزِنْ نفسه ويُقيِّمها ليعرف الفارق بين أول الأسبوع وآخر الأسبوع ، سيَكتشف فى هذا الأسبوع أنه يصلى فى مواقيت الصلاة ، وسيجد أنه يعرق فى عمله ليكسب حلالاً ، وسيجد أنه يصرف ماله فى حلال.

زِنْ نفسك يقيناً فى آخر الأسبوع ستجد أن نفسك قد شفَّت شفافية رائعةَ ؛ لتجد ضوء ونور الإيمان وهو يصنع انسجاماً بينك وبين الكون كله فى أبسط التفاصيل وأعقدها أيضاً.

ومثال ذلك : إنك قد تجد الرجل من هؤلاء الذين أسبغ عليهم تطبيقُ منهج الله الشفافيةَ تسأله زوجته : ماذا نطبخ اليوم ؟ فيقول لها : فَلْنقْضِ اليوم بما بقى من طعام أمس ، ثم يُفَاجأ بقريب له يزوره من الريف ، وقدَ جاءه ومعه الخير .

لقد وصل الرجل إلى درجة من الشفافية تجعله منسجماً مع الكون كله ، فيصله رزق الله تعالى له من أىِّ مكان.

وتجد الشفافية أيضاً فى أعقد الأمور ، ألم يَقُلْ يعقوب عليه السلام :

﴿إِنِّى لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ..(٩٤)﴾ [يوسف]

---

(١) هذه تجربة التريض الإيمانى : فالمسلم الذى تخلى عن المعاصى وتحلى بالطاعات تجلى الله عليه بالفيوضات والنفحات .

وكان إخوة يوسف - عليه السلام - ما زالوا على أبواب مصر خارجين منها للقاء أبيهم ، حاملين قميصَ يوسف ، الذى أوصاهم يوسف بإلقائه على وجه أبيه ليرتد إليه بصره (١) .

لقد جاءت ريح يوسف عليه السلام لأبيه يعقوب ؛ لأن يعقوب عليه السلام قد عاش فى انسجام مع الكون ، ولا توجد مُضَارة بينه وبين الكون .

والمثال الحىّ لذلك هو فرح الكون لمجىء رسول الله ﷺ ، يوم مولده ، لقد فرح الكون بمقدم الرسول ﷺ ؛ لأن الكون عابد مُسبِّح لله سبحانه ، فحين يأتى مَنْ يدعو العباد إلى التوحيد لا بُدَّ أن يفرح الكون ، أما مَنْ يَعْصِ الله تعالى ، فالكون كله يكرهه ويلعنه ، ويتلاعن الاثنان .

وقد فرح الكون بمجىء الرسول الذى أراد الله سبحانه أن تنزل عليه الرسالة الإلهية ليعتدل ميزان الإنسان مع الكون .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. (١٠١) ﴾ [يونس]

والكون كله أمامهم ، فلماذا لا ينظرون ؟ إنهم يبصُرون ولا يستبصرون ، مثل الذى يسمع ولا يسمع ؛ ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى :

---

(١) وذلك أن يوسف عليه السلام بعد ما تعرَّف عليه إخوته قال لهم : ﴿ قَالَ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٩٢) اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ (٩٣) وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلا أَن تُفَنِّدُونِ (٩٤) ﴾ [يوسف] أى : لولا أن تتهمونى بفساد الرأى والخرف .

﴿ .. وَمَا تُغْنِى الآيَاتُ وَالنُّذُرُ [١] عَنْ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾ [يونس]

إذن : فعدم إيمانهم أفقدهم البصيرة والتأمل.

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ [٢] ﴿١٠٢﴾ ﴾

وهؤلاء الذين لا يؤمنون يظلون فى طغيانهم يعمهون [٣] ، وكأنهم ينتظرون أن تتكرر معهم أحداث الذين سبقوا ولم يؤمنوا ، لقد جاءهم الرسول ببيان ككل المكذِّبين السابقين.

ونحن نعلم أن اليوم [٤] هو وحدة من وحدات الزمن ، وبعده الأسبوع ، وبعد الأسبوع نجد الشهر ، ثم نجد السنة ، وكلما ارتقى الإنسان قسَّم اليوم إلى ساعات ، وقسَّم الساعات إلى دقائق ، وقسَّم الدقائق إلى ثوانٍ.

وكلما تقدمت الأحداث فى الزمن نجد المقاييس تزداد دقة ، واليوم - كما قلنا - جعله الله سبحانه وتعالى وحدة من وحدات الزمن ، وهو مُكوَّن من ليل ونهار.

---

(١) النذر : جمع نذير ، وهو الرسول بحججه وآياته وبراهينه.

(٢) خلوا : مضوا وسبقوا. أى : فما ينتظرون بكفرهم إلا مثل ما وقع للأمم التى سبقتهم من العذاب والعقاب. [تفسير الجلالين ص ١٨٨].

(٣) يعمهون : يتحيَّرون ويترددون فى الضلال. قال ابن الأثير : العَمَهُ فى البصيرة كالعمى فى البصر. [لسان العرب : مادة (ع م هـ)].

(٤) اليوم : فى علم الفلك هو مقدار دوران الأرض حول محورها مرة ، ومدته أربع وعشرون ساعة وجمعه أيام. وأيام العرب : وقائعهم. وأيام الله : أيام جلت فيها نعمه وعذابه. القاموس القويم ص ٣٧٤.

ولكن قد يُذكر اليوم ويُراد به ما حدث فيه من أحداث مُلْفتة ، مثلما نقول : «يوم ذى قَرَد»[1] و«يوم حنين»[2] و«يوم أحُد» .

إذن : فقد يكون المقصود باليوم الحدث البارز الذى حدث فيه ، وحين ننظر فى التاريخ ، ونجد كتاباً اسمه «تاريخ أيام العرب» ، فنجد «يوم بُعَاث»[3] و«يوم أوطاس»[4] وكل يوم يمثل حرباً .

إذن : فاليوم ظرف زمنى ، ولكن قد يُقصَد به الحدث الذى كان فى مثل هذا اليوم .

ومثال ذلك أنك قد تجد من أهل الزمن المعاصر مَنْ عاش فى أزمنة سابقة فيتذكر الأيام الخوالى ويقول : كانت الأسعار قديماً منخفضة ، وكان كل شىء مُتوفراً ، فيسمع مَنْ يرد عليه قائلاً : لقد كانت أياماً ، أى : أنها أيام حدث الرخاء فيها .

إذن : فقد يُنسَب اليوم إلى الحدث الذى وقع فيه .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلاَّ مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا ..(١٠٢)﴾ [يونس]

---

(١) ذو قرد : مكان به ماء من أرض نجد ، على مسافة يوم من المدينة ، مما يلى بلاد غطفان . ذهب أكثر كتب السيرة إلى أنها كانت قبل الحديبية ، أما البخارى فى صحيحه فقد ذهب إلى أنها قبل خيبر بثلاث سنين ، وذكرها بعد الحديبية . انظر : سيرة ابن هشام (٣/ ٢٨١) ودلائل النبوة (٤/ ١٧٨ - ١٩٣) .

(٢) كان فى السنة الثامنة للهجرة بعد فتح مكة ، وقد قال سبحانه فيه : ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ (٢٥)﴾ [التوبة] .

(٣) يوم بُعَاث : هو يوم اقتتلت فيه الأوس والخزرج ، وكان الظفر فيه يومئذ للأوس على الخزرج ، وكان على الأوس يومئذ حضير بن سماك الأشهلى أبو أسيد بن حضير ، وعلى الخزرج عمرو بن النعمان البياضى ، فَقُتلا جميعاً . (سيرة ابن هشام ٢/ ٥٥٥) .

(٤) يوم أوطاس هو نفسه يوم حنين ، وكان فى سنة ثمانٍ للهجرة بعد فتح مكة . وأوطاس : وادٍ فى ديار هوازن ، كانت فيه وقعة حنين .

والذين خلوا منهم قوم نوح عليه السلام وقد أغرقهم الله سبحانه ، وقوم فرعون الذين أغرقهم الله تعالى أيضاً.

والله سبحانه هو القائل :

﴿ فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا [1] وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠) ﴾ [العنكبوت]

وهذه أيام حدثت فيها أحداث يعلمونها ، فهل هم ينتظرون أياماً مثل هذه ؟

بالطبع ما كان يصحُّ لهم أن يستمرئوا الكفر ، حتى لا تتكرر معهم مآسٍ كالتى حدثت لمن سبقهم إلى الكفر.

ونحن نجد فى العامية المثل الفطرى الذى ينطق بإيمان الفطرة ، فتسمع من يقول : «لك يوم يا ظالم» أى : أن اليوم الذى ينتقم فيه الله تعالى من الظالم يصبح يوماً مشهوراً ؛ لأن الظالم إنما يفترى على خلق الله ؛ لذلك يأتى له الحق سبحانه بحدث ضخم يصيبه فيه الله تعالى ويذيقه مجموع ما ظلم الناسَ به.

وقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ .. قُلْ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ (١٠٢) ﴾ [يونس]

---

(١) الحصب : كل ما يلقى فى النار ، لتُسعَّر به . قال تعالى :﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ .. (٩٨) ﴾ [الأنبياء] ، وحصبه : قذفه بالحصى ، قال تعالى : ﴿ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا .. (١٧) ﴾ [الملك] أى : إعصاراً شديداً يقذفكم بالحصى ، فيهلككم ، والرياح العاصفة تفعل أكثر من ذلك .

وقوله هنا : ﴿فَانتَظِرُوا﴾ فيه تهديد ، وقوله : ﴿إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ (١٠٢)﴾ فيه بشارة ؛ لأن الرسول ﷺ سينتظر هذا اليوم ليرى عذابهم ، أما هو ﷺ فسوف يتحقق له النصر فى هذا اليوم .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ[1] (١٠٣) ﴾

والحق سبحانه قد أنجى - مِنْ قَبْل - رُسله ومَنْ آمنوا بهم ، لتبقى معالم للحق والخير .

ومن ضمن معالم الخير والحق لا بد أن تظل معالم الشر ، لأنه لولا مجيء الشر بالأحداث التى تعَضُّ الناس لما استشرف الناس إلى الخير .

ونحن نقول دائماً : إن الألم الذى يصيب المريض هو جندى من جنود العافية ؛ لأنه ينبه الإنسان إلى أن هناك خللاً يجب أن يبحث له عن تشخيص عند الطبيب ، وأن يجد علاجاً له .

والألم يوجد فى ساعات اليقظة والوعى ، ولكنه يختفى فى أثناء النوم ، وفى النوم رَدْع ذاتىٌّ للألم .

وقول الحق سبحانه هنا :

﴿ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٣) ﴾ [يونس]

هذا القول يقرر البقاء لعناصر الخير فى الدنيا .

---

(١) أى : أن الله سبحانه قد نجَّى رسله السابقين والذين آمنوا معهم من العذاب ، وسينجى النبى ﷺ وأصحابه والمؤمنين به حين تعذيب الكفار والمشركين . [تفسير الجلالين ص ١٨٨ - بتصرف] .

وكلما زاد الناس فى الإلحاد زاد اللهِ تعالى فى المدد ، ففى أيِّ بلد يُفْترى فيها على الإيمان ويُظْلم المؤمنون ، ويكثر الطغاة ؛ تجد فيها بعض الناس منقطعين إلى الله تعالى ، لتفهُّم حقيقة القيم ، وحين تضيق الدنيا بالظلمة والطغاة تجدهم يذهبون إلى هؤلاء المنقطعين لله، ويسألونهم أن يدعوا لهم.

وقد ألزم الحق - سبحانه وتعالى - هنا نفسه بأن يُنجى المؤمنين فى قوله سبحانه : ﴿ .. كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٣) ﴾ .

ويقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك :

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (١٠٤) ﴾

والشَّكُّ [١] معناه: وضَعْ أمرين فى كِفَّتين متساويتين.

وهنا يأمر الحق سبحانه رسوله ﷺ بأن يعرض على الكافرين قضية الدين ، وأن يضعوها فى كفة ، ويضعوا فى الكفة المقابلة ما يؤمنون به.

ويترك لهم الحكم فى هذا الأمر.

هم - إذن - فى شك : هل هذا الدين صحيح أم فاسد ؟

وعَرْض الرسول ﷺ لأمر الدين للحكم عليه ، يعنى : أن أمر الدين ملحوظ أيضاً عند أيِّ كافر ، وهو ينتبه أحياناً إلى قيمة الدين.

---

(١) الشك : نقيض اليقين، وجمعه : شكوك . قال تعالى : ﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ..(١٠) ﴾ [إبراهيم]. [لسان العرب : مادة (ش ك ك)].

فـإن كنتم فى شكٍّ من الدين الذى أنزلَ على رسـول الله ﷺ ، وهل ينتصر الرسول ﷺ ومَنْ معه عليهم ، أم تكَون لهم الغلبة ؟

وحين يعرض الرسول ﷺ أمر الدين عليهم ، ويترك لهم الحكم ، فهذه ثقة منه ﷺ بأن قضايا دينه إنْ نظر إليها الإنسان ليحكم فيها ، فلا بد أن يلتجىء الإنسان إلى الإيمان.

ويحسم الحق سبحانه وتعالى أمر قضية الشرك به ، ويستمر أمره إلى الرسول ﷺ أن يقول :

﴿ فَلا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ .. (١٠٤) ﴾ [يونس]

أى : أنه ﷺ لا يمكن أن يعبد الشركاء وأن يعبد الله ؛ لأنه لن يعبد إلا الله ﴿ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ (١٠٤) ﴾ .

ثم جاء سبحانه بالدليل الذى لا مراء(١) فيه ، الدليل القوى ، وهو أن الحق سبحانه وتعالى وحده هو المستحق للعبادة ؛ لأنه ﴿ الَّذِى يَتَوَفَّاكُمْ ﴾(٢) ، و لا يوجد مَنْ يقدر أو يتأبى على قَدَر الله سبحانه حين يُميته.

وهنا قضيتان:

الأولى : قضية العبادة فى قوله سبحانه : ﴿ فَلا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِى يَتَوَفَّاكُمْ .. (١٠٤) ﴾ [يونس]

---

(١) المراء، والمماراة ، والتمارى، والامتراء : الجدال والشك. قال تعالى: ﴿ ..فَلا تُمَارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِرَاءً ظَاهِرًا وَلا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا (٢٢) ﴾ [الكهف]. وقال تعالى: ﴿ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ (١٢) ﴾ [النجم]. وكذلك المرية (بكسر الميم، وبضمها)، قال تعالى: ﴿ وَلا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ .. (٥٥) ﴾ [الحج] [لسان العرب: مادة (م ر ى)] بتصرف.

(٢) يتوفاكم: يميتكم ويقبض أرواحكم. وهو من توفية العدد ، أى: يقبض أرواحكم أجمعين، فلا ينقص واحد منكم. ومن ذلك قوله عز وجل: ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ..(٤٢) ﴾ [الزمر] أى: يستوفى مُدد آجالهم فى الدنيا. [اللسان : مادة وفى].

وكان لا بُدَّ أن يأتى أمر المسألتين معاً : مسألة عدم عبادة الرسول لمن هم من دون الله ، ومسألة تخصيص الله تعالى وحده بالعبادة.

والفصل واضح بما يُحدِّد قطع العلاقات بين معسكر الإيمان ومعسكر الشرك ، كما أورده الحق سبحانه فى قوله :

﴿ قُلْ يَـٰأَيُّهَا الْكَافِرُونَ ① لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ② وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ③ وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ④ وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ⑤ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ⑥ ﴾ [الكافرون]

والذين يقولون : إن فى سورة (الكافرون)[1] تكراراً لا يلتفتون إلى أن هذا الأمر تأكيد لقطع العلاقات ؛ ليستمر هذا القطع فى كل الزمن ، فهو ليس قطعاً مؤقَّتاً للعلاقات[2].

وهذا أول قَطْع للعلاقات فى الإسلام ، بصورة حاسمة ليست فيها أية فرصة للتفاهم أو للمساومة ، ويظل كل معسكر على حاله.

---

(١) نزلت سورة الكافرون فى رهط من قريش قالوا : يا محمد ، هلم اتبع ديننا ونتبع دينك ، تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة ، فإن كان الذى جئت به خيراً مما بأيدينا قد شركناك فيه وأخذنا بحظنا منه ، وإن كان الذى بأيدينا خيراً مما فى يدك قد شركت فى أمرنا وأخذت بحظك ، فقال : معاذ الله أن أشرك به غيره. فأنزل الله تعالى : ﴿ قُلْ يَـٰأَيُّهَا الْكَافِرُونَ ① ﴾ إلى آخر السورة ، فغدا رسول الله ﷺ إلى المسجد الحرام وفيه الملأ من قريش ، فقرأها عليهم حتى فرغ من السورة ، فأيسوا منه عند ذلك. [أسباب النزول - للواحدى ص ٢٦١].

(٢) أقوال مُفسِّرى وعلماء سلفنا الصالح تتلاقى كلها فيما قاله فضيلة الشيخ هنا. فقال البعض منهم البخارى وغيره أن المراد بـ ﴿ لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ② وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ③ ﴾ [الكافرون] فى الماضى و﴿ وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ④ وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ⑤ ﴾ [الكافرون] فى المستقبل. وقال البعض الآخر : إن هذا تأكيد محض. وهناك قول آخر نصره الإمام ابن تيميه ، وهو أن المراد بقوله : ﴿ لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ② ﴾ [الكافرون] نفى الفعل لأنها جملة فعلية ﴿ وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ④ ﴾ [الكافرون] نفى قبوله لذلك بالكلية ؛ لأن النفى بالجملة الاسمية آكد ، فكأنه نفى الفعل وكونه قابلاً لذلك ، ومعناه نفى الوقوع ، ونفى الإمكان الشرعى أيضاً. انظر تفسير ابن كثير (٤/ ٥٦١).

يقول الحق سبحانه وتعالى فى سورة النصر :

﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا (٣) ﴾ [النصر]

هنا يتأكد الأمر ، فبعد أن قطع الرسول ﷺ العلاقات مع معسكر الشرك ، جاء نصر الله سبحانه وتعالى وفَتْحه ، فَهُرِع الناس من معسكر الشرك إلى معسكر الإيمان (١) .

هم - إذن - الذين جاءوا إلى الإيمان . . هذه هى **القضية الأولى** :

﴿ فَلا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ . . (١٠٤) ﴾ [يونس]

وهم كانوا يعبدون الأصنام المصنوعة من الحجارة .

وأنت إذا نظرتَ إلى الأجناس فى الوجود ، فأكرمها هو الإنسان الذى سخَّر له الحق سبحانه بقية الأجناس لتكون فى خدمته .

والجنس الأقل من الإنسان هو الحيوان .

ثم يأتى الجنس الأقل مرتبةً من الإنسان والحيوان ، وهو النبات .

ثم يأتى الجماد كأدنى الأجناس مرتبةً ، وهم قد اتخذوا من أدنى الأجناس آلهة ، وهذه هى قمة الخيبة .

وتأتى **القضية الثانية** فى قول الحق سبحانه وتعالى :

---

(١) كان بين سورتى «الكافرون» ، و«النصر» ما يزيد على ١٥ سنة ، فسورة الكافرون نزلت فى بداية الدعوة ومحاولة قريش إثناء رسول الله ﷺ عن الاستمرار فى دعوته ، ثم حدثت المفاصلة ، ثم الهجرة ، ثم الغزوات ، إلى أن تَمَّ نصر الله بفتح مكة ، ودخل الناس فى دين الله أفواجاً ، فكانت سورة النصر . وهذا يؤكد ما قاله فضيلة الشيخ من امتداد القطع مع معسكر الشرك ؛ ليشمل الزمن كله بالنسبة لقضية الإيمان ماضياً وحاضراً ومستقبلاً .

﴿ . .وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٤) ﴾ فإذا كان رسول الله ﷺ قد رفض العبادة لمن هُمْ دون الله سبحانه ، فمعنى ذلك أنه لن يعبد سوى الله تعالى .

وليس هذا موقفاً سلبياً ، بل هو قمة الإيجاب ؛ لأن العبادة تقتضى استقبال منهج الله بأن يطيع أوامره ، ويجتنب نواهيه .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا[1] وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٥) ﴾

وما دام الخطاب مُوجَّهاً لرسول الله ﷺ ، فهو ككل خطاب مِنَ الحقِّ سبحانه لرسوله ﷺ ، إنما ينطوى على الأمر لكل مؤمن .

وإذا ما عبد المؤمن الله سبحانه فهو يستقبل أحكامه ؛ ولذلك يأتى الأمر هنا بألا يلتفت وجه الإنسان المؤمن إلى غير الله تعالى ، فيقول الحق سبحانه :

﴿ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا . .(١٠٥) ﴾ [يونس]

، فلا يلتفت فى العبادة يميناً أو يساراً ، فما دام المؤمن يعبد الله ولا يعبد غيره ، فليعلم المؤمن أن هناك - أيضاً - شركاً خفياً[2] ، كأن يعبد الإنسان مَنْ هم أقوى أو أغنى منه ، وغير ذلك من الأشخاص التى يُفتن بها الإنسان .

---

(١) حنيفاً : مائلاً عن كل طرق ومناهج الضلال ، إلى طريق الحق وحده .

(٢) الشرك الخفى : هو الرياء وطلب السمعة والصيت . فعن شداد بن أوس قال قال ﷺ : «إن أخوف ما أتخوَّف على أمتى الإشراك بالله . أما إنى لست أقول : يعبدون شمساً ولا قمراً ولا وثناً . ولكن أعمالاً لغير الله ، وشهوة خفية» أخرجه ابن ماجه فى سننه (٤٢٠٥) .

ونحن عرفنا من قبل قول الحق سبحانه :

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا [١] مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ [٢] إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ..(١٢٥)﴾ [النساء]

والحنف [٣] أصله ميل فى الساق ، وتجد البعض من الناس حين يسيرون تظهر سيقانهم متباعدة ، وأقدامهم مُلْتفَّة ، هذا اعوجاج فى التكوين .

أما المقصود هنا بكلمة (حنيفاً) أى : معوج عن الطريق المعوج ، أى : أنه يسير باستقامة .

ولكن : لماذا يأتى مثل هذا التعبير ؟

لأن الدين لا يجيء برسول جديد ومعجزة جديدة ، إلا إذا كان الفساد قد عَمَّ ؛ فيأتى الدين ؛ ليدعو الناس إلى الميل عن هذا الفساد. وفى هذا اعتدال لسلوك الأفراد والمجتمع .

ويحذرنا رسول الله ﷺ من أن نقع فى الشرك الخفى بعد الإيمان بالله تعالى .

---

(١) الدين : الطاعة والانقياد والشريعة والجزاء ، والعقيدة والمنهج والصراط المستقيم [القاموس القويم - باختصار صـ ٢٣٩] .

(٢) الملة (بكسر الميم، وتضعيف اللام) : الشريعة، والدين. قال تعالى : ﴿ .. إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٣٧) ﴾ [يوسف]. وقال تعالى : ﴿ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ .. (٧٨) ﴾ [الحج] . [لسان العرب: مادة : م ل ل] . . بتصرف .

(٣) الحنف فى القدمين : إقبال كل واحدة منهما على الأخرى بإبهامها . ورجل أحنف ، وامرأة حنفاء ، وبه سُمِّى «الأحنف بن قيس» ، واسمه «صخر» ؛ لحنف كان فى رجْله . قال الجوهرى : الحنف : الاعوجاج فى الرِّجْل . وقال أبو عمرو : الحنيف هو المائل من خير إلى شر ، أو من شر إلى خير . وحنف عن الشىء وتحنف : مال . والحنيف : المسلم الذى يتحنف عن الأديان ، أى : يميل إلى الحق ، وقيل : هو الذى يستقبل قبلة البيت الحرام على ملة إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، قال تعالى : ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا .. (٦٧) ﴾ [آل عمران]. وقيل : الحنيف هو الذى يميل عن الضلال ، ويبعد عنه ليتجه إلى الحق ، وقد صارت هذه الكلمة علماً على المسلمين . [لسان العرب : مادة (ح ن ف) - بتصرف] .

ويأتى الكلام عن هذا الشرك الثانى فى قول الحق سبحانه :

﴿ ..وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٥) ﴾ [يونس]

وهذا الشرك الثانى هو أقل مرحلة من شرك العبادة ، ولكن أن تجعل لإنسانٍ أو لأىٍّ شىء مع الله عملاً .

فإن رأيت - مثلاً - للطبيب أو للدواء عملاً ، فَقُلْ لنفسك : إن الطبيب هو مَنْ يصف الدواء كمعالج ، ولكن الله سبحانه وتعالى هو الذى يشفى ، بدليل أن الطبيب قد يخطىء مرة ، ويأمر بدواء تحدث منه مضاعفات ضارة للمريض .

- وعلى المؤمن ألا يُفتنَ فى أىٍّ سبب من الأسباب .

ونذكر مثالاً آخر لذلك ، وهو أن بلداً من البلاد ذات الرقعة الزراعية المتسعة أعلنت فى أحد الأعوام أنها زرعت مساحة كبيرة من الأراضى بالقمح بما يكفى كل سكان الكرة الأرضية ، ونبتت السنابل وأينعتْ ، ثم جاءتها ريح عاصف أفسدت محصول القمح ، فاضطرت تلك الدولة أن تستورد قمحها من دول أخرى .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَلَا تَدۡعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَۖ فَإِن فَعَلۡتَ فَإِنَّكَ إِذٗا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ (١٠٦) ﴾

والمشرك من هؤلاء لحظة أنْ عبدَ الصنم ودعاه من دون الله تعالى ، فهل استجاب له ؟ وحين عبده هل قال الصنم له : افعل كذا ، ولا تفعل كذا ؟

إن الأصنام التى اتخذها المشركون آلهة لم يكُنْ لها منهج ، ولا أحد منها

ينفع أو يضر ، وحين يجىء النفع لا يعرف الصنم كيف يمنعه ، وحين يجىء الضُّر لا يقدر الصنم أن يدفعه.

إذن : فمَنْ يدعو من دون الله - سبحانه وتعالى - هو دعاء لمن لا ينفع ولا يضر.

ومَنْ يفعل ذلك يكون من الظالمين ؛ لأن الظلم هو إعطاء حقٍّ لغير ذى حق ، سواء أكان فى القمة ، أو فى غير القمة[1].

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ ﴾

هذا كلام الربوبية المستغنية عن الخلق ، فالله سبحانه وتعالى خلق الناس ، ودعاهم إلى الإيمان به ، وأن يحبوه ؛ لأنه يحبهم ، ويعطيهم ، ولا يأخذ منهم ؛ لأنه فى غنىً عن كل خلقه.

ويأتى الكلام عن الضُّر هنا بالمسِّ ، ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إلاَّ هُوَ .. ﴿١٠٧﴾ ﴾ [يونس]

ونحن نعلم أن هناك «مساً» و«لمساً» و«إصابة».

وقوله سبحانه هنا عن الضر يشير إلى مجرد المسِّ ، أى : الضر البسيط ، ولا تَقُلْ : إن الضر ما دام صغيراً فالخلق يقدرون عليه ، فلا أحد

(١) أى : سواء كان ظلماً فى القمة - أى : بالإشراك بالله- أو ظلماً فى غير القمة بظلم العباد بأخْذِ حقوقهم والتعدِّى عليهم.

يقدر على الضر أو النفع ، قَلَّ الضر أم كَبُرَ ، وكَثُر النفع أو قَلَّ ، إلا بإذن من الله تعالى.

والحق سبحانه وتعالى يذكر الضر هنا بالمسّ ، أى : أهون الالتصاقات ، ولا يكشفه إلا الله سبحانه وتعالى.

ومن عظمته - جَلَّ وعلا - أنه ذكر مع المس بالضر ، الكشفَ عنه ، وهذه هى الرحمة.

ثم يأتى سبحانه بالمقابل ، وهو «الخير» ، وحين يتحدث عنه الحق سبحانه ، يؤكد أنه لا يرده.

ونحن نجد كلمة ﴿يُصِيبُ﴾ فى وَصْف مجىء الخير للإنسان ، فالحق سبحانه يصيب به من يشاء مِنْ عباده.

ويُنهى الحق سبحانه وتعالى الآية بهذه النهاية الجميلة فى قوله تعالى :

﴿.. وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾ [يونس]

وهكذا تتضح لنا صورة جلال الخير المتجلى على العباد ، ففى الشر جاء به مسّاً ، ويكشفه ، وفى الخير يصيب به العباد ، ولا يمنعه.

والله تعالى هو الغفور الرحيم ؛ لأنه سبحانه لو عامل الناس - حتى المؤمنين منهم - بما يفعلون لعاقبهم ، ولكنه سبحانه غفور ورحيم ؛ لأن رحمته سبقت غضبه [(١)] ؛ ولذلك نجده سبحانه فى آيات النعمة يقول :

﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا [(٢)] .. ﴿١٨﴾﴾ [النحل]

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «لما قضى الله الخلق كتب فى كتابه، فهو عنده فوق العرش: إن رحمتى غلبت غضبى» أخرجه البخارى فى صحيحه (٣١٩٤) ومسلم (٢٧٥١).
(٢) الإحصاء: العد والحصر.

وجاء الحق سبحانه بالشكِّ ، فقال ﴿إن﴾ ولم يقل : «إذا تعدون نعمة الله» ؛ لأن هذا أمر لن يحدث ، كما أن الإقبال على العَدِّ هو مظنَّة أنه يمكن أن يحصى ؛ فقد تُعدُّ النقود ، وقد يَعدّ الناظر طلاب المدرسة ، لكن أحداً لا يستطيع أن يعُدّ أو يُحصى حبَّات الرمال مثلاً.

وقال الحق سبحانه وتعالى :

﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا.. (١٨)﴾ [النحل]

وهذا شَكٌّ فى أن تعدوا نعمة الله .

ومن العجيب أن العدَّ يقتضى التجمع ، والجمع لأشياء كثيرة ، ولكنه سبحانه جاء هنا بكلمة مفردة هى ﴿نِعْمَةَ﴾ ولم يقل : «نِعَم» فكأن كل نعمة واحدة مطمور فيها نِعَمٌ شتَّى.

إذن : فلن نستطيع أن نعدَّ النِّعَم المطمورة فى نعمة واحدة.

وجاء الحق سبحانه بذكر عَدِّ النعم فى آيتين :

الآية الأولى تقول :

﴿..وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ[1] (٣٤)﴾ [إبراهيم]

والآية الثانية تقول :

﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٨)﴾ [النحل]

(١) ظلوم : صيغة مبالغة من (الظلم) ، أى : كثير الظلم لنفسه أو لغيره ، أو لهما معاً .
وكفَّار : صيغة مبالغة من (الكفر) ، أى : شديد الكفر ، والكفر فى اللغة : الستر ، من ستر الشىء إذا أخفاه . فكأن الإنسان بعدم شكر الله على النعمة يكون قد كفرها . أى : سترها وأخفاها ولم يؤدِّ حقها من الذكر والشكر .

وصَدْر الآيتين واحد ، ولكن عَجُزَ كل منهما مختلف ، ففى الآية الأولى : ﴿ .. إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤) ﴾ [إبراهيم]

وفى الآية الثانية : ﴿ .. إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٨) ﴾ [النحل]

لأن النعمة لها مُنْعِم ؛ ومُنْعَم عليه ، والمنعَم عليه - بذنوبه - لا يستحق النعمة ؛ لأنه ظلوم وكفار . ولكن المنعم سبحانه وتعالى غفور ورحيم ، ففى آية جاء مَلْحظ المنعِم ، وفى آية أخرى جاء ملحظ المنعَم عليه .

ومن ناحية المنعَم عليه نجده ظَلُوماً كفَّاراً ؛ لأنه يأخذ النعمة ، ولا يشكر الله عليها .

ألم تَقُلْ السماء : يارب! ائذن لى أن أسقط كِسَفاً على ابن آدم ؛ فقد طَعِم خيرك ، ومنع شكرك .

وقالت الأرض : ائذن لى أن أنخسف بابن آدم ؛ فقد طَعِم خيرك ، ومنع شكرك .

وقالت الجبال : ائذن لى أن أسقط على ابن آدم .

وقال البحر : ائذن لى أن أغرق ابن آدم الذى طَعِم خيرك ، ومنع شُكْرك .

هذا هو الكون الغيور على الله تعالى يريد أن يعاقب الإنسان ، لكن الله سبحانه رب الجميع يقول : « دعونى وعبادى ، لو خلقتموهم لرحمتموهم ، إنْ تابوا إلىَّ فأنا حبيبهم ، وإنْ لم يتوبوا فأنا طبيبهم» .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ[1] ﴿١٠٨﴾﴾

إذن : فالحق سبحانه لم يُقصِّر مع الخلق ، فقد خلق لكم العقول ، وكان يكفى أن تفكّروا بها لتؤمنوا من غير مجىء رسول ، وكان على هذه العقول أن تفكر فى القوىّ الذى خلق الكون كله ، بل هى التى تسعى لتطلب أن يرسل لها القوىّ رسولاً بما يطلبه سبحانه من عباده ، فإذا ما جاء رسول ليخبرهم أنه رسول من الله ويحمل البلاغ منه ، كان يجب أن تستشرف آذانهم لما يقول .

إذن : كان على العباد أن يهتدوا بعقولهم ؛ ولذلك نجد أن الفلاسفة حين بحثوا عن المعرفة ، قالوا : إن هناك «فلسفة مادية» تحاول أن تتعرف على مادية الكون ، وهناك «فلسفة ميتافيزيقية»[2] تبحث عما وراء المادة .

فَمَنْ أعلمَ الفلاسفة - إذن - أن هناك شيئاً وراء المادة .

وكأن العقل المجرد ساعةَ يرى نُظُم الكون الدقيقة كان يجب أن يقول : إن وراء الكون الواضح المُحَسِّ قوة خفية .

ولم يذهب الفلاسفة إلى البحث فيما وراء المادة ، إلا لأنهم أخذوا من

---

(١) الوكيل : الكفيل الموكل بأرزاق الناس وأمورهم ، والحفيظ الذى يحفظ أعمال الناس . قال سبحانه : ﴿ ..وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنعام] ، وقد نفى الله سبحانه هذا عن نبيه ورسوله محمد ﷺ .

(٢) الفلسفة : لفظ يونانى ومعناه البحث عن الحقيقة . والميتافيزيقا : ما وراء الطبيعة والكون . أى : الغيبيات التى لا تخضع لقوانين المادة .

المادة أن وراءها شيئاً مستوراً .

والمستور الذى وراء المادة هو الذى يعلن عن نفسه ، فهو أمر لا نعرفه بالعقل .

وقديماً ضربنا مثلاً فى ذلك ، وقلنا : هَبْ أننا جالسون فى حجرة ، ودقَّ جرس الباب ، فعلم كل مَنْ فى الحجرة أن طارقاً بالباب ، ولم يختلف أحد منهم على تلك الحقيقة .

وهذا ما قاله الفلاسفة حين أقرُّوا بوجود قوة وراء المادة ، ولكنهم تجاوزوا مهمتهم ، وأرادوا أن يُعرِّفونا ماهية أو حقيقة هذه القوة ، ولم يلتفتوا إلى الحقيقة البديهية التى تؤكد أن هذه القوة لا يمكن أن تُعْرَف بالعقل ؛ لأننا ما دُمْنا قد عرفنا أن بالباب طارقاً يدق ؛ فنحن لا نقول من هو ، ولا نترك المسألة للظن ، بل نتركه هو الذى يحدد لنا مَنْ هو ، وماذا يطلب؟ لأن عليه هو أن يخبر عن نفسه .

اطلبوا منه أن يعلن عن اسمه وصفاته ، وهذه مسائل لا يمكن أن نعرفها بالعقل .

إذن : فخطأ الفلاسفة أنهم لم يقفوا عند تعقُّل أن هناك قوة من وراء المادة ، وأرادوا أن ينتقلوا من التعقُّل إلى التصور ، والتصورات لا تأتى بالعقل ، بل بالإخبار .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ .. (١٠٨) ﴾ [يونس]

والحق - كما نعلم - هو الشيء الثابت الذى لا يتغير أبداً ، وأن يأتى

الحق من الرب الذى يتولى التربية بعد أن خلق من عدم وأمدَّ من عُدْم [١]، ولا يكلفنا بتكاليف الإيمان إلا بعد البلوغ ، وخلق الكون كله ، وجعلنا خلفاء فيه .

هو - إذن - مأمون علينا ، فإذا جاء الحق منه سبحانه وتعالى ، فلماذا لا نجعل المنهج من ضمن التربية ؟

لماذا أخذنا تربية المأكل والملبس وسيادة الأجناس ؟

كان يجب - إذن - أن نأخذ من المربِّى - سبحانه وتعالى - المنهج الذى ندير به حركة الحياة ؛ فلا نفسدها .

وحين يقول الحق سبحانه :

﴿ جَاءَكُمُ الْحَقُّ [٢] مِن رَّبِّكُمْ .. (١٠٨) ﴾ [يونس]

فمعنى ذلك أنه لا عُذر لأحد أن يقول : « لم يُبلغْنى أحدٌ بمراد الله » ، فقد ترك الحق سبحانه العقول لتتعقل ، لا أن تتصور .

وجاء التصوُّر للبلاغ عن الله تعالى ، حين أرسل الحق سبحانه رسولاً يقول : أنا رسول من الله ، وهو القوة التى خلقت الكون ، وكان علينا أن نقول للرسول بعد أن تَصْدُق معجزته : أهلاً ، فأنت مَنْ كنا نبحث عنه ، فَقُلْ لنا : ماذا تريد القوة العليا أن تبلغنا به ؟

ثم يقول الحق سبحانه فى نفس الآية :

---

(١) العَدَم والعُدْم والعُدُم : فقدان الشيء وذهابه . ومثله فى ضبط حروف الكلمة : الرُّشْد والرَّشَد - الحُزْن والحَزَن . ومثله قوله تعالى : ﴿ لا إِكْرَاهَ فِى الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ .. (٢٥٦) ﴾ [البقرة] . وقوله تعالى : ﴿ .. رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا (١٠) ﴾ [الكهف] .

(٢) الحق : الأمر الثابت ضد الباطل ، والحق من أسماء الله الحسنى ، والحق القرآن ، والحق العدل والصدق والحكمة والبعث وكمال الأمر ، والحق الواقع الثابت الذى لا خلاف فيه ، قال تعالى : ﴿ أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ أَلا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٥٥) ﴾ [يونس] ، والحق ما وجب عليك لغيرك [القاموس القويم بتصرف صـ ١٦٤ ، ١٦٥] .

﴿فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ ..(١٠٨)﴾ [يونس]

لأن حصيلة هدايته لا تعود على مَنْ خلقه وهداه ، بل تعود عليه هو نفسه انسجاماً مع الكون ، وإصلاحاً لذات النفس ، وراحة بال ، واطمئناناً ، وانتباهاً لتعمير الكون بما لا يفسد فيه ، وهذا الحال عكس ما يعيشه مَنْ ضل عن الهداية .

ويقول الحق سبحانه عن هذا الصنف من الناس :

﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ..(١٠٨)﴾ [يونس]

وكلمة ﴿ضَلَّ﴾ تدل على أن الإنسان الذى يضل كانت به بداية هداية ، لكنه ضَلَّ عنها .

ويُنهى الحق سبحانه الآية بقوله : ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ (١٠٨)﴾ [يونس]

وأنت لا توكِّل إنساناً إلا لأن وقتك لا يسع ، وكذلك قدرتك وعلمك وحركتك ، وهنا يُبلغ الرسول القوم : أنا لا أقدر أن أدفع عنكم الضلال ، أو أجبركم على الهداية ؛ لأنى لست وكيلاً عليكم ، بل علىَّ فقط مهمة البلاغ [1] عن الله سبحانه وتعالى ، وهذا البلاغ إن استمعتم إليه بخلاء القلب من غيره ، تهتدوا .

وإذا اهتديتم ؛ فالخير لكم ؛ لأن الجزاء سيكون خلوداً فى نعيم تأخذونه مقابل تطبيق المنهج الذى ضيَّق على شهوات النفس ، ولكنه يهدى حياة نعيم لا يفوته الإنسان ، ولا تفوت النعم فيه الإنسان .

---

(١) وقد ورد تأكيد هذا فى آيات كثيرة من القرآن الكريم ، ومنه قوله تعالى : ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاغُ ..(٤٨)﴾ [الشورى] . وقال تعالى : ﴿..وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ (٥٤)﴾ [النور] . فكل المطلوب من الرسول هو إبلاغ رسالته ، وأن يكون هذا البلاغ مبيناً جلياً واضحاً .

وإذا كان الإنسان منَّا يقبل أن يتعب ؛ ليتعلَّم حرفة أو عملاً أو صنعة أو مهنة ؛ ليكسب الإنسان من إتقان هذا العمل بقية عمره.

أليس على هذا الإنسان أن يُقبل على العبادة التى تصلح باله ، وتسرع به إلى الغاية انسجاماً مع النفس ، ومع المجتمع ، وتقويماً وتهذيباً لشهوات النفس ، وينال من بعد ذلك خلود النعيم فى الآخرة.

أما من يستكثر على نفسه الجدَّ والاجتهاد فى تحصيل العلم ، أو تعلُّم مهنة أو حرفة ، فهو يحيا فى ضيق وعدم ارتقاء ، فهو لا يبذل جهداً فى التعلّم.

ونرى مَنْ يتعلم ويبذل الجهد ، وهو يرتقى فى المستوى الاجتماعى والاقتصادى ؛ ليصل إلى درجة الدكتوراة - مثلاً - أو التخصص الدقيق الذى يأتى له بِسَعة الرزق.

وكلما كانت الثمرة التى يريدها الإنسان أينع [1] وأطول عمراً كانت الخدمة من أجلها أطول.

وقارن بين خدمتك لدينك فى الدنيا بما ينتظرك من نعيم الآخرة ؛ وسوف تجد المسافة بين عطاء الدنيا وعطاء الآخرة شاسعاً ، ولا مقارنة.

وقول الحق سبحانه:

﴿ وَمَن ضَلَّ [2] فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴿١٠٨﴾ ﴾ [يونس]

---

(١) أينع : أكثر نُضْجاً . واليَنْع : النضج . ومنه قوله تعالى : ﴿ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ .. ﴿٩٩﴾ ﴾ [الأنعام].

(٢) ضَلَّ الكافر : غاب عن الحجة المقنعة ، وعدل عن الطريق المستقيم ، ولم يعرف الحق . والضلال : النسيان والضياع . وضلَّ الشيء : خفى وغاب فهو فعل لازم ، وضل المسافر الطريق مُتعدٍّ : لم يعرفه . [القاموس القويم صـ ٣٩٤ - بتصرف] .

تجد فيه كلمة ﴿عَلَيْهَا﴾ وهى تفيد الاستعلاء على النفس ، أى : أنك بالضلال - والعياذ بالله - تستعلى على نفسك ، وتركب رأسك إلى الهاوية .

وفى المقابل تجد قول الحق سبحانه :

﴿فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ .. (١٠٨)﴾ [يونس]

وتجد «اللام» هنا تفيد المِلْك ؛ لذلك يقال : «فلان له» و«فلان عليه» .

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه فى ختام سورة يونس :

﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (١٠٩)﴾

وإذا كان الحق سبحانه قد أورد على لسان رسوله ﷺ : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ..(١٠٨)﴾ [يونس]

فهذا يعنى البلاغ بمنهج الله - تعالى- النظرى ، ولا بُدَّ أن يثق الناس فى المنهج ، بأن يكون الرسول هو أول المنفذين للمنهج ، لأنه - معاذ الله - لو غشَّ الناس جميعاً لما غشَّ نفسه .

إذن : فبعد البلاغ [1] عن الحق سبحانه ، وتعريف الناس بأن الهداية

(١) البلاغ : اسم مصدر بمعنى الكفاية أو الإبلاغ أو التبليغ . قال تعالى : ﴿هَذَا بَلاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ ..(٥٢)﴾ [إبراهيم] وقال تعالى : ﴿إِنَّ فِي هَذَا لَبَلاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ (١٠٦)﴾ [الأنبياء] أى : فيما ذُكر من الأخبار والمواعظ .

ومبلغ الشيء : حدّه ونهايته التى يصل إليها ، أو مقداره الذى ينتهى به . قال تعالى : ﴿ذَلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ .. (٣٠)﴾ [النجم] [القاموس القويم - بتصرف ١/ ٨٣ ، ٨٤] .

لا يعود نفعها على الحق ، بل هى للإنسان ، فيملك نفسه ؛ ويملك زمام حياته ، فيسير براحة البال فى الدنيا إلى نعيم الآخرة ، وأن الضلال لا يعود إلا باستعلاء الإنسان على نفسه ؛ ليركبها إلى موارد التهلكة.

والرسول ﷺ ليس وكيلاً عنكم ، يأتى لكم بالخير حين لا تعملون خيراً ، ولا يصرف عنكم الشر وأنتم تعملون ما يستوجب الشر.

ولذلك كان على رسول الله ﷺ أن يكون هو النموذج والأسوة :

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ[1] حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ[2] وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً (٢١)﴾ [الأحزاب]

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ .. (١٠٩)﴾ [يونس]

أى : عليك أن تكون الأسوة ، وحين تتّبع ما يُوحَى إليك ؛ ستجد عقبات ممن يعيشون على الفساد ، ولا يرضيهم أن يوجد الإصلاح ، فَوطِّن العزم على أن تتبع ما يوحى إليك ، وأن تصبر.

---

(١) الأسوة : القدوة ، والمثل الأعلى الذى يُقتدى به . ورسول الله ﷺ هو أسوتنا وقدوتنا . وقد قال سبحانه عن إبراهيم عليه السلام أيضاً : ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ .. (٤)﴾ [الممتحنة] ثم قال تعالى : ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ .. (٦)﴾ [الممتحنة].

(٢) ورد الرجاء فى القرآن على معان عدة :

- منها : الطلب والأمل فى تحقق شيء ، وذلك مثل قوله تعالى : ﴿أُوْلَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ ..(٢١٨)﴾ [البقرة] . وقوله تعالى : ﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا .. (٦٠)﴾ [النور].

- منها : الخوف ، مثل قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ (٧) أُوْلَٰئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨)﴾ [يونس].

ومجىء الأمر بالصبر دليل على أن هناك عقبات كثيرة ، وعليك أن تصبر وتعطى النموذج لغيرك [(١)] ، والثقة فى أنه لو لم يكن هناك خير فى اتباع المنهج لما صبرت عليه ؛ حتى يأتى حكم الله ﴿ .. وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (١٠٩) ﴾ [يونس]

وليس هناك أعدل ولا أحكم من الله سبحانه وتعالى .

وهذه السورة التى تُخْتَم بهذه الآية الكريمة ، تعرضت لقضية الإيمان بالله ، قمة فى عقيدة لإله واحد يجب أن نأخذ البلاغ منه سبحانه ؛ لأنه الرب الذى خلق من عَدَم ، وأمدَّ من عُدْم ، ولم يكلِّفنا إلا بعد مرور سنوات الطفولة وإلى البلوغ ؛ حتى يتأكد أن المكلَّف يستحق أن يُكلَّف بعد أن انتفع بخيرات الوجود كله ، وتثبَّت من صدق الربوبية .

ومعنى الربوبية هو التربية ، وأن يتولى المربِّى المربَّى إلى أن يبلغ حَدَّ الكمال المرجوّ منه .

وقد صدقتْ هذه القضية فى الكون .

إذن : نستمع إلى الرب - سبحانه وتعالى - الذى خلق ، حين يُبيِّن لنا مهمتنا فى الحياة بمنهج تستقيم به حركة الحياة ، ويستقيم أمر الإنسان مع الغاية التى يعرفها قبل أن يخطو أى خطوة .

ومن المحال أن يخلق الله - سبحانه وتعالى - المخلوق ثم يُضيِّعه ، بل لا بد أن يضع له قانون صيانة نفسه [(٢)] ؛ لأن كل صنعة إنما يضع قانونها

---

(١) يقول سبحانه : ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ..(٣٥) ﴾ [الأحقاف] . فالصبر هو اقتداء بالرسل الأعلام ، الذين صبروا على إيذاء أقوامهم صبراً تعجز عنه قدرات البشر ، مثل : نوح وموسى وعيسى وإبراهيم ومحمد ﷺ .

(٢) يقول تعالى : ﴿ أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى (٣٦) ﴾ [القيامة] . قال ابن كثير فى تفسيره (٤/ ٤٥٢) : «الآية تعمُّ الحالين . أى : ليس يترك فى هذه الدنيا مهملاً لا يؤمر ولا ينهى ، ولا يترك فى قبره سدى لا يبعث ، بل هو مأمور منهى فى الدنيا ، محشور إلى الله فى الدار الآخرة» .

ويحدد الغاية لها مَنْ صنعها ، فإذا ما خالفنا ذلك نكون قد أحَلْنا [١] وغيَّرنا الأمور ، وأدخلنا العالم فى متاهات ، وصار لكل امرىء غاية ، ولكل امرىء منهج ، ولكل عقل فكر ، ولَصار الكون متضارباً ؛ لأن الأهواء ستتضارب ، فتضعف قوة الأفراد ؛ لأن الصراع بين الأنداد [٢] يُضعِف قوة الفرد عن معالجة الأمر الذى يجب أن يعالجه.

فأراد الله - سبحانه وتعالى - توحيداً [٣] فى العقيدة ، وتوحيداً فى المنهج.

وأراد الحق سبحانه وتعالى أن يضرب لنا مثلاً تطبيقياً فى مواكب الرسالات ، فذكر لنا فى هذه السورة قصة نوح - عليه السلام - وقصة موسى وهارون - عليهما السلام - وذكر بينهما القصص الأخرى.

ثم ذكر قضية يونس عليه السلام.

ثم ختم السورة بقوله سبحانه:

﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ .. (١٠٩) ﴾ [يونس]

بلاغاً عن الله تعالى.

وما دُمْتَ تبلّغ ، وأمتك أمة محسوبة - إلى قيام الساعة - أنها وارثة

---

(١) أحلنا الأمور: حوَّلناها وبدلناها لغير ما وضعت له. وفى اللسان: كل شىء تغير عن الاستواء إلى العوَج فقد حال واستحال. ويقال: حال الرجل يحول مثل تحوَّل من موضع إلى موضع. (مادة: حوَل).

(٢) الأنداد: الأمثال والنظراء.

(٣) الرسالات فى جوهرها تسير بالتوحيد وعليه وبه ، يقول الحق سبحانه: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ .. (١٣) ﴾ [الشورى].

النبوة ، ولم تَعُدْ هناك نبوة بعدك يا محمد ﷺ تسليماً كثيراً.

وأراد الحق سبحانه لأمتك أن يحملوا الدعوة للمنهج الذى نزل إليك.

إذن: فرسول الله ﷺ سيكون شهيداً بأنه قد بلّغ ، ويجب أن تكون أمته شهيدة بأنها بلغت ، وأوصلت رسالة الله إلى الدنيا [(١)] ، وهذا شرف مهمة أمة محمد ﷺ .

ولم يكن لأمة غيرها مثل هذا الشرف ؛ فقد كان الأمر قبل رسول الله ﷺ أن دعوة أىِّ رسول تفتُر ، وتبهت تكاليفه [(٢)] ، ويغفل عنها الناس ، فيرسل الله - سبحانه وتعالى - رسولاً ، ولكن الأمر اختلف بعد رسالة محمد عليه الصلاة والسلام ، فلم تَعُدْ هناك نبوة ، ولا رسالة ، ولكن صار هناك مَنْ يحملون منهج الله تعالى.

والرسول ﷺ هو الأسوة ؟ لأنه مُبلغ منهج الله ، وهو أسوة فى تطبيق قانون صيانة الإنسان وحركته ، ونموذج تطبيقى حتى لا يكلف الناس فوق ما تطيقه إنسانيتهم ؛ ولذلك كان يُصِر على أنه بشر ، وأوضح القرآن الكريم ذلك بلا أدنى غموض:

﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ..(٦)﴾ [فصلت]

---

(١) يقول رب العزة سبحانه وتعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ..(١٤٣)﴾ [البقرة]. وقال تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ (٧٨)﴾ [الحج].

(٢) أى: يطول عليهم الزمن فتُنسى رسالة الرسول، ويقع فيها التحريف والتبديل والتغيير، وقد حدث أكثر هذا مع بنى إسرائيل.

ليؤكد صدق الأسوة ؛ لأنه ﷺ لو لم يكن بشراً وطلب من الناس أن يفعلوا مثله لقالوا: لن نستطيع لأنك لست مثلنا.

ولذلك نلحظ أن القرآن يؤكد على بشرية رسول الله ﷺ، ولكنه ﷺ يزيد عن البشر باصطفاء الله سبحانه له ؛ ليكون رسولاً يُوحَى إليه، فمهمته الرسالية الأولى أن يُبلغ هذا الوحى، والمهمة الثانية أن يؤكد بسلوكه أنه مقتنع بهذا الوحى ويُطبِّقه على نفسه.

ويقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ [1].. (٢١) ﴾ [الأحزاب]

وكان رسول الله ﷺ من ناحية الثراء أقلَّ الناس مالاً، وهو غير متكبر، ولا جبَّار، وهو كنموذج سلوكى تتوازن فيه وبه كل الفضائل ؛ فلم يطلب لنفسه شيئاً، بل إنه منع أقاربه وأهله من حقوق أقرها لغيرهم من المسلمين، فأقاربه لم يُعطهم الحق فى أن يرثوا شيئاً مما يملكه بعد وفاته وقد حرمهم ؛ ليكونَ كل عمل صادر منه ﷺ أو ممن ينتسبون بالقرابة إليه هو عمل خالص لوجه الله تعالى.

وهذا السلوك هو عكس سلوك الرئاسات البشرية، أو السلطات الزمنية، فهذه الرئاسات أو تلك السلطات تفيض أول ما تفيض على نفسها بالخير، ثم تفيضه على الدوائر القريبة منها حسب أقطار القرب ؛ فالقريب جداً يأخذ أولاً وكثيراً، ومَنْ يبعد فى القرابة يأخذ الأقل حسب درجة بُعْده.

---

(١) الأسوة والإسوة: القدوة. ويقال: ائتس به، أى: اقتد به وكُنْ مثله. قال الليث: فلان يأتسى بفلان، أى: يرضى لنفسه ما رضيه ويقتدى به. وقال الهروى: تأسَّى به: اتبع فعله واقتدى به. [لسان العرب: مادة (أ س ا)].

لكن الذى فى دائرة القرابة مع رسول الله ﷺ لا يأخذ حتى ما يأخذه الفقير فى أمة محمد عليه الصلاة والسلام ، وكأن الله سبحانه وتعالى يدلنا بذلك على أنه من العيب أن يكون الإنسان منسوباً لآل بيت النبوة ، ويكون موضعاً لأخذ الزكاة.

إذن: فالاتِّباع الذى أمر الله تعالى به ، هو اتباع الوحى بلاغاً ، واتباع ما يُوحَى به تطبيقاً ، وسيتطلب هذا مواجهة متاعب كثيرة ، وسيلقى عقبات من الجبابرة المتفعين بالفساد فى الأرض ، فلا بُدَّ أن يصادموا هذه الدعوات ؛ ليحافظوا على سلطتهم الزمنية ، فيأمر الحق سبحانه وتعالى رسوله ﷺ بأن يصبر ، وفى الأمر بالصبر إشارة إلى أن الرسول ﷺ مُقْبِل على عقبات فَلْيُعِدّ نفسه لتحمُّل هذه العقبات بالصبر [1].

وفى آية أخرى يأمره الحق سبحانه وتعالى أن يصبر ويصابر هو والمؤمنون. . يقول سبحانه:

﴿اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا [2].. (٢٠٠)﴾ [آل عمران]

أى: إن صبرت ، فقد يصبر خَصْمك أيضاً ، وهنا عليك أن تصابره ، وكلمة «اصبر» توضح أن دعاة منهج الحق سبحانه لا بد أن يتعرضوا لمتاعب ، وإلا ما كانت هناك ضرورة لأن يجيء ، فلو كان العالم مستقيم الحركة ، فما ضرورة المنهج إذن ؟

---

(١) وقد كان الحق سبحانه يُعدُّ نبيه ﷺ لهذا ، من نحو قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ (٣٤)﴾ [الأنعام].

(٢) اصبروا على الطاعات والمصائب ، واصبروا عن المعاصى. وصابروا الكفار فلا يكونوا أشد صبراً منكم. ورابطوا أى: جاهدوا وأقيموا عليه واستمروا فيه. [تفسير الجلالين: ص٦٤] . وصيغة «صَابَر» من «فَاعَل» تدل على شدة الفعل والمبالغة فيه ، أى: شدة الصبر والتحمُّل. و الاستمرار عليه حتى الوصول للهدف .

ولكن المنهج قد جاء ؛ لأن الفساد قد عَمَّ الكون ، ويحتاج إلى إصلاح ، وإلى مواجهة المفسدين ، وهذا ما يرهق الداعين إلى الله تعالى ، وليُوطّن كل داعية نفسه على ذلك ، ما دام قد قام ليدعو إلى منهج الحق سبحانه وتعالى.

وكل داع إلى الله لا يصيبه أذى ، فهذا يُنقص من حظه فى ميراث النبوة ؛ لأن الذى يأتى له الأذى هو الذى يأخذ حظاً من ميراث النبوة ، فالأذى لا يجىء إلا بمقدار خطورة الداعى إلى الله سبحانه على الفساد والمفسدين ، وهم الذين يتجمعون ضده.

ورسول الله ﷺ يقول: «نضَّر [1] الله امرأ سمع مقالتى فوعاها [2] وحفظها وبلَّغها ، فرُبَّ حامل فقه إلى مَنْ هو أفقه منه» [3].

إذن: فنحن أمة محمد ﷺ قد ورثنا منه البلاغ ، وورثنا منه الأسوة الحسنة:

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً (٢١)﴾ [الأحزاب]

إذن: فقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ .. (١٠٩)﴾ [يونس]

هو دليل على أن الوحى بصدد الإنزال ؛ لأن الوحى لم ينزل بالقرآن

---

(١) النضارة: إشراق الوجه ونوره.

(٢) وعاها: حفظها ، فكان كالوعاء يعى ما يوضع فيه ، وإن لم يدرك تفاصيل ما وعاه.

(٣) أخرجه الترمذى فى سننه (٢٦٥٨) وأبو نعيم فى حلية الأولياء (٧/ ٣٣١) من حديث عبد الله بن مسعود.

دَفْعة واحدة ، فقد كان الوحى ينزل على رسول الله ﷺ طوال حياته [(١)] .

وهكذا تكون حياة رسول الله ﷺ هى مقام الاستقبال للوحى .

وقول الحق سبحانه :

﴿ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ ..(١٠٩) ﴾ [يونس]

يوضح لنا أنه سبحانه قد وضع حداً تؤمل فيه أن الأمر لن يظل صبراً ، وأن القضية ستُحسم من قريب بحكم من الله تعالى .

وكلمة ﴿يَحْكُمَ﴾ توضح أن هناك فريقين ؛ كُلٌّ يدَّعى أنه على حق ، ثم يأتى مَنْ يفصل فى القضية ، والحجة إما الإقرار أو الشهود ، وبطبيعة الحال لن يُقرَّ الكفار بكفرهم ، والشهود قد يكونون عُدولاً ، أو يكونون ممن يُدارون فسْقهم فى ظاهر العدالة . فإذا كان الله سبحانه وتعالى هو الحاكم ، فهو لا يَحتاج إلى شهود ؛ لأنه خير الشاهدين ، والله سبحانه لا يحكم فقط دون قدرة إنفاذ الحكم ، لا بل هو يحكم وينفذ .

إذن : فهو سبحانه قد شهد وحكم ونفَّذ ، ولا توجد قوة تقف أمام قدرة الله تعالى ، أو تقف أمام حكم الله عز وجل .

ونحن فى زماننا نرى القُوى وهى تختلف ، فنجد القوىَّ من الدول وقد تسلَّط على الضعيف ، فيلجأ الضعيف إلى الأمم المتحدة ومجلس الأمن ، ويصدر كل منهما قرارات ، وحتى لو افترضنا عدالة الحكم ، فأين قوة التنفيذ ؟ إنها غير موجودة .

---

(١) أى : كان ينزل مُنجّماً على حسب الأحوال والوقائع ، وهذا جعل القرآن بالنسبة لأصحاب رسول الله ﷺ غضّاً رطباً ، لأنه ينزل بما يناسب حالهم . ومعلوم أن القرآن له تنزُّل آخر ، حيث نزل جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا . راجع الإتقان فى علوم القرآن (١/ ١١٦) .

ولكن قدرة الحق الأعلى سبحانه هى قدرة خير الحاكمين ، لأنه هو سبحانه الذى يشهد ، وهو سبحانه لا يحتاج إلى مَنْ يُدلِّس عليه فى الشهادة ؛ لأنك إن عمَّيت على قضاء الأرض ، فلن تُعمِّى على قضاء السماء [١] .

وبعد ذلك يحكم الحق سبحانه حُكْماً لا هوى فيه ؛ لأن آفة الأحكام أن يدخلها الهوى فتميل ، والحق سبحانه لا هوى له ؛ لأنه لا مصلحة له عند العباد ، فهو الخالق عز وجل ، ولن يأخذ مصلحة من مخلوق [٢] .

ويطمئننا الحق سبحانه على أن رسوله ﷺ أيضاً لا ينطق عن الهوى .

فيقول رب العزة سبحانه :

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ [٣] ۝٣ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤ ﴾ [النجم]

---

(١) عن أم سلمة عن رسول الله ﷺ «أنه سمع خصومة بباب حجرته ، فخرج إليهم فقال : إنما أنا بشر ، وإنه يأتينى الخصم ، فلعل بعضكم أن يكون أبلغ من بعض ، فأحسب أنه صدق فأقضى له بذلك ، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هى قطعة من النار ، فليأخذها أو ليتركها» أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٤٥٨) ومسلم (١٧١٣) .

(٢) يقول سبحانه : ﴿ لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ .. ۝٣٧ ﴾ [الحج] . فالله تعالى هو الغنى عما سواه ، وقد كان أهل الجاهلية إذا ذبحوا الهدايا والضحايا لآلهتهم وضعوا عليها من لحوم قرابينهم ونضحوا عليها من دمائها . فبيَّن عز وجل أن ما يناله الله منهم هو التقوى وإخلاص القلب لله . (تفسير ابن كثير ٣/ ٢٢٤ بتصرف) .

(٣) الهوى : هوى النفس ، وإرادتها ومحبتها الشيء ، قال تعالى : ﴿ .. وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٤٠ ﴾ [النازعات] أى : منعها عن المعاصى والشهوات ، وإذا تكلم بالهوى مطلقاً لم يكن إلا مذموماً حتى يُنعت بما يخرجه عن معناه كقولهم : هوى حسن ، أو هوى موافق للصواب . أما المراد به فى الآية فهو الهوى المذموم . قال تعالى : ﴿ .. فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا ۝١٣٥ ﴾ [النساء] . وقال تعالى : ﴿ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ .. ۝٢٦ ﴾ [ص] . وقال تعالى : ﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ .. ۝٤٣ ﴾ [الفرقان] وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ .. ۝٥٠ ﴾ [القصص] . وقال تعالى : ﴿ وَلا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ .. ۝٧٧ ﴾ [المائدة] . وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ .. ۝١١٩ ﴾ [الأنعام] . [لسان العرب : مادة (هـ و ى) - بتصرف] .

أى: اطمئنوا إلى حكمه ؛ لأنه لا ينطق عن هوى فليس فى نفسه ما يريد تحقيقه إلا دعوة الخلق إلى حُسْن عبادة الخالق سبحانه.

وقد يقول قائل: ولكن الحق - عز وجل - عدَّل للرسول بعضاً من الأحكام.

ونقول: لقد كان رسول الله ﷺ يجتهد ببشريته فيما لم يُنزل الله فيه حُكْماً ، وحين يُنزل الله حُكْماً ، فهو ﷺ ينزل على أمر الله تعالى ، ولم يكن رسول الله ﷺ يحكم حتى فيما اجتهد فيه عن هوى ، بل حكم بما رآه عدلاً ، وحين يُنزل الحق سبحانه وتعالى حُكْماً مغايراً فهو يبلغ المسلمين ويُعدِّل من الحكم.

إذن: فالتعديل للحكم هو قمة الأمانة مع البلاغ عن الله سبحانه وتعالى ، ورسول الله ﷺ قد أقبل على الحكم فى أمر لم ينزل فيه حكم من الله ، فهو قد حكم بما عنده من الرأى ، فيبلغ ﷺ الحكم من الله ، والذى عدَّل له ليس مساوياً له بل هو خالقه.

ثم إن الذى أخبرنا أن الله سبحانه قد عدَّل له هو النبى ﷺ ، فهل يوجد مَنْ يُضعف مركز كلمته ، ويبلغ أن الحكم الذى صدر منه قد عُدِّل له ؟

ولكن رسول الله ﷺ الذى استقبل الوحى تحلّى بأمانة البلاغ عن الله ، وهو الذى نقل لنا عتاب ربه له [1].

---

(١) عاتبه ربه فى شأن عبد الله بن أم مكتوم الأعمى الذى جاءه يسعى ليتعلم منه ، فتلهَّى عنه رسول الله ﷺ بدعوة زعماء قريش للإيمان ، فنزلت سورة عبس: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ (١) أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ (٤) أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ (٥) فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ (٧) وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ (٨) وَهُوَ يَخْشَىٰ (٩) فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ (١٠) ﴾ [عبس]. وعاتبه أيضاً بقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١) ﴾ [التحريم].

وهذه قمة الصدق فى البلاغ عن الله ، وكان اجتهاد رسول الله ﷺ محصوراً فى الأمور التى لم يصدر فيها حكم من الله ، وكان فى ذلك أسوة حسنة لنا لنتجرأ ونجتهد.

وقد بعث رسول الله ﷺ معاذ بن جبل إلى اليمن فقال : كيف تصنع إن عرض لك قضاء ؟ قال : أقضى بما فى كتاب الله . قال : فإن لم يكن فى كتاب الله ؟ قال : فبسنة رسول الله ﷺ . قال : فإن لم يكن فى سنة رسول الله ﷺ ؟ قال : أجتهد رأيي لا آلو[1] . قال : وضرب رسول الله ﷺ صدرى ثم قال : الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله ﷺ لما يُرضى رسول الله ﷺ[2] .

والحق سبحانه وتعالى خير الحاكمين ؛ لأنه الشاهد الذى يعلم خائنة الأعين وما تُخفى الصدور[3] ، وهو سبحانه لا تخفى عليه خافية[4] ، ولا هوى له ، وهو الذى يصدر الحكم بمطلق عدله وبفضله ، وهو القادر على إنفاذ ما يحكم به ، ولا توجد قوة تجُير عليه ، ولا يوجد حاكم بقادر

---

(١) لا آلو : لا أقصِّر فى اجتهادى وبحثى المسألة . ومنه قولهم : فلان لا يألو خيراً . أى : لا يدعه ولا يزال يفصله . ويقول سبحانه : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً ..(١١٨) ﴾ [آل عمران] أى : لا يقصرون فى فسادكم .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٥/ ٢٣٠ ، ٢٣٦ ، ٢٤٢) وأبو داود فى سننه (٣٥٩٢) والترمذى (١٣٢٧) وقال : ليس إسناده عندى بمتصل . لا نعرفه إلا من هذا الوجه .

(٣) يقول رب العزة سبحانه : ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ (١٩) ﴾ [غافر] . فالله عز وجل يعلم العين الخائنة وإن أبدت أمانة ، ويعلم ما تنطوى عليه خبايا الصدور من الضمائر والسرائر . قال ابن عباس رضى الله عنهما : هو الرجل يدخل على أهل البيت بيتهم ، وفيهم المرأة الحسناء ، أو تمر به وبهم المرأة الحسناء فإذا غفلوا لحظ إليها ، فإذا فطنوا غضَّ بصره عنها ، فإذا غفلوا لحظ ، فإذا فطنوا غضَّ ، وقد اطلع الله من قلبه أنه ود أن لو اطلع على فرجها . ذكره ابن كثير فى تفسيره (٤/ ٧٥) .

(٤) يقول عز وجل : ﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ (٨) عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ (٩) سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ (١٠) ﴾ [الرعد] .

على كل هذا إلا الله سبحانه .

وشاء الحق - عز وجل - أن يكرِّم المؤمنين الذين يحكمون بين الناس بأن جعل ذاته ضمنية بتفوق الخيرية على الحاكمين .

وواقع الأمر أن هناك بشراً يحكمون غيرهم ، ولكن الحق سبحانه حكم بأنه خيرهم ، فمن الحاكمين مَنْ قد يُدلس[1] عليه غيره ، ومن الممكن أن يدخل الهوى فى أحكام هؤلاء الحاكمين ، لكنه سبحانه لا تَخْفى عليه خافية ، ولا يمكن أن يدخل الهوى إلى حكمه ، وأحكامه نافذة بطلاقة قدرته سبحانه ؛ لذلك فهو خير الحاكمين إطلاقاً .

وإذا سمعت جمعاً يدخل الله ذاته مع خلقه فيه ؛ فاعلم أن ذلك إيذان بأن تأخذ من واقع ما تشهد حقيقة مَنْ لا تشهد ؛ فالحق سبحانه يقول :

﴿ ..فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [المؤمنون]

ويقول تعالى :

﴿ ..وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١﴾ ﴾ [الجمعة]

ويقول تعالى :

﴿ ..رَبِّ لا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [الأنبياء]

ويقول تعالى :

﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴿٨﴾ ﴾ [التين]

وكلما وجدت جَمْعاً أدخل الله ذاته مع عباده ممن لهم هذا الوصف ، فهذا يَدلُّك على أن الموصوفين معه لهم تلك الصفات المذكورة ، ولكنه

---

(١) التدليس : الإخفاء والمخادعة بعدم تبيين العيب فى الشىء . ومنه التدليس فى الإسناد بأن يُحدِّث المحدِّث عن شيخه الأكبر بما لم يسمعه منه ، بل سمعه ممن هو دونه فى المرتبة .

سبحانه وتعالى أزلىٌّ مُطْلق الصفات ، وهم أحداث [١] وأغيار تنتابهم القوة والتغيُّر والضعف.

وتجد الله سبحانه وتعالى وهو يَصِفُ نفسه بأنه :

﴿ ..أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ۝١٤ ﴾ [المؤمنون]

وكلنا نعلم أن الله سبحانه هو خالق كل شيء من عدم ، ولكن هناك من الخلق مَنْ يخلق شيئاً من موجود ؛ ولذلك فالله سبحانه وتعالى هو أحسن الخالقين.

والحق سبحانه يصف نفسه بأنه :

﴿ .. خَيْرُ الرَّازِقِينَ ۝١١ ﴾ [الجمعة]

والرزق هو ما به يُنتفع ، وقد يأتى لك ولىٌّ أمرك بالمأكل والمشرب والملبس ، ويعطيك ما تنتفع به ، ولكن الحق سبحانه وتعالى هو الذى خلق الرزق فى الكون كله.

ويقول الحق سبحانه واصفاً نفسه :

﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ۝٥٤ ﴾ [آل عمران]

والإنسان حين يمكر قد يُدارِى مسألة ، ويغفل عن ركن فيها ، لكن الله تعالى لا يغفل عن شيء.

إذن: فالخيرية فى الحكم لها نصيب من طلاقة قدرة الله تعالى ، ونحن عرفنا أن الرسول ﷺ حين حكم فى بعض الأحكام وعدَّلها له الله سبحانه وتعالى ، لم يكن لله تعالى حكم قبل أن يحكم رسول الله ﷺ.

---

(١) الأحداث: جمع حادث ، وهو ما يكون مسبوقاً بالعدم ، ويسمى حدوثاً زمانياً ، وقد يُعبَّر عن الحدوث بالحاجة إلى الغير ، ويسمى حدوثاً ذاتياً. (التعريفات للجرجانى - ص ٧١).

ومثال ذلك: قصة زيد بن حارثة [(١)] ، وكان مولى أو عبداً لخديجة بنت خويلد [(٢)] رضى الله عنها ، ووهبته لسيدنا رسول الله ﷺ ، ثم علم أهله الذين كانوا يبحثون عنه أنه فى مكة ، وكان قد خُطف صغيراً من بلده وبيع فى مكة ، كعادة العرب فى الجاهلية مع الرقيق [(٣)] ، فلما علموا بذلك ذهبوا إلى رسول الله ﷺ ليستردوا ابنهم ، فقال لهم رسول الله : « والله إنى لأخَيِّره ، فإن اختاركم فخذوه ، وإن اختارنى فهو لى». فاختار زيد أن يبقى مع رسول الله ﷺ.

ولم يكن رسول الله بعد ذلك ليفرِّط فيه ؛ فأعطاه شرف البنوَّة ، فأسماه زيد بن محمد [(٤)] .

---

(١) زيد بن حارثة بن شراحيل ، صحابى ، من أقدمهم إسلاماً ، كان ﷺ لا يبعثه فى سرية إلا أمَّره عليها ، وجعل له الإمارة فى مؤتة ، فاستشهد فيها عام ٨ هـ (الأعلام ٣/ ٥٧).

(٢) هى : زوج رسول الله ﷺ تزوجها قبل البعثة بـ ١٥ عاماً ، وأول مَنْ صدَّقتْ ببعثته ﷺ ، كانت مُوسرةً ، تَاجَر رسول الله بمالها ، وكانت خير معين له فى رسالته . توفيت سنة عشر من البعثة بعد خروجَ بنى هاشم من الشِّعب . راجع الإصابة فى تمييز الصحابة (٨/ ٦٠ - ٦٢) .

(٣) الرقيق : العبيد ، وقد سُمِّى العبيد رقيقاً لأنهم يرقون لمالكهم ويذلون ويخضعون . [راجع اللسان مادة رقق] وقال الجرجانى فى التعريفات (ص ٩٩) : «الرق فى اللغة : الضعف . ومنه رقة القلب ، وفى عُرْف الفقهاء عبارة عن عجز حكمى شرع فى الأصل جزاء عن الكفر . أما إنه عَجْز فلأنه لا يملك ما يملكه الحر من الشهادة والقضاء وغيرهما ، وأما إنه حكمى فلأن العبد قد يكون أقوى فى الأعمال من الحرّ حساً».

(٤) وذلك أن حَارثة بن شراحيل جاء هو وأخوه كعب عم زيد إلى رسول الله ﷺ بمكة ، وذلك قبل الإسلام ، فقالا له : يا بن عبد المطلب ، يا بن سيد قومه ، أنتم جيران الله ، وتفكون العانى (الأسير) ، وتطعمون الجائع ، وقد جئتك فى ابننا عبدك ، فتحسن إلينا فى فدائه ، فقال : أو غير ذلك؟ فقالا : وما هو؟ فقال : أدعوه وأخيِّره ، فإن اختاركما فذاك ، وإن اختارنى فوالله ما أنا بالذى أختار على من اختارنى أحداً ، فقالا له : قد زدت على النصف ، فدعاه رسول الله ﷺ ، فلما جاء قال : من هذان؟ فقال : هذا أبى حارثة بن شراحيل ، وهذا عمى كعب بن شراحيل ، فقال : قد خيرتك إن شئت ذهبت معهما ، وإن شئت أقمت معى ، فقال : بل أقيم معك . فقال له أبوه : يا زيد ، أتختار العبودية على أبيك وأمك وبلدك وقومك؟ فقال : إنى قد رأيت من هذا الرجل شيئاً ، وما أنا بالذى أفارقه أبداً ، فعند ذلك أخذ رسول الله ﷺ بيده ، وقام به إلى الملأ من قريش فقال : اشهدوا أن هذا ابنى وارثاً وموروثاً . فطابت نفس أبيه عند ذلك ، وكان يُدْعى زيد بن محمد ، حتى أنزل الله تعالى : ﴿ ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ ..(٥) ﴾ [الأحزاب].

وهكذا رأى النبى ﷺ فى التبنِّى وسيلة تكريم ، ولكن الله عز وجل يريد أمراً غير هذا ، فقال سبحانه وتعالى :

﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [الأحزاب]

لأن الأبوة بالتبنِّى قد تُحدث خَلْطاً فى الأنساب ، فالابن بالتبنى له حق الزواج من ابنة مَنْ تبنَّاه ، فكيف نمنع عنه هذا الحق ، والابن بالتبنى قد تحرم عليه زوجة مَنْ تبناه إن رحل عنها أو طلقها.

لذلك شاء الحق سبحانه وتعالى أن يحفظ للأنساب حقوقها ومسئولياتها ، فقال سبحانه :

﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ .. ﴿٤٠﴾﴾ [الأحزاب]

ومهمته ﷺ كرسول من الله بالنسبة لكم أفضل من الأبوة لكم.

وقال الحق سبحانه فى تعديل حكم التبنى :

﴿ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ[1] عِندَ اللَّهِ .. ﴿٥﴾﴾ [الأحزاب]

وهذا رَدٌّ لحكم من رسول الله بتكريم لرسول الله ، فما صنعه محمد ﷺ عَدْلٌ وقسْط بعُرْف البشر ، لكن حكم الله سبحانه وتعالى هو الأقسط والأعدلَ ، فينتهى بذلك نسب زيد من محمد ، ويعود إلى نسبه الفعلى «زيد بن حارثة» .

---

(١) القسط : العدل والحق ، ومنه قوله تعالى : ﴿ ..وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [المائدة]. أما القاسطون فهم الجائرون ، قال تعالى : ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾﴾ [الجن].

وحتى لا يؤثر هذا الأمر فى نفس زيد ، نجد الحق سبحانه وتعالى يكرمه تكريماً لم يُكرِّمه لصحابى غيره ، فهو الصحابى الوحيد الذى ذُكِر اسمه بالشخص والعَلَم فى القرآن ، فقال الحق سبحانه:

﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا [1] زَوَّجْنَاكَهَا .. (٣٧) ﴾ [الأحزاب]

وصار اسم «زيد» كلمة فى القرآن تُتْلَى ويُجْهَر بها فى الصلاة ، فإذا كان قد نفى عنه النسب إلى محمد ﷺ فقد أعطاه ذِكْراً ثانياً خالداً فى القرآن المحفوظ ، ومنحه بذلك شرفاً كبيراً.

وقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ ..وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (١٠٩) ﴾ [يونس]

يفيد أن حكم الله تعالى أعمُّ من أن يكون حكماً فى الدنيا أو الآخرة فقط ، فحكم الله سبحانه فى الدنيا نَصْرٌ لدين الله ، ومَنْ مات من المؤمنين أو الكفار لهم حكم آخر.

وختم الله تعالى سورة يونس بهذا الحكم ، وأهدى الله سبحانه كل مؤمن بيونس - كنبى من أنبياء الله تعالى - قضية عندما ذهب مغاضباً ، قال فيه الحق سبحانه:

﴿ وَذَا النُّونِ [2] إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) ﴾ [الأنبياء]

وأهداه الحق سبحانه وساماً بقوله:

---

(١) الوطر: قال الليث: الوطر كل حاجة كان لصاحبها فيها همة ، فهى وطره. وجمع الوطر: أوطار. وقال الزجاج: الوطر والأرب فى اللغة بمعنى واحد. وقال الخليل بن أحمد: الوطر كل حاجة يكون لك فيها همة ، فإذا بلغها البالغ قيل: قضى وطره وأربه. [لسان العرب: مادة (و ط ر)].

(٢) النون: الحوت. وذو النون: لقب يونس بن متى عليه السلام. أى: صاحب الحوت ، وهو الحوت الذى ابتلع يونس عليه السلام بعد إلقائه فى البحر.

﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ [١] .. (٨٨) ﴾ [الأنبياء]

وأشركنا الحق سبحانه وتعالى فى هذا الوسام بقوله تعالى :

﴿ ..وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ (٨٨) ﴾ الأنبياء]

وهكذا أسدى [٢] إلينا سيدنا يونس جميلاً كبيراً، حين هداه الله إلى قوله :

﴿ .. لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) ﴾ [الأنبياء]

واستجاب الله تعالى لدعائه ، وأنجاه من الغَمِّ ، وهو أعنف جنود الله ؛ لأن الشيء الذى يضايقك هو الذى لا تستطيع له دَفْعاً.

ولذلك يقال : إن العدو كلما لَطُفَ [٣] عَنُفَ ؛ لأن العدو إن كان ضخم الحجم ، تكون الوقاية منه أسهل من العدو الصغير سريع الحركة ، فإن كان العدو ضخماً ، فالإنسان يرى ضخامته من على البُعْد ، فيجرى منه الإنسان أو يختبىء ، لكن إن كان العدو ثعباناً رفيعاً - مثلاً - فقد لا يراه الإنسان ، وقد لا يستطيع الفرار منه ، وإنْ كان ميكروباً أو فيروساً لا يُرى بالعين المجرَّدة ؛ فهو أعنفُ قدرةً وقوةً فى مهاجمة الإنسان.

إذن : كل مُتْعب فى الدنيا من الممكن أن تحتاط منه إلا ما يتلصَّص عليك بدقَّة ولُطْف ؛ فَإنك لا تعرف مدخله.

ونحن نسمع أن فلاناً قد أصيب بمرض ما ، لأنه أخذ عدوى من فيروس ما ، هذا الإنسان لا يعرف متى اخترق الفيروس جسده ، لكنه فوجىء

---

(١) غم الشيء يغمه غماً : أخفاه وغطَّاه وستره .
وغمَّه الأمر : أحزنه .
قال تعالى : ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ .. (٨٨) ﴾ [الأنبياء]
والغمة : التباس الأمر وعدم وضوحه ، قال تعالى : ﴿ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً .. (٧١) ﴾ [يونس]
[القاموس القويم - ٢ / صـ ٦٠ ، ٦١ بتصرف]
(٢) أسدى : أعطى ، وأهدى . [لسان العرب : مادة (س د ى)].
(٣) لطف الشيء يلطف : صَغُر . [لسان العرب : مادة (ل ط ف)].

بأعراض المرض تظهر عليه بعد كمون [١] الفيروس فى جسده لأسبوعين ، وهكذا نجد أن العدو كلما لَطُفَ عَنُفَ .

والغمُّ من أشد وأقسى أنواع البلاء ، وكلنا نعرف قصة الإمام على - كرَّم الله وجهه - وهو المشهور بالفُتْيا [٢] ، وكان الناس يستفتونه فيما يعجزون عن العثور على حل له ، واجتمع بعض من الناس وقالوا : نريد أن نجمع بعض الأشياء الصعبة ونسأله عنها لنختبره ، فلما اجتمعوا قالوا لعلىٍّ كرم الله وجهه : نريد أن نستعرض كون الله تعالى ، فقد جلسنا معاً لنعرف أقوى ما خلق الله ، واختلفنا فقال كل واحد اسم القوة على حَسْب ما يراها .

لم يتروَّ على بن أبى طالب ، ولم يَقُلْ كلاماً مَسْروداً [٣] بحيث إن وقف ، لا يطالبه أحد بزيادة ، بل حدَّد من الجملة الأولى عدد القوى حسب ترتيبها وقوتها ، حتى تطابق العدد على المعدود ، وهذا دليل على أنه مُسْتحضِرٌ للقضية استحضار الواثق . وفرد أصابع يديه وقال :

أشدُّ جنود الله عشرة : الجبال الرواسى ، والحديد يقطع الجبال ، والنار تذيب الحديد ، والماء يطفىء النار ، والسحاب المسخَّر بين السماء والأرض

---

(١) الكمون : الاختفاء والاستتار . ومنه : الكمين فى الحرب . وحزن مُكْتمِن فى القلب : مُخْتفٍ . [اللسان : مادة كمن] .

(٢) الفتيا : تبيين المشكل من الأحكام ، أصله من الفتى ، وهو الشاب الحدث (الحديث السنّ) الذى شبَّ وقوى ، فكأنه يقوِّى ما أشكل ببيانه فيشب ويصير فَتيّاً قوياً . وأفتى المفتى إذا أحدث حكماً . وأفتاه فى الأمر : أبانه له . وأفتى الرجل فى المسألة . واستفتيته فيها فأفتانى إفتاء . قال تعالى : ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا ..(١١) ﴾ [الصافات] وقال تعالى : ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ ..(١٧٦) ﴾ [النساء] أى : يسألونك . وقال تعالى : ﴿ .. قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ (٤١) ﴾ [يوسف] ، وقال تعالى عن بلقيس ملكة سبأ : ﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي ..(٣٢) ﴾ [النمل] . [لسان العرب : مادة (ف ت ى)] - بتصرف .

(٣) الكلام المسرود : الكلام المتتابع ، بعضه إثر بعض ، بحيث لا يدرك السامع أوله من آخره ، فلا يستطيع أن يستدرك شيئاً على المتكلم ، أو يحفظ منه شيئاً .

يحمل الماء ، والريح تقطع السحاب ، وابن آدم يغلب الريح ، يستتر بالثوب أو الشيء ويمضى لحاجته ، والسُّكْر يغلب ابن آدم ، والنوم يغلب السُّكْر ، والهمُّ يغلب النوم ، فأشد جنود الله - سبحانه - الهَمُّ.

هكذا قال سيدنا على بن أبى طالب ، فالهمُّ والغمُّ من أشد جنود الله تعالى ، وكان سيدنا يونس عليه السلام سبباً فى أن قدَّم الله سبحانه لكل مؤمن به إلى أن تقوم الساعة مَنْجًى من الهمِّ والغمِّ بالدعاء الذى ألهمه ليونس عليه السلام فى قوله تعالى:

﴿ ..لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِى الْمُؤْمِنِينَ (٨٨) ﴾ [الأنبياء]

وهكذا تعدَّتْ «النجاة من الغم» من الخصوصية إلى العمومية ، وقد أخذها جعفر الصادق - رضى الله عنه - وجعل منها «تذكرة طبية» للمؤمن حتى يستقبل أحداث الحياة كلها ، فى كل جوانبها المفزعة ؛ لأن الإنسان يهدده الخوف مما يعلم .

أما الهم فلا يعرف الإنسان فيه سبب الخطر ، ولا يعلم الإنسان مكر الناس به ؛ لأن الإنسان لا يعلم ماذا بَيَّتوا له .

وشغل الإنسان بأمر الدنيا وأن يكون منعَّماً ومرفَّهاً فى كل أمور الحياة ، يجعله عُرْضة للهموم .

وكان سيدنا جعفر الصادق [1] له بصر وبصيرة بآيات القرآن ومتعلقاتها ، فقال : «عجبت لمن خاف ولم يفزع إلى قول الحق سبحانه:

﴿ ..حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) ﴾ [آل عمران]

---

(١) هو : جعفر بن محمد بن على بن الحسين ، أبو عبد الله ، كان مشغولاً بالعبادة عن حب الرياسة ، روى عنه شعبة والثورى ومالك . توفى بالمدينة عام ١٤٨ هـ .

ولا يتُعجب لمن يخيفه شيء إلا إذا كان عند المتعجب شيء يزيل الخوف.

فمن عنده صداع يمكنه أن يعالجه بالأسبرين ، أما الخوف فقد وصف سيدنا جعفر دواءه ، بقول الله سبحانه:

﴿ ..حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [آل عمران]

فذلك هو الدرع من كل خوف.

ويقدم جعفر الصادق لنا السبب فيقول: لأن الله سبحانه قال عقبها:

﴿ فَانقَلَبُوا [1] بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ ..﴿١٧٤﴾ ﴾

[آل عمران]

أي: أن سيدنا جعفراً جاء بالحيثية من نفس القرآن ، وأضاف جعفر الصادق: «وعجبت لمن اغتمَّ - وهو الموضوع الذى نبحثه الآن - ولم يفزع إلى قول الله سبحانه:

﴿ ..لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [الأنبياء]

فإني سمعت الله تعالى بعقبها يقول :

﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [الأنبياء]

وعجبت لمن مُكر به كيف لا يفزع إلى قول الله سبحانه:

﴿ .. وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ ﴾ [غافر]

لأني سمعت الله تعالى بعقبها يقول:

---

(١) انقلبوا: رجعوا. أي: أنهم لما توكلوا على الله كفاهم ما أهمَّهم وردَّ عنهم بأس من أرادوا كيدهم، فرجعوا إلى بلدهم بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء مما أضمر لهم عدوهم. (ابن كثير ٢/ ٤٣١).

﴿ فَوَقَاهُ [(١)] اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ [(٢)] بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ﴾
[غافر]

وعجبت لمن طلب الدنيا وزينتها كيف لا يفزع إلى قول الله سبحانه:

﴿ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ ..﴿٣٩﴾ ﴾ [الكهف]

لأنى سمعت الله تعالى بعقبها يقول:

﴿ فَعَسَىٰ رَبِّى أَن يُؤْتِيَنِى خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ ﴾ [الكهف]

وهكذا وجد جعفر الصادق رضى الله عنه فى كتاب الله أربع آيات لأربع حالات نفسية تصيب البشر ، وجاء مع كل حالة دليلها من القرآن الكريم.

وقول الحق سبحانه وتعالى فى آخر سورة يونس:

﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ .. ﴿١٠٩﴾ ﴾ [يونس]

مناسب لقوله سبحانه فى الآية الأولى من السورة التى تليها:

﴿ الَر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ ﴾ [هود]

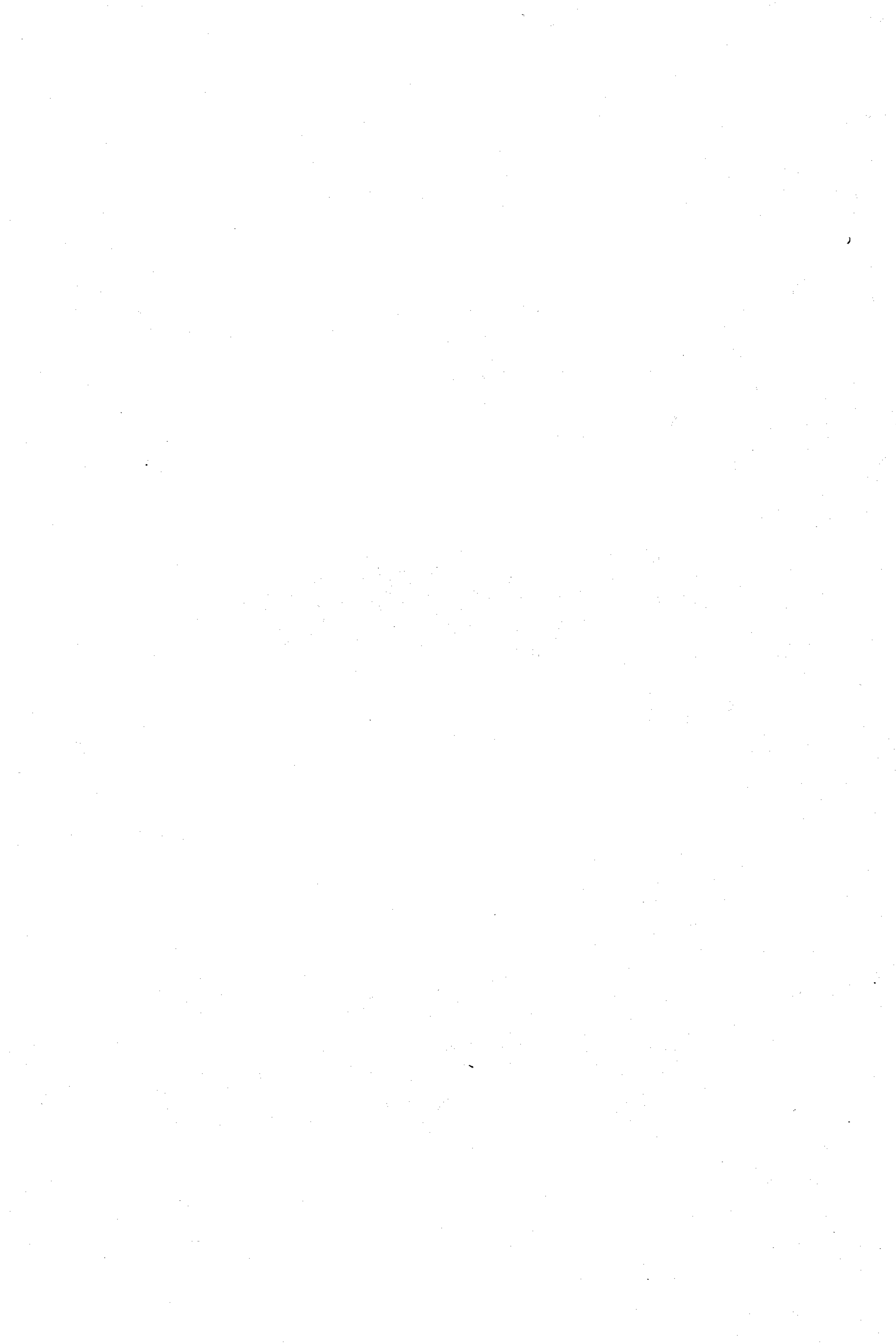
لأن الوحى كتاب أحكمت آياته حقاً وصدقاً.

---

(١) وقاه الله وَقْياً ووقاية وواقية: صانه. ووقيت الشيء إذا صنته وسترته عن الأذى. ووقاه ما يكره: حماه منه. وقال تعالى: ﴿ فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ ..﴿١١﴾ ﴾ [الإنسان] وقال تعالى: ﴿ ..وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ ﴿٩﴾ ﴾ [غافر] [لسان العرب: مادة (و ق ى)].

(٢) حاق: أحاط. والحوق: الإحاطة بالشيء والإطار المحيط به المستدير حوله. قال الليث: الحيق ما حاق بالإنسان من مكر أو سوء عمل يعمله؛ فينزل ذلك به. وقيل: الحيق فى اللغة هو أن يشتمل على الإنسان عاقبةُ مكروه فَعَله. وقال الزجاج: حاق بهم العذاب أى: أحاط بهم جزاء ما كانوا يستهزئون، كما تقول: أحاط بفلان عمله وأهلكه كَسْبه، أى: أهلكه جزاء كسبه. قال تعالى: ﴿ ..فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [غافر]. وقال تعالى: ﴿ وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ .. ﴿٤٣﴾ ﴾ [فاطر]. [لسان العرب: مادة (ح و ق ، ح ى ق)].


سورة هود



بسم الله الرحمن الرحيم

تبدأ سورة هود [1] بقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ الٓر كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ ﴾

وتبدأ الآية بحروف توقيفية مقطعة من الحروف التى تبدأ بها بعض سور القرآن الكريم ، أى: أن كل حرف من تلك الحروف يُنطَق بمفرده ، والحرف - كما نعلم - له اسم ، وله مسمى ، ونحن حين نكتب أو نتكلم نكتب أو ننطق بمسمى الحرف لا باسمه.

ولكن بعض سور القرآن الكريم تبدأ بحروف نقرأها باسم الحرف ، وما عداها يُنطق فيها بمسميات الحرف.

وإن أردنا معرفة الفارق بينهما ، فنحن نقرأ فى أول سورة البقرة ونقول:

---

(١) سورة هود هى السورة الحادية عشرة فى ترتيب سور القرآن ، وهى سورة مكية فى قول الحسن وعكرمة وغيرهما. وقال ابن عباس وقتادة: إلا آية ، وهى قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ .. ۝١١٤﴾ [هود]. وعدد آياتها (١٢٣) آية.

سميت باسم نبى الله هود عليه السلام ، الذى أرسل إلى قوم ثمود ، ذكر فيها اسم النبى هود ٥ مرات. وذكر فى سورة الشعراء آية ١٢٤ ، وفى الأعراف آية ٦٥.

قال عنها رسول الله ﷺ: «شيبتنى هود وأخواتها: الواقعة ، وعم يتساءلون ، وإذا الشمس كورت» أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (١/ ٣٥٨).

قال الترمذى الحكيم أبو عبد الله فى «نوادر الأصول»: فالفزع يورث الشيب ، وذلك أن الفزع يذهل النفس فينشف رطوبة الجسد وتحت كل شعرة منبع ، ومنه يعرق ، فإذا نشَّف الفزع رطوبته يبست المنابع فيبس الشعر فابيضَّ ، كما ترى الزرع الأخضر بسقائه ، فإذا ذهب سقاؤه يبس فابيضَّ.

فالنفس تذهل بوعيد الله ، وأهوال ما جاء به الخبر عن الله ، فتذبل ، وينشف ماءها ذلك الوعيد والهول الذى جاء به ، فمنه تشيب.

وسورة هود ، فيها ذكر الأمم ، وما حلَّ بهم من عاجل بأس الله تعالى ، فأهل اليقين إذا تلوْها تراءى على قلوبهم من ملكه وسلطانه ولحظاته البطش بأعدائه ، فلو ماتوا من الفزع لحقَّ لهم ، ولكن الله تبارك وتعالى اسمه يلطف بهم فى تلك الأحايين حتى يقرءوا كلامه. نقله القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٣١٩).

«ألف. لام. ميم» رغم أنها مكتوبة : ﴿ الٓمٓ ۝١ ﴾[1] [البقرة]

إذن: فنحن ننطقها بمسميات الحروف عكس قراءتنا لقول الحق سبحانه:

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ[2] لَكَ صَدْرَكَ ۝١ ﴾ [الشرح]

ونحن ننطقها بأسماء الحروف.. لماذا ؟

لأن الرسول ﷺ سمعها هكذا من جبريل عليه السلام ، والقرآن أصله سماع ، وأنت لا تقرأ قرآناً إلا إذا سمعت قرآناً ؛ لتعرف كيف تقرأ الحروف المقطعة بأسماء الحروف ، وتقرأ بقية الآيات بمسميات الحروف.

وكنا قديماً قبل أن نحفظ القرآن «نصحح» اللوح ، أى: أن يقرأ الفقيه أولاً ليُعلمنا كيف نقرأ قبل أن نحفظ.

والذى يُتعب الناس أنهم يريدون أن يقرأوا القرآن الكريم دون أن يجلسوا إلى فقيه أو دون أن يستمعوا إلى قارىء للقرآن.

ونقول لهم: إن القرآن ليس كتاباً عادياً نقرأه ، إن القرآن كتاب له خاصية مميزة ، فَصُور الحروف تختلف ، فمرة ننطق اسم الحرف ، ومرة نقرأ مسمى الحرف.

وقول الحق سبحانه: ﴿الٓر﴾ فى أول سورة هود ؛ يجعلنا نلحظ أنه من العجيب فى فواتح السور - التى بدأت بهذه الحروف - أن القرآن مبنىٌّ على الوصل دائماً ، فأنت لا تأتى إلى آخر الآية وتقف ، لا ، بل كل القرآن وَصْل ، مثلما نقرأ قول الله سبحانه:

---

(١) ﴿الٓمٓ﴾ ذكرت فى افتتاح ست سور هى : البقرة ، آل عمران ، العنكبوت ، الروم ، لقمان ، السجدة . وتحسب آية مستقلة .

(٢) أى : وسَّعناه معنوياً ، وأزلنا عنه الضِّيق والهم . والمراد : أرضيناك وسررناك . أو هو شق الصدر فعلاً حسياً . أو هما معاً . [القاموس القويم] .

﴿ مُدْهَامَّتَانِ (١) ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ آلاءِ (٢) رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ (٣) ﴿٦٦﴾ ﴾ [الرحمن]

وإن كان هناك فاصل بين كل آية وغيرها ، إلا أن الآيات كلها مبنية على الوصل.

وفى آخر سورة يونس يقول الحق سبحانه:

﴿ .. وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ [يونس]

فلو لم تكن موصولة لنطقت الحرف الأخير مبنياً على السكون ، ولكنك تقرأه منصوباً بالفتحة. وهى موصولة بما بعدها (بسم الله الرحمن الرحيم).

ومن العجيب أن فواتح السور مع أنها مكونة من حروف مبنية على الوصل إلا أننا نقرأ كل حرف موقوفاً ، فلا نقول: «ألفٌ لامٌ ميمٌ» بل نقول: «ألفْ لامْ ميمْ».

وكذلك نقرأ فى أول سورة مريم «كافْ هاءْ ياءْ عينْ صادْ» ، ولا نقرأ الحروف بتشكيلها الإعرابى ، وهذا يدل على أن لها حكمة لا نعرفها.

وفى القرآن الكريم آيات بُدئت بحرف واحد مثل قول الحق سبحانه:

﴿ صٓ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴿١﴾ ﴾ [ص]

وقول الحق سبحانه:

---

(١) مدهامتان : سوداوان من شدة خضرتهما وكثرة الظلال وهذا كناية عن النعيم التام (وهو وصف للجنتين اللتين ورد ذكرهما فى قول الله تعالى فى آية : ﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ ﴾ [الرحمن] .

(٢) الآلاء : النعم ، مفردها : إلىً أو ألى (بكسر الهمزة ، وبفتحها) قال تعالى : ﴿ .. فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [الأعراف] ، وقال تعالى : ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ ﴾ [النجم] . [القاموس القويم - بتصرف] .

(٣) نضاختان : فوَّارتان بالماء لا ينقطعان . ويخرج ماؤهما غزيراً ، ونضَّاخة : صيغة مبالغة تدل على الكثرة . [تفسير الجلالين : ص ٤٧٠] و[القاموس القويم] بتصرف .

﴿ قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ۝١ ﴾ [ق]

وقول الحق سبحانه:

﴿ نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ[1] ۝١ ﴾ [القلم]

ونلحظ أن الحرف فى هذه السور ليس آية ، ولكنك تقرأ قول الحق سبحانه: ﴿ حمٓ ۝١ ﴾[2] [الشورى]

وهى آية ، وكذلك تقرأ قول الحق سبحانه:

﴿ عٓسٓقٓ ۝٢ ﴾ [الشورى] كآية مع أنها حروف مقطعة ، وتقرأ قول الحق سبحانه:

﴿ كٓهيعٓصٓ ۝١ ﴾ [مريم] كآية بمفردها .

وتقرأ قول الحق سبحانه: ﴿ طه ۝١ ﴾ [طه] كآية بمفردها .

وكذلك تقرأ قول الحق : ﴿ يسٓ ۝١ ﴾ [يس] كآية بأكملها .

وتجد أيضاً : ﴿ الٓمٓصٓ ۝١ ﴾ [الأعراف] كآية .

و﴿ طسٓمٓ ۝١ ﴾ [الشعراء ، والقصص] كآية .

وتجد أيضاً ﴿ الٓمٓر .. ۝١ ﴾ [الرعد] ملتحمة بما بعدها فى آية واحدة .

وتقرأ فى أول سورة النمل: ﴿ طسٓ ۝١ ﴾ ملتحمة بما بعدها فى آية واحدة .

---

(١) يسطرون: يكتبون . من سطر الكتاب أى: جعله سطوراً.

(٢) ﴿حم﴾ : ذكرت فى افتتاح سبع سور هى: غافر ، وفصلت ، والشورى ، والزخرف ، والدخان ، والجاثية ، والأحقاف. وتحسب آية مستقلة - والله أعلم بمعناها. [القاموس القويم] . وتسمى الحواميم.

إذن: فالمسألة لا نسق لها ، ومعنى ذلك أن لكل موقف وكل حرف حكمة ، والحكمة نجدها حين نتأمل العالم المادى فى الحياة ، فنفطن إلى عبَر الله سبحانه وتعالى فى آيات الكون المحسَّة ، ويجد الدليل على صدق الله تعالى فيما لم نعلم.

ومثال ذلك: حين ينزل الإنسان فى فندق راق فهو يجد لكل غرفة مفتاحاً ، وهذا المفتاح لا يفتح إلا باب غرفة واحدَة ، ولكن فى كل طابق من طوابق الفندق هناك مفتاح مع المسئول عن الطابق يسمى «سيد المفاتيح» وهو يفتح كل غرف الطابق ، وقد صنعوا ذلك ؛ حتى لا يفتح كل نزيل غرفة الآخر.

ومع التقدم العلمى جعلوا الآن لكل غرفة بطاقة الكترونية ، ما إن يُدخلها الإنسان من فتحة معينة من باب الغرفة حتى ينفتح الباب ، وكل غرفة لها بطاقة معينة ، وأيضاً يوجد مع مسئول الطابق فى الفندق بطاقة واحدة ، تفتح كل غرف الطابق.

وأنت حين تقرأ فواتح السور فافهم أن كل آية لها مفتاح ، وكل حرف فى هذه الفواتح قد يشبه المفتاح ، وإن لم يكن معك المفتاح ذو الأسنان التى تفتح باب الغرفة ؛ فلن تنفتح لك السورة.

إذن: فكتاب الله له مفاتيح ، ونحن نقرأ حروفاً مُقطَّعة على أنها آية ، أو نقرأها كجزء من آية .

وتقول من قبل القراءة : «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» (١) لتخلص نفسك من الأغيار المناقضة لمنهج قائل القرآن ، ثم تضع البطاقة الخاصة مثل قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ الٓمٓ ۝١ ﴾ [البقرة]

---

(١) قال عز وجل : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ۝٩٨ ﴾ [النحل] ، عن عطاء قال : الاستعاذة واجبة لكل قراءة فى الصلاة أو غيرها . أورده السيوطى فى الدر المنثور (٥/ ١٦٥) طبعة دار الفكر ، وعزاه لعبد الرزاق فى المصنف وابن المنذر.

فينفتح لك باب القراءة.

وهكذا نعرف أن هناك مفتاحاً، وأن هناك فاتحاً.

وخذ فواتح السور على أنها مفاتيح، وكل مفتاح له شكل ونحت معين، إن نقلته لسورة أخرى فهو لا يفتحها.

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿الر﴾ وهي مكونة من ثلاثة حروف، مثل ﴿الم﴾، وقد وردت في خمس سور من القرآن الكريم هي: يونس، وهود، ويوسف، وإبراهيم، والحجر.

ولكن ﴿الم﴾ تقرأ كآية، ولكنها هنا في مقدمة سورة «هود» جزء من آية رغم أنك تقرأها مثلها مثل سورة يونس، وسورة هود، وسورة يوسف وسورة إبراهيم، و تقرأها كآية.

وأيضاً (المص) هي أربعة حروف تقرأها آية في سورة الأعراف، وهناك أربعة حروف في أول سورة الرعد، وتقرأها كجزء من آية في سورة الأعراف.

إذن: فليس هناك قانون لهذه الحروف التي في أوائل السور، بل كل حرف له خصوصية لم تتكشف كل أسرارها بعد [1]، لهذا ذهب بعض المفسرين إلى قولهم « الله أعلم بمراده» .

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ①﴾ [هود]

(١) قال السيوطي في «الإتقان في علوم القرآن» (٣/ ٢١) : «المختار فيها أنها من الأسرار التي لا يعلمها إلا الله تعالى. عن عامر الشعبي: أنه سئل عن فواتح السور. فقال: إن لكل كتاب سراً، وإن سر هذا القرآن فواتح السور».

قال ابن كثير في تفسيره (١/ ٣٧) : «مجموع الحروف المذكورة في أوائل السور بحذف المكرر منها أربعة عشر حرفاً وهي: أ ل م ص ر ك هـ ي ع ط س ح ق ن - يجمعها قولك: نص حكيم قاطع له سر».

والله سبحانه يقول مرة عن القرآن أنه : ﴿كِتَابٌ﴾ ومرة يقول :

﴿قُرْآنٍ (٦١)﴾ [يونس]

والقرآن يُقرأ ، والكتاب يُكتب ، وشاء الحق سبحانه ذلك ؛ ليدلُّك على أن الحافظ للقرآن مكانان : صدور ، وسطور . فإن ضَلَّ الصدر ، تذكر السطر .

ولذلك حين أراد المسلمون الأوائل جمع القرآن [(١)] ، ومطابقة ما فى الصدور على ما فى السطور ، وضعوا أسساً لتلك العملية الدقيقة ، من أهمها ضرورة وجود شاهدين على كل آية ، ووقفوا عند آخر آيتين فى سورة التوبة [(٢)] ، ولم يجدوا إلا شاهداً واحداً هو «خزيمة» ، وصدَّقوا «خزيمة» وكتبوا الآيتين عنه ؛ لأن رسول الله ﷺ كان قد منحه وساماً ، حين قال عنه : «من شهد له خزيمة فهو حسبه» [(٣)] .

إذن : فإطلاق صفة الكتاب على القرآن ، سببها أنه مكتوب ، وهو قرآن ؛ لأنه مقروء .

ولم تكن الكتابة فى الأزمنة القديمة مسألة سهلة ، فلم يكن يُكتب إلا النفيس من الأعمال ، أو لأن القرآن كتاب ؛ لأنه فى الأصل مكتوب فى اللوح المحفوظ .

---

(١) المقصود به هنا جمع القرآن على عهد أبى بكر رضى الله عنه ، بعد أن اشتد القتل بقراء القرآن فى الغزوات ، فأشار عليه عمر بجمع القرآن ، فأرسل إلى زيد بن ثابت رضى الله عنه وقال له : إنك شاب عاقل ، لا نتهمك ، وقد كنت تكتب الوحى لرسول الله ﷺ، فتتبع القرآن فاجمعه . فأخذ زيد يجمعه من العسب (هو سعف النخيل) واللخاف (حجارة بيض عريضة رقاق) وصدور الرجال . انظر الإتقان فى علوم القرآن (١/ ١٦٥) .

(٢) هاتان الآيتان هما : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٨) فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (١٢٩)﴾ [التوبة] .

(٣) أخرجه الحاكم فى مستدركه (٢/ ١٨) والطبرانى فى معجمه الكبير (٤/ ١٠١) من حديث خزيمة بن ثابت . قال الهيثمى فى المجمع (٩/ ٣٢٠) : «رجاله كلهم ثقات» .

وحين يقول الحق سبحانه وتعالى واصفاً القرآن :

﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ..۝١ ﴾ [هود]

ومادة الحاء والكاف والميم [١] تدل على أمر مُحسٍّ وهو إتقان البناء ، بحيث يمنع عنه الفساد ؛ فلا خلل فيه ، ولا تناقض ، ولا تعارض ولا انهيار.

ولا بد من توازن هندسى لكل فتحة فى البناء ؛ حتى لا تكون الفتحات التى فى البناء متوازية على خط واحد ، فتحدث شروخ فى الجدران أو انهيار البناء كله. هذا هو إحكام البناء فى عالم المحسَّات.

وشاء الحق سبحانه أن يصف القرآن ، وهو الجامع لكل المنهج بأنه :

﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ..۝١ ﴾ [هود]

فخذوا من هذا الإحكام [٢] ما يمنع فسادكم ؛ لأن القرآن جاء على هيئة تمنع الفساد فيه ، وعقد منع الفساد يكون الإصلاح والصلاح .

ولو نظرتَ إلى أن القرآن الكريم فى اللوح المحفوظ ستجده قد نزل جملة واحدة ، من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا ، وجاء الوحى بعد ذلك حسب الأحداث التى تتطلب الأحكام ، وقد نثر الحق سبحانه فى القرآن أحكاماً وفصولاً ونجوماً.

---

(١) أحكم الأمر : أتقنه . قال تعالى : ﴿ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ ..۝٥٢ ﴾ [الحج] ، أى : يبينها ويجعلها متقنة مقنعة محكمة ، وآيات محكمة : متقنة مقنعة واضحة ، وقيل : محكمة غير منسوخة أو محكمة غير متشابهة فلا تحتاج إلى تأويل ، قال تعالى : ﴿ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ..۝٧ ﴾ [آل عمران] ، وقال تعالى : ﴿ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ ..۝٢٠ ﴾ [محمد] . أى : متقنة . [القاموس القويم].

(٢) قال القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٣٢٠) : «أحسن ما قيل فى معنى : ﴿ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ..۝١ ﴾ [هود] قول قتادة ، أى : جعلت محكمة كلها لا خلل فيها ولا باطل ، والإحكام منع القول من الفساد ، أى : نظمت نظماً محكماً ، لا يلحقها تناقض ولا خلل».

إذن: فالقرآن قد أحكِم أولاً ، ثم فُصِّل [1].

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ ..(١) ﴾ [هود]

والفواصل الكبيرة فى القرآن هى السور ، والفواصل الصغيرة هى الآيات ، وأراد المسلمون أن يشجعوا حفظ القرآن ، فقسموه إلى ثلاثين جزءاً ، وكل جزء قسموه إلى حزبين ، وكل حزب قسموه إلى أربعة أرباع ، لكن التفصيل الذى جاء لنا من القرآن أنه سور ، وكل سورة هى مجموعة من الآيات.

وقد يكون المعنى أن القرآن قد أحْكِمَ وفُصِّل ؛ لأنه نزل منهجاً جامعاً من الله سبحانه وتعالى.

وحين تنظر إليه تجده مُنوَّعاً ، فمرة يتكلم فى العقيدة وقمتها ، ومرة يتكلم فى النبوة وموكبها الرسالى ، والمعجزات ، ومرة يتكلم فى الأحكام ، ومرة يتكلم فى القصص ، والأخلاقيات ، والكونيات. ومرة يتكلم فى علم الفرائض [2].

إذن: فهو مفصل فى اللفظ أو فى المعنى ، وهو يتناول معانى كثيرة ، وكل معنى تتطلبه العقيدة ، قمة فى الشهادة بأن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، ويتناول الجزئيات حتى أدق التفاصيل.

أو أحكم نزولاً ؛ لأنه قد نزل مرة واحدة إلى السماء الدنيا ، ثم فُصِّل حسب الحَوادث ، وهذا أدْعَى إلى أن تتعلق النفس بكل نجم من نجوم القرآن حين ينزل وقت طلبه.

---

(١) فصَّل الشيء: جعله أقساماً متميزة واضحة ، قال تعالى: ﴿ .. وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً (١٢) ﴾ [الإسراء] ، وقال تعالى: ﴿ آيَاتٍ مُّفَصَّلاتٍ ..(١٣٣) ﴾ [الأعراف] أى: معجزات مبينات واضحات ، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ..(٥٢) ﴾ [الأعراف].

(٢) الفرائض المعنى بها علم المواريث ، أخذاً مما فرضه الله لكل واحد من أصحاب الفروض.

وأنت حين تُعد لنفسك صيدلية صغيرة فى البيت ، قد تأتى فيها بكل الأدوية ، لكن إنَ أصابك صداع ، فقد تفتش عن أقراص «الأسبرين» فلا تجدها. أما إذا أرسلت إلى الصيدلية الكبيرة ، فسوف تجد «الأسبرين» حين تحتاجه.

وكذلك حين تكون ظمآن ، قد تفتح ثلاجة بيتك فلا تجد زجاجة الماء رغم أنها أمامك ، وذلك بسبب لهفة العطش.

إذن: فنزول القرآن منجماً شاءه الحق - سبحانه - لتنتعش النفس الإنسانية وهى تعشق استقبال القرآن.

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ [1] لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ [2] وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً (١٠٦) ﴾

[الإسراء]

وقد جاء فى القرآن على لسان الكافرين:

---

(١) قرئت هذه الكلمة بقراءتين: فرَقناه ، فرَّقناه (بتشديد الراء) - فعلى القراءة الأولى فمعناه: فصلناه من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من السماء الدنيا ، ثم نزل مفرقاً منجماً على الوقائع إلى رسول الله ﷺ فى ثلاث وعشرين سنة ، قاله عكرمة عن ابن عباس.

- وعلى القراءة الثانية فمعناه: أنزلناه آية آية مبيناً مفسراً ، قاله ابن عباس أيضاً. ولهذا قال: ﴿ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ .. (١٠٦) ﴾ أى: لتبلغه الناس وتتلوه عليهم: ﴿ عَلَىٰ مُكْثٍ ﴾ أى: مهل. ﴿ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً ﴾ أى: شيئاً بعد شيء. تفسير ابن كثير (٣/ ٦٨).

(٢) مكث: أقام فى مكانه ، وتفيد التأنى وعدم العجلة. وقوله تعالى: ﴿ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ .. (١٠٦) ﴾ [الإسراء] أى: على مهل وتأن بغير عجلة فى أزمنة متطاولة. وقال تعالى: ﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ .. (٢٢) ﴾ [النمل] أى: استمر الهدهد فى غيبته مدة لكنها غير طويلة. وقال تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ .. (١٧) ﴾ [الرعد] أى: يبقى مدة طويلة فيها فيزيدها خصباً. وقال تعالى: ﴿ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا .. (١٠) ﴾ [طه] أى: أقيموا فى مكانكم منتظرين. [القاموس القويم].

﴿لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً .. (٣٢)﴾ [الفرقان]

فيكون الرد من الحق سبحانه :

﴿ ..كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً (٣٢)﴾ [الفرقان]

ولو كان القرآن قد نزل مرة واحدة على رسول الله ﷺ لما التفت الناس إلى كل ما جاء فيه ، ولكن شاء الحق سبحانه وتعالى أن ينزل القرآن مُنجَّماً[1] على الرسول ﷺ ، ليكون فى كل نجم تثبيت لرسول الله ﷺ فى المواقف المختلفة ، والرسول ﷺ وكذلك أمته من بعده فى حاجة إلى تثبيتات متعددة حسب الأحداث التى تعترضهم، ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿ ..كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً[2] (٣٢)﴾ [الفرقان]

فساعة أن يسمع المؤمنون نجماً من نجوم القرآن ، يكونون أقدر على استيعابه وحفظه وتطبيق الأحكام التى جاءت فيه .

ولم يُنزل الحق سبحانه آية واحدة ، بل أنزل آيات ، بدليل أنهم إن جاءوا بحكم ما ، فهو سبحانه وتعالى ينزل الحق فى هذا الحكم وأكثر تفصيلاً ؛ ولذلك يقول سبحانه :

﴿وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً (٣٣)﴾ [الفرقان]

ولو نزل القرآن جملة واحدة ، فكيف يعالج أسئلتهم التى

(١) منجماً : مفرقاً ؛ لأن القرآن أنزل إلى سماء الدنيا جملة واحدة ، ثم أنزل على النبى ﷺ آية آية ، وكان بين أول ما نزل منه وآخره عشرون سنة . [لسان العرب ، مادة : نجم] فنزول القرآن كان منجماً حسب مقتضى حال الدعوة ، فالآيات المكية تناولت العقيدة وتقويم العادات ، وإعلاء القيم والتمهيد لعبادة الله ، والآيات المدنية تناولت العبادات والمعاملات لإقامة صرح العدالة فى المجتمع .

(٢) رتلناه ترتيلاً : أنزلناه مرتلاً منسقاً مجوداً حسن التأليف [القاموس القويم] قال ابن منظور فى اللسان : «أى : أنزلناه على الترتيل ، وهو ضد العجلة والتمكث فيه » .

جاءت فى القرآن : ﴿يسألونك عن﴾ [١] .

ويضرب الله مثلاً بالبعوضة ، فيتساءلون ساخرين : كيف يضرب الله مثلاً بالبعوضة ؟

فينزل قول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِ أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ..(٢٦) ﴾ [البقرة]

ولو كانوا عقلاء لتساءلوا : كيف ركَّب الحق سبحانه فى هذا الكائن الضئيل - البعوضة [٢] - كل أجزاء الكائن الحى ؛ من محلٍّ الغذاء إلى قدرة الهضم ، إلى محل التنفس ، إلى محل الدم ، إلى محل الأعصاب .

وكان يجب أن يأخذوا من هذا الخلق دلائل العظمة ؛ لأن عظمة الصنعة تكون فى أمرين : إما ضخامة الشىء المصنوع ، وإما أن يكون الشىء المصنوع تحت إدراك الحس .

ومثال ذلك - ولله المثل الأعلى - أن الفنيين حين صنعوا ساعة «بج بن» التفت الناس إلى ضخامة تلك الساعة ، ودقة أدائها ، وحين صنع الفنيون فى «سويسرا» ساعة دقيقة وصغيرة جداً فى حجمها ، زاد إعجاب الناس بدقة الصنعة .

وهكذا نجد أن القدرة تتجلى فى صناعة الشىء الكبير فى الحجم ، أو صناعة الشىء الدقيق جداً ؛ فما بالنا بخالق الكون كله ، بأكبر ما فيه وأصغر ما فيه .

---

(١) قال تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ .. (١٨٩) ﴾ [البقرة] . وقال تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ .. (٢١٧) ﴾ [البقرة] .
وقال تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ .. (٢١٩) ﴾ [البقرة] .
وقد وردت فى القرآن ١٥ آية تبدأ بـ (يسألونك) .

(٢) البعوضة : حشرة صغيرة طائرة لها جناحان دقيقان ، وخرطوم تستقى به الدم ، فهى حشرة لاسعة ضارة ، وهى أنواع كثيرة جداً ، منه ما ينقل أمراضاً مهلكة .

والحق سبحانه وتعالى يضرب المثل بالذبابة فيقول :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ..(٧٣) ﴾ [الحج]

فلو اجتمع الخلق المشركون أو المتجبرون وسألوا أصنامهم أن يخلقوا لهم ذبابة ، أو حتى لو حاولوا هم خَلْق ذبابة لما استطاعوا ، ولا يقتصر الأمر على ذلك العجز فقط ، بل يتعداه إلى عجز آخر :

﴿ ..وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ [1] وَالْمَطْلُوبُ (٧٣) ﴾ [الحج]

فإن جاءت ذبابة على أي طعام ، وأخذت بعضاً من الطعام ، فهل يستطيع أحد أن يستخلص من الذبابة ما أخذته؟

لا ، وكذلك نرى ضعف الاثنين : الطالب والمطلوب .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ الَر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ [2] حَكِيمٍ خَبِيرٍ (١) ﴾ [هود]

فالإحكام [3] لا يتناقض مع التفصيل ؛ لأن الحق سبحانه هو الذى

---

(١) الطالب : اسم فاعل . والمطلوب : اسم مفعول . أى : ضعف الإنسان الطالب ، وضعف الذباب المطلوب [القاموس القويم] قال ابن عباس : الطالب الصنم ، والمطلوب الذباب . وقال السدى وغيره : الطالب العابد والمطلوب الصنم . [لسان العرب - مادة : طلب] .

(٢) لدن : ظرف مكان أو زمان بمعنى (عند) مبنى على السكون وإذا أضيف إلى ياء المتكلم فصلت بينهما نون الوقائية وأدغمت فى نونها مثل قوله : ﴿ .. قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا (٧٦) ﴾ [الكهف] وجاءت مضافة إلى ضمير المخاطب مثل : ﴿ وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً .. (٨) ﴾ [آل عمران] وإلى ضمير المتكلمين «نا» . قال تعالى : ﴿ ..وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا (٦٥) ﴾ [الكهف] . وتضاف إلى ضمير الغائب كقوله : ﴿ لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ ..(٢) ﴾ [الكهف] [القاموس القويم] .

(٣) الإحكام والحكمة فى الشىء قدرة تحمل أسرار فيها حكمة الخلق والإبداع ، والتفصيل الوزن وإقامة العدل ، فالإحكام أساس ، والتفصيل بناء ، وهما متلازمان تلازم الحكم مع خبرة الإطلاق .

أحكم ، وهو سبحانه الذى فصَّل ، وهو سبحانه حكيم بما يناسب الإحكام ، وهو سبحانه خبير بما يناسب التفصيل ، بطلاقة غير متناهية .

وهو سبحانه حكيم يخلق الشيء مُحْكماً لا يتطرق إليه فساد ، وهو سبحانه خبير عنده علم بخفايا الأمور.

ويقول الحق سبحانه وتعالى فى آية أخرى :

﴿ لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ [1] الْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [الأنعام]

فالله سبحانه لا تدركه عين ، وعينه - سبحانه وتعالى - لا تغفل عن أدق شيء وأخفى نية .

إذن : فقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ الَر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ ﴾ [هود]

يبيِّن لنا أن القرآن كلام الله القدير الذى بُنى على الإحكام ، ونزل مُحْكماً جملة واحدة ، ثم جاءت الأحداث المناسبة لينزل من السماء الدنيا نجوماً مفصلة تناسب كل حدث .

وإحكام الكتاب ثم تفصيله له غاية ، هى الغاية من المنهج كله ، ويبيِّنها الحق سبحانه فى الآية التالية :

﴿ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ ﴾

إذن : فقد أحكمت آيات الكتاب وفصِّلت لغاية هى : ألا نعبد إلا الله .

والعبادة هى طاعة العابد للمعبود فيما أمر ، وفيما نهى .

---

(١) اللطيف : صفة من صفات الله واسم من أسمائه ، ومعناه : الرفيق بعباده . قال ابن الأثير : اللطيف هو الذى اجتمع له الرفق فى الفعل والعلم بدقائق المصالح وإيصالها إلى من قدرها له من خلقه . [اللسان مادة : لطف] .

وهكذا نجد أن العبادة تقتضى وجود معبود له أمر وله نهى ، والمعبود الذى لا أمر له ولا نهى لا يستحق العبادة ، فهل مَنْ عَبَدَ الصنم تلقَّى منه أمراً أو نهياً ؟

وهل مَنْ عَبَدَ الشمس تلقَّى منها أمراً أو نهياً ؟

إذن : فكلمة العبادة لكل ما هو غير الله هى عبادة باطلة ؛ لأن مثل تلك المعبودات لا أمر لها ولا نهى ، وفوق ذلك لا جزاء عندها على العمل الموافق لها أو المخالف لها .

والعبادة بدون منهج «افعل» و«لا تفعل» لا وجود لها ، وعبادة لا جزاء عليها ليست عبادة .

وهنا يجب أن نلحظ أن قول الحق سبحانه :

﴿ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ .. (٢) ﴾ [هود]

غير قوله سبحانه :

﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ .. (٧٢) ﴾ [المائدة]

ولو أن الرسل تأتى الناس وهم غير ملتفتين إلى قوة يعبدونها ويقدسونها لكان على الرسل أن يقولوا للناس : ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ .. (٥٩) ﴾ [الأعراف]

ولكن هنا يقول الحق سبحانه : ﴿ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ .. (٢) ﴾ [هود]

فكأنه سبحانه يواجه قوماً لهم عبادة متوجهة إلى غير من يستحق العبادة ؛ فيريد سبحانه أولاً أن يُنهى هذه المسألة ، ثم يثبت العبادة لله .

إذن : فهنا نفى وإثبات ، مثل قولنا : «أشهد ألا إله إلا الله » ، هنا ننفى أولاً أن هناك إلهاً غير الله ، ونثبت الألوهية لله سبحانه .

وأنت لا تشهد هذه الشهادة إلا إذا وُجِد قوم يشهدون أن هناك إلهاً غير

الله تعالى ، ولو كانوا يشهدون بألوهية الإله الواحد الأحد سبحانه ؛ لكان الذهن خالياً من ضرورة أن نقول هذه الشهادة [١] .

ولكن قول الحق سبحانه : ﴿ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ .. ۝٢ ﴾ [هود]

معناه النفى أولاً للباطل ، وإذا نُفى الباطل لا بد أن يأتى إثبات الحق ، حتى يكون كل شيء قائماً على أساسَ سليم .

ولذلك يقال : «درء [٢] المفسدة مقدَّم دائماً على جلب المنفعة» فالبداية ألا تعبد الأصنام ، ثم وجِّه العبادة إلى الله سبحانه .

وما دامت العبادة هى طاعة الأمر ، وطاعة النهى ، فهى - إذن - تشمل كل ما ورد فيه أمر ، وكل ما ورد فيه نهى .

وإنْ نظرت إلى الأوامر والنواهى لوجدتها تستوعب كل أقضية الحياة من قمة الشهادة بأن لا إله إلا الله ، إلى إماطة [٣] الأذى عن الطريق [٤] .

وكل حركة تتطلبها الحياة لإبقاء الصالح على صلاحه أو زيادة الصالح ليكون أصلح ، فهذه عبادة .

---

(١) لأن الشهادة تكون فى قضية وعلى قضية ، فالذى يشهد أن لا إله إلا الله : فقد نفى الألوهية لغير الله ، وأثبتها له ؛ لأن المقام يقتضى ذلك ، فهذا إحكام فى المبنى والمعنى ، فقوله تعالى : ﴿ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ .. ۝٢ ﴾ [هود] فقد قصر العبادة لله ، أما الشهادة على القضية فالكون بما فيه ومن فيه يثبت ألوهية الواحد الأحد الفرد الصمد ، الذى بيده الملك ، وهو على كل شيء قدير .

(٢) درء : دفع وإبعاد . قال تعالى : ﴿ وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ .. ۝٨ ﴾ [النور] أى : ويدفع عنها عذاب الحد أن تشهد هذه الشهادات ، وبقية الحكم فى سورة النور فى الآيتين رقمى (٨ ، ٩) . [القاموس القويم].

(٣) إماطة الأذى عن الطريق : تنحيته وإبعاده عن طريق الناس حتى لا يؤذيهم . والأذى قد يكون أحجاراً أو أى شيء قد يؤذى الناس ويعوق سيرهم فى الطريق .

(٤) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : «الإيمان بضع وسبعون - أو بضع وستون شعبة - فأفضلها قول لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان» . أخرجه مسلم فى صحيحه (٣٥) كتاب الإيمان ، وكذا أخرجه البخارى فى صحيحه (٩) دون : أفضلها ، وأدناها .

إذن: فالإسلام لا يعرف ما يقال عنه «أعمال دنيئة» ، و«أعمال شريفة» ، ولكنه يعرف أن هناك عاملاً دنيئاً وعاملاً شريفاً.

وكل عامل يعمل عملاً تتطلبه الحياة بقاء للصالح أو ترقية لصلاحه وعدم الإفساد ، فهذا عامل شريف ؛ وقيمة كل امرىء فيما يحسنه.

وهكذا نجد أن كلمة العبادة تستوعب كل أقضية الحياة ؛ لأن هناك أمراً بما يجب أن يكون، وهناك نهياً عما يجب ألا يكون، وما لم يرد فيه نهى لك الخيار فى أن تفعله أو لا تفعله، فإذا نظرت إلى نسبة ما تؤمر به، ونظرت إلى ما تُنهى عنه بالنسبة لأعمال الحياة، لوجدت أنها نسبة لا تتجاوز خمسة فى المائة من كل أعمال الحياة، ولكنها الأساس الذى تقوم عليه كل أوجه الحياة.

ولذلك قال رسول الله ﷺ : « بُنى الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وحج البيت وصوم رمضان »[1].

وأعداء الإسلام يحاولون أن يحددوا الدين فى هذه الأركان الخمسة ، ولكن هذه الأركان هى الأعمدة التى تقوم عليها عمارة الإسلام.

وأركان الإسلام هى إعلان استدامة الولاء لله تعالى ، وكل أمر من أمور الحياة هو مطلوب للدين ؛ لأنه يصلح الحياة.

وهكذا نجد أن العلم بالدين ضرورة لكل إنسان على الأرض ، أما العلوم الأخرى فهى مطلوبة لمن يتخصص فيها ويرتقى بها ليفيد الناس كلهم ، وكلما كان المتفوق من المسلمين كان ذلك تدعيماً لرفعة الإسلام.

إذن: فالقاسم المشترك فى الحياة هو العلم بالدين ، ولكن يجب أن نفهم هذه القضية على قدرها ، فلا يأتى إنسان لا يعرف صحيح الدين ليتكلم

---

(١) متفق عليه. أخرجه البخارى فى صحيحه (٨) ، ومسلم (١٦) من حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنهما.

والعَوْل [١] ، والرد [٢] ؛ لأن المسلم قد تمر حياته كلها ولا يحتاج رأياً فى قضية التوريث ، أو أن يتعرف على المستحقين للميراث وأنصبتهم ، وغير ذلك .

وإن تعرَّض المسلم لقضية مثل هذه ، نقول له : أنت إذا تعرضت لقضية مثل هذه فاذهب إلى المختصين بهذا العلم ، وهم أهل الفقه والفتوى ، لأنك حين تتعرض لقضية صحية تذهب إلى الطبيب ، وحين تتعرض إلى قضية هندسية تذهب إلى المهندس ، وإن تعرضت لعملية محاسبية تذهب إلى المحاسب ، فإن تعرضت إلى أى أمر دينى ، فأنت تسأل عنه أهل الذكر [٣] .

وأنت إذا نظرت إلى العبادة ، تجد أنها تتطلب كل حركة فى الحياة ، وسبق أن ضربت لذلك مثلاً وقلت : هَبْ أن إنساناً يصلى ، ولا يفعل شيئاً فى الحياة غير الصلاة ، فمن أين له أن يشترى ثوباً يستر به عورته ما دام لا يعمل عملاً آخر غير الصلاة ، وهو إن أراد أن يشترى ثوباً ، فلا بد له من عمل يأخذ مقابله أجراً ، ويشترى الثوب من تاجر التجزئة ، الذى اشترى الأثواب من تاجر الجملة ، وتاجر الجملة اشتراها من المصنع ،

---

(١) العول فى اللغة : الارتفاع . وعند الفقهاء : زيادة فى سهام ذوى الفروض ، ونقصان من مقادير أنصبتهم فى الإرث . وهى مسألة تظهر عند حساب الأنصبة ، فيضطر مقسم التركة إلى الزيادة فى جانب والنقصان فى جانب .

(٢) الرد : أى : رد ما فضل من التركة إلى أصحاب الفروض بنسبة فروضهم ، عند عدم استحقاق الغير ، ويتحقق ذلك بأركان ثلاثة :
١- وجود صاحب الفرض .
٢- بقاء فائض من التركة .
٣- عدم العاصب .
راجع تفصيلات هذه المسائل وتطبيقاتها فى كتاب (فقه السنة) للشيخ سيد سابق ، وغيره من كتب الفقه .

(٣) يقول رب العزة سبحانه وتعالى : ﴿ .. فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ۝٧ ﴾ [الأنبياء] .

في الدين ؛ لأن العلم بالدين يقتضى اللجوء إلى أهل الذكر .

فإن قيل : الدين للجميع ، نقول : صدقت بمعنى التدين للجميع ، أما العلم بالدين فله الدراسة المتفقهة [(١)] .

وأهل الذكر أيضاً في العلوم الأخرى يقضون السنوات لتنمية دراساتهم ، كما في الطب أو الهندسة أو غيرهما ، وكذلك الأعمال المهنية تأخذ من الذي يتخصص فيها وقتاً وتتطلب جهداً ، فما بالنا بالذى يُصلح أسس إقامة الناس في الحياة ، وهو التفقه في الدين .

لذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ .. فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (١٢٢) ﴾ [التوبة]

فنحن لا نطلب من كل مسلم - مثلاً - أن يدرس المواريث ليعرف العَصَبة [(٢)] وأصحاب الفروض [(٣)] ، وأولى الأرحام [(٤)] ،

---

(١) الفقه : الفهم ، وفقه يفقه فهو فقيه : صار عالماً فاهماً . والفقه في الاصطلاح : علم أحكام العبادات والمعاملات وهو فرع من فروع المعارف الدينية . قال تعالى : ﴿ .. فَمَالِ هَـٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا (٧٨) ﴾ [النساء] . وقال تعالى : ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ .. (١٢٢) ﴾ [التوبة] أي : ليدرسوا أحكام الدين وليتعلموها . [القاموس القويم - بتصرف] .

(٢) العصبة : هم بنو الرجل وقرابته لأبيه . والمقصود بهم في المواريث الذين يصرف لهم باقى التركة بعد أن يأخذ أصحاب الفروض أنصباءهم المقدرة لهم . وأمثلتهم الأخ والعم ، والأب إذا بقى شىء بعد تقسيم التركة يأخذه بالتعصيب بجانب الفرض الذى فرضه الله له .

(٣) أصحاب الفروض هم الذين لهم فرض - أى : نصيب - وهم اثنا عشر : أربعة من الذكور ، وهم : الأب والجد الصحيح وإن علا ، والأخ لأم ، والزوج . وثمان من الإناث ، وهن : الزوجة ، والبنت ، والأخت الشقيقة ، والأخت لأب ، والأخت لأم ، وبنت الابن ، والأم ، والجدة الصحيحة وإن علت ، ولكل منهم نصيب مقدر ذكره القرآن الكريم .

(٤) أولو الأرحام هم كل قريب ليس بذى فرض ولا عصبة . ذهب مالك والشافعى إلى عدم توريثهم ، ويكون المال لبيت المال ، وذهب أبو حنيفة وأحمد إلى توريثهم ، في حالة عدم وجود أصحاب الفروض والعصبات .

والمصنع قام بتفصيل الثياب بعد أن نسجها مصنع آخر ، والمصنع الآخر نسج الثياب من غزل القطن أو الصوف. والقطن جاء من الزراعة ، والصوف جاء من جز [1] شعر الأغنام.

وهكذا تجد أن مجرد الوقوف أمام خالقك لتصلى يقتضى أن تكون مستور العورة فى صلاتك ، هذا الستر يتطلب منك أن تتفاعل مع الحياة بالعمل .

وانظر لنفسك واسألها: ماذا أفطرتَ اليوم ؟

وأقلُّ إجابة هى: أفطرت برغيف وقليل من الملح ، وستجد أنك اشتريت الرغيف من البقال ، وجاء البقال بالرغيف من المخبز ، والمخبز جاء بالدقيق من المطحن، والمطحن أنتج الدقيق بعد طحن الغلال التى جاءت من الحقل . وكذلك تمت صناعة آلات الطحن فى مصانع أخرى قد تكون أجنبية.

وهكذا تمت صناعة الرغيف بسلسلة هائلة من العمليات ، فهناك الفلاح الذى حرث ، وهناك مصمم آلة الطحن الذى درس الهندسة ، وهناك عالم « الچيولوچيا » الذى درس طبقات الأرض ليستخرج الحديد الخام من باطنها ، وهناك مصنع الحديد الذى صهر الحديد الخام ؛ ليستخلص منه الحديد النقى الصالح للتصنيع.

وهكذا تجد أن كل حركة فى الحياة قد خدمت قضية دينك ، وخدمت وقوفك أمام خالقك لتصلى ، فلا تقل: «سأنقطع للعبادة» بمعنى أن تقصر حياتك على الصلاة فقط ، لأن كل حركة تصلح فى الحياة هى عبادة ، وإن أردت ألا تعمل فى الحياة ، فلا تنتفع بحركة عامل فى الحياة. وإذا لم تنتفع بحركة أى عامل فى الحياة ، فلن تقدر أن تصلى ، ولن تقدر أن يكون لك قوة لتصلى.

---

(١) جز الشعر والصوف: قطعه.

إذن: فالعبادة هى كل حركة تتطلبها الحياة فى ضوء «افعل» و «لا تفعل» [١].

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ [٢] وَبَشِيرٌ [٣] ﴿٢﴾ ﴾ [هود]

والنذير [٤]: هو من يُخبر بشرٍّ زمنه لم يجىء، لتكون هناك فرصة لتلافى العمل الذى يُوقع فى الشر، والبشير هو من يبشِّر بخير سيأتى إن سلك الإنسان الطريق إلى ذلك الخير.

إذن: الإنذار والبشارة هى أخبار تتعلق بأمر لم يجىء.

وفى الإنذار تخويف ونوع من التعليم، وأنت حين تريد أن تجعل ابنك مُجداً فى دراسته؛ تقول له: إن لم تذاكر فسوف تكون كابن فلانٍ الذى أصبح صعلوكاً تافهاً فى الحياة.

(١) افعل: أمر من الآمر وهو الله. ولا تفعل: نهى من الله. والأمر يعطى الفرض والسنة والمستحب. والنهى يعطى الحرام، والمكروه المسكوت عنه مباح، هذا هو التكليف الشرعى، وهو مبدأ الاختيار، وهذا التكليف الشرعى يندرج تحته الأمر بفعل الخير، سواء كان تعبدياً أو معاشياً، ومن هنا تعتدل موازين العدل الاجتماعى.

(٢) النذير: الذى ينذر الكافرين والمشركين والعصاة بعذاب الله. وقال تعالى: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ..﴿١١٩﴾ ﴾ [البقرة] وقال تعالى: ﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ..﴿٢١٣﴾ ﴾ [البقرة].

(٣) البشير: الذى يبشر القوم بالخبر السار، وهو هنا بمعنى الرسول الذى يبشر المؤمنين بثواب الله وجنته ونعيمه جزاءً على إيمانهم وعبادتهم. قال تعالى: ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ ﴾ [مريم]. أى: قوماً شديدى الخصومة. وقال تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ ..﴿٢٥﴾ ﴾ [البقرة]. [القاموس القويم - بتصرف].

(٤) النذير: الإنذار والمنذر، وجمعه نذر. قال تعالى: ﴿ مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ .. ﴿١٩﴾ ﴾ [المائدة] والنذير هنا: هو الرسول المنذر بالعذاب، وقوله: ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ ﴾ [القمر] يحتمل إنذاراتى، ويحتمل نتائج إنذاراتى، أى عقوباتى التى أنذروا بها، وحذفت ياء المتكلم تخفيفاً. راجع القاموس القويم صـ ٢٥٨، ٢٥٩ جـ ٢

إذن: فأنت تنذر ابنك ؛ ليتلافى من الآن العمل الذى يؤدى به إلى الفشل الدراسى.

وكذلك يبشر الإنسان ابنه أو أى إنسان آخر بالخير الذى ينتظره حين يسلك الطريق القويم.

إذن: فالعبادة هى كل حركة من حركات الحياة ما دام الإنسان مُتَّبعاً ما جاء بالمنهج الحق فى ضوء «افعل» و «لا تفعل» ، وما لم يرد فيه «افعل» و «لا تفعل» فهو مباح.

وعلى الإنسان المسلم أن يُبصِّر نفسه ، ومن حوله بأن تنفيذ أى فعل فى ضوء «افعل» هو العمل المباح ، وأن يمتنع عن أى فعل فى ضوء «لا تفعل» ما دام الحق سبحانه وتعالى قد نهى عن مثل هذا الفعل ، وعلى المسلم تحرِّى الدقة فى مدلول كل سلوك.

ونحن نعلم أن التكليفات الإيمانية قد تكون شاقة على النفس ، ومن اللازم أن نبيِّن للإنسان أن المشقة على النفس ستأتى له بخير كبير.

ومثال ذلك: حين نجد الفلاح وهو يحمل السماد العضوى من حظيرة البهائم ؛ ليضعه على ظهر الحمار ويذهب به إلى الحقل ؛ ليخلطه بالتربة ، وهو يعمل هذا العمل بما فيه من مشقة انتظاراً ليوم الحصاد.

ويبيِّن الحق - سبحانه وتعالى - هنا على لسان رسوله أن الأمر بعدم عبادة أى كائن غير الله ، هو أمر من الله سبحانه ، وأن الرسول ﷺ هو نذير وبشير من الله.

وقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ .. ﴿٢﴾ ﴾ [هود]

فيه نفى لعبادة غير الله ، وإثبات لعبودية الله تعالى.

وهذا يتوافق ويتسق مع الإنذار والبشارة [١] ؛ لأن عبادة غير الله تقتضى نذيراً ، وعبادة الله فى الإسلام تقتضى بشيراً.

ولأن الحق سبحانه وتعالى هو خالق الإنسان ويعلم ضعف الإنسان ، ومعنى هذا الضعف أنه قد يستولى عليه النفع العاجل ، فيُذهبه عن خير آجلٍ أطول منه ، فيقع فى بعض من غفلات النفس.

لذلك بيَّن الحق سبحانه أن من وقع فى بعض غفلات النفس عليه أن يستغفر الله ؛ لأن الله سبحانه وتعالى لا يبخل برحمته على أحد من خلقه.

وإن طلب العبد المذنب مغفرة الله ، فسبحانه قد شرَّع التوبة ، وهى الرجوع عن المعصية إلى طاعة الله تعالى.

ولا يقع عبد فى معصية إلا لأنه تأبَّى على منهج ربه ، فإذا ما تاب واستغفر ، فهو يعود إلى منهج الله سبحانه ، ويعمل على ألا يقع فى ذنب جديد.

وهنا يقول الحق سبحانه:

﴿ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا [٢] حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ ﴾

---

(١) البشرى والبشارة : ما يُعطى للمبشر بالخير السَّار . والبشير الذى يبشر القوم بالأخبار المحبوبة ، والرسول بشير ؛ لأنه يبشر المؤمنين بالجنة وبثواب الله . يقول الحق : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ ﴾ [الفتح] ، ويقول الحق : ﴿ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ ﴾ [الأحزاب] القاموس القويم باختصار .

(٢) المتاع : يطلق على الكثير والقليل باعتباره مصدراً ، ويُجمع على أمتعة باعتبار ما يُنتفع به وما يُتمتع به. قال تعالى : ﴿ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ .. ﴿١٧﴾ ﴾ [الرعد] أى : وصنع أشياء يُنتفع بها . وقوله تعالى : ﴿ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [الزخرف] . أى : أطلت مدة انتفاعهم بالحياة ونعمها ، ومتَعه ومتَّعه بمعنى واحد . وقال تعالى : ﴿ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [الواقعة] أى : متاعاً للمسافرين التاركين ديارهم خاوية . أو متاعاً للجائعين . (انظر : ابن كثير ٤/ ٢٩٧).

وهكذا يبيِّن الحق سبحانه أن على العبد أن يستغفر من ذنوبه السابقة التى وقع فيها ، وأن يتوب من الآن ، وأن يرجع إلى منهج الله تعالى ، لينال الفضل من الحق سبحانه.

المطلوب - إذن - من العبد أن يستغفر الله تعالى ، وأن يتوب إليه.

هذا هو مطلوب الله من العاصى ؛ لأن درء [1] المفسدة مقدَّم على جلب [2] المصلحة ، وحين يعجل العبد بالتوبة إلى الله تعالى فهو يعلم أن ذنباً قد وقع وتحقق منه ، وعليه ألا يؤجل التوبة إلى زمنٍ قادم ؛ لأنه لا يعلم إن كان سيبقى حياً أم لا.

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ..(٣) ﴾ [هود]

والحق سبحانه يُجمل قضية اتباع منهجه فى قوله تعالى :

﴿ ..فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَاىَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ (١٢٣) ﴾ [طه]

وقال فى موضع آخر:

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ..(٩٧) ﴾ [النحل]

فالحياة الطيبة فى الدنيا وعدم الضلال والشقاء متحققان لمن اتبع منهج الله تعالى.

---

(١) الدرء : الدفع والإبعاد.

(٢) الجَلْب : سَوْق الشىء من موضع إلى آخر. وجَلَب الشىء : طلبه وكسبه. [لسان العرب : مادة (ج ل ب)].

وظن بعض العلماء أن هذا القول يناقض فى ظاهره قول النبى ﷺ بأن «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»[(١)] . و«إن أشد الناس بلاءً الأنبياء ، ثم الصالحون ، ثم الأمثل[(٢)] فالأمثل »[(٣)] .

وقال بعض العلماء : فكيف نقول : ﴿ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا . . (٣) ﴾ [هود]

هنا نقول : ما معنى المتاع ؟

المتاع : هو ما تستمتع به وتستقبله بسرور وانبساط .

ويعلم المؤمن أن كل مصيبة فى الدنيا إنما يجزيه الله عليها حسن الجزاء ، ويستقبل هذا المؤمن قضاء الله تعالى بنفس راضية ؛ لأن ما يصيبه قد كتبه الله عليه ، وسوف يوافيه بما هو خير منه .

وهناك بعض من المؤمنين قد يطلبون زيادة الابتلاء .

إذن : فالمؤمن كل أمره خير ؛ وإياك أن تنظر إلى من أصابته الحياة بأية مصيبة على أنه مصاب حقاً ؛ لأن المصاب حقاً هو من حُرِم من الثواب .

ونحن نجد فى القرآن قصة العبد الصالح الذى قتل غلاماً كان أبواه

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٩٥٦) وابن ماجه فى سننه (٤١١٣) من حديث أبى هريرة . قال النووى فى شرح مسلم (١٨/ ٣٠٥) : «معناه : أن كل مؤمن مسجون ممنوع فى الدنيا من الشهوات المحرمة والمكروهة مكلف بفعل الطاعات الشاقة ، فإذا مات استراح من هذا ، وانقلب إلى ما أعد الله تعالى له من النعيم الدائم والراحة الخالصة من النقصان . وأما الكافر فإنما له من ذلك ما حصل فى الدنيا مع قلته وتكديره بالمنغصات ، فإذا مات صار إلى العذاب الدائم وشقاء الأبد» .

(٢) الأمثل فالأمثل : أى الأشرف فالأشرف ، والأعلى فالأعلى فى الرتبة والمنزلة . يقال : هذا أمثل من هذا ، أى : أفضل وأدنى إلى الخير . وأماثل الناس : خيارهم . [لسان العرب - مادة : مثل] .

(٣) أخرجه أحمد فى مسنده (١/ ١٧٢) والترمذى فى سننه (٢٣٩٨) وابن ماجه (٤٠٢٣) من حديث سعد ابن أبى وقاص . قال الترمذى : حديث حسن صحيح . وتمام الحديث : «ويُبتلى الرجل على حسب دينه ، وما زال البلاء بالعبد حتى يمشى على الأرض ، ليس عليه خطيئة» .

مؤمنين ، فخشى العبد الصالح أن يرهقهما طغياناً وكفراً ، فهذا الولد كان فتنة ، ولعله كان سيدفع أبويه إلى كل محرم ، ويأتى لهما بالشقاء[(١)] .

إذن: فالمؤمن الحق هو الذى يستحضر ثواب المصيبة لحظة وقوعها.

ومنَّا من قرأ قصة المؤمن الصالح الذى سار فى الطريق من المدينة إلى دمشق ، فأصيبت رِجْله بجرح وتلوث هذا الجرح ، وامتلأ بالصديد مما يقال عنه فى الاصطلاَح الحديث «غرغرينة» وقرر الأطباء أن تُقطع رجله ، وحاولوا أن يعطوه «مُرَقِّداً» أى: مادة تُخدِّره ، وتغيب به عن الوعى ؛ ليتحمل ألم بتر الساق ، فرفض العبد الصالح وقال:

إنى لا أحب أن أغفل عن ربى طرفة عين.

ومثل هذا العبد يعطيه الله سبحانه وتعالى طاقة على تحمُّل الألم ؛ لأنه يستحضر دائماً وجوده فى معية الله ، ومفاضٌ عليه من قدرة الله وقوته سبحانه.

وحينما قطع الأطباء رجله ، وأرادوا أن يكفنوها وأن يدفنوها ، فطلب أن يراها قبل أن يفعلوا ذلك ، وأمسكها ليقول: اللهم إن كنت قد ابتليت فى عضو ، فإنى قد عوفيت فى أعضاء.

إذن: فصاحب المصيبة حين يستحضر الجزاء عليها ، إنما يحيا فى متعة ،

---

(١) يقول رب العزة سبحانه فى سورة الكهف عن موسى عليه السلام والعبد الصالح الذى صحبه موسى ليتعلم منه: ﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ ﴾ [الكهف]. ويقول سبحانه على لسان العبد الصالح: ﴿ .. سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا الْغُلامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ ﴾ [الكهف].

ولذلك لا تتعجب حين يحمد أناس خالقهم على المصائب ؛ لأن الحمد يكون على النعمة ، والمصيبة [١] قد تأتى للإنسان بنعمة أوسع مما أفقدته.

ولذلك نجد اثنين من العارفين بالله وقد أراد أن يتعالم كل منهما على الآخر ؛ فقال واحد منهما :

كيف حالكم فى بلادكم أيها الفقراء ؟

- والمقصود بالفقراء هم العُبَّاد الزاهدون ويعطون أغلب الوقت لعبادة الله تعالى - فقال العبد الثانى :

حالنا فى بلادنا إنْ أعطينا شكرنا ، وإنْ حُرمنا صبرنا .

فضحك العبد الأول وقال :

هذا حال الكلاب فى «بلخ» [٢] أى : أن الكلب إن أعطيته يهز ذيله ، وإن منعه أحد فهو يصبر .

وسأل العبد الثانى العبد الأول :

وكيف حالكم أنتم ؟

فقال : نحن إن أعطينا آثرنا [٣] ، وإن حُرِمنا شكرنا .

إذن : فكل مؤمن يعيش فى منهج الله سبحانه وتعالى فهو يستحضر فى كل أمر مؤلم وفى كل أمر متعب ، أن له جزاءً على ما ناله من التعب ؛ ثواباً عظيماً خالداً من الله سبحانه وتعالى .

---

(١) قال الشيخ : « ذل البلاء خير من عزة النعماء »
(٢) بلخ : مدينة من مدن خراسان من بلاد ما وراء النهر .
(٣) أى : إن نالنا العطاء فإننا نؤثر غيرنا به . أى : نفضلهم على أنفسنا .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا ..(٣)﴾ [هود]

والحسن هنا له مقاييس ، يُقاس بها اعتبار الغاية ؛ فحين تضم الغاية إلى الفعل تعرف معنى الحسن .

ومثال ذلك : هو التلميذ الذى لا يترك كتبه ، بل حين يأتى وقت الطعام ، فهو يأكل وعيناه لا تفارقان الكتاب .

هذا التلميذ يستحضر متعة النجاح وحُسْنه ونعيم التفوق ، وهو تلميذ يشعر بالغاية وقت أداء الفعل .

ويقول الحق سبحانه فى نفس الآية :

﴿ وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُ .. (٣)﴾ [هود]

أى : يؤتى كل ذى فضل مجزول[1] لمن لا فضل له ، فكأن الحق سبحانه ينمِّى الفضل للعبد .

ومثال ذلك : الفلاح الذى يأخذ من مخزن غلاله إردباً من القمح ليبذره فى الأرض ؛ ليزيده الله سبحانه وتعالى بزراعة هذا الإردب ، ويصبح الناتج خمسة عشر إردباً .

والفضل هو الأجر الزائد عن مساويه ، فمثلاً هناك فضل المال قد يكون عندك ، أى : زائد عن حاجتك ، وغيرك لا يملك مالاً يكفيه ، فإن تفضلت ببعض من الزائد عندك ، وأعطيته لمن لا مال عنده فأنت تستثمر هذا العطاء عند الله سبحانه وتعالى .

والحق سبحانه وتعالى قد يعطيك قوة ، فتعطى ما يزيد منها لعبد ضعيف .

---

(١) الجزل : الكثير العظيم من كل شيء ، والجزل الكريم المعطاء [المعجم الوسيط : مادة (ج ز ل)] .

وقد يكون الحق سبحانه قد أسبغ [١] عليك فضلاً من الحلم ، فتعطى منه لمن أصابه السفه وضيق الخلق.

إذن: فكل ما يوجد عند الإنسان من خصلة طيبة ليست عند غيره من الناس ، ويفيضها عليهم ، فهى تزيد عنده لأنها تربو [٢] عند الله ، وإن لم يُفضْها على الغير فهى تنقص.

ولذلك يقول الحق سبحانه:

﴿ وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ [٣] (٣٩) ﴾ [الروم]

ويقول الحق سبحانه وتعالى فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها:

﴿ وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ..(٣) ﴾ [هود]

وبعض من أهل المعرفة يفهم هذا القول الكريم بأن الإنسان الذى يفيض على غيره مما آتاه الله ، يعطيه الحق سبحانه بالزيادة ما يعوضه عن الذى نقص ، أو أنه سبحانه وتعالى يعطى كل صاحب فضلٍ فضل ربه ، وفضل الله تعالى فوق كل فضل.

---

(١) أسبغ: أنعم وأجزل العطاء. وسبوغ الشيء: تمامه واتساعه. [المعجم الوسيط: مادة (س ب غ) بتصرف]. وقال تعالى: ﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ..(٢٠) ﴾ [لقمان].

(٢) ربا الشيء، يربو: زاد ونما. وأربيته: نميته.

(٣) أضعف الرجل: نما ماله وزاد واتسع ، فصار أضعافاً. واسم الفاعل مُضعف: ﴿ .. فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ (٣٩) ﴾ [الروم] أى: الذين يأخذون ثواب أعمالهم أضعافاً مضاعفة. قال ابن كثير فى تفسير هذه الآية (٣/ ٤٣٤): «أى: من أعطى عطية يريد أن يرد عليه الناس أكثر مما أهدى لهم، فهذا لا ثواب له عند الله. بهذا فسره ابن عباس ومجاهد والضحاك وقتادة وعكرمة ومحمد بن كعب القرظى والشعبى، وهذا الصنيع مباح وإن كان لا ثواب فيه، إلا أنه قد نُهى عنه رسول الله ﷺ خاصة، قاله الضحاك واستدل بقوله تعالى: ﴿ وَلا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ (٦) ﴾ [المدثر]. أى: لا تعط العطاء تريد أكثر منه. وقال ابن عباس: الربا رباءان: فربا لا يصح ، يعنى: ربا البيع ، وربا لا بأس به ، وهو هدية الرجل يريد فضلها وأضعافها ثم تلا هذه الآية﴿ وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ .. (٣٩) ﴾ [الروم] وإنما الثواب عند الله فى الزكاة.

ثم يقول الحق سبحانه:

﴿ ..وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ ﴾ [هود]

فإن أعرضوا عنك فأبلغهم أنك تخاف عليهم من عذاب اليوم الآخر ، ويُوصف العذاب مرة بأنه كبير ، ويوصف مرة بأنه عظيم ، ويوصف مرة بأنه مهين ؛ لأنه عذاب لا ينتهى ويتنوع حسب ما يناسب المعذب ، فضلاً عن أن العذاب الذى يوجد فى دنيا الأغيار هو عذاب يجرى فى ظل المظنة بأنه سينقضى ، أما عذاب اليوم الآخر فهو لا ينقضى بالنسبة للمشركين بالله أبداً.

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾ ﴾

أى: إلى الله مرجعكم [1] فى الإيجاد والإمداد ، والبداية والنهاية ، وبداية النهاية التى لا انتهاء معها وهى الآخرة ، فيثيب المحسن على إحسانه ، ويعاقب المسىء على إساءته ، فيؤتى سبحانه لكل ذى عمل صالح فى الدنيا أجره ، وثوابه فى الآخرة.

ومن كثرت حسناته على سيئاته دخل الجنة ، ومن زادت سيئاته على حسناته دخل النار.

وفى الدنيا من زادت حسناته على سيئاته وعاش بين القبض والبسط.

والقبض والبسط هو إقبال على الله بتوبة وباعتراف بالذنب ، والإقرار بالذنب هو بداية التوبة.

---

(١) المرجع : الرجوع ، أو اسم زمان ، أو اسم مكان ، يقول الحق : ﴿ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ .. ﴿٥٥﴾ ﴾ [آل عمران] أى : رجوعكم ، أو زمن رجوعكم ، أو مكان الرجوع ، ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ .. ﴿٢٣﴾ ﴾ [يونس] .

ومن كثرت سيئاته على حسناته كان فى ضنك [١] العيش وقلق النفس .

ويؤتى الحق سبحانه كل ذى فضل فضله ، فمن عمل لله عز وجل ؛ وفقه الله فيما يستقبل على طاعته، والذين أعرضوا يُخاف عليهم من عذاب يوم كبير .

﴿ ..وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٤ ﴾ [هود]

لأنه سبحانه القادر على الإيجاد وعلى الإمداد ، وعلى البداية والنهاية المحدودة ، وبداية الخلود إما إلى جنة وإما إلى نار ، فهو القادر على كل شيء .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ [٢] لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ ۚ [٣] أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ [٤] يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ [٥] ۝٥ ﴾

---

(١) الضنك : ضيق العيش . ومنه قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا .. ۝١٢٤ ﴾ [طه] قال ابن كثير فى تفسيره (٣/ ١٦٨) : «فلا طمأنينة له ، ولا انشراح لصدره، بل صدره ضيق حرج لضلاله، وإن تنعم ظاهره ، ولبس ما شاء ، وأكل ما شاء ، وسكن حيث شاء ، فإن قلبه ما لم يخلص إلى اليقين والهدى فهو فى قلق وحيرة وشك ، فلا يزال فى ريبة يتردد ، فهذا من ضنك المعيشة» .

(٢) يثنون صدورهم : يطوونها على عداوة المسلمين ، ويُكنُّون لهم البغض والكراهية .

(٣) الاستخفاء : طلب الخفاء والاختفاء . ومن جهلهم يريدون الاستخفاء من الله تعالى ، وهو سبحانه لا يخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السماء . قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ۝٥ ﴾ [آل عمران] . وقال تعالى : ﴿ إِن تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ۝٥٤ ﴾ [الأحزاب] .

(٤) يستغشون ثيابهم : يتغطون بها مبالغة فى الاستخفاء . [كلمات القرآن] .

(٥) ذكر الواحدى فى «أسباب النزول» (ص ١٥٣) أن هذه الآية نزلت فى الأخنس بن شريق ، وكان رجلاً حلو الكلام حلو المنظر ، يلقى رسول الله ﷺ بما يحب ، ويطوى بقلبه ما يكره .
وقال الكلبى : كان يجالس النبى ﷺ يظهر له أمراً يسرُّه ، ويضمر فى قلبه خلاف ما يظهر .

وإذا وجدت «ألا» فى أول الكلام فأنت تعلم أنها للتنبيه ، ومعنى التنبيه أنه أمر يوقظ لك السامع إن كان غافلاً ؛ لأنك تحب ألا تفوته كلمة من الكلام الذى تقوله .

وحين تنبهه بغير أداء الأسلوب الذى تريده منه ، هنا يكون التنبيه قد أخذ حقه ، ومن بعد ذلك يجىء الكلام الذى تقوله ، وقد تهيَّأ ذهن السامع لاستقبال ما تقول .

فـ «ألا» - إذن - هى أداة تنبيه ؛ لأن الكلام ستار بين المتكلم والمخاطب ، والمخاطب لا يعرف الموضوع الذى ستكلمه فيه ، والمتكلم هو الذى يملك زمام الموقف ، وهو يهيئ ذهنه لترتيب ما يقول من كلمات ، أما المستمع فسوف يفاجأ بالموضوع ؛ وحتى لا يفاجأ ولا تضيع منه الفرصة ليلتقط كلمات المتكلم من أولها ، فهو ينبهه بأداة تنبيه ليستمع (١) .

ويقول الحق سبحانه هنا :

﴿ أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ .. (٥) ﴾ [هود]

ويقال : ثنيت الشىء أى : طويته ، وجعلته جزئين متصلين فوق بعضهما البعض .

وحين يثنى الإنسان صدره ، فهو يثنيه إلى الأمام ناحية بطنه ، ويدارى بذلك وجهه ، والغرض هنا من مداراة الوجه هو إخفاء الملامح ؛ لأن

---

(١) وردت ألا فى القرآن على أوجه :

الأول : التنبيه ، فتدل على تحقق ما بعدها ، وتدخل على الجملتين الاسمية والفعلية ، نحو ﴿ .. أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لاَّ يَعْلَمُونَ (١٣) ﴾ [البقرة] ، ﴿ أَلا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ ..(٨) ﴾ [هود] .

الثانى والثالث : التحضيض والعرض ، ومعناهما طلب الشىء ، لكن الأول طلب بحثٍّ ، والثانى طلب بلين ، وتختص فيهما بالدخول على الجملة الفعلية نحو : ﴿ أَلا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ .. (١٣) ﴾ [التوبة] ، ﴿ .. أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ (٢٢) ﴾ [النور] .

انفعال مواجيد[1] النفس البشرية ينضح على الوجوه .

وهم كارهون للرسول ﷺ ، وحاقدون عليه ؛ ولا يريدون أن يلحظ الرسول ﷺ ما على ملامحهم من انفعالات تفضح مواجيدهم الكارهة .

ومثل ذلك جاء من قوم نوح عليه السلام ، حين قال الحق سبحانه على لسان نوح :

﴿ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِى آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا[2] ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (٧) ﴾ [نوح]

ومن البداهة أن نعرف أن الإصبع لا تدخل كلها إلى الأذن ، إنما الأنملة[3] تسد فقط فتحة السمع ، وعدَّل القرآن الكريم ذلك بمبالغة تكشف موقف نوح - عليه السلام - ، فكل منهم أراد أن يُدخل إصبعه فى أذنه حتى لا يسمع أى دعوة ، وهذا دليل كراهية ، وهذهَ شهادة ضدهم ؛ لأنهم يفهمون أنهم لو سمعوا فقد تميل قلوبهم لما يقال .

ولذلك نجد القرآن الكريم وهو ينقل لنا ما قاله مشركو مكة لبعضهم البعض :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا[4] فِيهِ .. (٢٦) ﴾ [فصلت]

فكأنهم تواصوا بالتشويش على القرآن ، ثقة منهم فى أن القرآن

---

(١) مواجيد : مفرد موجدة . وقد وجد فلان وجداً : حزن أو غضب . والمراد : انفعالات النفس البشرية . [المعجم الوسيط : مادة (و ج د)] بتصرف .

(٢) استغشوا ثيابهم : تغطوا بها كى لا يروا نوحاً ولا يسمعوا كلامه . قاله ابن عباس . ذكره السيوطى فى (الدر المنثور) (٨/ ٢٨٩) طبعة دار الفكر .

(٣) الأنملة : عقدة الإصبع أو سلاماها . وهى أيضاً : المفصل الأعلى من الإصبع الذى فيه الظفر . والجمع : أنامل . [المعجم الوسيط مادة (ن م ل)] .

(٤) اللغو : ما لا يعتد به من كلام وغيره ، ولا يحصل منه على فائدة ولا نفع . [المعجم الوسيط] . والغوا فيه : ائتوا باللغو والباطل عند قراءته [كلمات القرآن] . قال ابن عباس : بالتصفير والتخليط على رسول الله ﷺ إذا قرأ القرآن . ذكره السيوطى فى الدر المنثور (٧/ ٣٢١) وعزاه لابن أبى حاتم .

لو تناهى [١] إلى الأذن فقد يؤثر فى نفسية السامع ؛ لأن النفس البشرية أغيار ، وقد تأتى للنفس ما يجعلها تميل دون أن يشعر صاحبها .

ولو كان هذا القرآن باطلاً ، فلماذا خافوا من سماعه ؟

ولكنه الغباء فى العناد والكفر .

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ .. (٥) ﴾ [هود]

وهم قد استغشوا ثيابهم ليغطوا وجوههم ؛ مداراة للانفعالات التى تحملها هذه الوجوه [٢] ، وهى انفعالات كراهية ، أو أنها قد تكون انفعالات أخرى ، فساعة يسمع واحد منهم القرآن قد ينفعل لما يسمع ، ولا يريد أن يُظهر الانفعال .

إذن : فالانفعال قد يكون قسرياً [٣] ، وكان كفار قريش رغم كيدهم وحربهم لرسول الله ﷺ ، يتسللون ناحية بيت النبى ﷺ ليسمعوا القرآن ، وكانوا يضبطون بعضهم البعض هنالك ، ويدّعى كل منهم أنه إنما مرّ على بيت النبى ﷺ مصادفة [٤] .

وفى ذلك يقول الشاعر :

---

(١) تناهى : بلغ ووصل . الإنهاء : الإبلاغ . أنهيت إليه الخبر : أبلغته له . (لسان العرب - مادة : نهى) .

(٢) قال قتادة : أخفى ما يكون العبد إذا حنى ظهره ، واستغشى ثوبه ، وأضمر فى نفسه همَّه . ذكره القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٣٢٤) .

(٣) قسرياً : أى خارجاً عن إرادة الإنسان .

(٤) وذلك أن أبا سفيان بن حرب ، وأبا جهل بن هشام ، والأخنس بن شريق خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ ، وهو يصلى من الليل فى بيته ، فأخذ كل رجل منهم مجلساً يستمع فيه ، وكل لا يعلم بمكان صاحبه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا . فجمعهم الطريق ، فتلاوموا . وقال بعضهم لبعض : لا تعودوا ، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم فى نفسه شيئاً ، ثم انصرفوا . حتى إذا كانت الليلة الثانية ، عاد كل رجل منهم إلى مجلسه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا . . وهكذا إلى ليلة ثالثة حتى قال بعضهم لبعض : لا نبرح حتى نتعاهد ألاّ نعود ، فتعاهدوا على ذلك ، ثم تفرقوا . (سيرة ابن هشام ١/ ٣١٥) .

اذكُروهُمْ وقد تسلَّل كلٌّ — بعدَ ما انفضَّ مجلسُ السُّمَّار[1]
اختلاساً يسْعَى لحجرة طَهَ — لسَماعِ التنزيلِ فى الأسْحَار[2]
عُذْرهم حُسْنُهُ فلمّا تَراءَوْا — عَلَّلوها ببَارز الأعْذَار

وجاء الحق سبحانه وتعالى هنا فى نفس الآية بـ «ألا» فى قوله:

﴿ ..أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝٥ ﴾ [هود]

فهم إن داروا على محمد ﷺ ، فهل هم قادرون على المداراة على رب محمد ؟ والذى لا يدركه بصر محمد فربُّ محمد سيُعلمه به .

وما دام الحق سبحانه يعلم ما يسرون ، فمن باب أولى أنه سبحانه وتعالى يعلم ما يعلنون .

والحق سبحانه وتعالى غيب ، وربما ظن ظان أنه قد يفلت منه شيء ، ولكن الحق سبحانه يُحصى ولا يُحصَى عليه ، فإن ظن ظان أن الحق سبحانه يعلم الغيب فقط ؛ لأنه غيب ، فهذا ظن خاطيء ؛ لأنه يعلم السر والعلن ، فهو عليم بذات الصدور ، وكلمة «عليم» صيغة مبالغة[3] ، وهى ذات فى كنهها العلم .

وقول الحق سبحانه :

﴿ .. عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ[4] ۝٥ ﴾ [هود]

---

(١) السمار : هم الناس يسمرون بالليل ، ويكون عادة فى ضوء القمر .
(٢) الأسحار : جمع سحر ، وهو الثلث الأخير من الليل إلى مطلع الفجر . قال تعالى : ﴿ وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝١٨ ﴾ [الذاريات] .
(٣) عليم : صيغة مبالغة من العلم ، أى : بالغ العلم لا حدَّ لعلمه سبحانه .
(٤) الصدر : مقدم كل شيء وأوله ، وصدر الإنسان معروف ، وبداخله أضلاعه وقلبه ورئتاه . وفى الصدر تظهر آثار الانفعال انقباضاً فى الحزن وانشراحاً فى السرور ، قال الحق سبحانه : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ ﴾ [الشرح] وقال : ﴿ ..إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝١١٩ ﴾ [آل عمران] أى : بالأسرار المصاحبة للصدور [القاموس القويم باختصار] .